

أفـسـاق المـعـرفـة "٣"

المثلية في الشعر العربي
الأدب الساخر
حرية الإنسان في الميزان
الايستمولوجيا الوضعية

المجلد الثالث عشر • العدد الأول • أبريل - مايو - يونيو ١٩٨٢



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina
رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
دكتور أحمد أبو زيد

ان-  عا
ان-  عا

المجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت ✽ ابريل - مايو - يونيو ١٩٨٢
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام -^١ الكويت : ص. ب ١٩٣

المحتويات

أفاق المعرفة (٣)

٢ بقلم مشعل التحرير

العهد



دراسات أدبية

المشقة « في الشعر العربي
الأدب التركي المعاصر
فراسا يوريتس

١١ الدكتور فاطمة محبوب
٨٧ الدكتور الزاوي الدائري
١١٧ الدكتور حسين النسيخ



فلسفة واجتماع

حرية الانسان في الميزان
الاستعماري والوضع عند اوجست كوست

١٥٣ **دكتور محمود زيدان**
٢٠٥ **دكتور محمد وقيلي**



علوم

الكيمياء ومشكلة الطاقة الحرة

٢٥٥ الدكتور محمد تقيان مع علم



صدر حدیثا

الحياة الممتدة
الفلاحون الفلسطينيون

٢١٢ shahzade.ajayib@gmail.com **مدرس وتحليل الدكتور محمد عصام لكري**

٢١٣ shahzade.ajayib@gmail.com **مدرس وتحليل الدكتور أحمد جمال طاهر**

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

جانب كبير من جهود علماء الانثربولوجيا الفيزيكية وأبحاثهم وكتاباتهم يدور حول أصل الانسان وتطوره ، والمراحل المختلفة التي مر بها ، والعلاقة بينه وبين الرئيسات الأخرى ، وبخاصة القردة العليا ، والخصائص التي تميزه عنها . ولغزلاء العلماء ولع شديد. باطلاق (تسميات) جديدة يصفون بها « إنسان » كل مرحلة من تلك المراحل ، بحيث تلخص التسمية أهم ملامح ذلك « الانسان » ومقوماته . ومعظم هذه التسميات مستمد من الخصائص الفيزيكية والملاح الجسمية كما هو الشأن مثلاً بالنسبة للانسان المنتصب القامة *Homo erectus* الذي يمثل - في رأي العلماء التطوريين - مرحلة الانتقال من القرديات *Pognoids* الى الأدميات *Homonoids* ولكن بعضها يشير الى الموقع الذي وجدت فيه أولى الحفريات التي تدل على وجود ذلك (الانسان) كما هو الحال بالنسبة لانسان جنوب افريقيا القرد *Australapithecus* الذي يذكر خطأ في كثير من الكتابات العربية تحت اسم (انسان استراليا) بينما يشير البعض الآخر الى إحدى المهارات او الملكات او القدرات التي يتمتع بها ذلك (الانسان) كما هو الأمر بالنسبة للانسان الصانع *Homo Faber* أو الانسان الماهر *Homo habilis* أو الانسان الحكيم العاقل *Homo sapiens* الذي ننتمي نحن اليه . وتتفاوت هذه الصفات والخصائص من حيث أهميتها في الدلالة على تميز الجنس البشري

أفاق المعرفة (٣)

بوجه عام على بقية الرئاسات . ولكن الذي لا شك فيه هو أن الخصائص والقدرات والمهارات العقلية تعتبر المحل الرئيسي الذي يفصل الإنسان عن بقية الكائنات . فالقدرة العليا تستخدم فروع الأشجار في إسقاط ثمار جوز الهند من فوق الشجر ، كما تستخدم قطع الصخور والأحجار في كسر خلاف تلك الثمار ، ولكن الإنسان وحده هو الذي يستطيع (صنع) العصي من تلك الفروع أو (صنع) المكاشط والسكاكين وغيرها من تلك الصخور عن طريق الشد أو الشطف أو التشظية ، وهكذا . ومع ذلك فإن أهم ما يميز (الإنسان) في كل المصور وفي مختلف مراحل تطوره هو « النطق » الذي يتمثل في التفكير المجرد ، واللغة التي تعبر عن ذلك التفكير في شكل كلمات والفاظ وجل لها معان دقيقة ، وهي بذلك تختلف كل الاختلاف عن الأصوات التي تصدر عن الكائنات الأخرى .

والنطق وامتلاك اللغة والقدرة على التفكير المجرد وعلى نقل هذه الأفكار للآخرين دفعت الكثير من الأنثروبولوجيين إلى تعريف الإنسان - في كل زمان ومكان - بأنه الحيوان « الباحث عن المعرفة » وإلى الحديث عن « الإنسان طالب العلم » بالمعنى الواسع لكلمة العلم . والظاهر أن رغبة الإنسان في التعرف على كل ما يتصل بذاته وبالعالم الخارجي الذي يعيش فيه والاحاطة الشاملة بكل ما يدور حوله كان دائما مطلباً من أهم المطالب التي يحاول تحقيقها بشق الوسائل والطرق . ولقد كان للإنسان البدائي وسائله البدائية في ذلك ، وتطورت هذه الوسائل والأساليب ، وتقدمت وتشعبت بتطور المجتمع الإنساني وتقدمه ، كما اتسعت مجالات المعرفة وتعمقت نتيجة لتراكم الخبرات الإنسانية وارتداد الفكر لمجالات جديدة وتقدم أساليب البحث والدراسة وتنوعها ، وازدياد الامكانيات المتاحة للاتصال والتواصل وتبادل المعلومات والمعارف . ولكن التقدم العلمي الذي فاق في العصر الحديث كل الحدود التي كان يتصورها الإنسان منذ عهد غير بعيد أدى بالضرورة إلى التخصص الدقيق وانحصار الفرد في مجال ضيق لا يكاد يفلت منه . وأصبحت المشكلة الصعبة التي يتعين حلها في مجال المعرفة الآن هو كيف يوفق المرء بين متطلبات التخصص الضيق العميق ومتطلبات العقل الذي يتطلع إلى ارتداد آفاق المعرفة المختلفة المتعددة والمتباينة .

ويمكن اعتبار الموسوعات أو دوائر المعارف الكبرى إحدى الحلول لمواجهة هذه المشكلة . والكلمة الأجنبية « انسيكلوبيديا » التي نترجمها بدائرة معارف مشتقة من أصل يوناني يعني الشمول والكلية ، وإن كان من الصعب أن تحيط أي موسوعة أو أي دائرة من دوائر المعارف - مهما بلغ حجمها - بكل فروع وتفاصيل المعارف المتاحة للناس وقت تأليف تلك الموسوعة . ولكن المهم هو الفكرة وراء إصدار هذه الموسوعات العامة أو دوائر المعارف .

وليست الموسوعات الجامعة الشاملة لمختلف فروع المعرفة اختراعاً حديثاً تماماً . فقد عرفت المصنفات العامة منذ ما يزيد على ألف سنة في كثير من أنحاء العالم ، ولم يخل عالمتنا العربي من وجود

مثل هذه المصنفات منذ زمن بعيد . وتسجل هذه المصنفات في الأغلب الأحداث الكبرى التي كان لها تأثير واضح في حياة الناس والمجتمع . أو تترجم لمشاهير الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين ، كما قد تضم قلدا كبيرا من المعلومات عن كثير من أمور الحياة ونظم المجتمع والحياة العقلية والفكرية والعلمية ، وتقدم هذا كله في أسلوب لا يخلو من رشاقة وتشويق ، وتنتقل بالقارئ من موضوع لآخر في سهولة ويسر في كثير من الأحيان . وكتب « المعاجم » و « الطبقات » في التراث العربي مثال طيب لهذا النوع من المصنفات .

ولقد ذاع استعمال كلمة « انسيكلوبيديا » منذ قام دينيس ديدرو Denis Diderot بتأليف موسوعته الفرنسية المشهورة L'Encyclopedie عام ١٧٥٠ . والذي يفهمه معظم الناس الآن من الكلمة هو أن الانسيكلوبيديا مصنف ضخم يتكون من عدة مجلدات تضم كل ألوان المعرفة التي وصل إليها علم الإنسان ، وتعرضها في غير قليل من الأسهاب والتفصيل بما يميزها عن « القاموس » الذي لا يذكر سوى المعلومات الأساسية التي تكفي للتعريف بالكلمة . ومع ذلك فلازلنا نجد بعض الموسوعات يطلق عليها اسم « قاموس Dictionary » وإن لم تكن هناك قواميس تحمل اسم انسيكلوبيديا « أو دائرة معارف » كان حظ هذه القواميس من الدقة والاحاطة ، وإلى جانب المعلومات الدقيقة التفصيلية التي تذكرها الانسيكلوبيديا عن الموضوعات أو « المواد » التي تعالجها فإنها تفرص على أن تورد كل ما قد يحتاج إليه الأمر من ملاحق وجداول وصور وأشكال ورسوم وخرائط ، وترتب كل هذه المواد ترتيبا أبجديا دون اعتبار للتسلسل التاريخي للمواد أو العلاقة المنطقية بينها . ولكن الأمر لم يكن على هذه الصورة دائما . فالترتيب الأبجدي لمواد الموسوعة لا يرجع في أغلب الظن إلى أبعد من بضع مئات من السنين ، بينما كانت معظم الموسوعات القديمة ترتب ترتيبا منهجيا موضوعيا حسب نظام تصنيفي للمعارف والعلوم المختلفة . ولم يكن ثمة على أية حال في أي وقت من الأوقات اتفاق عام على الطريقة التي ينبغي أن ترتب بمقتضاها محتويات الموسوعة وموادها . وكما تذكر « دائرة المعارف البريطانية » Encyclopaedia Britannica في صفحة ٧٨٠ من المجلد السادس فإن الاتجاه الذي كان سائدا في ترتيب مواد الموسوعات في العصور الرومانية مثلا كان اتجاها عمليا يعطي الأولوية والأهمية للموضوعات المتعلقة بالحياة اليومية كالملك والجغرافيا وما إليها ، بينما تأتي الفنون الجميلة في نهاية الترتيب ، وذلك بعكس الحال في المصنفات الموسوعية التي تركها العرب والمسلمون والتي كانت تبدأ في الأغلب بالموضوعات ذات الطابع العام ، أو الموضوعات الأكثر تجريدا ، مثل السلطة والحكم وشئون الحرب ، وتنتهي بذكر الموضوعات المتعلقة بالحياة الحسية كالطعام وشئون الجنس والنساء وما إلى ذلك ، مثلما فعل ابن قتيبة ، أو قد تبدأ بالفقه والفلسفة وما إليها ، ثم تنتقل إلى الموضوعات العلمية كالطب والمهندسة والميكانيكا ، مثلما فعل الخوارزمي .

وربما كان أول من حسم الأمر فيما يتعلق بترتيب المواد في الموسوعات في الغرب هو فرنسيس بيكون

الذي حاول في عام ١٦٢٠ في عمله الضخم الذي لم يكتمل على اية حل ، وهو كتابه الموسوعي *Instauratio Magna* أن يضع خطة عامة لتنظيم العلوم ، وهي خطة لا تزال تراعى بشكل أو بآخر حتى الآن في معظم الموسوعات ودوائر المعارف الكبرى . وقد ميز ليكون في ذلك العمل بين ثلاثة أقسام كبرى ، يدخل في القسم الأول منها ما يسميه بالطبيعة الخارجية التي تضم موضوعات وعلوئها ، مثل الفلك والجغرافيا وعلم الأجواء أو المعادن والنباتات والحيوانات وما إليها من الموضوعات التي يدخلها الانثربولوجيين المعاصرون تحت اسم « الايكولوجيا » بينما خصص القسم الثاني للانسان ويعرض فيه الموضوعات مثل التشريح والفسولوجيا وتركيب الانسان وقواه وملكاته وأفعاله ، ثم خصص القسم الثالث والآخر لعمل الانسان وطبيعته ويدرج تحته موضوعات متنوعة تتراوح بين الطب والكيمياء الى الفنون (المربية) والحواس والعواطف والانفعالات والقدرات العقلية والمهندسية ووسائل النقل والطباعة والزراعة والملاحة ، وغير ذلك من الامور المتعلقة بالنشاط الانساني . وعلى الرغم مما قد يؤخذ على هذه الخطة من تأخذ طفيفة مثل تكرار بعض الموضوعات القرعية وتداخلها مع بعض فان هذا التقسيم الثلاثي الذي يضع الانسان في آخر الامر في مركز الخطة كلها ، حيث تخصص القسم الثاني للدراسة طبيعة الانسان وتكوينه ، بينما تخصص القسم الأول لكل ما هو خارج عنه من مظاهر كونية وطبيعية تؤثر بغير شك في حياته بشكل أو بآخر ، وتخصص القسم الثالث لكل ما يصدر عنه من افعال وسلوك وأنشطة مختلفة ، أقول ان القسم الثلاثي أفلع ليس فقط في ايجاد نوع من الترتيب العلمي المقبول لما يمكن أن تتضمن أي موسوعة عامة ، بل ايضا في وضع مخطط عام وشامل لمجالات المعرفة الانسانية وأفاقها المختلفة المتباينة ، مع ابراز ما بين هذه الأفاق من تكامل رغم تنوعها وتباينها . والظاهر أن هذا المخطط العام الذي وصفه بيبكون عام ١٦٢٠ كان له تأثير قوي وفعال للدرجة ان ديدرو يعترف في عام ١٧٥٠ ، أي بعد مائة وثلاثين عاما على وضع بيبكون لمخطوطه ، بأنه افاد فائدة كبرى منه في تأليف الانسيكوبيديا الفرنسية ، والمعروف أن معظم دوائر المعارف التي ظهرت بعد ديدرو قد تأثرت به بدرجات متفاوتة ، مما قد يبيح لنا أن نقول إن تفكير فرنسيس بيبكون لا يزال عاملا مؤثرا بشكل ما في دوائر المعارف الكبرى وموجها لخطتها . او على الرغم من كل ما يقال من ان دوائر المعارف في الوقت الحالي تتبع الترتيب الأبجدي في عرض موضوعاتها و « موادها » فانها في شمولها ومحاولتها الاحاطة بمختلف فروع المعرفة تسترشد بنوع ما من الترتيب المنطقي . سواء ذلك الذي وضعه بيبكون في أوائل القرن السابع عشر ، أو بالجهود الأخرى التي بذلت وتبذل في ذلك المضمار . وغلبة الترتيب الأبجدي على دوائر المعارف الحديثة لا ينفي وجود كثير من الموسوعات - والمتخصصة منها بالذات - التي تتبع الترتيب المنهجي المنطقي للبحث ، وإن كان بعض هذه الموسوعات تحاول الجمع بين النظامين الأبجدي والموضوعي للمنهجي ، بحيث ترتب الموضوعات التي يتم الاستقرار عليها ضمن خطة واضحة متكاملة ترتبها ابجديا لتسهيل الرجوع إليها .

ووجد مثل هذا النظام المنهجي والمخطط المنطقي الذي يسترشد به الموسوعيون في تحديد واختيار الموضوعات التي تعالجها الموسوعة ، اعني ببساطة أن الموسوعة او دائرة المعارف ليست مجرد (تجميع) عشوائي للمعلومات والمعارف المتفرقة دون أن يكون هناك ضوابط تحدد العلاقات بين هذه الموضوعات . فالفلسفة التي تتبع منها فكرة الانسيكلوبيديا او دائرة المعارف هي الايمان بوحدة المعرفة وضرورة المحافظة عليها والتعبير عنها ، وهي فلسفة نحتاج الى ابرازها وتوكيدها في العصر الحالي بوجه خاص نظرا لما يؤدي اليه التخصص الدقيق المتزايد الذي هو سمة العصر من تباعد المتخصصين عن مجالات تخصص بعضهم بعضا ، واغترابهم بالتالي عن بقية فروع المعرفة الإنسانية ، وقد يكون من المستحسن أن نشير بشيء من التفصيل الى دائرة المعارف البريطانية كمثال على هذه النظرة التكاملية الى مختلف فروع المعرفة ، خاصة وأنها أشهر الموسوعات وأكثرها انتشارا ، وإن لم تكن أكبرها اجماعا ، كما أنها تعكس بشكل ممتاز الوظيفتين الأساسيتين اللتين ينبغي ان تؤديها دوائر المعارف الكبرى ، ونعني بها أن تكون عملا مرجعيا يستطيع القارئ ان يرجع اليها للحصول على المعلومات الأساسية الضرورية فقط حول أي موضوع يريد أن يلم به للمعاصرة ، وإن تكون في الوقت ذاته أداة تعليمية تقدم للباحث - وبخاصة المبتدئ - مادة خصبة ووفيرة عن الموضوع الذي يتم بحثه ، وتفتح له أبوابا جديدة ، كما تثير كثيرا من التساؤلات التي لم تطرأ على باله من قبل حول ذلك الموضوع ، فضلا عن تعريفه بأهم المراجع والمصادر التي يمكن الرجوع اليها .

والواقع أن دائرة المعارف البريطانية هي ثلاث موسوعات متمايزة ، لكل منها طابعها الخاص بها ، ولكنها تكمل بعضها بعضا لتحقيق هاتين الوظيفتين الأساسيتين . وأولى هذه الموسوعات التي تحمل اسم « الموسوعة الصغرى » *Micropaedia* تتألف من عشرة مجلدات ، هي بمثابة كتاب مرجعي يعطي المعلومات السريعة الضرورية التي يحتاج اليها المرء لسد حاجة معينة بالذات دون ان تدخل في التفاصيل .. وهي في هذا اقرب الى القاموس منها الى دائرة المعارف بالمعنى الدقيق للكلمة . ولذا فإن مجلداتها العشرة تحمل عنوانا فرعيا له دلالة وهو *Ready Reference and Index* وتقوم بالوظيفة الحالية التعليمية للموسوعتان الأخريان . وإحدى هاتين الموسوعتين عبارة عن مقدمة او مدخل للعمل الموسوعي الضخم كله ، وتتألف من مجلد واحد تمهيدي ويحمل اسم *Propaedia* وفيه عرض لخطّة الموسوعة في محاولتها الاحاطة بكل أفلاك المعرفة المختلفة ، مع تبين ما بينها من تشابك وتفاعل وتأثيرات متبادلة وتكامل ، ولذا فإن هذا المجلد يحمل هو ايضا عنوانا فرعيا له دلالة ومعناه وهو *Outline of Knowledge* وقد وضعت خطة الانسيكلوبيديا بحيث تضم عشرة أقسام كبرى يدور كل قسم حول مجال واحد من مجالات المعرفة الكبرى من تفرعات وتخصصات . وهذه الاقسام او الأبواب العشرة الكبرى هي : (١) المادة والطاقة (٢) الكرة الارضية (٣) الحياة على الارض (٤) حياة الانسان (٥) المجتمع الانساني (٦) الفن (٧) التكنولوجيا (٨) الدين (٩) تاريخ الجنس البشري (١٠) فروع وأبواب المعرفة ويقصد بها المنطق والرياضيات والعلم والتاريخ

والانسانيات والفلسفة . أما الموسوعة الثانية فهي الموسوعة الكبرى Macro padia وهي تتألف من تسعة عشر مجلدا تضم عددا هائلا من المقالات الطويلة التي تعالج بأطناب وتفصيل ودقة الموضوعات التي ورد ذكرها في المجلد التمهيدي ، ولكن اذا كان المجلد التمهيدي يصنف المعرفة الى أبواب وفروع وموضوعات تتدرج تحتها بحيث يركز هذا التقسيم على أساس منطقي بحث فان مقالات الموسوعة الكبرى او الرئيسية تظهر مرتبة ترتيبا ابجديا ، وبذلك تجمع دائرة المعارف البريطانية بين نوعي الترتيب اللذين أشرنا اليهما مثلما تؤدي على وجه أكمل الوظائف الرئيسيتين الوظيفة المرجعية والوظيفة التعليمية .

والأمر ليس قاصرا على أي حال على الموسوعات أو دوائر المعارف الكبرى وحدها التي مهما يكن من فائدتها فإن الذين تتاح لهم قراءتها والاطلاع عليها والرجوع اليها هم في الاغلب فئة معينة من الناس الذين يشغلون أنفسهم بالمر البحث العلمي ، أو الذين وصلوا الى درجة معينة من الثقافة ، والمما يتد الاهتمام باتاحة الفرصة لتتويع الثقافة والقراءات وتقديم كتابات وموسوعات شاملة تحيط بكل المعارف بقدر الامكان الى نطاق أوسع من نطاق دوائر المعارف الكبرى المحدودة ، حيث نجد في الغرب على الأقل مشروعات ضخمة لتقريب شتى المعارف الى القارئ العادي . وقد يكفي أن نشير هنا الى الجهود الضخمة التي تبذل في الخارج لتقديم سلاسل او مجموعات من الكتب القصيرة العميقة الرخيصة الثمن والتي تعالج موضوعات مختلفة بكتبها كبار المتخصصين وتهدف الى تقريب المعرفة للناس بمن فيهم المتخصصون أنفسهم حتى تكسر من حدة التخصص ، وتخرج هؤلاء المتخصصين من عزلتهم التي يفرضها تخصصهم عليهم ، وحتى يتاح للمثقف العادي في الوقت ذاته التعرف على مختلف الميادين الثقافية التي تقدم له بأسلوب بسيط خال من التعقيد ، مع عدم الاسفاف او النزول الى مستويات متدنية . والمعروف أن أشهر هذه السلاسل والمجموعات وأوسعها انتشارا في الوقت ذاته في العالم هي مجموعة Penguin البريطانية الشهيرة من ناحية ، ومجموعة Que Sais — الفرنسية من الناحية الاخرى . وقد صدر في كل مجموعة مئات عديدة من الكتب التي غطت كل ميادين المعرفة بحيث أصبحت أحد المعالم الرئيسية في الثقافة في الخارج ، خاصة وأنها تكتب بطريقة بحث تناقش التخصص والقارئ المثقف العام في وقت واحد . ولقد كانت هناك جهود عديدة في العالم العربي في فترات مختلفة لتقدم مثل هذه المجموعات او السلاسل التي حققت درجات مختلفة من النجاح ، ولكن لم يظهر حتى الآن من هذه المجموعات او السلاسل ما يرتفع الى مصاف ما يصدر في الخارج سواء من حيث المستوى العلمي او التنوع في الموضوعات ، وإن كان هذا لا يقلل بأي حال من الاحوال قيمة الجهود التي بذلت والتي تبذل حتى الآن في هذا المجال .

ومن الناحية الاخرى يهتم العالم الخارجي باصدار (موسوعات) مبسطة تعتمد على الصورة بقدر

ما تعتمد على الكلمة المطبوعة دون أن يكون ذلك على حساب الدقة العلمية . مما يجعل القراءة والرغبة في الاطلاع والاستفادة من المعرفة في مختلف المجالات أمورا ميسرة ومحبة الى النفس . وهذا أسلوب طيب بغير شك لتكوين عادة القراءة . وهذا جانب لا يؤلف جزءا من أسلوب التربية والتنشئة عندنا . والأمثلة كثيرة لمثل هذه الموسوعات ، ولكن ربما كان من أفضلها الموسوعة المعروفة باسم The Joy of Knowledge التي صدرت في أواخر السبعينات ، والتي تتخذ شعارا لها عبارة ستيكا الشهيرة : « لم تعلمنا الطبيعة المعرفة ذاتها وإنما اعطينا فقط بلور المعرفة » .

Scientiam, Non Debit Natura

Semina Scientiae Nobis Debit.

وخطة هذه الموسوعة البسطة تقوم هي أيضا على فكرة وحدة المعرفة وتشابك فروعها وتداخلها وتكامل مجالاتها ، فالموسوعة تقع في سبعة أجزاء تعالج على التوالي : العلم والكون ، ثم « الأرض الفيزيائية » أي الكرة الأرضية ، ثم العالم الطبيعي بما فيه من نبات وحيوان ، ثم الانسان والمجتمع ، ثم التاريخ والثقافة (مجلدان) ثم الانسان والآلة ، وأخيرا العالم الحديث ، وواضح من ذلك كيف أن هذه الموسوعة التي أشرف على تحريرها عدد كبير من كبار الاساتذة المشهورين تحيط بعدد كبير من فروع المعرفة الانسانية ، كما يظهر فيها نفس التأثيرات التي انحدرت من فرنسيس بيكون ، وهي التأثيرات التي سبق أن قلنا إنها تظهر بدرجات متفاوتة في دوائر المعارف العامة بما في ذلك دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة ، وعلى الرغم مما قلناه من أن هذه الموسوعة (مبسطة) فإن القارئ الذي يبلغ درجة عالية من الثقافة لن يعلم أن يجد فيها بعض المعلومات الطريفة والرفيعة ، فضلا عما يلقاه في قراءتها من متعة ذهنية .



ولم يكن الهدف الاصلي من هذا الحديث القصير الكلام عن الموسوعات او دوائر المعارف في ذاتها . إنما كان الهدف هو محاولة إبراز المشكلة التي تواجه المثقف المتخصص في الوقت الحالي من عزلة عن مجالات المعرفة المتنوعة المتباينة نتيجة لما يتطلبه التخصص الدقيق من الانحصار في دائرة ضيقة لا يخرج منها ، وذلك محاولة التعرف على بعض الأساليب والوسائل التي يمكن من طريقها كسر هذه الحلقة التي تحيط بالمثقف المتخصص وتحيط كل الجوانب التي تقف دونه وأفاق المعرفة المختلفة . وليست الموسوعات على اختلاف أحجامها ومستوياتها ودرجة شمولها واحاطتها سوى وسيلة واحدة من هذه الوسائل ، وهي وسيلة شائعة في الخارج ، للدرجة ان هناك ما يزيد على ألفي موسوعة من الموسوعات المهمة الكبرى على مذكراته ، الى جانب عدد كبير جدا من الموسوعات المتخصصة والموسوعات

(المبسطة) فضلا عن سلاسل الكتب التي تؤلف في آخر الأمر عملا موسوعيا متكاملا . ولأزلنا نحن في العالم العربي يعيلين الى حد كبير جدا عن الاهتمام بمثل هذه الاساليب والوسائل ، وليس من شك في أنه قد آن الأوان لاعطاء شيء من الاهتمام الجدي والدراسة العميقة لامكان نقل الموسوعات الأجنبية الى اللغة العربية مع ادخال التعديلات الملائمة والمناسبة ، ان كان يعز علينا لسبب أو لآخر تأليف موسوعات عربية بأقلام عربية وجهود عربية وعقول عربية .

دكتور/ احمد أبو زيد



دراسات أدبية

(١) المقدمة

١ - علم الحركة الجسمية والمشية

علم الحركة الجسمية ، أو ما يسمى بعلم الكينيات Kinesics نشأ مع مبتدعه عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي «ري. ل. بير-دوسل» في عام ١٩٥٢ حين أصدر كتابه بعنوان «مقدمة إلى علم الكينيات»^(١).

وقد جعل «بيردوسل» من الحركة الجسمية علما ، بعد أن كانت تعرف تقليديا باسم «الاشارة» أو «لغة الجسم» لأنه عمد إلى تحليل الحركات الجسمية التي تصدر عن الإنسان تحليليا علميا متخذاً من مبادئ علم اللغة الحديث إطاراً حدد داخله أنواع الحركات الجسمية . وقسمها إلى مستويات منظرية لمستويات اللغة من وحدات صوتية وصرفية ونحوية وتراكيب . وكما نفع في علم الاصوات فحدد أعضاء النطق كاللسان والشفيتين والاسنان وسقف الحلق والحنجرة ، ونقسمها إلى مناطق هي التي يصدر عنها الصوت ، فكذاك فعل «بيردوسل» فقسم الجسم إلى مناطق تصدر منها وألها الحركة ، فهناك الوجه وزنه العينان والأنف والفم ، وهناك الرأس والعنق والكتفان والجلد والمعجز ، ثم هناك الساقان والقدمان . ولما كان علم الأنثروبولوجيا يرتبط بعلم السلوك ، فإنا نجد أن «بير-دوسل» في تحليله للحركات المختلفة يسميها سلوكاً ، فهناك سلوك العينين كالنظرة الجريئة

"المشية" في الشعر العربي

فاطمة مسجوب

ويضيف « بيردوسل » الى هذا كله تقسيما فرعيا يضم المشية التي ينثني فيها الماشي ركبتيه ، وتلك التي تكون ركبتاه فيها مستقيمتين ، وهو يقدم تحفظا في هذا الشأن فيقول : انه يبدو ان هناك نوعا من الصلة بين المشي على ارض خشبية وبين المشي بركبتين مثنيتين .

ثم يضيف « بيردوسل » نوعين آخرين من المشية هما المشية الواثبة والمشية المنسابة (او المنزلفة) فالشخص ذو المشية الواثبة يرفع جسمه كله بأن يشب على أطراف أصابع القدمين حين تمر قدمه تحت الجسم مباشرة ، ومن ثم يمكن أن نرى كيف يرتفعان وينخفضان مع كل خطوة بخطوة ، وأما ذو المشية المنزلفة فإنه ينسحب اتصال القدم بالأرض فيثني الكاحل ، وتنثني الركبة بحيث ان الجسم يتحرك الى الامام في حين ان الكتفين يبقيان في موضعهما .

ثم ينتقل « بيردوسل » الى تقسيم فرعي آخر يشمل الماشي ذا الخطوة العالية ، والماشي الذي يجير قدميه على الأرض . أما الاول فيرفع قدمه اثناء حركتها فوق عظم الكاحل ، وأما الثاني فإنه يجعل القدم التي اتت الحركة تجر على الأرض حين تبدأ حركتها الامامية . ويشير « بيردوسل » ايضا الى الماشي الذي لمسح الأرض دون ان يرفع قدميه عنها طوال مشيه ، كما يشير الى ذلك الذي يجير اصابع القدمين بطريقة متقطعة في نهاية اتصال القدمين بالأرض .

ويتخذ « بيردوسل » من اتساع الخطو بُعدا آخر يصنف المشية وفقا له ، ويخص بالذكر ما

والنظرة المختلطة ، والنظرة الشوزاء ، وهناك سلوك اليندين وسلوك الكتفين والمنطقتين والسائقين والقلميين . ومن ثم فقد جعل « المشية » واحدة من الحركات الجسمية ، وصنفها على الوجه التالي :

- مشية الذكر

- مشية الانثى

- التمايل

- دقي الأرض بالجزم الخلفي السفلي من الكعب المشية القهقري حيث ينثني الكاحل بحدّة الى الخلف عند اكتمال اتصال القدم بالأرض .

ويتناول « بيردوسل » المشية بالوصف من الناحية الفسيولوجية الحركية فيقول (ص ٦٨) :

« لقد اتضح ان معظم المشاة يمكن تحديد مشيتهم على خط مستقيم طرفاء الدفع والسحب . ففي حالة بعض المشاة تقبض القدم على الأرض ثم تنجذب نحوهم ، في حين أن البعض الآخر يستخدم السحب الذي يدفع الجسم الى الامام » .

وعن « بيردوسل » فيقول ويمكن ان نضع في منتصف هذا الخط المستقيم المشية المتوازية ، وتتميز هذه المشية بأنه قبل أن تنزع اصابع إحدى القدمين قبضتها القوية عن الأرض يكون كعب القدم الأخرى قد حط على الأرض بقوة . وهذه الأنواع الثلاثة من المشاة : الدافع والساحب والمتوازن قد أمدتنا برؤية سيكولوجية ممتازة .

بعد ، يصف « بيردوسل » المشية من جانب آخر هو تشابهها لشية حيوان أو طائر بعينه ، فنجد يصف مشية « الحمامة » وفيها تتجه أصابع القدمين نحو الوسط والأمام عند كل خطوة ، ومشية « البطة » وفيها تتجه أصابع القدمين إلى الجنب وإلى الأمام . ونجده أيضا يصف مشية « الهنود الحمر » وفيها يضع الماشي القدمين الواحدة أمام الأخرى مباشرة عند كل خطوة ، وفي هذا المجال يلتفت « بيردوسل » - نظراً للدارسين إلى وجوب الحذر عند تسجيل وصف المشية التي تتصل باناس يتمنون إلى ثقافات أخرى ، ويشير إلى أن العربي يصف المرأة التي تمشي برشاقة بأنها تمشي « كالدجاجة » (انظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣) في حين أن الهندي يصف مثل تلك المرأة بأنها تمشي « كالقيل » .

ومما يهتما في بحثنا هذا أن نوجه النظر إلى أن معظم أنواع المشية التي حددتها « بيردوسل » قد سجلها الشعراء العرب في شعرهم وأضافوا إليها ما يتصل ببيئتهم وتجارهم وملاحظاتهم الشخصية .

وقد سبق أن قلنا للقارئ مجموعة من الأبحاث تتناول علم الحركة الجسمية حاولنا فيها تطبيق مبادئه على التراث العربي . ومن هذه الأبحاث بحث بعنوان « الحركة الجسمية » من خلال البيان والتبيين^(١) حاولنا فيه إرجاع ما جاء في البيان والتبيين للجاحظ إلى علم الحركة

يسميه « الغامس » أو « الغاطس » وهو ذلك الذي تتسع خطواته إلى الحد الذي يجعل جسمه ينخفض عن نقطة النهاية لكل خطوة . وهذا النوع قد يكون شكلاً آخر للخطوة المنزقة التي سبق الكلام عنها من حيث إن اتساع الخطوة يتطلب المحافظة على الاتصال بالأرض لتحاشي السقوط .

ثم يتحدث « بيردوسل » عن المشية القاطعة ، وهذه تكون نوعاً من الخطوة العالية ، والفرق بينهما أنه في حالة المشية القاطعة قليلاً يسط الماشي القدم إلى الأمام أكثر من مسافة طول قدم واحدة بعيداً عن القدم الأخرى الملاصقة للأرض .

ويضيف « بيردوسل » (ص ٧٠) أنه لا يوجد فرق كبير بين مشية الرجل ومشية المرأة خلافاً لما هو شائع ، فيما عدا أنه يوجد عامل اختصار لنوع من أنواع المشية التي ذكرناها ، اذان معظمها ينطبق على الرجال والنساء على السواء ، غير أن استعمال الكموب العالية أو الكموب القصيرة يؤثر تأثيراً كبيراً على الشكل العام للمشية . ولذلك يلتفت « بيردوسل » نظراً للدارسين إلى أنه ينبغي عليهم أن يسجلوا مع ملاحظاتهم عن المشية من الناحية الفسيولوجية عبارة تتصل بنوع الحذاء الذي يلبسه الماشي ، وكذلك الملابس المتعدية من الحصر إلى أسفل ، لأن كلا منها يؤثر على نوع المشية .

وكما فعل الشعراء العرب مما سنفصله فيما

١- « كوكب » العدد ١٩ ، أبريل ١٩٧٥ وكتاباً بعنوان « دراسات في علم اللغة » القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦ .

إذا كانوا قد لاحظوا على الجانب مشية خاصة ، وتعرف المشية في مثل تلك الحالات بأنها ثابتة . وتكون المشية ثابتة أيضا في حالة وجود عيب جسماني كأنها أصابع القدمين إلى الداخل أو الخارج ، كما تكون ثابتة بالنسبة لطول القامة أو قصرها ، فالطول له مشية ، كما أن للقصر مشية . كذلك ترتبط المشية الثابتة بالجنس في معظم الاحوال ، فللرجل مشية وللمرأة مشية أخرى ، ومن ثم كان ما يوجب الدم أن يمشي الرجل كما تمشي النساء ، وأن تمشي المرأة كما يمشي الرجال .

والمشية تكون أيضا متغيرة وذلك بالنسبة لعمر الانسان ، فهو حين يتقدم به العمر وتصبح له مشية يستدل منها على الكبر والرهن بعد أن كانت مشيته في شبابه يستدل منها على القوة والحياة ، وتكون المشية متغيرة أيضا حين ترتبط بالحالة النفسية للمشي . فإلى جانب المشية الثابتة للانسان نجد له مشية أخرى متغيرة ، فإن كان فرحا يستخف القرح نجده يمشي مشية واثية ، وإن كان مهموما نجده يمشي ثقيل الحطى يكاد يجر قدميه على الأرض جرا . ويمكننا إجمال دلالات المشية وتحديدها بستة هي :

١ - دلالات فيسيولوجية تتصل ببناء جسم الماشي كالطول أو القصر ، والحنافة أو الضخامة ،

الجسمية الذي نحن بصدده . كذلك أفردنا لهذا العلم بحثا خاصا تحت عنوان « علم اللغة » و « علم الحركة الجسمية »^(٣) كما قلنا للمقارئ بحثا ثالثا بعنوان « الدلالة الحركية للألفاظ في الشعر »^(٤) وقد حاولنا أيضا في بحث رابع استخراج الآيات القرآنية الكريمة التي وردت عن الحركة الجسمية ودلالاتها^(٥) . واليوم نستكمل تلك الأبحاث بالتركيز على (المشية) . والهدف من مثل تلك الأبحاث هو توجيه الانتظار إلى مدى ثراء اللغة العربية وعطاء العرب الغزير في مجالات أصبحت اليوم موضع اهتمام العلماء وبحور دراساتهم .

ويعودنا إلى التركز على المشية في هذا البحث عوامل عدة ، أهمها ما يتركبه التراث العربي من أوصاف لها ، وتحديد دلالات الفسيولوجية والأخلاقية والنفسية التي تتم عنها مشية انسان بعينه .

١ - ب دلالات المشية

إن المشية ترتبط بمصاحبها فهو يعرف بها ، وتكون جزءا من شخصيته ، فنحن نقول إن فلانا يمشي على هذه الكيفية أو تلك ، وكثيرا ما نجد الناس في أوقات هزلهم ، وكذلك الاطفال يقلدون مشية شخص بعينه . بل إننا نجد أن رجال الشرطة في بحثهم عن شخص ارتكب جريمة ما ، يسألون الناس أو ضحايا الجريمة عما

٣ - أنظر كتابا بعنوان « دراسات في علم اللغة » .

٤ - أنظر مجلة الشعر ، العدد ١٢ ، أكتوبر ١٩٧٨ من ٢٣ - ٣٢ .

٥ - أنظر مجلة وزير الاسلام ، العدد ٧ ، يوليو ١٩٧٤ من ٢٥ - ٢٥٣ ، والعدد ٩ سبتمبر ١٩٧٤ من ١٦٣ - ١٦٥ وكتابا « دراسات في علم اللغة » .

حركاتها مع الجزء العلوي من الجسم الذي ينسحق الى الاسام ، وفي حالة إصابة مفصل الركبة تكون الساق كلها متصلة ، أما في حالة مرض مفصل الورك فإن الساق المصابة تلف حول الساق السليمة أثناء المشي ، ويشترك الحوض كله في الحركة . وفي حالة إصابة اعضاء الحس التي تتلقى المعلومات من الساق ، كمرض اختلاج الحركة ، فإن الكعيبين يلبدان على الارض بقوة ويكون العينان مثبتتين على الارض ، كذلك يمكن ان ينتج عن الاصابة بمرض شلل الاطفال معظم هذه الانواع من المشية ، ويتوقف ذلك على الاعصاب المصابة وهي بطبيعة الحال تكون دائما اعصاب الحركة . وهكذا نجد أن المعاجم الطبية تفيض في وصف الدلالات المرضية للمشية بما لا يتسع له المقام هنا^(١) ولكن يجدر التنويه الى أن الشاعر العربي لم تقتض الاشارة الى مثل تلك الدلالات .

١ - د المشية في القرآن الكريم

ويجيز ذكر المشية في القرآن الكريم باعتبارها دليلا على سلوك الفرد ، ذلك السلوك الذي يعد جزءا لا يتجزأ من العقيدة ، ومن ثم فإن ما ورد في القرآن الكريم يحدد المشية المستحبة التي تعكس السلوك الحسن للانسان المسلم ، والمشيئة القبيحة التي يتبعين على المسلم ان يتجنبها . فعلى الجانب المستحب من المشية نجد القصير في المشي ، وذلك في قوله تعالى عن

٢ - دلالات سلوكية تنم عن اخلاق الماشي كمشية التبختر والاختيال .

٣ - دلالات مرضية تنم عن وجود مرض أو عاهة جسمية .

٤ - دلالات نفسية تنم عن حالة الماشي النفسية كالغضب أو الفرح .

٥ - دلالات تتصل بعمر الماشي من شباب أو هرم .

٦ - دلالات تتصل بجنس الماشي كأن يكون رجلا أو امرأة .

١ - جم المشية في الطب

ونجد أن علم الطب يعني بالمشية لدلالاتها المرضية كالاصابة بتفطح القدم ، أو الاصابة بالفتالج أو إدمان الخمر ، أو التهاب الاعصاب . وتبيننا الموسوعات الطبية ، ان المشية التي تكون فيها أصابع القدم مثنية الى الخارج والقدم تقع مفلطحة على الأرض تكون دليلا على اصابة بالغة بتفطح القدم ، وإذا كان الماشي يمر رجله فان ذلك دليل على انه قد اصيب بالفتالج أو الشلل ، وإذا كان الماشي يرفع ركبتيه الى أعلى أكثر من المعتاد وكأنها يمشي فوق أعشاب طويلة فإن هذه المشية تدل على انه من مدمني الخمر أو أنه مصاب بنوع من التهاب الاعصاب . وفي حالة الاصابة بالشلل الارتعاشي تتميز المشية بخطوات سيرية متقاربة . ويبدو أن السابقين حاولان ان تسق

« العطف »^(٧) فيقول تعالى « ثاني عطفه ليضل . عن سبيل الله » (الحج / ٩) . . .
وهذا لنص القرآن الذي ينهي عن المشية المختلة يفسر لنا ما قاله الرسول ﷺ « لا ي دجاة في غزوة أحد ، حين رآه بعد أن أخذ السيف من يد الرسول الكريم وعصب رأسه بعصا بته الحمراء إعلاناً بأنه سيقا تل المشركين ويأخذ بحق سيف رسول الله ، وجعل يتبحر بين الصفيين ، اذ قال الرسول الكريم حينذاك : « إنها المشية يينفضها الله الا في مثل هذه المواطن »^(٨) .

١ - هـ المشية في الأثر

وما يدل على أهمية المشية وارتباطها بصاحبها ما نجده في الأثر من بعض اوصاف مشية رسول الله اذ يقول صاحب اللسان^(٩) : « وفي صفته ﷺ : كان اذا مشى مشياً مجتمعاً ، اي شديد الحركة قوي الاعضاء غير مسترخ . . . كذلك نجد ان صاحب « زاد المعاد »^(١٠) يفرد فصلاً خاصاً عن هدى رسول الله في مشيه وحده ومع اصحابه ، فيحمل فيه كل ما يتصل بدلالات المشية ، وما هو مستحب من أنواع المشية وما هو مملوم مستقبح فيقول « كان اذا مشى تكفاً تكفياً ، وكان أسرع الناس مشية وأحسنها . . . وقال علي رضي الله عنه مرة : اذا مشى تنقل

نصيحة لقمان لابنه « واقصد في مشيك واغضض من صوتك » . . (لقمان / ١٩) ونجد المشي هو ن في قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً . . » (الفرقان / ٦٣) ونجد المشي على استحياء في قوله تعالى عن ابنة شعيب وهي تمشي نحو موسى عليه السلام : « فجاهته احداهما تمشي على استحياء . . » (القصص / ٢٥) .

أما على الجانب المستقبح فنجد المشي في الأرض مرحاً وذلك في قوله تعالى « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » (الاسراء / ٣٧) وقد جعلت تلك المشية ، مع ما نهت عنه الآيات السابقة لهذه الآية ، أمراً سيئاً مكروهاً عند الله ، اذ يقول تعالى بعد ذلك « كل ذلك كان سيئاً عند ربك مكروهاً » ونجد أن هذا النهي عن المشية « المختلة » يتكرر في سورة لقمان (آية ١٨) مع نص صريح في كراهية الله سبحانه لمن يمشي في الأرض مختلاً فخوراً ، وذلك في قوله تعالى « ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل غثال فخور » . كذلك نجد وصفاً للمشية يتصل بمعنى الاعراض مع التكبر ، وتشمل الحركة الجسمية فيها

٧ - جاء في لسان العرب (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٢٧) : « حلف الرجل جاهياً من بين يديه ، وثقلان من لدن رأسه الى مفرجه . قال الأزهري : جاء في التفسير أن سعداً لأوريا عنه ، وهذا يوصف به الفكر .

٨ - نظرت الرابع رقم ١٠

٩ - نظرت الرابع رقم ٢٣

١٠ - نظرت الرابع رقم ٩

وراء ، والتاسع الجمزى ، وهي مشية يثب فيها الماشي وثبا ، والعاشر مشية التبختر وهي مشية أولى العجب والتكبر ، وهي التي خسف الله سبحانه بصاحبها لما نظر في عطفه واعجبه نفسه . . . وأعدل المشيات هي مشية الهون والتكفي . . .

وهكذا نجد في « زاد المعاد » هذا الوصف الجامع لأنواع المشية ودلالاتها ، وهو ما نجده اليوم في أي مرجع حديث في علم الحركة الجسمية الذي وصفناه في بداية بحثنا هذا .

١ - و المشية في القصة والرواية والمسرحية

ولعل أكثر من يستغلون وصف المشية هم كتاب القصة والرواية والمسرحية ، وبخاصة المسرحية الفكاهية ، لأنهم يضيفون بالمشية بعدا جليدا للشخصية التي يرسمونها ، بحيث تميزها عن سواها ، فهناك مشية المعجب بنفسه الذي يفتال كالطاووس ، ومشية الخائف المترقب أو الحذر المتلصص ، والمشية التي يصحبها هز الرأس أو الكتفين ، وغير ذلك ، بل إنهم يلجأون في بعض الأحيان إلى المشية ذات الدلالات المرضية كالعرج مثلا ، وبذلك يستعينون على رسم الشخصية أو إثارة الضحك بابتداء مشية تميزها ، ونحن نجد أن الأفلام السينمائية الفكاهية تركز أيضا على تمييز أبطال الكوميديا بمشية خاصة بهم ، وكلنا يذكر مشية « لوريل » في أفلام لوريل وهاردي ، ومشية شارلي شابلي ، ومشية الراحل اسماعيل يس .

والتقلع الارتفاع عن الأرض بجملته كحال المنحط من الصبيب ، وهي مشية أولى العزم والهمة والشجاعة ، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء وأبعدها من مشية الهوج والمهانة والتماوت ، فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة وهي مشية مذمومة قبيحة ، أو أن يمضي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج ، وهي مشية مذمومة أيضا ، وهي دالة على خفة عقل صاحبها ، ولا سيما إن كان يكثر من الالتفات أثناء مشيه يمينا وشمالا ، وأما من يمضي هونا وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، قال غير واحد من السلف : بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت ، وهي مشية رسول الله ﷺ ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صيب وكأنما الأرض تطوى له . . . وهذا يدل على أن مشيته لم تكن مشية بتماوت ولا بمهابة بل مشية أعدل المشيات .

ويمضي صاحب « زاد المعاد » فيحدد لنا أنواع المشية بعشرة فيقول « والمشيات عشرة أنواع هذه الثلاثة منها والرابع السعي والخماس الرمل ، وهو أسرع المشي مع تقارب الخطا ويسمى الخبط . . والسادس التسلان ، وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ولا يكرهه ، والسابع الحوزلي ، وهي مشية التمايل ، وهي مشية يقال إن فيها تكسرا وتمنشا ، والثامن القهقرى وهي المشية إلى

١ - ز المشية في اللفاظ المعجم

١ - ز - ١ مشية الانسان

ان الباحث في المعاجم العربية ليلهله ما تزخر به من الألفاظ التي تعدد أوصاف مشية الانسان من حيث الخطو والوطء وغير ذلك ، وهي لا تقتصر على الوصف وحده ، وإنما تعطينا في معظم الاحوال شواهد من الشعر تبين مواقع استخدام تلك الألفاظ ، كما انها تضيف عبارات هامة تتصل بعلم الاجتماع كان توضيح دلالة المشية على أخلاق الماشي من تكبر أو زهو أو خشوع ... الخ . او تتصل بالناحية الفسيولوجية من حيث شكل الجسم ، وبنائه من قصر أو طول قامه ، او من غلظ أو فخامة ، او تتصل بجنس الماشي كان يكون اللفظ قاصرا على مشية المرأة وحدها أو الرجل وحده ، أو أنه يستخدم لكل منها . ومن هذه العبارات أيضا ما يتصل بعمر الماشي من شباب أو هرم ، وما يتصل بحالته النفسية ، كالفرح أو الغضب . ومن العبارات الهامة أيضا ما يشير الى بعض مصاحبات المشية من حركات كhez المنكبين أو رفع اليدين ووضعهما . كل ذلك في فيض غزير يصعد معينا لا ينضب لمن يعملون في حقل الترجمة ، ويعيهم البحث عن المتعادلات اللفظية . وقد رأينا انما للمفائدة ان تقدم في نهاية البحث بعضا من هذه الألفاظ وهي التي لم نجد لها شواهد في الشعر الذي جمعناه لهذه

الدراسة ، وهذا لا يمنع وجود مثل تلك الشواهد .

١ - ز - ٢ مشية الحيوان

ولا تقتصر اللفاظ المعجم على مشية الانسان ، وإنما تشمل مشية الحيوان أيضا ، بل ان مما يلاحظ ان المعاجم ودواوين الشعر على السواء تزخر بالفاظ تتصل بمشية هذا الحيوانات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة اليومية للعرب في تلك الازمنة^(١) ألا وهي الابل والحيل ، كما تصف مشية حيوانات أخرى من البيئة كالذئب ، ويصحب هذه الألفاظ شواهد من الشعر في كثير من الأحيان ، وقد وجد أن تلك الألفاظ هي من الغزارة بحيث يجدر أن يخصص لها بحث مستقل ، اذ لا يتسع لها بحثنا هذا ، ويلاحظ ان المعاجم تفرص على التنويه - حيث يجب التنويه - بأن لفظا بعينه يمكن أن يستخدم للحيوان وللانسان على السواء .

وعما تجدر الإشارة اليه اننا قد وجدنا ان مقومات مشية الانسان كما حددناها في بحثنا هذا تطبق أيضا على مشية الحيوان من حيث الخطو والوطء والاتجاه ، مما يتضح من الاشعار التي تشبه فيها مشية شخص ما بمشية حيوان بعينه (انظر ٢ - ب - ٢ - ج)

١ - ح المائة وطريقة العرض

يقوم هذا البحث على دراسة ٢١٠ أبيات من الشعر و١٣٨ لفظا من ألفاظ المعجم التي

الى الرقم الذي ورد به أول مرة ، وقد رأينا أنه في حالة ورود بيت من الشعر به لفظان لكل منهما معنى حركي مختلف فإن مثل هذا البيت يندرج مرتين ، على أن يأخذ رقما جديدا في كل مرة ، ونسوق على سبيل المثال البيتين رقم ١٢٣ - ١٢٤ فقد وردا مع لفظ « هركولة » (الفاظ رقم ١٢) تحت ٢ - ج - ١ - أ - ١ (بطي) مع ثمايل وعجب بالنفس) ثم تكرر ورودهما مع لفظ آخر هو « ارتهاك » (الفاظ رقم ٥١) تحت ٢ - ج - ٢ - أ (ضعيف) ومن ثم فقد أعطيا رقمين جديدين ، وقد حرصنا على إثبات المراجع التي استقينا منها نماذج الشعر عند ورود كل نموذج وذلك بوضع رقم المرجع الذي ورد به في ثبت المراجع يليه رقم الجزء ثم رقم الصفحة ، أو رقم الصفحة فحسب اذا كان المرجع من جزء واحد ، وعلى ذلك فان ١٣/٢٣/١٠٩٨ تقرأ : لسان العرب (طبعة دار المعارف) الجزء ٢٢ صفحة ١٠٩٨ ، أما (٢٥٦/١٨) فتقرأ : طبقات الشعراء صفحة ٢٥٦ .

ومما تجدر الإشارة اليه اننا وجدنا ان « المصاحبات » الحركية وغيرها كثيرة متعددة ، ولكن كان لا بد من اثباتها مع مقومات المشية الاساسية ، لأنها هي التي تميز مشية انسان بعينه ، وهذا مما يجعل التفريعات المنبثقة عنها كثيرة العدد أيضا مما لا يتفق مع احد الاسس الهامة للمنهج العلمي في البحث ، الا وهو « الاقتصاد » على اننا رأينا ان نحقق الاقتصاد المطلوب بعمل مصفوفة matrix نلخص فيها

تتضمن وصفا لأنواع المشية عند الانسان ، وقد رأينا اضافة الفاظ المعجم هذه الى البحث رغم ان الاساس فيه هو دراسة المشية كما وردت في الشعر العربي ، ذلك لأننا وجدنا ان هذه الالفاظ تزخر بها المعاجم ، وهي وإن كانت ترد دون أن تصحبها شواهد من الشعر ، فان هذا لا يمنع ورودها في اشعار الشعراء في مصادر أخرى ، كما أننا وجدنا انها تخضع للتصنيف الذي حددناه لأنواع المشية ، وبهذا تكون مكملة للبحث ، على ان تدرج في نهايته تحت التصنيفات نفسها التي حددناها لمقومات المشية وصفاتها ، وتعطي ارقاما تتصل بأرقام الالفاظ التي وردت في الشعر ، كما تضاف نتائجها الى المصفوفة والشكل اللذين سيأتي الكلام عنهما ، وقد رتبنا هذه الالفاظ ترتيبا هجائيا على الصيغة التي وردت بها في المعاجم .

أما أبيات الشعر وهي التي تنطوي تحت « الطريقة الرابعة » (انظر ٢ - ب - ٤) فقد رأينا ان نزل اللفظ المعجمي الدال على المشية بحيث يندرج وحده في هامش ويعرض الى جانبه نموذج الشعر . وقد رتبنا الالفاظ هنا أيضا ترتيبا هجائيا على الصيغة التي وردت بها في الشعر ، واعطيت ارقاما متسلسلة مع ارقام الالفاظ المعجم ، أما نماذج الشعر فقد أعطيت ارقاما متسلسلة خاصة بها ، والغرض من هذا الترتيب هو تيسير الرجوع الى الالفاظ ونموذج الشعر عند الحاجة ، على انه اذا دعت الضرورة الى تكرار بيت بعينه فان النموذج لا يعطى رقما ، وإنما يحال

مقومات المشية وصفاتها ومصاحباتها كما وردت في الشعر العربي ، بحيث تكون أساساً لمصفوفة شاملة تجمع كل ما يمكن أن يكشف لنا من حقائق جديدة تتصل بالمشية .

ولما كان لا بد من حدوث تداخل بين المقومات وبعضها من جهة ، وبينها وبين المصاحبات من جهة أخرى فقد رأينا توضيح ذلك التداخل برسم شكل يقوم على أساس خط مستقيم تقع بين نهايته فقط مقومات المشية ومصاحباتها . فإذا وصلنا نقطة على الخط ترمز إلى السرعة مثلاً ، بنقطة أخرى تمثل إحدى الحركات الجسمية هي طائطة الرأس ، فأتينا نحصل على مشية تتميز بسرعة الخط مع طائطة الرأس ، وقد يحدث أحياناً تداخل أكثر من نقطتين ، فإذا وصلنا نقطة تمثل سرعة الخط مع نقطة تمثل تقارب الخط ، مع نقطة ثالثة تمثل نصب الظهر ، حصلنا على مشية تتميز بسرعة الخطي وتقاربها مع نصب الظهر ، وهكذا دواليك .

وتأتي كل من المصفوفة والشكل في نهاية البحث . وتعد المصفوفة تلخيصاً مرئياً حيث يمكن للقارئ من النظرة الأولى أن يلم بما جاء في البحث من حقائق عن المشية ومصاحباتها ، وتوضح المصفوفة أساساً مقومات المشية ، وتوضح أفقياً صفات تلك المقومات ودرجاتها ومصاحباتها . وتدل علامة « زائد » على وجود صفة أو درجة بعينها . أما علامة « ناقص » فتشير إلى عدم وجود تلك الصفة أو الدرجة أو

لحركة المصاحبة ، وتدل علامة زائد الموضوعية بين قوسين على أن واحدة من المصاحبات قد تحدث دون الأخرى . أما فيما يتعلق بجنس المشي فإيراعي على أنه حيث لا توجد علامة فإن الوصف ينطبق على مشية الرجل أو المرأة على السواء ، ويلاحظ أننا قد رقمنا الخط الرأسي بأرقام متسلسلة لكي يتيسر الرجوع إليها عند الإشارة إلى مشية بعينها .

ويجدر بنا أن نوه بأن هذه المصفوفة ليست شاملة ، ولن تكون كذلك إلا إذا أشتملت على كل ما جاء في الشعر العربي من ألفاظ أو أوصاف للمشية ، في عصر معين على الأقل ، وذلك أمر لا يتسع له بحث محدود كبحتنا هذا . ولكن يمكن القول بقدر لا بأس به من التأكيد أن العثور على مزيد من نماذج الشعر لن يضيف جديداً إلى المقومات والصفات الأساسية التي حددناها ، وإن ما يمكن أن يضيفه هو المصاحبات التي تصحب مشية بعينها ، وذلك مما يدخلها في نطاق الخاص لا العام ، ويمكن القول أيضاً أن مثل تلك المصفوفة يمكن أن تستخدم في غرض محدود كتقرير أوصاف ونسبة ورود المشية في شعر شاعر بعينه . على أنه يمكن إعطاء المصفوفة حيزاً أكبر بأن يترك فراغ أفقي بحيث يتسع لأي إضافات جديدة .

١ - ط منهج البحث

بدراسة مادة البحث رأينا أن نبدأ بعرض نماذج من الشعر تبين بعضاً من الأغراض التي يعمد فيها الشاعر العربي إلى وصف المشية ، ثم

هذه المقومات ودرجاتها ؛ وكذلك المصاحبات .
وتقسم الدرجات على خط مستقيم طرفه الأيمن
الدرجة الدنيا والطرف الأيسر هو الدرجة
القصى ، وقد حددنا المقومات بثلاث هي :

(١) الخطو وله صفتان :

أ - السرعة ودرجاتها هي : بطيء ، ثقيل ،
عادي ، سريع

ب - المسافة ، ودرجاتها هي : متقارب ،
واسع .

(٢) الوطء ودرجاته ثلاث : ضعيف ، سهل
(لين خفيف) شديد .

(٣) الاتجاه ودرجاته ثلاث : ملتو ، متجاذب
يميناً وشمالاً ، مستقيم .

أما المصاحبات فقد قسمناها على النحو التالي :

أ - خصائص حركية هي : هز الرأس ، طاطأة

الرأس ، تحريك الرأس ، تحريك اليدين ،

سرعة تقلب اليدين والرجلين ، رفع اليدين

ووضعها ، الاعتماد باليد على الخصر ، تحريك

الكتفين ، تحريك المنكبين ، هز المنكبين ،

تحريك الذراعين ، تحريك العضدين ، تحريك

اللايتين ، تحريك العجز ، تحريك الأعطاف ،

تحريك الاعضاء ، تحريك الجسد ، تمایل

الجسد ، نصب الظهر ، تقاعص ، تقلب

القدمين ، سرعة الرفع والوضع ، كثرة

الحركة ، القفز على رجل واحدة ، القفز على

الرجلين ، الوطء بشدة بإحدى الرجلين ،

الوطء بشدة بإحدى الرجلين ورفع الأخرى ،

الوطء بشدة بإحدى الرجلين ثم الأخرى على

يتبع ذلك محاولة لتحديد الطرق التي يتبعها حين
يتحدث عن المشية . وقد رأينا أن نحدد هذه
الطرق بأربع هي :

الطريقة الأولى : وصف المشية دون ذكر اللفظ
المعجمي الدال عليها .

الطريقة الثانية : جعل المشية مشيها ، أما المشية
به فتكون مشية . أو حركة واحدة مما يأتي :

أ - انسان في وضع معين ، كالشي في الوحل أو
فوق الكثبان الرملية .

ب - انسان يتصف بصفة بعينها كالأهدأ
والأقبل .

ج - حيوان كالنمر والجمال .

د - طائر كالقطا والغراب .

هـ - نبات كأغصان الشجر .

و - ظواهر الطبيعة كالسحاب .

ز - جماد كالرماح .

ح - رسم حروف الكتابة .

الطريقة الثالثة : حكاية صوت المشية

الطريقة الرابعة : وصف المشية باللفظ المعجمي

الدال عليها .

ولما كانت الطريقة الرابعة هي السائدة في

المادة موضع الدراسة فقد رأينا أن نركز عليها ،

وأن نجعلها أساساً لتحديد مقومات المشية

وصفاتها ، وقد رأينا أن أفضل معالجة للمشية

وفقاً لمادة البحث هو أن نحددها وفقاً لخطين

أساسيين :

الأول : خط رأسي وتقع عليه مقومات المشية

والثاني : خط أفقي وتقع عليه صفات كل من

يمكن ادراجه تحت ٢-ح- ١-هـ .
(مقارب) .

وقبل أن نبدأ بحثنا يجدر بنا أن نحدد مواقع أعضاء الجسم التي تشترك في المشية ، وذلك على النحو التالي :

الرأس

اليدين

الكتف : عظم عريض خلف المنكب .

العنق

الكاهل : أعلى الظهر يلي العنق

التيج : ما بين الكاهل الى الظهر

المرفق

المضد : غليظ الذراع وهو من المرفق الى

الكتف

الذراع : من طرف المرفق الى طرف الأصبع

الوسطى

الساعد : ما بين المرفق والكف

المعطف : الجانب : عطف الرجل جانبا

الظهر : من مؤخر الكاهل الى أدنى العجز

الحصر : وسط الانسان فوق الورك

الجذع : جسم الانسان ما عدا الرأس

واليدين

العجز : مؤخر الجسم

الساق : ما بين الكعب والركبة

الرجل : القدم . الرجل خلاف اليد .

القدم : الرجل

الأوصال : الوصل . كل عضو على حدة .

الجمع أوصال

النوالي ، اختلاف ، اهتزاز وارتعاش ، اضطراب ، إثارة التراب ، تراجع وتفكك .

ب - خصائص جسمانية هي : فحج ، قصر قامه ، غلظ ، ضخامة

ج - صفات خلقية : العجب بالنفس ، التخفي

د - حالة نفسية : الغضب .

هـ - العمر : الهرم

و - الجنس : رجل ، امرأة

وبذلك يبلغ مجموع عدد المصاحبات ٤٤

ولا يفوتنا أن ننوه بأن تعدد معاني الألفاظ قد

نتج عنه تداخل في التصنيفات المختلفة مما أشرنا

إليه في الهوامش حيثما اقتضى الأمر ، فنحن نجد

مثلا أن البيتين رقم ١٢٨ - ١٢٩ قد أدرجا تحت

٢-ح- ١-أ- (بطيء مع تمایل وعجب

بالنفس) لورود اللفظ المعجمي « الهونا » في

كل منها ، غير أننا نجد في هذين البيتين في

الوقت نفسه تشبيها بمشية السكران ، مما يمكن

أن يدرج أيضا تحت ٢-ب- ٢-أ- (التشبيه

بمشية انسان في وضع معين) وقد تحدث أكثر من

حالتين من حالات التداخل كما هو الحال بالنسبة

للبيتين رقم ١٤٤ فقد أدرج مع اللفظ المعجمي

« يدر من » تحت ٢-ح- ١-أ- ٨- (بطيء مع

شدة الوطء بأحدى الرجلين) ولكننا نجد به في

الوقت نفسه تشبيها بمشية طائر القطا مما يمكن

ادراجه أيضا تحت ٢-ب- ٢-هـ (التشبيه

بمشية الطيور) كما جاء به ذكر لتقارب الخطو مما

- ٥- مشى لي في جفينة
فيا حبذا من مشى
وقول أبي الحسن بن مبيد (٥٤/١٦) :
٦- ومهفف طالت ذوائب فرعو
كالليل فاض على الصباح المسفر
٧- قصر الدلال خطاه فاعتقلت به
في مقلة عن حبه لم تقصر
وأما عن الملح ف نجد الإشارة الى المشية
الحسنة من قول الريح بن أبي الحقيق
(١٨٣٩/٢١/٢٣) :
٨- رُبُّ عِلْمٍ لِي لَوْ أَبْصَرْتَهُ
حَسَنَ الْمَشْيَةِ فِي الطَّرْعِ الزَعْفِ
ومن أمثلة اللحن والهجاء ما يروى من أن هيد
الصد بن المعدل نظر الى جاره فقيرث الحال
يخال في مشيته ويخطر خطرة منكورة ، فقال فيه
(١٣٧/٥/٢٦) :
٩- يتمشى في ثوب عَصَبٍ مِنَ الْعُرِّ
ي على عظم ساقه مسدول
وفي الهجاء المزوج بالكاهة يقول بهاء
الدين زهير يصف مشية بغلة انسان ثقيل وكأنه
يهجوه (٢٢٧/٧) :
١٠- لك يا صديقي بغلة
ليست تسايي خردلة
١١- تمشي فتحسبها العيو
ن على الطريق مشكلة
١٢- وتخال مدبرة اذا
ما أقبلت مستعجلة

(٢) البحث

٢- أ المشية في الشعر العربي

سبق أن أشرنا في ١- ب الى دلالات المشية .
وعما يدل على اهتمام الشاعر العربي بتلك
الدلالات انه جعل المشية واحدة من أربع
خصائص يعرف بها عقل المرء ، فيقول الشاعر
(١٠٤/٢/١٩) :

- ١- يعرف عقل المرء في أربع
مشيته أولا والحرك
٢- ودور عينيه والفاظه
بعد عليهن يدور الفلك
وكما أن الروائي أو المؤلف المسرحي يتخذ
من المشية بعدا جديدا لتحديد شخصياته
فكذلك يفعل الشاعر العربي ، فهو يستخدم
المشية في وصفه للشخصية ، مما سنحصى فيها
بعد . وهو لا يفعل هذا فحسب وإنما نجده
يستخدم المشية في أغراض الشعر الأخرى
كالغزل والمدح والهجاء والفخر ، كما أنه يجعل
منها مؤشرا يدل على المستحسن والمستهج من
بالنسبة لثقافة أمته .

فاما الغزل فمن أمثله قول ابن سناء الملك
(١٦٠/١)

- ٣- وأقلها الحسن الذي قد تكاثرت
ملاحته حتى ثنت من الشغل
وقول البهاء زهير من أبيات له (١٤٥/٧) :
٤- فيما مَشَقَّ ذاك القوا
م ويسا طي ذاك الحشا

كما نجله ينهى عن المشية القبيحة باستخدام
أداة النهي كقول ابن عيدر به في خدمة السلطان
وصحبه من أبيات له (١٥٢/٣/٢٩) :

٢١- ولا تتبختر صَيَّ النعل زاهيا
ولا تتصدر في الفراش الممهد
٢- ب طرق معالجة الشاعر العربي للمشية
٢- ب- ١ الطريقة الأولى : وصف المشية دون
ذكر اللفظ المعجمي الدال عليها
من أمثلتها ما أوردها من نماذج تحت ٢- أ ،

الآيات ٣- ١٧
٢- ب- ٢ الطريقة الثانية : التشبيه .
٢- ب- ٢- أ التشبيه بمشية انسان في وضع أو
موقف معين

يقول العباس بن الأحف : في وصف تمشي
المرأة بالهونا ، أي في تَوَدَة ورفق :
٢٢- كأنها حين تمشي في وصافها
تمشي على البيض أو فوق القوارير
وفي وصف المشية المتناقلة يقول ماني المجنون
(٣٨٣/١٨) :

٢٣- وكأنهن اذا أردن خطا
يقلمن أرجلهن من وحل
ويقول العجاج (١٠٩٨/١٣/٢٣) :

٢٤- فقد سبتي غير ما تعذير
٢٥- تمشي كمشي الوحل المهور
٢٦- على خبندى قصب ممكور
فالوحل (بالفتح والكسر المتلطف بالوحل ،
والمهور : المقطوع النفس من الاعياء . وقصب
خبندى :

١٣- مقدار خطوتها الطو

يلة حين تسرع أنملة

١٤- تهر وهي مكانها

فكأنما هي زلزلة

وتستخدم المشية في مجال الفخر فيقول علي

ابن جبلة يصف رجله ومشيا (٦٤/١٤) :

٢٥- اذا اتسعت لم يلحق الذر شأوها

وخامرها دون النزاع انبهارها

ويقول الشاعر (٣٠٦٠/٣٤/٢٣) :

١٦- ليس براعي نعجات عَوَّكَل

١٧- أحلَّ يمشي مشية المحجَّل

وحتى في مجال الرثاء نجد الفخر بمشية

بعينها . فهذا هو أبو زيد القرشي يرثي ابن أخته

بقصيدة طويلة يشيد فيها ببلائه في الحرب بعد

أن نخل عنه سائر الفرسان ، ويصفه بأنه رغم

ذلك يمشي مشية رويدا ، لا مشية من سحقه

العدو فيقول (١٤٩/٣١) البيت ١٨ :

١٨- غير ما ناكل يسير رويدا

سير لا مرهق ولا مهلود

وفي تحديد المشية الحسنة والمشية القبيحة نجد

الشاعر العربي بحث على المشية الحسنة باستخدام

صيغة الفعل الأمر ، كقول عدي بن زيد

(٣٤٤/١/٥) :

١٩- فامش قاصدا اذا مشيت وأبصر

إن للقصيد منهجا وجسورا

وقول حسان (٣٣٦/٤/٢٧)

٢٠- ذروا التناجىء وامشوا مشية سُحْجا

إن الرجال ذوو عصب وتذكير

- وقول أبي الطيب المتنبي (٣٧/٤/٣٠٧) :
- ٣٣- ما زال طرفك يجري في دمائهم
حتى مشى بك مشي الشارب الثمل
ويصف الراجز مشية الأهوج بأنها كمشية
المألوس ، وهو الضعيف العقل أي المجنون
الذي ذهب عقله فيقول (٢٣/٢/١٠٧) :
- ٣٤- يتبعن مثل العمج المنسوس
٣٥- أهوج يمشي مشية المألوس
ونجد مشية المخبل ، وهو المشلول ، مشبها
به في قول رجل من بني العنبر في وصف النخل
(٣١/٥٨) :
- ٣٦- ترى الشارب السكران من حلباتها
إذا راح يمشي مثل مشي المخبل
وحين يصف امرؤ القيس تهاوي المرأة
وتناقلها في مشيتها فانه يصف تلك المشية بمشي
التزييف ، وهو الذي نزف دمه حتى صار لا يقدر
أن يسرع في المشي لما أصابه من الضعف ،
خصوصا إذا كان المكان مما يصعب السير فيه
كأكثبة الرمال ، فيقول (٣٣/٦٣) :
- ٣٧- وإذا هي تمشي كمشي النزير
ف يصرعه بالكثيب البهر
٣٨- برهره رودة رخصة
كخرسومة البانة المنفطر
ونلاحظ في البيت الثاني تشبيها بحركة النبات
(أنظر ٢- ب- ٢ - ٥)

- تمتله ريان ، والكفرة : الساق الغليظة
الحسنة .
وفي وصف المشية الآمنة تقول جنتوب أخت
عمروذي الكلب ترثيه (٢٣/٨/٦٤٩) :
- ٢٧- نمشي السور اليه وهي لاهية
مشى العذارى عليهن الجلابيب
ويشبه الراجز مشية الأقرس ، وهو من خرج
صلره ودخل ظهره ، بمشية النفساء فيقول
(١٢/٣/١١٤٣) :
- ٢٨- رب شريب لك ذي حساس
أقمس يمشي مشية النفساس
(أنظر أيضا « يقمس » الفاظ رقم ١٦ البيت
رقم ١٣٦ .
ونجد تشبيها بمشية الهرايلة وهم يحجون إلى
صنهم في قول جرير (٦/١٥٨))
- ٢٩- يمشي بها كل موشي أكاره
مشى الهرايل حجوا بيعة الزون^(١٢)
كما نجد تشبيها بمشية العروس في قول
الشاعر (٢٣/٢/١٣١) :
- ٣٠- مرت بنا أول من أموس
تمس فينا مشية العروس
(أنظر أيضا « تمس » الفاظ رقم ٥)
ومشية السكران في قول الشاعر
(١٦/٢/١٤١٠) :
- ٣١- قد ارتفت وهي لا ترائي^(١٣)
٣٢- إلى متاعي مشية السكران .

١٢- الهرايلة : الجوارس الذين يقومون على بيوت الناس في الليل ، وقيل هم طلبة القضاء على ملوكهم . والراوند : هريز . والزون : الضمن .

١٣- قال البيت : الإلتفات : مشى الرجل حذرا ليجري شيئا .

ويشير البحرني الى مشية الخاشع المتواضع في
قصيدة يمدح الخليفة المتوكل ويمنته بعد الفطر
فيقول (٢٧٩/٣ و ٢٨٠/٢) :

٣٩- ومشيت مشية خاشع متواضع

الله لا يُزهى ولا يتكبر
وفي الوطء الثقيل نجد تشبيهاً بمشية المقيد ،
اذ يقول الحارث بن وعلة الشيباني من قصيدة
يصف فيها الحرب التي خاضها مع قبيلة
(١١٨/٣١ ، البيت العاشر) :

٤١- ووطئنا وطأ على حنق

وطأ المقيد نابت المهرم
يعني وطأ ثقلاً ، ووطأ المقيد أثقل لأنه لا يحمل
بذية .

٢- ب- ٢- ب التشبيه بمشية انسان يتصف
بصفة بعينها

من أمثلة التشبيه بمشية « الأقبل » وهو من
كان في عينه قبل ، كان ينظر الى طرف أنفه
والاقبال نظر كل من العينين على الأخرى ،
فيقول ساعدة بن جوية (٢٣/٣٤/٣٠١٤) :

٤١- كمشي الأقبل الساري عليه

عفاء كالعبادة عفشليل^(١٤)
ونجد تشبيهاً بمشية « الأهدأ » وهو
الأحلب ، في قصيدة لأبي النجم العجلي
يتحدث فيها عما اعتراه من آيات الكبير فيقول
(٣٢٤/٥ ، ٣٢٩/٥ البيت الخامس) :

٤٢- حتى اذا بَعْدَ السَّخَامِ الأفرع
يمشي كمشي الأهدأ المكنع^(١٥)
فهو يقول : يمشي أبو النجم بعد الشباب كما
يمشي الأحلب المتقبض الكز من الكبير ،
فالكمع هو المتقبض .

كذلك نجد تشبيهاً بالرجل « الأصور » وهو
العين الصور ، أي مائل الجسم وذلك في قول أبي
كبير (٢٣/٣/٢٠٨) :

٤٣- ثم انصرفت ولا أبشك حبيتي

رعرش البنان أطيش مشى الأصور
ونجد تشبيهاً بمشية الجنيب ، ويقال رجل
جنب : كأنه يمشي في جانب متعففا . أنشد
ابن الأعرابي (٢٣/٨/٦٩١)

٤٤- ربا الجوع في أوتيو حتى كأنه

جنب به إن الجنيب جنب
أي أنه جاع حتى كأنه يمشي في جانب متعففا
وتشبه المشية المتمايلة ، التي يتمايل فيها
الماشي كأنما يجتذب مرة مرة يسرة ، بمشية
المجنون : قال الشاعر (٢٣/١٤/١٢٢٣) :

٤٥- أقبلت تنفخ الحُلاء بعيني

ها وتمشي تخلج المجنون
ومن الطريف أننا نجد أن الشاعر العربي لا
يقتصر في هذا المجال على مشية الانسان ، وإنما
نراه يجعل مشية الحيوان مشبهاً ، ومشية الانسان
مشبهاً به ، وعمل نقيض ما أوردناه آنفاً . مثال

١٤ - البحرني : عفشليل : الرجل الجليل القليل والكسل القليل . وقد ورد هذا البيت في لسان العرب (٢١٩/١٩/٣٠٩) بلفظ « الأقبل » بدل « الأقبل » وهو من تصحح عنه
كلها فلا .

١٥ - جاء ذكر الأهدأ أيضاً في البيت رقم ٨٨ .

٥١- ود رومة مُفَرِّعُشِي نعالجها
كمشي النصارى في خفاف الأرنديج
الأرنديج والبرنديج : الجلد الأسود وتعمل منه
الحفاف ، والدوية : المغازة

كما نجد أن ذا الرمة يشبه الثور وهو راجع من
غذائه من المرعى وقت الغذاء إذا ارتفع النهار
بمشية الماضي في أمره المسرول ، فيقول
(٢١٠/١٩/٢٣ ٢٥٦٠/٢٩/٢٢) :

٥٢- ترى الثور يمشي راجعاً من ضحاها
بها وشلّ مشي الهبرزيّ المُسْرُولِ

ويشبه الشاعر مشية راحلته بمشية الفاجرة من
النساء فيقول (١١٣٧/١٣/٢٢) :

٥٣- تمشي أمام العيس وهي فيها
٥٤- مشي الخريع تركت بنتها

٢- ب- ٢- جد التشبيه بمشية الحيوان
أما عن التشبيه بمشية الحيوان فمن أمثاله
التشبيه بمشية الحباب ، وهي الحية كقول ابن أبي
ربيعة (٩٥٦/٣/١٢) :

٥٥- وخفض عني الصوت أقبلت مشية الـ
حباب وركني خيفة السقم أزود
وقول حمد بن يحيى النحوي بصف امرأة تنفي
في مشيتها (٨٢/١٦/٢٠)

٥٦- مُنْعَمَةٌ بِحَارِ الطرفِ فيها
كأنّ حديثها سكرُ الشباب
٥٧- من التصديقات لغبر سوء
تسيل إذا مشت سيلُ الحباب

ذلك قول عمارة بن صفوان الحارث من قصيدة
يصف فيها ناقته ، ويشبه مشيتها بمشية المرأة
الحرقاء التي مال خارها وشمز ذيل بردها
(٥٦/٣١) البيت الثالث) :

٤٦- مشت مشية الحرقاء مال خارها
وَشُمَزَ عنها ذيلُ برودٍ ومنطلق
وقول عمر بن لجاء يشبه مشية الناقة بمشية
المرأة العانس التي تبتخر (٥٣٧/٧/٢٣) :

٤٧- تمشي الى رواء عاطناتها
٤٨- تمجس العانس في ربطاتها
قال أبو عبيد : تمجس في مشيه تمجسا اذا
تبتخر

وقول عمرو بن عقيل بن الحجاج المجيمي
من قصيدة يشبه مشية القطا بمشية فتاة مسرعة
(٢٢/٣١)

٤٩- تمشي كمشي فتاة الحي مسرعة
جداي قوم الى ستر يواربها
وقول المخبل السعدي من قصيدة ، يشبه
مشية البقر بمشية النبطيين عند الحج
(٢٠٢/٣٠) :

٥٠- تمشي به عين النعاج كأنها
نبيط توافي الحج حانت منازلة
والعين (بكسر العين) العظام العيون .
ويشبه الشماع مشية بقر الوحش في سواد
قوائمها ويبيض أبدانها بمشية رجال يبيض قد
لبسوا خفافا سودا فيقول
(١٤٦٣/١٧/٢٢) :

وقول عمرو بن ربيعة من قصيدة

(١٤٢/٢/٢٩) :

٥٨- فارجحت في حسن خلق عميم

تتهادى في مشيها كالحياب

وقول مطيع بن اياس (٤٥١/٢/٢٥) وقد

غناه حكم الوادي للوليد بن زيد

(٤٥١/٢/٢٥) :

٥٩- اكليها اللون

ورجها فتاد

٦٠- وخالها فريد

وليس له جيران

٦١- اذا مشت تشنت

كأها ثعبان

ونجد صخر الغي يشبه مشيته على رسله دون

أن يسرع حين تهب الريح الباردة فيقشعر

وينقبض بمشية السبتي (وهو النمر) وكأنه في

مشيته تلك غم يتلمس خطاه في ليلة باردة فيقول

(٢٧٨/١٥) :

٦٢- وماء وردت على زورق

كمشي السبتي براح الشقيفا

ومثله قول أبي المثلث لصخر هذا

(٢٧٨/١٥) :

٦٣- يا صخر ثم استقى ثم استمر كما

يمشي السبتي سرورب ظهره خفيل

ويشبه الشاعر مشية الشر والمجوم والغضب

بمشية الليث الغضبان فيقول (٧١/٣/١) :

٦٤- فلما صرّح الشُّرُ

فأمسى وهو عريان

٦٥- مشينا مشية الليث

غدا والليث غضبان

وفي ذم المشية المختلة نجد تشبيها بمشية

الفحل ، فتقول الشموس عميرة بنت غفار

الجليلية من قصيدة تعرض قومها على عملاق

الملك (٢٣٨/٢/٥) و (٧٥/٥/٢٦) :

٦٦- فبعدا وسحقا للذي ليس دافعا

ويختال : يمشي بيتنا مشية الفحل

ونجد تشبيها بمشية الجمال في قول كعب بن

زهير من قصيدة (٦٩/٢/٣٠) :

٦٧- ومشون مشي الجمال الزهر يعصمهم

ضرب اذا عرّدت السوء الشناييل

ومن جهة أخرى تشبه المشية السريعة بارقال

الجمال وهو سرعة سيرها فيقول النابغة الذبياني

(٢٩/٢/٣٠) :

٦٨- اذا استزلوا عنهن للطعن أرقلوا

الى الموت أرقال الجمال المصاعب

ونجد تشبيها بمشي الظباء قول سحيم عبد

بني الحساس (٥٨/٨) :

٦٩- أبصرتها تميل كالوسنان

من الظباء الحرد الحيسان

٧٠- تمشي بمثل القدح الجيشاني

٢ - ب - ٢ - د التشبيه بمشية حيوان في وضع

معين أو يتصف بصفة بعينها

يشبه صخر الغي المشية المتناقلة بمشي جمال

الحيرة ، وكان صخرأ خرج هو وجماعة من

أصحابه الى بعض متوجها ثم صادفوا في

٧٥- يا رب بيضاء من العواهج

٧٦- شُرابة اللبن المعماهج

٧٧- غشي كمشي العُشراء الفاسج

قال الأعرابي : العماهج : الألبان الجامدة ،
وقال الليث : العماهج اللبن الخائر من ألبان
الابل .

ونجد الأَفوه الأودي يشبه بمشية البعير
الرئيس ، والرعى : هز الرأس في السير ،
وناقة راعسة ، تميز رأسها في سيرها ، ويعبر
راعس ورعيس كذلك والرعسان : تحريك
الرأس ورجفانه من الكبر : يقول الإفوه الأودي
(١٦٧٠ / ١٩ / ٢٣) :

٧٨- يمشي خلال لإبل مستسلما
في قَدِّه مشى البعير الرئيس

ونجد وصفا لمشية الألد ، وهو الرجل
العظيم الخلق ، بتشبيهها بمشية الأبد ، وهو
الفرس البعيد ما بين الرجلين ، وذلك في قول
الشاعر (١٧٦ / ١ / ٢٧) .
٧٩- أَلْدُمَشِي مشية الأبد

٢ - ب - ٢ - هـ التشبيه بمشية الطيور

أما التشبيه بمشية الطيور فنجد أن الشعراء
يشبهون المشية المتقاربة الخطا بمشية القطاة ،
وتوصف مشية المرأة بصفة خاصة بمشية القطاة
لتقارب الخطو ، فيقول الشاعر (٢٥ / ٢٣) :

٨٠- يتمششين كما تم
شي قطا أو بقرات

طريقهم بني المصطلق فهرب أصحابه فصاح بهم
وهو يقول (٣٢٧٤ / ٣٦ / ٢٣) :

٧١- يا قوم ، ليست فيهم غفيرة

٧٢- فامشوا كما تمشي جمال الحيرة

يقول صاحب اللسان في شرح البيتين :
يقول : لا يغفرون ذنب أحد منكم ان ظفروا
به ، فامشوا كما تمشي جمال الحيرة

يقول صاحب اللسان في شرح البيتين :
يقول : لا يغفرون ذنب أحد منكم ان ظفروا
به ، فامشوا كما تمشي جمال الحيرة ، أي تراقبوا
في سيركم ولا تخفوه ، ونخص جمال الحيرة لأنها
كانت تحمل الأثقال ، أي مانعوا عن أنفسكم
ولا تمربوا .

ونجد تشبيها بمشية المهار وهي تلقى الرجل
فيقول الشاعر (٢١٤ / ٢٧) :

٧٣- يبدعن في أسوق خرس خلاجلها
مشي المهار بماء تنقي السوحلا
ونرى ابن بري يشبه للمشية التي بها غمز وعثار
بمشية الرهيص ، وهي الدابة التي يلوى باطن
حافرها من حجر تطؤه ، فيقول
(٣٥٠ / ٥ / ٢٣) :

٧٤- بيضاء تمشي مشية الرهيص .

ويشبه الشاعر مشية امرأة من العواهج
(وهم قوم من العرب) بمشية العُشراء
الفاسج ، وهي الناقة التي تمشي تفرج بين
رجليها وقد مضى لحملها عشرة أشهر أو
ثمانية ، أو هي كالنساء من النساء فيقول
(٣١٤٨ / ٣٥ / ٢٣) :

ويقول أبو العلاء المعري
(١٢/٥/١٩٩٦ ، الدرعية الشامنة
والعشرون ، البيت الثامن) :

٨١- قصار الخطو يدر من أو مشية القطا
فكيف اذا ما سرّذ في الحلق الدُرْمِ
يقول التبريزي في شرحه للبيت : يدر من من
الدرمان ، وهو شبه العرج ، أو يمشين مشية
القطا ، أي قصار الخطا غير لابسات الدروع
فكيف اذا لبستها .

ويقول جبران العود (١٢/٥/١٩٩٦) :

٨٢- ولما رأين الصُّبحِ سادرنَ ضَوْءَهُ
رسم قسطا البطحاء أو هُنَّ أَقْطَفُ
ويقول المتخلل بن الحارث الشكري
(١٢/٥/١٩٩٦) :

٨٣- فدفعتها فتدافعت

مشي القطاة الى السدير
ويقول سحيم عبد بن الحسحاس من قصيدة
(٨/٣٥/٨) البيت الرابع) :

٨٤- وماشية مشي القطاة اتبعها

من السرّ نخشى أهلها أن تكلها
ويقول الكميت (١٢/٥/١٩٩٦) :

٨٥- يمشي مشي قسطا البطاح تآوذاً
قُبُ البطون رواجح الأكفال
كذلك تشبه المشية المتقاربة الخطو بمشية
النعام ، كقول أبي الفتح البستي الكاتب من
قصيدة له (٣٤/٨/٦٧٥) :

٨٦- ثم انشنت مثل المهسى
وتبععتها رتك النعام^(١٦)

فالرتك هنا مقاربة الخطو

كذلك نجد تشبيها بمشية الظليم وهو ذكر
النعام في قول عمر بن لجأ ١٢/٢٣/١٠٤٦ :

٨٧- حَوَّزَهَا مِنْ بَرِّي النَّمِيمِ

٨٨- أهدأ يمشي مشية الظليم

(أنظر البيت رقم ٤٢ حيث ورد لفظ
(الأهدأ) .

ومن الطيور التي تشبه بمشيتها أيضا
الغراب . قال خلف الأحمر يهجو العتبي
والفيض ابن عبد الحميد (٦/٢١٤ ، ٣٣١)

٨٩- لنسا صاحب مولع بالخلاف

كثير الخطا قليل الصواب

٩٠- ألحج لجساجاً من الخنفساء

وأزهى اذا مامشى من غراب

قال الجوهري : قلت لأعرابي من بني
سليم : ما معنى زها الرجل ؟ قال : أعجب
بنفسه .

٢- ب- ٢- والنشيه بحركة النبات .

عما يشبه به من النبات اغصان الشجر ،
وكذلك النخل ، فالمشية المنثية المتكسرة تشبه
بثني الغصن ، كقول البحتري في الغزل
(٢/٦٣)

٩١- لست أنساه بادياً من بعيد

يتثنى تشنى الغُصْنِ غُصْناً

١٦- جده في معرطة البيت تشبه لكثرة التشبه بغيره من النظم ، ما يمكن إدراجه لجساج تحت ب- ٢- ج .

الشاعر يصف المشية غير المستقيمة
(٣٥٧/٣/٢٨)

٩٧- أقبلت من عند زياد كالحَرْفِ
تخط رجلاي بخط مختلف
٩٨- تكتبان في الطريق لام ألف

٢- ب- ٣ الطريقة الثالثة : حكاية صوت المشية
أما عن الطريقة الثالثة وهي التي يعتمد فيها
الشاعر إلى حكاية صوت المشية دون ذكر اللفظ
الدال عليها فمن أمثلتها ما أنشده الأعرابي
(٣١٧/١٢/٢٤) :

٩٩- ان زرتك تجده عَكْ وَكَا
مشيته في السدار هَاك رَكَا (١٨)
وهَاك رَكْ ، حكاية تبختره
٢- ب- ٤ الطريقة الرابعة
أما الطريقة الرابعة فهي أن يصف الشاعر
المشية باللفظ المعجمي الدال عليها .

ویدرسه هذه الالفاظ امکن : تحديد مقومات
المشية ودرجاتها ومصاحباتها
٢- ج مقومات المشية ودرجاتها ومصاحباتها
سبق أن أوضحنا هذا كله في منهج البحث
(انظر - ١ - ط) ونفصل الآن كلا على حدة
٢- ح - ١ - الخطو
(السرعة) ٢- ح - ١ - أ بطيء (انظر أيضا
الالفاظ رقم ٦٤ - ٦٦)

وتشبه المشية اللينة بالأود ، فيقول رجل من
قيس (٢٢٧٣/٣٦/٢٣) :

٩٢- يحملن سريا غطى وفيه الشباب معا
وانعطائه عيون الجسن والحسد
٩٣- ساجي الميون غضيفر الطرف تحسبه
يسوما اذا مامشى في لينة أود
ويشبه ابن مقبل المشية باهتزاز العيدان ،
وهو النخل الطوال ، فيقول
(٢٨٤٤/٣٢/٢٣)

٩٤- يمززن للمشي أوصالا مُنَعَمَةً
هز الجنوب ضحى عيدان يَرْنِيَا
٢- ب- ٢ - ز التشبيه بظواهر الطبيعة
ويشبه الأعشى المشية الوثيدة التي لا يرث فيها
ولا عجل بمر السحاب فيقول (١٦١/١)
و (١٩/٢٠) :

٩٥- كأن مشيتها من بيت جاريتها
مر السحاب لا يرث ولا عجل (١٧)
٢- ب- ٢ - ح التشبيه بالجماد
وتشبه المشية المهتزة أيضا باهتزاز الرماح التي
تحركها الريح وتميل بها ، كقول الشاعر
(٢٨٧٢/٣٢/٢٣) :

٩٦- مشين كما اهتزت رماحُ تسفُتْ
أعاليها مرُ الرياحِ النواصمِ
٢- ب- ٢ - ط التشبيه برسم حروف الكتابة
ونجد تشبيها للمشية برسم الحروف في قول

١٧ - هذا البيت على البيت رقم ١٢٥ .

١٨ - ورد في لسان العرب (٣٠٥٩/٢١/٢٢) : « إززه ، يذله ، إن زره ، ويقول التفريح : وتولم يهزوز لزان لزه عك زك ، ولزرا مكز ، وهو أن يسيل طرق لزاره ويضم
سكزه . »

يخطر اذا تبخر . قال أبو نواس في معرض
التحسر على الشباب (٨٩/١٣) :

١٠٥- كأن الشباب مطية الجهل
ومحسن الضحكات والهزل
١٠٦- كأن الجمال اذا ارتدبت به
ومشيت أخطر صيئت النعل
وقال البهاء زهير (١٣٢/٧)

١٠٧- مالى على الخبين قنزة
وانت قد زدت غره
١٠٨- تمشى لتظهر عجا
اذا مشيت وخطرة
وقال عبد الله بن العباس وكان أمره الوائق ان
يصنع هزجا فقال أبيات منها (٣٢٤/٥/٢٦)
١٠٩- زارن يخطر في مشيته
حوله من نور خديه قيس

٤- بخترى بختر بختره وتبخر : مشى
مشية المتكبر المعجب بنفسه . وفي حديث
الحجاج لما دخل عليه يزيد بن المهلب أسيرا فقال
الحجاج (٣١٩/٣/٢٣) :

١١٠- جميل المحيا بخترى اذا مشى
ويقول ابن عبيد ربه في خدمة السلطان وصحبته
من أبيات له (١٥٢/٣/١٩) :

١١١- ولا تبخر صيئت النعل زاهيا
ولا تنصير في الفرائش الممهدة (٢١)

١- تزاى مشى مشية فيها بطء . قال
رؤبة (١٣١٥/١٥/٢٣)

١٠٠- اذا تزاى مشية ازائبا
١٠١- سمعت من اضماتها دبادبا
ويلاحظ ان لفظ « دبادبا » هو حكاية صوت
المشية كما جاء بيانه في ٢- ب- ٣
٢- رويد الرود والرود المهلة في الشيء .
وفلان يمشى على رود ، اى على مهل . قال
الشاعر (١٨٢٩/٢٢/٢٣)

١٠٢- وسرت المطية مودوعة
نضحى رويدا وتمشى زرينا
يقول : لقد كبرت وصار مشى رويدا ،
وانما شدة السير وعجزته للشباب ، والرجل في
ذلك كالناقة وقال الجموح الظفري
(١٧٧٣/٢٠/٢٣)

١٠٣- تكاد لاتلم البطحاء وطأتها
كانها تيمل يمشى على رود (١٩)
وقال الشاعر (٣٠٨/٤/٢٣) .

١٠٤- ليلة امشى على مخاطرة
مشيارويدا كمشية البعج (٢٠)

رجل بعج (بالفتح والكسر) ضعيف كأنه
مبعوج البطن من ضعف مشيته

٢- ح- ١- أ- بطيء مع تمایل وعجب
بالنفس (انظر أيضا الفاظ رقم ٦٧- ٧٨)

٣- أخطر الخاطر : المتبخر . يقال خطر

١٩ - هذا البيت يمكن ايرادجه أيضا تحت ٢- ب- ٣- أ ، حيث التيه بمشية لسان في وضع معين .

٢٠ - يمكن ايراد هذا البيت أيضا تحت ٢- ب- ٢- ب حيث التيه بمشية لسان نصف بصلته بها .

٢١ - سبق رودة هذا البيت تحت رقم ٢١ ولذلك لم نطه ولما هنا .

- ١١٧ - من بعد جليبي المشية الجليض
 ١١٨ - فقد أفلدى مشية مقفلاً
 ٨ - الخوزري (بالفتح والسكون والفتح)
 الخوزري والخيزري والخيزلي والخوزلي : مشية
 فيها تبختر .
 قال حروة بن الورد (١١٤٨ / ١٣ / ٢٣) :
 ١١٩ - والناشبات الماشيات الخوزري
 ١٢٠ - كعتق الأوام أوفى أو صرى^(٢٤)
 ٩ - ذالت ماست وتبخترت - قال طرفة
 بن العبد (٤١ / ٢ / ٣٠)
 ١٢١ - فلذالت كما ذالت وليدة مجلس
 ترى رها أذيال مسح ملحد
 ١٠ - السبطري (بالكسر والفتح
 والسكون) الانبساط في المشي والسبطري :
 مشية التبختر قال المعجاج (١٩٢٤ / ٢٢ / ٢٣)
 ١٢٢ - بمشي السبطري مشية التبختر
 ١١ - مباحه ماح الرجل : مشى مشية
 البطء ، أي مشى يتبختر وهو ينظر في ظله ،
 تميح : تبختر في مشيته . تميل يمينا ويسارا .
 تمايح : تمايل . قال المعجاج
 (٣٠٩٦ / ٣١ / ٢٣)
 ١٢٣ - مباحه تميح مشيا وهوجا
 ١٢٤ - تدافع السيل إذا تمعجا

- ٥ - تميس ليس مشية فيها تمايل
 واختيال ، كقول العشار (وهو ما سبق ان
 اوردناه تحت رقم (٣) (١٣١ / ٢ / ٢٣)
 ١١٢ - مرت بنا أول من أموس
 تميس فينا مشية العروس
 ٦ - تهادى قال سحيم عبد بن الحساس
 من قصيدة (١٩ / ٨) :
 ١١٣ - الكني إليها عُمَرَكَ الله يسافى
 بأية ما جاءت الينا تهاديا^(٢٥)
 ١١٤ - تهادى سيل في أباطح سهلة
 اذا ماعلا صمدا تفرع واديا
 وقال الشاعر (١٨٨٨ / ٢١ / ٢٣) :
 ١١٥ - ومشيهم بالكثيب مور
 كما تهادى الفتيات الزور^(٢٦)
 وقال الشاعر ايضا (٢١٩ / ١٤ / ٢٤) :
 ١١٦ - قامت تهادى مشيا المبركلا
 بين لناء البيت والمصل
 وحكى ابن برى عن قطرب : الحركة : المشي
 الحسن .
 ٧ - الجليض (بالكسر والفتح والفتح
 المشدد) قال ابو عمرو : المشية الجليض فيها
 اختيال وجاض في مشيته : تبختر وهي
 الجليض ، بفتح الياء وهي مشية يختال فيها
 صاحبها قال رؤبة (٧٣٩ / ٩ / ٢٣)

٢٢ - الكني ، أي ليلتها على رسالة ، والكنة (ضم اللام ونسبها) : الرسالة ، وهي الأثر .

٢٣ - وردت هذه البيت في معجم نفائس اللغة (٣٧٢ / ٢٣) على النحو التالي :

ومشيهم بالكثيب للورد

والجليض مصغر الجلب بالضم ، وهو اللطيف من الأرض .

٢٤ - معنى أولي : لفرد ، وصري : وقع رساه .

وقال ربيعة الرقي من قصيدة يصف مشية
(ليل) « وأترابها (١٦٩ / ١٨) :

١٢٩- فأقبلن من شق ثلاثا وأربعا

وثنتين يمشين الهوينا تأودا

وقال من قصيدة يتغزل في حبيبته « سعاد »

(١٦٨ / ١٨) ، البيت (٣٢) :

١٣٠- مرتجة الردف مهضوم شواكلها

تمشي الهوينا كمشي الشارب الثلم (٢٨)

وفي هذا المعنى أيضا يقول جرير من قصيدة

(١٠٨ / ٣٠ - ١٠٩) ، البيت (١٦) :

١٣١- عطر الثياب من العبر مزيل

يمشي الهوينا مشية السكران

وقال ابن خفاجة الأندلسي من أبيات

(٣٤٢ / ٣) :

١٣٢- يمشي الهوينى نخوة ولربما

أطرقه طورا نشوة وشباب

وقال البولاني (٨٥٤ / ١٠ / ٢٣)

١٣٣- لما رأت أن رُوجتَ حَرْبُيْلا

ذا شبيبة يمشي الهوينى حوقلا

الحننيل من الرجال : القصير الموثق الخلق ،

وقيل هو القصير فقط

٢- ج- ١- أ- ٢- بطيء مع تمايل وعجب بالنفس

وغلفظ وقصر قامة

١٢- هركوله هركل هركلة (بالفتح

والسكون والفتح) مشي الهرقل في اختيال ويطه

(هرقل بالكسر والفتح أو الكسر والسكون :

من ملوك الروم) . قال الشناعر

(١٧٥٦ / ٢٠ / ٢٣ و ٣١٩ / ١٢ / ٢٤) :

١٢٥- حُيِّتَ من هركولة ضَنَّاك

١٢٦- قامت تمز المشي في ارتباك (٢٥)

١٣- الهويني الهويني تصغير هوني مؤنث

اهون (وقد جاء رسمها في بعض الآيات بالياء

وبعضها الآخر بالالف) الاختيال والتبختر

وهي مشية مستحسنة بالنسبة للمرأة ، قال

اعشى قيس (١٠٤ / ١٧ و ٣٢٢ / ٢ / ٣) :

١٢٧- غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الرجل (٢٦)

يقول الشارح : الوجي : الذي يشتكي

حافره ولم يخف بعد ، فيكون مشيه متثاقلا

فكيف اذا كان وحلا ؟ أي يمشي في الوحل .

يعني ان هذه الجارية لسمتها وتدللها تمشي

متهملة متمايلة .

وأشدد أبو الحسن علي بن عبدالمعز الأعرابي

(٤٨ / ٤ / ١٩)

١٢٨- جارية في سفوان دارها

تمشي الهوينا مائلا خوارها (٣٧)

٢٥- ورد هذا البيت تحت رقمي ١٩١- ١٩٢ مع حذف آخره « فرجاءك » ، اقتطاع رقم ٥١ .

٢٦- هذا البيت يسبق البيت رقم ٩٥ . ولكن هو أرواحه أيضا تحت ٢- ب- ٢٨ ، ٣- ، حيث التشبيه بمشية حيوان في وضع معين .

٢٧- قبل أن هذا البيت لتفتح من لفظ وقيل هو لفظ من مراد الأسدي . وقد ورد في لسان العرب (٢٢ / ٢٣ / ١٠٢٥ و ٢٢ / ٢٣ / ٢٢٩٩) بلفظ « بسفوان » بدل « في سفوان » و « سلاء » بدل « سلاء » .

٢٨- التبرائل : الخمار . تلم ثلثا وألف : حدث فيه خلل . ويلاحظ أن هذا البيت (رقم ١٢٨) والبيت الذي يليه (رقم ١٢٩) يمكن أيضا إدراجهما تحت ٢- ب- ٢٠- أ حيث التشبيه بمشية إنسان في وضع معين .

٢- ح- ١- أ- ٦- بطيء مع تقاعس وكبر السن
أنشد ابن الاعرابي في وصف الكبير (١٥٦/٣١)
١٦- يقعس ...

١٣٩- ورأين شيخا قد تحى صلبه
يمشي فيقعس أو يكب فيعثر (٣٠)

قص الرجل : برز صدره ودخل ظهره فيكون
صلبه كصدر الحمامة . والشاعر يصف مشية
الشيخ بأنه حين يقيم صلبه يتقاعس كاهله .

انظر « البزخ » الفاظ رقم ٩٠

٢- ج- ١- أ- ٧- بطيء في غضب

انظر الفاظ رقم ٨١ « حظل »

٢- ح- ١- أ- ٨- بطيء مع شدة الوطء بإحدى
الرجلين

١٧- تعرج العرج (بالفتح) والعرجة
(يضم العين وسكون الراء) : الظلع . وقد
عرج يعرج عرجانا : مشى مشية الأعرج .
وأعرج الرجل : جعله أعرج . قال الشاعر
(٢٨٦٩/٣٢/٢٣) :

١٤٠- فبت كأي متق رأس حية

لحاجتها إن تخطف النفس يعرج

١٨- حظلان عرج الرجل :

قال المبرار (٩٢٠/١١/٢٣) :

١٤١- وحشوت الغيط في اضلاعه

فهو يمشي حظلانا كالنقُر

١٤- زَوْنَك (بالفتح وتشديد الواو)
الزونك من الرجال القصير الحياك في مشيته
(انظر « حيكان » الفاظ رقم ٧٦) وقال ابن
الاعرابي : هو المختال في مشيته الرافع نفسه
فوق قدرها الناظر في عطفه ، الرائي ان عنده
خييرا وليس عنده ذلك وأنشد
(١٨٧٣/٢١/٢٣)

١٣٥- تَرَكَ النساءَ العاجِزَ الزَوْنَكَا

ورجل زونك اذا كان غليظا الى القصر ..

قال منظور الديبيري (١٨٧٣/٢١/٢٣)

١٣٦- وبعلمها زَوْنُكَ زَوْنِزِي

يُخَصِّفُ إِنْ فُزَّعَ بِالضَّبِغِطِي (٢٩)

٢- ح- ١- أ- ٣- بطيء مع تمایل وعجب بالنفس
وغلظ وضخامة

١٥- الجواوظ الجواوظ : الكثير اللحم
الجنافي الغليظ المختال في مشيته وفي نواذر العرب
رجل جياوظ : سمين سمح المشية ، قال رؤبة
(٧٢٧/٩/٢٣)

١٣٧- وسيف غياوظ لهم غياوظا

١٣٨- يعلو به ذو العضل الجواوظا

٢- ح- ١- أ- ٤- بطيء مع تمایل وعجب بالنفس
ورفع اليدين ووضعها

انظر الفاظ رقم ٧٩ « خرف » .

٢- ج- ١- أ- ٥- بطيء مع تمایل وعجب بالنفس
وتقليب القدمين

انظر الفاظ رقم ٨٠ « خندقة » .

٢٩- ورد لفظ « زويجها » بدل « يعلو » في لسان العرب (١٨٩٠/٢٩/٢٢) . والغليظي شيء يفرح به الأطفال .

٣٠- ورد في الحسنة « ظهره » بدل « صلبه » وأيضاً « يقعس » أو « يكب » موضع « يقعس » أو « يكب » .

٢ - ح - ١ - أ - ٩ بطيء مع شدة الوطء على
احدى الرجلين ورفع الأخرى
انظر « عش » الفاظ رقم ٨٢
٢ - ح - ١ - أ - ١٠ بطيء مع القفز على الرجل
او الرجلين

٢٢ - الحجلين - حجل الرجل حجلا
وحجلانا رَفَعَ رجلاً ومشى متريثا . حجل المقيد
قفز على الرجلين معا .

قال عنى بن زيد العبدي (٧٨٨/٩/٢٣) :
١٤٨ - أحاذل قد لاقيت ما يزغ الفقى
وطابقت في الحجلين مشي المقيد

وقال الشاعر (٣٠٦٠/٣٤/٢٣) وهو ما سبق
ان اورنائه تحت رقمي ١٦ - ١٧
- ليس براعي نعجات عوكل
- أحل يمشي مشية المحجل
انظر « عوكل » الفاظ رقم ٩٦
٢ - ح - ١ - أ - ١١ بطيء مع كثرة الحركة

٢٣ - الزوال - الزوال : الذي يتحرك في
مشيه كثيرا ، وما يقطعه من المسافة قليل انشد
ابو عمرو (١٨٩١/٢١/٢٣ - ١٨٩٢)
البحر المجمل الزوال

وقال ابن برى : الرجز لأبي الاسود المعجل ،
وهو مغير كله ، انظر « الزواك »
الفاظ رقم ٤٧

وقال الشاعر (٨٩٠/١٠ و ٩٢٠/١١/٢٣) :
١٤٢ - فظلل كأنه شاة ريس
خفيف المشي يخطل مستكينا
انظر ايضا « حظل » الفاظ رقم ٨١

١٩ - خزعة - خزعل في مشيته اي عرج
وخزعل الماشي : نفخ رجله : قال الشاعر
(١٢٥٠/١٣/٢٣) :

١٤٣ - متى أرد شدتها تخزعل
١٤٤ - خزعة الضبعان بين الأرملة

٢٠ - ظلع - ظلع الرجل والدابة في مشيه
يطلع ظلما : عرج وغمز في مشيه . قال مدرك
ابن حصن (٢٧٥٠/٣١/٢٣)

١٤٥ - من الملح لا تدري أرجل شملها
بها الظلع لما هرولت أم يمينها
وقال كثير (٢٧٥٠/٢٣١/٢٣)

١٤٦ - وكنت كذات الظلع لما تحاملت
على ظلمها يوم العشار استقلت

٢١ - يدرمن - الدرمان (بالفتح) العرج .
قال ابو العلاء المعري من درعته الثامنة
والعشرين (١٩٩٦/٥/١٢) ، البيت
الثامن :

١٤٧ - قصار الخطى يدرمن أو مشية القطا
فكيف اذا ما سرن في الحلقى السدم (٣١)

٢- ج- ١- ج- ٢- عادي مع تحريك
الذراعين

انظر الفاظ رقم ٨٦ « زرع »

٢- ج- ١- ج- ٣- عادي مع تحريك العضدين
انظر الفاظ رقم ٨٧ « عشوزن »

٢- ج- ١- ج- ٤- عادي مع تحريك المنكين
(والجسد)

انظر الفاظ رقم ٨٨ - ٨٩ « الحيكان » ،
عاك »

٢- ج- ١- ج- ٥- عادي مع تحريك العجز
انظر الفاظ رقم ٩٠ « بزخ »

٢- ج- ١- ج- ٦- عادي مع تحريك الإلوتين
انظر الفاظ رقم ٩١ « الحيكان »

٢- ج- ١- ج- ٧- عادي مع تحريك الإ
وتصر القائمة

انظر الفاظ رقم ٩٢ « جنادف »

٢- ج- ١- ج- ٨- عادي مع تحريك وهز
المنكين وقصر قامة

انظر الفاظ رقم ٩٤ « حكك »

٢- ج- ١- ج- ١٠- عادي مع تحريك
الاعطاف وقصر قامة

انظر الفاظ رقم ٩٥ « نأزوت »

٢- ج- ١- ج- ١١- عادي مع فحج وقصر
قامة

انظر الفاظ رقم ٩٦ « عوكل »

٢- ج- ١- ج- ١٢- عادي مع اهتزاز

٢- ح- ١- ب- ثقليل (انظر ايضا الفاظ رقم
٨٣- ٨٤)

٢٤- هرولة قال تأبط شرا
(١٥٣/٢/٢٦)

١٤٩- عشى اليك مشية هرولة
كمشية الأرخ تريد الجملة (٣٣)
يقول الشاعر : العلة : تريد ان تعمل بعد
النمل ، اي انها قد رويت فمشيتها ثقيلة

٢- ح- ١- ب- ١- ثقليل مع تراجع وتفكك
٢٥- تخزل - الحزل من الانخزال في
الشي كان الشوك شك قلعه ، قال
الاعشى (١١٥١/١٣/٢٣)

١٥٠- اذا تقوم يكاد الحصر ينخزل

ابن سيده : الحزل والتخزل والانخزال مشية
فيها تناقل وتراجع وزاد غيره وتفكك وهي
الحزيل والحوزلي مثل الخيزري والحوزري اذا
تبخر

وقال القطران السلمي من قصيدة طويلة
(٢٨/٣١ البيت ١٣) :

١٥١- من الماشيات الخيزلي مهاديا
اذا العشة العضلاء خف ثقلها

٢- ح- ١- ح- عادي (متوسط السرعة)
٢- ح- ١- ج- ١- عادي مع تحريك الرأس

او الاعضاء

انظر الفاظ رقم ٨٥ « دلدل »

قال ابن بسرى : ومنه قول رؤبة
(١٨٩٥/٢١/٢٣)

١٦٧- تاج وقد زوى بنا زيزاه
وقال تماخر .

١٦٨- مزوزيا لما رأها زوزت

يعنى نعمة ورثلها : اذا رأها أسرع اسرع
معها .

٢- ح- ١- د- ٤- سريع مع تحريك اليدين
(وقصر قامة)

انظر « جلف » الفاظ رقم ١١٥

٢- ح- ١- د- ٥- سريع مع تمايل

٣٨- زفاف زاف البعير والرجل وغيرهما
يزيف في مشيته زيفا وزيوفا وزيفانا فهو زائف
وزيف : اسرع وقيل هو سرعة في تمايل وانشد
(١٩٠٠/٢١/٢٣)

١٦٩- أنكب زفاف ومافيه نكب (٣٤)

وقيل زاف البعير يزيف تبخر في مشيته ،
وزافت المرأة في مشيتها تزيف اذا رأيتها كأنها
تستدير .

٢- ح- ١- د- ٦- سريع مع اضطراب

انظر « هرع » الفاظ رقم ١١٦

٢- ح- ١- د- ٧- سريع مع اضطراب وهز

الرأس

٣٩- غسل غسل الذئب والثعلب يعسل
عسلا وعسلانا : مضى مسرعا واضطرب في

وقال رجل من بني ضبة يوم الجميل
(٢٨١٦/٣٠/٢٣)

١٦٣- هذا عل ذولطى وهممة
يعجرم المشى الينا عجرة

كاليث يحمى شبله في الأجمة

٣٥- يجبع قال الازهرى : الخبيجة
مشية متقاربة مثل مشية المريب . وقال ابن
سيده : فيها قرمطة وعجلة . يقال : جاء يجبع
الى ربية ، وانشد (١٠٩٦/١٣/٢٣)

١٦٤- كأنه لما غدا يجبع

١٦٥- صاحب موقين عليه موزج

قال ابن سيده : وكذلك الخبيجة

٢- ح- ١- د- ٢- سريع مقاربة الخطو
وسرعة رفع الرجل ووضعها

٣٦- حثك الحثك مساكن التاء : ان
يقارب الخطو ويسرع رفع الرجل ووضعها .
حثك الرجل يحثك حثكا وحثكانا : مشى
وقارب الخطو واسرع . قال ذو الرمة
(٧٧/٩/٢٤)

١٦٦- لنا ولكم يائي أمست نعاها

نماشين امات الرُكَّال الحواتك

٢- ح- ١- د- ٣- سريع مع مقاربة الخطو

ونصب الظهر

٣٧- زوزى زوزى الرجل يزوزى
زوزاوة ، وهو ان ينصب ظهره ويسرع ويقارب
الخطو .

٢-ح-١-د-١٠ سريع مع قصر قامة
٤٧- اوزكت اوزكت المرأة اسرعت .
اوزكت المرأة في مشيتها وهي مشية قبيحة من
مشى القصار .

قال الشاعر (٤٠٤/١٢/٢٤)

١٧٥- يا ابن براء هل لكم اليها
إذا الفتاة اوزكت لديها

(المسافة) ٢-ح-١-هـ- متقارب

انظر الفاظ رقم ١١٧ - ١٢٤

٢-ح-١-هـ-١ متقارب مع فحج

٤٣- زاكوا الزوك (بالفتح وسكون
الواو) مشية في تقارب وفحج . قال الشاعر
(١٨٩١/٢١/٢٣)

١٧٦- رأيت رجلاً حين مشون فحجوا
وزاكوا وما كانوا يزوكون من قبل (٣٦)
فحج في مشيته : تدانى صدور قدميه وتباعد
عقباه فهو افحج . (انظر « حاك » الفاظ رقم
٩٣)

٢-ح-١-هـ-٢ (متقارب مع ثقل)

٤٤- الدالى دالت (بالفتح وسكون
اللام) للشئ دال دالاً ودالاناً ، وهي مشية
شبيهة بالختل (٣٧) ومشى الختل . وذكر
الاصمعي في صفة الخيل : الدالان مشى
يقارب فيه الخطو ويبنى فيه كأنه مثقل من

عدوه وهز رأسه : قال الشاعر وقد استعاره
للانسان (٢٩٤٧/٣٣/٢٣)

١٧٠- والله لولا وجع في العرقوب

١٧١- لكنت أبقي عسلاً من الذيب

(انظر ايضا البيت رقم ١٥٧ رقم ٣١
« نسل »

٢-ح-١-د-٨ سريع مع طأطة الرأس

٤٠- يقرب البقرة إسراع يطأطأ الرجل

فيه رأسه ، قال المتعب العبدى ، ويروى لعدى

بن وداع (٣٢٥/٤/٢٣)

١٧٢- فبات يجتاب شقارى كيا

يسفر من يمشى الى الجلْد

يقول صاحب اللسان : ورواه ابو حنيفة في

كتابه النبات : من يمشى الى الخلفة ، قال

والخلفة (بالفتح) : اللون

٢-ح-١-د-٩ سريع مع سرعة تقليب

اليدين والرجلين

٤١- أوب الأوب : السرعة والأوب :

سرعة تقليب اليدين والرجلين في السير . قال

كعب بن زهير (١٦٨/٣/٢٣)

١٧٣- كأن أوب ذراعها وقد عرقت

وقد تلفع بالقصور المساقيل

١٧٤- أوب يدى ناقة شمطاء معولة

ناجت وجاوبها نكد شاكيل (٣٥)

٣٥- بلاط هنا وجود تلبه مشية ، كما يمكن لدرجتها أنها تحت ٢-ب-١٠ مع الإيات رقم ٤٦-٥٤ حيث التلبه مشية حيوان لي وضع صين .

٣٦- جهاد في لسان العرب (٣٢٢/١٢/٢٤) : زك يزوك وزوكاً وزوكاً يهز زكاً ، وهو الزوك ، وهكذا يمكن لدرجها ملا التلبه أنها تحت ٢-ج-١٠-١٠٠ (يطى مع قتل)

دعيب بلفس) انظر أيضا ، زوك ، كلفه ، رقم ١٤ ، و د اوزكت ، الفاظ رقم ٤٢ .

٣٧- كلفر ، كلفر ، الفاظ رقم ٥٣ ، البيت رقم ١٩٦ .

٢-ح-١-هـ-٤-مقارب مع ضعف

٤٦- زكيك المشي الزكيك : المقرط
(انظر « قرط » الفاظ رقم ١٢٣)
(بالفتح) الرجل يزك زكا وزككا وزكيكا : مر
بقارب خطوه من ضعف ، وكذلك الفرخ ، قال
عمر بن لجاء (١٨٤٨/٢١/٢٣)

١٨٢- فهو يزك دائم التزغم

١٨٣- مثل زكيك الناهض المحم (٣٨)

والتزغم : التفضيب . قال ابو عمرو :
الزكيك مشي الفراخ ، والزوك مشي القراب
٢-ح-١-هـ-٥-مقارب مع سرعة الرفع

والوضع

انظر « زكيك الفاظ رقم ٤٦ و ١٢٥
و « الزكركة » الفاظ رقم ١٢٦

٢-ح-١-هـ-٦-مقارب مع تحريك
الجسد

٤٧- الزواك الزوك : مشي الغراب ،
وهو الخطو المتقارب في تحريك جسد الانسان ،
انشد ابو عمرو لابي الاسود العجلي
(١٨٩٢- ١٨٩١/٢١/٢٣)
١٨٤- البهتر المجتر الزواك

وقد سبق ان اوردنا البيت تحت رقم ١٤٦
(٢-ح-١-أ-١١) بطل مع كثرة الحركة
وهو ما قال عنه ابن بري انه مغير كله ، وان ما
انشده ابو عمرو هو هذا البيت بلفظ « الزواك »

حمل ، ويقال : الذئب يدال للغزال ليأكله يقول
يختله .

وقال ابن سيده : دال يدال دالا ودالي ،
وهي مشية فيها ضعف وعجلة ، وقيل هو عدو
مقارب . انشد سيويه فيها تضعه العرب على
السنة البهائم لضرب يضاطب ابنه
(١٣١٢/١٥ و ١٠٥٥/١٢/٢٣)

١٧٧- أهْدَمُوا بَيْتَكَ لَا أَبَالُكَ

١٧٨- وأنا أمشي الدال حوالكا

٢-ح-١-هـ-٣-مقارب مع ثقل وكبر
السن

٤٥- دالف دلف دلفا يدلف ودلفانا
ودليفا ودلولا (بضم الدال) اذا مشى وقارب
الخطو ويقال هو يدلف ويدلت دليفا ودليتا اذا
قارب خطوه متقدما ، وقد أدلفه الكبير قال طرفة
(١٤١٠/١٦/٢٣)

١٧٩- لا كبير دالف من هرم
أرهب الناس ولا اكبولضر

وانشد ابن الاعرابي (١٤١٠/١٦/٢٣)

١٨٠- هزئت زنيبة أن رأيت ثرعى
وان اتحنى لتقدم ظهري
١٨١- من بعد ما عهدت فادلفني

يوم يُمرُّ وليلة تسرى
والدالف : الكبير الذى اختضعت السن ،
والدالف مثل الدالاح (انظر « الدلح » الفاظ
رقم ٨٣ .

٣٨- هذا مثال آخر من لفظة تعدد اللهاى ، فقد أخرج لفظ « زكيك » هنا بضم « و » وأخرج تحت رقم ١٢٥ بعض مقاربه الخطو بسرعة الرفع والوضع . انظر لجاء ، الزكركة ، الفاظ رقم ١٢٦ .

قصير يقارب الخطو . قال امرؤ القيس
(٢٣/١٠/٨٥٨) :

١٩٠- وأعجبني مشي الحُرْقَة خالِدٍ
كَمْشِي أَتَان حُلَّتْ بِالنَّاهِلِ (١٠)

٢- ح- ١- و- واسع (بغيد)

انظر الفاظ رقم ١٢٧ - ١٢٩

٢- ح- ٢- الوطء

٢- ح- ٢- أضعيف

٥١- ارتباك الارتباك : الضعف في
المشي ، وفلان يرتبك في مشيته ويمشي في
ارتباك ، والارتباك استرخاء المفاصل في
المشي . والرهوك كالارتباك (انظر هركومة
و الفاظ رقم ١٢) قال الشاعر (١٢/٢٤/٣١٩)
٢٠ و ٢٣/٢٠/١٧٥٦)

١٩١- حيت من هرْكُوْتِه ضُنَاكُ

١٩٢- قامت تمز المشي في ارتباك (١١)

٢- ح- ٢- أ- ١- أضعيف مع اختلاف

٥٢- خَطَلُ الخطل مشية فيها ضعف
واختلاف . قال ابو الخطاب عمر بن عيسى
البهلي من قصيدة (٢٥/٤/١٦١) :

١٩٣- أما ترين البَهْدِيَّ قد نَحَلُ
وصار يمشي مشية فيها خَطَلُ

١٩٤- على ثلاث أَرْجُلٍ فيها عَصَلُ
واحدة في كفه من الأَسَلُ

(بالكاف) بدل « الزوال (باللام) و « البهر »
بدل « البهر » انظر « زكيك » الفاظ رقم
٤٦ ، ١٢٥ و « الزكركة » الفاظ رقم ٢٢٦
٢- ح- ١- ه- ٧- مقارب مع احتراز
وارتعاش وكبر السن

٤٨- هـدجان هـج (بالفتح) هـدجانا
وهـداج : مشي بخطوات مضطربة مرتعشة قال
أعرابي (١٩/٢/٣٥٨)

١٨٥- اشكو اليك وجهاً يركبني
وهـدجاناً لم يكن في مشيتي
١٨٦- كهـدجان الـال خلف الهقة (٣٩)

ويقول عروة بن الورد
١٨٧- اليس ورائي أن أدب على العصا
فيشمت أصدائي ويسأني أهلي
١٨٨- رهينة قمر البيت كل عشية

يطيف بي الولدان هـدج كالـال
٢- ح- ١- ه- ٨- مقارب في غضب

٤٩- تأتل تأتل تأتل الرجل (بالفتح) تأتل
أتولا وأتلا إذا قارب الخطو في غضب قال ثروان
المكلى (٢٣/٢٠/٤٧/١) :

١٨٩- أراني لا أتيك الا كأنما
أسأت والا أنت غضبان تأتل
٢- ح- ١- ه- ٩- مقارب مع قصر قامة

٥٠- حُرْقَة (بضم الحاء والزاي والفتح
المشد للـقاف) : رجل حَزَقٌ وحَزَقٌ وحَزَقَةٌ :

٢٩- يوجد هنا تشبيه مشية حيوان في وضع معين ، لا يمكن أن يراه تحت ٢- ب- ٢- د ، وكذلك البيت رقم ١٨٨ .

٥٠- هذا البيت يمكن أن يراه أيضاً تحت ٢- ب- ٢- د حيث التشبيه مشية حيوان في وضع معين .

٤١- سبق ورود هذين البيتين تحت رقمي ١٢٣ - ١٢٤ مع « هركومة » ، الفاظ رقم ١٢ ، أصبحت لها قرأتان جديدة جداً وهما تحت رقم ١٢٤ ، و « هـداج » .

٥٥ - سُرُحْ مشية صرح (بالضم) مثل
سُرُجْ ، أي سهلة . قال تميم بن ابي مقبل
(٨٠٤/٩/٢٣)

٢٠٠ - يرمي النجار بحيدار الحصى قُمَزَا
٢٠١ - في مشية سُرُحْ خلط أفانينا

٥٦ - هونا قال المرار (٦٢٩/٨/٢٣)
٢٠٢ - يمشين هونا ويعد الهون من جشم
ومن جنساء غضيض الطرف مستور
وقال جرير من قصيدة له (٦٦/٤)

٢٠٣ - تلقى الرجال اذا ما خيف صولته
يمشون هونا وفي أعناقهم خَصَصُ
٢ - ح - ٢ - ح شديد (انظر ايضا الفاظ
رقم ١٣١ - ١٣٣)

٥٧ - الوَهْصُ (بفتح الواو وسكون
الهاء) شدة الوطء ، يقال فلان وهاص المشية ،
قال الشاعر (٢٣٩/٣١)

٢٠٤ - شديدٌ وهْصٍ قليل الرَهْصِ مُتَدَلِّ
بصَفْحَتِه من الأنساع أندابُ
وقال ابن طفيل من قصيدة طويلة في غارة
كان أغارها على طيء فنال منها وقتل وأسْرُ
(٦/٣١ ، البيت ٣٦) :

١٩٥ - كسرطان البحر يمشي في الوَحْلِ (٤٢)
٢ - ح - ٢ - أ - ٢ ضعيف مع الاعتماد
باليدين على الخصر وكبر السن انظر الفاظ رقم
١٣٠ (حوقل)

٢ - ح - ٢ - أ - ٣ ضعيف في خفية مع
مقاربة الخطو وكبر السن
٥٣ - خاتل قال ابو منصور : المخاتلة
مشي الصياد قليلا قليلا في خفية لئلا يسمع
الصَيْدُ جَسْءً . قال ابن حنبل بن بلوغ
(١١٠٠/١٣/٢٣)

١٩٦ - حنتي حانبات الدهر حق
كأني خاتل يدنو لصيد
١٩٧ - قريب الخطو يحسب من يراني
ولست مقيدا أني بقيد (٤٣)

أي كبرت وضعت مشيتي
٢ - ح - ٢ - ب سهل (لين . خفيف)
٥٤ - تدافيا جاء في الصحاح :
الذفيف : الدبيب وهو السير اللين ، ودَفَّ
الماشي : خف على وجه الأرض . قال الشاعر
(١٣٩٦/١٦/٢٣)

١٩٨ - ليك أشكو مشيا تدافيا
١٩٩ - مشي العجوز تنقل الأثافي (٤٤)

٤٢ - يمكن إدراج هذا التمرج أيضا تحت ٢ - ب - ٢ - ح حيث يوجد تشبه بنية حيوان في وضع معين . والمصل : الأبرجاج . والحلال مشية فيها خفيف باختلاف . ويرجل حلال
الفراس : طولها مثل البيت الثاني من الصفا التي يستند عليها ، وقد اتخذها من الأسفل ، وهو شجر . ويقال كل شجر له شوك طويل فهو أسل . وفي البيت الثالث : كسرطان
معروف بكثر أرجله . هذا ورد فقط وحال ، بمعنى آخر تحت الألفاء رقم ١٣٥ .
٤٣ - جاء في خطر الألفي (٢٥٨/٢/٢٥) فقط ، وحال ، يدافع للهمة والياء بدل ، وحال ، ولقد ، لمشي ، يدل ، أي ، ورد للمعاقلة ومشى الصياد قليلا في خفية لئلا يسمع الصيد
جسه .

٤٤ - يمكن إدراج هذا البيت أيضا تحت ٢ - ب - ٢ - أ ، حيث تشبه بنية إنسان في وضع معين . والأثافي : الحجير الذي توضع عليه الأثَر . يقول صاحب اللسان ، إذا أراد تدافيا
القلب .

تمايل . قال الشاعر (٢٤٨/١٢/٢٤)
 ٢٠٨ - فأصبحن يشين الهمقى كأنما
 يدافعن بالأفخاذ هذا مؤزراً
 ٢ - ح - ٣ - الاتجاه
 ٢ - ح - ٣ - أملتوي
 انظر « تعكس » الفاظ رقم ١٣٤
 ٢ - ح - ٣ - أ - ملتوم تمايل
 انظر « خطل » الفاظ رقم ١٣٥
 ٢ - ح - ٣ - ب - التجاذب مينا وشمالا
 انظر الفاظ رقم ١٣٦ - ١٣٨
 ٢ - ح - ٣ - ح - مستقيم

٦١ - قاصد قاصد في مشيه مشى
 مستويا . قال عدى بن زيد وقيل لأبنة سودة بن
 عدى والصحيح الأول (٣٤٤/١/٥)
 فامش قاصدا اذا مشيت وأبصر
 إن للقصد منهجا وجسورا^(٤٧)

٦٢ - مسح مسح (بالضم) الشئ
 المستقيم . قال حسان (٣٣٦/٤/٢٧)
 ذروا التخالجاء وامشوا مشية مُحجا
 إن الرجال ذوو عصب وتذكير^(٤٨)
 ٢ - ح - ٣ - ح - ١ - مستقيم سهل
 ٦٣ - رهو (بالفتح والسكون) قال ابو

٢٠٥ - وهمن الحصى حتى كأن رضاضه
 ذرى برّدي من وابيل متحلب^(٤٩)
 ٢ - ح - ٢ - ح - ١ - شلبد مع مقاربة الخطو
 وكبر السن
 ٥٨ - توقص التوقص مقاربة الخطو قال
 الشاعر (٢٩٧/٣/٢٨ ، ٣١٠/١٤/٢٤)
 ٢٠٦ - يا ذفرلّم ما كان مشى رقصا
 بل قد تكون مشيتي ترقصا^(٥٠)
 ٢ - ح - ٢ - ح - ٢ - شلبد مثير للتراب -
 كبر السن

٥٩ - نقثله النقثلة (بالفتح وسكون
 القاف) مشية تثير التراب ، وقد نقثل . قال
 الجوهري : النقثلة مشية الشيخ يثير التراب اذا
 مشى . قال صخر بن عمير
 (٢٠١/١٤/٢٤) .

٢٠٧ - قاربت أمشي القعولى والفنجلة
 وتارة أنبث نبث النقثلة
 ٢ - ح - ٢ - ح - ٣ - شلبد على كل جانب
 مرة مع تمايل

٦٠ - الميقى مشى الهمقى (بالفتح وكبر
 الهاء) اذا مشى على جانب مرة وعلى جانب
 مرة . قال ابو العباس : الهمقى مشية فيها

٤٥ - بالأصل وهمن ، مصحفاً عن وهمن ، وفي النجديان : « مصطب » ، « مصطب » ، « مصطب » .

٤٦ - ورد هذا البيت في أسنن العرب (٣٠١/١٤/٢٣) بالنظ « ومن » بدل « ومر » ويقول الشرح : « أركباً دعماً لرفعهم » . والرقص ، من أي الرقص ، هو الحلب . وقال ابن
 عربيد : الرقص شبه بالرقصان من التشاكل ، والرقصان منظران . والرقص : تلوّن الحظوظ ، وقيل شدة الفرح ، وكلاهما من فعل الرقص . ورد هذا البيت أيضاً في أم زائدة وابن
 السكيت لركب ما كان مشى وهما أي كنت أرقص وأنا في شبيبي واليوم قد أصبحت سقي صغر مشى وهما .

٤٧ - هذا البيت يحدّثنا أيضاً عن ورود بيت ورد تحت رقم ١٩ .

٤٨ - هذا البيت أيضاً يحدّثنا عن ورود بيت ورد تحت رقم ٢٠ .

٢ - ح - ١ - أ - ١ بطي مع تمايل وعجب
بالنفس

٦٧ - اختيال فيه تبحر وعجب بالنفس

٦٨ - تبكل (بالفتح تشديد الكاف)

تبكل في مشيته اختال . ورجل جميل بكيل :

متنوق في لبسته ومشيه

٦٩ - تحيس تحيس (بالفتح) في مشيه

تحيسا اذا تبحر (انظر البيت رقم ٤٨)

٧٠ - تعاطف في مشيه : تنفى يقال :

فلان يتعاطف في مشيته بمنزلة يتهادى ويتمايل

من الحياء والتبحر

٧١ - تغطرس تغطرس في مشيه اذا

تبحر

٧٢ - تغطرف قال ابن الاعرابي :

التغطرف : الاختيال في المشي خاصة

٧٣ - جناني الجناني (بضم الجني وكسر

الفاء) الذي يتجاف في مشيته فيختال فيها .

وقال شعر : رجل جناني : يختال فيه ميل

٧٤ - الخنطلة (بالفتح والسكون

والفتح) مشي فيه تبحر

٧٥ - الضيطان (بالفتح وتحريك

الياء) : ان يحرك منكبيه وجسده حين يمشي مع

كثرة لحم ورعاوه . والضيابط : التمايل في

مشيته للتبحر .

٧٦ - عال عال في مشيه يعمل عيلا ، فهو

عبيد : السير السهل المستقيم . قال عمر

القطامي (١٧٥٩/٢٠/٢٣)

٢٠٩ - يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة

ولا الصدور على الأعجاز تتكسل

وقال طفيل بن عوف من قصيدة طويلة

(٦/٣١ البيت ٣٦)

٢١٠ - وعارضتها رهوا على متابع

شديد القصيرى عارجي عجب

٣ - الفاظ المعجم (٤٩)

٢ - ح - ١ الخطر

السرعة

٢ - ح - ١ - أ بطيء

٦٤ - أون أون (يسكون الواو) المشي

على مهل . أنت في سيرك أونا إذا اتدعت ، ولم

تجبل والأون : المشي الرويد ، مبدل من

المهون ، ابن السكيت ، أونوا في سيركم أي

اقتصدوا من الأون وهو الرفق

٦٥ - الحلمان قال خالد بن جنيه :

الحلمان إبطاء المشي وهو من الاضداد . انظر

و حلم ، الفاظ رقم ٩٨

٦٦ - الدليف المشي الرويد : وقيل

الدليف فوق الديب ، كما تدلف الكتية نحو

الكتية في الحرب وهو الرويد . انظر د دالف ،

الفاظ رقم ٤٥ وايات رقم ١٧٩ - ١٨١ انظر

ايضا د الحلم ، الفاظ رقم ١٠١

٤٩ - يلاحظ ان رقم الفاظ المعجم هذه متصل برقم الفاظ التي روت في الشعر ، كما ان حاورين طروحات المشية كالخطر (٢ - ح - ١) هي تلك التي اُضيفت هذه الطروحات كما

جاءت في البحث .

٢ - ح - ١ - أ - ٩ بطيء مع شدة الوطء على
إحدى الرجلين ورفع الأخرى .

٨٢ - عَشَزْ عَشَزْ (بالفتح) يعشز
عشزاناً : مشى مشية المقطوع الرجل ، وهو
العشزان ، أنظر «عشوزن» الفاظ رقم ٨٧ .

٢ - ح - ١ - ب ثقيل .

٨٣ - الدلح الدلح (بالفتح) وسكون
اللام) : مشى الرجل بحمله وقد أنقله ، دلح
الرجل بحمله يدلح دلحاً : مر به مثقلاً وذلك إذا
مشى به غير منبسط الخطو لثقله عليه ، وكذلك
البعير تدلح : تمشي مشي المتقل . قال
الأزهري ، الدالح : البعير إذا دلح وهو تتأفله
في مشيه من ثقل الحمل .

٨٤ - المعجاء مشية فيها ثقل .

٢ - ح - ١ - ح عادي (متوسط) .

٢ - ح - ١ - ح - ١ عادي مع تحريك

الرأس والأعضاء

٨٥ - دللد دللد دللد دللد دللد دللد دللد
رأسه : حركها في المشي ، تدللد في مشيه :
اضطرب واهتز .

٢ - ح - ١ - ح - ٢ عادي مع تحريك

اللرايين

٨٦ - ذوع ذوع (بالفتح) في المشي :

حرك ذراعيه

٢ - ح - ١ - ح - ٣ عادي مع هز

المضدين

٨٧ - عَشُوزُنْ العشوزن (بالفتح

وسكون الواو) الأعسر ، وهو عشوزن المشية إذ

خيال ، وتعمل : تبخر وتمايل واختال وفلان
خيال متعيل ، أي متبختر .

٧٧ - العرقلي (بالفتح وسكون الراء)
مشية تبخر .

٧٨ - حيكان حاك في مشية يحيك حيكا
وحيكانا فهو حائك وحياك ، تبخر واختال .
ومشية حيكي إذا كان فيها تبخر : (أنظر
زوتك الفاظ رقم ١٤ البيت رقم ١٣٧)

٢ - ح - ١ - أ - ٤ بطيء مع تمايل وعجب
بالنفس ورفع اليدين ووضعهما .

٧٩ - خزف خزف (بالفتح والسكون)
الخطر باليد عند المشي أي مشى تبخر :
أنظر : «أنظر» الفاظ رقم ٣ ، أبيات رقم
١٠٨ - ١٠٥ .

٢ - ح - ١ - أ - ٥ بطيء مع تمايل وعجب
بالنفس وتقليب القدمين .

٨٠ - خندقة الخندقة (بالفتح وسكون
النون) أن يمشي مفاجئاً ويقلب قدميه كأنه يفرغ
سهماً وهو من التبختر . وقد خندف وخص
بعضهم به (المرأة) قال الأعرابي :

الخندوف (بضم الخاء) الذي يبخر في
مشيه كبيراً ويطرا .

٢ - ح - ١ - أ - ٧ بطيء في غضب

٨١ - حظل حظل (بالفتح) حظلاتا :
توقفت في مشيه وتمهل ويقال : هو يظلل حظلاتا
أي يمشي مشية الغضب . أنظر «حظلان»
الفاظ رقم ١٨ وأبيات رقم ١٣٨ - ١٣٩

السرعة في السير
٩٩ - الأزي (بالفتح) السرعة
والنشاط يمضي الأزفا . يمضي سريعا

٩٢ - جنادف الجنادف (بضم الجيم
وكسر الدال) القصير المألوف الخلق ، وقيل الذي
إذا مشى حرك كنفه وهو مشى القصار .

١٠٨ - عددهد (بالفتح وسكون الدال) في المشي وغيره أسرع والعددة : المجلة

١٠٩ - غلفاق (بكسر العين وسكون اللام) امرأة غلفاق المشي : سريته .

١١٠ - الهذمة (بالفتح وسكون الدال) السرعة في المشي .

١١١ - هردج (بالفتح وسكون الراء) هردج الرجل : أسرع في مشيه .

١١٢ - هوذل (بالفتح وسكون الواو) وهوذل الرجل : مشى بسرعة .

٢ - ح-د-١-٥-١ - سريع مع مقاربة الخطو .

١١٣ - الختعة أنظر « يجمع » الفاظ رقم ٣٥ البيت رقم ١٦٤ و « الحدم » الفاظ رقم ١٠١ .

١١٤ - هلم (بالفتح وسكون الدال) مشى في سرعة وقمرطه (أنظر « قرط » الفاظ رقم ١٢٣) .

٢ - ح-د-١-٥-٤ - سريع مع تحريك اليدين (وقصر القائمة) .

١١٥ - جدف (بالفتح) حرك يديه إذا أسرع في مشيه . وجدفت المرأة تمجدف مشيت مشي القصار ، جدف الرجل في مشيته أسرع .

٢ - ح-د-١-٥-٦ - سريع مع اضطراب ١١٦ - هرع هرعاً إليه : مشى إليه باضطراب وسرعة

١٠٠ - الجفز (بالفتح) سرعة المشي ، يمانية حكاهما ابن دريد ، قال : ولا أدري ما صحتها .

١٠١ - الحلم (بفتح الحاء وسكون الدال) الاسراع في المشي شبيه بمشي الأرناب ، والحذم المشي الخفيف . ويقال : حلم في مشيته إذا قارب الخطى وأسرع والحلم (الضم) والفتح (القصير من الرجال القريب الخطو ، وقال أبو عنان : الحلمان شيء من اللميل فوق المشي قال : وقال لي خالد بن جنية : الحلمان إبطاء المشي ، وهو من حروف الأضداد .

١٠٢ - حنق (بالفتح وسكون النون) غنقاً أو غنقاً يعني ذاهباً بسرعة مشي .

١٠٣ - سفا سفا في مشيه وطيرانه يسفو سفو : أسرع

١٠٤ - الضكضة (بالفتح وسكون الكاف) ضرب من المشي فيه سرعة ، وقيل هو سرعة المشي .

١٠٥ - الطرق (بالفتح وسكون الراء : سرعة المشي وقال : العنق جهد الطرق قال الأزهرى ومن هذا قيل للراجل مطرق وجمعه مطريق .

١٠٦ - الطهق (بالفتح وسكون الهاء) سرعة المشي ، يمانية .

١٠٧ - العجرة (المعجزة والعجرفة : السرعة في المشي ، قال الأزهرى : يكون الجمل عجري المشية ورجل فيه عجرفة ويعبر ذو عجاريق .

١٢٦ - الزكزة : الزكزة أن يقارب الرجل خطوه مع تحريك الجسد (أنظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣ و « زكيك » الفاظ رقم ١٢٥) .

٢ - ح - ١ - و واسع (بعيد)
١٢٧ - الحب : الحب خطو فسيح دون العنق (أنظر بيت أبي العلاء رقم ١٥٤) .
١٢٨ - خطرف : خطرف (بفتح الخاء وسكون الطاء) في مشيه وتخطوف : توسع . وجعل خطروف .

يخطرف خطوه ويتخطرف في مشيه : يجعل خطوتين خطوة من وساعته .
١٢٩ - هرجل : هرجل (بالفتح وسكون الراء) اختلط مشيه . كان بعيد الخطو .
الهرجل (بضم الهاء) البعيد الخطو .
٢ - ح - ٢ - أ - ٢ الوطء

٢ - ح - ٢ - أ - ٢ ضعيف مع الاعتماد باليدين على الخصر ، وكبر السن
١٣٠ - حَوَقَل : حوقل (بالفتح وسكون الواو) حوقلة وحيقالا : مشى ناعيا وضعف . ضعف وصار مستا .

حوقل الشيخ : اعتمد بيديه على خصره اذا مشى .
٢ - ح - ٢ - ح شديد .

١٣١ - العَلَسُ : العلس اللبس (بالفتح وسكون الدال) : شدة الوطء على الأرض .
١٣٢ - الزكري : الزكري من النساء : الشديدة الوطء اذا مشت .

المسافة

٢ - ح - ١ - هـ متقارب
١١٧ - برقط : خطا خطوا متقاربا .
البرقطة : خطو متقارب .

١١٨ - التازف : الخطو المتقارب .
١١٩ - حرقص : (بالفتح وسكون الراء) حَرَقَصَ في المشي : قارب خطاه .

١٢٠ - دلث : دلث يدلث دلثا اذا قارب خطوه متقدما (أنظر دالف الفاظ رقم ٤٥) .
١٢١ - الرتكان : تقارب الخطو . وفي التهذيب : الرتكان بلابل خاصة (أنظر البيت رقم ٨٦ حيث يرد لفظ « رتاك ») .

١٢٢ - فهد : فهد (بالفتح) فهدا في مشيته : قارب في خطوه .
١٢٣ - قرمط : قرمط الرجل : مشى مقاربا خطواته (أنظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣) .

١٢٤ - المطابقة : المشي في القيد ، وهو الرسف (أنظر « الحزم » الفاظ رقم ١٠١)
٢ - ح - ١ - هـ - ٦ متقارب مع سرعة

الرفع والوضع

١٢٥ - زكيك : قال الأصمعي : الزكيك أن يقارب الخطو ويسرع الرفع والوضع . ويقال : زكت الدرأجة كما يقال زافت الحمامة (أنظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣ و « الزكزة » الفاظ رقم ١٢٦) .

٢ - ح - هـ - ٧ متقارب مع تحريك الجسد .

- ١٣٣ - الوهس (يفتح الواو)
وسكون الماء) شدة السير . شدة الوطء
٢ - ح - ٣ - الاتجاه
٢ - ح - ٣ - أ - ملتوي
١٣٤ - تَمَكَّسَ : تعكس الرجل في مشية :
تأوى . تعكس الرجل : مشى مشية الأفعى .
وهو يتمكس تعكسا كأنه قد يست عروقه ،
ورغمًا مشى مشية السكران كذلك
(٢٣ / ٣٤ / ٣٠٥٧) . وقد جاء في
٢٣ / ٣٣ / ٢٩٤٥ لفظ « تمكس » بمعنى تأوى في
مشيته .
٢ - ح - ٣ - أ - ١ - ملتوم مع تمايل
١٣٥ - خطل : الخطل : التلوي والتبخر
وقد خطل في مشية
٢ - ح - ٣ - ب - التجاذب ميمًا وشمالا
١٣٦ - التخلع : التخلع في المشي مثل
التخلع . وتخلع المجنون في مشيته تجاذب ميمًا
وشمالا (أنظر البيت رقم ٤٥) .
١٣٧ - الترهوك : الترهوك : مشي الذي
يموج في مشيته .
١٣٨ - الكثر : الكثر (بالفتح) والكثرة
(بسكون الشاء) مشية فيها تخلع كمشية
السكران
وقبل أن تقدم الشكل الذي اقترعناه
بالإضافة إلى المصنوفة - لتلخيص أنواع المشية
يملو بنا أن نوضح رموز المصاحبات ، وهي على
النحو التالي كما وردت في المصنوفة :

[illegible][illegible]

[illegible]

ولما كان الكثير مما جاء من الفاظ المعجم متعدد المعاني فقد كان لا بد من حدوث الكثير من التداخل بحيث أننا نجد أن البيت الواحد من الشعر يمكن إدراجه تحت أكثر من عنوان ، سواء من حيث الطريقة التي يتبعها الشاعر في وصف المشية ، أو من حيث صفاتها ، أو من حيث اللفظ المعجمي الدال عليها ، مما حدا بنا إلى التنبيه على هذا كله في الهوامش حيثما اقتضى الأمر .

ولقد أسفرت مادة البحث عن اهتمام الشاعر العربي بوصف المشية من ناحية السرعة أو البطء ، ومن ناحية تقارب الخطو واهتمامه بابرار أثر الكبر على مشية الإنسان ، بل أننا نجد أنه حين يشكو مما فعله به الكبر يشكو أيضا من تغير مشيته (أنظر « هذجان » الفاظ رقم ٤٨ أبيات ١٨٥ - ١٨٨ و « خاتل » الفاظ رقم ٥٣ أبيات ١٩٦ - ١٩٧) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الألفاظ الدالة على المشية ، وبخاصة تلك التي ترتبط بالسرعة أو التبختر ، تتميز بتركيب صوتي يحاكي نوع المشية ، بمعنى أن الأصوات التي يتركب منها

ومن ثم فإننا إذا أردنا أن نحدد مشية بعينها ولتكن ما ورد تحت الفاظ رقم ٣٤ ، ١١٣ - ١١٤ (سريع مع مقاربة الخطو فإننا نوصل النقطة أ ٤ (سريع) بالنقطة أ ٥ (متقارب) على هذا النحو :

فإذا كان هناك مصاحبات كالمشية التي وردت تحت الفاظ رقم ٩٤ مثلا (عادي مع تحريك وهز المنكين وقصر قامة) فإن وصف المشية يوضح بتوصيل النقط المطلوبة وهي أ ٣ - د ٩ - د ١٠ - د ٣٦ وهكذا .

٤ - الختام

وبعد ، فقد اتضح من هذا البحث أن الشاعر العربي قد عني بالمشية في تحقيق أغراضه من مدح أو ذم أو فخر ، وفي وصفه للشخصية المحورية في قصائده وأنه يتبع في ذلك طرقا أربعة : فهو إما أن يصف المشية دون ذكر اللفظ المعجمي الدال عليها ، أو أن يجعل المشية مشبها ، أو أن يكتفي بحكاية صوت المشية ، أو أن يصف المشية باللفظ المعجمي الدال عليها .

وبدراسة ماد البحث أمكن تصنيف مقومات المشية كما جاءت في الفاظ المعجم وشعر الشعراء ثلاثة هي : الخطو والوطء والاتجاه ، وإلى تحديد صفاتها ودرجات كل منها .

وبالإضافة الى هذا كله فإن أهم ما أسفر عنه
البحث هو هذا الجراء اللفظي المذهل الذي
تتمتع رسميز به انه . ريب . وصد . نعد .
الوافر الذي يتميز به الشاعر العربي .
والله ولي التوفيق .

اللفظ تحاكي الصوت الذي تحدثه مشية بعينها ،
وذلك مما يدخل تلك الالفاظ في نطق ما يعرف
في علم اللغة بأسماء الأصوات ، ر . ر .
« الحزقة » الفاظ رقم ٥٠ البيت ١٩٠
و « الحمقي » الفاظ رقم ٦٠ البيت ٢٠٨ .



ثبت المراجع

- ١- ابن سناء الملك ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، مراجعة الدكتور حسي محمد نصر الفاعرة ، دار الكتب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ - ١٩٦٨م
- ٢- الفيلحة الواضحة ، تأليف علي الجلام ومصطفى أمين - الفاعرة ، دار المعارف ١٩٧٥
- ٣- تاريخ الأدب العربي ، تأليف أحمد حسن الزيات ، الطبعة الخامسة والمطبعة الفاعرة دار البنية مصر للطباعة والنشر
- ٤- جيز : تأليف محمد إبراهيم جعة ، سلسلة توابع الفكر العربي رقم ١٩ ، الفاعرة ، دار المعارف ١٩٦٥
- ٥- خزائن الألب ولب لباب لسان العرب ، تأليف عبد الله بن جرير الجاهلي الفاعرة - لجمعية السلفية ومكتبتها ، ١٣٤٨هـ
- ٦- الفاعرة في الأفعال الفاعرة ، لإمام حرر في الأصل ، الأصناف - حلقه وقدم له ووضع حواشي وأبهره عبد المجيد لفتايش الجزء الأول - سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٦ الفاعرة ، دار المعارف ١٩٧١ .
- ٧- ديوان أبيه زهير ، شرح وتحقيق محمد طاهر الجبلاني ومحمد أبو الفضل إبراهيم - سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٣ ، الفاعرة ، دار المعارف ١٩٧٧
- ٨- ديوان منجم عبد بن الجسحاس ، بتحقيق عبد العزيز الجيزي نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م سلسلة لمكتبة العربية (التراث) الفاعرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٤ - ١٩٦٥م
- ٩- زاد المعاد في هدي خير العباد ، للإمام ابن قيم الحوزية ، الفاعرة - إجازة نصرة ومكتبتها
- ١٠- السيرة النبوية لابن هشام ، قدم لها وعرف عليها وضبطها عبد الرزوق سعد ، الفاعرة - شركة الطباعة الفنية المتحدة ، ١٩٧٤
- ١١- شيوخ الدر ، في لداعل الكلام بالعربي المختلفة ، لأي النيب عبد الواحد بن علي الفاعري ، قدم له وحلقه وعرف عليه محمد عبد الواحد - سلسلة ذخائر العرب رقم ٢١ ، الفاعرة ، دار المعارف ١٩٦٨
- ١٢- شرح سبط الرقا ، لأي الدلاء للمري ، الفاعرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤
- ١٣- الشعر العربي والذوق المعاصر ، تأليف الدكتور محمد كامل حبيب ، سلسلة شهرية صدر عن دار مجلة الأمانة والشعر ن الفاعرة
- ١٤- شعر علي بن جهم ، جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوفان ، سلسلة شعر سرب رقم ٤٨ ، الفاعرة ، دار المعارف ١٩٧٢ .
- ١٥- شعر المجلدين في العصر الجاهلي والأسلامي ، تأليف الدكتور أحمد كمال وكي ، الفاعرة دار الكتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- ١٦- شعراء الاسكندرية في المصور الاسلامي ، تأليف عبد السلام الفاعري تقديم الدكتور محمد له الجاهري ، الفاعرة
- ١٧- الشعراء وقائد الشعر ، تأليف علي الجيزي الفاعرة دار المعارف ١٩٦٩
- ١٨- طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار احمد فراج ، سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٠ الفاعرة دار المعارف ١٩٧٦ .
- ١٩- الملوك القويدي تأليف احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، بتحقيق محمد سعيد العريان ، طبعة الأولى الفاعرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- ٢٠- حيون الاخبار تأليف محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، الفاعرة دار الكتب المصرية ١٤١٣هـ - ١٩٩٨م
- ٢١- حرات التيهات على حجاب التيهات لعل بن طاهر الاوي لمصري ، تحقيق الدكتور محمد عطوفان سلام ، والدكتور مصطفى اعصاوي الجزء - سلسلة حرات العرب رقم ٤٥ الفاعرة ، دار المعارف ١٩٧١ .
- ٢٢- كتف الدعي : ابن شواهد في التجا ، يشرح احمد بن الاوين للتشعير / طبعة الأولى الفاعرة - الطبعة الجاهلية ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م
- ٢٣- لسان العرب لابن منظور حلال الدين محمد بن مكرم الانصاري / الفاعرة دار المعارف
- ٢٤- لسان العرب لابن منظور طبعة مصورة من طبعة بولاق سلسلة و تراثها الفاعرة / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبها والنشر / الدار المصرية لتأليف والترجمة
- ٢٥- مجلس لعلي لا اله الا الله احمد بن يحيى كليب ، شرح وتحقيق عبد السلام محمد عطوفان الطبعة الثالثة ، دار حرات العرب الفاعرة دار المعارف ١٩٦٩
- ٢٦- بحث الاغاني في الاخبار والفتاوي / اختيار ابن منظور محمد بن مكرم - الجزء الثاني تحقيق عبد الستار احمد فراج الفاعرة - الدار المصرية لتأليف والترجمة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م ، والجزء الخامس شمس عبد العزيز احمد الفاعرة ، الدار المصرية لتأليف والترجمة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م
- ٢٧- مدمم مفاكس للغة / لأي الحسين احمد بن قريش بن زكريا ، بتحقيق وعظي عبد السلام محمد عطوفان ، الطبعة الأولى الفاعرة / دار ابياء الكتب العربية ١٣٦٦هـ
- ٢٨- للمصنف ، تأليف لي المباسي محمد بن يزيد البرد - الجزء الثالث تحتيت محمد عبد الحافظ مصيبة ، الفاعرة ، المجلس الاعلى للشعر الاسلامي ، لجنة التراث الاسلامي - ١٣٨٥هـ

سجد في اللغة والأدب والمعلوم ، بيروت ، الطبعة الكلاويكية

* - للكتاب من ألب العرب - جمة وشرحه له حسين وآخرون الفاعرة الطبعة الاخيرة يريلا ١٣٢٤

- ٣١- فتية من كتاب الاختارين ، اختيار الفضل العيسى وعبد الملك بن قريظ الاصمعي من ابحار لصحة العرب في الجاهلية والاسلام عما روى عن مشايخ اهل السنة المأثورين يروا بهم ، بتحقيق الدكتور السيد معظم حسين . عنت بشرها جامعة كرك . بغداد . الخند ١٩٦٨
- ٣٢- قد التز ، ابي الفرج لؤلؤة بن جعفر الكتب البندي ، حقه وحق حواشيه للدكتور طه حيد وعبد الحميد العربي . القاهرة : مطبعة لجنة التاليف والترجة والنشر . ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م .
- ٣٣- التوسط في الالب العربي وتاريخه / تاليف الشيخ احمد الاسكتوري والشيخ مصطفى حناي . الطبعة الثالثة عشرة / القاهرة / دار المعارف .
- ٣٤- حجة الدهر في علمن اهل العصر / لاه منصور التاليف / تحقيق ودرج ابي الحادي الطيبة الأولى / بيروت / الشركة الشرقية للنشر والتوزيع .
- Arberry, A.T. Arabic Poetry. Cambridge at the University Press, 1965
- Birdwhistell, Ray L. Introduction to Kinesics. Washington : Foreign Service Institute, 1952
- Dorland's Pocket Medical Dictionary . 22nd edition, Bombay : Oxford & Ibh Publishing Co/ 1977, P. 286.
- Peters Medical Encyclopedia. London : Sphere Books Limited, 1967, PP. 229 — n 230
- Schiffers, Justus J. The Family Medical Encyclopedia. New York : Pocket Books. 34 th Printing, February 1975, P. 215.
- Wehner, Jans. A Dictionary Of Modern Arabic. Edited by Cowan J. Milton. Weishaden : Otto Harrassowitz, 1961.



تقديم :

تستعدي دراسة الادب التركي للعاصر ، بشكل عام ، الرجوع الى المتابع الاصلية والمصادر الرئيسية التي أمدت هذا الادب بالنسخ المساعد ، إضافة الى ضرورة معرفة الامة التي انجبت هذا الادب ، ودراسة المجتمع التركي دراسة ميتولوجية ، لغوية ، ثقافية ، اجتماعية وسياسية لمعرفة التيارات الفاعلة في هذا الادب وصولاً الى النتائج المرجسة من هذه الدراسة .

ولذلك فاننا سنتطرق الى أصل الاثر ، وبشبه اللغة والكتابة التركيتين ، وعلاقتها بالتطور الميتولوجي والثقافي للشعب التركي ، ومن ثم نصور الادب التركي في آسيا الوسطى ، وتطوره بعد دخول الاثر الى الدين الاسلامي الحنيف ، ومن ثم الى استكائه للملامح الخاصة وامتلاكه لهويته المتميزة في القرن العشرين ، بفضل الادباء والشعراء الكبار والمؤسسات الثقافية والادبية والاجتماعية ، التي وضعت الجوائز الادبية والشعرية السنية للابداع الادبي والفني في كافة المجالات ، مما أدى الى تنوع المدارس الادبية وتصارعها من أجل الابداع والخلق ، مع الحفاظ على هويته التقديمية المقدمة .

ولذا فسوف نتناول دراسة هذا الادب في ثلاثة

فصول :

الفصل الاول - الاثر ... من هم ؟

المبحث الاول - الميتولوجيا التركية .

المبحث الثاني - اللغة التركية ورمزها من اللغات المعروفة اليوم .

الادب التركي المعاصر

ابراهيم الداوق

كلية الآداب - جامعة بغداد

المبحث الثالث - الكتابة التركية .

المبحث الرابع - ثورة اللغة .

الفصل الثاني - التطور الثقافي للمجتمع التركي :

الفصل الثالث - تاريخ الادب التركي :

المبحث الاول - الادب التركي قبل الاسلام .

المبحث الثاني - الادب التركي بعد الاسلام .

أ - تيار الادب الشعبي .

ب - تيار ادب الديوان .

المبحث الثالث - الادب التركي الحديث .

أ - ادب التنظيمات .

ب - حركة الادب الجديد .

ج - الادب التركي في القرن العشرين .

المبحث الرابع - تطور الشعر التركي خلال القرن العشرين .

١ - حركة التخريب .

٢ - تيار الادب القروي .

٣ - تيار الحركة الشعرية الثانية .

٤ - تيار الادب الاشتراكي .

المبحث الخامس - القصة القصيرة في الادب التركي .

المبحث السادس - الرواية في الادب التركي .

وبالنظر الى ان الادب التركي غما وازدهر تحت تأثير الحضارة الاسلامية ، وبقي تحت تأثيرها أكثر من تسعة قرون (من القرن الحادي عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر) لذلك فسوف نحاول اعطاء صورة كاملة للادب التركي ، خلال عصوره المختلفة ، مع ايراد النماذج الادبية التي توضح الفكرة التي نحن بصددنا من خلال الفصول التي تتضمنها الدراسة .

(الفصل الاول)

الانتماء ... من هم

الانتماء هم من الاقوام العريقة التي ظهرت في التاريخ . وهم من الاقوام الطورانية التي تسمى علميا عائلة (اورال الطائي) كالمغول والبلغار والمجر والفرنكديين^(١) . ولعل اقدم ذكر لهم هو ما ورد في التوراة^(٢) ، حيث انها اشارت الى ملوك عو^(٣) ١٦٧ وهم ملوك الغز الانتماء^(٤) غير ان كلمة (تورك)

(١) انه ابن التيمور الى قراية البلغار والتورك في كتابه (التوريس) وذلك في القرن السادس الهجري . كما تنبه ابن خلدون الى قرابة الانتماء والفرنكديين (في مقدمته) وذلك في القرن الرابع عشر .

(٢) كوميدي زاده محمد فؤاد ، توركيا تاريخي / استانبول ١٩٣٣ / ص ٣ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة التركية) مادة توركيا ٧٨٣/١٢ .

دولة القومانين قد تأسست في الغرب واتخذت من قوموسا Khoumoussa عاصمة لها^(٩) فإن المصادر الصينية تذكر بأن دولة (هونغ - تو) هي أقدم الدول التركية التي تأسست في الشرق^(١٠) وهم اجداد قبائل (الهون) التي غزت أوروبا خلال القرن الخامس^(١١) ، وقد استطاع الهون تأسيس امبراطورية عظيمة شملت أجزاء من آسيا الوسطى ، بالإضافة الى آسيا الصغرى ، وذلك خلال القرن الخامس - الثاني قبل الميلاد^(١٢) على الرغم من أن الوقائع التاريخية الصينية تؤكد بان الامبراطورية الهونية كانت موجودة في آسيا الوسطى حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد^(١٣) ، لكن المصادر الصينية بدأت بإيراد المعلومات الصحيحة حول تاريخ الهون اعتباراً من سنة ٧١٠ ق م^(١٤) وقد ظهرت بعد الهون اقوام تركية اخرى باسماء مختلفة منها التيجاق

كانت تطلق على بطن من بطون القبائل^(١٥) التي كانت تقطن آسيا الوسطى في المنطقة المحصورة بين بحيرة - .^(١٦) والترك في الاصل عشرون قبيلة ينتسبون كلهم الى (ترك بن يافث بن نوح) التي وهم بمنزلة اولاد (الروم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم) ولكل قبيلة منها بطون لا يحصيهم الا الله^(١٧) .

كانت آسيا الوسطى الوطن الأم للقبائل التركية الرحالة ، ومنها انحدروا نحو الغرب وأسسوا دويلات وامبراطوريات باسماء مختلفة ، وأقدم الدول التركية المعروفة في التاريخ هي دولة (القومانين)^(١٨) التي تأسست في آسيا الصغرى في الالف الاول قبل الميلاد . وكانت ذات صلات وثيقة مع الدولة الاشورية . الملك الاشوري تيفلات حاصر الاول خلال الفترة ١١١٨ - ١٠٩٣ ق م^(١٩) . وإذا كانت

4 - Prof Dr . Faruk SumarOguzlar, Ankara 1972, S.9

5 - V.M. Kocatürk : Türk ed . Taritbi, Ank . 1970, S.7

(٦) حميد الكسري ، ديران لغات الترك / استانبول / ١٣٣٣هـ ، ج ١ / ص ٢٧ .

(٧) يطلق عليهم في التاريخ اليوناني اسم Komanoen واللاتيني Koman والمجري Kon والرورسي Polovtini واللاتيني Falben (دائرة للمعارف الاسلامية ٧٧٢/٦٣) بالقبول فرع من فروع التيجاق ١ دائرة للمعارف الاسلامية ١٩٨١/٧٢ (الطبعة التركية .

(٨) كوبرلي زاهد . ذ . فؤاد : تورك ادبياتي تاريخي / استانبول / ١٩٢٠ / ص ١٥ / ملحق رقم ٢ .

(٩) كوبرلي زاهد محمد فؤاد : تورك ادبياتي تاريخي / ص ١٦ .

(١٠) كوبرلي زاهد محمد فؤاد : تورك ادبياتي تاريخي / ص ١٦ / ملحق رقم ١ .

(١١) دائرة للمعارف الاسلامية (الطبعة التركية) ملحق ٧٢/٧٧٢ .

12 - Ahmet Kabaklı : Türk Edebiyatı, İstanbul 1968, Cilt 1, S.3

(١٢) دوكيني : هنريك ، مورغزرك ويغلا سكر تاتلورك تاريخ عروبسي / استانبول ١٩٢٢ ج ١ / ص ١٢٢ (ترجمة حسن جلد بالجين) .

(١٤) دوكيني ، المصدر السابق / ص ١٩٢ وكان الصينيون يطلقون على الترك اسم (توكيو) .

والأويغور^(١٥) والقرغيز والافغانيت^(١٦) والقرغيز والمغول
والتيغوريون والسلاجقة والتركمان والعشانيون
وغغيرهم .

وأول ظهور للأتراك على مسرح السياسة -
باسمهم المعروف اليوم - كان في القرن الرابع
الميلادي عندما استطاعت قبيلة ترك^(١٧) من جمع
كافة القبائل الناطقة باللغة التركية والتغلب بهم على
(الأورانيين الجوانيين) الذين كانوا أسياد الاقوام
التركية - المغولية . وبذلك استطاعت تأسيس
امبراطورية عظيمة تمتد من سد الصين وحتى بحر
الخرز . ومن هنا فقد اطلقت كلمة (ترك) على كل
الاقوام الناطقة باللغة التركية . غير ان هذه الكلمة
اكتسبت دلالتها الواسعة بعد قبول الأتراك للدين
الاسلامي^(١٨) . وإذا كانت آسيا الوسطى الموطن الام
للأتراك - بجميع بطونها - فانهم قد انتشروا من
هناك غربا وأسسوا العديد من الدول والامبراطوريات
في المواطن الجديدة التي حلوا فيها . ويمكننا تقسيم
الأتراك بحسب توزيعهم الجغرافي في العالم الى^(١٩) :

أولاً : أتراك سيبيريا والمغول :

١ - الياقوتيون والدولغانيون .

٢ - أتراك تاتار الآلتاي .

٣ - أتراك بارابا وتاتار غربي سيبيريا .

٤ - أورانخا الصين والاتحاد السوفياتي .

ثانياً : أتراك آسيا الوسطى :

١ - القرغيز والقازاق :

أ - قرغيز وقازاق الاتحاد السوفياتي
(جمهورية قيرغيزيا السوفيتية) .

ب - قرغيز وقازاق خيوة وبخاري .

ج - قرغيز وقازاق الصين .

د - القيجاق .

هـ - القالباق السود .

٢ - القرغيز السود أو البورتوتيون :

أ - في الاتحاد السوفياتي .

ب - في بخاري .

ج - في الصين .

٣ - التركمان :

أ - في آسيا السوفياتية (جمهورية تركمنستان

السوفيتية) .

ب - في بخاري وخيوة .

(١٥) يطلق عليهم الأورخون العرب اسم (التترغز) والسيثيون (هروي - هو) .

(١٦) ويطلق عليهم للأورخون العرب اسم (الهياطة) .

(١٧) البرديسور للورق سوير : المصدر السابق / ص ٩ .

(١٨) البرديسور للورق سوير : المصدر السابق / ص ٩ .

(١٩) كوبرلي زاده محمد غلام : تركيا تاريخي / ص ١٢ - ١٤ .

٩ - اترك آسيا الوسطى غير الداخلين في الزمر المذكورة اعلاه .

ثالثا : اترك ما وراء وجنوب غربي القفقاس :

١ - الانترك العشانيون (في الاناضول والبلقان) .

٢ - الانترك العشانيون فيما وراء القفقاس .

٣ - اترك اذربيجان القفقاسية .

٤ - اترك ايران .

٥ - الياقوتيين السود .

رابعاً : اترك اوروبا السوفيتية ورومانيا :

١ - اترك قفقاسية الشمالية :

أ - القراچاييون .

ب - القيوق .

ج - التوغاي السود .

د - اترك قابارطاي .

٢ - اترك الادوال :

أ - الباشكرديون .

ب - المشرقيون .

ج - التيبيريون .

٣ - اترك الفولكا والقريم :

أ - اترك قازان - سيرسك - ساراتوف -

أذربهان ، بانزا ، تامبوف ، ريازان ونيزني نوفكود .

ج - في افغانستان وايران (اذربيجان الايرانية) والعراق .

د - في القفقاس (جمهورية اذربيجان السوفيتية) .

هـ - في اوروبا الشرقية .

٤ - الاوزبك :

أ - في آسيا السوفيتية (جمهورية اوزبكستان السوفيتية) .

ب - في جنوه وبخارى .

ج - في افغانستان .

٥ - السارتيون :

أ - في آسيا السوفيتية .

ب - في بخارى وبخيره .

ج - في افغانستان .

٦ - اترك تركستان الشرقية :

أ - اترك قبيلة وتركستان الصينية .

ب - التارنجيون في تركستان السوفيتية .

ج - الكاشغر في تركستان السوفيتية .

٧ - اترك قانسو :

السالار - والاورغور الصفر .

٨ - التاتار المهاجرون من سيبيريا واوروبا

السوفيتية الى آسيا الوسطى .

التركية هي التي خلقت الأتراك ، لأنها ليست - مثل
الميثولوجيات الاخرى - عبارة عن آراء وأفكار بالية
وميتة وإنما هي طريق الحياة ، منظم للمجتمع ، وجماع
الاتكاف الحية ... » (٢٠) .

لقد ولدت الميثولوجيا التركية في آسيا الوسطى
وقامت بدور كبير في تكوين المجتمع التركي الذي
اتخذ من الذئب طوطما^(٢١) ومن اللون الأبيض^(٢٢)
والعدد تسعة^(٢٣) والمخلوقات المقدسة^(٢٤) رموزا
للاساطير التي تروي نشوء الكون وتكوين المجتمع
التركي وملاحم الأبطال وانتصاراتهم ، والكوارث التي
حلت بهم وبتقلاتهم . فأسطورة (قره خان) تمثل
المعرفة الطبيعية والساوية لدى الأتراك ، واسطورة
(بوزقورت - الذئب الأشهر) و (أركنه قون -
صالح المعلن) تمثل تقسيمه الامتراك وانتشارهم في
الارض ، واسطورة (اوغوزخان) تمثل عظمة الأتراك
وتأسيسهم للامبراطوريات^(٢٥) إضافة الى العديد من
الاساطير والملاحم التي تروي بطولاتهم واسفارهم .
وتتنوع المواضيع في الملاحم التركية ، غير ان الشعر

ب - اترك القرم .

ج - الجواشيون .

د - غاغا وزويارابيا (اترك مسيحيون) .

هـ - نوغاي دويروجه أو الجيتاقون .

أما من حيث السيادة والمهارة ، فقد مثل
الاوغوز العالم التركي في التاريخ حتى القرن
السادس ، والأتراك (التوكيويون) حتى منتصف
القرن الثامن ، والايغور حتى القرن الحادي عشر ،
ثم الاوغوز (السلاجقة والمنايون) مرة اخرى
حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، حيث تشكلت
دويلات تركية فيها يهد في آسيا الوسطى وآسيا
الصغرى .

المبحث الاول

« الميثولوجيا التركية »

يقول البروفيسور بهام الدين أوكل : « ان
الأتراك لم يخلقوا ميثولوجيتهم ، وإنما الميثولوجيا

(٢٠) البروفيسور بهام الدين أوكل ، الميثولوجيا التركية ، للبلد الاول / استانبول ١٩٧٦ / ص ٧ .

(٢١) البروفيسور محمد فؤاد كوبرلي زاده ، توك شيهي تاريخي / استانبول ١٩٢٤ / ص ٦٩ .

(٢٢) البروفيسور بهام الدين أوكل ، المصدر السابق / ج ٢ / ص ٣٠٨ حيث تعطف الاساطير التركية القديمة مشأ الأتراك الى الذئب ذكرا كذا كراي اراي ، فلي
اسطورة بوزقورت (الذئب الاخر) يتزوج الذئب من ابنة (النارا) خاتن الأتراك الاكظم . أما في اسطورة طوكيرخان ابن الحاكم التركي يتزوج ثنية فندك له
سنة الحمل .

(٢٣) يعتقد الأتراك بان السماوات والارض تتألف من سبع طبقات ، كما ان اسطورة اوغوز تؤكد انه ولد من الذئب تسعة لولاء .

(٢٤) ان معظم هذه المخلوقات القديمة هي في الحقيقة مصادر الحق والشر في الميثولوجيا التركية . فالتشريح للنفس هو الالة (الام) التي ولدت جنود
الايغوريين الخمسة والذئب للنفس (كوك بورو) هو اب الاكثنتين والحيوة للنفس (قن كول) هي مسكن الارواح حيث تزوج منها الحمايا حل الاطفال
المولودين اسقاة الى النهر للنفس (أريش نهري) والجلل للنفس (قن داغ) والجريرة للنفس .

(٢٥) بصلي ماهر قورقورت : المصدر السابق / ص ٧ .

التركية ، فقد كان لاتراك الالطاي إله خالق يدعى (باي أولكن - Bay uigen) وللاتراك الياقوتيين إلهة تدعى (آنا تازي - الالهة الأم) وللاغوز إله يدعى (قره خان - الحان الاسود) وغيرهم (٢٣٠) .
وإضافة الى هؤلاء فقد كان ثمة أنصاف آلهة يتوسلون بين البشر والآلهة ويقومون بالسحر والطبابة حيث كان يطلق عليهم (قام) أو (باقضي) (٢٣١) .

كان الاتراك القدماء يدينون بالشامانية ، وهي من الديانات البدائية التي تشكل الاعراف والتقاليد القومية أسسها العامة ، وكان الشاماني - وهو رجل الدين - يعتبر نفسه وسيطا بين الآلهة والبشر ، يستوحي أعماله من الآلهة وينفذ البشر من شر المردة والجبان بالطرق السحرية (٢٣٢) .

وخلال القرون التسعة - من القرن الثاني الهجري وحتى القرن العاشر - التي بدأت فيها هجرات القبائل التركية من آسيا الوسطى نحو الغرب بجحافل هائلة ، اختلطت بالأقوام المجاورة فاقترنت

البطولي والمراثي المساة (ساغو) يشكل انقسامه الرئيسية (٢٣٥) . وتتألف للملاحم التركية من ثلاثة أقسام :

- ١ - ملحمة هنكو (ملاحم الهون) .
- ٢ - ملحمة توك يو (ملاحم الاتراك) .
- ٣ - ملحمة اويغور (ملاحم الاوغوز) .

وتعد ملحمة اويغوراهم هذه الملاحم ، وقد وصل إلينا فقط قسم منها وهي المساة (اوغوز نامه) ويدور حول معارك وبطولات أحد سلاطين الاتراك المدعو (اوغوزخان) (٢٣٦) .

لقد كان لاتراك القدماء - مثل اليونانيين - آلهتهم الذين يمثلون الوجود المادي والمعنوي ، الطبيعي والانساني ، وكان (كوك تاكري - الإله الأزرق أو السباوي) (٢٣٧) على رأس هؤلاء لأنه - مثل زيوس - كبير الآلهة (٢٣٨) . كما كان ثمة آلهة لبعض التجمعات

(٢٦) إبراهيم الدافولي ، فنون الادب الشعبي التركي ، / بغداد ١٩٦٢ / ص ١٩ .

(٢٧) البراديسور فلاذ كوريل ، تورك اديباتي تاريخي ص ٥٦ - ٧٢ . يوزك انيسكوفه ديسي / ج ٤ / ص ٥٤ .

(٢٨) كان اتراك البلقان يطلقون عليه اسم (آر تويد - BR - Toyun) كما ورد في كتاب ده قورقورده .

(٢٩) وصفي ماهر قريشورك ، المصدر السابق ص ٢ .

(٣٠) وصفي ماهر قريشورك ، المصدر السابق / ج ٨ / ص ٧ .

(٣١) هيداء كوك آب ، تورككده اجايي حيات / توركيات بمسومة بي / ج ٤ / ص ٦ و فلاذ كوريل - تورك اديباتي تاريخي / ص ٧٨ . و فلاذ كوريل - تورك اديباتي تاريخي / ص ٢٣ - ٢٥ .

(٣٢) إبراهيم الدافولي ، فنون الادب الشعبي التركي ، / بغداد ١٩٦٢ / ص ١٩ .

الاسلامي اعتبارا من القرن العاشر الميلادي افواجا افواجا ولكن - مع ذلك - بقيت الآثار الشامانية ماثلة في الميثولوجيا التركية الى يومنا هذا^(٢٨) . ومع ذلك فان التأثير الاسلامي كان في القوة بحيث ولدت ميثولوجيا تركية - اسلامية جديدة حل فيها الله عز وجل محل (كوك تاري) ، والرسول (ﷺ) محل الالهة الاخرى ، والامام علي بن ابي طالب (رض) محل الابطال القوميين ، والاولياء محل رجال الدين الشامان^(٢٩) كما تحولت الرموز الاسطورية التركية الى رموز اسلامية ، فقد تحول العدد تسعة - بتأثير القرآن - الى العدد ٧ ، واندمج الطير الاسطوري الفارسي (سيمرغ) مع الطير الاسطوري العربي (العنقاء) ونتج عن ذلك طير اسطوري جديد يطوي المسافات طيا ويبلغ السواوات السبع اطلق عليه اسم (زسر عنقا أو) سيمرغ عنقا (^{٦٠}) ويشاهد (الجب) وتفضيب القميص بدم الحيوان للتسوية ، وكذلك الرموز الاسطورية من الف ليلسة وليلة

التيء الكير من اساطيرها وعاداتها وتقاليدها^(٣٠) حيث انتقلت فكرة احمرار عين البطل من الميثولوجيا الصينية الى الميثولوجيا التركية ، كما انتقلت اليها فكرة وجود الدم الحائر في قبضة الطفل المعجزة^(٣١) وانتقل اليها الجبل المقدس سورو Suro والبساط السحري^(٣٢) من الميثولوجيا الهندية . اما من الميثولوجيا الايرانية فقد انتقل اليها الاله Kudara^(٣٣) واساطير الجن والعفاريت . كما انتقلت عادات وتقاليد الاحوام المتاخمة للاتراك الى قصصهم الشعبي باجوائها الشرقية بشيء من التحوير والتبديل^(٣٤) .

ونتيجة لاختلاط الاتراك بالاقوام الاخرى ، فانهم لم يروا بأسا من قبول ديانات تلك الاقوام ، فقد تركوا ديانتهم الشامانية ، وتحول بعضهم الى البوذية بتأثير الهند والمناوية بتأثير ايران ، واليهودية بتأثير امراء عبيد بحر الخزر ، والمسيحية تحت تأثير المبشرين النساطرة ، غير ان كثرتهم دخلوا في الدين

(٢٨) يلعب بعض المستشرقين - امثال زاكيه وريم وفرن ديز - الى تأثر الميثولوجيا البيزنطية بالميثولوجيا التركية ، حيث يؤكدون بان هاريت (يولياخ) في ملحمة اوديسه هي صورة من هاريت (تيه كوز) في ملحمة (اغوز تله) واننا وان كنا نتجسد هذا التأثير نظرا لحد التقاء بين القريتين ، الا اننا نريد Van Gennep في تأثر الميثولوجيا اللاتينية بملامح الحزن ولا سيما بتخصيص (آتولا) انظر تفصيلات ذلك في كتاب تاريخ الادب التركي للواء كوردلي ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢٩) الذي يصح - عادات - ليا بعد بطلا اسطوريا .

(٣٠) هل شكل (نير) طائر .

(٣١) البرابيسور . جيل الدين اوكل : المصدر السابق / ج ٢ / ص ٣٠٩ .

(٣٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا : فنون الادب الشعبي التركي ص ٤٠ - ٧٤ .

(٣٣) شامانيزم - وصفي ماهر قريغورك : المصدر السابق ص ٢ .

(٣٤) وصفي ماهر قريغورك : المصدر السابق / ص ٢ .

(٤٠) ليراهيم النافاري ، فنون الادب الشعبي التركي ص ٤٥ .

والابانية والكلمية والليتوانية اللهجات الرئيسية فيها .

ب - شعبة اللغات الآسيوية : وتنقسم الى فرعين رئيسيين :

١ - اللغات الهندية : وهي السنسكريتية القديمة واللغات الهندية المعروفة اليوم .

٢ - اللغات الفارسية : وتتألف من لغة الاقمتا والفارسية القديمة وفارسية المهدد الوسطى والحديثة والكردية .

(٣) عائلة اللغات السامية : وتدخل فيها الأكدية والعبرانية والعربية .

(٤) عائلة لغات البانتو : وهي اللغات التي يتلاشى بها الافارقة في وسط وجنوب افريقيا .

(٥) عائلة اللغات الصينية - التبتية : وهي مجموعة اللغات الصينية والتبتية واليابانية .

وبالاضافة الى هذه السلالات اللغوية التي تتحد من حيث المنشأ والبناء ، فان ثمة مجموعات لغوية تتحد في البناء فقط ، ولذلك فانها حسبا توصلت اليها الدراسات الحديثة - لا تشكل عائلة لغوية وانما هي (مجموعة لغوية) فقط ، وربما ادت الدراسات في المستقبل الى اكتشاف الاصول المشتركة لهذه المجموعات ايضا . وتمد لغات اورال - التي تدخل ضمنها التركية من هذه المجموعات

العربية . كما ان الاتراك اقتبسوا الروايات الخاصة بالبطل العربي (عبد الله البطال) الذي استشهد ايام الامويين وجعلوا بطلا اسطوريا تركيا^(٤١) وسموه (بطل غازي) .

المبحث الثاني

« اللغة التركية وموقعها في اللغات المعروفة اليوم »

تنهب الدراسات اللغوية الحديثة الى ان اللغات المعروفة اليوم تنقسم من حيث المنشأ الى^(٤٢) :

(١) عائلة اللغات الهندو - اوروبية : وهي تضم كافة اللغات الاوروبية (عدا الفنلندية والمجرية) وبعض اللغات الآسيوية (كالفينية والفارسية) ولذلك فانها تنقسم الى قسمين :

أ - شعبة اللغات الاوروبية ، وهي :

١ - اللغات الجرمانية : وهي اللغات الالمانية والانكليزية والاسكندنافية .

٢ - اللغات الرومانية : وتعد اللاتينية أم هذه اللغات التي تتألف من الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والايطالية والرومانية الحديثة .

٣ - اللغات السلافية : وهي اللغات الروسية والبلغارية والصربية .

٤ - اللغات المنحوتة : وهي مزيج من هذه اللغات ولجائها ، وتشكل الحنية واليونانية الحديثة

(٤١) بايزيد ، تاريخ الحضارة الاسلامية / بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ١٠٤ .

٣ - اللغات التصريفية : تتميز اشكال الكلمات لدى استعمالها بحسب موقعها من الجمل ، إضافة الى البنيا الداخلية للاسماء بتغير لدى تصرفها ايضا وهي كاللغات الهندو - اوروبية واللغة العربية . وتعد اللغة التصريفية ذروة التطور والكمال في اللغات المعروفة اليوم .

وقد ولدت اللغة التركية في قلب آسيا الوسطى ، وحملتها القبائل التركية الرحالة في هجراتها المتعددة نحو الغرب^(٤٥) ، ولعل اقدم هذه الهجرات كانت هجرة القبائل الطورانية^(٤٦) من الياقوتيين الذين هاجروا من قلب آسيا - شبال الصين - وسلكوا الطريق الجنوبي (نان لو - Nat-Lu) والتي تمتد من سلسلة جبال تيان شان - مارة بكشغر - سغد - فرغانة - ايران - ميديا - قفقاسية - بوسفور - وتنتهي بالجزيرة^(٤٧) وتندما وصل الياقوتيون الى بلاد ميديا انتشروا على ضفتي نهر دجلة والفرات وذلك قبل الميلاد بما يقارب ٨٠٠ عام^(٤٨) .

ثم كانت الواقعة الكبرى بين الاسكندر المقدوني ودارا الثالث (٣٣٨ - ٣٣٠ ق م) الفارسي قرب

المغوية التي تتحد من حيث البناء فقط . وتنقسم هذه المجموعة الى فرعين رئيسيين^(٤٩) :

١ - اللغات الاورالية : وتنقسم الى :

أ - اللغات الفنلندية والايغورية والمجرية والبرمية .

ب - اللغات السامويديية .

٢ - اللغات اللاطاتية : وتضم اللغات المانجورية والمغولية والتركية .

أما من حيث البناء فان اللغات في العالم تنقسم الى ثلاث مجموعات^(٤٤) :

١ - اللغات ذات المقطع الواحد : وتتألف كلماتها من مقطع واحد لا يتغير خلال الجملة مثل اللغات الصينية والتبتية والانامية واليابانية .

٢ - اللغات الالتصاقية : وهي اللغات التي لا تتميز صورة الكلمة عند الاستعمال في الجملة وانما يكون تصرف الكلمات وتوليدها باضافة ملحقة بجذر الكلمة ، مثل اللغات التركية والمجرية .

(٤٣) البرويسور محمد اركين : المصدر السابق ، ص ٦ .

(٤٤) البرويسور محمد اركين : المصدر السابق ، ص ٧ .

(٤٥) ابراهيم الدارقاني : فنون الادب الصيني التركياني . بغداد / ١٩٦٢ / ص ٩ .

(٤٦) الطورانيون (Touranians) نقطة انطلاقهم للمستشرقون على الانام التركية الناطقة في (طوران) وهي المنطقة للشملة من البحر الابيض المتوسط حتى مغوليا ، والتي تقع شرق (ايران) . وهذه القبائل تجمع بينها رابطة الدم والتمصر واللغة .

(٤٧) م . شمس الدين : مفضل تورك داريجي ، ص / ١١٧ وأخرية المرقعة (٧) مغول ص ١١٢ .

(٤٨) م . شمس الدين : المصدر السابق ، ص / ٨٠ - ٨٤ .

ثم تتابعت هجرات القبائل التركية من الشرق إلى الغرب لأسباب جغرافية وسياسية ، حتى كانت هجرة مجموعة أخرى منهم والتي كانت تقطن أقاصي التركستان والذين عرفوا في التاريخ باسم السلجوقيين - نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن خاقان الذي عاش أواخر القرن العاشر الميلادي والذي وحدهم تحت قيادته - وذلك خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية تحت ظروف قاهرة . وقد يمت هذه القبائل التركية المهاجرة وجهها شطر الغرب وحاولت الاستقرار في اقليمي ما وراء النهر وخراسان ، ولم تلبث ان بسطت نفوذها على إيران والعراق وعلى أكثر اجزاء الشام وآسيا الصغرى^(٥٥) .

وعندما توحدت القبائل المنغولية بقيادة جنكيزخان (١١٥٥ - ١٢٢٧م) توجهت هذه القبائل من موطنها في منغوليا نحو الغرب كالسيل الهادر يقودهم جنكيزخان الذي اسس أعظم امبراطورية في العالم والذي هز بفتوحاته أركان الدول جميعا فيما بين الصين شرقا والبحر الادرياتي غربا في النصف الاول من القرن السابع الهجري^(٥٦) .

وتجددت هجرة القبائل التركية نحو الشرق

مدينة كواكميل^(٥٧) وكان دارا قد جمع جيشا جديدا - بعد ان انتصر في المرة الاولى - عدته الف الف مقاتل ويتألف من فرس وميديين وبابلين وسومريين وارمن وكبادوكيين ويليخين^(٥٨) وصفد^(٥٩) وارغزيان^(٦٠) وسامي وبنود . والتقى الاسكندر معه سبعة آلاف من الفرسان واربعمائة ألفا من المشاة ، بهذا الخليط المختل النظام غير المتجانس ، ودارت رحى القتال عند كواكميل فاستطاع الاسكندر بتفوق اسلحته وحسن قيادته وشجاعته ان يبذل شمل هذا الجيش في يوم واحد^(٦١) . فتفرق هؤلاء في منطقة الشرق الاوسط واختلطوا بالاقوام الساكنة فيه . وتسمى هذه الواقعة (اربيل) ايضا نسبة إلى مدينة اربيل وكانت سنة ٣٣٠ ق . م .

وفي سنة ٥٤ الهجرية بدأت هجرة القبائل التركية إلى اقاليم الشرق الاوسط بصورة عامة وإلى العراق بشكل خاص بعد ان تغلب عليهم (عبد الله بن زياد) في موطنهم بآسيا الوسطى ابان الفتوحات العربية حيث اختار منهم - من اترك الفز - الذي مثالي يحسنون الرماية بالنشاب ويحبهم إلى العراق واسكنهم البصرة^(٦٢) .

(٥١) كانت مدينة تدمر حتى ميلا من اربيل الحالية (في الجمهورية العراقية) وقد سميت الواقعة باسمها .

(٥٢ - ٥١) هؤلاء الاكرام من القبائل التركية الناطقة في آسيا الوسطى .

(٥٣) ول ديروانت ، قصة الحضارة ، الجزء الثالث ، ص ٤٦٠ .

(٥٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ .

(٥٥) الدكتور عبد الحميد حنين : سلاطنة إيران والعراق ، ص ١١ و١٢ .

(٥٦) الدكتور فؤاد عبد الحسين : المصدر : المقول في التاريخ ، ص ١٤ .

ولقد كانت لهجتان متابرتان شائعتين في اللغة التركية قبل الاسلام ها : لهجة كوك تورك ولهجة الاويغور^(٥٩) . وبعد دخول الاتراك في السدين الاسلامي اطلق على لهجة كوك تورك (اللهجة الغربية) وعلى لهجة الاويغور (اللهجة الشرقية) تلك التسميات التي استعملت كثيرا من قبل المستشرقين ورواد الحضارة العربية .

ثم استبدلت هذه التسميات باخرى ، فسميت اللهجة الشرقية ب (الخاقانية) التي تطورت فيما بعد الى اللهجة (الجغتائية) نسبة الى احد ابناءه جنكيزخان . ولا يزال يتلغى بها الاتراك في المناطق الواقعة شرقي مدينة كاشغر حتى اواسط الصين^(٦٠) .

كانت اللهجة الشرقية (التي يتلغى بها المغول والقرالوق) خشنة تنقصها السلامة ، ويرجع سبب ذلك الى ان هذه القبائل كانت في حروب دائمة فيما بينها ، الى ان وحدها جنكيزخان والقي بها في آتون حرب مستمرة لم تنح لها فرصة للاستقرار - مثل القبائل التركية الاخرى - والاستفادة من حضارة الاقوام المجاورة لها كالصينيين والهندوس وغيرهم ..

أما اللهجة الغربية فقد اطلقت عليها تسمية (اللهجة الاوغوزية) نسبة الى اوغوز جد الاتراك الاعلى . وهي اللهجة التي حملها السلاجقة الى

الايوط اواخر القرن الثامن الهجري عندما قاد تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) الجحافل المغولية نحو الغرب فأسس امبراطورية كبيرة جعل عاصمتها (سمرقند) وكانت ممتلكاتها تمتد من نهر (الكنج) شرقا حتى سوريا غربا .

وقد اختلطت هذه القبائل بعضها ببعض الآخر في منطقة الشرق الاوسط وأسست فيها دويلات مختلفة حتى ان بغداد ، عاصمة الخلافة الاسلامية ، لم تسلم من تدمير هولاكو - وهو احد احفاد جنكيزخان - وكان الفتح الخاني للبلاد العربية خلال القرن العاشر الهجري آخر تلك الموجات من هجرات القبائل التركية^(٦١) .

كانت اللغة التركية في بداية الامر ، مثل بقية اللغات ، بدائية تقي بحاجة المتكلمين بها ... حيث البساطة في كل شيء ، وكانت قليلة المفردات ، خشنة المخارج ... الا ان احتكاك هذه القبائل بالاقوام الاكثر تمدنا وحضارة كالصينيين والهندوس والفرس والعرب ادخل الكثير من مفردات لغاتهم الى اللغة التركية فأصبحت أكثر مرونة وسلاسة واعظم قدرة على استيعاب نتاج افكار تلك الاقوام . ورغم اتحاد هذه القبائل في الاصل والنصر فقد كانت لهجاتها غير متشابهة فكان « ثمة اختلاف في لغات هذه القبائل »^(٦٢) .

(٥٩) الدكتور ابراهيم النافري : المصدر السابق ذكره ، ص ٨ .

(٥٨) الدكتور عبد المصطفى الصيدا : المصدر السابق ذكره ، ص ٧ .

(٥٧) كمال صبيح ومصطفى اوزون : اللغة والاصب التركي (باللغة التركية) ص ٥٤ .

(٦٠) ابراهيم النافري : المصدر السابق ذكره ، ص ١٠ .

الاعظم « هذه اللغة^(٦١) كما ان نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (١٠٥٤ - ١٠٩٢ م) ألف كتابه المشهور (سياستانامه - رسالة في السياسة) باللغة الفارسية^(٦٢) .

كما احتفظ العثمانيون ، فترة طويلة ، باللغة الفارسية وقوالب الشعر الفارسي - ببجوره العربية والفارسية - حتى ان السلطان سليم الاول (١٤٦٧ - ١٥٢٠) نفسه نظم ديوانا كبيرا بلغة الفرس^(٦٣) .

ثم اخذت اللغة التركية تحتل مكانتها في الساحات الواسعة التي تمتد من منغوليا شرقا حتى بحر الخزر غربا حيث اصبحت اللغة الثقافية الثالثة - بعد الفارسية والعربية - للعالم الاسلامي منذ القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي^(٦٤) .

ولقد كان تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) واسرته الحاكمة يتكلمون اللغة التركية ، مما كان له اعظم الاثر في ترجيح كفة هذه اللغة - التي كانت لغة الشعب فقط الى تلك الفترة - لتحل مكانتها كلسان قومي لهم ، تلك اللغة التي استعملها الشاعر التركي المتصوف احمد يسوي (١١٠٣ - ١١٦٦ م) في اشعاره وقصائده الصوفية في آسيا الوسطى^(٦٥) .

الشرق الاوسط وآسيا الصغرى . وقد تمت وتطورت هذه اللهجة تحت تأثير اللغتين العربية والفارسية ، وفي ظل هذه اللهجة أنشأ الاتراك ، في القرن الثالث عشر ، الامبراطورية السلجوقية .

كان سقوط الامبراطورية السلجوقية ، وقيام الامبراطورية العثمانية على انقاضها ، سببا في انقسام اللهجة الاوغوزية الى لهجتين : اللهجة العثمانية ، واللهجة الأذرية التي يتلاشى بها اليوم تركمان أذربيجان السوفييتية وإيران والعراق .

كانت اللهجة الغربية سلسلة مطواعة لان المتكلمين بها (السلاجقة والعثمانيون) كانوا يجاورون أقواما ذوي حضارة وشراف كالفرس والعرب ، ولذلك فقد تمت وتطورت هذه اللهجة تحت تأثير اللغتين العربية والفارسية بحيث اصبحت تسير تلك الاقوام في مناهي حضارتها بعد ان صقلتها ودفعت بها الى ان تكون لغة الامبراطورية العثمانية .

وكانت اللغة الفارسية لغة الادب الرفيع والمراسلات الرسمية في العهد المنغولي والسلجوقية والعثمانية ، فقد استعملها المنول في المراسلات الرسمية والثنويين ، حتى ان جنكيزخان نفسه كتب قانونه المسمى « ياسانامه بزرگ » « القانون

(٦١) الدكتور فؤاد عبد الحلبي الصبيح : المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٦٢) الدكتور عبد الحليم حنين : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٦٣) كارل بروكلمان : الاتراك العثمانيون وحضارتهم ، ص ١١٠ .

(٦٤) يارنود : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٠٦ .

(٦٥) كاظم هجري : ترك فني (اللغة التركية) ، ص ٧ .

التي كانت لغاتها تؤلف اللغة الجديدة أيام حكمهم
بداية القرن العشرين .

كان الادب المكتوب باللغة العثمانية يسمى
(ادب الديوان) وهو ادب سراً القوم وقصور
السلطين الذي نما وتطور بعد القرن الثالث عشر ،
ثم اصبح ادب الزمرة المنققة بعد القرن السادس
عشر^(٦٩) واستمر الى فترة التنظيحات وأواخر القرن
التاسع عشر .

ولكن ما ان أطل القرن التاسع عشر حتى بدأت
حركة قلقل الشباب العثمانيين للمطالبة بالدستور
واطلاق الحريات ولا سيما (حرية النشر) ، كما تزعم
شاعر الوطن (نامق كمال) حركة التجديد في اللغة
العثمانية . وكانت هذه الحركة تستند الى ريكيرتز^(٧٠) :

الاولى : تنقية اللغة العثمانية من الالفاظ الدخيلة
وايجاد او توليد الفاظ تركية صميعة لتحل محلها
والاستناد في ذلك على (أدب الشعب) الشائع في
ارحاء الدولة العثمانية .

الثانية : نيل ادب الديوان وخلق ادب جديد يرتكز
على الواقعية ويعبر عن آمال الشعب وآلامه .

وقد وجدت هذه الحركة في ادب الغرب منهلاً
صافياً فقاموا بترجمة الروائع الكلاسيكية الفرنسية

يمكننا اعتبار عهد السلطان العثماني مراد الثاني
(١٤٠١ - ١٤٢٩) الذي شمل برعايته العلماء
والشعراء والموسيقين نهاية الثقافة العثمانية المعتمدة
على اللغة الفارسية ، حيث ظهرت في بلاطه أولى
المؤلفات المسبهة باللغة التركية^(٦٩) غير ان ذلك لم
يؤد الى اهمال شأن اللغة العربية ، لانها كانت لغة
العلوم الدقيقة في تلك العهد ، حيث كانت أمهات
الكتب القانونية والفقهية والطبية موضوعة باللغة
العربية ، كما دخل الكثير من الالفاظ العربية الى
اللغة التركية حتى يمكننا القول ان اللغة التركية في
عهد العثمانيين كانت مزيجاً من اللغات العربية
والفارسية والتركية . ولا يعني ذلك ان اللغة العربية
قد سلمت من الالفاظ الدخيلة ، حيث دخل إليها
الكثير من الالفاظ التركية والفارسية - عن طريق
العثمانيين - لان المجتمع الذي يسود في فترة معينة
تسود لغته ايضاً ، وتقني نتيجة للحاجة الى ابتكار
معان جديدة لتساير تطور المجتمع حتى يواصل
سيره^(٧١) وهكذا ، فعندما تأسست الامبراطورية
العثمانية تدهورت اللغتان الفارسية والعربية ، وصادت
اللغة التركية التي سميت فيما بعد « لغات عثمانية »
التي ولدت نتيجة ابتداع الاتحاديين^(٧٢) لفكرة
« الاتحاد العثماني » لكسب تأييد الشعوب الاسلامية

(٦٩) كارل بروكلمان : الاتراك وحضارتهم ، ص ٤٠ .

(٧٠) الدكتور ابراهيم الفاروقي ، المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٧١) جماعة حزب الاتحاد والترقي الحاكم في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى .

(٧٢) الدكتور ابراهيم الفاروقي ، المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٧٣) باقلي ، منها ادب لوزلر ، تورك شاعران لوزنكار (بالتركية) ص ١٣ .

(١٩١٢) والحرب العالمية الاولى (١٩١٤) اصبح من المستحيل تجرع الهزائم التي منيت بها الجيوش العثمانية ، وكانت نتائج الحرب العالمية الاولى واقتسام الدولة العثمانية بين الحلفاء وتقسيم تركيا نفسها والمظالم التي اقترفها اليونانيون والطلليان وسوق الحلفاء من تركيا ، من اهم الاسباب التي دفعت الاتراك الى اعلان الثورة فكانت حرب الاستقلال (١٩١٩) التي قادها مصطفى كمال أتاتورك (ابو الاتراك) وحرر تركيا من المحتلين فولدت تركيا الحديثة . فاعلنت فيها الجمهورية والدستور وانتخب أتاتورك بالاجماع رئيسا للجمهورية .

وكانت مشكلة اللغة التركية - شكلا ومضمونا - من اهم العقبات التي سعت الادارة الجديدة الى حلها ، حيث حلت الابجدية اللاتينية محل الابجدية العربية في كتابة اللغة التركية عام ١٩٢٨ كما استبدلت معظم الاصطلاحات والتعابير الفارسية والعربية الدخيلة الى اللغة التركية باصطلاحات وتعابير مولدة ومشتقة من جذور الكلمات التركية القديمة أو من الاصطلاحات الغريبة .

تتميز اللغة التركية الحديثة - وهي اللهجة المتداولة في الجمهورية التركية والتي تعد ذروة الكمال والتطور للغة التركية - بثلاث مزايا فريدة تختلف بها عن اللغات المعروفة اليوم وهذه المزايا هي (٧١) :

١ - لا يتغير جذر الكلمة في الجملة ، وتكون الاضافات - دائما - الى نهاية الكلمة .

والالمانية والروسية والانكليزية والابطالية الى اللغة التركية .

غير ان هذه الحركة التجديدية كانت تجاهيها حركة اخرى تدعو الى اغناء اللغة العثمانية بادخال الاصطلاحات العلمية والادبية الموصودة في لغات الشعوب الاسلامية ولا سيما العربية والفارسية من اجل ان تكون اللغة التركية لغة التضامن الاسلامي بوجه الغزو الفكري والثقافي الاجنبي لان هذه الحركة تؤمن ان ادخال الاصطلاحات الاجنبية الى اللهجات التركية يؤدي الى ابتعاد هذه اللهجات بعضها عن البعض الآخر ومن ثم تشكيل لهجات مستقلة للأقوام التركية . فاذا قام الاويفوريون - في شمال الصين - مثلا بادخال الاصطلاحات الصينية الى لهجتهم ، والاوزيك بادخال الاصطلاحات الروسية الى لهجتهم ، والعثمانيون بادخال الاصطلاحات الفرنسية الى لهجتهم فان ذلك يؤدي الى ابتعاد هذه اللهجات عن بعضها ، بينما لو تم الاتفاق على ادخال الاصطلاحات العربية والفارسية فقط الى هذه اللهجات تصبح - في المستقبل - لغة واحدة ، لا سيما وان تأثير اللغتين العربية والفارسية على التركية لم يقتصر على ادخال الكلمات والاصطلاحات فحسب وانما دخلت تراكيبها وادواتها وقواعدها الى اللغة التركية ايضا .

وعندما تأسست الجمعيات السرية في الدولة العثمانية وقويت الحركات القومية فيها لا سيما بعد حرب طرابلس الغرب (١٩١١) وحرب البلقان

من فوق الى اسفل ومن اليمين الى اليسار^(٧٤). وقد استعمل الاتراك هذه الابجدية من القرن السادس ق م وحتى القرن الخامس الميلادي^(٧٥) عندما حلت محلها الابجدية الايورغونية المؤلفة من (١٤) حرفا والمكتوبة بأسلوب الكتابة الايورغونية ايضا^(٧٦) وهي مقترنة من الابجدية (السريانية النسطورية) التي انتقلت الى الاتراك بواسطة الرهبان النساطرة^(٧٧) ونظرا لسهولة كتابة الخط الايورغوني فقد امر جنكيزخان بان يتعلمه اطفال المغول^(٧٨).

وبالاضافة الى الخطين الايورغوني والاورغوني ، اصطنع الاتراك ابجديات اخرى في كتاباتهم اقتبسها من الاقوام التي اختلطوا بها نتيجة حريم معها أو استيطانهم بلداتها ، ومن هذه الابجديات السنسكريتية والفهلوية والارامية والنسطورية والبيزنطية^(٧٩) والحوارزمية والصغدية والبراهمية واليونانية والعبرانية والآرامية والسلافية^(٨٠) وعلى

٢ - تفرد اللغة التركية بقاعدة اساسية يطلق عليها قاعدة (التوافق الصوتي) التي تقضي ان الكلمة التي تبدأ بحرف اللمة الخفيفة لا تتضمن حروف اللمة الخفيفة ابدا ، الا اذا كانت الكلمة غير تركية^(٨١) ، ولا يجمع حرفا علة في الكلمة الواحدة جنباً الى جنب الا اذا كانت اجنبية مثل (Said, Faik) وغيرها .

٣ - تأتي عناصر الكلام الاساسية في آخر الجملة ، بينما ترد العناصر المتممة لها في بدايتها .

المبحث الثالث

« الكتابة التركية »

اما من حيث الكتابة فقد استعمل الاتراك العديد من الابجديات التي اقدمها (الابجدية الايورغونية)^(٨٢) المستعملة في كتابة المسلات الايورغونية وكانت تتألف من (٣٨) حرفا وتكتب

(٧٤) تنقسم حروف اللمة المبرجة في اللغة التركية الآتية الى صمغ ، حروف اللمة الخفيفة وهي (١٥, ١٦, ١٧) وحروف اللمة الخفيفة وهي (١٨, ١٩, ٢٠) وكذلك حل ذلك فان كلمة (جلم) تكتب بحروف حلة خفيفة (Bilgi) اما كلمة (علم) فتكتب بحروف اللمة الخفيفة (Bayrak) وتكتب كلمة للم العربية بحروف حلة مختلفة لئلا اجنبية (kaleme) .

(٧٥) ويطلق عليها ايضا اسم (ابجدية كوك تورك)

(٧٦) كارل بروكلمان : الامبراطورية الاسلامية واتصالها / بيروت ص ٣٧٧ .

(٧٧) طاهر نيكاز كوجان / المصدر السابق / ص ٩ .

(٧٨) محمد فؤاد كوريجي ، تركيا تاريخي / ص ٤٥ .

(٧٩) محمد فؤاد كوريجي ، تركيا تاريخي / ص ٤٦ .

(٨٠) الدكتور عبد المحيي الصياد ، للفول في التاريخ / القاهرة ص ٣٣٧ .

(٨١) طاهر نيكاز كوجان / المصدر السابق / ص ١١٩ .

(٨٢) محمد فؤاد كوريجي ، تاريخ تركيا / ص ٤٧ - ٤٨ .

كانون الثاني ١٩١٠ وقليج زاده حقي في مجلة (حريت فكرية) في ٢٢ مارت ١٩١١ ، وجمال توري في احد مؤلفاته^(٨٧) في العام نفسه على اعتبار انها اكثر ملائمة للتركية وسيايرة لروح العصر وذلك تشبها بالغرب ، الا ان هذه الفكرة واجهت معارضة شديدة من بعض المفكرين الذين وجدوا فيها محاولة لفصم الروابط بين الاتراك والعالم الاسلامي من جهة ولقطع صلة الجيل الجديد بالثرات الثقافي التركي القديم من جهة اخرى . ولذلك فقد جرت محاولات لاصلاح الابجدية العثمانية بحيث نفي بعاجلة اللغة التركية فابتدع اسماعيل حقي طريقة جديدة للكتابة الابجدية العربية ، كما اقترح انور باشا كتابة حديثة لتبسيط قراءة الابجدية العربية ، الا ان هاتين المحاولتين لم تصادقا نجاحا ولا ذيوعا^(٨٨) فشككت لجنة لدراسة هذا الموضوع^(٨٩) فقامت بتتقية اللغة العثمانية من بعض الكلمات الدخيلة غير انها لم تستطع البت في موضوع الابجدية الملائمة للغة التركية . وخلال هذه الفترة قويت الدعوة الى تغيير الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية لا سيما بعد ان طرح اللغويي النمسواوي هـ . ف . كيوير غيج (نظرية الشمس) في اللغة التركية^(٩٠) التي تقول

الرغم من استعمال الاتراك لهذه الابجديات في فترات متقطعة واصناف مختلفة ، الا انهم قد اتفقوا الابجدية العربية خطأ لهم اعتبارا من القرن العاشر الميلادي بعد قبيلهم للاسلام ديناً . وقد اضاف الاتراك - مثل الايرانيين - الى الابجدية العربية ذات ال (٢٨) حرفا الحروف الفارسية الاربعة (الجيم واژاء والياه والكاف) وبذلك اصبحت الابجدية التركية - ذات الجذور العربية - مؤلفة من ٣٥ حرفا . ولعل اقدم نص تركي مكتوب بالابجدية العربية هو النسخة الاصلية من القصيدة التعليمية الكبرى (قوتاد غوييليك) التي نظمها يوسف خاصي حاجب البلاسا غوني عام (١٠٧٠ م)^(٩١) وقد اطلقت على اللغة التركية تسمية (اللغة العثمانية) اعتبارا من القرن الرابع عشر الميلادي .

نمت اللغة التركية وترعرعت في ظل الابجدية العربية ، لاسيا بعد ميلاد ادب الديوان تحت تأثير الثقافة الاسلامية حتى مطلع القرن العشرين عندما دعا كل من حسين جاهد بالجين ، وقليج زاده حقي ، وجمال توري ايلري ، الى استبدال الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية ، حيث كتب حسين جاهد بالجين اول مقال حول الموضوع في صحيفة (طنين) في ٣١

(٨٧) توهم كثير من الباحثين بانها مدحج الاستاذ بروتكلان في ان فرتاد غوييليك قد كتبت بالخط العربي . ولكن الدراسات الحديثة اظهرت بانها كتبت بالخط الاوغلوري مع استعمال الحروف العربية غير الموجودة في الابجدية الاوغلورية وهي (خ ، ع ، هـ) انظر كتاب : حسين كاظم قودي ، تورك لغتي / انقرة ١٩٦٧ ج ١ / ص ١٧ .

(٨٨) أكاد سري لوند ، لوزار اللغة التركية (بالتركية) انقرة ١٩٦٠ / ص ٢٨٧ .

(٨٩) الدكتور حسين مجيب المصري : تاريخ الادب التركي / القاهرة ١٩٥٦ / ص ٥٢٧ .

(٩٠) أكاد سري لوند ، في ثورة اللغة (بالتركية) انقرة ١٩٦٧ / ص ٢٤ .

(٩١) أكاد سري لوند : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

بان اللغة التركية كانت - خلال العشرين الحجري والحديدي - لغة الثقافة ، ومنها انتقلت الالفاظ الحضارية الى اللغات الاخرى^(٨٦) .

وفي خضم هذه الدعوات والافكار والنظريات تبنت الحكومة التركية (نظرية الشمس) وفكرة استبدال الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية لا سيما بعد ان قدم نظمي الايزملي مع اثنين من رفاقه اقتراحا حول ذلك الى مؤتمر الاقتصاديين المتعقد في ازمير عام ١٩٢٣ ، غير ان المؤتمر صرف النظر عن الموضوع لانه خارج اختصاصه وبحث رئيس المؤتمر المارشال كاظم قره بالاقتراح المذكور الى وزارة التعليم للنظر فيه ، وقد بدأت الوزارة المذكورة باجراء الدراسات حول الاقتراح المذكور، منذ ذلك التاريخ^(٨٧) وعندما انعقد مؤتمر الشعب التركية في باكو عام (١٩٢٦) لدراسة مشاكل اللغة والكتابة التركية وافق المؤتمر على احوال الابجدية اللاتينية محل الابجدية العربية^(٨٨) .

وقد طبقت الابجدية اللاتينية في اذربيجان السوفيتية منذ عام (١٩٢٢) بدلا من الابجدية

العربية^(٨٩) . كما استعملت الابجدية الكيريلية بدلا من الابجدية العربية في جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية اعتبارا من (١٩٢٧) أما في تركيا فان وزارة التعليم قد اتخذت قرارا - بعد دراسة التقرير الاتف الذكر المقدم اليها - باستعمال الرموز اللاتينية في الجامعات والمعاهد العالية في دروس الفيزياء والكيمياء والرياضيات اعتبارا من (١٩٢٧) كما قامت ادارة البريد التركية بطبع عبارة (البريد التركي) باللاتينية على الطوابع البريدية في السنة نفسها وقامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة لاعداد ابجدية من الابجدية اللاتينية وقد قامت اللجنة المذكورة باعداد الابجدية التركية في منتصف عام ١٩٢٨^(٩٠) .

وفي اغسطس ١٩٢٨ أعلن مؤتمر اللغويين المتعقد في (سراي بورنو) باسطنبول عن قبوله للابجدية التركية الجديدة^(٩١) وفي الاول من تشرين الثاني ١٩٢٨ وافق مجلس الامة التركي على قانون الابجدية التركية الجديدة^(٩٢) التي تتألف من ٢٩ حرفا . اما الاقلية التركية الموجودة في الصين وايران والعراق

(٨٦) اعتمدت هذه النظرية بعد المحادثات ، وان كان بعض اللغات القومية المتطرفة متسكة بها الى الان .

(٨٧) آكاه سري لاند : اذربايجان تطور اللغة التركية / ص ٣٩٢ .

(٨٨) الدكتور حسين مجيب المصري : تاريخ الادب التركي ص ٥٣٧ .

(٨٩) غير انها استبدلت بالابجدية الكيريلية عام ١٩٣٩ .

(٩٠) انور حيدان قارال : تاريخ الجمهورية التركية (بالتركية) استانبول ١٩٦٠ ، ص ٦٦١ .

(٩١) سرور ليسكيت : حركات النشر في تركيا (بالتركية) استانبول ١٩٣٩ ، ص ١٨٤ .

(٩٢) سرور ليسكيت : للعصر السابق ، ص ١٨٥ .

سوف تأخذ محلها كبديل للالفاظ الدخيلة في معجم اللغة التركية الحديث .

٢ - التمشيط :

قام المجمع اللغوي التركي بتمشيط كافة الكتب والمؤلفات التركية القديمة بحثا عن الكلمة التركية الموجودة فيها ، ثم نشرها في مجموعات مستقلة كل مجموعة تضم كلمات خمسين مؤلفا معشوطا .

٣ - التوليد :

بدأ اللغويون الاتراك بوضع اللواحق على جذور الكلمات التركية ، وبذلك تم توليد وإيجاد العديد من الكلمات والالفاظ التركية الجديدة .

٤ - الدمج :

تسمى معظم اللغات الى دمج كلمتين أو أكثر من عبارة واحدة من أجل اختراع تعبير جديد . وقد قام اللغويون الاتراك بالعملية نفسها في اللغة التركية . وبهذه الطريقة أصبحت اللغة التركية الحديثة اليوم أكثر سلاسة وغنى من حيث المفردات والتعابير عن اللهجات التركية السابقة .

الفصل الثاني

« التطور الثقافي للمجتمع التركي »

إذا كانت المصادر الصينية قد أكدت استيلاء القبائل التركية على عاصمة بلادهم (بكين)

واليونان فانها لا تزال تستعمل الابدجية العربية في كتاباتها^(١٢) .

المبحث الرابع

« ثورة اللغة »

ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر حركة قوية لتنقية اللغة التركية من الالفاظ الدخيلة ، فقد بدأت مجموعة من المثقفين الاتراك في عام ١٩٠٨ بتشكيل (جماعة التركية الحديثة) الذين استطاعوا وضع اسس جديدة للغة التركية الفصحى بحيث اقترنت كثيرا من لغة الشعب (لغة التخاطب اليومية) بعد تنقيتها من الالفاظ والتعابير والقواعد الدخيلة على اللغة التركية الرسمية .

وبعد اعلان الجمهورية في تركيا عام ١٩٢٣ قام مصطفى كمال أتاتورك بسلسلة من الاصلاحات الاجتماعية التي كان في مجملها (ثورة اللغة) التي لازالت مستمرة الى يوم الناس هذا . وتعتمد هذه الثورة على المصادر التالية في إغناء اللغة التركية وتنقيتها من الالفاظ الدخيلة :

١ - المجمع :

يقوم المجمع التركي الذي تأسس في ١٢ تموز ١٩٣٢ بجمع مفردات اللغة التركية من اقراء عامة الشعب فاستطاع في حملته الاولى من جمع ١٥٠,٠٠٠ كلمة ، وفي حملته الثانية من جمع ٥٥٠,٠٠٠ كلمة

(١٢) تستعمل الالافية التركية في الصين - ومع من الاريفوريين - الابدجية العربية نظرا لصعوبة اللغة الصينية . اما تركمان العراق وأيران فاستعملوا على الابدجية العربية في كتاباتهم اعتزازا منهم بلغة القرآن والثقافة العربية .

الديانة في الاحتفالات الرسمية ، ليس كما هو معروف لديهم ، وإنما بحسب ما توجبه الآلهة والأرواح اليهم ، لهذا لم تكن ثمة حاجة لكي يقوم (القام) بحفظ الادعية والأوراد والترانيل عن سلفه . كما انه لم يكن يتورع عن تحريف هذه الترانيل لانه يتلفى الالهام من الارواح الحامية التي تقده بالعلم والمعرفة وأساليب السحر^(٩١) . لذلك نجد في العديد من النصوص الادبية الشامانية اسطرا او عبارات او كلمات غير مفهومة ، مما كان ذلك سببا في صعوبة فهم وادراك معاني تلك النصوص .

اما الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى الاتراك - قبل الاسلام - فقد كانت تعتمد على البداوة والاقطاع وان كانت بعض هذه القبائل قد عرفت المشاعية البدائية في زراعة الارض وتوزيع المحصولات^(٩٢) . كما كانت ثمة ملكية القبيلة للارض . وهو نظام اجتماعي - اقتصادي لا يظهر الا في المجتمعات البدائية التي تكون خاضعة للسلطة الابوية والتي تعيش على الصيد والقتل ولا تعرف اسلوب تقسيم العمل^(٩٣) ، أما الطبقات الاجتماعية عند هذه القبائل فانها كانت تتألف من (رئيس)

واستبدلوا اسمها الى (خان بالغ) ذلك في القرن الثالث قبل الميلاد نتيجة الوحدة التي كانت تجميع شمل هذه القبائل ، فان الصينيين استطاعوا بث التفرقة بين زعماء هذه القبائل لا سيما بعد بنائهم لسندهم العظيم لصعد هجائهما^(٩٤) بحيث تفرق شملهم وسادت الحروب فيما بينهم حتى - اصبخوا - لفترات طويلة متباعدة تحت السيطرة الصينية^(٩٥) .

لم تكن لهذه القبائل حضارة مزدهرة مثل جيرانهم الصينيين والفرس والعرب ، غير انهم كانوا يمارسون التقاليد البدوية الفطرية ، وكان لهم آدابهم التي تنفق مع حياتهم . وشعرزهم الذين يسمونهم (أوزان) وكانوا يعومون - في الوقت نفسه - بالطبابة والسحر وعزف الآلات الموسيقية في حفلاتهم ومناسباتهم الدينية - حيث كانوا يدينون بالشامانية - فتأخذهم التشوة ويملكهم حالة لا شعورية تجسود قرائعهم - اتنامها - بقصائد شعرية^(٩٦) .

كانت الشامانية - التي كان يدين بها الاتراك قبل الاسلام - من الديانات البدائية التي لا تؤمن بقواعد دينية ثابتة^(٩٧) ولذلك كان الشاماني أو (القام) أو (الباقتي)^(٩٨) يمسرون مراسيم هذه

(٩١) هيركوتي : تورككك تارىخ جيميسي ، مترجمي حنين جلد ، مجلد ٨ ، ص ٧٨ .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٩٣) فرانسيس كالكيني : فنون الالهة الصيني التريكي ، يندك ، ١٩٦٢ ، ص ١٨ .

(٩٤) عبد القادر إيلان : الشامانية ، المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٩٥) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

100 - 7 - B. Y. Vladimirtov : mongolian ismaili Tenkilat, ANIK. 1944, S.14

101 - 8 - Dr. Muzaffer Sencer : Osmanlı Toplamı yapısı, istanbul 1971, S.187

(٣٨) حرفا كما كان يكتب من فوق الى اسفل مبتدئا من اليمين^(١٠٧) ، وبالإضافة الى الخطين الاورغوري والاورخوني فقد اصطنع الاتراك ابجديات أخرى في كتاباتهم منها محاولة المبشرين المسيحيين لايجاد ابجدية جديدة مشتقة من الابجدية اليونانية بعد ان تمت ترجمة الانجيل الى التركية بغية تنصير الاتراك الخزر : كما ان بعض القبائل التركية كانت تستعمل الابجدية السلافية والعبرانية وغيرها^(١٠٨) .

وإذا كانت المسلات الاورخونية التي نصبت احداها باسم البطل (كَوَل تَكِين) سنة (٧٣٢م) والاخرى للبطل (بِلَكَه خان) عام (٧٣٥م) تشكل وثيقة تاريخية مهمة لمعرفة الحياة الفكرية لدى الاتراك خلال القرن الثامن الميلادي^(١٠٩) في آسيا الوسطى ، فان المصادر الصينية قد ذكرت مجموعة من الاشعار والاغاني التركية التي يعود تاريخها الى القرن الثاني قبل الميلاد^(١١٠) ومنها هذه الرباعية المترجمة :

القبيلة التي يتمتع بالسلطة الابوية و (الافراد) و (العبد)^(١١١) .

ونظرا لعدم ملائمة مناخ آسيا الوسطى - موطن الاتراك - للزراعة فقد انتشلت هذه القبائل بتربية الحيوانات وبالرعي^(١١٢) وانتقلت من مكان الى آخر طلبا للكلأ والماء - لا سيما وقد ظهرت الدراسات الحديثة التي أجريت حول الكتابات التركية القديمة التي وجدت في آسيا الوسطى ... ان لا اثر للالفاظ والكلمات الدالة على الزراعة في الكتابات الاورخونية^(١١٣) .

وكان الاورغوريون اوفر هذه القبائل حظا من الثقافة ، حيث كان لهم خط معروف يكتبون به وهي الابجدية السامية التي انتقلت اليهم بواسطة المرسلين النساطرة منذ القرن الخامس الميلادي^(١١٤) وكانت تتكون من (١٤) حرفا . وقد حل هذا الخط محل الخط الاورخوني الذي كتبت به المسلات الاورخونية تقليدا لذكرى الابطال الاتراك خلال القرن الثامن الميلادي^(١١٥) وكان الخط الاورخوني يتألف من

{ ١٠٢ } د . مطهر سنجر : المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

103 - 10 - M. A. Sevkı : Osmanlı Tarihinin Sosyal Bilimle Açıklanması, ist. 1968, S. 27 - 30

{ ١٠٤ } د . مطهر سنجر : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

{ ١٠٥ } كارل بروكلمان : الانبساطورية الاسلامية واتحالاتها : ترجمة الدكتور نبيه امين فارس ونبيل الجليلي ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٧٧ .

{ ١٠٦ } الدكتور ابراهيم الدافقي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

{ ١٠٧ } عارف عبيد مانسال وأقرين . اورتاياغ تاريخي ، اقله ١٩٤٤ ، ص ٣٦ .

{ ١٠٨ } عارف عبيد مانسال وفيهم : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

{ ١٠٩ } د . ابراهيم الدافقي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

110 - Unatı Mahir Kocutürk : Türk Edebiyatı Tarihi, ANK. 1970, S. 6

عندما فقدنا (ين كي سان)
فقدت نسلنا جملنا
وتركت جيسال (كي ليان)
حيث غدت دوابنا دون رعاية

بل أن الأتراك الذين أسسوا الولايات في شمال
الصين خلال القرن الرابع والخامس والسادس
الميلادي كانوا يترغون بالقصائد الشعرية التي كانوا
يطلقون عليها (القصائد المغناة)^(١١١) . ونعتقد أن
هذه القصائد هي الأشعار التي كان الشعراء الشامان
الذين كان يطلق عليهم (اويون) أو (قام) أو
(باشي) أو (يوزان) يرددونها في المناسبات
الدينية . وكان هؤلاء يعتبرون أنفسهم وسطاء بين
الآلهة والانسان يستوحيون أعمالهم من الآلهة وينقلون
البشر من شر المردة والجبان بطرقهم السحرية^(١١٢) .

واعتباراً من القرن السادس الميلادي ظهرت
النصوص المكتوبة في الثقافة التركية في عهد دولة
الأتراك الأتازقة (كوك توك) في شمال الصين ،
حيث دونوا حروبهم وراثتهم وتنقلاتهم على المسلات

الأورخونية وعلى شواهد القبور لأن الأتراك لم يكونوا
قد استقروا بعد من حياة البداوة ، حيث انهم لم
يعرفوا الزراعة إلا في القرن العاشر الميلادي^(١١٣)
وربما كانت (الفرة الصفراء) أول محصول زراعي
يقومون بزراعته لانهم كانوا يثرونها فوق رأس
العروس إذا كانت غريبة أو اجنبية - لطرد الأرواح
الشريفة عنها ولكي تتقبلها الأرواح الخاصة بمائلة
الريس^(١١٤) ، ويتضح من ذلك بأن استقرار الأتراك
وتكوينهم للقرى والمدن قد بدأ في القرنين العاشر
والعاشر عشر الميلاديين ، وهي الفترة التي بدأ
الأتراك فيها بالدخول في الدين الاسلامي .

ومن جهة أخرى فقد كان الأتراك لا يعرفون من
الصناعات غير صناعة اللباد والبساط والحياكة
اليدية^(١١٥) غير أنهم كانوا يشتغلون بالتجارة مع
جيرانهم ولا سيما بتجارة الأغنام والعيبد^(١١٦) وكان
نظام الدولة يعتمد على اتحاد القبائل^(١١٧) وتربيع
على رأس هذا النظام (الخاقان) أو (كاغان) أو
(الخان) ثم الأمراء (Begler) ثم أفراد القبيلة
فالعبيد^(١١٨) . ويقول المؤرخ الألماني المعروف

(١١١) وصفي ماهر قريشورك : المصدر السابق ، ص ٧ .

(١١٢) د . إبراهيم الفاتحي : المصدر السابق ، ص ١٩ .

(١١٣) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١١٤) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١١٥) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(١١٦) البراديسور لاروق سوير : المصدر السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(١١٧) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(١١٨) فاروق سوير : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

السياسي الاسلامي اجتماعيا واقتصاديا حتى مطلع القرن العشرين عندما انطلقت الثورة الكيالية ضد الاحتلال الاجنبي لتركيا ، وكانت هذه الثورة هي ثورة الشعب التركي بكل فئاته ضد الاحتلال والمدون والفساد والتخلف . غير ان هذه الثورة التحررية انحرفت عن مبادئها التي نادت بها عند قيامها ، وهي محاربة الاستعمار والرجعية والاستغلال المتمثل بالرأسمالية ، حيث خطب مصطفى كمال أتاتورك في ذروة حروب التحرير في الاناضول وعند افتتاحه لجلسات المجلس الوطني في ١ آذار ١٩٢٢ قائلا :

« منقوم بتأميم كافة المؤسسات والاعمال ذات العلاقة بحياة العامة وسنقطع دابر الاستغلال ... » (١٢٢) ثم عاد بعد انتصار الثورة على الغزاة فخطب في المؤتمر الاقتصادي التركي المنعقد في أزمير في ١٧ شباط ١٩٢٣ مؤيدا النظام الاقتصادي القائم على الرأسمالية الوطنية بعيدا عن التأميم وتدخل الدولة (١٢٣) وبذلك انزلت الثورة التركية لتكون أداة بيد البرجوازية التي رأت في كل انتقاد يوجه الى مؤسساتها ايذانا باسقاطها .. ولذلك خنقت حرية الفكر وهي في مهدها عن طريق اقامة نظام الحزب الواحد . بل كان ثمة اتجاه فاشيستي في

رئيسه : « ان الحاجة الى رئيس يوجه هذه القبائل نحو تسديد الضرائب الى الخصم والاستحواذ على الغنائم ، هي التي دفعت بهذه القبائل الى الاتحاد وتشكيل الامبراطوريات رغم البداوة وعدم الاستقرار » (١٢٤) غير ان الاتراك عرفوا - فيما بعد - نظام ملكية الاراضي التي كانوا يستولون عليها في حروبهم التي تعتمد على الفرسان - بالدرجة الاولى - وبذلك نشأ عندهم (الاقطاع العسكري) حيث كانت الاراضي تمنح الى الفداة العسكريين لاستغلالها ومن ثم كانت ملكيتها تنتقل الى الورثة (١٢٥) وهذا النظام استمر حتى أيام الضانين ، مع فارق واحد هو ان النظام الاجتماعي عند الضانين (١٢٦) كان يعتمد على السلطان ثم العلماء ، ثم اغوات الانكشارية وفي الاخير الفرسان وهم اصحاب الاقطاع العسكري . وعلى الرغم من ان الاراضي - أيام الضانين - كانت ملكا للدولة ، الا ان الطبقات الاجتماعية في القمة كانوا هم المالكين الحقيقيين لهذه الاراضي ، ولذلك فقد كانوا يشكلون - مع السلطان - الصفوة او الطبقة العليا ، بينما كان افراد الشعب يشكلون الطبقة الكادحة المسحوقة والمحرومة في آن واحد .

وعندما قبل الاتراك الدين الاسلامي خلال القرن العاشر الميلادي ، انطبعت حياتهم بالطابع

(١٢١) د . مطهر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١٢٠) د . مطهر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(١٢١) د . مطهر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

122 - Dr. Cetin Yetkin : Siyasal İktidarın Sanatı Karsı, Ankara 1970, S. 28

123 - Sabahaddin Selek : Anadolu İhtilali, İstanbul 1965, SMC, S. 339 - 340

بالشعراء التقدميين عن طريق تقديمهم والايام بانهم
نيوعيون^(١٣٦) في الوقت الذي كان يتمتع فيه
جواسيس النازية بالرعاية ويسكنون برغم الحكم
عليهم بالسجن لمدة ١٥ سنة - في شقق مفروشة مع
عائلاتهم ويسهرون ويسامرون مع احبائهم تحت
حراسة سورية ، بينما كان الشعراء والكتاب
التقدميون امثال ناظم حكمت وكمال طاهر واورخان
كمال وأ . قادر وعزيز ليسن يعذبون في سجون تركيا
ويحشرون مع المجرمين والقتلة . حتى لقد قال ناظم
حكمت في احدي رسائله الى كمال طاهر : « لقد
حكم علينا بالسجن نتيجة مساعي اصدقاء النازيين
ومؤيديهم »^(١٣٧) .

ان نصف قرن من الماضي هو تاريخ الفكر في
تركيا وكفاح المثقفين من اجل الغد الافضل من
خلال نضال الشعراء والادباء ... ويكفي هنا ان تقدم
نص التقرير الذي قدمته لجنة مختصة الى رئيس
الوزراء (سراج اغلو) عام ١٩٤٣ : « ان مجلتي
(يورد - الوطن) و (دنيا) يساريان ، أما مجلات
(كوك يورد : الذئب الاغبر) و (تورك يورد :
الوطن التركي) و (جنار آلتسي : تحت الدلف)
و (آق بابا : النسر) فلا حاجة لايراد التفصيلات
حولها ، واما (مللت : الامة) و (جيفير : التيار)
فانها يمينيتان » .

ثلاثينات القرن في تركيا ، والذي كان لا يرى في
تركيا « الا شعبا واحدا مؤلفا من طبقة واحدة يحكمها
زعيم واحد »^(١٣٨) ولذلك فقد منعت الاضرابات
بموجب القانون المرقم ٣٠٠٨ الصادر في ٨ حزيران
١٩٣٦ ، واجبر التشباب التركي على الانضمام الى
منظمات شبيهة حزب الشعب الجمهوري ، كما ادخل
نص المادتين ١٤٦ و ١٤٧ من قانون العقوبات
الاطالي الى قانون الجزاء التركي عام ١٩٣٦ ...
هاتين المادتين المطابقتين اللتين توصان كل حركة او
قول او رأي تنظمي او مخالف لأراء النظام الحاكم
بحركة هدامة يسجن المتهم بموجبها من ٣ - ١٥ سنة .

وإذا أضفنا الى ذلك الشعار الذي رفعه الحزب
الحاكم - حزب الشعب الجمهوري - في تلك الفترة
(لا امتيازات لا طبقات وإنما نحن كتلة واحدة
متراسة) والصداقة التقليدية للامان .. اكتملت
الصورة وكانت النتيجة اتجاه فاشيستي في الحكم - لا
سواء بمد وفاة مصطفى كمال أتاتورك في ١٩٣٨ -
ومحاولة شق الحريات اضافة الى سحق كل اتجاه
يساري أو معارض للحكم .

وكانت المانيا النازية تؤيد هذا الاتجاه نصف
الفاشي في تركيا وتدعمه ماديا ومعنويا^(١٣٩) كما لعب
الكتاب والشعراء الرجعيون ادوارا فذة في الوضعية

(١٣٤) الدكتور جين بكنين : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(١٣٥) . جين بكنين : المصدر السابق ، ص ٣١ - ٣٥ .

(١٣٦) . جين بكنين : المصدر السابق ، ص ٣٥ .

وإذا كان خطر قد حرق الرايخشتاغ في ٢٧ شباط ١٩٣٣ لتثبيت حكمه ولضرب اليسار في شخص ديترشوف ، فإن الحزب الديمقراطي هو الذي دبر أحداث ٦ - ٧ أيلول ١٩٥٥ التي أدت إلى سلب ونهب أموال المسيحيين واليونانيين بالتعاون مع اليهود لضرب عصفورين بحجر واحد : تثبيت حكمهم بالتعاون مع اليهود الماسونيين عن طريق السيطرة على الاقتصاد التركي من جهة ، وضرب التيار اليساري المتنامي في البلاد من جهة أخرى . ولذلك نجد صحيفة ظفر - وهي لسان حال الحزب الديمقراطي آنذاك - تقول في افتتاحيتها حول هذه الأحداث : « لقد كان من بين المعرضين على أحداث ٦ أيلول ٤٣ شيوعيا كانوا - خلال الأحداث - في منطقة بيوغلي - باستانبول - وهم من أعضاء الحزب الشيوعي التركي السري الذين حكم عليهم بالسجن لفترات مختلفة .. » (١٣٥) وكان على رأس هؤلاء الشيوعيين !!! الكتاب التقدميون : عاصم يزرعي ، حسن عز الدين ديمسو ، عزيز سنين وكمال طاهر ... هؤلاء الذين زج بهم في السجون لاشهر عديدة دون محاكمة !! ثم أطلق سراحهم .

بلغت انتهاكات الحزب الديمقراطي لحسرية الصحافة ذروتها خلال إضرابات الطلبة عام ١٩٥٦ وكاد أن يكون منقلب القوط للاستعمار الأمريكي عام ١٩٥٧ للتدخل في سوريا ، وكان على وشك التورط العسكري في العراق بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ دفاعا

أننا نتبع فعاليات اليساريين خطوة بخطوة وعندما تكتسب دعائيتهم الخطورة ، فأننا نسرع إلى غلق صحفهم عن طريق الادارة العرفية وبذلك نقضي على نشاطهم .

ان قسما من الكتاب اليساريين قد ابعدوا إلى خارج حدود استانبول من قبل الادارة العرفية ومنعوا من الكتابة بينما لا يزال القسم الآخر منهم في السجون ... » (١٣٥) .

غير ان اندحار الفاشية وخيبة امل الفاشيين في تركيا أدى بالنظام السياسي إلى التحول إلى نظام الديمقراطية الغربية والاخذ بمبدأ تعدد الأحزاب على الرغم من عدم تغير الأوضاع السياسية . فعندما تشكل الحزب الديمقراطي في ٨ كانون الثاني ١٩٤٦ لم يكن هذا الحزب إلا تجمعاً للبرلمانيين المنفصلين من حزب الشعب الجمهوري ورئيسه عصمت إينونو . وفي ١٩٥٠ فشل حزب الشعب الجمهوري في الانتخابات النيابية وفاز الحزب الديمقراطي فوزا ساحقا عليه ، وبذلك طويت دكتاتورية الحزب الواحد ، إلى فترة قصيرة ، وسادت حرية الصحافة وتكونت أحزاب سياسية جديدة ومعارضة . غير ان فوز الحزب الديمقراطي لم يكن يشكل انعطافة سياسية تقدمية ، وإنما مظهرا من مظاهر الرغبة في التجديد بعد دكتاتورية الحزب الواحد التي استمرت أكثر من ربع قرن .

(١٣٨) د . جين بكتين : المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١٣٩) جريدة ظفر الصكرية في ١٢ أيلول ١٩٥٥ .

وعلى الرغم من ان حكومة لجنة الوحدة الوطنية العسكرية قد تركت الحكم للمدنيين بعد الانتخابات العامة التي فاز فيها حزب الشعب الجمهوري بعد خمسة عشر عاما من المعارضة خارج الحكم ، فان الاوضاع السياسية والاجتماعية لم تشهد تغييرات جذرية ، كبيرة .

تسلم عصمت اينونو رئيس حزب الشعب الجمهوري السلطة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦١ بعد انتخابات ١٥ تشرين الاول بعد ان اصبح جمال كورميسل زعيم الانقلاب رئيسا للجمهورية ... فورت ركاسا هاتلا من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اضافة الى المسيرات والاضرابات والاعتصامات وإشغال المؤسسات الصناعية والتجارية واخذ الرهائن .

فقد جابهت حكومة عصمت اينونو اول اضراب عمالي في ٣١ كانون الاول ١٩٦١ ، غير ان حكومته استطاعت ان تحل مسألة الاضراب بالمسنى بعد ان لبى اصحاب العمل بعضا من مطالب العمال .

ولعل اخطر مشكلة جابهت حكومة عصمت اينونو - خليفة أتاتورك السياسي الداهية المخضرم في تركيا - في التكتلات السياسية (اليمينية) و (اليسارية) بابعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ففي ٩ شباط ١٩٦٢ قامت مجموعة من المثقفين اليساريين الانترالك بافتتاح المؤتمر التأسيسي لحزب العمال التركي (Ttp) الذي كان يضم كافة الحركات اليسارية والتقدمية والاشتراكية في تركيا ، وكان هذا الخليط غير المتجانس من الآراء والأيديولوجيات مبيها

عن حلف السنو ، بل انه لم يتورع عن ارتكاب الجرائم الوحشية من تصليب السجناء وأطلاق الرصاص على المتظاهرين والطلبة خلال عامي ١٩٥٩ - ١٩٦٠ نتيجة الاتدفاع القومي وراء المصالح الذاتية ودفاعا عن السياسة الامريكية في المنطقة مما أدى الى حدوث حركة ٢٧ مارس ١٩٦٠ .

لم تكن حركة ٢٧ مارس ١٩٦٠ ثورة بالمعنى الواقعي الدقيق لهذه الكلمة ، وإنما كانت محاولة لتغيير الوجوه ولتثبيت دعائم (الاستفلال الشريف) للطبقات الكادحة من قبل البرجوازية الوطنية التي كانت تحتلها (لجنة الوحدة الوطنية) التي قامت بانقلاب عسكري يوم ٢٧ مارس ١٩٦٠ دون اوراق الدماء .

صحيح ، ان حكومة لجنة الوحدة الوطنية قد قامت باصلاحات عديدة في البلاد ، منها وضع دستور جديد للبلاد يضمن تطبيق الحريات الديمقراطية والسماح بانشاء الاحزاب اليسارية والاشتراكية ، وضمان حق الاحزاب وتأسيس النقابات ومحاولة الحد من نفوذ الاقطاع في الريف التركي ... الا انها بقيت امينة لمبادئ البرجوازية الوطنية في البقاء في الاحلاف العسكرية العدوانية (حلف التاتو والسنو والسياتو) اضافة الى عدم مساسها بالمادتين الجائزتين ١٤١ و ١٤٢ من قانون العقوبات التركي ، اللتين كانتا - ولا تزالان - تشكلا سيف ديقليس فوق حرية الرأي في تركيا . ولذلك لم تتورع لجنة الوحدة الوطنية من اعتقال بعض المفكرين اليساريين : ابراهيم بالا بان ، عوني محمد اوغلو وعزيز نسين وغيرهم .

وزعيم انقلاب ٢٧ مايس للمفر عنه باعتباره احد اعضاء لجنة الاتحاد الوطني التي قادت حركة مايس بقيادة رئيس الجمهورية ، وعندما اعفي عنه ، واكثفت الحكومة باحاليته على التقاعد ، قام بحركته الانقلابية الثانية في ٢٠ مايس ١٩٦٣ حيث اعدم على اثرها .

قامت الفئات اليسارية بزعامة حزب العمال بتأليف (جمعيات الفكر) الثقافية وكان اتحاد طلبة جامعة الشرق الاوسط في انقرة هم الذين بدأوا باقامة هذه الجمعيات اعتبارا من عام ١٩٦٣ ، بينما قامت الفئات اليمينية بتشكيل جمعيات ثقافية اخرى معارضة لتلك الجمعيات باسم (مراكز المثل العليا) المستمدة من المبادئ المثالية الهيفلية والعقيدة الاسلامية .

كان حزب الشعب الجمهوري الذي يتزعمه عصمت اينتور يمثل الوسط في صراع اليمين واليسار في تركيا ، وكان هذا الحزب قد انتخب الصحفي الشاعر (بولند اجاويد) امينا عاما له ، فعاول ان يجد مبدأ سياسيا يرتكز عليه الحزب لا سيما وانه كان يضم خليطا غير متجانس من الآراء الديمقراطية واليسارية والليبرالية نتيجة تفرد بالسلطة لاكثر من ربع قرن ، فتفتق ذهنه عن ايدولوجية جديدة اطلق عليها تسمية (يسار الوسط) وهي قريبة جدا من الاشتراكية الفابية البريطانية ، ويظهر انه تأثر بالفايين خلال وجوده كملحق صحفي في السفارة التركية بلندن .

وكان بولند اجاويد قد كتب مقالا لتوضيح ايدولوجيته في جريدة (جمهوريت) الراسمة

في الانقسامات التي شهدتها الجبهة اليسارية خلال ١٩٦٣ - ١٩٨٠ حتى وصل الى حد الانهام بالهالة والتجسس .

أما اليمين التركي ، فقد كان هو الاخر ينظم صفوفه بتأييد بعض اعضاء لجنة الاتحاد الوطني وكانت هذه الجبهة ايضا - أي اليمين التركي - تضم مجموعات متباينة الافكار ، فمن الاخوان المسلمين الى النورسيين ومن مؤيدي الصاون مع امريكا فقط الى مؤيدي الصاون مع الغرب بشكل عام ومن الاقطاعيين الى اصحاب المعامل والمصانع .

كان الصراع بين اليمين واليسار قائما على الحوار - في بداية الامر - على صفحات الجرائد والمجلات التي تكتلت هي الاخرى في جهتين ، غير ان هذا الحوار الديمقراطي ، في مظهره ، كان ينطوي على حوار من نوع آخر ظهر على السطح على شكل حوار ساخن بالعصي والسكاكين والمسدسات وحياتنا بالرشاشات ايضا ، لا سيما بعد تأسيس حزب العدالة عام ١٩٦٦ وانتخاب سلطان دميرال - المهندس المغمور في اسالة ماء انقرة والمدير السابق لمبيعات تراكتورات فرمسون الامريكية - رئيسا لهذا الحزب الذي ظهر وكأنه ينوي ان يتزعم هذه المجموعة اليمينية ، وقد اظهرت الايام الاخيرة صدق هذه التهمة السياسية .

كما شهدت المساحة الثقافية انقسامات حادة ولا سيما بعد المحاولة الانقلابية التي قام بها طلعت آيغمر زعيم المدرسة الحزبية في ٢٢ شباط ١٩٦٢ ، وعندما فشلت حركته الانقلابية ، التجأ الى رئيس الجمهورية

(٦٧) في المؤتمر العام الثامن عشر للحزب والذي انعقد بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٩٦٦ وعندما صعد المنصة لالقاء كلمته ، ووصل الى عبارته : « بقيادة اتاتورك استطلعتنا بحرب التحرير الشعبية من طرد المستعمرين المستعمرين من فوق اراضينا ، واليوم سنطرد في ضوئه مبدأ اليسار عن الوسط ، المستعمرين لما تحت اراضينا ... » (١٧٠) دوت القاعة بالتصفيق الحاد . وبذلك استطاع اجاويد ان يكسب الجولة السياسية ليس على خصومه في الحزب فقط ، وإنما ضد زعيم الحزب عصمت اينتو ايضا الذي لم يكن يقبل بهذه الايديولوجية الجديدة لولا ضغط منظمات الشباب التابعة للحزب .

يشكل عام ١٩٦٨ نقطة التحول في تاريخ تركيا المعاصر ، حيث بدأت فيه اجتماعات الشرق الجماهيرية التي نظمها الاكراد وخطب فيها المخطباء لأول مرة باللغة الكردية ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه الصلاة الجماعية في معظم جوامع الاناضول بعد ان عبات الجماعات الدينية كافة المسلمين لاقامة تلك الصلوات الجماعية ومن ثم (تلحين) الشيعية المتمثلة بالحركة اليسارية في تركيا لا سيما بعد ان نظمت - أي الحركة اليسارية - صفوفها وشكلت (القوة الثورية) Dev - Guc التي ستلعب دورا كبيرا في الاحداث السياسية خلال ١٩٦٨ - ١٩٧١ وستشهد المدن التركية الكبيرة سلسلة من الاشتباكات الدامية بينها وبين الكوماندوس اليمينيين الذين ستشجعهم السلطات الحكومية خلال الفترة نفسها .

الانتشار بتاريخ ١١ تموز ١٩٦٦ قال فيه : « ان المجتمع التركي اليوم لا يستطيع ان يتقدم بالديموقراطية التي يؤمن بها ، كما انه لا يمكنه التخلي عن هذه الديموقراطية ايضا .. انه لا يستطيع ان يضخ . ام جديدة لاهياء هذه الديموقراطية ، كما انه لا يستطيع ان يحيا بدون هذه الديموقراطية ايضا .

اذن ما العمل ؟ وكيف يمكننا ان نحصل هذه

الازمة ؟

ليس هناك من حل الا بالرجوع الى الدستور التركي ، وترجمة نصوصه الورقية واهياء مبادئها الاقتصادية والاجتماعية ضمن ظروف المجتمع لكي يمد الدستور جذوره في نسيج هذا المجتمع لتضيف الى قوة الشعب التركي قوة جديدة ولتصبح ديموقراطيتنا ديموقراطية اشتراكية بعيدة عن الاعيب السياسية في اروقة البرلمان وتنظيمات الاحزاب السياسية . وبذلك تصبح ديموقراطيتنا ، ديموقراطية اجتماعية واشتراكية اضافة الى كونها ديموقراطية صياصية ؟

استطاع بولند اجويد ابتداء اقتناع رئيس الحزب عصمت اينتو لالمان بهذه الايديولوجية الجديدة ، الا انه جوبه بمقاومة عنيفة في الهيئة الادارية للحزب ، فاجاب البلاد طويلا وعرضا لتوضيح فكرته ولكسب التأييد الشعبي لما توطئة لجمع المؤتمر العام للحزب لوضعه امام الامر الواقع . وهكذا استطاع اجاويد ان يجمع (١٤٠٠) مندوب من الولايات التركية الـ

وفي ١٦ كانون الاول نشر ٦٩ ضابطا من كافة قطعات القوات المسلحة التركية بيانا في الصحف دعوا فيه الحكومة الى وضع حد لهذه القسوة ، كما وجهوا نداء الى كافة الاحزاب السياسية لتتحمل مسؤوليتها في وضع حد لاقتتال الاخوة في تركيا .

واذا كانت هذه الدعوة المخلصة قد ضاعت بين اصوات الانفجارات والطلقات والمناقبات ، فكان لها اثرها السياسي ، حيث تشكلت القوى اليسارية في البرلمان واستطاعت اسقاط حكومة ديميرال في ١٤ شباط ١٩٧٠ عند مناقشة الميزانية العامة للدولة - غير ان ديميرال الذي اكتسب الخبرة السياسية وألغيتها استطاع تأليف ائتلاف وزاري مع بعض الاحزاب السياسية الصغيرة ، ومن ضمنها (حزب النظام القومي) الذي تألف حديثا برئاسة نجم الدين أرباقان وهو حزب ذو اتجاه اسلامي ويدعو الى التعاون مع الاقطار العربية والاسلامية وبذلك استطاع ديميرال العودة الى سدة الحكم ولكن بمكازات غير قوية هذه المرة .

اصبحت التكتلات الثقافية امرا لا مناص منه بعد الفوز الايديولوجي في المجتمع التركي وكانت تشكيلات الشباب تمثل هذه التكتلات الثقافية خير تمثيل وهي :

- ١ - اتحاد الجمعيات الاشتراكية الديمقراطية SDDF التابع لحزب الشعب الجمهوري .
- ٢ - اتحاد نوادي الفكر FKF والشباب الثوري Dev- genc التابعين لحزب العمال والمجموعات اليسارية الاخرى .

شهد عام ١٩٦٩ بداية الاغتيالات الفردية بين المجموعات اليمينية واليسارية وقيام طلاب جامعة الشرق الاوسط في انقرة بحرق سيارة السفير الامريكي (كور) لدى زيارته لتلك الجامعة التي كانت تعد معقلا من معازل اليسار التركي .

وفي ١٥ شباط ١٩٦٩ دعت القوة الثورية الى مسيرة سلمية في استانبول بعد مسيرة للمعلمين السلمية في اليوم نفسه فقامت مجموعات من الكوماندوس اليميين بالتصدي الى المسيرة المذكورة مما ادى ذلك الى وقوع عشرات القتلى ومئات المجرى .

لم تستطع الحكومات الائتلافية الضعيفة وضع حد لهذه الفوضى والارهاب المستشري في معظم أنحاء تركيا ، ولذلك فقد عيأت كافة الاحزاب السياسية مؤيديا واستفرت قواتها تولتة لحوض المعركة الانتخابية في ١٢ تشرين الاول من العام نفسه ، غير ان نتائج هذه الانتخابات لم تكن متوقعة على الصعيدين السياسي والدبلوماسي ، فقد فاز فيها حزب العدالة اليميني الذي يرأسه السيد سليمان ديميرال بعد الانقسامات التي شهدتها الاحزاب اليسارية وحزب الشعب الجمهوري ابان الانتخابات ، مما ادى ذلك الى وقوع العديد من المظاهرات والمسيرات والاضرابات واعتصامات العمال في المعامل التي نظمتها القوى الثورية بينما كانت قوى الكوماندوس - تساندتها السلطة الحاكمة - تسدد الضربات المتلاحقة لكافة المؤسسات اليسارية .

٣ - مراكز النشل العليا Ulku Ocaklari والاتحاد العام للطلبة القوميين الأتراك المؤيدين لحزب العدالة المحاكم والأحزاب اليمينية الأخرى .

٤ - مراكز الثقافة الشرقية Dko وهي التي أسسها المنقون الكراد في المناطق الشرقية من تركيا والتي تقطنها الأقلية الكردية هناك للمطالبة بالحقوقي الثقافية القومية .

كانت هذه التكتلات تمثل الجاعات الضاغطة بالنسبة للمجتمع التركي ، او كما اطلق عليهم في حينه ، انهم يمثلون المعارضة من خارج المجلس النيابي . وكان لكل كتلة من هذه الكتل ايدولوجيتها الخاصة وطريق نضالها المتميز إضافة الى المجموعات التي تؤيدها .

وخلال عام ١٩٧٠ انقسمت الحركة اليسارية في تركيا الى مجموعات عديدة منها الحركة الثورية الديمقراطية القومية التي يترعها (مهري بللي) والتي تؤمن بالكفاح المسلح وبالنظرية الماركسية - اللينينية - الماوية . ثم انقسمت هذه الحركة أيضا الى قسمين :

١ - حركة عصابات المدن التي تؤمن بالثورة المسلحة وبالإرهاب والاغتيالات والسطو على البنوك والمصانع .

٢ - حركة عصابات الريف التي تدعو الى تعبئة المزارعين للقيام بالثورة المسلحة لاسقاط النظام .

اما المجموعة الثانية في الحركة اليسارية فهي حركة الاشتراكيين الثوريين التي يترعها بيجية بوران ومحمد علي أيبار وهي تدعو أيضا الى الكفاح المسلح ولكنها تؤمن بالماركسية - اللينينية فقط .

اما المجموعة الثالثة فهي حركة الكادر الثوري ، ومعظم هؤلاء من المثقفين اليساريين الذين يؤمنون بالماركسية ولكنهم لا يصرحون بها وإنما يدعون الى الثورة في ضوء المبادئ الكيالية الاصلاحية ويتزعم هذه الحركة دوغان اوجي اوغلو الذي يمثل مع حركته البرجوازية الوطنية في تركيا .

اما الجبهة اليمينية ، فرغم انقساماتها الضمنية وشاحنتها الداخلية فانها كانت تدعو الى اقامة (الجبهة القومية الواحدة) لمجابهة الخطر الشيوعي ولإقامة الدولة التركية القومية المستندة على الدين الاسلامي والفكرة القومية . وتتألف هذه الجبهة من : حزب الحركة القومية الذي يدعو الى الوحدة التركية من شمال الصين الى البحر الابيض المتوسط ويتخذ من (الكوماندوس) وسيلة لتحقيق اهدافه ومجاهمة خصومه . وحزب العدالة ذو الميل الاسلامي والنزعة الليبرالية وحزب السلامة الوطنية الديني .

وكان حزب الشعب الجمهوري يبدئه يسار الوسط وتشكيلات الشباب في اتحادات الجمعيات الاشتراكية الديمقراطية يؤمن أيضا بالثورة ولكن عن طريق الاصلاح الاجتماعي المستند على البرلمانية الديمقراطية والنضال ضد الاستبداد في الداخل والامبريالية الخارجية في حركة الشعب الديمقراطية الثورية (١٣) .

مصرحين في كل من انقرة واسطنبول وتأسيس المنظمات السرية من اجل قلب النظام الدستوري في البلاد ... تم تنفيذهم الى محكمة عسكرية حكمت عليهم بالاعدام (١٩٣٠) .

وفي هذه الاثناء وقع اتحاد الجمعيات الاشتراكية الديمقراطية شعار (بداعا للسلاح) بدعى كافة الكتل والتنظيمات السرية والعننية الى لقاء السلاح والتوجه نحو الحوار الديمقراطي وحل القضايا السياسية والاقتصادية عن طريق البرلمان . ولكن الجبهة اليسارية اعتبرت هذه الدعوة بمثابة ذر الرماد في عيون الشعب ليقبى بعيدا عن مشاكله اليومية (١٩٣١) بينما اعتبرتها الجبهة اليمينية دعوة للتستر على جرائم اليسار ، ولذلك اصبحت الجمعيات الاشتراكية الديمقراطية هدفا لليمين واليسار على السواء .

وفي خضم كل هذه الاحداث كانت حكومة ديميرال تحاول مجاعة خطر الجبهة اليسارية بمساندة وتدعيم الجبهة اليمينية (١٩٣٥) والقوى الرجعية في البلاد مما ادى ذلك بالجيش التركي - الذي كان غير راض عن اعمال ديميرال - الى توجيه اذار للحكومة في ١٢ آذار ١٩٣٦ مما ادى الى سقوط ديميرال وقيام رئيس الاركان الجنرال (طاعاج) باعلان الاحكام العرفية في كافة الولايات وتسلم السلطة .

استطاع الجيش - خلال فترة قصيرة - من وضع الامور في نصابها ، الا ان تعاليد الجيش التركي وتنشعبه بالافكار الاصلاحية ووقفه دوسا ضد

كانت الصراعات الايديولوجية بين هذه القوى اليمينية واليسارية ، التي تساندتها قوى اجنبية خارجية ، من الحدة والشدة الى درجة اصبح التضام فيما بينها مستحيلا ، لان كل فئة منها تؤمن بأن فكرتها هي الاصبوب وان طريقها في الكفاح هي المثلى وان فرقتهما هي الناجية ، وكل من لا يؤمن بها هو خائن وعميل يجب القضاء عليه (١٩٣٢) .

حاولت حكومة سليمان ديميرال - بعد ان فاز حزبه في انتخابات ١٩٦٩ - بمجاعة قوى اليسار التثييط باستعمال الشدة ، فاعتقلت زعماء مراكز الثقافة الشرقية من الاكراد وكذلك ماهر جايان ورفاقه من زعماء جيش التحرير الشعبي التركي THKO واغلقت نوادي الفكر ، الا ان الجيش التركي ذا التقاليد التحررية والافكار الكيالية وهم من ابناء الطبقات الكادحة في الريف التركي لم يرض على حكومة ديميرال ذات الانحاء الواحد المنصب على مكافحة اليسار ، لان الجيش التركي كان يرغب في القضاء على القوضى وحركات الارهاب سواء كان من اليسار او من اليمين .

ولما كانت حكومة ديميرال قد اعلنت الاحكام العرفية في البلاد لمكافحة (النشاط الهدام) ولذلك فقد تم تقديم ماهر جايان ورفاقه ودينيز كيزنش ورفاقه بتهمة تأسيس حزب التحرير الشعبي التركي وجبهة التحرير الشعبي التركي وجيش التحرير الشعبي التركي ، وقتل القنصل الاسرائيلي في اسطنبول (ابراهيم الروم) واختطاف (سيبيل أركان) وسرقة

(١٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

133 - Burç Eyrim : Mahir Cayan Davası, Ankara 1974, S. 29 - 32

(١٣٤) سليمان كنج ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(١٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

الداخلية والخارجية ، بعيدا عن التأثيرات السياسية الدولية .

الفصل الثالث

« تاريخ الادب التركي »

اعتاد مؤرخو الادب التركي على تقسيم هذا الادب الى ثلاثة اقسام رئيسية ، وجريا على عادة هؤلاء سوف نتحدث عن الادب التركي قبل الاسلام وبعده بإيجاز لتحدث عنه في القرن العشرين بأسهاب .

المبحث الاول

الادب التركي قبل الاسلام

عرف الاتراك - قبل الاسلام - التنظيم بأوزان (المبحا) التي تعتمد على حساب الاصابع ، وكان هذا الشعر ينظم على شكل رباعيات ذات قواف ناقصة وكانت المرثي المساة (ساعو) تشكل الاقسام الرئيسية لهذا الشعر (١٣) كما كان للاتراك ملاحهم القومية التي تنقسم الى ثلاثة اقسام :

أ - ملحمة هينكو

ب - ملحمة توك يو

ج - ملحمة اويغور

وتعد ملحمة (اويغور) اهم هذه الملاحم ، وقد وصل الينا فقط قسم منها وهو المسمى (اويغورنامة)

الاستثمار والاستغلال في الداخل وضد التدخل الاجنبي في شؤون تركيا - رغم وجود الاحلاف العسكرية - قد جعلت منه قوة للتوازن السياسي في البلاد ، ولذلك فانه يجب دوما كليا اختل هذا التوازن لاعادة الامور الى مجراها الطبيعية ومن ثم تسليم مقاليد الحكم الى الساسة والعودة الى ثكنات الجيش . وكان الجيش يعتقد ان سلجان ديمرال - رئيس الوزراء - لا ينبغي جدبا القضاء على الفوضى والارهاب بكل اشكالها لانه مشغول فقط باتهام كل معارض باليسارية والشيعوية اضافة الى تسره على افعال الكوماندوس اليمينيين ودعوات الجهاد والحرب المقدسة ضد الملحدين التي تطلقها الفئات الرجعية . وعندما سقط ديمرال قام الجيش بتسليم مقاليد الامور الى حكومة (نهاد اريم) وانسحب الى ثكناته بعد ان حل المجلس النيابي توطئة لاجراء انتخابات جديدة .

لم يحصل اي حزب سياسي عند اجراء الانتخابات بمفرده على الاكثية البرلمانية التي تزله لتشكيل الحكومة ، الا ان حزب الشعب الجمهوري وحزب العدالة حصلوا على اكثرية الاصوات ، بحيث يستطيع كل واحد منها بالائتلاف مع حزب سياسي صغير او اكثر من تشكيل الحكومة ، وبذلك فتحت هذه الانتخابات الباب على مصراعيها للائتلافات السياسية التي نهدها تركيا حتى اليوم وهي تلك الحكومات الضعيفة التي لم تستطع - الى الان - من وضع حد للفوضى والارهاب السياسي ، ولن تستطيع تركيا الخروج من مأزقها السياسي وورطتها الا عن طريق حكومة قوية لها صلاحيات سياسية واسعة وايدولوجية فكرية تحررية واستقلالية في السياسة

عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين ، بحيث انه لا يجوز شخص حتى السلطان نفسه على مخالفتها^(١٦١) . وعلى الرغم من ان هذا الكتاب قد تم تأليفه في القرن الثاني عشر الا انه يعد من مؤلفات الاتراك ، قبل الاسلام ، لانه يتضمن معظم عادات وتقاليد الاتراك التي كانت معروفة قبل الاسلام . اما لول اثر ادبي تركي مستقل - بعد الكتابات الاورغونية - فهو (قوتاد غوبيليك - علم السعادة) الذي ألفه يوسف خاص حاجب البلاساغوني خلال القرن الحادي عشر الميلادي بالخط الاورغوني مع استعمال الحروف العربية غير الموجودة في الابجدية التركية^(١٦٢) . ونجد في هذه القصيدة التعليمية ملامح اسلامية واضحة .

المبحث الثاني

تاريخ الادب التركي بعد الاسلام

عندما دخل الاتراك في الدين الاسلامي ، اطلق المستشرقون ورواد الحضارة العربية على لهجة كوك تورك تسمية (اللهجة الغربية) وعلى لهجة الاويغور (اللهجة الشرقية) . ثم استبدلت هذه التسميات بتسميات اخرى ، فسميت اللهجة الشرقية ب (الخاقانية) التي تطورت فيما بعد الى (الجغتائية)

الذي يدور حول معارك وبطولات أحد سلاطين الاتراك المدعو (اوغوزخان)^(١٦٣) .

كما ان كتاب (ده ده تورقوت) الذي عثر عليه بعد قيام الدولة العشائية ، يعد جزءا من ملحمة تركية قديمة^(١٦٤) وإذا أضفنا الى ذلك الكتابات المدونة على المسلات الاورغونية التي كتبت في القرن الثامن الميلادي بالخط الاورغوني ، اكتملت لدينا صورة الادب التركي قبل الاسلام .

اما اللغة التركية ، فقد كانت قليلة المفردات ، خضنة المخارج ، وكانت لهجات القبائل غير متشابهة ، بل ان ثمة اختلاف في لغات هذه القبائل^(١٦٥) وكانت ثمة هجتان شائعتان في اللغة التركية هما لهجة (كوك تورك) ولهجة الاويغور^(١٦٦) .

ولعل اقدم اثر فكري للاتراك هو كتاب (ياسانامه بزرگ - القانون الكبير) الذي امر بكتابته جنكيزخان بالخط الاويغوري ، وكان يحوي معظم المادات والتقاليد والاحكام والتي اُضاف اليها جنكيزخان بعض القواعد ليكون دستوراً يرجع اليه المغول في أمورهم ، وكانت تعصم (الياسا) محترمة جدا لدى المغول الى درجة تبلغ التقديس ، فكان

(١٦١) محمد فؤاد كهرماني ، تورك اديبي تاريخي ، استانبول ١٩٢٦ ، ص ٥٦ - ٧٢ .

(١٦٢) الدكتور عبد الحميد الصياد : لغز في التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧ .

(١٦٣) الدكتور عبد الحميد الصياد : لغز في التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧ .

(١٦٤) وصلي ماهر تويغوروك : المصدر السابق ، ص ١٠ .

(١٦٥) الدكتور عبد الحميد الصياد : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

(١٦٦) حسن كاظم قنري ، تورك لغتي ، استانبول ١٩٣٦ ، ص ١٧ .

نسبة إلى أحد أبناء جنكيزخان . أما اللهجة الغرية فقد أطلق عليها اللهجة (الأوغوزية) نسبة إلى أوغوزخان ، وهي اللهجة التي حملتها الموجات التركية إلى إيران وآسيا الصغرى والشرق الأوسط^(١٨٢) .

لمت اللهجة الأويغورية تحت تأثير اللغتين العربية والفارسية فأصبحت أكثر مرونة وسلاسة ، وأعظم قدرة على استيعاب نتائج الحضارة الإسلامية . وكان سقوط الامبراطورية السلجوقية وقيام الامبراطورية العثمانية سببا في انقسام هذه اللهجة إلى شعبتين : اللهجة العثمانية واللهجة الأكرية .

ان اقدم المؤلفات المكتوبة باللهجة الأوغوزية هي معراج النبي (معراجنامه) و (بغيتار نامه) وتذكرة احياء و (قوتلاد غوبيليك) وذلك في القرن الحادي عشر . وعلى الرغم من ان اللغة الفارسية كانت لغة الادب الرفيع والمراسلات الرسمية في العهد المغولية والسلجوقية وبداية تأسيس الامبراطورية العثمانية ، الا انه لم يعمل شأن اللغة العربية التي كانت لغة العلوم الدقيقة في تلك العهد ، لان امهات الكتب القانونية والفقهية والطبية واللغوية كانت موضوعة باللغة العربية .

وينقسم الادب التركي بعد الاسلام إلى تيارين رئيسيين :

أولاً - تيار الادب الشعبي :

هو الادب الذي نما وتطور في الاوساط الشعبية

بازران (الهجاء) الحركية وباشكال النظم (الرباعية) ذات القوافي الناقصة . ولذلك فان هذا الادب يعد امتدادا للادب التركي الذي كان معروفا قبل الاسلام . اما من الناحية التاريخية فان اكثر هذا الادب لا يعرف منشؤه ولا تاريخ انشائه ، بل ربما كان موجودا قبل (الازران) بزمن بعيد . ولعل هذا الادب قد نشأ في المجتمعات البدائية التي كونتها الاثراك في احوار حياتهم الاولى لان ما يتضمنه من المراثي والحب والبطولة والفروسة تفسر أحاسيس الاثراك ونمط حياتهم في تلك الادوار .

وينقسم هذا التيار الادبي إلى ثلاثة أقسام :

١ - الادب الشعبي مجهول المؤلف : وهو الادب الذي لا يعرف منشؤه ولا تاريخ انشائه في تاريخ أداب الشعوب ، ولذلك يعد تراثا عاما للشعب ، ومن فنون هذا الادب : الحكاية الشعبية ، الاساطير ، الامثال الشعبية ، الاغانى ، البكائيات والمراثي والخوريات .

٢ - الادب الشعبي معروف المؤلف : وهو لون من القصص الشعبية الطويلة على شكل ملاحم ، يتراوح بين الشعر والنثر والذي ينظمه الشعراء المعروفون في الادب الشعبي التركي ب (عاشق) ولذلك يطلق على هذا الادب ايضا تسمية ادب العشاق (عاشق ادبياتي) وهو يدور حول البطولات والفروسة والحب ويشتمل على أشعار ملحمية . ولما كان منشؤه هذا الفن ينتمي به بآلة موسيقية تسمى

(١٨٢) د . إبراهيم الدققي : للصهر السابق ، ص ١٠ - ١١ .

ومن أشهر نماذج هذا الأدب (يوسف وزليخا)
للغنية الصولي و (ورقة وكولشاه) لليوسفي و (ليلي
والجنون) للفضولي البغدادي ولشعره آخرين
و (عاشق غريب) وغيرها .

٣ - أدب التكايا : عندما أنشأ سراً القوم في
قصور السلاطين (أدب الديوان) تحت تأثير الحضارة
الاسلامية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر
الميلاديين ، انزلت جماهير الشعب التركي عن هذه
الحركة الجديدة التي قامت على اكتشاف الطبقة
الاستقرائية ذات المراكز الهامة في الدولة ، فأنشأت
لها ادبا خاصا - تحت تأثير الاسلام ايضا - هو وسط
بين ادب الديوان والادب الشامي القديم ، وقد
أطلق على هذا الادب الشعبي تسمية (أدب
التكايا) لانه نما وتطور في زوايا التكايا ، وكان ذا
مضمون ديني يستهدف مدح الرسول وآل بيته وراثي
الحسين الشهيد والنفاس البكباشية والصوفية .

ويعد (ديوان الحكمة) للشاعر احمد يسوي
(المتوفي عام ١١٦٦م) نموذجا لأدب التكايا ، حيث
ضمنه الشاعر شكائته عن الحياة والدنيا وعرض فيه
صورا للجنة والجحيم ومدائح الرسول وصورا عن
معجزاته وأرشاداته الدينية والاخلاقية . وقد كتبت
هذه القصائد باللهجة الحاقانية وبأوزان (المجا)
التركية وعلى شكل رباعيات وبلغة شعبية سلسة .
ويعد هذا الشاعر مؤسس اول الطرق الصوفية لدى
الأتراك ، وقد نظم فصائده هذه بلغة الشعب ليتمكن
من نشر تعاليم طريقته (اليسوية) بسهولة ويسر .

(ساز) لذلك يطلق عليه (شاعر ساز) وعلى
الشعر المعنى (شعر ساز) .

لقد نسا هذا القرن خلال القرن الرابع
عشر^(١٤٤) ونما وتطور خلال القرنين الخامس عشر
والسادس عشر تحت تأثير الحضارة الاسلامية والثقافة
العربية ، ولكن رغم تأثر الادب التركي بالادب
العربي في موازين شعره ونظمه وأنواعه الادبية
واستعاراته واشتقاقاته وفي بديعه ومعانيه وتراكيب
الجملة والادوات الا انه لم يستطع ان يخلق شعرا
غزليا يتحدث بشكل مكشوف عن الحب والفراق
والشوق والصباية كما هو في الادب العربي . لان
المجتمع العربي - قبل الاسلام - كان مجتمعاً يعيش
على إنسليقة ويستلهم الشاعر افكاره من الطبيعة
والحياة الحرة التي كان يحياها الشاعر وقبيلته في
اختلاط حر وحياة اجتماعية غنية بالتجارب . غير ان
المجتمع التركي - لم يستطع في ظل الاسلام - ان
يخلق مجتمعاً ينظر الى الحياة نظرة متفحمة ويضع المرأة
في موقعها المناسب ، بل كان ثمة تزييت ديني أدى الى
وضع جدار سميك بين الرجل والمرأة بحيث انقسم
المجتمع التركي الى مجتمع الرجال ومجتمع الحريم ...
وهذا مما أدى الى نشوء نوع من الادب التركي الذي
يجمع بين الشعر والقصة القصيرة والرواية اطلق عليه
(ادب العشاق) والذي يتحدث عن الحبية بلهفة
ويكتفي بنظرة منها او جلسة معها ، بحيث يكفي
ذلك أحيانا لكي يضحى (البطل) بهيائه من
اجلها .

(١٤٤) وصفي ماهر فيجترك : للمصدر السابق ، ص ١١٤ .

ولذلك فانه يعد مؤسس الشعر الشعبي الصوفي في الادب التركي^(١٤٥). ثم ظهر (المولود النيسوي الشريف) لسلطان جلبي وتبعه الآخرون ، كما ظهرت (سير الانبياء) و (معراج النبي) و (شهادة الحسين) اضافة الى الضمراء : سرووي ، خيالي ، بخشي واوغوز علي وغيرهم .

ثانيا - تيار ادب الديوان :

بدأ تأثير اللغة العربية في الادب التركي اعتبارا من القرن العاشر الميلادي ، عندما وجدت هنا وهناك بعض التفاسير المترجمة للقرآن الكريم باللغة التركية^(١٤٦) مؤلفين مجهولين ، ولعل اقدم هذه التفاسير المترجمة هو (تفسير القرآن) الذي عثر عليه العلامة المؤرخ المرحوم زكي وليد طوغان في آسيا الوسطى ، والموجود حاليا في مكتبة لينينغراد^(١٤٧) وتكتسب هذه التراجم اهمية تاريخية كبرى لانها تحوي العديد من الكلمات العربية واصطلاحات القرآن الكريم اضافة الى قواعد اللغة العربية التي دخلت الى اللغة التركية في هذه الفترة ايضا^(١٤٨) .

اما أول أثر أدبي تركي مستقل ظهر تحت تأثير الثقافة العربية - الاسلامية فهو كتاب (قوتاد

غوبليك) الذي ظهر في مدينة كاشغر - بآسيا الوسطى - عقب سقوط الدولة الاويغورية . ففي هذه المدينة نظم يوسف خاص حاجب البلاساغوني عام (١٠٧٠م) قصيدة تعليمية كبرى للسلطان بغراخان حسن بن سليمان ارسلان قصد بها ان يبرز حكمة الحياة للأفراد ومن هنا جعل عنوانها (قوتاد غوبليك) أي (علم السعادة)^(١٤٩) . ولقد بنى يوسف قصيدته هذه على آراء ابن سينا الفلسفية واغرها في وزن شعري مقتبس عن الاوزان العربية . وهو يضع مواعظه على السنة شخصيات رمزية من اختراعه . فواحدة تمثل العدالة واخرى تمثل السعادة الى غير ذلك من الشخصيات التي تكشف لنا - رغم ضروب التكلف الساخر - عن نواح كثيرة فيما يتصل ببيئة المجتمع والدولة في محيط النظم الثقافي^(١٥٠) .

وفي هذه الفترة بدأ الاثراك باستعمال الالبجدية العربية في كتاباتهم بشكل مستقل او مع الخط الاويغوري الذي كان معروفا لديهم^(١٥١) .

اما اول اثر ادبي تركي مكتوب بالالبجدية العربية ، فهو ديوان (هبة الحقائق) للشاعر التركي

(١٤٦) وصفي ماهر توجانزاده ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(١٤٧) محمد فؤاد كوروزو ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(١٤٨) وصفي ماهر توجانزاده ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(١٤٩) كارل بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

(١٥٠) د . ابراهيم الكوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١٥١) حين كاظم قنري ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

نشأ هذا التيار الادبي خلال القرن الثالث عشر الميلادي وتطور، بل وتكامل، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على ايدي الشعراء الفطاحل : نسيمي البغدادي، فضولي البغدادي، باقي، نفسي، ناتلي، يحيى، نابي، نديم وشيخ غالب وغيرهم.

يعتمد شعر الديوان بالدرجة الاولى على وحدة البيت وليس على وحدة القصيدة في قواعد للنظم صارمة لا يستطيع كل شاعر ابداعها او النظم فيها وفق تشبيهات محددة، بتمايز مجردة مغلقة بالمحسنات البديعة. فقد كان هم الشاعر ان يوحى بمدفه ضمن سلسلة من الصناعة اللفظية البعيدة عن الوضوح والبساطة لكي يظهر مهارته عن طريق استعمال لغة الخواص ذات التراكيب الفارسية والالفاظ العربية في تمايز تطفح بالشاعر المنسوبة والحيلال الواسع الذي يحتمل التفسيرات المدينة بحيث اطلق عليه بحق (الشعر الاصطلاحي) لكثرة الاصطلاحات الصوفية والرمزية الواردة فيه اضافة الى المحسنات البديعية.

يقول فضولي البغدادي في وصف حبيبته :

آشيان مرغ دل زلف پريشانسته در
قنده اولسام آي بري كوتلم ستن پائنده در
جكه دلمان ناز ايدوب افتاده لردن وهم قيل
كوكله آجيلاسون آلركي داماتسته در

اديب احمد بن محمد اليوغينكي . وهو الاثر الادبي التركي الثاني الذي ظهر تحت تأثير الثقافة العربية وهو عبارة عن قصيدة شعرية طويلة اهداها الشاعر الى الامير سباهالار حاكم ولاية (سمرقند) وهذه القصيدة تعليمية ايضا - مثل غوبيليك - ولكنها تعتمد على ايراد الامثلة في مضار الجهل والخسة والتنمية مقابل فوائد الثقافة والعلم والكرم والشهامة . وقد كتبت هذه القصيدة بأوزان العروض السرية وعلى شكل رباعيات شعرية^(١٥٦).

واذا أضفنا الى هذه المؤلفات الشعرية ديوان (الحكمة) للشاعر التركي المتصوف احمد اليسوي اكتملت لدينا الصورة الكاملة للشعر التركي الوليد تحت تأثير الحضارة الاسلامية . وبذلك نهيا المناخ الملائم لميلاد ادب الديوان في القرن الثالث عشر الميلادي .

فما هو المقصود بأدب الديوان ؟

هو التيار الادبي الذي نشأ تحت تأثير الحضارة الاسلامية بعد قبول الاتراك للدين الاسلامي والذي استمر حتى فترة التنظيمات ولا سيما في مجال الشعر، حيث بدأ الشعراء بجمع أشعارهم في (ديوان) مستقل مع استعمال الالفاظ العربية والفارسية وقواعد النظم العربية بحيث غدا هذا التيار الادبي، تيارا للاستقرابية التركية ولذلك يطلق عليه ايضا (ادب القصور) و (ادب الزرة الحاكمة) و (الادب الكلاسيكي) و (الادب الاسلامي) .

(١٥٦) د . ابراهيم الدافوني ، للشعر السابق ، ص ٦١ .

والفلسفة الاشراقية ، ويشكل الشعر الصوفي خير نموذج لهذا الادب .

٢ - ادب الديوان الديني :

هو التيار الشعري الذي بدأه الشاعر (دهاني) في قصور الخلفاء ، وهو شعر ديني يصطنع طرائق النظم الفارسية ، وكان هذا الشعر يدور حول الهوى والشراب والصيد ويمدح السلاطين وتشكل القصائد ال (بهارية) التي تلجج بمدح السلاطين والتي كانت تبدأ بوصف الربيع ، والقصائد ال (شكارية) التي تبدأ بالمدح ومن ثم وصف رحلات الصيد للامراء والسلاطين ، نموذج من هذا الشعر .

واذا كانت اللغة العربية لغة العلم ، والفارسية لغة الادب ، خلال حكم دولة الفراعانيين والسلاجقة وحتى القرن الثالث عشر ، فان انحلال الامبراطورية السلجوقية خلال القرن الرابع عشر الى اسارات صغيرة ادى الى انحطاط مستوى الثقافة العام ، فنشأ تراث ديني شعبي استهدف تفسير القرآن وتنمية الحياة الروحية (١٥٣) .

وعندما آل الامر الى العثمانيين - الذين كانوا يعيدون عن الثقافة العربية والفارسية - وجدت اللغة التركية لها مكانا في قصور امراءهم ، واعتبرت - التركية - اللغة الرسمية في الدولة ، مما ادى ذلك الى تطورها وظهور المؤلفات العديدة فيها شعرا ونثرا ، كما نبع كثير من الشعراء - في هذه الفترة - وعلى رأسهم كولشهرى وعاشق باشا (١٢٧٢م - ١٣٣٣م) واحمدى (المتوفى عام ١٤١٤م) ونسيمي البشادي (المتوفى عام ١٤٠٤م) الذي كان له الفضل الاكبر

« ان عش طير الفؤاد هو في شرك المتطايير ، ولذلك فايضا حللت يا مليكة القلب فان فؤادي عندك » .

« لا تسحبني اذبال توبك دلالا ، احذري العشاق المتيمين ، لكي لا تدعى الايدي المتشبثة باذيالك ترتفع للدعاء نحو السماء » .

الى ان . ل :

اوليه صرستم كه ادراك اينستم دنيا نه در
ين كيم، ساقي اولان كيدومي وصهبانه در؟
« اني نمل الى درجة لا ادرك ما هي الدنيا ،
ومن انا ، ومن هو الساقى ، وما هي الحمرة وما هي
الصهباء ؟ »

كرجه جانسن دل شيدا اينچمن كام ايستم
صورصا جانان بيلمز كام دل شيدا نه در؟

« قد اطلب من الحبيبة نصيبا للقلب المتيم ، فاذا
سألتني الحبيبة ، فلا ادري ما هو النصيب الذي
يطلبه القلب ؟ »

ونقسم هذا الادب الى قسمين :

١ - ادب الديوان الديني :

هو الشعر الديني الذي بدأ بتشبيهات بسيطة وواضحة ثم تطورت هذه التشبيهات الى نوع من المجاز الدقيق المغلف بالمعاني المجردة التي تستمد جذورها من الفكر الاسلامي والمذاهب الصوفية

(١٥٣) بروكلمان ، الاتراك العشاقون ، ص ٤٠ .

هذا الاتجاه الديني ، بحيث اتخذ - فيا بعد - مرشدا لشعراء التصوف في التسج على متواليه - وازدهر اسلوب القصص الشعبية المقرعة في قوالب شعرية عن حياة الرسول (ﷺ) والحسين الشهيد (رضي) بلغة تركية سلسلة وبديعة .

وفي القرن السابع عشر كان طابع الشعر التركي صوفيا رومانتيكيا حيث نزع الشعراء الى تقليد مثنوي جلال الدين الرومي وعبد الرحمن جامي ونظامي الكتجوي ، وكان زعيم هذه المدرسة هو الشاعر التركي باقي (المتوفي عام ١٦٠٠م) لانه استطاع ان يجمع في شعره مزاجا ثلاثة شعراء كبار عاشوا قبله في القرن السادس عشر ، حيث انه اخذ الاتجاه الصوفي من الشاعر (خيالي) واللغة البسيطة من الشاعر (يحيى بك) والتسوع الجساذب من الشاعر (ذاتي) (١٥٥) وبذلك افرد بهذا اللون الجديد من الشعر التركي في ذلك العصر .

تعاطفت الامبراطورية العثمانية ، وغدت قوية بعد الفتوحات التي تمت حتى القرن الثامن عشر حين بدأ الضعف يدب في جسم الدولة نتيجة للثورات الداخلية والحروب الخارجية . وفي ختام القرن الثامن عشر بدأت الامبراطورية دور الركود ، وانتقلت من الهجوم الى الدفاع ، وقد رافق هذا الضعف السياسي ضعف في حياتها الثقافية لان سلاطين آل عثمان ووزراء هذا العهد لم يكونوا يسيرون بالادب ادنى اهتمام ، وكان الشعر التركي لا يزال تحت تأثير الروائع الفارسية والكلاسيكية ورغم ذلك فقد ظهرت بعض

في تطوير ادب اليونان ، كما ان له مكانته السامية في شعر التصوف التركي حيث نظم فيه قصائد صوفية وغزلية على شكل مثنويات بديعة .

وفي عهد السلطان محمد الثاني (١٤٥١م - ١٤٨١م) اتسعت آفاق الشعر التركي كثيرا ، الا انه لم يمتد قط لحيد القصيدة الغزلية الضيقة المعروفة منذ عهد (حافظ) والرامية الى اغراض ليست هي الصوفية الخالصة ولا الدنيوية الخالصة انما وسط بين الاتجاهين (١٥٤) . وفي هذا العصر تحولت اللهجة التركية الشرقية (اوالخاقانية) الى اللهجة الجلفطانية التي نبع فيها كثير من الشعراء امثال الشاعر سكاكي في عهد السلطان اولوغ بيك (١٤٠٩م - ١٤٤٩م) والشاعر الامير علي شيرنواي (١٤٤١م - ١٥٠١م) كما ان السلطان محمد بايرشاه (١٤٨٢م - ١٥٣٠م) مؤسس دولة المغول في الهند ترجم سيرته في كتاب ساء (بايرنامه) بلغة تركية سلسلة .

وعلى الرغم من ان معظم الشعراء العثمانيين كانوا ينظمون بالتركية خلال القرن السادس عشر ، الا ان بعضهم كان ينظم بالتركية والفارسية والعربية امثال فضولي البغدادي (٨٨٨هـ - ٩٦٣هـ) الذي يعد الى اليوم اميرا للشعر التركي الكلاسيكي ... لانه مجد هذا الشعر وبديعه ، وذلك لصنف تبييره ولتظفرته الشمولية الى الكون والانسان ولانتقاده الاوضاع الاجتماعية في عصره بنظرة انسانية قاحصة وواعية . كما ازدهر الشعر الديني - في هذا العصر - وكان الشاه اسماعيل الصفوي (٩٨٦ - ١٥٢٤م) المتخلص في شعره ب (خطايي) من أبرز شعراء

(١٥٤) د . ابراهيم الفايدي ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(١٥٥) وصلي مفرق بك تروك ، المصدر السابق ، ص ٣٧٥ .

المحاولات الفردية الرامية إلى إدخال الأسلوب الشعبي التركي على الأدب^(١٦٣).

أما آلام العصر ومساوئه النظام الاجتماعي ، فقد عبر عنها الشعراء بنباجة مريرة ، وإن لم يعد وجود مقطوعات شعرية تنتقد الأوضاع الاجتماعية السيئة انتقاداً لاذعاً ... وكان الشاعر المعروف عبد الرزاق نورس (المتوفي عام ١١٧٥هـ) على رأس هؤلاء المنتقدين مما حدا بالسلطان إلى نفيه لولاية (بورصة) حيث توفي هناك (١٥٧) كما تيلور الشعر الاجتماعي في هذه الفترة نظراً لتردي الأوضاع ولا تهاش السلطان في الملذات واقتسامهم البلاد بين الأقارب والولاة ، فكان الشعر يعبر عن ذلك بالشكوى تارة وبهجاة الفساد والمطالبة بالإصلاح الاجتماعي تارة أخرى^(١٦٨).

وما إن هل القرن التاسع عشر حتى بدأت تيارات الأفكار الحرة تهب على الامبراطورية العثمانية من أوروبا ، كما ترجمت شوايخ الفكر الأدبي العالمي إلى اللغة العثمانية كؤلفات روسو ومنتسكيو وغوته ولوك وهاغو وتولستوي وغيرهم .

وبدأ الشباب العثماني يتحرك ويؤلف الجمعيات السرية والعلمية للتبشير بالأفكار الحرة ، وكان

المهاجرون من تصف السلطين إلى أوروبا يعودون في فترات انتمائهم الحريات إلى الوطن حاملين معهم الافكار الجديدة لينشروها في الصحف والمجلات التركية . وكان من ابرز المتحمسين في هذا العصر ، ضياء باشا ، عبد الحق حامد ، تامق كمال وشنامي الذين كانوا ينحون في كتاباتهم منحى جديداً لم يكن معروفاً في الادب التركي ، فأحدثوا بذلك تجديدًا شاملاً في مختلف فنون الادب ، كما حاولوا تنظيم الادب التركي بالروائع الكلاسيكية العالية وادخلوا كلمات الوطن والشعب والحرة والاستقلال إلى الحياة الفكرية والادبية التركية بمدلولاتها الصحيحة^(١٦٩).

كما اعد المتحفون الاتراك النظر في تراثهم الادبي القديم ولم يعتبروه فنا اصيلاً لانه كان قد كتب تحت تأثير الادب والنقو الفارسي وبذلك كثرت فيه المحسنات البدعية وطفعت عليه الصناعة اللفظية لانه لم يكن مكتوباً للشعب بل كان للقلّة الحاكمة آنذاك^(١٧٠) . لذلك فقد بدأوا ثورة في دنيا الادب فخرجوا على الاسلوب الادبي الفردي القديم وربطوا بين الادب والسياسة من جهة وبين الادب والشعب من جهة أخرى . ولم تشمل اصلاحاتهم الادب فحسب بل تعدى ذلك إلى اللغة التركية فابتعدوا عن استعمال الصناعة اللفظية في الاسلوب وأحدثوا قواعد

(١٥٦) يروكلان : المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

157 - I. A. Gouse : Turk MESHURLARI, S. 283

(١٥٨) د . ابراهيم الفاروقي : المصدر السابق ، ص ٢٢

159 - Hikmet Dindaroglu : Namik Kemal, S. 13

(١٦٠) حكمت دنداروف : المصدر السابق ، ص ١٤ .

أ - أدب التنظيمات :

بعد حوالي عشرين عاما من صدور فرمان التنظيمات قام الكاتب التركي المعروف شناسي باصدار جريدة (ترجمان الاحوال) سنة ١٨٦٠ لتكون لسان حال تيار ادبي جديد في الادب التركي . يستلهم الثقافة الاوروبية ويحاول تقليدها اطلق عليه ادب التنظيمات .

لقد كان هذا التيار تقليدا للادب التركي الغربي ولا سيما للادب الفرنسي حيث كان كل من شناسي واحمد وفيق باشا تحت تأثير الروائع الكلاسيكية الفرنسية بينما كان كل من نامق كمال واحمد مدحة افندي - اول رئيس تحرير لجريدة الزوراء العراقية - تحت تأثير الرومانتيكية الفرنسية ، حيث حاول كل من المجمعين خلق ادب جديد على غرار النماذج الفرنسية المقلدة . ويمتد الكاتب التركي المصروف (طان ينار) ان : « ادب التنظيمات قد ولد نتيجة الحاجة الى تغيير الافكار السائدة في المجتمع التركي خدمة للانسان وتوفيرا لادوات التعبير الحقيقية عن مشاعره بلغة سهلة ومفهومة وتغيير المؤسسات الادبية القائمة لخلق نثر تركي جديد » (١٦٧) .

لقد كان مؤسسو ادب التنظيمات كلهم « سادة القلم » (١٦٨) ولذلك فقد جاهدوا في خلق نماذج لابطال رواياتهم تمثل ذواتهم كما حاولوا هدم الادب

جديدة للغة التركية كما وضعوا معجبا لهذه اللغة الجديدة وطالبوا المسؤولين بترك اسلوب المراسلات القديم والكتابة باسلوب ادبي جديد يتناسب وروح العصر (١٦٩) .

المبحث الثالث الادب التركي الحديث

كان تأثر الادب التركي بالفارسية والعربية نتيجة مطلقة لفقر هذا الادب من جهة ولوجود ثقافة وادب فارسي شامخ مع كون القرآن والعلوم باللغة العربية من جهة اخرى . وقد بقي الادب التركي تحت تأثير هذين الادبين الشاخصين (العربي والفارسي) في القرن العاشر الميلادي حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما صدر (فرمان التنظيمات) بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٨٣٩ والمعروف ب (كولهانه خطي) الذي يعد اول تنظيم قانوني حديث في حياة الدولة العثمانية لانه كان ضمانا لاسموا وادوا واعراض الناس من جهة وتنظي لاداء الضرائب والمحاكمات وفق اسس حديثة من جهة اخرى . وكان الهدف من اصدار هذا فرمان اجراء اصلاحات في الدولة العثمانية والمحاكمات بركب الحضارة الاوروبية . وكان لا بد ان تعكس المفاهيم التي اتي بها (فرمان التنظيمات) على الحياة الادبية والثقافية في الدولة العثمانية فكان ميلاد ادب التنظيمات .

(١٦٦) د . ابراهيم النافري : المصدر السابق ، ص ٢٢ - ٢٤ .

162 - S. K. Karanaloglu : Edebiyat Sozhu, S. 694

(١٦٣) سيد كمال قرا علي ارباطر : المصدر السابق ، ص ٦٩٢ .

التركي القديم وخلق ادب جديد يعبر عن تطلعات الطبقة الوسطى بلبنها اليومية المتداولة وانكارها وأرائها البرجوازية . وبذلك أصبح الادب التركي - ولأول مرة - وسيلة من وسائل خدمة المجتمع .

كما بدأ الاهتمام - ولأول مرة - بالثتر التركي وفق الاساليب الحديثة وبفاهيم جديدة لم تكن مأثورة في هذا الادب طيلة العصور الماضية . وكان على رأس هذا التيار الجديد الشعراء والادباء : شناسي ، ضياء باشا ، تامق كال ، احمد مدحت افندي ، رجائي زاده اكرم ، عبيد الحق حامد ، سامي باشا زاده سرائي وغيرهم .

استمر تيار ادب التنظيحات حتى عام ١٩٠٩ عندما تركه مكانه تيار « ادبي » جديد أطلق عليه « حركة الادب الجديد » .

ب - حركة الادب الجديد :

بدأ هذا التيار الادبي بأصدار مجلة « ثروة الفنون » عام ١٨٩٦ واستمر حتى عام ١٩٠١ وكان مجموعة من الشباب التركي يزعماء الكاتب المعروف « رجائي زاده اكرم » قد قاموا بأصدار هذه المجلة الادبية هم : توفيق فكرت ، خالد ضيا ، جناب شهاب الدين ، حسين جاهد يالچين ، احمد حكمة ، محمد زهوف ، سليمان نظيف ، سليمان نصيب ، حسين سعاد ، حسين سيرت ، علي اكرم ، جلال سامر وفاقق علي .

وقد استهدف هذا التيار - الذي يطلق عليه

ايضا تيار ثروة الفنون - هدم ادب الديوان ، وتقليد الادب الادبي ، والخروج على وحدة البيت في القصيدة بالاعتداع على وحدة الموضوع فيها . وعلى الرغم من ان هذا التيار قد جدد الادب التركي من ناحية الشكل والمضمون الا انه حافظ على الاسلوب التركي القديم في الاعتداع على الالفاظ الصربية والفارسية واستعمال اوزان العروض العربية ، ومع ذلك فان تيار الادب الجديد لم يستطع ان يعبر عن حياة العاصة وانما اقتصر اهتمامه على تطلعات الصغوة المختارة وسياهم للثروة في مدينة اسطنبول (١٨٦) . وقد تطور من خلال هذا التيار الشعر التركي وفنون الرواية والقصة القصيرة والمسرحيات بالاضافة الى النقد الادبي وكتابة المفكرات الادبية والسياسية وقد استمر هذا التيار حتى مطلع القرن العشرين .

ج - الادب التركي في القرن العشرين :

شهد القرن العشرون تطورات هائلة في ميدان الثقافة التركية بشكل عام وفي ميدان الشعر بشكل خاص ، حيث انفض المقلدون للادب الغربي من حول تيار (الادب الجديد) كما ترك وزن العروض مكانه لوزن الهجا التركي وتفكك اركان ادب الديوان وادب التكايا الذي كان يشكل نواة الادب الشعبي واصبحت اللغة التركية ، لغة الشعر بدلا من اللغة العثمانية . وكان حرب التحرير واعلان الجمهورية التركية قد شكل الاطوار العصام لجيلاد حركة الشعر القومي الذي كان يتزعمه الشاعر محمد امين يورداتول (١٨٦٩ - ١٩٤٤) وكان المفكر التركي ضياء كوك

ج أ - تيار الفجر الآتي ١٩٠٦ - ١٩٠٨ :

إذا كانت مدرسة ثروة الفنون التي تزعمتها مجلة ثروة الفنون قد انفرطت عقدها في بداية القرن العشرين عندما اغلقت السلطات العثمانية هذه المجلة في بداية هذا القرن ، غير أن إعلان المشروطية الثانية وانتهاء حكم السلطان عبد الحميد أدى بهذه المجلة الى الظهور مرة ثانية وبالأسم نفسه ، حيث قامت مجموعة من الشباب التركي المثقف بمهمة اصداها . وأطلقوا فيها على انفسهم تسمية (جماعة الفجر الآتي) التي كان على رأسهم جلال ساهر واحمد هاشم وتحسين ناهد وامين دولاند ومحمد بهجت وفاضل احمد وحمد الله صبحي وفؤاد كوبرولو وشهاب الدين سليمان ويعقوب قدري .

لم تستمر مدرسة الفجر الآتي طويلا على الرغم من انها استطاعت تأكيد شخصيتها من خلال اللغة البسيطة والسلسلة واصبحت حلقة الوصل بين الادب الاوربي والادب التركي القديم وقد اصبح معظم شخصيات هذه المدرسة - في العهد الجمهوري - من رواد الادب التركي الحديث كما انضم معظمهم الى جماعة (الادب القومي) . ولعل ابرز ذات مدرسة الفجر الآتي هو تقليد الرمزية الفرنسية في الشعر التركي وكان رائدهم في ذلك هو الشاعر احمد هاشم الذي ادخل الرمزية - لأول مرة - الى الشعر التركي .

يقول احمد هاشم (١٨٨٤ - ١٩٣٣) في قصيدته (البريق) :

ألب (١٨٧٥ - ١٩٢٤) يقيد هذه الحركة القومية بالدعوة الى تتركك اللغة واستعمال اوزان المهجاء التركي بدل اوزان العروض العربية ... وقد تبعه الشعراء انيس بيج ، خالد فخري ، اورخان سيقي ، يوسف ضيا ، فاروق نافذ ، وصالح زكي الذين نظموا بوزن المهجا وبلغة تركية سلسة . كما تفتن شعراء النزعة القومية في طرق ابواب جديدة للشعر ، فنظم نجيب فاضل قيصا كوك قصائد صوفية حديثة تمر عن خوالج الروح وعبر عمر سيف الدين بلغة سلسة عن مشاعر الشعب في قصصه واستطاع احمد محب دراناس وجاهد صدقي كتابة قصائد رائعة بالاوزان التركية ، وبدأت جماعة من الشعراء الشباب وعلى رأسهم اورخان ولي بكتابة الشعر الحر ، اما الشعراء الذين تمسكوا - في النظم - بالاوزان العروض العربية مثل محمد عاكف ويحيى كمال بيانلي فقد تفتنوا في تطوير مضمونه وشكل النظم بهذه الاوزان التي سادت في الشعر التركي طيلة المئتين قرون الماضية . اما احمد هاشم - وهو شاعر تركي عراقي المولد ومن الاسرة الاكوسية - فقد استطاع تأكيد شخصيته من خلال قصائده الرمزية واعطى رضا توفيق روحا جديدة للشعر التركي . وكان ظهور ناظم حكمت بمفهومه التحرري للشعر وبأرائه الثورية وبأسلوبه الشعري الجديد والمذهب والضيف ايذانا بميلاد حركة الشعر الثوري التي اجتذبت عشرات الشعراء الشباب وارتفعت بالشعر التركي الى مصاف الادب العالمية . ولذلك سوف ندرس التيارات الادبية الفاعلة في الادب التركي من بداية هذا القرن وحتى يوم الناس هذا .

كالنار
ينساب نهر
بين روحي وتلك الروح
حيث يروي النهر لها
من الاعيان ... عن حالي .



عندما انمكنت
صورة النهر عليها ،
وليت هاربا
من نظرتها وشفاها ،
ويت انظر اليها
صامتاً من بعيد ،
كلما انمكنت
صورة هذا الحب
عليها .

ج ب - تيار الادب القومي ١٩٠٨ - ١٩٢٣ :

نشأ هذا التيار الادبي تحت تأثير الحركة القومية التي كان يدعو اليها شباب حركة الاتحاد والترقي بعد الانقلاب العثماني في ١٩٠٨ وقد استمر هذا التيار الادبي حتى اعلان الجمهورية وكان على رأسه : محمد عاكف ، يحيى كمال بيابلي ، احمد امين ، رضا توفيق ، فلروق نافذ في ميدان الشعر ، وعمر سيف الدين وخالده اديب ويقيب فكري ورشاد نوري ونور الله اناج وقالح رفقي ومدوح شوكت في ميادين الادب الاخرى . وكان ضياء كوك آب وفزاد كورولو وهما العقل المفكر بالنسبة الى هذا التيار الادبي الذي كان

يعتمد على العودة الى التراث القومي التركي واستلهامه في الانثار الادبية الجديدة وقطع صلة الادب التركي بالتيارات الادبية الاجنبية وتتركب اللغة واستلهام الواقع التركي في الادب ولذلك فقد دعا الى ترك اوزان العروض العربية واستعمال اوزان الهجاء التركية وتنقية اللغة من الكلمات الاجنبية . وكانت مجلة (الاقلام الشابة - كنج قلملر) بمثابة لسان حال هذه المدرسة . صدرت مجلة الاقلام الشابة في مدينة سلانيك عام ١٩١١ . وقد دعت في افتتاحية العدد الاول الى تنقية اللغة التركية من الفوائسب الاجنبية لخلق ادب قومي يعتمد على التراث التركي وفق التصور التالي (١٦٥) :

١ - يجوز لكل لغة من اللغات الاعتياد على مفردات اللغات الاخرى - الا انها يجب ان لا تأخذ القواعد ايضاً .

٢ - يجب القضاء على الاندواجية في اللغة التركية بحيث تتطابق لغة الكلام مع لغة الكتابة .

٣ - الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية .

٤ - يجب ان تكون لهجة اسطنبول التي يفهمها معظم الاتراك ، لغة الكتابة التركية .

٥ - استبدال الكلمات العربية والفارسية الموجودة في اللغة التركية بالكلمات التركية المتداولة .

٦ - يجب تطبيق القواعد التركية القديمة في اللغة التركية بدلا من القواعد الاجنبية الموجودة فيها اليوم ..

(١٦٥) سيد كمال نيا علي لوطر ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ - ٢٢٩ .

فلا تلتفت الى الغريب ،
ولأنك وطني ،
فلن ادعك لاحضان الآخرين .

ج ج - تيار الادب الجمهوري :

كانت انتصارات حرب التحرير التركية وعلان الجمهورية في ١٩٢٣ إلذاننا بميلاد ادب جديد يختلف عن اسلامية محمد عاكف وطورانية ضياء كوك آلب ورومانسية يحيى كمال بيتاتاي ورمزية احمد هاشم التي سيطرت على الحياة الثقافية في تركيا اكثر من نصف قرن والتي صيبت هذه الحياة بالركود الجامد ودخلت في معارك ادبية غير مجدية .

كان التجسيد الذي اتى به تيار الادب الجمهوري يغطي كافة ميادين الحياة الثقافية في تركيا الحديثة : اللغة ، اشكال النظم ، الازان ، الفنون الادبية ، ووضوح الاهداف ، ومع ذلك فان استقطاب الجمهورية ورجالها للشعراء الذين كانوا يلهجون بقضائل الجمهورية وعظمة رجالها بالاضافة الى التنفي بايجاد حرب التحرير والمقاتلات التي يجب تحقيقها وفق منظور رجال الحكم الجدد ... ادى الى ظهور طبقة من الشعراء الوطنيين الذين لا هم لهم الا ارضاء رجال الحكم والتعلق حول اهدافهم ضمن اطار الوحدة الوطنية التي كانت من الاهداف الرئيسية لحركة مصطفى كمال أتاتورك .. وهكذا خلقت الحركة الكيالية طبقة من المثقفين البيروقراطيين في الادب التركي في العاصمة اقتره على الرغم من ان للمثقفين الموجودين في اسطنبول كانوا هم المسيطرون على الحركة الثقافية في البلاد .

وكانت مجموعة من الشباب التركي مؤلفة من خمسة شعراء هم : فاروق نافذ وانيس بهيج واورهان سيني وخالد فخري ويوسف ضياء ... قد قامت باصدار هذه المجلة واعتمدت على الادب الشعبي وأوزانه وأشكاله في خلق ادب وطني جديد يعد حلقة الوصل بين الشعر العروضي وشعر الهجا . وقد ادت هذه المجموعة الادبية التي اطلق عليها تسمية (بش هجه ليلر - شعراء الهجا الخمسة) خدمات جليلة للادب التركي عن طريق هذه المجلة التي استحوذ عليها فيما بعد رواد الادب القوي التركي .

يقول فاروق نافذ (١٨٩٨ - ١٩٧٣) في قصيدة من نوع (تموشا) وهو من فنون الادب الشعبي التركي :

ضغ الكحل في عينيك
والحناء في اصابعك
ايته الفناء
لانك ، في هذه السنة ،
ستبلغ سن الزواج .



وقفتي تفضع صبايتي ،
تفضع حبي ،
فدع طير فؤادي
يسكن شباك شمرك



لو كنت دعة ،
فانها لا تراق على الوجنة .
وان كنت نظرة ،

ارهاصا لميلاد الشعر التركي الجديد على يد الرواد ،
الذين ملوا البحث عن الطرق والأساليب الجديدة
فاتجهوا الى التقليد بعيدا عن الواقع التركي ... وإلى
الصفوة المختارة بعيدا عن الشعب وتطلعاته . فالشاعر
محمد عاكف (١٨٨٣ - ١٩٣٦) جند شعره للفتني
بإيجاد الاسلام وشحنه الهمم للنهوض بالدين
الاسلامي الى مستوى عهد النبوة دون اخذ معطيات
الصر بعين الاعتبار . ولذلك فقد ترك تركيا وعاش
فترة في ألمانيا ، غير خلاصا المدينة الغربية التي
وصفها في قصيدة (نشيد الاستقلال) بأنها
(الوحش ذو السن الواحدة) ثم عاد الى اسطنبول
إبان حرب التحرير ونُخب الى الاناضول حيث
اشترك في حرب التحرير ، غير انه اختلف مع
مصطفى كمال بسبب نزعه - أي مصطفى كمال -
العثمانية فهاجر الى مصر وعاش زمنا طويلا ثم عاد
الى اسطنبول حيث مات عام ١٩٣٦ .

والشاعر يحيى كمال بياني (١٨٨٤ - ١٩٦٠)
كان متأثرا بطريقة عبد الحق حامد في عرض مشاعره
في قوالب شعرية فلسفية بمضامين جديدة وفق أوزان
العروض العربية ، غير انه تحول فيما بعد الى نوع من
الشعر الصوفي في غزليات مجردة من شخصية الشاعر
نفسه ... « فهو يحاول كتابة الشعر القديم بأوصاف
عصرية ، فالوزن عربي واللغة عشائية والأشكال
أوربية على أرضية حديثة » (١٧٧) .

وكان عبد الحق حامد (١٨٥٢ - ١٩٣٧) هو
الذي بدأ بهذا الطراز الشعري الفلسفي الذي تطور

في مثل هذا الجو ظهر ناظم حكمت بمفهومه
التحرري للشعر وكان ظهوره صوتا جديدا او نغمة
ناشئة في هذا التيار الثقافي البيروقراطي لانه اكتشف
اسرار اللغة التركية واستلهم في قصائده تراث الشعب
التركي وملاحمه البطولية القديمة مع اضافة عنصر
المعاصرة الى كل ذلك ، فكانت كلماته تبشيرا بالثورة
وإيانا بالحاجة الماسة الى العدالة الاجتماعية والاخاء
الانساني . لذلك سمع البيروقراطية الثقافية التركية
والفاشية السياسية الى خلق هذا الصوت الجديد
فكان ان حكمت عليه بالسجن لكثر من ربع قرن .

لذلك ، ان الحديث عن الادب الجمهوري يقودنا
الى دراسة الشعر التركي خلال القرن العشرين عن
طريق البحث في التيارات الشعرية الفاعلة في الادب
الجمهوري .

المبحث الرابع

تطور الشعر التركي خلال القرن العشرين

ان تاريخ الشعر التركي في القرن العشرين هو
تاريخ الجمهورية التركية والحركة الوطنية التركية .
فمنذ ظهرت الحركة التحريرية للأرض التركية من
الاحتلال البيضي ، كذلك ظهر الشعر التركي ارض
الساحة الثقافية من الركود والتجريد والتقليد ، الا
انه وقع في شباك البيروقراطية البيضاء رغم بعض
الاصوات القليلة التي نادى - بإخلاص -
بالاقتراب من هموم الطبقات المسحوقة .

كانت السنوات الاولى في القرن العشرين

(١٧٦) وصلي ماهر قريشورك - المصدر السابق ، ص ٣١٧ - ٣٧٤ .

في الستوات الأولى من عمر الجمهورية ، غير أن مجموعة من الشعراء الشباب أرادت تحريك هذا الجمود وكسر القوالب الشعرية المجهضة فقامت بتشكيل مجموعة أدبية أطلقت على نفسها (المشاعل السبعة - ييدي مشعله) وهم : صيري اسعد سيانوشكلي ، يشار نايي ناير ، معمر لطفي ، ضياء عثمان سابا ، وصفي ماهر قوجاتورك ، جودت قذرت ، وكتمان خلوصي قوراي . وقد قامت هذه المجموعة بإصدار ديوان مشترك لهم باسم (مشعله) واعتقدوا في قصائدهم على السريالية الفرنسية متغذين من (الحيوية والصدق والمعاصرة) شعارا لهم مع عدم الارتباط بأية مدرسة أدبية أو اتجاه سياسي معين .

إذا كانت مجموعة المشاعل السبعة تشكل أول تيار أدبي في العهد الجمهوري لانه ظهر عام ١٩٢٨ وهي السنة التي سن فيها المجلس الوطني التركي قانون (ثورة الحرف) حيث استبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية ... فان عام ١٩٦٩ شهد صوتا جديدا في الشعر التركي ، حيث عاد خلال هذه السنة ناظم حكمت من الاتحاد السوفيتي بعد أن أرسله مصطفى كمال أتاتورك لدراسة الاقتصاد السياسي^(١٦٩) عاد وهو يحمل تكتيكا جديدا للقصيدة الشعرية تحت تأثير بودلير وفق أسلوب مايكوفسكي وبالاتجاه على أوزان الهجاء التركية وبقوالب الشعر الحر .

على يدي توفيق فكرت (١٨٦٧ - ١٩١٥) وأتري باشعار جناب شهاب الدين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) واحمد هاشم (١٨٨٥ - ١٩٣٣) بحيث أصبح يشكل اطار الشعر التركي في بدايات القرن العشرين .

وعلى الرغم من أن رضا توفيق (١٨٧٠ - ١٩٥١) كتب الشعر الفلسفي في نواح عديدة : استلهم الشعر الشعبي التركي ، والنظم بأوزان الهجاء التركية ، وبمحاولة تطوير الشعر الشعبي التركي القديم بإيجاد القوالب الحديثة له وبذلك فقد أصبح من بعض الوجوه من الشعراء المتصوفة^(١٧٠) . إلا أنه كتب الشعر بأوزان العروض المربية وأشعارا بالفارسية والفرنسية ، وهو يلقب في الشعر التركي بالشاعر الفيلسوف .

كما لم تقل ساحة الشعر من الشاعرات ، فقد نشرت الشاعرة أحسان رائف (١٨٧٧ - ١٩٢٦) أولى قصائدها خلال هذه الفترة ، وهي أول امرأة تركية تستعمل وزن الهجاء التركي^(١٧١) وتعد من الشاعرات المجددات لأنها أرادت تطوير الشعر الشعبي التركي وفق معطيات العصر ، كما كتب مدحة جمال قوننای (١٨٨٠ - ١٩٥٦) أشعارا قومية ووطنية بأوزان العروض المربية ، نتجحت عن البطولات أيام حرب التحرير .

فلنا أن الشعر التركي وقع في شباك البيروقراطية

(١٧٧) وصفي ماهر قريجنورك : المصدر السابق ، ص ٣٦

(١٧٨) وصفي ماهر قريجنورك : المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١٧٩) د . إبراهيم القفاري : رحلة مع ناظم حكمت في وقت غير متناسب ، مجلة الآلام ، العدد الخامس ، السنة الخامسة ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ١١ .

يقول ناظم حكمت (١٩٠٢ - ١٩٦٣) في قصيدته (عنائيد الصفصاف) :

يتلاشى وقع الحوافز موجه اثر موجه ،
يتلاشى الفرسان عند المغيب ،
الفرسان ذوو الخيول الحمر ،
خيولهم اجتمعنها من ربح ،
خيولهم اجتمعنها ربح ا
خيولهم ربح ا
خيولهم ...
خيول .

وكان صدور مجلة الوجود (وارزق) عام ١٩٣٠ يشكل انعطافة كبرى نحو الاتجاه الى الشعر الاجتماعي في الادب التركي حيث انضم ناظم حكمت الى هيئة تحريرها مع مجموعة من الشعراء الشباب الذين حاولوا دراسة مشاكل الريف التركي لايجاد الحلول الفاشية له . وقد استطاعت هذه المجلة - التي لا تزال تصدر الى اليوم - مع تيار المضاعل السبعة خلق مدرسة ادبية جديدة في الادب التركي اثرت - فيما بعد - بكل التيارات الادبية في الادب التركي ولا سيما حركتي التخریب والادب القروي ، اضافة الى تيار الشعر الاشتراكي .

١ - حركة التخریب :

كانت ثلاثينات القرن ايدأنا بتلبذ القيم السوداء في سماء السياسة الدولية . فقد كانت الفاشية تأخذ

بخناق الشعب الايطالي ، وتهيأ النازيون في المانيا للقفز على السلطة ، ثم تقوم العسكرية الفاشية باحتلال الحبشة ... وفي هذه الفترة التي كان يعمل فيها ناظم حكمت كمترجم للأفلام الاجنبية ، يكتب العبارة التالية على الفيلم الذي يصور احتلال الحبشة (الفاشية تسير في شوارع اسطنبول) للإيجاء باتجاه الحكم نحو الفاشية في تركيا . كما يجتهد النقاش : في هذه الفترة أيضا - في تركيا حول امسايب تطبيق الاصلاحات الديمقراطية ، فيذب الخلاف بين مصطفى كمال أتاتورك وبين مجموعة من العسكريين الشباب ، فيتغلب مصطفى كمال أتاتورك عن مسؤولياته في الحكم الى (عصمت اينونو) ذي الميل الفاشية ... الا ان الضغط الشعبي يجبر مصطفى كمال للصودة ثانية الى الحكم . غير ان الاوساط الفاشية تتمكن من ناظم حكمت فتصم عليه بالسجن مددا متداخلة تبلغ واحدا وستين عاما ونصف بنهمة تكوين خلية شيوعية في الكلية الحربية وبترويج الشيوعية بين ضباط البحرية كمحاولة للقيام بانقلاب شيوعي في البلاد وذلك عام ١٩٣٨ (١٧٠) .

أرادت الفاشية التركية باعقال ناظم حكمت والحكم عليه بالاشغال الشاقة لهذه المدة الطويلة ارهاق الاقلام الحرة لا سيما وانها كانت قد اعتقلت معه ايضا الشاعر عز الدين دابنمو والكاتب اورهان كمال وحكمت عليها لمد مختلفة (١٧١) . الا ان ناظم حكمت لا ييأس من ذلك فيكتب رسالة الى مصطفى

وكان رواده متأثرين بالسريالية الفرنسية واصبحوا بذلك أول المجلدين في الشعر التركي الحديث .

وعلى الرغم من ان شعر التفرير لا يخرج عن اطار القصيدة النثرية لانه يعتمد على الاستمالات الذكية للالفاظ ، البعيدة عن الابداع الشعري الا انهم خلقوا تيارا جديدا في الشعر التركي استطاع ان يرقد الادب التركي بطاقات شعرية هائلة : عودة اورخان ولي الى منابع الفولكلور وقصائد مليح جيدة آنداي الفكرية واشتراكية واقفاي رقعة الطوباوية ... هذه الاتجاهات المتناقضة في مظهرها والمتحدة في جوهرها استطاعت التأثير على جيل شعري كامل في الادب التركي .

يقول مليح جودت آنداي (١٩١٥ - ٠٠) في قصيدته (الشجرة القلقة) :

ثمة شجرة اعرفها ،

اعرفها ، لانها تسكن

بجوار بيتنا .

غير انها لم تسمع اسم السعادة ،

فانظروا الى ارادة الخائف .



الا انها تعرف الليل والنهار

وتعرف المواسم والرياح والتلوج ،

وتهميم حيا بضوء القمر ،

ولكنها لا تلمن الظلام .



كالم اتاتورك يؤكد له فيها بانه انسان مخلص لوطنه وانه لم يحاول خيانة هذا الوطن لانه ملتزم بقضايا الشعب ومخلص لمبادئ الحركة الكيالية ... لكن الاوان كان قد فات ، حيث تصل الرسالة الى مصطفى كمال يعوعل فراش الموت يحضر . ومع ذلك تجده يؤكد جلساته ان ناظم حكمت بريء من كل التهم الموجهة اليه وان بعض العسكريين يريدون اغتياله (١٩١٧) ويموت مصطفى كمال اتاتورك عام ١٩٣٨ يسدل الستار على قضية ناظم حكمت حتى عام ١٩٥٠ ويبدأ عهد جديد من الدكتاتورية والفاشية في تركيا بعد تولي عصمت اينونو للحكم ... حيث الاحزاب ملغاة ولا حرية للصحافة واينونو هو الامر النهائي عن طريق حزبه الوحيد (حزب الشعب الجمهوري) .

في مثل هذا الجو القلق المليء بالتيقن السجاء وبالتوتر والارهاب يقوم ثلاثة من الشعراء الشباب وهم : اورخان ولي ومليح جودت آنداي واقفاي رقعة ، باصدار ديوان مشترك باسم (الغريب) كانت مقدمته بمثابة بيان شعري يؤكدون فيها رفضهم للشعر التقليدي وعطيلهم للقراب المهترئة ومحاولتهم ايجاد التعادل النفسي بين الانسان والطبيعة وبأنهم يبحثون عن الحب والكمال ومقفون الى جانب الطبقات المسحوقة .

كانت الفاشية في أوج طفاتها العسكرية والسياسي عندما ولد هذا التيار في الادب التركي عام ١٩٤٠ الذي اطلق عليه (التفرير - غريبيير)

(١٩٢) د . ابراهيم انداكوي ، رحلة مع ناظم حكمت في وقت غير مناسب ، مجلة الاكلام العراقية ، العدد الخامس ، السنة التاسعة ١٩٧٣ ، ص ١٨ .

سأمنحها كتاباً
لكي ألقها ...
ومن ثم انظروا إليها
عندما تتعلم لغة الهوى .

٢ - تيار الادب القروي :

خلال الاربعينات نشأ تيار أدبي جديد استهدف دراسة الحياة الشعبية في القرى والأرياف التركية من خلال دراسة مشاكل الفلاحين والقرويين الذين يشكلون ٨٠٪ من سكان تركيا وكان القاص التركي التقدمي (محمّد مقال) على رأس هذا التيار لا سيما بعد أن نشر روايته الشهيرة (قريتنا) التي ترجمت - فيما بعد - الى (٤٦) لغة ، وتم اختيار المؤلف عام ١٩٦٨ كمواطن عالمي في مهرجان ادب الشباب بايطاليا .

يعد هذا التيار الادبي الذي اطلق عليه (تيار الادب القروي) خلاصة التجارب الاجتماعية ورابطة بين الفلكلور التركي الحلي والتراث التركي القديم وبين لغة الشعب وشاعره وواقعة في اطار من الصميمية التي تعتمد على الواقعية والصدق والملاحظة الحية .

وإذا كان (محمّد مقال) رائد هذا التيار الادبي ، الا ان الادباء التقديمين صباح الدين علي ، كمال طاهر ، صميم قوجاكوز ، يشار كمال ، اورهان كمال ، اهان تاروس ، طالب آيايدن ، فقير بايقورت ، محمد باشاران ، فكرت اوتيام وبكر بيلنر

(١٧٣) سيد كمال قرا علي اولغلو ، المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .

هم - ايضاً - رواد هذا التيار في مجال القصة القصيرة والرواية . كما يمكن مشاهدة نماذج هذا التيار الادبي في قصائد الشعراء التقديمين : احمد عارف ، جيهون عاطف قانسو ، سيد كمال قراعلي اولغلو ، مشين ال اولغلو ، نجاتي جمعة لي ، بكر صدقي اوردوغان ، جاهد كوله بي وبدرى رحى ايوب اولغلو الذي يقول حول هذا التيار الادبي : « ان الانتفاع من الغاني وزخارف القرى له اهمية توازي اهمية الحيز ، لان فيها تجربة وكدح ونور عين ملايين البشر ... ولان الجوهر عسل ينبع من عشاء وجهد مئات بل مئات الوف من السنين .. » ويقول القاص بكر بيلنر حول هذا التيار الادبي : « انني عندما اكتب عن مشاكل القرية فالما اكتب من داخل الحياة ، اي انظر الى المجتمع واحداً من الداخل .. واحاول ان اجعل من الحقائق قنابل لكي تنفجر فيها بعد في رؤوس القراء .. » (١٧٣) ولا يزال هذا التيار الادبي من اقوى التيارات التي شهدتها الادب التركي رغم قصور بعض رواده الى تيار الادب الاشتراكي كما ان هذا التيار وتيار التفريب مجتمعين خلقا تيار الشعر الاجتماعي في الادب التركي خلال الاربعينات .

٣ - تيار الحركة الشعرية الثمانية :

شهدت الاعوام الاخيرة من الاربعينات تطورات سياسية وثقافية كبيرة في تركيا نتيجة اندحار الفاشية وانتصار القوى الديموقراطية ، فانكسرت على الاوضاع العامة وادت الى اطلاق الحريات والاخذ

المفاجأة الاخرى بقيام حكومة الحزب الديمقراطي
اصدار المرفوع العام عن السجناء السياسيين ويضمنهم
ناظم حكمت نتيجة لضغط الرأي العام التركي
والعالمي . وكانت المفاجأة الكبرى نجاح ناظم
حكمت في الحروب الى الاتحاد السوفياتي عن طريق
البحر الابيض يزور بخاري صغير بعد ان واجهته
تهديدات الاغتيال مرة بالاعتقال واخرى بمحاولة قتله
في حادث سيارة (١٧٣) مرة ثالثة بمحاولة سقوه إلى
الحلقة العسكرية باعتباره متخلفا عن الخدمة (١٧٥) .
وكانت المفاجأة الاخرى في سلسلة هذه المفاجآت فوز
الحزب الديمقراطي للمرة الثانية في انتخابات عام
١٩٥٤ وبذلك بدأت صفحة جديدة من الازدهار
والطمح والاعتقالات وخفق الحريات الديمقراطية لم
تشهد لها تركيا مثيلا حتى في عهد دكتاتورية اينونو
ومزيد الوحيد الحاكم .

في مثل هذه الايام العصية ولد تيار ادبي جديد
في الشعر التركي اطلق عليه نيار (الحركة الشعرية
الثانية) التي كانت رد فعل لموقف مجلة الوجود
(وارلق) التي رفضت نشر قصائد مجموعة من
الشباب التركي التقدمي حاول كل واحد منهم -
دون معرفة الآخر - تفسير شكل القصيدة الشعرية
باضطرابه الاهمية على الكلمات وزعمها اللغوي وتطويع
المضمون في اطار تجربة شعرية جديدة تتحدث عن
الحرية والحب والجنس والتجريد احيانا ... وكان على
رأس هؤلاء الشعراء : مظفر اردوست ، الهان برك ،

يبدأ تعدد الاحزاب بعد ان حكم حزب الشعب
الجمهوري تركيا طيلة ربع قرن بدكتاتورية الحزب
الواحد .

في مثل هذا الجو يبرز بعض الشعراء الذين
استطاعوا ترك بصماتهم على الحركة الشعرية في تركيا
وامتد تأثيرهم على الحركة الثقافية التركية حتى اليوم ،
وكان على رأس هؤلاء فاضل داغلارجا ذلك الضابط
المسكري الذي ترك الخصلة لينتزع الى الحياة
الثقافية وهو - على الرغم من غزارة انتاجه الشعري
- لا يزال محافظا على مكانته الشعرية المرموقة وذلك
لتنوع موضوعاته ولغته الجميلة ونظيره التقدمية .

وفي ١٩٤٨ يفوز طالب الثانوية آتيل الهان
بالمجازة الشعرية لحزب الشعب الجمهوري فيكون
ذلك اعلانا عن ميلاد شاعر تقدمي تركي سيكون له
تأثير، الفاعل على جيل كامل من الشعراء
والشباب .

حملت خمسينات هذا القرن مفاجآت سياسية
وثقافية عديدة ، فقد فشل حزب الشعب الجمهوري
في انتخابات عام ١٩٥٠ وترك الحكم صاغرا للحزب
الديمقراطي المعارض الذي اطلق الحريات
الديمقراطية وسمح بتشكيل احزاب سياسية عديدة .
وكانت المفاجأة الاولى اعلان ناظم حكمت
الاضراب عن الطعام حتى الموت مطالبا باطلاق
سراحه ، فتقوم الصحافة التقدمية في تركيا والعالم
بتبني قضية اطلاق سراح ناظم حكمت ... حيث تقع

(١٧٤) الدكتور جين بكنين ، المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٧٥) الدكتور جين بكنين ، المصدر السابق ، ص ٦٩ .

التي بدأت تتكون في هذه الفترة بسرعة - من جهة أخرى - ولم تكن تقاليد الشعر التركي تسمح لهذا الشعر لكي يتساق مع مجمل هذه التحولات ، فقد كان الشعر الشعبي بطيء النمو قليل التبدل لم يحدث فيه أي تغيير منذ مئات السنين ، وكان شعر ادب الديوان شعرا راكدا يسير عن تطلعات الطبقة الحاكمة والعلاقات الاجتماعية ولم يتغير - هو الآخر - منذ مئات السنين رغم التيارات الأدبية والنقافية خلال فترة التسلط والانتقال العثماني والمهد الجمهوري ... وإن كانت هذه التيارات قد أحدثت تغييرات في أشكال القوالب الشعرية ، والتي أدت - فيما بعد - إلى خلق نوع من الشعر التركي المهجين الذي لا ينتمي إلى أدب الديوان ولا إلى الشعر الأوروبي الحديث (١٧٧) .

كانت سنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٠ (وهي سنوات حكم الحزب الديمقراطي) تشمل في طياتها الرفاه الاقتصادي لمختلف طبقات المجتمع التركي . غير أن هذا الرفاه لم يستطع أن يساوي الخطى مع التطور الاجتماعي الهائل في البلاد من جهة ومع تطور الوعي السياسي من جهة أخرى . ففي الوقت الذي كانت فيه الكتل الاجتماعية العديدة تنطفئ ثمار هذا الرفاه الاقتصادي كانت الطبقة الواعية والمتقنة تتعرض يوميا إلى أساليب جديدة من القمع السياسي عن طريق وضع القوانين التي تحدد النشاطات السياسية وتضع قيودا جديدة على ممارسة حرية الرأي والتفكير

لوكو تامر ، جمال ثريا ، نجاني جمعة لي ، مزانبي فراقوج ، طوريغوت اويار ، محمد تائر وعلي بويجه .

وكان الشعر التركي يعيش أزمة حقيقية قبل هذه الحركة ... وكانت هذه الأزمة تجسد أزمة البلاد برمتها حيث كانت بوادر التحول من الزراعة إلى الصناعة قد بدأت وتحول البلد إلى قطر نصف مرتبط بمجلة الاحلاف والرأسمالية الدولية ... كما كانت ثمة حركة ونشاط في جميع الميادين : شق الطرق ، بناء السدود ، انشاء المصانع ، ازدياد الهجرة في القرى والأرياف إلى المدن طلبا للعمل وخربا من عسف الاقطاع ، إضافة إلى تدفق رؤوس الاموال الأجنبية والمساعدات الخارجية التي غلقت نوا من الرفاهية المؤقتة في البلاد ... إلا أن كل هذه المظاهر من الرفاهية والعمل والنشاط كانت تؤدي من الجهة الثانية إلى زيادة الضغط والارهاب على رجال الفكر والادباء والشعراء والتكثيف بحرية الرأي ... ففي هذه الفترة تعرض الشعراء التقدميون صبيح شندل وسعاد طاهر والمهان برك ورفعة الفايز وشكران قورداقول وأ . قادر رحسن عز الدين داينمو والادباء صباح الدين علي واورشان كمال وكمال طاهر وشار كمال إلى السجن والتشريد (١٧٨) .

لقد كان هذا الضغط والارهاب والتكثيف بالشعراء التقدميين نتيجة طبيعية لتذبذب الطبقة الحاكمة بين ارضاء اصحاب رؤوس الاموال الاجانب والمخلفاء الجند من جهة والطبقة البرجوازية المحلية

(١٧٦) الدكتور جين بكنين ، المصدر السابق ، ص ٨١ - ١١٦ .

« انها كانت حركة مناوئة لحركة الشعر الاولى (١٨٠) التي كان يتزعمها الشعراء الثلاثة اوريدان ولي وليم جوده ولوكناي وفه كما كانت حركة معارضة للشعر الاجتماعي الذي كنت قد ولدت - انا مع الشعراء الاخرين - في احضانها . وتعتمد الحركة الشعرية الثانية في معارضتها للتيارين الشعريين المذكورين باعتبار احدهما اطرادا للآخر فقد جعلت الحركة الشعرية الاولى الشعر ذا بعد واحد وافق ضيق ... على الرغم من انه انزل الشعر من عليائه ودفع به الى الشارع - الا انها - اي الحركة الاولى - اكتفت بتركه هناك فقط .

اما تيار الشعر الاجتماعي فقد كان يتراوح مكانه ، ولم يستطع الاستفادة من الامكانيات الحديثة المتاحة فوقع في قعر الازواجية والتكرار ولذلك فقد كانت الحركة الشعرية الثانية بمثابة مبضع الجراح الذي استطاع بتر اودام السركويد والازواجية والتكرار ... لان هذه الحركة فتحت الطريق واسعا امام الشعر التركي الحديث (١٨١) .

اما الشاعر اوزيمير اينجه - وهو ايضا - احد رواد هذه الحركة ، فانه يؤكد بانها قد ولدت « نتيجة التناقضات الداخلية في بنية المجتمع الجمهوري الذي كانت التيارات السياسية (الاتجاه نحو الغرب ام الشرق) والاقتصادية (الاخذ بالنظام الاشتراكي

لان البرجوازية الصغيرة كانت تصي دور المتكف الواعي والثوري في كشف استغلالها في المجتمع بحيث اصبح التضال بين البرجوازية الصغيرة الحاكمة وبين الطبقة المتكفة الواعية تضالا سياسيا يومية لم يستطع الشعر التقليدي استيعابه ، فكان ميلاد الحركة الشعرية الثانية (١٨٢)

فما هو الجديد الذي حملته هذه الحركة الشعرية للشعر التركي ... ؟

يقول الناقد التركي المعروف دوغان هيزلان حول هذه الحركة في حديثه عن الشاعر اجه آيخان احد اقطابها : « لقد عرف هؤلاء الشعراء اهمية الكلمة في التعبير عن المشاعر ، غير انهم كانوا يعرفون ان الكلمات ذات القوالب المحددة لا تحصى شيئا من الشعر ، لذلك استطاع اجه آيخان وشعراء الحركة الشعرية الثانية وضع معجم خاص لكلماتهم التي كانوا يستعملونها في شعرهم الشبيه بالموزاييك والذي كان يعتمد - بالدرجة الاولى - على تداعي الكلمات والاسماء والمفاهيم حيث كانت الكلمة الواحدة او الاسم الخاص او المفهوم المحدد تقوم مقام عشرات الجمل في السرد والافاضة والشرح والتوضيح في خلق عالم الشعر المطلوب (١٨٣) .

ويقول الشاعر الهان بك احد رواد هذه الحركة :

178 - T. D. K : Turk Dil Dergisi, Haziran 1977, sayi 309, S. 530 - 535

(١٨١) مجلة المجمع اللغوي التركي . العدد الخامس بالحركة الشعرية الثانية ، المصدر السابق . ص ٥٢٢ .

(١٨٠) يهدف بها حركة التفریب الشعرية (غريجيير) .

(١٨١) مجلة المجمع اللغوي التركي : المصدر السابق . ص ٥٢٠ .

أو السراسياتي (والاجتماعية) الانجشاء الفردي أو الجمعي (تتجاذبه وتهز أركان مؤسساته ومفاهيمها .. ولذلك فقد كانت هذه الحركة تمردا ضد الاهمال والتذبذب والازدواجية الثقافية والاستغلال والاستعمار والضغط والارهاب (١٨٢) .

يقول الحان برك (١٩١٦ ~ ١٩٠٠) في قصيدته (لم ارمثل هذا الحب ولا ذلك الفراق) :

عندما افكر فيك

ارى المها

ينزل ليرتوي

من التبع ،

عندما تنمو الاعشاب ،



وفي كل مساء

ارحل معك

مع حبة زيتون خضراء

وقطعة زرقاء من البحر



وكذا افكر فيك

وكأني ازرع الرياحين ،

ازرع الحميلة ،

أنتم الجبال ،

واسقي الخيول الجميلة .

دافعت الحركة الشعرية الثانية بقوة عن الغموض في الشعر ، وأكدت بان الشعر مثلاً يكون مفهوماً قد يكون غامضاً ايضاً ، وان غموض شعرهم يعود الى الشكل الجديد للقصيدة ، هذا الشكل الذي يعتمد على حيوية الالفاظ والديالوج الداخلي في تناوله للاحداث اليومية من خلال علاقاتها التاريخية ومضمونها العميق (١٨٣) .

لقد كان الشكل الجديد للشعر هو التجديد الذي احدثته الحركة الشعرية الثانية في الادب التركي ، فالشخص الذي لا يستطيع فهم هذا الشكل ومعرفة اصوله وقواعده ، يرى في هذا الشعر غموضاً وخروجاً على المؤلف ، ان التغيير الذي احدثته هذه الحركة في بناء الكلمة الشعرية ادى الى ترسيخ فكرة الغموض حول شعر هذه الحركة غير ان فهم هذه القصائد يعتمد على ثقافة القارئ ودرجة وعيه السياحي والاجتماعي فمثلاً يرى طالب المتوسطة في وجه « غرتيكا » لبيكاسو مثلاً بارزاً للغموض والرمزية ، يجد فيها المثقف الواعي مثلاً حياً للحقد والكراهية ، كذلك كان شعر الحركة الشعرية الثانية حيث ارتفع مضمون الشعر التركي - بلغ من هذه الحركة - من التصويرية والسطحية والمظهرية الى خلق بناء تيار من التفكير والمشاعر العميقة عند القارئ .

٤ - تيار الادب الاشتراكي :

خاضت المحاكم التركية طيلة الفترة ١٩٥٠ -

(١٨٢) مجلة للجميع الثقافي التركي ، المصدر السابق ، ص ٥٢٨ .

(١٨٣) مجلة للجميع الثقافي التركي ، المصدر السابق ، ص ٥٣٠ .

وطني) فاقام المدعي المأم محكمة الصحافة والدعوى عليه لنشر قصيدة من كتاب ممنوع بموجب قرار مجلس الوزراء . الا ان عدم نشر القرار المذكور في الجريدة الرسمية ، صدقة ، اسقط الدعوى المذكورة ضده . فكان ذلك بداية الطريق لنشر اشعار ودواوين ناظم حكمت ، في العام نفسه ، مما ادى الى خلق جيل شعري شاب مؤمن بالنضال والثورة ، فاتجه معظم شعراء تيار الشعارات نحو تيار الادب الاشتراكي ... وكان الشاعر القروي احمد عارف هو الصوت البارز بين هؤلاء لانه وقف دوما الى جانب الطبقات المسحوقة وضد قوى البني والصدوان في قصائد قوية ، نابضة بالحياة ، تجلجل مثل اجراس الكنائس لا يقاط النائمين ولد الضمضاء بالقوة للنضال والتحدى . ولذلك يعد شعر احمد عارف امتدادا لشعر ناظم حكمت كما يعد هو خليفة ناظم حكمت وحامل لوائه في ميدان النضال .

ويقول احمد عارف (١٩٢٥ - ٢٠٠٠) في قصيدته (في الداخل) :

أتعلم ايها الجدار ؟
والباب الحديدى ،
وايتها النافذة العمياء ؟
وانت اينها الصورة الحزينة

١٩٦٤ منع كتب ودواوين ناظم حكمت والشعراء والكتاب التقدميين : صباح الدين علي ، حسن عز الدين داينمو ، أ . قادر وغيرهم ، من التداول سواء باقامة الدعاوى ضدهم او اتخاذ مجلس الوزراء التركي لقرارات المنع حول هذه الكتب .

وبعد الستينات ظهرت مجموعة من الشعراء اطلق عليهم (شعراء الشعارات) (١٩٨٥) كان مهمهم الوحيد فرض انفسهم على الاوساط الشعرية لانهم صاغوا قصائدهم بحالة وتصنع في مضامين ثلثيته وحياتنا تحت تأثير الحركة الشعرية الثانية بل ان بعضهم توسل بالطرق الملتوية لاثبات كونه وريث ناظم حكمت الشعري (١٩٨٥) . وكان على رأس هؤلاء : أيدين غلطي اوغلو ، أفشار تيموجين ، حسن حسين ، تورغاي كونه نج ، جان يوجيل ، انور كوكجه ، كمال اوزر ، توكور تامر ، وتكين سولز غير ان معظم هؤلاء قد تحولوا نحو تيار الادب الاشتراكي ، بل واصبح بعضهم من رواد ادب الواقعية الاشتراكية في الادب التركي .

ويصدر عدد ٣٠ تشرين الاول ١٩٦٤ من مجلة الجبهة (يون) التقدمية التي كان يرأس تحريرها دوغان اوجي وفيها مقال عن ناظم حكمت (الوطني) (١٩٨٥) وقصيدته الشهيرة (مملكتي ...

(١٩٨٤) مجلة المجمع اللغوي التركي : للمصدر السابق ، ص ٥٢٨ .

(١٩٨٥) لقد كتب حسن حسين مثلا في إحدى المجلات باسم مستعار ذكر فيه انه (أي حسن حسين) شاعر كبير ويؤثره ناظم حكمت الشعرية لقبول عمله هذا ، بعد انكتساب اسمه باستهجان كافة الاوساط الأدبية .

(١٩٦٤) كانت الصحافة التركية الرجعية وكذلك الاوساط القومية تنهم ناظم حكمت بالهزيمة الوطنية بسبب هروبه الى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٠ . وكان هذا المثل تركية له وبها لوطيته .

الصعوب ضد الاستعمار والفاشية ودفاعا عن حريتها واستقلالها .

لقد أثبت الشعر التركي الحديث هويته التقدمية بجدارته في المحافل الادبية العالمية ... وهو يواصل اليوم مسيرته التقدمية بفضل التراث التضالي للشعر التركي ضد الفاشية والتخلف منذ ثلاثينات القرن واربط اسمها باسم ناظم حكمت الذي يرتبط تاريخ حياته (١٩٠٢ - ١٩٦٣) بتاريخ تطور الشعر التركي الحديث .

يقول ناظم حكمت في قصيدته (القرن العشرون) (١٩٧٧) :

- التزم الآن ،
واليقظة بعد مئة عام ، يا حبيبي
- كلا ،

عصري لا يخيفني

ولست جباناً .

عصري يائس ، مخجل ،

عصري شجاع ،

عظيم وبطل .

انا ام اندم لكوني اتيت هذا العالم مبكراً .

اتى من القرن العشرين ،

وانا فخور بذلك ،

يكفيني فخراً ان اكون من القرن العشرين

ومع الرجال الذين هم معنا

لنقاتل في سبيل عالم جديد .

- بعد مائة عام يا حبيبي

والمهريه

كللتها السرية ،

التي من اجلها دقت الموت .

هل تعرفين ؟

ان زوار سجنى ،

جلبوا لي البصل الاخضر ،

والسكاكر المطرة بالقرنفل ،

هل تعرفين ؟

ان الربيع ...

هل في ربيع وطني .

وخلال فترة ١٩٦٥ - ١٩٧٥ انضمت مجموعة

اخرى من الشعراء الى تيار الادب الاشتراكي منهم :

أردال آلوفيا ، اوزميز آصاف ، مئين كرويه ، نهاد

يهرام ، عصمت اوزل ، كمال الدين قايا ، اديب

جان ، بالإضافة الى اسماء رواد التيارات الشعرية

التقدمية في تركيا : أ . قادر ، أتيلال الهان ، جاهد

ايرغات ، فاضل حسني داغلاريا ، الهان برك

وغريهم . ويشكل عام ١٩٧٥ نقطة التحول في تيار

الادب الاشتراكي في تركيا ... فقد قام الشاعر

والاديب التقدمي اتانول يهرام باصدار مجلة

المعارب (ملتيان) في كانون الثاني ١٩٧٥ التي

أبدت اهتماما ملحوظا بقضايا الفكر الاشتراكي

ومشاكل الطبقات الكادحة في العالم وثقافات

الشعوب . وقد سمت هذه المجلة - من خلال كافة

القضايا والابحاث المنشورة فيها - الى تجسيد تضال

ورفيق خالد قاراي . وعندما استقرت الامور ونشأت الجمهورية التركية ، بدأت القصة القصيرة بتناول المشاكل اليومية المعاشة ومسؤوليات العهد الجديد تجاه الانسان التركي ، فكانت قصص صندري ارتم وصمد آغا اوغلو ، غير ان القاص احمد تاتينار - اشتهر في هذه الفترة - بقصصه النفسية التي حاول من خلالها الفوص في اعماق النفس البشرية لكشف خفاياها .

لم يلد تيار الواقعية الحديثة في القصة التركية الا بريادة القاص التقدمي صباح الدين علي وادباء الولايات الذين بدأوا بمعالجة مشاكل انسان الاناضول وصراعاته امثال بيلباشار ، الحان كاروس ، صميم قوجاكوز ، سيك هاليكارناس ، كما استطاع كل من عزيز نسين وخلدون ثامر المزج بين الحكاية والتكثيف الطريفة في قصص قصيرة استأثرت باهتمام القراء غير ان القصص - في هذه الفترة - لم تكن تثير اهتمام القراء .

غير ان القاص سعيد فاتق اغتذ من مشاكله الخاصة وسيلة لتطوير انواع القصص التركية بحيث اصبحت - اي القصة - اداة مؤثرة في المجتمع واصبح هو - اي القاص - متخصصا يكتب القصة القصيرة ليعيش من وراء مكافآتها ، وقد سار على نهجه كل من اوكتاي اقبال وطارق بغرا ونزيه مريج .

كما ان الشباب الريفي الذين ولدوا في القرى وترعرعوا فيها ، بدأ بكتابة القصص التي - تتحدث

- كلا ، قبل ذلك ، ورغم كل شيء ، رغم الميت والوليد .
ستكون ايامه القادمة ضاحكة
عصري هذا ، القرن العشرون
وليالي المنهزمة امام الحان الشفق
وستكون ايامه براءة يا خديجتي (١٨٨)
مثل عينيك

المبحث الخامس

القصة القصيرة في الادب التركي

يعد عمر سيف الدين اول من طرق باب القصة القصيرة في الادب التركي (١٨٨) ثم يأتي يعقوب قدري الذي تحدث عن الحياة خارج المدن ورفيق خالد الذي طور القصة القصيرة نتيجة صدقه في التعبير . غير ان هؤلاء القصاصين الاوائل كانوا يلهثون وراء اختراع الاحداث بعيدا عن الحياة الحقيقية للناس ، مما كان يؤدي بهم احيانا الى الوقوع في مطبات ووضع عقد مفتعلة للقصص التي كان حلها في احيان كثيرة - امرا مضحكا - كما نشأت في هذه الفترة القصة القصيرة التي تحاكي الحكاية الشعبية بكل مزاياها وتفصيلها ومن كتابها ارشاق ليكيل وبالجين وكورينار .

غير ان حرب التحرير الشعبية ، والاهوال التي عانى منها الشعب التركي ادى الى ميلاد القصة السواقية في تركيا ، فكان قراعتشان اوغلو وآديوار

(١٨٨) خديجة : الاسم الاصري لزوجته (بيلبا) .

(١٨٩) زولف موطاري ، المصدر السابق ، ص ٥٦٦ .

استطاعوا ان يجعلوا من القصة القصيرة حاجة يومية بعد ان اصبحت مرآة لحياة الناس ، كل الناس وكان على رأس هؤلاء طارق دروسون ، محمد سيدا ، محمد بويرقجو ، بكر يلدز وفروزان .

وان معظم القصص قد تحولوا فيما بعد - ولا سيما بعد اشتهاهم - الى الرواية كما سنرى .

المبحث السادس

الرواية في الادب التركي

ان رواية (تشنق الطلحه او نطنت) التي أنفها الاديب واللغوي التركي (شمس الدين سامي) وهي تعد رواية تعليمية اخلاقية صدرت عام ١٨٧٢ ، اول رواية في الادب التركي بالمفهوم العام لفن الرواية في القرن التاسع عشر (١٩٠) .

وخلال ١٨٨٥ - ١٩٠٠ ظهرت مجموعة من الروائيين الاتراك المتأثرين بمدارس الطريقة الفرنسية وبالروائيين الفرنسيين لا سيما فيكتور هوغو ، ومن هؤلاء حسين رحيمي كورينار ويعقوب قدري فوه عثمان اوغلو وخالده اديب اديوار ورفيق خالد قارامي وييامي صفا ورشاد توري ومخلو شوكه اسانداك وعبد الحق شتامي حصار ومحمود يساري وساك هاليكارناريس واحمد حمدي طانيينار وخالد ضيا اوشافليكيل .

عن اسال والام سكان الريف التركي وكادحي المزارع والاقطاع - تعد تيارا قويا ومؤثرا في القصة القصيرة التركية وكان على رأس هؤلاء فقير بايقورت - الذي بدأ مؤرخا بكتابة الرواية ايضا - وطالب آبايدين ومحمد باشاران ودروسون انجم وأميد قافطانجي اوغلو وعثمان شاهين ، كما ان الشابين الكادحين اورخان كمال وبشار كمال استطاعا تصوير حياة الكادحين في قرى الاناضول ومظالم الاقطاع واستغلهاهم وبشهم .

وبعد الحرب العالمية الثانية قام مجموعة من الشباب المتأثر بالادب الغربي بكتابة النماط من القصة القصيرة على نهج ما هو متبع في الغرب وبذلك ضاق اطار القصة التركية القصيرة ، كما انصرف القراء عن قراءة مثل هذه القصص اضافة الى ضياع تلك القصص بين دفات المجلات والصحف اليومية ، ولعل اشهر هؤلاء القصص القصص الشباب هم : اوزلو وادكو وجورو وقاياجان واوزبالجينرو اوزقره صو . غير ان ذلك لا يعني بان القصة التركية القصيرة قد فقدت هويتها وشخصيتها المتميزة بعد هذا التيار ، لان ثمة قصصين آخرين استلهموا قصصهم من حياة الناس وسنائق الحياة التركية وفرضوا كل ذلك بالتجارب الانسانية فكانت قصصهم تمثل بحق حياتهم الخاصة ضمن اطار الحياة التركية العامة . وبذلك استطاعوا التوصل مع القراء في هومهم ومشاعلهم وفي تطلعاتهم وطموحاتهم . بحيث

الشعر التركي لا يزال يعتمد في أكثر قصائده على الاوزان العربية وعلى بعض اشكال النظم العربي ، رغم المحاولات المستمرة لايحلال البديل عنها .

ولما كانت اللغة تلعب دورا بارزا في سبك قصائد هؤلاء الشعراء كما ان ثمة رابطة قوية بين لفهم الشعرية وتشكل قصائدهم ... فان محاولة تحليل اللغة التركية من الاثر العربي تبدو محاولة غير مجدية لان اللغة العربية ضربت جنوبها عميقا في تربة الثقافة التركية ، بل ان بعض الكلمات والالفاظ العربية اكتسبت - بمرور الزمن - معان ودلالات لا يعرفها ابناء اللغة العربية انفسهم : فكلمة (عطف) تعني في اللغة التركية (الاحالة القانونية) وكلمة (ذي اليد) تعني (الحياة) وكلمة (اختلال) تعني (الانقلاب العسكري) و (القرنة) تعني (حوض الحمام الحجري) و (المحقوف) تعني (المحفور) و (المحصر) تعني (المدار) و (المصال) تعني (الحكاية) و (المزاق) تعني (الرمح) و (المخطر) تعني (المذكرة السياسية) و (المخلص) تعني (الصافي) و (المخبر) تعني (السواشي) و (الناقصة) تعني (العيب او القصور) و (لا قيد) تعني (عدم الاهتمام) ونبات الكلمات العربية التي دخلت معظمها كاصطلاحات فانونية وسياسية وثقافية في اللغة التركية .

بينما كان روائيو ١٩١٠ - ١٩٢٥ اكثر صدقا من هؤلاء في تصويرهم للواقع التركي مثل صباح الدين علي وكمال طاهر وكمال بيليشار واورخان كمال وياشار كمال وصميم قوجاكوز ومحمد سيدا والهان طاروس وفقير بايقورت واتيلا الهان .

ان الادب التركي الذي يمتلك ماضيا عريقا في حقل القصة القصيرة ، بدأ في العهد الجمهوري يمتلك ناصية الرواية ايضا بحيث خرجت الرواية التركية من اطارها المحلي الى الاطار الانساني العالمي بفضل الروائيين العظام امثال كمال طاهر وياشار كمال وعزيز نسين ومحمود مقال وفقير بايقورت وييلماز كونه ي وجيتين آلتان ونزيمه مريج (١٩١٧) حتى ان روايات بعض هؤلاء الروائيين ترجمت الى اكثر من (٥٠) لغة من لغات العالم ، مثل رواية (قريتنا) لمحمود مقال ورواية (محمد النحيف) لياشار كمال ورواية (الدولة الام) لكمال طاهر و (التصالي) لفقير بايقورت ومعظم روايات عزيز نسين وغيرهم .



« خاتمة »

اذا كان تيار ادب الديوان الذي نشأ تحت تأثير الثقافة العربية - الاسلامية وبقي كمدرسة ايدية فاعلة في الثقافة التركية طيلة تسعة قرون ، فان

وعيهيم السياسي واللغوي والفني ، ولذلك فاني
متفائل في مستقبل الشعر التركي ... » .

كما نال معظم القصاصيين والروائيين والأتراك
جوائز عالمية عن أعمالهم الادبية المترجمة الى مختلف
لغات العالم .

ان الادب التركي - رغم كل المؤثرات الخارجية
- استطاع خلال هذا القرن ان يستكمل ملامحه وان
يمتلك هويته وذلك بفضل الشعراء والادباء التقدميين ،
وهذا مما دعا الشاعر التقدمي فاضل حسني داغلارجا
الى القول : « ميزة الشعراء الاتراك انهم ينتقدون
انفسهم قبل ان يقوم الآخرون بانتقادهم اضافة الى



من الثلاثة الدراميين العظام في اليونان ، يأتي يوريديس في المؤخرة من حيث الترتيب الزمني . وبالرغم من الفترة الزمنية ، القصيرة نوعاً ما ، التي تفصله عن إيسخولوس وسوفوكليس ، فهو يبدو كما لو كان نتاجاً لجيل آخر وظروف اجتماعية مختلفة ، فقد تعامل إيسخولوس وسوفوكليس إلى حد ما ، مع عالم البطولة والأبطال ، في حين أن يوريديس تبت عينيه دائماً على مواطنيه اللاتنيين ، فقد كان عالماً مليئاً بهنّاج أثينية معاصرة له .

ورغم أن التطبيق المستمر على الأحداث يرتبط بالكوميديا أكثر من التراجيديا ، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة فصل الكاتب التراجيدي - كيويريديس مثلاً - عن أي حدث من الضخامة بحيث يحس الكاتب بضرورة اتخاذ موقف معين منه .

من هنا يمكن القول أن المفكر أو الأدب لا يكتب أفكاراً أو أدباً منفصلاً عن معطيات مجتمعه ، فهو بحكم تكوينه عنصر مرّن يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه ، لذا كان البحث فيما وراء الموقف الفكري الذي اتخذته يوريديس من مجتمعه هو بالضرورة بحثاً في واقع هذا المجتمع .

من هذا المنطلق أتت فكرة هذه الدراسة ، فهي مزيج من تحليل واقع المجتمع اللاتيني في القرن الخامس ق .م ، ووقف يوريديس الفكري من هذا المجتمع ، أي الشكل الذي حاول الشاعر أن يطوع الواقع الموجود في مجتمعه له ، فلما كانت الدراسات المستفيضة السابقة ركزت على الأشكال الفنية في الدراما اليونانية ، لذا كان البحث في المفاهيم العقلية التي تحملها هذه الدراما أمراً مستحباً .

دراما يوريديس دراسة في الفكر الاجتماعي في أثينا الحرة الخامس م.م

حسين الشميخ

تاريخ ميلاد الشاعر مذاهب مختلفة ، فقد حده Bates بالتالي والعشرين من سبتمبر عام ٤٨٠ ق م ، أما « مري Murray فيحدده بمقام ٤٨٤ ق م ، في حين أن « هيج Haigh » يحدده بنهاية عام ٤٨٥ ق م .

وأمام هذا الاختلاف في الرأي بين النقاد المحدثين ، وبين المصادر القديمة نيل الى الأخذ بما جاء في النقش الموجود على « حجر باروس الذي يحدد تاريخ ميلاد الشاعر بين أواخر عام ٤٨٥ ق م . حسب قراءة « Haigh للنقش وأوائل عام ٤٨٤ ق م . حسب قراءة « Murray . وربما كان الأخذ بهذا النقش آمن كثيرا لأنه يقترب من الفترة التي عاش فيها يوريبديس ، فهو يرجع الى العقيد الأولى من القرن الثالث ق م ، على حين أن المصادر الأخرى مثل بلوتارخوس وديوجينيس لا يرتبوس وسيرة الحياة تعود الى القرن الأول الميلادي ويجاوزه أحيانا .

ولد يوريبديس لأبوين من « فليالفا Phylarpha » وهي مدينة تقع على الساحل الشرقي لأثينا) ها منسار / خيديس وكليو . ويبدو أن والديه كانا على قدر من الثراء والمكانة الاجتماعية ، بالرغم من ادعاء اريستوفانيس (وهو من أشهر كتاب الكوميديا المعاصرين ليوريبديس) القائل بأن أمه كانت بائنة للخضروات والأعشاب . ويحضى هذا الادعاء بعض الشواهد الهامة ، إذ أن يوريبديس في صباه سمح له بالاشتراك في أحد أعياد إلالة أبوللون ، وهو امتياز لم يكن يتمتع به الصبية من الطبقات الدنيا ، كما أنه اشتهر بامتلاكه مكتبة خاصة ، في وقت كانت هذه المكتبات من الندرة بحيث يعتبر امتلاكها دليلا

والفكر الاجتماعي هو خطوط نحو تنظير هذا الفكر ، يعني أن الواقع الاجتماعي يوجد أولا ، ثم يتحول هذا الواقع الى موقف فكري تجاه الواقع سواء كان رفضا أو إعجابا أو حتى موقفا وسطا ، ثم يرتقى الفكر ليتحول الى نظرية اجتماعية والتي لا تخضع لضرورة تطبيقها ، إذ من الصعوبة بمكان تطبيق النظرية الاجتماعية وتحويلها الى واقع ، عكس ما هو عليه عند تحويل الواقع الى نظرية . وهنا نجد الاشارة الى أن الواقع الاجتماعي يتحدد بحدود مجتمعة ولا يتعداها ، في حين أن النظرية يمكن أن تتسبب على أكثر من مجتمع ، ولا كما هنا تتعرض بالدراسة للفكر وليس للواقع ، لذا كانت الاشارات أحيانا تنص على أثينة في القرن الخامس ق م . لتشمل كل بلاد اليونان من الناحية المكانيّة ، وكل فترات التاريخ اليوناني السابق ليوريبديس من الناحية الزمنية ، باعتبار أن حديث الشاعر - أي يوريبديس الذي كتب مسرحياته ككل كتاب الدراما اليونانيين القدماء شعرا - عن مجتمع آخر أو فترة زمنية أخرى إنما هو مجرد مافة يستخدمها الشاعر ليوضح من خلالها فكره الاجتماعي الذي هو انعكاس للمجتمع الأثيني في الفترة التي عاش فيها .

حياة يوريبديس :

تكاد تجمع أغلب المصادر القديمة على أن يوريبديس قد ولد في جزيرة سلاميس ، في السنة الأولى من الثورة الاثينية الخامسة والسبعين ، أي في خريف عام ٤٨٠ ق م . في نفس اليوم الذي حدثت فيه موقعة سلاميس بين الفرس واليونانيين (Plut., Mor., 717c.; Diog. Laert., 11.45; Vita Eur., 1 — 5)

أما بعض الكتاب المحدثين فقد ذهبوا في تحديد

ويقترح العديد من المصادراتجة تراجيدية لحياة يوريديس ، فقد مرتته كلاب صيد الملك أرخيلائوس خطأ ، ويقال بإيعاز من بعض خصومه الذين رشوا حراس الكلاب حتي يطلقوها على الشاعر. إلا أنه من الممكن أن يكون قد حدث خلط بين خاتمة « بانثيوس » آخر أبطال يوريديس في مسرحيته الأخيرة « الباشايات » وخاتمة هو شخصيا . وما يدل على صحة هذا الرأي أن اريستوفانيس الذي كتب مسرحيته « الضفادع » مباشرة بعد موت يوريديس لم يشر إطلاقا إلى حادث من هذا النوع ، فقد كانت مثل هذه الخاتمة الفريدة في نوعها - لو صحت - فرصة ذهبية له ليستكمل سخرياته اللاذعة ضد يوريديس .

أما أقرب الآراء إلى الصواب وأبسطها فرميا كان رأي « ادابويس Addaeus » وهو شاعر من القرن الرابع ق.م. وسُوف Epigram عن يوريديس ، والسني قال أن يوريديس مات لكبر منه (Add., VII.51; Greek Anthology, Loeb, Vol. 11.) ورغم بساطة هذا الرأي وبهذه عن كل ما يحاك عادة حول موت العطاء جميل إلى الاخذ به حتى يظهر ما يشكك في العكس .

هذه الروايات والآراء المتعددة حول مولد الشاعر تبرز حقيقة واضحة هي إهمال المصادر القديمة به (سواء تعظيها أو خدما لما أنجزه) . وفي هذا اعتراف ضمنى يمدى أثر أفكاره التي ضمنها أعماله الدرامية على مجتمعه الذي عاشه . ويؤكد هذا العدد الهائل من الاقتباسات المأخوذة عنه التي وجدت في المصادر القديمة ابتداء من معاصريه وحتى بدء انتشار المسيحية في العالم الغربي والشرقي على السواء ، وقد

على الثراء ، كما يقال أنه قد دعى إلى أدله بعض الخدمات العامة « Leitovrgia » التي كانت تفرض على أترياء القوم .

وكمعظم شباب الاغريق تدرب يوريديس على المصارعة والملاكمة ، وبرع فيها ويقال أيضا أنه قد فاز في بعض المباريات ، ومارس الرسم فيما بعد ، ويقال أن بعض لوحات له قد عرضت في ميصارا « Megara » . وربما كان أهم جزء في التعليم الذي تلقاه يوريديس في صباه هو دراسته للخطابة على يد بعض السوفسطائيين ، وإلى هذا يمكن أن يمزى حبه للخطابة والبلاغة والجلد ، كما يظهر ذلك بصورة واضحة في أعماله .

ترك يوريديس أثنيته في أخريات أيامه إلى « ماجنيسيا Magnesia » ثم رحل إلى مقدونيا حيث أقام هناك بدعوة من ملكها أرخيلائوس وظل هناك إلى أن مات . أما أسباب ترك يوريديس لأثينته فلم تعرف بالتحديد ، فيعتقد البعض أن صبر الشاعر المعجز قد نفذ بعد عرض مسرحيته « اوريستيس » عام ٤٠٨ ق.م. بقليل ، فانتطلق ببعض ارادته إلى المنفى بسبب شائنة مواطنيه وسوء طويتهم وحقدهم عليه . أما البعض الآخر فيرى أن السبب هو خلافه مع بعض الشراء الأقل مرتبة . على أية حال فقد هجر يوريديس أثينته بعد عام ٤٠٨ ق.م. ، ربما للسبب الاول بالإضافة إلى اغراء أرخيلائوس ، ومات قبل عرض مسرحية « الضفادع » لاريستوفانيس بقليل في يناير ٤٠٦ ق.م. .

توفي يوريديس في شتاء ٤٠٧ - ٤٠٦ ق.م. ، بعد أن شهد ستة وعشرين عاما من الحروب القاسية بين أثينته ودول البوليونييسوس ، وقلبه ملئ بالمرارة للحال التي وصلت إليها بلاد اليونان .

مهمين على كل أفعال الشاعر، إلا أنها يظهران في العديد منها، وهو شيء ليس بمستغرب من رجل خبر الطبيعة البشرية ودرسها وصورها كما هي، لا كما فعل سلفاء أيسخولوس وسوفوكليس اللذان صوروا البشر كما يجب أن يكونوا، وإن كان هذا القول لا ينطبق تماماً على أفعال سوفوكليس. (Aristot., Poetics, 1460 B., 33—34.) الموت كثيراً ما تظهر بالبحاح في أفعال يوريديس، ولتأخذ مثلاً من مسرحيته المفقودة «فريكسوس» والتي يقول فيها:

(من الذي يعرف ما إذا كان هذا الشيء الذي تدعوه الموت هو الحياة ...
وأن حياتنا هي الموت بعينه ...
من يعرف ...
ما عدا أننا تحت الشمس نعيش مرضى، ونماني، وأن هؤلاء الذين ذهبوا عنا لبسوا بمرض، ولن يصابوا بضر أبداً.)

Nauck, T. G. f. Apud Murray, Eur. his Age, pp. 192—193

هذه السطور السابقة تجرنا إلى ما قاله فثروفينس عن يوريديس حين وصفه قائلاً: «يوريديس .. هو من أساءه الاثينيون بفيلمسوف المسرح» (Vitruius, VIII. 1.) وعلى ما يبدو فإن العديد من المصادر القديمة قد أكدت علاقة يوريديس بالسوفسطائيين، وبسواء أكانت هذه العلاقة هي علاقة التلمذ بأساتذته، أو الصديق بأصدقائه، فإن الروح السوفسطائية تظهر في أفعال يوريديس بشكل يدعو إلى تأكيد العلاقة بينه

استمرت هذه الافتباسات حتى دراما القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في فرنسا وألمانيا (إبان حركة أحياء التراث الكلاسيكي) والتي بدأت بأحياء الدراما عن طريق مسرح الأعرار الكسفي في القرون الوسطى.

أما عن طبيعة شخصية يوريديس فيبدو أن أغلب المصادر القديمة قد أجمعت على أنه كان شخصاً محباً للعزلة والتأمل، وقد وجدت قصة تقليدية تحكي عنه من أنه لجأ إلى كهف مطبل على البحر في سلاميس، حيث كان يقضي أياماً طويلة في عزلة تامة ليتأمل ويكتب (Satyrus. 39. IX. 4—32 Hunt, ox. pap., Vol. ix) لشعراء الكوميديا وخاصة أريستوفانيس يد طولى في تشويه الصورة الكألى وصلتنا عن يوريديس، سواء عن عمد أو بغير قصد، وربما كان هذا راجعاً إلى التصور المسبق لدى شعراء الكوميديا عن شخصيات الفلاسفة، وما يمتد يوريديس من شعور عام بأنه أقرب إلى الفلاسفة منه إلى شعراء الدراما. وقد رسمت المصادر القديمة لشاعرنا صورة قائمة، فهو عابس دائماً، لا يكاد يعرف الابتسام حتى وهو يحتسى نبيذه، كاره للنساء، جاد الملامح، قاسي النظرات، ذو شعر رصادي ومرسل ولحية كثة ووجهه مله بالتجاعيد.

هذه الصورة القائمة لاتتفق في كثير من جوانبها مع ما وصلنا من دلائل على أنه كان متواضعاً حلو المشر، على خلق كريم، ورفيق بأصدقائه.

إلا أن المتعرض بالتحليل لشخصية يوريديس لا يمكنه إغفال جانب التشائم الذي ظهر في العديد من أعماله، هذا التشائم والسوداوية وإن لم يكونا

الانجاءان متعددين ، أو على أقل تقدير نتيجة تأثر بالسوفسطائيين ولو حتى بطريق غير مباشر .

وفي الواقع يتكرر ذكر علاقة يوربيديس بالسوفسطائيين في مصادر عديدة إلا أن طبيعة هذه العلاقة ليست محددة في كل الأحوال ، كما أن أثرها يختلف في عمقه من حالة إلى أخرى ، وفي هذا المجال نستطيع أن نذكر أن أناكساغوراس وپروتاجوراس (وها أشهر سوفسطائيي القرن الخامس ق م) كانا يكرران يوربيديس منا ، ولذا فمن المحتمل أن يكون قد درس على يد أحدهما ، أو كليهما معاً . أما پريديكوس وسقراط فقد كانا يصغرانه في السن ، ولذا فمن المستبعد أن يكون قد درس على يد أحدهما .

أما عن أعمال يوربيديس المسرحية فيبدو أن أول ظهور له في مسابقات الدراما اليونانية كان في عام ٤٥٥ ق م عندما كان في حوالي الثلاثين من عمره مسرحية بيلياديس (التي فقدت فيما بعد) والتي حصل بها على الجائزة الثالثة . وبالرغم من أن يوربيديس كان كاتباً خصباً غزير الإنتاج ، إلا أنه من الصعوبة بكان تحديد عدد مسرحياته بدقة . فقد تراوح العدد بين خمس وسبعين واثنين وتسعين مسرحية ، إلا أنه يبدو أن العدد ٧٥ أقل من العدد الأصلي ، فحتى الوقت الذي كتبت فيه سيرة حياة يوربيديس Vita كانت توجد ٧٨ مسرحية معروفة له ، لذا فمن المحتمل أن العدد ٩٧ هو الأقرب إلى الصحة .

وكان يوربيديس على ما يبدو مهوئاً بالحفظ في مباريات الدراما اليونانية ، فلم يجر سوى خمسة

وبينهم ، ومن ثم تصبح مسألة تأثره بهم مطروحة ، وتتمثل هذه الروح في مظهرين ربما جاز تصنيفها على النحو التالي :

١ - ميل الشاعر نحو الخطابة البليغة المؤثرة في النفوس ، وهذا الاتجاه وإن كان اتجاهاً طبيعياً في مجتمع أحب وتسمع الخطابة والجمل ، إلا أنه أشد وقوي بعد ظهور طائفة السوفسطائيين المتخصصين في تدريس هذا الفن ، فيظهر عند يوربيديس الميل إلى الخطابة واستعمال الأسلوب السلس عذب اللفاظ ، لدرجة قد تهدد أحياناً البناء الدرامي لبعض أعماله . وفي هذا المجال فرغم أننا لسنا بصدد نقد أعمال يوربيديس إلا أن دخول بعض الرسل في أعماله وخطبهم التي قد تطول فتصل أحياناً إلى المائة سطر من الشعر ، هو ما يضعف الخط الدرامي الصاعد ويحد من تدفقه ، ويحد تماهف المشاهد مع الحدث (الذي يجري أمامه . Quintilianus , X . 1. 670 Sq)

٢ - جنوح يوربيديس الواضح نحو استعراض العديد من الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والسياسية وأحياناً العلمية في نثاها مسرحياته ، حتى ولو كان الخط الدرامي في المسرحية غير مهماً لذلك ، فيبرز شبح الشاعر أحياناً على مسرح الحوادث ليتكلم من وراء شخصياته ، ويناقش ويجادل ويقترح الحجة بالحجة . (Aristophanes , Ran . 948 Sq .)

هذان الاتجاهان الواضحان في أعمال يوربيديس ، لا يمكن تصنيفها على أنها مجرد أخطاء درامية وقع فيها الكاتب ، لأنها يظهران في أعماله القوية والاحتمل قوة على حد سواء ، وهذا يكون

وقد حاول يوريديس كشاعر نشأ في ظل اثنين من عمالقة الدراما اليونانية هما إيسخولوس وسوفوكليس ، أن يطور ويبتكر في أشكال مسرحياته حتى يضمن التأثير التعليمي المطلوب عند عرضها ، من هنا استعمل الشاعر بكثرة المقدمات المعروفة باسم « البرولوج » ، والحيلة المعروفة باسم « الآله من الآلة » ، والمناظر والملابس التي تتوافق مع موضوعات مسرحياته حتى وإن تمارضت مع ما عرف عن فخامة المناظر والملابس المبهودة في التراجيديات اليونانية ، بالإضافة إلى أنه وظف الجوقة لخدمة موضوعاته الدرامية حتى لا تصبح عبثاً مفروضا عليه ، وفي سبيل هذا لم يتردد في تقسيمها إلى قسمين ، أو إضافة جوقة أخرى في بعض الأحيان .

كما أنه لم يتردد في محاولة تطويع التراجيديات (ربما لخدمة أهدافه في التأثير على مشاهديه) بإضافة بعض اللبسات الكوميدي لها . فيشكل أحد أعماله المتقدمة - الكستيس - دلالة على محاولته المستمرة في تجسيد روح الدراما الاغريقية ، فهي كما يعتقد بعض النقاد المثل الذي وصلنا مما يمكن إطلاق لفظ تراجيكو كوميدي Tragi — Comedy عليه . كما يمكن القول أن يوريديس يعتبر صاحب فضل كبير على الكوميديا الحديثة التي اكتملت صورتها في أعمال « مينانديروس » ، ففي أحد أعماله المتأخرة « أيون » ، يظهر العديد من الحوادث والمواقف التي تميزت بها الكوميديا الحديثة ، من اغتصاب للمنادي ، والتخلّي عن الأطفال ، ثم التعرف عليهم بعد ذلك بواسطة العقود والخواتم وغيرها من وسائل التعرف .

وبالرغم من عدد الانتصارات المحدودة التي ظفر بها يوريديس خلال حياته وبعد موته - والتي لم تمتد

انتصارات ، واحد منها بعد وفاته عندما قدم ابنه أو ابن أخ له بعض مسرحياته . ويمكن تفسير هذا بأن الشاعر كان سابقا لمصره في التحرر الفكري عند الحديث عن القيم الأخلاقية والدين والسياسة ، مما لم يكن مقبولا تماما من جهة الشعب العادي ، والذين كانوا في الحقيقة يشكلون الحكم الأول في هذه المياريات .

ومن بين الاثنين وتسمين مسرحية التي كتبها يوريديس بقيت ١٩ مسرحية تتناول العديد من الموضوعات ، كالحرب والسلام والدين ، والمواطف المختلفة كالحب والغيرة والكراهية والانتقام ، كما أمكن جمع بعض المعلومات عن ٥٥ مسرحية مفقودة . ومن التسع عشرة مسرحية الباقية أمكن تحديد تاريخ تسع مسرحيات هي :

الكستيس ٤٢٨ ق م ، ميديا ٤٣١ ق م ، هيبوليتوس ٤٢٨ ق م ،
الطرواديات ٤١٥ ق م ، هيلين ٤١٢ ق م ،
أوريستيس ٤٠٨ ق م ،
الفينيقيات ٤٠٧ ق م ، الباختيات ٤٠٦ ق م ،
افيجينيا في أوليس ٤٠٦ ق م . أما العشرة أعمال التي لم يتأكد تاريخها باستثناء « ريسوس » فهي :

ابناء هيراكليس حوالي ٤٣٠ - ٤٢٩ ق م ،
هيكابي حوالي ٤٢٥ ق م ، اللاجنات حوالي ٤٢٠ ق م ،
اندروماني حوالي ٤١٩ ق م ، جنون هيراكليس حوالي ٤١٦ ق م ، اليكترا حوالي ٤١٣ ق م ،
أيون حوالي ٤٢٤ ق م . أو بعد ٤١٢ ق م ،
افيجينيا بين التاوربيين حوالي ٤١٢ ق م . أما « الكيكوليس » فمن الصعب تحديد تاريخ لمرضها لأنها لا تحوي أي شواهد تساعد في هذا .

التراجيدي . ومن الصعب تحديد طبيعة العلاقة بين الشعراء ، وأسباب هجوم اريستوفانيس المستمر على يوريديس ، الا أنه من الممكن استنتاج سببين رئيسيين ربما يبررا هذا الموقف :

١ - طبيعة اريستوفانيس التقليدية المحافظة ، وعدم تقبله للجديد من طرق التعليم والاساليب الجديدة في معالجة الدراما اليونانية ، ونظرته للشاعر الدرامي ك معلم لامة الشعب .
(Aristoph. , Ran. , 1005 — 1016 ,)
(Acharn. , 464) .

٢ - من الطبيعي أن أي كاتب كوميدي يحاول دائما أن يعالج أكثر الموضوعات والشخصيات ذيوعا وانتشارا في عصره ، فلا يقدم الكاتب عادة على العرض لموضوع غامض أو غير معروف لجمهوره حتى لا يفقد عمله فرصة الانتشار . وبما أصبح يوريديس (الذي كان في وقت نضوج اريستوفانيس الفني من أكثر شعراء التراجيديا اليونانية انتشارا) ، موضوعا محببا لكوميديي القرن الخامس والرابع ق. م وخاصة اريستوفانيس . الا أن هذا الموقف من اريستوفانيس لم يكن يعني أنه لا يقدر قيمة يوريديس ككاتب درامي ، فهجومه المستمر يبرز حقيقة واضحة ، وهي أنه كان ملما تماما بأشعار يوريديس دارسا لها ، بما يبرحاحل أنه كان يتذوق هذه الاشعار ، برغم اختلافه مع صاحبها في الانكار وحتى في « الضفادع » التي تبدو وكأنها أكثر مسرحيات اريستوفانيس نقدا ليوريديس ، فان الفكرة الأساسية فيها أنه لا يوجد من بين كل شعراء التراجيديا الباقيين على قيد الحياة - في ذلك الوقت - من يستحق أن ينال شرف مناقسة إسخولوس

خمسة انتصارات - في مباريات الدراما الاغريقية ، فمن الواضح أن شهرته قد بدأت في الاقوياد خلال الفترة الاخيرة من القرن الخامس ق. م . واستمرت على ما يبدو حتى ما بعد القرن الثاني الميلادي ، ووصل تأثيره على اللاحقين له من شعراء الدراما الى حد أن قال « فيلمون » أحد شعراء الكوميديا في القرن الرابع ق. م : « لو كنت متأكدا أن للموتى شعورا ، لشنقت نفسي . حتى أرى يوريديس » .
113 — 109 Vita Eur. , ويقال أن « الاسكندر الأكبر » كان يحفظ أشعار يوريديس ويستشهد بها ، وفي المأدبة التي سبقت موته ، أنشد من الذاكرة مشهدا كاملا من مسرحية « أندرويدا » للشاعر . وبيدوان « اكسيدونيكوس » وهو أحد شعراء الكوميديا من القرن الرابع ق. م . قد أستهووا الموضوع ، فكتب مسرحية تسمى « محب يوريديس Philaeuripides ، صور فيها روح التعصب للشاعر الذي اعتبر اليونانيون - في القرن الرابع ق. م - أن أشعاره هي الأفضل دائما ، وما عداها فهو حماقة كبرى .

هكذا كان يوريديس شاعرا متحررا ، تعليميا ، مجندا في أفكاره وأشكال مسرحياته ، مما لم يكن يتلائم مع المزاج التقليدي لشعراء القرنين الخامس والرابع ق م وخاصة شعراء الكوميديا وعلى رأسهم اريستوفانيس . فكان اريستوفانيس دائم الإشارة الى يوريديس في كوميدياته ، فمن بين أفعاله الأحد عشر التي توجد ثلاثة أفعال تلعب فيها شخصية يوريديس دورا رئيسيا هي : (المحتفلات بعيد تسموفوريا - أهل أخازناي - الضفادع) بالإضافة للعديد من أفعاله الاخرى التي امتلأت بالاشارات والتلميحات الصريحة أو غير المباشرة للشاعر

وسوفوكليس . هذا بالإضافة الى العديد من الصفات التي أسبغها أريستوفانيس على يوريديس في تنابا المسرحية ، من أنه : « شاعر صادق أصيل » ، « شاعر خلاق مبدع ينطق بأشياء مبهرة » .

وحتى نهاية المسرحية يواجه ديونيسيوس صعوبة شديدة في الاختيار بين إيسخولوس ويوريديس ، وهو في النهاية حيناً يختار إيسخولوس ، إنما يختاره على أساس حنينه للماضي البعيد ، لكنه في نفس الوقت لا يتكر مقدرة يوريديس وثقته من فنه :

ديونيسيوس : اللتان أصدقاء لي ، ولا أستطيع أن
أفاضل بينهما ، ولا أرغب أن أكتسب عداوة
أحدهما ، أحدهما حكيم ،
والآخر يبهمني كثيراً .

(Aristoph . Ran ., 1411 — 1413)

يوريديس ونظم التعليم في المجتمع الاثيني :

بالرغم من الشكل المثالي لنظام التعليم الاثيني الذي وزع الالهام بين تسمية القدرات الجسمية والعقلية للشباب ، إلا أن تطبيق هذا النظام في الواقع ربما ركز على التاحية العملية (أي تكوين الجسم عن طريق الرياضات المختلفة من مصارعة وملاكمة ، الى الجري ورمي القرص وغيرها) ، وهذا يكون قد جاز نوعاً ما على التكوين العقلي للشباب . ويظهر هذا عند الفنانين الاغريق - ابتداء من العصر الارضي حتى العصر الكلاسيكي ، وربما تجاوزه - في عناصر النحت الدائري والمعماري التي ركز فيها الفنان على المقاييس والنسب الجمالية للجسم البشري - والتي

بلغت حد الكمال عند بوليكليتوس في تمثالها الدوريفوروس أو القانون - وهو بهذا (أي الفنان الاغريقي) كان يمسك فكرًا سائدًا في مجتمعه حول الكيفية التي يجب أن يكون عليها الجسم البشري من كمال ونسب رياضية مضبوطة وبالضرورة ينسحب هذا الفكر على تكوينات المهار والتصور والفنار ، وحتى في الأدب نجد أن وصف الشخصيات كان يؤكد غالباً على خواصها الجسمية قبل مميزات العقلية ، كأخيليس السريع القدمين عند هوميروس . ولهذا يمكن القول أن الاغريق - والاثينيين بالطبع - ركزوا على التكوين الرياضي للجسم البشري ، وهذا فقد أعطوا للرياضة نصيباً كبيراً في برامج التعليم تفوق ما حظيت به الموسيقى أو الشعر أو القراءة .

مثل هذا الوضع الاجتماعي كان ولا بد أن يشد انتباه كاتب في حجم يوريديس ، الذي كان انعكاساً صادقاً لما يشغل مجتمعه من جهة ، ومن جهة أخرى كانت صفاته التأملية والتعليمية حافزاً له ليتخذ موقفاً مباشراً ، واضحاً وصريحاً ، نحو نظام التعليم المعنى باخراج طائفة من الرياضيين أولاً ، فيقول في مسرحيته المفقودة « أوتوليوكوس » :

(من بين كل الشرور المدينة التي تزعم اليونان ، لا يوجد ما هو أسوأ من جماعة الرياضيين .

أولاً هم لم يتعلموا كيف يحيون بطريقة صحيحة ، وحتى لو أرادوا فهم لا يستطيعون . حقاً ، كيف يمكن عندما يكون الرجل عبداً لفكره وضعية لمعدته ، أن يكسب من الشرف ما يزيد عما جمعه والده ؟ ثانياً هم لا يستطيعون تحمل الفقر ، أو

(أي عون يستطيع رجل حصل على تاج للمصارعة الجيدة أن يقدمه لوطنه ؟ أو رجل ذو أقدام سريعة ، أو من يرمي القرص ، يسدد ضربة محكمة إلى الفاك ؟ هل سيقاثلون العدو بالقرص في أيديهم ، أو بدون درع سيضربون بقبضاتهم ، ويلقون بالعدو خارج أراضيهم ؟) (Ibid , 413 Csq) وهو هنا يسخر منهم سخرة مرة حين يتساءل هل سيدافع هؤلاء عن تلقوا تعلقا رياضيا رفيع المستوى عن وطنهم يرمي القرص أو الملاكه أو الجري أو المصارعة . ثم يصدر كلامه القاطع عليهم بعدم جدوى تدريباتهم الرياضية حين تستدعيهم الدولة للدفاع عنها حين يقول :

(لا يوجد رجل يقرقر مثل هذه المهاقات ، حين يلق ملاحقا للمعدن البسارد .) (Ibid , 413c Sq) ولم يقتصر موقف يوريديس على مهاجمة نظم التعليم السائدة ، وإنما طرح البديل الأفضل (في رأيه) والذي يتمثل في التركيز على تنمية قدرات الشباب العقلية بدلا من قدراتهم الجسمية ، وتعليمهم الحكمة والبلاغة التي تقودهم إلى الفضيلة والعدالة حتى يكونوا ذوي فائدة لوطنهم ولكل بلاد اليونان فيقول :

(أعتقد أنه من المناسب ، أننا يجب أن نتوج بالاعصان الرجال الحكماء والقيدين ، وأيضا من يوجه الدولة إلى الخير ، الرجل الرزين والعادل ، وأيضا من يستطيع منع الأعمال الشريرة ببلاغته ، ويعد القتال والشغب . لأن مثل هذه الصفات هي التي تصلح لكل المدينة ولكل اليونان .) (Ibid , 413c Sq .) ويصدق يوريديس ليؤكد - بوضوح تام هذه المرة - في مسرحيته « هيكابي » أهمية تدريس علوم البلاغة والجدل والافتقار للبشر فيقول :

تكييف أنفسهم مع الشدائد معتادين كما هم على عادات دينية ، فهم يظنون أنه من الصعوبة تغييرها عندما تأتي الشدائد .

في ربحان شبابهم يأتون وينهبون ، المظلم ، أحباب المدينة ، لكن عندما تسقط عليهم الشيوخفة المرة ، يخفتون بلباس عزمة فقدت وبرها .)

Eur ., Autoiycos, Apud Attenaeus , 413 c. Seq .
والشاعر هانا
يهاجم التعليم الرياضي - كما يبدو - ممثلا في طائفة الرياضيين مركزا على عدم جدوى الرياضة في تكوين الأخلاق الفاضلة التي تساعد الانسان على التغلب على الشدائد وتحفظ عليه شيوخفته حتى لا تكون فائدته مرهونة بشبابه ، فإذا ولي الشباب أصبح غير ذي قيمة ، بالإضافة إلى أن هذا التعليم لا يعلم الانسان كيف يحيا بطريقة صحيحة فيجعله عبدا لشهواته الجسمية .

ويستمر يوريديس في هجومه على التعليم الرياضي والرياضيين وأفضا. التكرير الذي يحظون به فيقول :

(لا أستطيع أن أفر عادة اليونانيين الذين من أجل خاطر هؤلاء الرجال ، يقدون اجتماعا ، ويكرمونهم لأجل لذات غير ذات فائدة . حتى يزيروا اعيادهم عظيمة .) (Ibid , Loc. Cit .) ثم ينتقل الشاعر إلى مناقشة مدى انتفاع الدولة بمثل هذا النوع من التعليم فيقرر أن الرياضة والرياضيين لن يفيدوا وطنهم بأي شيء فهم مجرد مظهر لجسد زائل :

فلا الأرض او ابعر اخرجت مثل هذا الجنس
المفسد ، ويعرف هذا جيدا من يتعامل معه من .
(Eur., Hec., 1178 — 1182) ويرد
هيبلوتوس هذا المعنى في المسرحية التي حملت نفس
الاسم ، فيقول :

(أيا الاله زيوس ، لمن أجل شقاء الرجال ،
وضعت النساء ، هذا الشر المزين ،
ليستقروا حيث تشرق الشمس ؟) (Eur.,
Hipp., 616 — 627) ثم يعود ليقول :

(ومن هذا يبدو واضحا ، أي لعنة هي المرأة ،
حتى أن أبائها الذي انجبها ورعاها ، حتى ينهي
متاعها ، يضيف عليها بائلة حتى يتخلص منها)
(Ibid , 627 — 629)

هذه السطور تدركا لو كانت هجوما متعمدا من
يوريبديس على جنس النساء بأجمعه ، ويعتقد
البعض أن هذه العبادة ترجع لفشله في حياته
الزوجية . ويقال أن يوريبديس قد تزوج مرتين ،
الأولى من « مليتو » والثانية من « ضويرلي » ،
وأُنجب ثلاثة أبناء ، هم منسارخيديس التاجر ،
ومينسولوخوس الممثل ، ويوريبديس الأصغر الشاعر .
(. Vita , 28 — 32) .

وتستمر القصة التقليدية حول حياة يوريبديس
الزوجية لتؤكد أنه قد كتب مسرحية هيبلوتوس التي
هاجم فيها النساء بعد اكتشافه لحياة زوجته الأولى ،
ثم حين فجع في زوجته الثانية التي غائته مع عبده
كفيسوفون ، أطلق بها جم جنس النساء بأكله ،
حتى اجتمعت نساء أثينا وقررن قتله للتعويض منه ،
ولم ينقذه منهن الا موهبته الشعرية وتمهده لهن بعدم
العودة لمهاجتهن ثانية .

(لماذا بحق ، نجتهد نحن البشر في تعلم كل
المهارات الأخرى ، كما يجب ، ونسعى لتملك
ناحتيها ، (وفيما يخص) فن الاقتناع ، سلطان البشر
بلا منازع ، فائنا لا نبذل الجهد ، ولا ندفع اجورا
كي نتعلم هذا العلم تعليما متقنا ، حتى يمكن أن تنتهي
الغفول ، وننجح في تحقيق ما نهي ايضا . إذن كيف
يمكن للانسان أن يأمل في النجاح .)
(Eur., Hec., 814 — 820) والاشارة هنا
عن التعليم بأجر لا بد وأنها تعني السوفسطائيين ،
وهي بهذا موافقة ضمنية على طريقتهن في التعليم .

وقد يبدو يوريبديس يوفقه الفكري هذا تجاه
التعليم مختلفا مع الواقع الاجتماعي السائد في أثينا .
الا أن هذا الاختلاف اذا أمنا النظر فيه يبدو ظاهريا
فقط ، ففي الحقيقة لم يكن يوريبديس الا داعية
لتطبيق نظام مثالي في التعليم ، هذا النظام المثالي كان
موجودا فعلا (ونسبي به التوازن في تنمية قدرات
الجسم والعقل معا) ، في المجتمع الاثيني ، الا أن
التطبيق الفعلي له - وكنتطبيق أي نظام مثالي -
انصرف الى ناحية معينة ، هي تنمية القدرات
الجسمية ، على حساب الناحية الأخرى ، أي
القدرات العقلية ، ويعني آخر يمكن القول أن الشاعر
دعا الى تصحيح مسار التعليم حتى يعود به الى
مثاليته المفترضة تراجدها فيه .

يوريبديس والمرأة :

يقول بولوبيستور في « هيكاسي » مغايلسا
أجانبون :

(اذا كان أي من الرجال السابقين ، قد تحدث بسوء
عن النساء ، أو يفعل هذا الآن ، اوسيفعله فيا بعد ،
فكل هذا أعبر عنه أنا بكلمة مختصرة :

متصلة في الغالب ، تحتل منزلة أدنى من الرجل الذي نظر إليها لا كرفيقه تشاركه حياته وإنما كمديرة منزل ورعاية للأطفال ، لا تتعامل مع المجتمع الخارجي الا من خلال رجلها سواء كان زوجها أو وصيا أو ابنا ، وفي أضيق الحدود الممكنة .

وفي محاولة لبحث أسباب هذه العزلة التي فرضها المجتمع الأثيني على نساءه ، (وهو بالضرورة مجتمع رجال) لا بد من الإشارة الى أن الرجل الأثيني لم يكن رجل عائلة ، فقد كان يقضي أغلب أوقاته خارج بيته - ومع التحرر الأخلاقي النسبي الذي اتسم به الأثينيون - كان هذا الرجل واعيا تماما بأخطار خروج المرأة الى الحياة العامة بما فيها من اجتياح سهل لا تؤمن عواقبه مع الرجال - كما أن النظرة التجارية التي سادت المجتمع الأثيني بعد التجارة ، ربما أدت بالرجل الأثيني الى أن ينظر للمرأة نظرة نفعية ، فقد كانت ترعى شئونه الداخلية في المنزل وتنظفها وبهذا تفرغ هولعله خارج بيته . ودعم كل هذه الأسباب صغر سن الزوجة الأثينية بالنسبة لزوجها مما أخضعها تماما له والذي كان يفرقها سنا وعليا ، وجعله هذا قادرا على توجيهها كيفما شاء . لكن كل هذا لا ينفي أن المرأة الأثينية أخذت تتدريجيا - وإن كان بينظمه - خلال القرنين الخامس والرابع ق م ، تشغل بال مفكري وشعراء اليونان ، وليس أدل على ذلك من كثرة الشخصيات النسائية المتنوعة عند سوفوكليس ويوربيديس بمشاكلها المختلفة وعواطفها الجياشة ، وحتى الشخصيات النسائية التي اتسمت نوعا ما بطابع القيادة - برغم ما فيها من ملامح كاريكاتورية - عند اريستوفانس ، مثل براكساغورا في مسرحية «النساء في الكليزيا» ، وليستراتا في المسرحية التي

على أن افتضار كل هذه القصص عن حياة الشاعر الزوجية للسند التاريخي القوي يحصل من السهل التشكيك فيها ، فيبدو أن يوربيديس قد عاش في وثاق مع زوجته وعبد كفيشوفون حتى آخر أيامه . (Aristoph ., Ran ., 1407) (1409 — وبالإضافة الى ذلك فلو كان لأبي من هذه القصص - عن خيانات زوجاته المتكررة - نصيب من الصحة ، لما واثني شعراء الكوميديا ، وخاصة اريستوفانس الذي طالما مضمر من يوربيديس وأمه ، عن استغلالها كإداة دسيسة لسخراتهم اللاذعة .

وبانتفاء الدافع الشخصي وراء كراهية يوربيديس - المفترضة - للنساء ينهدم ركن أساسي من أركان الاتهام ، وهنا يبرز لنا سؤال : هل كان يوربيديس عدوا للمرأة حقا ؟ والاجابة على هذا السؤال لانهمنا بالقدر الذي يميلنا نحاول التوصل الى حكم ما حول المشكلة ، فما يهنا فعلا هو الموقف الذي اتخذته الشاعر من وضع المرأة كجزء من المجتمع الذي يمايشه والذي ربما حمل في طياته الاجابة على السؤال السابق .

وقبل تحليل موقف الشاعر الفكري من المرأة (وهو في مضمونه موقف نظري) دعوقها وواجباتها في المجتمع الأثيني ، نجد الإشارة الى الوضع الفعلي الذي تمتت به المرأة في هذا المجتمع ، حتى يمكن المقارنة بين الفكر والواقع وصدى اختلافها أو تلاقيها .

كانت المرأة الأثينية تقضي حياتها منزلة داخل بيتها تمارس مهلهل المنزلية لا تخرج الا نادرا ، غير

يكون يوريبديس قد وضع أصبعه على موطن الداء في مشكلة وضع المرأة اللاتينية الاجتماعي وهو: النظرة المستمرة لها على أنها مخلوق أدنى منزلة من الرجل. هذه النظرة أدت بالضرورة الى مظهرين آخرين من مظاهر حياتها وهما: عزلتها المستمرة داخل بيتها، ثم عدم قدرتها على اختيار الزوج المناسب لها. ويخلص يوريبديس أيضا هذين المظهرين على لسان « ميديا » في المسرحية التي حملت نفس الاسم قائلا:

(من بين كل المخلوقات التي تنعم بالحياة والشعور، فنحن النساء أتمس هذه المخلوقات، أولا يجب أن نشعري لانفسنا زوجا يسمر باهظ، وعلى أنفسنا تنصب ميديا، وهو شر يفوق الشر الأول، وهنا تكمن النتيجة الأكثر خطرا، هل سيكون الاختيار صالحا أو سيئا، فالطلاق هو شيء مشين للمرأة، ولا يمكننا أن نرفض سادتنا « أزواجنا » (Eur., Med., 230 — 237)

والدعوة هنا لأن تكون للمرأة الحرية في اختيار زوجها واضحة صريحة، ويحسب هذا ذكر أن يوريبديس لم يكن أول من نادى باعطاء هذا الحق للمرأة، فقد سبقه ايسخولوس في ذلك، في مسرحية « اللاجئات » والتي تدور أساسا حول رفض بنات داناؤوس الزواج من أبناء عمهن ايجيبتوس، ويلوئهن الى أرجوس مستجيريات، والجو العام للعمل الدرامي يتمشى مع طلب اللاجئات حق عدم الزواج ممن يكرهون ويتعاطف معهن حتى أن المسرحية تنتهي بالمجوعة التي تشدد:

(زيوس ملك الآلهة، فليقرر أن لا أرجيس بزوج أكرهه لقسوته وشهوته.)
(Aeschyl., Supp., 1053 Sq.) وتستمر مبدئيا فتحدث عن عزلة المرأة في بيتها قائلة:

حملت نفس الاسم. هذا الاتجاه البطيء كان لا بد أن يؤدي في النهاية الى فكر آخر يتعامل مع المرأة بنظرة تختلف عن تلك النظرة التقليدية السابقة.

يلخص يوريبديس مشكلة وضع المرأة الاجتماعي الادنى من الرجل الاثيني على لسان فايدرا في مسرحيته « هيبوليتوس » في متولج طويل توضح فيه فايدرا أن النطق الأول من هذه المشكلة يتمثل في التواضع الزائد للمرأة الأثينية (أو الصغار) والذي يجعلها غير مناسبة لأي شيء عدا بيتها، اما النطق الثاني فهو الخوف الدائم مما قد يقلبه الرجل أو يفعله، وهذا الخوف هو الذي يمنع المرأة من عمل ما تظن أنه صواب. هذا الخطأ أو الاحساس الذي لازم المرأة اللاتينية تعترف به فايدرا نفسها حين تقول:

(لقد تعلمت أن أعرف جيدا أنني لست الا امرأة، شيء لا يكثرث به العالم)
(Eur., Hipp., 406 — 407) وفيها بعد كررت افيجينيا نفس المعنى حين قالت في « افيجينيا بين التاورين »:

ان فقدان رجل هو شيء تشمر به أسرته تماما، بيتا فقدان للمرأة شيء غير ذي بال. (Eur., Iph. Taur., 1005 — 1006)
وتعد لتكرره بطريقة أخرى في « افيجينيا في أوليس » حين يقول:

(ليس من الحق أن يدخل هذا الرجل (أخيليس) في قتال مع كل الاريجوسيين، او يقتل من أجل امرأة، فمن الأفضل أن يرى رجل واحد الضوء، عن عتسرة آلاف امرأة)
(Wue., Iph. Aut., 1392 — 94) وهذا

(فقط عن الزوجة) (Bur., Eiect., 937 — 936 من كل هذا يمكننا أن نستخلص موقفاً فكرياً محدداً اتخذته يوريبديس من المرأة الأثينية التي عاصرها ، وعبر عن هذا الموقف من خلال كتاباته .

لم يكن يوريبديس عدواً للنساء ، كما لم يكن أيضاً محباً لهن ، لقد درس الشاعر المرأة وسلل عواطفها وأنطقها بشكواها على خشبة المسرح ، وجعل المشاهد يتعاطف مع فايدرا رغم حبها الآثم ، ويرثي لفكرة ميديا الجنونية ، ويؤيد في بعض الأحيان اليكثرا المنتقمة . كما صور افيجينيا التي تضحي بحياتها في سبيل وطنها ، وبكاريا التي تقدم للموت طامعة حتى تنقذ اخوتها ، والسكيس التي تقبل الموت حتى تهب زوجها الحياة ، وبولكسينا التيلة التي تفضل الموت على حياة العبيدة ، وغيرهن من النماذج التي فازت باعجاب العالم القديم والحديث على حد سواء .

ودعا يوريبديس الى أن يكون للمرأة الحق في اختيار زوجها ، وأن تتحرر قليلاً من العزلة داخل المنزل المفروضة عليها ، لكنه كان تقليدياً حيناً قال بأن التعليم المميز للمرأة شيء غير مستحب ، وأن الزواج لا بد وأن ينسج من طريقتين مختلفتين ، وأن الفضيلة الأولى للمرأة هي الصمت والعقل .

يوريبديس والعلاقة بين الأفراد :

استمرارا في محاولة تحليل موقف يوريبديس الفكري من قضايا عصره ، ففي مجال العلاقة بين الأفراد ، لا يمكن لباحث في تاريخ المجتمع الاغريقي

(عندما يتكرر الرجل مما يصادفه داخل بيته ، فهو يخرج (ليلهو) ، مع أصدقائه أو رفقاءه في نفس منه ليخلص روحه من المتاعب ، بينما نحن لا نملك لراحتنا سوى نفس واحدة (هي نحن) ، وهم يقولون أننا نحيا حياة آمنة في المنزل ، بينما هم يخرجون للمعارك ، وبهذا المنطق الخاطيء ، فأنا أفضل أن أأخذ مكانسي في صفوف المقاتلين ثلاث مرات ، عن أن ألد مرة واحدة .) (Bur., Med., 244 — 251) إلا أن هذه السلوكيات يجب أن نربطها الى الاعتقاد بأن يوريبديس كان متحرراً تماماً في موقفه من المرأة ، فهو ما زال يرى أن :

(زينة المرأة في الصمت والنظفة ، وأن تتجيب في بيتها .) (Bur., Herac., 476 — 477) كما أنه لم يدع الى تعليم المرأة تعليماً مميزاً ، فقد كان يخشى المرأة الذكية . يقول هيبوليتوس :

(انني أكره المرأة الذكية ، أبداً لن تضع قلبها في بيتي ، تلك التي تتطلع لأن تعرف أكثر مما تحتاجه النساء . لأن أفرويني وضعت في هامة النساء الذكيات أكبر قسط من الشر ، اما المرأة غير الذكية ، فقلها الضمحل يتمناها عمن الرعرة .) (Bur., Hipp., 640 — 644) هذا الموقف التقليدي من جانب يوريبديس يتفق مع رأيه في زواج المرأة حيث يرى أنه لا بد من الزواج المكافئ ، فلا يجب على المرء أن يتطلع للزواج من طبقة أعلى من طبقة أو أقل منها ، حيث يقول على لسان اليكثرا :

(فمثلاً اذا تطلع رجل الى طبقة أعلى من طبقة ، فلن يكون هناك حديث عن الزوج ، ولنا

كما أحدث ثغرة عقلية بين الجنسين ، فاضطر الرجال الى البحث عن المتعة العقلية ، ومن ثم المتعة الجسدية خارج المنزل ، والتي لم يجدها الا بين رفقاتهم في الحياة العامة .

أما رأي أرسطو والمثاليين بأن الاغريق لجأوا الى هذه العلاقة لرغبتهم في تحديد نسلهم لأسباب اقتصادية تتعلق بقصور موارد الثروة في بلادهم ، فهو وإن كان بالرأي الطريف ، الا أنه لا يشكل مبررا قويا لاستثناء مثل هذه الظاهرة .

هذه العلاقة لم يرد ذكرها صراحة في أعمال يورينيس ، كما حدث كثيرا عند اريستوفانيس ، الا أن تصويره للعلاقة القوية التي ربا تعدت الصداقة بين أورينيس وبيلايس ، في العديد من مسرحياته مثل أورينيس ، واليكيرا ، والتي بلغت ذروتها في « أفيجينيا في تاوريس » حيثما يحاول كل منهما التضحية بنفسه حتى ينقذ حياة الآخر ، تعطي مؤشرا الى مدى إعجاب الشاعر بمثل هذه العلاقة .

وبيرنا أحجام يورينيس عن الموضوع في مثل هذه العلاقات وناقشتها في أعماله الى تساؤل حول موقفه من مثل هذه الظاهرة الاجتماعية .

بيدوان يورينيس (وهو الشاعر الذي ناقش العديد من المواطن والملاقات الاجتماعية كالمحب غير المشروع ، والحق والانتقام ، والفيرة ، والعلاقة بين الافراد والطبقات) لم يأت باللائمة على هذه الظاهرة ، ويمكن تفسير هذا بأحد امرين :

لما أنه لم يجد ما يمكن أن يضيفه من جديد حول هذا الوضع الذي استقر كما يبدو ، وأصبح معترفا

عامة ، والأثيني خاصة ، أن يتجاهل العلاقة بين أفراد الجنس الواحد ، أي حب الذكور لبعضهم البعض ، ويحتل التاريخ والاساطير الاغريقية بأسماه المذكور : أخيليس وبائسروكلوس ، أورينيس وبيلايس ، هارميديس وأريستوجيتون ، سولون ويز ستراتوس ، سقراط والكياديس ، وغيرهم كثيرين .

وقتل علاقة الرجل بالفلام ، أو الفلام بفلام مثله عند الاغريق ، جميع مظاهر الحب ، من غيرة ونشوة ، وطول تفكير ، وحزن للفراق ، وسعادة عند اللقاء . واعتقد اليونانيون أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة فهو صداقة وأنبه ، ومشاركة في كافة أوجه الحياة ، وامتزاج عقائلي وروحاني قبل أن يكون اتصالا جسديا .

وكنحاولة لاستشفاف الأسباب الكامنة وراء انتشار مثل هذه الظاهرة لا بد من الرجوع الى تركيب المجتمع الاغريقي عامة ، والأثيني خاصة ، فلا شك أن عزلة النساء وعدم النظر الى اختلاط الجنسين بين الرضاء ، كان من الأسباب التي أدت بالرجال والفتيات الى توجيه عواطفهم نحو بعضهم البعض ، كما أن الحياة التي عاشها الشباب واختلاطهم المستمر واشترائهم في الطعام والألعاب الرياضية في الأسواق الجمنازييم ، والمرعى فيه ، واجتماعهم في الأسواق العامة ، وطبيعة الملابس الخفيفة التي يرتدونها والتي تكشف عن جمال وتناسق أجسامهم ، كل هذا جعلهم يفكرون أولا في جمال الذكر قبل جمال الأنثى ، وقد انعكس هذا حتى على الفن الذي يكشف عن تناسق جسم الذكر وجماله قبل الأنثى .

هذا بالإضافة الى عدم انتشار التعليم بين النساء

يوربيديس والعلاقة بين الطبقات في المجتمع الاثيني :

يقول شيوس في مسرحية « الاجاثات » :
(المواطنون ثلاث طبقات : الاغنياء ، وهم طبقة
لانفع فيها ، فهم دائما يتطلعون للاكثر ، وطبقة
الفقراء والمعدون ، وهي طبقة يخفى منها ، مليشون
بالمسد ، يطلقون سهام شرورهم ضد من يملكون
شيئا، ينساقون مخدوعين ببلاغة زعماء اشراراما
الطبقة الثالثة فهي الوسطى حافظة المدن ، وهي
تمسك النظام الذي اختارته الدولة .)
(Eur., Suppl., 238—245) .

هذا التحديد الدقيق الذي وضعه يوربيديس
للطبقات الرئيسية في مجتمعه الاثيني ، يبرز موقفا
واضحا للشاعر ، ففي رأيه ان الطبقة العليا وهم
الاغنياء ، والطبقة الدنيا وهم للمعدون ، لا فائدة
فيهم ، فالطبقتان على طرفي نقيض ، الاولى مشغولة
بزيادة ثرواتها وتنميتها ، والثانية تحقد عليها وتحاول
اضرارها .

اما الطبقة التي رأى انها هي حافظة المدن
وحامية نظامها فكانت الطبقة المتوسطة . والتي رأى
الشاعر انها من الناحية المثالية تتكون من المزارعين
الشجعان الصرحاء الذين لا يرمون الكذب ولا
الخداع وهم المخلصون ، الى غير ذلك من الاوصاف
التي يخلعها عليهم يوربيديس .

فما هو السبب الذي جعل الشاعر يحسد الطبقة
الوسطى في هؤلاء المزارعين بالتحديد ؟ يبدو ان
السبب الرئيسي في هذا كان موقع هذه الطبقة

به من المجتمع حتى ان الاعتراف لم يكن سبة ، بل
كان البعض يتباهى بكثرة من عشقه من الرجال
كالكيبيديس نفسه .

او ان هذه الظاهرة لم تسترع اهتمامه وتحفزته على
مناقشتها . وهذا يكون موافقا (ضمنيا) او على
الاقل فهو لم يعترض .

والنص الوحيد الذي وصلنا ويشير الى
مثل هذا الوضع وجد عند بلوتارخوس
(Plut., Mor., 177A.) حيث يقول :

(وعندما التقى يوربيديس ذراعيه حول اجاثون
الجميل وقيله ، في وسط المأدبة ، وكان اجاثون اصبح
ملتحيا ، قال اريخيلوس لاصدقائه : لا تتمجبوا ،
فان خريف الجبال هو جميل ايضا) .

ويؤكد هذه العلاقة القصبة المعروفة عن محاولة
اجاثون الانتحار بعد فشله في مسابقات الدراما الا
ان يوربيديس يتولاه برعايته وساعده حتى يصبح
كاتبا مشهورا . وعلى فرض ان يوربيديس قد مارس
مثل هذا النوع من العلاقات (وهو بهذا يقره كوضع
اجتماعي) فان سكوت اريستوفانس عن التشهير به
في هذا الموضع لدليل على انه كان شيئا عاديا ان
تكون لشاعر مشهور مثل هذه العلاقات .

الا ان هذا النص الوحيد لا يكفي لاصدار حكم
مقتع على الشاعر يميله الى مثل هذه العلاقات
وبالتالي اقراره لها كوضع اجتماعي . وهذا يبقى
السؤال حول موقف الشاعر من هذه الظاهرة دون
اجابة حاسمة ، وما يمكن قوله فقط ان يوربيديس لم
يعترض عليها .

للمدينة . او يتصل بالتجمعات في السوق ، انه فلاح متوسط الحال ، واحد من الطبقة التي تكون الدرع الحقيقي لوطنا ، ذكي بماضيه الكفاية يتوق لأن يكافح المصادلات ، شخصيته لا تشوبها شائبة ، وطريقته في الحياة لا تستحق اللوم . (Bur., Orest., 917 — 922) وقبل هذه السطور بحوالي خمسين سطرا يصف يوريبديس شخصية الرسول الذي أتى من الريف ، ورغم كونه فقيرا إلا أنه مخلص لمائة اجاعون ، فيقول مخاطبا اليكترا : (لقد وصلت الآن من الريف ، وكنت أعبر البوابات ، متشوقا كي أعرف ما تقرر بشأنك انت واورستيس ، فقد كنت دائما أمل الى ابني وكان هذا البيت هو الذي اطمني ورباني ، فقير أنا ، هذه حقيقة ، الا انني مخلص في خدمة الاصدقاء .) (Ibid., 866 — 870) .

وفي « اليكترا » يبدو اعجاب يوريبديس واضحا بشخصية الفلاح (الذي زوجه اميخيوس لاليكترا) فقد حافظ الفلاح النبيل على زوجته ذات الاصل الملكي ، ولم يقربها رغا عنها ، فيقول هذا الفلاح (وهو هنا يمثل للطبقة الوسطى) عن علاقته باليكترا :

(ان كبيريس هي شاهديتي على انني دائما ما اخترقت عذريتها ، فهي ما تزال كما لو لم تتزوج غير جدري بما كما أنا ، الا ان الشرف يعني ان اسمي الى ابنة رجل فاضل (Eur., Elect., 43 — 46) وتشهد اليكترا للفلاح الطيب بنبل هذا الموقف فتقول وهي مخاطبة : (فانت لم تسخر مني في مصابي . ومن التادر ان يمد البشر دواء شافيا كهذا يلفظ من جراحهم القاسية ، كما هو شأني عندما وجدت فيك .) (Ibid., 67 — 70) .

كمزارعين يحرصون على السلام الدائم واللازم لمزروعاتهم مما جعلهم يشكلون صام اسان في اجتماعات الشعب ضد من يطالبون بالحرب دائما . واستطرادا لهذا التفسير - وكاجتهاد شخصي - فيبدو ان مسألة الحروب الهلوبيونية هنا تطرح نفسها ، فقد استهدفت اسيرة في هذه الحروب تدمير المحاصيل الزراعية الالينية التي كانت في حاجة دائمة للحبوب ، حيث كان محصول اتيكنا من الحبوب لا يفي الا بثلث حاجة السكان على اكر تقدير ، ومن هنا تبرز قيمة المزارعين كأشخاص يحتاجهم المجتمع الاليني ويعتمد عليهم في توفير جزء من طعامه ، ومن ثم فهم الشرفاء المخلصون للمجتمع ، ويؤكد هذا التفسير ان الاشارات المستمرة لهذه الطبقة تكاد تنحصر في ثلاث مسرحيات هي « اللاجنات واليكترا واورستيس » ، ومع ملاحظة ان تاريخ عرض هذه المسرحيات تنحصر ما بين ٤٢٠ ق . م ، ٤١٣ ق . م ، ٤٠٨ ق . م ، وهي الفترة التي اشتدت فيها حدة الحروب الهلوبيونية ، وكانت اسيرة ماضية في سياستها التي حاولت بها تجميع اثينة ، لأمكن القول ان يوريبديس كتب مؤيدا هذه الطبقة الوسطى من المزارعين حين برزت قيمتهم كمعصر لان المجتمع الاليني في ذلك الوقت .

ويعيد يوريبديس ليؤكد اعجابه وتأنيده للطبقة الوسطى على لسان الرسول في مسرحية « اورستيس » حين يصف المتكلمين في محاكمة اورستيس :

(وهنا نهض شخص آخر ، رجا لم يكن مظهره الخارجي مقبولا ، لكنه رجل شجاع ، نادرا ما يأتي

من يظنهم فطنين خوفا على سلطانه . وهكذا كيف يمكن لمدينة ان تظل قوية حيث يوجد من يقضي على كل مشروع . ويصن الشباب كزهو المراعي في وقت الربيع . وما فائدة اكتساب الثروة والعيش الرغد للأطفال الا لزيادة ثروة الطاغية بجهد الفرد فقط . لماذا تشيء نباتنا العذاري على الفضيلة في منازلنا . السكي ترضى نزوات الطاغية كلما اراد ويسبب الامى لهؤلاء السكين ربهون . (Ibid., 442—454)

ويبدو واضحا موقف الشاعر من نظام الحكم الفردي فهو في رأيه لا يوفر الامن ولا العدالة والمساواة بين المحكومين لانه اساسا يقوم على رأي شخصي واحد فقط .

والبديل الذي يطرحه يوريبديس هنا هو حكم الشعب لنفسه ، حيث يكون للضعيف نفس حقوق القوي وحيث المساواة هي السائدة اي ان شكل الديمقراطية التي فضلها يوريبديس كان الشكل المعتدل غير المتطرف ، حيث لا سيادة للفني على فقير ، او لفقير على غني ، فكما سبق القول كان الشاعر رافضا لسيطرة الطبقة العليا على من هم ادنى وكذلك هو لا يؤيد سيطرة الطبقة الدنيا على زمام الحكم ، وانما الشكل المثالي في رأيه - كما يتضح من مسرحية اللاجئات - هو الشكل المعتدل الذي يشارك فيه كل من الفني والفقير الحكم فيقول على لسان تسيوس :

(ايها السيد القريب ، لقد بدأت خطابك بداية خاطئة ، في البحث عن حاكم مطلق هنا ، لأن هذه المدينة لا يحكمها رجل واحد ، لكنها حرة ، والشعب

وكان من الطبيعي بالنسبة ليوريبديس كشاعر يتخذ موقفا من قضايا مجتمعه المعاصرة ان يكون له رأي في ظاهرة الحكم الفردي المطلق (كأحد نتائج العلاقة بين الطبقات) والتي مر بها المجتمع الاثيني وسبقت الديمقراطية - وان لم يمارسها الشاعر - هذا الرأي لحصه يوريبديس يوضح تام في مسرحيته « هيلين » حين قال على لسانها : (بين البرابرة الكل عبيد .. عدا واحد فقط .) (Eur., Hel., 276) وهو هنا ينفي صفة التحضر عن من يحكمهم حاكم مطلق ، فهم في نظره جميعا عبيد الا حاكمهم . ويعود ثانية في « اللاجئات » ليوضح مضار الحكم المطلق من ان الحاكم فيه لا يتقيد قانون مكتوب ، وانما تتبع احكامه من اهوائه الشخصية وبهذا ينتفي العدل والمساواة ، فيقول : (ليس اعنى للمدينة من حاكم مطلق حيث انه في المقام الاول لن توجد قوانين عامة للجميع لكن رجلا واحدا هو المستبد ، لأنه في يديه وعنده فقط يحفظ القانون ، وفي هذه الحالة فالمساواة تنتهي . لكن عندما تكتب القوانين للفقير والفني على حد سواء سينعمون بعدالة متساوية ويكون مسموحا للضعيف ان يستعمل نفس الاسلوب تجاه المحظوظين ، عندما يظلم بواسطتهم ، ويتنصر الضعيف على القوي ، اذا كان الحق في جانيه .) (Eur., Suppl., 428—437)

ويعود يوريبديس ليقول بعد بضعة اسطر على لسان تسيوس ايضا : (وحيثا كان الشعب هو الحاكم المطلق في ارضه فهو يتهيج في الحفاظ على مواظبه من الشباب ، بينما الحاكم للمستبد بالملك يعتبر هذا عنصرا معاديا ويرغب دائما في القضاء على زعماء الرجال وكل

الطغيان ، وكيف ان « ربات الانتقام » كانت تعظيما وتكريما لمجلس الارويوباجوس في نفس الوقت الذي كان فيه بركليس وأخيليتس يحددان اغلب سلطات هذا المجلس ، ولسم يكن ايسخولوس معارضا لبركليز - الذي كان خوريجيوس له على الاقل مرة واحدة - وانما كان من جيل رجال ٤٩٠ ق . م الذين اعتبروا ان الارويوباجوس هو تجسيد لكفاح اثينا الحرة ضد بلاد فارس ، يبيل كان هذا المجلس لا يعني شيئا لمن جاءوا بعد هذا التاريخ .

الا ان موقف يورديدس من الديمقراطية المعتدلة التي طالب بها في اعماله ، لم يكن تأييدا مطلقا على طول الخط ، فقد كان واعيا لبعض عيوب هذا النظام ومنها ظهور طائفة الدياجوجيين وصعوبة الخطابة لاثارة مشاعر الجماهير والذين لا يهتمون بالصالح العام قدر اهتمامهم بمصالحهم الشخصية ، فهاجهم الشاعر هجوما مرا وندبهم في العديد من اعماله مؤكدا على خطورة هذه الفئة التي قد تستغل النظام الديمقراطي وحرية التعبير عن الرأي في الوصول بالامة الى حافة الهاوية .

تقول هيكايبى مخاطبة اوديسيوس ، وان كان الحديث يبدو موجها مباشرا الى الدياجوجيين :

(اينها السلالة الجاحدة ، يا من تطمحون الى المجد بتملق الفوغاه ، ليتني لم اعرفكم ، يا من تؤذون اصديقاتكم دون اي اعتبار ، وتتحدثون بأي شيء من اجل كسب رضى الفوغاه) .

(Bur., Hec., 254 — 257) ثم تعود ثانية لتقول وهي مخاطبة ايجامنون : ، وان كان الحديث هنا ايضا يبدو موجها لنفس طائفة الخطباء بـ .

يحكم بالتعاقب عاما بعد عام ، ولا تفضيل للثروة ، لكن الفقير يشترك بالتساوي مع الغني في الحكم . (Ibid., 408 — 403) وهو يؤكد على ضرورة اشراك الشعب في تصريف اموره فيقول ايضا في « اللاجنات » على لسان ثيسوس :

(ولكني سأطلب موافقة المدينة باجمعها ، والتي ستصدق على رغبتي ، فبالشاور في الامور مهم سأجد الشعب هو الحاكم الافضل .) (Ibid., 351 — 349) ويبدنا هذا الموقف فورا الى

« لاجنات » ايسخولوس حيث نجد فيها بيلاسجوس ملك ارجوس يخاطب جوقة اللاجنات قائلا : (هذا ليس أمراً خاصاً بي فاذا حدث بعض الضرر العام ، كان على الشعب باجمعه ان يجد الدواء ، ليس لي ان اعد شيء ، قيسل ان اتشاور مع كل الرجال الاحرار .) (Aeschyl., Suppl., 365 Sq.) وبعدها بثانية عشر عاما في « الفرس » تسأل الملكة الفارسية اتوسا : (من السيد الذي يرمى جيشهم ويتولى اموره ؟) فيأتي الرد سريعا موجها الى النظارة في المسرح على سفح الاكروبوليس :

(انهم لا ولم يكونوا عبيدا او تابعين لأحد .

(Aeschyl., Pers., 241 — 242) وبهذا لا يكون يورديدس اول الشعراء الذين نادوا بحكم الشعب لنفسه فقد سبقه الى ذلك ايسخولوس ، الا ان ايسخولوس كان ديوقراطيا متعصبا من الطراز القديم ، فلننتقل الى تشيد النصر في « الفرس » السذي يتبنى بالمصرية ، وكيف ان الملك في « اللاجنات » كان صورة وان كانت غير كاملة للدستور والقانون ، وكيف ان بروثيوس وقف ضد

المعيد :

تقول الموقفة في « هيكابي » :

(ويحيى .. كم أن طبيعة المعبودية لعينة ، وكم يتحمل المهزوم بقسوة السلام من مهانة) .
(Eur., Hec., 332 — 333) وفي « أيون » يقول الحاددم المعجوز :

(هناك شيء واحد فقط هو الذي يجلب العار للعبد) اسمه ، وفيها عدا كل هذا ، فلا يوجد عبد مستقيم أسوأ من رجل ذي مولد حر .
(Eur., Ion, 854 — 856)

للحيلة الأولى يبدو الشاعر هنا مناهضاً للمعبودية عالمياً بمساوئها ، إلا أن هذا الانطباع لا يستقيم مع نظرة الشاعر للمعيد ، (مثله كمثل كل الأتانيين المعاصرين) على أنهم ضرورة لازمة ، حيث يقول في إحدى الشذرات :

(أن حرية السيد هي في أن يكون عبداً) .

ثم يعود ليعدد مساوئهم في قصاصات أخرى فهم :

« تسوقهم بطونهم ، تتلفهم النعمة ، غير جديرين بالثقة » .

هذا التناقض الظاهري في آراء الشاعر يقودنا إلى التساؤل حول الموقف الذي اتخذه من فكرة المعبودية والأوضاع الاجتماعية للمعيد .

يبدو أن هذا التناقض يعود إلى الانطباع الذي توحى به الأساطير الأولى حول « المعبودية اللعينة » و

(لا تستطيع أبداً أن تهز المظالم بكلمات مرسولة ، ذلك لأن هناك من الحاذقين من اتقوا هذا الفن ، ولكنهم لا يستطيعون أن يفلحوا في دهائهم حتى النهاية ، وإنما ينتهون نهاية محزنة ، وما نفذ أحدهم أبداً) . (Ibid., 1191 — 1194)
ويصدق الرسول على هذا المعنى في « اللاجنات » حين يقول مخاطباً نسيوس :

(ليس عندنا هناك من يفر بالمواطنين بكلمات مرسولة ، ولغرض شخصي يورجهم بين هذا الطريق أو ذاك ، ولفترة يكون عزيزاً عليهم ، مسرفاً في عطائه ، وفي لحظة ثانية يكون كارهة عليهم ، إلا أنه بورشاية حديثة وطن في الآخرين ، يخفي فضله الأول ويهرب من العقاب . يمكن كيف يمكن للشعب إذا كان من غير الممكن تكوين حكم صائب ، أن يكون قساراً على توجيهه اللعينة بجداراة ؟) .
(Eur., Suppi., 412 — 418) وإذا تفاضينا عن هجوم يوربيديس الواضح على الدياجوجيين الذين يستغلون مقدراتهم الخطابية لصالحهم أولاً وكراهيتهم لهم ، لوجدنا أن الاتقياسات السابقة كلها تحمل نقداً داخلياً لمواطنيه الاتيين لمجاراتهم هؤلاء الخطباء ، ودعوة لهم بعدم الاعتداد بهم ، فكيف يمكن للدولة أن تستقيم إذا لم تكن مستقرة على رأي محمود ؟

ولم يكن يوربيديس الوحيد الذي تنبه إلى هذا فقد سخر أريستوفانيس بطريقته من مواطنيه الاتيين الذين يتقادون للخطباء فأساهم — Khauno أي الذين يصدقون كل ما يقال أمامهم بأفواه مفتوحة كالبلهاء .
(Aristoph., Ach., 636)

المنزلية ، فقاموا بالطهي والتسبيح وتربية الأطفال وخدمة السيدات المرفهات كوصيفات ، وغير ذلك من متطلبات المنزل . أما في الصناعة فقد استخدم العبيد بكثرة تمويضا عن عدم وجود آلات تقود مقام الانسان ، فعملوا في البناء ، وكان منهم الفنيون الذين ساعدوا في بناء الأرخبثيون ، ومنهم من عمل في حوانيت ومصانع يدوية كصانعي الملابس والأحذية والفخار والأدوات المعدنية والاسلحة وغيرها .

وكان من الاتيين من يملك عددا كبيرا من هؤلاء العبيد يؤجرهم لأصحاب الاعمال وينتفع هو بأجرهم . ومن هؤلاء العبيد من يريح في عمله وبنى ثروة طائلة . وكان من الممكن دائما أن يحصل العبيد على حريته لقاء مبلغ معين من المال ، أو مقابل خدمة جليلة أداها لسيده ، أو لبراعته في عمل معين ، وفي كل الأحوال يعتمد هذا على رضا السيد على عبده وموافقته على تحريره .

أما من كانوا طبقة من العبيد ، وهم من لم يبرعوا في أي حرفة من الحرف ، فقد كانوا يرسلون إلى العمل في مناجم الفضة في لاوريون .

وكانت نظرة اليونانيين للرق تختلف عن وجهة نظرنا الحديثة ، فالرق عندهم شيء طبيعي نشأوا على وجوده بينهم ، وأصبح جزءا من نظام حياتهم ولم يعتبر اليونانيون امتلاك العبيد واستغلاله جرما أخلاقيا ، إلا أن التصاق اليوناني صاحب العمل بعبده ، والذي يختلف عن صاحب العمل الحديث المنفصل عن عماله ، جعل مشاعر هذا اليوناني ترقى بالتدرج للعبد . فرأى اليونانيون أن العبودية هي سوء حظ للعبد ، لكنهم لم يتعدوا هذه المرحلة ، فكان

« العار الذي يجلبه اسم العبد » من أن الشاعر كان داعية إلى إلغاء الرق ، إلا أن هذه السطور لا تكفي لترجيح مثل هذا الافتراض المستبعد بسبب طبيعة نظرة الاتيين ومنهم يوربيديس للرق ، وهو ما سنتطرق له ، فكان أقصى مادعا إليه الشاعر هو النظر للعبد على أنه انسان ذو خلق سيء .

وفي البداية يتورسأول منطقي هو : من أين أتى هؤلاء العبيد إلى أثينة ؟

تكاد مصادر العبيد أن تنحصر في ثلاثة مصادر هي الحرب ، الوليد ، والاحكام القضائية . وكان العبيد الذين فقدوا حريتهم نتيجة لهزيمتهم في الحرب ، وعدم مقدرتهم بعد على اقتداء أنفسهم يشكلون القسم الأعظم من مجموع عبيد أثينة ، حتى أن كيمون بعد حملة يوربيديون باع في الأسواق ما يزيد عن عشرين ألف أسير .

أما من ولدوا في منزل « السيد » على أنهم عبيد فقد كانوا قلة تماثل في قلتها من فقدوا حريتهم عن طريق حكم قضائي أو جرم بشع .

وقد تضاربت الآراء في تحديد عدد العبيد في أثينة ، إلا أن الكل أجمع على أن العدد كان كبيرا جدا بالنسبة لعدد المواطنين ، ولأن استخدام العبيد كان يتم على نطاق واسع في الاعمال المنزلية والصناعات المختلفة أكثر منه في الزراعة ، لذا فقد ارتفع عدد العبيد في المدن كاثينة حيث تشكل التجارة والصناعة جانبا هاما في الحياة الاقتصادية عنه في المناطق الزراعية كأركاديا ومثلا أجزاء من بيوتيا .

واستخدم العبيد أمهاسا في أثينة في الاعمال

وأفراحهم ، وقد يكون انسانا طيبا أيضا يفرح لفرح سادته ويحزن لحزنهم ، ففي « ميديا » تقول المربية لمارس أطفال جاسون :

(أيها الرجل المعجوز ، راعي أطفال جاسون عندما يسوء مصير سادتنا ، يحزن المبيد الطيبون ويس هذا قلوبهم) (Eur., Med., 53—55) ويعود يوريديس ليؤكد هذا على لسان الرسول في « هيلين » حين يخاطب ميلاوس قائلا :

(انه لحامد بئس ، هذا الذي لا يتم بمشاغل سيده ، ولا يتعاطف مع أحزانه وأفراحه ، فبرغم أنني ولدت عبدا الا أنني أضع نفسي في عداد الخدم الأمناء ، لأتفي في قلبي حر ، رغم أن اسمي ليس كذلك .) (Eur., Hel., 726—731) واستمرارا من الشاعر في تأكيد العلاقة القوية والعاطفة المتبادلة التي تربط العبد بسيده يرد ميلاوس في « هيلين » أيضا على الرسول قائلا :

(تعال أيها الصديق القديم ، لقد وقفت الى جانبي ، وأخذت نصيبك كاملا من العمل الشاق ، فتعال الآن ولكن شريكي في سعادتي .)

(Eur., Hel., 734 — 736)

وفي « الكستيس » يشير يوريديس الى اخلاص المبيد المحزونين لفقد سيدهم على لسان الوصيعة التي تقول :

(وأخذ كل الخدم في المنزل ليكون ، آسفين من أجل سيدهم ، لكنها مدت يدها لكل منهم ، ولم يكن هناك أحد وضع ، فكلهم تلقى اجابتهم .)

(Eur., Alcest., 192 — 195)

أقصى ما فعلوه هو المعاملة اللينة للعبد ، فكان المبيد ياملون في أئينة مثلا معاملة حسنة نوعا ما ، وكان أقصى ما يتبره للمسي مثل هيكابي واندروماخي واغيجينا ، وهن النساء الأحرار اللواتي تحولن الى عبيد ، هو الشفقة والحزن والخوف من مثل هذا المصير ، الا أنها لم تمتد ذلك الى استهجان أو نقد لنظام الرق .

لكن هذه المعاملة من المواطنين الاثنيين لمبيدهم لم تكن منزعة عن الفرض ، فلا يمكن القول أن السبب في ذلك هو المشاعر الانسانية المجردة ، فإذا تجهد هذه المشاعر حين يعامل المواطن عبده الكسول الذي لا نفع فيه ؟

وفي الغالب كان السبب اقتصاديا ، فقد كانت أئينة بهاجرة مستمرة للمال ، وكما قالها كسنوفون بصراحة : كان المبيدهم منتجي الثروة الذين لن ينتجوا الا اذا عملوا معاملة حسنة .

وهكذا فقد كان الواقع الاجتماعي يقول بمعاملة العبد على أنه « شيء » منتج شبيه بالآلة . وهو ما لم يكن يتوافق مع نظرة يوريديس الانسانية ، فنلدى الشاعر بتحسين الوضع الاجتماعي للمبيد من منطق أنهم بشر لا يختلفون عن الأحرار في شيء الا في الاسم ، وفي هذا اختلف يوريديس مع مواطنيه الاثنيين الذين عاملوا عبيدهم ببعض العطف ، ولكن من منطق آخر هو المحافظة على آلائهم للنتيجة للثروة .

ولذا كان يوريديس يؤكد دائما على أن العبد هو قبل كل شيء انسان يحمل عواطف البشر وآلامهم

الصفات التي يبدو أن يوريبديس قصد بها التأكيد على آدمية العميد وعدم تواجده أى فروق بين الرجل الحر والعميد ، فكلاهما بشر يحمل عاطفته وصفاته ولا يفترقون الا في الاسم .

الا أن هذا لا يعنى مطلقا أن الشاعر قد فكر في الدعوة لانغاء الرق ، فلم يرد ذكر هذا أبداً في أعماله الموجودة ، وإنما كان هدفه الواضح هو تحسين الوضع الاجتماعي للعميد عن طريق تغيير نظرة معاصريه من الاثينيين لهم . فالأثيني كان ينظر للعميد على أنه شيء ، بينما طالبيه يوريبديس أن ينظر للعميد على أنه شيء ، بينما طالبيه يوريبديس أن ينظر اليه على أنه بشر ، حتى يحسن معاملته ، من منطلق النظرية الانسانية له وليس من المحافظة على الآلات المنتجة للثروة كما قال كستوفون تبلا .

يوريبديس وقضية الحرب والسلام :

كانت أبرز صفات التاريخ القديم للاغريق هي روح الانتمالية لدى كل مدينة ، وانفتحت المبالغ فيه . وربما ساهمت الطبيعة الجغرافية لبلاد الاغريق في اقامة خطوط طبيعية فاصلة بين الناس . الا أن هذه الفواصل الطبيعية لم توجد بين طيبة وبلاطيا ، بين أرجوس واسبرطة ، ورغم هذا كانت العزلة قائمة . لاشك أن للظروف الطبيعية أثر كبير في حياة الشعوب ، الا أن عقائد الانسان لها دور فعال أيضا ، فقد كان بين أي مدينتين شيء أثّر من الجبل أو النهر ، هو اختلاف العبادات ، هذا الماحز الذي أفاوته بين الاجنبي وأهلها فكانت تحرم على الاجنبي أن يدخل معابدها ، بل وأحيانا كانت تفرض على معبدياتها كراهية الاجنبي .

ويعود يوريبديس في « افيجينيا في أوليس » ليؤكد ثانية على اخلاص العميد وشجاعتهم وثقاتهم في خدمة سادتهم ، حيث حاول متيلاوس الحصول على رسالة أجاممنون التي بحث بها الى زوجته يثنيها عن الحضور معها ابنها وحلها عبده ، الا أن العميد يقام متيلاوس في شجاعة تبلغ قمته حين يقول :

(انه لمن المجد أن أموت في سبيل قضية سيدي .)

(Eur., Iph. Aul., 312)

وفي نفس الاتجاه يصور يوريبديس في « هليين » جوقة العميد التي تقتدى سيدتها فتقدم نفسها للموت بدلا منها قائلة :

(الموت من أجل سادتهم ؛ هو أفضل موت يستطيع العميد الفضلاء أن يجهز .)

(Eur., Hei., 1640 — 1641)

ولم يتردد يوريبديس في أن يجعل العميد في مسرحياته يتحدثون بالناطق ، ينصحبون ، يقدمون الاقتراحات ، يل وفلسفون الأمور .

وهكذا استخدم الشاعر كافة وسائله الدرامية كي تصور طبقة العميد بصورة مشرفة ، فأصبح عليهم صفات الشجاعة والاخلاص والفرسان بالجميل والحكمة والتعاطف مع سادتهم ، الى غير هذا من

سيراكوز. فقد كتب تشبهاً للنصر عندما انتصر الكيبديس في سباق للفرجات ، وكتب مربية للذين سقطوا قتل في حملة سيراكوز ، كما أنه كتب « الطرواديات » ليحث مواطنيه على الحرب ضد سيراكوز عن طريق استعادة أجداد انتصارات الاغريق في طروادة .

(J.W. Donaldsen, Theatre of the Greeks, p. 138)

هذا الرأي معرض للنقد من عدة جوانب ، فكتابة يوريبديس تشبهاً للنصر لالكيبديس لا يعنى بالضرورة تسمية الشاعر للزعيم الحربي ، بالإضافة الى أن تاريخ هذا التشديد يعود الى فترة متقدمة ، وربما غير يوريبديس رأيه فيما بعد في الزعيم الحربي ، كما أن مربية قتل سيراكوز لا تعني أيضاً رضاه الشاعر عن هذه الحملة ، بالإضافة الى أن العديد من الكتب التي صدرت بعد كتاب « دونالدسون » تتسبب مسرحية الطرواديات الى الفترة اللاحقة مباشرة لمذهبة « ميلوس » وتربطها بها كنتيجة مباشرة لها .

وبالمقابل نجد ناقداً آخر هو « هيج » ينفي تماماً عن يوريبديس تهمة مشايعة الحرب والزعماء الحربيين لأسباب تتفق معه في العديد منها ، وستوردها فيما يلي :

(A.E. Haigh, Tragic Drama of the Greeks, pp. 275 — 277)

وبين الرأي والرأي المضاد ، يكون الحكم لدينا دائماً هو أقوال يوريبديس نفسه والتي أوردتها في ثانياً

ولم يفكر الاغريق أنه في استطاعة عدة بلدان أن تتحدونيش على قدم المساواة تحت حكومة واحدة ، كان من الجائز أن يوجد حلف بين مدينتين (أى اشتراك مؤقت من أجل مصلحة ما) لكن لم يكن هناك اتحاد كامل . وعندما ضعفت هذه العقائد بمرور الزمن (يعنى لم تضعف في نحن العامة الا بعد زمن طويل) كانت كل مدينة قد أصبحت شديدة التمسك باستقلالها الذاتي ، وكان من السهل على مدينة ما أن تخضع مدينة أخرى ، وفي هذه الحالة إما أن يدمر المنتصر مدينة المهزوم او يستعبد أهلها أو يحتل أرضها . أما فكرة ائلاج مدينتين في دولة واحدة ، أى ضم المهزوم الى المنتصر ، فقد كانت أمراً نادر الحدوث .

هذه العلاقة بين الكل (أى المدن المتنافسة - فهي في مجموعها تتكون من أفراد) أدت الى عديد من الممارك الفرعية الصغرى ، والتي أدت بدورها الى الحدث الاكبر الذي شهده النصف الأخير من القرن الخامس ق . م ، وتعنى به الحروب البوليونيسية ، ولن نتحدث هنا عن أسباب هذه الحروب ، إلا أن هذا الحدث كان من الضخامة بحيث كان على كل مفكر أو ناقد أو أديب معاصر له أن يلقى برأى له سواء كان معارضاً أو مشايحاً .

وفي هذا الصدد سنحاول تحليل موقف يوريبديس من هذه الحروب خاصة - وفكرة الحرب بصفة عامة ومدى اقترابه أو ابتعاده عنها .

يرى بعض النقاد أن يوريبديس كان من دعاة الحرب ومن مؤيدي الزعيم الكيبديس وحملة

للوهلة الاولى يبدو يوربيديس هنا من دعاة الحرب، لكن المتأمل لهذه السطور في ضوء الظروف التي كتبت فيها هذه المسرحية قد يخرج بمفهوم آخر . فترجع « أبناء هيراكليس » الى بداية الحرب البيلوبونيسية ، ومع ملاحظة أننا لا يمكن أن نتفى عن يوربيديس تعصبه لأثينة ضد اسبرطة ، فيمكن القول بأنها كانت محاولة من الشاعر لتبرير هذه الحرب - ولم يكن قد أحس بعد بمدى فداحة الخسائر التي يمكن أن تسببها هذه الحرب - فوطنه أثينة هنا حصن للمدائيلاد للمظلوين واللاجئين ومواطنو الأثينيين لا يلجأون للحرب الا لاقرار العدالة ، فهم قد حاربوا في « أبناء هيراكليس » لنصرة اللاجئين المظلوين وكذلك في « اللاجنات » حاربوا من أجل احترام القانون الملهيني القاضي بفن الموتى . لكنه في نفس الوقت يفضل السلام على الحرب ، ويهاجم من يرتزقون من وراء الحرب ويبحثون عن زعامة أو مال دون النظر لصالح مجتمهم . فيقول في « اللاجنات » على لسان ثسيوس مؤكدا موقفه من السلام وكراهيته للحرب والمحاربين :

(لقد قتلت أهل أرجيس كلهم للحرب ، رغم إعلان المرافين لازادة السماء ، فلم تعبأ بالآله يدمرت المدينة ، مدفوعا بالتسباب الذين يشنون مكانة متميزة ، ويشنون حربا بعد حرب دون وجه حق ، مدمرين بنى وطنهم .
واحد يرغب في قيادة الجيش ، والآخر في القوة ليعطي ارادته ، وآخر في الثروة .

أعماله بطريقة مباشرة أو عن طريق موقف درامى معين : يقول يوربيديس في « اللاجنات » على لسان ادراستوس :

(أيها البشر النساء ، لماذا تستعملون أسلحتكم لقتل بعضكم البعض ، كفوا عن هذا ، واستريحوا من شغائكم ، واحفظوا مدنكم عن طريق السلام ، ان أمد الحياة قصير ، وهذا فمن الأفضل أن نحياها في يسر ، كما يجب أن لا نحملها .)

(Eur., Suppl., 949 — 954)

والدعوة للسلام وبذ الحرب هنا واضحة صريحة لا تحتاج الى تعليق ، ورغم أن يوربيديس قد اتخذ من أسطورة « السبعة ضد طيبة » مادة لمسرحيته الا أن السطور السابقة تعطي احساسا ربما كان أكيدا بأن المقصود هنا هو الحرب البيلوبونيسية ، ويدعم هذا أن تاريخ المسرحية يعود الى حوالى ٤٢٠ ق.م . أى بعد أكثر من عشرة أعوام من نشوب الحرب .

لكن الكورس في مسرحيته « أبناء هيراكليس » (وهو عند يوربيديس هنا يتحدث بلسان مواطنيه الأثينيين) يقول :

(اننى أحب السلام ، لكننى أقول لك أيها السيد الزرير ، برغم أنك قد جئت مدينتنا ، فلن تستطيع الحصول على ما تتوقعه . انت لست الوحيد الذى يحمل ربحا أو دغا مصفعا بالنحاس .

كلا أيها المتطلع للحرب ، أحذرك أن لا تجلب مصائب الحرب الى مديننا الجميلة . فأكبح جماع نفسك .)

(Eur., Herac., 371 — 380)

(حوالى ٤٢٥ ق م) التى كتبها بعد عامين من القرار الخاص بتدمير متلينى ثم ألقى ، يمكن القول أنها تصور ما كان من الممكن أن يحدث لو نفذ هذا القرار ، قال العمل بأكمله يصور مدى الدمار الذى يلحق بالبشر من جراء الحروب ، فهيكاس الملكة تتوالى عليها واحدة بعد الأخرى ، من الأسر ودمار مدينتها ومقتل زوجها وأبنائها ، الى اغتيال ابنها بوليد وروس ثم التضحية بابنتها « بولكسينا » .

ويسيطر اعل العمل بأكمله الاحساس بالرتاء هؤلاء المنكوبين واستبشاح ما حدث لهم بغير ذنب جنوه الا الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة . ولا يخفى يورديديس اعجابه بهم ، وخاصة بشجاعة « بولكسينا » التى تنهب للموت في قوة وعظمة يروها الرسول « تالفوبيوس » في أروبة وستين بيتا ساحرا من الشعر ، يجعل أى مشاهد أوقارىه يتعاطف تماما مع بولكينا والطروايديين .

(Eur., Hec., 518 — 582)

هذا الرأي وإن كان ضمئيا يمكن استخلاصه من ثانيا العمل نفسه ، الا ان يورديديس يصرح به تماما بعد عشر سنوات في مسرحيته « الطروايدات » (٤١٥ ق م) ، والتي كتبها بعد عامين من مذبحة ميلوس اقتناعا منه — كما يتضح من العمل ككل — بعدم عدالة ما حدث . هذا الاقتناع الذى ظهر واضحا ايضا عند توكيديديس في الحوار الشهير بين اهالي ميلوس والسفراء الاثينيين ، وهو الحوار الذى اعتمد فيه السفراء الاثينيون على منطق القوة التى تبيح لصاحبها كل شيء .

لا يهبون بأى ضر يقاسيه الناس .)

(Eur., Suppl., 229 — 247)

هذه السطور تبرز وعى يورديديس بمسببات الحروب وأهدافها ، فبرغم كل الأهداف المقدسة للحرب التى يعلنها القادة العسكريون ، الا أنه دائما ما تخفى في الظل أهداف أخرى ربما كانت هي المحرك الاول للحرب ، كالطمع في السلطة أو القوة أو المال . واستمررا لهذا الاتجاه يقول « المنادى » في « اللاجئات » أيضا :

(عندما تصوت مدينة على الحرب ، فإن أى رجل لا يأخذ في اعتباره موته هو ، وإنما يمرر هذه الكوارث الى جيرانه ، لكن لو كان الموت مائلا أمام أعينهم وهم يصوتون على الحروب ، ما اندفعت بلاد اليونان الى مصيرها في رغبة محمومة للقتال . وكل رجل يبتنا يعلم أن الاثيني يفضل الخير أو الشر ، وكم هو السلام أفضل للبشر من الحرب ، السلام هو أصدق أصدقاء ربات الموسيقى والفنون ، لا يتفق مع الأسمى ، والذي تتمثل سعادته في نسل سعيد من الاطفال ، والاستمتاع بالرخاء هذه هي المزايا التي نقدفها بعيدا عنا اذا نحن اشتغلنا بالحرب بشر ، حين يستمد الرجل أخاه الأضعف منه ، ويخونو المدن حولهم .)

(Ibid., 481 — 493)

واستمررا من يورديديس في نفس الاتجاه الذى يجرم الحرب غير العادلة نجد أن عمليين من أعماله مكرسين لهذا الغرض ، فمسرحية « هيكابى »

سياسية ألا أننا لا يمكن أن نفرغها من مضمونها الاجتماعي، فهي أساسا صراع بين أنظمة اجتماعية مختلفة لجأت لها للتعبير عن عدم توافقها. فلم يشجع الشاعر الحروب غير العادلة وأبرز كراهيته للزعماء الحريين الذين اعتقد أن كل مهم في الحرب هو إقامة نصب تذكاري للنصر غير مبالغين بارواح الآف البشر التي تذهب سدى. إلا أنه لم يطالب بالسلام بأي ثمن فقد احتقر من هربوا من ساحة القتال العادل، وكرم من ماتوا إبطالا فمع القضية العادلة - في رأيه - يصبح الموت شرفا لا يبدله أي شرف.

يوربديس والقيم الدينية في المجتمع الاثيني :

(يوربديس .. هو الشاعر التراجيدي الذي يعرض الناس قائلا : أنه لا وجود للألهة .) .
(Aristoph., Thesmoph., 450—451)
هكذا يحكم أرسنوفانيس (على لسان امرأة من « المحفلات بعيد الشموفوريا » على يوربديس بأنه الشاعر الذي يعرض الناس على الكفر بالآلهة .

وفي الحديث عن الموقف الفكري للشاعر من المعتقدات الدينية السائدة في عصره ، (والمكمل لفكره الاجتماعي) يحسن التعامل معه بحذر خشية الوقوع في الخطأ المعروف ، وهو تحميل آراء الشاعر أكثر مما تحتمل ، كما حدث عند مناقشة عقلانية يوربديس . فلم يكن يوربديس واضحا تماما فيما يتعلق بالدين ، فالروح السائدة في أعماله هي روح التحرر من الأفكار التقليدية ، لكنها أيضا روح البحث والتأمل . ففي إحدى الفقرات الباقية من

فيقول يوربديس على لسان « كاسندرا » أن الحكمة تقضي بتجنب الحروب ، لكن إذا اضطر المرء فالغفر في أن يموت في سبيل وطنه :
(من كان حكيما ، يجب عليه تجنب غرض الحروب لكن إذا كان لا مفر منها ، فإن الموت بشجاعة يتبرج المدينة بالطمعة والفخر ، أما الموت بجبن فيجلبها بالعار .) (Bur., Troad., 400 — 402)
والجو المسيطر على المسرحية هنا أيضا هو الحزن والرتاء لمصائب هؤلاء الطروديين الذين دمرت مدينتهم واستبعدوا لا لسبب إلا لدفاعهم عن وطنهم .

من كل ما سبق يتضح ميل يوربديس للسلام وكراهيته للحروب غير العادلة ، والزعماء الحريين وأن كان لا ينكر أنه من الفخر للمواطن أن يموت في سبيل وطنه ، إذا حارب لأجل قضية عادلة .

وليس ادل على ذلك من بيت الشعر الذي اقتبسه بلوتارخوس عنه من نسريته المفقودة أريثيوس Brechtheus ، والذي يقول فيه :
(دع حربي ترقد بدون استعمال ... حتى تنطليها الناكب بغيرها .)

(Plut., Vitae, Nic., IX. Sand Note)
(Frederik Poulsen, Delphi, p.211) .

وهكذا ففي مجال العلاقة بين المدن التي تكونت من مجموعة من الطبقات والتي تألفت بدورها من الافراد ، كان يوربديس قد اتخذ موقفا فكريا محددًا من ظاهرة اجتماعية عانى منها المجتمع الاثيني بشدة في عصر الشاعر ونحي بها الحروب . (فبرغم أن الحروب - بصفة عامة - تبدو كما لو كانت ظاهرة

« ايون » في المسرحية المسماة بنفس الاسم ، كيف ان الآلهة التي وضعت للبشر قوانينهم ومثلهم ، هي اول من يفرقها ، فكيف يمكن لهم اذن ان يعاقبوا انسانا على خطيئة ارتكبتها تشبها بهم :

(يجب ان احذر ابوللون ، عما يحدث له .. ، فقد اغتصب عذراء ، وبرهن على عدم اخلاصه لها ، فبعد ان اتجبت اثنا سرا ، تركه للموت ، اوه فوريوس ، لا تكن كذلك .

لأنك قوي . كن عادلا . فما من البشر الفانسين أخطأ ، الا وعاقبه الآلهة .

كيف يمكن اذن أن يكون عدلا ، أن تمن أنت قوانينك للبشر ، ثم تكون أنت نفس الذي تفرقها ؟

وسأضح هذه القضية الآن ... يرغم أنها لن تحدث أبدا ... اذا أنت أو يوسيدون ، أو زيوس سيد السماء ، دفعتم للبشر كفارة عن كل شهوة غير قانونية ، ستصبح معابدك خاوية ... اذا دفعت غرامات عن أعمالك غير الشرعية . !!!

فنعلمنا تتبع لذاتك مفضلا اياها على الحكمة ، تصبح غير عادل . وهكذا يصبح أيضا من غير العدل ، أن ندعو البشر أشرارا . عندما نحاكم الأفعال الشريرة للآلهة ، بل الأشرارهم من أعطونا مثل هذا المثال . (Eur., Ion, 436 — 451) وفي « هيراكليس مجنون » يقول هيراكليس نفسه :

(أنا لا أصدق أن الآلهة تنفسم في رغبات غير مقدسة أما القصص عن الآلهة ذات الأيدي المصفدة ، فدائما ما احترقوا ، ولن أعتقد فيها أبدا ،

مسرحيته المفقودة » بيللرون » نسمع صرخة مدوية لواحد من يتعرضون للذاب :

(هل يدعي أحد أن هناك إلها في السماء .. ؟

لا ... ليس هناك أحد ... !!)

(Frg. 286, apud Murray, Eur., and his age, pp. 190 — 192) فتأتي الاجابة في صورة صاعقة قاتلة يرسلها زيوس على السائل . (Ibid., Frg. 311.) (لكن ينبغي هنا ان نحاول وضع حد فاصل لما يمكن ان يقال عنه رأي شخصي للكاتب اوردته على لسان احدى شخصياته الدرامية ، وبين الشخصية التي تنطق برأي معين نتيجة لتواجدها في ظروف وازواض املت عليها هذا الرأي .

وعلى هذا فلا يمكن الجزم بأن النداء السابق هو رأي شخصي ليوريديس ، فمن المحتمل ان يكون رد فعل لذاب قاس تعرضت له احدى الشخصيات في المسرحية نجم عنه ان تفجرت بمثل هذا الكلام .)

من المحتمل ان يوريديس لم يكن متعاطفا بالقدر الكافي مع الديانة التقليدية التي سادت مجتمعه ، الا انه من السابق لأوانه ان يتحول هذا القول الى اتهام للشاعر بالاحاد ، فقد تعجب الشاعر كيف يمكن للبشر ان يثقوا في آلهة كانت القصص التي اعلت وجودهم هي نفسها التي نسبت اليهم العديد من الجرائم والنزوات التي لم يرتكها البشر . فيقول اوريستيس في « البكترا » :

(يجب ان تتوقف عن الاعتقاد في الآلهة ، اذا ما انتصر الباطل على الحق) . (Eur., Elect., 583 — 584) وتعجب

القوى العليا أو الآلهة ، من الافكار القديمة حول الآلهة الهومرية بكل ما تحمل من صفات تكاد تنزل بها دون مستوى البشر العاديين .

فلم يعد مجلس الاريوباجوس الآن ينظر كل الدعاوى القضائية التي تدور حول هجوم ما على الدين . ويعني هذا أن الطريق امام منتقدي الديانة القديمة أصبح ممهدا دون خطر على حياتهم .

ولا يتعارض هذا مع حادثة اعدام سقراط ، إذ أن سقراط لم يهاجم الآلهة علنا ، ولكنه أعلم لتدريسه « تصاليم جديدة » مع ما في هذا من خطر على الديماجوجيين الذين يخشون فكرة المعرفة واحترام الدستور ، ويرغب هذا فان اعدامه لا يعني بالضرورة تمسك الاتيين بالقديم ، فقد كان اريستوفانيس الذي قاد الهجوم الشرس ضد يوريديس وسقراط واتهمها بالالحاد ، من أكبر الساخرين بالآلهة بجرأة كبيرة تفوق فيها على الشاعر والفيلسوف .

هذا الموقف المتحرر من الشاعر في معالجة الاسطورة جعل بعض النقاد يتهمون بالالحاد ، فيسوق د . فيرال رأيه عن يوريديس الملحد أو على الأقل المتشكك في الديانة التقليدية مدحا بسطر اقتبسه لوكيانوس عن يوريديس حيث يقول :

(زيوس ، مها كان زيوس ، أنا لا أعرف عنه إلا قصصا .)

(Lucian, Zeus Tragoedus, 41)

مثل هذه العبارات ترد كثيرا عند يوريديس ، لكن هل يمكن الأخذ بها فعلا كمؤشر لتأكيد الحاد الشاعر ؟

فلا يمكن أن يسد إليه بشكل طبيعي إلها آخر ، فالإله إذا كان هكذا حقاً ، ليست له حاجات ، انها قصص المتشدين الحقاء . (Eur., Herac. Fur., 1341 — 1346) وفي « افيجينيا في أوليس » عندما تقرر افيجينيا التضحية بنفسها ، تطلق المجرقة على هذا بأن طلب الآلهة التضحية بأفيجينيا ليس له معنى ، وأن نزوات الآلهة شيء بغيض :

(لقد لعبت دورا نبيلاً أيتها العذراء ، لكنها بغيضة نزوات التسدر والآلهة .) (Eur., Iph. Aul., 1402 — 1403)

هذه النظرة الموضوعية للآلهة ، والتحرر في معالجة الدين أو طبيعة الآلهة من خلال الاسطورة ، لم يكن بالضرورة وليد فراغ ، فمن الملاحظ أن ايسخولوس وسوفوكليس لم يشيرا في أعمالها التي وصلتنا الى عدم نفعهم بالآلهة الهومرية ، ربما عن عدم جرأة على ذلك ، ربما رأيا أنه من غير اللائق التشكيك في الآلهة ، أو ربما لم يكن الظرف الزمني مناسباً لهذا . أما يوريديس فقد ناقش هذا الموضوع بجرأة وتحير تام ، وساعده على ذلك تكوينه الفكري أولاً كمفكر واسع درس الدين من خلال الاسطورة يعقله قبل أن يؤمن ايمانا أعمى بورأى أنه من غير المعقول أن توجد آلهة ترتكب كل هذه المواقفات والنزوات ، فالإله في رأيه - إذا كان حقاً إلهاً - منزها عن النزوات والريقات كما يقول هيراكليس . اما الظرف الثاني الذي ساعد على الخوض بحرية في الدين والأسطورة ، فكان الرأي العام الذي تأثر الى حد كبير بالسفسطائيين ونظرهم الى الحياة ، والذي أصبح مهياً لأن يتقبل آراء أكثر علمانية حول طبيعة

ازدهار أثينة وتقديمها ويرجعه الى الايمان بالآلهة .
وأيضاً في « اللاجئات » يمثل تسييس هذا الاتجاه .
(Bur., Herac., 901 — 909., Suppl.,
594 — 596)

وحتى في المسرحيات التي نهاجم فيها الآلهة
هجوماً حاداً نجد أنها في نهاية المسرحية تغير من
سلوكها وتبرره مثلاً حدث لكريوزا في « أيون » والتي
تعود في نهاية المسرحية فتقول أن (مميذ ومذبح
ايولون قد عادا ثانية كأحب شيء لها .) وبهذا فمن
الطبيعي أن يعود المشاهد ويتعاطف ثانية مع إلهه
المادل .

فقد كان يوريديس واعياً بضرورة وجود الآلهة
للشعر ، مهما كانت الصورة التي تتشكل بها هذه
الآلهة . (فإذا انتفى التراب والعقاب في الحياة فما
جدارها ؟) وحتى في الأدب الحديث تبرز حاجة
الإنسان لإله الذي ينظم العلاقات بين البشر ،
فيقول الكاتب الروسي « فيودور دوستوفسكي » في
« الاخوة كاراسازوف » على لسان أحد أبطاله
« ميشكا » : لو لم يكن الله موجوداً لخلقتنا
نحن .)

تقول « كليتمسترا » مؤكدة هذا المعنى في
« افيجينيا في أوليس » وهي تقاطع أخيليس :

(هكذا يكون الأمر... احكم أنت ، ويجب أن
أكون مطيعة .

إذا كانت هناك آلهة ، فإن الرجل المادل
سيكسب عطفهم ...

في (ميكاكي) عندما يدخل تالشويويس رسول
الاشريق ليعلن ليكايي موت ابنتها بولكسينا ، يراها
منطرفة أرضاً ويحس بما تعانيه من شقاء فيناجي الإله
زيوس قائلاً :

(ماذا سأقول يا زيوس ، ألا ترى البشر ،
أم أننا نتمسك بهذا المجد الخيالي عبثاً ، نحن الذين
نعتقد بوجود جنس الآلهة ، بينما تسيطر
الصدفة على كل الأشياء بين البشر .)
(Bur., Hec., 488 — 491)

لللهة الأولى تبدو مثل هذه العبارات تأكيداً من
الشاعر على رفضه فكرة وجود الآلهة فهو يقول :
زيوس ، مهما كان زيوس أنا لا أعرف عنه إلا
قصصاً . إلا أن نفس هذا السطر يعطي احساساً
آخر هو محاولة يوريديس الصرّح على القوى العليا
التي تحكم البشر ، فهو لا يقتنع بقصص تحكي عن
زيوس أو غيره من الآلهة ، وإنما يحاول البحث عن
كنه وباهية هذه الآلهة ، هل هي الصدفة ؟ هل هو
العقل أو المثلث ؟ أم هي قوى أخرى لا يعرفها
البشر ؟ .

وفي مقابل اتهام الشاعر بالالحاد ، فإن العديد
من أعماله تؤكد احترامه للدين مثل هيبولوتوس
والباحيات ، التي تؤكد على أهمية احترام اعتقاد
الإنسان في شيء معين ، وأن السخرية من هذا
الاعتقاد تجر المصائب كما حدث لهيبولوتوس وباتتريس
حين سخر من مقدرة الآلهة .

وفي « أبنياء هيراكليس » يصف يوريديس

واذا لم يوجدوا ... فلماذا يشقى البشر ؟ !!)
(Bur., Iph. Aul, 1033 — 1035)
وعيد هيبوليتوس ليؤكد أهمية الآلهة التي تنظم
العلاقات بين البشر فيقول :
(نعم ، فالبشر يعيشون بالقوانين المستقاة من
الآلهة .)

(Eur., Hipp., 98)

وفي نفس السياق يؤكد « ادراستوس » في
« اللاجئات » على ارتباط الانسان بالآله . (وهما
زيوس ، في حين أنه قبل ذلك كان الها
مجرد Theus أو قوة عليا مقدسة Daimon ، ويؤكد
هذا عدم أهمية الشكل الذي يتخذه هذا الإله عند
يوربيديس فيقول مخاطبا زيوس :

(أوه زيوس ، كيف يقولون أن البشر الضعفاء
هم حكماء ، ألا ترتبط نحن بإرادتك ،
وما نفعه ، أليس هو ما تريد أنت ؟)
(Bur., Suppl., 734 — 736)

وهكذا فيبدو أن يوربيديس كان يعتقد في وجود
(قوة إدراكية ما ...) وقد ظهر عند أريستوفانيس في
« الضفادع » وهو يتنصرخ لهذه القوة التي أخذت
عنده أشكالا متعددة منها العقل والذكاء المتدفق
الناقد والاثير .

كما ظهرت « هيكايي » من قبل وهي تنصرخ
إلى أي إله أوتوة عليا لتنفضها من محنتها حين تقول :
(أهداك إله أوتوة عليا تهتذي من محنتي ؟)
(Bur., Hec., 163 — 164)

كما يبدو أن يوربيديس لم يسط الاهتمام الكافي
للسؤال الذي لا بد وأنه قد رايد البعض في هذه
الفترة ، حول تعدد الآلهة ، فهو كثيرا ما يستعمل
الجمع والمفرد للدلالة على الآلهة دون الاحساس
بوجود أي فارق ، فيقول على لسان اورستيس :

(نحن عبيد للآلهة ، مهما تكن
الآلهة .) (Eur., Orest., 418)

أي أن الصورة التي تتشكل بها هذه الآلهة غير
ذات موضوع عند يوربيديس وإنما هي قوى غير
معروفة تشكل حياة الانسان ، وقد تكون نظرة كل
شخص لهذه القوى نظرة شخصية بحتة ، لكن ربما
كان الانسان من الناحية الاخلاقية أفضل في بعض
الاحيان من هذه القوى ، لانه على الأقل يجب ،
ويشقى ، ويحاول أن يفهم ، وهذا هو الانطباع
الأخير الذي تنسركه قراءة مسرحيات مثل
« الباغيات » أو « هيبوليتوس » أو « الطرواديات » .

وفي محاولة يوربيديس الجادة في البحث عن إله
واحد ، أو على الأقل تعريف محدد لإله أو آلهة معينة
تجد أن « كليمنت الكندري » وهو المسيحي المؤمن
بالله يستشهد كثيرا بأبيات من شعر يوربيديس
للدلالة على محاولة الانسان الدائمة للاتصال بالآله
الواحد ، فهو يقتبس منه :

(إله يرى كل شيء ، ولكنه نفسه لا يرى
أبدا)

(clement of Alexandria, Exhoration
to the Greeks, VI. 59 p.)

يقول Paley: أن « الباطيات » تعبر عن وجهة نظر جديدة ليوريديس في المعتقدات الدينية ، أو على الأقل تغيير في وجهة نظره القديمة ، وتراجع ومحاولة منه في أخريات أيامه للتكفير عن هجوه المستر على معتقدات مواطنيه اللاتينيين . فكتب يجسد الديانة ويناصرها . وربما كان ذلك لاتصاله بأناطس جدد في مقدونيا وارتباطه بهم ، فقد غدلت الفلسفة والنطق اللذان تسلك بهما ، فوجد ملجأ أخيرا في الموافقة على المعتقدات الدينية الموجودة في مقدونيا . (Paey , Euripides, vol. 11. pp. 413 — 414) وربما كون Paley هذا الرأي بسبب بعض السطور في « الباطيات » والتي تعطى احساسا بتراجع يوريديس عن موقفه السابق من الديانة التقليدية ، فمثلا يقول كاداموس :

(بشر كما أنا ، أنا لا أحقر الآلهة)

(Eur ., Bacch ., 199 .)

فبعد عليه العراف تيريديس موكدا نفس المعنى :

(أنا لم أنفخ في خبايا حول قوى السماء ، فالإيمان الذي ورثناه عن آبائنا ، قديم كالزمن نفسه لن يجر أي منطوق .)

(Eur ., Bacch ., 200 — 202)

الا أن Haigh يرى أن هذا الرأي بعيد عن الصواب ، خاصة وأن المسرحية قد كتبت بعد رحيل يوريديس نهائيا عن أثينة . كما أنه من المشكوك فيه أن تكون معتقدات يوريديس الدينية قد أشادت مواطنيه اللاتينيين وتطلبت نوعا من التكفير عنها .

وقيل ذلك اقتبس بلوتارخوس ثم لوكيانوس ويوجينيس لايرتيوس ، آياتا من أعماله للدلالة على محاولته المستمرة في البحث عن تعريف محدد لإله يرضى عنه .

هذا إله الذي ربما يتخذ عند يوريديس أشكالا متعددة كما يقول هو نفسه على لسان « هيكاسي » قد يكون : العقل أو الضرورة ، أو زيوس نفسه كما يتضح من القطعة التالية :

(أنت يامن تحمل الأرض ، وعرشك هو الأرض ، مهما تكن ، أنت لغز يفوق ادراكنا ، ان تكن زيوس ، أو الضرورة الطبيعية ، أو عقل الانسان ، لك أصلي ، فبرغم أنك تسلك طرقا لا صوت لها ، إلا أن كل صاملك مع البشر يسجده العدل .) (Eur ., Troad ., 884 — 888 .)

هذه الروح المتحررة التي تميز بها الشاعر ، ربما كانت هي التي قادت الى اتهامه بالدنس ، وعن هذا الاتهام لا يعرف الكثير ، لكن يبدو أن يوريديس قد برى آخر الأمر .

(Satyrus, 39. X. 15 — 22 and Note.)

وقد ظلت هذه الشخصية المتحررة المميزة للشاعر ماثلة بوضوح شديد حتى آخر سطر كتبه في آخر أعماله « الباطيات » هذه المسرحية تفجر قضية أخرى فيما يخص آراء يوريديس الدينية . يرى أن الشاعر كتبها تراجعا منه وتكفيرا عن موقفه المتشكك في الآلهة ، والبعض الآخر يرى عكس هذا .

يوربيديس ملحدًا ، بل كان واعيا ومقدرا لأهمية الدين في تنظيم العلاقات بين البشر ، لكنه كان رافضا للأشكال التقليدية للألهة المورمية التي اعتبرها قصصا وخرافات لشعراء جوالين ، وبما يحط من قيمة الانسان في رأيه أن يعتقد في آلهة بهذا الشكل ، مخادعة ، تقودها شهواتها ، لا تحمل أي حب للبشر :

(نحن منساقون في نهر مظلم من الأساطير .)
(Eur ., hippolyt ., 197)

فالإله إذا كان حقا إلها لا يحتاج لأي شيء - في رأيه - ليثبت وجوده ، كما يقول على لسان هيراكليس . كان الشاعر مفكرا واعيا تأثر الى حد كبير بالسوفسطائيين ، فلم يعد يخضع لخرافات أو قصص عمك حول الآلهة وإنما اخضع كل ما حوله لمنطق خاص منه بأن الإله لا يمكن أن يتخذ هذا الشكل التقليدي الذي ينزل به الى مادن مرتبة البشر أحيانا . حقيقة أن يوربيديس لم يستعمل أن يصل الى تعريف محدد لهذا الإله الذي اقترب منه بمنطقة المحاص ، فقد تصدت الصور المعنوية لهذا الإله (فلم يتخذ هذا الإله أبدا عند الشاعر صورة مادية أو تشخيصية أو إحلائية .) وتراوحت بين الاثير أو العقل أو الضرورة أو الذكاء أو العدالة ، أو قوة عليا ربما كانت زيوس نفسه بعد أن خلصه يوربيديس من الشوائب والقصص التي حكى عنه .

الا أنه يشفع له محاولته نفسها في الوصول الى قوة عليا أو إله معين ، وبالتالي تخليص الديانة الاغريقية مما علق بها من شوائب وخرافات حتى يقود مواطنيه الاتيين الى طريق آخر للتفكير في الإله ،

وان كانت معتقدات يوربيديس لم تظهر في « الباخيات » فبعد ذلك الى طبيعة الاسطورة التي يعالجها يوربيديس ، فلم يكن من الطبيعي أن يعرض يوربيديس مسرحية في عيد ديونيسوس تصور بثنيس على أنه ضحية بريئة ، وديونيسوس على أنه مجرد مخادع .

كما أننا لا يمكن أن نعبر المسرحية تكفيرا لأن المشهد الأخير بين أجاثي وديونيسوس الذي تلوه فيه على انتقامه ، ونقول ان الآلهة يجب أن تكون أنبل من البشر وتترفع عن الانتقام ، فيجيب هو بأن سلوكه هذا كان بموافقة زيوس .
(Eur ., Bacch ., 1433—34)

هذا المشهد لا يعد بأي حال تكفيرا وإنما هو عرض لفساد الآلهة الموجدة في الأساطير اليونانية .

ونفيل الى الأخذ بالرأي الثاني لأن « الباخيات » ما هي الا دراسة قلم بها شاعر من دأبه الاهتمام بالديانة في صورها التقليدية وغير التقليدية . فقد كتب يوربيديس هذه المسرحية أثناء وجوده في مقدونيا حيث عاش جوا وفكرا دينيا يختلف عما عاشه في أثينا من قبل ، مما استرعى اهتمامه بلا شك فكتب هذه الدراسة . وإذا كان من الممكن استخلاص درس أراد يوربيديس إلقائه في هذه المسرحية فهو « الاعتدال » ، و « أخطار عدم التحكم في النفس » .

وهكذا ينضج الى حد ما موقف يوربيديس الفكري من الديانة الاغريقية والأثينية خاصة ، من خلال معالجته للأسطورة في أعماله الدرامية ، فلم يكن

نفسها باعتبارها آلهة . ثم أعطى هذه الآلهة الشكل البشري - باستثناء مصر التي أخذت بعض الآلهة فيها أشكالاً حيوانية - وعندما انتقل اليونانيون إلى تصوير الآلهة على الشكل البشري ، حددوا لهم طريقة مولدهم واختصاصهم وجعلوا لهم مقراً هوجيل الأوليمبوس . وبالتدريج أصبحت هذه الآلهة التي استخرجها الانسان من عقله ، منفصلة عن واقع هذا الانسان ، فهو يعرفها لكنه لا يحسها أو يشعر بها كما كان الحال مع الآلهة الطبيعية .

وسمع التقدم الحضاري كان من الطبيعي أن تفشل هذه الآلهة في الوفاء بمطالبات الانسان ، ومن هنا يبدأ تدهور النظرة القدسية لهذه الآلهة . ومن هذه النقطة يبدأ يوربيديس .



استمراراً لموقف يوربيديس من الدين والأسطورة كان موقفه من النبوة والمتنبئين . يقول اخيليس في « افيجينيا في أوليس » :

(من هو العراف ؟ انه شخص ينطق بقليل من الصدق ، وكثير من الكذب ، وبما أن الصدفة هي التي توجهه ، فالاعتقاد فيه يقاس بمدى نصيبه من الحظ .)

(Eur ., Lph . Aul ., 956 — 958)

ويقول الرسول في « هيلين » انه من السخف تصديق أن التنبؤ عن طريق الطيور يمكن أن يفيد البشر : (Idem ., Hel ., 747) ويؤكد نفس الرسول في نفس الموضع أنه :

(لا يوجد رجل اغتنى بنبوءة ، اذا كان كسولاً ،

اسمى وأعمق ، هو تقييد الكائن أو العقل الأعظم ، خالق كل الموجودات .

وساعدته على ذلك الروح العلمية التي سادت أثينة في ذلك الوقت ، وتغليب المنطق والعقل على العاطفة والذي كان أحد نتائج ظهور السوفسطائيين ، وبهذا كانت التربة الأثينية صالحة كي يلقي فيها يوربيديس بذوراً تحمل أفكاراً منطقية حول طبيعة الآلهة وماهيتها ، ومن هذا المنطلق لا بد وأن يكون قد حدث تغيير ولو طفيف (لأن هذه الأفكار الجديدة التي حملها يوربيديس ، وإن تعرض هنا لسقراط ، لم تكن قد سادت بعد) في البناء الاجتماعي للمجتمع الأثيني في القرن الخامس ق م . فالفرد الأثيني حين يتعامل مع قوة عليا أو إله لا يدرك كنهه الا بالعقل المجرد ، لا بد وأن يختلف سلوكه الاجتماعي عن وقت مضى كان يتعامل فيه مع آلهة اتخذت أشكالاً بشرية وحملت صفات متعددة يحملها البشر أنفسهم ، فيمكن خداعهم أو إثارة حقدهم عليهم أو رشوتهم إلى غير هذه الصفات التي خلعها هوميروس .

هذه الآلهة أو الدين اليوناني بشكل عام كان من صنع المجتمع ، فإلا له هو تصوير للخيال والمنطق والعواطف النابعة من الظروف الاجتماعية . وككل الأديان البدائية ، كان الدين اليوناني يعكس ضعف الانسان في مواجهة القوى الطبيعية ، ثم وفيما بعد القوى التي يكشفها في المجتمع حوله ثم في نفسه ، وتزداد رهيبته إياها كلما فشل في الوصول إلى مصادرها .

وكفالية الأديان في الشرق والغرب بدأ الانسان بتقييد ظواهر الطبيعة ، ثم تعامل مع أشكال الطبيعة

فأفضل العرافين يحكمون ،
بالفطنة والذكاء . (

(Ibid — 756 — 757)

وربما كانت عدم قناعة يوريديس كما يبدو هنا بالعرافة واعتقاده أن العراف أن هو الأ شخص يعتمد على الحظ في نبوءاته . أول الأسباب التي جعلته يتخذ موقفا مضادا من هذه الفئة التي تطلعت في المجتمع الأثيني ، وبلغ من قوتهما - خاصة عرافة دلفي - أن تدخلت في أمور السياسة والمعارك كما حدث في حملة صقلية .

ويبدو كره يوريديس للعرافين واضحا في المديح من أفعاله ، ففي معاملته لأساسة اليكترا وأخيها اورستيس وقطله لأم كليتمسترا ، نجد أن اورستيس يحمل الإله أبوللو وعرافته مسؤولية ما حدث .

ففي « اليكترا » ولد شك اورستيس في نبوءة عرافة دلفي تلكوه في قتل أمه كليتمسترا ، فيظهر هنا مترددا تماما في قتل أمه ، وهو حين يقتلها يبدو كما لو كان مغلوبا على أمره بواسطة النبوءة ، بينما عند ايسخولوس لم يتردد الا مرة واحدة عندما تستطفه أمه فيأخذ رأي صديقه بيلاديس :

(بيلاديس .. ماذا أفعل الآن ، هل أكون رجيا بها ؟)

(Aeschyl ., choeph ., 899)

أما عند يوريديس فيحمل اورستيس الإله أبوللون وعرافته المسؤولية كما يتضح من الحوار التالي :

اورستيس : (ماذا يجب أن تفعل بأمننا .. أقتلها ؟)

اليكترا : (ماذا ... هل تملكك الشفقة لرأها ؟)

اورستيس : (أيا إله ... كيف أقتل من ولدتي وأرضعتي ؟)

اليكترا : (اقتلها ... كما قتلت أباك وأنا .)
اورستيس : (أوه فوريوس ... كم هي حقهاء النبوءة .)

اليكترا : (هل يخطيء أبوللو ... إذن من يكون الحكيم ؟)

اورستيس : (عندما يأمرني بهذه الجريمة ... قتل أمي ١٠١)

ويعد بضعة أسطر يعود اورستيس ليقول :

اورستيس : (من المؤكد أنه كان شيطانا في صورة إله ، من أمرني بهذا .)

اليكترا : (جالسا على العرش المقدس .. !! لا أعتقد هذا .)

اورستيس : (أنا لا أصدق أنه عسى هذه النبوءة .)

(Eur ., Elect ., 966 — 973M 979 — 981)

ويعد قتله لأمه يندب اورستيس حظه ويرى أنه يحصل أبوللون وزرما حدث :

(أوه فوريوس ... كنت أنت الصوت الذي

امتدح هذا الانتقام ،
انه أنت الذي أخرج هذا المنظر المفعع الى الضوء ،
وتسببت في اراقه العماء .

(Ibid ., 1190 — 1193)

كما ساعد على تصاعد الشعور العام عند
اللاتينيين ضد أبوللون وعرافته في دلفي .

وهذا كان من الممكن أن يهاجم يوربيديس
الإله أبوللون وعرافته ، دون خشية محاكمة أو
معارضة ، وهذا يبرر جرأة الشاعر في معالجة الأمور .

وهكذا يرتبط الدين بالسياسة في تفكير الشاعر .

ونتيجة لهذا فقد صور يوربيديس أبوللون في
صور كثيرة غريبة ، في « أيون » ، وفي « اندرو
ماغسي » ، وفي « اليكسرا » ، وأيضاً في
« أورستيس » .

(Eur ., Ion , 67 — 73 , 1557 — 1558)

(Ide ., Andro ., 1161 — 1165)

(Ide ., Elect ., 1245 — 1302)

(Ide ., Orest ., 28 — 30 , 160 — 417)

ويبلغ هجوم يوربيديس أقصى درجات العنف في
« هيلين » التي كتبها بعد الحملة على صقلية بفترة
وجيزة ، وفيها يهاجم الشاعر العرافين المتبشّن بشراسة
وبطريقة مباشرة .

(Eur ., hel ., 744 — 757)

وهكذا كان الشاعر عن طريق ادواته الدرامية
يدفع مواطنيه اللاتينيين الى عدم الاعتماد بالعرافين ولا
بأقوالهم التي لا تضر ولا تنفع والمودعة الى عبادة
الآلهة .

(وفيما يخص الطيور التي تتلقى فوق رؤوسنا ،
وداعا الى الايد لم .)

(Eur ., Hipp ., & 1058 — 1059)

وفي « افيجينيا بين التاورين » عندما يحين وقت
التضحية بأورستيس وصديقه ييلاديس يخاطب
أورستيس وصديقه صراحة قائلاً :

(انه فوييوس الذي خدعنا بنبوءاته...ثم
استبطل حيلة تبعدني لأبعد ما يمكن عن بلاد اليونان ،
خجلاً من نبوءاته الماضية ، فبعد أن اسلمت أمري
اليه ، وأطمت كلمته ، حتى في قتل أمي ، في مقابل
هذا وجدت نفسي قد انتهيت .)

(Eur ., Lph ., Taur ., 711 — 715)

ويظهر مدى طموح طائفة العرافين من تخوف كل
من أجاممنون وفيلابوس فهم كما يتضح من الحوار
التالي في « افيجينيا في أوليس » :

أجاممنون : (كل طائفة العرافين هم لعنة واحدة
طموحة .)

مينيلابوس : (بغضون غير ذوي نفع وهم
أحياء .)

(Eur ., Lph ., Aul ., 520 — 521)

هذا الموقف الذي اغتذ به يوربيديس من النبوءة
والعرافين لم ينبع فقط من قناعة شخصية لدى
الشاعر بعدم جدوى مثل هذه الأمور في حياة
البشر ، وإنما اخضع وراء ذلك سبب سياسي قوي ،
فقد انحازت مدينة دلفي (وهي مركز عرافة أبوللو)
أثناء الحروب البلووينيسية الى اسيرطة ضد أثينة . ثم
وأثناء المناقشات حول حملة اللاتينيين الى صقلية ،
شجعت عرافة أبوللو في دلفي هذه الحملة ، والتي
انتهت بكارثة لللاتينيين .

(Phut ., Vitae , Nic ., 13 c .)

هكذا كان يوربيديس ، مفكرا اجتماعيا تعامل مع الدين من خلال الاسطورة كمنصر اساسي في المجتمع الاثيني ، فحاول ان يخلص الديانة الاغريقية مما علق بها من شوائب فقد رفض الآلهة بشكلها المومري التقليدي ، وحاول التوصل الى تعريف محدد للقوة العليا التي هي الله ، ربما لم ينجح تماما في هذا ، الا انه غلب منطقة وعقله على عاطفته ، حتى يستطيع ان يحدد شكل الديانة الحالية من الخرافات كالألهة التي تحب وتكره وتنقم وتقادح ، فالاله عنده قوة عليا تفوق ما عداها ، ولا يجم الشكل الذي تتخذه هذه القوة ، انما يكفي ان يدركها الانسان بعقله ، حتى يستطيع ان يتوالم في سلوكه الاجتماعي مع قوانين هذه القوة المادلة الحكيمة ، التي ربما عني بها يوربيديس « الله » وان لم يفصح عن هذا .

ولا شك ان لهذه الدعوة من قبل الشاعر هدفا يتعدى مجرد دعوته مواطنيه الى عدم الاعتقاد في العرافين ونبيوهم .

هذا الهدف يتركز في طبيعة تكوين المجتمع الاثيني المليء بالخرافات ، فلا شك ان مجتمعا مثل هذا يعتقد الناس فيه في مثل هذه النبوءات ، كيف حياته طبقا لهذه الاعتقادات ، وبهذا تكون كل تصرفات اعضاء هذا المجتمع نابعة من منطق ايمانهم بصدق العرافين ونبيوهم ، وفي حالة اذا ما انتهت هذا الاعتقاد فان مثل هؤلاء المواطنين لابد وان يعدلوا من سلوكهم بما يتلائم مع الوضع الجديد ، وهذا هو هدف الشاعر كمفكر اجتماعي يطرح قضية نظرية تمس واقعا موجودا حتى يستطيع تغيير هذا الواقع .



(١)

مقدمة

موضوع هذا المقال هو اعادة النظر في إحدى أهم المشكلات الفلسفية التي شغلت المفكرين منذ وقت طويل ، ولا تزال تقلق بالهم ، كما أنها مشكلة تفرض نفسها علينا في عالم الواقع الذي نحياه وهي ما اذا كان الانسان حرا مختارا نيا يفعل من أفعال أم أنه مجبر مطلوب على أمره . ان ما أسعى الى تأكيده هنا هو الدفاع عن المواقف الثلاثة التالية :

(أ) ان الخلاف بين نظرية الجبر ونظرية الحرية أقل حدة مما يظن أصحاب النظريتين المتخاصمتين ، وأن هاتين النظريتين ليستا على طرفي نقيض ، وأن الخط الفاصل بينهما غير موجود .

(ب) ان النظرية الجبرية الدينية أو ما تعبر عن الايمان بالقضاء والقدر لا تهتم اساسا بموضوع حرية الانسان كمشكلة فلسفية خالصة بقدر ما تهتم بموضوع عدل الله وتوحيده وعلمه وإرادته ، وهما موضوعان مختلفان متميزان يكتك البحث في أحدهما دون البحث في الآخر ، وأن الفلاسفة المؤمنين بالله الذين حاولوا التوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر إما يقعون في نهاية المطاف في أحضان جبرية منطرفة ، او يعترفون بهجرهم عن توفيق حقيقي . لكننا نقترح الدفاع عن الاتفاق بين الايمان بالقضاء والقدر والقول بالجبرية أو بالحرية على حد سواء .

حرية الانسان في الميزان

محمود زيدان

١ استخلا الفلسفة الحديثة والمعاصرة بهضمة بيروت العربية
استخلا ورئيس قسم الفلسفة السابق بهضمة الاسكندرية

(ج) الحرية بالمعنى الدقيق للكلمة في طاقة الانسان ، لكنها مثلا أعلى نادرا ما يصل اليه ، ولقد

فأنتم غيظي وأغام في نفسي سورة الغضب النافر ، لكن قد لا يستطيع شخص آخر أن يملك نفسه عند الغضب . وقد أفضل ما لا أحبه ولو لم يرغبني عليه أحد ، كمن يتحمل الألم في سبيل الدفاع عن مبدأ خلقي أو سياسي ، وكمن يرغب أناس أن يكونوا شهداء من طوعية واختيار .

تدلنا هذه الأمثلة - وكثير غيرها - على أن بالإنسان قدرة على بذل الجهد والمحاولة ومقاومة الرغبات الشريرة والانفعالات في سبيل الدفاع عن مبدأ أو عقيدة ، وقدرة على ضبط النفس . وهناك أيضاً أمثلة كثيرة تدبر عن إرم الإنسان لنفسه وتأنيب ضميره على بعض ما فعل من أفعال ، يدل كل ذلك على أنك قد تفعل فعلاً وتكت قادراً على أن تفعل فعلاً مختلفاً ، بذلك أول معاني الحرية .

لكن هناك حالات أخرى في حياتنا اليومية تؤكد ضعف الإنسان وعجزه عن مقاومة رغباته الدافقة وعجزه عن ضبط نفسه أو يقظة ضميره أو تغيير ما درج عليه من أنماط السلوك تمردها فرسخت واستبدت به فلا يملك منها فكاً ، مثل حالات الممنين على الشراب والتدخين ، والمصابين بأمراض نفسية أو عقلية حادة ، أو من يقصون تحت تأثير تسويم مغناطيسي ونحو ذلك ، هؤلاء جميعاً يجبرون على ما يفعلون .

خذ أخيراً أمثلة أخرى بحيرة يصعب الحكم فيها بالجبر أو بالاختيار . أماننا أمد رجال الدين الذي كان في ماضيه مدمناً على الشراب المحرم في دينه ، فصر برغبة حادة في الشراب ، لكنه وجد نفسه

اعتمدنا في إثبات هذه القضية على تحليل معين للفعل الإرادي ، فلم نغز فقط بين الأفعال اللاإرادية التي لا اختيار لنا فيها والأفعال الإرادية الاختيارية ، وإنما ميزنا أيضاً في الأفعال الإرادية بين ما سميناه « الفعل الإرادي اصبا » و « الفعل الإرادي حقاً » ، وهذا الأخير هو ما يوصف فقط بالحرية بالمعنى الدقيق . لقد دافعنا عن هذه المواقف في الاقسام الثلاثة الأخيرة من البحث ، ولم تكن الاقسام السبعة الأولى سوى تمهيد وتوضيح لن يجد في نفسه حاجة الى قراءتها .

(٢)

تعريف بمشكلة الحرية

أ - لكي تقدم حلاً مقبولاً لمشكلة ما ، يجب أن نضعها أولاً في صياغة جيدة ، لذا فإننا نبدأ بصياغة مشكلتنا في صورة أمثلة نألفها في حياتنا اليومية . قد يتهاون موظف في انجاز ما يسند اليه من عمل ، أو قد يرسب طالب في الامتحان نتيجة إهماله في مذاكرة دروسه ، فيلام كل منهما على ما وصل اليه ، ويصاب بحزن وأسى ، فيشعر همتهم ويبدل جهده لأداء واجبه فينال الموظف رضا رؤسائه ويحتاز الطالب امتحانه بنجاح . قد تقدم موظف خسين جنبها رشوة لأداء عمل غير مشروع فيرفض أخذها ، فتزد الرشوة الى مائة جنيه فيمتنع الموظف عن أخذها قائلاً : « لم أرفض الرشوة للمرة الأولى لقلتها وإنما أرفض قليلها وكثيرها ، لأن الرشوة نوع من السرقة أو الخيانة ، وكلاهما يعاقب عليها القانون المدني أو قواعد الاخلاق الصحيحة . قد يصد زبيل الى إثارة غضبي

المشكلة ، ولك ان تختار أي دافع شئت ليكون صياغة لها .

(٦) نشأت مشكلة الحرية من المفارقة بين

اعتقادين عليها اجماع كل الناس ، لكن ما يلزم عن أحد الاعتقادين من نتائج مناقض لما يلزم عن الاعتقاد الآخر . اذا أردنا تحديد موقف الجبرية في

عجالة قلنا انه الاعتقاد بأن لكل فعل علة ، ولا فعل لا يقبل التفسير ، وإذا أردنا تحديد موقف الحرية في عجالة قلنا انه الاعتقاد بأن لكل انسان ارادة واختيارا . لكن اذا تأملنا موقف الجبر رأينا أنه لا

يقول فقط ان لكل فعل علة وإنما يقول ايضا ان لهذه العلة علة أخرى تسبقها وتفسرها ، وهذه محتاجة بدورها الى شيء آخر أدى اليها ، وهكذا حتى تصل سلسلة العلل الى ظروف طبيعية خارجة عن ارادتي تختم أفعالي ، أو حوادث قامت قبل أن أولد كالعوامل الوراثية ، ويمتدّد أنحدت عن علل لا سلطان لي عليها ولا حيلة لي فيها ، وبالتالي لست مسئولاً عما أفعل ولم أكن مستطيعاً أن أفعل غير ما قد فعلت .

ومن جهة أخرى يبدأ أنصار الحرية باعتقادنا الراسخ ان لنا ارادة واختيارا فحين يؤدي عملا معيناً اعتقد انه كان باستطاعتي أن أؤدي عملاً مختلفاً لو كنت أودت . ومن ثم فأنا حر مختار مسئول عما أفعل .

والخلاصة أن الجبرية تبدأ باعتقاد يجمع عليه كل الناس وهو أن لكل شيء علة ولكل فعل تفسيراً وسوف يؤدي ذلك الى انكار المسئولية ، لكن مذاهب الحرية تبدأ أيضا باعتقاد يجمع عليه كل الناس

مضطرا الى الامتناع عن تناول الكأس حفظا على هيئته وسمعته بين الناس ، وقاوم رغبته في النهاية . فهل كان الرجل مختاراً فيما فعل أم أنه مجبر ؟ خذ أيضا حالة من ارتكب جريمة قتل وقدم للمحاكمة . ووقف الدفاع أمام القاضي قائلاً ان المتهم اضطر الى ما فعل لظروف طفولته التسه أو يبيته الفاسدة التي أدت به الى كرهه للمجتمع وحقدته عليه ، فدلّمه ذلك الى جرمته ، ولم يكن يملك مقاومتها . فيرد القاضي بقوله ان المجرم مسئول عما فعل فقد كان حراً مختاراً في تدبير خطة للقتل ، والقانون يحرم القتل العمد بصرف النظر عن تاريخ حياة القاتل أو دوافع القتل . فيعاند الدفاع قوله ان القضاء يعالج القسوة التي عاناها المتهم في حياته بقسوة العقوبة المنصوص عليها في القانون ، فيدفع القاضي ذلك بقوله ان الدفاع يتهم القانون بالقسوة بينما يدافع القانون في الواقع عن المجتمع ويحميه من هؤلاء المجرمين . وكان من الممكن ان يستمر الحوار بين الدفاع والقاضي أياما لولا ان القاضي أوقف الحوار معتقدا بمدالة حكمه ، ودفع بالمجرم الى المقصلة . أنت هنا حقا أمام موقف يصعب عليك الحكم على القاتل بما اذا كان مختاراً أم أنه مجبر !

ب - بعد الإشارة الى مشكلة حرية الانسان في

صورة أمثلة واقعية من حياتنا توضح بعضها بأننا أحرار ، ويوحى بعضها الآخر بأننا مجبرون - نتحدث الآن عن ثلاثة دوافع جعلت من موضوع الحرية مشكلة ، وفي بسط كل دافع صياغة معينة لهذه

ويعسونه باستيطان وهو أن لكل منا إرادة واختياراً ،
ومن ثم التمزق الفكري فظهور المشكلة .^(١)

(٢) نشأت مشكلة الحرية أيضاً من التفاعل بين اعتقادين آخرين ، فنحن من جهة مستولون عما نفعل فإن أطعنا أوامر الله استحقنا الثواب والنعيم ، وإن فعلنا ما نهانا عنه حقت علينا العقوبة والعذاب ، لكن نتعبد من جهة أخرى بتسويد الله وعدله وغيره ، فما نفعل من شر يعلمه الله بل أراده وقدره ، ولا فعلنا ما لا يعلمه الله ولا يريد الله والله منزّه عن الجهل والعجز . فكيف يتسقى في عدله المطلق واستحقاقنا للثواب والعقاب تقديره لما نفعل من ذنوب ثم يعاقبنا عليها ، وكيف يتسقى مع خيره المطلق ما أراده من شر يقوم به الناس . وما هنا المأزق : أن نادينا بالحرية فقد تعارض ذلك مع التوحيد إذ سيكون الانسان خالق أفعاله ويتصد الخالقون ، وأن نادينا بالمجبرية مع الاقرار بمسئوليتنا عما نفعل فقد تعارض ذلك مع العدل الالهي .

(٣) لدينا دافع ثالث لنشأة مشكلة الحرية في أفعال الناس ، وهو حيرتنا في موقف الافعال الانسانية مما يقوله علماء الطبيعة عن تأكيد الحتمية في العالم الطبيعي - والانسان جزء من هذا العالم قد ينطبق عليه ما ينطبق على سائر الائنات - أو تأكيد الصدفة عاملاً فضلاً عما يحدث في ذلك العالم ، فإن أخذنا بالحتمية الكلية في العالم الطبيعي وقضنا في

جبرية أفعال الانسان ، وأن أخذنا بوجود عنصر الصدفة فقد فتح باب للحرية . فقد جاء علماء الطبيعة في العصر الحديث - وبمهم بعض الفلاسفة - ليؤكدوا الحتمية الكلية في العالم الطبيعي ويقصدون بذلك أن لا شيء يحدث صدفة أو عبثاً وإنما كل ما يحدث في العالم يخضع بلا استثناء لقوانين يكتشفها العلماء ، بحيث إن عرفنا كل القوانين التي يخضع لها العالم أمكننا التنبؤ بكل ما يحدث فيه من ظواهر وحوادث في المستقبل بكل ثقة ويقين ، ومن ثم ساءل بعض الفلاسفة المحدثين عما إذا كان الانسان يخضع لقوانين تحدّد سلوكه وأفعاله ، مثل قوانين علم الأحياء وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس والوراثة ، تلك التي تستمد ضرورتها من ضرورة قوانين علم الطبيعة ، فإن صح ذلك جاء الانسان مجبوراً على ما يفعل ولا حرية له . لكن جاء علم الطبيعة المعاصر ليعلن ثبوته على الحتمية الكلية في العالم الطبيعي ويقول إن هنالك مجالاً لما يحدث صدفة أو ما لا يخضع للقوانين التي نعرفها ، ومن ثم استحالة التنبؤ الدقيق لما سوف يحدث لبعض الظواهر ، وبجاء بعض الفلاسفة ليروا في هذا الموقف العلمي أساساً للقول بحرية الارادة . لكن فريقاً ثالثاً من الفلاسفة رأى أنه على الرغم من أن الانسان جزء من العالم الطبيعي وأن جسمه يخضع للقوانين الطبيعية ، فإن الانسان ليس بمجرد جسم وإنما به نفس وتعمور وحالات لا تسمح بتطبيق قوانين الطبيعة ، وإذن

(١) انظر ،

J. Cornman and K. Lehrer, Philosophical Problems and Arguments — an introduction, PP. 151-158 2nd ed. Macmillan New York, 1974.

يجرح الانسان وأفعاله من دائرة العلوم الطبيعية .
والخلاصة أن مشكلة الحرية نشأت من اختلاف
الفلاسفة بشأن ما يقوله علماء الطبيعة فمنهم من يرى
جبرية الانسان على ضوء حتمية العالم الطبيعي ،
ومنهم من يرى حريته على ضوء تدخل عنصر
الصدفة في حدوث الاشياء ، ومنهم من أدار ظهره
للعلم الطبيعي واكتشافتها حين بحث في مشكلات
الانسان .

(٣)

تحديد مجال البحث

بعد صياغة المشكلة ، نريد تحديد مجال البحث ،
فموضوع الحرية والجبرية في أفعال الانسان مقصد
متشابه لارتباطه بعدد من العلوم يختلف بعضها عن
بعض في مجال الدراسة . يرتبط موضوعنا أولاً بعلوم
السياسة والاجتماع والأخلاق ، فكتيراً ما نتحدث عن
الحرية السياسية أي حق كل فرد في التعبير عن رأيه
وفي اعتناق المذهب السياسي الذي يشاء ، وكثيراً ما
نتحدث عن مسئولية الفرد عما يفعل حيث هو عضو
في مجتمع ، كما نقول أيضاً إن كل انسان يسلك طبقاً
لمجموعة من القيم والمبادئ الخلقية التي يشرعها
لنفسه أو تلقاها عليه تقاليد المجتمع أو أوامر الدين .
نلاحظ أن هذه العلوم تطلق من التسليم بحرية الفرد
ومسئوليته عما يفعل ، وهو عين الشيء الذي نريد بحثه
ومعرفة وجه الصلح فيه ، ولذلك فلن نبحث في
موضوع الحرية من تلك الجوانب السياسية أو
الاجتماعية أو الاخلاقية ، وإنما سيكون بحثنا في
الحرية بحثاً فلسفياً ، بحثاً يتسامل عما إذا كان

(٤)

الاحتمة في علم الطبيعة

بعد هذا التقديم ، تنتقل الى إيجاز مواقف أنصار
الجبرية وأنصار الحرية . لكن نحدد الإشارة أولاً الى
موقف أسامي في علم الطبيعة هو نظرية الاحتمة
Determinism في العالم الطبيعي . وعلى الرغم من
أن هذه النظرية ليست على صلة مباشرة بموضوع
حرية الانسان ، غير أنها أثرت في علوم وظائف
الاعضاء والأحياء والوراثة وعلم النفس ، وترتبط هذه

أخرى في المستقبل بكل دقة وتحديد . اما اذا حدثت واقعة لا نستطيع تفسيرها في ضوء تلك القوانين فنعني ذلك اننا لم نكتشف بعد القانون الذي يمحكمها^(١) .

لكن حين ظهرت نظرية الكوانتم Quantum Theory في أواخر القرن التاسع عشر ، بدأت الثورة على نظريات نيوتن ، أو على الأقل بدأ تطوير هذه النظريات في إطار علم الميكانيكا الموجية Wave Mechanics وأهم رواده ماكس بلانك M. Planck ونيلز بور N. Bohr ثم هيزنبرج Heisenberg وشرودينجر Schrodinger وساكس بورن M. Born حينما من نظرية الكوانتم اكتشاف لبور وآخر هيزنبرج . رأى بور في عالم الذرة أن الالكترونات تدور حول النواة في مدارات يضاوية كما تدور الكواكب حول الشمس ، كما اكتشف ان الالكترون حين يصدر طاقة أو يمتص طاقة أخرى فإنه يقفز من مدار إلى آخر ، وبين يدور في أضيق مدار تصبح الذرة في حالة سكون ، لكن تتغير هذه الحالة الساكنة حين يوسع من مداره ، حينئذ يلتحم مع الكترون آخر . وهنا يقفز الالكترون من مدار إلى آخر . ولقد جزم بور باستحالة التنبؤ بتغير مدارات الالكترون وقفزه ، ومن ثم الثورة على الحتمية المطلقة عند نيوتن .

العلم بموضوع الحرية كما سبق القول . ويمكن ايجاز معنى الحتمية العلمية في القضييتين التاليتين .

(أ) يخضع العالم بما به من أشياء وظواهر وحوادث لقوانين معينة تفسر وجوده ، ولا مجال لصدقة أو عبث ، بحيث اذا عرفنا تركيب جزء من المادة في وقت معين ومكان محدد وعرفنا القوانين التي تخضع لها هذه المادة ، فقد أمكننا تفسير كل ما صدر عنها من حركة وتغير في الماضي والحاضر ، والتنبؤ بما سوف يصدر عنها في المستقبل .

(ب) يخضع العالم لجداً عالية ، فأي شيء يوجد وأية ظاهرة تحدث إنما تحدث وتوقعها شروط سابقة أدت إليها ، وإذا غابت هذه الشروط لا يتم وجود هذا الشيء أو تلك الظاهرة . نجد هذا الموقف واضحا في علم الميكانيكا التقليدية الذي بدأه في العصر الحديث جاليليو وديكارت في القرن السابع عشر ، وأرسى نيوتن قوانينه ونظرياته في القرن الثامن عشر ، وظل الموقف سائداً حتى منتصف القرن التاسع عشر . وتعني الحتمية الكلية عند نيوتن اننا اذا عرفنا الوضع المكاني لكل جزيء Particle في الكون وسرعة حركته في لحظة ما ، فإن قوانين الميكانيكا قادرة على حساب وضع وسرعة هذه الجزيئات في أي لحظة

(٢) انظر :

D. Rumes, The Dictionary of Philosophy, p. 78 London 1975.

R. Taylor, Metaphysics Ch. 4, Englewood Cliffs, New Jersey, 1963.

A. J. Ayer, Fatalism, in the Concept of A Person, P. 262, Macmillan, London 1963.

Ducasse, Determinism, Freedom and Responsibility, in S. Hook (ed.), Determinism and Freedom, pp. 160-166, New York, 1961.

J. Hospers, An Introduction to Philosophical Analysis p. 321, 2nd ed., London, 1967.

وأياً ،

وأياً ،

وأياً ،

وأياً ،

عنصر الصدفة الحقيقية فما يحدث داخل الذرة يقضيان على الحتمية المطلقة بكل وضوح . وعلى الرغم من كل ذلك نجد بلانك يناهض بأن من الممكن لنظرية الكوانتم أن تعيد تمهيدا دقيقا في بعض المعادلات التي تحقق صياغة أكثر دقة لقانون العملية ، بل يعلن بلانك أيضا أن هدف العلم هو الوصول إلى حوادث ترتبط ارتباطا عاليا ، والعملية فرض أساسي للعلم ^(٥) . وفي نفس الاتجاه يقول العالم الطبيعي الفرنسي المعاصر لويس دي بروي Louis de Broglie : « أكاد أقنع بأن من الممكن إقامة تصور حتمي للميكانيكا الموجية ولكنني أرى أنه بالنظر إلى آرائي السابقة فإنه يحسن بنا أن نعيد وضع المشكلة من جديد لكي نعيد فحصها بكل دقة ^(٦) » . وأصل هذا الموقف والتخفيف من حدة الثورة على الحتمية المطلقة ما دفع أحد فلاسفة العلم المعاصرين إلى القول بأن الحوادث داخل الذرة لا تخضع لمبدأ العلية وأن بعض الحوادث تحدث صدفة لكن لا يزال يوجد نوع من النظام والاطراد ، لأن الفترتات التي تحدث صدفة تولف نموذجيا منتظما ، ولا يتم ذلك إلا إذا كان هنالك مبدأ يحكم تلك الحوادث ^(٧) .

أما هيزنبرج فقد صاغ « مبدأ الازدواج » Uncertainty Principle عام ١٩٢٧ ^(٨) ، ويؤداه أن من المستحيل أن تعرف بتحديد ودقة الوضع المكاني للالكترون وسرعة حركته في وقت واحد معا ، وإنما يمكننا حساب وضعه المكاني بكل دقة ولا نستطيع حساب سرعة حركته بنفس الدقة ، أو حساب دقيق لسرعة حركة الالكترون دون معرفة وضعه المكاني بنفس الدقة .

والآن هل تقضي نظرية الكوانتم واكتشافات يور هيزنبرج بوجه خاص على الحتمية الكلية في العالم الطبيعي ؟ ان الجواب الحاسم أمر عسير ، وذلك لاختلاف صياغات العلماء لقوانين النظرية واختلاف تفسيراتهم لها . وربما لا تزال النظرية تتأدي بالحتمية المطلقة ، وما نراه ممركا في حركات الالكترونات قد يرجع إلى تصور معرفتنا الحاضرة بكل القوانين ^(٩) . لكن قد نفسر هذه الاكتشافات في ضوء القوانين الأخرى وهي قوانين أحصائية لا علية ، وفي ذلك ينكر كل أقطاب النظرية تفسيرات علية لما يحدث داخل الذرة ، كما تؤكد النظرية نقطة هامة أخرى هي وجود عنصر الصدفة ، قائما في الطبيعة من الناحية الانطولوجية . وإنكار عمومية مبدأ العلية وإثبات

(٣) يسمى هذا المبدأ أيضا Indeterminacy principle لكن هذه التسمية ليست شهيرة وإلا لامتدحت الذي نشره المبدأ بأن للالكترون حرية اختيار ما لم يقبض هيزنبرج نفسه .

(٤) B. Blauhard, The Case For Determinism, in S. Hook (ed.) Determinism and Freedom, p. 24, New York, 1961.

(٥) S. Stebbing, Philosophy and The Physicists, pp. 141-3, Penguin, Harmondsworth, Middlesex, 1944.

(٦) ذكرها إبراهيم ، مشكلة مصر ، مكتبة مصر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ص ١٠٠ طمش .

(٧) Bridgman, Determinism in Modern Science, in S. Hook (ed.) Determinism and Freedom, p. 65

البحث ، والآن نتناول الصور الاربعه الاخرى ،
ونبنيها بما يمكننا تسميته « الجبرية الميتافيزيقية » .

(١٥)

الجبرية الميتافيزيقية

ونقصد بها موقف سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ -
١٦٧٧) من مشكلة الحرية الانسانية . ويدعو هذا
الموقف الى جبرية مطلقة لافعال الانسان الارادية ،
وترتبط هذه الجبرية بتصور معين للعالم الطبيعي اذ
يخضع لقوانين حتمية مطلقة لا استثناء لها ، وان كل
شيء في العالم مرتبط بكل شيء آخر بعلاقات عليية
صارمة محكمة ، ذلك لاننا نعتقد ان لكل حادثة علة ،
ول هذه العلة علة تسبقها وتفسرها ، الى ما لا نهاية .
ولا تستند هذه الحتمية الطبيعية والجبرية الانسانية الى
أساس تجريبي أو استنباطي مما هو تجريبي ، وإنما
تقوian على منهج ميتافيزيقي معين هو « وحدة
الوجود » *Pantheism* أو « الواحدية المطلقة »
Monism . لا يرفض سبينوزا خضوع أفعال الانسان
لقوانين علم وظائف الاعضاء أو الوراثة أو علم
النفس أو الأحياء ، ولا يرفض خضوع العالم
الطبيعي لقوانين طبيعية حتمية تقوم على ملاحظات
وتجارب ، وإنما يرى أن تلك القوانين تتمتع على
الحواس والتجارب ، وهذان مؤيدان الى معرفة احتمالية
فقط ، لكن سبينوزا يريد بالمعرفة ان تكون يقينا لا
احتمال فيه ، وصدقا مطلقا لا يعرض له شك ، ورأى
أن العقل - كقدرة برهانية استنباطية - قادر على هذه
المعرفة المثلث للانسان . ولذهب وحدة الوجود هنا طابع
لاهوتي يجعل الله مبدأ الوجود وأساسه وعلة ، بل لا

والآن اذا أودنا تلخيص موقف علماء الطبيعة
المعاصرين من نظرية الحتمية المطلقة التقليدية أمكننا
القول بأنه على الرغم من اكتشافهم عنصر الصدفة
الحقيقية فتعمل فعلها في حوادث الذرة ، وانكارهم
التفسير العلي لهذه الحوادث ودعواهم باستحالة التنبؤ
- غير أنهم لا يزالون يعتقدون بالحتمية والعلية
كمصادرة منهجية أو برنامج في البحث (لا كموقف
ميتافيزيقي) ، وان لم يبنوا لها سندا تجريبيا ، يجب
أن يبدأ البحث العلمي بالمصادرة على امكان تفسير
ما يحدث في العالم بقوانين محددة ولا يمنع ذلك من
وجود حوادث تحدث صدفة تتحدى تلك القوانين .

فان صححت هذه الاستنباطات من نظرية
الكوانتم فمن الخطأ الاعتقاد بأنها تفتح الباب على
مصراعيه للفلاسفة بالحرية مادامت تصادر على
التفسير العلمي ، ومادامت تفترض ان الصدفة
لا زالت تحقق لنا نسقا فيزيائيا متظلا يسير حسب
مبادئه قد لا نجد لها تفسيرا حتى اليوم .

(٥)

النظريات الجبرية المتطرفة

تتخذ نظرية الجبرية عدة صور تؤكد كل منها
جبرية الافعال الانسانية من جانب يختلف عن
الجوانب التي تؤكدها الصور الأخرى . وهذه الصور
- فيما يبدو - خمسة : الجبرية الدينية أو الايمان
بالقضاء والقدر ، والجبرية الميتافيزيقية ، والجبرية
المنطقية ، والجبرية الفسيولوجية ، والجبرية النفسية
المتطرفة ونظرية التحليل النفسي . سوف نوجس
البحث في الجبرية الدينية الى القسم التاسع من هذا

وظاهر فخر العالم أو الطبيعة المطبوعة المصنوعة *Natura naturata* . ويؤلف هذا الوجود نسقا مغلقا وأن القوانين التي تحكم الاشياء - وهي مجرد حالات ووظاهر لوجود الله هي قوانين حددتها طبيعة الله وحكمته منذ الأزل ، والماضي والحاضر والمستقبل محدد مقدر لا تغيير فيه ولا تبديل .

بعد إيجاز تصور سبينوزا للكون ، تنتقل الى جبرية أفعال الانسان عنده . الانسان مجبور على كل أفعاله ، وحين يؤدي فعلا بإرادته ، لم يكن يستطيع ان يفعل فعلا مختلفا ، لانه يخضع في كل ما يفعل لعوامل اضطرته الى فعله ، وهذه العوامل ذاتية داخلية أو خارجية . والمقصود بالعلل الداخلية لافعالنا علل فسيولوجية أو نفسية في ذات الانسان تحكم سلوكه ، وبالعلل الخارجية علل طبيعية هي الظروف الخارجية المحيطة بالانسان في العالم وقت أدائه أفعاله والتي تحفزها الى فعل ما أو تجعله يعزف عن فعل آخر ، وهذه العلل الخارجية تنبع في نهاية المطاف من طبيعة الله وحكمته .

لا تترك الحرية الميتافيزيقية أننا نعي في واقعنا الحي أننا نختار ونفترى في الاختيار وتتخذ قرارات لتففيذ أفعال معينة ، وقد تردد في أداء فعل ما أو الامتناع عن فعل آخر ، وإتنا قد نبذل جهدا في مقاومة بعض رغباتنا - لا تترك هذه الجبرية شيئا من هذا لكنها تؤكد أن لكل ما نفعل ونعاني خبرته ونكايته عللا فسيولوجية أو نفسية لا تلك السيطرة عليها ، وهذه العلل تحكمها علل خارجية هي الظروف الحتمية المحيطة بنا في العالم الطبيعي ،

يوجد « إلا هو ، وما عنده من أشياء ويشر ليست إلا حالات له ووظاهر لوجوده . ولقد تأثر سبينوزا في هذا المذهب بصدد من الفلاسفة اليهود والمسيحيين والاسلاميين ، مثل ابن رشد في اتجاهه العقلاني ، وابن عربي بتراته الصوفي ، وسوى بن ميمون ، وعاش هؤلاء في القرن الثاني عشر الميلادي ، ثم جيوراندسو برونو *Giordano Bruno* (١٥٤٨ - ١٦٠٠) من أوائل الفلاسفة المحدثين في القرن السادس عشر الميلادي . لكن الفلسفة التي أثرت في سبينوزا تأثيرا مباشرا وكانت منها نقطة انطلاقه هي فلسفة ديكارت . بدأ سبنوزا فلسفته بنقطتين أساسيتين عند ديكارت هما تصوره للجوهر وتحمسه للحتمية المطلقة في العالم الطبيعي ودمجها معا في مذنب منسق متنسق قوامه وحدة الوجود ، وهو ما لم يقل به ديكارت . أخذ ترميها معينا للجوهر وهو « ما يوجد بذاته ولا يعتمد في وجوده على أي شيء آخر غير ذاته » ووجد هذا التصور للجوهر تطبيقا واحدا هو الله ، إذ ليس في الوجود غيره ، ورأى سبينوزا الله عددا لا متاهيا من الصفات لا تصرف منها الا صفتين هما الفكر والامتداد (وأن كان سبينوزا يقول عن الله أيضا أنه الوجود المستقل بذاته استغلا لا مطلقا ، واللامتناهي ، وأنه علة بذاته *Causa Sui* أي أنه يحدد ذاته أو تحدده طبيعته) . ولذلك لا تميز عند سبينوزا بين الله والعالم بل يسوي بينهما . والوجود واحد يسميه « الله أو الطبيعة » *Deus sive Natura* إن نظرت الى الوجود من جهة مبدئه وبصدره فهو الله أو الطبيعة الطابطة الخلاقة *Natura naturans* . وإن نظرت اليه من جهة ما يحدث من أشياء وحوادث

بمعنى خضوع العالم لقوانين ، لكنهم رفضوا المحتمة الكلية ، حيث أظهرت التجارب حدوث حوادث صدف ، أو لا تفسر تفسيراً علياً ، ورغم ذلك رأى هؤلاء العلماء وجوب اتخاذ المحتمة والعلمية مبادئ موجبة للبحث أو مصادرات للبحث العلمي دون أن نقرها تقريراً قيمياً حاسماً . ولعل هذا الموقف العلمي هو تطوير للمحتمة المطلقة عند سينيوزا من الفلاسفة ونيوتن من العلماء .

(٢) لا يمكن اعتبار الجبرية الميتافيزيقية نوعاً من الجبرية الدينية أو الايمان بالقضاء والقدر ، ذلك لأن تصور سينيوزا لله يختلف عن تصور الاديان ، ذلك الذي يلتزم به الفلاسفة المدافعون عن القضاء والقدر - كما سنرى ببعض تفصيل في القسم التاسع من هذا البحث . ليس الله عند سينيوزا فرداً ولا شخصاً لأن الفردية تعيد ، والتعديد سلب ولا يجري على الوجود المطلق سلب ، والله عند سينيوزا لا يرغب في شيء ، لأن في الرغبة نقصاً يراد التخلّص عليه ، والله لا ينقص شيء ، وليس لله عند سينيوزا ارادة ولا فعل وإنما كل ما يتم في الكون يتم بضرورة اقتضتها طبيعته . والإنسان عند سينيوزا ليس مشغولاً عن أفعاله ولا تكليف عليه ولا حساب ولا جزاء . لكل ذلك لم تدرج سينيوزا مع الداعين الى جبرية القضاء والقدر ، كما أن ذلك أدى بأحبار اليهود الى الحكم على سينيوزا بالالحاد .^(٨)

وتعمد هذه الظروف في نهاية المطاف الى الملة الاولى التي رسمت كل شيء بضرورة ازلية وكال اسمى . ان الاعتقاد بأننا احرار وهم ، مردّه جهلنا بكثير من تلك الملل الداخلية كانت أو خارجية ، ولو عرفنا كل هذه القوانين لأدركنا حقيقة الجبر الصادم ، وكما ازدادنا معرفة بتلك القوانين ازدادنا يقيناً بالجبرية . لكن هيات أن يدرك الانسان المحدود المعرفة كل القوانين التي تقض له ذاته والكون ككل . والانسان الحكيم هو من ازدادت معرفته لملل أفعاله ، وحينئذ يعترف عن أن تضده رغبة جزئية أولية وقتية ، وأن ينفر من ألم ينتابه ، لأنه بدأ يدرك أنه يجب ألا يأسي على ما فاتته ولا يفرح بما يأتيه ، وإنما هو جزء ملتصم بالكون ككل بعالم سبق تقديره طبقاً للخير المطلق والحكمة الالهية .

ولنا تعقيب موجز على هذه الجبرية بالاشارة الى نقطتين هما المحتمة الطبيعية وتصور سينيوزا لله .

(١) لم تقر الجبرية الميتافيزيقية المحتمة الطبيعية على أساس ملاحظات وتجارب واستنباط علمي ، وإنما على أساس موقف ميتافيزيقي خلاصته ان الوجود الحقيقي هو وجود الله وحده ثم استنباط ما يلزم عن هذا الوجود من لوازم منطقية ، يلزم ان كل ما يوجد غير الله ليس سوى مظاهر أو ظلال لوجوده ، وهذه المظاهر متحد وبعدها وسلوكها طبيعة الله الثابتة الخيرة بضرورة ازلية . لكن العلماء المعاصرين وصلوا - كما رأينا في القسم السابق - الى اعلان المحتمة

(٨) انظر ، 'Spinoza, Ethics, pt. I Prop. XXVI, Appendix; Pt. II, Prop. XIVIII; Pt. IV Prop LXIII' ،
translated into English by A. Boyle, Dentand Sons, London, 1910.

أيضاً ،
S. Hampshire, Spinoza, PP. 150-168, Pelican, 1953

أيضاً : ذكرها إبراهيم ، مشكلة الحرية ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

أن الله علمه مطلق وتقديره أزلي لما سوف يكون ،
لكن حقائق المنطق لا يفترض وجود الله أو أي وجود
آخر وإنما يفترض فقط وجود حقائق .

تتعلق الجبرية المنطقية بوجود عالم الحقائق
وتقول أن كل ما يوجد من أشياء وما يقع من حوادث
في الماضي والحاضر والمستقبل مقدر ابتداء ، بحيث
تصبح القضية المركبة الآتية صادقة دائماً وتحصيل
حاصل : « ما وقع لم يكن منه مفر ، وما سوف يحدث
سيحدث حتماً ومن المستحيل ألا يتم » . حين نقول
مثلاً أن نابليون هزم في ووترلو عام ١٨١٥ ، فإن
نابليون لم يعلم عن هزيمته إلا حين وقعت بالفعل ،
ونحن لم نعلم هزيمته إلا بعد قراءتنا لها من كتب
التاريخ ، وكل ذلك وقع في زمن ، لكن واقعة الهزيمة
أمر حتمي كان لا بد أن يقع . قد يقال أن هزيمة
نابليون أمر حادث لا ضرورة فيه وكان يمكن أن
ينتصر لو كانت ظروفه مختلفة . هذا حق ، لكن حين
وقع ما وقع بالظروف التي أحاطت به بالفعل لم يكن
هنالك مفر من منه . يمكنك أن تسأل متى هزم
نابليون ؟ لكن لا يمكنك أن تسأل متى صدقت
القضية « هزم نابليون عام ١٨١٥ » فالصدق لا
يتعلق بزمن كما سبق القول . والقضية الصادقة تعبر
عما حدث أو يحدث لكن هذه الوقائع مقدرة منذ
الأزل وإن كنا نكتشفها في زمن معين .

يمكننا التعقيب على هذه الجبرية المنطقية بأنه
يمكن اعتبارها الجانب المنطقي للبحث من الجبرية
الميثافيزيقية عند سبينوزا الذي أعطى الله العلم
المطلق والتقدير السابق منذ الأزل لكل ما يحدث ،

(٥ ب)

الجبرية المنطقية

تقوم هذه الصورة من الجبرية على أساس منطقي
بحث لا تداخله تصورات لاهوتية أو ميثافيزيقية ،
وتتعلق بما يسمى عالم الحقائق ، والحقائق هي
القضايا الصادقة دائماً ، كبدعيات الرياضيات
وقوانين المنطق . لكن حين نصوغ حادثة طبيعية
وقمت فعلاً في قضية تصبح هذه القضية صادقة
وتدخل في إطار عالم الحقائق . وهذا العالم عند
أنصار الجبرية المنطقية عالم نكتشفه ولا نخلقه ، كما
أنه لا يتعلق بزمن إذ يخرج على حدود الزمن ، أي لا
نقول عن حقيقة ما أنها كانت صادقة وإنما نقول أنها
صادقة وكفى . ولا تسأل من علم عالم الحقائق أو
قدره أو أراد ، لأن الجواب سوف يكون : لا أحد .
إن علم أي كائن - مهما ساء قدره - بأنه سافعل
كذا في المستقبل لن يلزمني بفعله ، إذ لا يلزم عن
الحقائق إلا حقائق ولا يلزم عن القضايا الصادقة إلا
قضايا صادقة ، لكن الحقائق لا يلزم عنها حوادث أو
أفعال . إن قلت « اليوم يوم الاثنين » وكانت قضية
صادقة تعبر عن واقع ، فقد لزمت القضية « الغد يوم
الثلاثاء » .

ولئن قلت إن علم الله يلزم عنه وقوع ما علم
وقدر ، فإن الجبرية المنطقية تدفع ذلك بقولها إن ليس
بين العلم بحدثة قبل وقوعها ووقوعها بالفعل علاقة
منطقية ضرورية ، فقد أتينا بشيء ولا يحدث ، وإذا
قلت إن علم الله وتقديره لفعل ما يلزم عنه حدوث
هذا الفعل فإناك مضطر إلى إضافة قضية أخرى هي

وبذلك أضاف مقدمات فلسفية ليست في ذاتها حقائق منطقية خالصة . ويمكننا القول أيضا أننا سواء نادينا بالجبرية أم بالحرية فكلا الموقفين يتسقان مع الجبرية المنطقية ، فما نفعه عن جبر - من أي نوع - أو عن اختيار فهو أمر واقع لا مفر منه ولا معنى للحديث عن منته أو تجنبه بعد حدوثه بالفعل .

ويمكن التماس هذه الجبرية المنطقية عند أرسطو فيا سياه « الاشياء الخالدة » *eternal things* مثل حقائق الرياضيات وما يحدث في العالم المحسوس وعالم الافلاك بوجه خاص من حركات وحوادث (١) ويمكن التماسها أيضا عند ديكرت الذي وضع القضية « لا بد مما ليس منه بد » *what has been done cannot be undone* من بين ما يسميه الحقائق الخالدة (٢) . لكن غير من صاغ هذه الجبرية من المعاصرين جليبرت رايل *G. ryle* (١٩٠٠ - ١٩٧٧) والفرد اير *A. J. ayer* (١٩١٠ -) (٣) .

(ج ٥)

الجبرية الفسيولوجية

الجبرية الفسيولوجية تطبق للحتمية الطبيعية في الانسان ، لا بالقول ان الانسان جزء من العالم الطبيعي يخضع لكل ما تخضع له اجزاء المادة من

قوانين طبيعية ، وإنما باخضاع سلوك الانسان لقوانين علم وظائف الاعضاء . يقصر هذا العلم أولا كل أفعالنا اللاأرادية والمنعكسة يرجعها الى علة فسيولوجية ، هي حادثة أو مجموعة حوادث داخل البدن ، فكل ما يحدث داخل البدن من حركات وتغيرات ووظائف كبض القلب وانفrazات المعدة والامعاء والكبد والغدد الصماء وحركات الخلايا الحية يمكن تفسيرها بقوانين علم وظائف الاعضاء ، ولا إرادة للانسان في أحداثها ، ولا وعي له بها ، ولا سيطرة له عليها . ويفسر علم وظائف الاعضاء ثانيا تفسيرها فسيولوجيا بعنا كل أفعالنا الارادية - وهي تختلف نمذج سلوكنا - من حركات أعضاء الجسم وحالاتنا النفسية من احساس بألم أو لذة أو رغبة أو انفعال ، وحوادث عقلية من ادراك حسي وتذكر وتخيل واستدلال وما الى ذلك ، اذ يعتمد كل سلوكنا الارادي على تركيب الجسم وسلامة أعضائه وأداء كل عضو لوظيفته أداء ناجحا ، ويعتمد سلوكنا الارادي على تركيب المورثات (الجينات) وهي جزئيات معينة في نواة الخلية الحية تحسوي مركبا كياويا بسمونه *Deoxyribonuclei Acid* (أو باختصار *DNA*) يحمل الخصائص الوراثية التي تنقل من فرد لآخر ويتحكم في تركيب الاعضاء وطريقة استجابة الفرد لبيئته . كما ان البروتين بلانز - وهو مركب كياوي

Aristotle, *Nicomachean Ethics* 1112 a 23-29

(١)

Descartes, *Principles of Philosophy*, Pt. I Princ. XLIX

(٢)

G. Ryle, *It was to be, in Dilemmas*, PP. 15-35 Cambridge, 1960.

(٣)

A. J. Ayer, *Fatalism*, in *The Concept of A Person*, PP. 235-254, Macmillan, London, 1963.

Freedom and Necessity, in *Philosophical Essays*, 284, Macmillan, 1959.

وتد التعقيب على هذه الجبرية الفسيولوجية بما يلي . لا خلاف بين الفلاسفة جميعا على تأثير العوامل الفسيولوجية في سلوك الانسان ، وأن لمباتنا الشعورية أساسا فسيولوجيا في المنع واللعاء يوجه خاص ، لكنهم قد لا يتفقون مع علماء وظائف الاعضاء وعلماء النفس التجريبي والسلوكيين في سلامة الانتقال من هذا التأثير الى الجبرية المطلقة . نذكر هنا يلي بعض انتقادات الفلاسفة على تلك الجبرية الفسيولوجية .

(١) تعتمد هذه الجبرية على صق مبدأ العلية ، ولما ما يبرها بطبيعة الحال ، اذ تكاد حياتنا اليومية لا تخلو من التفكير على هداه ، لكن ليس هذا المبدأ ضرورة منطقية قاطعة ، اذ يمكنك الطعن فيه دون وقوع في التناقض ، لانه يمكننا تصور حادثة بلا علة أو حدوث حادثة لا نفسرها بما في حوزتنا من قوانين . وليست كل القوانين العلمية قوانين علية ، اذ ان بعضها قوانين احصائية وبعضها الآخر قوانين وصفية لا أثر للتفسير العلمي فيها .

(٢) يقيم علم وظائف الاعضاء قوانين عامة يفسر بها تركيب أعضاء الكائن الحي ووظائفها ، لكننا نلاحظ أن هذه القوانين لا تبلغ في عموميتها قوانين الطبيعة والكيمياء . هذه القوانين الاخيرة أكثر عمومية من العلوم الانسانية لانها تتناول وحدات مادية متجانسة متشابهة يمكن قياسها وتقدير سرعة حركتها واتجاهها ووصف تفاعلات مركباتها بكل دقة ، لكن لا يمكن تطبيق هذه الدقة والعمومية على

أساسي يدخل في تركيب كل خلية حية - ينظم سلوك الفرد بصورة معينة لتحقيق تكيف الجسم مع بيئته . وتنادي الجبرية الفسيولوجية ثالثا بتفسير فسيولوجي خالص لسلوك الافراد الشواذ المصابين بأمراض نفسية وعقلية حادة مثل المستعصيا والصرع epilepsy والبارانويا وجنون الفصام schizophrenia وترد هذه الامراض الى سوء أداء الجهاز البصري العصبي بعامة والمنع بخاصة لوظائفها ، وبذلك لا يكون هؤلاء الافراد الشواذ سيطرة على أفعالهم . بل يرى بعض علماء وظائف الاعضاء ان في مقدورهم خلق ظروف أو علة فسيولوجية معينة تثير رغبة معينة أو انفعالا مفاجئا أو تهدئة انفعال آخر ، ومن ثم يصبح الانسان آلة تحت رحمة هؤلاء العلماء أو ضحية عاجزة في يدهم . وثمة نقطة أخيرة يخبرها بعض علماء وظائف الاعضاء مستوحاة من نظرية الكوانتم في علم الطبيعة المعاصر : اذا كانت الصدفة عاملا فعلا في حركات الذرة ، فقد يكتشف العلماء يوما ما حادثة تحدث صدفة في الجهاز العصبي لانسان ما وتصبح علة لسلوك معين ، وبذلك يكون للسلوك علة فسيولوجية حدثت صدفة ، ولا معنى هنا لمسئولية أو اختيار ، مثلا اكون مدخنا ثم امتعت عن التدخين ، ثم يأتي صديق ليقيم لي سيجارة ومددت يدي اليها تلقائيا ثم تراجمت فجأة عن أخذها . وقد أفسر تراجمي عن التدخين في هذه المناسبة بعلة صدفة (١٧)

فسيولوجيا كان يرقب ما يدور في مخي من عمليات وتغيرات ، فانه لن يستطيع ان يحدد مقدما اني سأخرج من المنزل ، وكل ما يستطيع قوله أن هنالك في المخ تغيرات فسيولوجية نشطة تنطوي على جهد عقلي حاد . (١٣)

لا نريد بهذه الانتقادات جعل الجبرية الفسيولوجية بغير أساس ، لكننا نريد القول فقط أن ليس فيها فصل الخطأ ، إذ على الرغم من أن العوامل الفسيولوجية شرط ضروري لقيام أي سلوك إنساني ، غير أنها لا تكفي وحدها لتفسير تام لهذا السلوك ، فهناك عوامل نفسية تعمل فعلها في توجيه السلوك تتفاعل مع تلك العوامل الفسيولوجية . (١٤)

(٥ ٥)

الجبرية النفسية المتطرفة والتحليل النفسي

لقد أوجزنا في الأقسام السابقة من البحث ثلاثة صور لنظريات الجبرية المتطرفة ، تدعو اثنتان منها إلى أن الانسان مجبور على أفعاله من سلطة خارجية عليه ، ها الجبرية الميتافيزيقية والجبرية المنطقية ، بينما تدعو الصورة الثالثة - وهي الجبرية الفسيولوجية -

الانسان بسبب الفروق الفردية بين الناس ، كما أن السلوك الانساني يخضع للظروف الخاصة بكل فرد والبيئة المحيطة به . وذلك حال علوم النفس والاجتماع ووظائف الاعضاء ونحوها .

(٣) تتضمن الجبرية الفسيولوجية التي تجري في الفرد الذي يصدر عنه هذا السلوك ، لكن التنبؤ بسلوك الناس قدره ضئيل لسببين .

(أ) وظائف اللحاء في المخ الانساني - كما يقول علماء فسيولوجيا الاعصاب Neurophysiology - شديدة التعقيد ، ولا زلنا نجهل عنها أكثر مما نعلم - لا زلنا نجهل الظروف المحددة التي تنشأ في ظلها نماذج العمليات العصبية التي تؤدي الى عمليات شعورية معقدة ، تلك التي تشترك فيها عشرات الملايين من الخلايا العصبية وتم في اللحاء وتؤدي الى تذكر أو اختيار .

(ب) قدرتنا على التنبؤ بالسلوك ضعيفة وذلك لاختلاف طبيعة التغيرات الفسيولوجية عن العمليات الشعورية . افترض أني أردت الاختيار بين الاستمرار في الكتابة وترك المنزل لأداء عمل معين وترددت بعض الوقت ثم قررت الخروج من المنزل ، وافترض ان علما

(١٣) نطرونا موضوع التنبؤ من جهات أخرى ، انظر الفقرة الاخيرة من القسم ٦ بالفتة ٢ من قسم ٧

(١٤) انظر :

G. Sommerhoff, *Logic of The Living Brain*, PP. 12-23, London, 1974

Eccles, *Facing Reality : Philosophical Adventures By A Brain Scientist*, Chs. 2, 4, New York 1971

C. H. Whiteley, *man, In Action, An Essay In Philosophical Psychology*, PP. 33-35. Oxford University Press, London, 1973.

D. M. Mackey, *Brain and Will*, in Vesey (ed.) *Body And Mind* p. 394 Allen and Unwin London, 1964.

وعواطفه ، وما اذا كان هادئ الطبع رزيناً في اشباع
انفعالاته أم حاداً لا يستطيع ضبط نفسه ، هل هو
خجول أم جسور ، خائف أم متهور أم شجاع ، منظر
أم منبسط ، وما اذا كان قوي الإرادة أم ضعيفها ، أم
مصاب بالتردد وعدم القدرة على اتخاذ القرار ، كما
يدخل في التركيبة النفسية المتغيرة لكل فرد مجموعة
عقائده وشكوكه وقيمه وبيادته واتجاهاته التي يمين بها
أو يمتنعها ، وتراثه الثقافي الذي يوجهه في حياته -
ذلك هو المقصود بالتركيبة النفسية المتغيرة التي ترى
الجزيرة النفسية ان كل انسان يسلك طبقاً لها ولا
يستطيع الخروج من اطارها . وهذه الجزيرة النفسية
نوعان ساهما ولهم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠)
« الجزيرة النفسية المتعددة أو اللينة » .

Soft Psychological determinism

و « الجزيرة النفسية المتطرفة »
Hard Psychological determinism . أما الجزيرة
النفسية المتعددة فهي تصير للحرية لا للجبر ، ولذلك
تؤجل تفصيلها للقسم السابع من هذا البحث ، بينما
يدعو أصحاب الجزيرة النفسية المتطرفة الى الجبر .
ولقد اعتمدت هذه الجزيرة النفسية المتطرفة في باديء
أمرها على المحتمة العلمية وتطبيقها على قوانين
الاحياء وعلم النفس وعلم وظائف الاعضاء ، ومن
رواد هذه الجزيرة في تلك الصورة المبكرة دولباخ
D'Holbach (١٧٢٣ - ١٧٨٩) وشربنهاور
Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠) . لا ينكران
اننا نختار أفعالنا . وأتأ قد تتروى فيما سوف نعلمه ،
واتأ نبذل الجهد في مقاومة بعض رغباتنا ، وأن أفعالنا
تصدر عن ارادتنا ونحقق بها رغباتنا ، لكنها ينكران

الى جبرية أفعال الانسان بفعل قوة داخلية فيه . فقد
رأت الجزيرة الميتافيزيقية أن العالم الطبيعي يخضع
لقوانين حتمية مطلقة وعلاقات عليية صارمة ، وبإدام
الانسان جزءاً من هذا العالم فأفعاله الإرادية تخضع
لقوانين فسيولوجية ونفسية طاغية ، تشتق طفيلاتها من
حتمية قوانين الطبيعة ، وقوانين الطبيعة جزء من
قوانين أعم قدرها الله منذ الازل لا تغير فيها ولا
تبدل . أما الجزيرة المنطقية فترأ أن الحقائق (وهي
ما يعبر عنها بقضايا صادقة دائماً لا موضع لكذب أو
شك فيها) محتمة منذ البدء ولا تتلاق بزمن وانها
تؤلف عالماً لا نخلقه وليس من صنعنا وإنما نكتشفه
حين تقع الوقائع الصادقة في الزمن أو في واقعنا
الحى . ما حدث في الماضي كان لابد ان يتم على
النحو الذي تم به ، وما سوف يقع في المستقبل أمراً
مفروض منه ، وأي جهد نبذله لتغيير مسار شيء ما قبل
وقوعه إنما يدخل في مجال ما سوف يقع بالفعل في
المستقبل ، وتصبح الجزيرة المطلقة تحصيل حاصل
حتى لو مارسنا ارادة واختياراً .

نأتي الآن الى صورة رابعة للجزيرة المتطرفة ترى
ان الانسان مجبور على أفعاله من داخله ، لا في أطار
جزيرة قوانين وظائف الاعضاء كما تتادي الجزيرة
الفسيولوجية ، وإنما في اطار جزيرة نفسية ذاتية .
وتدعو الجزيرة النفسية بوجه عام الى ان كل انسان
يقوم بأفعاله الإرادية في حدود تركيبة النفسي المتغير
المتميز ، من دوافع ورغبات وانفعالات وعواطف ،
وبدى اندفاعه التلقائي لتحقيقها أو محاولة التسليم
على بعضها ومقاومتها ، وبدى استجابته لانتفاعاته

أن لدينا حرية في اختيار رغباتنا أو تحويل مجرى أرائدنا ، يقولان بعبارة أخرى أننا نفضل ما نريد لكننا لا نستطيع أن نحدد ما نريد ، والمقصود أن الفرد لا يستطيع أن يغير طباعه أو سماته النفسية ، ذلك لأن هذه الطباع والسمات ليست إلا حصيلية عوامل الوراثة والبيئة التي شكلت سمات كل منا منذ الطفولة ، وحصيلية المواد والاتجاهات والقيم التي اكتسبناها في أحداثنا ، ولم يعد للفرد قدرة على تغييرها . (١٥)

ولهذه النظرة المبكرة أنصار اليوم من الفلاسفة المعاصرين بعد أن طوروها ، إذ لم يتجاهلوا وقائع بذل الجهد ومحاولة تغيير طباعنا وعاداتنا ، لكنهم يقولون أن الشخص الذي يحاول تغيير بعض سماته وتعديلها لا يبد وأن لديه استعداداً لهذا التغيير والتعديل في إطار سماته واتجاهاته وثقافته . ويضيفون أنهم لا ينكرون أن للإنسان حرية اختياراً ، وإنما يصرون على القول أن الحرية غير ممكنة إلا في إطار الجبرية النفسية ويقصدون بذلك أن لا فعل بلا علة فإن كان بلا علة فإنه ينشأ صدفة ، وأما لا أملك السيطرة على ما يحدث لي صدفة ولا مسئولية لي فيه . وتكمن علل أفعالي الحرة في سماتي النفسية التي حصلت عليها وترد في نهاية المطاف إلى عوامل وراثية وفسيولوجية واجتماعية ، بالإضافة إلى ما أؤمن به من قيم ومبادئ . (١٦)

نلاحظ أن هذه الجبرية النفسية المتطرفة لم تتعمق في تصور السمات النفسية مثلاً فطلت نظرية الجبرية النفسية المعتدلة - كما سنرى بعد حين - لكنها دعمت موقفها الجبري باللجوء إلى نظرية التحليل النفسي عند فرويد ومدرسته . إن الشخص الذي يقوم بفعل ارادي وهو على وعي تام باختياره ويؤدي عقب تفكير وروية ويعتقد أن له سيطرة تامة على ما فعل ويشعر بمسئوليته عما فعل ، هذا الشخص في الواقع إنما هو مجبر على فعله نتيجة صراع لا شعوري نشأ منذ الطفولة ، ولا سيطرة له الآن عليه ، بل لا يعرف هذا الشخص أنه يعاني هذا الصراع . ويوضح أنصار الجبرية النفسية المتطرفة ذلك بحال فتاة رغبت في الزواج فاختارت شخصاً يكرها بشرين عاماً وصدر اختيارها عن وعي وروية وتفكير . ويفسر التحليل النفسي هذا السلوك بأن الفتاة كانت تعاني لا شعورياً من حب مفرط لأبيها منذ الطفولة ورأت فيه مثال الرجل فاختارت زوجها على مثاله ، وهي لا تفي بهذا الدافع اللاشعوري بل ترفض هذا التفسير إذا وجهت به . ومثل المجرم الذي خطط لجرمته عن وعي وتفكير وحساب نتائج فعله قبل أدائه ، لكن قد يكون لسلوكه الاجراسي دافع لا شعوري ، فقد يكون نشأ لقيطاً أو منبوذاً أو لاقى حياة بائسة تصب في صباه فأدى ذلك إلى كرهه للمجتمع وحقد عليه .

P. Edward ' , Hard and Soft Determinism, in S. Hook (ed.), Determinism and Freedom, (١٥) PP. 119-121, New York 1961.

J. Hospers' ,What Means This Freedom, in S. Hook (ed.) Op. cit' PP. 126-140.

(١٦)

بالتفسير الغائي هنا أن كل سلوك يحقق رغبة أو يشبع دافعا أو يهدف الى غرض . والنقطة الثالثة في فرض فرويد - وهي بيت القصيد - هي فكرة اللاشعور ، وقد وسع بها من معنى الدوافع والرغبات والقصد بحيث تشمل الدوافع والرغبات اللاشعورية ، وهي ما لا نعي به في حياتنا الشعورية . وتقول مدرسة التحليل النفسي ان الدوافع اللاشعورية هي الدوافع الحقيقية التي تضطربنا الى ما نفعل من أفعال ، ورغم ذلك تظل مجهولة لنا ولا نعي بها . والمقصود باللاشعور مجال الرغبات المكبوتة التي يراد إشباعها بحرية مطلقة لا ضابط لها من عقل أو رقيب من الاسرة أو المجتمع أو القانون ، ويتألف هذا المجال من رغبات تكونت في الطفولة المبكرة وأصابعها كبت بتأثير تلك النماذج السابقة من الرقابة ، فأصابعها نسيان لاشعوري ، لكنها تعاد الظهور في الحياة الشعورية في صور رمزية ملتوية فها يبدو من إسقاط أو تكوص أو فلتات لسان أو أحلام أو تمص ونحو ذلك . والشخص القائم بهذه النماذج من السلوك يجبر عليها ولا سلطان له عليها . وان نظرية التحليل النفسي لا تقصر هذه النماذج من السلوك على المصابين بأمراض نفسية ، وإنما تقول ان للدوافع اللاشعورية تأثيرها على كثير من مظاهر سلوكنا السوي .

تلك خلاصة نظرية التحليل النفسي . وقد قلنا أن المؤلف أن تدعو هذه النظرية الى جبرية أفعال الانسان بتأثير سلطان الدوافع اللاشعورية . لكننا لا نرى تصميم هذا القول المؤلف ، على أساس أن علماء التحليل النفسي لا يفتقون عند حد صياغة النظرية والاستدلال على صدقها من شواهد الحياة اليومية .

توجد هنا مناقشة تصور السات النفسية واتقانها قاعدة لجبرية الافعال حتى تصل الى نظرية الجبرية النفسية المعتدلة ، لكن لنا هنا تعقيب على جبرية التحليل النفسي التي تستند اليها نظرية الجبرية النفسية المتطرفة . المؤلف ان نظرية التحليل النفسي تتضمن جبرية متطرفة ، لكننا نريد مناقشة هذا التضمن ، ولذلك نوجه هذه النظرية في خطوطها العريضة دون دخول في تفاصيلها التي يعرفها القارئ في كتب علم النفس العام . أراد فرويد ومدرسته والمطوورون له ان يجعلوا من الدراسات النفسية علما تجريبييا يبعده عن التأملات الميتافيزيقية في أحوال الناس ، كما يبعده عن نماذج النظريات السابقة من علم النفس التجريبي . ولقد مارس فرويد أول أمره علاج الاضطرابات المصابين بأمراض نفسية بالبحث في فسيولوجيا المخ والجهاز العصبي المركزي وما قد أصابها من خلل وتلف وسوء أدائها ووظائفها السوية ، لكن فرويد أقنع عن هذا النوع من العلاج ، وصاغ فرضا علميا جديدا يرسم فيه تقطيحا للجهاز النفسي في الانسان ، مم يتركب ، وما علاقة كل وجه من وجوه هذا الجهاز بالوجوه الاخرى ، وأعان على صياغة هذا الفرض ما توصل اليه من ملاحظات ومشاهدات في علاجه لمرضى . ويتلخص هذا الفرض العلمي في ثلاث نقاط : الأولى تطبيق مبدأ العلية على السلوك الانساني ، اذ يجب ان يكون لكل فعل يقوم به الفرد تفسير علمي ، ولا مجال لصدفة . والنقطة الثانية هي ادخال التفسير الغائي مع التفسير العلمي في مجال السلوك ، وهو ما لم يكن موجودا من قبل في العلوم التجريبية ، والمقصود

(٦)

نظريات الحرية المطلقة

ليس لكلمة حرية معنى واحد ، وإنما لها عدة معاني ، لعل أهمها ستة هي :

(أ) الحرية أحساس ذاتي عميق يدركه كل منا باستبطان ، أوهي وعي مباشر بأن لدينا قدرة على الاختيار .

(ب) الفعل الحر لا علة له .

(ج) الفعل الحر فعل يستحيل التنبؤ به قبل حدوثه .

(د) الحرية غياب الاضطراب أو غياب القسر .

(هـ) الفعل الحر تحقيق هدف أو غاية عن وعي وشعور .

(و) الحرية تحرر من الشهوات ، أوهي قدرة على ضبط النفس . هذه معان للحرية قد يقول بها جميعا فيلسوف واحد ، أو يقول فيلسوف بعضها ويرفض البعض الآخر . نلاحظ أن أنصار الحرية

وإنما يمارسون علاج تلك الحالات المرضية في عياداتهم ، وذلك بأطلاق الذكريات المنسية وتقل الدوافع اللاشعورية الى مجال الشعور ، حين يتم علاج الشخص المصاب يتخلص من سلطان تلك الدوافع . وإن فكرة العلاج هدفها تخليص الفرد من جبيرة الدوافع اللاشعورية والرغبات المكبوتة ، فإن تحقق الهدف تحكم الفرد في سلوكه وسيطر عليه وكان حرا فيما يفعل . فريد القول أن زعماء التحليل النفسي يؤمنون بحرية الانسان ويسعون الى تحريره من سلطان المؤثرات اللاشعورية وإلا فلا معنى للعلاج . يؤمنون أن الانسان السوي والانسان المريض واحد ، فإذا جعلنا الفرد سويا كان حرا ، وإحوا بفلسفتنا من عوائق الحرية . لكنهم اعتقدوا في نفس الوقت ان الشخص السوي بالمعنى الدقيق للكلمة مثل أعلى لا يمكننا الوصول اليه ، أو أن المعرفة التامة بكل دوافع أفعالنا وأنماط سلوكنا مثل أعلى نسعى الى الوصول اليه لكننا لا نأله على الوجه الأكمل . سوف نصل الى هذه النتيجة في نهاية البحث لكن بمقدمات مختلفة . (١٧)

A. C. MacIntyre, *The Unconscious : A Conceptual Study*, London, 1960.

(١٧) أنظر ،

S. Hampshire, *Thought and Action*, London, 1960.

A. Ellis, *An Operational Reformulation of Some of the Basic Principles of Psychoanalysis*,

B. F. Skinner, *Critique of Psychoanalytic Concepts and Theories*, A. Flew, *Motives and the Unconscious*

المفالات الثلاث الاخيرة مشيرة في ،

H. Feigl and M. Scriven, (ed.) *Minnesota Studies in the Philosophy of Science*, Vol. I, *The Foundations of Science and the Concepts of Psychology*, Minneapolis, 1959.

عبد العزيز القوي : أسس الصحة النفسية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨

محمد فؤاد جلال ، مبادئ التحليل النفسي . الطبعة الثانية ، ١٩٦٨

الحرية أحساس ذاتي عميق بأننا أحرار

يرى أنصار الحرية المطلقة أن لكل منا أحساسا مباشرا بأنه حر ، وإن له ارادة ، ويستطيع أن يفعل فعلا ما ، كما يستطيع ان يمتنع عن فعله ، أو يستطيع ان يفعل فعلا ويعتقد أنه كان باستطاعته أن يفعل غير ما قد فعل . يدرك كل منا ذلك باستبطان لا ريب فيه . ويمكن الدفاع عن هذا الاحساس العميق بأساليب مختلفة ، فقد نقول مع توماس ريد وغيره ان الاحساس الذاتي بالحرية أحد المعتقدات الاساسية للادراك العام common sense التي يمتنعها كل منا في حياته اليومية . انه اعتقاد شبيه تماما باعتقادنا بوجود عالم طبيعي من حولنا مستقل عن ادراكنا له ، واعتقادنا بوجود أناس من حولي لهم مثلي احساسات وعقل ودرجات وانفعالات وعواطف وأمانى وآمال وآلام ، واعتقادنا بأن هنالك ماض نستطيع تذكر بعضه ، وإتنا على ثقة في الأعم الأغلب بصديق ذكرياتنا . وأن أي مفكر يبذل الشك في هذه المعتقدات إنما يفعل ذلك لأسباب معرفية لا موضع لذكرها هنا ، لكنه يعتقد بها في حياته العملية ، ما في ذلك شك .^(١٨) وقد تدافع عن هذا الاحساس العميق بالحرية بأسلوب آخر مثل قول الفلاسفة الوجوديين المعاصرين بأن الانسان في أساسه ارادة واختيار ، إذ يقول ياسبرز « أنا اختار ان أنا موجود » ، ويقول سارتر ان أهم ما في الانسان هو

فريقان ، فريق يمكننا تسميتهم بأنصار الحرية المشرقة أو المطلقة ، وفريق نسميهم أنصار الحرية المعتدلة ، وهم موفقون بين أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية المطلقة ، واهتمامنا الآن بأنصار الحرية المطلقة . ولعل هؤلاء يأخذون بالمعاني الثلاثة الاولى للحرية ، ما سبقت إليها الاشارة ، وهي أن الحرية أحساس ذاتي عميق بأننا أحرار ، وأن الفعل الحرة لا علة له سوى حدوثه . ولا ينزع ذلك من أن يستخدم أنصار الحرية المطلقة بعض المعاني الأخرى للحرية ، كما لا ينزع من أن يستخدم أنصار الحرية المعتدلة تلك المعاني التي يتحسم لها أنصار الحرية المطلقة ، وإنما لا يعطي المعتدلون لها تلك الأهمية كما يعطيها المتطرفون . ومن فلاسفة الحرية المطلقة أو المتطرفة جاك بوسويه J. B. Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٠٤) وتوماس ريد T. Reid (١٧١٠ - ١٧٩٦) ، وسين دي بيران Maine de Biran (١٧٦٦ - ١٨٢٤) وشارل رينوفيه Ch. Renouvier (١٨١٨ - ١٩٠٣) ، ولويس جيمس W. James (١٨٤٢ - ١٩١٠) (وإن كان هذا الأخير لا يعلن أنه نصير الحرية المطلقة لكنه يؤكد المعاني الثلاثة السابقة للحرية ١) ، ولويس لافل L. Lavelle (١٨٨٣ - ١٩٥١) ، وكامبل C. A. Campbell والفلاسفة الوجوديون المعاصرون .

وقد لا يوافق كثير من الفلاسفة على اتخاذ هذا الاحساس الذاتي بالحرية أساساً متيناً يدعم حريتنا ، لأن الاحساسات الذاتية كثيراً ما تكون وهمية وتدعا ، ولا ثقة لنا بالوهم ، وبمثل أنصار الحرية في ذلك كمثال مريض أصيب بخوف مرضي فذهب للعلاج النفسي وأجريت عليه عملية تنويم مغناطيسي وأرسي إليه أن يستجمع قواه ويلقي حديثاً طويلاً أمام حشد كبير من الناس ، وقد فعل ذلك بالفعل ، فلما أفاق المريض وأخبر بما فعل أدعى انه كان حراً في قيامه بذلك الفعل وهو في الواقع مخدوع. (٢٢)

الفعل الحرة لا علة له

ثاني مواقف أنصار الحرية المطلقة يؤيدون أن الفعل الحرة لا علة له ، وقد وصلوا إلى هذا الموقف نتيجة ربطهم فكرة العلية بنظرية الجبر ، ذلك لأن الأساس الأول الذي يستند إليه أصحاب الجبرية المتطرفة هو أن لكل فعل ارادي علة حدته ، وأن لا فعل ينشأ صدفة بلا تفسير ، ولذلك جاء أنصار الحرية المطلقة ليطنوا أن الفعل الحرة « اختيار حادث » contingent choice جاء بعد أن لم يكن ، وأنه تم فجأة وأنه جديد. كل الجدة لم تسبقه عوامل تفسره سواء كانت وراثية أم فسيولوجية أم نفسية . الحق أن أنصار الحرية المطلقة يستغفون بتأثير الوراثة

ارادته وهي الشيء الذي له قيمة فيه . ويعبر عن هذا المعنى أيضاً فلاسفة آخرون (ليسوا من أنصار الحرية المطلقة) مثل ديكارت الذي قال ان لدينا فكرة بديهية راسخة عن حرية أفعالنا ، بل ان فكرة الحرية هي أكثر أفكارنا الفطرية شيوعاً بين الناس (٢٣) ، وبمثل بيرسون الذي قال ان الحرية معطى مباشر من منطيات الشعور ، بل هي أوضح معطياتنا المباشرة ، وتذكر ذلك بعدس مباشر لا شك فيه ، ولذلك فالحرية ليست مشكلة تتطلب الحل وإنما هي واقعة حية يكسك ملاحظتها في نفسك باستبطان (٢٤) ولدينا ملاحظة جذرية بالاشارة هنا هي أن أنصار الحرية المطلقة يتجاهلون معطيات العلوم الطبيعية ونتائجها وهم يبحثون مشكلة حرية الانسان ، وينفرون من اتخاذ الاكتشاف العلمي أساساً ينطلقون منه إلى حل لمشكلة الحرية ، ذلك لاعتقادهم ان الانسان يسبح وحده وسط العالم الطبيعي لا يفتقد لما يفتقد له عالم المادة من قوانين ، ولاعتقادهم ان المنهج السليم لحل المشكلات الفلسفية هو الاتجاه مباشرة إلى الذات الانسانية ووصف حالاتها الشعورية وتحليلها ، وأهم خصائص الذات هو الاختيار بين ممكثات ، والاختيار ضرورة ، لأن الانسان لا قيمة له بدون فعل وسلوك ، والقفل هو معنى وجوده ، والفعل انما هو اختيار. (٢٥)

Descartes, *Principles of Philosophy*, pt. 1, Sec. xxxix.

(٢١)

Bergson, *Essai Sur les Données Immediates de la Conscience*, translated into English as (٢٠) *Time and Free Will*, by F. L. Pogson, p. 142, London, 1910.

(٢٢) زكريا ابراهيم ، الفلسفة الوجودية ص ١٨٩ ، ٢٠٦ ، القارة ١٩٥٧ وأيضاً عبد المنعم بدوي ، دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٧ ، القارة ١٩٦٦ .

K. Hempel, some Reflections on the case for Determinism, in S. Hook, (ed.) *Determinism* (٢٣) and *Freedom*, p. 161.

العوامل الفسيولوجية والنفسية وتأثيرها على أفعال الإنسان . وأراد أنصار الحرية رفض الجبرية بما يلزم عنها من إمكان التنبؤ . ولهذا الرفض وجهته بعد ما رأينا من قبل أن التنبؤ بأفعال الإنسان الإرادية قدره ضئيل وضعيف لعدة أسباب ^(٢٤) ورغم ذلك يمكن القول إن الفعل الذي لا يمكن التنبؤ به قبل حدوثه يمكن تفسيره تفسيراً علياً بعد حدوثه ، كما سنرى في القسم التالي من البحث حين نتناول أنصار الحرية المعتدلة الذين يمتازون على أنصار الحرية المطلقة في تحليل أعمق للحياة النفسية .

(٧)

تطبيقات الحرية المعتدلة

تحدثنا في الأقسام السابقة عن الجبرية المتطرفة بمختلف صورها ، والتي لا يزال يدعو إليها بعض الفلاسفة المعاصرين كما سبق القول ، وتحدثنا أيضاً عن الحرية المطلقة وأهم المواقف التي يدعمها أنصارها حرية الإنسان ، ونلاحظ أن ليس لهذه النظرية أنصار اليوم . وفي كل مشكلة هامة تقدم لها حلول متطرفة ، ينشأ دعاءة توسط ، وقد نشأ في مشكلة حرية الإنسان من بين الفلاسفة المعاصرين دعاءة توسط وتوفيق بين الجبرية المتطرفة والحرية المطلقة ، يسمى التقاد موقفهم « زعرة التوفيق » Compatibilism ولا يعطى معرفة هذا الموقف من له أحاطة بالكتب والمقالات المعاصرة في المجالات الفلسفية ، ويضم هذا الاتجاه الوسط فريقين من

والعوامل الفسيولوجية وتأثير البيئة في أدائها لأفعالنا الإرادية ، لكنهم يرفضون ذلك بقولهم انني حر في موقعي من هذه العوامل حر في اغتيابي بها أو استسلامي لها أو خجلي منها أو إرادة الثورة عليها ، وبذل جهدي في مقاومتها وتقميها . اني لا أختار تلك العوامل وإنما أختار استجابتي لها . ويضيف هؤلاء الفلاسفة لتدعيم تلقائية الفعل الحر وعدم تفسيره بطل أن الفصل الحر أبعد ما يكون عن الروية والتفكير ، وإنما هو أقرب إلى الفعل الغريزي وتلقائية الكائن الحي .

وعلى هذا الموقف اعتراضات كثيرة ، نكتفي بهاتين : الأولى أني أعني باستيطان حقاً أني اخترت الفعل كذا دون اختيار فعل آخر ، لكنني لا أعني باستيطان مائل إن ليست له علة ، ولا أن له علة ، ذلك لأنني حين أقول فعلاً أنظر دائماً إلى المستقبل ، أي ما أهداني وأغراضي من فعل الفعل ولا أفترض عن علة قبل أدائه ، لكنني حين أريد تفسيره بعد أدائه فلا شك وأجد عللاً تفسره . نريد القول أننا نعتزف أننا قد نفعل فعلاً باختيار وحرية ولكن لا يمنع ذلك من اكتشاف علة وتفسيره بطل ^(٢٥)

الفعل الحر لا يسمح بالتنبؤ

ينهب أنصار الحرية المطلقة إلى أن الفعل الحر لا يسمح بالتنبؤ به قبل وقوعه ، ذلك لأنهم يربطون التنبؤ بالجبرية العلمية في صورها المختلفة سواء كانت جبرية ما يحدث في العالم الطبيعي أم جبرية

P. H. Nowell-Smith, *Ethics*, p. 281, Pelican, 1954;

(٢٤) لورد ،

(٢٥) راجع لمبحثنا على الجبرية الفسيولوجية .

(١٩٥٨) ، ونوجز فيما يلي مواقف أنصار الحرية المتدلة دون اهتمام بأوجه الخلاف بين هذين الفريقين .

أ - لا حرية مع اضطراب

إن أول معنى من معاني الحرية يتم به انتصار الحرية المتدلة - وإن كان معنى سلبيا - هو غياب الاضطراب أو القسر *absence or compulsion or constraint* ومن ثم تقابل بين الحرية والاضطرار إذ لا يتمتعان ، والاضطرار نوعان : خارجي وداخلي ، ويضم الاضطراب الخارجي خضوعنا بطبيعة الحال للقوانين الطبيعية التي يخضع لها كل ما يوجد في العالم الطبيعي من ظواهر وأشياء مادية ، وتلك الأفعال التي يفعلها الإنسان تحت تهديد أو تعذيب من الآخرين مثلا يحدث عادة في عهده الارهاب السياسي . والمقصود بالاضطرار الداخلي كل أفعالنا اللاإرادية والمنعكسة مثلا يحدث لاجسامنا من نبض قلب وإفرازات أعضاء بدنية وضد وحركة غلابانا الحية الخ ، وما يصدر عنا عند تناول عقاقير معينة من شأنها أن توقف رغبة أو تدبير انفعالا أو تخفف من حدتها ، أو عند تعرضنا لتسويم مقناطيسي ، أو ما يصدر عن الحالات المرضية بأمراض نفسية أو عقلية حادة من أفعال لا حيلة لهم في منها ولا سيطرة لهم عليها . إن كل من يسلك في إطار هذه الأنواع من الاضطراب مجبور لا حرية له ولا اختيارا في ذلك شك

الفلاسفة ، فريق يسمى موقفه « الجبرية النفسية المتدلة » في مقابل « الجبرية النفسية المتطرفة » التي تدعو إلى جبر . وأصحاب الجبرية النفسية المتدلة دعاة حرية لا جبرية ، لكنها تلك الحرية المقيدة التي تخفف من حدة مواقف أهل الحرية المطلقة ، كما نواجه حجاج الجبرية المتطرفة ونهاجم بعضها وتخفف من حدة بعضها الآخر . ومن فلاسفة هذا الفريق من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين توماس هوبز *T. Hobbes* (١٥٨٨ - ١٦٧٩) وجو لوك *J. Locke* (١٦٣٢ - ١٧١٤) ، وإدوين هيم *D. Hume* (١٧١١ - ١٧٧٦) ، وجون استوارت مل *J. S. Mill* (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ، وألجولين الجسد مثل توماس هل جرين *T. H. Green* (١٨٣٦ - ١٨٨٢) وبرادلي *Bradley* (١٨٤٦ - ١٩٢٤) ، كما نادى بها أيضا مورتن شليك *M. Schlick* (١٨٨٢ - ١٩٣٦) وألفرد إير *A. J. Ayer* (١٩١٠ -) .

أما الفريق الثاني الذي ينادي بالحرية المتدلة فلا يدعو نفسه من أنصار الجبرية النفسية المتدلة لكنه يتفق معهم في كثير من مواقفهم ، وقد يضيفون إليهم مواقف أخرى ، ومن فلاسفة هذا الفريق سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) وأفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٨ ق.م) وأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) وديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) وليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) وكنت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وبرجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) وجورج مور *G. E. Moore* (١٨٧٣ -

فسي اطار ما يسمى « السمات النفسية »
the character of the agent

ج - السمات النفسية

لكل انسان ميول ودوافع فطرية تنشأ عن تركيب جسمه وعوامل الوراثة والبيئة التي أحاطت به منذ ولادته وفي صباه ، ولكل انسان ميول ودوافع مكتسبة تنشأ عن خبراته وتجاربه ، لكن لكل انسان نموذجاً خاصاً يتفرد به في اشباع ميوله وتحقيق رغباته يختلف به عن غيره من الناس . وبالمثل يختلف كل منا عن غيره في اتجاهاته النفسية المكتسبة من كرم أو بخل ، إنساض أو انطواء ، عراة للجسيم أو نكرانه ، تواضع أو غرور أو شعور بالعجز ، تقاض أو تشاؤم ، هدوء طبع أو حدة انفعال ، قوة ارادة أو ضعفها أو ميل الى التردد فيما أقدم به من أفعال ، ميل الى الصمت أو قلة الكلام أو التثرثرة ، جبن وهروب من المشكلات أو جرأة وشجاعة في مواجهتها . يضاف الى ذلك ان لكل انسان مجموعة من اعتقادات دينية وسياسية أو شكوك ، ومبادئ وقيم يمتلكها ، وأهدافاً وأغراضاً يبغي تحقيقها . ان التركيبة النفسية الفريدة التي تشكل نموذج كل فرد فيما سبق من مفردات الحياة النفسية إنما تؤلف ما نسميه « السمات النفسية » عند انصار الحرية المعتدلة . وممن يدعو أصحاب الجبرية النفسية المعتدلة الى ان جبرية السمات إنما هي حرية يقصدون ان الانسان مجبر من ذاته وليس في ذلك

ولا مسئولية له عما يفعل ، وما كان يمكنه ان يفعل غير ما قد فعل . (٢٥)

ب - اتساق العلية مع الحرية

بين الحرية والاضطرار أو القسر تقابل وتناظر إذ أن الفعل الذي أفعله مضطراً لست حراً في فعله ، لكن لا تناظر بين الحرية والعلية ، ولا تناقض . وقد قصد انصار الحرية المعتدلة بذلك ان يوفقوا بين دعوة الحرية المطلقة التي تتادي بالتناظر بين الفعل الجبري والفعل المسبوق بطرف أدت اليه ، ودعوى الجبرية المتطرفة التي تتادي بأن كل أفعالنا تخضع لطرف أدت اليها ومن ثم فهي مجبورة ولا يمكن وصفها بالحرية . اتفق انصار الحرية المطلقة وانصار الجبرية المتطرفة في أن الحرية والعلية لا يجتمعان ، بينما رأى انصار الحرية المعتدلة إمكان اجتماعها ، فليس ما يمنع ان أفعالنا ارادياً حراً ، ويمكنني في نفس الوقت تقديم تفسير علي له . ولأن ، ما علة الفعل الارادي الحر ؟ يعترف انصار الحرية المعتدلة بتأثير العوامل الفسيولوجية في أفعالنا الارادية ويقولون ان العوامل الفسيولوجية علة ضرورية لاحداث الفعل الارادي لكن هذه العوامل ليست هي الوحيدة التي تفسر ذلك الفعل ، ومن ثم يرفضون الجبرية المتطرفة الفسيولوجية . أما العلة التي يضيفونها لتفسير الفعل الارادي فهي علة نفسية ، أو يشادون بتفسير أفعالنا الارادية

(٢٥) انظر .

Aristotle, *Nicomachian Ethics*, 1109 b 30 ff. 11129, 20-30

أيضا : Hume, *Enquiries Concerning the Human Understanding and Concerning The principles of Morals*, pp. 90, 94, ed. by Selby-Bigge, Oxford, Ayer, *Fatalism, in the Concept of A Person*, p. 257 Macmillan, London 1963.

فقد يكون لدي احساس شديد بالجوع ، ولدي في نفس الوقت رغبة في الاستمرار في عمل معين ، فإذا كان الاحساس بالجوع شديدا طاغيا بحيث لا أستطيع الاستمرار في العمل فأني أجدني تركت العمل الى تناول الطعام . لكن قد يحدث أن أقوم بعمل تدفعه رغبة ضعيفة ، وحينئذ تكون هذه الرغبة دفعت اليها رغبة ملحة طاغية ، مثلا اذا كنت أكثر ولعا برؤية الافلام السينائية من مشاهدة حفلة موسيقية ، ورغم ذلك أجدني متدفعاً الى الحفلة الموسيقية وتفسير ذلك أنني رأيت أن سماع الموسيقى قد يرفع شأنى بين الناس ، وتلك رغبة دافقة في سباتي النفسية ، أو مثلا أجد نفسي مدفوعاً الى رد الامانات الى أهلها على الرغم من أنى في حاجة شديدة الى المال ، وهكذا (٣٦) .

(ج) يمكنك ان تتساءل : كيف عرفت ان لديك سيات نفسية معينة أو ان شخصا ما لديه سيات معينة ؟ والجواب المؤلف أنني لم أكتشف سياتى أو سيات غيري الا من خلال ما تقوم به من سلوك فعلي في الواقع ، وحينئذ قد أقول أن تصور السلوك أسبق منطقيا من تصور السيات النفسية . وإن صح ذلك فلا أساس لسلطان السيات النفسية . لكن يبدو لي أن السيات أسبق منطقيا من السلوك ، وإن كانت معرفتي للسيات لاحقة على معرفتي لأنماط السلوك ..

جبر ، لأن ما أمثله مطابقا لسباتي النفسية يصدر عني باختيار لم يضطري اليه أحد ، بل ويتسق مع ما أرفضت من مبادئ وقيم ومعتقدات وما رسمت لنفسي من أهداف وغايات ومع ما في نفسي من اتجاهات أنا أقبلها واعتبرها هي ذاتي .

ويتفق انصار الحرية المعتدلة في تحليل السيات النفسية للإنسان ، ويواجهون تعقيد الحياة النفسية وما يكتنفها من تضارب وتناقض أحيانا ، ومن هذه التحليلات تلك الامور الثلاثة الآتية :

(أ) ليست السيات النفسية بمنزل بعضها عن بعض ، وإنما يندمج بعضها في بعض ، فقد يكون الخوف من سباتي لكثير قد أسلك أحيانا سلوك الشجاعة حين أريد الدفاع عن مبدأ أخلاقي أو عقيدة سياسية والتضحية في سبيلها ، وتفسير ذلك ان الدفاع عما اعتقه هو من سباتي أيضا . أو قد تكون الشجاعة من سباتي لكثير قد أسلك في ظروف معينة ما يدل على هدوء طبع وحب للسلام ، وتفسير ذلك أن ميلى للسلامة مع الناس وعدم الرغبة في العدوان هو من سباتي أيضا (٣٧) .

(ب) ان الرغبة الاخرى هي التي تدفع الى السلوك ، إذ لكل انسان رغبات ويؤثر قد يتعارض تنفيذ بعضها مع الرغبة في اشباع البعض الآخر ، وفي هذه الحالة يتدفع الناس الى اشباع الرغبة الاخرى ،

(٣٦) انظر ،

Ilham Diftan, the Freedom of Man, Proceedings of Aristotelian Society, p.30, London, 1961.

(٣٧) انظر ،

J. Wisdom, Problems of Mind and Matter, PP. 127-8, London, 1934.

وهذه القواعد والقيم لا يمكن تفسيرها بمحليات
فسيولوجية في المخ . ولذلك تميز النظرية الغائية بين
العلو والسبب .

(أ) الصلة دائما تسبق للحلول سبقا زمنيا بينا
السبب يتلو الفعل في الزمن اذ ينظر الفاعل بفعله الى
مستقبل .

(ب) يمكن تعميم التفسير المعلي على عدد كبير
من الامثلة كما يحدث في تفسير علي لحوادث طبيعية ،
بينما قد يصدق التفسير الغائي على حالة فردية واحدة
طبقا لآطار الاهداف والغايات التي يتحرك فيها كل
انسان .

يدعو الى هذه النظرية الغائية عدة فلاسفة
معاصرين . (٢٤) لكن يمكن تعقب أصولها عند أرسطو
وليبنتر وكنت والوجوديين المعاصرين . يقول ارسطو في
افتتاحية كتاب الاخلاق الى نيقوماخس : « ان كل
فن وكل بحث ، وبالمثل كل فعل انما يهدف الى خير
ما » . ويقول لبيتر أن لا تعارض بين حرية الافعال
الانسانية وتفسيرها بأسباب ، اذ يجب أن يوجد دائما
سبب يدعوني الى فعل شيء دون آخر وان لم يلزمني
هذا السبب بأداء فعلي بالضرورة ، ويقول عبارته
المشهورة ان الاسباب تدعو لكنها لا تضطر
reasons incline but not necessitate مثلما تقول

تكون السبات أولا ثم يليها سلوك يطالبها . وان
كنت لا أعرف تلك السبات الا من خلال مفردات
السلوك التي تطابقها (٢٥) .

د - التفسير الغائي للسلوك

قد لا تفسر سلوك الفرد بدوافع ورغبات واردة
وعواطف فقط ، وإنما تفسره أيضا بما تبغي من غايات
وأهداف وأغراض ، وهنا نقول اننا نفسر أفعالنا
بأسباب reasons لا بمثل causes حين أقوم بعمل ما
أنظر الى مستقبل أداتي له ولا أنظر الى ماضي وما
يشكلني من دوافع ورغبات ، قد أفسر هرولة شخص
بمحاولته النجاة من حيان مفترس ، وأفسر رغبتي في
شراء منزل جديد برغبة في مسكن أفضل ، أفسر
استناعي عن التدخين حفظا على صحتي وهكذا .
ولعل هذه النظرية الغائية في تفسير السلوك لا تعترض
على نظرية السبات النفسية بقدر ما تعترض على
التفسير الفسيولوجي للفعل الارادي ، ذلك لأن
الفعل الانساني ليس مجرد حركات جسمية في المكان
ولما هو أشد ارتباطا بالبيئة التي أحياها وما يحيطني
من أهداف وغايات . حين أقوم مثلا بعمل تمرين
هندسي ، أو أقوم بعملية استدلال منطقي ، أو أتذكر
حادثة ماضية ، فاني أخضع في ذلك لقواعد منطقية أو
قوانين رياضية أو أعتقد أن ما أتذكره صدق وحق ،

Nowell - Smith, Ethics, p. 297, Penguin Series, Middlesex, 1954.

(٢٨)

R. S. Peters, the Concept of Motivation, N. Y., 1958

(٢٩)

أيضا ،

D. Davidson, Actions, Reasons and Causes, in The Journal of philosophy, LX, no. 23, 1963.

أيضا ،

Whiteley, Mind In Action, pp. 70, London, 1973 B. Russell, A Critical Exposition

والآن يمكن القول أن النظرية الغائية التي تفسر السلوك بأهداف الفاعل وأغراضه وغاياته منه ليست معارضة لتفسير نظرية السبات النفسية ، ذلك لأن هذه النظرية تضم الى جانب الميول والرغبات وسا اليها ما لدى من أهداف وغايات ومبادئ وقيم اعتقها ، ومن ثم يمكن اذابة الأسباب في الطل .

وان اعترض معترض بأن التفسير العملي للسلوك الذي تأخذ به نظريات الحرية المعتدلة لا يزال يفتن بنوع من الجبرية ، على أساس أن الجبرية المتطرفة تبدأ من الصدق المطلق لمبدأ العلية ، فانه يمكننا تقديم صياغة جديدة لمبدأ العلية في مجال السلوك الانساني الحر . يمكننا القول ان العلاقة بين الفعل الحر وسا يدفع اليه من دوافع ورغبات وغايات ومبادئ ليست علاقة بين حوادث مثل العلاقة العلية الطبيعية ، ذلك لأن الدوافع والرغبات ليست حوادث وإنما هي استعدادات للسلوك ، وإذا ربطنا الفعل الحر بمبادئ خلقية أو قيم اعتقها يمكننا القول أنها ليست حوادث وإنما موضوعات فكر لا تتطوي على تعاقب زمني . وحينئذ نربط الفعل بمبادئ لا بحوادث (٣٢) . هذا الموقف لا يتعارض مع قولنا السابق ان الحرية تتسق مع العلية ، وإنما يعطي للعية في مجال السلوك رؤية جديدة .

ان عفتي وقناعتي تمنعني من أخذ رغبة وتدعواني الى سلوك الزاهد لكن قد لا أكون زاهدا في كل الحالات اذ قد تدفعني الحاجة الى أخذ الرضا (٣٠) . ورأي كنط ان للمبادئ الاخلاقية التي اعتقها سلطانا يدعوني الى تنفيذ ما هو خير لكني قد أقمى هذه المبادئ . على الرغم من أن الفلاسفة الموجدين المعاصرين - وخاصة سارتر - يدعون الى الحرية المطلقة وإلى ان الفعل الحر لا علة له سوى ارادتي وإلى ان الفعل الحر لا تفسره سباتي النفسية من دوافع ورغبات وعادات واتجاهات نفسية ، غير أنهم يدعون الى تفسير غائي للسلوك حين ينادون بتفسير السلوك بأسباب ويسمونها « دوافع » motives ويقصدون بالدوافع أهدافي وغايتي من الفعل : الدافع الى الفعل عندهم هو عزل نفسي عن حاضري وماضي . والوعي بأنه لا يمكنني الصبر عليها وضرورة الثورة عليها . فذلك يدفعني الى اختيار شيء جديد أحقق به ذاتي وأغير به واقعي وان أحصل مسئولية ما أفعل . (٣١) (وتجددنا ملاحظة أن هذا الموقف القائل بأن ما يدفعني الى الفعل الحر هو النظر الى المستقبل عند الرجوذين يعتبر علة لذلك الفعل وسببا له ، وذلك يتعارض مع قولهم السابق ان الفعل الحر لا علة له .)

(٣٠)

B. Russell, A Critical Exposition of the philosophy of Leibniz pp. 191-4, 2nd ed., London, 1937.

R. Chisholm, Person and Object, A Metaphysical Study, p. 69, London, 1976.

Blackham, Six Existentialist Philosophers, pp. 1278, London, 1965.

Mary Warnock, The Philosophy of Sartre, p. 113, London, 1966.

S. Korner Fundamental Questions in Philosophy, pp. 242-3, Penguin, 1971.

(٣١)

(٣٢)

و- هل يمكنني تغيير نفسي أو تعديلها ؟

يجيب أنصار الحرية المعتدلة بالاجاب ، اذ يرون اننا كثيرا ما نحس بفساد بعض عاداتنا الراسخة ، أو خطأ في كثير مما نفعل ، أو عيب في بعض مبادئنا التي ننتقها ، بل كثيرا ما أقبل بعض سباني ، وأنقر من بعضها الآخر ، أقبل ما أجد تأييدا له وتشجيعا من الناس ، وأنقر مما يكرهونه . فإذا كانت لدي رغبة صادقة في تعدل ذاتي وتعديل نفسي وتطويعها وأن أشعر من حال الى حال أفضل منه ، فإن ذلك يدفعني الى بذل الجهد ومحاولة تعديل بعض سباني واصلاح ما أحاط بي من نقص أو فساد . حينئذ يكون الانسان سيد نفسه يفعل ما يرضيه عن تعقل وتدبر ، يفعل ما يتسق ومبادئه دون صراع أو تأنيب أو لوم ، ومن ثم يكون حرا . وهذا الجهد وهذه المحاولات وهذا التفكير في تعديل السباني هو في طاقة الانسان ومقدوره وان كان أمرا صعبا .

ز- هل التنبؤ بالفعل المبرمج أم مستحيل ؟

لقد رأى أنصار الجبرية المتطرفة بمختلف صورها أن التنبؤ بالفعل الارادي في المستقبل أمر يمكن على اساس أفراض ان لكل فعل علة أو تسببا ، وان نفس الطل نفس المثلوات . أما أنصار الحرية المعتدلة فأنهم يتفقون مع أنصار الجبرية في أن لأفعالنا الارادية علا وتفسيرات لكنهم يحفظون فيها بينهم . يرى بعضهم أن من الممكن ان تتنبأ بأفعال الانسان الارادية قبل وقوعها اذا كانت لدينا معرفة كاملة

هـ - هل يمكنني أن أفعل غير ما قد فعلت ؟

لقد اشتهر جورج مور - من أئمة فلاسفة الاخلاق في القرن العشرين - بمبدأ يدافع فيه عن حرية الانسان معتدلة أو مقيدة ، يقول فيه ان الفعل الحر هو ما أفعله وأنا على وعي بأنني كنت أستطيع ان أفعل غير ما قد فعلت^(٢٢) . ويمكن تعقيب هذا المبدأ عند أرسطو الذي كتب « حين يكون في قدرتي أن أفعل شيئا فإن في قدرتي أيضا ألا أفعله ، والعكس بالعكس ... واذن في قدرة الانسان ان يكون فاضلا كما ان في قدرته ان يكون ذليلا^(٢٣) » ولكن هذا المبدأ مجرد امكان منطقي لا تناقض فيه ، لكنني في الواقع لا أستطيع ان أفعل غير ما قد فعلت اذا وضعت في الاعتبار ان كل فعل يجب ان يكون متسقا ومتطابقا لسباني إلى نفسية بالمعنى الواسع الذي يضم دوافعي ورغباتي وإرادتي وأهدافي وغاياتي ومبادئتي وقيمي ونفسياتي الفردية . يمكنني القول اني كنت مستطيعا ان أفعل غير ما قد فعلت لو أن لي سباني نفسية مختلفة ، لكن اذا كانت سباني المتفردة التي تتألف طباعي الراسخة والتي تتشكل ذاتي هي هي فلن أستطيع ان أفعل غير ما قد فعلت ، لأن ما أفعل عن روية واختيار وعزم صادر عن مجموعة رغباتي التي ارتضيته لنفسي واعتقاداتي وأهدافي ومبادئتي إنني استمسك بها ، والا كنت شخصا آخر له سباني نفسية أخرى . لكن هذا الموقف قد يعطي انطباعا خاطئا بأن سباني النفسية المتفردة إنما هي سجن لا أستطيع الخروج منه ، وذلك نقطنا الى الفقرة التالية .

G. E. Moore, *Ethics*, ck, vi, London, 1958.

(٢٢)

Aristotle, *Nicomachean Ethics*, 111367-14.

(٢٣)

بهذا المعنى أصيل جديد لا يمكن التنبؤ به قبل حدوثه . يسلم برجسون في الواقع بنظرية السمات النفسية وشم مهاجمة بعض أنصارها ، لكن يضيف أن ما أفعله إنما يصدر عن سماتي بتطور فريد ، تماماً كالثمرة حين تخرج من الزهرة ، لا وجه شبه بينها ، لكن لولا الثانية لما جاءت الأولى (٣٥) .

ج - الحرية تحرر من الشهوات

ولبعض أنصار الحرية المعتدلة نقطة أخيرة يدافعون بها عن حرية الإنسان ، حين يستخلصون الحرية بمعنى مختلف عن المعاني السابقة ، وهو التحرر من عبودية الانفعالات المجاعة والعواطف العمياء والعادات الراسخة ، أو هو محاولة ضبط النفس . ويتطلب ذلك إخضاع سلوكنا لأحكام العقل ، كما يتطلب مرانا وتصديا وممارسة بحيث يكون الفعل الارادي متسقا والمبادئ والقيم التي اعتنقها . ومن الواضح ان هذا المعنى للحرية مرتبط بالانفصال الاخلاقي ، أو الصراع الذي قد ينشأ عن التفكير في فعلين أحدهما تخليق رغباتي الوقيعية والثاني تخليق قواعد الاخلاق التي أتسلك بها ، وعلي أن اختار أحدها . وتجد هذا المعنى للحرية عند ألوان شتى من الفلاسفة ، صوفية مثل سقراط وأفلاطون ، وعقلانيين مثل أرسطو وإيبنيوز ، وتجريبيين مثل جون ستوارت مل وبرجسون . لا أكون حرا عند سقراط الا اذا بذلت الجهد في مقاومة رغباتي الحسية ومارست شيئا من الزهد والتشفي واعتناق المبادئ العقلية

بسماته وطباعه مثل جون ستوارت مل ، بينما يرى فريق آخر من أنصار الحرية المعتدلة ان من المستحيل التنبؤ بالفعل الحُر قبل وقوعه ، لأنه به جنة وأصالة ، وان كان يمكن تفسير الفعل بعد وقوعه في اطار السمات النفسية المتفردة في الشخص ، مثل برجسون يوجه خاص .

لقد هاجم برجسون الجبرية النفسية المعتدلة عند جون ستوارت مل في انجلترا وفوييه Fouillee في فرنسا بقوله انهتم يتصورون الحياة النفسية كما لو كانت مؤلفة من حالات وحوادث متزل بعضها عن بعض ، ويعتبر بعضها بعضا ، وان الحالة الراهنة للفرد إن هي إلا حصيللة لحالات نفسية سابقة عليها . أما برجسون فرأى قصور هذه النظرة الى طبيعة النفس ، ونادى بأن الحياة النفسية هي في حقيقتها تيار متصل تتعرج وحداتها وتتداخل بعضها مع بعض ، وأن ليس بينها تعاقب وإنما مصاحبة ، وأن للحياة النفسية خاصة فريدة يسميها « اللاتجانس » heterogeneity ، ويقصد بها أن أي حالة نفسية من انفعال أو عاطفة أو وجدان لن تحدث مرتين في وقتين متتابعين وإنما تحدث مرة ولا تعود ، حتى ان تكرر حدوث حالة نفسية واحدة في وقتين متتابعين فليس من الضروري أن يصدر عنها سلوك في المرة الثانية شابه تماما للسلوك الصادر عنها حين حدثت في المرة الاولى . ومن ثم فلا توقع ولا تنبؤ . ان الحالة النفسية الواحدة تعبر عن تطور عضوي للشخصية كلها بكامل خبراتها الماضية والحاضرة . والفعل الحُر

(٣٥) Bergson, *Time and Free will: An Essay on the Immediate Data of Consciousness* pp. 100' 155-186, London, 1910.

ومن جهة أخرى ، عرضنا لمجمل نظريات الحرية واستطعنا التمييز بين « نظرية الحرية المطلقة » و « نظرية الحرية المعتدلة » ، وفي هذه النظرية الاخيرة ميزنا بين ما يسميها أصحابها « الجبرية النفسية المعتدلة » (وهم أنصار جبرية لا جبر) ، وما لا يسميها أصحابها بذلك الاسم لكنهم يلتقون مع أصحاب الجبرية النفسية المعتدلة في أكثر مواقفهم . ولقد استطعنا بدراستنا تلك النظريات التي تدعو الى جبرية أفعال الانسان أو الى حريته أن نلتقط النقط التالية نتخذها موضوعا للمقارنة بين تلك النظريات :

(أ) الحرية والعلية .

(ب) الاعمال المجبورة .

(جـ) الاحساس الذاتي بأنا أحرار

(د) تفسير الفعل الارادي بدوافع واسباب .

(هـ) الحرية خضوع لسلطان العقل وتحرره من

الشهوات .

(و) امكان التشبيه بأفعال الانسان أو

استحاله . وسوف نجد من المقارنة ما أقل المواقف

التي يختلف فيها الفريقان المتخاصمان ، وما أكثر المواقف التي عليها اجماعهم ، أو اتفاقهم من حيث المبدأ واختلافهم في التعبير عنه .

(أ) الحرية والعلية

ان الفكرة الاساسية التي يعتمد عليها كل أنصار الجبر هي قولهم أن لكل فعل انساني علة أو ظرفا معينة في ذات الانسان أو خارجة عليه أدت

التي يليها العقل . وليس غريبا على الفنازيه نظرية أرسطو الحلقية التي تتم على الوسط وهذا الوسط يحدده العقل . ويقول لينتزان كل فعل ارادي تؤديه يقتضيه العقل فعل حر . وان الناس احرار بقدر ما يستطيعون التحرر من عبيدية شهواتهم . ومن المأثور عن جون ستوارت مل فيلسوف الاخلاق النفعية قوله ان اللذائذ العقلية والفنية أفضل للانسان من اللذائذ الحسية ، وقوله اني أفضل ان اكون سقراطا ساخطا على أن اكون أبه مستعصا . وسوف نشعر فيها بعد الى أن الصوفية من الاسلاميين لا يأخذون الا بهذا المعنى للحرية .

(٨)

المقصومة المزعومة بين أنصار الجبرية والحرية

من هنا نبدأ ، نبدأ الدفاع عن أول أغراضنا من هذا البحث ، وهو أثبات أن المقصومة بين أنصار الجبرية وأنصار الحرية أقل حدة مما يظن الباحثون أو الفريقان المتخاصمان أنفسهم ، أو أثبات أن نظريتي الجبرية والحرية ليستا على طرفي نقيض ، وإنما يمكن التوفيق بينهما أو على الأقل تضييق مساحة الخلاف بينهما . ولم يكن ما سبق من أقسام في هذا البحث سوى تمهيد للمقارنة بين النظريتين ، وذلك بتحديد مختلف معاني الجبرية والحرية ، وتوضيح أهم مواقف أنصار الجبر وأنصار الحرية . فقد عرضنا فيما سبق لصور شتى للنظرية الجبرية ، وهي الجبرية الميتافيزيقية والجبرية المنطقية والجبرية الفسيولوجية وجبرية التحليل النفسي ، قدمناها بكلمة عن الحتمية الطبيعية التي تلقي ضوءا على بعض تلك الجبريات .

أنصار الحرية من مجال هذه الافعال ويزيدون الامثلة ، ويتسق ذلك مع تداء الفريقين المتخاصمين مما أن الحرية لا تنافر التفسير العلمي لكنها تنافر الاضطراب والقتل . ونماذج الافعال المجبورة صنفان ، صنف تضطر الى فعله من قوة خارجة علينا ، وصنف تضطر الى فعله بقوة داخلية فينا . ويندرج في صنف الافعال المجبورة من الخارج ثلاثة أنواع من الافعال :

(١) ما نفعله خضوعاً لقوانين الطبيعة مادامنا نحيا في عالم الطبيعة ويجري علينا ما يجري على سائر الاجسام الطبيعية من قوانين .

(٢) ما نفعله تحت تهديد أو تعذيب أو في ظل الرق والعبودية مثلاً يحدث في المجتمعات الديكتاتورية .

(٣) يضيف الفلاسفة الوجوديون المعاصرون - وهم أنصار حرية مطلقة - الى الافعال المجبورة السابقة ما يسمونه « المواقف المفروضة » مثل ميلادي في يوم معين ومن جنس معين ذكر أو أنثى من أبوين لا اختيار لي فيها وفي مجتمع معين له أعرافه وتقاليده وطقاته الاجتماعية وبؤساته المختلفة التي لا مفر من الانخراط فيها والخضوع لها ، وتلك أمور لا حرية لي في اختيارها ولا حيلة لي في منهاها (وإن كان الوجوديون يرون أن الرضوخ التام لهذه الأطر التي أنشأ فيها وأعيشها إنما هو « الوجود الميت » ويجب عزل نفسي عنها وأن أعي بضرورة تغييرها ومن ثم تنشأ الدوافع الى الفعل الحر) .

اليه وحدته ، ومن ثم تسليم كل الجبريين مبدأ العلية الكلية . بل يعلن هؤلاء أنهم لا ينكرون أن لنا ارادة واختياراً وعزماً وتصميماً أو الامتناع عن اداء فعل ما ، وإنما ينكرون فقط أن يحدث كل ذلك بصدفة أو بعمزة دون تفسير ، ويقولون ان الحرية الانسانية ليست ممكنة إلا في إطار نظرية الجبر ، فإذا انتقلنا الى أنصار الحرية المطلقة وجدناهم يملنون في الظاهر اختلافهم عن أهل الجبر إذ يرون ان الفعل الحر لا يسمح بأي تفسير علي داخلي يصدر تلقائياً لا تحدده أي عوامل سابقة قبل حدوثه . لكن إذا تصفنا موقف أنصار الحرية المطلقة وجدناهم يفسرون الفعل الحر بالاهداف والغايات التي أحدها للفعل المختار ، كما يفسرونه بصدوره عن ارادتي واختياري ، وأذن فموقفهم يتضمن القول أن لاعمالاً تفسيراً في حياتي النفسية وأهدافي التي أسعى لتحقيقها ، وإذا ذهبنا الى أنصار الحرية المعتدلة رأيناهم - بعد حوارهم مع حجج الجبريين - يتأذون ان لا مقابلة ولا تنافر بين الحرية والعلية ، أي يمكن للفعل الحر أن يجد تفسيراً بطل أو بأسباب ولا ينتقص ذلك من وصفه بالحرية . وأذن فالاتفاق تام بين أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية المعتدلة ، في هذه النقطة ، وسين يختلف عنهم فيها أنصار الحرية المطلقة نجد أن اختلافهم غير متسق مع باقي مواقفهم .

(ب) الافعال المجبورة

يتفق أنصار الحرية مع أنصار الجبرية في نماذج الاصل الانسانية التي لا اختيار لنا فيها ولا تملك السيطرة عليها ولا حيلة لنا في منهاها ، بل يوسع

الوثوق بها ، وأن احساسنا بالحرية من هذا النوع ، مثل كارل همبل Hempel لكن البعض الآخر من أنصار الجبرية المتطرفة يعترف بهذا الاحساس وصدقه وأن فسره في إطار الجبرية ، وذلك بقولهم ان وجود هذا الاحساس قينا لا يلغي التفسير العلمي لافعالنا الارادية : نعم حين أعمل فعلا اراديا حرا عن طوعية واختيار لا أدرك سبب فعله على وجه التحديد ، ومن ثم الظن بأنه أحساس تلقائي لا علة له ، لكن يمكن لهذا الاحساس ان يبد تفسيريا . حين أؤدي فعلا اراديا حرا أنظر عادة الى عواقبه ونتائجها فإذا جاء التفكير والروية بوجهاته أقدمت على أدائه ، لكنني أستطيع بعد أدائه أن أقصره بدوافع معينة أحدها في نفسي . نلاحظ أن أنصار الحرية المعتدلة يعترضون على هذا التفسير ، فعلى الرغم من قبولهم بالحرية كأحاساس ذاتي وأني أعني باستيطان أني قادر على اختيار ما أفعل ، فأني لا أعني باستيطان مماثل ان كان لهذا الاحساس علة أو ليست له علة . نخلص من ذلك الى أن الفريقين المتخاصمين متفقون على أن لدينا احساسا ذاتيا بأننا أحرار ، وإن كان فريق منهم يعطيه أهمية أكبر مما يعطيه الفريق الآخر ، أو أن فريقا يفسره بلغة التفسير العلمي ، بينما يرفض فريق ثالث هذا التفسير .

(د) تفسير الفعل الحر بدوافع وأسباب

لا خلاف بين كل أنصار الجبرية والحرية على تأثير العوامل الفسيولوجية والوراثية في توجيه سلوكنا الى حد كبير . ولا خلاف بينهم أيضا على تأثير السمات النفسية المتفردة لدى كل شخص في سلوكه .

أما صنف الافعال الجبرية من داخلنا فتقع في ثلاثة أنواع أخرى من الافعال :

(١) الافعال اللارادية والمنعكسة مثلما يجري داخل جسمنا من حركات وتغيرات ووظائف يقوم بها القلب والكبد والمعدة والأمعاء والمخ ونحو ذلك .

(٢) نماذج السلوك الصادرة عن الافراد الشواذ المصابين بأمراض نفسية أو عقلية حادة ، ولسه الأمراض علل فسيولوجية في الجهاز العصبي المركزي ، أو دوافع لا شعورية لا يمكن السيطرة عليها ولا التحكم فيها .

(٣) نماذج السلوك الناتج عن التنويم المغناطيسي أو تناولها عقاقير معينة من شأنها أن توقف الجسم رغبة أو انفعالا أو أن تخفف من انفعائها .

(ج) الاحساس الذاتي بالحرية

يجمع أنصار الحرية المطلقة وأنصار الحرية المعتدلة على أن لكل منا وعيا مباشرا واحساسا ذاتيا بأننا أحرار ، ويمس كل منا في نفسه باستيطان أن له قدرة على اختيار فعل دون آخر . وقدرة على تنفيذ فعل والامتناع عن الآخر . يعطي أنصار الحرية المطلقة لهذا الاحساس أهمية كبرى ويندأرون به دفاعهم عن الحرية ، وانه احساس صادق لا شك فيه ، بينما لا يعطيه أصحاب الحرية المعتدلة مثل تلك الأهمية القصوى ويعتمدون في تدعيم الحرية على حجج أخرى تفوقه في القوة في رأيهم . فماذا يقول أنصار الجبرية في هذا الاحساس ؟ رأى بعضهم أن كثيرا من احساساتنا الذاتية وهم وخداع وينبغي عدم

لتعديل تلك السات . بل قد أدرك بنفسي عيوباً في عاداتي أو نقصاً في مبادئ أو ثغرات في قيمي وأهدافي مما يدفعني إلى تغيير نفسي قدر طاقتي ، وفي ذلك أقصى مراتب الحرية . وهنا نلاحظ أن الخلاف بين أنصار الجبرية المتطرفة والحرية المعتدلة خلاف لفظي ، مرة حين يسمى الجبرية جبرية السات لفظي ، بينما يسميها نصير الحرية المعتدلة حرية ، وخلاف في الدرجة مرة أخرى حين يضيق الجبري المتطرف من قدرتي على تطوير ساتي وطباعي بينما يوسع نصير الحرية المعتدلة من تلك القدرة .

والآن إلى أنصار الحرية المطلقة فهم يعلنون عدامهم لجبرية السات النفسية لكنهم في واقع الأمر أصدقاء لتلك الجبرية ؛ انهم لا ينكرون تأثير الوراثة والفسولوجيا والسات النفسية المتفردة لكنهم يردفون ذلك بتقييم اتنا أحرار في قبولنا أو الثورة عليها ، ولا يعني ذلك أكثر من قدرتنا على تعديل ساتنا وتطويرها ، وهو ما قالت أنصار الحرية المعتدلة . يقول أنصار الحرية المطلقة ثانياً إن ما يدفع إلى الفعل الحر ليس حاضري وماضي وما ورثته واكتسبته من دوافع ورغبات ، وإنما ما يدفع إلى الفعل الحر هو ثورتنا على الحاضر والماضي والوعي بضرورة تغييره ، ووجود أهداف وشايات أد تحقيقها في المستقبل ، لكن الحديث عن أهدافي وقيمي ومبادئ التي اعتنقتها جزء من الحديث عن ساتي النفسية وإمكان تطويري لها . نخلص من كل ذلك إلى أن أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية - متطرفة أو معتدلة - متفقون على أن السات النفسية لدى كل فرد هي التي تحدد سلوكه ،

والمقصود بالسات النفسية - كما سبق القول - أن لكل منا ميولاً ودوافع ورغبات وانفعالات وعواطف واتجاهات وأهداف وأغراض ومعتقدات ، لكن لكل منا نمطه الخاص في إشباع ميوله وتحقيق رغباته والتعبير عن انفعالاته وأسلوبه في الحياة وطريقته في التفكير والسلوك ، ولكل منا أهدافه ورغباته وقيمه واعتقاداته وإطاره الثقافي والحضاري - هذه جميعاً تؤلف ساته النفسية المتفردة التي تفسر سلوكه وتحدد أفعاله ولا يستطيع شخص ما أن يفعل ما لا يتسق وإطار ساته . تبدأ بعد ذلك الاختلافات بين الفريقين المتخاصمين بحيث تصبح هزيلة أو لفظية في نهاية الأمر كما سترى . يتفق أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية المعتدلة أولاً في أن الإنسان لا يستطيع أن يفعل إلا في إطار ما تهيئه عليه ساته النفسية وطباعه المتفردة ، ويسمى الجبريون المتطرفون ذلك جبرية ، بينما يسمى أنصار الحرية المعتدلة نفس الموقف حرية ، ذلك لأنني حين أفعل ما تهيئه علي ساتي فاني أفعله باختيار لم يضطرنني أحد إليه ، وأفضل متسقاً والإطار النفسي الذي أرغضته لنفسي ومن ثم فاني مسئول عما أفعل . يتفق أنصار الجبر المتطرف وأنصار الحرية المعتدلة ثانياً في أن بالإمكان تعديل ساتي وتطويرها ، بينما يسمح الجبريون بذلك في أضيق الحدود ، يرى أصحاب الحرية المعتدلة أن بإمكانني تعديل ساتي وتطويرها في حدود أوسع ، إذ تدلني خبراتي المباشرة على أنني متمسك بتلك المفردات من ساتي التي تلقي ترحيباً من الآخرين واني نافر من تلك المفردات من ساتي التي تلقي استهجانهم ، فيكون ذلك بمثابة دوافع إلى محاربتني بذل الجهد

أحرار بقدرما يستطيعون التحرر من تلك الصبوبة ، وقد رأى سقراط أن الجسم سجن النفس وإن يحقق الانسان أنسانيته حتى يقاوم نزواته الوقتية وانفعالاته الجاهلة ، ويقول جون ستوارت مل رائد المذهب النفسي في الاخلاق ان اللذائذ الفهنية والفنية أنفع للفرد وللمجتمع من اللذائذ الوقتية الحسية ، كما يقول ايضا أني أفضل أن أكون كائنا عاقلا بانسا على أن أكون أبه مستمتسا . فإذا يقول انصار الجبرية المتطرفة في هذا المعنى للحرية ؟ ينادي به البعض مثل سبنوزا الذي رأى أن الحرية هي تحرر من عبودية الاواء والفراز ، أما البعض الآخر من انصار الجبرية المتطرفة الذين ليست لهم ميول لاهوتية فانهم لا يتحمسون لهذا المعنى وان لم يعترضوا عليه ، إذ يتسق هذا المعنى للحرية مع مواقفهم حين ينادون بإمكان تعديل الانسان لساته النفسية وتطويرها . أما انصار الحرية المطلقة - خاصة منهم خصوم الاخلاق التقليدية والاتجاهات الدينية مثل بعض الفلاسفة الوجوديين المعاصرين - فانهم لا يقبلون هذا المعنى للحرية لانهم لا يرون ان تقوم افعالنا على مبادئ أخلاقية عامة عليها اجماع ، وأذا تقوم على مبادئ يخلقها كل فرد بنفسه بما يرى فيها تحقيق ذاته .

(و) إمكان التنبؤ بالفعل الحر أو استعالتة

يبدو لأول وهلة ان الخلاف كبير بين انصار الجبرية وانصار الحرية حول إمكان التنبؤ بحال الفرد في المستقبل أو استعالتة ، إذ يقول انصار الجبر أن التنبؤ ممكن ، بينما يقول انصار الحرية انه مستحيل . لكن يتبين من النظرة الفاحصة ومتابعة

لكن يسمى انصار الجبر للمتطرف تلك العوامل جبرا ، بينما يسميها انصار الحرية حرية ، ويتفقون على إمكان تعديل الفرد لساته وتطويرها على خلاف في درجة التشاؤم أو التفاؤل في مداها .

(هـ) الحرية خضوع لسلطان العقل وتحرر من الشهوات .

نحن الآن أمام معنى جديد من معاني الحرية لم نعرض له من قبل بطريق مباشر ، وهو اللاخضوع لسلطان العقل والتحرر من الشهوات ، ويتضمن هذا المعنى للحرية أن أخضاع سلوكنا لأحكام العقل لا يعتبر نوعا من الجبرية وإنما هو أعلى درجات الحرية . وهذا المعنى للحرية أكثر ارتباطا بالمواقف الخلقية منه بالافعال الارادية بالمعنى الواسع : حين أواجه صراعا بين اضباع رغبة حسية وأداء واجب خلقي فاني محتاج لاعمال العقل وجهد الارادة وممارسة الروية والتفكير حتى يضعف تأثير رغبات الحس وانفعالات النفس ويصبح العقل هو الأمر الناهي فان انتصر العقل والتزمت الارادة بحكمه فقد تحققت حرية الفعل . ولقد نادى بهذا المعنى للحرية كل انصار الحرية المعتدلة على اختلاف اتجاهاتهم في التصير عنه ، سواء منهم الفلاسفة العقليون مثل أرسطو وبلينتز وكنت ، أم المثاليون مثل سقراط وأفلاطون وبتصوفة المسيحية والاسلام ، أم الفلاسفة التجريبيين للمحدثون مثل جون ستوارت مل وبرجسون . فتنظريه أرسطو في الوسط الخلقية الذي يحدده العقل أمر مألوف لمن قرأ أرسطو ، والحرية عند بلينتز تخلص من العبودية للشهوات وأذا هذا المعنى حر حرية مطلقة والناس

على سلوكه ما لم يكن في حساننا أو حساب الفرد ذاته . أمام هذه الاعتراضات من جانب أنصار الحرية تراجع أنصار الجبرية عن اسكان التنبؤ ، ونادوا بالتمييز بين الاعتقاد بالجبرية ودعوى التنبؤ ، وإن ليس بينهما من علاقة ضرورية . فقد ادافع عن الجبر دون أن يترتب على ذلك جزم التنبؤ ، ، وأساس التمييز عندهم ان الجبرية هي موقف ميتافيزيقي بينما التنبؤ هو أمر ابيستولوجي ، وقصور معرفتنا بكل القوانين الفسيولوجية والنفسية التي يخضع لها الانسان تحرق التنبؤ الدقيق .

نخلص من المقارنات السابقة بين مواقف انصار الجبرية وأنصار الحرية الى سبع نتائج ، اثنتان منها يتفق فيها كل الاطراف المتخاصمة بالاجماع ، واربعة أخرى تتفق فيها كل الاطراف من حيث المبدأ ، وأن اختلفوا في بعض التفاصيل أو طريقة التعبير عنه ، وإن نتيجة واحدة فقط هي التي يختلف فيها بعض أنصار الحرية عن خصومهم . وهذه النتائج هي :

١ - يتفق أنصار الحرية مع انصار الجبرية في أن الاعمال المجبوبة التي أوجزناها قبل حين هي افعال لا اختيار لنا فيها ولا ارادة لنا في التحكم فيها ولا حيلة لنا في منعها .

٢ - يتفق أنصار الجبرية مع انصار الحرية في أن من المستحيل أن نتبأ بدقة وتحديد بالفعل الحر قبل أدائه .

٣ - يتفق أنصار الجبرية وأنصار الحرية المعتدلة في اتساق الحرية والعلمية أي لا تعارض بين ان يكون

أقوال الفلاسفة المعاصرين ان الغريقتين المتخاصمتين على اتفاق في استحالة التنبؤ بأفعال الانسان في المستقبل قبل حدوثها على نحو دقيق . فقد رأى أنصار الجبرية أول الأمر أن التنبؤ ممكن على أساس أن لنفس المثل نفس المحولات ، فإذا عرفنا التركيب الفسيولوجي والخصائص الوراثية لشخص ما ، وإذا عرفنا مفردات السبب النفسية المتفردة لهذا الشخص - أمكننا التنبؤ بما سوف يفعله بدقة كبيرة . لكن أنصار الحرية رأوا استحالة التنبؤ بمستقبل أفعالنا الارادية الا اذا كان المقصود أن نتبأ اطارا واسعا من الامكانيات تتمدد فيه الدقة والتحديد . ويتقدم أنصار الحرية بالنقط التالية :

(١) ليس لقوانين علم وظائف الاعضاء عمومية شاملة مثل قوانين الطبيعة لوجود الفروق الفردية بين الناس التي لا يحكمها قانون عام ، والموضوعية في العلم الانسانية خرافة لا أساس لها .

(٢) نصيب التنبؤ ضئيل نحيل لأن أقصى ما يستطيعه عالم وظائف الاعضاء من معرفة هو مراقبة التغيرات الفسيولوجية من خلايا المخ مما يرمز الى أن انفعالا أو اختيارا أو نشاطا عقليا معينا على وشك الحدوث ، لكن لا يستطيع هذا العالم أن يحدد مقدما الفعل الجزئي المحدد الذي سوف أفعله .

(٣) ان السبب النفسية المتفردة لشخص ما من التعقيد والتشابك والتداخل والصدفة واسكان تعديلهما بحيث لا يستطيع أحد ان يزعم معرفة تامة لما سوف يصدر عن الفاعل ، كما لا يستطيع الجزم بأن نموذج السلوك لدى فرد ما انما هو مظهر منتظم فقد يطرأ

قدرتنا الضئيلة أو قدرتنا الكبيرة على تعديل سماتنا المكتسبة وتطويرها .

٧ - إذا أخذنا الحرية بمعنى : إندام العقل والتحرر من الشهوات نجد اختلاف انصار الحرية عن انصار الجبرية يتادي به كل انصار الحرية المعتدلة ولا يتباطه بمواقفهم الاخلاقية والدينية ، وينكره بعض انصار الحرية المطلقة كالوجوديين المعاصرين لرفضهم القيم الاخلاقية المطلقة والقيم الدينية ، أما انصار الجبر فلا يرفضونها ولكنهم لا يتسمون لها .

ليس التمييز حاسما قاطعا بين نظرية الجبر ونظرية الحرية ان صحت القضايا السابقة ، وهذا هو جوهر موقف انصار الحرية المعتدلة - الذي نأخذ به - ان نادوا بان بعض أفعالنا مجبورة ، وان لدينا احساسا ذاتيا بأننا أحرار ، وان الحرية والعلمية مستقنان ، وان سماتنا النفسية بالمعنى الواسع . تحدد سلوكنا ، وان كانت في قدرتنا . طاقية كبيرة على تعديل سماتنا وتطويرها ، ولا يحسم للتمييز الدقيق بأفعالنا في المستقبل ، وان استخدام العقل والتحرر من الشهوات جزء لا يتجزأ من معنى الحرية .

ولك أن تسأل : أهذه النظرية في الحرية المعتدلة أو المتقيدة تتنافع عن جبرية أم عن حرية ؟ الجواب أننا لا نتقاتل على الفاظ . لكن ان أصررت على وضع اسم لموقف انصار الحرية المعتدلة ، فيجب ان نبحت عن « تجربة حاسمة » تجمع موقف الحرية أو موقف الجبر ، وقد وجدنا هذه التجربة الحاسمة في تحليل معين للفعل الارادي ، يقذف بنا في وصف الحرية ، وهذا التحليل موضوع القسم الاخير من

فعل ما حرا وامكان تفسيره في نفس الوقت بطل أو بأسباب ، بينا لانصار الحرية المطلقة رأي مختلف حين يقولون ان الفعل الحر تلقائي لا علة له ، لكن هذا الموقف الاخير لانصار الحرية المطلقة يتناقض مع باقي مواقفهم مثلا ينادون بتفسير الفعل الحر بأسباب هي غائبة وهدفنا في العمل . ولنا الحق في رفض الموقف القلق ، وقبول الموقف المتسق وهو ان لا تنافر بين الحرية والعلمية .

٤ - لا خلاف بين انصار الحرية وانصار الجبرية على ان في كل انسان احساسا ذاتيا عميقا بأنه حر مختار ، وان اختلفوا في تقدير قيمته اذ رأى انصار الحرية المطلقة في هذا الاحساس أقوى حججهم على الحرية ، بينا رأى انصار الحرية المعتدلة والجبرية المنطرفة أنه حجة ضعيفة .

٥ - لا خلاف بين الخصوم من حيث المبدأ على تأثير العوامل الفسيولوجية والوراثية في أفعالنا الارادية (أما تأثيرها في أفعالنا اللارادية فليس فيه شك) لكنها ليست العوامل الوحيدة التي تؤثر في أفعالنا ، اذ يجب ان تتفاعل مع تلك العوامل عوامل نفسية أخرى .

٦ - لا خلاف بين الخصوم من حيث المبدأ على التأثير الكبير الذي توجهه السمات النفسية للفرقة للفرد - بالمعنى الذي حددناه لتلك السمات - في سلوكنا ، وان اختلفوا في بعض التفاصيل مثل قول الجبريين ان جبرية السمات النفسية تثبت الجبر وقول انصار الحرية ان نفس السمات تبيست الحسرية (ويعصح الخلاف هنا لفظيا) وبمثل اختلافهم في

البحث ، لكن أماننا الآن ان تطرق باب مشكلة عاتية هي موضوع القسم التالي .

(٩)

الايمان بالقضاء والقدر ومشكلة الحرية

لقد حان الوقت للسبر على استحياء نحو مشكلة من أعوص المشكلات في تاريخ الفكر الانساني ، وهي العلاقة بين حرية الانسان أوجبريته من جهة ، وإيماننا بالقضاء والقدر أو بالمصير المحتوم للانسان والذي لا راد له ، من جهة أخرى . هذه العلاقة أو المواجهه قديمة قدم الفكر الانساني ، بدت أولا من أساطير الحضارات القديمة سواء في مصر الفرعونية والشرق الادني القديم بوجه عام ، أم في أساطير الاغريق القدماء المتمثلة في قصة أوديب وغيرها ، أم في الاديان السابوية . لكننا نقصر بحثنا هنا على هذه العلاقة في اطار العقيدة الاسلامية ، واسهام المتكلمين والفلاسفة والصوفية الاوائل في حل المشكلة . سوف نجد فرقة الجهمية تدافع عن جبرية مطلقة ، والمتزلة تدافع عن حرية مطلقة ، والأشاعرة والفلاسفة والصوفية يقفون موقفًا وسطًا يدعون فيه الى اتساق حرية الانسان مع الرضا بقضاء الله وقدره . وذكرونا هذا التصنيف لمفكري الاسلام الاوائل في مشكلة الحرية الانسانية بما وجدناه في حضارة الغرب قديما وحديثا من قيام انصار الجبرية المتطرفة والحرية المطلقة والحرية المعتدلة ، مما يدل على ان تاريخ الفكر والبحث في مشكلات الانسان متصل مترابط ، وان العقل الانساني واحد متجانس في مراحل تطوره مهما اختلفت ألوان الحضارة الانسانية . لكننا نلاحظ

اختلافا واضحا بين مفكري الاسلام الاوائل والمفكرين الغربيين ، وهو ان الدافع الى البحث في مشكلة الحرية أو « مشكلة الجبر والاختيار ، عند الاسلاميين لم يكن الحساح مشكلة فلسفية بحثية تتطلب الحل ، وإنما كان - الى جانب اسباب سياسية لا يعنيها هنا أمرها - محاولة التوفيق بين موقفين متقابلين : فمن جهة توجد بالقرآن آيات توحى بالاختيار كما أنه ينص على تكليف الانسان باتباع أوامر واجتناب نواهي واستحقاق الانسان للثواب ان أطاع وللعذاب ان عصى ، وذلك يفترض الحرية ، فكيف تتسق هذه الحرية مع الايمان بالقضاء والقدر الذي ينص الدين ايضا على أنه جزء من العقيدة . لكن توجد بالقرآن من جهة أخرى آيات توحى بالجبر ، فكيف يتسق الجبر والتكليف مع عدل الله .

خذ أولا هذه الآيات التي توحى باختيار الانسان وحرية : (وقال الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، (من اعتدى فاعما يعتدي لنفسه ومن ضل فاعما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) ، (وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) ، (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيا ، ومن يكسب اثما فاعما يكسبه على نفسه وكان الله عليا حكيما) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

ومن الآيات ما يرحي بالجبر : (وما تشاؤون الا أن يشاء الله) ، (وربك يخلف ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) .

المجري ، وكان وزيرا للحارث بن سريج أحد ولاة بني أمية . رأت الجهمية ان الانسان لا ارادة له ولا اختيار ولا استطاعة وإنما هو مجبور على كل افعاله ، وأن الله هو الفاعل الحقيقي لكل ما يحدث في الكون والانسان . يخلق الله في الانسان افعاله كما يخلقها في الجهاد ، كما يجري الماء ويتحرك الهواء ويسقط الحجر . تصدر افعال الانسان ، وتنسب الى الانسان افعاله مجازا كما تنسب كذلك الى الجهاديات ، كما يقول أنعمت الشجرة وجرى الماء وطلعت الشمس وأمطرت السماء وأنبئت الارض ، يقال كتب محمد وقضى القاضي وأطاع فلان وعصى فلان (٢٨).

نلاحظ أننا لا نجد أنصارا كثيرين في تاريخ الفكر للدعوى بأن الانسان كائن مسلوب الارادة لا حول له ولا قوة يحركه القدر بهذا التصيير القاسي ، سوى اللاهوتي الامريكي الحديث جونان ادواردز (J. Edwards) ١٧٠٣ - ١٧٥٨ ، وأيضا أولئك الفلاسفة السطيين المنسكين في كل عصر والقاتلين لن الانسان شيء مادي بهت كسائر الاشياء الجامدة في الطبيعة تحكمه قوانين الطبيعة . نلاحظ ثانيا ان ما دفع الجهمية الى ذكر موقفهم ليس اهتماما أساسيا بموضوع حرية الانسان وإنما هجوم على فرق كلامية سادت الكوفة وهران وقتئذ - من بينها فرقة مقاتل بن سليمان المفسر والمحدث (ت ١٥٠هـ) -

(يجدي من يشاء ويضل من يشاء) ، (ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون) ، (أقمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار) .

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يؤكد أن الايمان بالقضاء والقدر جزء من العقيدة ، عن جابر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن ليصيبه) (٢٩) . وعن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاضعون لرسول الله ، في القدر فنزلت الآية « يوم يسبحون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، انا كل شيء خلقناه بقدر » (٣٠)

في هذا الجو العقائدي نشأ الحديث في الجبر والاختيار في الاسلام ، وبه مختلف الآراء والفرق ، وفيما يلي اشارة الى أهمها .

الجهمية دعاة جبرية متطرفة

الجهمية من بواكير الفرق الاسلامية التي اهتمت بمشكلة الجبر والاختيار في افعال الانسان ، وسميت كذلك نسبة الى زعيمها جهم بن صفوان الذي نشأ في سمرقند بفارسان بفارس وأقام بالكوفة بالعراق في أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني

(٣٠) أحمد أمين ، فجر الاسلام ص ٢٨٤ ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

(٢٩) أبو الويل الفخرازي ، دراسات في الفلسفة الاسلامية ص ٦٨ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٢٨) فجر الاسلام ص ٢٨٦ ، وأيضا :

أحمد صبيح ، في علم الكلام ، دراسة فلسفية لآراء الفرق الاسلامية في أصول الدين ، ص ١٨٣ - ١٨٦ ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ .

أما المعتزلة فهم أكبر دعاة حرية الانسان المطلقة في الاسلام ، وكانوا يسمون أيضا بالقدرية ، وكان خصومهم يسمونهم أحيانا بالجهمية لاشتراكهم معهم في بعض آرائهم وان اختلفوا عنهم في موقفهم من الجبر ، بل لم يرتض المعتزلة تسميتهم بالمعتزلة وكانوا يفضلون تسمية أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » . والمعتزلة طبقات وشرق يختلفون فيما بينهم لكنهم متفقون في القول بحرية الانسان . ومؤسس فرقة الاعتزال الأوائل هو واصل بن عطاء وعمره بن عبيد ، ونشأ الاعتزال بالبصرة وانتشر بالعراق واعتقته بعض خلفاء بني أمية ، وامتد تأثيرهم في الدولة العباسية ، وتكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان بالبصرة وبغداد .

ولقد اعتمد المعتزلة فيما يخص مشكلة الجبر والاختيار أولا على الآيات القرآنية التي توحى بالاختيار ، وتأويل الآيات التي توحى بالجبر ، لكنهم اعتمدوا أساسا في قولهم بالحرية على أدلة عقلية أو - بمعنى أدق - أدلة جدلية ، يبدأون بالتسليم بمقدمات اعتقادية ثم يستنبطون منها النتائج . يبدأون بمقدمتين أساسيتين هما أن الله عادل لا يميز عليه الظلم ، وأن الانسان مكلف مسئول عن أفعاله ، ولا تنسق هاتان المقدمتان الا اذا كان الانسان حرا مختارا . فان كان الانسان مجبورا وكان في نفس الوقت مسئولا عما يفعل فقد تنافى ذلك مع عدل الله ، ولو كان مجبورا للزم ان يكون الكافر والمؤمن سواء في طاعتهم لله اذ فعلا ما قدر الله عليها ، ولا يستوي الكفر مع الايمان ، بل لو

نادت بتشبيه الله بالانسان ، أي حملوا على الله ما تحمله على الانسان من صفات ، ورأى جهنم في ذلك دعوة الى الشرك بالله فنهض للدفاع عن التوحيد وأثبت ان الله لا يوصف بصفة يوصف بها خلقه ، ويجب تأويل الآيات التي توحى بالتشبيه ، ودعا الى وصف الله بصفات فريدة له مثل الخالق الباري المحيي المميت . ومن ثم فدافع جهنم الى القول بالجزية دفاع عن توحيد الله اذ هو الفاعل الحقيقي لكل شيء ، ولو كان الانسان حرا قلنا انه خالق أفعاله وبذلك يتصد الخالقون .

القدرية والمعتزلة أنصار حرية مطلقة

فرقة القدرية من بواكير الفرق الاسلامية التي دافعت عن حرية الانسان واختياره لأفعاله ، وتنسب الى معبد الجهني - أحد جلساء الحسن البصري - وتابعه كثير من أهل البصرة ، وغيلان النمشقي الذي عاصر هشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وعاشا في نهاية القرن الاول الهجري ، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة . وقد ورد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (القدرية مجوس هذه الامة ، ان مرضوا فلا تصدوهم وان ماتوا فلا تشهدهم) ، مما يدل على ان الرسول أذكر القول بحرية الانسان مستقلة عن ارادة الله وقضائه . (والمجوس هم مشركوا أهل فارس آمنوا ببلعين إله للنور وآخر للظلمة) . وقد جاءت تسمية القدرية من خصوم الفرقة لا من دعاةها ، والقدرية في القاموس المحيط هم جاحدو القدر . (٢٧)

آخر . كما هاجم الاشاعرة فرقة المعتزلة تفصيلا . أما عن قول المعتزلة لو أراد الله أن يخلق في العالم شر لكان سبحانه سقيها ، فبعد الاشاعرة يقولون كما أن الله يريد الطاعة لعباده ولا يسمى مطيعا فانه قد يريد السفه ولا يسمى سقيها ، وحين يقول المعتزلة ان الانسان حر يختار ما يفعل ولم يقدر الله عليه شيئا منذ الازل ، يريد الاشاعرة بانه يلزم عن ذلك ان يقع في ملك الله ما لا يريد ، أو أن يحدث في العالم ما يغل الله عنه ويجهله ، لكن في الحال على الله ان يوصف بسهر أو عجز . وبعد هجوم الاشاعرة على المعتزلة يتقدمون بموقفهم الجديد وخلاصته أن الله خالق أفعال العباد خيرا وشرها ، لكن للانسان استطاعة على الفعل واختيارا بقدرة حادثة ، والدليل على ان للانسان ارادة واختيارا ان له جهدا وتديرا وقصدا ، ويوفون بين خلق الله لاختيارنا وقدرتنا الحادثة على الفعل المختار بقولهم حين يريد الانسان اداء فعل باختياره بقدرة حادثة فان الله هو الذي يخلق فيه الاقتدار على هذا الفعل وقت أدائه ، وبذلك يكون فعل الانسان من الله خلقا وابداعا ، ومن الانسان كسبا واستطاعة - وذلك معنى « نظرية الكسب » التي نادى بها الاشاعرة . يتكسب الانسان قدرة على أداء ما يريد لكن الله يخلق فيه هذه القدرة وقت أدائه الفعل . وبذلك تكون استطاعة الانسان للفعل مصاحبة للفعل لا سابقة عليه ، كما ينكر الاشعري أن تكون قدرة الانسان قدرة على أداء فعل أو الامتناع عنه وإنما للانسان قدرة على الفعل فقط

كان الانسان مجبورا لما غدت هنالك ضرورة لنزول الشرائع ، وإن لم يكن الانبياء مخالفين لما أراد الله اذ ينهون عما قدر الله أن يكون .^(١٠)

الاشاعرة والفلاسفة والصوفية أنصار حرية معتدلة

ليس من المؤلفين في نظر الباحثين في الفلسفة الاسلامية جن تجمع الاشاعرة والفلاسفة والصوفية في بركة واحدة ، والحق ان كل طائفة من هؤلاء المفكرين تخاصم الطوائف الاخرى في منهجها ونظرياتها ، بل لا يمكن تجاهل الخلافات بين أفراد الطائفة الواحدة . لكن ما دفعنا الى وضعهم جميعا في مقولة واحدة هو انهم حين تناولوا مشكلة الجبر والاختيار رفضوا مواقف الجهمية والمعتزلة معا ، ودعوا الى حرية معتدلة ، وحاولوا التوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر ، وإن اختلف بعضهم عن بعض في المقدمات التي تقدموا بها .

ونبدأ بالاشاعرة . سميت هذه الفرقة كذلك نسبة الى زعيمها ابن الحسن الاشعري (٣٢٤هـ) ، ويعبر الاشاعرة عن موقف أهل السنة والجماعة (وهم فريق أهل الحديث والفقهاء وبعض الصوفية وجمهور الأمة) . لقد هاجم الاشاعرة فرقة الجهمية بقولهم ان دعوى الجبر المطلق مع التسليم بالتكليف واستحقاقنا الثواب والعقاب لا يتسق وعدل الله ، كما أن الجهمية تجاهلوا احساسنا الطبيعي بالارادة والاختيار والاقتدار على فعل شيء دون شيء

بتوفيق الله ، إذ من شرط القدرة الحادثة وقت الفعل أن يلزم في وجودها وجود مقدورها^(٤١) .

واضح أن حل الإشاعة للمشكلة يصل في نهاية المطاف إلى قول بعبيرية القضاء والقدر ، ولا يختلفون عن الجهمية إلا بالاعتراف الصريح أن للإنسان إرادة لكنها تدخل في تقدير الله منذ الأزل .

خذ الآن موقف فلاسفة الإسلام الأوائل . ليس لهم موقف واحد بل لكل فيلسوف موقفه يختلف فيه عن غيره ، وكلهم يختلفون عن الإشاعة . ولسنا نستطيع هنا حصر مواقفهم جميعا ، يكفي أن نأخذ موقف ابن رشد مثلا بصفته أحد عاقلية فلاسفة الإسلام من المتأخرين الذين استوعب كل آراء السابقين وعصها وزاد عليها . هناك خلاصة موقفه : بالإنسان إرادة وقدر على الاختيار بين بدائل من الأفعال ، يسميها « اختيارا بين أضداد » ، ولا بد من تفسير كل شيء بأسباب ، (والقول بانكار الأسباب جملة قول غريب جدا عن طبع الناس .) إذن لأفعالنا الإرادية أسباب ، ونوعان من الأسباب ، داخلية فينا أو خارجية علينا ، وتدخل إرادتنا ورغباتنا وانفعالاتنا ... الخ في الأسباب الداخلية لأفعالنا ، بالإرادة محركها رغبة ، والإرادة تدفع إلى فعل ، أو « هنالك أسباب خلقها الله داخل أبداننا » و « الإرادة شوق يحدث لنا عن تفكير ما » . لكن

للفعل الإرادي أيضا أسبابا خارجية ، وهي ما يحدث حولي من أشياء وظروف ومثيرات وعوائق في البيئة ، أو « هي أسباب سخرها الله من خارج » ، وهي تجري على نظام محدد وترتيب متضاد لا تغفل في ذلك بحسب ما قدرها بأثرها عليه ، وهذه الأسباب بنظمها المحدد هي القضاء والقدر الذي كتبه الله على عباده وهو اللوح المحفوظ » و « وعلم الله تعالى بهذه الأسباب وما يلزم عنها هو العلة في وجود هذه الأسباب ولذلك لا يحيط بمرغبتها إلا الله وحده »^(٤٢) وذلك هو حل ابن رشد للتوفيق بين حرية الإنسان والإيمان بالقضاء والقدر .

وذكرنا موقف ابن رشد هذا بحرف سبنوزا ، مما يدعم قول مؤرخي الفلسفة أن ابن رشد كان أحد مصادر سبنوزا الفلسفية ، وما هو جدير بالذكر أن ما سباه ابن رشد حرية يسميه سبنوزا جبرية متطرفة ، وأن الحرية التي نزعها لأنفسنا سببها جهلنا بأسباب أفعالنا .

أما الصوفية فقد اعتقدوا بحرية الإنسان بالإنسان بالقضاء والقدر في نفس الوقت دون محاولة التوفيق بينهما ، معتمدين في ذلك على نقطة بدء أساسية هي التسليم المطلق بأن الله واحد ولا فاعل غيره ، ويعتدله المطلق . أما دليل الصوفية على حرية الإنسان فقولهم « أن مخالفة النفس رأس العبادة »

(٤١) الفيلسوف ، الربيع السابق ص ٣٦ - ٨٠ وأجابه : أحمد صبحي ، للربيع السابق ص ٤٨٤ - ٤٨٨ .

(٤٢) انظر : ابن رشد ، الكشف عن مناهج الآلاءة في عقائد الملّة ، القرن الخامس في معرفة الأسماء ، للسلكة الثالثة في القضاء والقدر .

وانظر أيضا : محمد عارف المرادي ، « مشكلة الحرية في الفكر الإسلامي » في كتاب دراسات فلسفية مهيأة إلى الاستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، القاهرة ١٩٧٤ .

ذلك إلا إذا كان الإنسان حراً ، ويتلخص الموقف الثاني في تقرير الإسلام بالتوحيد الخالص له وأن لا فاعل غيره ، وأن الإيمان بالقضاء والقدر غيره وبشره جزء من هذا التوحيد ، لكن ذلك يتضمن جبرية أفعال الإنسان . ومن ثم لزوم التوفيق بين عدل الله وتوحيده بالنسبة إلى أفعال العباد .

٢ - جاءت الجهمية وانفصلت عن توحيد الله بثنى غال ، وهو تجاهل الدفاع عن عدل الله ، حيث جعلت الإنسان بلا إرادة واختيار مع إقرارها بالتكليف ، كأن الجهمية سلمت ابتداءً بعدل الله وهو مصدرة على المطلوب . وجاءت المعتزلة تدافع عن عدل الله بثنى غال وهو التضحية بالتوحيد الخالص له حيث فتح تعظيم بحرية الإنسان وبخله لأفعاله . تفرقت تهديد التوحيد ، مثل القول بأنه قد يحدث في العالم ما لا يحيط به من علم الله وإرادته . وجاءت الأشاعرة والفلاسفة والصوفية يقفون موقفاً وسطاً بين الجهمية والمعتزلة ، على اختلاف أساليبهم في التوفيق . نادى الأشاعرة بحرية الإنسان واستطاعته على إداء ما يريد من أفعال ، لكنهم إدغموا ذلك بقولهم إن الله هو خالق هذه القدرة والاستطاعة وقت قيام الإنسان بفعله ، وذلك يوقعهم في جبرية مقننة . ونادى بعض الفلاسفة بالتوفيق بين حرية الإنسان والإيمان بالقضاء والقدر لكن تفصيلهم لهذا التوفيق أوضحهم في جبرية واضحة كما سبقت الإشارة عند الحديث عن موقف ابن رشد . أما الصوفية فاتهم

وثنهم على التوبة من المعاصي والتقدم على ما فات ، وبذل الجهد لمخالفة النفس وحرمانها عما تشتهي من أهواء وشهوات « والتوبة أول منزل من منازل السالكين وأول مقام من مقام الطالبيين » ، ولا شك أن في التوبة مجاهدة ، والمجاهدة تفترض الجهد والمحاولة والاعتدال . - ولذلك يبرز عند الصوفية معنى رئيسي للحرية دون باقي معانيها وهو التحرر من الشهوات (٤٧) . أما ما يشهد بالإيمان المطلق بالقضاء والقدر عند الصوفية فهو تأكيدهم ترسيدهم الله بكل ما تمحل كلمة التوحيد من معنى ، إذ لا خالق غيره - خلق الكون والإنسان وخالق لما يكسب من فعل ، بل إن مجاهدة الإنسان لنفسه سبق علمها وإرادتها وتقديرها منذ الأزل ، والتوحيد عند الصوفية هو اليقين ، واليقين هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل .

تعقيب والفلاسفة موقف

١ - لاحظنا فيما سبق من إشارات في هذا القسم أن المفكرين الإسلاميين الأوائل حين بحثوا مشكلة الجبر والاختيار لم يكن أعظمهم الرغبي بمشكلة حرية الإنسان كمسألة فلسفية بحتة تشمل الناس في حياتهم اليومية وتطلب الحل ، وإنما بمشكلة عقائدية تتعلق بترجيح متقابلين يلزم التوفيق بينهما ، يتلخص الموقف الأول في تقرير الإسلام أن الإنسان مسئول عما يفعل ، فينبأ إذا أطاع أوامر الله وعاقب إذا عصاه ، وأن الله عادل لا يظلم أحداً ، ولا يتسق

(٤٧) انظر : الرسالة القشيرية في علم الصوفى للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، القاهرة .

وحيث تلج علينا هذه الدوافع نجد أمامنا ثلاثة مواقف : إما زعم بأقامة توفيق حقيقي بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر كما زعم بعض الفلاسفة الاسلاميين ، وإما اعتراف بعجز العقل البشري المحدود عن التوفيق كما اقتصرح بعض فلاسفة الغرب المؤمنين . لكننا نقترح حلاً ثالثاً خلاسته أن القول بالمصير المحتوم لافعالنا يتسق مع القول بجبرية أفعالنا أو بحريتها على حد سواء ، ويمكن لمن شاء أن يترجم فكرة المصير المحتوم الى لغة قضاء الله وقدره ، كما يمكن ان نتخذ بالمصير المحتوم دون الدخول في مشكلة القضاء والقدر . وقد أقننا هذا الاتساق بين المصير المحتوم من جهة والجبر أو الاختيار من جهة أخرى على أساس أن ما تم لنا فعله لم يكن بالامكان ان نفر منه ولا سبيل لنا لمنع حدوثه . والآن الى تفصيل هذا الموقف .

توهم المفكرون الاسلاميون الاوائل انهم نادوا برأجهم في مشكلة الحرية الانسانية كمشكلة قائمة بذاتها ، بينما كانوا في الحقيقة ينادون برأجهم في مشكلة أخرى هي عدل الله وتوحيده في المقام الاول . لكن مشكلة الحرية ومشكلة عدل الله وتوحيده مشكلتان متميزتان تماماً . وما يؤيد هذا التمييز اننا نجد في تاريخ الفلسفة فلاسفة يؤمنون بالله ويدعون الى الجبرية (جهن وسبونزا وجونانان ادواردز) وفلاسفة مؤمنين ويدعون الى حرية (المعتزلة وفلاسفة الاسلام والصوفية وديكارت ولينتز وكنت) ، ومن الفلاسفة المبكرين لله من هم جبريون (بعض علماء الفسيولوجيا وعلماء التحليل النفسي وأصحاب الجبرية النفسية المتطرفة) وفلاسفة منكرون يدعون الى

أمنوا بالضدين معا - حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر - دون محاولة للتوفيق بينهما ، انطلاقاً من التسليم المطلق بالعدل والتوحيد معا .

٣ - على الرغم من ضعف مواقف الجهمية والمعتزلة وتأرجح مواقف الاشاعرة والفلاسفة والصوفية في حل مشكلة الجبر والاختيار في حدود المشكلة الرئيسية التي كانوا يبحثونها ، فقد كانت لهم تحليلات طيبة للفعل الارادي الانساني ، سبقوا بها فلاسفة الغرب ، مثل يميزهم بين الاعمال الاضطرارية التي لا ارادة لنا فيها ولا حيلة لنا في منعتها ، والاعمال الارادية التي لنا فيها اقتدار واختيار ، وبمثل اعتراف اكثرهم باحساس طبيعي لدى الانسان ان له ارادة واختياراً ، وبمثل قولهم ان لكل فعل عللاً وأسباباً ولا يمنع ذلك من وصفه بالحرية ، وبمثل قولهم ان الفعل الارادي تسبقه ارادة لفعله والارادة تدفعها رغبة (فما عدا الاشاعرة الذين أخطأوا في جعل الارادة مساوقة للفعل ولا تسبقه) ، وبمثل ادراك الصوفية للحرية التي تمنى التحرر من الشهوات .

٤ - بعد ما أوضحنا المشكلة الاساسية التي شغلت المفكرين الاسلاميين الاوائل حين بحثوا موضوع الجبر والاختيار ، وبعض حسنات بحثهم وثوراته ، تنتقل الى هدفنا الثاني في كتابة هذا البحث ، ونوجزه الآن قبل تفصيله . ان مشكلة عدل الله وتوحيده وصلتها بأفكار الانسان مشكلة متميزة تماماً عن مشكلة الحرية الانسانية بحيث يمكن البحث في احدها دون البحث في الاخرى بالضرورة . الا ان كانت لنا دوافع دينية تضطرنا الى ربط المشكلتين .

الحرية يعارض مع اعتقاده بجبرية القضاء والقدر، فقال أولا أننا نترك بوضوح أن الله علم قديما ما سوف يعمل كل انسان من بدء حياته الى منتهاها حتى لو لم نفهم بقلنا المحدث كيف تم ذلك ، وعدم فهمنا لشيء ما لا يلزمتنا باتكازه . لكن ديكرت زاد موقفه ايضا حين ألحقت عليه تلميذته المحبة الاميرة اليزابت فقدم لها القصة الرمزية الآتية . يصحكي ان ملكا عرف ان اثنين من رعاياه تشاجرا يوما ما ثم توجه كل منهما الآخر أن يتبارزا بالسيف اذا تقابلا مرة أخرى ، على الرغم من أن الملك حرم المبارزة في مملكته . وحدث أن أمر الملك بلقائهما ، فتبارزا بالسيف وعصبا أمر الملك ، وعلى الرغم من أن الملك رتب اللقاء وقدر المبارزة فانه لم يجبرهما على ذلك ، اذ تقابلا بمحض ارادتهما كما لو أن الملك لم يعظم عنهما شيئا . وكذلك الامر في علم الله وتقديره لافعال الناس ، فقبل ان يخلقنا الله علم تماما ما سوف نريد ونعمل ، وهو الذي خلقنا عبودنا ونوازتنا وعلم منذ البدء بما سوف يحيط بكل منا في كل لحظة من ظروف ، ورأى مسابق علمه أننا سوف نقوم باختيارنا بكل ما سيتم بالفعل ، لكن الله لم يجبرنا على شيء .^(٤٤) كأن ديكرت يريد القول أن الله علم منذ الأزل ما سوف نخافه بارادتنا فقدره ، أما القول بأن الله هو الذي أودع فينا نوازع وميولا اخترنا على

حرية (هوبز وبيكون متواترت مل والجناح الملحد من الوجوديين المعاصرين) . ولذلك فليس من علاقة ضرورية بين الايمان بالله وعدله وتوحيده من جهة وجبرية أفعال الانسان أو حرمتها من جهة أخرى .

ولقد لاحظنا فيما سبق أن بعض فلاسفة الاسلام أفتنموا أنهم أقاموا محاولات ناجحة للتوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر ، لكننا وجدنا نظرة فاحصة أن تلك المحاولات توقع أصحابها في جبرية . نلاحظ الآن أن بعض فلاسفة الغرب من المؤمنين اعترافا بمجزمهم عن ذلك التوفيق ، ومنهم ديكرت ولينتز . دعا ديكرت الى حرية الانسان فرأى فكرة الحرية أول أفكارنا الطبيعية ، وان الانسان خالق أفعاله ، ويستحق للثواب والعقاب ، وان أفعاله لا تخضع لحماية القوانين الطبيعية الصارمة بما بالانسان من عقل واردة وهذا ليسا من طبيعة مادية لتجري عليها قوانين طبيعية ، والانسان حر بما لقلته من قدرة على التفكير فما سيقوم به من أفعال وإدراك قيمته وتبريره واختياره أو الامتناع عنه ، والانسان حر بما لارادته من قدرة على مقاومة لبعض دوافعه ورغباته ، كما أننا نستطيع بارادتنا أن نتب ما نعتقد بصدقه أو نكر ما نعتقد بكذبه ، لكننا قد نخطئ فيما نعتقد أو نشكر ، ويدل كل ذلك على حرية ارادتنا واختيارنا .^(٤٥) ولقد أحس ديكرت أن دفاعه عن

Descartes, *Principles of Philosophy*, pt. I, Secs. xxxvii, xxxix.

Descartes, *The Passions of the Soul*, pt. 1, Art. xli.

(٤٤) انظر ،

انظر ايضا ، خطاب ديكرت الى مسلايد Menland عام ١٦٤٤ في

Adem and Tannery, *Oeuvres Completes*, Vol. IV, p. 115

(٤٥) خطاب ديكرت الى الاميرة اليزابت في يناير ١٦٦٦ .

أساسها ما اخترناه فهو ما لا نستطيع بقولنا المحدودة ادراك حكمة .

والى نفس الموقف ذهب لينتز نصير مؤمن آخر للحرية ، وإن كان بأسلوب مختلف . سجل لينتز توفيقه بين حرية الانسان وإيمانه بالقضاء والقدر بطريق غير مباشر حين كان يشرح إحدى نظرياته الفلسفية وهي نظريته في « الجوهر الفردي » Individual Substace هناك خلاصتها . المحمول في كل قضية شخصية صادقة محتوى في تصور موضوع هذه القضية بحيث إذا أحطنا بتصور كامل للموضوع أمكن استنباط كل محمولاته . ففي القضية « الاسكندر هزم دارا » أو « الاسكندرات في بابل » أو « بوليوس قيصر عبر نهر الروبيكون » ، نجد أن المحمول متضمن في تصور الموضوع ، وتصبح العلاقة بين الاسكندر أو قيصر وما صدر عن كل منهما من أفعال كالعلاقة بين الثلث وخصائصه التي يمكن استنباطها من طبيعة الثلث ، وبذلك تصبح القضية الشخصية قضية تحليلية . ويوضح لينتز هذه النقطة التحليلية المنطقية ذات الأساس الميتافيزيقي بتمييزه بين القضايا الضرورية مطلقة مثل قضايا الرياضيات والمنطق ، والقضايا الضرورية بالعرض مثل القضايا الحادثة contingent propositions ويقوم صدق القضايا الثانية على إرادة الله الحرة . لا نعرف صدق هذه القضايا الحادثة إلا حين وقعت ،

بل لم يعرف الاسكندر مثلاً ما حدث له إلا بعد حدوثه ، لكن الله وحده علم بطله المطلق على نحو قبلي ما سوف يفعله كل انسان . وليس في ذلك جبر وإنما كل انسان حر يختار فيا يفعل ويفكر ويتروى فيا يقدم عليه من أفعال ارادية ويستطيع ان يفعل ما يشاء . كما يستطيع ان يتنح عن فعله . ولا شك ان لكل فعل سببا يقوم فيا لدى الانسان من ميول ورغبات ومبادئ وقيم وغايات ، « وهذه الاسباب ترسي لكنها لا تضطر » but do not necessitate seasons incline بمعنى ذلك ان الله خلقنا وخلق ارادتنا واستطاعتنا لكن من الممكن منطقيا وواقعا ان نفعل غير ما قد فعلنا ، فقد يكون الفعل صعب التنفيذ أو قد يكون لدى أسباب أخرى تعوق أدائه وما الى ذلك . ثم يقول لينتز قوله المثير الجذاب : تخيل آدم قبل ارتكابه الخطيئة ، فلقد كان حراً مختاراً في أكل التفاحة ولم يدفع آدم الى فعل ما فعل سوى رغبته وأرادته . لماذا تريدون مني أكثر من ذلك لكي أكون نصير الحرية لكك ان قلت ان الله أودع فينا من التوازن والميول والرغبات والظروف ما يضطرنا الى فعل ما نفعل ، ومن ثم قدر علينا ما نفعله - فذلك ما لا ينبغي التوغل فيه ولا نريد الحديث في أعماق الحكمة الالهية .^(٤٧)

نخلص مما سبق عن العلاقة والمقابلة بين حرية الانسان والإيمان بالقضاء والقدر الى النتائج التالية :

(٤٦) نجد نظرية الجبر الربوبي وصلتها بفصل الانسان في كتاب لينتز Discourse De Merveysique وفي مراسلات لينتز مع أرنو A. Arnauld اللاهوتي الكاثوليكي الماسر لديكارت لينتز وقد جمع هذان الكتابان وكتب ثلاث في مجلد واحد مترجما الى الانجليزية بعنوان :

Leibniz, Discourse On Metaphysics, Correspondance With Arnauld, Monadology, trans, by g. Montgomery, Open Court Publishing Company, in Salle, Illinois, 1957.

(٩٠)

خاتمة : تحليل الفعل الارادي وتدرج الفعل الحر

لقد دأبنا في القسم الثامن من هذا البحث عن أول أهدافنا من كتابته ، وهو أن الخصومة القائمة بين أنصار الجبرية وأنصار الحرية أقل حدة مما يظن كثير من الناس ، أو حتى الفرقان المتخاصمان أنفسهم ، وأن نظريتي الجبر والحرية ليستا على طرفي نقيض ، وإنما يمكن تضييق الخلاف أو النزاع بينهما ، يدل على ذلك وجود أنصار للحرية المعتدلة في كل عصر يقفون موقفاً وسطاً بين الجبرية المتطرفة والحرية المطلقة . بل وجدنا أن المواقف التي يتفق فيها الفرقان المتنازعان أكثر من تلك التي يختلفون عليها ، مما يوحي بأن الخلافات بينهما لفظية أحياناً وغير حاسمة قاطعة أحياناً أخرى .

ولقد تناول القسم التاسع من البحث موضوع التناوب والتناظر بين حرية الإنسان والايان بالقضاء والقدر الذي يتضمن الجبرية ، ومحاولة بعض المفكرين في كل عصر للتوفيق بينهما . وقد وصلنا إلى أن موضوعي الحرية والايان بالقضاء والقدر موضوعان مختلفان متميزان بحيث يمكن البحث في أحدهما دون البحث بالضرورة في الآخر ، وأن ما دفع دعاة جمع الموضوعين معاً لم يكن اهتماماً بالدرجة الأولى بمشكلة الحرية الإنسانية ، وإنما كان اهتماماً أساسياً بمشكلة أخرى هي مشكلة الالوهية وعدل الله وتوحيده

١ - ليس من علاقة ضرورية بين البحث في حرية الإنسان والبحث في موضوع عدل الله وتوحيده وعلمه وإرادته ، إذ هما مشكلتان متميزتان .

٢ - لا يربط المشكلتين في بحث واحد ولا يحاول التوفيق بينهما سوى أولئك المفكرين المهتمين بموضوع الالوهية ، لكن هذا الربط لا يجم الفلاسفة المنكرين لله والمهتمين في نفس الوقت بمشكلة الحرية كمشكلة فلسفية بحتة ، وليست كل فلسفة هي فلسفة دينية .

٣ - فيما يخص الفلاسفة المهتمين ، لدينا نوعان من المحاولات : محاولات الاسلاميين الأوائل الذين وقعوا في نهاية المطاف في أحضان الجبرية ، ومحاولات الفلاسفة الغربيين الذين اعترفوا بجزء العقل الانساني عن توفيق حقيقي بين الحرية والايان بالقضاء والقدر . لكن يمكننا اتخاذ موقف وسط يتلخص في انساق التسليم بالمصير المحتوم مع القول بالجبرية أو الحرية على حد سواء . وقد أقننا هذا الانساق مفيد من الجبرية المنطقية التي أشرنا إليها في القسم الخامس ب ، على أساس أن ما تم لنا فعله - سواء كنا مجبرين عليه أم مختارين فيه - لم يكن منه مقر ولا حيلة لنا في منعه ، ذلك لأن ما وقع ، والوقائع حقائق والحقائق مستقلة عن إرادة الإنسان نكتشفها بعد علمنا لها ولا نخلقها ولا تتعلق بزمن إذ هي خارجة على الزمان (٩١)

(٩١) جدير باللافت أن موضوع الإيثار بالقضاء والقدر لا يزال موضوع بحث كثير من الفلاسفة المعاصرين ، خاصة للمكرين منهم ليريدوا الله ، وإن افعل الموضوع صورياً أخرى ، بدلاً من بحث موضوع الإيثار بالقضاء والقدر متعلقاً بأفعال الإنسان وبدى حريته أو جبريته ، أصبح هذا الموضوع متعلقاً بمشكلة السلبية لحرى هي مشكلة أكثر في العالم : كيف يمتنع وجود الله في العالم مع وجود الله والصفاته الإلهية .

انصار الجبرية والحرية على ان الافعال اللارادية تمنحهم فيها مضطرون اليها . وتقع هذه الافعال في صنفين رئيسيين : أفعال تضطر اليها من مصدر خارجي علينا ، وأفعال تضطرتنا اليها عللى في ذاتنا وأبداننا . ويندرج تحت الافعال اللارادية التي تفرض علينا من خارج ثلاثة أنواع :

(١) الافعال التي نخضع فيها لقوانين الطبيعة ، مثلنا فيها كسائر الاشياء والظواهر الطبيعية والكائنات العضوية .

(٢) الافعال التي تضطر اليها بتأثير تهديد أو تعذيب أو أسر وعبودية الانسان للانسان .

(٣) ولادة الانسان من جنس معين ذكر أو أنثى من أبوين معينين لم يستشره أحد في اختيارها وفي مجتمع معين له أعرافه وتقاليده التي يخضع لها في أغلب الاوقات رضي أم أبى .

أما الافعال اللارادية التي تضطرتنا الى فعلها عوامل داخلية فينا فأغلبها فسيولوجية ونفسية ، وتقع كذلك في ثلاثة أصناف :

(١) كثير مما يصدر عن أعضاء البدن من حركات وعمليات وظلغات مثل نبض القلب وأغراض المعدة والكبد والأمعاء والقند السهبا وتغيرات الخلايا الحية في الجهاز العصبي والمنح بوجه خاص .

(٢) تلك الافعال الصادرة عن افراد يتناولون عقاقير معينة من شأنها ان تثير انفعالا معيناً أو رغبة معينة أو أن تخفف من حدتها ، فإذا جاءتنا حالات

وعلمه وإرادته القنعية . ولقد وصلنا في بحث هذا التقابل الى أن من الممكن ان يتسق الايمان بالقضاء والقدر أو الايمان بالمصير المحتوم لانفعالنا مع القول بالجبرية أو القول بالحرية على حد سواء .

والآن نعود في هذا القسم الى مشكلة الحرية كمسألة فلسفية بحثت وتنازع عن ههنا الثالث من بحثنا وهوان بالانسان مقويات الحرية لكنه نادرا ما يكون حرا . أؤمن بأن الانسان حر أو قادر على ان يكون حرا ، لكني أؤمن أيضا بأن الانسان نادرا ما يكون حرا بالمعنى الدقيق لكلمة حرية ، ذلك لأن الحرية ليست منحة ولا هدية مطاة للانسان وإنما يتطلب الفعل الحر جهدا واكتسابا وتدريباً وممارسة شاقة وتحررا من شتى صنوف العبوديات . وإن المعنى الدقيق لكلمة حرية هو أن أفعل الفعل الذي يصدر عن ذاتي ولا يضطرتني اليه شيء أو أحد غيري ، وما يعبر عن شخصيتي بكاملها بحيث أحس بعد أدائه أنني راض عن نفسي ، سعيد في أعماقي بما فعلت ولا أحس بعد أدائه بتقريع أولم أو تأنيب ضمير . ولقد وصلنا الى هذا الموقف في ضوء تحليل الفعل الارادي للانسان ، لم يميز فيه فقط بين الفعل اللارادي والفعل الارادي ، بل ميزنا أيضا في الافعال الارادية بين ما أمكننا تسميته « الافعال الارادية اسما » و « الافعال الارادية فعلا » وهذه الأخيرة فقط هي التي توصف بالحرية .

فلاذج الافعال اللارادية

الفعل اللارادي هو ما لا ارادة لي فيه ولا سلطان لي عليه ولا حيلة لي في منعه ، وقد اتفق

اطار فسيولوجيا المخ والاعصاب ، ولكنه تحول عن هذا العلاج حين صاغ نظريته في اللاشعور وجعل التحليل النفسي علاجاً والكشف عن الدوافع اللاشعورية واطلاقها الى حيز الشعور .

غلاذج الافعال الارادية اسما

« الافعال الارادية اسما » افعال تقوم بها بإرادة واختيار ، لكنها تجد نظرة قاحصة أنها أكثر شيها بالافعال اللاارادية منها بافعال ارادية حقا ، بحيث تبدو فيها طابع الجبر أو ما يشبهه . ونذكر من هذه الافعال ثلاثة غلاذج :

(١) الافعال الفريزية مثلما يدفعني اليها انفعال محمّد أو عاطفة جائرة عمية أو احساس شديد بجوع أو عطش أو يجنس ، ويدخل في هذا النموذج أيضا حالات الخوف والحرج والمرضى أو حالات العدوان وما الى ذلك . حين أؤذي هذه الافعال أؤذيها عن وعي وقصد لكني أحس في نفس الوقت أنني مدفوع اليها ومن الصعب السيطرة عليها ، والدليل على طابع الجبر في هذه الافعال أنني كثيرا ما أحس بتأنيب ضمير أولم بعد أدائها ، وتفسير ذلك أن ما يدفع الى هذه الافعال دافع طارئة تلقائي وقتي يؤثر علي بمصرل عن باقي دوافعي ورغباتي وغاياتي وأهلافي التي تؤلف شخصيتي المتكاملة وسهاتي النفسية المتفردة التي تهيمن علي أنا . ويدل هذا النموذج من الافعال على ضعف في ضبط النفس ، وقد يكون ضبط النفس هو الحرية بكامل معناها .

(٢) هنالك أفعال ارادية اسما أقوم بها عن وعي لكن يدفعني اليها سلطان المادة وطفان التقليد

نفسية بذلك الطريق الفسيولوجي فلا سلطان للفاعل عليها .

(٣) ما يصدر عن الافراد حين يقعون تحت تأثير الإيحاء أو التويم المغناطيسي أو الافراد الشواذ المصابين بأمراض عقلية أو نفسية حادة ، كما سبقت الإشارة ببعض تفصيل حين تحدثنا عن جبرية التحليل النفسي في قسم سابق . ويدخل في هذا النموذج من الافعال اللاارادية تلك المظاهر من السلوك الشاذ الذي يصدر عن فرد مصاب بفكرة ثابتة سيطرت عليه لها أساس بيولوجي ونفسي . وبثال لذلك تلك الحالة المشهورة التي يسوقها عالم النفس المشهور ريبو Ribot ويتناولها كثير من علماء النفس حالة فرد سيطرت عليه فكرة قتل أمه وقال في نفسه : أنا مدين لأمي بكل شيء وأحبها من كل أعماقي ، لكن سيطرت علي فكرة قتلها مما أرصعني وأطار صوابي ، ولكي أنقذ نفسي من هذه الفكرة تركت أمي بل تركت وطني وتطوعت في الجيش لئلي أنسى ذلك الدافع الملح الى قتلها . لكن هذا الدافع ظل يلح علي وأنا في الميدان ، وقاوت نفسي بكل قوتي فتحوّلت الفكرة الى فكرة قتل زوجة أخي . وفيجأة علمت بولادة زوجة أخي فتفتست الصعداء وقررت الرجوع الى وطني وقد أحسست أنني شفيت . ولدهشتي وجدت زوجة أخي على قيد الحياة فارتعدت وصارحت أخي بمرض الشاذ ورجوته أن يقيديني بهيال كما لو كان يقيد ذنبا مقترسا ، وأحسست أنني مقدم على جريمة أنا أنفر من ارتكابها . تلك هي الحالة الشاذة التي ضربها ريبو على جبرية الافعال الثابتة . ولقد كان فرويد أول عهده يحالج هذه الحالات في

والمحاكاة أو ضعف الإرادة . وأبرز مثل عليها حالات الامكان في الشراب أو التدخين ، فقد يصل للممن الى حالة يحس فيها انه تافر عما يفعل نادم عليه ، ورغم ذلك يستمر في شرايه أو تدخينه ، وقد يقدم على ذلك حتى قبل ان يفكر ، حين يفكر ويقام نفسه ويود الاقتلاع عن عاداته السيئة يجد نفسه عاطل الإرادة . وواضح ان الافراد المصابين بحالات الامكان يتقصصهم ضبط النفس وحاجة الى قوة الإرادة .

على عنة خطوات لا بد أن تتم ، وليس بين هذه الخطوات فصل أو تمييز واضح في الواقع وإنما هي في تداخل واندماج ، لكن في ذكرها وتحليلها توضيحاً للفصل الإرادي الحق . وخطوات الفصل الإرادي الحقيقي هي : التروي ، اتخاذ قرار ، الصبر أحياناً عن اتخاذ القرار ، إرادة الانتباه ، المحاولة وبذل الجهد ، قوة الإرادة وتأثيرها بالمبادئ والقيم التي اعتنقها .

(٣) كثير من أفعالنا اليومية. الجارية أفعال إرادية اسما ، مثل قيامي من نومي كل صباح في موعد معين وأداء طقوس نظافتي وطريقتي في ارتدائه ملابس وتناول طعامي والقائي التحية لزملاء العمل وطريقة سيرتي في الطريق أو انتقالي من جانب من الطريق الى الجانب الآخر اتلته سيري حتى دون تفكير أو دون سبب معين ، وما الى ذلك ، كل هذه الافعال إرادية أعني بها وأقصدها لكنها أشبه بأفعال آلية بحيث لو سألتني كيف أردتني مطفي أو ما طريقتي الخاصة في حقبة صديقي لما استطعت الاجابة بسهولة .

الفعل الإرادي حقا

الفعل الإرادي بالمعنى الحقيقي هو الفعل الحر ، ويحس به كل منا باستبطان . ويمكن تمييزه من سائر الافعال اللاإرادية والافعال الإرادية اسما بأنه ينطوي

التروي deliberation : يجب ان يسبق الفعل الإرادي حتماً عنصر التروي ، وهو التفكير في الفعل الذي أريد فعله قبل تنفيذه ، ويضعني التروي بين بدائل من الافعال علي أن أختار أحدها ، بحيث ما أختاره بعد ترو يتفق مع شخصيتي بكاملها أو مع سباني النفسية وطباعي ومبادئني وبشي التي أتحسس لها وأهداني وغاياتي التي أجد في تحقيقها اثبات وجوبي . وأنا لا أمارس التروي في كل أمر وإنما فيا لدي قدرة على فعله ، فالجنون لا يتروى فيما يفعل وكذلك الطفل ، كما لا تتروى فيما يصدر عن العالم الطبيعي من حركات وتغيرات ولا تتروى في اختيار أبجدية اللغة التي نتكلمها . نلاحظ أيضا أننا لا تتروى في الهدف من الفعل وإنما فقط في الوسائل اليه ، فالطبيب لا يفكر في شفاء المريض وإنما في وصف الدواء الشافي ، والخطيب لا يتروى في اقناع السامعين وإنما في الأحوال والأفكار التي يقوى لنتقنهم . (٤٨)

ومارسها وتنسق وشخصيتي المتكاملة ومتفقة ودوافعي وبيولي المكتسبة وميلادني وأهدائي بحيث أصبحت جزءا من شخصيتي ، مثلا أكون تعودت الجلوس الى مكتبي أقرأ أو أكتب كل مساء لرغبتي القوية في البحث او اندفاعي التلقائي لسماع الموسيقى أو العزف على البيانو كلما اتيت لي فراغ وقت لولهي بالموسيقى . أو مثلا أجد نفسي مدفوعا لاتخاذ غريق أو إغاثة محتاج أو أن أؤثر غيري على نفسي فيما يحتاج اليه أو قول الصدق ولو حقق لي أذى وما الى ذلك . لكن قد أصادف موقفا صعبا أو جديدا لم أتعبه من قبل وأجد نفسي في صراع بين دافعين أو رغبتين . وبعد رؤية لا أجد اني حسمت الصراع وتوصلت الى قرار ، في مثل تلك المواقف أجدني محتاجا الى خطوة الانتباه ، والمقصود به ارادة مزيد من تفكير وجهد عقلي لحسم ما أنا فيه من حيرة ، ويدفعني ذلك الى جهد ارادة لأستجمع كل دوافعي ومياني النفسية وأهدائي ومعتقداتي وما أحب وما أكره اسام عيني عقلي ، وقد أجد حينئذ باستبطان ان لدي دافعا ضعيف الاثر لم انتبه اليه من قبل ، وحين انتبه اليه أبذل جهدي في الوعي به واكتشاف أهميته ، فقد يساعدني ذلك على حسم الصراع واتخاذ قرار . وفي اتخاذ هذه الخطوة - ارادة الانتباه الى نفسي بكل نوازعها ورغباتها وعواطفها وميلاتها - تقوم الحرية ، لانني في هذا الموقف لا أريد أفعالي وإنما أريد ارادتي أو اكتشف قدراتي واستعداداتي من جديد .

المحاولة وبطل الجهد

قد تكون هذه الخطوة متضمنة في الخطوات

اتخاذ القرار : ويتلو التروي الناجح خطوة اتخاذ القرار - قرار تنفيذ فصل ما دون باقي الافعال البديلة . ما يحدث في خطوة التروي حساب نتائج الفعل الذي أتوي فعله ، وفي هذه الخطوة تجذبني رغبة ما مرة تدفع الى فعله ، وقد تجذبني في نفس الوقت رغبة أخرى تساند الاولى او تعارضها فتجذبني عن ادائه . واتخاذ القرار هو حسم الصراع بين دوافع الفعل وعوائفه ، وقد يعني على ذلك اعتناقي لمبدأ سلوكي معين أو قانون أخلاقي أتأسك فيه أو هدف أساسي أبني الوصول اليه وهكذا . حين تسيطر الرغبة الاقوى أو المبدأ أو الهدف الطاغى يتم اتخاذ القرار .

احتمال العجز عن اتخاذ القرار : قد يحدث لي في خطوة التروي أن أعجز عن تفضيل فعل على آخر ، فقد تجذبني رغبة ما الى فعله تعارضها رغبة أخرى تنفرني من فعله ، وأجدني حائرا لأن ما يشجعني على اداء الفعل يساوي في قيمته ما ينفرني من أدائه . وهنا أقف عاجزا عن اتخاذ القرار او عاجزا عن اختيار فعل دون آخر ، فأصاب بتردد مؤلم بين اداء الفعل أو الامتناع عنه ، وقد لا أحتمل هذا الموقف فأحاول الخروج من المأزق بالقيام بأي عمل قد يدفع اليه مثير خارجي لا فضل لي فيه ، فيصبح الفعل الذي أؤديه لا اختيار لي فيه ولا سبب يدعو اليه .

ارادة الانتباه :

هنالك أفعال ارادية فعلا . وكثيرا ما أؤيها بلا تفكير ولا جهد ارادة ، لانني تعودتها

يبلغ الجهد مبلغا كافيا لتأدية الفعل ؟ هنا تي خطوة
قوة الارادة .

قوة الارادة : ليس منا من يتمنى أن يكون
ضعيف الارادة ، وليس منا من يتمنى ان يكون
خامل العقل كسول التفكير . لكن كم منا من يمارس
قوة ارادته ويحرص على تطوير نفسه وتعديل سبائه
واصلاح ما اعوج من مبادئه ومعتقداته وعاداته ؟ هنا
الفارق بين الحر والعبد ، وهنا تمكن صعوبة الفعل
الحر وندرته . فالمرحاج الى يقظة العقل وقوة
الارادة . خذ الآن قوة الارادة . لا توجد نصائح
جاهزة لتقوية الارادة الضعيفة لكن يمكننا ايراد
دافعين أساسيين لتقوية الارادة ، هما اهتامي الذاتي
بتحقيق وجودي وبارتفاع مكانتي بين أفراد المجتمع
الذي أعيش فيه ، وتأثير المبادئ والقيم الاخلاقية
التي اعتنقتها . الفرد الحر هو من يأتي بفعل يحس معه
بارتياح ورضا لا لوم فيه ولا تقريع ، فان أحس مرة
بلوم على ما فعل فعليه ان يسعى لتصحيح نفسه
وتطوير ما درج عليه من عادات ونماذج السلوك ، وقد
يكون دافعه الى ذلك أمر ذاتي يحليه طموحه وسعيه ان
يكون قلبية ومثلا أعلى ، لكن قد يساعده على ذلك
شعره بفرديته في مجتمع يتمنى ان يحظى برضا الناس
ومدحهم وثقتهم ، والمجتمع يستخف ويزدري ضعيف
الارادة . والسبب الآخر الذي قد يقوي الارادة هو

السابقة لكن يجب ان نفردها اهتماما خاصا لاهميتها
في قيام الفعل الارادي الحق . حين أريد اداء فعل ما
فأني أفكر فيه قبل ادائه واحسب نتائجيه علي ان
فعله ويدى تحقيقي لذاتي ان فعلته أو ان امتنعت
عنه ، فاذا وصلت الى تفضيله على بدائل اخرى من
الافعال أكون قد اتخذت قرارا بفعله . وبعد خطوة
التخاذ القرار يأتي دور تنفيذ ما اخترت من فعل . وفي
هذه المرحلة يأتي دور الارادة - ان كنت قوي الارادة
أفدمت على الفعل دون عناء ، وان كنت ضعيف
الارادة أصبت بتردد ثم تراجع وأنا أفتقر فشلا من
عدم قدرتي على تحقيق ما أرغب فيه . وبصاحب
خطوة الارادة على أداء الفعل خطوة المحاولة . وفي
المحاولة بذل جهد ، وبذل الجهد درجات فقد يكون
الجهد ضعيفا باردا باهنا وقد يكون الجهد واضحا
حادا به اصرار وعناد ، وقد ادعي اني بذلت جهدا
قويا عنيدا على فعل شيء ما ، وأبرر عدم فعلي له
بطل وهمية ، ذلك لان الجهد كان ضعيفا في واقع
الامر ، وأوضح مثل على ذلك المحاولة المبادئة التي
يزعنقهاها المدمنون على الاقلاق عن ادمانهم وبامت
بالفشل . وكل منا على وعي مباشر بقدرته على
المحاولة وبذل الجهد ومقاومة بعض رغباته ، وكل منا
على وعي مباشر بأن في قدرته أن يكون جادا عنيدا
في تنفيذ ما وصل اليه فكره ، أو أنه أحيانا ما تكون
محاولاته باهتة يكتنفها استهتار أو تهالون . لكن كيف

يصدق ان الانسان هو الحيوان الاخلاقي الوحيد اذ لا يفهم الحيوان الاعجم من قابوس الاخلاق شيئا .
والانسان مفكر بما لديه من قدرة على تعديل نفسه وتغيير ما يرى في نفسه من اخطاء وعيوب ونفقات .
فان طغى سلطان العقل والتفكير بتلك المعاني السابقة تحرر الانسان من عبودية حيوانيته . ومن ثم به مقومات الحرية . لكن لعل جون لوك كان أكثر صدقا من أرسطو - في السياق الذي نتحدث فيه - حين كان أول من أوضح ان الانسان فطر على ارادة وليس فكرا فقط ، فالانسان قادر على انقضاء قرار وبذل الجهد والمجادلة للمادة لتطوير ذاته وتميؤى نفسه وفق ما وصل اليه فكره في يقظته وهيمته . وإذا ما تعاون العقل ليقظ بمبادئه وقيمه وأهدافه ورغباته مع الارادة ، فان قوت الارادة تم ضبط النفس وهو عمق اعماق الحرية .

بالانسان مقومات الحرية أو هو قادر على ان يكون حرا ، لكنه نادرا ما يكون حرا ، وذلك هو الجانب الدرامي في وجود الانسان ، اذ أغلب أفعالنا تصدر عنا جبرا نضطر اليها ولا اختيار لنا فيها . فاذا استبعدنا كل نماذج الافعال اللا ارادية التي سبقت اشارتنا اليها ، وإذا استبعدنا كل الاعمال الارادية اسما والتي كثيرا ما تنهم انهما صادرة عن اختيار

تأثير المبادئ والقيم الاخلاقية التي أتمسك بها ولكل انسان مبادئه وقيمه وأهدافه التي تؤلف شخصيته الفريدة وهي جزء من دوافعه للسلوك الحر ، فان كان اعتقادي بمبادئ وقيمي قويا جدا أضحي في سبيلها كل عزيز وغال ، ساعد ذلك على تقوية ارادتي ودفعني الى اختيار الفعل الذي يتسق وهذه المبادئ . بل ان فضيلة المبادئ والقيم التي اعتنقها ان تجعل الارادة تحتني وتدفعني الى اداء الاعمال التي تتفق مع تلك المبادئ وان اتصدىها دون صراع وتردد .



ان صح تحليلنا السابق للفصل الارادي في الانسان فقد اتضح ان بالانسان مقومات الحرية الحقيقية أو هو قادر على ان يكون حرا . لا زال قول ارسطو عن الانسان أنه حيوان مفكر قولاً صحيحاً صادقاً - هو حيوان بما به من غرائز دافقة ورغبات جسدية وانفعالات محتدة وعواطف جارفة وتلقائية وقتية ، لكنه كائن مفكر بما به من عقل وروية ومحاولة على بذل الجهد والمحاولة للمادة لتطويع غرائزه وانفعالاته وعواطفه بما يليق بالانسانية وحضارتها . وهو مفكر بما لديه من قدرة على رسم أهداف سامية وغايات راقية وسعيه لتحقيقها . وهو مفكر بما يختار من معتقدات ومبادئ وقيم ، ولعل كنط هو الذي قال

وارادة لكنها ليست كذلك وإنما أقرب الى العادة
 الراسخة منها الى الاختيار المتروي ، لم يبق للانسان
 من مجال ممارسة الحرية الحقة الا القليل ، وأقل منه
 ان نجد الانسان الكامل اليقظة في تفكيره المتناضل
 الحيوانيته والأحرص على ممارسة ارادته في كل أمر .
 وأذن فالحرية في الانسان ممكنة لكنها مثل أعلى يحاول
 النفر القليل من الناس ان يصل اليها وان لم
 يبلغها ا



أثار « اوجيست كونت » في كتابه « دروس في الفلسفة الوضعية » عددا من المشكلات المتعلقة بالابستمولوجيا ، والتي يمكن بفضلها أن نعتبر كونت أقوى عهد لابستمولوجيا في صورتها المعاصرة . فلهذه نجد تحديدا لمعنى العلم يمكن أن نقول إنه المعنى السائد منذ ذلك الوقت الى اليوم . وللهذه نجد تحديدا جديدا لعلاقة الفلسفة بالعلوم يقدم ضمنه تصورا للمهمة التي يمكن ان ترجع الى الفيلسوف عندما يكون موضوع تفكيره هو العلوم في تطورها ومناهجها ونتائجها ، كما أنه يقدم تصنيفا للعلوم يمكن أن نعتبره متقدما على ما سبقه من تصنيفات لكونه يقدم على مبادئ مستقلة من دراسة تاريخ العلوم .

إن دراسة هذه المسائل جميعها لن نمكنا من معرفة آراء كونت فحسب ، بل ستعرفنا على وجهة نظر كان لها أثر على كثير من فلاسفة العلم المعاصرين لنا ، الى الحد الذي يمكننا معه القول بان دراسة التيارات الابستمولوجية المعاصرة لا غنى لها عن أن تأخذ بعين الاعتبار ابستمولوجيا كونت ، ليس مراعاة لتأثيرها الواضح والمعلن عنه على كثير من فلاسفة العلم المعاصرين فحسب ، بل وأيضا لوجود تأثيرات لهذا الاتجاه الابستمولوجي حتى عند عدد كبير من المفكرين الذين لا يعلنون صراحة انتمائهم الى هذا التيار النظري .

وحيث أننا نعتقد بأن وجهة النظر الابستمولوجية تنشأ ، شأنها في ذلك شأن أي

الابستمولوجيا الوضعية عند اوجيست كونت

محمد وهيدي

استاذ مساعد للفلسفة

كلية الآداب (فاس - المغرب)

فكر نظري في علاقة مع ظروفها المجتمعة التاريخية من جهة ، وشروطها المعرفية من جهة أخرى ، فأننا سنحاول في بداية حديثنا هذا عن الابدسملولوجيا الكونية أن نعرض بإيجاز ، للمناخ التاريخي والمعرفي والابدسملولوجي الذي نشأت فيه الفلسفة الوضعية عند كونت ، لتبين ضمن هذه الشروط الأهداف الخاصة التي انتدبت هذه الفلسفة نفسها لانجازها استجابة لمناخها التاريخي والابدسملولوجي .

المناخ التاريخي والابدسملولوجي للفلسفة الوضعية هو مناخ فرنسا القرن التاسع عشر . ولقد كان هذا الزمن ، كما يصفه كونت نفسه زمن الاضطرابات المجتمعية والسياسة التي عرفتها فرنسا ، بصفة خاصة في اعقاب الثورة الفرنسية الكبرى . وشيئا فشيئا بدأت تناقضات الثورة تكشف عن نفسها ، وبلدت الثورة الفرنسية غير قادرة على الوفاء لأهدافها وانجاز تلك الاهداف ، فادى ذلك الى وجود صراعات مجتمعية كانت مصدرا لاضطرابات كبرى في المجتمع الفرنسي . وتبعاً لأوجيست كونت نفسه فإن الصراع كان يلور بين الفئات المحافظة في المجتمع ، وهي التي كانت تسعى الى أن تفرض على المجتمع الجديد قوانين المجتمع القديم ، وبين القوى الثورية التي كانت افكارها تتسم بالفوضى ، بعبارة أخرى يرى كونت ان

أيا من القوى المتصارعة في ذلك الوقت لم تستطع ان ترفع عن المجتمع حالة الفوضى السياسية التي كانت تسوده والتي ترجع في الاساس الى فوضى أخلاقية ، سببها ما يسود الأذهان من فوضى ، يصدد المجتمع الانساني وشروط وجوده . لقد كان من اللازم لرفع تلك الفوضى السياسية ان يوجد تآلف بين فكري النظام والتقدم . ولكن القوى التي كانت تتصارع في المجتمع الفرنسي في زمن كونت لم تستطع تحقيق هذا التآلف . فالقوى التي كانت تحمل فكرة النظام هي القوى المحافظة التي اذا كانت تسعى الى أن تخضع المجتمع الجديد لقوانين المجتمع القديم ، جعلت فكريتها عن النظام تعوق تحقيق التقدم . وعلى العكس من ذلك فان القوى التي كانت تحمل فكرة التقدم ، وهي القوى الثورية ، كانت تضي على تصوراتها للمجتمع صفة الفوضوية ، وهو الامر الذي كان يجعل افكارها عن التقدم معارضة لكل نظام .^(١)

أما على الصعيد المعرفي فإن القرن التاسع عشر قد شهد درجة كبيرة من تطور العلوم الرياضية والفيزيائية فضلا عن بدايات النجاح بالنسبة لعلوم الحياة . ومعنى هذا أن المعرفة العلمية كانت قد شملت بنجاح ، لم يفتأ الشعور يزداد به حيثش ، كل الظواهر الكونية عدا الظواهر الانسانية ، لذلك فقد رأى كونت أن

(١) انظر كتاب كونت «دروس في الفلسفة الوضعية» .

بالعلمية . لذلك فقد حدد كونت العلم بمعنى محدد .

والواقع أننا عندما نستقريء المعنى الذي استعملت به لفظة علم في التصنيفات التي سبقت تصنيف كونت للعلم ، فإننا نجد أن معنى العلم كان مرادفاً لمعنى المعرفة . فكل معرفة يمكن أن يحدد لها ، ضمن نسق معرفي معين ، موضوع خاص ، وكانت تعتبر لأجل ذلك علماً من بين العلوم التي يضمها ذلك النسق المعرفي . إن العلم ، ضمن تلك التصنيفات هو المعرفة المنظمة المتعلقة بموضوع واحد ، ونتيجة لذلك فإن كثيراً من المعارف التي قد لا نعتبرها اليوم علوماً قد صنفت على أنها كذلك في التصنيفات القديمة للعلوم .

أما العلم عند كونت فإنه لا يطلق إلا على المعرفة التي بلغت من تطورها الحالة الوضعية ، وهي الحالة التي يصل إليها الفكر في ميدان معرفي ما ، كمرحلة نهائية لتطور يمر فيه بمرحلتين سابقتين هما الحالة اللاهوتية والحالة الميتافيزيقية . ويعرف كونت الحالة الوضعية مبززا وضعها من تطور الفكر الانساني ، فيقول عنها ما يلي :

« وأخيراً عندما يدرك العقل البشري في الحالة الوضعية استحالة الحصول على مفاهيم مطلقة يقلع عن البحث في أصل ومصير الكون وعن معرفة العلل الباطنة للظواهر ، لكي

إقامة علم بالمجتمع أصبح أمراً ضرورياً بالاهتمام بسلسلة العلوم المكونة للمعرفة الوضعية .

غير أن ضرورة علم الاجتماع لم تكن ضرورة معرفية فحسب ، بل كانت مطلباً إيديولوجياً أيضاً ، فكونت كان يرى أن الحل الوسط القادر على تجاوز تناقضات القوى المحافظة والقوى الثورية على السواء ، أي على التآليف بصورة إيجابية بين فكري النظام والتقدم ، هو إقامة علم معرفة علمية بظواهر المجتمع ، بإقامة علم يتعلق بالاجتماع الانساني . وهكذا فإن « الفيزياء الاجتماعية يمكن أن تقرأ في الجغرافيا المزدوجة للعلم والإيديولوجيا »^(١) .

وحيث يستجيب علم الاجتماع للأهداف المعرفية والإيديولوجية التي كانت الفلسفة الوضعية تسعى إلى تحقيقها فإن مشروع هذا العلم يمكن أن يعتبر النواة المركزية في مشروع الفلسفة الوضعية عند كونت . ويمكن أن نؤكد بأن إقامة علم الاجتماع هي الغاية التي توجه المجهود النظري لأوجيست كونت وتتمركز حولها آراؤه الأستبولوجية .

١ - المعنى الوضعي للعلم

لم يكن هنالك غنى لأوجيست كونت ، وهو الذي يريد أن يضيف إلى نسق المعرفة الانسانية علماً جديداً ، عن البحث في معايير الانتصاف

(١) انظر لفظة التي كتبها Jean - Paul Enthoven لكاتب كونت السابق . ص ٧ .

في ميدان من ميادين المعرفة ، بذلك التغيير الجذري الذي يحدث في طريقة النظر الى الظواهر . ولا شك في ان هذه الخاصية هي أهم ما يميز المرحلة الوضعية . غير انه يتجاوز الحدود الخاصة بكل ميدان من ميادين المعرفة . وبالنظر الى نسق المعارف الانسانية في مجموعها ، يتبين لنا ان مما يميز المعرفة الانسانية في المرحلة الوضعية هو التقسيم المنظم لهذه المعارف الى جملة من الاختصاصات ، في المراحل التي سبقت المرحلة الوضعية من تطور الفكر الانساني لم يكن هنالك اى تقسيم منظم للمعارف . فلقد كان مفكر واحد ، يمكن ان ندعوه فيلسوفا ، يشتغل بكل المعارف الموجودة في عصره . وهذه الحالة التي كانت عليها المعرفة الانسانية لم يكن منها مناص . وذلك ان الدرجة التي كانت عليها هذه المعارف من النمو لم تكن تقتضي تقسيمها ، غير ان النمو المتدرج للمعارف المحصلة في كل ميدان من ميادين المعرفة ، قد أدى بالتدرج الى أن يجعل من كل واحد من هذه الميادين قادرا على ان يشغل وحده فكر مجموعة من المفكرين وهكذا ، فان المعارف الانسانية التي كانت توجد في الماضي في حالة خلط ضرورية ، قد اصبحت بفعل نموها المتزايد بصدد كل موضوع من موضوعات المعرفة ، أمام ضرورة التمايز وحتمية اختصاص كل مجموعة من المفكرين بالبحث في موضوع معين . فالفكر الانساني لم يعد أمام نمو المعارف قادرا على ان يجمع في

يخلص بفضل الاستخدام المنظم للبرهنة والملاحظة ، الى اكتشاف قوانينها الفعلية ، أي العلاقات الثابتة لتعاقبها وتمائلها ولن يصبح تفسير الوقائع عندئذ ، وقد أرجع الى حدوده الطبيعية ، سوى الرابطة المقامة بين مختلف الظواهر الجزئية وبعض الوقائع العامة التي يتزع تقدم العلم الى اختزال عددها أكثر فأكثر ، (٣).

يتحدد العلم اذن بطريقة النظر الى الظواهر . وهذه الطريقة مرحلة من تطور الفكر البشري الذي يمر فيه بالمرحلة اللاهوتية أولا ، وهي التي يحاول فيها الفكر البشري تحليل الظواهر بالقوى الغيبية ، والمرحلة الميتافيزيقية وهي التي يعمل فيها الفكر الانساني الظواهر بارجاعها الى كيانات مجردة ملازمة لمختلف كائنات العالم . اما في المرحلة العلمية او الوضعية فان الفكر البشري يترك كل ذلك ، ليقصر على تفسير الظواهر بفضل العلاقات الثابتة لتعاقبها او تمائلها ، اي ليقصر على البحث في القوانين ، وكل ميدان لا يطبق فيه الفكر الانساني هذه الطريقة في النظر الى الظواهر ، فهو ميدان لم يبلغ بعد المرحلة الوضعية ، ولا يصح لذلك اعتبارة معرفة علمية الى جانب المعارف العلمية الأخرى .

٢ - الفلسفة الوضعية والابستمولوجيا

يتميز بلوغ الفكر المرحلة الوضعية من تطوره

(٣) انظر الجزء الاول من كتاب لوجيست كورنت السالف الذكر ص ٢١ ، ٢٢ وعنوان هذا الجزء هو Philosophie Premiere مع نسق للسلطات السابقة .

يهلد المعرفة الانسانية ، من جهة ، لتحافظ من جهة أخرى على النتيجة الإيجابية لتقسيم المعارف الانسانية وهو ما يلائم الحالة الوضعية . في تحديد هذه الوسيلة يعطي كونت معنى الفلسفة الوضعية ثم يقول :

« ان الوسيلة الحقيقية لايقاب هذا التأثير الويل الذي يبدو أن المستقبل الفكري مهدد به ، تبعاً لـلا معان في تخصص البحوث الفردية ، لن تكون بالطبع هي العودة الى ذلك الخلل الذي كانت عليه اعمالنا ، والذي يترجع الى العودة بالفكر الانساني الى الوراء ، لانه اصبح اليوم لحسن الحظ أمراً مستحيلاً . ان الوسيلة الحقيقية تقوم على العكس من ذلك في اتمام عمل التقسيم . يكفي في الواقع ، ان نجعل من دراسة العموميات العلمية اختصاصاً آخر ، ويكفي ان توجد فئة جديدة من العلماء ، مهية بفضل تكوين ملائم ، لتلا تخلص للثقافة الخاصة لأي فرع من فروع الفلسفة الطبيعية وتتم فقط ، اعتباراً للحالة الحاضرة لمختلف العلوم الوضعية بان تحدد بشكل مضبوط روح كل واحد منها وبأن تكشف عن علاقاتها وترابطها ، وبأن تلخص حين يكون ذلك ممكناً كل مبادئها في اقل عدد ممكن من المبادئ العامة ، بحيث تتفق دون توقف مع المبادئ العامة للمنهج الوضعي . وفي نفس الوقت ينبغي ان يكون العلماء الآخرون قادرين قبل التخلص الى اختصاصاتهم ، وبفضل تعليم يتعلق بمجموع المعرفة الوضعية على ان يستفيدوا

شخص مفكر واحد القدرة على الاشتغال بالمبادئ المختلفة للبحث العلمي . فكل علم يستقل بنفسه ، اذن عند تحقيق شرطين : التراكم الكمي للمعارف للمحصله بصد موضوعه والتغيير الجذري في طريقة نظره الى ذلك الموضوع ، أي تطبيقه للطريقة الوضعية في الدراسة .

هذا التقسيم المنظم للمعارف كان له على نسق المعارف الانسانية نتيجتان إحداهما ايجابية تقتضي منا تطوير المعارف والحفاظ عليها ، وأخرى سلبية يتمثل فيها خطر يهدد تطور المعرفة الانسانية ، وينبغي اذن ، دفعه عنها . تتمثل النتيجة الإيجابية في كون التقسيم المنظم للمعارف قد سمح بنمو اسرع للمعرفة في كل ميدان خاص من ميادينها المختلفة . وذلك لان اختصاص كل مجموعة من العلماء بالبحث في ميدان دون غيره قد هيا لتطور المعارف بهذا الميدان المعرفي أكثر مما كان عليه الامر في السابق في الحالة التي كانت فيها المعارف متصفة بالخلط .

أما النتيجة السلبية للذلك التقسيم فهي أن الماضي في الاختصاص والامعان فيه ، قد جعل كثيراً من العلماء لايعتقون الا بعلم واحد ، او ضمن العلم الواحد ببعض الجوانب منه ، دون الانتباه بما فيه الكفاية الى علاقه نتائج علمهم بمجموع المعرفة الوضعية ، وهذا يمثل خطراً على المعرفة الانسانية . لذلك فانه سيكون علينا ان نبحث عن الوسيلة التي تبعد هذا الخطر الذي

استمعجالا . اما اليوم فان كل واحد من العلوم قد تطور بشكل مستقل ، بحيث ان البحث في علاقاتها المتبادلة يعطي المكان لعمل تابع لهذا التطور ، في الوقت الذي يصبح فيه هذا النظام الجديد من الدراسات أمرا لا غنى عنه لاتقاء توزع المفاهيم الانسانية .

« هذه هي الكيفية التي أنصوّر بها مكانة الفلسفة الوضعية في النسق العام للعلوم الوضعية بمعناها الحق » .^(٤)

هذه الفقرة من كتاب كونت « دروس عن الفلسفة الوضعية » تبرز لنا أن المعنى الذي يحدد به كونت ضمنها الفلسفة الوضعية يهدف لذلك الذي يتبناه كثير من فلاسفة العلم في زمننا ، إما في صورته أو بادخال بعض التحوير عليه . إن الفيلسوف الوضعي كما يتمثل في تصور اوجيست كونت هو الاستمولوجي . وإن الشروط التي يضعها كونت أمام الاستمولوجي من أجل تحقيق اهدافه تقترب من الشروط التي يضعها عدد من فلاسفة العلم المعاصرين .

وإن أول ملاحظة يمكن أن نستخلصها من نص كونت الذي أوردها هي أن الفلسفة الوضعية التي تتمثل فيها ضمنه فلسفة العلوم تنبثق من الاختصاص العلمي كمنصهر متمم له . وذلك لأنه لم يكن من الممكن قبل أن يبلغ الفكر العلمي من التطور المرحلة التي أدت إلى تقسيمه إلى اختصاصات متعددة ، أن يخلق به

بكيفية مباشرة من الاضواء التي يلقيها هؤلاء العلماء الموهوبون للدراسات العمومية ، وعلى أن يصححوا في مقابل لذلك نتائجهم ، وهي حالة يقترب منها العلماء اليوم شيئا فشيئا بشكل ملحوظ . فإذا تحقق هذان الشرطان ، ويدوان ذلك يمكن ، فإن تقسيم العمل في العلوم سيخطو إلى الامام دون خطر ، وسيذهب بعيدا . بقدر ما يقتضي ذلك تطور مختلف نظم المعرفة . إذا وجدت فئة خاصة ، مراقبة باستمرار من كل الآخرين ، تكون وظيفتها أن تربط باستمرار كل اكتشاف جزئي جديد بالنسق العام ، فلن ينجش بعد ذلك أن يؤدي الاهتمام الكبير بالتفصيلات إلى الحيلولة دون ادراك المجموع . وفي كلمة واحدة ، فإن تنظيم العالم المعارف يكون قد قدم الأسس بصفة كاملة ، ولن يبقى له بعد ذلك الا أن يتطور بدون حد ، محافظا دائما على نفس طابعه .

« وهكذا فإننا حين نجعل من دراسة العموميات العلمية فرعا متميزا من العمل العلمي الكبير لا نعمل الا على أن نوسع مبدأ التقسيم الذي فصل بنجاح بين مختلف الاختصاصات . ذلك لأنه عندما كانت المعارف الوضعية على قدر ضئيل من التطور ، فإن علاقاتها المتبادلة لم تكن لهذه الاهمية التي تسمح ، بصفة دائمة على الاقل ، بقيام فئة خاصة من الاعمال ، كما ان ضرورة هذه الدراسة قد كانت في السوقت ذاته اقل

(٤) للرجع السابق ص ٣١ - ٣٢

الاختصاص قد يؤدي بكل مجموعة من العلماء الى الاهتمام ، بميدان بحثهم فقط واغفال النتائج المحصلة في ميادين معرفية اخرى ، فان الفلسفة الوضعية تستجيب لشرط الاختصاص في هذه الحالة بدفع هذا الخطر عنه ، وذلك من حيث ان الفلسفة الوضعية تعمل على الربط بين النتائج العلمية المحصلة في كل ميدان على حدة وبين مجموع المعرفة العلمية ، فتمكن العلماء المختصين في كل ميدان من معرفة ما يجري في الميادين المعرفية الأخرى ومن معرفة علاقة النتائج التي يحصلونها بمجموع المعرفة العلمية . وهكذا تستجيب للفلسفة الوضعية لشرح التخصص في البحوث العلمية سواء في الحالة التي يتطلب فيها الأمر المحافظة على تمايز المعرفة في كل ميدان عنها في الميادين الأخرى ، او في الحالة التي يكون الاقتضاء فيها هو ابراز العلاقات المتبادلة بين العلوم المختلفة واحالة الاكتشافات المتعددة فيها الى جملة من المبادئ العامة .

الملاحظة الثانية التي نخرج بها من نص كوت متعلقة بوظيفة الفيلسوف الوضعي وبشروط انجازه لهذه الوظيفة .

نجد بصدد مهمة الفلاسفة الوضعيين عددا من التحذيرات أن عليهم أن يحدوا روح كل علم من العلوم . واليه يرجع أمر اكتشاف العلاقات المتبادلة بين العلوم المختلفة ، وعليهم ان يخلصوا المبادئ الخاصة للعلوم في أقل عدد ممكن من المبادئ العامة . واليه يرجع اختيار

هذا الاختصاص الجديد الذي هو الفلسفة الوضعية والذي تقوم مهمته أساسا في التنسيق بين الميادين المعرفية المختلفة بربط كل اكتشاف علمي جزئي بالنسق العام للمعارف العلمية . فحيث أن التقسيم المنظم للمعارف الانسانية الى مجموعة من الاختصاصات العلمية أمر فرضه التطور التاريخي للعلوم ؛ من حيث نموها الكمي ومن حيث بلوغها المرحلة الوضعية على السواء ، وحيث أن ما يؤدي اليه تقسيم المعارف يصبح بالنسبة لتطور المعرفة الانسانية واقعا لا رجعة فيه . فان الفلسفة الوضعية تأتي عند كونت كاستمرار لواقع الاختصاص هذا ، وتضاف اليه من حيث هي اختصاص جديد كبقية الاختصاصات ، لا يختلف عنها الا من حيث أن موضوعه هو العموميات العلمية المتعلقة بمجموع المعرفة الانسانية في فترة تاريخية معينة من تطور العلوم .

ان الفلسفة الوضعية اذن ، ليست شيئا غريبا عن الاختصاص العلمي بل هي بعض منه ، انها تستجيب لشرط التخصص العلمي في مظهره المعارضين . فمن حيث ان هذا التقسيم المنظم للمعارف الانسانية قد اصبحت في الوقت الحاضر شرطا لتطور تلك المعارف بصورة ملائمة ، فان الفلسفة الوضعية تستجيب له من حيث انها اختصاص جديد موضوعه العموميات العلمية .

ومن حيث أن ذلك التقسيم يكون مصدرا لخطر على المعرفة الانسانية بصفة عامة ، لأن

هذا المعنى الذى يحدد به كونت الفلسفة الوضعية ، ويعين به مهمة الفيلسوف الوضعي وشروط انجازه لها ، يقترب من المعنى الذى يحدد به عدد من الاستمولوجيا المعاصرين معنى الاستمولوجيا .

يلتقي المنعيان من حيث أن العمل الفلسفي فيها لا يفرض على العمل العلمي أي قيم من خارجه ، فهو ذاته منبثق عنه ، كما يلتقيان أيضا في كون كونت يتصور أن الفيلسوف الوضعي ذو تكوين علمي ، وهو الأمر الذي يلتقي مع وجهة نظر عدد من الاستمولوجيين المعاصرين في كونهم يركزون على ضرورة انطلاق الاستمولوجيا من داخل مبادئ العلوم لا من خارجها .

إلا أن الالتقاء لا يعنى التطابق في كل الاحوال بين الاستمولوجيا وبين الفلسفة الوضعية عند كونت ، فهناك من الاستمولوجيين المعاصرين من يعمل على تضيق مهمة فيلسوف العلم أكثر مما يفعله كونت.. إن كونت يحصر مهمة الفيلسوف الوضعي في التنسيق بين النتائج العلمية ، أما الوضعيون المنطقيون فانهم يحصرون هذه المهمة في التحليل المنطقي للتعبير العلمي . وهناك من جهة أخرى فلاسفة غير وضعيين لا يقفون بفيلسوف العلم عند حدود التنسيق بين النتائج العلمية ، بل يوسعون من نطاق مهمته ليجعلوها تمتد الى ابراز قيمة الاكتشافات العلمية بالنسبة للفكر البشري وإلى القيام

أمر الربط بين كل اكتشاف علمي وبين النسق العام للمعارف الوضعية .

أما بصدد شروط هذه المهام فنجد أن كونت يذكر لنا شرطا عاما وهو أن الفلسفة الوضعية لا تجد مكانتها إلا ضمن نسق المعارف الوضعية ، وأنه لم يكن من الممكن قبل القرن التاسع عشر ، وهو الزمن الذي شملت فيه الروح الوضعية ، دراسة الظواهر في كل مستوياتها بما في ذلك الظواهر الانسانية أن يقع الحديث عن فلسفة وضعية ، لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لوجود المهمة التي سيرجع الى الفلسفة الوضعية أمر انجازها .

وهناك شروط أخرى نتعرف عليها عندما نحدد طبيعة التكوين اللازم للقيام بدور الفيلسوف الوضعي ، فمهمة الربط بين المعرفة العلمية الجزئية وبين النسق العام للمعارف العلمية لا يمكن أن يقوم بها الفيلسوف التقليدي ذو التكوين الميتافيزيقي ، بل يقوم بها فيلسوف ذو تكوين علمي . أن الفيلسوف الوضعي ، كما هو في تصور كونت له ، منبثق من بين العلماء ذوي الاختصاصات المختلفة لا يميزه عنهم غير كونه يترك الاهتمام بتفصيلات ليهتم بأعم نتائجها . الفيلسوف الوضعي عالم يقوم بدور إيجابي بالنسبة لتطور العلوم في الفترة المعاصرة له ، وذلك لأنه يكون بمثابة الوسيط بين العلماء المختصين في فروع المعرفة المختلفة وبين أعم النتائج العلمية ، ويصير هذا العالم أنه يتلقى تكوينا ملانيا لأجل القيام بدوره الإيجابي ذلك .

المعارف المعاصرة له بقدر ما هو عرض الأساس منها ، أي ذلك الذي يتخذ موضوعاً ظواهر يمكن أن تعتبر دراستها قاعدة للدراسة ظواهر أخرى ، ويمكننا من جهة أخرى أن نقسم العلوم إلى قسمين علوم مجردة عامة موضوعها هو اكتشاف القوانين التي تتحكم في مختلف فئات الظواهر ، وعلوم وصفية جزئية يمكن أن تدعى أحياناً بالعلوم الطبيعية الحق ، وتقوم على تطبيق القوانين السالفة الذكر على التاريخ الفعلي لمختلف الكائنات الموجودة ، والعلوم النظرية هي العلوم الأساسية في نظر كونت وهي التي يتم بها تصنيفه للعلوم .

وهكذا نرى أن تصنيف كونت ليس مجرد تعداد لمعارف عصره وتقسيمها لها من حيث موضوعها ، بل هو تصنيف للعلوم الوضعية ، أي لمجموع العلوم التي بلغت المرحلة الوضعية بوصفها المرحلة النهائية التي يبلغها الفكر البشري من تطوره في كل مجال من المجالات المختلفة للمعرفة . وإن العلوم التي يصنفها كونت ، فضلاً عن ذلك ، هي العلوم النظرية المجردة وليست العلوم العملية التطبيقية .

تبعاً لهذه الشروط يذكر كونت العلوم التالية بالترتيب : الرياضيات ، الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، علوم الحياة ، وعلم الاجتماع . غير أننا لم ننته إلى حد الآن بصدد العلوم الأنفة سوى الشروط التي تجعلها مقبولة ضمن تصنيف كونت ، ولكي نستوفي النظرة الموضوعية عن تصنيف كونت ينبغي لنا أن

بتحليل نفسي للمعرفة العلمية (بإشلال) أو يرسلون لفيلسوف العلم أن يقوم بتحليل المفاهيم العلمية ، لا من جهتها المنطقية فحسب ، بل من جهة كون هذه المفاهيم هي نتيجة لتكون (بياجيه) أن الاستمولوجيا المعاصرة ، عدا الوضعية المنطقية ، قد تقل من كونت أن يكون عمل فيلسوف العلم تابعا لعمل العلماء ، ولكنها قد لا تقف عند حدود حصر مهمتها في التنسيق بين النتائج العلمية المحصلة في العلوم المختلفة .

٣ - تصنيف العلوم وترتيبها : -

قدم أوجيست كونت تصنيفاً للعلوم يمكن أن يعتبر متقدماً على ما سلفه من تصنيفات ، وهذا لأنه يصنف العلوم بناء على شروط ومبادئ أكثر عقلانية . فالتصنيف عند كونت ليس تعداداً لمعارف عصره وترتيباً لها بحسب موضوعاتها . وهذا لأنه لا يدمج ضمن تصنيفه إلا الميادين التي يمكن وفقاً للشروط الوضعية أن نعتبرها علوماً . هناك بالنسبة لكونت شرط عام ينبغي أن يتوفر في كل علم يراد تصنيفه ضمن قائمة العلوم الوضعية . وهذا الشرط هو أن يكون ذلك العلم قد اجتاز في تطوره المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية ، ويبلغ من ذلك التطور المرحلة الوضعية ، كما أن كونت يوضح أن تصنيفه يشمل العلوم النظرية وحدها دون المعارف العملية . وهذا لأن الهدف من تصنيفه للعلوم كما يقول ، ليس إعطاء نظرة عامة عن

من حيث دقته ، وتبعاً لامكانية تطبيق كل علم منها للتحليل الرياضي في دراسة ظواهره .

المبدأ الرابع والأخير : مبدأ معرفي تربوي ، وهو أن معرفة القوانين المتعلقة بظواهر كل علم من هذه العلوم التي ذكرناها يقتضى معرفة قوانين الظواهر التي يدرسها العلم السابق له في الترتيب .

وفقاً لهذه المبادئ جميعاً رتب أو جيسرت كونت العلوم التي تضمنتها تصنيفه . فتبعاً لهذه المبادئ جميعاً يمكن أن نفسر المكانة الخاصة للعلوم الرياضية التي يصنعها في أول قائمة العلوم المرتبة ، فالعلوم الرياضية هي العلوم الأكثر بساطة وعمومية من حيث موضوعها ، لأن فهم الحقائق الرياضية لايتوقف على فهم سابق لأى نوع من أنواع الظواهر التي تدرسها العلوم الأخرى . ثم أن العلوم الرياضية من حيث أهميتها بالنسبة لمجموع المعرفة الوضعية لا تماثل العلوم الأخرى ، وينبغى النظر إليها على أنها القاعدة الأساسية لهذه العلوم . ان العلوم الرياضية قد تبدو أقل أهمية فيما لو نظرنا إليها من حيث ماقتلعه من معارف واقعية ، ولكنها ستبدو أكثر أهمية فيما لو نظرنا إليها من حيث كونها الأداة التي يمكن ان يستخدمها الفكر الانساني في فهم الظواهر الطبيعية الأخرى وفي التعبير الدقيق عن ذلك الفهم .

ومن ناحية أخرى فإن العلوم الرياضية قد كانت ، من حيث تاريخ الفكر الانساني أول العلوم التي بلغت المرحلة الوضعية .

نبحث في المبادئ التي ادت به الى ترتيب العلوم تبعاً للترتيب الذي ذكرناها عليه ، كما أن علينا ان نبحث في دور كل من هذه العلوم ومكانته ضمن مجموع المعرفة الوضعية .

هناك ، في نظر كونت مبادئ أربعة تتفق جميعها في أن تأسيس ترتيب العلوم وفقاً لها ، يجعل هذه العلوم على الترتيب الذي ذكرناه .

المبدأ الأول : هو مبدأ البساطة والعمومية . وتبعاً لهذا المبدأ فإن العلوم مرتبة تبعاً لبساطة وعمومية الظواهر التي تدرسها ، وتكون الظواهر أكثر بساطة وأكثر عمومية كلما تبين لنا ان دراسة تلك الظواهر لا تتوقف على دراسة ظواهر أخرى او تقتضى معرفة مسبقة بقوانينها . وتبعاً لهذا المبدأ فإن العلوم الرياضية توضع في أول قائمة الترتيب ، بينما تليها تبعاً العلوم التي تدرس الظواهر التي تقتضى معرفة قوانينها معرفة بقوانين ظواهر العلم الأسبق في الترتيب .

المبدأ الثاني : الذي يرتب كونت العلوم تبعاً له هو ترتيبها لتطور الفكر الانساني في التاريخ ، وحسب بلوغه للمرحلة الوضعية من تطوره في كل مجال من مجالات المعرفة ، وبين كونت هنا أنه ليس من الضروري أن يبلغ الفكر الانساني المرحلة الوضعية في كل مجالات المعرفة دفعة واحدة . فقد بلغ بعض المعارف الحالة الوضعية بينما يكون بعضها الآخر في المرحلة اللاهوتية او في المرحلة الميتافيزيقية من تطوره .

المبدأ الثالث : هو أن العلوم مرتبة على ذلك النحو تبعاً للدرجة التي يتصف بها كل علم منها

يدرس الظواهر الكونية العامة يكون ضمن الفيزياء اللاعضوية أسبق في الترتيب بالنسبة للمعلوم الأخرى المتعلقة بظواهر الطبيعة ، وهذا لأن الظواهر التي يدرسها علم الفلك أكثر بساطة من حيث أن دراستها لا تتوقف على دراسة أية ظواهر طبيعية أخرى .

وتبعاً لنفس المبدأ دائماً فإنه يمكن تقسيم الفيزياء التي تدرس الظواهر الأرضية الى علمين : الفيزياء الأرضية من حيث هي علم يقوم على دراسة ظواهره من وجهة النظر الميكانيكية ، والفيزياء الأرضية من حيث هي علم يدرس ظواهره من وجهة النظر الكيميائية . العلم الأول هو الذي نسميه بحق الفيزياء ، أما العلم الثاني فهو الكيمياء . وحيث أن دراسة الظواهر الكيميائية متوقفة على دراسة الظواهر الطبيعية من وجهة النظر الميكانيكية فإن علم الفيزياء سيكون ، إذن ، هو العلم الذي يتعلق بظواهر ، أبسط وأعم فيكون موضعه لذلك ، أسبق في الترتيب على علم الكيمياء . فكل ظاهرة كيميائية تخضع لتأثير الثقل والحرارة والكهرباء فهي ظواهر يتكفل علم الفيزياء بدراستها ، ولذلك فإن المنطق يقتضي أن يكون هذا العلم أسبق في الترتيب .

وهكذا نرى إذن أنه بعد العلوم الرياضية تأتي في الترتيب العلوم الفيزيائية اللاعضوية ، وهي تضم ثلاثة علوم أساسية هي الفلك والفيزياء والكيمياء . وتأتي هذه العلوم الثلاثة على ذلك

فالرياضيات قد قامت كعلوم وضعية بفضل المحاولات التي قام بها علماء الحضارة اليونانية القديمة وخاصة طاليس وفثاغورس .

إذا انتقلنا من الرياضيات الى العلوم الأخرى ، فإننا نجد أنفسنا أمام العلوم التي تدرس ظواهر الطبيعة . ونحن ننظر الى هذه العلوم في ضوء مبدأ البساطة والعمومية ، نجد انه يمكن تقسيمها الى قسمين : الفيزياء غير العضوية أولاً ثم الفيزياء العضوية ثانياً . موضوع دراسة العلوم الأولى هو الأجسام الجامدة ، أما موضوع دراسة العلوم الثانية فهو الظواهر المتعلقة بالحياة . وبما أن ظواهر الحياة أكثر تعقيداً من ظواهر الأجسام الجامدة ، وحيث انها تتوقف على دراسة هذه الظواهر فإنه يلزم من ذلك أن تكون الفيزياء غير العضوية سابقة على الفيزياء العضوية .

غير أن الفيزياء اللاعضوية ذاتها يمكن تقسيمها تبعاً للمبدأ السابق ذاته الى قسمين : الفيزياء اللاعضوية من حيث هي علم يدرس الظواهر الكونية العامة . ثم من حيث هي علم يدرس الظواهر الأرضية ، ومن الواضح أن الظواهر التي تجري على كوكبنا أكثر تعقيداً من جهة ، كما أن دراستها من جهة أخرى تقتضي دراسة الظواهر الكونية العامة . فظواهر الكوكب الأرضي خاضعة بصفة عامة لقانون الجاذبية ، ودراسة أية منها تقتضي ، بالإضافة الى اعتبار القوانين التي تخصها اعتبار تأثير قانون الجاذبية فيها . ولذلك فإن علم الفلك الذي

وهذا الترتيب ذاته يمكن ان يفسر تبعا للمبدأ الثالث ، اى من حيث درجة الدقة التي يتصف بها كل علم ، وهي التي ترتبط بمدى تطبيق هذا العلم للمنهج الرياضى . فعلم الفلك يقع مباشرة بعد الرياضيات ، وهذا لأنه أكثر العلوم الطبيعية دقة من حيث أنه أكثرها اعتمادا على المنهج الرياضى ، فالفلك يعتمد ملاحظة الظواهر ، وحيث انه لا يمكن أن يجرب فانه يستنبط من ملاحظاته للظواهر معتمدا في استنباطاته وفي تحصيل القوانين والتعبير عنها على المنهج الرياضى ، أما العلوم الفيزيائية فانها لا تستنبط من الملاحظة مباشرة بل انها تجرب ، ولذلك فان اعتمادها على المنهج الرياضى يكون بدرجة اقل مما هو عليه في علم الفلك ، ولكنها تأتي مع ذلك في ترتيب العلوم قبل الكيمياء لأنها أكثر دقة لاعتمادها بصورة اقوى على العلوم الرياضية .

وهكذا نرى اذن كيف ان ترتيب العلوم الفيزيائية التي تدرس الاجسام غير العضوية ياتي متفقا مع جميع المبادئ التي يضعها كونت لترتيب العلوم . كما ان ترتيب هذه العلوم ذاتها يخضع لنفس تلك المبادئ .

اذا انتقلنا من الفيزياء اللاعضوية الى الفيزياء التي تدرس الاجسام العضوية فاننا ننقل بذلك الى علم أكثر تعقيدا ، ويرى كونت ان الظواهر الأكثر عمومية والأكثر بساطة هي التي تكون بالضرورة أكثر بعدا عن الانسان ، ولذلك فان دراسة هذه الظواهر تتم بصورة أكثر هدوءا

الترتيب بناء على مبدأ الانتقال من العلم الذى يدرس الظواهر الأيسر الى ذلك الذى يدرس الظواهر الأكثر تعقدا . فالظواهر الفلكية أبسط وأعم من الظواهر الفيزيائية ، وهذا من حيث ان ظواهر الكوكب الأرضى خاضعة لقوانين الظواهر الكونية العامة التي يدرسها علم الفلك . ومثل هذا الامر يقال بصدد العلاقة بين الفيزياء والكيمياء .

والفيزياء اللاعضوية في مجموعها من حيث انها العلم الذى يدرس الظواهر المتعلقة بالاجسام الجامدة تأتي الثانية في ترتيب العلوم بعد العلوم الرياضية ، ليس باعتبار تعقد موضوعاتها بالنسبة الى موضوعات العلوم الرياضية فحسب ، وانما ايضا تبعا للتطور الذى عرفه الفكر الانسانى وبلوغه المرحلة الوضعية في مختلف ميادين المعرفة . وهذا لا يصدق على الفيزياء اللاعضوية بصفة عامة فحسب ، بل ينطبق على العلوم التي تتضمنها هذه الفيزياء . وهكذا فان علم الفلك قد كان في تاريخ الفكر البشرى أسبق الى بلوغ المرحلة الوضعية من علم الفيزياء ، وعلم الفيزياء قد كان أسبق في تطبيق الروح الوضعية في دراسة ظواهره من علم الكيمياء . فالعلوم المرتبة في تصنيف اوجيست كونت يمكن اذن أن تفهم في ترتيبها من حيث الانتقال من الأيسر الى الأقل بساطة ، وان تفهم في الوقت ذاته من حيث هي مرتبة وفقا لبلوغها ، من حيث التطور ، المرحلة الوضعية .

الذي يدرس ظواهر الكائن الحي من حيث هو قابل للاجتماع فان كوت يدعو في البداية بالفيزياء الاجتماعية ، ثم يطلق عليه بعد ذلك اسم علم الاجتماع . وحيث ان ظواهر العلم الثاني تتوقف على دراسة ظواهر العلم الاول أى على معرفة القوانين الفيزيولوجية ، فان الفيزيولوجيا تدرس اذن الظواهر الاكثر بساطة وتستحق لذلك ان ترتب في قائمة العلوم في درجة أسبق من الفيزياء الاجتماعية . فالظواهر الاجتماعية هي اقرب الظواهر الى الانسان ، ولذلك فان التقدم في دراستها نحو الصورة التي تكون بها هذه الدراسة أكثر هدوءا وعقلانية ، وبالتالي نحو سيادة الروح الوضعية في طريقة دراستها ، أمر يتطلب زمنا أطول مما تطلبه بلوغ الروح الوضعية في دراسة المظاهر الفيزيولوجية . وبالإضافة الى ذلك فان الفيزيولوجيا أكثر اعتمادا على المنهج الرياضي وأكثر دقة من الفيزياء الاجتماعية .

هذه اذن وبصفة عامة ، المبادئ التي يرتب كوت على أساسها العلوم النظرية الستة التي يتضمنها تصنيفه للعلوم . وهذه المبادئ هي التي تجعل تصنيف العلوم عند كوت يرتب العلوم الترتيب السالف الذكر ، ويجعل من ذلك الترتيب بتلك الصورة ضرورة ، فان ترتيب العلوم الستة بصورة اعتباطية دون مراعاة لتلك

واكثر عقلانية ، وهذا في الواقع سبب آخر من الاسباب التي جعلت العلوم المتعلقة بهذه المظاهر تعرف تطورا اسرع وتبلغ المرحلة الوضعية من تطورها قبل العلوم الفيزيائية التي تدرس الاجسام الوضعية^(٥) فهذه العلوم الأخيرة أقرب الى الانسان من حيث انه جسم عضوي قبل كل شيء ، ولذلك فانه كان من اللازم أن تمر فترة طويلة من تاريخ الفكر البشري قبل أن يصل الى المرحلة التي ينظر فيها الى المظاهر المتعلقة بالاجسام العضوية بنفس الروح الوضعية .

فتعقد ظواهر الاجسام العضوية وخصوصية هذه المظاهر مبدأ جعل الفيزياء المتعلقة بهذه المظاهر تأتي من الناحية المنطقية في ترتيب العلوم بعد العلوم الفيزيائية المتعلقة بظواهر الاجسام غير العضوية .

وتنقسم الفيزياء العضوية بالنظر الى المظاهر التي ندرسها الى علمين أساسيين ، فالظواهر الحية التي هي موضوع هذه الفيزياء تتميز الى مجموعتين : تلك التي تتعلق بالكائن الحي فردا وتلك التي تتعلق من حيث قابليته للاجتماع . ومن الواضح ان هذا التمييز اساسي عندما يكون الامر متعلقا بالانسان . عندما تكون الفيزياء العضوية متعلقة بالكائن الحي من حيث هو فرد فانها تمثل عندئذ الفيزيولوجيا . أما العلم

(٥) انظر المرجع السابق ص ٥٤ و ٥٥ .

المبادئ يقود الى ترتيبها بسبعمئة وعشرين صورة مختلفة. (٧)

ولكن استكمال نظرتنا عن ترتيب العلوم عند اوجيست كونت يقتضى كما اشرنا الى ذلك سابقا ان ننظر في كل علم من العلوم المرتبة ضمن التصنيف لكي نعرف مكانته ودوره ضمن المعرفة الوضعية في مجموعها ، ومنسظر لأجل تحقيق هذا الشرط في تلك العلوم وفقا لترتيبها في تصنيف كونت ، أى تبعا للتسريب الآتي : العلوم الرياضية ، الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، الفيزيولوجيا ، وعلم الاجتماع .

العلوم الرياضية

أ - لقد بينا المبادئ التي يفسر بفضلها كونت وضع العلوم الرياضية على رأس قائمة العلوم التي يتضمنها تصنيفه . وما يمتنا الآن هو تحديد ميدان العلوم الرياضية من حيث موضوعه ومنهجها وبيان الدور الذي تلعبه هذه العلوم ضمن مجموع المعرفة الوضعية ، وهو الدور الذي يؤهلها ، فضلا عن المبادئ سالفة الذكر ، الى ان تكون العلم الذي ينبغي أن يبدأ به ترتيب العلوم الوضعية .

كيف نعرف العلوم الرياضية ؟

بالرغم من أن العلوم الرياضية هي أقدم

العلوم الوضعية إلا أن كونت يرى ان التعريفات التي قدمت عن هذا العلم الى حدود القرن التاسع عشر لم تكن تعاريف وافية بصدد طبيعة هذا العلم ، ولا تعاريف عاكسة لمقدار أهميته ضمن مجموع المعرفة الوضعية . غير ان كونت يرى ان الرياضيات قد عرفت في زمنه تقدما كافيا سواء بالنظر اليها في ذاتها كعلم او بالنظر الى اتساع مجال تطبيقاتها ، وهو الأمر الذي يساعد على تعريف أدق لهذه العلوم .

لكي يصل كونت الى هذا التعريف فإنه يقبل ان ينطلق من تعريف للرياضيات يعتبره عائلا وبدون دلالة ، وهذا لأن هذا التعريف يتضمن تحديدا لموضوع العلوم الرياضية يمكن ان يكون نقطة انطلاق للوصول الى تعريف أدق .

يمكن ان تعرف الرياضيات التعريف الآن « انها علم المقدار ، او بتعبير أكثر انصافا بالوضعية ، انها العلم الذي يهدف الى قياس المقادير » (٨) .

وتتجلى عدم دقة هذا التعريف وعموميته في كونه لا يحدد لنا نوع القياس الذي يهدف العلم الرياضى اليه . هل هو القياس المباشر ؟ ذلك ما قد يحظر للذهن للوهلة الأولى ، عندما نعتقد ان قياس المقادير يعنى الاعتماد على مقدار مماثل لما نعتبره وحدة لكل المقادير الأخرى التي من نفس نوعه ، الا ان هذا القياس المباشر لا يتلام

تجسيد القياس بصورة غير مباشرة ، فأوجد معيه ذلك وبصورة غير مباشرة العلوم الرياضية .^(٨)

هدف العلم الرياضي إذن هو القياس غير المباشر . فعند ما نصل الى قياس مقادير لا تقبل القياس المباشر نربطها بمقادير أخرى تقبل ذلك القياس ونكشف عن الأولى عن طريق العلاقة بين الاثنين . الا أن الانتقال الى المقادير التي تقبل القياس المباشر قد لا يكون يسيرا ، وقد نقيس مقاديرا بأخرى هي في حاجة بلورها الى أن تقاس بفضل علاقتها بمقادير أخرى ، وهكذا نمضي في الانتقال عبر سلسلة من القياسات غير المباشرة .

وكمثال على القياس غير المباشر المتعلق بسقوط جسم فاننا نريد ان نقيس الارتفاع الذي سقط منه الجسم والزمن الذي استغرقه سقوطه ، وهما أمران لا يمكن قياس أى منهما بصفة مباشرة . بينما يمكن قياس كل منهما بصفة غير مباشرة بالنظر الى علاقته بالآخر ، أى حين اعتبار كل منهما دالة بالنسبة للآخر .

وكذلك عندما نريد ان نقيس مسافة ما ، فلا يكون ذلك ممكنا لنا بصورة مباشرة ، فاننا نتصور هذه المسافة كجزء من شكل يمكن ان تكون عناصره الأخرى قابلة للقياس فنتمكن عندئذ من قياسها بصورة غير مباشرة . وبعبارة أخرى فان هذه المسافة تكون نتيجة لمجهود

ودقة وإهمية الرياضية . فهو ان لم يكن يخطئ في الهدف الحقيقي للعلم الرياضي الا أنه يخطئ من حيث انه يقدم بصفة المباشر موضوعا هو بالأساس غير مباشر .

ان القياس المباشر غير ممكن . ونحن نأخذ مثال خط مستقيم نريد قياسه نتبين لنا صعوبات القياس المباشر . فلكى نقيس خطا مباشرا على آخر ، يكون اول الشروط هو أن تقطع مسافة هذا الخط لكي نطبق وحدة القياس على كل نقط امتداده ، ولكن هذا يكون محالا عندما تكون المسافات المراد قياسها من الكبير كالمسافات التي تفصل كوكب الأرض عن بعض الكواكب الأخرى . كما ان الخط الذي نتصور إمكان قياسه في حالة كونه خطا افقيا سيصبح محالا عند تصور الخط افقيا . فهناك دائما شروط تجعل القياس المباشر غير ممكن لأن هناك صعوبات تعترض قياسه . ومثل هذه الصعوبات التي تواجه القياس المباشر للخط المستقيم يمكن ان تنطبق على قياس المساحات والاحجام ، والسرع ، والزمان ، والقوى الخ .

وهذه الملاحظة تقودنا إذن الى أن نتبين أنه اذا كان هدف العلوم الرياضية هو القياس فان ذلك لا يعنى القياس المباشر . وهذا ما يثبت في نظر كوت ، تاريخ العلوم الرياضية التي يبدو انها قد تقدمت عبر محاولات لتجاوز المباشر موضوعا لها كعلوم . لقد سعى الفكر البشرى باستمرار الى

(٨) نفس المرجع السابق ص ٦٨

الأخرى حاولت بدورها التخلص من الملاحظات المباشرة . فلدراسة العلوم الرياضية وحدها كافية لأن تجعلنا نكون فكرة صادقة وعميقة عما يمكن أن يكونه العلم . وفي العلوم الرياضية وحدها ينبغي أن نبحث على التعرف الدقيق على المنهج العلم الذي يستخذه الفكر الإنسان في كل أبعائه الوضعية ، لأننا لا نجد علما آخر تتم فيه حلول المشكلات بصورة أتم ، أو تتسلسل فيه الاستنباطات بصورة أكثر إحكاما ، كما أن العلوم الرياضية هي المجال الذي أظهر فيه فكرنا دلائل قسوته ، من حيث أن الأفكار التي يتناولها في هذه العلوم أكثر تجريد^(١٠) .

وهكذا تكون دقة العلوم الرياضية ، لا دقة للعلوم الرياضية في ذاتها فحسب بل النموذج الذي ينبغي أن تحتل به كل دراسة لكي تصير علما متصفا بالروح الوضعية . فالعلم الرياضي علم ونموذج للعلم في الوقت ذاته ، « فيفضل الرياضيات بدأت الفلسفة الوضعية تكونها ، ومن العلوم الرياضية يأتي المنهج »^(١١)

لقد تم لنا حتى الآن تعريف الرياضيات كما يراها كونت ، وبيننا كذلك أهميتها بالنسبة للمعرفة الوضعية من حيث أنها مصدر المنهج الوضعي بصفة عامة ، ويقى لنا أن نعرف الآن المعارف التي تشملها العلوم الرياضية ، وأن

رياضي يزداد تعقيدا كلما كانت العناصر التي ينبغي الاعتماد عليها متعددة .

هذه الطريقة غير المباشرة في القياس تمكن الإنسان من قياس المسافات التي تفصل الكوكب الأرضي عن الكواكب الأخرى ، ومن معرفة المقادير الفعلية لهذه الكواكب واشكالها الحقيقية واختلاف مساحاتها .

وهكذا نكون ، انطلاقا من ذلك التعريف العام الذي بدأنا به ، قد توصلنا إلى التعريف الدقيق للعلوم الرياضية من حيث أنها العلوم التي تقوم على « تحديد المقادير بعضها بواسطة البعض الآخر ، تبعا للعلاقات المضبوطة القائمة بينها »^(١٢) وهذا التعريف يبين أن العلوم الرياضية ترجع دائما إلى مقادير أخرى من أجل قياس المقادير المراد قياسها ، كما أنه يعنى من جهة أخرى أن العلوم الرياضية تأخذ كل المقادير المتعلقة بظاهرة ما من حيث أنها مترابطة فيما بينها ، يمكن استنباط بعضها من البعض الآخر ، وتحديد العلوم الرياضية بهذه الصورة يتلاءم ودقتها ، ويتوافق مع المكانة التي تحتلها ضمن مجموع المعرفة الوضعية .

ثم إن هذا التعريف الذي يحدد العلوم الرياضية بتلك الصورة هو ، في الواقع تعريف للعلم بصفة عامة ، فهدف العلم هو البحث في علاقات الظواهر فيما بينها ، وكل العلوم

(٩) نفس المرجع ص ٧٠

(١٠) المرجع السابق ص ٧١

(١١) نفس المرجع ص ٨٢

نوعية الظواهر . فالعلاقات التي يمكن ان نكتشفها بين علو السقوط لجسم ما وزمن هذا السقوط ، يمكن أن تكون قائمة بين التناقص في كثافة الضوء او الحرارة تبعا للمسافة التي تفضل الجسم الذي تقع انارته او اختصاعه للحرارة عن مصدر الضوء او الحرارة . ومن جهة ثالثة فان الرياضيات المحسوسة لها طابع تجريبي فيزيائي ظاهري ، في حين ان الرياضيات المجردة لها طابع منطقي عقلاني ، وهكذا فالجزء المحسوس من أية مسألة رياضية هو الذي يتأسس على اعتبار العالم الخارجي ولا يمكن ، بالتالي حله بفضل الماضي في العمليات الرياضية العقلية ، وهذا على عكس الجزء المجرد من تلك المسألة ذاتها .

تشمل الرياضيات المحسوسة علمين هما علم الهندسة والميكانيكا ، بينما تشكل الرياضيات المجردة علم الحساب . وحيث ان المسائل التحليلية التي هي موضوع الحساب هي أكثر بساطة وعمومية فان علم الحساب يوضع ضمن العلوم الأسبق في الترتيب من علم الهندسة ومن الميكانيكا . وموضوع علم الحساب هو المعاملات المتعلقة بالأعداد ، واما هدفه فهو استنباط قيمة الكميات المجهولة بواسطة الكميات المعروفة (١٢) .

وتبعا لنفس المبادئ التي خضع لها ترتيب العلوم بصفة عامة ، فان الهندسة تأتي في

نرى كيف يمكن ترتيب هذه العلوم التي تشملها العلوم الرياضية ترتيبا يتوافق والمبادئ التي سلف أن رتبنا العلوم الأساسية بناء عليها .

تتمثل وحدة العلوم الرياضية في كونها العلوم التي تهدف الى القياس المباشر للمقادير بفضل النظر في علاقة بعضها ببعض الآخر . ولكن اختلاف العلوم الرياضية يتجلى في الجهة التي ينظر منها كل علم رياضي الى تلك المقادير ، وفي الطريقة التي يحصل بها نتائجه .

وهكذا يقسم كونت العلوم الرياضية في البداية الى قسمين يعتبرهما على قدم المساواة من حيث اهميتها ، وهما الرياضيات المحسوسة والرياضيات المجردة . ويعبر كونت عن الفرق بين هذين القسمين للعلوم الرياضية بصورة مختلفة . فأولا إن الرياضيات بصفة عامة تبحث في المقادير بواسطة العلاقات القائمة بين هذه المقادير . ان التعمين العددي لتلك العلاقات هو موضوع الرياضيات المجردة . غير انه لا بد من معرفة تلك العلاقات في ذاتها وهذا هو موضوع الرياضيات المحسوسة . ومن جهة ثانية يمكن ان نقول بان الرياضيات المحسوسة تتعلق بنوعية الظواهر ، ولذلك فانها تتغير من نوعية من الظواهر الى أخرى ، أما الرياضيات المجردة فانها مستقلة عن كل بحث في نوعية الظواهر وهي تبحث فقط في العلاقات العددية . وهذه العلاقات يمكن ان تكون متماثلة حتى عند تغير

يدرس الاجسام الطبيعية الا في حالة خاصة منها هي حالة ديناميتها .^(١٤)

وهكذا اذن نكون قد وضعنا الدور الذي تلعبه العلوم الرياضية بصفة عامة في المعرفة الوضعية ، فاستخدام التحليل الرياضي هو المعيار الذي يقاس به تقدم أي علم من العلوم نحو الاتصاف بصفة العلم الوضعي . فالتحليل الرياضي يمثل القاعدة العقلانية الحقيقية لمجموع المعارف الوضعية . كما اننا قد أبرزنا من جهة أخرى كيف تخضع مجموعة العلوم التي تشملها العلوم الرياضية لنفس المبادئ العامة التي تخضع لها العلوم الأخرى من حيث ترتيبنا لها ، بما ان العلوم الرياضية هي علم نموذج بالنسبة لكل العلوم الأخرى فانها توضع في أول قائمة العلوم المرتبة ، ولكن ضمن العلوم الرياضية ذاتها . وتبعاً لنفس المبادئ والترتيب ، فان الحساب يأتي قبل علم الهندسة ، والهندسة تأتي قبل الميكانيكا ، فالميكانيكا تأتي ضمن العلوم الرياضية آخر هذه العلوم في الترتيب ، لأن الظواهر التي يدرسها هذا العلم هي في الوقت ذاته ، ويطبقها أكثر تعقداً وأكثر خصوصية من ظواهر الهندسة . ودلالة التعقد والخصوصية ان الظواهر الهندسية يمكن دراستها في كل الأحوال في استقلال تام عن الاعتبارات الميكانيكية ، بينما لا يمكن دراسة الظواهر الميكانيكية دون اعتبارات هندسية ،

الترتيب بعد علم الحساب ، ولكنها في هذا الترتيب ذاته قبل الميكانيكا يأتي علم الهندسة بعد الحساب لأنه أقل تجريداً وعمومية منه ، ولأنه يمكن تطبيق التحليلات الحسابية على المسائل الهندسية ، كما ان علم الهندسة ينبني أن ينظر اليه ، في نظر أوجيست كونت ، كعلم طبيعي حقيقي لا يميزه عن العلوم الطبيعية الأخرى سوى انه أكثر بساطة ، وبالتالي أكثر كمالات كعلم من أي علم طبيعي آخر .^(١٥)

وبالقياس الى الميكانيكا فان علم الهندسة يتناول بالدراسة ظواهر أكثر بساطة وعمومية ، ولذلك فهو يأتي اسبق منه في الترتيب . ان تفوق علم الهندسة على الميكانيكا يقوم في كون الظواهر التي ينظر فيها هذا العلم ، وان تكن بالمقارنة مع موضوعات علم الحساب اقرب الى ظواهر علوم الطبيعية فانها الظواهر الأكثر عمومية والأكثر بساطة من كل الظواهر الأخرى . ولا تظهر هذه الصفة في ان الاجسام الطبيعية جميعها يمكن ان تكون موضع ابحاث هندسية فحسب ، بل فضلاً عن ذلك لأن الظواهر الهندسية تظل قائمة حتى لو افترضنا ان جميع ظواهر الكون في حالة سكون . وهذا يعكس علم الميكانيكا الذي يكون عليه ان يعتبر الاجسام في خواصها الهندسية وفي خواصها الدينامية.. فهو اذن علم اقل بساطة من علم الهندسة وأكثر منه خصوصية في الوقت ذاته ، على اعتبار انه لا

(١٤) نفس المرجع ص ١٥٤

(١٥) نفس المرجع ص ١٥٥ .

علم الفلك يبدو مستقلا عن جميع العلوم الأخرى ، عدا اعتماده على التحليل الرياضي ، ذلك لأن الظواهر الفيزيائية والكيميائية والفيزيولوجية لا تمارس أي نوع من التأثير على الظواهر الفلكية . وعلى العكس من ذلك فإن الظواهر الفيزيائية والكيميائية والفيزيولوجية بل وحتى الظواهر المجتمعية ، تابعة بدرجات مختلفة للظواهر الفلكية ، بصورة مستقلة عن التناسق المتبادل بينها ، فالعلوم الأساسية الأخرى لا يمكن ان يكون لها حقا طابع عقلائي ، الا اذا اتخذت كقاعدة لها معرفة دقيقة بالقوانين الفلكية^(١٧) وهكذا فان قوانين الظواهر الفلكية تعتبر قوانين اعم من قوانين الظواهر التي تدرسها العلوم اللاحقة في الترتيب على علم الفلك ، فيفسر ذلك ان يكون علم الفلك سابقا عليها في الترتيب .

ويمكن ان يزيد فهمنا لهذا الأمر ذاته عندما نعرف الطريقة التي يصل بها علم الفلك الى ظواهره ، ثم الى اكتشاف قوانين هذه الظواهر ، فقد يبدو علم الفلك نموذجاً ممتازاً للعلم الوضعي لأنه علم طبيعي وبمجرد في آن واحد ، ولأن هذين الطابعين يوجدان فيه بصفة واضحة على حد سواء ، في حين أن هذا الأمر لم يتحقق في العلوم الرياضية ، لأن نصيب الملاحظة في هذا العلم ضئيل جداً^(١٨) ولكن ما يميز علم

وهذا لأن شكل الأجسام يؤثر حتى في ظواهر حركة الاجسام وتوازنها .^(١٩)

- علم الفلك

ياتي علم الفلك ثانياً في الترتيب بعد العلوم الرياضية . ويحتل علم الفلك هذه المكانة نظراً لطبيعة موضوعه ، ولتقدمه في التاريخ من حيث التخلص من الاعتبارات اللاهوتية والميتافيزيقية ، ثم لأن هذا العلم يمكن ان يكون نموذجاً للعلوم الطبيعية الأخرى من حيث اعتماده على التحليل الرياضي .

الظواهر الفلكية أكثر بساطة وعمومية من الظواهر الطبيعية الأخرى ، ويمكننا ان نقف على ذلك من خلال التعريف الذي يجده اوضح كونت للفلك ، والذي يحدد فيه جملة الظواهر التي يختص هذا العلم بدراستها . يقول كونت « اعتقد انني استطيع ان أعرف الفلك بدقة ، ولكن بصورة واسعة مع ذلك ، حين ارجع اليه موضوع اكتشاف قوانين الظواهر الهندسية والظواهر الميكانيكية المتعلقة بالأجسام السماوية » .^(٢٠)

ان بساطة هذه الظواهر التي يدرسها علم الفلك تبرز عندما ننظر في العلاقة الممكنة لها بالظواهر التي تدرسها العلوم الأخرى . فان

(١٩) انظر المرجع السابق ص ٢٢٧

(٢٠) نفس المرجع ص ٣٠٣ .

(٢١) نفس المرجع ص ٣٠٩ .

(٢٢) نفس المرجع ص ٣٠٦ .

الملاحظة في علم الفلك محدودة ، وأما
التجريبية فهي . نحية في نظر كونت .
فالتجريب بصفة عامة يكون على عدة مستويات
يمكن ان ندمج ضمنها الملاحظة باعتبارها
الشكل الأولي للاتصال بالظاهرة ، وهكذا فان
ملاحظاتنا للظواهر يمكن ان تكون على ثلاثة
مستويات .

الأول يعني الملاحظة بمعناها الدقيق ، أي
الامتحان المباشر للظواهر كما تمثل لنا بصفة
طبيعية .

وأما الثاني وهو الذي يمكن ان ندعوه
بالتجريب ، فهو مشاهدة الظواهر بعد أن
نخفضها لتحويل بفضل شروط مصطنعة من
جانبا نهدف بها الى دراسة جوانب من تلك
الظواهر .

وأما المستوى الثالث والأخير فانه يتمثل في
المقارنات التي نقوم بها بين الظواهر التي نلاحظها
وبين ظواهر أخرى نمثلها . ان العلوم التي
تدرس الأجسام العضوية وهي العلوم التي
تدرس الظواهر الأكثر تعقيدا ، تقسم بكونها
العلوم التي يمكن بها الجمع بين المستويات الثلاثة
السالفة الذكر من حيث النظر في الظواهر التي
هي موضوع دراستها . اما علم الفلك ، فانه
على عكس هذه العلوم لا يمكن ان يعتمد إلا على
الطريقة الأولى في البحث ، أي تلك التي
دعوناها بملاحظة بالمعنى الدقيق للكلمة ، أما

الفلك عن العلوم الرياضية هو أن الفلك يصل
الى ظواهره بواسطة الملاحظة . غير ان الملاحظة
في علم الفلك محدودة بكونها لا يمكن ان تكون
الا ملاحظة بواسطة حاسة واحدة هي حاسة
الرؤية . وكل بحث فلكي لا يمكن ان نرجعه في
نهاية الامر الى ملاحظات بصرية بسيطة ، هو
بالضرورة بحث مستحيل بالنسبة الينا .
فالظواهر المتعلقة بالأجرام السماوية هي ،
بالتالي ، الظواهر التي نلاحظها في أقل الشروط
تنوعا ، ولهذا الامر اهميته من حيث انه يوقفنا
على الحدود التي تقف عندها امكانيات التجربة
في علم الفلك ، فالواقع هو اننا لا نستطيع ان
نحرب في علم الفلك ، ولا نستطيع فوق ذلك
ان نلاحظ ظواهر الأجرام السماوية إلا بالصورة
التي تعتمد فيها على ملاحظات بصرية بسيطة .
فاننا نستطيع ان نفهم أشكال ، ومسافات
ومقادير وحركات الاجرام السماوية ، في حين
أننا لا نستطيع ابدا ، مهما تكن وسيلتنا ان نصل
الى دراسة تركيبها الكيميائي او الى دراسة بيئتها
المعدنية ، ولا نستطيع بالأولى ان نصل الى
دراسة الاجسام العضوية التي نحيا على
سطحها^(١٩) . ان الملاحظة التي يعتمد عليها علم
الفلك في دراسة الظواهر المتعلقة بالأجرام
السماوية ، تقف عند حدود ملاحظة الظواهر
الهندسية والظواهر الميكانيكية لهذه الاجرام ،
أي كل ما يتعلق بالشكل والحركة .

(١٩) نفس المرجع ص ٢٠١

هما الخاصيتان اللتان اذ يجمع بينهما علم الفلك يجعلانه ، من جهة أولى ، في مكانة بين العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية الأخرى ، كما يعلن منه من جهة أخرى ، نموذجاً للعلوم الطبيعية الأخرى من حيث تطبيقه للمنهج الرياضي في دراسة ظواهره .

والواقع ان كونت وهو يقدم لنا ضمن تصنيفه للعلوم هذه النظرة عن علم الفلك ، يعكس لنا بذلك عن الواقع الموضوعي لهذا العلم ضمن مجموع المعرفة الوضعية . ولكن الصورة التي يقدم لنا بها علم الاجتماع تمكس من جهة أخرى وجهة نظر كونت في حدود المنهج العلمي في علم الفلك . فالتجريب في هذا العلم غير ممكن في نظر كونت ، لأننا لا نستطيع أن نخضع صيرورة الطواهر الفلكية لشروط - مصطنعة يهيؤها الباحث من طرفه لكي يتحقق من صدق فرض علمي . كما أننا خارج الطواهر الهندسية والظواهر الميكانيكية للأجرام السماوية لا نستطيع ان نتجاوز ذلك لكي نقف على تركيبها الكيميائي او على بنيتها المعدنية او على شروطها المناخية . غير انه يبدو ان تقدم الابحاث العلمية وتقدم وسائل هذه الابحاث من حيث القوة والفعالية والدقة ، قد أدى بعلم الفلك الى ان يتجاوز اليوم الصورة التي حددها له أوجيست كونت . لقد غدا من الممكن اليوم لعلماء الفلك ، بعد ملاحظاتهم للظواهر ، ان يضعوا

التجريب بالمعنى الثاني فهو مستحيل فيه لأننا غير قادرين على التغير من شروط حدوث الطواهر المتعلقة بالأجرام . واما المقارنة فهي غير ممكنة لأن ذلك يقتضي ان نكون قادرين على ملاحظة الطواهر المتعلقة بمجموعات أخرى غير مجموعتنا الشمسية ، وهذا الامر لا يبدو ممكناً .^(٢٠)

وحيث ان علم الفلك يتميز عن العلوم الرياضية من جهة أولى بكونه يستخدم للملاحظة طريقة ، وحيث انه يتميز عن باقي العلوم الطبيعية ، من جهة أخرى بكونه يقف عند حدود الملاحظة دون أن يستخدم الى جانب ذلك طرق التجريب الأخرى ، فان هذا يجعله من حيث مكانته كعلم في مكانة بين العلوم الرياضية وبين العلوم الطبيعية الأخرى . ويؤله لذلك ايضا انه حين يقف عند حدود ملاحظة الطواهر وفقا للملاحظات بصرية بسيطة ، فهو يستعين بصورة قوية لا استخلاص قوانين تلك الطواهر على التحليل الرياضي ، ان الملاحظات التي يعتمد عليها علم الفلك لا يمكن ان تجعل العالم يرى بصفة مباشرة شكل الأرض او المنحنى الذي يرسمه كوكب ما . فالاستنتاجات الدقيقة في هذا الشأن تعتمد بقوة على التحليل الرياضي ، وهكذا فالوقوف عند الملاحظة بصدد الطواهر دون التجريب عليها ، والاعتماد القوي على البرهان الرياضي من اجل استخلاص القوانين المتعلقة بتلك الطواهر ،

(٢٠) نفس المرجع ص ٣٠٢

الأجرام . ان الدراسة الهندسية تهتم بتحديد شكل ومقادير الظواهر الفلكية ، ولذلك فهي أبسط وأعم ، ولذا فهي تكون من حيث التاريخ أسبق في تخطي المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية ، كما تكون بالتالي من حيث ترتيب المعارف أسبق من الدراسة الميكانيكية للظواهر الفلكية لأن هذه الدراسة الأخيرة أكثر تعقيدا وخصوصية .

تلك اجمالا اهمية علم الفلك بالنسبة لمجموع المعرفة الوضعية . والواقع كما يقول ليفي بريل « فانه لم يكن أي علم آخر اشد تأثيرا من علم الفلك في تطور العقل الانساني . ان العصور الكبرى لعلم الفلك هي ايضا العصور الكبرى للفلسفة الكونية . ولقد كانت المقاومة اليائية التي قابلت بها العقيدة اللاهوتية كشف « جاليلي » تعبر عن شعور خفي صادق بما سيفضي اليه هذا الكشف من نتائج لأن التسليم بان الأرض ليست مركزا للعالم كان معناه القيام بالخطوة الأولى والحاسمة في الطريق التي تتبعها بالناس عن الفكرة الوهمية القائلة بان الانسان مركز الكون ، وكان معناه أن الانسان قد عقد العزم على ان يستعصى يوما ما ، بوجهة النظر النسبية في الفلسفة عن وجهة النظر المطلقة ، وكان معناه ادخال التفكير الوضعي اليوم في البحوث الطبيعية النظرية ، وغدا في البحث الاخلاقي النظري .^(٢١)

فروضا علمية يسعون الى تحقيقها بالوسائل التجريبية ، كما أنه أصبح من الممكن تجاوز الوقوف عند الظواهر الهندسية والميكانيكية للأجرام السماوية للتعرف على ظواهرها الكيميائية وشروطها المناخية . حقا ان مثل هذه التجارب لم تصل بعد الى درجة قصوى من التطور ، ولكن امكانها يغير نظرتنا الى علم الفلك كما تصوره كونت ، كما يغير نظرتنا الى علاقة هذا العلم بالعلوم الطبيعية الأخرى . فمن الناحية الأولى تعد التجربة مستحيلة في علم الفلك ، ولم يعد هذا العلم ينتقل في كل الاحوال بصفة مباشرة من الملاحظة الى البرهان الرياضي . ومن الناحية الثانية فان التجارب التي تجري اليوم بصدد الأجرام السماوية مهما تكن حدودها دنيا ، تجعل علم الفلك يتعاون مع العلوم الأخرى ، تعاونا متبادلا لا يفيد فيها فحسب ، بل ويستفيد منها ايضا ، وهذا التجاوز في واقع علم الفلك للصورة التي قدمها عنه كونت في القرن التاسع لا ينير مع ذلك من شيء في القيمة المعرفية لهذا العلم ضمن مجموع المعرفة الوضعية .

هناك مسألة أخيرة يتعرض لها كونت هي تقسيمه لعلم الفلك الى قسمين رئيسيين تبعاً لطبيعة الظواهر التي يدرسها هذا العلم . وهكذا فانه يميز بين علم الفلك الذي يدرس الظواهر الهندسية للأجرام السماوية وبين علم الفلك الذي يدرس الظواهر الميكانيكية لهذه

(٢١) انظر ليفي بريل : الفلسفة لوجيست كوت ، ترجمة : حمود لشم السيد محمد بدوي - مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ص ١٥٩ .

العلم الفيزيائي

ترتب العلوم عند اوجيب كوت تبعاً لبلوغها المرحلة الوضعية من تطورها . والعلم الفيزيائي من هذه الناحية يأتي في الترتيب بعد الفلك . ذلك ان علم الفلك من حيث هو العلم الذي يدرس ظواهر الاجرام من الناحية الهندسية ، قد تطور نحو المرحلة الوضعية منذ نشأة مدرسة الاسكندرية . اما الفلك من حيث هو دراسة للجانب الميكانيكي للظواهر ، فانه لم يبدأ تطوره الفعلي نحو المرحلة الوضعية إلا بقرنين قبل زمن كوت . ولكنه مع ذلك ، قد كان اول العلوم الطبيعية الى التطور واسبقها ايذاناً بتطبيق الروح الوضعية في دراسة مختلف نظم الظواهر ، والفيزياء تلي علم الفلك مباشرة ، وهي قد بدأت تطورها نحو بلوغ المرحلة الوضعية في القرنين السابقين لأوغست كوت ، واستمر تطورها في هذا الاتجاه الى زمنه .

يرى كوت أنه ليس من السهل تعريف العلم الفيزيائي بما يميزه من حيث موضوعه وبصورته دقيقة عن العلوم الأخرى التي تدرس ظواهر الطبيعة بما فيها الظواهر العضوية وظواهر الاجسام غير العضوية .

من الواضح ، بهذا الصدد ان تمييزاً أولياً بسيطاً سيجعلنا نغيز في العلوم الطبيعية بين تلك التي تدرس ظواهر الاجسام العضوية وتلك التي تهتم بدراسة الاجسام العضوية ، ومن هذه

الناحية فانه يسهل علينا ان نضع الفيزياء ضمن قائمة العلوم التي تدرس الاجسام غير العضوية وهي علوم الفلك والفيزياء والكيمياء . وضمن هذه المجموعة من العلوم يسهل علينا ايضاً ان نميز بصورة أخرى بين الفيزياء وعلم الفلك معتبرين ان الفلك يتم بدراسة الظواهر الهندسية والميكانيكية المتعلقة بالأجرام السماوية ، وهي الظواهر التي لا يمكننا ان نلاحظها الا ضمن نطاق محدود ، في حين يلعب التحليل الرياضي دوراً كبيراً في استخلاص قوانينها ، معتبرين ان الفيزياء تدرس الظواهر الأرضية . غير انه لا يمكن ان نميز بنفس السهولة بين الفيزياء والكيمياء لأنها علمان يتعلقان معاً بالظواهر الأرضية ، هذا فضلاً عن كون كثير من الاكتشافات العلمية تتعلق بالعلمين معاً وتؤدي الى ترابطها ، ومع ذلك فانه يمكن التمييز بين هذين العلمين من وجهات نظر ثلاثة ، وذلك وفقاً لنفس المبادئ العامة التي خضع لها ترتيب العلوم .

فاولاً : ان الظواهر التي يدرسها العلم الفيزيائي أصعب من الظواهر التي تدرسها الكيمياء ، لأن ظواهر الفيزياء تهتم كل الاجسام ، في حين ان ظواهر الكيمياء تتعلق ببعض الظواهر ، وبتميز آخر ، فان كل الاجسام الطبيعية تظهر خواصاً تتعلق بالثقل او بالصوت او بالضوء او بالكهرباء ، وهذا هو ما يهتم الفيزياء ، اما ما يتعلق به الكيمياء فهو خاصيات نوعية تتغير من جوهر الى آخر ، وتغير

أكثر من ذلك مع كل تآلف جديد بين عناصر طبيعية .

ثانياً : يمكن ان نميز بين الفيزياء والكيمياء من حيث ان العلم الاول يدرس الظواهر المتعلقة بكتل الاجسام في حين يدرس العلم الثاني الظواهر المتعلقة بالجزيئات .

ثالثاً : يتعلق كل من العمين بدراسة العلاقات التي تربط الاجسام الطبيعية بعضها البعض الآخر ، بينما تتعلق الفيزياء بدراسة العلاقات المتبادلة التي لا تؤثر في تركيب الاجسام الطبيعية ، فان الكيمياء تتعلق على العكس من ذلك بدراسة العلاقات المتبادلة بين الاشياء في الصورة التي تؤدي فيها هذه العلاقات الى تغيير في تركيب الموضوعات التي تدرسها .

هذه التميزات هي التي تساعد كونت على تعريف علم الفيزياء بتحديد موضوعه وهدفه المميزين له .

فمن حيث الموضوع يرى كونت ان علم الفيزياء يقوم على دراسة القوانين التي تحكم الخصائص العامة للأجسام منظورا اليها من حيث هي كتلة ، وهذا ضمن الشروط التي لا تمس تغيير تركيب جزيئات وحالات اندماجها . اما من حيث الهدف ، فان ما يهدف اليه النظريات الفيزيائية في نظر كونت هو ان تحقق بأكبر قدر ممكن من الضبط توقع الظواهر التي

تتصل عن الاجسام ضمن شروط معينة معطاة . (٢٢)

حيث وتبعا لهذا التحديد ، يبرز بوضوح الفرق بين علم الفيزياء وعلم الكيمياء ويصبح واضحا لنا وضع علم الفيزياء في ترتيب العلوم بأنه اسبق من علم الكيمياء . فظواهر الفيزياء وفقا للتحديد السالف الذكر تبدو اقل بساطة من الظواهر الفلكية . فلقد رأينا ان الفلك يدرس ظواهر الاجرام من جانبيها الهندسي والميكانيكي ، وأنه لا يلاحظ هذه الظواهر الا في شروط محدودة هي الملاحظة - البصرية ، اما الفيزياء فانها تصل الى ظواهرها بواسطة كل الحواس وتعرف فيها بالتالي كل الشروط العامة التي تميز وجودها الواقعي ، فهي تنظر اذن في الظواهر في شروط اعقد من تلك التي يعرف فيها الفلك ظواهره . ولكن الفيزياء من ناحية أخرى تنظر في ظواهر الطبيعة في شروط ايسر من تلك التي تنظر بها الكيمياء في هذه الظواهر فالفيزياء كما رأينا تنظر في العلاقات المتبادلة بين الظواهر في صورتها العامة حين لا يكون لهذه العلاقات اثر على تركيب الاشياء ، بينما تنظر الكيمياء في العلاقات المتبادلة التي يؤثر وجودها على بنية الاشياء . وهكذا فان العلم الفيزيائي ، بالنظر الى موضوعه وهدفه معا ، يقع في الترتيب تاليا لعلم الفلك وسابقا للكيمياء .

ويمكن من جهة أخرى تفسير موقع الفيزياء

الى الظواهر التي تدرسها العلوم اللاحقة في الترتيب تمكن من تطبيق التحليل الرياضي في دراسة هذه الظواهر . الا ان هذا التطبيق يكون من جهة اخرى ضمن التي تسمح لنا بملاحظة ملاحظة تجريبية ، أي ان تطبيق التحليل الرياضي لا يقوم ابدا مقام التجريب كخطوة لا غنى عنها في منهج العلم الفيزيائي . والتحليل الرياضي اذن لا يتم تطبيقه بالصورة الكاملة التي يطبق بها في علم الفلك .

الجانب المنهجي الثالث الذي يميز علم الفيزياء عن الفلك ، هو دور الفرضية العلمية في كل منها . فالفرضية في الفلك اكثر بساطة ، لأن تدخل المنهج الرياضي فيها اقوى ، ولكنها في العلم الفيزيائي اقل بساطة واكثر اهمية من حيث دورها . ان ما يميز بين الفرضية في علم الفلك وبين الفرضية في الفيزياء انها في الفيزياء لا يمكن ان تستغني عن التحقق التجريبي منها . وكل فرضية لا تخضع لهذا الشرط لن تكون في الواقع الا مصدر بلبله للفكر العلمي . كما ان كل فرضية تتجاوز اهداف البحث الوضعي ، من حيث الاقتصار على البحث في قوانين الظواهر دون عللها الاولى والمطلقة لن تكون بدورها الا مصدر تشويش لبسدم البحث الوضعي ، ولن يكون وجود مثل هذه الفرضيات في العلم إلا دالة على ان هذا العلم لن يتخلص بعد من آثار المرحلة الميتافيزيقية . فكل فرضية علمية ينبغي ان تقف عند حدود البحث في قوانين الظواهر ، دون ان تجاوز ذلك

من ترتيب العلوم من وجهة نظر المنهج . فالمنهج في العلم الفيزيائي منهج تجريبي ، لا غنى له عن خطوة التجريب بالمعنى الذي يكون به التجريب تدخلا في شروط الظواهر من اجل احداثها ضمن شروط مصطنعة تمكن من التحقق من الفروض . المنهج في العلم الفيزيائي لا يقف ، كما هو الامر في علم الفلك ، عند حدود الملاحظة البصرية ولا يتنقل مباشرة من هذه الملاحظة الى استخلاص القوانين بفضل اليرهان الرياضي . كما ان المنهج التجريبي يطبق في العلم الفيزيائي بالمستويات الثلاثة التي سلف لنا ذكرها جميعا . ملاحظة الظواهر كما هي ، التأثير في هذه الظواهر باحداثها وفقا لشروط يصطنعها المحرر ، والمقارنة حقا ، ان المنهج المقارن لا يطبق في الفيزياء الا في حدود دنيا عندما يكون الامر متعلقا بصفة خاصة بمقارنة الظواهر الفيزيائية بالظواهر الفلكية . ولكن الملاحظة والتجريب بمعناها الدقيق الذي سلف ذكره يطبقان في الفيزياء ، وذلك لاننا نستطيع ان نخضع الظواهر لشروط نصطنعها دون أن نجد كما كان الامر في حالة الفلك ، حدودا لامكان هذه التجربة ، وهذا التطبيق للتجربة بمعناها الكامل هو الذي يميز من حيث المنهج بين الفيزياء والفلك ، وهو الذي يجعل الفيزياء تالية للفلك في ترتيب العلوم .

على ان هنالك جانبا منهجيا آخر يتميز فيه العلمان ، وهو تطبيق التحليل الرياضي . ان البساطة النسبية للظواهر الفيزيائية ، بالقياس

لأن جميع الاجسام العضوية خاضعة بالضرورة لقوانين فيزيائية .

وكما كان الشأن بالنسبة لجميع العلوم ، فان كونت يقسم العلم الفيزيائي الى اقسام تتفق ونوع الظواهر التي يدرسها كل قسم ويتم ترتيبها تبعا لبساطة الظواهر التي يدرسها . فالظواهر التي يدرسها العلم الفيزيائي ليست جميعها على نفس الدرجة من البساطة والعمومية . وبصفة عامة فاننا يمكن ان نلاحظ ان الظواهر الفيزيائية على علاقة بالظواهر الفلكية من جهة أولى وبالظواهر الكيميائية من جهة ثانية . والظواهر الفيزيائية الأكثر بساطة ، تلك التي يمكن ان يتقدم بصدها المنهج الوضعي بصورة أسرع ، هي الظواهر الأقرب الى الظواهر الفلكية ، في حين أن أعقد ظواهر الفيزياء هي التي تكون أشدها صلة بالظواهر الكيميائية .

وهكذا وفقا لبدا الانتقال من الأيسر الى الأقل بساطة فان العلوم الفرعية للعلم الفيزيائي يمكن ان ترتب كالآتي : العلم الذي يدرس ظواهر الجاذبية ، ثم العلم المتعلق بالظواهر الحرارية ، ثم العلم الذي يدرس الاصوات ، فالعلم الذي يدرس الظواهر البصرية ، وأخيرا العلم الذي يتعلق بدراسة الظواهر الكهربائية التي لا يفصل عنها كونت الظواهر المغناطيسية .

الى البحث في انماط انتاجها ، وذلك من اجل ان تكون هذه الفرضية قابلة للحكم عليها^(٢٣) .

هذه المستويات المختلفة التي ميزتا فيها بين الفلك والفيزياء تفسر جميعها مكانة الفيزياء ضمن المعرفة الوضعية ، فالفيزياء كما رأينا تدرس ظواهر أقل بساطة من تلك التي يدرسها علم الفلك ، كما انها أقل من هذا العلم تطبيقا للتحليل الرياضي في دراسة ظواهرها . لذلك فان الفيزياء تأتي مرتبة بعد الفلك لهذه الاعتبارات المنهجية ، فضلا عن أن الفيزياء في دراستها للظواهر ، ومهما تكن هذه الظواهر بسيطة ، تعتبر كل العوامل المؤثرة في الظاهرة بما فيها تأثير العوامل الآتية من الظواهر الفلكية . لذلك فالفيزياء لا يمكن ان تقوم قبل علم الفلك بوصفه نموذجاً وقاعدة لها في الوقت الحاضر ، ولكن الفيزياء تأتي في الترتيب سابقة على الكيمياء وهذا لأن دراسة الخواص العامة لاجسام الطبيعة ، تلك الخصائص التي تظهرها الاجسام في كل حالاتها ، مع اختلاف في الدرجة فقط ، تكون أسبق من دراسة التغيرات التي تحدث في تركيب الاجسام نتيجة لعلاقاتها المتبادلة ، وللتأثيرات التي يمكن ان تقوم عند تفاعل عناصر طبيعية مختلفة . وإذا كانت الفيزياء لهذا الاعتبار اسبق في الترتيب من الكيمياء ، فهي تكون لنفس الاعتبار اسبق من العلوم التي تدرس الاجسام العضوية ، وهذا

(٢٣) رابيع المرجع السابق ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

العلم الكيميائي

أما بصدد علاقة الكيمياء بعلم الحياة وسبقها له في الترتيب فانه يمكن من حيث بساطة الظواهر ان يفسر كالآتي : ان الاجسام المادية لا تظهر قريبا من حالة الحياة الا في الحالة التي يؤثر فيها بعضها في البعض الآخر ، فيؤدي هذا التأثير المتبادل الى تغيرات في تركيب تلك الاجسام . لذلك فان علم الكيمياء الذي يدرس هذه الظواهر سيكون اقرب علوم الاجسام غير العضوية الى علوم الاجسام العضوية . ويقدر ما يفسر هذا العامل مكانة علم الكيمياء ضمن مجموع العلوم ، فانه يفسر في الوقت ذاته التأخر التاريخي لسيادة الروح الوضعية في دراسة الظواهر الكيميائية ، كما يفسر لماذا لا يقع تطبيق المنهج الوضعي في صورته التامة التي نجده عليها في الفلك ثم بعد ذلك في الفيزياء .

ولكن نريد وضعية علم الكيمياء بينا نسوق التعريف الذي يقدمه عنه كونت والذي يحدد فيه كما يفعل ذلك بالنسبة لساير العلوم موضوع وهدف هذا العلم ، يقول كونت : « ان الهدف العام للكيمياء هو دراسة قوانين ظواهر الامتزاج والتحليل اللذين ينتجان عن الفعل الجزيئي والتوحي المتبادل بين الجواهر سواء كانت طبيعية او اصطناعية » . (٢٤)

وهذا تعريف للكيمياء يوضح اذن مرتبة الكيمياء بعد الفيزياء وسبقها لعلوم الحياة ، وهذا لأن ظواهر الامتزاج والتحليل هي اعقد

عندما نصل الى علم الكيمياء نكون قد بلغنا من حيث ترتيب العلوم الى العلم الذي تختتم به قائمة العلوم التي تدرس الاجسام غير العضوية . وهذا العلم يأتي في آخر قائمة هذه العلوم ، لانه يدرس اكثر ظواهر الاجسام غير العضوية تعقدا .

يقع علم الكيمياء في ترتيب العلوم بين العلم الفيزيائي من جهة ، والعلوم التي تدرس الكائنات العضوية من جهة أخرى . وهذا الموقع تفسره طبيعة الموضوع الذي تدرسه الكيمياء كما تفسره المرحلة التي بلغها من حيث تطبيقه للمنهج الوضعي ، والدرجة التي يمكن ان يبلغها في تطبيقه هذا المنهج .

لقد سلف لنا ونحن بصدد الحديث عن علم الفيزياء أن قارنا بين هذا العلم وبين الكيمياء مبرزين بساطة الظواهر الفيزيائية بالنسبة الى الظواهر الكيميائية ، من حيث ان الظواهر الفيزيائية تتمثل في أعم خواص الاجسام المادية تلك التي لا تعرف الا تغيرا نسبيا مهما تكن العلاقات المتبادلة التي تدخل فيها هذه الاجسام ، بينما تدرس الكيمياء التغيرات التي يعرفها تركيب الاجسام نتيجة لتفاعلها المتبادل ، لذلك فان تبعية الكيمياء للعلم الفيزيائي واضحة وموقع الكيمياء بعد الفيزياء في ترتيب العلوم واضح كذلك .

الكيمياء تضيف الى تلك المناهج العامة طرقاً خاصة بها تتمثل في طريقتي التحليل الذي يبحث في المهنصر المكونة لكل جوهر مادي والتركيب الذي يبحث في تأليف الجواهر من العناصر . وتتميز الكيمياء من حيث المنهج ايضا بعلاقتها بالمنهج الرياضي ، ان استخدام التحليل الرياضي معيار من معايير المنهج الوضعي ، وقد رأينا ان هذا المنهج مستخدم في الفيزياء . الا انه بالنظر الى تعقد الظواهر التي يدرسها علم الكيمياء ، فاننا لا ينبغي ان نتظر تطبيقاً عاثلاً للتحليل الرياضي للصورة التي يطبق بها في علم الفلك او في الفيزياء الا ان يكون ذلك من مجرد الاستعاضة عن المفاهيم الوضعية بالمفاهيم المجردة ، او ان يكون مجرد تعبير جبري بسيط عن اكتشاف الظواهر .^(٢٥) ولكن هذه الحدود التي يضعها كونت لتطبيق التحليل الرياضي على ظواهر الكيمياء تعكس واقع هذه الظواهر ولا تدل على ان كونت يتخل عن اعتباره للتحليل الرياضي كميّار لانصاف أي علم بالوضعية .

تلك اذن هي جمل الاعتبارات التي تفسر وضعية علم الكيمياء ضمن مجموع المعرفة الوضعية ودوره ضمن هذه المعرفة .

البيولوجيا :

نستطيع ان نؤكد ان العلوم عند أوجيست كونت مرتبة ، فضلاً عن المبادئ السالفة الذكر

من الظواهر التي تدرسها الفيزياء ولكنها اقرب الظواهر غير العضوية الى الظواهر العضوية . وهذه الطبيعة التي يتميز بها موضوع علم الكيمياء تنعكس آثارها على حالة المنهج الوضعي بهذا العلم .

فلقد رأينا ونحن نتقل من علم الفلك الى الفيزياء أن المنهج يتعقد بتعقد الظواهر ، فلقد كان الفلك يعتمد على الملاحظات البصرية البسيطة ، في حين وجدنا ان الفيزياء تضيف الى الاعتماد على حاسة البصر اعتمادها على حواس اخرى وخاصة حاسي السمع واللمس . اما الكيمياء فانها تعتمد في معابنتها لظواهرها على جميع الحواس المتوفرة للانسان ، اي باضافة حاسي التذوق والشم . ومعنى هذا ان الملاحظة تستخدم في الكيمياء بمعناها الكامل لأنها تعتمد على جميع الممكنات الطبيعية للانسان من اجل الملاحظة .

ومن جهة اخرى فان التجريب يلعب في الكيمياء دوراً كبيراً ، وهذا لان الظواهر الكيميائية تلاحظ في الغالب في شروط مصطنعة والتقدم الذي حققه علم الكيمياء ساعد فيه الى حد كبير قيام تجريب على ظواهره .

والفارقة وان تكن منهجاً يخص علوم الكائنات العضوية فانها تستخدم في الكيمياء . وهكذا نجد ان المنهج التجريبي الذي سبق لنا ان ذكرنا طرق الثلاث يستخدم بهذه الطرق جميعها في علم الكيمياء ، هذا فضلاً عن كون

(٢٥) راجع المرجع السابق من ٥٧٨

الظواهر اللاعضوية الى عالم الحياة : فالبيولوجيا تمثل من هذه الناحية حلقة للربط بين أكثر جهات المعرفة تباعدا طواهر الطبيعة وظواهر الانسان . (٢٦)

بالنظر الى هذا التعقيد ولغذه المكانة الخاصة التي تحتلها علوم الظواهر العضوية فانه لم يكن امرا غريبا ان يتأخر بلوغ هذه العلوم للمرحلة الوضعية من تطورها ، وان تكون لاحقة في ذلك للعلوم التي تدرس الظواهر الوضعية . ان المسار الذي اتبعه تطور المعرفة الوضعية خالف لذلك الذي كان الفكر الميتافيزيقي يسر عليه . فالفكر الميتافيزيقي كان يريد الوصول الى الكون انطلاقا من الانسان ، في حين ان الفكر الوضعي يتدرج نحو فهم الانسان بمحاولته الانطلاق من ظواهر الكون والتدرج فيها من أبسطها الى أقلها بساطة ، ومن أكثرها بعدا عن الانسان الى أكثرها قربا منه « فالروح الحقيقية للفلسفة اللاهوتية او للفلسفة الميتافيزيقية تقوم في تفسير ظواهر العالم الخارجي ، على ان تعتبر كمبدأ شعورنا المباشر بالظواهر الانسانية ، في حين ان الفلسفة الوضعية تتميز على الدوام بالتبعية الضرورية والعقلانية لفهم الانسان فيها الى مفهوم العالم » . (٢٧)

وهذا الفرق بين الفلسفتين اللاهوتية والميتافيزيقية من جهة ، والوضعية من جهة اخرى نتج عنه اختلافها في تفسير الظواهر

تبعا لقرب الظواهر التي تدرسها من الانسان ، وهذا لأنه كلما اقتربت الدراسة الوضعية من الانسان وجدت نفسها امام ظواهر أكثر تعقيدا . ان الظواهر الفلكية تؤثر بلاشك في الظواهر الأرضية ، ولكن تأثيرها بالنسبة للانسان ابعد من تأثير الظواهر الفيزيائية . فالانسان خاضع للقوانين الفيزيائية المتعلقة بالظواهر الأرضية أكثر من خضوعه للقوانين الفلكية المتعلقة بظواهر الاجرام السماوية . وسيبرز هذا التدرج في القرب من الانسان عندما نصل الى الظواهر الكيميائية ، ولكنه يظهر في صورة اقرب من هذه العلوم جميعا عندما نصل الى العلوم التي تدرس الكائنات العضوية ، فالانسان ليس متأثرا بقوانين الظواهر العضوية لحسب ، بل انه هو ذاته كائن عضوي يخضع بصفة مباشرة لتلك القوانين . لذلك كانت الظواهر العضوية أكثر تعقيدا من الظواهر التي تدرسها العلوم السابقة في الترتيب . وهذا فضلا عن تعقدها بفعل المبادئ التي سلف لنا ذكرها ، من حيث ان معرفتنا بالظواهر العضوية تفترض معرفتنا بالظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية ، في حين ان معرفتنا هي بهله الظواهر الأخيرة .

ويمكن النظر الى العلم البيولوجي بوصفه يمثل نقلة كيفية في سلسلة المعارف الوضعية ، وهذا لأننا عند علم البيولوجيا نتقل من عالم

(٢٦) راجع المقدمة التي كتبها هانز سيكس للجزء الخامس للبيولوجيا من كتاب كوت .

(٢٧) كوت ، « دروس في الفلسفة الوضعية » ج ١ ص ٦٦٦ .

الطبيعية والانسانية على السواء . فحيث ان الفلسفة الميتافيزيقية واللاهوتية تنطلق من الانسان فقد نتج عن ذلك اعتمادها على فكرة الارادة كصفة للظواهر ، أما سيادة الروح الوضعية فقد ادت الى بروز فكرة القانون والتي تمثل تقدم الروح الوضعية في مدني تدرجها في الظواهر الى بلوغها الانسان ذاته والمجتمع بوصفهما آخر مجالين يبلغها تطور سيادة هذه الفكرة .

وهكذا حيث ان التطور الطبيعي للمعرفة هو أن يسير من العالم الى الانسان ، فان تأخر ظهور علوم الظواهر العضوية كعلوم وضعية كان امرا طبيعيا ومطابقا لخط سير تطور المعرفة الوضعية .

اذا كنا نؤكد تخلف العلوم البيولوجية في بلوغ المرحلة الوضعية عن العلوم الأخرى ، فينبغي ان نؤكد ايضا أن هذه العلوم لم تكن قد بلغت في عهد كونت وبصورة حاسمة استكمال سيادة الروح الوضعية على دراستها لظواهرها . كانت البيولوجيا لا تزال بعد في مرحلة التطور نحو بلوغ الروح الوضعية . ولذلك نجد أن حديث كونت عن العلوم السابقة قد كان حديثه عن العلوم الوضعية بالمعنى التام للكلمة ، في حين ان حديثه عن البيولوجيا يتميز توعه بأنه بصدد علم ناشيء ، وإن الخطأ الاستعمولي الذي يتخلده موضوعا له ينبغي ان يسهم في دفع هذا العلم خطوات اخرى نحو استكمال الاتصاف بالصفة الوضعية .

والواقع انه فضلا عن كل الاعتبارات النظرية التي سلف ذكرها فان تطور البيولوجيا كان يتوقف على وجود دوافع عملية . بعبارة اخرى اذا كان تطور العلوم جميعا لا يتوقف على انتقال الفكر بتهيؤ طبيعي من الحالة الميتافيزيقية الى الحالة الوضعية ، لأن تطور العلوم لا يتوقف على مجرد تسلسل منطقي للمفاهيم المجردة ، واذا كان لا بد من وجود حوافز خارجية لهذا التطور اهمها واكثرها عمومية وفعالية هو الرغبة في تطبيق المعارف ، فان هذا الامر ينطبق على البيولوجيا . ان الفنون تساعد على تطور العلوم سواء بما تمدها به من عناصر وضعية او بما تمارسه على تقديم البحوث النظرية من تأثير حين تدفع بها الى أن تسير في الاتجاه الذي تستجيب فيه لحاجات عملية . وفي حالة البيولوجيا فان الفن الذي دفعها الى التطور يربطها بالحاجات العملية للانسان هو الطب . فالعلاقة بالطب هي التي ساعدت علم الحياة على ان يخطو خطواته في الانتقال من المرحلة الميتافيزيقية الى المرحلة العلمية . على اننا لا ينبغي ان ننظر بان كل فن عملي قادر في كل حالة على ان يدفع بالملم الموافق له نحو التطور النظري الذي يسير به الى المرحلة الوضعية ، اذ ينبغي ان يكون ذلك الفن العملي ذاته قد بلغ مرحلة من التطور يصبح بفضلها قادرا على اثارة اشكالات نظرية تساعد على التطور النظري للملم الموافق له وهكذا ، فقد كان من الضروري ان يحصل تطور في الطب لكي يصبح الطب قادرا على

بتلقائيته الناتجة عن شروطه الداخلية ، لا ينبغي ان يدفعنا الى خلط آخر في تعريف الحياة هو تعريفها بانها كل فعالية تلقائية . وهذا لأن من شأن هذا التعريف ان يجعلنا ننسب الحياة الى اجسام اخرى غير حية ، على اعتبار ان الاجسام الطبيعية تظهر بدرجات مختلفة نوعا من النشاط التلقائي . إن تعميما مثل هذا لا يعكس الا استمرارا للفلسفة الميتافيزيقية في اذهان الفالسين له .

ماهو إذن الموضوع الذي يبحث فيه علم الحياة ؟ انه يبحث في فكرة الجسم العضوي والوسط من جهة ، وفي فكرة الوظيفة من جهة اخرى ، فالجسم الحي يتضمن اعضاء لها وظائف ، وهذه الوظائف لها علاقة بالشروط الداخلية للجسم ، ولتأثير هذه الشروط بالعوامل الخارجية الآتية من الوسط . والبيولوجيا علم يبحث في القوانين التي تنظم علاقات العضو والوسط من جهة بالوظيفة من جهة اخرى ، فعندما يعطاهما العضو وما يحدث فيه من تغيرات عضوية يكون عليها ان تبحث عن الوظيفة او الفعل ، أو أنها تبحث انطلاقا من العكس . ان هدف البيولوجيا هو ان تسمح دائما بتوقع الكيفية التي يسلك بها جسم حي محدد ضمن شروط معطلة أو أن تسمح لنا بمعرفة العضو الذي يكون قد قام بهذا الفعل أو ذاك عندما نحصل لنا معرفة الفعل . (٢٨)

الارتقاء بالبيولوجيا ومساعدتها على الاتجاه نحو المرحلة الوضعية .

اول مايجلده كونت بصدد علم الحياة هو موضوع هذا العلم . وفي هذا الصدد فان اوجيست كونت يشيد بفضل بيشا على تطور البيولوجيا ولكنه لا يقبل كلية التعريف الذي يقدمه بيشا للحياة . فالحياة عند بيشا هي مظاهر مقاومة الموت . وما يأخذه كونت على هذا التعريف انه لا يراعي حقيقة علاقة الجسم الحي بوسطه ، وانه لا يدرك ان الوسط لا يكون في جميع الاحوال مصدر دم للحياة فهي في كثير من الاحوال شرط من شروط وجودها واستمرارها . ان الوسط لا يصبح مصدر دم للحياة الا عندما تقع فيه اضطرابات . ثم ان كونت يبين من جهة اخرى ان علاقة الجسم الحي بالوسط الخارجي لا تتمثل في تبعية الجسم الحي التامة للعوامل المؤثرة الخارجية فحسب ، بل ان للجسم الحي شروطه الداخلية التي تعمل على تكييف المورثات الخارجية ، والتي تعمل ايضا على ان تعطي للجسم الحي نوعا من التلقائية يتمثل في ردود الفعل التي يرد بها الجسم على المؤثرات الخارجية . وهكذا فالحياة لا ينبغي ان تعرف بمقاومتها للوسط الخارجي ، لأن هذا الوسط ليس مصدرا دائما لدمها بل ينبغي ان تعرف بعلاقة التكيف التي تربطها بهذا الوسط الخارجي والتي يلعب فيها التكوين الداخلي للجسم الحي دورا خاصا ، غير ان تميز الجسم

سامي صورة المنهج في البيولوجيا في نظر كونت ؟

لقد سبق أن بينا بأنه كلما ازداد موضوع العلم تعقيدا كانت الوسائل المعرفية التي نتوصل بها الى معرفة هذا الموضوع أكثر عددا . وقد بينا بصفة خاصة بصدد الملاحظة ، حيث ان أهمية الملاحظة تزداد بزيادة تعقد الموضوع ، كما ان طرقها تتعدد نتيجة لذلك ، فقد رأينا ان علم الفلك يتوقف في نظر كونت عند الملاحظات البصرية ، ولكننا بينا في الوقت ذاته ان الانتقال الى الفيزياء ثم الى الكيمياء يجعل الملاحظة تعتمد على عدد اكبر من الحواس ، حيث انها في الكيمياء تعتمد على كل الحواس . وحيث ان موضوع البيولوجيا أكثر تعقيدا من موضوعات العلوم التي سبق الحديث عنها ، فمن الضروري ان نجد انه يعتمد على منهج يعتمد تطبيق طرق متعددة ، بل ويعتمد على تطبيق تلك الطرق كاملة بصورة أكثر دقة .

وهكذا فان أهمية الملاحظة كخطوة في المنهج العلمي تزداد في البيولوجيا كما تتعدد وسائلها ، فحتى بصدد الملاحظات البصرية فانه لا بد من اتمامها بان نضيف فيها عمل الآلات الى عمل الحواس ، وهذا لأننا لا يمكن أن ننشد الى اعضاء الجسم الحي بلون الاستعانة بالآلات .

اما التجريب فانه في البيولوجيا اعقد منه في العلوم السابقة . وهذا لان هنالك عوائق تعوق تطبيق التجريب بنفس الصورة التي نجده عليها في العالم الفيزيائي ويرجع هذا الامر في الواقع ،

الى التكاثر الموجود بين اعضاء الجسم الحي ، بحيث انه لا يمكن عزل اي عضو من هذه الاعضاء والمقارنة بناء على ذلك بين حالة الجسم الحي في الحالتين اللتين كان العضو فيها موجودا وتم حذفه . كما ان ما يمنع التجريب من جهة اخرى من أن يكون تاما بصدد الجسم الحي ، ان هذا الجسم يخضع لشروط داخلية والأخرى خارجية تتعلق بالوسط ، الشيء الذي يصعب معه اقامة تجريب يأخذ الاختبار هذين المستويين في الوقت ذاته . على ان هذه الصعوبات لاتعني ان علم الحياة لا يلجأ الى التجريب بقدر ماتعني ان التجريب معقد في هذا العلم . فان البيولوجيا يمكن أن تجرب على الجسم الحي بصفة غير مباشرة حين يتعدى التجريب المباشر ، وذلك من خلال مراقبة الحالات المرضية التي تمكن الملاحظ من أن يلاحظ الجسم في حالة اختلال طبيعي يمكن مقارنته بحالة السواء .

فضلا عن الملاحظة والتجريب فهناك خطوة اخرى في المنهج العلمي هي المقارنة ومنهج المقارنة يتصف أكثر من غيره من المناهج الأخرى بكونه غير مباشر ، ولذلك فانه يلائم الموضوعات الأكثر تعقدا والأكثر تنوعا . وهذا هو السبب الذي يفسر لنا لجوء البيولوجيا الى هذا المنهج أكثر مما كانت تفعل ذلك العلوم السابقة عليها في الترتيب .

تستخلم البيولوجيا منهج المقارنة في خمس صور يمثل كل منها مستوى من المستويات المقارنة .

لبلوغ اية معرفة عن المرحلة الوضعية . اذا وتبعاً لهذا الاعتبار فأننا نصل الى ان هناك ضرورة لتطبيق المنهج الرياضي في دراسة الكائنات الحية حتى يصح لنا اعتبار البيولوجيا علماً وضعياً ، فالفرق بين الكائنات العضوية والكائنات الحية لا تتمتع ، تبعاً لهذا الاعتبار من تطبيق المنهج الرياضي . غير ان الانطلاق من واقع الظواهر الحية يبين ان تعدد العناصر المكونة لها لن تسمح بمعرفة عديدة دقيقة لتغيراتها . فالعوامل التي تدخل في التأثير على الظاهرة الحية يرجع بعضها الى الجسم الحي وقوانينه الداخلية ، وبعضها الآخر الى محيط هذا الجسم الحي . غير ان ذكر كونت لهذه الصعوبة الناتجة عن تعقد الجسم الحي لا تمنعه مع ذلك من أن يسجل انه قد وجدت في زمنه بداية لتطبيق غير مباشر للمنهج الرياضي في دراسة الكائنات الحية ، وهي البداية التي تمثلت في تطبيق الاحصاء في الدراسات الطبية ، كما أن أوجيست كونت يرى أنه بين العلوم الرياضية يمكن أن نعتبر الميكانيكا العلم الرياضي الذي ينطبق بصورة أقوى على البيولوجيا .

وهكذا تبين اذن كيف يكتسب المنهج الوضعي خصائص معينة تتلاءم مع هذه النقلة الكيفية التي يحققها عند انتقاله الى دراسة الكائنات الحية . فهناك حاجة أقوى الى تدقيق الملاحظة والى استخدام الآلات لاكمال الحواس الذي يبدو غير كاف ، وهناك من حيث التجريب لجوء الى التجريب غير المباشر عن

أولاً المقارنة بين الاجزاء المختلفة لكل جسم حي .

ثانياً المقارنة بين الاجناس المختلفة للكائنات الحية .

ثالثاً المقارنة بين المراحل المختلفة لمجموع تطور الكائنات الحية .

رابعاً المقارنة بين اختلاف الأعراق او المقارنة بين التنوع داخل النوع الواحد .

خامساً واخيراً المقارنة بين كل الاجسام الحية التي يشملها الترتاب البيولوجي .

ان منهج المقارنة ملائم لعلم الحياة اكثر من العلوم الأخرى التي سلف عرضها . وهذا لأن المادة التي يدرسها هذا العلم على قدر كبير من التنوع من جهة ، كما ان للملاحظة والتجريب المباشرين بموضوعان في هذا المنهج عن طريق البحث في الفروق على المستويات المختلفة التي ذكرناها . كما ان منهج المقارنة ينطلق من وحدة مظاهر الحياة في الكائنات الحية ، وذلك لأنه يفرض ان هناك تماثلاً أساسياً بين الكائنات التي يقارن بينها من حيث وجهة النظر التي نقارنها منها ، وان الاختلافات ليست الا مجرد تحويرات ضمن نمط يؤخذ نظرياً على انه واحد . ومن جهة أخرى فان تنوع اشكال الحياة ومستوياتها يجعلنا في حاجة الى تصنيفها من اجل دراستها وهذه فائدة يقدمها منهج المقارنة .

بقيت لنا لكي نكمل تصوراتنا عن المنهج الوضعي في البيولوجيا ان نعرف علاقة هذا العلم بالتحليل الرياضي الذي يعتبر معياراً

الذي يدرسه كل علم وللدرجة التي بلغها من التعقيد ، كل هذا يدفعنا الى القول بأنه بالرغم من ان العلوم السالفة في الترتيب لا تعتمد على البيولوجيا ، فان معرفة البيولوجي ضرورية لكل عالم لكي يستكمل نظره عن الروح الوضعية . وبطبيعة الأمر فان هذه الصورة ستبدو اقوى عند التعرض للعلم اللاحق اي لعلم الاجتماع الذي سيجد في البيولوجيا اقرب نموذج اليه من حيث تطبيق المنهج الوضعي .

الفيزياء الاجتماعية او علم الاجتماع

لقد اكدنا في بداية هذه الدراسة ان علم الاجتماع يحتل مكانة خاصة ضمن المشروع النظري لأوجيست كونت . وهذا لأن اقامة هذا العلم تستجيب لدواعي ايديولوجية تتمثل في ارادة كونت رفع حالة الاضطراب التي كانت تسود المجتمع آنذاك نتيجة لعدم القدرة على التوفيق بين فكري التقدم والنظام ، باعتبار أن القوى المتصارعة في المجتمع كانت تحمل احدى هاتين الفكرتين بالصورة التي تكون بها معارضة للأخرى . إن قيام علم الاجتماع بوصفه العلم الذي سيدرس ظواهر المجتمع بطريقة وضعية ، هو الأمر الكفيل وحده بدفع الاضطراب ويخلق الانسجام بين التقدم والنظام . وحيث ان كونت كان يرى ان الفوضى القائمة في المجتمع أساسها فوضى أخلاقية . وان هذه ترجع الى فوضى عقلية فان ما كان ينبغي البداية به ، في نظره هو رفع الفوضى الفكرية باعادة النظر في نسق المعرفة الانسانية . وعلم الاجتماع من هذه

طريق ملاحظته الحالات المرضية التي تتيح للمجرب شروطا طبيعية للجسم الحي لا يستطيع اصطناعها . وهناك ثالثا اعتماد قوى على منهج المقارنة بالنظر الى تعدد وتنوع مستويات مظاهر الحياة في واقعها وفي تاريخها . وهناك اخيرا صعوبات في استخدام التحليل الرياضي كما هو مستخدم في العلوم الأخرى ولجوء الى استخدام غير مباشر للعلوم الرياضية في دراسة الكائنات الحية .

وفي الواقع فان هذه الخصائص المميزة للمنهج الوضعي في حالة تطبيقه على دراسة الكائنات الحية . تفيدنا في معرفة الخصائص العامة لهذا المنهج في وحدته وتنوعه . ذلك انه لا يمكن لمن يريد معرفة المنهج الوضعي كاملة ان يستغني عن معرفة كيفية تطبيق هذا المنهج في البيولوجيا . ذلك لانه عبر معاينة هذا التطبيق نستطيع ان نتعرف على منهج المقارنة في صورته الكاملة باعتبار انه لا يطبق الا بصورة بسيطة في العلوم الأخرى ، ونتعرف كذلك على الفائدة التي تعود على المنهج الوضعي عامة من تطبيق هذا المنهج ، كما اننا نستطيع ان نراقب الدور الذي يمكن ان يلعبه التصنيف ، وفضلا عن هذا كله ، فاننا نلوك انطلاقا من البيولوجيا ان الوحدة التي يتميز بها المنهج الوضعي لا تمنع من وجود تنوع داخل هذا المنهج ، هذا باعتبار ان بعض الخطوات المنهجية التي يتضمنها المنهج الوضعي - تختلف في درجة الحاجة اليها وفي قوة تطبيقها من علم الى آخر تبعا لطبيعة الموضوع

تدرس العلوم الأخرى للظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية . هذا يعني أن الفيزياء الاجتماعية تكون هي العلم الوضعي بالظواهر المجتمعية .

يرى كونت أن الظواهر المجتمعية أكثر تعقيدا ، وهو الأمر الذي يفسر العلم الذي يدرسها في آخر قائمة العلوم الوضعية . ويمكن أن نتبين تعقد الظواهر المجتمعية عندما نلاحظ تبعيتها للظواهر الأخرى . فإن المعرفة الحق بقوانين الظواهر المجتمعية تتطلب معرفة بقوانين الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية ، في حين أن دراسة هذه الظواهر الأخرى جميعها ومعرفة قوانينها لا تتوقف في نظر كونت على معرفة قوانين الظواهر المجتمعية .

وحيث أن سيادة الروح الوضعية قد سارت في تاريخ الفكر البشري متدرجة بانفتاحها من الموضوعات الأكثر بساطة الى الموضوعات الأقل بساطة ، فقد كان من الطبيعي ، بالنظر الى تعقد الظواهر المجتمعية ، أن تكون هذه الظواهر آخر ما تصل اليه سيادة المنهج الوضعي في تاريخ تطورها .

وأخيرا فإن قيام أي علم وضعي يقتضي قيام موضوعه . وهذا أيضا عامل من العوامل التي أخرت قيام علم الاجتماع كعلم وضعي . اذ لم يكن من الممكن اقامة دراسة علمية بظواهر المجتمع دون أن يكون قد حصل في هذه الظواهر قدر كاف من النمو يجعلها قابلة لأن تكون موضوع ملاحظة علمية . بعبارة أخرى

الناحية يستجيب لدواعي معرفية باعتباره العلم الذي تكتمل بفضل قيامه المعارف الوضعية . لذلك قلنا في بداية هذه الدراسة ان انشاء علم الاجتماع يكون النواة المركزية للفلسفة الوضعية عند كونت .

ومن جهة أخرى فإن حديث كونت عن علم الاجتماع يختلف من حيث مستواه عن حديثه عن جميع العلوم الأخرى . لقد رأينا ان كونت يتحدث عن العلوم الرياضية والفلكية والفيزيائية والكيميائية بوصفها علوما وضعية قائمة استكمل فيها الفكر الانساني تطوره وبلغ المرحلة الوضعية . ولقد وجدناه يتحدث عن البيولوجيا بوصفها علما وضعيا كان الى عهد كونت لا زال يخطو نحو استكمال سيادة الروح الوضعية على دراسته لظواهره ، وقد كان هدف كونت أن يبين معالم الطريق بالنسبة لهذا العلم . أما بالنسبة لعلم الاجتماع فإن الأمر مختلف تماما لأنه يتعلق بعلم ينسب كونت انشاءه الى نفسه ، ويريد أن يضيفه الى نسف المعارف الوضعية . بعبارة أخرى كانت كل العلوم الأخرى قائمة كعلوم مطبقة للمنهج الوضعي ، في حين أن علم الاجتماع هو العلم الذي كان يريد أن يرسم له طريق تطبيقه لهذا المنهج لكي يكون جديرا بأن يعتبر معرفة وضعية .

ما هو موضوع علم الاجتماع ؟

يحدد كونت هذا الموضوع في تعريفه للفيزياء الاجتماعية . فالفيزياء الاجتماعية في نظره هي العلم الذي يدرس الظواهر المجتمعية بمثل ما

الاجتماعية على أسس علمية لم يكن ممكنا الا معه هو بالذات في القرن التاسع عشر ، فإنه يعترف بوجود مفكرين رواد قاموا في نظره بمحاولات في طريق هذه النشأة ، انه يذكر بهذا الصدد ارسطو الذي يعتبر كتابه « السياسة » نقدا لأحلام افلاطون ومثاليته . غير أن كتاب ارسطو لم يستطع ، مع ذلك أن ينفذ الى مفهوم التقدم ولا أن يدرك القوانين الطبيعية للحضارة ، في حين هيمنت عليه بصفة أساسية المناقشات الميتافيزيقية حول مبدأ وشكل الحكومة ، ولم يكن بإمكان أرسطو أن يضيف على ملاحظاته للظواهر المجتمعية الصفة الوضعية بالنظر إلى أنه من بين جميع العلوم التي كان على ملاحظة الظواهر المجتمعية أن تعتمد بها ، كان علم الهندسة وحده قد بلغ حيثئذ المرحلة الوضعية من تطوره ، كما أن هذه الملاحظات التي قام بها أرسطو لم يتح لها أن تلاحظ الظواهر المجتمعية الا في صورة أولية لها وضمن نطاق محدود . ومع ذلك فإن كتاب أرسطو يظل ، بالرغم من هذه الحدود ، من المحاولات التي مهدت في نظر كونت للعلم الاجتماعي متجاوزة التاملات الميتافيزيقية لكثير من الفلاسفة .

يذكر كونت بعد ذلك مونتسكيه ويشيد بصفة خاصة بكتابه « روح القوانين » ، وأن أهم ما يميز عمل مونتسكيه في نظر كونت ، قوله بأن الظواهر السياسية تخضع لقوانين طبيعية شأنها في ذلك شأن الظواهر الأخرى . فهذه أول

إن تأخر سيادة المنهج الوضعي في دراسة ظواهر المجتمع لم يكن ناتجا عن نقص في طريقة البحث فحسب ، بل كان ناتجا أيضا عن عدم غوكاف في موضوع الدراسة . لذلك فإن الثورة الفرنسية بوصفها حدثا تاريخيا لحق أثره المجتمع بأكمله ، قد ساعدت على تغير شامل في المجتمع جعل الظواهر المجتمعية قابلة للملاحظة . وهناك في نظر كونت مفهوم أساسي لا غنى عن برونه لقيام علم بالمجتمع ، وهو مفهوم التقدم ، وأن التفسيرات الجزئية التي عرفها المجتمع الأوروبي قبل قيام الثورة الفرنسية لم تكن كافية لايبراز ذلك المفهوم .

لقد تأخر علم الاجتماع في الظهور كعلم وضعي لأن التفكير في موضوعه ظل خاضعا هيمنة الأفكار اللاهوتية والميتافيزيقية وحيث أن هنالك تأثيرا من المنهج في الموضوع ، فإن الموضوع ذاته قد ظل موضوعا غير محدد بصفة علمية .

هذا التحديد الذي يجعل من علم الاجتماع وهو علم الظواهر المجتمعية تحديدا واسعا جدا ، ونستطيع أن نعرف ما الذي يشمل هذا الموضوع في نظر كونت ونعرف في الوقت ذاته تقدم خطوات المنهج الوضعي في دراسة هذا الموضوع عندما نعرف كيف ينظر كونت إلى أعمال المفكرين السابقين التي هي على صلة بهذا العلم الجديد الذي كان كونت يريد أن يكمل به قائمة العلوم الوضعية ، ذلك لأنه اذا كان أوجيست كونت يرى ان قيسام الفيزياء

قد كان ، نتيجة لسبقه لأوانه ، يعمل في ذاته تناقضا بين التصور النظري له وبين امكان تطبيقه ، من حيث إن التطبيق كان يتطلب شروطا موضوعية لم تكن متوفرة جميعها وبصورة كاملة في زمن مونتيسكيه .

ومن بين المهلهين لنشأة العلم الاجتماعي يذكر كونت ايضا كوندورسيه وما يميز هذا المفكر عن مونتيسكيه ، هو بروز فكرة التقدم لديه في كتابه الأساسي . ولم يكن هذا الامر في الواقع لأن كوندورسيه كان أكثر فطنة من مونتيسكيه او ممن سبقه من المفكرين ، بل لكونه عاش في فترة لا حقة كانت فيها القوى الثورية في المجتمع قد نمت بصورة أقوى ، وكانت التناقضات الداخلية للنظام السابق قد زادت من قوة نزوع النوع الانساني الى ان يتجاوز النظام السابق بصورة لا تقبل الرجعية فيها ، ومن الناحية المعرفية فان كوندورسيه قد زامن تاريخ العلوم فترة كانت الطريقة الوضعية قد شملت فيها بكيفية أقوى دراسة الظواهر المتعلقة بالحياة .

هناك محاولات أخرى في طريق انشاء العلم الوضعي المتعلق بالمجتمع نجد بعضها عند المفكرين الاقتصاديين وبعضها الآخر عند المهتمين بالتاريخ . وكلها تمهد الى انشاء حقيقي لعلم الاجتماع ، دون ان تصل موضوعيا الى ان تكون بذاتها هذا التأسيس .

في ما يتعلق بالمحللين الاقتصاديين ، نجد ان المفكر الذي يحظى بتقدير خاص لدى كونت هو آدم سميث ، ولكن كونت يرى ، خارج هذا

محاولة تتم فيها فكرة القانون لتشمل كل الظواهر . ولا شك في أن مونتيسكيه قد تأثر بالعمل الهام الذي قام به خارج ميدان الظواهر الانسانية علماء من أمثال ديكارت وجاليلو و«كبلر» و«نيوتن» وبما يجعلنا نقدر محاولة مونتيسكيه انها وجدت في زمن لم يكن النتيج الوضعي قد شمل فيه الا الظواهر الطبيعية الأكثر بساطة ، ودون أن يكون قد تحقق بصدد الظواهر الكيمائية بصورة كاملة ، وأن يكون قد نفذ بالأحرى الى دراسة ظواهر الحياة التي تعتبر قوانينها مدخلا الى قوانين الظواهر المجتمعية ، ولكن ما يدفعنا الى تقدير عمل مونتيسكيه هو في الوقت ذاته ما يجعلنا نتبين جلوه من حيث أنه محاولة سابقة لأوانها ، إذ لم تكن الظروف السياسية ولا الظروف العلمية قد تطورت بالصورة الكافية التي تجعلها تبنى المجال لنشأة علم وضعي بالمجتمع ، ففكرة التقدم التي يعتبر روزها ضرورة لقيام علم الاجتماع لن تبرز الا بعد مونتيسكيه وعند قيام الثورة الفرنسية بوصفها الحدث التاريخي الكبير الذي سيؤدي الى بروز ديناميكية الظواهر المجتمعية . وكذلك فان الروح الوضعية التي يمكن أن يقاس بها مدى انصاف أية معرفة بالصفة العلمية ، ولم يكن من الممكن أن تسود في زمن مونتيسكيه دراسة الظواهر المجتمعية من حيث هي ظواهر على درجة أعلى من التعقد والخصوصية . وهكذا يبين كونت أن مشروع مونتيسكيه بالرغم من كل مظاهر التقدم التي يمكن أن نسجلها في حقه ،

الماضي المجتمعي الى المستوى الذي يكون به تفكيراً وضعياً في طريقته . وهناك مظاهر ثلاثة تدل على هذا الامر . ففي المظهر الاول لقد ظل التاريخ علماً وصفيّاً غير قادر على ربط الاحداث التاريخية وفهم تسلسلها فيها عقلياً ببعيد الفكر ، كما هو الشأن بصدد الظواهر الأخرى ، للوصول الى توقع بالتسلسل لللاحق للظواهر المجتمعية ، ومن جهة ثانية ، فان عمومية وغموض النظريات التاريخية قد منعها من ان تكون تفسيراً واقعياً لمجموع الظواهر ، ويمكن من استمرار اتصافها بالطابع الميتافيزيقي . اما المظهر الثالث ، فهو هذا الفصل الذي يحاوله المؤرخون بين علمهم وبين العلم السياسي في حين انهما يتطابقان في نظر كونت لكي يكونا علماً واحداً .

هكذا ، اذن ، نرى ان كونت اذ يعترف بمحاولات سبقه بها بعض المفكرين من اجل اقامة علم وضعي بالظواهر الانسانية ، واذ يشيد من جهة أخرى بالجهد الذي بذله كل من هؤلاء المفكرين من اجل تجاوز العقبات التي كانت تعمل على ابقاء التفكير في الظواهر الانسانية ضمن حدود التفكير الميتافيزيقي واللاهوتي ، لا يرى في اية من هذه المحاولات الخطوة الحاسمة لا نشاء العلم الوضعي بالمجتمع . وحين يعلن من جهته بانه يريد ان يضيف الى قائمة العلوم الوضعية علماً جديداً موضوعه الظواهر المجتمعية ، فانه يرى ان تفوقه على سابقيه يرجع بالدرجة الاولى الى توفر

التقدير ان ما قام به المحللون الاقتصاديون لم يرق الى الدرجة التي يمكننا معها اعتبارها علماً وضعياً بالظواهر المجتمعية . وهناك اسباب ثلاثة رئيسية هي التي منعت التحليل الاقتصادي من أن يكون علماً وضعياً . فهناك اولاً تثبيت المحللين الاقتصاديين تمييز علمهم عن علم السياسة اعتباراً منهم انهم يتعمقون في تحليلاتهم للظواهر الاقتصادية النّوذج المنهجي الفيزيائي ولكن دون ان يكون الامر في الواقع كذلك . وهناك ثانياً عدم قدرة هؤلاء المحللين على تطبيق المنهج الوضعي في دراساتهم باعتبار انهم لم يعيشوا من حيث تكوينهم لتقيام بهذا التطبيق . وهناك ثالثاً بقاء التحليل الاقتصادي ضمن حالة الاختلاف بين من يمارسونه . فبدلاً من أن يعتمد اللاحق منهم السابق نجد أن كل عالم منهم يقدم مفاهيم جديدة يتناول شخصي يختلف عن سابقه .

من حيث التاريخ يرى كونت ان الجهد الفكري الذي سار في طريق انشاء علم وضعي بتسلسل الوقائع التاريخية هو الذي قام به « بوسيه » وان التقدير الموضوعي للعمل الذي قام به هذا المفكر يأتي من كونه جاء في زمن كان ادراك الاحداث التاريخية لم يزل فيه بعد خاضعاً لهيمنة الافكار اللاهوتية والتصورات الميتافيزيقية . لقد حاول « بوسيه » ان يتخطى كل العقبات التي كانت تفرضها عليه مثل هذه الافكار . ولكن هذه المحاولة بالرغم من قيمتها لم تنجح بصورة كاملة ، في ان تنقل التفكير

ثانية . يسمى كونت علم الاجتماع الذي يدرس الظواهر المجتمعية من وجهة النظر الأولى بعلم الاجتماع الاستاتيكي ، ويدعو علم الاجتماع الذي ينطلق من وجهة النظر الثانية بعلم الاجتماع الدينامي .

ان موضوع علم الاجتماع الاستاتيكي هو الدراسة الوضعية ، التجريبية والعقلانية في آن واحد ، للفعل المتبادل والمستمر لظواهر المجتمع بعضها في البعض الآخر . وما يبرر ذلك ان ظواهر المجتمع متماسكة وأن مؤسساته متكافئة بحيث لا يمكن ان نبدأ دراسة ظاهرة او مؤسسة من بينها دون ان نقف على ضرورة البحث في علاقة التأثير والتاثر المتبادلة بين مجموعة الظواهر والمؤسسات الأخرى . ومن الواضح ان الدراسة التي يقوم بها هذا العلم للظواهر المجتمعية لا تفعل الصفة الدينامية ، ولكنها تفضي الطرف عن وحي ، وبصفة مؤقتة عن الدينامية ، واهمية الطريقة التي يتبعها علم الاجتماع في هذه الحالة انها تساعدنا على معرفة علاقة الظواهر التي نكون بصدد البحث فيها بظواهر أخرى معروفة لدينا . وبذلك يكون هذا العلم ممهداً لنا للحصول على قاعدة معرفية لا غنى عنها تكون لنا اساساً لدراسة الظواهر المجتمعية في صورتها الحركية .

اما علم الاجتماع الدينامي فان موضوعه هو الدراسة الوضعية لتعاقب الحالات المجتمعية وبيان القوانين التي تجعل اللاحق منها ناتجاً عن السابق ، وذلك لأن مجموع هذه القوانين هو

الشروط الموضوعية التي تجعل الحديث عن هذا العلم ممكناً ، فمن الناحية السياسية والمجتمعية سمح قيام الثورة الفرنسية نصف قرن من الزمن قبل كتابة كونت للدراسة الوضعية ، ببروز فكرة التقدم الاجتماعي من حيث هو مفهوم لا غنى عنه للعلم الوضعي بالمجتمع ، ومن الناحية المعرفية فان امتداد الطريقة الوضعية لكي تصبح طريقة لدراسة ظواهر الحياة قد جعل هذه الطريقة تشمل كل الظواهر الأخرى الاكثر بساطة من الظواهر الانسانية ، فمهد ذلك إذن لامكان تطبيق هذه الطريقة ذاتها على الظواهر الانسانية من حيث هي الاكثر تعقداً .

ان تعقد موضوع علم الاجتماع كذا يتصوره أوجيست كونت يأتي من أن هذا العلم يريد ان يكون في الوقت نفسه ، بديلاً لكل المحاولات السابقة التي تتعلق بميادين مختلفة قد ترجمها اليوم الى علوم انسانية متعددة . ان موضوع علم الاجتماع يصبح هو موضوع كل المحاولات السابقة التي تعلق بعضها بالظواهر السياسية والمجتمعية ، وبعضها بفلسفة التاريخ ، وبعضها الآخر بعلم الاقتصاد السياسي ثم أخيراً تعلق جزء منها بالتاريخ .

ضمن هذا الإطار العام الذي يجلده كونت لعلم الاجتماع نجد انه يقبل تقسيمه الى قسمين وذلك تبعاً لوجهة النظر التي تدرس منها الظواهر المجتمعية . ذلك لان الظواهر المجتمعية يمكن أن تدرس في حالة تأثيرها المتبادل من جهة وإلى ما يمكن ان تدرس من حيث ديناميتها من جهة

الذي يحدد مسيرة التطور البشري . وهذا لعلم مكمل للأول من حيث أن أحدهما يهتم بدراسة الظواهر الانسانية من حيث تواجدها ، بينما يدرس الآخر هذه الظواهر ذاتها من حيث تعاقبها .

وهذا لتقسيم للدراسة الاجتماعية الى دراسة تخصص الظواهر من حيث تواجدها وأخرى تدرس الظواهر من حيث حركيتها ، يستجيب لحاجة المجتمع الى التأليف الإيجابي بين فكري النظام والتقدم ، ذلك لأن الدراسة الاستاتية للمجتمع تنبئ لقيام نظرية وضعية عن النظام الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بفضل تناسق بين الشروط المختلفة لوجود المجتمعات الانسانية . وأما الدراسة الدينامية فإنها تسمح بقيام نظرية وضعية عن التقدم المجتمعي . ومن الواضح أن التكامل بين الدراستين من شأنه أن يرضي بصورة ملائمة حاجة المجتمع المزدوجة الى النظام والتقدم المجتمعي في آن واحد^(٢٩) ففكرنا النظام والتقدم اللتان تبدوان متعارضتين عندما تنبئ الأولى منها قوى ترجع الى المجتمع القديم ، وتنبئ الثانية منها قوى ذات تفكير فوضوي تبدوان على قابلية للتأليف بينهما بفضل تكوين نظرية وضعية عن كل منها .

هناك قضية أخيرة هم هذا العلم الجديد عند كونت وهي مسألة النهج . فما هي طبيعة النهج

الذي يؤهل علم الاجتماع لأن يعد في قائمة العلوم الوضعية ؟ ان شرط الاتصاف بالصفة الوضعية لا يختلف في هذا المجال عن العلوم الأخرى ، لأنه اتباع الطريقة الوضعية في تفسير الظواهر وهي - الطريقة التي تترك البحث عن الملل الأولى والمطلقة ، وهو ما يميز المرحلة اللاهوتية ، كما تترك البحث عن تحليل الظواهر بكيانات مجردة تفترض أنها ملازمة لها ، وهو ما يميز المرحلة الميتافيزيقية لكي تخلص الى البحث عن القوانين بوصفها العلاقات الثابتة لتمائل الظواهر وتعاقبها .

وإذا كان أمد المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية قد طال بالنسبة لعلم الاجتماع أكثر من العلوم الأخرى ، فإن ذلك ينبغي أن يفهم ضمن الشروط المعرفية الموضوعية لهذا العلم الجديد من حيث أنه يتناول أكثر الظواهر تعقدا . ولكن كونت رأى أن الألوان قد آن في زمنه لكي يتجاوز هذا العلم الطريقتين اللاهوتية والميتافيزيقية ، مستعاضا عنها بتطبيق الطريقة الوضعية . فمما يقدم العلم انه يستعاض عن الخيال بالملاحظة ، وانه يستعاض عن الوقائع بالمفاهيم العلمية والملاحظات التي لا يتم تسجيلها بكيفية موضوعية ودقيقة ويطغى عليها الخيال الذي قد تحفزه ميول ذاتية لن يمكن العلم من بلوغ هدفه . ان هذه الملاحظات المتأثرة بالخيال والميول هي التي كانت تسود دراسة

(٢٩) المرجع السابق رابع الدرس ٤٨ .

بها الطريقة الوضعية هي التوقع العقلاني للظواهر . وتعتبر هذه الخاصية في نظر كونت المعيار الأقوى من حيث الدلالة على أن الدراسة المتعلقة بفئة معينة من الظواهر بلغت المرحلة الوضعية من تطورها . ذلك لأن توقع الظواهر يقتضي معرفة بقوانين حدوثها وهو الأمر الذي يتوقف على ملاحظتها بدقة ، وعلى إضفاء النسبية عليها بالاختصار على دراسة عدد محدود منها . حقا أن تعقد الظواهر المجتمعية وخصوصيتها قد يجعلان التفكير في توقعها أمرا غير ممكن ، ولكن العلماء الذين اعتادوا العمل وفقا للمفاهيم العلمية لن يروا في ذلك أية صعوبة خاصة عما ما يعود بصفة خاصة إلى هذه الظواهر ، ولذلك فهم يميزون بصدد الظواهر المجتمعية بين القوانين التي تتعلق في حالتها الدينية ، وتلك التي تتعلق بها في حالتها الاستاتيكية .

وضمن اتباعه للطريقة الوضعية بخصائصها التي انتهينا من بيانها يطبق العلم الجديد المنهج العلمي بخطواته المعروفة خاصة منها تلك التي تتبعها أقرب العلوم إليه وهي علوم الحياة ، وهذه الخطوات هي الملاحظة والتحريب وطريقة المقارنة .

يلدرك كونت مباشرة أن البعض قد يعترض على علمية علم الاجتماع بالاعتراض على إمكان تطبيق خطوات المنهج العلمي في هذا العلم . ولكن كونت يرد على ذلك بكيفية متعددة .

الظواهر المجتمعية في المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية من تطور الدراسات الاجتماعية . تتميز الطريقة الوضعية من جهة ثانية بإضفاء الصفة النسبية على الظواهر المدروسة . وهذا الأمر لا يخص علم الاجتماع ، فالانتقال من النظرة المطلقة للظواهر إلى النظرة النسبية لها قد مثل دائما أحد المظاهر الأساسية للتطور الذي ينقل أية معرفة من المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية إلى المرحلة العلمية . ذلك لأن كل بحث عن الملل الأولى للظواهر ، وكل تفسير يعمل تمثيلها أو تعاقبها بكيانات باطنة ملازمة لهذه الظواهر هو في نهاية التحليل بحث في تفسير مطلق . أما الدراسة التي تكثفي بالبحث في القوانين فانها تفترض أن معرفتها بالظواهر تتقدم بالقدر الذي تزداد به دقة وقوة ملاحظاتها ، ولذلك فانها لا تستخدم إلا المفاهيم النسبية ، والواقع أن هذا الفرق بين الطريقتين لا يتمثل في الموقف النظري لكل منهما إزاء السلوكيات فحسب ، بل يبدو أيضا أن هذا الفرق بين الطريقتين لا يتمثل في الموقف النظري لكل منهما إزاء الظواهر فحسب ، بل يبدو أيضا في الطريقة التي يربط بها التأثير في ظواهر المجتمع فالفلسفة اللاهوتية والميتافيزيقية دفعنا بالإنسان دوما إلى الظن بأنه يستطيع التأثير في الظواهر المجتمعية بصفة كلية . أما الفلسفة الوضعية فتتميز بكونها لا تسعى إلا إلى التأثير في عدد محدود من الظواهر ، هو ذلك الذي تصل إلى معرفة قوانين حدوثه التآني والمتعاقب . الميزة الثالثة التي تتميز

فأولاً إن الاعتراض على إمكان قيام ملاحظات دقيقة للظواهر الانسانية نظراً لتعقدها بالقياس إلى الظواهر الأخرى ينطوي على العوامل لطبيعة القوانين المتعلقة بالظواهر الانسانية ، فهذه القوانين تمهد لها القوانين المتعلقة بالظواهر الفيزيائية الكيميائية ثم ، بصفة خاصة ، القوانين المتعلقة بظواهر الحياة ، وهذا بالنظر إلى تبعية الظواهر الانسانية لكل هذه الظواهر سائلة الذكر .

وثانياً : إن ملاحظة الظواهر المجتمعية التي يكون تماسكها بعضاً من تعقدها ينبغي أن تتم بطرق متنوعة تتلام مع طبيعة الظواهر التي نحن بصدها والدرجة التي هي عليها من التعقد .

وثالثاً : إن الملاحظات لا تتم بصدد الظواهر المجتمعية بصورة مباشرة دون وساطة من نظرية مجتمعية ، فإن أية واقعة مجتمعية لا تكتسب معناها العلمي الحق دون أن تكون متعلقة بواقعة مجتمعية أخرى ، فالواقعة المنعزلة قد تشفي الفضول إلى الاستطلاع ولكنها لا تستطيع من حيث هي كذلك ، أن تكون موضوعاً لعمل علمي ، وإن النظرية الوضعية التي تدرك الظواهر المجتمعية في تماسكها هي ما يمكن أن يكون الإطار النظري لكل ملاحظة علمية .

قد تظهر اعتراضات مماثلة فيما يتعلق بتطبيق التجريب على الظواهر الانسانية وكونت يدعو هنا إلى الاستفادة من أقرب النماذج العلمية إلى علم الاجتماع وهو علوم الحياة . ينبغي أولاً التمييز بين الملاحظات المباشرة والملاحظات غير

المباشرة للظواهر ، وينبغي إذن أن نؤكد أن التجريب العلمي لا يتوقف دائماً على صفة المباشرة . قد نستطيع التجريب على ظاهرة ما عندما تؤثر سلباً أو إيجاباً على أحد عوامل حدوثها . ولكن بالنظر إلى تعقد الظواهر الحية فإن مثل هذا التجريب المصطنع قد يخل بالسير الطبيعي للظاهرة ، وهذا يصدق أيضاً على الظواهر المجتمعية . فكما أن التجريب على ظواهر الحياة فرصة ملاملة في ملاحظة الحالات المرضية التي تمثل بفضل تلقائيتها ما يعادل التجريب المصطنع في العلوم الأخرى فهذا ما يمكن اللجوء إليه في حالة الظواهر المجتمعية بدورها التي تمثل حالات الاضطراب المجتمعي فيها ما يعادل الحالات المرضية بالنسبة لظواهر الحياة . وذلك لأن هذه الاضطرابات أو هذه الحالات المرضية لا تؤدي إلا إلى تغيير جزئي في الظاهرة دون أن تمس قوانينها الأساسية أو تغير من طبيعتها . هذا التجريب غير المباشر يصدق على الظواهر المجتمعية سواء تعلق الأمر بها في حالة سكوتها أو كان متعلقاً بها في حالة حركتها ، وذلك لأن تطور المجتمع لا يخلو باستمرار من اضطرابات وإن تكن تختلف من حيث درجتها . فيما يتعلق بمنهج المقارنة ، فإن كونت يعود إلى تطبيقات هذا المنهج في علوم الحياة لكي يبين من خلالها صلاحيته لدراسة ظواهر المجتمع . غير أن ما أخر تطبيق هذا المنهج في علم الاجتماع هو الأفكار اللاهوتية الميتافيزيقية التي تمتنع كل محاولة للتقريب بين المجتمعات الحيوانية آراء مفيدة في

على اعتبار الحالات المختلفة للمجتمعات الانسانية كما لو كانت واقعا يرجع الى طبيعة هذه المجتمعات ، أو الى تأثير بعض العوامل الثابتة تأثير العامل الجغرافي لذلك ، فضلا عن هذه المقارنات التي تقوم بين المجتمعات المتواجدة في زمن واحد ، لا بد من استخدام المنهج التاريخي في المقارنة بين المراحل المختلفة لتطور المجتمع الانساني بصفة عامة وذلك لأن ملاحظة الحاضر وحده ، دون تدعيمها بملاحظة الماضي قد تقود الى بعض التفسيرات الخاطئة التي قد تعطي أهمية قصوى لبعض الأسباب الثانوية المؤثرة في تطور المجتمع الانساني ، أو تخلط بين هذه الأسباب وبين حالة التطور العامة التي ترجع الى أسباب رئيسية أخرى . وهكذا فان المقارنة التاريخية تصحح بعض الأخطاء التي يمكن أن تقع فيها المقارنة التي تقتصر على الحاضر وتدفع عنها تلك الأخطاء .

تبعاً لانتقالنا ضمن ترتيب العلوم من الأبسط الى الأقل بساطة فإن تطبيق المنهج الرياضي يزداد تعقداً . وهكذا فعلوم العلوم الرياضية يتناقض بالتدرج ، بالرغم من ضرورته ومن كونه معياراً للوضعية ، وقد رأينا أنه كلما انتقلنا الى موضوع أكثر تعقداً زاد دور التجريب بالقياس الى دور التحليل الرياضي ، أما حين نبذل دراسة ظواهر الحياة فإن المنهج المقارن يصبح أكثر ضرورة ويلعب في معرفة تلك الظواهر دوراً أقوى ، بينما لا نجد الا تطبيقاً غير مباشر للرياضيات ، وحيث أن علوم الحياة هي

فهم ظواهر المجتمع في بعض جوانبها هناك ، لا شك هناك عيب لمثل هذه المقارنات من حيث انها تكفي بالنظر الى الظواهر التي تقارن بينها في حالتها الاستاتيكية لا في حالتها الدينامية ، لكن هذا العيب لا يمنع تلك الملاحظات من أن تساعدنا على اكتشاف القوانين الأولية للتضامن ، وذلك بادراك هذه القوانين في مجتمع أدل قبل الانتقال الى ملاحظاتها في صورتها الأكثر تعقيداً في المجتمع الانساني .

ولا يفق المنهج المقارن عند هذا فهو يتجاوز ذلك الى المقارنة بين المجتمعات المختلفة خاصة وان هذه المجتمعات المتزامنة قد يمثل بعضها ، بالنظر الى اختلافها من حيث درجة التطور ، خصائص لا يمكن ملاحظتها في المجتمعات التي بلغت درجة أكبر من هذا التطور فان المقارنة هنا تساعدنا على أن نتبين المراحل المختلفة لتطور المجتمع الانساني . ان التطور الانساني واحد في مجله ويقانونه الذي يخضع له ، ولكن المجتمعات الانسانية المتواجدة ليست جميعها في نفس المرحلة من هذا التطور . لذلك نتيج لنا المقارنة بينها ان نتعرف في أدها من حيث التطور على مالا يمكن أن نلاحظه في أرقاها ، والنظرة الوضعية التي تقول بوحدة التطور هي التي تضمن التطبيق المغلاني للمنهج المقارن . ينبغي في الواقع ، في نظر كورت أن تجري المقارنات دائماً ضمن هذه النظرية الوضعية التي تقول بوحدة التطور ، والا فان هذه المقارنات قد تقود الى بعض الاستنتاجات الخاطئة التي قد تقتصر

في نظر أوغست كونت السبيل الأمثل لاستعادة النظام على الصعيد الأخلاقي ثم على الصعيد المجتمعي . وقد كان تصنيف العلوم عند كونت هو المظهر الذي تتجلى فيه إعادة النظر تلك .

ويمكن أن نؤكد أن تصنيف العلم الذي يقدمه كونت متقدم على عدد كبير من التصنيفات السابقة له ، من حيث أنه يقوم على مبادئ أكثر وضوحا . فالتصنيف كما رأينا ليس مجرد تعداد للعلوم القائمة في عصر كونت ، بل هو محاولة للنظر في معايير العلمية ومحاولة لترتيب العلوم تبعا لمبادئ معرفية من بينها الدور المعرفي الذي يكون لأي علم من العلوم ضمن النسق العام للمعارف . ان نتيجة هذه الاعتبارات ان تصنيف كونت للعلوم يبدو أكثر دقة من التصنيفات السابقة له لكونه لا يدمج جميع المعارف ضمن ترتيبه للعلوم . فليست كل معرفة قائمة علما في نظر كونت . ان أية معرفة لا تصبح علما أولا اذا كانت قد بلغت المرحلة الوضعية من تطورها ، أي حين تصبح قادرة على أن تنظر الى موضوعات دراستها وفقا للطريقة الوضعية . واذا ما نظرنا الى الزمن الذي انتج فيه أوغست كونت ترتيبه للعلوم ، فاننا نجد أن العلوم التي اتخذت لديه صفة النموذج بالنسبة للعلم الوضعي هي بالدرجة الأولى العلوم الرياضية ثم الفلك والفيزياء والكيمياء . هذا بينما كانت علوم الحياة لا زالت تخضع نحو الانصاف بالوضعية ، في حين أن من الضروري لأقامة علم وضعي بالمجتمع النظر في

أقرب نموذج علمي الى علم الاجتماع ، حيث ان الظواهر المجتمعية أكثر تعقدا من ظواهر الحياة فان تطبيق المنهج الرياضي في دراسة هذه الظواهر سيكون عمدا ، وقد كان كونت يرفض تطبيق الاحصاء في الدراسات الاجتماعية تطبيقا كاملا ، وهذا هو السبب الذي دفعه الى أن يستغني عن تسمية هذا العلم الجديد فيدعوه علم الاجتماع بدلا من الفيزياء الاجتماعية ، ان تطبيق النظرية الرياضية تطبيقا كاملا في دراسة الظواهر المجتمعية قد يعطي الوهم العلمي ، ولكنه ليس في نظر كونت كافيا بالنظر الى تعقد الظواهر التي يريد ان ينطبق عليها هذا التحليل .

وبالعرض الذي قدمناه عن علم الاجتماع نكون قد أتينا على جملة العلوم التي رتبها أوغست كونت ناظرين في تعريف كل واحد منها بموضوعه ومنهجه ، ومحددin لكل علم مكانته ضمن مجموع المعرفة الوضعية ودوره ضمن هذه المعرفة ، فنكون بذلك قد اكملنا نظرتنا عن تصنيف العلوم عند أوغست كونت ، اذ نظرنا مثل هذا في شروط اعتبار أية معرفة علما وضعيا ، وفي المبادئ التي اعتمدها أوغست كونت في ترتيبه للعلوم الوضعية .

خاتمة نقدية

لقد كان هدف فلسفة أوغست كونت هو إعادة النظر في نظام المعرفة باعتباره الوسيلة التي تعيد النظام على صعيد الفكر ، لأن ذلك يعتبر

المختلفة تمت في الواقع في نفس الوقت وفي تأثير متبادل ، بل ونرى بان تقدم العلوم والفنون يرتبط بعضه ببعض الآخر بفعل تأثيرات متبادلة لا عدا لها ، وأخيرا بان هذه العلوم قد تطورت في ارتباط ضيق مع التطور العام للمجتمع الانساني . ينتج اذن انه لا يمكن معرفة التاريخ الحقيقي لأي علم ، أي التكون الواقعي للاكتشافات التي يتألف منها ، إلا اذا درسنا بكيفية عامة ومباشرة تاريخ الانسانية . لذلك فان كل الوثائق المجمعة حتى الآن حول تاريخ الرياضيات والفلك والطب . . . الخ لا تعتبر مهما كانت إلا مواد للعمل (٣٠)

إن الإيجابي في تأكيد كونت هنا انه يربط فهم تاريخ العلوم بضرورة العودة الى تاريخ الفكر البشري بصفة عامة وإلى تاريخ تطور المجتمع الانساني بصفة أعم . إلا ان هذا التأكيد لا يبدو بالرغم من إيجابيته كافيا في الصورة التي يقدمها به كونت . ذلك لأن كونت يقدم تصورا مضبوذا عن علاقة تطور العلوم بالمجتمع ، ويكتفي بان يقيم تقابلا بين الحالات الثلاث التي تتعاقب في تطور الفكر البشري وبعض المراحل التي يعرفها تاريخ التطور الانساني ، ثم يقابل بعد ذلك بين تلك الحالات الثلاث وبين تطور الخاص لكل علم من العلوم .

ثم أن هذه الفكرة العامة التي يؤسس عليها كونت تصنيفه للعلوم والقائلة بأن الفكر البشري

الكيفية الخاصة التي يمكن أن تطبق بها الطريقة الوضعية في دراسة الظواهر المجتمعية . لذلك فان المنهج العلمي كما تطور في العلوم الرياضية وفي العلوم الطبيعية هو الذي أصبح لدى كونت معيارا للوضعية . ينتج عن ذلك ان كثيرا من المصارف التي كانت تصنف ضمن العلوم في التصنيفات السابقة . لا تندرج ضمن تصنيفات كونت . ان التصنيف الكونتي لا يشمل كما رأينا العلوم الوضعية النظرية والمجردة ، ولا يصنف المعارف اللاهوتية والعلمية والتطبيقية ، إلا أن أثبت هذا التقدم لتصنيف العلوم عند كونت لم ينف عنه قيام عدد من الاعتراضات التي تنافسه في مبادئه . من أهم هذه الاعتراضات ما يلي :

أ - يربط أوجيست كونت بين تصنيفه للعلوم وبين بلوغ العلوم المصنفة المرحلة الوضعية ، وهذا من خلال القول بقانون عام لتطور الفكر البشري وهو قانون مروره على التعاقب بحالات ثلاث في تطوره تبدأ بالمرحلة اللاهوتية وتنتهي بالمرحلة الوضعية مرورا بالمرحلة الميتافيزيقية . هناك أمر إيجابي في هذا الارتباط هو ان كونت لا ينظر الى تاريخ الفكر العلمي نظرة مجردة ويربطه بالتاريخ العام للبشرية . يقول كونت بهذا الصدد :

(أننا باعتبار التطور الفعلي للفكر الانساني في مجموعته ، سنلاحظ بصفة أقوى ان العلوم

(٣٠) إعلان هذا النص من خطرات لأوجيست كونت ، الطبع الجامعية الفرنسية ص ٤٠ .

من حيث العلوم الانسانية التي لم يذكرها
كت ، يقتضي الامر النظر في حالة كل واحد
منها على حدة .

لنأخذ أولا حالة علم النفس ، ان كونت
لا يذكر هذا العلم ضمن العلوم التي يرتبها ولكن
ذلك لم يكن اغفالا منه ، بل اعتبارا منه الى ان
علم النفس كما كان قائما في زمنه لا يمكن ان
يكون علما وضعيا من جهة أولى ، ثم ان
الموضوعات التي يريد هذا العلم دراستها
لا تتطلب قيام علم خاص بها ، لأن علم
الاجتماع يمكن ان يشمل دراستها .

فمن حيث الموضوع لا يعمل كونت الظواهر
النفسية لكونها ظواهر واقعية ، ولكنه لا يرى
قيها موضوعا يمكن أن نرجع دراسته الى علم
خاص ترتبه ضمن قائمة العلوم الوضعية ، فاذا
كان هذا العلم يريد أن يدرس الشروط العضوية
التي تتوقف عليها الظواهر النفسية والعقلية فان
هذا يكون من اختصاص الفيزيولوجيا . أما اذا
كان يريد أن يدرس نتائج الفعاليات العقلية فان
هذا الأمر من اختصاص علم الاجتماع .
وبذلك يفقد علم النفس مبرر وجوده من حيث
الموضوع ، لأن هذا الموضوع يتقاسمه علمان
هما الفيزيولوجيا من جهة ، وعلم الاجتماع من
جهة أخرى .

أما من حيث المنهج ؛ فان دراسة المعضايا
التي يريد البعض أرجاعها الى علم النفس كانت
لا تزال في نظر كونت عملا لصراع بين الطريقة
اللاهوتية التي تجعل هذا العلم علما بالنفس ،

بمر ضرورة وعلى التعاقب بالخالالات اللاهوتية
والميتافيزيقية ليصل في نهاية تطوره الى المرحلة
العلمية ليست الا فكرة عامة من جهة أولى قد
لا تعكس حقيقة التطور الفعلي للفكر البشري كما
ان الفكرة من جهة ثانية ، فكرة تطويرية ترى ان
تطور الفكر البشري يسير في خط استمرار متطور
وتفهم ضمن ذلك التطور الخاص بالمعرفة
البشرية .

واذا انتقلنا الآن الى تصنيف العلوم ذاته ،
وجدنا أن من بين اهم الانتقادات التي تؤخذ
عليه انه لا يذكر جملة من العلوم منها أولا بعض
العلوم التقنية ، ثم منها ثانيا بعض العلوم
النظرية الممتلئة بصفة خاصة في بعض العلوم
الانسانية كعلم النفس والتاريخ واللسانيات ،
فاوغست كونت يوحد العلوم الانسانية جميعها في
علم واحد هو علم الاجتماع .

فيما يخص العلوم الاولى ، أي العلوم
التقنية ، نظن ان موقف اوجيست كونت اقوى
من منطق الاعتراض عليه . وذلك لان كونت
لا ينكر وجود مثل هذه العلوم . ولكنه يرى فقط
انها لا يمكن ان تصنف ضمن العلوم النظرية
الاساسية . والواقع أن جميع تصنيفات العلوم
التي حاولت بعد كونت ادماج العلوم التقنية لم
تختلف كثيرا عن تصنيف كونت ، اذا انها ادجت
العلوم التقنية بوصفها ملحقة بعلوم نظرية
اساسية وحفظت في الغالب من حيث هذه
العلوم الاساسية على نفس العلوم التي ذكرها
كونت فهي تصنيفه .

بين المعارف المختلفة ، حيث كان فكر واحد يشغل بكل المعارف التي تسود زمنه . ولكن نمو المعارف في الميادين المختلفة قد أدى بالتدرج الى استحالة استمرار حالة الخلط السابقة وإلى ضرورة التقسيم المنظم لمجموع معارفنا . وهكذا فإن كل فرع من فروع المعرفة قد أصبح علما مستقلا عندما وصل به غوه وتراكم المعارف به الى أن يكون قادرا على أن يشغل وحده فكر مجموعة من الباحثين . اذا كان هذا هو الدافع الذي دفع الى تقسيم المعارف فأننا يمكن أن نطرح التساؤل حول وحدة علوم الانسان في علم الاجتماع : ألا تكون تلك الوحدة مجرد خلط ضروري ينبغي تجاوزه ؟ الواقع هو ان العلوم الانسانية قد عرفت بعد كونت تطورا ملحوظا ، حيث تقلعت الدراسات الانسانية في الجوانب المختلفة التي تتعلق بها تلك العلوم الى الحد الذي أصبح معه كل فرع من فروعها قادرا على أن يكون علما خاصا مستقلا بذاته من حيث أن نمو المعارف به قد جعله ميدانا قادرا على أن يشغل وحده فكر مجموعة من الباحثين .

بالإضافة الى هذه العلوم الانسانية فإن هنالك علما آخر يوجه الى كونت انتقاد اغفاله ضمن قائمة علومه الوضعية وهو علم المنطق . لذلك فأننا نجد أن بياجيه يدمج هذا العلم ضمن العلوم التي يصنفها ، ولكنه يدمجه ضمن مجموعة العلوم التي يدعوها بالعلوم المنطقية الرياضية .

يوجه الى تصنيف أوجيست كونت للعلوم

وهذا مستحيل اذا أريد لهذا العلم أن يكون علما وضعيا ، وبين الطريقة الميتافيزيقية التي قد تجاوز الأولى ولكن دون أن تصل الى الاتصاف بالصفة الوضعية بالنظر الى أنها تريد أن تعتمد التأمل الباطن لمعرفة الظواهر النفسية . والواقع أنه لا يمكن اعتماد المنهج الباطني في علم النفس لما في ذلك من تناقض من حيث إن الذات الواحدة لا يمكن أن تكون في الوقت ذاته ذاتا ملاحظة وأخرى هي موضوع للملاحظة .

وهكذا يتمتع ادراج علم النفس ضمن العلوم الوضعية سواء من حيث موضوعه أو من حيث منهجه ، فكونت اذن يبعد علم النفس من عداد العلوم الوضعية ولا يفعل اغفال الوقائع التي يدرسها هذا العلم ولا يفعل عدم ادراك أهمية المحاولات التي كانت قائمة في زمنه لتأسيس علم النفس ، ولكن لأنه لم يكن يجد في هذه المحاولات الشروط التي تجعلها معرفة وضعية . أما التاريخ والاقتصاد واللسانيات فإن

جواب كونت المبدئي بالنسبة إليها هو أن الظواهر التي تدرسها هذه العلوم هي ظواهر مجتمعية من اختصاص علم الاجتماع . لذلك فإن ما يجب مناقشته لدى كونت ليس هو عدم ذكره لهذه العلوم بل هو الوحدة التي يفرضها على العلوم الانسانية ضمن علم واحد هو علم الاجتماع . ويمكن في نظرا مناقشة كونت وفقا للشروط التي تدفع في نظره الى التقسيم المنظم للمعارف الانسانية . فكونت يرى أن المعرفة الانسانية قد كانت تعرف حالة خلط ضروري

يعرب عنها في إحدى مراسلاته مع ماركس سنة ١٨٧٣ . يعبر انجلز عن أفكاره الجدليلة بصدد العلوم الطبيعية كالآتي : ان موضوع العلوم الطبيعية هو المادة في حركتها أي الأجسام . فالأجسام لا يمكن فصلها عن الحركة ، لأن صورها وأنواعها لا يمكن أن تعرف الا بفضل الأجسام الحرة ، فليس هناك ما يمكن قوله بصدد الأجسام خارج اعتبارها انطلاقاً من الحركة ومن علاقاتها بالأجسام الأخرى . ولذلك فان الموضوع الرئيسي للعلوم الطبيعية هو بالتالي الأشكال المختلفة للحركة . ويتبع عن ذلك ان العلوم الطبيعية تنقسم تبعاً للأشكال المختلفة للحركة . وهناك في نظر انجلز أشكال أربعة للحركة . فأبسط الحركات التي هي تغيير المكان حركة ميكانيكية والعلم الذي يدرس هذا الشكل من أشكال الحركة هو الميكانيكا . ولكن هذا الشكل البسيط للحركة ينتج عنه في درجة معينة من كفافته وفي شروط معينة أشكال أخرى . من الحركة متميزة عن الحركة الميكانيكية : الحرارة ، الكهرباء ، الضوء ، الجاذبية المغناطيسية وهذه الأنواع من الحركة هي التي يختص علم ثان بدراساتها هو العلم الفيزيائي ، والفيزياء عند دراستها لكل نوع من أنواع الحركة المذكورة تصل الى أن بعضها يتحول الى البعض الآخر ، وإلى أنه ينتج عنها أنواع أخرى من الآثار تتجاوز العلم

انتقاد آخر . وهو أن هذا التصنيف لا يعكس حقيقة العلاقات بين العلوم . فأولست كونت يأخذ في نظر كدروف بتصنيف استاتيكي . فالعلوم توضع في تصنيف كونت وكان كلا منها يمثل حقيقة ثابتة لا تتطور . إذن العلوم توضع ضمن ذلك التصنيف في صورة تقابل خارجي بينها ، دون النظر الى العلاقات المتبادلة التي تجعل البعض منها يتطور انطلاقاً من البعض الآخر ، وخاصة انطلاقاً من العلوم الأكثر بساطة الى العلوم الأكثر تعقيداً . ان ما كان يتم كونت بالأساس هو البحث في تناسق العلوم لا البحث في تبعية البعض منها للبعض الآخر بصورة متبادلة . ويفسر كدروف هذا النقص في تصنيف كونت للعلوم بكونه راجعاً الى نظرة كونت الى الطبيعة التي كانت نظرة ميتافيزيقية لا نظرة جدلية ، وهو أمر يرجعه كدروف لا الى كونت وحده ، بل الى النظرة التي كانت سائدة عن ظواهر الطبيعة والتي تعكس بدورها مستوى تطور علوم الطبيعة . فالواقع انه اذا كان ينظر الى موضوعات الطبيعة باعتبارها موضوعات ساكنة خاضعة لقوانين ثابتة ولا تعرف الانتقال من الواحد منها الى الآخر . فان انعكاساتها (أي العلوم التي تدرسها) ينبغي أن تعتبر بالضرورة متقابلة وليس ناجماً بعضها عن البعض الآخر .^(٣١)

ويستلهم كدروف هنا وجهة نظر انجلز التي

(٣١) راجع كتاب Kedrov السلف الذكر في هذه المصنف لدراسة أوجيست كونت .

وذلك دون أن يقدم لنا كونت أي تصور عن علاقات متبادلة بين العلوم ، وعلى العكس من ذلك فإن بياجيه يشيد بتصنيف « كدروف » باعتباره أقرب التصنيفات في نظره الى العلاقة الواقعية القائمة بين مختلف العلوم التي يمكن تصنيفها . لذلك يقدم بياجيه ضداً على تصنيف كونت للعلوم تصنيفاً يشمل أربعة مجموعات من العلوم هي :

١ - العلوم المنطقية الرياضية .

٢ - العلوم الفيزيائية .

٣ - العلوم البيولوجية .

٤ - العلوم الإنسانية السوسولوجية (بما في ذلك اللسانيات والاقتصاد) على أن هذه العلوم لا ترتب بصورة خطية تجعل العلاقة قائمة فيها بين كل مجموعة والتي تسبقها في الترتيب ، بل تنظم بصورة تجعل العلاقات بينها متبادلة من جهة أولى ، كما ان العلاقات يمكن أن تقوم فيها ، مثلاً بين علوم المجموعة الأولى والمجموعة الأخيرة ، انطلاقاً من أية واحدة منهما . فالعلوم النفسية - السوسولوجية لا تستفيد من العلوم الرياضية فحسب ، بل إنها هي ذاتها يمكن أن تفيد هذه العلوم . يميز بياجيه بصدد كل العلوم بين أربعة ميادين هي : الميدان المادي الذي هو مجموع الموضوعات التي تتناولها العلم ، والميدان المفهومي ، وهو مجموعة المفاهيم ، والاستمولوجيا الداخلية أي الخاصة

الفيزيائي لأنها تغيرات في البنية الداخلية للأجسام ، أي آثار كيميائية هي التي يدرسها علم ثالث هو الكيمياء . وهناك أخيراً حركة أعقد من هذا النوع الأخير هي المتعلقة بالمضروبة الحية وهي التي يدرسها علم الحياة . (٣٢) .

وهكذا نرى ان العلوم الطبيعية أربعة لأنها توافق المستويات الأربعة لحركة المادة والمتدرجة من نوعها الأيسر الى نوعها الأعقد . ولكن انجلز يؤكد ان هذه الأنواع من الحركة يتبقى بعضها عن البعض الآخر . وبالتالي ، فإن العلوم التي تدرسها يتطور بعضها انطلاقاً من البعض الآخر . ان هذا الأمر يخالف ملحد أوجسيت كونت في تصنيف العلوم ، من حيث أنه لا يضعها متقابلة بل مترابطة بعضها ببعض الآخر . ولكن هذا الارتباط يتجاوز ما يقف عنده كونت من البحث في التناسق بين العلوم لا يعمل ، بدلا من ذلك على ارجاع أي من هذه العلوم الى الآخر .

يلاحظ بياجيه على تصنيف كونت عدة ملاحظات . فهو يأخذ عليه عدم ذكره لبعض العلوم ويخص منها بالذكر علم النفس والمنطق . كما أنه يأخذ على تصنيف كونت للعلوم أنه يسير في تصوره لعلاقات العلوم بعضها البعض الآخر في اتجاه خط مستقيم ، بحيث ان العلاقات بين العلوم تكون بين كل علم ولاحقه في الترتيب ،

(٣٢) راجع مراسلات البجلز وماركس ، مطبع تقدم موسكو (بالغة الفرنسية) ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

المفكرين إلى تقديم تصنيفات أخرى ، تقوم على مبادئ مغايرة في ترتيب علومها وفي النظر إلى العلاقات التي تربطها . ومن الواضح أن تجاوز تصنيف كونت يعتبر أمراً طبعياً بالقياس إلى أن اللحظة المعرفية التي أنجز فيها كونت هذا التصنيف قد تجاوزت . ولذلك نجد أن يبايحه يضيف إلى تصنيفه عدداً من العلوم التي لم يذكرها كونت كالمناطق المرتبط لديه بالرياضية ، وكالعلوم النفسية والاقتصادية واللسانية . (٣٣) .

بكل علم ، والابستمولوجيا العامة . ومن الواضح أن الميدان الأول والرابع هما اللذان يتضمنان العلاقات بين العلوم ، ومن هذه الناحية يمكن أن نربط العلوم الرياضية المنطقية بالعلوم النفسانية - الموسيولوجية . وذلك لأنه يمكن ربط البنيات المنطقية الرياضية باللغة ، وهكذا إذن نفهم العلاقات بين العلوم بصورة دينامية لا بصورة استاتيكية .

تلك أهم الانتقادات التي وجهت إلى تصنيف كونت للعلوم والتي أدت بعدد من



(٣٣) راجع ما كتبه يبايحه بهذا الصدد في الفصل الذي خصمه لتصنيف العلوم من المؤلف الذي أشراف على تهيئته .

علوم

الطاقة كلمة متسمة المعنى متشعبة المفاهيم تدل على عدة مدلولات وتحوي أكثر من مغزى ، ويندرج تحتها وبين جنباتها عدد كبير من حقائق العلم وصور متعددة من واقع فعلي مستبان أشبه وفعله ، لكن الفاعل ما انفك مجهول الموية ... ورغم هذا الاختلاف أصبحت في أيامنا كلمة شائعة الاستخدام والتناول ، نقرأها كثيرا كل صباح وساء ، ونسمع صداها يتردد يوميا سيان على قارعة الطريق أو بين قاعات الدارسين ، وتتلقاها مسامعنا من صوت مذبذب منطلق أو تليفزيون مغني ولا تكاد ساعة تقرأ أو ييم ينفضي الا وتشغل عقول الناس بين الأمل والرجاء والخوف والقلق . والكلمة - الطاقة - رغم انتشارها فهي إعلام بشيء مبهم وتغيير عن حالة أو صورة ذهنية أو دلالة ... تتعامل معها ولا تمسك بها ، وتترك فعلها ولا تتركها ، تستثيرها في أشكال متعددة ، ولا تلقاها وجهها لوجه ، نحس بها في تنفس كائن حي ، أو نمو نبات أو هبات الرياح وفي دفء الشمس وبرودة الثلج ، أو هدبر الله ، لكننا غير قادرين على رؤيتها رأي العين ، فهي مدلول غيبي ولن تكون مدلولاً ييقن ، فالإنسان يستطيع وصف كتاب أو ثمرة أو جريمة أو زهرة أو ما شابه من المواد ذات الكيان والوجود ، وأشغال الفراغ ، لكنه يعجز عن وصف الطاقة وتحديد كنهها ، ولو وضع مصداقاً بين يديه وحاول ترجمة خياله عنه فلن يكتب الا عن المادة المائنة أمام نظريته ، أما الطاقة الداخلية فهي لا يلمس ولا يدرك ، لكنه رجح الصلى لفعل نحدثه في المادة ، فإذا بالطاقة تبرز من غيباتها بين الجزئيات والذرات وتتلقى رد الفعل في الحركة والحل والترحال والقمو ... الخ .

الكيمياء ومشكلة الطاقة المكلمة

محمد نهان سويلم

استاذ - متدرب - الدكتوراه الكيمياء بالكلية الفنية العسكرية - القاهرة

المكابس فتندفع القاطرة الى الامام ، وتدير السجلات التي تحرك بدورها مولدات كهربية تمد العربات بالتدفق والتكيف وتحت فيها النور والضياء والباقي منها يرتد الى البطاريات حيث تتحول الى طاقة كيميائية ، فلذا توقف القطار انقلبت الآلة وانصكست التفاعلات داخل البطاريات وأخذت على عاتقها مهمة توفير الضوء والحرارة للركاب . أما الطاقة الميكانيكية في القاطرة فزودتها بها غازات الاحتراق التي تصدر بدورها عن الطاقة الكيميائية للوقود البترولي المستخدم ، وما المقطر البترولي الا قطعة من البترول الخام الذي هو بدوره عبارة عن تحلل الخلايا الحية في نباتات وحيرانات عاشت قبل ملايين السنين واستمدت غذائنها من ضياء الشمس .

ويثبت المثال الذي أشرنا اليه أن كل الطاقات المتاحة يمكن تحويلها من صورة الى صورة فهي لا تفنى ولا تتبدل بل تتحول وتتبدل ، لكن ليس من السهل علميا إجراء التبديل والتحويل وفق الأهواء والرغبات فلكل أمر حدود وضوابط ، فهناك كما في دنيا الناس ضرائب ومكوس يجب أن تودي حين يسم الكسب ، وتحويل الطاقة لا يبدد عن ذلك ، بيد أن الجزية هنا قد تكون حرارة أو احتكاكاً ، فالطاقة الحرارية يسهل تحويلها الى طاقة ميكانيكية ، بينما يصعب إجراء العكس الا بكفاءة ضحلة ، والطاقة الميكانيكية يمكن تحويلها بسهولة الى طاقة كهربية ، وعلى الثقيل تفقد الطاقة الكهربية جزءا وقدرا وكما لا يستهان به اذا انقلبت وحولت الى حرارة . وكان لالمر مسارا منتظما خطا مربوطينا ومنهجا معلوما يبدأ أولا من الطاقة الحرارية ثم الطاقات والمنبع الاسامي

والطاقة وفق المفهوم الحسابي تحت راية علم الرياضيات تعني القدرة على بذل شغل ، فيقال مثلا الانسان البالغ قادر على حمل ثقل وزنه خمسون كيلوجراما ورفع من مستوى سطح الارض - ضد الجاذبية الارضية - الى مستوى كتفيه أو وضعه على رأسه ، ورفع الثقل مئاة أنه بذل عملا خلال مسافة تقسم بالسنتيمترات او الأمتار وحركته هذه اكسبت الثقل طاقة وضع او طاقة امكانية او طاقة ارتفاع نتيجة رفعه عن سطح الارض .

وان شاء الانسان استصافه هذه الطاقة او تسخيرها في عمل مفيد لا عليه الا ترك الثقل يتوى من عليائه فوق قطعة من السكر فيهبشها او يلق به عنق مسار أو يحطم به قطعة خشب وان شاء وكرر تجربة العالم الانجليزي جول فانه قادر على تقدير المكافئ الميكانيكي للطاقة التي بذلها .

ولو تأملنا المثال السابق لوجدنا أمرا يستحق وقفة قد ندركه منها شيئا ناهضا أو تأتي منها بقيس علمي يضيء الطريق ، فلان لم نتوصل الى شيء فحسبنا الأمر ان طاقة عضلات الانسان تحولت فلم اعيننا الى طاقة وضع ، اذ جاء في النهاية تأتي على صورة طاقة ميكانيكية ، وكلها صور من ابداعات تأتي جنبا الى جنب مع الطاقة الكهربية والطاقة الكيميائية والطاقة النووية وطاقة الرياح وطاقة للد والجزر والطاقة الحرارية وجميعها من أصل واحد تشترك وتتأزر في تحقيق الشغل النافع ، او تشترك أزواجا او جماعة في عمل محدد ، فنحن نرى زيرة من صور الطاقة ينتظم عقدها في القاطرة الحرارية ، فالطاقة الميكانيكية المستفاد من الماكينة العملاقة تحرك

عصر العلم حتى تبدل الحال غير الحال ولم تمتد تمتل الطاقة المضالية أكثر من ٥% من جملة الطاقة المستخدمة على امتداد عالم اليوم .

١ - كيميائيا .. ما هي الطاقة الحرارية ؟

النار أو الاحتراق أو الطاقة الحرارية منذ ذلك الجلد القديم وإلى أن تقيم الساعة عبارة عن تفاعل كيميائي حاد بين المادة المحترقة واكسوجين الهواء الجوي . ويسمي الكيميائي هذه العملية أكسدة ، وينتج عن الأكسدة طاقة كبيرة للدرجة ينتج عنها نار ، وهذا هو الاسم الذي يطلق على الحرارة والضوء للمنطلقين بنزارة ائتمله هذا التفاعل الكيميائي ، ولا تتكون النيران ائتمله عملية الأكسدة الا في الحالات التي يكون فيها التفاعل شديدا للغاية . ومثال ذلك احتراق شمعة مصنوعة من الشمع فانها تعطي لهيبا ، في حين أن تأكسد نفس الشمع في جسم الحيوان يولد حرارة غير مصحوبة بلهب ، لان هذه العملية تتم تحت ظروف دقيقة للغاية ... لكن الأجد من ذلك ان نفس كمية الشمع ينشأ عنها ذات كمية الطاقة سيان احتترقت بسرعة كما في حالة الشمعة او ببساطة كما يحدث في أنسجة الجسم ، فالخلايا ليس في كمية الطاقة المنبثقة فهي واحدة في الحالتين لكنه في سرعة انطلاق الطاقة .

من ذلك يتضح انه لا بد من توافق بضع مواد كي يحصل التفاعل على الطاقة الحرارية .

١ - ١ (الوقود :

وهو في مجمله عبارة عن مواد عضوية تتركب كيميائيا من ذرات متآلفة من عنصرى الكربون

والعربي لكل صورها ، فهي المنشأ والاساس والقاعدة الراسخة للحصول على صور الطاقة المتعددة ، ويصدق قول بعض العلماء لولا النار والحرارة لظل الانسان أسير الغابة لا يبرحها ، ولا نيا بها ، على أرضها يعيش وبين ثراها يدفن لا فرق بينه وبين أسد أو غيل ، وما قامت على الأرض حضارة تذكر او كان لها تاريخ يستمد ، لن اكتشاف الانسان للطاقة الحرارية او بالمعنى الدارج التارفتش للبشرية بلب الارتقاء والرفعة ونقلها من مرتبة الوجود الحيواني الى رحلة التطور الحضاري ، وكانت بمثابة الخطوة الاولى على طريق الانطلاق أو إشارة بدء الرحلة الحضارية ... حقيقة عرف الانسان الأول النار منذ قرابة ٢٥٠,٠٠٠ سنة خلال الحقبة الجيولوجية المعروفة بالهرس البليوسيني التي عاش خلالها إنسان بكين الذي استمر الاستقرار والاقامة فوق أرض عاصمة الصين الحالية ، وكشفت البعثات كهفه الذي ارتضاه منزلا ومعاشا وعثر فيه على كمية من رساد الخشب تجاور بعض القلور والأواني الفخارية .

المهم لا يعني في مقامنا هذا ان ٢٥٠,٠٠٠ سنة فهذا تاريخ له عظيم وريدو إنما هيئنا بالدرجة الاولى الإشارة الى ان التغيير الحقيقي والارتقاء الحضاري الفعلي بدأ مع مشارف وإشراقات الثورة الصناعية ، فزعم معرفة الانسان بالنار من أكثر من ألفين وخمس مائة قرن فقد ظلت الطاقة المضالية للانسان والحيوان تمثل ٩٥% من جملة الطاقات المستخدمة في العالم الى عام ١٨٣٠ ميلادية ، ويم جادت بعض الفرائع بزيادة علمي يسير اذا بالطاقة المضالية تدنو الى ٩٠% علم ١٨٥٠ ، وما أن أشرق

والاختصة بحكمة الخالق جل وعلا يجعله الهول ثروة مشاعا تتلها كل الاحياء متى تشاء دون تمييز بين جنس وبنس ولم يعط السيطرة على مقدراته لإنس أو جان .

والاكسوجين والوقود منفردان لا يعملان تاراً ولا يبعثان طاقة ، فقطعة الخشب الملقاة على رمال الصحراء تظل على حالها أبد الدهر رغم تلامسها المباشر مع الاكسوجين ما اضلك بائىء الاشتعال غائياً ، لكن متى قرب منها شرر صغير تشتط الجزئيات والنرات من غيظها وتزداد حركتها الاهتزازية والانتقالية والدورانية وتكتسب مزيداً من حرية الحركة وتستعد داخلياً للقاء الاكسوجين بسهولة ويسر ، وتولد غازات الاحتراق وتعرض الطاقة الحرارية المحددة في عرف الكيمياء بأنها فرق الطاقة الداخلية للجزئيات المتفاعلة والداخلية في أتون الاشتعال وبين الطاقة الداخلية لبقايا الاحتراق صلبة كانت أو سائلة أو غازات ... ويصدق قول القائل معظم النار من مستصغر الشرر .

٢ - وحلت النفرة محل الوفرة

إن ثلاثية انتاج الطاقة الحرارية رغم أهمية جميع مكوناتها وعناصرها لم تتر في العالم قدراً متوازياً من الفلق ، فالاكسوجين والهول الجوي بلا قيود أو حدود ، وبائىء الاشتعال رغم أهميته القصوى شيئاً يسير لا يكلف جهداً ولا يتشدد عقلاً أو فكراً ، وإنما شغلت العقول بالمتصر الزائل المتقلص دواماً . فالانسان

والايدروجين بدما بالشعب وضاية بالزيت الحام أو الفحم ، لا فرق بين هذا وذاك الا بكمية خرات كل عنصر ونسبتها الى بعضها البعض ولذلك تتباين وتختلف كمية الطاقة المنبعثة ، وقد يجتري الوقود على شوائب من عناصر الكبريت أو الفوسفور أو النيتروجين أو الاكسوجين ، ولكن متى احترق الوقود والتهب أواره تصاعدت غازات أهمها ثاني اكسيد الكربون وبخار ماء وقدر يسير من ثاني اكسيد الكبريت وبعض أكاسيد الأوزون .

١ - ٢ - الاكسوجين :

لا يتم الاحتراق دون الاكسوجين (١) ولو مرنا على نهج الرعي الاول من الكيمياء لأطلقنا عليه ذات تسمية لا فوازيه الذي دعه غذاء النار ، لانه لو أخذنا الفحم أو البترول الى القمر لأصبعا عذبي الفائدة والقيمة نظراً لخلو جو القمر من الاكسوجين ، وكذلك فإن وليمة فاخرة بدون اكسوجين لا تسمن ولا تقني من جوع ، والاكسوجين غاز يمل ميلاً عظيماً للاتحاد بالايدروجين مكوناً اكسيدياً ثابتاً جسيماً وب العزة اساس كل شيء ، كما أن الاكسوجين يميل للاتحاد بالكربون مكوناً اكسيدياً ثابتاً هو ثاني اكسيد الكربون ، وتختلف كمية الهول اللازم لحرق وقود عن آخر . فحرق الخشب يحتاج حوالي ٧٣,٤ قدم مكعب ، ونحتاج نفس الكمية من الفحم ما مقداره ١٤٥ قدم مكعب ، ولنا خيالنا في تقدير حجم الهول اللازم لانتاج الطاقة الحرارية في العالم ، ولندفئ تنبهر المقول

(١) الاكسوجين غاز عديم اللون والطعم ودرجة غليانه - ١٨٢ درجة مئوية ويكزن الوزن $\frac{1}{8}$ لله وحوالي $\frac{1}{4}$ للغراء . ويرجع الفضل في اكتشافه الى الكيميائي الفرنسي لافوازييه عام ١٧٧٧ .

وتكثف عمليات النقل .. كلها سببت ضغطاً على موارد الطاقة .

- استحداث الدول الصناعية تكنولوجيا متطورة شبه آلية تستهلك قدرات متناظرة من الطاقة .

- تمسك شعوب الدول المتقدمة ودول الاقتصاد الحر بمستوى رفاهية مرتفع لا تقبل السيطرة عليه أو الإقلال منه ، ويكفي ما ذكره الاستاذ احمد بهاء الدين رئيس تحرير مجلة العربي في احدي مقالاته - ان ٦٨٪ من جملة موارد العالم يستهلكها ترفا ٣٢٪ من سكان الارض .

وحلت أزمة الطاقة :

ان قيام الحضارة الحديثة في جميع جوانبها (صناعة - نقل - انتاج زراعي - ادارة حياة الافراد - الانتاج المنزلي ...) على محور الزيت كان سلاحا ذا حدين ، حد يكمن فيه رخاء العالم ورفاهيته ، فسهولة تخزينه ونقله وتوزيعه ومنح مقدراته طاقة حرارية تناسب كل أغراض الاستهلاك جعل الضغط يشتد في طلبه ، بيد أن هذا تم على حساب النفط العربي في أغلب الاحيان ، ومع تصاعد الطلب على الزيت ظهر اتجاه الدول الصناعية المنتجة للنفط في تقليل انتاجها المحلي من الزيت وتعويض الخفض بالاعتماد على وارداتها من النفط العربي والذي تحول فجأة وأصبح يمثل ٦٦٪ أو أكثر من جملة انتاج الدول المصدرة للبترو ، ولم يقابل بخفض أسعار المنتجات الصناعية ، إنما تعالت الدول الصناعية وتطرفت في رفع الأسعار .. وبدأت أزمة حادة في الطاقة قرب نهاية عام ١٩٧٣ .. واغتطت السياسة بالاقتصاد بالعلم ،

الاول - بالمهندس - بدأ في استخدام الحطب الجفاف لأنه الأسرع اشتعالا رغم طاقته الواهية ، بعدها استخدم أغصان الشجر والحطب ، وبعث عرف الاستقرار والتحضر وسكنى المنازل واقامة مجتمعات التوطن الدائم حول مجاري الماء وعيّن الآبار نهض الى مخلفات الحقل ، ثم تطرق الى استهلاك الحطب مع بدء معرفته الصناعة البدائية واستخلاص المعادن ، ثم انكب على الفحم مع الثورة الصناعية وبدء عصر الصناعات الثقيلة ، حتى اكتشف الزيت الحام وعرف مزاياه الرائعة واستخلص من مكوناته مقدرات عديدة متنوعة ، فأثى اليه في أشجع صورة حرق جرت في التاريخ حيال خامسة حفرية غير متجددة زائلة ذاهبة الى فناء ، وترك الفحم حيث وجد ، وغير الانسان نظمته الصناعية وانطلق لا يلوي على شيء ، فترادى الاستهلاك العالمي من الزيت ٥,٣٪ سنويا منذ الحرب العالمية الثانية وينتظر أن يتعدى خمسة أضعاف المعدل الحالي عام ٢٠٠٠ لأسباب أهمها :

- تزايد عدد السكان بصورة حادة ، فبينما يزيد سكان العالم وفق متواليات هندسية اساسها ^(٢) حسب التردد ٤,٢,٣٢,١٦,٨,٤,٢ .. مما يزيد الطلب على مصادر الطاقة عامة والبترو خاصة . بينا مصادر الطاقة لا تزيد الا وفق متواليات عديدة اساسها $\frac{1}{2}$ بالتردد $\frac{1}{2}$ ، $\frac{1}{4}$ ، $\frac{1}{8}$... الخ

- استغلال غالبية الدول الثامية وانطلاقها نحو خطط تصنيع طموحة وانتشار الميكنة الزراعية ولارتفاع مستوى دخل الافراد وتغير النمط الاستهلاكي وتكالب الناس على شراء مستحدثات الحضارة

خاليا من مضمونه ، فالبديل يعني التغيير وما يستتبعه من قلب أوضاع الانتاج والنقل والحركة رأسا على عقب بما يتناسب الزايف الجديد ، وما دام البديل لازلا جنيئا في أحشاء القيب لم يولد بعد ، فمن الأفضل والأوفق إستخدام مفهوم مكملات الطاقة فلا غنى عن الزيت لأمد طويل .

وأيا كان المسمى أو المصطلح الذي يوافق هوى العالم ، سيان استخدم مصطلح الطاقات الجديدة أو الطاقة البديلة أو مكملات الطاقة ، فهي في مجملها لا تفرج عن واحدة أو أكثر أو كل هذه المصادر وفق تصنيف موضوعي وليس حسب حجم البحوث الجارية ، في محاولة للرد على السؤال هل يستطيع العلم كسب جولة الطاقة ؟

- اسالة الفحم الى مقطرات بترولية وغاز .
- البحث عن مكانم الغاز الطبيعي .
- اعادة استغلال الآبار البترولية بدرجة أكبر وبكفاءة أعلى مع التركيز على تطوير طرق استخلاص النفط من الرمال البترولية .
- استغلال الحرارة الجوفية المنبعثة من باطن الارض .
- التوسع في استخدام طاقتي الانشطار والاندماج النووي .
- التركيز على الايدروجين كوقود للمستقبل .
- اكتساب الحرارة الصادرة من الشمس .
- تحويل الطاقة الضوئية الشمسية الى كهرباء .
- تحويل طاقة الامواج والمد والجزر الى طاقة ميكانيكية .

ورفعت الدول المتقدمة اعلام الدعوة الى حتمية إيجاد طريق بديل للطاقة يبعد عن البترول ، وما من حاكم تولى سدة الحكم ومقاليذ الامر في الدول الصناعية المتقدمة منذ عام ١٩٧٣ الى يومنا هذا الا وطرح حل أزمة الطاقة كاحدى أوراق اعجابه الى شعبه ودرجة سلم يتسلقها الى مقاليذ السلطة وتولي زمام الأمور . والأمثلة عديدة ومتنوعة وتأخذ مثالا واحدا من رد فعل الازمة المستمر ، ونجد من أشهر خطب الرئيس الامريكي كارتر ما أعلنه يوم اول يوليو ١٩٧٩ من ضرورة عدم استيراد امريكا اكثر من ٩ مليون برميل يوميا ويتحتم على الشعب الامريكي كبح جماح استهلاك النفط لعدة اعتبارات سياسية واقتصادية وعسكرية ، وحذرانه لو سلوت معدلات الاستهلاك على النحو القائم فان الحكومة سوف تكون مطالبة في غضون علم ٢٠٠٠ باستيراد اكثر من ٣٠ مليون برميل يوميا ، ودعا الى إيجاد حلول علمية جفيرة تبعد عن استخدام النفط .

٣ - مكملات الطاقة

والدعوة الى نبذ النفط والاستغناء عنه قدر المتاح ليست جديدة كما يتصور البعض ، بل لقد نشطت قبل عام ١٩٧٣ وبدأت حمى البحث العلمي مع بداية ١٩٧٤ ضمن حملة أطلق عليها بدائل البترول . ورغبا عن المسيمات ويريقها ونبرة التفاؤل العالية بين ثمايا الاسماء الا ان الواقع الحالي والمستقبل القريب يشيران بأنه لا فكاك من الازمة الراهنة الا بمنح المصادر المتاحة عمرا أطول ولحد من استهلاك الزيت استهلاكا ترفيا ، وبذا يصبح مصطلح بدائل الطاقة

والحقيقة هي العكس تماما ، غالى جانب التصميم الهندسي وحسابات الزوايا وانتقال الحرارة وسقوط الاشعة الحرارية ومروقتها الى قلب السخان يا حيدا لو ابتدع أهل الصنعة والكيمياء نوعا جديدا من البويات او الطلاءات السطحية الماصة للحرارة ، فقد ترتفع قدرة السخان عدة مرات وتجهله يتنص قدر اكبر من طاقة الشمس .

والأمثلة كثيرة ومتعددة ومتنوعة ، وبحال البحوث الكيميائية في ميدان الطاقة المكملة متشعبة ومتعددة وتلفت النظر باتساعها .. وتفتح الباب وقرى سويا لترى ماذا يحدث في هذا الخضم العلمي الهائل بعدما سبحنا طويلا ، لكن ليس بعيدا عن المشكلة فنحن لازلنا في قلب الموضوع وصلبه .

٥ - الكيمياء وأسالة الفحم

علميا يعتبر الفحم صخورا رسوبية تكونت من بقايا النباتات التي دفنت في باطن الارض منذ بلايين السنين وتتمركز معظم مناجمها في نصف الكرة الشمالي ويعود تاريخ تكوين الفحم الى قرابة ٣٥٠ مليون سنة مضت ، وهي الحقبة الجيولوجية المسماة بالعصر البلازويك والتي أتاحت تكون الفحم الحجري الجيد بينما تكون الفحم الأقل جودة إبان العصر الجيولوجي كريتاسيوس في غضون ١٣٦ مليون سنة .

وفي هذه المصهور الجيولوجية السحيقة انصفت الطبيعة الجوية للارض بدرجة رطوبة عالية واحتوى الهواء على نسبة كبيرة من ثاني اكسيد الكربون جعلت النباتات والاشجار تنمو أسرع من المعدل الحالي ، مكونة أشجارا عملاقة تخزن قدرا عظيما من

- تسخير طاقة الرياح .

- استغلال الكتلة العضوية من مخلفات زراعية ومخلفات مدن ومخلفات بشرية وتحويلها الى وقود غازي أو وقود سائل .

- توليد الطاقة الكهربائية بطرق كيميائية ونوعية .

- تخزين الطاقة الكهربائية وادماجها مع الشبكات الكهربائية .

- إعادة النظر في هندسة انتقال المادة والحرارة لتحقيق أعلى كفاءة متاحة .

- تخزين الرياح والماء واستعادة طاقة الوضع والحركة .

- الانحياز نحو تمولد غازات الوقود وخاصة الايدروجين بمعنى تحويل غاز الايدروجين الى كتلة صلبة جافة .

٤ - ودخلت الكيمياء ساحة المعركة

ان التحدي كبير ، السؤال السالف ليس سهلا الاجابة ، فلأول مرة يواجه العلماء تحديا شموليا لا انفصل بين عناصره ، وليس علما أكاديميا محضاً ، كل يتداوله حسب هواه إنما مشكلة عريضة ذات جوانب اقتصادية وسياسية وعلمية وتقنية وبيئية واجتماعية ، مشكلة مركبة متشابكة وصعبة المراس تتطلب كل القول والقرارات والامكانيات العلمية المتاحة بحيث ينظم عقدها في توافق وتوازن والكل فيها مدد وعون للآخر والمجزء يتكامل مع الكل ويدور في فلكه بانضباط والالتزام وجانب غير كول .

وفي خضم هذا التحدي برز دور الكيمياء بروا عظميا ، فقد يظن البعض منا ان سخان الماء الشمسي هو مجرد تصميم هندسي لا مجال للكيمياء فيه ،

ومن الدراسة التي قدمها باول أفريت P. Averit علم ١٩٦٩ وأهل فيها كل رواسب الفحم أقل من ٣٠ سم لمعد جدواها اقتصاديا يمكن القول بأن نصف المتاح عالميا يعتبر ذا جدوى اقتصادية عالمية ويمكن استغلاله مئات السنين على اعتبار أن أقصى ما يمكن استخراجه عالميا لن يتعدى ٥٠٠ مليون طن . شكل (١)

ويشير الشكل رقم (١) إلى معدلات استخراج الفحم ، وتلحظ زيادة كبيرة في السنوات الأخيرة بعد تصاعد أزمة الطاقة وإهمال الولايات المتحدة والدول الصناعية عميما نحو الارتكاز على الفحم كمصدر محلي متوافر يمكنه أن يشكل تعويضا عن النفط ، ولذا اهتمت به كثيرا مؤسسة Energy Research and Development Association واختصارا باسم E.R.D.A. في إحدى محاولاتها الشهيرة لكسر احتكار البترول العربي وقد وضعت خطط E.R.D.A. على هيئة برنامج إنتاجي يتكلف

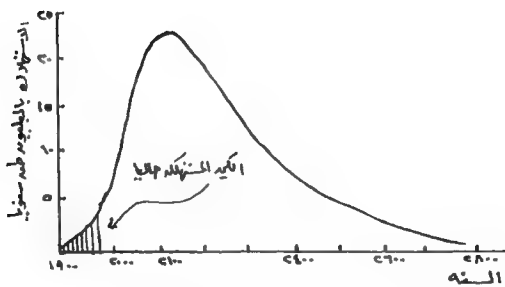
الكرتون ، لكنها قصيرة العمر سهلة الموت وتسقط في شقوق الأرض وبين ثنايا التربة متحولة تحت الضغط والحراة إلى فحم اللجنيت والذي يتحول بدوره إلى فحم الببوتومين وينتهي امره إلى فحم الانتراسيت ، ومثل هذا التحول لازال ملحوظا في دلتا الأنهار الكبيرة مثل نهري الأمازون والميسيسيبي ، وتتراوح طبقة الفحم المتكونة بين عدة سنتيمترات وتصل أحيانا إلى حوالي ١٢٠٠ متر .

وتتوقف خصائص الفحم على نوعية الاحتجاز التي كونت الراسب المحلي ونوعية الطبقات الضاغطة على المادة السيلولوزية ودرجة التحلل التي أصابت الألياف ودرجة وحدة التقلبات الجيولوجية في القشرة الأرضية .

واقتصاديا تقدر كميات الفحم المتاحة عالميا سياتن المؤكدة والمحددة بخرايط جيولوجية أو المحتملة بحوالي ١٥,٣ × ١٢٩٠ أي خمسة عشر وثلاثة أعتار وأمامها اثنا عشر صفرا حسب الجدول .

جدول رقم (١) كميات الفحم المتاحة عالميا

النسبة المئوية	احتياطي الفحم × ١٠ طن			الدولة أو القارة
	الاجمالي	محتمل	مؤكد	
٨,٩	١٣٦٠	٩٠٧	٤٥٣	آسيا
٥٦,٤	٨٦١٦	٢٧٢١	٥٨٩٥	روسيا
٢٧,٣	٤١٧٢	٢٦١٢	١٥٦٠	الولايات المتحدة وكندا
٤,٩	٧٥٣	١١٠	٥٦٢	أوروبا
١,٤	٢١٨	١٤٥	٧٢	أفريقيا
٠,٢	٢٧	٩	١٨	أمريكا اللاتينية
٠,٨	١١٨	٦٤	٥٤	تحت مياه البحار والمحيطات



شكل (١) يوضح معدلات استهلاك الليزر عند
مستوى زمني ٩٠٠ مئة

٣٠ مليار دولار في اطار خطة عشرية (١٩٧٣ - ١٩٨٣) تنفي انشاء سلسلة من معامل الاسالة قدرة الواحد ٥٠,٠٠٠ برميل نفط صناعي يوميا وستهلك العمل الواحد ٢٥,٠٠٠ طن نحم يوميا وتكلف العمل حوالي ١,٥ مليار دولار.

والسؤال الآن ... كيف السبيل الى اسالة الفحم وكيف تدخلت الكيمياء لتواجه المشكلة المطروحة وتتناول تكنولوجيا الكيمياء المتغيرات العلمية وتطرح على ارض الواقع حلا عمليا لأزمة النفط المستورد ؟



ويقول الكيميائيون ان اسالة الفحم الى نفط وغاز تتركز على تفاعل كيميائي بسيط لم تقم به الطبيعة لحكمة لا يعلمها الا خالق السماوات والارض فكلا الفحم والبترول مزيج من مواد كيميائية اساسها الكربون والايدروجين والفرق الوحيد بينهما ان النفط يحتوي على نسبة عالية من الايدروجين بينما يحتوي الفحم على نسبة عالية من الكربون . ولو امكن اجبار ذرات الايدروجين على الالتصام مع جزيئات الفحم لتكون النفط .

ومعنى لفة الكيمياء

٧ ذرات كربون + ٨ جزيئات ايدروجين — جازولين

وقد تم اجراء ما يكفي من البحوث الكيميائية لإمكان التثبي بانجاز تكنولوجيا عالية الكفاءة يمكنها استكمال ما لم تقم به الطبيعة ، لكن احتياج العملية الى الايدروجين جعلها صعبة ، فاستخدام

الايدروجين من تحليل الماء كهربيا سوف يدفع تكاليف اسالة الفحم الى سعر غير اقتصادي او منافس للخام الطبيعي ، ولذا اتجهت الكيمياء الى جعل الفحم يفقد الايدروجين والذي يعاد الى الفحم مرة اخرى مصليا النفط الصناعي وزنجيا من الغازات الهيدروكربونية بديلا عن الغاز الطبيعي . ويقول اهل الكيمياء هناك جملة طرق قديمة العهد منذ الحرب العالمية الثانية اعادت E.R.D.A الى وضعها مرة اخرى تحت مجهر العلم وعيون الاقتصاد في محاولة للتوفيق بين الكفاءة والسعر . واهم هذه الطرق الاربعة : -

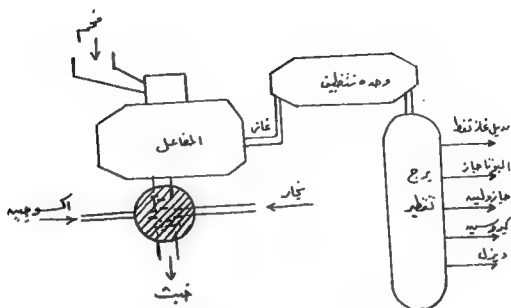
٥ - ١ طريقة الهيدروكربنة :

وتعتمد على تسخين مسحوق الفحم الى درجة ١٠٠٠ ف في وجود الايدروجين تحت ضغط ٦٠٠ وطل على البوصة المربعة وتطلي نواتج تتراوح بين بديل الغاز الطبيعي الى زيت وقود مرتفع الجودة .

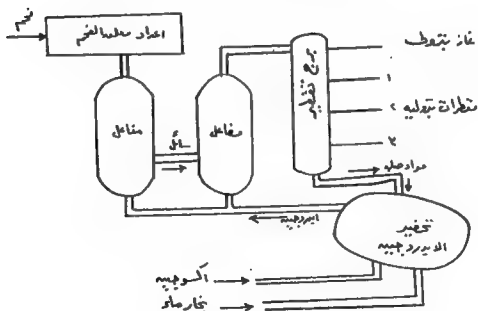
٥ - ٢ طريقة المخرجة : شكل (٧)

وفيها يدفع مسحوق الفحم الى غرف التفاعل ويغسلط بالايدروجين (بنسبة ٧ : ١٦) في وجود وسيط حفاز مكون من عنصر الكوبالت والموليبدنيم عند درجة حرارة عالية وتحت ضغط يصل الى عدة مئات من الضغط الجوي .

وطريقة المخرجة ذات تاريخ قديم نسبيا فقد ابتكرها بارجريرس خلال الحرب العالمية الاولى وعلى هدفا تم بناء ١٨ معمل اسالة في المانيا انتجت زهاء ٢٨ مليون جالون من البنزين وجعلت الانان بحاريون اياها دون خوف من نظوب الوقود .



شكل (٢ - ج) طريقة فيشر ترويش



شكل (٢ - د) طريقة الفهم

المذيبات المختلفة تحت ظروف الحرارة المعتادة ، لكن يمكن اذابته تحت الضغط والحرارة ، بعدها يندرج المحلول بامرار غاز الايدروجين غاذا بالفحم يطبي البينزين ووقود الديزل والسولار ويدلعا عن الغاز الطبيعي .

٥ - ٥ مقارنة انتاجية طرق الاسالة :

الى جانب ما المالحا اليه هناك طريقة الكرنية ، وفيها يسخن الفحم يمزج عن الهواء وتؤدي الحرارة الى تحلل الفحم وينتج القطران والغاز تاركة قسم الكوك . ورغبا عن سهولة الكرنية الا انها ليست اقتصادية لانتاج النفط الصناعي لأن التكاليف الثابتة لانشاء الممران الكوك مرتفعة الثمن بالنسبة للوحدة المنتجة من النفط . لذلك تتركز الابحاث الكيميائية حاليا على استحداث وابتداع طرق جديدة للكرنية مثل استخدام طبقات ممتعة من الفحم عند درجة حرارة منخفضة نسبيا .

وعيب هذه الطرق مجتمعة صعوبة استخراج الفحم اللازم للتشغيل بما يكفي التقليل من الطلب على البترول مع ضرورة طحن الفحم الى مسحوق ناعم وتوفير غاز الايدروجين ، وكلها عمليات صناعية تستهلك جزءا كبيرا من التكاليف الثابتة وتكاليف التشغيل والصيانة والحجرة . كما تتطلب انشاء المعامل على مقربة شديدة من المناجم والا تحولات اقتصادية التشغيل الى الحد الخامس ، كما يلعب التركيب الكيميائي للفحم واختلافه من منجم لآخر بل من قديم لقديم في المنجم الواحد دورا معاكسا ذا اثر حاد في زيادة التكاليف .

واليوم تجري الابحاث في المانيا الغربية بمركز ابحاث بتسبرج نمو تعديل الوسيط الحفاز وتقليل زمن التلاقي بين الفحم والايدروجين وتبسيط تصميم المفاعل والنتائج حسب ما جاء في مؤتمر الطاقة المتخذ في ميونيخ سبتمبر ١٩٨٠ لم تشر بالامل المنشود .

٥ - ٣ طريقة فينشر ترويش . : شكل (١٢)

طريقة لتكرير المجازولين (البينزين) صناعيا ابتكرها الكيميائي الالماني فرانسز فينشر ، مدير معهد القيصر وليام للابحاث بالاشتراك مع الكيميائي هانز ترويش . ويعرّج الطريقة يسحق الفحم سحقا جيدا ويعرض الى درجة حرارة عالية ويمرر اعلاه تحت الضغط (بخار الماء والهواء) وتتم التفاعلات على النحو التالي : -

فحم + بخار ماء \rightarrow غاز اول اكسيد الكربون + ايدروجين .

والمخلوط الغازي الناتج على الجهة اليسرى من المعادلة يجري ضبطه وتعديل نسبته الى ٧ احياج من اول اكسيد الكربون و١٢ حجبا من غاز الايدروجين ويمرر المخلوط فوق وسيط حفاز ويتفاعل الغازان ويكونان مزيجا من البينزين وزيت الديزل .

والى طريقة فينشر ترويش يبعد الفضل في انتاج المانيا نحو اى مليون طن سنويا من المجازولين زمن الحرب العالمية الثانية ، وبذا كسرت الميوش الالمانية حدة الحصار البحري المفروض على موارد المانيا النازية من النفط .

٥ - ٤ طريقة الاذابة :

من المعروف سلفا ان الفحم لا يذوب في

الكبريت تزيد عن نسبة الاتزان الايكولوجي المفترض مما ينتج عنه ارتفاع درجة حرارة الجو باستمرار وتغيير خريطة الاحوال الجوية ، بعدما لوحظ ان نسبة ثاني اكسيد الكربون الموجودة في الجو زادت بمقدار ١٥٪ خلال المئة سنة الاخيرة وانها زادت بمقدار ٥٪ خلال الخمسة عشر سنة الاخيرة ، وبما وطأة الحر الذي شعر بها انسان اليوم الا محصلة هذه الزيادة . حيث يعمل الغاز كمرشح ضد نفاذ الاشعة تحت الحمراء والاشعة الحرارية من الارض ، مما يدفع درجة الحرارة باستمرار ، ويستشهد الكيميائيون في دعواهم بما يريده بعض العلماء بان عصر ارتفاع الحرارة بدأ فعلا ونجم عنه تصحر بعض الاراضي الزراعية وانتهيار الانتاجية وتغير خصائص بعض النباتات الطبيعية .

❖ الامر الثاني ، وهو الاهم والخطر والادعى للخطورة والحذر ، ان استخدام الفحم على صورته الصلبة او حتى اسالته كيميائيا سوف يتلوه ارتفاع نسبة الملوثات السرطانية من مادة البنزوبيرين Benzo (a) Pyrene (والاسم مختصرا B (a) P) الناجمة عن حرق الالياف الجافة

والمضطر يركب الصعب - كما يقولون - ويدأت فعلا بعض معاميل الاسالة في العمل وشملت الشركات الكبرى عن سواعد الجدد ، واذا بأهل الكيمياء يطلبون التآني .

٥ - ٦ وحلزت الكيمياء من مفهبة السرة الى الفحم :

في الوقت الذي فيه قدم الكوايون منذ الحرب العالمية الاولى طرقا كيميائية وابندعوا طرقا يعيدون بها اتران الفحم وتحويله الى نطف وغاز طبيعي جاء كيميائيون آخرون واضافوا الضوء الاحمر مخنرين من مفهبة الاسراف في اسالة الفحم او الردة اليه باعتباره ملك الوقود ، وحددوا الاعتراضات على النحو التالي :-

❖ الردة الى الفحم واعادة استخدامه مباشرة كوقود احلال في اللطف في خطط الصناعات القائمة سوف يترتب عليه الى جانب حتمية تغيير اساليب وانظمة انتاج الطاقة الحرارية فانه سوف يدفع الى الهواء كميات كبيرة من ثاني اكسيد الكربون واكاسيد

ونخلص الى مقارنة الجدوى الاقتصادية لاسالة

الفحم من الجدول التالي : ..

الانتاج لكل طن فحم		الطريقة
قدم مكعب من الغاز	برميل نطف صناعي	المندرجة فيشر نرويش اذابة الفحم الكرونية
٢٠٠٠ - ٣٠٠٠	٢,٥ - ٣	
٨٠٠٠ - ١٠,٠٠٠	١,٥ - ٢	
٢٥٠٠ - ٤٥٠٠	٢ - ٣	
٤٠٠٠ - ٥٠٠٠	١,٥ - ٢	

مكونة أكاسيد حامضية غازية من ثاني وثالث أكسيد الكبريت ، تهرب إلى الهواء وتسبب مشكلات بيئية عديدة ، جنباً إلى جنب مع ثاني أكسيد الكربون وباء المطر الحامضي الذي سقط على بعض البلدان الأمريكية فأتلف الزرع عنا يبعد .

وقد حاولت الكيمياء حل بعض مشاكل الفحم عبر ثلاثة منطلقات :

الاتجاه الاول : ازالة الملوثات الكبريتية من الفحم قبل الحرق بأسلوب مناظر لطريقة المدرجة المستخدمة في الاسالة لكنها طريقة لم تقدم نتيجة تستحق العناء الاقتصادي .

الاتجاه الثاني : يميل إلى استخدام نظرية حرق مسحوق الفحم على مخدات موعة من حجر الجير وفضال الكبريت مع الجير مكونا كبريتات الكالسيوم (الجبس) ولا زال هذا الاتجاه تحت الفحص والدراسة والتجريب ، ويحاول الكيميائيون جاهدين التوصل إلى مادة يمكنها امتصاص أكاسيد النيتروجين وتفتت مواد $B(a)P$ حرارياً .

الاتجاه الثالث : وهو محصلة جملة دراسات هدفت إلى التعامل مباشرة مع غازات المداخن بأمرائها في مجموعة محصات تحتوي مواد كيميائية تختص أول أكسيد الكربون ^(٢) - ثاني وثالث أكسيد الكبريت - أكاسيد النيتروجين وتقتص إلى جانب الغازات بعض القطرات السامة وغازات الكربون المكونة للدخان . وفي الأبحاث الجديدة على مادة

والأوراق الجافة وهي مسبب انتشار الإصابة بالمرض اللعين بين المدخنين وعمال الأفران والقائمين على امر محطات القوى الكهربائية الحرارية وعمال تكويك الفحم . وأكد الكيميائيون أن احتمال الإصابة بالمرض سوف ترتفع إلى عشرة أضعاف الاحتمال الحالي .

والتحليلات الكيميائية أثبتت صدق ما سبق ذكره فتواجد مادة $(B(a)P)$ في النفط الطبيعي لا تتعدى من واحد إلى خمسة اجزاء في المليون . بينما تزداد الكمية في القطرات البترولية المصنعة من الفحم وتتراوح ما بين ١٠ - ١٠٠ جزء في المليون ، أي تتضاعف عشر مرات .

معنى هذا أن اسالة الفحم سوف تزيد نسبة الملوثات السرطانية في الجو عشر مرات . والمعمل الواحد الذي قدرته اسالته ٢٥,٠٠٠ طن فحم يومياً سوف يقدم طعاماً خطيراً ملمساً وقائلاً مقداره ٤ كيلوجرامات من مسببات السرطان . ولنا ان نتصور حجم المشكلة إذا علمنا انه يكفي للإصابة بالمرض اللعين - حفظنا الله منه - عدة ميلليجرامات ^(٣) من $(B(a)P)$ والمواد المناظرة .

مشكلة ما بعدها مشكلة خطيرة وشعبة ...

٥ - ٧ وأعيدت المشكلة إلى أهل الكيمياء :

والفحم شأنه شأن أي وقود فحري يحتوي نسبياً متباينة من المواد الكبريتية ، تتحول معه أثناء الاسالة وتبقى لصيقة به لا تفارقه وتتأكسد خلال الاحتراق

(١) الجرام = ١٠٠٠ ميلليجرام .

(٢) غاز عديم اللون يتركب كيميائياً من اتحاد ذرة كربون وذرة أكسجين وذرة الهيدروجين أو غاز له خصائص سمية رئيسية في الدم بدرجة عالية مسببة الوفاة . ويختلف عن ثاني أكسيد الكربون بأن الأخير غاز عديم اللون وليس ساماً وله بعض الفوائد الصناعية .

المواد الكيميائية مثل التوهج الفلورسنتي - الموصلة الكهربائية - الاستجابة للأشعة الضوئية - تكوين الصور الكامنة في التصوير الضوئي .. الخ من خصائص كهربية ومغناطيسية ، وعلى هدى الحقائق الجديدة صنعت أول خلية ضوئية كهربية من أكسيد النحاسوز ووصلت القوة الدافعة الكهربية للخلية حوالي واحد فولت ، وبلغت شدة التيار الناتج بضخ مئات من الميكروأمبير^(٤) لكل ليومن من الضوء^(٥) وخلية أكسيد النحاسوز لم تضر طويلا واستعمل عنصر السيليوم^(٦) في إنتاج خلية ضوئية تكاد حساسيتها للأشعة الضوئية تقرب من حساسية عين الإنسان السليم مما جعلها تضر كثيرا وتستخدم مع أجهزة وكاميرات التصوير وبعض طرق التصوير الجساف المعروفة علما باسم **Electrophotography** ، وقد استطاع عالمان ها كوفنير وكولوميتس صناعة خلية ضوئية من مادة كبريتور الثاليوم انصفت بحساسيتها الشديدة للضوء وعكثها الامداد بحوالي ١٠٠٠٠ ميكرو أمبير لكل ليومن ، ثم تلتها خلية من ملح ملقيد الفضة والذي يتركب كيميائيا من ذرة كبريت المتحدت وتلاصحت مع ذرتي فضة واتحدت خلية ضوئية أشد حساسية للضوء وأكثر دفقا للكهرباء ، ثم جاء اكتشاف خلايا السيليكون والجرمانيم وتنازع من سابقتها بقدرتها على تحويل ١٠٪ من جملة الأشعة الضوئية الساقطة إلى طاقة كهربية . شكل (٣) .

النشادر كإداة ماصصة اختيارية **Selective Absorber** ثبت بما لا يدع مجالا للشك انه اذا تجاوزت درجة حرارة غازات الصادم ١٠٠٠ درجة مئوية تفاعل غاز الاكسجين المتبقى من الاحتراق مع النشادر مكونا أكاسيد نيتروجين مما يضاعف كمية الملوثات الغازية ، بينما عند درجة حرارة ١٠٠٠ مئوية تنكسر النشادر كيميائيا وتتحوّل إلى غاز النتروجين ، وعند درجة حرارة أقل من ١٠٠٠ مئوية لا يحدث تفاعل ، ويفرغ النشادر كما دخل من الحركة صفر الديدن ، ويوضع ما سبق أن التحكم في مشكلة التلوث من خلال الاجراءات الكيميائية المضادة لا زال امرا يكتشفه الكثير ... الكثير من المصاعب ولا ينتظر لها حل قريب .

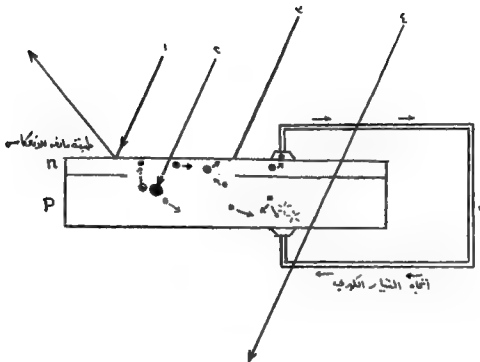
٦ - الكيمياء والشمس والكهرباء :

ولا شك ان الدراسات الجادة التي قام بها المهندسون الكيميائيون والاكاديميون في مجال المنظومات المعدنية واكاسيدها وابتنادهم مواد كيميائية جديدة من اكاسيد غير معدنية حسنت كثيرا خصائص الخلايا الضوئية التي يعتمد عليها العلم الحديث في تسخير طاقة الشمس وتحويلها الى طاقة كهربية وفي أواخر الحقبة الثالثة من هذا القرن بدأ علما كيمياء المواد وطبيعة المواد اول خطواتها على الطريق وتكتسب اعطاء تفسيرات علمية واضحة محددة عن الظواهر الغير مألوفة عن بعض

(٤) الامبير وحدة قياس شدة التيار .

(٥) الليومن هي كمية الضوء الساقط على سطح مساحة متر مربع ويعد مترا واحداً عن مصدر ضوئي شدة شدة كيميائية واحدة .

(٦) يصدر الضوء الابيض حل الالامعة البنفسجية - البنلي - الزرقاء - الخضراء - الصفراء - البرتقالي - الاحمر . كما توجد الالامعة فوق البنفسجية واهت الحمراء ولاهما طيف غير منظور لا تقي به العين .



- ذرة سليكونية ● إلكترون
- ١- شعاع جنوة مستطيل ويتكسر.
 - ٢- شعاع جنوة أحادي بمره سليكونية غير المتعددة تتجه إلى السطح n .
 - ٣- شعاع جنوة عاكس الشدة حراري الكثرة والنقطة ما عرفت تسخينها الخلية.
 - ٤- شعاع جنوة واحد الشدة بمره من الخلية هو اجلات أمت أكثر.
- "ولما لا تتراجع كفاءة الخلية أكثر من ١٤-١٨ %"

شكل (٤) خلية السيليكون

الفضاء بالطاقة الكهربائية اللازمة لإدارة أجهزة المركبات وإتمام الاتصال اللاسلكي والتليفزيوني بين الرواد ومحطات المتابعة الأرضية .

وقد يسأل قارئه ولماذا وحيدة البلورة ؟ ولم لا تصنع الخلايا من مواد عديدة البلورات أو يجري تشكيلها من مسحوق المادة الكيميائية ؟ وللقارئ كل الحق في تساؤلاته ، فالسؤالان يلغضان في كلتا معقدة مشكلة من اعتقد مشاكل الخلايا عديدة البلورات (شكل ٤) . ففي الخلية وحيدة البلورة لن يجابه التيار الكهربائي بمهانة داخلية في جسم البلورة الواحدة ويسري عبرها في سهولة ويسر ، بينما يجابه بموانع داخل جسم الخلية الثانية تقتل في الفاصل البنائي ، لكن بلورة عن الأخرى ، وتقل كفاءة وكمية التيار الناتج وتضعف قدرة تحويل الخلية رغم أنها أقل سعراً ولا تأخذ جهداً مثل البلور في صناعة خلايا السيليكون التي تتطلب (شكل ٤) .

- اختيار نوع من الرمل فائق النقاء واستكمال تنقيته كيميائياً .

- تحويل الرمل النقي وإختراله من ثاني أكسيد السيليكون إلى عنصر السيليكون في أفران كهربية خاصة .

- ادخال عنصر السيليكون في سلسلة من التفاعلات الكيميائية للحصول على مركب كيميائي يسمي السيلكون والكلور والايديوجين ويعرف الناتج باسم سليينات SiHCl_3 Silanes .

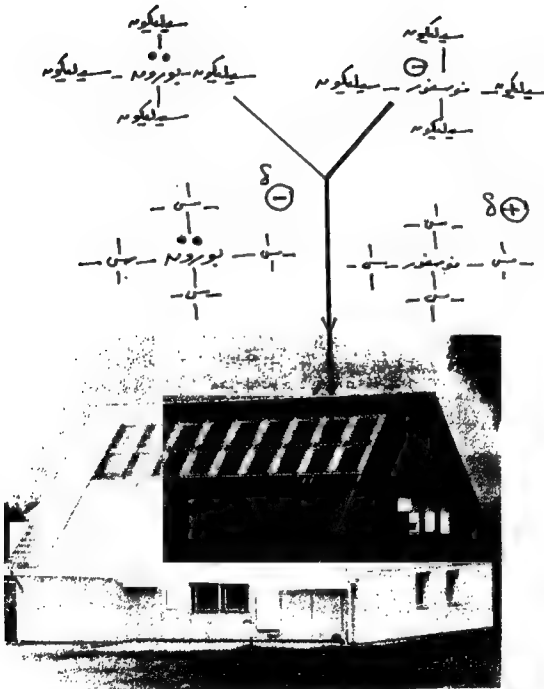
- من المركب العضوي يتم الحصول على عنصر السيلكون النقي ٩٠٠٪ بالتميز المائي الحراري .

٦ - ١ تمهيس الخلايا للفضاء :

إن مواد أشباه الموصلات كثيرة ومتنوعة وتختلف بها الكتب والمراجع ، لكن يتحتم على الكيميائيين تطويرها ورفع كفاءتها التحويلية وإجراء الموائمة بين جملة متغيرات أهمها تعديل الخصائص الطبقة وجعلها تتفعل بأكبر قدر متاح من الاطراف المنظورة وغير المنظورة لفضء الشمس ، وذلك باستخدام اصباغ كيميائية حساسة لها ، وهم في هذا الصدد يراجمون تجارب العالم الكيميائي ماكسويل وأبحاث التصوير الملون وكيمياء الصبغات الازوتية والكبريتية . وعلى حد علمي - يجري في مصر وفي مركز بحوث الطاقة الشمسية بالكويت دراسات جادة لتحديد اثر إضافة الاصباغ على أكسيد الزنك وثاني أكسيد التيتانيوم وبعض الأكاسيد المزوججة من عناصر المجموعة الثانية والرابعة ، وتبشر النتائج بتحسين خصائص الخلايا التجريبية تحسناً ملموساً ، ولم يقف دور أهل الكيمياء على بحث التوافق الطيفي إنما وجب عليهم اختيار مواد شبه موصلة تنصف بالثبات الشديد ضد العوامل الجوية والفعل التالف للأشعة فوق البنفسجية والرطوبة الجوية ، شريطة أن تكون رخيصة الثمن ، زهيدة التكاليف ، خفيفة الوزن يسهل تشكيلها في مسطحات كبيرة فوق دعائم انشائية خفيفة .

٦ - ٢ خلايا السيليكون وحيدة الخلية :

يوم استطاعت الكيمياء التحكم في خصائص المادة والعنصر والملاح حققت بذلك تحويل طاقة الشمس باستخدام خلايا السيليكون وحيدة البلور ونجعت الخلايا في امداد مركبات الفراغ ورحلات



نكلا (٤) التركيب الكيميائي فنديا السيليكو، ومنتجها من كولي
الكربا، ولفظه الرفيع.

١٩٨٠ - لم تمتد كفاءة التحويل أكثر من ١٧٪ من جملة طاقة الشمس الساقطة على وحدة الخلية والباقي يضيع على هيئة حرارة أو أشعة غير متممعة .. اضيف الى ذلك ان تكاليف صناعة خلايا تكفي لاعطاء كيلو واط واحد تقارب خمسة عشر الف دولار وهي قطع ها تكاليف غالية جداً مقارنة بالطاقة الكهربائية الكهربائية حرارية وان لم يصب عن الاذهان انه رغم التكاليف المرتفعة فلا مناص عن استخدام خلايا السيليكون لمن يريدون لوجدهم العسكرية الضياء والاتصال اللاسلكي وفي محطات مراقبة الجو وفي تقط تفتيش الحديد وفي غياب الصحراء ولتأمين الاتصالات التليفونية بين القرى والتجموع وفي البؤر السكانية المتباعدة حيث يصعب فرد شبكة تيار كهربائي^(٧) بتكاليف مقبولة ذات جدوى اقتصادية .

٦ - ٢ الكيمياء والخلايا متعددة التبلر :

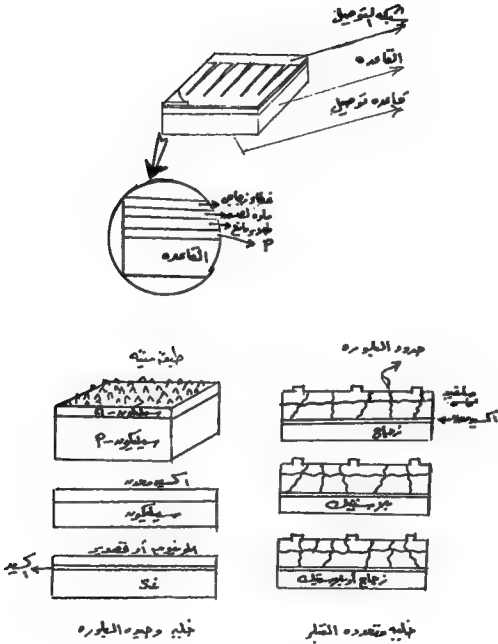
حاولت الكيمياء مرة اخرى التقليل من نفقات انتاج الخلايا الضوئية بالصيغة مرة اخرى الى تكثيف البحث في انشاء الخلايا متعددة التبلر ، وطرح عدد من الباحثين مواد جديدة اقل كلفة مثل كبريتيد الكاديوم - اوكسيد الجاليوم - اوكسيد النحاسوز - اوكسيد الزنك - فوسفيد الانديوم ، وفي المؤخر السابق الاشارة اليه توقعت بحسب جادة عن استخدام المواد العضوية Organic Subs بدلا عن المواد الغير عضوية لكنها على اية حال لا زالت تجارب تمهيدية ولم تقدم حلا جذريا للمعادلة الصعبة شكل (٥) ، شكل ١٥ .

- يتم صهر السيليكون في افران كهربية خاصة واستخراج بلورة واحدة تبنى بطريقة فريدة على هيئة اسطوانة غير منتظمة يستغرق صهرها من المصهور اياما عديدة بعدها تقطع الى شرائح غاية في الرقة بواسطة مناشير من اللامس .

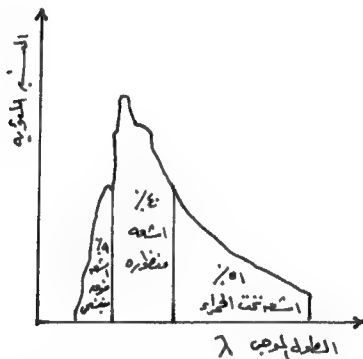
لكن السيليكون رغم هذا غير موصل للتيار الكهربائي ويلزم تعديل خصائص ذراته بطلاء سطح واحد من الشريحة بعنصر ... مثل الفوسفور تحتوي ذراته على عدد اكبر من الكترونات المدار الخارجي للذرة وطلاء السطح الآخر ببعض ذرات عنصر البرون الذي تحتوي ذراته على عدد اقل من الكترونات المدار الخارجي مقارنة بعنصر السيليكون ، وبذا اصبحت الشريحة من جهة بها فائض من الالكترونات الفلقة n-type ومن الجهة الاخرى تولدت محلات خالية او تقوب موجبة p - type وتحوط الى مولد كهربى صغير دقيق شكل (٣) يبلغ سمكه ٢ سم ويعمل فور سقوط اشعة الشمس عليه فاذا الفوتونات تزيد الالكترونات وتدفقها للانطلاق عبر الاسلاك مولدة التيار الكهربى المتشدد على التوالي او على التوازي ان شئت .

هذه حكاية خلايا السيليكون التي جعلت بعض المثقائين من كتاب العرب يقولون وينشرون لقد قاربت الايام التي سمعنا فيها الشمس داخل زجاجات واشاعوا في كتاباتهم نبوءة تفأؤل ورونة سرور ، والحقيقة انه حتى الآن ووفق ما نشر عن مؤخر الطاقة المنعقد في ميونخ بالمانيا الغربية اغسطس

(٧) تدير الملكة الازدية للملكة اول دولة عربية تستخدم الخلايا الضوئية على شبكة الطرق السريع بها .



شكل (٥) مقارنة بين التبلر المقعدرة التبلر
والخبريل ذات البلورة الواحدة



شكل (٢.٥) توزيع الدطيان الضعيف من أشعة
 ألفا ولدت تفيد الفوتون
 كوسيم الدتقير لير من هذه الدطيان
 ولذا تنبع الديمان الحديس إلى رقع حليم
 الفوتون باستخدام الصفات الليتييه
 من المتقدمة من الفوتون المولود .

يقولون عنها انها تأكدت ، بينا الذرات المستقبلية
للالكترونات سموها اخذت ، ودلينا المثال المبسط
التالي :

الايدروجين + الاكسوجين \rightarrow ماء

وتفصيل المعادلة

٢ ذرة الايدروجين \rightarrow ٢ ايدروجين^١ + ٢ الكترون
(فقد الكترونات)

ذرة اكسوجين + ٢ الكترون \rightarrow اكسوجين^٢
(اكتساب الكترونات)

ويتحد الايونان مكونة بخار الماء .

معنى هذا انه لو أمكن بطريقة او اخرى اتمام
الاحتراق دون التقاء الوقود والمؤكسد التقاء مباشرا
فلن ترتفع ألسنة اللهب او تحدث مظاهر التيران ، إنما
تدور الالكترونات في رحلة الأخذ والعطاء وتنقل من
الوقود الى المؤكسد مارة عبر الاسلاك أو الموصل
الكهربي منتجة طاقة كهربية .

هذا بالضبط دالة خلايا الوقود ومعناها الذي
تعهد على ضوء المثال السابق وانها وسيلة ابتكرها
الكيميائيون وتتناول تفاعل احتراق طارد للحرارة وقادرة
على تحويل الطاقة الحرارية الى طاقة كهربية ، وتناز
عن غيرها من المولدات الكهروكيميائية باستمرارية
تدفق الطاقة الكهربية طالما استمر دفع الوقود المؤكسد
الى قطبي الخلية . وهذه الفكرة البسيطة عن خلايا
الوقود وقعت تحت الفحص والتمحيص والتدقيق
وتناولها الكيميائي لانجر عام ١٨٩٩ ودرسها
الكيميائي سيجيل عام ١٩١٣ وأدخل عليها

وتعتمد الخلايا متعددة التبلورات على ترسيب
المادة او الملح على شريحة من الزجاج او قاعدة من
البلاستيك وإعادة تقطية المادة بطيئة اخرى من
كبريتيد النحاسوز وصهر المكونات لحلق اتصال P-n
كما اقترح Sigurd Wagner المشرف على بحث
الخلايا الضوئية في شركة بل والدكتور هاشميان
والدكتور فوجداني من جامعة طهران طريقة جديدة
لاتنتاج الخلايا عديدة البلورات على هيئة شرائط رقيقة
من عناصر الجرمانيوم وسيكة الانديوم والرصاص ،
وقد اضافت بحث الصالين الايرانيين اضافات جيدة
الى ما سبقها من بحث نوقشت في مؤتمرات الطاقة
الشمسية خاصة ما عقد في هامبورج عام ١٩٧٤ .

٧ - الكيمياء الكهربية وخلايا الوقود

الوقود والاكسوجين مكونان أساسيان لامتثال
النار واقتصاد الطاقة الحرارية الكامنة بين الجزيئات
الداخلية في التفاعل والناجمة عنه ، ولو حاولنا تفسير
الاحتراق على هدي مبادئ الكيمياء وسبب علينا
القول بأنه على الرغم من تصاعد ألسنة النار واللهب
والسمير كشيء ظاهري دليل واضح على عنف
التفاعلات وشراستها فان داخل كتلة الاحتراق يتم
انتقال الالكترونات بين الذرات والجزيئات مكونة
مقطوعة كيميائية إبداعية تحتاج وقفة متأنية ونظرة
ثاقبة ، هناك ذرات تضحي بالالكترونات بذرات
اخرى تستقبل وترحب ، وكل الذرات تؤدي دورها
المرسوم دون خلل او ملل ، ودون التسوؤ أو لف
ودوران ، وهذا الأخذ والعطاء اطلق عليه الكيميائيون
اسماء وسميات ، فالذرة التي تفقد الالكترونات

في تعقل ، مسرعة في دقة وتأن وجسات النتائج
(شكل رقم ٦) .

١/٧ أنواع خلايا الوقود :

١/١/٧ الخلايا المباشرة :

ضمن خطط بحوث الطاقة المكتملة يجيء
الحصول على غاز الايدروجين في المقدمة كما سنأتي
اليه تفصيلا ، لذا خططت البحوث تبني استكمال
الدائرة واستخدام الايدروجين إما كوقود احتراقي
مباشر أو وقود احتراقي غير مباشر كما في خلايا
الوقود .

وخلايا الايدروجين عبارة عن وعاء يضم قطبين
يفصلهما محلول متأين من ملح أو حمض مخفف ،
والقطبان مجرد وسيط ناقل للالكترونات ، بينما يلعب
المحلول كوسيط ناقل للأيونات وتشير النتائج الى
نجاح خلايا الايدروجين نجاحا يعتد به .

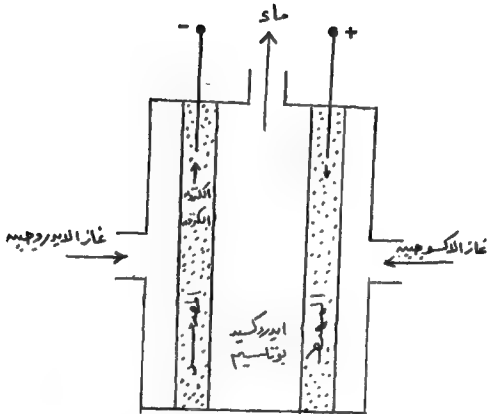
٢/١/٧ خلايا الهيدرازين :

جاء استخدام الهيدرازين (٨) كوقود تأكسدي
من خلايا الوقود محققا بعض آمال من يفرغون البحث
عن كمالات الطاقة ، فالهيدرازين من أنشط المواد
الكيميائية ، إذا استخدم على هيئة محلول وقي دفع
الى خلايا الوقود أنتج قدرا عظيما من الطاقة
الكهربية . حقيقة الهيدرازين التقني له خصائص
انفجارية وخواص كاوية وشمه مرتفع ، الا أن تفاعله
مع الهواء أقل أخطارا من تفاعل الايدروجين التقني ،

تجسيئات وتعديلات يعتد بها رفعت من قدرتها
وحسنت ادائها ، حتى استطاع الكيميائي مولر عام
١٩٢٨ فرض اضافة جديدة لم يسبقه اليها أحد
واستخدم لأول مرة وقودا من غازات بترولية خفيفة
حول اقطاب معدنية مغموسة داخل وسيط كيميائي .

ذلك العمل العلمي لم يقدره العالم حق قدره ولا
نال من أهل التطبيق اهتماما يذكر ولا فكريا يذكر وظل
نوعا من الترف العلمي والبحث الاكاديمي المحض ،
أو العالم للعلم ولا شيء سواه ، بيد أن النظرة تغيرت
فجأة مع هبات رياح الحرب العالمية الثانية واكتسبت
البحوث اهمية كبرى فور انفضاض الحرب ودخول
العالم مرحلة السلام والاستقرار النسبي ، وتحول
الصراع الدموي الى صراع سلمي ادواته الفكر
والبحث والعمل ... واتخذ الصراع بهذا حضاريا
جديدا مع بدء تفكير العلماء في غزو الفضاء ورحلات
الفراغ ، وقامت مؤسسة بمراجعة كل تقدمات كيمياء
خلايا الوقود ، وقدرت الكيمياء الكهربائية على ابتداع
مولدات كهربية خفيفة الوزن تستطيع توفير قدر
مناسب من الطاقة الكهربية بما لا يشكل عبئا على
مركبات الفضاء ، وظهرت على ساحات العلم خلايا
جديدة استخدمت فيها اقطاب من اكسيد المنغنيم
المليد Sintered Magnesium Oxide فتحت
بابا علميا ظنه البعض موصدا . ومع أزمة الطاقة
العالمية طلبت مؤسسة E.R.D.A بحوثا كيميائية
مكثفة عليها تضرع على الضالة المشجدة ووزعت
التعاقدات البحثية بينا ويسارا ، ودارت العجلة لاهنة

(٨) الهيدرازين مركب كيميائي يتكون من فرتين نيتروجين واربعة اذرات ايدروجين ورمزه الكيميائي NH_2NH_2 و ن ذ ن ٢ ذ ٢ .



شكل (٦) خلية وقود تعمل بغازي الهيدروجين والأكسجين وتنتج كهرباء وماء عذبة .

وإذا كانت خطط الطاقة الكاملة تتجه صوب
احلال كحول الايثانول محل المقطرات البترولية فان
استخدام الكحول المنتظر في خلايا الوقود كان أحد
الأهداف الرئيسية لادماجه في بحوث خلايا الوقود .
و داخل الخلية تتأكسد الى الايدروجين و ثاني اكسيد
الكربون بعدها يعاد استخدام الايدروجين الناتج
كوقود جديد في خلايا الوقود المباشرة . وتنتاز خلايا
الكحول عن مثيلاتها من الايدروجين والهيدرازين
بإمكانية التحكم في درجة التأكد فوق أقطاب من
الجرانيت او الفضة . وقد تمكن علماء الكيمياء من
تحسين اداء خلايا الكحول وأمكنهم صناعة خلية
طاقتها ٥٠ واط بقوة دافعة مقدارها ٤,٠ فولت وتزوي
الخلية دورها عند درجة حرارة ٥٠ درجة مئوية .

٢٣/٧ خلايا الوقود غير المباشرة :

استطاعت البحوث الكيميائية خفض تكاليف
انتاج الكيلوواط الواحد من ٤٧٥٧٨ دولار عام
١٩٦٣ الى خمسين دولار عام ١٩٧٨ وهذا معناه ان
العلم خفض التكاليف الف مرة ، ولولا هذا التقدم
لظلت خلايا الوقود في المباشرة ضربة من خيال .
فكل الخلايا تتطلب خلايا نقية جدا ، لكن الخلايا
غير المباشرة تستطيع اكسدة غازات التسكين
والغازات الصناعية . ويقول الدكتور د. كيرنر انه
بالامكان صناعة خلية وقود تستخدم مسحوق الفحم
عند درجة حرارة ١٠٠٠ درجة مئوية مصحوبا بالماء
و ثاني اكسيد الكربون ، ويتفاعل الفحم مع الغازات
مكونا غازات تخليق تتأكسد مباشرة وتغطي تيارا
كهربيا .

وان بحث تفاعله التأكسدي غاز ثاني اكسيد الكربون
يعتمد ازالته من المحلول المتأين والا سبب تضاضط
الجزئيات بعيدا عن الاقطاب ، ويزيد مقاومة البطارية
الداخلية ولهذا ابتدعت البحوث الجديدة استخدام
أقطاب مسامية ، كما وجد أن اضافة كميات قليلة
جدا لا يمتد بها من مادة كبريتيد الصوديوم أو سيلينيد
الصوديوم ترفع كفاءة الخلية ، كما أثبتت البحوث
الجديدة أفضلية أقطاب من الذهب أو البلاتين واليتم
بحارون إيجاد بدائل عن الاقطاب الذهبية غالية
الثمن .

٢٤/٧ مجموعة خلايا الوقود المذاب :

وجد الكيميائيون أن اذابة الوقود في المحلول المتأين
امام قطب مسامي يحقق أعلى قوة دافعة كهربية متاحة
من الخلية ، وغير أنواع هذه الخلايا تلك التي تم
تصميمها لأكسدة غازات البترول الحقيقية مثل
البروبان على سطح معدن جيد فوق عامل حفاز
معقد التركيب من أكاسيد التنجيز والفضة والنحاس
والكوبالت ، وأكدت البحوث انه كلما زاد عدد ذرات
الكربون في الوقود عن اربع ذرات فشلت عملية
الأكسدة وتوقف دفع التيار الكهربائي تماما .

كما جرب العلماء اكسدة النوشادر داخل محلول
ايدروكسيد البوتاسيوم فوق أقطاب من البلاتين ،
وتأكد الجزئيات وينتج كل جزئ ثلاثة إلكترونات
وينتظر مع متابعة البحوث واستمرارها وحل المشاكل
الفنية الحصول على طاقة كبيرة وينتظر التركيز على
خلايا الادر لانها لا تسبب مشاكل تلوث ، فمقطع
نواتج الاكسدة النيتروجين الحامل ويخار الماء .

٥/٧] الخلايا المتجددة :

هي إحدى جواهر بحوث الكيمياء الكهربائية والمهندسية الكيائية يتم استطاع الفريق البحثي ادماج خلية الوقود مع وحدة تطبيق في تكامل علمي رائع لأكسدة كمحول الايثانول داخل وسيط ٨٥% من ايدروكسيد البوتاسيوم عند درجة حرارة ٢٠٠ مئوية بكفاءة ٤٠% بسمر منافس لخلايا الايدروجين والاكسجين .

٦/٧] وماذا قدمت خلايا الوقود ؟

تعتبر نتائج بحوث السويد في ميدان خلايا الوقود على النطاق العسكري مشلا يجتذى ، فالجيش السويدي وبعض الجيوش الغربية تستخدم خلايا وقود قادرة ١٧ كيلواط ساعة من مجرد حرق أو أكسدة كيلوجرام من الايدروجين ولم يتعد وزن المولد عشرة كيلوجرامات ، وتستخدم الخلايا في تزويد أجهزة الرادار الخفيفة وأجهزة الاستقبال اللاسلكي ، وذات الجهد الكهربائي توفره بطاريات كاثودية للبحرية الأمريكية بجهد ٢٨ فولت لمدة ١٠٠٠ ساعة تحت ظروف حرارية متغيرة واستخدمتها البحرية بكفاءة في نشات السواحل الخفيفة بتكاليف مقبولة ، كما استخدمت كمصدر طاقة للفراصات فترة بقائها تحت الماء .

٨ - البطاريات الكاثودية وخزن الكهرباء :

بحوث البطاريات الكاثودية وخزن الطاقة الكهربائية كاثيا تكاد تكون الصبير العلمي للقول المأثور « تَسْرُ لِفَمَك قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا »

وهناك خلايا غير مباشرة ساخنة تتطلب رفع درجة حرارة المحلول الوسيط الى درجة حرارة ٦٠٠ - ١٠٠٠ درجة مئوية ، ومن المنطقي ان الوسيط المتأين لن يكون محلولاً مائياً بل ملحا منصهرا من كربينات البوتاسيوم أو متعدد فوسفات الصوديوم داخل وعاء مسامي من المواد الحرارية . وتتنافس هذه الخلايا باستخدام أقطاب رخيصة من النحاس أو النيكل .

٤/٧] خلايا الوقود الحيوية :

أثارت خلايا الوقود الحيوية اهتمام العلماء منذ عام ١٩١١ لما لها من مزايا تميز عنها الخلايا الكهروكاثية ، فالاختزال والأكسدة تتم ببسيط بيولوجي ولا تطرد عوادم احتراق أو تسبب تلوثا بيئيا يفسد منه ويمكنها التعامل مع المخلفات الزراعية ونفايات الحقل والمزرعة والمنزل ولا تحتاج إلى مواصفات كاثودية عويصة مجرد محلول متبادل عند درجة الحرارة المعتادة .

وكل التفاعلات البيولوجية تتم باستخدام انزيمات تكسر الجزيئات المعلقة إلى جزيئات عضوية أصغر ، بسرعة واقتدار يتعدى عشرة آلاف مرة عن التفاعلات الكهروكاثية ، وإذا زادت درجة الحرارة عشر درجات فقط تنمدى سرعة التفاعل مئة مليون مرة عن التفاعلات الكاثية المتأخرة .

والهم هنا ليس تفصيلات التحلل وضك التراكيب المعقدة بل محصلة الأمر تتحول العملية الحيوية انتاج الايدروجين ثم أكسدته حيويا إلى الماء وتوليد تيار كهربائي وأهمي الشدة ... لكنها أمل يسعى خلفه العلماء حثيثا .

سوف تشير إليها دوما ، وعن السيارة الكهربائية تقول جريدة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٢٣/٩/٧٩ انه ابتداء من العشرينات دمجت جنرال موتورز مع ستاندارد أويل في كاليفورنيا وفأير ستون تأير السيارة الكهربائية وشبكات النقل السريع في ٤٥ مدينة بما فيها نيويورك ، وسمح بتدهور المسكك الحديدية التي كانت ذات يوم العماد الرئيسي لنظام النقل ... لصالح سيارة الجازولين والتي تستخدم طاقة أكبر بكثير ، وما تبقى من قاطرات تحولت فجأة الى الديزل ، وتم بناء أحياء وأسرة منازل منفصلة ، ولا يستطيع المرء شراء رغيف دون ان يذهب بسيارته ، واليوم تجري على الطرق الأمريكية ١٢٥ مليون سيارة وينتظر ان تصل الى ٢٠٠ مليون سيارة ، ويقولون لو استطاع العلم تسيير ١٠ مليون سيارة بالطاقة الكهربائية سوف توفر نصف مليون برميل جازولين يوميا ، ولو تحقق الحلم وأمكن تسيير كل السيارات كهربيا فانه يفني أمريكا عن استيراد ٧ مليون برميل يوميا ، وحيالا لو تجاوز العلماء الهدف المنشود وتوصلوا الى ادارة حركة النقل عام ٢٠٠٠ كهربيا فقد تستغني أمريكا عن شراء ١٠ مليون برميل يوميا .

وإذا كنا اقربنا من المشكلة بالسؤال لماذا ؟

فانه ترتيبا على الاجابة يجيء السؤال المباشرة التالي .. كيف ؟ والاجابة .. يرى العلماء انه لا بد من المراكز (البطاريات) الهامضة لما لها من ميزة خاصة بخصائص الطاقة الداخلة اليها او الصادرة منها

قيم اهتمامت وكالات بحوث الطاقة مثل E.P.R.I , E.R.B.A^(١) بمشايخ تطوير الطاقات البديلة وضعت أهمية كبرى على تكثيف جهد العلماء صوب التخزين الكيماوي للطاقة الكهربائية لماذا ؟

- لأن الطاقة الكهربائية سيان من الخلايا الضوئية أو المحطات الكهروحرارية أو خلايا الوقود يلزم الاحتفاظ بها وخزنها للاستخدام في اوقات الذروة ، وهي طاقة عكس الفحم أو البترول لا يمكن خزنها تحت الارض أو الابقاء عليها في محلاتها ومناجمها وأبارها ، فهي لا تخزن على حالها ، انما تتحول الى طاقة كيماوية .

- ولأن محطات القوى الكهروحرارية والنووية تهايه في اليوم الواحد احتمالا متفجرة الشدة ، فهي صباحا تحت وطأة سحب الطاقة ثم يزداد المعدل ، بعدها يصاب انخفاض مساره ، وتشغيل المحطات اقتصاديا يستدعي ثبات الاحمال ولا مناص عن تخزين الطاقة في فترات خفة الاحمال .

- ولأن العلماء تراوهم احلام السيارة الكهربائية مرة اخرى ويغفونها على الطرق منطلقة تعيد مجدها التليد وتوفر من الجازولين كميات يعتد بها ، كما أن السيارة الكهربائية حلم علماء البيئة نحو حل مشكلة التلوث الهوائي بالغازات السامة وأصلاح الرصاص .

وإذا كانت الاحصائيات في عديد من الدول غير جاهزة او معدلة او يعتد بها فان الاحصائيات الأمريكية دائما جاهزة ككلامه ثقة بالنفس ، ولهذا

وتتوقف كثافة مراكز الرصاص على درجة الحرارة وتركيز الحمض ، واستمرار عملية التفريغ والشحن تسبب بلورات كبيرة من كبريتات الرصاص تقام الاندماج في التفاعلات الكاثودية وتضعف القوة الدافعة الكهربية تدريجياً ثم تتوقف تماماً (شكل ٧).

واليم يركز الكاثيون على بطاريات الصوديوم والكبريت ذات الأقطاب المصنوعة من مصهور معدن الصوديوم ومصهور الكبريت بينما يقوم بدور حمض الكبريتيك مادة سراميكية خاصة توصل اليها الكاثيون بعد جهد جهيد ، والملاحظ ان التفاعلات الكاثودية الحادثة في بطارية الصوديوم والكبريت عكس بطارية الحمض مما يتيح للبطارية عمراً افتراضياً أطول . وتنتشر النتائج الأولية نجاحاً يعتد به ، وبدأ فعلاً تحويل التجارب العملية الى وحدات نصف صناعية وتقوم شركة جنرال اليكتريك على صناعة بطارية سعة ١٠٠ كيلواط ساعة ينتظر الانتهاء منها عام ١٩٨٢ وتخطط الشركة لانتاج بطارية سعة ٥٠٠٠ كيلواط ساعة في غضون عام ١٩٨٤ .

واقباء آخر ترعا E.R.D.A وتتولاه معامل البحوث صوب ابتداء بطاريات الزنك قدره ٥٠٠٠ كيلواط ساعة .

وحسب لا تنقل على القراء بالتفاعلات الكاثودية والتفصيلات الفنية للبطاريات الحديثة نلخص نتائج البحوث في الجدول التالي :

الى مجرد طاقة كهربية بينة كل البرامة من تهمة تلوث البيئة ، كما أن البطاريات قادرة على دفع السيارات وإدماجها في الشبكات الكهربية حيث تخزن الفائض منها في وقت انخفاض السحب وتعاود دفعة وقت اللزوة .


وقد حدد معهد اديسون لبحوث الطاقة الكهربية جملة مواصفات ومحددات يأمل العلماء توافرها في المركم الكهربية أهمها :

رغيسة الثمن - طويلة العمر - سهلة التشغيل - قادرة على دلق قدرة كهربية عالية - لا تتعرض الاقطاب للتلف الطبيعي Physical Damage نتيجة تفسير الشكل البلوري وسادبة الاقطاب ... الخ .

٨ - ١) وكيف يفكر الكاثيون في الهدف :

بادىء ذي بدء يقول الكيمياء تتكون البطاريات الحامضية من وعاء غير قابل للتلف يحتوي على محلول ٣٣٪ حمض كبريتك تغمر داخل قطب سالب من الرصاص وقطب موجب مصنوع من الرصاص المغطى بطبقة من اكسيد الرصاص ويحمل التفاعلات الكاثودية في قلب البطارية تلخصه معادلة بسيطة مؤداها :

فوق اكسيد الرصاص + رصاص + حمض

الكبريتيك  التفريغ
كبريتات رصاص + ماء
الشحن

نوع البطارية	التيار/كيلو جرام	عمر التشغيل ساعة	التكاليف بالدولار لكل كيلوواط ساعة	تاريخ التشغيل التجاري
بطارية حمض معدلة	٤٠	٢٠٠٠	٨٠	١٩٨٤
بطارية نيكل/حديد	٥٥	٢٠٠٠	١٠٠	١٩٨٣
بطارية نيكل/زنك	٩٠	٢٠٠٠	٧٥	١٩٨٥
صوديوم/كبريت	٩٠	٣٠٠٠	٧٥	١٩٨٥
ليثيوم/سليكون/حديد	١٠٠	١٠٠٠	٨٠	١٩٨٥

٩ - () الايدروجين وقود المستقبل :

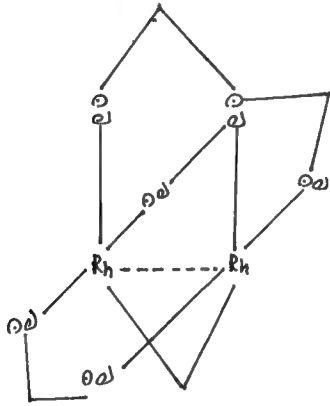
في تفهم طبيعة التفاعلات بين المواد الكيميائية المتنوعة لحل مشاكل تحضير الايدروجين ، وحتى لو تجاوزت الكيمياء حدود المشكلة العلمية يبقى على المهندسين الكيميائيين وضع خطه وبرنامج من أجل تذليل العقبات الفنية المتعلقة بالتفاعلات واقتصاديات المشروع وتأكل مواد التشغيل .

الاستاذ الدكتور ت . ن فيزوجلوا استاذ ورئيس قسم هندسة الطاقة بجامعة ميامي ورئيس اول مؤتمر للطاقة الهيدروجينية الذي عقد في ميامي عام ١٩٧٦ ينظر الى الايدروجين على أنه طاقة وسيطة أو همزة الوصل بين الطاقات الحفورية والطعامات المستهلكة للطاقة ، فهو سهل التخزين والنقل ووقود اقتصادي متجدد ولا يسبب تلوثا ، والايدروجين وفق تكوينه الذري والجزيئي مستقل تماما عن مصادر الطاقة الحفورية ولذا يظل محتفظا بمطاطه ومخازنه وطرق ضخه ، بعيدا عن النظم الحفورية ولا يرتبط بها ، سبان تغيرت أم بقيت على حالها .

انه من محض الخيال الآن تصور أن يحل الايدروجين محل الوقود الحفوري ، لكنه الى جانب ذلك بديل متاح في المستقبل عندما ينضب الوقود الحفوري بصورة مختلفة . وصناعة الايدروجين بالتحليل الكهربائي تستهلك كمية كبيرة من الطاقة الكهربائية أكبر كثيرا عن الطاقة التي يمكن الحصول عليها من الايدروجين الناتج عن التحلل الكهربائي للماء ، وعلى احسن الظروف فان طاقة الايدروجين لن تتعدى ٥٠٪ من الطاقة الكهربائية المستهلكة ، ولو استخدم الفحم في توليد الطاقة الكهربائية اللازمة لانتاج الايدروجين فان كفاءة التشغيل لن تتعدى ١٥ - ٢٠٪ تحت أحسن الظروف الانتاجية ، والتحليل الحراري المباشر للماء بفعل التفاعلات النووية لا تتعدى كفاءتها ٢٥٪ .

ويقول ج . ك دواسون - أحد كبار العلماء المهتمين ببحوث الطاقة إن الأمل معقد على الكيمياء

(١٠) الايدروجين احد العناصر جميعها وهو غاز خديم اللون والرائحة يشتمل بسرعة ووفرة غليظه (- ٢٥٢) م واهم مركباته لله .



شكل (لا) تجزئة تحضير الديرورجيه باستخدام المركب الكبريتي رمزه اسفن
الصدرة التي تتكون في لونه المحلول داكنه اللونه
انظر شكل (أ)

الذي متى اذيب في محلول حمضي تتكون منه نويات ثابتة تتمص بشدة الأطياف الضوئية ، ويمل لون المحلول الى الاسوداد ، وفجأة تتكون على سطحه فقاعات صغيرة دقيقة من غاز الايدروجين مع تكوين ناتج تأكسدي للملح المستخدم .

ويشرح الدكتور جراي ما حدث داخل أنبوبة التجارب (شكل ٨) مؤكداً فعل الأطياف الضوئية على إثارة الملح نجم عنها تولد الايدروجين بعد رحلة قصيرة استقطب فيها المركب الكيميائي غاز الايدروجين على سطحه .

لكن تضع أقدامنا على ارض الحقيقة ونقول رغم تصاعد الايدروجين بهذه السهولة لازالت تجربة الدكتور جراي تتصف بالأكاديمية العلمية وإن تكون قريباً حلاً ناجحاً للمشكلة ولزوبها إعادة تنشيط المادة بعد تأكسدها وإعادة احيائها الى حالتها الاولى والتركيز على خفض سعر الملح المستخدم .

أيا ما كان الأمر فإن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .



الاقترب الثاني من المشكلة جاء من كيمياء المواد الجامدة ، وبالتحديد من مخلوط أكاسيد عناصر المجموعة الثانية والرابعة في الجدول الدوري للعناصر أو جدول مندليف لمن يهوى تحديد الأسماء .

هذه المواد اذا أحسن تحضيرها حسب الأصول والقواعد العلمية الدقيقة وبمحت لأكاسيد بالالتقاء والتزاوج الجيد تكونت أملاحاً^١ خصائص

والايدروجين يشكل ٧٣٪ من وزن كل أنواع الرقود الحفري بالنسبة لقدرة ملم من الطاقة ويشغل حجماً يماثل ٣,٥ مرة حجم ذات التطير الطافي من البنترول ويعتبر وقوداً ممتازاً لحفنه وسهولة اشعاله وإن كان الغاز ساماً .

وقد أبرزت دراسات بحوث الايدروجين أن نقل الغاز الى مسافة ٢٥٠ كيلومتراً أرخص كثيراً عن نقل الكهرباء الى ذات المسافة ، وينتظر استخدامه في الطهي والاشاعة وتوليد الكهرباء وتدفئة المساكن وصناعات الصلب كما يستخدم في خلايا الوقود كما أشرنا ، بيد أن مشكلة حجم الايدروجين لازالت تؤرق الباحثين ، ويقوم فريق بحثي متكامل مكون من رجال ذوي تخصصات في الكيمياء الطبيعية - كيمياء المواد - الطبيعية النووية ... الخ بدراسة وإعادة صياغة سلوك الايدروجين تجاه قوانين بويل .

التطرف الآخر تسخين الغاز حتى يتعدى حالة البلازما تماماً وسوف يصبح الغاز ذا نشاط كيميائي باهر ويتغل على خصائصه المألوفة ويتحول تماماً الى طاقة ؛ لكن الجدير بالذكر أن كل الامر أوهامات تجريبية لم تستقر بعد على حالة .

وبحاول الكيميائيون خفض تكاليف الايدروجين باستغلال الطاقة الشمسية وتسخيرها في اقسام تفاعلات كيميائية هدفها تحضير أخف عناصر الكرة الأرضية قاطبة بأرخص التكاليف ، وسن هذه البحوث ما قدمه الدكتور هاري جراي بمجهود بحوث جامعة كاليفورنيا عن استخدام مادة Dirhodium Complex (شكل ٧ ، ٨)



شكل (A) يوضح القبرية من شكل (A) ، على اقصى يار
 الصورة الكائنات الصوفى المتختم لمقرئى المولد ...
 وتبدو قطاعات غاز الديبروجيه حول جبار الاسنوج
 الداخل بنبأ تقاعد الديبروجيه من الاسنوج على
 اقصى يمين الصورة لذلك لتتفاد القدر الكائن من
 المقرئى الصوفى .

وبذا يعمل الملح وسيطاً طيباً ومتعادلاً بين
الأكسدة والاختزال لاتمام تحليل الماء الى الايدروجين
والاكسجين .

والحديث عن الايدروجين من الطاقة الشمسية
لا ينفي او يقلل من اهمية تحضير الايدروجين من
الفحم الذي تراكم في باطن الارض ، واليوم وليس
غدا يصادون الاهتمام به واعادته الى عرشه سيان
بالطرق المباشرة ... فها .. او وسيط انتاج صورة
من صور التوقيد الاخرى .

والفحم سهل النقل والتخزين لذا فان ميزة
تحضير الايدروجين منه تعطي وقوداً نظيفاً ، كما ان
الايدروجين صالح في حد ذاته وقوداً للسيارات او
انتاج الكهرباء ، ويحضر غاز الايدروجين من الفحم
بتسخينه بشدة تحت الضغط والحرارة وفي وجود بخار
الماء .

فحم + بخار ماء \rightarrow ثاني اكسيد كربون +
اول اكسيد كربون + ايدروجين
اول اكسيد الكربون + بخار ماء \rightarrow ثاني
اكسيد الكربون + ايدروجين

ويعتمد حجم الايدروجين الناتج من التفاعل
الاول على نوعية الفحم والعوامل الكيميائية المألوفة
من درجة حرارة وضغط وحين تفاعل بينهما يحتاج
التفاعل الثاني الى وسيط نشط قادر على استكمال
سحب ذرتي الايدروجين من جزيئات الماء ، وان كان
الوسيط الكيميائي الناتج حالياً لا يقف على الجياد
بين الفرقاء وينتهي دوره ، لكن تشل فاعليته متى
تلاقى مع الشوائب ، كما انه لا يطيق لقاء الكبريت

كهروضوئية ؛ او تحولت الى مواد شبه موصلة مثل
تيتانات الباريوم - تيتانات الاسترنسيوم - تانتالات
الكالسيوم ، وتتلبد الاملاح حرارياً او تنطلي بها شرائع
معدنية بعدها تنمر في محلول مخفف من ايدروكسيد
البوتاسيوم وتعرض لضوء الشمس وينتقل الماء شمسياً
مكوناً غازي الايدروجين والاكسجين .

ويفسر أهل المعرفة ميكانيكية التفاعل أو
بالاخرى خطواته الى عدة مراحل خلاصتها ان
سقوط الضوء على التيتانات ينجم عنه خلق فراغات
موجبة وتكون مجال الكرواستاتيكي وفرق جهد
يؤكسد الماء الى عناصره الأولية التي خلق منها ،
لكن كل الدلائل تشير حتى الآن بأن نتيجة
المحاولات غير مشجعة حتى الآن ، فالحال لا تخص
أكثر من ١٪ من جملة الضوء الساقط عليها ، ويتم
حالياً تكثيف الجهود لتحسين اداء الخلايا .

وننتقل من المواد العضوية وأملاح البيرفسيكيت
الى املاح المعادن البسيطة وعليها تجري بحوث
لدراسة قدراتها الانفصالية تجاه الضوء وأبرزت
التجارب قدرة ملح الحديدوز والحديدك على
امتصاص فوتونات الضوء وتلقب لمبة مرتوجة نجعلها
على النحو الآتي :

ماء + ملح ثلاثي التكافؤ \rightarrow طاقة ضوئية ملح
ثاني التكافؤ + ايون ايدروجين + ذرة اكسجين .
ويعيد الايدروجين اكسدة ذرات الملح الذائب في
الماء الى تكافؤ الأصلي ويتساعد غاز الايدروجين .
ملح ثنائي التكافؤ (ناتج التفاعل الأول) + ٢
ايون ايدروجين + \rightarrow غاز ايدروجين + للملح ثلاثي
التكافؤ

المنتفخة على الذرات المجاورة وتتكون اجهادات داخلية وشروخ دقيقة تسبب انهيار المعدن وقطعه .

وكثيرا ما يلهو الايدروجين مع الاوعية المعدنية وانابيب الصلب ويتفاعل مع الكربون ويكون غاز الميثان ، ويا لها من فرصة لو عثرت ذرات الايدروجين على شرخ او خدش فاذا بالشرخ يتمدد وكان طفلا صغيرا يقص ورقة او يزق قطعة قماش واهية ، وهو ثالث لا زالت قواعد حتى الان غير واضحة المعالم فيه ينهار المعدن لمجرد وجود الغاز الى جوار نسبة ضئيلة من الاكسجين او ثاني اكسيد الكربون او بعض اكاسيد الكبريت .

والايدروجين على ما بينا يصعب تقييمه وتقديره للمستقبل ... ولكن عقول العلماء لا تهدأ ولا تستكين وربما سأل احدهم نفسه ولماذا لا يكون هذا العبث مفيدا جدا فلندع الايدروجين يلهو مع المعدن فهذا افضل اسلوب لحزته وكبح جماحه والسيطرة على قوته ما دام يمكن استمادته منها بالتسخين البسيط . وعلى هدى الفكرة التي حاولنا تبسيطها ظهر في عام ١٩٦٩ اول دراسة متكاملة عن تصميم سيارة تسير بالايدروجين واستخدام هينريد المنسييم كوسيط ناقل للغاز ، واليوم تجري الشركات الامريكية والالمانية دراسات لاستكمال طرح سيارة الايدروجين تجاريا . (شكل ٩) .

١٠ - الهندسة الكيميائية وخرن الحرارة وانتقالها :

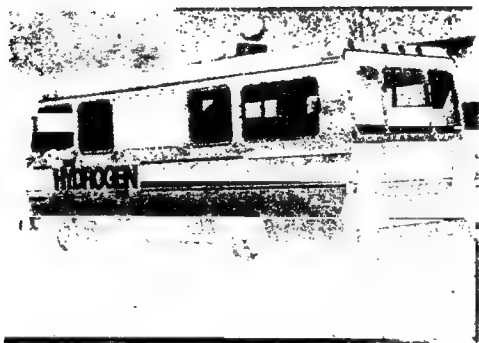
' نرى على شاشة التليفزيون شريرا يهدد .. بالقاء ماء النار على وجهه ، والرجل لا حول له ولا قوة ... تارة يستدر عطفه واخرى تنهمر

والفوسفور دون كل التواثب . وهذا في حد ذاته تحد لاهل الكيمياء لم يبدوا له حلا ولا استطاعوا اكتشاف وسيط لا يكثر بالكبريت او الفوسفور .

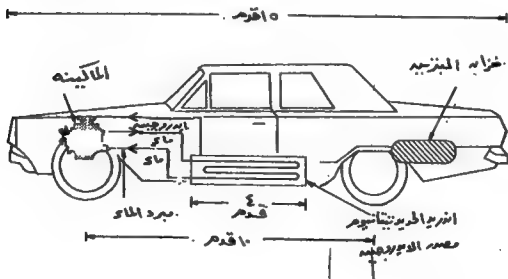
وليس الفحم هو مصدر الايدروجين المتاح ، فالماء وحده يمكن تحليله كهربيا كما اسلفنا ، والماء ايضا متى سخن الى ٢٥٠٠ درجة مئوية تحلل وانهار وانفصلت عرى الترابط بين ذرات الايدروجين والاكسجين ، لكن العالمين ويتنورف وهلقان فلما في مؤتمر الايدروجين الدولي بالترويج عام ١٩٧٧ مفاجأة سارة ، فالرجلان يملآن جيدا معنى ٢٥٠٠ درجة مئوية في ظل ازمة الطاقة ، لذا حاولا حل المشكلة بطريقة كيميائية جديدة تعد احدى روائع الكيمياء غير الضوئية ، وعرضا على القيم بصورتها لاستخلاص الايدروجين من برائن الترابط الكيميائي للماء مستخدمين ملح كلوريد الحديدوز - يتركب من ذرة حديد وذرتي كلور - ولم يستخدما درجة حرارة اعلى من ٤٥٠ درجة مئوية فاذا بالايدروجين يأتي بين يدي العالمين طوعا لاكرها .



وطن القيم ان المشاكل انتهت لكنها في الحقيقة بدأت ... فالغاز لا ينفك يلعب مع المعادن العابا خطرة تنهار فيها السباك والفراغات وتتفتت .. اليس عجبا ان اخف عناصر الكون وارقتها واضعها بنية ينهار تحت ضربات ذراته الحديد ذو الپاس الشديد والصلب ويتحولان قبالة الى جسم هش ، فتارة يدخل الغاز بين ذرات المعدن ويحدها مكتونا ملح الميبريد . حجم المعدن ٢٥٪ من حجمه الاصل .



شكل (٩) سيارة ايدروجينية تحت الاختبار

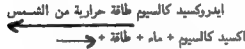


شكل (٩) تفاصيل سيارة ركوباً تعمل بالهيدروجين

البخر وفقد الحامض أثناء البخر وإعادة الخلط والتخزين والتقليل من الفاقد الحراري .

يبحث آخر درس امكانية تخزين حرارة الشمس باستخدام اكاسيد وايدروكسيدات القلويات الارضية وبالاخص اكسيد الكالسيوم المعروف شعبيا « الجير الحي » وقد سمي بهذا الاسم لأن الجير الحي متى لامس الماء انفصل داخليا وانقلبت صورته وصار غضبانا شربا تتطاير منه الحرارة بشدة ويتصاعد بخار الماء الى الهواء وكأنه لا يحتل ما يحير من تغييرات داخل كتلة الجير الحي ، وإذا به بعد فترة ينطفئ غضبه ويصبح لنا هشا ، ويضعي كيميائيا صورة جديدة او مادة جديدة هي ايدروكسيد الكالسيوم .

وقد تابع مهندسو الكيمياء هذه الخاصية وترجموا معادلتها الكيميائية



الى بحث ودراسة وتنقيب وتجريب تناولت سعة المبدلات الحرارية والعزل الحراري وسرعة التفاعل وحجم الحبيبات والاضافات الكيميائية ، وتقصدوا بالتنتائج وذكروا ان الجير الحي يمكنه تدفئة المنازل الصغيرة وصوابي المزروعات والزهور ، ويقترحون تخزين الحرارة نهارا وسحب الطاقة ليلا ، ويرى بعض مهندسي الكيمياء استغلال طاقة الشمس صيفا وتخزين الجير الحي حتى يمين الشتاء ، وحددوا احتياج منزل مساحته ١٥٠ مترا مربعا ب ١٢ متر مكعب جير باستخدام مسطح تجميع في حدود ٣٠ مترا مربعا .

دموعه على خديه فقد رمخ في قرارة ذهنه ان ماء النار تفرس انسجة الوجه وتلتها وتشوه خلقه الانسان ايام تشويه ، والذي عادة تهمل المسلسلات والافلام ان ماء النار هو بعينه حمض الكبريتيك ، وان سبب التلوث شراة الحامض لامصاص الماء وارتفاع درجة الحرارة لدرجة قد تنفحم وجه الضحية ، وان التفاعل اللاخلاقي هو تطويع يشع لخاصية هامة من خصائص الكيمياء ، فهناك تفاعلات ماصة للحرارة واخرى تطرد الحرارة في مقمتهما ذوبان حمض الكبريتيك في الماء ، وهو مثل كل المواد الكيميائية له حدان ... حد يمكن فيه الشر وحد آخر يمكن العلم بفاخره ، فذات التفاعل بدأت البحوث تنبه صوبه لتخزين طاقة الشمس كيميائيا والفكرة بسيطة ورائعة وقدمها دونالد بول وفوجلاس هكس تايل للمؤتمر الامريكي الكندي المشترك للطاقة الشمسية الذي عقد بمدينة وينج في الفترة من ١٥ - ٢٠ أغسطس .

والفكرة ببساطة تعتمد على جملة حقائق مؤداها ان الحمض المركز متى خفف بالماء تصاعد من الاذابة قدر هائل من الطاقة الحرارية ، ويمكن اعادة تركيب الحامض المخفف بالطاقة الشمسية وتكثيف الماء الناتج وإعادة الحلقة مرات ومرات وسرات ، ويمكن استغلال الحرارة في تبريد او تدفئة المنازل اوضح الماء من الآبار .. الخ .

والنظام رغم غرابته يمتاز بسهولة تشغيله في اي دولة ، فالحامض ينتج تقريبا في كل دول العالم والطاقة المنبعة قديما خروقي ، ويبقى تطويع النظام حتى يناسب الاستخدامات المتعددة ويحلها مشاكل

وأيدروكسيد الباريوم وبعض البوريك وتنتشر البوتاسيوم وكلوروات البصديوم ، وبات وشيكا الانتهاء من بحث كفامة محلول كيرينات البصديوم ويستطيع المتر المكعب من المحلول خزن ما مقداره ٢٥٠ ميغا جول عند درجة حرارة ٣٠ مئوية أو حوالي ١٨٠٠٠ وحدة حرارية بريطانية ، وإذا أمكن تبديل هذا الكم الحراري باستخدام وسيط ناقل للحرارة من الكحول والماء فإن تدفئة المنازل سوف تصبح أمرا يسيرا عن قريب .

ومحاولات العلم لا تقف عند حد ولا يتركها مد ولا تنهاى أمام صواب ظاهرة أو باطنة ، فالحدث جلل والمشكلة يحشها كل ذي عقل سليم وتفكير غير سقيم ، ولأجل الحل يطرقون كل الابواب ويحاولون العثور على بصيص من الضوء ينير طريق المستقبل ويبدد الحفوف من نفاذ الطاقات الجوفية والبتروك على صدارتها . ودفعتهم المحاولات الى البحث في امور كثيرة منها الاكاسيد الفوقية^(١١) التي تسمح بتكوين مواد او اكاسيد اصلية وتفتح الطاقة الحرارية مثل :

الاكسيد		فرق الطاقة الحرارية	درجة حرارة التخلل
الفلوي	الماندي	سعر / جرام	درجة مئوية
فرق اكسيد الليثيوم	اكسيد ليثيوم	٢٧٤	٢٠٠
فرق اكسيد الباريوم	اكسيد الباريوم	١٣٦	٥٦٥
فرق اكسيد البصديوم	اكسيد البصديوم	٣٧٦	٦٥٠
فرق اكسيد البوتاسيوم	اكسيد البوتاسيوم	٥١٢	٢٠٠

وهندسة الاحتراق شغلت بال مهندسي الكيمياء وهندسي الميكانيكا وتشكلت فرق بحثية ضمت طرفي الموضوع .

شكلت لزمة الطاقة الراحنة عيشا جديدا على الكيمياء والهندسة الكيميائية بين طرح على مائدة البحث فكرة تعديل ورفع كفامة الاحتراق وخفض الفاقد الحراري من الافران والايونية ووحدات الانتاج الصناعي . والمشكلة لا تبدو حديثة عهد وان اكسبتها لزمة الطاقة ايمادا جديدة ، فقد ظل العالم راضيا كل

ورغما عن جودة النتائج النظرية الا ان العلم شيء والتطبيق امر مختلف ، فهناك مشاكل تداول المواد الصلبة والسائلة والابضرة وتحديد سرعة التفاعلات وتبديل الحرارة وانتقالها وخفض تأثير ثاني اكسيد الكربون على الاكسيد وتنقية الجو من دقائق المواد وتأمين العاملين صحيا ضد اخطار التشعيل .

ولا زال في جبهة الكيمياء الكثير فدرست ديناميكية انتقال الحرارة في المحاليل المركزة والمشبعة لاملاح كبريتات البصديوم وكبريتات البصديوم

(١١) الاكسيد المائي عبارة عن اتحاد المتصارع قدر معين من الاكسجين بين الاكسيد الفلوي هذات الاكسيد المائي مبيحا بكم اكبر من الاكسجين :

الطاقة ، ولم يترك جدار الفرن هكذا بلا عمل انما دفعا في الانابيب ماء باردا فاذا به يتحول الى بخار عالي الضغط يحرك توربينات توليد الكهرباء ، شكل (١٠) .

ومن الطرق الجديدة استخدام الزلزل كمبدل حراري بين السوائل الساخنة والباردة والسيطرة على اختيار مكان شمعة الاحتراق في قلب مفاعلات السيارات ومحاولات تحسين تزويد الوقود والوصول بنسبة الهواء الى المازولين للحد الاثمل والحدية الاقتصادية .

والامثلة كثيرة ومتنوعة والتجارب قارب قوسين او اذني من اللحظات الحاسمة ... وتشترك الاحتراق وتأخذ الشق الثاني من اجراءات السيطرة على الفاقد الحراري وسوف نلاحظ ان بعوث المواد الحرارية العازلة اكتسبت نشاطا جديدا بعد طول رقاد والبعيم يعاودون اجراء ضبط النتائج العملية على الحواسيب الالكترونية هادفين الى تحديد الآتي :

- مدة استهلاك المنشأ الواقع تحت الحرارة .
- تكاليف العزل الحراري .
- درجات الحرارة المحتملة .
- رفع كفاءة العزل الحراري الى اعصى حد ممكن .

وتنلاحظ ان مادة مثل الاسيستوس (سليكات ماغنسيوم) تجري عليها دراسات مكثفة لانتاج مواد عزل جديدة بخلطها مع مادة البولي موريثان ، كما ان الطفلة الدياتومية^(١٧) يعاد النظر في نشاطها

الرضا عن كفاءة الاحتراق داخل محركات السيارات الذي لا يتجاوز في افضل الظروف عن ٣٠٪ من جملة الطاقة الحرارية المنتجة ، كما ظل سعيد النفس هاديه الببال وقرير العين رغم فقد اكثر من ٩٠٪ من جملة الطاقة الحرارية الصناعية الى الهواء ، والبعيم لم يد هناك رضا ولاقناعة وسبحان مفير الاحوال .

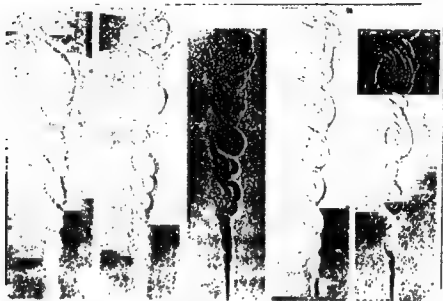
وبهذا بالمشكلة تشكلت فرق بحثية في الجامعات والمعاهد مراكز البحوث تبغي في الاساس غرضين :-

أ - ابتداء اساليب علمية وكيميائية بالدربة الاولى رفع كفاءة الاحتراق .

ب - وابتكار او تطوير وسائل السيطرة على تسرب الحرارة الى الاوساط المحيطة .

عن هذه الدراسات الكثيرة والعميقة تأخذ لمحات او نلقي بعض ضوء واه وليكن مثالنا الدواسة التي قدمها اثنان ... مهندس كيميائي ومهندس ميكانيكي عن طريقة لاكتساب اكبر قدر من حرارة الاحتراق داخل الاقران باجراء مجموعة كبيرة من التبديلات الحرارية واعادة تصميم جدار الفرن وخفض كمية الطاقة الحرارية المنتجة مع غازات العادم ، ولزم لها صناعة جدار الفرن من مواسير صلب قطرها ٥ سم تتصف بالقدرة على تحمل شدة الضغط والفضل الناشئ لغازات الاحتراق تحت ظروف درجة حرارة التشغيل ، وابتكارا طريقة خلط الهواء بالوقود في حركة دوامية - كما تتضح من الصورة - بحيث يتم الخلط كاملا ، ويضد الوقود عن كل مكوثاته من

(١٧) للرجوع في المازول ، مصر ، المغرب ، كاتالونيا ، إنجلترا ، روسيا .



شكل (١٠) تنظيم عملي الدعامة داخل الدفء
 فكيف عمل جدران الدفء بالمواد الحرارية العازلة
 التي يعتبر استجالي بالدرجة الأولى مع افقنا من علوم
 الكيمياء .

تتكون الطاقة المشعة من الشمس من تحويل ثاني أكسيد الكربون والماء الى مواد كربوهيدراتية وتسمى العملية بالتمثيل الضوئي مكونة سكريات بسيطة بعدها تتحول الى سكريات ثنائية يتلوها تكوين سكريات معقدة مثل النشا والسليلوز.

وقد يختزل السكر المتكون ويتحد بالنتروجين المثبت مكونا البروتين النباتي او يختزل السكر فقط ويتحول الى زيت ، ولم يعرف المدى الذي يتدخل فيه التمثيل الضوئي في العمليات السابقة لكن من الواضح جدا ان الكربوهيدرات هي الاصل الذي تنفرع منه كل مركبات الكائن الحي .

والورقة الخضراء او المعمل الكيميائي الحي مجهز بابداعية واعجاز يقف امامه كل العلماء خاضعين لقدرة الخالق ، فالورقة تحتوي مساما يبلغ عددها اكثر من ٢٠,٠٠٠ ثقب في البوصة المربعة منها ينفذ ثاني أكسيد الكربون ، اما عروق الورقة فتجذب الاملاح المعدنية والماء وتنقل المواد بعد تفتيتها وينشأ عن ذلك دورة مثالية لا تنقطع مكونة الكتلة العضوية باسكالها المتوقعة من الحبوب - الثمار - الزيوت - السكر - النشا - السليلوز والخشب - الاليف - البروتين النباتي ... الخ .

ويتناول الانسان والحيوان غذاءه من هذه الكتلة المتنوعة الاصناف والاشكال ، وتأخذ الصناعات ما تحتاج اليه من مادة خام تعمل فيها تغييرا وتديلا ، وكلا الآتين الحية والمعدنية يتبقى منها فوائض او نغرز مخلفات عضوية لا زالت تحمل بين جنباتها قدرا من الطاقة الشمسية لا يستهان بها .

الكيميائي بطرق الكيمياء الكهربائية وتجري عليها بحوث مكثفة لخلق عازل حراري خفيف يصلح لتطبيقات الانشاءات والمباني والاقصران ، وينتظر من نتائج تجارب خلطها مع البولي يوريثان الحصول على عازل حراري جيد ، كما ان الصوف الزجاجي من المواد التي تلاقي الآن اهتماما بحثيا متجددا وكربونات المغنسيوم القاعدية تتال خطا واغرا من الفكر العلمي المنظم .

وبلاستيك البولي يوريثان عبارة عن نوع من البلمرات العضوية لبعض المواد الاولية تنتج بلاستيكا اسفنجي الشكل ذا فراغات مغلقة غير متصلة مملوءة بغاز ثاني أكسيد الكربون الحامل ، ويمكن تشكيل المادة بالشكل الهندسي المناسب تأكيدا للسرل الحراري .

وتحظى مادة البولي استرين الاسفنجي وتبلغ كثافتها رطلا لكل قدم مكعب باهتمام كبير كعازل حراري ، حيث يفضل استخدامها في عوازل التبريد والتكييف لما لها من قدرة عالية على منع تسرب حرارة الوسط الجوي الى المكان المبرد او منع فقد برودة المكان .

١١ - الكيمياء والكتلة العضوية والطاقة

الكلوروفيل او اخضر الورق هو العامل الفعال في اعجب معمل كيميائي عرفه الانسان ، وذلك لأن جميع العمليات الحيوية للنبات تعتمد على عمليات البناء الاولية التي تجري في خلايا الورق . وتحتوي خلايا النسيج الاسفنجي للورقة على دقائق صغيرة من الكلوروفيل مغمورة في سائل الخلية ووظيفتها اتم

وقد نسب العامة هذه الظاهرة الى الشياطين والجن التي تسكن هذه البرك لكن حلقات النيران لا تنسب الى جن او شيطان بل الى ميكروبات تعيش في طين البرك ، فبين وقت وآخر تتساقط بقايا نباتية تدفن شيئا فشيئا في الطين وتبدأ في التحلل في غياب الاكسوجين وينتج غاز الميثان (غاز البرك والمستنقعات) وتتجمع الفقاعات شيئا فشيئا وعندما يزداد ضغطها تهرب الى السطح وتحترق في الهواء على هيئة حلقات النار المشتعلة .

وكلمة ميكروب كلمة منفرقة تستاء النفس عند سماعها وتقتصر الأبدان الذكرا ، فقد ارتبطت هذه الكلمة في عقولنا بالمرض والاذى والقذارة ، واخذت الاجيال جيلا تلو جيل تتناقل هذه المشاعر تجاه الميكروبات ، ويستكمل الدكتور محمد صابر تقديمه للميكروبات في كتابه الموضوعي الرائع الانسان والميكروب والزراعة - قاتلا - اتنا نظلم الميكروبات ظلما مينا بهذه المشاعر فليست جميع الميكروبات ضارة ... بل على العكس من ذلك فيجانب القليل الضار ... هناك ايضا الكثير النافع الذي لا يمكن للحياة ان تستقيم في غيابه ، فقد أوكل الله سبحانه وتعالى الى الميكروبات دورا اساسيا في الحياة .. لا يمكن لها ان تسير في غيابه ... الا وهو اتمام دورة العناصر في الكون .. ولا تكاد تترساعة من تهاوار ليل لا تتدخل فيها الميكروبات بطريقة مباشرة او غير مباشرة في شئون حياتنا ... فهناك ميكروبات ضارة تتطفل على الانسان والحيوان والنبات وفرضه ... وهناك ميكروبات تترجم على المواد الغذائية ونحوها الى نفايا عذبة القيمة .

ولقد اثارت الكتلة العضوية فرائح الملاء لايمباد منهج يحصلون منه على خبر ، ويتقنون به شر الآونة فابتدأوا الانفضات ناحية التطهير الاتلافي بجزل عن الهواء عند درجة حرارة في حدود ٥٠٠ درجة مئوية ، وتنتج هذه الطريقة مقطرات تتشابه الزيت الخام بقدرة حرارية تعادل ٧٥٪ من القيمة الحرارية للزيت وتبلغ كمية المقطر حوالي برميل للطن الواحد ، وفرح بها القوم فهي الحل الامثل لمشكلة نفايات المدن ومصدر جديد للطاقة ، لكن دراسات الجسدوى الاقتصادية ثبت منها ان الاقلال من النفايات عند المنبع ... اي عند قاطن المدينة افضل كثيرا من استعادة الطاقة بطرق مكلفة ، فالتطهير الاتلافي سوف يحتاج الى جملة خطوات اعداد وضغط النفايات واستهلاك طاقة حرارية للوصول الى درجة الحرارة المثل للتطهير ... وكان ما تأخذه باليد اليمنى يفر من بين اصابع اليد اليسرى ، وكما تفرغ مهندس كيميائي شاب للمساءلة المطروحة وحسب العقبات الفنية في تعميم وتشغيل الافران فجاء من معمله يسمى قاتلا يا قوم انفضوا ايديكم من الامر وابحشوا عن طريق اخر . واين الطريق ؟

والطريق المنشود واسل العالم اليوم في حل بسيط ، ففي كتابه الصغير المعع عن الميكروبات والحياة يقول الدكتور عبد المحسن صالح .. في الليالي المظلمة في الريف قد تخرج من البرك والمستنقعات حلقات من النيران تظهر اول ما تظهر على سطح المستنقع ثم تضيء ، وقد ترتفع الى اعلى في الهواء فتحدث هلما ورعيا في القلوب .

الأول : تخفيف استهلاك البوتاجاز والمحد من استهلاكه في القرية المصرية .

ثانيا : التخلص من الروث والحطب وإعادة العناصر الغذائية للأرض الزراعية استكمالاً للدورة الطبيعية حتى تعود الأرض الى سابق عهدها التي ما كان لها ان تتغير أو تتبدل .

يبد ان الامر لم يقف عند حد دول العالم الثالث فقط بل اهتمت به سلفا كل الدول الاوروبية وامريكا واليابان في محاولة استخدام النفايات والمخلفات اليومية للسكان في انتاج البيوجاز .

وغاز الميثان من الوجهة الكيميائية يعتبر اصل المركبات المضوية المساة عائلة البرافينات بالرغم من انه لا يمكن ان يحضر منه سوى عدد محدود من المركبات نظرا لانه ايسط الهيدروكربونات حيث يتكون من ذرة كربون واحدة متحدة بأربع ذرات هيدروجين ، والميثان غاز عديم اللون يغلى في درجة - ١٦٤ مئوية وعند احتراق الميثان تنطلق كمية كبيرة من الحرارة ولذا تنجبه بدائل الطاقة نحو انتاجه بيولوجيا ، واستخدامه كمصدر متجدد للطاقة .

(١١ ٦) انتاج الميثان من المخلفات اليومية :

تتوقف كمية المخلفات ونوعيتها على جملة اعتبارات اهمها عدد السكان وجملة الدخل القومي ومستوى حياة الافراد وانكاس الدخل القومي على المستوى الثقافي للافراد وتقبلهم للنظم الحضارية وصولة التوفيق بين الاسكانات والقدرات والتطلعات وتغيير الانماط الحياتية كدالة على الدخل والمستوى الحضارى ، فهناك شعوب يعتبر دخلهم من اعل

وعديم القيمة شيء تسمى في هذا الزمان ... فقديم القيمة اسس ، ونفايات الماضى قد تصبح غذا شيئا لا يقدر بال ، ولا تكفي معادن الارض الثمينة له وزنا وسبعان مبدل الاحوال ، وإن اكون مبالغا اذا ما وصفنا روم الامس بأنه وثيق القد ، ولأجل عديم القيمة هذا عقدت عدة مؤتمرات عالمية كان اهمها قاطبة مانظمته وزارة البحوث والتكنولوجيا بالمانيا الغربية تحت اشراف المنظمة الدولية للتدريب ، وغرض تحت اضاءه علميو العالم ومفكره اكثر من خمسين بحثا جادا وعميقا عن الميكروبات وبدائل الطاقة طرحها علماء اكثر من سبع عشرة دولة .

يجوز الميكروبات ليس جديدا على الافهان ، فيمكنها تحويل جميع انواع المواد المضوية السيلولوزيه الى مزيج من ثاني اكسيد الكربون وغاز الميثان خلال عملية المضم اللاهوائي الى جانب قدرتها على اجراء التخمر الكحولى للمواد السكرية البسيطة والمعقدة . ويقتضاهما تتحول السكريات الى كحول الايثانول . وفي كلتا المملتين تحتوى المواد المتغلظة على مواد معدنية متنوعة سبادا للزربة .

وقد بدأت بعض الدول الثامية الاهام بالتخمر اللاهوائي وانتاج غاز الميثان واستخدامه كوقود بديل ، وعلى وجه الخصوص في الهند اكثر من ٣٠,٠٠٠ مفاعل ، وهناك في الصين اكثر من ٢ مليون مولد ميثان ، وبدأت مصر اجراء عخط بحثى واسع المدى يجره للمركز القومى للبحوث بالدقى لانتاج غاز الميثان من اجل استخدامه في الطهى والاضائة بالريف المصرى بديلا عن اسرين :

(المتحنى شكل ١١) ويتقلص الهواء الجوي في الكتلة ويتصاعد غاز ثاني اكسيد الكربون ، وبعد احد عشر يوما يتراجع ثاني اكسيد الكربون ، وبعد ٢٣ يوما تزداد معدلات انتاج غاز الميثان حتى تتعدى نسبة ٥٠٪ من جملة الغاز الناتج ، وبالحساب الكيميائي وجد ان كل رطل من المخلفات ينتج ٣٢,٥ قدما مكعبا من الميثان ، وهي بالقطع ليست شيئا جامدا انما تتسوقف شأن كل التفاعلات الكيميائية على درجة الحرارة والرطوبة وحمضية المكونات ونسبة الكربون الى الكتلة العضوية وى نوعية المخلفات وطحنها .

(١١ - ٢) الميثان من مخلفات الزراعة

وذات التكنولوجيا تستخدمها الدول في المضمم اللاهوائى لمخلفات الزراعة الأمر عادى ، لكن ما رأى القارىء في انه منذ نهاية العقد الماضى اتجهت البحوث الزراعية صوب زيادة انتاجية المحاصيل الزراعية مع الافلال ما امكن من القش ومخلفات الحقل ، واخترعت الآلات التى تقطع التبر وتدرس القش والنباتات في باطن الارض وتخلطها في تبايا التربة حتى الاعماق ، واليوم في صحبة ازمة الطاقة انقلبت الآلة وانعكست الصورة وطالبوا أهل العلم تحقيق أعلى انتاج من المحاصيل الزراعية والتوصل الى ما يمكن التوصل اليه من قش النباتات والمخلفات الزراعية ، وتطرف قوم آخرون وطالبوا بزراعة الارض نباتات عشبية لاغذاء يرجع منها ولافائدة سوى تلبية متطلبات الطاقة ... !!

ويقول ادوارد لا فسكى من معام ابحاث باتل

الدخل العالية ، بيد ان هذا المستوى حكم الانماط الاستهلاكية في حدود مرتبة لكنها واضحة ، بينا اثر على بعض الشعوب وجعلها تتحول نمطا استهلاكيا مفرطا في الغرابة .

واغلب مخلفات الانشطة البشرية تضم مواد متنوعة مثل الورق - الزجاج - المعادن - البلاستيك - الكاوتش والمطاط - الاقمشة البالية - كسر الخشب - مخلفات اغذية .. فالورق يمثل ٦٠٪ من مخلفات الشعب السويدى ، ٧٠٪ من مخلفات الشعب الفرنسى ، ٥٪ من جملة مخلفات دول الشرق الاوسط .

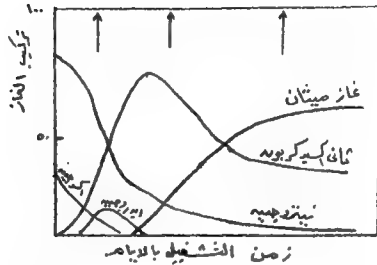
ايا ما كان نوع وكمية المخلفات فيجب ان تعد وتجهز وجبة الميكروبات حسب هواها حتى يتسنى لها القيام بدورها البارع وفعلها المبدع على من يرغب في خدمات البكتيريا :

- فصل الورق وتوجيه الناتج صوب صناعة الورق الرخيص والماس أو استخدامه في صناعات الجلوكون والبروتين الاحادى والكمول الاثيل وهى صناعات تزجل الكلام عنها هنا ونفرد لها فقرة مستقلة لما لها من اهمية .

- فصل المواد المعدنية حديدية كانت أوغير حديدية .

- فصل المواد الصلبه غير المعدنية وغير العضوية .

وتدخل الكتلة العضوية الى Land fill حتى يصل المضمم اللاهوائى الى مداه وتستقر معدلاته



شكل (١١) تغيير تركيبة إنتاج غاز الميثان من المفاعلات
وتكملة تمثيل التفاعلات مع المعادلة المسطحة التالية

$$\begin{aligned}
 & \left[\text{كربون} + \text{إيثان} + \text{أكسجين} + \text{نيتروجين} + \text{كبريت} \right] \text{ تفاعل } \\
 & \left(2 - \frac{1}{2} - \frac{1}{2} + \frac{1}{2} + \frac{1}{2} \right) \text{ ماء} \leftarrow \\
 & \left[\frac{2}{2} - \frac{1}{2} - \frac{1}{2} - \frac{1}{2} + \frac{1}{2} \right] \text{ ميثان } + \text{غاز} \\
 & \left[\frac{2}{2} + \frac{1}{2} + \frac{1}{2} + \frac{1}{2} - \frac{1}{2} \right] + \text{أكسجين} + \text{إيثان} + \text{كبريت} + \text{ثاني أكسيد الكربون}
 \end{aligned}$$

سقوطه ، فدرجة حرارته (٣٥ م) هي انصب درجة حرارة وهي المثل لهذه المفاعل ، ونقله سريعا سوف يوفر الى حد كبير امداد المفاعل بطاقة حرارية والاضطرار الى قلب الروث وغلط مكوناته حيدا .

(٢/٣/١١) موقع المفاعل

قد تتجمع فقاعات الغاز بسرعة وتلتصق على سطح الكتلة وترتفع درجة الحرارة وتنشط التفاعلات الحيوية ويبدأ الضغط في الزيادة ويحدث انفجار غير متوقع قد يصيب بالاضرار البشر والحيوان لذا يلزم انشاؤه بعيدا عن مبنى المزرعة ومصادر اعاشة الحيوانات والمباني الادارية أو السكنية في المزرعة ، وهذا اجراء سوف يكلف انشاء ميسور ناقله للمروث معزولة حراريا .

(٣/٣/١١) التحكم في سرعة التفاعل

التفاعلات الحيوية والكيميائية خلال الهضم اللاهوائي لازالت معقدة وتحتاج الى فهم أعمق وبحوث كيميائية حيوية أكثر تخصصا وتشعبا ، وأني خلل فيها ربما أدى الى مشاكل ، لذا يحتاج المفاعل الحيوي الى متابعة دقيقة واشراف جيد وعين واعية ، فالتغير الفجائي في حرارة المفاعل أو تغيير سرعة امداد الروث ونوعيته وحامضية المخامة أو قلويتها ، ووجود مواد ذات سمية في الروث .. كلها تجعل التفاعلات تعجز عن الخط المرسوم وتبعد عن النقطه التجريبية ويجعل البكتريا إما تموت في الكتلة هضا وتضع خطر الانفجار قيد دقائق أو قوت البكتيريا وتنقل الى رحمة مولاه وتنفذ نفسها من الأمر وتترك المفاعل يبت رواثه الكريه .

بولاية ايهايو انه يتمنى رؤية نبات قصب السكر وقد طالت مساقه وامتدت في الهواء عشرة امتار ، وإن يتمكن الزراعيون وخصائيو الكيمياء الزراعية من استنباط نبات قمح أو شعير ترتفع سيقانها في الهواء ست أوسيع امتار ، ويتمنى من كل قلبه ان يتحكموا في ماء الري واستخدام افضل نسب السباد محققين بذلك التوازن المطلوب ، فوجود نسبة رطوبه عاليه في القش أو المخلف الزراعي سوف يكلف مشاريع الطاقة نفقات هم في غنى عنها .

(٣-١١) الميثان من روث المواشي

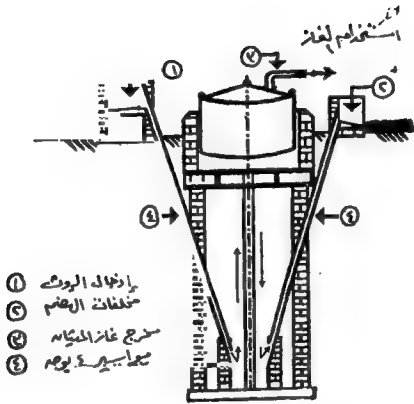
في عام ١٩٧٥ قدر العالم الامريكي ل . ف . نيلسون في بحثه امام الجمعية الامريكية للهندسة الزراعية بان ٥٠٪ من الطاقة التي تالها حيوانات المزرعة تبقى في روثها .

والبحث كان مفاجأة لكل الذين سبقوه فمعظم ما نشر قبله أفتى بأن نسبة الطاقة في الروث لاتتعدى ٢٣٪ والباقى يستهلك في الانشطه الحيوية بجسم الحيوان وتكوين اللحم واللبن أو البيض ويمكن استعراض ال ٢٣٪ بالمضم اللاهوائي للروث .

ولكن النسبة ٥٠٪ أو ٢٣٪ أو أدنى من ذلك أو أكثر فهناك اعتبارات لامتناس منها ولا مفر ان شاء الله استعراض الطاقة من الروث . (شكل ١٢) .

(١/٣/١١) جمع الروث

ويجب ان يتم بطريقة رخيصة أولا وسهله ، ويتم نقله الى المفاعل عند درجة حرارة تسمح بالمضم وبدم عمل البكتيريا ، وليس افضل من جمع الروث فور



شكل (١٥) مولد غاز الميثان

منتجات السليلوز الطبيعي الذي يتبينه الاشجار والنباتات من خامات أولية بفضل التمثيل الضوئي الذي يسر للنبات دون سواء من المخلوقات وسخر للانسان بأمر خالق الكون ، فمن ثاني اكسيد الكربون والماء وضوء الشمس يهيء السليلوز كأكثر المواد المضوية شيوعا على الكرة الارضية ويمكن استخدامه مصدرا للطاقة اذا أحرق مباشرة او يعطى الغذاء أو يدخل في صناعة المواد الكيميائية .

وقدر الانتاج العالمي من السليلوز بحوالي مئة بليون (بالياه) طن سنويا ، بمعنى أن الحق جل وعلا سخر النبات الاخضر كي ينتج ٧٠ كيلوجراما يوميا لكل فرد من الاربعة بليون انسان السذين يعيشون على سطح الكرة الارضية ، وللانسان ما هوى وله ما يهوى ان أراد السليلوز خبسا أو ورقا أو وقدا أو غذاء ، فالخامة الطيبة رهن قدرات عقله وصمة افقه ومقدار تضلعه من المعرفة وتسلحه من العلم .

وبادئنا بصدد الحديث عن ازمة الطاقة فلا محل لقول سواها ، وبادئنا نتناول الورق القديم والمهمل فان الطن به ينتج نصف طن جلوكوز وإذا حول السكر الناتج الى كحول اعطي ٧٨ جالونا بالهام والكال .

وتحويل الورق الى سكر بعملية التسكر تطرحها الكيمياء عبر مسارين .. ان اودتها ضاجة بالآلات والحركة فلك مع التحلل للمائي الحمضي في أوعية الضغط ماشئت وعليك عاقبة امرها ، فالاحماض تنخر الجدران وقد تلف بلورات السليلوز ولا تغطي تسكرا

واليكتريا لها مناشير تقتضي منها وتوقف عملها ولذا تحذر الابحاث من خطورة تزايد بعض الاحماض المضوية والغازات القلوية ، ففي كندا تمت تجارب على اربعة مفاعلات صغيرة وضعت تحت السيطرة العلمية ، وصار العلماء يلهون مع بكتيريا البتان لها مدروسا ، وبين الحين والاخر يفتخرون نتيجة هذا البحث وعواقبه بأحدث أجهزة التحليل الكيميائي والبيولوجي ، وبجأة توقفت المفاعلات عن اداء دورها المهدود وكان للهو تصدى مداه لحظة زادت كمية حمض الحليك او جاوز غاز النوشادر تركيزه الامثل .

٤/٣/١١ [تداول الغاز

الحصول على غاز البتان وتنقيته من مركبات الكبريت ليس مشكلة في حد ذاتها ، انما التكاليف الانشائية للمفاعلات تتوقف على كمية الروث المتاح والتي بدورها تنعكس على تقييم شبكة الانابيب الخاصة بالامداد . وعموما يمكن القول بأن الوحدات الصغيرة في الريف الهندي او الصيني أثبتت كفاءة عالية ، وتكاليف الثقل تكاد تكون معدومة واستهلك وعلى مقربة شديدة من مواقع الانتاج والمفاعلات ذاتها بنيت من خامات أولية بسيطة ولذا ربما يتفوق البتان على البوتاجاز قريبا ، أما اذا اريد لغاز البتان منافسة الجازولين .. فهذا أمر آخر ليس يبيدا عن الكيمياء وليس بيذا جدا عن هندسة الكيمياء .



١١ - ٤ [سكر وطاقة من ورق الصحف القديمة

ورق الكتابة وورق الصحف والمجلات واللف والتبنة وكل صور الورق المتاحة هي بالضرورة أحد

والقمح والثوفان وشجر المطاط والكافور... الخ
وتأخذ قطرة من محبط هادر يحاول كل جهده ولا يترك
شاردة أو واردة دون فحص أو تمحيص .

قصب السكر مثلا - نال اهتماما بحثيا واسعا فقد
ثبت أن للنبات مزايا جعلته يتصدر قائمة محاصيل
الحقل في صدد أزمة الطاقة فهو :

- نبات يعطي أعلى إنتاج بالنسبة للفدان أو الهكتار
(١١٢ طن في السنة/هكتار) .

- ولأنه لا يتطلب نقل المحصول تكاليف عالية حيث
تقام الماصر وسط الحقل في حديق دائرة قطرها ٣٠
كيلمترا .

- ولأن نتاجه من السكر يمكن تخميره مباشرة دون
تعقيدات كيميائية .

- ونبات القصب لا يستنزف تروجين التربة مثل
بأقي حاصلات الحقل .

- ويجزي السكر بالتخمير بطبي جزيئين كحول
وجزيئين من غاز ثاني أكسيد الكربون ، يعني أن كل
١٨٠ جم سكر تعطي ٩٢ جرام كحول و ٨٨ جرام
ثاني أكسيد الكربون والأرقام تعني أن ميزة تحويل
السكر الى كحول تحول مادة صلبة الى وقود سائل
سهل النقل والتداول دون خفض من الطاقة (١١٣) لا

بالمعنى المرغوب ، وإن أودتها هادئة صامتة ناجحة
قدح عنك العلم الجامد وأترك الميكروبات تعمل
عملها تحت ما تهوى من ظروف وضوابط وسوف تختار
الميكروبات الورق وتترك أحبار الطباعة وشوائب
الطباعة وهذا ما تتميز عنه الاماض المعدنية عجزا
ولا تفرق بين السيلولوز وأسود الكربون - وسوف
تعطيك الميكروبات السكر محمولا رائعا صافيا نقيا
بعدها تستخدم السكر غذاء أو تجهل بكتريا اخرى
تتغذى عليه وتعطيك البروتين أو تمثل به تقريبا غريبا
فاذا بالسكر يرتد كحول الايثانول .

والذين يهون نسب كل أمر إلى صاحبه أقول إن
الجيش الاميركي وبالتحديد U.S. Army
Natick Research Development وحدة
الميكروبيولوجي التطبيقية في الجيش الاميركي
المعروفة بالاسم الانجليزي السابق هي التي حددت
معالم البحث وأماتت اللغز عن غفائرها وبأليت
الميكروبيولوجيين في الوطن يتأسون ببحوثها .

١١ - ٥) هل تحول الحاصلات الزراعية مشكلة

الطاقة ؟:

شبح الخوف من أزمة الطاقة بلغ مداه بأمر
الطاقة ولا يتركون خامة أو قشة أو ورقة دون دراسة
وبحث وتأصيل حتى حاصلات الحقل دخلت معامل
الطاقة ولم يسلم قصب السكر والنسب والبنجر

(١١٣) أجي سكر - ٢ جزي كحول + ٢ جزي ثاني أكسيد الكربون
١٨٠ جم سكر = ٩٢ جم
٧٧٢ كيلومتر = ٦٥٥ كيلومتر
ورق الطاقة = ٧٧٢ - ٦٥٥ = ١١٧ كيلومتر .

التائج بالماء فيتكون كحول الايثيل بسعر ٢٠ سنتا للرطل وإذا انتج ميكرويا سوف ينخفض السعر الى ٤,٥ سنتا .

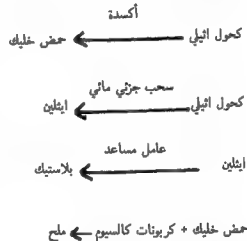
والتخمر للميكروبي للسكر سوف ينتج ٨ مليون متر مكعب من الكحول في البرازيل وحدها ، وسوف يستخدم ٢٠٪ من النتائج لخلطه بالجازولين وقد بلغ استهلاك هذا الخليط حوالي ٢٠ مليون متر مكعب عام ١٩٧٧ بعد ما طورت صناعة السيارات البرازيلية محرك الاحتراق الداخلي بأضافة مبدل حراري دون خفض كفاءة الاحتراق ..

١٢ - البترول من الأشجار .. بالكيمياء : في عام ١٩٦١ نال الأستاذ الدكتور مفلين كيلفين جائزة نوبل عن بحوثه التي حلت الغاز كيميائية التخليق الضوئي المعقدة والتي ساعدت في الكشف عن بعض أسرار النباتات ، وإليوم ويند عام ١٩٧٣ يحاول الرجس التوصل بما يعلم الى مساعدة العالم في أزمتته الزاهنة ، فالمدرسة العلمية التي يقودها تبغي تقسيم ودراسة كل النباتات المنتجة للهيدروكربونات مثل شجرة المطاط وشجرة الجوفر الكاليفورنية وهي نباتات تدر عصارة بيضاء غليظة تحتوي على ما بين ٣٠ و ٤٠٪ من هيدروكربونات تشابه في كثير من الأوجه النفط الخام . (شكل ١٣ ، ١٤) .

ونم تحليل عصارة ثلاثة عشر نوعا من أشجار الهيدروكربونات ثبت فيها أن جزيئات العصارة من الناحية الكيميائية أصغر كثيرا وأقل تعقيدا مما يحيل تكبيرها أسهل وأيسر ، فمن التكسير الحراري

يتعدى ١٨ كيلو سمرا وأن وزن الكحول الناتج لا يتعدى نصف وزن السكر .

وعلى ضوء المحددات السابقة اتفقت البرازيل قرارها باحلال الكحول جزئيا محل الجازولين في السيارات والمركبات والاستعاضة بالكحول عن المقطرات البترولية في صناعة البتروكياويات على نحو قد يخفف الضغط على الزيت . فالكحول يمكن أكسدتها الى حمض الخليك أو امتصاص جزئي ماء منه ليعطي الايثيلين الذي بدوره يمكن منه صناعة البولي ايثيلين ، وبالقاء الايثيلين في طريق غازات عائلة المالهوجينيات يمكن تحضير مركبات كيميائية لا عد لها ولا حصر .



ويُنتظر أن تحو أمريكا حذو البرازيل وتلجأ الى صناعة الكحول بالتخمر الهوائي لمحايل السكرات بعدما ظلت لأكثر من خمسين سنة تعتمد على البترول في انتاج حاجاتها من الكحول ، فمن البترول تأخذ المصانع الايثيلين وتعامله بحمض الكبريتيك وتحلل



(شكل ١٣) *Euphorbia* يئوسبات
 في كاليفورنيا بالولاية المتحدة لإدريكي *Tirucalli*
 ويعتبر من نباتات الصبار القادرة على فزله الطاقة لسيه
 كنباهه وعليه يركز الدكتور م. كالفه جومته في برامج التزول.



كلا (١٤) نبات *Euphorbia Lathyris*
 اشبه البقولية أنه كذا النبات يحتوي على عصارة اللطاف
 ودمه السخوع كما يجتمع على مركباته عنوية يبلغ عدد
 ذرات الكربون في مولته ذره وانقلاويا واحد أنه
 الغذاء الواحد لينتج أكثره على طبعه من المواد الهمودرولومينية
 سمويا أي ما ياكل على برميل زيت خام .

من آبارها وتبلغ قيمتها ٣ تريليون دولار ، وعى مستوى العالم هناك عشرات الألوف من بلايين البرميل لا تستغل ولا أسل فيها حتى الآن . فالطبيعة أرادت طرح سؤال عويص على مدارك أهل العلم كيف السبيل الى هذه الثروة فأتتم حيايل أزمة ، فالآبار لا تكفي طاقاتها دفع كل مخزون النفط . وكان أول أسلوب تقنى باستخدام الماء في تعويم الزيت يحقن الماء داخل الآبار دفعا للزيت من وقاده ، وظلت هذه الطريقة ٤٠ سنة دون جدوى لأن لزوجة الماء أقل من لزوجة الزيت وبالتالي لا يحصل الماء الزيت ويترك حوالي ٤٠٪ من الزيت يتسرب ويعود أدراجه ويقال كل برميل يستخرج يتسرب مقابلا له برميلان .

وعرض الأمر على مؤتمر أخصص بالكيماويات وتنافض المؤثرون وعرضوا زيادة لزوجة الماء كيميائيا أو تقليل التوتر السطحي للنفط باستخدام كيميائيات البلولة واستخدام بلمرات ميكروية تمنع تسرب النفط وتغطي سطح الآبار بالامصاص للجزيئات عليها ويبدو أن الأمل مشرق في ظل الكيماويات .

ويعد هل انتضح دور الكيماويات ؟ ارجو ذلك .

١٤ - استخلاصات الدراسة

١ - إسالة الفحم الى مقطرات بتروية رغم انها أقدم البدائل طرحا على مائدة التفتية ، فان مخاطر التلوث البيئي وتزايد كمية الملوثات السطانية لا شك سوف تلعب دورا مؤثرا في تكييف الجهد نحو هذا الحل حتى يحل العلماء المشكلات التي استجدت .

لعصاة أشجار اللطاطيون جملة البحوث تجارب تجري على نباتات Euphorias ونباتات Asclepias (الصور المرفقة) ويبنى البحوث زيادة ادوار العصاة والوصول بها الى ٥٠ برميل هكتار سنويا . وينسب العلماء تقديراتهم على نحو يقترب من خيالات القصص العلمي فيقولون أن زراعة أرض في مساحة غانا قد تكفي الولايات المتحدة من حاجتها النفط (شكل - ١٥) .

١٣ - الكيماويات ومشاكل أخرى :

(١٣ - ١) النفط من الرمال القطرانية : هي مادة سوداء لزجة تشبه القطران ذات رائحة كريهة ، ويقول الانجيل أن النبي نوح عليه السلام استخدمها لسد الشقوق بين الألواح الخشبية في فلكه ، واليوم يستخلص ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ برميل يوميا من الرمال القطرانية بالقرب من مقاطعة البرتا بكندا وتضم تلالا تحتوي على ٩٦٧ بليون برميل .

وبندسة التطهير جاءت للحل الناتج فعدلت من طرق معاملة الرمال واستخدام بخار الماء والمواد الساخن ومعالج الناتج لازالة الكبريت كيميائيا والاكلال من نسبة التثريين ويقولون سوف يكون سعر البرميل متافسا لسعر النفط .

(١٣ - ٢) رفع كفاءة استخراج النفط : لا يصدى حجم النفط الخام من كل آبار العالم أكثر من ثلث الخاضق ففحص بالطرق التكنولوجية الحديثة ، وعلى مستوى آبار أمريكا هناك أكثر من ٢٠٠ بليون برميل من الزيت لا يعرف العلماء وللهندسون كيف تسحب



شكل (١٥) نبات يسمى *Asclepias*
 يعرف من البرازيل ويعتقد انه مناور الحب العلمي في
 الحصول على القطرات المعترطيم من الضفاد حتى
 تتفقد العصارة من المواد الهميدوكروميتية .
 ذاك الشجر الملهمة بعلوم غربيا في الصف والمخبرات
 اسم سكره المبرد رغم انه اقنضاديا لم تُسببت
 نجاحا .

٢ - لازالت الخلايا الضوئية صوب التطبيق الاستراتيجي اكثر منه على المستوى التكتيكي ولا ينتظر ان تكون في متناول الفرد العادي قبل مرور عدة سنوات قد تطول ، ومن المؤكد انها لن تشر على مستوى المحلية وحيدة البؤرة .

٣ - خلايا الوقود تعتبر ذات تاريخ علمي واسع في ميدانها تشر بنجاح يعتد به وان استخدمت حالياً على المستوى العسكري .

٤ - قضايا الايدروجين وشاكله لازالت قيد البحث والدراسة ، ووفق ما ذكر بالدراسات والبحوث والمراجع الحديثة فالامل مقيد عليه في النقل والطيران ورغم مخاطره الانفجارية .

٥ - تقدم الهندسة الكيميائية نجاحا مضطربا في هندسة العزل الحراري ورفع كفاءة الاحتراق لكنها لازالت ابحاثا علمية لم تخرج الى حيز التطبيق الفعلي وكفاءتها الفعلية رهيبة باختبارات الحقل والميدان .

٦ - تشير بحوث الكتلة المضوية الى نجاحين :

أ - انتاج الميثان كمصدر طاقة يحترق في الريفي .

ب - انتاج الكحول كمكمل وقود وشامة اساسية في الصناعات الكيميائية سوف يوسع قدرا من البترول .

٧ - انتاج البترول من الانشجار اللدرة للمصارة يتال

حظا من الدعاية والانتارة الصحفية ذات الطابع العلمي اكثر من واقع ، كما ان الحصول على بديل بترولي من نفاية المدن اصبح مجرد ذكرى .

٨ - لا أمل للعالم في رفع كفاءة استخراج البترول من الآبار او الرمال القطرانية إلا بطريق ميكروبيولوجية لم تبدأ أبحاثها بعد .

٩ - لم تنطرق الدراسة لطاقت الرياح والمد والجزر والأمواج والحرارة الجوفية من باطن الارض لعدة اسباب أهمها :

أ - انها تخرج من اختصاص الكيمياء فمشاكلها وحل البحوث الخاصة بها تنطلق من الهندسة الميكانيكية او الكهربائية .

ب - ولان الجانب الكيميائي فيها لا يعدو تخزين الطاقة في البطاريات الكهائية .

١٠ - ولم يتعرض المقال للطاقة النووية الانتماجية او الانتشارية ، كما لم يعرض الى تخزين الماء وضغط الهواء في اتفاق تحت الارض لذات السبب السابق ذكره في البند ٩ .



والآن هل اتضح سبب اختيار العنوان والتأكيد على ان كل المجالات لا تمحو الوصول الى كمالات الطاقة . وفي الختام أقول سوف يبقى الزيت كما منحه الله عطاءا منفردا ، إنه نعم المحطي ونعم الوهاب .



المراجع

- ١ - الدكتور عبدالعزيز أمين
أ - ملكا يحدث في مسجدة العلوم
ب - الانسان والعلم
٢ - الدكتور عبداللطيف ابو السبح
أ - خلايا الرقبة
ب - قصة اثار
٣ - الدكتور علي حفيظة
خطر استعمار النفط على النفط العربي
٤ - الدكتور عبدالحسن صالح
اليكروبات والحيات
٥ - زهير الكوي
العلم ومشكلات الانسان المعاصر
٦ - الدكتور زاهد عطالله سليمان
الكتابة المصنوعة - أن الأوان للاستفادة منها
٧ - الدكتور محمد صابر
الانسان والميكروب والزراعة
٨ - الدكتور محمد تيهان سويلم
أ - بداخل الهرمول والفكر العلمي
ب - التكامل العلمي في الدوائر الالكترونية
ج - دعوى الى حب النفس
د - انطرب في استخدام قوانين التفرات
هـ - راسمعت التيران
٩ - هالبي ، د . ص .
عصر الطائفة القيسية القديم
عرض الدكتور احمد عبدالغفر للهنس
- عالم الفكر للجلد ١٠ العدد ٤ الكويت السنة ١٩٨٠
كتابك رقم ١٧٤ دار للعلوم القاهرة سنة ١٩٨٠
مجلة العلم العدد ٢٢ القاهرة يناير ١٩٨٠
مجلة العربي عدد ٢٥٠ الكويت سبتمبر ١٩٧٩
مجلة العربي العدد ٢٥٤ الكويت يناير ١٩٨٠
الكتابة الثقافية رقم ٣٤٠ القاهرة سنة ١٩٧٧
عالم المعرفة العدد ٥ الكويت سنة ١٩٧٨
مجلة العلم العدد ٥٢ القاهرة يوليه ١٩٨٠
الكتابة الثقافية رقم ٢٠٠ القاهرة سنة ١٩٧٠
مجلة المهندسين العدد ٦ القاهرة سنة ١٩٧٦
مجلة المهندسين العدد ٥ القاهرة سنة ١٩٧٦
مجلة التوصل العدد ١٠ الرياض سنة ١٩٧٨
مجلة العلم العدد ٢٧ القاهرة سنة ١٩٧٨
مجلة للمهندسين العدد ٤ القاهرة سنة ١٩٧٨
مجلة التوصل العدد ٣٧ الرياض سنة ١٩٧٩

الطبعة

رسالة التريستكي العدد ٢٠٥ أغسطس ١٩٧٨

مترجم

تأليف: أ. ف. يري في الآلاف كتاب

رقم ١٣٦ الفاعية سنة ١٩٩٠

١١ - بيريف لير بيريف

إهداء للرسائل وتطبيقاتها العلمية

12. B. Cockayne & D. W. Jones
Modern Ceramic Oxide Materials Academic Press Lon. 1972
13. Christian And Zuckerman
Energy and chemical Sciences Pergamon Press Lon. 1978
- 14 . Daniels
Direct Use Of Sun Energy Yale Univ. Press 1964
15. Douglas D. Huxtable & Donald R. Poole
Sharing The Sun Conference Solar Tech. Institute Vol. 8 1976
- 16 . G. Bauerle et Al.
Storage of solar energy by inorganic oxide hydride IBID VOL. 8 1976
17. F. R. Kaihammer
Energy Storage Systems
J. Scientific American /241/ No 6 Dec. 1979
18. H. G. Schlegel & J. Barnea Edit.
Microbial Energy Conversion, Pergamon Press 1978
19. J. A. Simmons Reversible Oxidation of metal oxides for thermal energy storage
Sharing The Sun Conference SOLAR TECH. IN SEVENTIES 1976
20. J. B. Goodenough & M. S. Wittingham
Solid state Chemistry of Energy conversion and Storage.
Advances In Chemistry Series.
Amer. Chem. Soc. 1977

21. J. oel du Bow
Solar Energy Electronics Nov. 11 1976
22. K. Kordesch
Fuel Cells Academic Press. N.Y. 1963
23. K. W. Kauffman
Thermal energy storage with saturated aqueous solutions.
Solar tech. In Sventies Vol. 8 1976
24. L. Curran
Electronics NOV. 11, 1976
25. Liviu Oniciu
Fuel Cells (In English)
Abacus Press, Romania 1976
26. M. W. Breiter
Electrochemical process in fuel cells
Berlin Heidelberg New York 1969
27. Philip Sporn
Energy in one age of limited availability and delimited
applicability.
Pergamon press. 1st Edit. 1975
28. Y. Borisov & I. Pyarnova
Harnessing the Sun
Foreign Language Publishing House Moscow 1960
29. _____
Publications of different conferences related to
energy and harnessing the sun
A . Roma 1969
B . Munich — West Germany — 1979 , 1980
C . Canada 1976
D . ABO DABI March 1979

30. _____

Bullitens and published data of some firms

A . philips

B . Simens

C . A. E. G.

مَدْرَحَدِيثَا

مع تزايد اعداد الشيوخ في العالم واطراد التقدم في نسبتهم الى التعداد في جميع بلاد العالم ، سواء المتقدمة أو النامية فانه من اللافت للنظر وجود كتب تتناول الشيخوخة من نواحيها المتعددة في جميع أنحاء العالم وبكل اللغات ، ولعل هذا مواكب للطوفان الذي تشر به نحن المهتمين بعلم الشيخوخة ... طوفان من الأبحاث العلمية التي تتناول الأوجه المختلفة للشيخوخة ، سواء طبيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا ، بحيث أصبحت الشيخوخة بشرا لا ينضب من العلم يستطلع كل من يدلي فيه بدلوه أن يخرج بكنوز من العلم والثقافة والمعرفة .

ان كان من الصعب تقدير عدد الكتب التي تتناول موضوع الشيخوخة من نواحيها المختلفة وبمختلف لغات الأرض فانه قد يكون من الأيسر تقدير عدد البحوث التي تتناول موضوع الشيخوخة من النواحي الطبية ، سواء العلوم الطبية الأساسية أو البيولوجية أو التجريبية أو التطبيقية ، ولقد كان هناك تقدير لذلك منذ حوالي سبع سنوات بعدد يقرب من ربع مليون بحث ، ويمكن طبعا تصور أن هذا العدد قد فزأ الى عدة أمثاله الى يومنا هذا .

الكتاب الذي نتناوله اليوم بالتحليل والنقد هو واحد من هذه المجموعة التي نراها كثيرا بالمكتبات تتداول موضوع الشيخوخة والشيوخ وشاكلهم ومتطلباتهم وأما لهم وأوجب المجتمع نصيبهم ، وهذه ظاهرة صحية ومفيدة ، إذ أن كل باحث أو مفكر ينظر

الحياة الممتدة

تأليف : ماجنوس بايك
عزى وتولى : محمد عصام فكري

- لفت بئر هذا الكتاب هيئة بريطانية اسمها :

THE BRITISH ASSOCIATION FOR THE ADVANCEMENT OF SCIENCE

الى الاختلاف الناقص من النقل من لغة الى أخرى .

« الرابطة البريطانية لتقدم العلوم » ومنبثق من هذه الجماعة أو الرابطة « لجنة للاهتمامات الاجتماعية والتقدم البيولوجي » ولقد كانت اجتماعات هذه اللجنة وما دار فيها من مناقشات وما اتخذته من قرارات هو العمود الفقري وأساس هذا الكتاب ، ولقد بدأ نشاط هذه الجماعة البريطانية عام ١٩٧١ بتمويل سخى من إحدى المؤسسات البريطانية المناقضة للمشاكل (الاجتماعية أساساً) الناجمة من التقدم المذهل في مجال علم الوراثة وانعكاس ذلك على المجتمع ، وبما أن المشاكل المرتبطة بالشيخوخة سواء اجتماعية أو طبية هي في الواقع من أهم التحديات التي يواجهها مجتمعنا الحالي فلقد كان منطقياً أن تستهلك معظم وقت ومناقشات واجتماعات هذه الجماعة ، الى أن تكونت لجنة الاهتمامات الاجتماعية والتقدم البيولوجي ، ولهذا السبب وبمكّم الأمر الواقع تحولت هذه اللجنة الى لجنة الشيخوخة وذلك منذ عام ١٩٧٤ ، وأصبحت جل مناقشتها وما يصدر عنها من بحوث ونشرات خاصة بالشيخوخة ، خاصة فيما يتعلق بانعكاسات التقدم الفائق الذي حدث في علم الشيخوخة ، وانعكاسات ذلك على المجتمع .

ينقسم الكتاب ، بخلاف التقديم الذي قام به الدكتوران بيومر وفيرجوسن ، الى ثمانية ابواب بخلاف الفهرس .

الباب الاول : REWARDS

ATANYAGE أي المكافآت في أي عمر ويقع في ١٤ صفحة .

الى نفس المشكلة أو نفس الموضوع من وجهة نظر مختلفة ناهية من ثقافته دينه وعلمه وشعبته ، هذا التصدد يؤدي الى حصيلة وخيرة غنية من الأفكار المتشابهة والمتناقضة في نفس الوقت مما يعطي انراء لا شك فيه للموضوع .

١ عنوان الكتاب هو : LONG LIFE EXPECTATION FOR OLD AGE

وفي محاولة لتسريب هذا العنوان فقد يكون أقرب تسريب الى ذلك هو « حياة طويلة - توقعات للشيخوخة » ولهذا التسريب نقائضه ، فانه يلتزم تقريباً بالمعنى الحرفي ، لانه في واقع الأمر فان كلمة LONG اذا ترجمناها الى « طويل » وهو المعنى الحرفي لها فان هذا لا يشير الى حياة ولكنه ينطبق أكثر على الأطوال أو الأعمار ، ولقد تكون كلمة « ممتدة » أقرب الى المعنى المقصود ، وكذلك نفس المعنى نواجهنا عند تسريب أو ترجمة كلمة OLD AGE فما هو المقصود بكلمة OLD AGE الى من كلمة AGE ؟ ويمكن تسريب كلمة AGE الى من أو عمر ، أما كلمة OLD فانها أساساً بمعنى « قديم » ولعل هذا ما قابلنا نحن الباحثين في علم الشيخوخة ضد اطلاق اسم GERIATRIC عليه ، وهذا الاسم مشتق من GEROS باللغة اليونانية ومعناه « قديم » أو على الأصح « عتيق » فأين هذا من المفهوم الحالي لعلم الشيخوخة ولكن هذا هو الأمر الواقع ، يبدأ التعريف واطلاق اسم مفهوم ما ثم يتطوّر هذا المفهوم بالتطبيق الى مفهوم آخر مختلف تماماً عن المفهوم الأصلي ، هذا بالإضافة

من الملاحظ في هذا الكتاب انه لم يتبع الطريقة العلمية او الطريقة المتبعة في الكتب العلمية وهي الاشارة الى المراجع في أثناء الكتاب ، ثم أفراد يضع صفحات في آخر كل باب من الأبواب أو في آخر الكتاب للمراجع التي رجع اليها الكاتب حتى يمكن للقراء الرجوع اليها للاستفاضة من نقطة ذكرها الكاتب ، أو لمرفة الأساس الذي بني عليه استنتاجه أو كتابته ، واعتبر هذا نقصاً في الكتاب من الوجهة العلمية التأليفية ولا أدري كيف . فان ذلك على المؤلف ولعل له عنذرا في ذلك ، وهو تمديه على تبسيط المعارف والعلوم لجمهور القراء العاديين ولشاهدي التليفزيون هؤلاء لا يطلبون مرفة هذه المراجع ولا يقرأونها .

وإذا كان لنا ان نشير الى بعض المراجع التي جاءت عرضاً في أثناء الكتابة فأنتها لا تتجاوز تسعة مراجع والمؤلف لم يذكر كيف يمكن الرجوع اليها .

الباب الاول : يدخل الكاتب يدهو وبطريقة مقنعة الى الموضوع وبشكل محبب الى النفس فيشير الى الاهتمام بالشيخوخة والجوانب الانسانية من أبحاثها ، وانها كانت موضوع اهتمام اجتماعي وفي هذا المجال يتعطف مؤلف كتابنا هذا وهو الدكتور ماجنوس بايك Dr. MAGNUS PYKE وينظرة عملية سريعة الى هذا المؤلف يتعمق المفهوم الذي أنادي به منذ أن تطلعت بعلم الشيخوخة وبدأت اهتماماتي به منذ حوالي ١٥ عاما ، وهذا المفهوم هو أن علم الشيخوخة وانكاساته هو ما يطلق عليه باللفظة MULTIDISCIPLINARY الانجليزية

الباب الثاني : SCIENTIFIC PROMISE أي الوعد (أو المهدد أو الالتزامات) العلمية ويقع في ٣٠ صفحة .

الباب الثالث : WHERE ARE WE NOW أي أين مكاننا الآن أو أين نحن الآن ويقع في ١٩ صفحة .

الباب الرابع : CHOOSING A TARGET أي اختيار الهدف أو تحديد الهدف ويقع في ٢٠ صفحة .

الباب الخامس : HALFWAY HOUSE أي منزل النصف طريق أو نصف الطريق الى المنزل ويقع في ٢٢ صفحة .

الباب السادس : MEASURED IN MONEY أي القياس بالنقود أو التكلفة الاقتصادية ويقع في ٢٠ صفحة .

الباب السابع : BETTER THAN A WALKING STICK أي أفضل من المكار ويقع في ٢٠ صفحة .

الباب الثامن : WHAT NOW ؟ أي ماذا الآن أو ما هو المطلوب الآن ويقع في ١٦ صفحة .

أما الفهرس فيقع في خمس صفحات على النظام التقليدي .

وبهذا يتكون الكتاب من ١٦٦ صفحة ويقع كل باب من الأبواب في عدد مقارب من الصفحات ، حوالي ٢٠ صفحة لكل باب .

بريطانيا مقطعا من قصة « أليس في بلاد العجائب »
 Alice in Wonder Land المعروفة وفيها
 يتساءل شاب عن تصرف أحد الشيوخ وهل هو
 صواب أم لا . ولقد كتبت هذه القصة عام ١٨٦٥ أي
 منذ ١١٥ عاما ، ويوضح ان الشيوخ قادرون على
 الاتيان بالحركات العنيفة مثل الوقوف على الرأس
 مثلا يفعل الشاب دون غشية من حدوث مضاعفات
 لذلك على أعضاء الجسم مثل المخ .

ولقد كان التطور الحضاري هو الذي أدى الى
 التركيبة الحالية للمجتمع ، خاصة المجتمعات الغربية
 الصناعية المتقدمة ، فانه مع اجراءات تنظيم النسل
 بكافة الوسائل فقد تساوت تقريبا نسبة الزيادة
 'بالاتجاه مع نسبة الوفاة بالشيخوخة أساسا
 وبالأمر كعامل مساعد ، وأصبحت التركيبة
 الحالية فيما يتعلق بالنسبة كل من متساوية مع
 النسب الاخرى ، وأختفى الهرم الذي كان موجودا
 منذ عشرات السنين ، وقاعدة الهرم هي في الاطفال
 والصغار ، وقمة أي قلة المجتمع هي الشيوخ ، وهو ما
 نراه بهذه المناسبة مازال موجودا في المجتمعات الفقيرة
 أو النامية (كما يطلق عليها تأديا) وهذا طبعا بسبب
 الزيادة في أعداد الشيوخ . ولقد أورد المؤلف النسبة
 المثوية في إنجلترا ، والكاتب باعتباره بريطانيا فانه كما
 سوف نرى فان كثيرا من كتاباته وتعليقه واقتراحاته

أي متعدد الأنظمة أو متعدد الجوانب ، وأنه ، ولو ان
 للعطيب الدور الأساسي فيه ، الا أنه لا يمكن أن
 يعمل بمزلة عن نشاطات أخرى اجتماعية واقتصادية
 وانسانية بل ودينية .

دكتور ماجنوس بايك ليس طبيبا ، ولا أخفى
 سرا هو أنه عند بدء قراءتي لهذا الكتاب انتبهت أن
 يقتحم شخص ليس طبيبا بمجال علم الشيخوخة ،
 ولكن باستطاعتي في قراءة الكتاب ودراسة سريره
 لأن الدكتور بايك « ليس » طبيبا فان هذا يعطيه
 وبالتالي يعطي الكتاب نظرة أكثر شمولاً ويجعل
 المؤلف غير مرتبط أساسا بثقافة معينة .

دكتور ماجنوس بايك معروف للملايين المشاهدين
 للتلفزيون البريطاني ، وهو شخصية شعبية بسبب
 برأيه عن العلوم والتليم والموضوعات ذات
 الاهتمام العامة والتي لها ارتباط بالعلوم وتبسيطها
 للجمهور .

ولقد قام اثنان من العلماء البريطانيين الأجلاء
 بتقديم الكتاب ، هما من أعضاء الرابطة البريطانية
 لتقديم العلوم ومن لجنة الاهتمامات الاجتماعية والتقدم
 البيولوجي هما دكتور و. ف. بيهر^(١) مدير مركز
 السرطان والاستاذ السيد/ فيرجوسون اندرسون^(٢)
 أستاذ طب الشيخوخة بجامعة جلاسجو وعضو
 الجمعية العلمية البريطانية ، ألقى هيئة علمية في

Dr. W. F. Bodnar FRS.
 Director of Research, Imperial Cancer Research Fund Laboratories.

Professor Sir Ferguson Anderson OBE
 Cargill Professor of geriatric Medicine,
 University of Glasgow

(١)

(٢)

ومن المقدر أنه في عام ٢٠٠٠ فإن النسبة المئوية لمن تجاوز سن الخامسة والثمانين سوف تزيد بقدر النصف إلا أنها سوف تظل في نطاق ١٠ في المائة من تجاوزوا سن الخامسة والثمانين ، أي أنه سوف يحدث تعديل في التسمية داخل هؤلاء من تجاوزوا هذه السن ولكن ليس على حساب حقبات أخرى من السن الأقل منها .

ولقد أدت هذه الزيادة في النسبة المئوية للشيوخ إلى هزة شديدة وتغيير في المجتمع ، فإن هؤلاء الشيوخ الذين يمثلون سُمع المجتمع ليسوا فقط متقدمين في السن ولكن لهم تركيبة نفسيا واجتماعيا واقتصاديا وصحيا مختلفا عن باقي المجتمع يتطلب تصرفا جديدا وقوانين جديدة ومنازل جديدة ومستشفيات جديدة ونظم اقتصادية جديدة وتغييرا كبيرا في نفسية المجتمع مما يمكن أن يسمى ثورة فيه ، أو ما يمكن أن تطلق عليه « ثورة الشيوخ » أو ثورة الشيخوخة ، أو ما يمثل الثورة الصناعية التي حدثت منذ حوالي مائتين من السنين أو أكثر .

مثال ذلك أن معظم ما يتفقه المجتمع البريطاني ، (ومثله في ذلك مثل باقي المجتمعات الغربية خصوصا فرنسا وألمانيا وإيطاليا خلاف الولايات المتحدة الأمريكية التي لها وضع خاص سيأتي ذكره فيما بعد) في باب الرعاية الطبية ينهب إلى رعاية الشيخوخة ، وإذا أدركنا أن المشاكل الطبية للشيوخ مختلفة عن المشاكل الطبية للأعمار الأخرى بالإضافة إلى تعقيدها وتشابكها لأدركنا مدى الحاجة إلى وجود أطباء وما يتجه من قوة بشرية ، مدربين

متعلق بانجلترا أو بلاد متقاربة منها في المجتمع الغربي ... في إنجلترا مثلا فإن النسبة المئوية لمن تجاوز سن الخامسة والستين هي ١٤ في المائة أي سبع المجتمع ، ومعناه أن هذه الحقبة العشرية (مكونة من ١٠ سنوات) في سن الانسان متساوية مع باقي الحقبات العشرية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن منهم ٦ في المائة تجاوزوا سن الخامسة والستين والمتنظرون تظل هذه النسبة المئوية في هذا النطاق خلال السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة دون زيادة ، ولكن من المتوقع أن تتزايد نسبة من يتجاوزون الخامسة والثمانين عاما طالما أن قدرتنا العلمية لمقاومة الأمراض يختلف أنواعها تتزايد ، وهذا حقيقي إذ أن العلماء والباحثين في علم الشيخوخة مثلا يقدرون « عمر الانسان البيولوجي » فيما بين ١٢٠ إلى ١٤٠ عاما والبعض يقدره بأكثر من ذلك ، ولكن في اعتقادي أن هذه السن هي أقرب إلى الواقع وستنته إلى شواهد علمية ، ونقول نحن الأطباء والاختصاصيين في الشيخوخة أن الذي يحد من انطلاق الانسان إلى السن البيولوجية التي يستحقها هو الأمراض ، ومن هذه الأمراض ما هو قابل للعلاج أو على الأصح الوقاية مثل أمراض القلب والجهاز التنفسي والمضني ومنه ما زال للآن ، غير قابل للعلاج أو حتى الوقاية وهي الأورام الخبيثة . وهي في الواقع المائق أو ما يمكن وصفه بالمائع لهذا العصر البيولوجي ، وإذا أمكن للعلم أن يبتاز هذا المانع فإنه لا عقبة أمام انطلاق الانسان إلى عمره البيولوجي الافتراضي ، تماما مثل أعمار باقي الاحياء سواء حيوانات أو نباتات ، وهي أعمار محسوبة تصل إليها .

ويؤهلين لهذه الرعاية بحيث أنها إذا لم تتوافر لساعات الامور .

وعلى نفس طريق التفكير في نواح أخرى غير طيبة يمكن أن نذكر الفقر ، ومشاكل الاسكان والمشاكل الاجتماعية الاخرى الخاصة بالشيخوخة ممن تجاوزوا سن الخامسة والستين ، فانها تفاقمت ونضاعت بدخول هذه الفئة من الناس بهذه السن في المجتمع بشكل قوي ومؤثر ، ولا يمكن تجاهله .

ولكن هل من الضروري أن يصبح الشيخوخة « مشكلة » ؟ في رأي المؤلف وأبني فاته يمكن ألا يكون ذلك مشكلة وصحيح المجتمع في العصر الحديث شاملا جميع فئات السن بشكل متكامل ومتكافئ ، أي أن العناية بالشيخوخة هي « جزء » من مسئوليات المجتمع وليس « إضافة » عليها ، اذا قبلنا هذه الناحية المعنوية عن الموضوع إنحلت أزمات كبيرة ، أو بمعنى آخر تجنبنا حدوث مشاكل كثيرة حيث أن الشيخوخة يمثلون جزءا لا بأس به من المجتمع .

ولتحقيق هذا الهدف ، في المجتمعات الصناعية الحديثة بما لها من وسائل تكنولوجية ، لن يصعب عليها حل مشاكل التقاعد والمعاش ونهضة فرص العمل للشيخوخة لمن يرغب منهم في الاستمرار في العمل أو نهضة فرص الراحة والعيش في رغد لمن يرغب منهم في التقاعد ، رجلا وسيدات ، وفي تصوري أن هذا لن يتأتى الا بادخال التواحي الإنسانية في أفكارنا وتربياتنا ونظرتنا الى الموضوع بهذه الروح الإنسانية .

ولقد كنت دائما أنادي ، حتى في محاضراتي

لطليتي ويساعدي من دارمي علم الشيخوخة فضلا عن المرضى منهم وغير المرضى ، بل لمن لم يصلوا الى سن الشيخوخة ، أنادي بأن السر في علم الشيخوخة وواجب الشخص نحو نفسه وواجب المجتمع (صحيا وغيره) نحو الشيخوخة يبدأ في سن ما قبل الشيخوخة بل لا أكون مغاليا اذا قلت أن ذلك يبدأ في سن الشباب بل والطفولة فان آثار ومضاعفات هذه الأعمار تظهر في سن الشيخوخة ، حين لا يكون هناك سبيل قط لعلاجها أو تجنبها .

ونحن ، القارئين بدراسة الشيخوخة علميا واجتماعيا ونفسيا يجب أن نتذكر دائما ، وأن يرسخ ذلك في الأذهان أن الشيخوخة على اعتبار من الخامسة والستين ليس شخصا مقضيا عليه أو منتهيا وأن المجتمع يجب أن يلفظه ، كما تفعل بعض القبائل البدائية ، تأكيداً لذلك فإن التاريخ القديم والحديث زاخر بأشخاص أضافوا للعلم والأدب والثقافة والعلوم الإنسانية والسياسية والحرب بالاضافة الى الفنون المختلفة ، اضافات كثيرة وهم في سن الشيخوخة ، ولقد أورد المؤلف أسماء كثيرة منهم ويمكنني ان أضيف أسماء أخرى كثيرة حيث قد تعرضت الى ذلك في عدة مقالات ومحاضرات عن الشيخوخة سواء في مجلات عربية ثقافية أو علمية طيبة أو محاضرات عامة مثال ذلك باديرفسكي ، كينياتا ، برتراند راسل ، شيفرول ، تويني ، برنارد شو ، بيكاسو ، مارتيني تونج ، سير أوريان بولت ، السيدة هاريت تشك ، فرانكو ، دييول ، تشرشل ... وخلافهم كثير في مختلف الحروب وعندنا في العرب توفيق الحكيم ، طه حسين ، العقاد ، أم كلثوم ، محمد عبد الوهاب ، يوسف وهبي ، وخلانهم ...

الاستخلاص ، إلى أن أدركنا منذ حوالي ١٠ الى ١٥ سنة أن الأمر في الواقع غير ذلك ، فإن هذا الشيخ الذي اختزن في نفسه وفي ذاكرته وخبرته هذه السنين الطوال يصبح قادرا على استغلال هذا المخ الاصغر حجما والأقل وزنا واستغلالا يفوق بكثير الاستغلال أو الاستعمال الذي يقوم به شاب في سن العشرين المديوم الحيرة أو في سن الثلاثين أو الأربعين قليل الحيرة ، وإذا أمكننا ، بطريقة ما حساب ذلك رقميا لرجحت كفة الشيخ بالرغم من انخفاض وزن أغناخهم ، وهو تفسير لما ذكرناه سابقا عن وجود عياقة في من متأخرة يتولون مناصب رئيسية في بلادهم مثل الصين والاتحاد السوفيتي ، أو يدعون علميا وفنيا وثقافيا كما في البلاد الأخرى مما جاء ذكره .

وبالمثل فإن الانسان تقاس كفاءته بما « تعلمه » أثناء حياته وليس بما خلق به أو واد به فإن الانسان بقيمته الحالية هو نتاج أشياء تعلمها في حياته ، وأفكار وخبرات « اكتسبها » في حياته ، وقد يكون ذلك شيئا بسيطا أو بلحيا مثل الوقوف على قدمين مثلا في الوضع القائم ، أو قد يكون أكثر تعقيدا مثلا مثل تعلم تناول الطعام بأدوات المائدة أو ليس الزبي المصري المعقد ، سواء للسيدات أو للرجال ، أو الألعاب الرياضية وما تتطلبه من دقة في التصويب ، هذه كلها أشياء اكتسبها الانسان أثناء حياته وهذه الانبياء هي التي تظل معه في شيخوخته ويفضل فيها الشيخ على الشاب أو الطفل .

وإذا قلدنا خطرة أخرى مع المؤلف في هذا التحليل المنطقي ونسلم بأن نقص أي قولة أي عضوا

وله من أفذح الاخطاء التي يمكن أن يقع فيها الشخص العادي هو الاعتقاد بأن الشخص المسن أقل غدة على التفكير أو المنطق أو استخلاص النتائج أو اتخاذ القرار ، ولقد حدث ذلك لنا جميعا في سن العشرين عندما كنا نتظر باشتاق وعطف الى الشيخ وكأنا نفضل عليهم بالصبر وطول البال ، كأننا نتكلف عليهم بذلك ، ولقد دارت الايام بنا جميعا وعندما اقتربنا من سن الشيخوخة أدركنا مدى خطئنا الفادح في ذلك ولا أقول الظلم ، وهو ظلم وخطأ فعلا ، فإن الشيخ ، كما أثبتت الدراسات الحديثة أقدر من الشباب على التفكير والمنطق والتصرف الحسن من الشباب الى درجة ان المؤسسات عندما يتقدم اليها من يتقدم لشغل وظائف معينة فإن الشيخ يتفوقون في الاداء على الشباب وأصبحت المؤسسات تفضل تعيينهم في تلك الوظائف وهذه المؤسسات طبع لا يدخل في اعتبارها أو تقييمها أي اعتبارات انسانية ولكنها حسابات بالمحاسبات الالكترونية .

وله من أسباب الوقوع في هذا الخطأ ما كنا نعتقد سابقا من أن مخ الانسان الذي يكون وزنه ١٤٠٠ جرام في سن العشرين ينخفض الى وزن ١٢٠٠ أو ١١٠٠ جرام في سن الثلاثين ، أنه يصاحب هذا الانخفاض في الوزن هبوط في كفاءة المخ على العمل ، وهذا التصور ظل ملازما لنا طوال عشر السنين الماضية التي بدأ فيها اهتمامنا بالشيخوخة وأعراضها ، ولو أنه في قرارة نفوسنا نحن الباحثين في هذا المجال ، كنا نشعر بنوع من عدم الاقتناع أو من التناقض بين ما نشاهد في الحياة وبين هذا

انسانية مثمرة بينها وبين الرجل حتى بعد فقدان صفة أساسية من صفاتها كأمرأة ، فإن هناك ويجوها أخرى كثيرة للعلاقات انسانية متعددة بين المرأة والرجل ، بعضها حسي أيضا بالإضافة الى العلاقات المعنوية ، ومن يدري أن العلاقات الحسية او الجنسية التي تخارص بين كل رجل وامرأة تخارص ممارسة طبيعية تزني ثمارها من النشوة والرضا كما يجب ان يحصل عليها الطرفان ، وهذا ما ذكره المؤلف وهو حقيقي وسا تدل عليه الاحصاءات الحديثة من أن نسبة كبيرة (تتراوح بين ٢٥ الى ٤٠٪) من المتزوجين أو ممن يمارسون العلاقات الجنسية لا يمارسونها بطريقة صحيحة يمكنهم التمتع بها التمتع الذي يتيح له الخصائص الفسيولوجية للجسم ويؤكد ذلك أنه قد يكون من الشباب والنضوج أيضا فيه نقص ، وليس فقط في سن الشيخوخة .

الباب الثاني : في هذا الباب يتحدث المؤلف عن الاكتشافات العلمية وما حققته للشيوخ ، ويعتب في مقدمته على الشيوخ لأهم على عكس الشباب الذي يعتقد أن لكل مرض علاجا فإن هؤلاء يأخذون كثيرا من المعلومات الصحية كأنها قضية مسلم بها غير قابلة للعلاج أو تجاهلها وأنه يجب الاستسلام لها وهذا في الواقع غير صحيح ، بالإضافة الى أنه علميا غير صحيح ، فأنه من الخطأ اعتبار أن الكوارث والضمور من صفات الشيخوخة ، فإن الاحصائيات تشير الى أن نسبة الحالات السيئة أو التدريجية التي تصيب الشيوخ قليلة جدا ، ومن الخطأ تبسلا لذلك ان تستسلم الغالبية من الشيوخ لهذا المفهوم الخاطيء ، والذي يؤدي بهم الى الشعور باليأس والاحباط

في الشيخوخة يصاحبه نقص فعلي في كفاءة هذا العضو ، فقد يكون ذلك نعمة لا نقمة ، ولقد أورد المؤلف مثال ذلك أن حويصلات التلوق على لسان الشاب عددها ٢٤٥ وأنها تنخفض الى ٩٠ على لسان الشيخ ، وكيف ان ذلك قد يكون إضافة للشيخ ، إذ يحبه من الطعام المر أو السيء لبعض أصناف الطعام مما قد يؤدي الى حرمان الشاب من فائدة تناوله في حين ان الشيخ يمكنه تناوله ويستفيد بقيمتها الغذائية دون أن يشعر بهذا الطعام المر أو السيء .

وإذا تقبلنا أساسا من الاسس المبني عليه علم الشيخوخة ألا وهو أن الحياة وتقدم العمر بل والشيخوخة هي عملية مستمرة وقد تبدأ من سن مبكرة جدا ، فأنه من السخف ان تقسم مراحل الحياة الى مراحل مفيدة أو مثمرة وأخرى غير سعيدة فإن السعادة والاحترام في الحياة سواء عطاء أو أخذنا يأتي في أي وقت ، ولقد أورد المؤلف مثلا ان السيد المسيح عليه السلام أرسى تعاليمه في سن الثلاثين في حين أن البابا جون أعطى للخل الحي للمسيحي الحق وهو في سن الثمانين ، ومن الخطأ الجسم استنتاج أن الشخص بسبب تعبد جلده أو بياض شعره أو ضعف نظره أو سمعه أو صعوبة حركته أصبح أقل قدرة أو كفاءة من الشاب ، فإن الكفاءة والسعادة ليست نتائج ذلك ، والتاريخ زاخر بأشخاص مثل نلسون فقدوا أحد أعينهم أو أصابوا بشلل مثل روزفلت رئيس الولايات المتحدة وأعطوا الانسانية مثلا لم يعطه غيرهم . وعلى نفس القياس فإن المرأة في سن الخامسة والاربعين مثلا تصبح غير قادرة على الانجاب ، ولكن هذا لا يمنع من وجود علاقات

يظل الرقم حول هذا المعدل في هولندا (وفي إيطاليا) وقد يزيد إلى ١٢٠ ألفاً في نهاية القرن الحالي ؛ أما في بريطانيا والمانيا الغربية وفرنسا وبلجيكا فإن المعدل الحالي هو ١٣٠ ألفاً .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه في اليهود القديمة فلقد كان الدرن الرئوي مرضاً قاتلاً والروماتزم مرضاً معجزاً ، ولكن بالوسائل الطبية الحديثة سواء الطبية أو الاقتصادية فقد انخفضت الإصابة إلى حد كبير وأصبحت لا يمثلان مشكلة بالنسبة للشيوخ ، مما جعل الشيوخ ، كما يوضع المؤلف ، يمكن أن يتمتعوا بحياة رغدة سعيدة .

ولقد أورد المؤلف إحصائية طريفة تؤيد ما يود توضيحه وذلك من نتائج بحث أجري في اسكوتلندا (شمال إنجلترا) في عام ١٩٧٥ ، يدل هذا البحث على أن ثلاثة أرباع من تجاوزوا سن الخامسة والثمانين مازالوا قادرين على مواجهة أعباء الحياة العادية إذا أعطي لهم القول المناسب ، في حين أن الربع فقط ممن تتراوح أعمارهم بين السبعين والرابعة والسبعين ، والثالث فقط ممن تتراوح أعمارهم بين الثمانين والرابعة والثمانين يحتاجون لمساعدة من نوع ما لكي يعيشوا حياة عادية .

ولقد تناول المؤلف بعد ذلك بعض المشاكل الصحية للشيوخ مثل فقدان التحكم في التبول ولقد ذكر الكاتب في هذا المقال أنه في عام ١٩٦٥ فإن ٩٤ في المائة ممن تجاوزوا سن الخامسة والستين يعيشون في منازلهم حياة عادية تماماً وأن واحد في المائة فقط منهم

والاكتئاب والاحساس بعدم العطاء للجمع ، في حين أنهم قادرون صحياً ونفسياً على هذا العطاء بل والانتاج ، وألا يصبحوا عبئاً على المجتمع بل إضافة إليه ، ويورد المؤلف مثلاً جميلاً لذلك يتساءل هل في سبيل منع داء الكلب أن نقيم بأعداء جميع الكلاب ؟

ولقد ظل الأطباء يشكون في الأعوام الماضية ، من ندرة الابحاث الطبية في مجال قياس آثار الشيخوخة في الجسم ، مما حدا بنا إلى التسرع في ذلك ولقد كنت أقول أنه في الأعوام الحالية فانتنا نعرف آثار الشيخوخة على معظم أعضاء الجسم ووظائفه . ولقد آن الأوان في رأي المؤلف وأواقفه على ذلك تماماً ، لاجراء تغيير في المفاهيم التي تقبس كفاءات الشيوخ والعوقات التي تصيبهم والفائدة التي يجنيها المجتمع منهم وبنحوها هم لأنفسهم . وكما كان للعلم الفضل في زيادة عمر الشيوخ وزيادة عددهم في المجتمع فإن المجتمع مطالب بأن يعطي هؤلاء ما يستحقونه من أهمية ، ويزنهم بميزاتهم الحق ، ويورد المؤلف لذلك مثلاً بالثقل السياسي هؤلاء الشيوخ حيث أنهم يمثلون في كثير من بلاد العالم المتقدمة ما ييم ١٢ إلى ٢٠ في المائة من مجموع السكان ، ولقد تبدو النسبة مفاجأة لنا وخاصة للسياسيين ولكن هذا هو الواقع . ولقد أورد المؤلف مثلاً لذلك من الأوفقي ذكره هنا وهو يتعلق بهولندا ، فلقد كان هناك في عام ١٨٩٩ ستون ألف شخص مسن في كل مليون من السكان ، ولقد ظل الرقم ثابتاً إلى عام ١٩١٠ مع تغير طفيف إلى عام ١٩٢٠ حيث وصل إلى اثنين وستين ألفاً فقط ، ثم أسرع الرقم قفزاً إلى ٧٠,٠٠٠ في ١٩٤٠ و ٩٠,٠٠٠ في ١٩٥٠ ومائة ألف في ١٩٦٠ ولسوف

ولقد كان لادراك هذه الحقيقة أثر كبير في رعاية الشيخ وفي نظرة الأطباء بل والمجتمع لهم ، مما أعطانا راحة نفسية كبيرة ، وفي الواقع فإن هذا المفهوم كما أنقله الى طلبي وساعدي فإن الشيخوخة ليست مرضاً بل هو تطور « طبيعي » في جسم الانسان بل وفي عقله وأفكاره ونفسيته وأنها ليست مرضاً والا كنا اعتبرنا الطفل بسبب أنه مختلف عن الشبان مرضاً .

ويستطرد المؤلف الى ذكر بعض الامراض التي تصيب الشيخ ومنها الأورام الخبيثة ومرض البول السكري ، وهي في رأي المؤلف وأراقته على ذلك قابلة للوقاية منها ، ويثال ذلك الأمراض الخبيثة التي تصيب الرئتين فإن الامتناع عن التدخين يقلل الى حد كبير الاصابة بها وكذلك الاكتشاف المبكر للاورام مما يمكن علاجه جراحياً ، أما مرض البول السكري فإن تنظيم الغذاء كغذاء كليل بالاقبال الى حد كبير من اضراره ومضاعفاته .

وتناول المؤلف مرض الشلل النصفي نتيجة جلطة شرايين المخ وأن هذا المرض يمكن تفاديه بالنظام الغذائي وفي حالة حدوثه فانه يمكن مع الانتظام في العلاج البدء المبكر في العلاج الطبيعي الحصول على نتائج جيدة ، وهذا يؤيد ما قمت به من أبحاث في هذا المجال لا يبرز الفائدة من العلاج المبكر لهذا الشلل . واختم المؤلف هذا الباب بالتنويه بهبوط درجة الحرارة بسبب توقف التدفئة أو نقصها في المساكن في البلاد الباردة وتأثير ذلك على وظائف الجسم وكذلك أشار المؤلف الى أمراض المفاصل وتأثير

يعيشون في منشآت عقلية ، وأن فقدان القدرة على التحكم في التبول يحدث غالباً في هؤلاء ، وأوضح المؤلف أن لهذا فقدان في التحكم في التبول أسباباً من الممكن علاجها مثل التدفئة وعلاج التهابات المثانة والأمراض التناسلية وتضخم البروستاتا بالإضافة الى الخوف والقلق النفسي خشية إهمال الأهل أو القائمين بالرعاية لهذا الشيخ ، ولقد يكون نقص التدفئة أو نقص التغذية من الأسباب المؤدية الى ذلك ، وكلها كما هو ظاهر من الممكن تداركها وعلاجها وخاصة القول أنه يجب ألا يؤخذ عدم التحكم في التبول كقضية خاسرة بتحتّم قهولها أو الاستسلام لها .

انتقل المؤلف بعد ذلك الى قصور المخ المصاحب لتقدم السن وكيف أن اعتقاد الناس في ارتفاع نسبة الاصابة به مبالغ فيها جداً ، فإن واحداً في المائة فقط من الشيخ يحتاجون الى رعاية وعلاج لأمراض عقلية ، ومن هؤلاء ٣٠ في المائة تسوء حالتهم الى درجة القصور الفعلي أي أنه في المجتمع البريطاني (يجب ان نتذكر دائماً أن المؤلف بريطاني) في الألف فقط من عدد الشيخ يصابون بمرض القصور الفعلي ويؤكد المؤلف ، وأشار في ذلك ، على أنه من الاكتشافات الحديثة في علم الشيخوخة وطبها أن القصور الفعلي ما هو الا مرض مثل باقي الامراض وهناك أبحاث تشير الى أن سببه هو الاصابة بقرص وليس من أمراض الشيخوخة ، ولكنه مرض قد يصيب الانسان في أي طور من أطوار حياته والشيخ مثل الشاب ، بالإضافة الى اكتشاف اتجاه وراثي للاصابة بهذا المرض .

متواتر والقوانين تجمع رصه ، لأمكننا أن نقدر نحن الأصغر سنا مدى التحيم الذي ينقسم به هؤلاء الشيخوخ ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك الوقت الذي يسمح بالاسترخاء والتمتع بالهوايات مثل زراعة الحدائق أو القراءة أو الاشتراك في النوادي السياسية أو الاجتماعية أو القيام بالرحلات في بلد أو انحاء العالم .

ولكن هناك في المقابل يوجد بعض الشيخوخ ممن لا يشعرون بهذه التهم إما لأن الشيخوخ لم يدركوا إمكاناتهم المادية والسياسية أو لأن المجتمع لم يتيقظ تماما لدورهم وعاملهم كما يستحقون ، ويورد المؤلف لذلك ما حدث في بريطانيا عام ١٩٧٣ حيناً أصدرت مصلحة الصحة والأمن الاجتماعي (وزارة الصحة والشؤون الاجتماعية هي المقابل لذلك في البلاد العربية) وثيقة للمناقشة أطلقت الاسم الجذاب « شيخوخة سعيدة » ولقد كان لهذه الوثيقة المروضة للمناقشة أهداف ثلاثة الأول تمكين الشيخوخ من المعيشة في راحة وصحة دون الحاجة إلى بذل أي جهد بنفسهم ، والثاني هو إبقاء هؤلاء الشيخوخ في حالة نشاط ولكن بعيداً عن نهر الحياة ، والثالث هو إعطاء الفرصة للشيخوخ لابتداء رأيهم فيها يصلح لهم ويريدونه لأنفسهم . وهذه الوثيقة مع كل النوايا الطيبة التي حدثت بالقائمين عليها تجاهلت شيئاً أساسياً بل حيرياً عن بعض الشيخوخ وهو رغبتهم في الكسب أو القيام بعمل يحصلون منه على أجر مهما كان هذا الأجر ، قد يكون مادياً بدرجات متفاوتة ولكنه أجر على أي حال ، بل قد يكون معنوي في صورةثناء أو تقدير أو حفل تكريم أو شهادة أو مجرد الشعور بأن

ذلك على الشيخوخ لالزامهم بالبقاء في الفراش مع ما في ذلك من متاعب كثيرة للشيخوخ بالذات ، وبما أن هذه الاشياء يمكن تفاديها أو علاجها سواء طيباً أو بالعلاج الطبيعسي أو ادارياً عن طريق الجهات الحكومية ، فإن متاعبها سوف تقل كثيراً وبالتالي تنهياً حياة كريهة للشيخوخ . ثم تناول المؤلف أمراض الجهاز التنفسي التي تمثل ١٢ في المائة من اسباب الوفاة وكيف يمكن تجنبها بالتدخلة المنزلية والامتناع عن التدخين ، وأمراض القلب وكيفية تجنبها بالنشاط والحركة والامتناع عن الاكالات الدسمة والاقطال من الوزن للبدناء وتجنب التدخين ، كما أكد الكاتب فيما يتعلق بالجهاز البولي على أن يتناول الشخص السن كميات كبيرة من السوائل حتى يمكن للتكليتتين التخلص من سموم الجسم ، كذلك أوضح المؤلف ، وهو محق في ذلك ، على تفادي حدوث التهابات الكلى والمسالك البولية وعلاج تضخم البروستاتا .

ويتناول المؤلف في البابين الثالث والرابع موقف الشيخوخ اليوم ويبدأ الموضوع بأن المنطق أن مرحلة الشيخوخة هي المرحلة التي يتطلع اليها الصغار والشباب ويترسّطو السن ، والتي ينضج فيها الشخص ويصل إلى المرحلة القصوى من الخبرة والعلم والمناصب العليا وما يتمتعها من جاه وسلطة وأجور مرتفعة وشهرة في المجتمع ، وهي مرحلة يحسدونها عليها من هم دون ذلك في سلم العمر ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هؤلاء الشيخوخ ، بعضهم على الأقل قد أمكنه أن يقتصد من مرتبه طوال سنين عمره بحيث أصبح يمتلك منزلاً سواء بيت مستقل أو شقة ، أو على الأقل يدفع إيجاراً ورمزياً بسيطاً تم تحصيله منذ عدة

ويتطرق المؤلف الى مناقشة النقطة التالية لذلك وهي التاحية الاقتصادية ألا وهي هل يملك الشيوع الوسائل التي تمكنهم من المعيشة في رغد وصحة أم لا ؟ وهذا التساؤل له أهمية كبيرة في البلاد الديمقراطية التي يعتمد الحكم فيها أساسا على أصوات الناخبين ، وبما ان الشيوع يثلون ما يزيد على ١٤ في المائة من اصوات الناخبين فضلا عما هو معروف عنهم من الحرص على أداء واجبههم الانتخابي بمكش الشباب ، فانه وبسبب هذا الوزن السياسي تثار مشاكل الشيوع ورعايتهم في المجتمع على النطاق السياسي والحزبي أحيانا كثيرة . ولقد أمكن القاء الضوء على هذه التساؤلات عن إمكانية معيشة الشيوع في رغد وصحة في دراسة حديثة أجريت في عام ١٩٧٧ في بريطانيا ، فقد أجريت احصائيات سنوية متكررة فيها بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٣ ولقد كانت هذه الدراسة التي أجريت لاستكشاف احتياجات الشيوع من المجتمع الذي يعيشون فيه وكانت النتائج مضملة فلقد كانت المفاهيم وقتها هي هل يتم تلبية المصالح على ٢٨ جنبها (استراليا) في الاسبوع في حين ان الرجل العامل يحتاج الى ٧٥ جنبها لاحتياجاته الاساسية في الاسبوع ، وما أشارت اليه هذه الدراسة هو انه في المجموع ، من يعملون والعاملون ، ولكن في سن العاملين فان ٢,٢ شخص يعيشون على ٨٤,٣٠ جنبها في الاسبوع أي ٢٦,٣١ جنبها لكل شخص ، في حين انه للشخص المتقاعد المسن فان الدخل يتراوح بين حد أدنى هو ٢١,٣٥ جنبها لكل شخص لعائلة مكونة من فردين الى حد أعلى هو ٢٥,٤٨

هذا الشخص المسن ذو فائدة للمجتمع الذي يعيش فيه - لا بد أن نذكر نحن الذين نتناول هذا الموضوع أن المسألة بالإضافة ليست مالية فقط ولكنها معنوية فان فقدان الوظيفة وما يتبعها من فقدان الجاه والسلطة والأقدية والمزايا الأخرى ولودون نقص في الاراد له مضاعفات خطيرة على نفسية هذا الرجل المسن مما يتسبب عنه اكتئاب واحباط وانسزال عن للمجتمع والناس ، وهذا هو المعروف لنا نحن الباحثين في علم الشيوخة ويطلق عليه « فك الاشتباك » (Disengagement) وهو شيء خطير في حياة الشيوع ويجب التنبيه اليه تماما وهذا جزء مما كنت أقصده عندما ذكرت أن التحضير للشيوخة ، ماديا ومعنويا وصحيا و... الخ . يجب ان يحدث في سن مبكرة جدا . وهذا يؤدي بنا في رأي المؤلف ، وأنا أوافق تماما ، الى أنه ليس من الحكمة ان يكون دور للمجتمع تجاه الشيوع هو وضعهم في أمكنة منزلة عن المجتمع وحرمانهم أو إسكانهم أو المرور عليهم في أوقات منتظمة بوحشية مبرضة أو زائرة صحية أو موظف في مصلحة الصحة أو التأمينات ، كلا فان هذا لا يرضي الشيخ مطلقا ، حتى الذين تدهورت صحتهم نوعا ما ، غالبية الشيوع كما دلت الاحصائيات التي أجريت في بريطانيا وبلاد أخرى ، غالبيتهم يرفضون الاحسان أو الانفاق عليهم أو أن تتحمل الدولة عنهم اعاشتهم ، بل هم يطلبون أن تعطى لهم الفرصة للمشاركة في نه الحياة وليس بعيدا عنه ، ولقد يطلبون ان تعطى لهم وظائف أو أعمال تتناسب مع التغير الفسيولوجي الذي حدث في أجسامهم وعقولهم .

الدراسة فوق سن الستين قد أمكنهم أن يمتلكوا سكنهم ، وهذا الرقم يمثل ستة أمثال من يمتلكون سكنهم في أعمار تتراوح بين ١٦ و ٤٤ عاما ، وقد ترتب على ذلك أن من هم أصغر سنا يدفعون ١٠,٥٠ جنيهات في الاسبوع للسكن في حين ان المسنين يدفعون ٥,٥٠ جنيهات فقط في المتوسط . اذا أخذنا الى ذلك أن ذوي الأعمار المبكرة من الشباب هم تطلعات ، وهم محقون فيها تماما في الحياة المصرية المليئة بالاجهزة الحديثة والآلات الالكترونية والكهربائية مما يزيد من متطلباتهم وتطلعاتهم ويلقي أعباء على دخلهم ، في حين أن الشيوخ إما أن يناقلم تحري هذه الاشياء التي قاموا باقتنائها في سنوات شبابه وعملهم ، أو عندهم حالة من الزهد والتسليم من متع الحياة ولا يتطلعون اليها ، لو أخذنا كل هذا في الاعتبار لتغيرت نظرتنا الى الشيوخ المتقاعدين (وغير المتقاعدين) وسدى احتياجاتهم الى الصون المادي ، ويعزو المؤلف هذا الموقف الذي أظهرته هذه الاحصائيات الى كرم المجتمع في الأجيال الثلاثة الماضية والنظرة الاجتماعية او الاشتراكية التي دخلت الى المجتمعات الغربية بصورة أو أخرى وأوتحت نظام أو آخر بحيث أن الشيخ أصبح يعيش في رغد دون الحاجة لبلد أي مجهود .

ولكن المؤلف يشير الى نقطة أخرى وهي في نظري أساسية أيضا ، اذا كان الأمر مسألة مادية فقط فليست هناك مشكلة ، ولكن الأمر ليس كذلك فان هذا الشيخ يجب « ان يترك له تقرير نوع الحياة التي يرغبها ولا تفرض عليه » أي أن المجتمع ليس هو صاحب الحق في فرض نوع الحياة على الشخص

جنيتها أميبوعيا للرجل المسن ذي الخمسة والستين عاما الذي يعيش بمفرده . واذا أخذنا في الاعتبار بعض الشيوخ الذين لم يتقاعدوا لارتفع هذا الدخل الاسبوعي عن ذلك . وبالمثل في حساب هذه الفروق البسيطة فان ميزانية الشخص العامل الاسبوعية التي تشمل إيجار السكن ، الوقود ، الانارة ، الطعام ، الكساء ، والمواد الأخرى التي تدخل ضمن ميزانية الأسرة لوجد أنها ١٩,٥٨ جنيهها للشخص غير المتقاعد ، في حين أنها ١٨,١٤ جنيهها في الاسبوع للشخص المتقاعد ، وهذا وبحسبة بسيطة نجد أن هناك تعادلا ولا يوجد نقص في دخل أو متطلبات الشيوخ ، ولكن للموضوع وجهة نظر انسانية أخرى وهي في رأيي الظلم الذي يسببه علم الاحصاء ، ألا وهو التعميم فان درسا مجموعة من الناس يتزايد دخلها الاسبوعي مع ارتقائها في السلم الوظيفي وأن هذا الشخص عند التقاعد يكون دخله الاسبوعي قد وصل الى ١٣٦ جنيهها وكيف ان هذا الدخل ينخفض فجأة الى ٨٠ جنيهها مثلا أي ثلاثة أخماس دخله (ولكن أعلى بكثير من الحد الأدنى) لأمكننا تقدير التأثير الذي يشعر به هذا الشخص من هبوط الدخل الفجائي . ولقد أشار المؤلف وأنا أؤيده في ذلك تماما الى أن المسألة على أي حال ليست بهذه البساطة ، فلقد ظهر من هذه الدراسة أنه في المجموع فان للشخص المسن ، دخلا ونفقات ، لا يقل عن زميله الشاب أو غير المتقاعد ، ولكن فجائية التغير وعند ذوي الدخول المرتفعة بالذات هم الذين يشعرون بنقص في دخلهم وبشكل فجائي ، والامل الذي أظهرته الدراسة هو أن ٤٣ في المائة ممن شملتهم

عنه هؤلاء الشيخوخة ، وأنه يمكن لمن يعيشون بين الستين والثمانين أن تكون حياتهم كلها متعة ورغم وسادة وصحة ، بالمقاييس التي يرونها لأنفسهم وأنه يمكننا ، نحن المجتمع ، أن نجعل حياتهم أكثر رضا وأكثر متعة وأكثر صحة ، وأن هناك كثيرا في هذا المجال يمكننا القيام به . وفي الباب الرابع يؤكد المؤلف على أن الهدف هو سعادة الشيخوخة . وليس فرض العمل عليهم ، وهذا يتطلب اعطائهم الفرصة لاختيار نوع حياتهم إما تقاعد كامل أو تقاعد جزئي أو القيام بكامل المسؤولية في نطاق ما يطلق عليه « نهر الحياة » ، على ألا يؤثر قرارهم على حصولهم على أساسيات الحياة التي تجعل الشخص يحميا حياة كريمة وذلك في مقابل ما قدمه هؤلاء لأخوانهم في الإنسانية . ولقد كان من الصلوات البارزة في ذلك إقرار « قانون التمييز بالسن في العمل » في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧٦ وأن يكون العامل المحدد للأجر هو الإنتاج وكميته ولا يتعلق ذلك بالسن إطلاقا ، (ذلك أسوة بعدم التفرقة في الأجر بسبب الجنس) واستطردا من ذلك وإحقا قسا لحقوق الشيخوخة فإن هذا القانون يتناول من وصلوا إلى سن الخامسة والستين ويتوقف بعد هذا السن فإن هناك اتجاهات في الولايات المتحدة بأطلاق السن دون حدود ، وهذا الاقتراح ولو أنه لم يؤخذ به الآن ، إلا أنه مؤشر ذو دلالة هامة .

في السباب الخامس يتناول المؤلف الوسائل التطبيقية التي يمكن أن يتخذها المجتمع لتحقيق الرفاهية ورغم العيش والصحة للشيخوخة في ضوء ما ذكر في الأبواب السابقة من الكتاب .

السن ، يجب أن يتيح المجتمع للشخص المسن الذي يرغب في العمل أو الانتماس في نهر الحياة والإنتاج أن يفعل ذلك ليس بغرض استيفاء احتياجات الحياة الأساسية ولكن لفرضين آخرين هما تحسين دخله واشباع رغبته في العمل ، وهذا يتحقق بطريقتين أورد المؤلف أمثلة لها في إنجلترا وعلى نطاق اختياري أو تطوعي الأول أن يحدد مكتب يقيد فيه الشخص المسن إمكاناته وما يمكنه عمله وفي نفس الوقت يقيد فيه الناس ما يرغبون من خدمات ، وذلك مثل جلوس الأطفال ، توزيع البريد ، توصيل الهدايا ، الإصلاحات المنزلية الخفيفة... الخ . وكل ما يعمله المكتب (Office) هو أن يجمع الاثنين مع بعضهما وطبعا هناك أجور رمزية لذلك لكي يشعر الشخص المسن بمائد مادي ولو طفيف بجانب المائد المعنوي من خدمة الغير بالإضافة إلى إشعاره بأنه ذو فائدة كبيرة للغير . والنظام الآخر هو الأجر الكامل للعمل الذي يقيده الشخص المسن مقدرا حسب إنتاجيته بالنسبة للشباب . وأخذنا في الاعتبار أن هناك في بريطانيا الآن ١٠,٧٨٤,٠٠٠ شخصا تجاوزوا سن الستين أي ٢٠ في المائة من سكان بريطانيا البالغ عددهم ٤٤,٥٠٠,٠٠٠ لأسكن تقدير هذه الطاقة الكبيرة الممكن الاستفادة منها ، دون أن تؤثر على دخل أو عمل الطبقة العاملة إذ أنهم يؤدون أعمالا أخرى ولن يؤثر ذلك في أرباحهم .

ولقد خص المؤلف الباب الثالث في أنه لو أن التغييرات المسؤولية والتشريعية للشيخوخة تجعل الشيخ أضعف وأقل صحة إلا أنه وبسبب التقدم العلمي في العصور الحديثة فإن هناك كثيرا مما يمكن

مثل لندن ، وأرجع المؤلف ذلك الى ارتفاع تكلفة المعيشة في لندن عنها في مانشستر .

وهناك مجموعة ثالثة هي مجموع الشيوخ الذين يتكسبون من عمل لا علاقة له بالنسب مثل الفنانين من كل صنف وكذلك الاطباء والمهندسين والمحامين والمحاسبين ممن يظنون في الغالب في عملهم الى أن تنطفئ شمع حياتهم .

وهذه الأنظمة في رأيي تتطابق تماما مع ما أنادي به من أن كل شخص مسن هو وحدة مستقلة ولا يمكننا إيجاد نظام عام أو فرض نظام عام على جميع الشيوخ ، وذلك على غرار ان الشيوخة مختلفة في كل فرد ، دون مبالغة ، عن الفرد الآخر بل إن أعضاء الجسم وأجهزته تشيخ كل منها بطريقة مختلفة تماما في نفس الشخص .

والمؤلف يرى ، وأوافق على ذلك ، أن يقتصر دور الاختصاصيين الاجتماعيين على العملية التنظيمية فقط وطرح البدائل أمام الشيوخ وتبسيط القوانين التي تتعامل معهم بشكل يستطيعون فهمه بقولهم التي أصابتها الشيوخة ، وأن يكونوا باستمرار مدركين مدى السمعة التي يشر بها الشيوخ من العطاء وأداء الخدمات لغيرهم .

أما في الباب السادس وهو يتناول الموضوع من زاوية أخرى فهو يحتوي على أرقام التكلفة لرعاية الشيوخة في المجتمع ولقد كان الشيخ مكلفا حتى عام ١٩٠٨ في بريطانيا أن يتولى أمر نفسه في شيخوخته وإذا أخفق في ذلك فما عليه الا الإقامة في بيوت الفقراء ، ولكن سرعان ما أدرك المجتمع

وهذا الهدف يذكر المؤلف طريقتين مطبقتين في بريطانيا ، الاولى وهو ما يطلق عليه Link Opportunity أو باللغة العربية « فرصة حلقة الاتصال » أو « حلقة الاتصال » ، والواضح أن هذا التنظيم أو هذا النظام يحقق هدفين الاول إيجاد مخرج لطاقة ومهارات أعضائه ، والثاني هو اقتراف العلاقات الاجتماعية لاعضائه وذلك عن طريق لقاءاته مع الناس الذين يقوم بخدمتهم أو العمل لديهم .

الثاني : وهو ما يطبق بالفعل في حي من أحياء لندن ويسمى « بالعمل بعض الوقت » وهذا النظام أساسه هو أن الادارة المحلية تكون على اتصال بالأطباء والمستشفيات الذين لديهم مرضى من المسنين ممن هم في حاجة الى العمل كجزء من علاجهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى مع مؤسسات ومكاتب العمل وجماعات ، وفي هذا العمل فإن العاملين يمكن جمعهم من أماكن تجمعهم في النوادي والبارات والمكتبات الانجليزية الخاصة بهم ، وهذا النظام يؤدي الى الانتفاع بالشيوخ للانتاج بدلا من جلوسهم على المقاعد في الحدائق ، هؤلاء الشيوخ لديهم القدرة على العطاء والانتاج - صعبا (نعتيا وجسمانيا) ولقد يكون العمل الجليل الذي يقوم به الشخص المسن امتدادا لعمله السابق قبل التقاعد وهو ما حدث في قلة منهم (١٠ في المائة فقط) أما الأكثرية (٩٠ في المائة) فقد فضلت تغيير نوعية العمل مما يشير الى حيوية متدفقة وهامة لدى هؤلاء الشيوخ في مدينة مانشستر ، والأمر بالعكس تماما في مدينة

المجتمع . فهو قد أوضح في الايواب السابقة تأثير الشيخوخة على الجسم ، وكيف ان هذه الآثار قد تكون نعمة كما هي نقمة أي ليست نقمة كلها ، وحالة الشيخوخة في المجتمع وما يقوم به المجتمع حاليا تجاههم وذلك في المجتمعات ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة ..

يشير المؤلف في أول هذا الكتاب الى التقدم المذهل في العلوم البيولوجية ، ومنها الطبية بالطبع ، وتأثير ذلك على الاقلال من الأمراض والماناة لدى الشيخوخة في العصر الحديث ولكن لا زالت هناك ، كما يقول المؤلف ، أمراض تصيب الشيخوخ بالرغم من ذلك ، بعض الشيخوخ ، وهنا يعود المؤلف الى الأديان والأيمان بدور الخالق والتقدم في إصابة الانسان المسن بالمرض فهو يقول انه بالرغم من هذا التقدم المذهل في العلوم الطبية الا ان الانسان مازال في يد الله ويناقش المؤلف دور العقل والعلم والتوايا الطبية في التخفيف من متاعب الشيخوخة .

ولقد تعدد المؤلف الفصل بين العقل والعلم ويركز على أهمية أنه لا داعي أن نتوقع أو نتصور أن نحل مشاكل الشيخوخة ومتاعبهم كلها بالوسائل التكنولوجية الحديثة ولكن هناك من الوسائل البسيطة ما يؤدي نفس الغرض دون تعقيدات أو انتظار اكتشاف أجهزة إلكترونية معقدة .

يورد المؤلف عديدا من الامثلة لذلك بدءا بالمكانز الذي يساعد الشخص المسن على الوقوف في الوضع الرأسي وكيف ان الاختراع البسيط بوضع قطعة من المطاط الصناعي في أطراف المكانز يمكن

الصناعي التزامه في هذا الصدد وبدأ في عام ١٩٢٥ نظام تحصيل اشتراكات من العاملين حتى يمكن اعطائهم معاشات عند التقاعد وانتقل المجتمع خطوة تقدمية أخرى في عام ١٩٤٨ بعد الحرب العالمية الثانية بالاعتراف بحق كل شخص على أعتاب الشيخوخة في معاش يحصل عليه اسبوعيا ، ولقد أمكن تنفيذ هذا النظام بالنسبة للعاملين بعيدا عن الحكومة باشتراك العاملين وأصحاب العمل فيه وتضاعف عدد المشتركين في هذا النظام بحيث أنه في عام ١٩٧١ أصبح نصف العاملين أعضاء فيه وبعيدا عن معاش الدولة .

وفي المجتمعات الحديثة مهما كان التنظيم الاقتصادي فيها ، أمكن إيجاد توازن بين ما يمكن للشيخوخة كسبه لأنفسهم وبين ما يمكن تقديمه لهم ، وهذا قد يكون واجب الدولة أو تنظيها على نطاق أصغر مثل جمعية خيرية ، الكنيسة ، العائلة أو القنبلة ... ، وعلى نقيض ذلك فان هناك من المجتمعات ، مثل الولايات المتحدة الأمريكية حيث لا يزال عبء تنظيم دخل في سن الشيخوخة ملقى على عاتق الشخص نفسه .

وخلص المؤلف الى أنه يجب على الشخص المسن والمجتمع الذي يعيش فيه أن يصلا الى اتفاق في هذا الموضوع وليكن هذا الاتفاق من أي نوع وعلى المجتمع ان يغطي النفقات الاقتصادية المطلوبة منه بأي طريقة .

في هذا الباب السابع والذي يليه يستطرد المؤلف في تناقض وتنازع جيد الى ما هو المطلوب من

ويشير المؤلف في هذا المجال الى الحسوف التقليدي لدى الشيوخ من كل جديد ، بما قد يجرهم من مزايا استعمال هذه الاشياء الجديدة وهذا يحتاج الى صبر وأناة من القائمين على رعايتهم لادخال مزايا هذا الاستعمال في أنفهامهم بطريقة تدريجية وببساطة ، وبالمثل الوسائل التي اخترعت لمساعدة الشيوخ على ارتداء ملابسهم وهي عديدة وتقار بالبساطة .

ثم يستطرد المؤلف في الصفحات الاخيرة من هذا الباب الى المجال الواسع الذي يمكن فيه الاستفادة من الاجهزة الالكترونية الحديثة التي أمكن بواسطتها جعل حياة الشيوخ ممتعة وأي ممتعة ، وهنا في نظري يأتي دور المجتمع بسبب أن هذه الاجهزة غالية الثمن ومن واجب المجتمع المساهمة فيها وقد يكون ذلك بإعازتها الى هؤلاء الشيوخ .

أما الباب الثامن والأخير فإن المؤلف يضع فيه عنوانا هو « ماذا الآن » أو بمعنى آخر « ماذا نفعل الآن » أو « ما هو المطلوب منا الآن » أو « ما هي قدرتنا على فعل ما يفيد هؤلاء الشيوخ ؟ »

بانتهاه القرن العشرين فإن مشاكل كثيرة من مشاكل المجتمع قد انتهت وتبلورت ، مواقف مثل دور الطفلة في السياسة وحقوق المرأة في المجتمع الغربي ، في المجتمع الاسلامي وخلافه ، وكذلك أصبح واضحا ان التوصيات القديمة بسدجها العتيقة أخسنة في الاقتراض وظهرت بدلا منها أفكار أكثر شمولا تأخذ في الاعتبار نواحي انسانية واقتصادية أخرى .

وبالرغم من ذلك فلا زالت بعض المجتمعات

الشيخ المسن من السير على الطرقات الموصوفة والارض المساء التي هي من سيات المجتمع الحديث . ولقد تكونت في انجلترا مجموعات من الناس لتساعد على تجهيز مثل هذه الأدوات البسيطة في مكانها لحل مشاكل الشيوخ على الطبيعة . مثال ذلك جهاز خاص لتثبيت البيضة بواسطة الشفط حتى لا تنفخ من صحن الشيوخ ويغرش به مادة لاصقة تمنع تحرك الصحن أو وسيلة لتدريس السكينة ذات النصل الحاد المقوس التي يمكن الشيخ من تسلط النجوم بيد واحدة واستعمال سوسته الملابس بدلا من الأزرار وبالمثل الوسائل التي تسهل الاعمال اليومية المنزلية مثل غسيل الصحون ، والاستحمام والتبرز والتبول ، وبالنسبة لصلية طهر الطعام فيمكن تجهيز المطبخ بطريقة تجعل السيدة غير محتاجة الى حركة كثيرة لمباشرته .

ومن الامثلة الاخرى التي لها آثار هامة على الشخص المسن هي مساعدته على القيام من على المقعد الذي يجلس عليه باستعمال جلسة (وسادة) للمقعد قابلة ان تنتفض بحيث تغطي الشخص المسن الدفعة الاولى التي يحتاجها ، وهذه المسألة في غاية الاهمية عندنا نحن العاملين في حقل رعاية الشيوخ ، فانه ان يحتاج الشيخ الى مساعدة ، من أي نوع ، فإن كرامته ونفسه تصاب بصدمة شديدة قد تكون قاتلة له ، يتحول بعدها الى مرحلة من الاكتئاب تؤدي به بعد وقت قليل الى الوفاة . وبالمثل يمكن تصميم أنواع من الموبيليا خاصة بالشيوخ مثل المنضدة التي لا تقع أو استعمال الهواء المضغوط لنقل أو رفع الأشياء .

تعتبر الشيخوخة جريمة ، وأن الشيخ يجب ألا يعاملوا معاملة مخنقة أو أقل من باقي الأعمار - وهذا موجود في الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص - ولكنه كما أسلفت ، أعخذ في طريق الإصلاح .

ينحصر في رأي المؤلف ، واجب المجتمع في معرفة التطورات الفسيولوجية المصاحبة للشيخوخة ، ومقاومة الأمراض التي تؤدي الى شيخوخة مبكرة أو تجعل الشيخ يعيش حياة كئيبة كلها معاناة ، واستغلال المجتمع للتطورات العلمية الحديثة في زيادة عدد الفيوخ الذين يتمتعون بحياة رغدة كلها صحة وسعادة ورفاهية في منى حياتهم الأخيرة ، فإن الموت حق على كل شخص على أي حال .

في المقدمة يجب على المجتمع أن يدرك أن الشخص المسن الذي بلغ من السنين وتجاوزها قادر في أحوال كثيرة على أن يستمر في عمله السابق أو يعمل عملاً جديداً بنفس كفاءة الشباب أو متوسطي العمر من الناس . والشيء الآخر في نظر المؤلف وفي نظري ، هو أن يحير المجتمع للشخص المسن المتطلبات الأساسية فهذا واجب المجتمع وحق الشخص المسن ، ولكن يجب علينا نحن الذين

نخطط وتنظم للشيخوخة أن لا « نجبر » الشخص المسن على نوع خاص من الحياة وفي فترة تقاعده فهذا في غاية الخطورة ، يجب أن نترك لهذا الشيخ (رجلاً أو امرأة » أما أن يختار حياة التقاعد وعدم العمل وقد تشمل القراءة وزراعة الحديقة والانضمام الى النوادي والجمعيات ولكن دون اشتاج ، أو قد يرغب الشخص المسن أن يستمر في عمله السابق أو يبدأ عملاً جديداً فإذا رغب في ذلك لا تقف في طريقه بل نهيه له الوسائل لتنفيذه .

ولقد يقال أن الشيخ يدركون متى يحين متيهم ولنا تدري هل هذا حقيقي ، أو كان الأمر كذلك في الماضي وليس في الحاضر ، ولكن قد يكون من الانسانية بمكان أن نهيه هؤلاء الشيخ الواسات الكفيلة بادخال الراحة النفسية عليهم في الأيام الأخيرة من حياتهم والتي يكون فيها من الواضح أن نهايتهم قد دنت .

وفي النهاية يحذر بي أن أشير الى أنني قد استمعت جداً بقراءة هذا الكتاب ، أولاً لأنه يتناول موضوعاً يس شفاف قلبي ألا وهو الشيخوخة وشاكلها ورعاية الشيخ ، وثانياً لأن الكتاب مكتوب بطريقة مبسطة واضحة ومتسلسلة ومنطقية .



تحاول روز ماري الصايغ في الكتاب المذكور ان تقدم شرحا مفصلا للأسباب الرئيسية التي أدت إلى انتقال حالة الفلاح الفلسطيني من كونه عاملا في الأرض « فلاحا » إلى كونه ثوريا يجعل السلاح ضد إسرائيل .

في تتبع دراسة الحركة الوطنية الفلسطينية يمكن القول بأنها مرت خلال أطوار أربعة :

أولا : في الفترة بين ١٨٨٠ إلى ١٩١٤ ظهرت الحركة الوطنية كرد فعل للمستوطنات اليهودية السبعة التي أقيمت في أوائل الثمانينات من القرن الماضي ، والتي تبعها مستوطنات أخرى مع بداية القرن الحالي في أماكن متعددة في فلسطين .

ثانيا : في الفترة ما بين ١٩١٤ و ١٩٤٨ تطورت الحركة الوطنية الفلسطينية نتيجة السياسة الاستعمارية البريطانية ، وما صاحب ذلك من تسهيل هجرة اليهود إلى المنطقة ، وذلك بقصد إنشاء وطن قومي يهودي بناء على الوعد الذي قطعتة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .

ثالثا : في الفترة ما بين ١٩٤٨ إلى ١٩٦٥ اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينية مساراً جديداً - راكدا في معظم الأحيان - نتيجة للحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ وتغير الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للفلسطينيين ، إذ أصبح الفلسطيني يتميز اجتماعياً بكونه لاجئاً ، واقتصادياً « بات يعتمد على غيره من أجل الحياة » وسياسياً لم يعد لديه

الفلاحون الفلسطينيون من الأسلحة إلى الثورة

تأليف: روز ماري الصايغ
عرض وتعليق: أحمد هاشم ظاهر

رؤية وملاحظات ، فالكاتبة لا تهتم بالاحداث بقدر اهتمامها بأراء الناس . وقد جعلت الكاتبة مدار حديثها الفلاح الفلسطيني لسبيين هما : ان نسبة ما يقارب ٨٠٪ من سكان فلسطين هم من الفلاحين ، وهناك نسبة لا تزيد عن ١٥٪ من البلدو ٥٪ او اقل ما يمكن ان يسمى بالطبقات الارستقراطية ساكنة المدن . وكذلك فان المقاومة الفلسطينية التي ظهرت في السنوات ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٩، ١٩٣٣ . واخيرا اضراب سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ قد قام بها الفلاحون دون سواهم .

تشير الكاتبة الى انه - بالرغم من حياة الفقر - التي عاشها الفلاح في فلسطين قبل النكبة الا انه كان يتمتع بوضع اقتصادي يكتفي سد الحاجة نتيجة لما تقيء عليه الارض بزراعتها ، اما على النطاق الاجتماعي فقد كانت الاسرة والعشيرة محور هذا النظام ، وتميزت العلاقة الاجتماعية بمقدار لا بأس به من الحب والتآلف حتى امتد ذلك ليشمل القرية بكاملها والقرى المجاورة الاخرى . بمعنى آخر تؤكد الكاتبة على ان الحياة الاجتماعية للفلسطيني في ارضه كانت بعيدة كل البعد عن حياة الاغتراب والتمزق التي يعيشها حتى الآن في المخيمات ، وتظهر الكاتبة من خلال مقابلاتها الشخصية التي اجرعتها دليلا على ان نفس الفلاح ساكن المخيمات يعيش حياته السابقة - قبل النكبة - عن طريق الذكريات . ففي جلساته المليئة في المخيمات يدور الحديث عن القرية الفلسطينية الهادئة ، وبناء مدرسة

قيادة او ما يمكن ان يكون بدولة . اضيف الى ذلك الصراع العربي - العربي بين قادة الدول . وايضا : في الفترة من ١٩٦٥ حتى الوقت الحاضر برزت الحركة الوطنية الفلسطينية بثوب جديد حيث تبنت استعمال العنف كاستراتيجية لتحرير الوطن السليب ، وقد دفع هذا النمو الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ .

على خلاف ما كتب سابقا عن ردود فعل الحركة الوطنية الفلسطينية فان كاتبة الكتاب المشار اليه اصلاء تبحث في « تجربة الفلاح الفلسطيني » . باختصار شديد يدور الكتاب حول التغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي للفلاح الفلسطيني الذي اضحى لا حول له ولا قوة على اثر حرب عام ١٩٤٨ ، ولكنه انبعث مرة اخرى حاملا بندقية بعد حالة من الركود استمرت سبعة عشر عاما . لقد اعتمدت الكاتبة على المقابلات الشخصية لساكني المخيمات الفلسطينية ، والتي يمتاز سكانها بحالة من الفقر كمصدر اولي لمعلومات الكتاب او البحث . اضيف الى ذلك انهم كانوا اصلا من فلاحي الارض الفلسطينية قبل عام ١٩٤٨ ، او بدلو عاشوا في الصحراء الفلسطينية ، او من سكان المدن الذين اضطروا للسكن في المخيمات (ص ٩) . والكتاب في مجلته تسجيل لآراء عينة من (هؤلاء) الذين عاشوا احداثا معينة كاحداث اضرابات عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وحرب ١٩٤٨ ومعايشة النكبة وما الى ذلك . فالباحث المذكور ليس تاريخيا وانما

التنظيم ، واعتمادهم على وعود من الزعماء العرب بخاصة في الاردن والعراق ، وغيب قيادة سياسية قادرة على تفهم الوضع القائم (ص ١٢ - ١٣) . حقا لقد قيل للفلاح الفلسطيني ان يجاهد في سبيل الله والوطن فجاهد ولكن كيف جاهد ؟ لم يكن هناك برنامج سياسي يحارب بمقتضاه ، ولم تكن هناك قيادة سياسية واعية مما جعل الهزيمة محققة .

لا تشكل القرية الركيزة الاولى في التركيبة الاجتماعية الفلسطينية فحسب ، وانما تعدى ذلك لتشمل الوعي الفلسطيني بوجه عام (ص ١٣) اضيف الى ذلك فان القرية هي دليل الولاء والانتماء والهوية وتصنيف الطبقة . وتحاول الكاتبة ان ترسم مقارنة بين الفلاح الفلسطيني وقريته والفلاح المصري وقرته ، وترى الكاتبة شدة التصاق الفلاح الفلسطيني الشديد باسم قريته على عكس الفلاح المصري الذي يركز على اسم المحافظة التي تتبع لها القرية . على الرغم من هذا التصريح الا ان بعض الدراسات كتلك التي قام بها حلیم بركات ويتر دود في كتابها مهر بلا جصور ان الفلاح الفلسطيني قد قدم ولاءه لاسرته اكثر مما قدم ولائه لقريته . اذ وجد الباحثان في اعقاب حرب الایام الستة سنة ١٩٦٧ ان الفلاح الفلسطيني قد ترك لرضه خشية اغتصاب الجنود الامرائيليين لأفراد أسرته .

تذكر الكاتبة ان هناك عوامل ثلاثة حددت وجود القرية : استغلال الارض ، ومواجهة

القرية ومسجد القرية ، ومن زرع ماذا ومتى وكيف ، وذكريات الحب والعشق التي تتعلق بالارض .

حقا ان هذا الحديث هو ما يمكن القول بانه عملية التنشئة الاجتماعية التي بواسطتها ينقل كل جيل خبراته وذكرياته للجيل الجديد ، اذ يركز الاب دائما في حديثه لابنائه عن تلك الحياة التي عاشها في القرية الفلسطينية ، لذا نجد كثيرا من الابناء الذين لم يولدوا في فلسطين يدركون وصفا لقرى آبائهم واجدادهم وكانهم وجدوا في تلك الفترة من الزمن .

الحديث عن الارض والمدرسة والبيت والمسجد والشجر والزرع واحلام الماضي وذكرياته لا تنفصل ايضا عن اعمال المقاومة والعنف التي تبتناها ذلك الفلاح منذ وعد بلفور حتى السقوط سنة ١٩٤٨ . كل هذه العوامل - الهدوء والمقاومة - لعبت دورا اساسيا في التحاق ابناء المخيمات بالمقاومة الفلسطينية تماما ، كما التحق نفس الفلاح في صفوف مقاومة السياسة البريطانية والاستيطان الصهيوني قبل النكبة . ويتذكرون ايضا انهم لم يكونوا على دراية كاملة بما كان يدور حولهم من تخطيط وتنظيم على ايدي بريطانيا والصهيونية . لم يكن في اذهانهم تصور ولو بسيط انهم في يوم من الايام سيتملكون عن قراهم ، لقد كان اعتمادهم بانفسهم كبيرا ، وجهلهم بالقوة التنظيمية التي امتاز بها الصهاينة اكبر ، وبما زاد الطين بلة اعتمادهم في خططهم الحربية على نظام تقليدي قديم بعيد عن

هذا الوضع ووضع المرأة في القرية المصرية والجزائرية ، حيث يجتمع فيها الرجال معاً والنساء معاً . أما على النطاق الاقتصادي فالمائلة وهي غالباً ما تضم الأب والام وابنائهم وزوجات ابنائهم ، اذ يعمل الجميع ويتوزع نتاج الدخل على افراد الاسرة بالتساوي . (ص ٢٢٠) .

كان من نتيجة الاضطهاد السياسي العثماني ان شارك الفلاح الفلسطيني في الحروب مما ادى الى تعميق حدة الفقر من جهة ، وزيادة المواليد من جهة اخرى ، اضيف الى ذلك ان الحكومة العثمانية قد طلبت من الفلاح الفلسطيني ان يدفع محصولاً زراعياً عوضاً عن الضرائب ، الا انه في فترة لاحقة قد غير هذه السياسة وطالب بالدفع المادي ، مما اضطر الفلاح الى بيع محصوله بفوائد من ٣٠ - ٣٠٠ ٪ . هذا الوضع ادى الى مزيد من الفقر والفاقة . اما في عهد الانتداب البريطاني فقد ساعدت بريطانيا على تعميق الفقر وذلك عن طريق استيراد كميات هائلة من المحاصيل الزراعية من استراليا وغيرها ، وببيعها في الاسواق بنصف الثمن (ص ٣٠) وقد نتج عن ذلك عدم قدرة الفلاح على استغلال ارضه مما اضطره للعمل في مستوطنات اليهود ، والتي بات رزقه مهدداً من قبل ساكنيها . وقد اثار هذا الوضع انتباه الفلاح الى ضرورة تغيير حياته نوعاً ما وذلك بالاتجاه نحو العلم والدراسة ، خاصة عندما وجد ان التعليم يتيح فرصاً في الحياة افضل ، وفلا

الأخطار الخارجية ، والاحترام المتبادل بين العائلات . وكان هذا يتم من خلال العمل الجماعي في ترتيب الامور الداخلية من اجتماعية واقتصادية ، اما على النطاقين السياسي والاداري فقد اعتبرت القرية وحدة ادارية ، وذلك لأغراض فرض الضرائب وجمع الفلاحين تحت سيطرة الدولة ، سواء كان ذلك اثناء سيطرة الدولة العثمانية او البريطانية . وتشكل اداريو القرية من الوجهاء « كبار القوم » « والشيوخ » « رجال الدين » وآخرها المخاتير . وقد كان لجامع الضرائب من القوة والسلطة مالا يملكه احد في القرية فهو الشرطي والمنظم وجابي الضرائب في نفس الوقت ، ولا يجرى احد سواء كان وجبها او شيخاً او مختاراً على الوقوف امامه . اضيف الى ذلك ان الاضطهاد السياسي الذي تواجد ابان الحكم التركي كان موزعاً وغير محصور ، اما الحكم البريطاني فقد نظم السيطرة على القرية بحيث اضحى كل من يساند ثائراً « مجاهداً » يمرض نفسه من قبل السلطة الانجليزية الحاكمة للهلاك . كتنف ييته او سجنه او غير ذلك ، وتجمع القرية ممثلين عنها لرفع شكواها للوالي او الحاكم العسكري اما في حالة الدفاع فائتاه القرية هم المكلفون في ذلك .

لا يوجد في القرية الفلسطينية - على النطاق الاجتماعي - تفرقة بين الرجل والمرأة سواء داخل البيت او خارجه في الحقل ، والواقع ان المرأة في القرية الفلسطينية تتمتع بمساواة مع الرجل الى ابعد الحدود . وتقلن الكاتبة بين

الارستقراطية ولم يكن لديهم اي حرص لمصالح فلاحي البلاد . اضيف الى ذلك استغلال القيادة السياسية واضطهادها للفلاحين ، كما تثبت اقوال من عاصروا الحقبة . اللطيف في الموضوع ان احدا لا يستطيع فهم العلاقة بين المستوطنين اليهود والفلاحين ، وهي علاقة اكد لها المستوطنون ضرورة استئصال الفلاحين من الارض وابعادهم عنها ، ولذا فقد نظر المستوطنون اليهم نظرة عدم اعتراف وحقهم في ذلك « انه لم يكن هناك شعب فلسطيني ولم يملكوا الارض ولم يشكلوا دولة في اي وقت مضى » (ص ٤٥) .

اما القيادة السياسية الارستقراطية الفلسطينية فقد كانت تنظر باستعلاء للفلاح الفلسطيني تصل الى حد الاحتقار . وكانت الطبقة ظاهرة للعيان ، فبينما يقوم الارستقراطي بعمل الدبلوماسية السياسي كان من واجب الفلاح المشاركة في الحرب والانتاج . انه وضع يذكرونا بطبقتي السادة والعبيد في اليونان القديمة . حتى التقدم والتحديث الذي اوجدته الادارة البريطانية لم تستطع ان تقضي به على وجود الطبقة .

تشير الكتابة الى اسباب ضعف القيادة الفلسطينية بعدم مشاركتهم في النوادي الادبية والاحزاب السياسية السرية التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، والتي دعت للانفصال عن الدولة العثمانية وحياء فكرة القومية العربية كنادي

تذكرنا الكتابة بقولها « ان ما اخذه الطلبة معهم في اعقاب حرب ١٩٤٨ ويده الهجرة هو اوراقهم وكتبهم حتى اذا وصلوا لبنان او الاردن او الى اي مكان اخر التحقوا بالمدراس التعليمية لاستكمال دراستهم » .

في حديث الكتابة عن القيادة الفلسطينية والقيادة الصهيونية السياسية يجد القارئ ان التجانس يعمم القيادة الثانية (الصهيونية) على عكس ما كانت تعانیه القيادة الفلسطينية من تبعثر وتمزق ، والواقع ان الادارة البريطانية لم تنظر الى وجود الفلسطينيين كشعب او امة فكانت تشير اليهم دائما « بالمجتمع غير اليهودي » ولم يعترفوا ايضا بالقيادة الفلسطينية . حتى ان الهبة العربية العليا والتي ضمت مختلف الاحزاب السياسية الفلسطينية التي عرفت في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن لم تكن بريطانيا تعترف بها كممثلة شرعية للشعب الفلسطيني ، وحجة بريطانيا في ذلك ان هذه الهبة لم تكن تمثل الشعب الفلسطيني ولكنها تمثل طبقة من الارستقراطيين الذين لا تتجاوز نسبتهم ٥٪ . الغريب في الموضوع ان الادارة البريطانية كانت تعترف بوجود الهبة العربية العليا عندما يكون لها غرض في ذلك كوضع حد للنفذ الذي غالبا ما كان يظهر على ايدي الفلاحين . الا ان احدا لا بد ان يكون متصفا في هذا الشأن ويعترف بوجود هوة كبيرة بين فلاحي فلسطين وقيادتهم السياسية . فالسياسيون يشكلون فعلا مصالح الطبقة

الاحزاب السياسية اليهودية . اضيف الى ذلك عدم مقدرة القيادة الفلسطينية على تبني وجهة نظر معينة ضد حدث معين ، اذ ترى الكتابة في ذلك ان القيادة السياسية الفلسطينية ركزت على ضرورة قتل المتدوب السامي البريطاني صموئيل عام ١٩٢٠ ، ثم غيرت وجهة النظر هذه الى تبني الدعوة الى عدم استقباله ومقاطعته ، الا انه حين وصوله لم يكن احد من القيادة السياسية قد تخلف عن استقباله .

على النقيض من ذلك فقد توفر للصهيانية العتاد والقيادة الموحدة والتخطيط الجيد ، حتى اذا بدأت الحرب سنة ٤٨ كان لدى اليهود قوة عسكرية تعدادها ٣٦,٠٠٠ مقاتل في الخط الامامي و٣٢٠٠٠ يشكلون خط الدفاع الثاني و ١٥٤١٠ جنود مستوطنات و ٣٢٠٠٠ حراس منازل وما يقارب ٤٠٠٠ مقاتل في صفوف المنظمات السرية ك ستاون ، ارجن . اما المجاعة فقد كانت تضم ٢٠٠٠ جندي مدرب في ايام السلم و ٤٠٠٠ آخرين احتياطي و ١٦٠٠٠ جنود ميدان مدرين عسكريا بالاضافة الى ٤٠٠٠٠ مقاتلين احتياطيين يعملون بعض الوقت . وكان الصهيانية قد فرضوا الخدمة الاجبارية العسكرية في مدارسهم بدءا من سنة ٤٥ (ص ٧٢ - ٧٣) .

تصف الكتابة احداث دير ياسين وشاعرة قتل الاطفال والنساء والاعتداء الجنسي عليهن من قبل الجنود الصهيانية مما حدا بالرجال الفلسطينيين ان يختاروا بين الهروب بعائلاتهم او

الفتاة ، والاحد ، الحزب اللامركزي ، جمعية بيروت والاصلاحية (ص ٤٨) . وتشير الكتابة ايضا في حاشية رقم ٨٦ من الفصل الاول نقلا عن ماندليل ان ١٢ عضوا فقط من اصل ١٢٦ قد شارك في مثل هذه النوادي . ولكن مراجع هذا الكتاب يوافق مع جورج انطونيو اكثر في كتابه « يقظة العرب » الذي يشير الى المشاركة الفعالة من قبل الفلسطينيين في مثل هذه النوادي والذين وصلوا الى مراكز قيادية لا بأس بها . المهم في الموضوع انه لم يكن هناك احد من الفلاحين - وذلك لعدم قدرتهم التعليمية المشاركة في مثل هذه النوادي .

اما السبب الثاني الذي اشارت اليه الكتابة فهو حصر اعضاء الهيئة العربية العليا على الطبقة الارستقراطية البرجوازية وعدم اشترك الفلاحين بها . اود ان اضيف عاملا اخر وهو انشغال القيادة الفلسطينية بمحاربة بعضها البعض اكثر من محاربة الاعداء . وحتى الاحزاب السياسية قد مثلت صائلات ارستقراطية كالحسيبي والنشاشيبي وغيرها فقط . فاذا دعي حزب الى مؤتمر لشرح القضية وتبني وجهة نظر كما حدث سنة ١٩٣٣ عندما دعي الى مؤتمر اسلامي لتصبح القضية الفلسطينية اسلامية قام حزب آخر بالدعوة الى مؤتمر اخر لمناقشة الفكرة مما يتبع عن ذلك من تعميق الصراع بين الاحزاب السياسية الفلسطينية والتي بالتالي لا تستطيع ان تبني استراتيجية معينة لمواجهة العدو ، على عكس

واضحوا قلة في اماكن عديدة تحت أنظمة سياسية عربية مختلفة بعد ان كانوا اكثرية في مكان واحد . واقتصاديا فقد اصبح الفلسطينيون يعتمدون على غيرهم للحياة بعد ان كانوا يعتمدون على انفسهم . وتحدثت الكاتبة في اكثر من موضوع (ص ٨٣ - ص ١١٠) عن الاضطهاد السياسي والاجتماعي الذي وجده الفلسطينيون المهاجر امامه . لقد كان اكثر الاضطهاد في الاردن واقله في سوريا . اما المقيمون في الدول العربية الاخرى فقد وجدوا من الاضطهاد ما يشبه بقليل او كثير ذلك المنصوص عليه في الدولتين المذكورتين . حقا لقد كان توزيع وانتشار الفلسطينيين في اماكن عديدة سببا مباشرا للاضطهاد والقهر . ابرز الوضع السكاني للفلسطينيين تحت أنظمة سياسية مختلفة انواعا مختلفة من السياسة التي انطبع بها الفلسطينيون ، فالفلسطيني في الاردن يحافظ اما سكان غزة فعرف عنهم الليل الشديد للثورة والعنف ، وسكان الجليل الاعلى (الذين شكلوا العمود الفقري لثورة ٣٦ - ٣٩) والذين قطنوا سوريا ولبنان كانوا دائما على اهبة الاستعداد لمواجهة اي طاريء سياسي ، اما اولئك الذين بقوا في داخل الاراضي الفلسطينية المحتلة وتحت الحكم الاسرائيلي فلم تتح لهم فرصة الاشتراك بالعمل السياسي المنفرد وقيام قيادة خاصة بهم . ان المحاولة الفريدة التي قاموا بها ٥٦ بقيام « حركة الارض » طحنت من قبل الاسرائيليين على الفور (ص ١٠٠) .

البقاء في اراضيهم . اضيف الى ذلك ما قام به الصهاينة من توزيع صور للجرائم التي ارتكبوها في دير ياسين على القرى العربية الاخرى لاقناع السكان العرب بضرورة ترك منازلهم والافلات بجلودهم .

القوة العسكرية الفلسطينية الوحيدة التي ظهرت سنة ٤٨ فقد كانت قوة جيش الجهاد المقدس الذي اسمه المفي الحجاج امين الحسيني بقيادة ابن اخيه عبد القادر الحسيني (الرجل الوحيد الذي اشترك في الحرب من الامر الارستقراطية جيمما فقاتل حتى قتل في معركة القسطل) . وكان عدد هذا الجيش لا يزيد عن ٥٠٠٠ مقاتل . وكان يعتمد للعائد والتنظيم وقلة الاتصالات ويطه الحركة . اما الجيش الاخر فقد تألف من ٣٠٠٠ رجل نصفهم فلسطينيون بقيادة فوزي القاوقجي التابع للعائلة الهاشمية في العراق وكان يسمى بجيش الانتقاذ . وما عرف عن هذا الجيش عدم تسليحه وعدم تدريبه ولم يكن على دراية بالارض والشعب الذي كان من المفروض ان يدافع عنهم ويحاول تنظيمهم على الاقل لمساندته ، واشتهر عنه القول « ماكو اوامر » . اضيف الى ذلك انهم لم يحسنوا معاملة اهل القرى واتهموا بمساعدة العدو في الاحتلال وتمهيد الطريق له وذلك بالانسحاب الى الخطوط الخلفية دائما لذا فقد اطلق عليه الفلسطينيون « جيش الركض » (ص ٧٧ - ص ٨١) .

كان اهم نتائج للحرب العربية الاسرائيلية ان فقد الفلسطينيون هويتهم كفلسطينيين .

والسلم الذي يقول : ان المآسي تخلق النظريات الكفيلة بتقيد الناس . وهذا ما حدث للفلسطينيين ، فقد اجبرتهم حياة البؤس والحرمان الى الانصراف للتعليم والعمل خاصة في منطقة الخليج ، حيث توفرت فرص النجاح لهم للحصول على مزيد من العلم والعمل . وتشير الكاتبة الى احصائيات عن عدد العمالة الفلسطينية الوافدة الى منطقة الخليج ، وتدعي علم وجود مثل هذه الاحصائيات على الرغم من ان هناك احصائيات متوفرة عن ذلك في كثير من دول المنطقة .

لقد كان لحياة العزلة التي عاشها الفلسطينيون في الدول العربية وفقدان شعورهم بالاحترام نتيجة لفقدانهم للارض ونتيجة للتمزق العائلي ونتيجة لحالة الفقر وعدم السماح لهم بالتنقل والزيرة ادى بهم الى المطالبة بالرجوع الى الارض ، وهي فكرة تعطيلهم الأمل في اعادة حالتهم النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الى الوضع الطبيعي ، بعبارة اخرى المطالبة بان يحيا حياة عادية كما يحياها كل انسان (ص ١٣٠) . اما الظلم السياسي الذي احاق بالفلسطينيين فيعود الى سياسة الدول العربية التي لم تأخذ موقفا حاسما من اجل إرجاعهم ، على الرغم من الوعود التي نادوا بها ، بل على العكس من ذلك فقد صرفوا وقتا غير قليل في نزاعاتهم الشخصية . اذ لم تقم اي دولة عربية باستثناء سوريا ومصر تدريبا وتسليحا عسكريا لاعضاء المقاومة الفلسطينية .

تحدثت كل الاحزاب السياسية العربية باسم فلسطين والفضية الفلسطينية الا انها قدمت مصالحها الحزبية على مصلحة فلسطين . وتحدثت الكاتبة عن السبب الرئيسي للمعاملة السيئة التي يواجهها الفلسطيني الى خوف الدول العربية من هذا العنصر الجديد الذي دخل اراضيها ويتميز بوضع ثقافي سياسي عال قد يؤدي الى قلب انظمة الحكم فيها .

اعتقدت الطبقة الوسطى من الفلسطينيين ان حل قضيتهم يكمن في ايجاد وحدة عربية قوية قادرة على التصدي لاسرائيل ، الا ان هذا الامل قد خاب على اثر الانفصال بين مصر وسوريا سنة ١٩٦٢ ، فانتهوا الى البحث عن عنصر آخر يتضمن حمل السلاح والاعتماد على انفسهم . اما الطبقة البرجوازية الفلسطينية ولأجل مصالحها مع الدول العربية فينحون منحنى أخسر كثيرا ما يتضمن لوم القيادة الفلسطينية خاصة عندما يجدون مضايقة من حكومات الدول العربية . اما سكان المخيمات فيتذكرون دائما ان الدول العربية وجيوشها قد قتلت منهم أكثر مما قتلته اسرائيل في خلال ثلاثين عاما من قيامها .

تفغض الدراسة بقصص وروايات عن المعاملة السيئة التي وجدها الفلسطينيون اثناء الهجرة على الحدود السورية واللبنانية والاردنية . وتشير الكاتبة ايضا الى حياة البؤس والحرمان التي وجدها الفلسطينيون في الدول المضيقة . الا انه يمكن للمرء ان يتذكر قول آرون في كتابه الحرب

الفلسطينية وتعليق الشعب الفلسطيني كل الآمال عليها لأسباب :

١ - انفصال الوحدة المصرية السورية ونخبة الأمل العربي بالوحدة العربية .

٢ - الحرب اليمنية والتي غدتها الدول العربية .

٣ - التجربة الجزائرية التي أكدت للفلسطينيين ان بإمكان احد ان يتنجح بغير الاعتماد على الدول العربية .

٤ - يمكن ان يستغل موقف المقاومة الفلسطينية للدعاية لحركة الوحدة العربية ودفعها الى الامام (ص ١٤٥ - ١٤٩) .

جملة القول ان المقاومة تمت وترمرت نتيجة للبؤس والحرمان والشعور بالاعترا ب وعلم الانتهاء الذي عاشه وعاناه الشعب الفلسطيني ، وكذلك فشل قيام وحدة عربية تمتد من الخليج الى المحيط . ناهيك عن القول بان زعماء الدول العربية يعيشون ليهمهم وتلهوهم في صراعهم مع بعضهم البعض .

تشير الكاتبة الى ان السلاح والصراع في المقاومة الفلسطينية اعطى الفلسطينيين ثقة بالنفس ، واصبح العرب الآخرون ينظرون اليهم نظرة احترام يختلف تماما عن نظراتهم السابقة . حقا لقد عرف الفلسطينيون ان البندقية هي المدخل الوحيد لكل الفضائل .

للمقاومة الفلسطينية لا تعني حرية الحركة في الدول العربية المجاورة لاسرائيل على الاقل وانما تعملو ذلك لتشكيل خطرا على الوضع السلمي القائم في الدول العربية . خير مثال على ذلك ما حدث في الاردن وما يحدث الآن في لبنان . إذ

اما في لبنان والاردن فقد استعملت السلطات القائمة شتى انواع البطش والعنف لاجهاد المقاومة الفلسطينية ، فما زالت منظمة التحرير الفلسطينية مثلا تذكر ان اول فدائي قد قتل من اعضائها كان برصاص الجيش الاردني . اصف الى ذلك استعمال القوة والضغط الاقتصادي والتفتيش والاعتقال والضرب والتكيد وفرض ضرامات مالية على كل من له صلة بأي عمل فدائي . الا ان كل هذه الضغوط لم تمنع الثورة من الظهور والمقاومة من التنظيم ، وتعلم الفلسطينيون ان يميزوا بين الذين يتحدثون باسم فلسطين لأسباب سياسية وبين اولئك الذين يفعلون من اجلها .

تفرد الكاتبة الفصل الأخير للحديث عن الثورة الفلسطينية التي انطلقت في الاول من يناير ٦٥ بعد ان اكتشف الفلسطينيون الثوريون انه لا يمكن ان يستعملوا حريتهم وكرامتهم الا ضمن حدود دولة آمنة خاصة بهم . ويعود ظهور المقاومة الفلسطينية على الشكل الذي نراه الآن الى هزيمة الدول العربية ١٩٦٧ . والذي اعطى مجالا واسعا للمقاومة لتنظيم صفوفها وإقناع كثير من الجماهير الفلسطينية وغير الفلسطينية على ان المقاومة الفلسطينية شيء آخر جليل يختلف عن الحكومات العربية وبالفعل فقد نما عدد اعضاء المقاومة الفلسطينية الى ما يقارب ٥٠٠٠٠ سنة ٦٨ وبالأذات في اعقاب معركة الكرامة في ٢١ مارس ١٩٦٨ .

ويعود السبب المباشر الى ظهور المقاومة

على الرغم من رسم صورة للفلاح الفلسطيني وقرية بشكل موضوعي يا حبذا لو صرفت الكاتبة فصلا آخر عن مدى تغير التراث الاجتماعي الذي أحدثه ظهور المقاومة الفلسطينية . حقا لقد اشارت الكاتبة الى بعض التغيرات ، الا انه بالامكان البحث بصورة مفصلة عن ذلك .

بدت الكاتبة متحيزة نوعا ما للمقاومة الفلسطينية في الجزء الأخير من الكتاب ، ولم تشر الى سلبات كثيرة تعاني منها المقاومة الفلسطينية ، خاصة على النطاق القيادي . أضف الى ذلك انها لم تشر الى وضع الفداة وانتهائهم السياسية المختلفة ومدى تأثيرها على المقاومة ككل .

يلو ان الكتاب قد كتب في النصف الاول من السبعينات من هذا القرن ولم يأخذ بعين الاعتبار دور السياسة والنقط ، وكذلك لم يشر الكتاب للدور الذي تلعبه دول الخليج العربي سواء بالسلب او الايجاب .

لقد اشارت الكاتبة الى ان المقاومة الفلسطينية قد لعبت دورا كبيرا في تثقيف وتعليم الجماهير الفلسطينية عن الدول التي تعمل لصالحهم والتي تعمل ضدهم . على الرغم من صحة ذلك الا ان الفلسطيني كان على دراية كاملة بما يلود حوله قبل ظهور المقاومة الفلسطينية .

وأخيرا فان احدا لا بد ان يقدم الشكر لكاتبة هذا الكتاب على ما أبدته من جهود ، واسلوب لا يسع القاريء اذا بدأ بقراءة الصفحة الأولى ان يشعر وكأنه يحاول الغوص الى قاع بحر هائج طلبا للحصول على معلومات اكثر .

ن حرية الحركة للمقاومة الفلسطينية ادى بالتالي الى صراع بين المقاومة والحكومات المذكورة .

تشير الكاتبة في ص ١٦٨ الى مشكلة السلطة - الثورية وظهر عدة مراكز قوى داخل المقاومة . . حقا ان المقاومة الفلسطينية تعاني من مشكلة التنظيم ، ويعود ذلك لسبب اغفلت الكاتبة ذكره ويتعلق « ببيروقراطية » المقاومة بعد ان تمت وتطورت وزاد عدد كوادرها .

فالبيروقراطية ان لم تستطع المقاومة القضاء عليها فانها تشكل خطرا لا يستهان به على المقاومة نفسها . وتشير الكاتبة الى مشكلة اخرى تتضمن تعدد المنظمات كالجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وبجبهة التحرير العربية . . . الخ وهي مثلا مشكلة لا بد لقيادة منظمة التحرير ان تضم كافة هذه المنظمات تحت لوائها . لقد كان كاتب هذه السطور يعتقد ان كثرة المنظمات الفلسطينية يعتبر ظاهرة صحية ، ويدعو الى اختلاف وسائل مقاومتها واستراتيجيتها العسكرية لهدف واحد . الا ان ارتباط بعض فصائل المقاومة ببعض الدول العربية يفسر هذا الاعتقاد .

ان احدا لا يستطيع ان يذكر الحدث الذي قدمته المقاومة الفلسطينية على صعيد الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والسياسية لدى الفلسطينيين ، حقا لقد خلقت المقاومة الفلسطينية روحا جديدة في الفكر الفلسطيني والاكثر من ذلك لقد وجد الفلسطيني هويته الضائعة .

يلاحظ قارىء هذا الكتاب التكرار في المواضيع الكثيرة التي كان بالامكان اختصارها خاصة في حديث الكاتبة عن المعاناة التي وجدها الفلسطيني في الدول العربية عند الهجرة .

العدد الثاني من المجلد

العدد الثاني - المجلد الثالث عشر
 يوليو - أغسطس - سبتمبر
 قسم خاص عن
 "دراسات في الشخصية"
 بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

طَبَعَ فِي
مَطْبَعَةِ حُكُومَةِ الْكُوَيْتِ

المجلة الثالثة عشر

التقويم والشخصية
الشخصية المعرفية الإدراكية

الأساليب وتعديل السلوك
الشخصية وتعديل السلوك

العدد الثاني • يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٢

المجلد الثالث عشر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد



مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٢
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص ب ١٩٣

المحتويات

دراسات الشخصية

- التمهيد بقلم مشاعر التحرير ٣
التعلم والشخصية الدكتور أبو عبد الشرفاري ١٣
الشخصية السوية الدكتور طلعت منصور ٦٣
الانساب المعرفية الاحكامية الدكتور نادية عمود شريف ١٠٩
الشخصية وتعديل السلوك الدكتورة فريلا البيلادي ١٣٥



شخصيات وآراء

- علم وايم فرياد الدكتور يوسف عز الدين عيسى ١٩٩



مطالعات

- المجاميع اللغوية الدكتور زكريا أبو حنيفة ٢٤٣



من الشرق والغرب

- تأثير الفكر الانكليسي بالحركة العلمية في المشرق الاسلامي الدكتور سواقي حيد محمد ٢٨٧



صدر حديثا

- ديكتوز والعالم الحظي الدكتور سمير البربري ٣١٥
الفرق الذي لنا الاستاذ مصطفى عوض ابراهيم ٣٥٣

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

منذ حوالي خمسين سنة ، وفي عام ١٩٣٤ على وجه التحديد ، أصدرت عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية روث بنديكت Ruth Benedict كتابا بعنوان « أنماط الثقافة » Patterns of Culture قيض له أن يحتل مكانة مرموقة بين الكتابات الأنثروبولوجية ، وأن يصبح أحد الأعمال الرئيسية الهامة في هذا المجال ، مع أنه كان في الأصل مجموعة من المقالات المتفرقة التي نشرت في بعض المجلات العلمية ثم جمعتها صاحبيتها ، وأدخلت عليها بعض التعديلات واستخلصت منها بعض النتائج ، بحيث باتت تؤلف وحدة متناسقة ، واتخذت بذلك شكل الكتاب المتكامل . وقد يمكن القول إن ظهور هذا الكتاب كان بمثابة البداية لظهور فرع هام من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية الذي يطلق عليه اسم دراسة الطابع القومي أو الشخصية القومية ، وهو اتجاه حديث وطريف يدخل عموما ضمن مايعرف في الكتابات الأنثروبولوجية الحديثة باسم « الثقافة والشخصية » والطريف في الأمر هنا هو أن روث بنديكت لم تتبع في تأليف الكتاب المنهج الأنثروبولوجي التقليدي الراسخ ، الذي يهتم على الباحث أن يقوم بنفسه بجمع المعلومات الأنثروجرافية من المجتمعات أو الثقافات التي يتعرض لها ، وما

الثقافة والشخصية

وما يتطلبه ذلك من اقامة الباحث نفسه فترة طويلة من الزمن في ذلك المجتمع وملاحظة سلوك الناس وتصرفاتهم وعلاقاتهم ، وانما اعتمدت بدلا من ذلك - على الاقل في بعض فصول الكتاب - على بحوث قام بها غيرهما من العلماء الذين كان كل واحد منهم يهتم في بحثه بدراسة وتحليل العلاقة بين نمط الثقافة السائد في احد المجتمعات البدائية وملامح الشخصية العامة كما تنعكس في سلوك أعضائها ذلك المجتمع . وقد اشارت المؤلفة بوجه خاص - الى جانب بحثها هي - الى دراسة روث بونزل Ruth Bunzel لقبائل الزون التي تعيش في جنوب غربي الولايات المتحدة والذين يتميزون عموما بالهدوء والدعة والميل الى الالة والمودة ، والدراسة التي قام بها استاذها فرانز بواس Franz Boas لقبائل كواكيوتل في شمال غربي أمريكا ، وهم يمتازون بالتطرف والفردية وشدة التنافس والصراع فيما بينهم ، ثم دراسة ريو فورشن Reo Fortune لقبائل دويو بالقرب من غينيا الجديدة ، وهي قبائل مشهورة بالميل الى الشجار وحب التنازعات ، كما تصنف أفرادها عموما بالتشكيك والارتياب في الآخرين . وحول هذه المجموعات القبلية الثلاث التي تمثل في نظرها ثلاثة انماط ثقافية مختلفة يدور معظم الكتاب .

والفضية الأساسية التي تريد روث بنديكيت ابرازها والدفاع عنها ، والتي انتقلت منها بعد ذلك الى الكثير من العلماء ، هي أن السلوك العام السائد في أي ثقافة من الثقافات يمكن فهمه بطريقة أفضل وأعمق في ضوء القيم والمثل والاتجاهات العامة التي تسود في هذه الثقافة ذاتها ، وأن هناك عددا من الضوابط المحددة التي تحكم انفعالات الافراد في كل ثقافة ، مما يعني أن هذه الضوابط تختلف من مجتمع لآخر . ويقول آخر فان سلوك الافراد والجماعات يجب دراسته في ضوء ماتعلمه هؤلاء الافراد أو تلك الجماعات على أنه صواب أو خطأ ، وكذلك في ضوء فكرتهم عن السلوك المباح والمحرّم ، وبذلك تكون روث بنديكيت قد وضعت في هذا الكتاب أسس نظريتها المعروفة باسم « الصيغة الثقافية العامة » ومؤداها أن كل ثقافة تسيطر عليها اتجاهات عامة شاملة تطبعها بطابع خاص يميزها عن غيرها ، وان ذلك يتطلب بالضرورة الاهتمام بدراسة الاتجاهات الأساسية للثقافة أكثر من الاهتمام بدراسة كل سمة من السمات وعلاقتها بالسمات الأخرى ، التي تدخل في تكوين هذه الثقافة على ما يفعل الوظيفيون (يمكن للقارى الرجوع في ذلك الى كتابنا عن « البناء الاجتماعي » - الجزء الاول ، المفهومات صفحة ٢٣٨) .

هذا الكتاب المتعمق الذي كتبه امرأة على جانب كبير من العلم والذكاء وشمول النظرة ، كانت له آثار بعيدة قلما تنبه اليها الباحثون . فلقد ساعد الكتاب على ايجاد بعض الاتجاهات الجديدة في الدراسات الانثروبولوجية ، أو على الاقل ابراز أهمية عدد من الاتجاهات التي كانت بوادرها ظهرت من

قبل ، ولم تجد الاهتمام والعناية الكافيين ، فأرسي الكتاب هذه الاتجاهات على أسس منهجية أكثر قوة وصلابة ورسوخا . ويمثل ذلك بوجه خاص في إثارة الاهتمام من جديد بدراسة بعض الموضوعات المشتركة بين الأنثربولوجيا وعلم النفس ، وهي الموضوعات التي تندرج تحت مقولة « الثقافة والشخصية » والتي لها علاقة بالعمليات الادراكية والمعرفية ، والفوارق بين الجماعات السلافية المختلفة في مجال القدرات الخاصة والذكاء ، وصلة هذه الاختلافات بالظروف والأوضاع الثقافية ، وكذلك الموضوعات المتعلقة باختلاف انساق القيم وأثرها على حياة الأفراد ، وما إلى ذلك . أي أن كتاب بنديكت فتح الباب على مصراعيه امام دراسة الجوانب السيكولوجية في الثقافة ، وبوجه خاص دراسة الشخصية في علاقتها بالثقافة عن طريق تحليل العلاقات بين الثقافة والفرد ، وأثر الثقافة في تكوين الشخصية . وكانت النتيجة من هذا كله أن أصبح بعض العلماء ينظرون الى الثقافة على انها « شيء » ذاتي يربط الأفراد الذين يشتركون معا في صيغة ثقافية معينة او نمط ثقافي واحد ، وبذلك بدأ هؤلاء العلماء يعتبرون الأنماط الثقافية تجريدات من السلوك ومن التجربة الثقافية ، وأنه ليس لها بالتالي وجود واقعي مشخص بعيدا عن الأفراد الذين صنعوها .

وبطبيعة الحال ، لم تسلم آراء بنديكت من النقد والتجريح والتشكيك والاعتراض والتعديل والاضافة إليها .

كانت بنديكت مثلا ترى أن (عقل) الفرد عبارة عن (صفحة بيضاء) يمكن لأي ثقافة أن تؤثر فيها وتطبعها بطابعها الخاص . فلم يكن الفرد في نظرها أكثر من مجموعة ضخمة من الامكانات التي يمكن لأي ثقافة أن تختار منها وتتقن ما يتلاءم ويتفق مع نمطها الخاص . فموقف الفرد - في نظرها - كان موقفا سلبيا الى حد كبير فيما يتعلق ويتصل بعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي وعمليات التربية والتعليم . وقد أثار ذلك كثيرا من الاعتراضات . فلقد اعترض كاردينز - Kardin- وغيره من العلماء الذين عاجلوا نفس هذه النقطة وذهبوا فيها الى أن الفرد « ينجح » - حسب تعبير كاردينز - « لمقابلة » ثقافته اثناء عملية التعليم والتربية وعمليات التنشئة الاجتماعية عموما ، وأن يحصل من الثقافة اثناء هذه « المقابلة » على ما يحتاج اليه من اشباع ، مما يؤدي الى ظهور اشكال السلوك الفردي المختلفة التي تضمها الثقافة العامة التي تسود المجتمع الواحد .

وليس المقصود على أية حال الكلام عن روث بنديكت ونظريتها عن الصيغة الثقافية بقدر ما هو محاولة تبين مدى عمق هذا الاتجاه (الجديد) في دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية بوجه عام ، على

اعتبار أن هذا الاتجاه يمثل نوعاً من التقارب العام بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس . ولذا يكفي أن نشير هنا إلى ما يقوله الاستاذان أوجرن Ogburn ونيمكوف Nimkoff في صحنه ٢١٩ في كتابهما : « لقد ظل الأنثروبولوجيون لسنوات طويلة يهتمون بالتنظيم الصوري للثقافات المختلفة دون أن يهتموا كثيراً بالطريقة التي تؤثر بها الثقافة في الشخصية ، كما ظل علماء النفس يقفون معظم جهودهم على دراسة السلوك في المعامل التي أعدت خصيصاً لهذا الغرض ، ويعيدون تماماً عن التأثيرات البيئية رغم ما لها من أهمية عالية . ولكن لم يلبث الأنثروبولوجيون أن اكتشفوا الشخصية في آخر الأمر ، كما اكتشف علماء النفس الثقافة ، وبدا المثلان يتعاونان بشكل فعال في دراسة مشكلة العلاقات المتبادلة بين العوامل الثقافية والعوامل السيكولوجية . فكان أهمية كتاب بنديكت تتمثل في آخر الأمر في أنه ساعد على تحريك الأنثروبولوجيين الثقافيين من الاتجاهات الصورية في دراسة الثقافة ، والاهتمام بدرجة أكبر بدراسة علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة ، مع إدراك أن الفهم الدقيق للثقافة يتطلب دراسة شخصية الفرد الذي هو في آخر الأمر جزء من هذه الثقافة ، يتأثر بها حسب ما تلعب إليه بنديكت ، ويؤثر فيها كما يقول غيرها ، ثم الاهتمام بعد ذلك بدراسات الشخصية القومية التي هي أحد فروع مدرسة الثقافة والشخصية .

وليس ثمة شك في أن ظهور الاتجاه إلى دراسة الشخصية القومية وتعدد مداخل هذه الدراسة من أهم النتائج التي ترتبت على الاهتمام بموضوع الثقافة الشخصية . وتعبير « الشخصية القومية » تعبیر يطلق على الدراسات الأنثروبولوجية التي تهدف إلى تحليل وتفسير للمفومات الرئيسية التي تميز شعباً من الشعوب في ذاته . وقد ازدهر هذا الاتجاه في أمريكا إبان الحرب العالمية الثانية نتيجة للرغبة في فهم الخصائص العامة التي تتميز بها الشعوب المتحاربة من كلا الطرفين ، أي الحلفاء والمحور على السواء . وقد برع الأمريكيون في ذلك بوجه خاص ، ولذا ارتبطت هذه الدراسات بالمدرسة الأمريكية بالذات أكثر مما ارتبطت بغيرها من مدارس الأنثروبولوجيا . وقد استفاد العلماء في هذه الدراسات بغير شك من خبراتهم المباشرة في البحوث الحقلية التي قاموا بها هم أنفسهم في المجتمعات البدائية والبسيطة وطبقوها في هذه الدراسات الجدية ، كما استفادوا من معرفتهم بالحضارات والثقافات القديمة أو الزائلة وتلك التي حل وشك الاندثار . والطريف هنا أيضاً أن أهم دراسة أجريت في هذا المضمار أثناء الحرب العالمية الثانية كانت هي الدراسة التي قامت بها روث بنديكت نفسها على اليابان ، والتي ضمنتها كتاباً طريفاً آخر لها بعنوان (زهرة الكريزانتيم والسيف) ، عرضت فيه لتراكيب وبناء الثقافة اليابانية والمزاج والروح اليابانية ، وطابعهم الخاص الذي يجمع بين العنف والقسوة من ناحية والرفقة وحسب الجمال والروح الفنية الراقية التي تتمثل بوجه خاص في الاهتمام بالزهور وتنسيقها من الناحية الأخرى

وقد استخدم تعبير (دراسة الثقافة عن بعد) للإشارة إلى هذه البحوث والدراسات التي كان يقوم بها الأثنوبولوجيون معتمدين على كتابات غيرهم وعلى الوثائق والشهادات الحية وما إليها دون أن يقوموا هم أنفسهم بالبحث الحقل المباشر الذي تقضي به أصول المنهج الأثنوبولوجي . وقد تأثر معظم الذين درسوا هذه الثقافات عن بعد بالمناهج المتبعة في دراسات الثقافة والشخصية ، كما اعتمدوا على نظريات التحليل النفسي ، سواء نظريات فرويد أو نظريات يونج ، فضلا عن نظرية الجشطالت Gestalt وسيكولوجيا التعلم . وبدأت عبارات جديدة تبرز في الكتابات الأثنوبولوجية الثقافية نتيجة لذلك ، وهي في الأغلب عبارات متأثرة بالمصطلحات المستخدمة في دراسة الشخصية الفردية بعد تحويلها بحيث تتلاءم وتتفق مع أهداف الأثنوبولوجيين ، وبحيث تميز دراساتهم عن الدراسات السيكلوجية في مجال الشخصية ، كما أنها تشير إلى الاتجاهات السائدة في دراسة الشخصية القومية . وبذلك بدأنا نسمع عن « البناء الأساسي للشخصية » ودراسة « الشخصية المتوالية » ودراسة « الطابع الاجتماعي والثقافي » ، وهي كلها تشير إلى أهمية الخصائص السيكلوجية والسلوكية التي تظهر نتيجة للاتصال بالنظم الاجتماعية والانساق الثقافية . فبناء الشخصية مثلا هو نوع من الاشتقاق من المفهوم السيكلوجي للشخصية ، وإن كان محديدا (البناء) يتم عن طريق دراسة الثقافة وليس الفرد ، وبذلك فإن البناء الأساسي للشخصية يمثل « تجمع أو ارتباط كل خصائص الشخصية التي يبدو أنها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التي تؤلف أي ثقافة من الثقافات . وليس من الضروري أن يتحقق ذلك البناء الأساسي للشخصية في كل عضو من أعضاء الجماعة ، بل إنه يكفي أن يوجد لدى غالبية الأفراد حتى يمكننا التعرف عليه وتحديد الملامح التي تدخل في تكوينه والتي تعطي المجتمع بالتالي طابعامعينا متمائزا ، خاصة وأن هذا البناء الأساسي للشخصية لا يظهر عند الأفراد إلا نتيجة للتجارب السابقة التي اكتسبونها منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، بمعنى أنه لا يظهر تلقائيا نتيجة للفرائز أو الدوافع أو القرى الأساسية ، وإنما هو شيء يستمد ويكتسب من الثقافة ذاتها .

(انظر كتابنا صفحة ٢٤١)

وبصرف النظر عن المنطلق النظري الذي يوجه دراسة الثقافة والشخصية ، وبخاصة الشخصية القومية ، فلا بد للباحث من أن يأخذ في الاعتبار عددا من الأمور ، لحل أهمها هو ضرورة التعرف على العلاقة بين التراث الاجتماعي والثقافي الشامل الذي يعيش فيه الفرد وتأثر به بطريقة شعورية أو لاشعورية . فاختلاف التراث الثقافي يؤدي إلى اختلاف أنماط السلوك السائد في المجتمع . والمثال الذي أحب أن أستشهد به دائما في هذا الصدد هو اختلاف نظرة الشخص الواحد إلى قيمة (الوقت) وتقديره لأهمية ومعنى عنصر الزمن حين تتغير ظروف الحياة العامة في المجتمع . وهذا واضح ليس فقط

بين تقدير سكان المدن والقرى والصحراء لعنصر الزمن ، بل وأيضاً تقدير القروى لهذا العنصر حين تتغير ظروف حياته هو نتيجة للعمل في أحد المصانع مثلاً ، اذ تسير حياته حسب توقيت دقيق لم يكن له به عهد من قبل . ومع ذلك فلا يمكن أن يحركل الفروق (الزاجية) التي تميز الأشخاص بعضهم عن بعض في نطاق الثقافة الواحدة ، بحيث يصبحون جميعاً نسخة واحدة متكررة . ولذا فإن تتبع دقائق وتفصيل وتفاصيل السلوك عن الافراد والامكانات والقوى والدوافع والقيم التي تخفى أو تكمن وراء هذا السلوك ، والترات الذي يورجه سلوك وتصرفات وعلاقات افرادالمجتمع خلقية كلها بان تعطينا في آخر الأمر فكرة عامة عن ثقافة المجتمع وعن الشخصية القومية أو الطابع القومي . وهذا يدفع الكثيرين من العلماء الى القول بان الشخصية القومية هي المرادف للثقافة ، بل ان بعضهم يذهب الى حد القول بأنه يمكن وضع أى من المصطلحين مكان الآخر دون أن يطرأ أي لبس أو خطأ على السياق الذي يستخدم فيه أحد هذين للمصطلحين .



ولقد اعطى علماء النفس في العالم العربي كثيراً من جهودهم لدراسة الشخصية ، وظهرت لهم في ذلك كتابات كثيرة حول نظريات الشخصية ومدائل دراساتها والمناهج والأساليب المختلفة التي تتبع في ذلك ، ومقاييس الشخصية ومقاييس الشخصية وغير ذلك من الموضوعات . وكثير من هذه الكتابات تعتمد على بحوث أصيلة قام بها هؤلاء العلماء بأنفسهم . والدراسات التي يضمها هذا العدد من المجلة تمثل نماذج من الاسهامات التي يضيئها علماء النفس العرب طيلة الوقت الى هذا الميدان الرحب الهام من ميادين البحث العلمي ، وهي اسهامات ليس لها مع الأسف ما يماثلها حتى الآن على المستوى الانثروبولوجي ، وإن كانت هناك بعض دراسات متفرقة يمكن ادراجها بشكل أو بآخر تحت موضوع « الثقافة والشخصية » . وربما كان اشهر هذه الدراسات تلك الدراسة القيمة التي قام بها حامد عمار في إحدى قرى الصعيد ، والتي ضمها كتابه الهام الموسوم *Growing Up in an Egyptian Village* .

ويرجع انصراف الانثروبولوجيين في العالم العربي عن هذا النوع من الدراسات الى اسباب تاريخية صرفة ، تتعلق بالظروف التي لا يست دخول الانثروبولوجيا الى مصر ، وبالذات جامعة الاسكندرية التي كانت اول من وجه النظر الى الانثروبولوجيا كعلم متميز عن علم الاجتماع ، والتي أنشأ فيها اول قسم مستقل للانثروبولوجيا في العالم العربي ، والتي تخرج منها معظم الانثروبولوجيين العرب أو تأثروا بانهاجها النظري وموقفها التنجني ، واعتماها بدراسة البناء الاجتماعي والانساق الاجتماعية أكثر مما

تهتم بدراسة الثقافة . إلا أن السنوات الأخيرة شاهدت بعض التغيرات على هذا الموقف تتمثل في اتساع نطاق اهتمامات تلك المدرسة ، بحيث بدأت الأجيال الجديدة من الدارسين تعطي اهتماما أكبر للدراسات الثقافية وللانتماءات المعرفية والأدراكية في تفسير الثقافة ومعالجة موضوعات تدخل في مجال « الثقافة والشخصية » ، وبالذات الشخصية القومية ، والطابع القومي .

وربما كان أهم بحث في هذا المجال هو بحث الشخصية القومية الذي قام به قسم الأنثروبولوجيا تحت إشرافي منذ أعوام قليلة ضمن مشروع ضخم اضطلعت به جامعة الاسكندرية تحت عنوان (إعادة بناء الانسان المصري) . ولم تظهر النتائج النهائية لهذا المشروع ، وإن كان أحد تقارير المتابعة ، وهو التقرير الثالث الذي نشرته تلك الجامعة في ديسمبر ١٩٧٩ ، يعطى فكرة واضحة عن أهم ملامح البحث الأنثروبولوجي وفروضة ومناهجه . وقد يصلح هذا التقرير لأن يكون مرشدا وموجها ، وبداية للقيام ببحوث أخرى مماثلة في مناطق أخرى من الوطن العربي ، ولذا فأنى أعطى نفسى شيئا من الحرية في الاقتباس أو النقل من هذا التقرير باعتبارى المشرف على البحث ، كما أننى وضعت خطته وأشرفت على كتابة التقرير .

ولقد كان الدافع الى القيام بالمشروع كله ، وبوجه خاص بدراسة الشخصية القومية المصرية أو الطابع القومي المصرى ، هو الشعور بأن مصر تمر في الوقت الحالى بمرحلة حاسمة من تاريخها الطويل تتطلب الاهتمام بفهم الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية التى تسود في المجتمع المصرى ، مثلما تتطلب ضرورة التعمق في فهم الشخصية المصرية ومقوماتها وما تعرض له في الآونة الأخيرة من بعض المظاهر السلبية ، والاحساس بضرورة التعرف على الأسباب الموضوعية لهذه المظاهر الجديدة والسمات الطارئة على الشخصية المصرية ، حتى يمكن معالجتها واتاحة الفرصة للمجتمع وللانسان المصرى لتغيير مسارهما والانطلاق نحو اهداف سامية محددة . والواقع ان الاهتمام بدراسة (الانسان المصرى) جاءت ايضا كنوع من الاستجابة المباشرة للاتجاه العام الذى يسود المجتمع المصرى الآن من التحسر على الماضى وعلى القيم الضائعة وعلى التسبب ومظاهر السلوك السلبى ، والحاجة الى علاج هذه الأوضاع التى تسمى الى صورة مصر والمصريين ، ليس في نظر الآخرين فحسب ، بل وأيضا في نظر المصريين انفسهم . والدراسة من هذه الناحية تختلف عن الغالبية العظمى من الدراسات التى اجريت في المجتمع المصرى ، لأنها تعتبر (الانسان) هو الهدف وليس النظم الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ، وذلك على اعتبار أن (الانسان) هو صانع تلك النظم ، كما انه هو المنفذ لها والذى يتأثر بها من حيث انها تنعكس في آخر الامر في سلوكه وتصرفاته وتحكم علاقاته

داخل المجتمع . وهذا معناه أن الدراسة اتخذت (الإنسان) وليس المجتمع نقطة مركزية يدور حولها البحث ، كما أنها أخذت في الاعتبار أن يتم تفسير البيانات والمعلومات الأثنوجرافية وتحليلها من هذه الزاوية حتى يمكن الوصول في آخر الأمر الى فهم أعمق للإنسان المصري وعناصر شخصيته الأساسية ومقومات تلك الشخصية والعوامل التي تحكم سلوكه والقيم التي يسترشد بها في حياته ، ونظرت الى العالم ومكانه في ذلك العالم ، والتغيرات التي طرأت على هذا كله خلال السنين الطويلة ، وبخاصة الفترة الأخيرة ، ونواحي الايجاب والسلب في كل تلك المقومات والمكونات ، وافضل الطرق التي يمكن بها تعديل وتغيير نواحي الضعف والسلبية ، بحيث تستبدل بها قوة ايجابية بناءة .

ويقول آخر ، فإن التساؤل الرئيسى الذى يدور حوله البحث عن مقومات الشخصية المصرية كان : ما هى العوامل التى ادت الى ظهور هذه الشخصية القومية التى تسود الآن المجتمع المصرى بكل جوانبها ومظاهرها الايجابية والسلبية ؟ وذلك على أمل ان يساعد البحث في هذا المجال والنتائج التى يتوصل اليها في تقوية العناصر الايجابية وعلاج العناصر الضعيفة والسلبية او القضاء عليها تماما . وكان الهدف الأخير هو محاولة وضع سياسة شاملة لتنمية (الإنسان) المصرى كمقابل لتنمية (المجتمع) المصرى ، وذلك على اعتبار أن البحوث الأثنولوجية تهتم (بالإنسان) بينما تركز البحوث السوسولوجية على (المجتمع) ، وإن كان هناك بالضرورة علاقات متبادلة قوية بين الاثنين من حيث انهما يمثلان وجهين لعملة واحدة .

مثل هذه الدراسة المتشعبة تحتاج الى ان تركز منذ البداية على عدد من الابعاد التى يلزم بحثها العميق للوصول الى نتائج محددة . ولذا فقد اهتم البحث اهتماما خاصا بالابعاد التالية التى تلقى كثيرا من الاهتمام على الطابع القومى المصرى والشخصية المصرية :

اولا - البعد التاريخى او الزمانى - وذلك على اعتبار ان الشخصية المصرية القومية هى نتاج لتفاعل عدد كبير العناصر التى سادت في المجتمع المصرى لقرون طويلة ، وقد احاطت الدراسة في هذا المجال بالبعد المصرى القديم (التراث الفرعونى والمؤثرات اليونانية والرومانية والقبطية) والبعد الاسلامى والعربى والبعد الافريقى ، والبعد المتوسطى ثم بالتاريخ الاجتماعى لمصر في العصر الحديث وما طرأ على مصر من تغيرات نتيجة للاستعمار التركى والفرنسى والانجليزى ، ثم الاستقلال والحركات الوطنية الحديثة ، وأثر ذلك كله في ظهور شخصية الإنسان المصرى المعاصر .

ثانيا - البعد الجغرافى او البعد المكانى - وهو بعد ناشئ من القول الشائع من أن (مصر هبة

النيل) ، وكان لابد من التعرض هنا لايكولوجيا المجتمع المصري والخصائص الديموجرافية العامة مع الأخذ في الاعتبار القول الأكثر حداثة من أن (مصر هبة المصريين) . ونظرا لتعدد الثقافات الفرعية وتنوع الجماعات العرقية ووجوب الاحاطة بها حتى تخرج الدراسة شاملة ومتكاملة ، كان لابد من دراسة النماط الحياتية الاجتماعية والانساق الثقافية دراسة مركزة في عدد من الجماعات المحلية التي تنتمي الى نمط الحياة الصحراوية ، ونمط الحياة الريفية ، ونمط الحياة الحضرية ، ثم دراسة عدد من الجماعات العرقية المتميزة مثل سكان واحة سيوه من عرب وبربر ، ودراسة النوبيين وبعض جماعات الفجر وما الى ذلك .

ثالثا - واختيرا فقد كان من الضروري دراسة التراث الغني من الكتابات العلمية والادبية والتاريخية والاجتماعية التي تناولت الانسان المصري في مختلف مراحل التاريخ . وكثير من هذا التراث يضم معلومات تعطي صورة حية لمقومات الشخصية المصرية خلال فترة معينة بالذات ، وبذلك فان هذه الكتابات تصلح أساسا للمقارنة العلمية الدقيقة وقياس التغيرات التي طرأت على الشخصية المصرية . ويكفي ان نذكر هنا ، على سبيل المثال ، ما كتبه هيرودوت عن مصر وكتابات الجبرق وكتاب وصف مصر الذي خلفته الحملة الفرنسية على مصر وكتاب محمد المولحي (عيسى بن هشام) وهكذا . . . وذلك فضلا عن الروايات الكثيرة التي كتبها عدد من الروائيين المصريين وسجلوا فيها كثيرا من ملامح الحياة في مصر ، وتلك التي كتبها بعض الأجانب من أمثال داريل في ربايعته المشهورة عن الاسكندرية ، أو جان كوكو في كتابه المشهور (مملهش) وهكذا .

ونظرا لأن البحث اقتصر على دراسة مقومات الشخصية القومية المصرية فان الدراسة ركزت بالضرورة على عدد من الموضوعات الأساسية التي تغطي فيما بينها اهم تلك المقومات والسمات الرئيسية والعوامل التي ساعدت على ظهورها ، والأسباب التي ادت الى حدوث تغيرات فيها ، والدوافع اللاشعورية التي تكمن وراء سلوك الناس ونصرفاتهم . وكان اهم هذه الموضوعات هي : عمليات التطبيع الاجتماعي او التنشئة الاجتماعية ، والثقافة الشعبية ومدى تعبيرها عن الشخصية المصرية ، واهم مقومات الشخصية المصرية (مثل الايمانية والسلبية - الموقف من السلطة - التفكير الغيبي والنظرة العلمية - النظرة الى العمل - القيم التقليدية كالصبر وفكرة الشرف والعار والشعور بالانتماء ، ثم الايديولوجيات ونسق القيم ووجهة نظر الناس الى عدد من الموضوعات الهامة كالقومية والتزعات الفرعونية والعربية والاسلامية . وحركات التحرر والاصلاح الديني والاجتماعي ، وموقف المثقفين والمفكرين من الواقع المصري ، واهدات الحياة وما الى ذلك) .

ويكفي هذا العرض الموجز لاعطاء فكرة عما يفعله الانثربولوجيون حين يعرضون في بحوثهم لأحد الموضوعات المتعلقة بالثقافة والشخصية ، وبخاصة موضوع الشخصية القومية لشعب من الشعوب .
والذي أرجوه أن يكون في هذا دعوة الى الاهتمام بدراسة هذه الجوانب التي طال اغفالها بحيث تلحق الانثربولوجيا في مجال دراسات الشخصية ، وإن يحقق الانثربولوجيون (الثقافيون) من الانجازات في مجال الثقافة ما حققه الانثربولوجيون (الاجتماعيون) في مجال البناء الاجتماعي والانساق الاجتماعية .

احمد ابوزيد



مقدمة :-

يتناول علماء النفس في أبحاثهم ودراساتهم كثيراً من المشكلات ذات الاهتمام الخاص بالنسبة للمربين والآباء ، وبعض مؤسسات التغيير الاجتماعي والسلوكي ، وبالبحث عن أصول الكثير من هذه المشكلات نجد ان مظاهرها قد تكونت لدى الأشخاص بفعل عوامل الممارسة ومبادئ التعلم حتى أصبحت هذه المظاهر بمثابة صفات أو خصائص مميزة يمكن ملاحظتها وقياسها بسهولة لدى هؤلاء الأشخاص في كثير من مواقف حياتهم اليومية . ويتكرر هذه المواقف ، وثبات العوامل والأسباب التي أدت الى هذه المظاهر السلوكية ، مع استمرار تميزها فتكون العادات السلوكية التي هي بمثابة المكونات النفسية شبه الثابتة في الشخصية .

التعلم والشخصية

أنور محمد الشرقاوي^(١)

قسم علم النفس - جامعة الكويت

ويحاول علم النفس مع غيره من العلوم السلوكية الأخرى ان يصل الى تفسير أسباب ودوافع هذه المشكلات ، وإثبات البحث والدراسة تظهر امام الباحثين كثير من التساؤلات المرتبطة بهذه المشكلات ، وعلى سبيل المثال :-

(١) سخط مساعد علم النفس بكلية التربية - جامعة عين شمس ، وكالة الأناضول - جامعة الكويت ... حصل على درجة الماجستير في مجال الحرف الأحداث ، والدكتوراه في مجال سيكولوجية التعلم من كلية التربية - جامعة عين شمس ، كما حضر برنامج Post Doctoral Fellowship في مركز خدمة الاختبارات التربوية - Educational Testing Service بولاية نيو جيرسي في مجال القياس النفسي والتربوي له وإلتحق في عدة مؤتمرات : التعلم وعلمية ، سيكولوجية التعلم : أبحاث ودراسات ، التعرف الأحداث وأسس علم النفس العام كما اشترك في اعداد بطارية الاختبارات المعرفية البديلة ، واختبار الامتثال للخدمة للقياس بعد الاحتجاز - الانطلاق من الجبال الأديبي ، حضور الجمعية المصرية للدراسات النفسية والجمعية الأمريكية لعلم النفس (A.P.A.)

• ماهي الوسائل الفعالة لمساعدة الشخص على ضبط الانفعالات ، وبعض مظاهر السلوك غير المرغوب لديه مثل القلق ، والغضب ، والعنوان . ، والتحيز ؟

• • ماهي الأساليب الأساسية المتوفرة لدى المشتغلين بعلوم النفس والتربية والخدمة الاجتماعية لاختزال وخفض مستوى بعض العادات السلوكية غير السوية مثل السرقة ، والكذب والخداع ، أو بعض العادات العصبية مثل نوبات الصرع ، أو مص الأصابع ، أو قضم الأظافر ؟

• • ماهي الأساليب الاجرائية الفعالة التي يمكن ان يستعملها الاشخاص للاقلال من التدخين ، أو تناول الطعام بشراعة ، أو الامتناع عن تعاطي المخدرات والمسكرات ؟

• كيف يمكن أن نخفض من مستوى الأرق ، والأحلام المزعجة ، والوساوس ؟

• • كيف يمكن تعديل اساليب ممارسة الجنس الحافظة ؟ أو كيف يمكن خفض درجة الاستثارة الجنسية في المواقف غير المناسبة ؟ أو المثيرات الجنسية غير المرغوبة ؟

• • كيف يمكن ان نغير من اتجاهات الاشخاص نحو انفسهم ، أو نحو الأشخاص الآخرين ؟

• كيف يتعلم الشخص أساليب السلوك الفعالة لتحقيق الهدوء لنفسه ، وضبط الأفكار غير المرغوبة ؟

• • ماهي الأساليب الاجرائية التي يجب أن يمارسها الآباء في تربية ابنائهم بصفة عامة ؟ وبخاصة لمواجهة مشكلات التدريب على الاخراج ، أو بلل الفراش ، أو مشكلات النمو الأخرى ؟

• وفي مجال التعلم المدرسي ، كيف يمكن ان نشط من دافعية الطلاب للتعلم ، وكيف نواجه سلوك التخريب ، والعنوان لدى الطلاب ؟ كيف يمكن ان نحقق تفريد التعليم - Individualization instruction بقدر ما تسمح به الظروف والامكانيات ؟

• • كيف يمكن مساعدة الأشخاص المترددن على مكاتب التوجيه والارشاد النفسي طلبا للعون ؟

جعل القول . . كيف يمكن مساعدة كل هؤلاء حتى يحققوا أعلى مستوى من الكفاية في الأداء في مواقف الحياة المختلفة ؟ (٧)

ويهدف الدراسة الحالية الى تناول العلاقة بين التعلم والشخصية لتوضيح دور عملية التعلم ليس فقط في تكوين واكتساب اساليب السلوك المختلفة التي تشكل مجموعة العادات السلوكية لدى الفرد فحسب ، سواء كانت مرغوبة أو غير مرغوبة ، أو مايسمى أحيانا بالسلوك غير السوى ، أو الاضطرابات السلوكية .

ولتحقيق الهدف من هذه الدراسة ، نحاول أن نتناول هذا الموضوع من خلال العناصر التالية :-

أولا : العلاقة بين التعلم والشخصية .

ثانيا : المدرسة السلوكية وتقدم اساليب علاج المشكلات السلوكية .

ثالثا : محاولات علاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم .

رابعا : اسلوب تعديل السلوك ، والخصائص التي تميزه ، والمبادئ والعمليات الأساسية التي يعتمد عليها .

العلاقة بين التعلم والشخصية :

لكي نحاول ان نفكر الأسباب أو العوامل والدوافع التي أدت الى وجود مثل هذه المشكلات السابقة في سلوك الأفراد ، وإن نجد ايجابية واضحة ومقنعة الى حد ما من كل هذه التساؤلات وغيرها مما يوجد في محيط حياة الأفراد ، يتطلب الأمر أولا ان نوضح كيف تكونت أصلا هذه المشكلات السلوكية ، حتى أصبح كثير منها لدى البعض بمثابة خصائص مميزة له تميزه عن غيره من الافراد ، وبالتالي أصبحت هذه الخصائص دالة على شخصية هؤلاء الأفراد .

2 — Mischel, William L. (1978) "Behavior Modification" Harper and Row, Publishers, New York.

واهتمام الانسان بتأمل ودراسة سلوكه الذاتي ، وسلوك من يحيط به من بشر قديم قدم وعي الانسان بوجوده ، وبوجود الآخرين . وقد كانت محاولات الفلاسفة القدامى من اولى الاجتهادات الفكرية التي حاولت فهم الروح ، والنفس ، والعقل ، والأفعال . ولهذا نجد انهم درسوا كثيراً من الموضوعات التي تدخل في نطاق علم النفس الحديث ، كما نجد انهم قد اثاروا تساؤلات متعددة حول كثير من المشكلات التي يدرسها علم النفس مثل :

التفكير والشعور ، والتعلم ، والمعرفة ، وقد أدت المحاولات التي بذلها المفكرون في ذلك الوقت لاجابة على هذه التساؤلات وغيرها الى وجود حصيلة كبيرة من التراث الفكري .

وإذا علمنا البحث والتقصي عن كيفية تكوين المشكلات السابقة المشار اليها في المقدمة الى ضرورة أن نلم بعض الامام بما يعرف بالتعلم Learning ذلك الفرع الهام من فروع علم النفس . وكأي مفهوم من المفاهيم الأساسية في احد فروع المعرفة ، فإن التعلم ليس من السهل تعريفه . والسبب في ذلك اننا لا نستطيع أن نلاحظ عملية التعلم ذاتها بشكل مباشر ، ولا يمكن ان نشير اليها كوحدة منفصلة ، أو ندرسها كوحدة منعزلة . ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن في الواقع دراسته هو السلوك . والسلوك يعتمد على عمليات أخرى غير عملية التعلم .

ولذلك ننظر الى التعلم هل انه عملية افتراضية Hypothetical process يستدل عليها من ملاحظة السلوك ذاته . وحيث أننا لا نستطيع أن نعزل عملية التعلم بشكل مباشر عن باقي جوانب السلوك ، فاننا نعرف التعلم بأنه « عملية تغير شبه دائم في سلوك الفرد ينشأ نتيجة الممارسة » ، ويظهر في تغير الأداء لدى الكائن الحي (٣) .

· والتعلم على هذا النحو يتطلب ضرورة أن يتعرض الكائن الحي للموقف السلوكي المراد تعلمه . ولما كان التغير في الأداء لدى الكائن الحي هو الأساس في الاستدلال على التعلم ، فاننا لا نستطيع ان نقول ان كل تغير في الأداء يعتبر تعلماً . فقد يكون التعلم في موقف اضطراري ينشأ عنه ان يستمر لفترة قصيرة من الزمن ، كما أن ممارسة الاستجابة ربما تؤدي الى اختزال ، أو نقص الأداء نتيجة للتعب ، أو الى زيادة معدل فاعلية الأداء نتيجة لزيادة جهد العضلات أو النيورونات العصبية أثناء التمرين . ولذلك لا تعتبر كل هذه الأنواع من التغيرات تعلماً ، لأنها مستزولة بزوال المؤثر الذي تسبب في

(٣) غير صدق التفرقي (١٩٨٧) : د. العلم بالله ، طبعة الثالثة (تحت الطبع) دار الفكر للطباعة والنشر - القاهرة .

إحداثها ، سواء كان عدم الاستعمال او راحة الكائن الحي . مما يجعلنا نعتبر ان التعلم يحدث فقط نتيجة لتعبير في الاداء يكون شبه دائم في سلوك الفرد .

ولذلك تعبر سيكولوجية التعلم **Psychology of learning** من أهم فروع علم النفس . ذلك لأننا إذا أردنا أن نفهم السلوك ، والفرق بين مظاهره المختلفة ، يجب أن نفهم أولا كيف تتكون الاستجابات التي تختلف من موقف الى آخر ، ومن حالة الى أخرى ، والعوامل والمتغيرات التي تحكم المواقف السلوكية بوجه عام .

وفي الحقيقة ان الانسان يتعلم كيف يكون انسانا ، حيث ان أغلب ميولنا وانجهاطنا وآراءنا ومعتقداتنا ، والخرافات التي نتمسك بها ، وخصائص سلوكنا كلها متعلمه . اي أننا نتعلم كيف نكون افرادا متميزين فيها بينما . وعلى الرغم من ان الامراض العقلية في بعض الحالات تكون متأثرة وناشئة عن اسباب عصبية (نيورولوجية) فانها تكون في اغلب المواقف نتيجة لتعلم اساليب السلوك غير المتوافق والفشل في تعلم اساليب السلوك المتوافق ، وكذلك الحال في اساليب السلوك الاجرامي والانحرافي ، حيث يعتبر الجناح في رأي المدرسة السلوكية عبارة عن استجابة غشوية مدعومة للتوتر والقلق الناجم عن استمرار عملية الاحباط . كما أن كثيرا من اساليب الجناح تحقق حاجات معينة ، وتشيع دافعا اجتماعيا قويا ومن الواضح ان لعملية التنطيع الاجتماعي اثرها الكبير في تعلم القيم وامتصاصها (٤) . حتى سلوك الحرب ، رغم انه في بعض الحالات يتعلم بعوامل كثيرة معقدة ، الا انه يتأثر بتاريخ الافراد المتعلم . ولذلك فان فهم مبادئ وأسس عملية التعلم يساعد مساعدة كبيرة في فهم كثير من استجابات الافراد في مواقف السلوك المختلفة . كما ان عملية التعلم عزم اي فرد يحاول في موقف ما ان يؤثر في تعلم الافراد الآخرين .

وقد اثبتت تساؤلات كثيرة في مجال تفسير السلوك حول ماهو متعلم ، وماهو فطري من السلوك . مما نشأ عنه أن قسم السلوك الى نمطين : النمط الاول ، السلوك المتعلم **Learned behavior** ، والنمط الثاني السلوك غير المتعلم **Unlearned behavior** ونشأ هذا التقسيم منذ فترات بعيدة للتمييز بين ماهو طبيعي ، وماهو راجع الى التربية والتنشئة . وذلك في محاولة للجابة على كثير من التساؤلات حول الذكاء ، وهل يعتمد على الوراثة ، أم يعتمد على البيئة ؟ هل الاضطرابات العقلية والنفسية موروثة أم مكتسبة ؟ هل يمكن تعديل الخصائص السلوكية للمتعلمة ؟ . ولكن حيننا ننظر الى

(٤) تقرير عبد الرزاق (١٩٧٧) ، الصفحات الاحد عشر والثلاثة لطلبة والتشريح - القاهرة .

الأمر نظرة موضوعية علمية ، فإن السلوك لا يمكن تقسيمه الى مغلطين منفصلين ، نمط من السلوك غير متأثر بالعوامل والمؤثرات البيئية ، ونمط آخر يعتمد في حدوثه على التعلم . وحقيقة الأمر ان أي سلوك للكائن الحي هو عبارة عن نتائج مشترك لكلا المؤثرات الوراثية والمؤثرات البيئية . فمن الواضح والثابت ان الانسان يتعلم ، الكلام ، ولكن من الثابت ايضا انه المخلوق الوحيد الذي يولد ولديه الاستعداد الطبيعي لهذا النمط من السلوك ، حيث لا يتمكن أي قدر من التميز ان يعلم الفأران يتكلم .

وكذلك لا يمكن لأي فرد ان يصدر كلمات لها معنى دون تدريب وتعلم . وهذا ما جعل . الانسان يختلف عن باقي الكائنات الأخرى ، ويختلف عن غيره من الأفراد الى حد ما نتيجة ما يتعلمه من اساليب السلوك .^(٥)

لذلك يعتبر التعلم ضرورة في كثير من مواقف الحياة . كما يعتبر الأساس في تفسير كثير من مظاهر السلوك البشري السوي منها وغير السوي . وبالتالي يؤثر على اغلب مواقف حياتنا . ولما كان المعالجون والمعلمون والآباء لا يستطيعون تغيير كثير من مظاهر السلوك المرتبطة بالنضج ، فان جهودهم تركز بالدرجة الأولى على التعلم ، على اعتبار انه الوسيلة الرئيسية لاكتساب الفرد لكثير من المعارف ، والمهارات ، وتكوين العادات السلوكية ، والاتجاهات والقيم التي تعتبر الهدف من عملية التعلم .

اما عن المتغير الثاني لهذه الدراسة ، وهو الشخصية **Personality** فهو يعتبر من الموضوعات ذات الاهتمام الكبير في علم النفس الحديث . وتأتي هذه الأهمية من أن الظاهرة النفسية متعددة الأبعاد ، متشعبة الجوانب . وإن دراسة مستوى التوافق النفسي والاجتماعي للفرد لا يقل في الأهمية عن دراسة مستوى ذكائه ، وقدراته العقلية المتخصصة وكذلك ميوله واتجاهاته . وإن الفصل في الدراسة بين الأبعاد المختلفة للسلوك إنما هو أمر تعسفي بغرض التحكم الدقيق في ضبط الجوانب النفسية للفرد ، وهو ما تقتضيه الدراسة العلمية المتعمقة للوصول الى الدوافع والأسباب ، والتعرف على المظاهر السلوكية المختلفة للعمليات النفسية التي يمارسها الأفراد في مواقف حياتهم المختلفة .

لذلك فإن ما يشار اليه في كتب علم النفس بالشخصية ، إنما يقصد به جميع السمات والخصائص النفسية والعقلية من ذكاء وقدرات عقلية ، وميول واتجاهات وطرق تفكير وإدراك وحل مشكلات ،

التي تميز فردا معينا عن فرد آخر . أي ان الشخصية هي الإطار العام أو الوعاء الذي يضم كل المكونات النفسية للفرد ، والتي تميزه عن غيره من الأفراد الآخرين .^(٦)

ولكي نترك مدى العلاقة الوثيقة بين بُعدي الدراسة وهما التعلم والشخصية ففضل - كما فعلنا بالنسبة لموضوع التعلم - ان نشير هنا الى ماهية الشخصية وبعض التعريفات التي تناولتها ، حتى نستطيع ان نترك أهمية عملية التعلم ليس فقط في تكوين كثير من اساليب السلوك في الشخصية ، ولكن كذلك في تفسير كثير من مظاهرها وفي تغيير بعض العادات السلوكية غير المرغوبة التي قد يتميز بها بعض الأفراد . وبمعنى آخر ، نحاول في هذه الدراسة تحديد دور عملية التعلم في تعديل بعض الخصائص النفسية والسلوكية السائدة في الشخصية حيث يعتبر ذلك هو الهدف الرئيسي لهذه الدراسة .

ويوجد في ميدان دراسة الشخصية تفسيرات متعددة تحاول كل منها تحديد طبيعة الشخصية في ضوء التصورات والأسس التي تقوم عليها كل نظرية أو يقوم عليها كل تفسير . وقد تتفق هذه التفسيرات او تختلف مع بعضها بدرجة أو بأخرى . وبالتالي فليس هناك تعريف واحد يعتبر هو الصحيح والباقي تعريفات خاطئة . فكل تعريف يستند على تصور نظري معين .

ونشير فيما يلي الى بعض هذه التعريفات التي تتفق مع موضوع هذه الدراسة الى حد ما وذلك على النحو التالي :-

يعرف « واطسون Watson (١٩٣٠) الشخصية بأنها مجموع أنواع النشاط التي يمكن ملاحظتها في سلوك الفرد لفترة زمنية كافية ، بحيث يمكن التعرف عليه بدرجة كافية .

وبمعنى آخر ، الشخصية هي النتائج النهائي لمجموعة العادات التي تميز الفرد »^(٧) .

في حين يعرفها « جيلفورد Guilford (١٩٥٩) بأنها « غلط السمات التي تميز فردا بذاته »^(٨) .

6 — Flynn, J. & Herbert, G., (1967) "Assessing Behavior: Reading in Educational and Psychological measurement". Addison - Wesley Pub. Co.

7 — Watson, J. (1930) "Behaviorism" Chicago university Press.

8 — Guilford, J.P. (1959) "Personality" New York: McGraw - Hill.

In Leon H. Levey (1970) conceptions of Personality, Theories and Research, New York: Random House.

ويعرفها « البورت » Allport (١٩٦١) بأنها « ذلك التنظيم الدينامي الكامن في الفرد الذي يتضمن مختلف النظم النفسية التي تحدد خصائصه السلوكية وتفكيره » (٩) .

ويجدها « لندين » Lundin (١٩٦١) بأنها « ذلك التنظيم الذي يميز سلوك فرد ما ، والذي اكتسبه خلال مراحل نموه تحت شروط معينة » .

في حين يعرفها « بيرفن » Pervin (١٩٧٠) بأنها ذلك التنظيم الذي يمثل الخصائص البنائية والدينامية لفرد ما ، أو لمجموعة افراد كما تعكس نفسها في الاستجابات المميزة له بالنسبة لموقف معين . أو بمعنى آخر « الشخصية هي ما تمثل الخصائص التي تميز فردا معنا دون الافراد الآخرين » (١٠) .

ويعرفها « سميث » Smith (١٩٧٤) بأنها « ذلك الفرد المميز الذي يمكن التعرف عليه بواسطة السمات التي تميزه عن غيره من الأفراد الآخرين » (١١) .

اما بالنسبة للمصادر العربية ، فنشير الى بعض التعريفات التي وردت فيها على النحو التالي :-

يعرف « سيد محمد غنيم » (١٩٧٨) الشخصية بأنها ذلك التنظيم أو تلك الصورة المميزة التي تأخذها جميع أجهزة الفرد المستقلة عن سلوكه خلال حياته ، (١٢) .

كما يعرفها « محمد حماد الدين اسماعيل » (١٩٥٩) بأنها « ذلك المفهوم ، أو ذلك الاصطلاح الذي يصف الفرد من حيث هو ككل موحد من الأساليب السلوكية والادراكية المقتدة التنظيم ، التي تميزه عن غيره من الناس ، وبخاصة في المواقف الاجتماعية » (١٣) .

9— Allport, G. W. (1961) *Patterns and growth in Personality*.

New York, Holt, Rinehart and Winston.

Lundin, R. W. (1961) "Personality: an experimental approach" New York: Macmillan.

10— Pervin L. A. (1970) "Personality: Theory, Assessment and research". John Wiley & Sons, Inc.

11— Smith, Henry Clay (1974) "Personality Development"

Second Edition, Mc Graw - Hill Book Company.

(١٢) سيد محمد غنيم (١٩٧٨) « سيكولوجية الشخصية : مفاهيمها ، أساسها ، نظرياتها ، الطيف الفكري » مكتبة النهضة العربية - القاهرة .

(١٣) محمد حماد الدين اسماعيل (١٩٥٩) « الشخصية والطابع النفسي » النهضة للنشر - القاهرة .

في حين يعرفها « أحمد زكي صالح » بأنها « تكوين فرضي ، أو تغير متوسط ، ويقصد به المجموع الكلي للتنظيمات السلوكية الثابتة نسبيا التي تتحد في إطار واحد منسجم ، والتي تميز فردا معينا ، وتقرر الأساليب المميزة لتكيفه مع بيئته المادية والاجتماعية »^(١٤) .

وما يهتما من هذه التعريفات هو أن نذكر العلاقة بين عملية التعلم وموضوع الشخصية . حيث يلاحظ على أغلب هذه التعريفات أنها قد حددت الشخصية بالتنظيم الذي هو عبارة عن وحدات من السلوك ، أو مجموعة من أساليب الأداء ، يرتبط بعضها ببعض في شكل معين يجعل منها كلا موحدا . وإن هذه الأساليب من الأداء يمكن ملاحظتها في سلوك الشخص لفترة زمنية كافية ، مما يجعلها ثابتة نسبيا ، كما أنها تميزه عن غيره من الأشخاص الآخرين في المواقف الاجتماعية المختلفة .

ونحن نستدل على وجود تغير شبه دائم في سلوك الفرد من ظهور درجة معينة من الثبات والاستقرار في السلوك المعدل أو المكتسب لدى الفرد ، مستمر فترة من الزمن ، ومن ثم نفترض تكوين العادة السلوكية . ولا شك أن العادة كت تنظيم سلوكي هي تكوين معقد يخضع لمجموعة من العوامل الشارطة له . فالإبل مثلا وحدة سلوك ، وهو تنظيم سلوكي مكتسب ، لأنه مجموع استجابات القبول ازاء موضوع خارجي معين . وتقاس ميول الفرد ازاء هذا الموضوع عن طريق قياس استجابات القبول أو الرفض له . وقد يتغير الميل نتيجة لعوامل متعددة . أي أن التنظيمات السلوكية التي تعتبر مكونات الشخصية الأساسية هي عادات تكونت خلال حياة الفرد . وهذه العادات رغم ثوبتها النسبي فهي بدورها قابلة للتعديل . ويتوقف مدى تعديل العادة على قوتها ، فالعادات القوية تقاوم التغيير والتعديل ، والعادات الضعيفة تكون مقاومتها أقل .

وهكذا بالنسبة للعادات الانفعالية التي تتحكم كثيرا في سلوك الفرد ويمثل السلوك المرضي ، وخاصة العصبي ، أحد المظاهر الهامة للعادة الانفعالية . حيث أن النمط السلوكي غير السوي يعتبر في أصلها عادات سلوكية تعلمها الفرد أثناء احتكاكه بمجالات حياته المختلفة ، وتعلم أن يسلك هذا السلوك ، أو ذاك لكي يزيل التوتر الناشئ من بعض دوافعه المرتبطة بأحد مواقف هذه المجالات . وبالتالي فإن المرض النفسي هو مجموعة عادات تعلمها الفرد للهروب من مواقف معينة ، أو هو عبارة عن أسلوب فاشل من أساليب التوافق مع البيئة التي يعيش فيها ، ولذلك فإنه يخضع لقوانين التعلم واكتساب العادة ، سواء في تكوينه أو في تعديله أو تغييره .

(١٤) أحمد زكي صالح : علم نفس التربي ، الصفحة المصرية - القاهرة .

المدرسة السلوكية وتقدم اساليب علاج المشكلات السلوكية :

لم ينتع علماء النفس بالاتجاهات النفسية التي سبقت ظهور اتجاه المدرسة السلوكية Behaviorism في تفسير كثير من مظاهر السلوك الانساني . وكان من اهم دواعي عدم الاقتناع ان كثيرا من المفاهيم الاساسية التي تقوم عليها نظريات هذه الاتجاهات لم تكن محللة تجديدا واضحا ، مثل بعض المفاهيم التي وردت في كتابات مدرسة التحليل النفسي كالآنا ، والانا الاعلى ، والهو ، والعقد النفسية ، وغيرها من المفاهيم الغامضة ، والتي يصعب قياس مظاهرها قياسا دقيقا .

وقد ظهرت في ذلك الوقت كثير من « النظريات » كل منها تفسر سلوك الأشخاص من خلال المكونات التي تقوم عليها هذه النظريات . وكانت أغلب هذه « النظريات » تميل الى تفسير المشكلات السلوكية في اطار بعض الخصائص التي تميز الشخص صاحب المشكلة وليس في اطار الفهم الوظيفي لنماذج السلوك التي تتضمنها هذه المشكلات .

ويمثل الاتجاه الفرويدي (اريكسون Erikson ١٩٦٣ فرويد Freud ١٩٣٠ . ريبامونت Rapoport ١٩٥٩) ، والاتجاه النفسي اليناسيكي (روجرز Rogers ١٩٥١) اهم هذه الاتجاهات النفسية التي تركز في تفسيرها للسلوك على العمليات النفسية الداخلية لا على المظاهر السلوكية الخارجية (١٥) .

وفي مطلع القرن العشرين ظهر اتجاه السلوكية او الثورة الواطسونية كما ذكر في ذلك الوقت ، نسبة الى عالم النفس « جون واطسون Gohn B. Watson » الذي قاد هذا الاتجاه ، وقاوم بنصف اساليب الاستبطان Introspection والاساليب الذاتية الأخرى في تفسير السلوك ، والتي نادى بها علماء النفس قبل ذلك . وكان اتجاه « واطسون » واضحا ، ويتلخص في انه لم ينكر عدم وجود الوعي أو الشعور Consciousness ، بل زعم انه داخلي ، وغير ملاحظ ، ولا يمكن قياسه بواسطة الاجراءات العلمية للموضوعية . ولذلك اشار واطسون بأن موضوع علم النفس يجب ان ينحصر في دراسة السلوك الخارجي للكائن الحي ، ذلك السلوك الذي يتضح للملاحظة والملاحظة والقياس - وبذلك يكون علم النفس ، علما موضوعيا ومحددا .

15 — Mowrer, R. A. (1978) "Basic Behavior Modification" Human Science Press, New York.

ولذلك يدين علم النفس اليوم بدرجة كبيرة الى « واطسون » الذي ساهم في وضع علم النفس بين العلوم الموضوعية . وعلى الرغم من أن الاتجاه السلوكي ليس هو الاتجاه الغالب بين علماء النفس اليوم ، إلا أن الأخلية منهم قد اختارت الأسس التي وضعها واطسون في دراسة السلوك الخارجي دراسة موضوعية . ومن خلال وجهة النظر السلوكية بدأت دراسات التعلم في محاولة الكشف عن الأسس التي يقوم عليها السلوك المتعلم . وكما حدث في العلوم الطبيعية ، فقد بدأ علماء النفس في مجال التعلم بدراسة بعض الاستجابات المحددة لدى بعض الكائنات البسيطة في محاولة كشف أسس التعلم التي قد تكون عامة لدى جميع الكائنات ، أو عامة بالنسبة لجميع أنماط التعلم ^(١٦) .

ثم عزز « سكينر Skinner (١٩٧٤) » اتجاه المدرسة السلوكية بالدعوة الى اتجاه جديد متطرف يعرف بالسلوكية الراديكالية **Radical Behaviorism** ، والذي يدعو الى التعرف على الأحداث أو الوقائع العقلية ودراستها على أنها نماذج من السلوك الداخلي .

محاولات علاج اضطرابات السلوك في إطار التعلم :

وهكذا اقتنع السلوكيون وبخاصة في الفترة من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٣٠ بأن علاج كثير من المشكلات النفسية إنما يخضع لعملية التعلم . كما أنهم اكدوا على ان اساس الاشتراط البسيط او ما يطلق عليه الاشتراط الكلاسيكي **Classical conditioning** ، او الاشتراط الاستجابي **Re-spondent Conditioning** ، والتي تطبق على السلوك السوي ، يمكن ان تطبق كذلك بنفس الدقة على كثير من انماط السلوك غير السوي . وكانوا مقتنعين تمام الاقتناع بان طرق العلاج التي تقوم على اتجاهات التحليل النفسي تعتبر غير مناسبة ، كما انها تعتبر مضللة الى حد ما ، لذلك يجب ان تستخدم اساليب التعلم بدلا منها في علاج هذه المشكلات . اي ان يقوم العلاج على اساس مبادئ التعلم وليس على اساس مبادئ التحليل النفسي ^(١٧) .

وقد وجه كثير من الباحثين من انصار المدرسة السلوكية اهتمامهم الى دراسة العلاقة بين الاشتراط **Conditionig** واكتساب السلوك المرضي . وكانت دراسات « واطسون وراينر » **Watson & Rayner (١٩٢٠)** أولى الدراسات الرائدة في ذلك .. حيث اشاروا الى ان الثورات التي تستلهم

16 — Turry, Roger M. (1975) "Basic Principles of Learning" Scott, Foresman and Company .

17 — Mc Laughlin, B. (1976) "Learning and Social Behavior" The Free press NEW YORK .

استجابات الخوف يمكن ان تستخدم كمثيرات غير شرطية **Unconditional Stimuli** في تكوين استجابة الخوف الشرطي لمثيرات « محايدة » **neutral** غالباً ما توجد في المواقف السلوكية . اي ان استجابة الخوف الشرطي تنشأ نتيجة ارتباط مثير محايد موجود في الموقف السلوكي ، ولكن حيوانا البيا اولعبة ، أو أي شيء آخر ، بمثير آخر له قوة استدعاء هذه الاستجابة ، وليكن هذا المثير صوتاً مرتفعاً . وبعد عملية اقتران قوي بين المثير المحايد (المثير الشرطي) **Conditioning** ، **Stimulus** ومثير الصوت المرتفع (المثير غير الشرطي) **Unconditioning Stimulus** ، يكتسب المثير المحايد خصائص وفعالية المثير غير الشرطي في استدعاء استجابة الخوف ، والتي تسمى بعد ذلك باستجابة الخوف الشرطية ^(١٨) .

كما كان دراسات « سميث وجاثري **Smith & Guthrie** » (١٩٢٢) من عوامل إضعاف اتجاه مدرسة التحليل النفسي في تفسير كثير من المشكلات السلوكية . فقد اشارا الى ان - كثيرا من مظاهر السلوك التي يربوها « فرويد » **Freud** الى الفريضة الجنسية مثل سلوك الاستقراض **Exhibitionism** ، انما تكتسب لأي عادات سلوكية أخرى خلال عملية الاشتراط ^(١٩) .

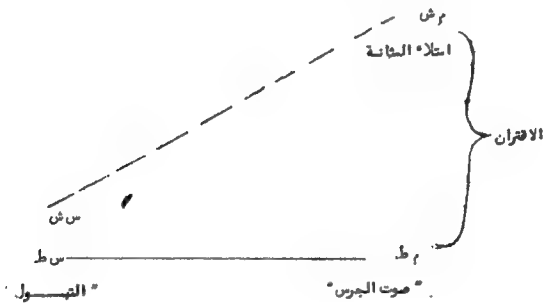
ويعتبر الأسلوب الذي استخدمه « مورير وموير **Mowrer & Mowrer** » (١٩٢٨) - و « مورجان ووتر **Morgan & Witmer** » (١٩٣٩) في تجنب عملية التبول اللاإرادي لدى الأطفال احد التطبيقات الهامة لنظرية الاشتراط . فقد استخدم « فورير » ملفا كهربائيا صغيراً موضوعاً تحت قطعة قماش مميكة توضع تحت مكان نوم الطفل . وهذا الجهاز متصل بجرس . وعندما يبدأ الطفل في التبول أثناء النوم ، فإن الدائرة الكهربائية بهذا الملف تكتمل وينق الجرس . وحينئذ يستيقظ الطفل لكي يستكمل عملية التبول . وكان اقتراس « مورير » قائماً على اساس ان التبول أثناء النوم هو نتيجة لتدريب خاطيء على امكانية الطفل تمييز الاحساس بامتلاء المثانة أثناء الليل . ولذلك فهو يعتبر ان هذا الشكل من التبول اللاإرادي مكتسب ، ولا يرجع لعوامل عضوية كما يحدث في بعض الاحيان .

18 — Watson, G.B., & Rayner, R. (1920) "Conditional emotional reaction" *Journal of Experimental psychology*, 3.
19 MC Laughlin, B. : *Learning and Social Behavior*, (1978) the Free Press, NEW YORK.

19 — Smith, S., & Guthrie, E.R. (1921) "General psychology in terms of behavior". Appleton-century. In Mc Laughlin, b. *Learning and social Behavior*, (1978), The Free press.

والشكل التالي يوضح ذلك .

(شكل رقم - ٢- يبين عملية الاقتران بين الشوئين ، الشرطي وغير الشرطي)



ويحدث ذلك بعد اقتران صوت الجرس كمثير غير شرطي (م ط) بالمثير الشرطي (م ش) وهو امتلاء المثانة عدة مرات ويدرجة كافية حتى تقوى عملية الاقتران بين المثيرين . بعد ذلك يصبح للمثير الشرطي (م ش) قوة وفاعلية للمثير غير الشرطي (م ط) في استدعاء الاستجابة الطبيعية (س ط) وهي التبول والتي تسمى بعد ذلك بالاستجابة الشرطية . أي أن الطفل يستيقظ للتبول لاستجابة شرطية (س ش) بمجرد الاحساس بالمثير الشرطي وهو امتلاء المثانة (م ش) وبالتالي يتعلم الطفل الاستيقاظ بمجرد الاحساس بامتلاء المثانة بعد ذلك لتجنب التبول اثناء النوم^(٢٠) .

وقد استفاد الباحثون بعد ذلك من الأسلوب الذي اتبعه « ماور » في علاج بعض حالات التبول اللاارادي . فقد استخدم تيرنر وتيلور Turner & Taylor (١٩٧٤) هذا الأسلوب في علاج نفس الظاهرة لدى الكبار^(٢١) . كما اضيفت بعض التعديلات على هذه الطريقة تشمل زيادة ضبط عملية كف الاستجابات غير المرغوبة ، واكتساب عادة الاستيقاظ مبكرا ، وتنظيم تعزيز استجابات التبول الطبيعي ، والتصحيح الذاتي لاستهداف الأفراد للحوادث ، والتدريب على عملية الاخراج ، وخفض معدل استجابات التبول اللاارادي في أقل فترة زمنية ممكنة بعد فترة تدريب مكثف^(٢٢) . وهكذا اتقن السلوكيون الأوائل بأن أغلب انماط السلوك ، وخاصة المرضي منه ، انما يخضع للتعلم خلال عملية الاشتراط .

وكما يتم تكوين الاستجابات الانفعالية غير السوية عن طريق عملية التعلم ، فانه يمكن كذلك العمل على استبعاد هذه الاستجابات من حياة الفرد عن طريق عملية الانطفاء Extinction وهو نقص أو اختزال في قوة الاستجابة يحدث بعد مرور الوقت نتيجة عدم التعزيز Reinforcement منذ آخر عملية اقتران بين المثيرين ، الشرطي وغير الشرطي . مما يؤدي الى اختفاء الاستجابة غير المرغوبة في مجال العلاج النفسي . كما يشار في دراسات الاشتراط البسيط الى ظاهرة اختفاء الاستجابة الشرطية لدى الأشخاص بالنسيان Forgetting نتيجة عدم الممارسة .

وبذلك يمكن تطبيق مبادئ السلوك والتعلم ليس فقط في تكوين عادات سلوكية مرغوبة ، ولكن كذلك في علاج كثير من الاضطرابات النفسية .

20 — Mowrer, H., (1950) "Learning Theory and personality Dynamics" The Ronald Press Company, N.Y.

21 — Turner, R.K. & Taylor, P.D., (1974) "Conditioning treatment of nocturnal enuresis in adults: preliminary findings" Behavior Research and Therapy, 21, 41—25.

22 — Az rib, N.H., Sneed, T.G., & FOXX, R.M., (1974) "Dry- bed Training : Rapid elimination of child hood enuresis" Behavior Research and Therapy, 21, 741-651.

وقد استخدم كثير من الباحثين عملية انطفاء الاستجابات غير المرغوبة في علاج بعض الاضطرابات السلوكية . مثال ذلك استطاع « جونز » Jones (١٩٢٤) استبعاد استجابات - المخاوف المرضية لدى بعض الأطفال بواسطة تغذية الطفل في حضور المثيرات المسببة للقلق لديه ، وذلك باظهارها لعمه تدريجيا ، ولفترة معينة لا تتعدى حد الاحتمال أو نقطة التحمل Point of tolerance . وتدرجيا خلال جلسات العلاج تزداد فترات ظهور مثيرات الخوف مع تزايد حد الاحتمال ، حتى تنطفئ ، فاما استجابات الخوف من المثيرات التي أدت اليه^(٢٣) .

كما تمكن دنلاب « Dunlap (١٩٣٢) من علاج بعض الانحرافات السلوكية بواسطة اسلوب الممارسة السالبة . negative practice الذي يقوم على عدم تعزيز الاستجابات غير المرغوبة والمطلوب كنها^(٢٤) . وقد استخدم « فشممان » Fishman (١٩٣٧) نفس الاسلوب في علاج بعض صعوبات الكلام^(٢٥) .

وتناول « ماكس » Max (١٩٣٥) عملية الانطفاء بطريقة مباشرة في علاج سلوك الجنسية المثلية Homosexual behavior حيث استخدم صدمة كهربائية قوية كمثير منفرد -aversive Stimulus في علاج أحد المرضى والذي كان يقوم بعملية الجنسية المثلية عقب التعرض لمثيرات معينة ارتبطت لديه باستثارة الدافع الجنسي . وبواسطة اصدار الصدمة الكهربائية في حضور هذه المثيرات أثناء جلسات العلاج ، استطاع « ماكس » أن يعمل على استبعاد أثر هذه المثيرات في الاستثارة الجنسية ، واطفاء سلوك الجنسية المثلية لدى الشخص^(٢٦) .

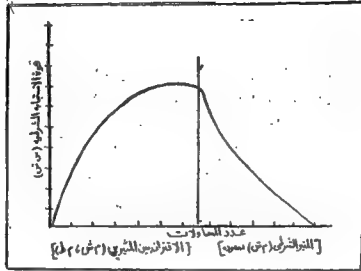
والشكل التالي يوضح عملية انطفاء الاستجابة الشرطية نتيجة عدم تعزيزها بالمثير الشرطي (م ط)
(٣) .

23 — Gones, M.C. (1924) "The extinction of children's fears" *Journal of Experimental psychology*, 7, 382-90

24 — Dunlap, K., (1932) "Habits, their making and unmaking" New York: Liveright. In M.C. Laughlin, : *Learning and social Behavior*, (196), The Free press, N.Y.

25 — Fishman, H.C., (1937) "A study of the efficiency of negative practice as a Corrective for Stammering *Journal of Speech Disorders*, 2, in M.C Laughlin, B., : *Learning and Social Behavior*, (1978) The Free press, N.Y.

26 — Max, L.W. (1935) "Breaking up a homosexual fixation by the conditioned reaction technique : A case study" *Psychological Bulletin*, 32 734.



وغل الرغم من تعدد الأساليب السابقة في علاج بعض مظاهر . السلوك غير السوي لدى الأشخاص ونجاح هذه الأساليب في كثير من المواقف في تحقيق الهدف الذي تمعى اليه ، فان الاهتمام السائد والمشارك لدى أغلب علماء المدرسة السلوكية في ذلك الوقت هو إخضاع أسلوب علاج اضطرابات السلوك الى التجارب العملية التي تقوم على أساس التعلم ، وليس مجرد الاستفادة من المعلومات والأفكار التي خرجت بها نظريات التعلم في علاج المشكلات السلوكية . وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن هناك محاولة منتظمة متكاملة تستخدم كنموذج سلوكي في ممارسة العلاج النفسي . حيث كان الشعور السائد لدى الباحثين في هذا المجال آنذاك أن هناك حاجة ماسة الى بحوث أكثر وأشمل قبل أن يحدث أي تقدم في مجال العلاج النفسي^(٢٧) . وفي هذا الصدد اشار « كالش » Kalish (١٩٦٥) الى أن السبب في تأخر ظهور تطبيقات الأساليب السلوكية في علاج اضطرابات السلوك إنما هو مجازلات العلماء في ترجمة نموذج العلاج النفسي التقليدي الى لغة نظرية التعلم^(٢٨) .

27 — MC Laughlin, B. (1971) "Learning and social Behavior" The Free Press, New York.

28 — Kalish, H. I. (1965) "Behavior Therapy"
Handbook of clinical Psychology, Mc Graw — Hill, N. Y.

اتجاه نظرية التعلم في علاج اضطرابات الشخصية :

بعد المحاولات العديدة السابقة لتفسير الاضطرابات السلوكية في اطار مبادئ السلوك والتعلم ، ظهر اتجاه آخر أكثر شمولاً وتكاملاً ، يشار اليه باتجاه نظرية التعلم في العلاج النفسي - Learn- theory approach to Psychotherapy ويعتبر الاتجاه في الحقيقة من أهم النتائج المباشرة لنظرية « هل » Hull في التعلم ومن المعروف أن « دولارد وميلر » Dollard & Miller من أكثر تلاميذ « هل » الذين تناولوا مبادئ نظريته في التعلم ، وما خرجت به من نتائج ، وحاولوا الاستفادة منها في مجال علاج اضطرابات الشخصية .

وقد كان الاتجاه السائد لدى « دولارد وميلر » هو وصف وتفسير الأحداث أو الوقائع التي تدور خلال عملية العلاج النفسي في اطار ، أو في مصطلحات نظرية التعلم . ولم ينكر انصار هذا الاتجاه ومنهم « دولارد وميلر » نموذج التحليل النفسي التقليدي الذي كان سائدا لفترة طويلة ، ولكنهم اعتقدوا في تفسير السلوك على مبدأ رئيسي وهو أن ما يحدث أثناء العلاج يجب أن يفسر على أساس من نظرية التعلم ، ويكون في ذات الوقت داخل اطار هذا النموذج . التقليدي . هذا رغم أوجه النقد التي توجه الى هذا الاتجاه ككل وهو ما سنشير اليه بعد ذلك .

وأهم ما يتضمنه هذا الاتجاه من مبادئ في تفسير الاضطرابات السلوكية نعرض له بإيجاز في الجزء التالي :

لقد ظهرت المحاولات الأولى لدولارد وميلر في الاستفادة من مبادئ نظرية « هل » في التعلم في كتابها « التعلم الاجتماعي والتقليد Social Learning and imitation (١٩٤١) . حيث كان هدفها تكوين نموذج نظري في التعلم الاجتماعي يقوم أساسا على المبادئ والأسس التي وضعها « هل » في نظريته . وتعتبر هذه المحاولة بمثابة اختبار تجريبي بالفعل لتكوين هذا النموذج النظري . حيث قد تناولت كثيرا من الأسس التي يتم عليها بعد ذلك تفسير العديد من مظاهر السلوك المبني وغير المبني . ومن ذلك اعتبار أن التعلم أساسي بالنسبة للسلوك الانساني . ويدون عملية التعلم لا يستطيع الفرد أن يأخذ مكانة كعضو فعال ومؤثر في المجتمع الانساني . وكما أن اللغة سلوك متعلم ، فإن السلوك المبني وغير المبني كذلك كلاهما يخضع لعملية تعلم . حتى توافق الأشخاص بعضهم إلى البعض الآخر داخل الأسرة وخارجها في المجتمع المحيط ، وما به من مؤسسات اجتماعية أخرى ،

أما يحتاج لعملية تعلم ، ولذلك يتطلب تحليل السلوك الاجتماعي المعرفة الدقيقة بمبادئ التعلم والأسس التي يقوم عليها .

وكان من رأي « دولارد وميللر » أن ذلك ما يجعل فرع سيكولوجية التعلم ذا أهمية كبيرة بين فروع علم النفس . ولكن ذلك لا يتم بصورة جيدة إلا في حالة مساعدة المعلوم الاجتماعية الأخرى . لأن علماء التعلم في حاجة ماسة إلى فهم الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع والتي في ضوءها يحدث التعلم الانساني بالنسبة لكثير من أنماط السلوك الاجتماعي . والدليل على ذلك ما يلاحظ بوضوح في الاستجابات السلوكية التنافسية والعنصرية في المجتمع . حيث يوجد الصراع بين الأفراد من أجل التقدم الاجتماعي . ويمكن أن تكون هذه الاستجابات ذات أثر فعال ومعزز لسلوك الأفراد . كما يمكن أن تكون من ناحية أخرى مصدرا من مصادر العقاب ، ومن عوامل إضعاف السلوك . ويعتمد ذلك على طريقة ومستوى استجابة الأفراد الآخرين في المجتمع على درجة كبيرة من الأهمية في التنبؤ بدرجة فاعلية التعلم والحالة التي سيكون عليها . فهل ستكون هذه الأنماط عاملا مساعدا في تكوين عادات سلوكية سوية مرغوبة ؟ أم سترتب على وجودها عادات سلوكية غير مرغوبة تظهر في شكل بعض الاضطرابات النفسية ؟ (٢٩) .

ويقوم اتجاه نظرية التعلم لدى « دولارد وميللر » في تفسير السلوك بوجه عام ، والاضطرابات السلوكية بوجه خاص على أربعة مبادئ أساسية هي الحافز ، والدلالة ، والاستجابة والمكافأة . ويفضل أن تفسرها بإيجاز على النحو التالي :-

١ - الحافز : Drive

قد تكون الحوافز فطرية ، كما قد تكون مكتسبة . والحوافز الأولية أو الفطرية Primary drives هي تلك المثيرات التي يبدو أنها تكون الأساس الأول لأغلب أنماط سلوك الدافعية . ومن هذه الحوافز الشعور بالالم ، والعطش ، والجوع ، والجنس . وتكون هذه الحوافز واهنة غير متسلطة على السلوك الانساني في التنظيمات الاجتماعية الحديثة . ولا تظهر في كامل قوتها وتأثيرها إلا في ظروف خاصة مثل الحروب ، والثورات ، والمجاعات . وعلى العكس من ذلك تشكل الحوافز الثانوية أو المكتسبة Secondary drives الاطار الاجتماعي للإنسان المتمددين الذي يعتمد بدرجة كبيرة على حماية

للمجتمع له ، وعمل تحقيق أكثر مطالبه الحياتية في اطار التقدم الاجتماعي والنفسى الذي وصل اليه المجتمع الحديث ، والخوافز المكتسبة يتم تعلمها على أساس من الارتباط بالخوافز الفطرية .

ومن المحتمل أن يكون الخوف أو القلق أقوى هذه الخوافز . ويستطيع أي مثير أن يكون له قوة الحافز وفاعليته في السلوك ، إذا كان هذا المثير على درجة كبيرة من الشدة تتيح له دفع الفرد الى العمل .

٢ - الدلالة : Cue

هي عبارة عن مثير يحقق وظيفة هامة ، وهي توجيه الاستجابات الصادرة عن الكائن الحي في المواقف السلوكية المختلفة ، مما يساعد على تحديد خواص الفعل . والمثيرات عادة يكون لها قيمة حافزة drive value تعتمد على شدة هذه المثيرات في الموقف السلوكي . كما يكون لها قيمة دلالية Cue value تحقق توجيه السلوك . وتعتمد هذه القيمة على الخاصية التمييزية لهذه المثيرات . وكلما ازداد تمايز المثير ، ساعد ذلك على تكوين الاستجابات المتعددة . والمتنوعة التي ترتبط بهذا المثير . ولذلك ليس من الضروري أن تكون الاستجابة نتاج لمثير واحد فقط ، ولكن قد تكون نتيجة لنمط من المثيرات . وبالتالي قد يكون هذا النمط من المثيرات مكونا من عدة مثيرات حافزة ، واخرى لها وظيفة الدلالات Cues . مثال ذلك كما في حالة الفرد الجائع ، فانه يستجيب لسير حافز الجوع ، كما يستجيب الى الدلالات التي تظهر في البيئة المحيطة به ، كرائحة الطعام ، أو لونوان الطعام ، أو الى أي دلالة أخرى ترتبط بمثير حافز الجوع . لذلك فان الدلالات لها خاصية على جانب كبير من الأهمية ، وهي أنها تحدد متى وأين يستجيب الفرد ، وما هي الاستجابات التي سيصدرها من حيث الشكل والمستوى . وهكذا فان المثير الحافز drive Stimulus، والمثيرات والدلالات تعمل معا في نسق متوازن في اصدار الاستجابة المناسبة .

٣ - الاستجابة : Response

والاستجابات هي كل ما يصدر عن الكائن الحي من أعمال ، أو أفعال ، أو حركات أو انفعالات نتيجة لوجود مثير أو موضوع ، أو مجموعة مثيرات أو موضوعات يتعرض لها الكائن الحي في هذا الموقف ، وتحدد موضوعيا في هذا السلوك الصادر عنه . ويسهل تعلم أي نمط من الاستجابات اذا اعقبها مكافأة . حيث أن مكافأة الاستجابة من شأنه أن يقويا ويمزجها ، ويجعل احتمال حدوثها في

المرات القادمة أكبر من احتمال عدم حدوثها . كما أن تعزيز الاستجابة يجعلها تحتل مكانة هامة نسبيا في التنظيم الهرمي الأولي للاستجابات « - initial hierarchy of responses . ويختلف وضع الاستجابات في هذا التنظيم من حيث احتمال حدوثها ، ودرجة فاعليتها . فالاستجابة المعززة تكون الأكثر فاعلية ومساعدة في هذا التنظيم . وقد يغير التعلم من نظام وضع الاستجابات في التنظيم . حيث يشار الى الاستجابات التي تتكون نتيجة الاكتساب والتعلم « بالتنظيم الهرمي المكتسب resultant hierarchy ، في حين يشار الى الاستجابات التي تتكون غالبا نتيجة العوامل الوراثية ، وليست نتيجة الخبرة والتعلم « بالتنظيم الهرمي الفطري « innate hierarchy .

٤ - المكافأة : Reward

ولها أثر كبير في عملية التعلم . حيث أن الاستجابات التي تكافأ تكون أكثر احتمالا في الظهور في المواقف التالية للمشاهدة للموقف الذي تمت فيه المكافأة ، من الاستجابات التي لا تكافأ . وبالتالي تحقق المكافأة عملية التعزيز Reinforcement بالنسبة للاستجابات المطلوب تعلمها . ويعتبر « دولارد وميلر » أن احتمال تكرار الاستجابات ، أو احتمال أن تغير من نظامها في التنظيم الهرمي للاستجابات ، إنما يعتمد على ما إذا كانت الاستجابة معززة أم لا . فإذا لم تكافأ الاستجابة فإن شدة الحافز لدى الفرد من شأنها أن تنخفض . وتبعاً لذلك يزداد ميل الفرد الى تكرار نفس الاستجابة الى نفس المثيرات . وهكذا يؤدي تعزيز الاستجابات الى خفض الحافز ، وبالتالي خفض درجة التواتر الناشء عن الحافز مما يساعد على التعلم^(٣٠) .

ويعد هذا العرض السريع للمبادئ الأربعة الأساسية التي يقوم عليها التعلم في نظر دولارد وميلر ، تعرض لاتجاه العلاج الذي يقترحاته في ضوء هذه المبادئ على النحو التالي : -

يعتبر دولارد وميلر أن أسلوب العلاج الذي يقوم على نظرية التعلم يعتمد أساسا على عمليتين من أكثر العمليات النفسية أهمية في مجال تعلم العادات السوية ، وكف العادات السلوكية غير المرغوبة ، وكذلك محو تعلم unlearning بعض الاضطرابات السلوكية مثل الخوف والقلق . والعمليتان هما التعميم والتمييز .

ومن المفضل أن نشير الى كل منها بكلمة صغيرة قبل أن نتبين دورهما في تكوين أسلوب العلاج الذي تبناه دولارد وميلر .

أولاً : التعميم : Generalization

وبعني أنه حينما يتم اشتراط الاستجابة الى مشر معين ، فان المثيرات الأخرى المشابهة للمثير الأصلي ، يصبح لها القدرة على استدعاء نفس الاستجابة .

مثال ذلك في حالة تعلم الطفل من بعض الحيوانات ، فان استجابة الخوف تظهر لديه حينما يشاهد الحيوانات الأخرى المشابهة ، خلاصة في السنوات الأولى من العمر لعدم قدرته على التمييز بين المثيرات التي تظهر في الموقف السلوكي ، ويوجع ذلك الى أن المثيرات الجديدة الأكثر تشابها ، والأقرب الى المثير الأصلي ، يصبح لديها للقدرة بدرجة أكبر من غيرها على استدعاء الاستجابة الشرطية . وبالتالي تعتبر عملية التعميم من الأسس الهامة في تفسير السلوك حينما يعيد الفرد في المواقف الجديدة تكرار بعض الاستجابات التي حدثت في المواقف السابقة بنفس الأسلوب . ويحدث ذلك بمقدار ما هناك من أوجه التشابه بين هذه المواقف الجديدة والمواقف السابقة . وكلما كان التشابه بين المواقف الجديدة ، والمواقف السابقة كبيراً ، كان احتمال حدوث التعميم أكبر .

ثانياً : التمييز : Discrimination

ويعتبر عملية مكملية لعملية التعميم . فبينما التعميم يعتبر استجابة الى التشابهات ، بمعنى أن الكائن الحي يستجيب الى كل المثيرات التي تشبه المثير الأصلي ، فان التمييز يعتبر استجابة الى الاختلافات . أي أن الكائن الحي يستطيع في هذه العملية أن يميز بين المثيرات الموجودة في الموقف ولا يستجيب الا للمثير المعزز . وهكذا لا تبقى الا الاستجابة المعززة ، بينما تنطفئ الاستجابات الأخرى لعدم تعزيزها .

ويعتبر التمييز عملية متقدمة بالنسبة الى التعميم . حيث أن الطفل لا يستطيع أن يقوم بعملية التمييز الا بعد مرحلة متقدمة من النمو . ولذلك فانه في المراحل المبكرة من العمر يعمم استجابة الخوف الى كل المثيرات المشابهة للمثير الأصلي الذي تسبب في تكوين هذه الاستجابة . بينما في المراحل التالية يستطيع أن يميز بين المثيرات التي توجد في الموقف السلوكي .

وهكذا بعد أن كان الطفل يخاف من جميع الحيوانات التي تشبه الحيوان الذي كون نحوه استجابة الخوف ، فانه يبدأ بعد ذلك في إصدار استجابات الخوف الى نفس الحيوان فقط ، وليس الى جميع

الحيوانات المشابهة . وتصبح عملية التمييز أكثر تخصصاً كلما تقدم في النمو ، مما يؤدي الى ظهور عملية أخرى هي عملية التمايز بين الاستجابات^(٣١) .

وقد تناول « دولايد وميلر » (١٩٥٠) عمليتي التعميم والتمييز ، والمبادئ الأساسية للتعلم السابق الإشارة إليها في كيفية ظهور وعلاج بعض الاضطرابات السلوكية كالعصب والحوف مثلاً .

وتبدو مظاهر هذه الأساليب السلوكية غير السوية من خلال عمليتي الصراع **Conflict** والكبت **Repression** . ولما كان الصراع الانفعالي الحاد يعتبر أساساً لكثير من الاضطرابات السلوكية ، فقد تناول دولايد وميلر الصراع اللاشعوري الذي يؤدي الكبت دوراً رئيسياً في تكوينه .

وينشأ الصراع في رأي اصحاب النظرية نتيجة عملية اكتساب وتعلم خاطئة لأساليب التوافق مع البيئة . ويتم اكتساب وتعلم هذا النمط من السلوك خلال مرحلة الطفولة المبكرة ، حيث تساهم الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل ، وما يرتبط بها من عوامل ثقافية معينة في تكوين الصراع . ويكتسب الطفل الصراع من الأشخاص المحيطين به . وخاصة الوالدين . فممارسة الوالدين لأساليب التربية الخاطئة في معاملة وتربية الطفل قد ينشأ عنها ذلك الصراع . ويتكون الصراع لدى الطفل نتيجة التعارض بين استجابات اشباع الدوافع (الحوافز) البيولوجية ، وخاصة دوافع الجوع وضبط الانعراج وضبط الجنس وبين الاستجابة لثيرات البيئة ، وما فيها من قيم أو عوامل ثقافية معينة تحول دون اشباع مثل هذه الدوافع ، مما قد يؤدي الى بعض مشاعر الحوف والغضب والشعور بالذنب . ولكي يتجنب الطفل هذا الصراع الناشئ عن التعارض بين هذه الاستجابات ، فإنه يلجأ الى الكبت علاجاً لهذا الموقف . ويعتبر اتجاه الوالدين من اشباع الطفل لدوافعه الأولية من الأسباب الرئيسية التي قد تؤدي الى تكوين الصراع . فقد يترتب على عقاب الوالدين لطفلها للعبت بأعضائه التناسلية ، ان يصبح الدافع الجنسي مثيراً للخوف ، مما يجعل الطفل يقع في حالة صراع بين شدة الدافع من ناحية ، والخوف من اشباعه من ناحية أخرى ، مما قد يؤدي الى حالة الصراع ، والتي تسمى في مثل هذا الموقف بصراع الاقدام والاحجام **Approach - avoidance** .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فطبقاً لعملية التعميم السابق الإشارة إليها ، قد تعمم استجابة الخوف على الأب على أساس انه اقترن بعملية للعقاب . والأكثر من ذلك قد يشمل التعميم المكان

الذي تم فيه العقاب ، وكذلك وسيلة العقاب وغير ذلك من المكترات للشابة للمثير الأصلي الذي كون استجابة الخوف ، والتي اقترنت بطروف العقاب (٣٢) .

وهكذا غالباً ما يؤدي التلازم بين الصراع والكبت الى ظهور الاعراض العصبية **neurotic symptoms** التي تخضع في تكوينها لعملية التعلم ، وتبدو أهم مظاهرها في سوء تكيف الفرد مع نفسه ، ومع الآخرين ، والمعاملة الشديدة من الصراع والتهديد والشعور بالتعاسة .

مثال آخر يوضح كيف تؤدي هذه العمليات النفسية دوراً هاماً في كثير من الاضطرابات السلوكية . والمثال هذه المرة لشاب يعاني من ظاهرة الاعتماد العصبي **neurotic dependence** حيث انه يمارس سلوك الاعتماد الزائد على امه في كثير من امور حياته . مما يجعل هذا النمط من السلوك يوصف بعدم التوافق . ذلك لان صاحبه لا يتمكن من ممارسة امور حياته العادية مستقلاً عن امه . فلا يستطيع ان يتخذ قراراً في اختيار مجال العمل الذي يفضلهُ ، أو ممارسة نواحي النشاط الذي يحل اليه ، كما لا يستطيع اختيار شريكة حياته . ويفسر دولارد وميلر اسباب هذه الحالة في ضوء الصراع الذي يعاني منه هذا الشاب ، والذي ينشأ عن الشعور بالعناء والكراهية للأُم ، الشعور بالذنب في نفس الوقت . وعندما لا نجد هذه المشاعر متفتحة لها ، فانها تتحول الى حالة كبت وانكار . يتبع ذلك ظهور بعض امراض الخوف والقلق التي قد يلازمها احياناً بعض امراض الامراض السيكوسوماتية **psychosomatic illnesses** (٣٣) ومن شأن هذه الاعراض جميعها ان تزيد من اعتماد الشاب على امه ، وتجعله ينجس من اتخاذ قراراته .

ويكون علاج هذه الحالة في رأي دولارد وميلر في محاولة حل الصراع الكامن لدى الشاب ، وهو التعلم **unlearning** بالنسبة لاستجابات الكبت اللاشعورية التي يمارسها لمواجهة امراض الصراع ، واستبدال هذه الاستجابات بانثرى مفركة ومبصرة . ولما كان الشاب لا يدرك ان مشاعر الكبت لديه هي التي ادت الى الخوف وتسببت في حالة الصراع ، فانه يجب خلال جلسات العلاج ان تتاح له فرصة التعبير عن هذه المشاعر ، وذلك بمناقشة اتجاهاته نحو امه حتى يصبح قادراً عن الانصاح بما تتضمنه هذه الاتجاهات من جوانب سلبية . وعندما يكتشف الشاب ان الحديث بحرية عن هذه

32 — Dollard, J. & Miller, N. E. C (1950) "Personality and Psychotherapy" Mc Graw-Hill, New York.

(٣٣) حالات مرضية جسيمة للتفكير ، نفسية للشاب ، مثل بعض حالات فرقة لسانة وقرير النفسي ، وشباب الدم العالي ، وانهايت للتفكير ، وبعض امراض القلب .

المشاعر السالبة لا يقابل بالعقاب من المعالج ، فان الاحساس بالذنب ، ومظاهر القلق المرتبطة بمشاعر العداوة والكراهية نحرهم تأخذ تدريجيا في الانطفاء ، ثم ينتقل الانطفاء الى المشاعر السالبة الأخرى من خلال عملية التصميم (٣٤) .

وهكذا يتم علاج مثل هذه الحالات اذا أصبح الشخص مدركا وبميزا للمثيرات المسببة لسلوكه ، والمكونة لاستجاباته ، وأعبأ بالأسباب والعوامل التي أدت الى استجاباته الانفعالية غير السوية . وحينئذ يكون سلوكه مضبوطا ، ومتسقاً مع الواقع .

ويلاحظ من العرض السابق لاتجاه نظرية التعلم الذي أخذ به دولارد وميللر في تفسير الشخصية ، وما قد تنجم عنه من بعض الاضطرابات السلوكية ، ان هذا الاتجاه يتميز بالدقة العلمية بدرجة اكبر مما سبقه من الاتجاهات أو المحاولات . وكان من أبرز مميزات هذا الاتجاه انه اعتمد في هذه المحاولة على القوانين المعملية ، مستندا في ذلك على القواعد والمبادئ التي تحكم عملية التعلم . ولكن ما يؤخذ على هذا الاتجاه ان اسلوب تناول الظاهرة النفسية وما يعتمد عليه من قوانين أو أسس اكتساب السلوك كان في اطار نظرية التحليل النفسي وما تشتمل عليه من وجهات نظر في تفسير السلوك .

اسلوب تعديل السلوك والأسس التي يقوم عليها

يقصد بتعديل السلوك Behavior Modification بيساطة التطبيق الفعلي لمبادئ السلوك على مشكلات السلوك . تلك المبادئ والأسس التي توصل اليها عظم النفس تجربيا . واغلب هذه المبادئ هي نتائج الدراسات والابحاث العديدة والمتنوعة التي أجريت في مجالي التعلم والداغمية ، حل الرغم من ان اسلوب تعديل السلوك لا ينحصر فقط في هذين المجالين ، بل يمتد الى مجالات أخرى من علم النفس .

لذلك عندما يستخدم اسلوب تعديل السلوك في مجال علم النفس المعادي Clinical psychology مثلا ، يشار اليه بالعلاج السلوكي Behavior therapy أو بالعلاج الاشتراطي Conditioning therapy . واحيانا أخرى يطلق على تعديل السلوك ، الاشتراط الاجرائي التطبيق Applied Operant Conditioning الذي هو في الحقيقة جزء من تعديل السلوك كما قد يشار اليه بالتحليل التجريبي للسلوك Experimental analysis behavior .

وحق سنوات قليلة مضت غالباً ما كان بعض الكتاب يستخدمون مصطلح تعديل السلوك للإشارة إلى أي نوع من الممارسة من شأنه أن يغير من السلوك الانساني . ولكن ذلك كان يجانب الصواب ، حيث أن تعديل الستوك هل وجه الدقة لا يعني مطلقاً أنه عمل من اعمال غسيل المخ Brain Washing أو ضبط التفكير . كما ان الباحثين المختصين بتعديل السلوك لا يستخدمون أي نوع من انواع الجراحة ، كما انهم لا يلجأون الى ما يسمى بالملاج بواسطة الصدمات الكهربائية elec-troshock therapy ونادراً ما يستخدمون بعض العقاقير كوسائل معينة بصفة مؤقتة للمساعدة في تغيير بعض الاجراءات السلوكية .

والما تعديل السلوك يقوم اساسا على مبادئ التعلم ، وما نفقه من تكوين المهارات وأساليب السلوك الجديدة ، واختزال وكف الاستجابات والعادات السلوكية غير المرغوبة . كما ان الأشخاص الذين يخضعون لاسلوب تعديل السلوك غالباً ما يصبحون أقوى دافعية لتقبل التغيرات الجديدة المرغوبة .

ويقوم تعديل السلوك اساسا على التجريب . حيث ان الاساس الذي يعتمد عليه المشتغلون بعلم النفس هو ان هذا العلم يقوم على مجموعة من القوانين تفسر العوامل النفسية التي تؤثر على سلوك الشخص . مما يجعل أحداث أي تغيير في سلوك شخص ما ، بغض النظر عن تسمية اسلوب التغيير ، سواء كان تعديلاً أو تحليلاً للسلوك ، او ارشاداً غير مباشر nondirective counseling ، من الضروري ان يتم اساسا على خصائص هذه القوانين . هذا بالإضافة الى ان اجراءات التعديل في السلوك التي يتناولها هذا التغيير يجب ان تستخدم هذه القوانين حتى تكون هذه الاجراءات اكثر فاعلية في تحقيق الهدف المطلوب .

ويعتبر الباحثون في مجال علم النفس التجريبي ان المعلومات التي تم الوصول اليها من الدراسات التي اجريت حتى الآن بمثابة ركيزة أساسية لممارسة اسلوب تعديل السلوك بالنسبة لكثير من المشكلات السابق الإشارة اليها في مقدمة هذه الدراسة . ومع تزايد الوصول الى قوانين ومبادئ جديدة تفسر السلوك الانساني ، ينمو ويتطور اسلوب تعديل السلوك (٣٥) .

المدرسة السلوكية وأسلوب تعديل السلوك :

وانحاء المدرسة السلوكية الذي يعتمد عليه اسلوب تعديل السلوك يختلف بدرجة كبيرة عن المتحمي

الذي اشار اليه سكينر وبعض أنصار هذه المدرسة . فهو اتجاه لا يسنى الى محاولة إخضاع كل اساليب السلوك الانساني الى بعض الانمكاسات البسيطة ، أو محاولة تفسير هذه الأساليب على اساس بعض الارتباطات التي تنشأ بين الخير والاستجابة ، ولكنه اتجاه ينظر الى السلوك الانساني على انه سلوك معقد بدرجة كبيرة ومحاولة فهمه وتفسيره لا يد وان يكون في اطار العلاقات المتبادلة والمتشابكة بين مكونات كل نمط من أنماط السلوك المختلفة . ومحاولة تفسير السلوك في اطار مكوناته لا يعني تفتيت السلوك الى اجزاء ، ولا ينتقص من فهم الانسان ككل . بل ان ذلك يسهل على المهتمين بتعديل السلوك وضع برامج فعالة لتغيير نماذج السلوك غير المرغوبة . حيث ان اسلوب تعديل السلوك لا ينظر الى مكونات السلوك في اطار العلاقة بين استجابات محددة ارتبطت بمثيرات محددة ، ولكنه ينظر الى هذه المكونات على انها نماذج من السلوك تم تعلمها في اطار مواقف معينة .

وبالتركيز على السلوك ذاته المصادر من الشخص ، والقابل للملاحظة والقياس ، يؤدي اسلوب تعديل السلوك دورا هاما في تقديم معلومات في شكل اساليب عملية مما يجب ان يحدث في المواقف السلوكية الحقيقية . مثال ذلك : ماذا يجب ان يفعل ممارس أسلوب تعديل السلوك حينما يأتي اليه احد العملاء يشكو من الضعف الجنسي الذي يسبب له شعورا بالاحباط ؟ . والمدرس الجديد ربما يكون لديه معلومات وافرة حديثة عن أساليب التلريس وتفريد التعليم ، ولكن ماذا يفعل بالضبط حينما يواجه الفصل الدراسي لأول مرة كمستول من مجموعة من التلاميذ مختلفين في الميول والقدرات ، متباينين في بعض النواحي مثل الحالة التعليمية ، أو الاجتماعية ، أو الاسرية وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات السلوكية الأخرى والتي سبق الإشارة إليها في مقدمة هذه الدراسة .

وفي كثير من الأحيان يعتبر فهم الشخص للمشكلة ، أو معرفته لماذا يتصرف على وجه معين في موقف معين بمثابة مساعدة له على التعامل مع عناصر هذه المشكلة . وقد يكون لدى الشخص المهارة والخبرة الكافية لكي يتغلب على المشكلة التي تواجهه بمجرد فهمه لها . ولكن عادة لا يكون ذلك كافيا في مواقف أخرى . كما قد لا يكون ذلك متوفرا لدى كثير من الأشخاص . لذلك لا يعتمد تعديل السلوك على فهم ، أو استبصار ، أو على امكانية تفسير السلوك على اساس نموذج نظري معين لتحقيق التغيير . فقد يكون الأشخاص في حاجة ماسة الى تعلم أنماط سلوك بديلة ، أو اكتساب مهارات معينة لا يكون قدر استطاعتهم ممارستها قبل مقابلة ممارس تعديل السلوك .

ولا يعني ذلك ان اسلوب تعديل السلوك لا يتضمن كلا عمليتي الفهم والاستبصار ، ولكن ذلك وحده لا يكفي لتحقيق الأهداف التي يسعى اليها تعديل السلوك . بل ان العمل غالبا ما يشجع اثناء

ممارسة تعديل السلوك على ملاحظة وفهم دوافع واتجاهات سلوكه . وهذا النمط من الإدراك ، أو تعلم التمييز **Discrimination Learning** غالباً ما يكون ضرورياً بدرجة كبيرة خلال عملية التعويم الشامل لسلوك الشخص . وقد يكون ذلك بمثابة الخطوة الأولى في مساعدة الشخص لكي ينمي عملية ضبط الذات . **Self - Control** بالنسبة لبعض المخاط سلوكه غير المرغوبة .

والعمل في مجال مشكلات السلوك غالباً ما يتطلب الاستعانة بمساعدات مختلفة من مصادر متنوعة ، قد تكون من المجالات الأخرى غير مجال علم النفس . ففي بعض الحالات مثلاً قد يتطلب الأمر المساعدة من مجال التربية لتصحيح بعض المفاهيم أو الأفكار الخاطئة لدى الشخص ، أو مساعدة طبية . وقد يحتاج العميل إلى الشجاعة لمواجهة موقف معين ، أو قد يكون في حاجة إلى تدريب مهني معين ليرفع من مستوى أدائه في العمل . ولكن علاوة على ذلك كله ، وغيره من المساعدات الأخرى ، فإن برنامج تعديل السلوك يكون له أسلوب عملي واضح ومحدد فيما يفعله العميل إزاء مشكلة معينة ، وما يتطلبه حلها من اختزال ممارسة بعض أساليب السلوك ، أو تعلم المخاط سلوك جديدة (٣٦) .

مراحل اهتمام أسلوب تعديل السلوك :

من المسلمات الأساسية لدى المشتغلين بالعلوم السلوكية أن السلوك الإنساني يتأثر بكثير من المتغيرات مثل المتغيرات الوراثية ، والاضطرابات الفسيولوجية ، والتغذية . وغيرها من المتغيرات الأخرى المتعددة . وعلاج المشكلات الناتجة من بعض هذه المتغيرات قد يتضمن تغيير نظام التغذية ، أو إزالة بعض الآثار الجسمية أو الفسيولوجية أو العصبية المترتبة على وجود هذه المشكلات .

إسماً عن المشكلات الناشئة عن عوامل فسيولوجية مثل بعض أشكال الفصام ، **Schizophrenia** ، اضطراب استجابات الجهاز العصبي ، عدم الاتزان البيوكيميائي في المخ ، والتخلف العقلي **Mental retardation** فقد تبين بوجه عام أنه من الصعب علاج هذه المشكلات بشكل مباشر في الوقت الحاضر . كما أن هذه المشكلات في ذاتها تعتبر من عوامل إعاقة تحقيق الهدف من أسلوب تعديل السلوك إلى حد ما (٣٧)

36 — Mikkles, William L. (1978) " Behavior Modification " Harperand Row, Publishers, New york.

37 — Mikkles, William L. (1974) " Concepts in Learning " W. B. Saunders, Philadelphia.

ورغم أن أسلوب تعديل السلوك ربما لا يستطيع أن يزيل آثار التخلف العقلي مثلا ، إلا أنه يستطيع مساعدة الأشخاص المتخلفين عقليا على تحقيق أكبر قدر ممكن من التكيف مع واقعهم . وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات التي كان ينظر إلى علاجها في وقت مضى على أنه يعتمد على الأساليب الطبية الخالصة ، فقد تغير النظر إليها الآن على أساس اعتماد العلاج على قدر كبير من التوازن والمشاركة بين الأسلوب الطبي وأسلوب تعديل السلوك (٣٨)

أما بالنسبة للمتغيرات النفسية والاجتماعية التي يتأثر بها السلوك الانساني ، فانه بالنظر إلى المشكلات السابق الإشارة إليها في مقدمة هذه الدراسة ، يمكن التوصل إلى أن المتغيرات الرئيسية المسؤولة عن أغلب هذه المشكلات هي متغيرات مرتبطة ارتباطا وثيقا بمجالى التعلم والدافعية . وقد أشار بعض الباحثين أمثال « دولارد وميللر » Dollard & Miller (١٩٥٠) ، « فرنش » French (١٩٣٣) ، « كمبل » Kemble (١٩٦١) ، « كراسنر » Krasner (١٩٦٢) ، « شوبن » Shoben (١٩٤٩) إلى أن كثيرا مما يدور في الأساليب المختلفة للعلاج والارشاد النفسي يمكن أن تفسر على أساس مبادئ التعلم (٣٩) . مما يؤكد على أهمية نظرية التعلم بوجه عام بالنسبة لأسلوب تعديل السلوك .

وفي بعض الأحيان تتضمن المشكلات السلوكية نماذج من اساليب السلوك المتعلمة في وقت ما ، أو في مواقف معينة . ولكن هذه النماذج من السلوك تصبح غير مرغوبة في وقت آخر ، أو في مواقف أخرى غير تلك التي تم فيها تعلم هذه الأساليب . وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات وآثارها لا تلاحظ إلا في مراحل متأخرة . وذلك مثل ممارسة بعض المراهقين التدخين لتحقيق بعض الأمتياز الاجتماعية المعنية . ولكن بعد عدة سنوات يكتشف هؤلاء الأشخاص أنهم قد تعلموا عادة التدخين المعقدة ، والتي يصعب كفها ، أو اختزال ممارستها إلا بعد فترة زمنية ليست بقصيرة ، وربما لا يتم تعديل هذا النمط من السلوك غير المرغوب .

ومن جهة أخرى ، قد توجد مشكلات من نوع آخر ، تتضمن ممارسة بعض أخطاء من السلوك لم يتم تعلمها . ويرغب الأشخاص في تعلمها مثل :

38 — Knapp, T. J. and Peterson, L. W. (1976) " Behavior management in medical and nursing Practice " . In W. E. Craighead, A. E. Kazdin, and M. J. Mahoney (eds) Behavior Modification : Principles, issues, and applications. Houghton Mifflin.

39 — Ibid.

ما هي افضل اساليب الاستذكار

كيف يمكن ان نحقق اختزال القلق والتوتر ؟

كيف يمكن ان يكون الشخص اكثر حزما في مواقف معينة ؟

تلك المشكلات ، وغيرها من المشكلات المتشابهة التي اشرنا اليها في مقدمة هذه الدراسة هي محور اهتمام وامكانية اسلوب تعديل السلوك الذي يهدف اساسا الى مساعدة الأشخاص على اختزال انماط السلوك المتعلمة غير المفيدة والتخفيف من آثارها ، وتعلم انماط سلوك جديدة مرغوبة .

كل ذلك يؤكد على أهمية اسلوب تعديل السلوك في علاج كثير من المشكلات السلوكية على اساس اتجاه التعلم - الدافعية . هذا رغم ان المهتمين باسلوب تعديل السلوك يدركون تماما ان علم النفس يزخر بكثير من نظريات الشخصية والاساليب الكليينكية التي تعبر بمثابة بدائل لاسلوب تعديل السلوك في تفسير كثير من المشكلات موضع اهتمام علم النفس ذلك لان نموذج التعلم الدافعية الذي يقوم عليه اسلوب تعديل السلوك يحقق كثيرا من المزايا . منها ان مكونات هذا الاتجاه تعتبر محددا واضحا ، مع اقل درجة من تداخل المعنى وكثرة الارتباطات ، وذلك بالنسبة لغيره من الاتجاهات الأخرى في علم النفس . كما ان هذا الاتجاه - اكثر من أي اتجاه آخر - يستند على العلاقات المركبة للمكونات المتعددة التي يتصف بها ، مما يحقق فهم وعلاج كثير من المشكلات الانسانية ذات الأبعاد السلوكية المتعددة .

الخصائص الرئيسية التي يتميز بها اسلوب تعديل السلوك :

كما سبق نوجز الخصائص التي يتميز بها اسلوب تعديل السلوك ونجمله في وضع يختلف عما سبق من اتجاهات أو محاولات في تفسير وعلاج الاضطرابات السلوكية في النواحي التالية :-

١- ان تعديل السلوك اسلوب « لا تاريخي » ، ahistorical بمعنى انه لا يتم بالدرجة الأولى بتاريخ حياة الشخص صاحب المشكلة ، ولا بخبرات الطفولة التي مر بها ، او متى اكتسب الاضطرابات السلوكية الذي يعاني منه . بل انه يتم بالدرجة كبيرة بالاعراض الحالية ، وما يلاحظ من سلوك على

الفرد . كما ان اهتماماته تنحصر بدرجة اكبر في تحديد نماذج السلوك الخاطيء الذي يمارسه الفرد حاليا ، وماذا يمكن ان يقدم لممارسة تعديل السلوك في هذا الموقف في ضوء ما يلاحظ من سلوك .

وليس معنى ذلك ان اسلوب تعديل السلوك لا يعطي اي اعتبار للمعلومات التاريخية عن حياة الفرد . فقد تكون هذه المعلومات في كثير من المواقف ضرورية ومطلوبة ولكن كما يجب ان يؤخذ في الاعتبار ، ان هذه المعلومات التاريخية تستخدم كعامل مساعد في تحديد المتغيرات الحالية المؤثرة على سلوك الفرد . وقد لا تكون هذه المعلومات مطلوبة في مواقف معينة ، مما يجعلها ليست موضع اعتبار بالنسبة للممارس .

٢- يتجنب اسلوب تعديل السلوك تصنيف الأفراد الى فئات معينة ، او وضعهم تحت عناوين مميزة ، كما يتحاشى استخدام المفاهيم والمصطلحات الغامضة غير المحددة مثل « غير سوي » ، *abnormal* ، ومنحرف ، *daviant* او « مريض عقليا » ، *mentally ill* . لان هذه الصفات التي تطلق على الأشخاص لا تفيد كثيرا في التحليل الوظيفي للسلوك موضع اهتمام هذا الاسلوب ، الذي يعتبر ان السلوك - بعض النظر عن كيفية تصنيفه الى سوي وغير سوي ، ! او غير ذلك من التصنيفات - يخضع لعملية الاكتساب ، وذلك بدون اعتبار الى شكل هذا السلوك سواء كان مقبولا او غير مقبول بالنسبة لطبقة من الناس ، او لحضارة معينة . فتلك اعتبارات ثقافية ، لا وزن لها بالنسبة للإجراءات التي تتبع مع الأشخاص .

٣- يعتمد اسلوب تعديل السلوك على الادراك والوعي والافتناع باجراءاته ، سواء من جانب الأفراد أصحاب المشكلات السلوكية ، أو المدرسين ، أو الآباء ، أو غيرهم . حيث ان ذلك يحقق نتائج أفضل لهؤلاء الأفراد ، كما أنه يزيد من حماسهم ودافعيتهم للتعاون في حل المشكلات .

٤- ومن أهم خصائص هذا الاسلوب أنه لا يحتاج الى علاقة مباشرة زوجها لوجه بين ممارس تعديل السلوك الذي يضبط ويشرف على تنفيذ البرنامج ، والعمل . ولذلك يستطيع أخصائي تعديل السلوك وتدريب المدرسين أو غيرهم من العاملين في مجالات الرعاية الاجتماعية والنفسية هل القيام بتنفيذ البرامج التي تطبق على التلاميذ ، أو على غيرهم من الأفراد . كما يمكن تدريب الآباء على تنفيذ برامج تعديل السلوك على الأطفال^(٤٠) . وقد تبين فاعلية هذه البرامج ، خاصة اذا كان الآباء أو المدرسون

40- Beckowitz, B. D. & Grizzino, A. M. (1972) " Training Parents as behavior therapists : A review " Behavior Research and Therapy, 10, 297 - 317 .

لا يدركون في كثير من الأحيان مسؤ وليتهم عن نماذج السلوك الخاطيء الذين يرغبون في تغييره^(٤١) .
لذلك يمكن اعداد بعض الكتيبات التي تحتوي على برامج خاصة لتدريب الأفراد على تنفيذ خطط
تعديل السلوك ، وخاصة للمدرسين ، الاخصائيين العاملين في بعض مجالات الرعاية الاجتماعية .
حيث تحقق هذه البرامج الخاصة عدة أهداف أهمها إمكان تفرغ الممارس المتخصص في تعديل السلوك
لتناول المشكلات الخاصة التي تحتاج الى تدريب عال وخبرة متعمقة ، ومواجهة مباشرة مع العمل .
كما أن هذه البرامج توفر اعدادا لا بأس بها من الفتيين المتدربين العاملين في المؤسسات الاجتماعية على
تنفيذ برامج تعديل السلوك^(٤٢) .

• - يعتمد تعديل السلوك بدرجة كبيرة على أساليب ضبط الذات Self — Control التي تحقق
تعليم الأشخاص كيفية القيام بتنفيذ برامج التغيير على أنفسهم ، مما يساعد على تحقيق فاعلية برامج
تعديل السلوك ، وخاصة عندما يدرك الأشخاص أنهم هم المعنويون بتغيير السلوك ، وأنهم المستفيدون
من هذا التغيير .

واكتساب أساليب ضبط الذات تتطلب تعليم الأفراد بعض القواعد العامة التي يمكن تطبيقها في
عدة مواقف سلوكية من تعديلها نوعية ومستوى المشكلات معكروا ، أو أنها تساعد الأفراد على تجنب
الوقوع في هذه المشكلات . وبذلك يمكن تحقيق هدفين رئيسيين بتنفيذ هذه البرامج الأولى وقائي ،
وآخر علاجي . كما يمكن تعليم الأفراد مهارات تطبيق هذه القواعد والأسس من خلال عدة وسائل
يشرف عليها ممارس تعديل السلوك مثل البرامج الخاصة ، والكتيبات ، والبرامج التلفزيونية أو خلال
عملية الارشاد النفسي^(٤٣) .

وقد أمكن بالفعل بواسطة الباحثين في هذا المجال تنفيذ بعض برامج ضبط الذات في علاج بعض
المشكلات ، مثل تحسين عادات الاستذكار والدراسة^(٤٤) ، وانقاص الوزن ، وضبط عملية القلب

41 — O'Dell, A. (1974) "Training Parents in Behavior Modification: A Review" *Psychological Bulletin*, 81, 418 — 433.

42 — Loeber, R. & Wolman, R. G. (1975) "Contingencies of therapist and trainer performance : A review". *Psychological Bulletin*, 82, 660 — 688.

43 — Milich, W. L. (1976) "Anchored self—control clinic" *Behavior Therapy*, 7, 564 — 566 .

44 — Bencke, W. M. & Hantz, M. B. (1972) "Teaching Self—control of Study behavior" *Behaviour Research and Therapy*, 10, 35 — 41 .

لدى الذكور أثناء ممارسة الجنس^(٤٥) . وقد كشفت نتائج الدراسات التي تناولت تنفيذ هذه البرامج عن فاعليتها في علاج هذه المشكلات .

المبادئ والعمليات الأساسية التي يقوم عليها أسلوب تعديل السلوك :

يعتبر أسلوب تعديل السلوك في ضوء ما سبق من خصائص يتميز بها دون سابق الأساليب والاتجاهات الأخرى ، بمثابة إطار شبه متكامل ضمن ما توصل إليه علم النفس الحديث من طرق وأساليب يتناول بها تفسير وعلاج اضطرابات الشخصية والتي تظهر في كثير من أساليب السلوك .

وسنحاول في هذا الجزء عرض أهم المبادئ والعمليات النفسية التي يستند إليها هذا الأسلوب في تحديد إجراءاته ، حيث لا يتسع المجال لعرض كل جوانب هذا الأسلوب .

أولاً : الاشتراط الاستجابي : Respondent Conditioning :

تطغنا رأيناها سبق عن الحديث عن المحاولات الأولى لعلاج اضطرابات السلوك في إطار التعلم انه يظهر المدرسة السلوكية بدأ كثير من الباحثين من أنصار هذه المدرسة يوجهون اهتمامهم إلى دراسة العلاقة بين عملية الاشتراط الاستجابي واكتساب وتعديل بعض أنماط اضطرابات السلوك . وكانت دراسات « واتسون وراينر » Watson & Rayner (١٩٢٠) ، وما بعدها من دراسات ، أهمها حتى وجهه المصنوع دراسات « ماورر وماورر » Mowrer & Mowrer (١٩٣٨) ، ودراسات « دالارد وميلر » Dallard & Miller (١٩٥٠) بمثابة نقاط الارتكاز الأساسية التي أقيم عليها كثير من التجارب والدراسات التي استخدمت عملية الاشتراط في تفسير كثير من أساليب السلوك ، وتعديل بعض الأساليب السلوكية الخاطئة التي أخذت شكل العادات السلوكية غير المرغوبة .

وقد أدت الدراسات والأبحاث التجريبية التي أجريت في مجال الاشتراط سواء على السلوك الحيواني أو على السلوك الإنساني إلى وجود ذخيرة كبيرة من المعلومات والمبادئ والقوانين التي دعمت نظرية التعلم الشرطي . ومن ذلك الطرق التي يتم بواسطتها تكوين الاستجابة الشرطية ، والتي تؤثر كل منها بدرجة معينة على نمط وقوة الاشتراط .

45 — Low, J. C. & Milgus, W. L. (1975). " Use of Written material in learning self—Control of premature ejaculation " Psychological Reports, 37, 295 — 298 .

وتعتبر العلاقة الزمنية بين تقديم أو ظهور المثير الشرطي (م ش) ، وتقديم أو ظهور المثير غير الشرطي (م ط) هي العامل الرئيسي المؤثر على قوة الاقتران ، تكوين الاستجابة الشرطية ، والاعتماد المتبادل المشترك بين هذه الطرق جميعا .

وقد استفاد أسلوب تعديل السلوك من طرق تكوين الاستجابة الشرطية في تفسير كثير من المظاهر السلوكية . وتشكل هذه الطرق أربعة نماذج رئيسية هي : -

١ - الاشتراط المتزامن : Simultaneous Conditioning

ويتم فيه تقديم أو ظهور المثير الشرطي (م ش) في نفس وقت تقديم أو ظهور المثير غير الشرطي (م ط) . وقد تبين من الدراسات التجريبية التي أجريت أن تأثير الاشتراط المتزامن على التعلم يكون ضعيفا ، لأن الكائن الحي لاتاح له الفرصة الكافية للتصرف في هذا النموذج على المثير الشرطي في وجود المثير غير الشرطي في زمن واحد في الموقف السلوكي .

٢ - الاشتراط المتقدم : Forward Conditioning أو ما يشار إليه أحيانا بالاشتراط المرادف : Delayed Conditioning والذي يقدم أو يظهر فيه المثير الشرطي (م ش) قبل تقديم المثير غير الشرطي (م ط) بفترة قصيرة ، ويستمر وجوده حتى تقديم المثير غير الشرطي (م ط) . وقد يتم سحب المثير الشرطي من الموقف إما خلال وجود المثير غير الشرطي ، أو عقب ظهوره في الموقف ولا يتأثر تكوين الاستجابة الشرطية بذلك .

٣ - اشتراط الأثر : Trace Conditioning

ويقدم فيه المثير الشرطي ، ويتم سحبه من الموقف قبل تقديم المثير غير الشرطي . ويلاحظ أن فترة زمنية بين تقديم المثيرين أطول ما يوجد في نموذج الاشتراط المتقدم .

٤ - الاشتراط المتأخر : Backward Conditioning أو ما يشار إليه أحيانا بالاشتراط العكسي ، حيث يقدم أو يظهر المثير الشرطي في هذا النموذج عقب تقديم أو ظهور المثير غير الشرطي . أي أن ظهور المثير غير الشرطي يتقدم على ظهور المثير الشرطي . ولذلك فإن التعلم في هذا

النوع من الاشتراط يكون ضعيفا . وبالتالي فليس من المستبعد في هذا النموذج عدم ظهور الاستجابة وذلك لانعدام حالة التوقع التي تؤدي دورا هاما في تكوينها^(٤٧)

وقد اعتمدت الطرق المبكرة في علاج ادمان المسكرات **alcoholism** على الاشتراط المتأخر ، وذلك لجعل المدمن في حالة اعياء (م ط) بواسطة أو بأخرى ثم يقدم له بعد ذلك مشروب مسكر (م ش) . وقد وجد بالفعل أن هذا النموذج غير فعال بدرجة كافية في علاج هذه الظاهرة وبالتالي تم العمل عنه^(٤٨) .

كما قد يحدث في بعض المواقف بالنسبة لبعض الأشخاص تكوين الاستجابة الشرطية في اطار نموذج الاشتراط المتأخر ، وخاصة فيما يكون هناك صعوبة بالغة في فصل الشخص عن أحد الخصائص التي يقره ، مما يجعل الموقف مهيئا لتكوين الاستجابة الشرطية .

وقد كشفت الدراسات التجريبية ومنها دراسة « روس روس » Ross & Ross (١٩٧١) التي اجريت على مجموعة من طلبة الجامعة لقياس اشتراط جفن العين وكذلك دراسة « ولسون » (١٩٦٩) التي اجراها على اشتراط معدل ضربات القلب ، ان الاشتراط يكون في اقوى نماذج الاشتراط المتقدم ، واشتراط الأثر مما يكون في الاشتراط المتأخر^(٤٩) .

وما يجب أن يلاحظ بمثابة ويؤخذ في الاعتبار في عملية الاشتراط ، أن فاعلية وقوة الاستجابة الشرطية يعتمد بدرجة أساسية على مستوى قوة المثيرين ، الشرطي (م ش) ، وغير الشرطي (م ط) قبل عملية الاقتران بينهما ، والتي تتأثر بقوة كل منهما ، وبدرجة تشابه الاستجابات التي يكونها ، ويحدد مرات الاقتران بين المثيرين في الموقف السلوكي .

وكما تتناول عملية الاشتراط تكوين بعض أساليب السلوك التي تأخذ شكل العادة السلوكية ، سواءا كانت مرغوبة أو غير مرغوبة ، فإن أسلوب تعديل السلوك يعتمد بدرجة كبيرة على كيفية تكوين

(٤٧) مرجع سابق .

47 — Ibid.

48 — Ross, L. M. & Ross, L. H. (1971) " Comparison of Timed Delay classical eyelid Conditioning as a function of Interstimulus interval " Journal of Experimental Psychology, 91, 165 — 167.

الاستجابة الشرطية في تغيير أو نحو تعلم السلوك غير المرغوب وهو ما يعتبر أحد الأهداف الرئيسية التي يسعى إليها هذا الأسلوب في علاج الاضطرابات السلوكية . ويستند أسلوب تعديل السلوك في ذلك على عمليتين أساسيتين هما الانطفاء ، وتكوين الاستجابة الشرطية المضادة . ونعرض لها على النحو التالي :

ثانيا : الانطفاء Extinction

عرضنا أثناء الحديث عن المحاولات الأولى لعلاج اضطرابات السلوك في إطار التعليم عن بعض المواقف التجريبية التي استفادت من خاصية عملية الانطفاء في نحو تعلم أساليب السلوك غير المرغوب . والانطفاء كما ذكرنا ، يعنى نقص أو اختزال في قوة الاستجابة الشرطية يحدث بمرور الوقت نتيجة عدم تعزيز هذه الاستجابة منذ آخر عملية اقتران بين المثير الشرطي (م ش) ، والمثير غير الشرطي (م ط) مما يؤدي في النهاية إلى تلاشي أو انقضاء الاستجابة الشرطية سواء كانت مرغوبة أو غير مرغوبة .

وقد تعود الاستجابة الشرطية إلى الموقف السلوكي الذي ظهرت فيه مرة أخرى بعد فترة . وتسمى هذه الحالة بظاهرة الاسترجاع التلقائي Spontaneous Recovery إلا أن الاستجابة الشرطية في هذا الموقف عادة ما تكون أضعف من الاستجابة التي سبقت عملية الانطفاء ، حيث تؤثر عملية الانطفاء على قوة الاستجابة حتى لو ظهرت بعد ذلك مرة أخرى .

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره عن عملية الانطفاء ، وبعض المحاولات التجريبية التي استعملت هذه العملية في نحو تعلم بعض أساليب السلوك غير المرغوب ، نعرض للطريق الرئيسية التي تشتمل عليها هذه العملية ، والتي استفاد منها أسلوب تعديل السلوك ، وهي :

١ - الانطفاء التدريجي Gradual Extinction

ويعنى العمل على خفض فاعلية الاستجابة الشرطية حتى تختفي تدريجيا من الموقف السلوكي وذلك بالتحرك في خطوات متتابعة تدريجيا نحو الموضوع أو المثير أو الموقف الذي ينشأ الاستجابة الشرطية . والمثال التالي يوضح ذلك : إذا كان أحد الأطفال يشعر بالخوف من الاقتراب من شاطئ البحر .

فلازالة هذا الخوف باستخدام طريقة الانطباع التدريجي ، يتطلب الامر اقتراب الطفل نحو البحر تدريجيا . ولكن اولى الخطوات لحل هذه المشكلة ، ان يلعب الطفل على شاطئ البحر على مسافة ٢٠ قدما من الماء لفترة زمنية معينة يعقب ذلك ان يلعب على مسافة ١٠ اقدام من الماء ، ثم يلى ذلك الاقتراب اكثر ويكون بالقرب من حافة الماء وهكذا حتى تصل اقدام الطفل الى الماء ، وهكذا الى ان يكثر الطفل في الماء فترة من الوقت .

وهل الرضخ من انه يمكن استخدام عملية الانطفاء مع اى نمط من السلوك الشرطى الاستجابي ، انه غالبا ما تستخدم هذه العملية في حالات الخوف والقلق . فكثيرا ما يمرض الأطفال والأشخاص الكبار في حياتهم اليومية الى مواقف تدعو الى الخوف او تستثير القلق . ويعتمد الانطباع التدريجي للقلق او للخوف على عدة خطوات رئيسية هي :

أ - من الضروري في بداية تنفيذ هذه الطريقة تكوين نظام متدرج ومتابع الخطوات نحو موضوع الخوف او مثير القلق . ومن الأفضل ان تكون مراحل او مراتب هذا النظام متعددة الخطوات ، لا ان يكون في خطوات قليلة .

ب - من المفضل ان يشجع الشخص ، وان تستثار دوافعه او ان يكافأ سلوك الاقدام نحو هذا التابع ، كما يحفز الاداء بعد كل مرحلة من مراحل ، مما يساعد على خفض درجة الخوف او القلق لدى الشخص .

ج - من المفيد معاونة الشخص على خفض التوتر او الخوف لديه اثناء ممارسة الخطوات السابقة ، وذلك بتدريسه على كيفية ممارسة سلوك الاسترخاء ، او تخيل بعض المواقف او المناظر التي تدعو الى السرور والابتهاج . او ان يتظاهر بأنه لا يخاف او يقلق من المواقف المشابهة للموقف الذي يسبب له الخوف او القلق . كل ذلك وغيره من اساليب التشجيع والتعزيز وتنشيط الدافعية الاخرى يساعد على خفض التوتر او الخوف حتى تتلاشى تدريجيا الاستجابة الشرطية بفعل عملية الانطفاء .

٢ - الانطفاء غير التدريجي : Non — gradual Extinction

ويطلق عليه احيانا الانطفاء الفوري ، وهو البديل للانطفاء التدريجي ، حيث لا تمر عملية الانطفاء باغلب الخطوات الوسيطة لحل المشكلة . وبالتالي تتم مواجهة النهائي او الموضوع الكثير مرة واحدة دون

تدرج او تتابع . واذا اخذنا للمثال السابق الذي اشرنا اليه في الانطفاء التدريجي . فانه طبقا لخواص الانطفاء غير التدريجي ، يجب وضع الطفل مباشرة في الماء دون المرور بالخطوات التي تتطلبها عملية الانطفاء التدريجي . اى ان حل المشكلة يتطلب مواجهة مباشرة ، للموقف المخيف او المثير الذي يستدعي استجابة الخوف او القلق فاذا سقط طفل اثناء تعلمه ركوب الدراجة ، ونتج عن ذلك بعض الجروح البسيطة فيجب ان نجعل الطفل يعاود الركوب مرة اخرى عقب الوقوع مباشرة ، وهكذا حتى مع الكبار .

ولكن ما يجب ان يلاحظ بعناية ان هذه الطريقة قد يكون لها مضارها بل والاكثر من ذلك ، قد تكون نتائج هذه الطريقة اشد ضررا من النتائج التي تترتب على وجود مثير الخوف او القلق في الموقف السلوكي ، مما قد يترتب عليه ان تصبح استجابة الخوف او القلق اقوى مما كانت عليه . لذلك فانه من المفضل اتباع طريقة الانطفاء التدريجي فهي اكثر امانا ، ولو انها تحتاج الى بعض الوقت .

وهكذا تلخص طريقة الانطفاء غير التدريجي في وضع الشخص في موقف المواجهة مع المثيرات المشتتة للخوف او للقلق ، والعمل على ابقائه في موقف الخوف او القلق دون هروب اذا كانت حالة الشخص تسمح بذلك . وهذه الطريقة هي مما يطلق عليها طريقة « الغمر » Flooding والتي ستعرض لها بعد ذلك .

وبذلك يؤدي الانطفاء الاستجابي Respondence Extinction كما يطلق على الاجراءات السابقة - دورا هاما في محو تعلم كثير من انماط السلوك غير المرغوب ، وذلك بتقديم او ظهور المثير الشرطي (م ش) في الموقف بدون حالة اقتران مع المثير غير الشرطي (م ط) عدة مرات حتى تتلاشي او تخفي تدريجيا الاستجابة الشرطية (س ش) (١٩) ، (٢٠) .

ثالثا : الاشتراط المضاد : Counterconditioning

ويعني العمل على تكوين استجابة شرطية جديدة مرغوب فيها تكون غير منسجمة او غير منسجمة مع الاستجابة التي نشأت اصلا بواسطة المثير الشرطي (م ش) وتمر تكوين الاستجابة الشرطية المضادة بعدة خطوات اساسية هي :

49 — Gostean, K. C. & Mellin, L. (1974) "Covert extinction of amphetamine addiction". Behavior therapy, 5 90-92.

50 — Cautela, J. R. (1971) "Covert extinction" Behavior therapy, 2, 192-200 .

١ - تحديد الموقف السلوكي الذي ينشأ الاستجابات غير المرغوبة كروية العنكبوت مثلاً التي تسبب قلقاً زائداً عند بعض الأشخاص .

٢ - تحديد الأسلوب أو الطريقة التي تتكون بها الاستجابة غير المتسقة مع الاستجابة الشرطية غير المرغوبة ، بحيث تصبح هذه الاستجابة بعد ذلك لها صفة السيادة على الموقف السلوكي . ولتكن الاستجابة غير المتسقة في هذا الموقف أحد أشكال الاسترخاء والمهدوء من قلق رؤية العنكبوت .

٣ - وأخيراً العمل على تكوين العلاقة الاشتراكية بين الاستجابة غير المتسقة وهي الاسترخاء والمثيرات التي تنشأ الاستجابة غير المرغوبة وهي رؤية العنكبوت . كما يحدث بين المثيرات المكونة للاسترخاء التي تقترن بمثيرات العنكبوت .

ويستمر ظهور الاستجابة الشرطية المضادة حتى تبدأ الاستجابة الشرطية الأصلية وهي الاستجابة غير المرغوبة في التناقص والتفؤل حتى تتلاشى نهائياً من الموقف السلوكي للشخص^(٥١) .

وعالماً ما يستخدم الاشتراط المضاد في خفض أو اختزال الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة مثل القلق ، والغضب ، والغيرة ، والخوف . والمثال التفصيلي التالي يوضح استخدام عملية الاشتراط المضاد في خفض استجابات الخوف . وكما رأينا في المثال السابق ، يتطلب الأمر تكوين استجابة شرطية جديدة مرغوب فيها تكون غير متسقة أو غير منسجمة مع الاستجابة الشرطية الأصلية التي نشأت أصلاً بواسطة المثير الشرطي . وهذه الاستجابة الشرطية الجديدة تكون بمثابة انجذاب مضاد بالنسبة لمثير الخوف ، بحيث يمكن أن يصاحب هذا الانجذاب بتقديم مثير غير شرطي (م ط) سار وليكن هدية مثلاً مع ظهور المثير الشرطي ، وهو مثير الخوف . وبالتالي تنشأ استجابة شرطية جديدة يكون لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية الأصلية . وحتى يقترب الطفل من الحصول على هذه الهدية لا بد له من أن يقترب من مثير الخوف . فإذا كان المثير غير الشرطي الجديد مرغوب فيه بدرجة كافية ، فإن الطفل سيقترب منه ، ويكتشف أن المثير الشرطي وهو مثير الخوف ليس ضاراً على الإطلاق . وبعد عدة مرات من الاقتران يتعلم تأثير المثير الشرطي ، وبالتالي تضعف استجابة الخوف حتى تختفي من سلوك الفرد^(٥٢) .

51 — Ibid

52 — Ibid

ومن العوامل الهامة في تكوين الاشتراط المضاد ان تكون الاستجابة الشرطية المضادة او ما تسمى بالاستجابة غير المتسقة Incompatible Response في حالة قوية بحيث يتضمن يصبح لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية الأصلية في الموقف السلوكي . ولكن يتم ذلك يجب ان يعد الموقف السلوكي بحيث يتضمن ما يشبه التنظيم الهرمي او التدرج الهرمي Hierarchy لمكونات الموقف من حيث مستوى درجة استثمارها للشخص . وهذا التنظيم او التدرج يشبه التدرج الذي سبق ان اشرنا اليه عند الحديث عن الانطفاء الاستجابي التدريجي .

وهكذا يحدث تكوين الاشتراط المضاد في شكل تتابع غير سريع لعناصر ومكونات هذا الموقف حتى يتم الاقتراب من الموضوع ، او من المثير الذي ينشأ الاستجابة غير المرغوبة . ففي حالة الشخص الذي يخاف من رؤية العنكبوت مثلا نبدأ بأولى مراحل هذا التدرج الهرمي ، ولتكن ان يسمح الشخص كلمة « عنكبوت » إلى ذلك ان تعرض عليه صورة العنكبوت ، وبعد ذلك تتاح له فرصة رؤية العنكبوت مجسما ، ثم في النهاية يعرض عليه العنكبوت حيا مع الاقتراب منه .

ويقوم هذا التتابع على افتراض ان تأثير الاشتراط المضاد يحدث له تعميم إلى المثيرات المشابهة في التنظيم الهرمي ، وهي تلك الخطوات السابقة ، وأولها سماع كلمة عنكبوت حتى رؤية العنكبوت والاقتراب منه . وبالتالي تنخفض قوة الاستجابة غير المرغوبة تدريجيا . وهي القلق من رؤية العنكبوت ، وذلك بفعل سيادة او تفوق الاستجابة الشرطية الجديدة ، وهي استجابة الاسترخاء ، وما يطلق عليها في الاشتراط المضاد بالاستجابة غير المتسقة . ولولا ان تكون استجابة الاسترخاء في اول التتابع عقب سماع كلمة عنكبوت لما اصبحت هذه الاستجابة السيادة على الاستجابة الأصلية . كما ان دقة التتابع في التنظيم الهرمي ، ودرجة التشابه بين المثيرات في مراحل هذا التتابع لها اثر كبير في تسهيل عملية التعميم بين هذه المثيرات ، مما يؤدي في النهاية إلى سرعة تكوين الاستجابة الشرطية ومساقتها .

وقد كشفت نتائج الدراسات التي قامت بتطبيق اسس الاشتراط المضاد عن فاعلية هذه العملية في علاج كثير من الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة ومنها ما يسمى بمخاوف الفصل الدراسي Clasroom Phobia التي تنشأ من مقاومة التلاميذ للعودة إلى المدرسة بعد فترة انقطاع معينة . وخاصة بعد انتهاء الاجازة الاسبوعية . وتحديث مخاوف المدرسة كنتيجة لقلق الانقطاع . فمع الانقطاع كمثير غير شرطي (م ط) ينشأ القلق لاستجابة غير شرطية (ش ط) مصاحبا للمدرسة كمثير شرطي (م ش) والذي يعمل على ظهور الخوف . وعلاج هذه الظاهرة يتضمن العمل على تشجيع حضور

التلميذ ، وذلك بمكافأته بعد حضوره اليوم الدراسي كاملا . وطالما يتم تعزيز الحضور ، فإن الاستجابة الشرطية المضادة وهي الاستجابة غير المتسقة مع الاستجابة الشرطية الأصلية ، تأخذ في التكوين . لأن المثير الأصلي (م ش) وهو المدرسة يصبح مقترنا بالحضور الذي يؤدي الى المكافأة بدلا من الخوف .

وهكذا يمكن علاج الاستجابات الانفعالية الأخرى نحو المدرسة ، والتي قد ترتبط بالمدرسة ، او زملاء المدرسة ، او بعملية التعلم ذاتها ، وذلك عن طريق الاقتران بالمثيرات المرغوبة ، او على الاقل تجنب ارتباطها بالمثيرات غير المرغوبة ^(٥٣) .

رأبها : الاسترخاء Relaxation

وهو من العمليات الهامة التي يعتمد عليها اسلوب تعديل السلوك ، وخاصة في علاج كثير من الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة ، كالقلق ، والخوف . وقد رأينا عند الحديث عن الاشتراط المضاد كيفية خفض القلق الناشئ عن بعض المثيرات المنفرة بواسطة تكوين استجابة جديدة غير متسقة مع استجابة القلق وهي استجابة الاسترخاء عند رؤية هذه المثيرات المنفرة . لذلك كثيرا ما يستخدم الاسترخاء في كثير من مواقف القلق او الخوف في عملية الاشتراط المضاد .

ويعتبر تعليم الاشخاص الذين يعانون من بعض الاضطرابات السلوكية كيفية ممارسة عملية الاسترخاء من الأمور الهامة في اسلوب تعديل السلوك بصفة خاصة ، كما ان تعلم الاسترخاء في ذاته يعتبر الآن من متطلبات العصر ، وما يتسم به من استمرار ظهور عوامل الاستثارة العصبية والنفسية التي تؤدي في النهاية الى اكتساب كثير من المظاهر السلوكية غير المرغوب التي يلزم الافراد فترات طويلة . وشكوى الأفراد من القلق والاضطراب النفسي ، والخوف ، وغيره من اشكال السلوك غير المرغوب مستمرة ومتزايدة . وقد يكون بعض هذه الاشكال مرتبطا بمثيرات معينة او مواقف محددة في حياة الشخص . كما قد يكون منها ماله علاقة وثيقة ببعض المشكلات الفسيولوجية ، مثل بعض امراض البرد ، والقرحة والسرطان ^(٥٤) ، ^(٥٥) .

53 — Ibid

54 — Solomon, W.E.P., (1975) "Hedonism : on depression, development, and death" San Francisco : W.H. Freeman. Also Mikulas W.L. (1978) Behavior Modification, Harper and Row, Publishers.

55 — Holmes, T.H. & Maerle, M., (1972) "Psychosomatic syndrome" Psychology Today, April, In Mikulas, W.L. (1978) Behavior Modification .

وهكذا قد تعتمد العوامل المسببة لهذه الاضطرابات السلوكية ، ولكن في جميع هذه الاحوال يصبح التدريب على الاسترخاء عاملاً مشتركاً في كثير من برامج العلاج والرعاية النفسية .

وتركز برامج التدريب على الاسترخاء التي يتناولها اسلوب تعديل السلوك بدرجة كبيرة على كيفية تعليم الاشخاص وممارسة الاسترخاء واستخدامه كأحد مهارات ضبط الذات . ويتضمن ذلك كيفية التصرف عند بداية الاحساس بالقلق وبالتالي كيف يمارس الشخص الاسترخاء في هذا الموقف وغيره من المواقف المشابهة . كما تشتمل هذه البرامج على تعليم الاشخاص كيفية مواجهة مواقف الاستشارة النفسية والعصبية التي تسبب التوتر والاجهاد النفسي . كما انها تتضمن كيفية اختزال أو العمل على خفض المظاهر النفسية والعصبية لبعض المشكلات الخاصة مثل التوتر الناشئ عن الصداق ، والحركات أو التماثلات الناشئة عن اضطراب الجهاز العصبي والقلق الناشئ عن انقطاع وتحريف التعلم والادراك في بعض المواقف الخاصة (٥٦) ، (٥٧) .

وقد كشفت الدراسات التجريبية التي اجريت عن فاعلية تعلم الاسترخاء كأحد المكونات في برنامج لعلاج بعض مظاهر الأرق . وتوصلت هذه الدراسات الى نتيجة هامة ، وهي أن أفضل إجراء لتحقيق الاسترخاء في كثير من مواقف الاضطراب النفسي . هو اكتساب وتعلم الشخص مهارة ممارسة عملية الاسترخاء بنفسه ، مما لو حصل الشخص على بعض الحيلعات او المساعدات التي تحقق له الاسترخاء (٥٨) .

ومن أكثر برامج التدريب على الاسترخاء المستخدمة في اسلوب تعديل السلوك ، البرنامج الذي اقترحه اصلاً « جاكوبسون » Jacobson (١٩٣٨) . ويقوم هذا البرنامج على عدد من الخطوات ، حيث يتضمن العمل بممارسة شد ارجاء العضلات بالتناوب ، بينما يركز انتباهه على

56 — Goldfried, M.R. & Tyler, C.S. (1974) "Effectiveness of relaxation as active coping skill".

Journal of abnormal psychology, 83, 348 - 355 .

57 — Huchingson, D.F., et.al. (1980) "Anxiety management and applied relaxation in reducing general anxiety" Behaviour Research And Therapy. Vol. 18:1-190 .

58 — Borkovec T.D., Katsapak, D.G., & Slum, K.M., (1975) The facilitative effect of muscle tension-release in the relaxation treatment of sleep disturbance

Behavior therapy, 6.

مشاعره المختلفة وبعد فترة معينة من التدريب وممارسة هذه الاجراءات ، يتعلم العميل كيفية ممارسة الاسترخاء بنفسه دون مساعدة ، مدركا بداية الشعور بالقلق او التوتر العصبي ، مما يساعده على تحقيق ضبط الذات الذي يؤدي دورا هاما في عملية الاسترخاء وبذلك يصبح العميل اكثر وعيا واحساسا بحركة العضلات ، مما يؤدي الى خفض مستوى كثير من المشكلات التي يعاني منها ، مثل الصداق الناشء عن توتر عضلات الرقبة ، او بعض الارتعاشات اللا ارادية في اللسان ، او بعض حركات الوجه الزائدة^(٥٩)

عامسا : الاشتراط المضاد المنفر : Aversive Counterconditioning

وأينا فنيا سبق ان الاشتراط المضاد يعني تكوين استجابة غير متسقة مع الاستجابة الشرطية الأصلية المطلوب انطفائها وشرط تحقيق عملية الاشتراط المضاد أن تصبح هذه الاستجابة الجديدة اقوى من الاستجابة الشرطية ، بحيث يصبح لها صفة السيادة على الموقف السلوكي حتى يتحقق انطفاء الاستجابة غير المرغوبة .

وذكرنا ان اغلب المواقف التي يحدث فيها الاشتراط المضاد هي مواقف القلق والخوف ، والغيرة وما الى ذلك اي ان الاستجابة غير المتسقة تسعى لخفض او اختزال استجابة غير مرغوبة ذات طبيعة سلبية مثل استجابات الخوف او القلق .

في حين تهدف عملية الاشتراط المضاد المنفر الى خفض او اختزال الاستجابات غير المرغوبة ذات الطبيعة الموجهة بالنسبة للفرد . اي ان عملية الاشتراط المضاد المنفر تسعى الى تكوين استجابة منفردة مضادة للاستجابة الشرطية الأصلية المرغوبة من الشخص ، والتي عادة تكون غير مرغوبة في نظر الأشخاص الآخرين . ومعنى آخر يعتمد الاشتراط المضاد المنفر في اجراءاته على تكوين استجابة شرطية جديدة غير سارة تكون هي الاستجابة غير المتسقة ، والتي يصبح لها صفة السيادة على سلوك الفرد بعد ذلك^(٦٠) .

59 — Bernstein, D.A. & Borkovec, T.D., (1973) "progressive relaxation training : A manual for the helping professions" chompinque, 111. : Research press. In Mikulias, W.L. (1976) Behavior Modification.

60 — Hallan, R.S. & Rachman, S. (1976) "Current status of aversion therapy in Herson, M., cisler, R.M. & Mc or, P.M.

(eds.) progress in behavior modification . vol 2. New York. Academic press.

والمثال التالي يوضح تكوين الاستجابة الشرطية المضادة المفردة . بالنسبة للممن المخدرات او المسكرات ، او التدخين يكون لديه بعض الارتباطات الموجبة لكثير من مظاهر ما يلحق عليه ، مثل الارتباطات السارة التي تكونت لديه من تعاطي هذه المخدرات في ظروف معينة ، مثل التعاطي في مكان معين ، او مع بعض الأصدقاء المعينين ، او حالة الانسحاب من الواقع وما يتضمنها من شعور بالهدوء والراحة بعيدا عن مواجهة المشكلات . هذه النماذج من الارتباطات الايجابية يزيد تعزيزها كلما اقبل الشخص على التعاطي في المرات التالية ، وبالتالي تقوى ممارسة التعاطي . وجوهر عملية الاشتراط المضاد المنفر تكمن في احداث عملية الاقتران بين المواقف التي تنشأ الاستجابة الايجابية غير المرغوبة من الآخرين (الارتباطات السارة للشخص الممن) والمثيرات التي تعمل على انشاء الاستجابة السائدة غير المتسقة ، وهي الاستجابة المنفرة ، مثل الاستجابة الناشئة عن صلعة كهربائية خفيفة .

وتسير الخطوات في الاشتراط المضاد المنفر على النحو التالي :

- ١ - ان نحدد المثيرات ، او المواقف ، او الموضوعات التي تنشأ الاستجابة غير المرغوبة ، وهي كما في المثال السابق الاستجابة السارة للفرد للممن مثلا والناشئة عن تعاطي المخدر .
- ٢ - ان نعمل على انشاء الاستجابة غير المتسقة ، وهي الاستجابة المنفرة التي يكون لها صفة السيادة على الموقف السلوكي بعد ذلك .
- ٣ - ان نعمل تدريجيا على تكوين الاشتراط المضاد ، ويفضل ان يكون ذلك في تتابع متدرج لكي نضمن سيادة الاستجابة غير المتسقة ، وهي الاستجابة المنفرة .

وقد لا يكون هذا التدرج في تكوين الاشتراط المضاد ضروريا اذا رأينا ان الاستجابة المنفرة ستكون اقوى من الاستجابة الشرطية الاصلية ، وهي الاستجابة غير المرغوبة . ثم تستمر عملية الاقتران حتى يشعر العميل بالحياد نحو المثيرات ، اي تصبح المثيرات في حالة متوازنة ، وبالتالي لا يكون لأى منها خاصية انشاء الاستجابة بمفرده أو ان يشعر العميل بالكراهية والنفور من المثيرات مما يؤدي في النهاية الى انخفاض فاعلية الاستجابة غير المرغوبة بفعل الاستجابة الجديدة التي تكونت ، وهي الاستجابة المنفرة غير المتسقة مع الاستجابة غير المرغوبة .

وأغلب المواقف السلوكية التي يستخدم فيها الاشتراط المضاد المنفر ، هي مواقف سلوك مكافأة الذات **Self — Rewarding Behavior** حيث يكافئ مدمن المخدرات ذاته ، أي يعزز ذاته بواسطة النتائج التي يحصل عليها من تعاطي المخدر ، وهي حالة السرور والنشوة والغبوية . كما أن الشخص الذي يستأرجع جنسيا بواسطة مثيرات معينة مثل ممارسة الجنس مع افراد من نفس النوع **Homosexual** اومع الأطفال الصغار ، اوروية الملابس الداخلية مثلا ، انما يعزز ذاته بالاستئارة الجنسية وما يتبعها من بعض التخييلات او التصرفات الجنسية ولذلك غالبا ، لا يصلح في مثل هذه المواقف من سلوك مكافأة الذات طرق العلاج القائمة على الارشاد النفسي . حيث تحتاج هذه الحالات الى العلاج السلوكي الذي يتضمن تكوين عملية اشتراط مضاد منفر لكي تنخفض من اثر الارتباطات الموجبة الناتجة من المصدر الطبيعي للتمتع . كما يمكن مساعدة العميل على تنمية وتكوين نماذج سلوكية معززة بديلة ، مثل العمل على تكوين استجابة شرطية مضادة منفرة بواسطة صلصة كهربائية خفيفة تقترن برؤية صور بعض الأطفال مثلا وبذلك يعمل الاشتراط المضاد المنفر على تكوين ارتباطات جديدة منفرة بالنسبة للمثيرات التي سبق وارتبطت مع الاستجابات غير المرغوبة .

وغالبا ما يستخدم في أسلوب تعديل السلوك أكثر لزيادة فاعلية العلاج في كثير من المواقف السلوكية التي يستخدم فيها الاشتراط المضاد المنفر . فقد تتضمن اجراءات العلاج طريقة « سلب الاحساس » ^(١١) **Desensitization** ، او التدريب على محاولة بعض المهارات الاجتماعية ، او التدريب المهني او تدريب الأشخاص الذين يعانون من ممارسة سلوك الجنسية المثلية ليس فقط على خفض درجا الاستئارة الجنسية للأشخاص الآخرين من نفس النوع ، بل مساعدتهم كذلك على تنمية استثمار سلوك الجنسية الغيرية **Heterosexuality** والمهارات الاجتماعية اللازمة لذلك .

وتستخدم الصدمات الكهربائية الخفيفة والعقاقير في أغلب مواقف وحالات الاشتراط المضاد المنفر لتكوين الاستجابة الشرطية المنفرة . ولكن تستخدم الصدمات الكهربائية بشكل أكثر من العقاقير . حيث يمكن ضبط المتغيرات الكثيرة التي قد تؤثر على عملية الاشتراط مثل بداية تأثير الصدمة ، ونهايتها ، ومدتها ، وشدةها . عكس العقاقير فممتها ما يؤدي الى القىء الذي غالبا ما يسبب عدم

(١١) إحدى الطرق التي تستخدم في علاج بعض حالات الانحراف ، وتعتمد عملية الانحراف للعلاج مع استخدام الأساليب في سلب احساس الشخص فترات أطول او فترات أقل على حسب حالة الانحراف السلوكي .

الارتياح للعمل والمعالج . هذا بالإضافة الى ان المقاقير قد يكون لها بعض الأثر الجانبية على الجهاز العصبي المركزي ، وبالتالي يؤثر ذلك على تعلم الاستجابة مما يقلل من فاعلية أسلوب العلاج^(٦٧) .

وقد كشفت نتائج الدراسات التجريبية التي استخدمت طريقة الاشتراط المضاد المنفر عن فاعلية وسائل أخرى غير الصدمات الكهربائية والحقن كمثيرات منفرة فقد استخدم دخان دائي له رائحة دخان السجائر لخفض ممارسة التدخين بواسطة نفث الدخان بشدة في وجه العميل أثناء التدخين^(٦٨) . كما استخدم التدخين ذاته كمثير منفّر بالنسبة لغير المدخنين الذين يكرهون رائحة التدخين وذلك لخفض ظاهرة تناول الطعام بكميات كبيرة ، وبين الوجبات الرئيسية . وقد كشفت نتائج العلاج بواسطة المعالج ، والعلاج الذاتي بالنتزل عن فاعلية هذا الاجراء في انقاص الوزن بشكل ملحوظ^(٦٩) . كما استخدمت بعض الروائح الكريهة كمثير منفّر لعلاج الجنسية المثلية لدى بعض الأشخاص حيث تضمنت اجراءات العلاج استرخاء وتحليل العميل للخبرة الجنسية غير المرغوبة واقرارها بالثير المنفر . وبعد فترة معينة من العلاج تكونت الاستجابة المضادة المنفرة وتضاءلت الاستجابة الشرطية الأصلية غير المرغوبة حتى تم انقراضها^(٧٠) .

الخلاصة :

هذه بعض المبادئ والعمليات الأساسية التي يعتمد عليها أسلوب تعديل السلوك في تناول الاضطرابات السلوكية . ولم يتسع المجال لعرض كل ابعاد هذا الأسلوب الذي يعتبر من أكثر الأساليب والاتجاهات تكاملاً في علاج المشكلات السلوكية ، ضمن الأساليب الأخرى الحديثة التي يستخدمها علماء النفس الآن في العلاج النفسي ، منها الاتجاه المعرفي ، والاتجاه التكاملية الذي يعتمد على أكثر من أسلوب من أساليب العلاج .

62 — Lubetkin, B.S. & Fishman, S.T. (1974) "Electrical aversion therapy with a chronic heroin user". *Journal of Behavior therapy and Experimental psychiatry*, 5, 193-195

63 — Lichten, E. et. al. (1973) "comperison of rapid smoking, warm smoky air, and attention pinprick in the modification of smoking behavior." *Journal of consulting and clinical psychology*, 40, 42-58.

64 — Morasstem, K.P. (1974) "Cigarette smoke as a noxious stimulus in self-Managed aversion therapy for compulsive eating" *Behavior therapy*, 5, 255-260

65 — Colton, C.E. (1972) "Olfactory aversion therapy for homosexual behavior". *Journal of Behavior therapy and experimental psychiatry*, 3, 185-188.

ومن خلال هذا العرض للمحاولات المختلفة في تفسير الاضطرابات السلوكية في اطار عملية التعلم ، وما تقوم عليه من اسس وقوانين والتي بدأت مبكرا قبل ظهور المدرسة السلوكية . وما اعقبها من محاولات شبه متكاملة ظهرت في ابحاث واجراءات دولارد وميللر ، وموير وموير ، وغيرهم من الباحثين الذين اهتموا بتطبيق نتائج ابحاث ودراسات وتجارب التعلم في مجال علاج اضطرابات الشخصية . والتي ادت جميعها وساهمت في ظهور اسلوب تعديل السلوك . تبين من كل هذه المحاولات ، والاتجاهات او الاساليب التي اشتملت عليها مدى اهمية عملية التعلم بما تتضمن من مبادئ وقوانين ، وما تعتمد عليه من اجراءات ، ليس فقط في تكوين اساليب السلوك الصحيح او الخاطئ ، ولكن كذلك في تفسير كثير من الاضطرابات السلوكية التي اخلت شكل العادات السلوكية شبه الدائمة في حياة الافراد . هذه العادات التي تعتبر بمثابة تنظيمات او وحدات أساسية في الشخصية وهكذا يعتبر التعلم المدخل الرئيسي لفهم كثير من جوانب الشخصية . كما انه يعتبر في نفس الوقت اساسا لتعديل بعض هذه الجوانب .

ومع هذا فهناك بعض نواحي النقد التي توجه الى هذا الاسلوب . ومن اهم اوجه النقد الموجهة الى اجراءات اسلوب تعديل السلوك ، انه يتعامل مع الاعراض السلوكية فقط ، وليس مع الاسباب او الدوافع والعوامل المؤدية الى هذه الاعراض او الاستجابات السلبية التي تاتخذ لبعض اشكال السلوك المرضي او غير المرغوب من الآخرين .



المراجع

أولاً : المراجع العربية :

- ١ - أحمد زكي صالح : علم النفس التجريبي ،
الطبعة الثانية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة
- ٢ - أبو عبد الله القرطبي (١٤٧٧) : المعارف والأحداث ،
دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة .
- ٣ - أبو عبد الله القرطبي (١٤٨٢) : العلم والطبقة ،
الطبعة الثانية (أدب الطب) - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة .
- ٤ - سيد عبد الحميد (١٩٧٨) : سيكولوجية التصاف : أبحاثها ، أبحاثها ،
الطبعة الثانية - دار النهضة المصرية - القاهرة .
- ٥ - عبد الله بن عبد الله (١٩٥٩) : التصاف والملاحة النفسية ،
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- (6) Allport, G.W., (1961) "Pattern and growth in personality,, New York, Holt, Rinehart and winston.
- (7) Azrin, N.H., sneed, T.J., & Foxx, R.M., (1974) "Dry-bed training Rapid elimination of childhood enuresis,, Behaviour Research and Therapy, 12, 147-156.
- (8) Beneke, W.M. & Harris, M.B., (1972) "Teaching self-control of study behaviour,, Behaviour Research and Therapy, 10, 435-41.
- (9) Berkowitz, B.D. & Graziano, A.M. (1972) "Training parents as behaviour therapists : A review, Behaviour Research and Therapy, 10, 297-317.

- (10) Bernstein, D.A. & Borkovec, T.D., (1973) "Progressive relaxation training A manual for the helping professions,, Champaign, Ill. : Research Press. In KMikulas, W.L.(1978). Behaviour Modification Harper and Row, publishers.
- (11) Borkovec, T.D., Kaloupek, D.G., & Slama, K.M., (1975). "The facilitative effect of muscle tension-release in the relaxation treatment of sleep disturbance,, Behaviour therapy, 6, 301-309.
- (12) Cautela, J.R., (1971) "Covert Extinction,, Behavior Therapy, 2, 192-200
- (13) Colson, C.E. (1972) "Olfactory aversion therapy for homosexual behavior,, Journal of Behavior Therapy and Experimental psychiatry, 3, 185-187.
- (14) Dollard, J., & Miller, N.E., (1950) "Personality and psychotherapy,, McGraw Hill, New York.
- (15) Dunlap, K., (1932) "Habits their making and unmaking,, New York : Liveright, in McLaughlin, B., : Learning and social Behavior, 1978, The Free Press N.Y.
- (16) Fishman, H.C., (1937) "A study of the efficiency of negative practice as a corrective for stammering,, Journal of speech Disorders, 2, in McLaughlin, B., : Learning and social Behavior, 1978, The Free Press, N.Y.
- (17) Flynn, John and Herbert Garber (1967) "Assessing Behavior : Reading in Educational and Psychological Measurement,, Addison - Wesley Publishing company.
- (18) Goldfried, M.R. & Trier, C.S., (1974) "Effectiveness of relaxation as active coping skill,, Journal of Abnormal Psychology, 83,348-355.
- (19) Gotestam, K.G. & Melin, L. (1974) "Covert extinction of amphetamine addiction,, Behavior Therapy, 5, 90-92.
- (20) Guilford, J.P., (1950) "Personality,, New York : McGraw - Hill. In Leon H. Levy (1976) Conceptions of Personality, Theories and Research, New York : Random House. Academic Press.
- (22) Holmes, T.H. & Masuda, M., (1972) "Psychosomatic syndrome,, Psychology Today April. In Mikulas, W.L (1978) Behavior Modification, Harper and Row, Publishers.
- (23) Hutchings, D.F., Denney, D.R. & Basgall, J. (1980) "Anxiety management and applied relaxation in reducing general anxiety,, Behavior Research And Therapy, vol. 18, 181-190.
- (24) Jones, M.H (1924) "The elimination of children's fears,, Journal of Experimental Psychology, 7, 382-390.
- (25) Kalish, H.L. (1965) "Behavior therapy,, Handbook of clinical psychology, McGraw-Hill, N.Y.
- (26) Knapp, T.S. and paterson, L.W. (1976) "Behavior management in medical and nursing practice,, in W.E. Craighead, A.E. Kazdin, and M.J. Mahoney (eds.) Behavior modification : Principles' issues, and applications - Houghton Wifflin

- (27) Lichtenstein, E. Harris, D.E., Birchler, G.R., Wahl, J.M., (1973), "Comparison of rapid smoking' warm smoky air, and attention placebo in the modification of smoking behavior,, Journal of consulting and Clinical Psychology, 40, 92-98.
- (28) Loeber, R. & Weisman, R.G., (1975) "Contingencies of therapist and trainer performance: A review,, Psychological Bulletin, 82, 660-688.
- (29) Lowe, J.C. & Mikulas, W.L. (1975) "Use of written material in learning Self-Control of premature ejaculation,, Psychological Reports, 37, 295-298.
- (30) Lubetkin, B.S. & Fishman, S.T. (1974) "Electrical aversion therapy with a chronic heroin user,, Journal of Behavior Therapy and Experimental Psychiatry, 5, 193-195.
- (31) Lundin, R.W., (1961) "Personality : an experimental approach,, New York : Macmillan.
- (32) Max, L.W. (1935) "Breaking up a homosexual fixation by the conditioned reaction technique: A case study,, Psychological Bulletin, 32.
- (33) McLaughlin, B. (1978) "Learning and social Behavior,, The Free Press, New York.
- (34) Mehrabian, A. (1978) "Basic Behavior Modification,, Human sciences Press, New York.
- (35) Mikulas, William L. (1978) "Behavior Modification,, Harper and Row, Publishing, New York.
- (36) Mikulas, W.L., (1976) "A televised Self-control clinic,, Behavior Therapy, 7, 564-566.
- (37) Mikulas, William L. (1974) "Concepts in learning,, Philadelphia : W.B. Saunders. In Mikulas, W.L. (1978) Behavior Modification Harper and Row, Publishers, N.Y.
- (38) Miller, N.E., & Dollard, J. (1941) "Social Learning and imitation,, New Haven : Yale University Press.
- (39) Morganstern, K.P. (1974) "Cigarette Smoke as a noxious stimulus in Self-managed aversion therapy for compulsive eating,, Behavior Therapy, 5, 255-260.
- (40) Mowrer, O. Hobart, (1950) "Learning Theory and Personality Dynamics,, The Ronald Press company, New York.
- (41) O' Dell, S. (1974) "Training Parents in behavior modification : A Review,, Psychological Bulletin, 81, 418 - 433.
- (42) Olson, R.D. & Smith R.K., and Olson G.A., (1971) "Learning in the classroom' Theory and Application,, publishing corporation.
- (43) Pervin, Lawrence A. (1970) "Personality : Theory, Assessment and Research,, John Wiley & Sons, Inc.
- (44) Ross S.M. & Ross, L.E., (1971) "Comparison of Trace and delay classical eyelid conditioning as a function of interstimulus interval,, Journal of Experimental Psychology, 91, 165-167.
- (45) Seligman, M.E.P., (1975) "Helplessness: on depression' development, and death,, San Francisco : W.H. Freeman. In Mikulas, William, L. (1978) Behavior Modification, Harper and Row, Publishers,
- (46) Smith, Henry clay (1974) "Personality Development,, second Edition, McGraw - Hill Book Company,

- (47) Smith, S., & Guthrie, E.R. (1921) ' *General Psychology in terms of behavior*,., Appleton-Century in McLaughlin. Barry : *Learning and Social Behavior*, 1978, The Free Press.
- (48) Tarpy, Roger M. (1975) *Basic Principles of Learning*,., Scott, Foresman and company.
- (49) Turner, R.K., & Taylor, P.D., (1974) *Conditioning treatment of nocturnal enuresis in adults Preliminary findings*,., Behavior Research and Therapy, 12, 41-52.
- (50) Watson, J.B., & Rayner, R. (1920) "Conditioning emotional reaction", *Journal of Experimental Psychology*. S. in McLaughlin, Barry : *Learning and Social Behavior*, 1978, The Free Press, New York.
- (51) Watson, J., (1930) "Behaviorism", Chicago University Press.

يفترض البحث في الشخصية ، في صحتها ومرضها ، « أن معظم الناس (وفقاً للمتوسط كمفهوم إحصائي) تشكل على أساس التصميم الفطري للطبيعة ، وهو تصميم سوي بطبيعته »^(١) . فالسواء النفسي بذلك ينبغي أن يكون هو الصفة الغالبة المميزة لمعظم الأشخاص..

ومن ناحية أخرى ، يؤكد « ماسلو » على حقيقة الطبيعة الإنسانية ، وهي طبيعة سوية ومبدعة ؛ ويرى في ذلك « الخاصية الأساسية المميزة للطبيعة الإنسانية العامة - وهي إمكانية تعطى لكل الكائنات الإنسانية عند الميلاد »^(٢) . ومن ثم ، فإن الطبيعة الإنسانية - وفقاً لماسلو - لا تتميز بالسوية فحسب ، وإنما بالابتكارية أو الإبداعية كذلك .

لهذا ، قد نتوقع أن جُلّ البحث في الشخصية الإنسانية سوف يكون موجهاً إلى دراسة الشخصية السوية أكثر من دراسة الشخصية المرضية . ولكن الواقع مغاير للتوقع - فيبدو أن الإنسان قد استهواه البحث في مرض الشخصية أكثر من البحث في صحتها وسوائها لهذا طفق يرى في نفسه وجهه العابس والصورة القاتمة لبنائه النفسي أكثر من أن يدرك فيها وجهه الباسم والصورة المشرقة له ، وذلك هو الأعم والأهم .

الشخصية السوية

طلعت منمبور

١٠٢ (١) Royce, J.B. *Personality and mental health* (rev. ed.). Milwaukee : Bruce, 1964, p. 49.

(٢) Maslow, A.H. *Motivation and personality*. New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970), p. 223.

لقد صار معظم اهتمام العلوم السلوكية والممارسات الكليينكية في دراساتها لديناميات السلوك والشخصية ، موجها إلى الجوانب المرضية . وإذ ظلت هناك نقاط هامة كثيرة تتطلب مزيدا من البحث والدراسة ، فقد توفرت معلومات تجريبية كثيرة ونظريات قيمة تتعلق بمفاهيم الشخص المتحرف ، والمريض ، والقلق ، والعصابي ، والمضطرب ، والسلي التوافق . وعلى العكس من ذلك ، لا توجد الا معلومات قليلة ووضوح بصوري أقل عن طبيعة السواء النفسي Psychological Normality بل وهناك من يلعب حتى الى أنه لا يوجد ذلك الشيء الذي نسميه بالانسان السوي (٣) .

فلعل من الأسهل تناول ظاهرات الشخصية المرضية وقضايا علم النفس المرضى أكثر من تناول الشخصية السوية والصحة النفسية . فالسواء أو الصحة - مصطلح مركب غامض الى حد كبير ، بقدر ما يرتبط بالتصور النظري للطبيعة الانسانية ويتعدد نظريات الشخصية ، وبالأطر الثقافية المتباينة ، وبحالات المرض والشفاء وبدرجة هذه الحالات . والواقع أن الكثير من المعرفة السيكولوجية بالشخصية السوية مستوحى بشكل أو بآخر من البحث في الشخصية المرضية ، ومن نظريات العلاج النفسي ومن الخبرات والممارسات الكليينكية لعلماء النفس . كما لو أن للشخصية السوية ، بخصوصياتها ودينامياتها وشروط بنائها ، هي « عكس » الشخصية المرضية !

إن علم النفس مطالب بأن يكون أكثر توجهها نحو تناول الانسان السوي من منظور أكثر صحية ، تناول الانسان بكامل إنسانيته Fully Luman ؛ وبأن يكون أكثر توجهها نحو تتركز البحث في شروط ومقومات وديناميات وأشكال السواء النفسي وفي ضمانات تدعمه واستمراره ، وبأن يكون أكثر توجهها نحو بناء طرق للبحث تهدف الى الكشف عن الجوانب الايجابية ، البنائية ، الا بداعية في الشخصية ؛ وبأن يكون أكثر توجهها نحو تبني استراتيجيات تهدف الى تنمية الانسان - الشخصية .

فرغم الانجازات العظيمة لعلم النفس ، الا انه مطالب ، الآن وأكثر من اي وقت مضى ، بأن يكون أكثر سوية في بحثه للانسان السوي ؛ وبأن يقدم للعلم تحليلا علميا دقيقا لحقيقة الشخصية السوية ، يضاف الى ما أسداه ويسليه للانسانية من مقومات لحياة إنسانية أكثر استحقاقا وفعالية وإبداعية . هذا التوجه نحو البحث في السواء النفسي والشخصية السوية تملية عدة اعتبارات ، منها :

(3) Shoben, E.J. Toward a concept of the normal personality. *American Psychologist* 1957, 12, 183 - 189.

رغم أن التنظير والبحث في الشخصية السوية قد أفاد بالفعل من البحث في ديناميات الشخصية المرضية ، إلا أن فهمنا لسواء الشخصية لا يزال في معظمه مستمد من نتائج البحث في أمراض الشخصية .

رغم توفر بعض الكتابات والدراسات عن الشخصية السوية ، إلا أنها لا زالت في معظمها مجرد تصورات نظرية أو حتى فلسفية تتطلب تحقيقاً تجريبيًا .

رغم أن عدد الأشخاص الأصحاء نفسيًا أكثر من عدد مرضى الشخصية (على الأقل من الناحية الإحصائية وفقًا لقاعدة التوزيع الاعتيادي) ، إلا أن حجم البحوث في هذا الميدان قليل في مجملته .

رغم أن عدد الأشخاص الأصحاء نفسيًا لا يزال يفوق عدد مرضى الشخصية ، إلا أن البيانات والاحصاءات تشير إلى أن ثمة تناقصًا باديًا في معدل الأشخاص الأصحاء نفسيًا ، وتزايدًا في عدد الأشخاص الذين يعانون من أشكال اضطرابات الشخصية المختلفة .

ورغم أن عصرنا الحاضر ، وهو عصر الثورة العلمية التكنولوجية ، قد توفرت فيه منجزات حضارية فذة ، إلا أنها تحمل في طياتها أيضًا الكثير من الآلام والمتاعب النفسية ، والكثير من مقومات التدمير والتخريب ، وبالتالي الكثير من الشقاء الإنساني ؛ وهذا يستلزم بناءً للشخصية أقدر على مواجهة ضغوط هذا العصر ومتطلباته ، وأكثر استجابة لمقومات التقدم والارتقاء .



والدراسة الحالية تعرض بالتحليل العلمي للمفاهيم المختلفة للسواء النفسي في سياق أطر وتصورات نظرية متباينة ، ولظواهر وخصائص الشخصية السوية كما كشفت عنها النظريات والأبحاث الرئيسية التي توفرت في هذا الميدان أو يمكن أن تفيده . ومن هذا « التحليل » المتعمق نحاول استخلاص « تركيب » لنموذج الشخصية السوية من حيث تمايزها وفردتها .
ومن المفيد في مدخل هذه الدراسة أيضًا أن نقدم لها بالتعريف بطبيعة الشخصية الإنسانية .

فالشخصية ، كما يحددها قاموس علم النفس ، هي تنظيم متكامل ودينامي للخصائص الجسمية (مثل وظائف الجهاز العصبي المركزي وخصائصه المورفولوجية ، ووظائف الحواس والغدد وغيرها) ، والخصائص العقلية المعرفية (كالقدرات العقلية ، والوظائف العقلية العليا من إحساس

واذراك وتفكير وذاكرة وتحليل (....) ، والخصائص المعنوية (كالقيم والمثل ...) ، والخصائص الانفعالية الاجتماعية (كنوع الانفعالات السائدة ، والاتجاهات الاجتماعية ، ودور الفرد في الجماعة ومركزه فيها) - هذا التنظيم يتضح في تفاعل الفرد مع الاشخاص الآخرين وفي الحياة الاجتماعية المبينة على الأخذ والعطاء . والشخصية بتحليل أكبر تتضمن الحوافز الطبيعية والمكتسبة والمعادن والاهتمامات والميول والعواطف والمثل والأفكار والمعتقدات ، كما تتضح في علاقة الفرد مع وسطه الاجتماعي^(٤) .

وإذا استعرضنا معظم المفاهيم الرئيسية للشخصية، نجد أنها تتفق بشكل أو بآخر مع هذا التعريف^(٥) :
يكشف « جوزيف نوتان » ، رئيس المنظمة الدولية لعلم النفس عن الفترة ما بين المؤتمر الدولي العشرين (طوكيو ١٩٧٢) والمؤتمر الدولي الحادي والعشرين لعلم النفس (باريس ١٩٧٦) ، عن طبيعة الشخصية الإنسانية وما تنطوي عليه من إمكانات البناء والضرورة :^(٦) .

يفهم علماء النفس كقاعدة ، الشخصية على أنها تنظيم داخلي للسمات والاتجاهات والاستعدادات والاتساقات السلوكية . حقيقة ، الشخصية هي ذلك التنظيم الداخلي ، ولكن الخاصية الأساسية المميزة للشخصية ، أكثر من أية خاصية أخرى ، تختفي في ذلك المفهوم - الشخصية أساساً بنية تتجاوز تنظيمها الداخلي . فابرز معالمها المميزة تتمثل في تلك الحقيقة بأن النظرة الى العالم والتعرض له والانضواء فيه ، تكون متضمنة في تكوينها . الشخصية طريقة للوجود والسلوك **Way of being and behaving** في عالم يوجد بالنسبة للذات . فالنظرة الى العالم أو الموقف الحيائي مكون ضروري للشخصية ذاتها . بهذا المعنى تكون البنية الأساسية للشخصية هي « وحدة الأنا - العالم » . وفي الحقيقة ، أن الشخصية تتألف من أنماط مختلفة من علاقات الأنا - العالم ، تلك العلاقات اللازمة بالفعل لتوظيف الشخصية **Personality Functioning** ، ليس على مستوى التفاعل البيو - كيميائي بين الكائن الحي - البيئة فحسب ، ولكن أيضاً على مستوى العلاقات المعرفية والوجدانية بين الأنا - العالم^(٧) .

(٤) Dreyer, J. Dictionary of psychology. Penguin books, 1973.

(٥) Nuttin, J. Consciousness, behavior, and personality. Psychol. Rev. 1955, 62, 349-355.

(٦) Ibid.

٥ : يمكن الرجوع الى ذلك الى بعض المصادر العربية مثل :

١- محمد صادق الدين لسانيل : الشخصية والعلاج النفسي . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .

٢- سيد فحيم : ميكولوجية الشخصية . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ .

٣- محمد عبد الرحمن : السلوك الانساني . الكويت : مكتبة الفلاح ، ١٩٧١ .

٤- هول ، د . لشاري ، ج . نظريات الشخصية . ترجمة : فرج أحمد وانسين . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١ .

تحدد طبيعة الشخصية على هذا النحو ينطوي على مفهوم آخر لجانب أساسي من جوانب الشخصية ، وهو الوعي ، الذي يضيء كافة أركانها ، ويرشد سلوكها ، ويستلهم انطلاقتها وتساميها . والوعي لا يشير أساسا ، خلافا للنظرة الاستبطانية ، الى عالم داخلي يتكون من تمثيلات ومعاني ، فالوعي هو الحضور الفوري للعالم ذاته ؛ هو التعرض الى العالم السلوكي الحقيقي . والانفتاح عليه ، وليس انحصارا في عالم داخلي من التمثيل **Representation** . والوعي « التأمل » يكون الانسان حاضرا بالنسبة لنفسه . ويؤدي حضور الانسان بالنسبة لنفسه الى تمكينه من النظر الى نفسه وإلى العالم من زوايا مختلفة ، وإلى أن يعمل على إعادة تشكيل شخصيته ذاتها . هذا الحضور يمكنه من التدخل ، بقصد ، في مسار نموه لكي يعيد بناء علاقاته مع البيئة . تلك هي الوظائف « العليا » للوعي التي تحور الشخصية من الانفلاقية . وتلك هي الامكانية الانسانية التي تعتبر أساس تلك الاشكال الراقية من السلوك كالمعلم والجهود القصدية الرامية الى تحسين الذات (٧) .



مفاهيم الشخصية السوية

من المشكلات الرئيسية في ميادين دراسة الشخصية والصحة النفسية وعلم النفس المرضي تلك الصعوبة الكبيرة التي تكتنف مفهوم « السوية **Normality** » ؛ وهي مشكلة قد آلت بدورها الى صعوبات بالغة بالنسبة للبحث العلمي في هذه الميادين . (٨)

تعني كلمة **norm** معيار قاعدي **authoritative standard** ، وبالتالي تعني كلمة (سوية **normal**) الالتزام بهذا المعيار . وتكون الشخصية السوية بذلك هي الشخصية التي يساير سلوكها ذلك المعيار القاعدي والشخصية غير السوية هي التي لا يتفق سلوكها مع ذلك المعيار . والواقع ان محاولات تحديد هذا المعيار قد آلت الى انواع مختلفة من المعايير التي يجري استخدامها في تعيين مفهوم الشخصية السوية وتمييزها عن الشخصية غير السوية ، كما يتضح من العرض التالي :

المعيار الاحصائي :

يشير مفهوم السوية الى تلك القاعدة الاحصائية المعروفة بالتوزيع الاعتدالي **normal distribution** التي تقوم على التوزيع ذي الحدين **binominal distribution** التي تقوم على التوزيع ذي الحدين

(٧) Ibid.

(٨) Scott, W.A. Research definitions of mental health and mental illness. Psychol. Bull. 1958, 55, 29-45.

شكل المنحنى الجرسى . هذا المنحنى طرفاه متناسقان بحيث لو قسمناه عند المنتصف بخط رأسي فانا نحصل على نصفين متكافئين غالباً . وعلى هذا المنحنى يقع حوالي ٦٨٪ من عدد الأفراد في المستوى المتوسط من السمة التي نقيسها ، في حين يتضمن طرفا المنحنى (الطرف الموجب والطرف السالب) ١٦٪ من التوزيع في كل طرف من الطرفين . والسوية هي المتوسط العام لمجموعة الخصائص والأشخاص ، في حين يشير الانحراف على طرفي المنحنى إلى اللاسوية أو غير العادية . وتعني اللاسوية بذلك انحراف سلوك الفرد عن الآخرين أو عن الأنماط السلوكية العادية . والشخص غير العادي أو اللاسوي هو الذي ينحرف عن المتوسط العام لتوزيع الأشخاص أو السمات أو السلوك .

هذه المظاهر اللاسوية ، من منظور المرغوبة الاجتماعية *social desirability* قد يأخذ بعضها طابعاً إيجابياً - مثل الذكاء المرتفع والعبقرية والابتكار والخلق الطيب - وهو ما يعرف بـ « اللاسويات الإيجابية » *positive abnormalities* ، في حين أن المظاهر اللاسوية الأخرى قد تكون ذات طبيعة سلبية كالأزمات العصبية (النفسية) والأمراض الذهانية (العقلية) والاضطرابات السلوكية والتخلف العقلي واضطرابات الخلق وغير ذلك مما يعرف بـ « اللاسويات السلبية » *negative abnormalities* (٩) .

قياساً على هذا المعيار الكمي الاحصائي ، يمكننا أن نطرح السؤال التالي : هل يمكن تحديد عدد الأشخاص ذوي الشخصيات السوية ؟ والواقع أن تحديد عدد الأشخاص ذوي الشخصيات السوية أصعب كثيراً من تحديد عدد الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات أو أمراض الشخصية . يعزى ذلك إلى سببين رئيسيين :

السبب الأول ، هو عدم وجود سجلات للأشخاص الأصحاء نفسياً ، في حين أن سجلات الأشخاص ذوي الشخصيات المرضية متيسرة في المؤسسات والمصحات والعيادات النفسية ، وفي المدارس والكلليات ، وفي التقارير المهنية . ورغم ما يشوب هذه السجلات من نقص ، إلا أنها تعطي فكرة إلى حد كبير عن النسبة المثوبة للنوي الشخصيات المرضية باختلاف درجات انحرافها .

أما السبب الثاني ، فهو الغموض الذي يكتنف محكات الشخصية السوية . فالبعض قد يعتبر الشخص الذي لا يكون مزعجاً والذي يتوافق مع الآخرين ومع مواقف الحياة عامة شخصاً سويًا . ولكن هذه المحطات تتحقق في أن تضع في الاعتبار ذلك المطلب الرئيسي بأن التوافق عند الشخص

(٩) Szasz, T. *The Myth of mental illness*. New York : Harper & Row Pub., 1961.

ينبغي أن يكون مصحوباً بالرضا عنه ويتوافق مع نفسه . ويعتبر آخرون أن مصطلحات مثل « صحي » و « سوي » و « مثالي » و « خاصية المتوسط » على أنها مترادفات ، وأن « السواء » و « الصحة » تعني غياب أي شكل من أشكال المرض أو أي درجة من درجاته . ولكن ، من المشكوك فيه ، كما هو الحال بالنسبة للصحة الجسمية ، أن نجد شخصاً خالياً من درجة ما من الاضطراب النفسي (١٠) .

المعيار القيمي

من الصعب تحديد مفهوم السوية بمعزل عن النظام القيمي . هذا المعيار القيمي أو الأخلاقي قد يتعارض في بعض الأحيان مع تصورات بعض علماء النفس والطب النفسي الذين يسعون إلى التوصل إلى تعريفات لا تولي أهمية كبيرة للمعايير القيمية والأخلاقية .

فمن المنظور القيمي أو الأخلاقي ، يستخدم مفهوم « السوية » لوصف مدى اتفاق سلوكنا مع المعايير الأخلاقية في المجتمع وقواعد السلوك السائدة فيه ، وكيف يكون سلوكنا مقبولاً بالنسبة لأنفسنا وللآخرين . وعلى هذا النحو ينظر إلى السوية على أنها « مسايرة » أو « اتساق » أو « أخلاقية » (١١) .

تعني السوية كمسايرة conformity موافقة السلوك للأساليب أو المعاني التي تحدد التصرف أو المسلك السليم في المجتمع . ويعتبر الأسلوب الاتفاقي مقبولاً لذاته ، لأن الممارسات العامة لمعظم الناس في مجتمع من المجتمعات هي الأساس السليم لتحديد معايير السلوك لدى الفرد بصفة عامة .

ويشير مفهوم السوية كاتساق consistency إلى معايير التقبيلية - acceptability standards للقيم من وجهة نظر الفرد ذاته ، فالشخص السوي هو الذي يتسق سلوكه مع المعايير القيمية . بهذا المعنى يعتبر السلوك سويًا إذا كان يقابل محكات ثلاث :

(١) التبصيرة intelligibility أي ندرك بأننا نفهم طبيعة سلوكنا والدوافع الكامنة وراءه .

- (10) Mc Cammon, R.W. The concept of normality. *Ann. N.Y. Acad. Sci.* 1966, 134, 559-562.
Simonson, E. The concept and definition of normality. *Ann. N.Y. Acad. Sci.* 1966, 134, 541-558.
- (11) London, p. & Rosenhan, D. The meaning of abnormality. In "Foundations of Abnormal psychology, N.Y." 1968.

- (٢) التنبؤية *predictability* أن ندرك بأن سلوكنا يمكن التنبؤ به على أساس ما نعرفه عن ذواتنا .
- (٣) الضبط *control* أي الوعي بأن سلوكنا يخضع لرغباتنا ومقاصدنا لكي نأتي بسلوك ما أولكي نمتنع بارادة عن فعل سلوكي معين .

أما النظر الى السوية كاخلاقية *morality*، أي في ضوء مبادئ أخلاقية أو قواعد سلوكية تقرها ثقافة المجتمع ، فيتحدد بمعايير التقبلية التي لا ترتبط بالممارسات العامة ولا بتوقعات الفرد بالنسبة لذاته ، وإنما يتحدد أساسا بالمعايير المعنوية أو المثالية التي يعتقد بأنها تميز كل تفكير سليم ، وكل مشاعر طيبة ، وكل عمل جيد . وينطلق هذا التصور ، على سبيل المثال ، من عدة مبادئ مفادها أن الناس « ينبغي » أن يسلكوا على نحو ما ، وأن يراعوا ما تفرضه قيم المجتمع من أوامر ونواه وقواعد للسلوك . فمن السواء أن تحب وأن تعمل وأن تؤمن بالله عز وجل ، وأن لا تكون منسحبا أو خجولا أو متهورا أو عدوانيا أو حاقدا . . . الخ .

النظام القيمي لتحديد مفهوم السوية يقوم اذن على جوانب ثلاث : التوجه الاجتماعي *socially oriented*، والتوجه الذاتي *self - oriented*، والتوجه المعنوي المستمثل *idealized moral oriented* للشخصية الانسانية .

والواقع ، أنه بصرف النظر عن المفهوم الذي يتبناه عالم الشخصية للسوية ، فإن هذا المفهوم يؤول غالبا الى حكم مستمد من نظام قيمي معين . وقد يعتقد الاختصاصي الكلينيكي أن القيم لا تدخل في علاقاته العلاجية مع المرضى ، ومع ذلك ، لا يستطيع الاختصاصي الكلينيكي أن يقوم بالعلاج دون ان يتبنى لنفسه ، بطريقة صريحة او ضمنية ، نظاما ما من القيم ^(١٢) . بل ان مجرد قول المعالج للمريض عبارة مثل ، « سوف لا أخبرك بما تفعله ولكن سوف أساعدك على اختيار البدائل حتى تستطيع أنت ان تتخذ قراراتك » ، لا يعتبر وسيلة لاستبعاد القيم من العلاقة العلاجية .

مفهوم السوية بين المعيارين الاحصائي والاخلاقي ؟

لقد آل تحديد مفهوم الشخصية السوية على أساس معيارية السلوك التي تبني تصورين مختلفين -

(12) Glad, D.D. *Operational values in psychotherapy*. New York : Oxford University Press, 1959.

أحدهما إحصائي والآخر قيمى أخلاقي ، الأول يركز على المتوسط أو المألوف أو الاعتيادي ، والثاني على المرغوب أو على القيمة .

والواقع أن هذين المعيارين ليسا مختلفين فحسب ، ولكنها كثيرا ما يتعارضان مع بعضهما تعارضا شديدا . فعل سبيل المثال ، من المألوف أو الاعتيادي بالنسبة للناس ان يميلوا في طبيعتهم بعض النزعات السلبية أو الهدامة - مثل بعض أمراض الجسم ، وبعض دلائل العصبية ، وبعض العادات السلوكية المحبطة للذات ؛ ولكن هذه النزعات رغم أنها عادية أو مألوفة أو في معدل المتوسط إلا أنها غير صحية . فما هو مألوف أو اعتيادي قد لا يكون هو المرغوب ؛ وما يكون سويا في ناحية قد لا يكون سويا من ناحية أخرى . ولا شك أنه لا يوجد نظام أخلاقي في العالم المتمدنين يتمسك بفكرة الانسان العادي *average man* كنموذج مثالي للتنشئة الاجتماعية للأطفال . فليس « الحقائق الواقعية » للطبيعة الانسانية وإنما بالأحرى « إمكاناتها » هي التي تزودنا على نحو ما بمعيار للشخصية السليمة أو الصحية .

ان هذا المعنى المزدوج لمفهوم السوية لم يكن يمثل مشكلة بالنسبة لعلم النفس في مطلع هذا القرن ، مقارنة بما ينطوي عليه اليوم من صعوبات بالغة . لقد كان الاهتمام الأساسي لعلم النفس في تلك الفترة هو اكتشاف المعايير العادية *average norms* لكل وظيفة من الوظائف العقلية . وغدت مفاهيم إحصائية مثل المتوسط والمتوال والأمن تحتل مكانة كبيرة ، وصار لعلم النفس الفارقي مركز الصدارة . ولذا لقيت فكرة منحى التوزيع الاعتدالي من علماء النفس قبولا ؛ فاعتبروها مقياسا معقولا للسوية . وفي ذلك أيضا شهدت هذه الفترة تقريبا ، وخاصة في العشرينات من القرن الحالي ، نمو فكرة « التوافق النفسي » وقوامه السلوك العادي أو المألوف . ولكن الموقف الآن قد تغير - فاهتمام معظم علماء النفس موجه الى تحسين السلوك الانساني العادي ، لأنه من المشكوك فيه كثيرا بقاء الانسان العادي أو المتوسط *mediocre man* . فكلما انتشر « الأنومي » الاجتماعي *social anomie* (انعدام المعايير الاجتماعية) ، وكلما أصبح المجتمع ذاته أكثر مرضية ، فانتنا نشك في أن الانسان العادي أو المتوسط سوف يهرب من المرض العقلي والجنوح ، أو سوف يقي نفسه من بطش المستبدين والدكتاتوريين . وكما نرى ، لا يقدم لنا منحى التوزيع الاعتدالي أي أمل للخلاص من هذا الموقف . فنحن بحاجة الى مواطنين أسوياء وأصحاء بمعنى أكثر ايجابية . والعالم بحاجة الآن الى مثل هؤلاء المواطنين .

ولهذا السبب يسعى علماء النفس الى البحث عن تعريف جديد للسواء واللاسواء ، وعن محركات جديدة تتجاوز المجال التقليدي لفلسفة الاخلاق . ويدرك علماء النفس أيضا ان الفلاسفة قد أخفقوا

في إقرار معايير قاعدية لما يؤلف الحياة السليمة - وهي تلك الحياة التي ينبغي أن يسعى المربون والآباء والمعالجون إلى تشكيلها . لذلك يحاول علماء النفس أن يدفعوا البحث في هذا المجال بطريقة جديدة ، وأن يتجنبوا - إذا استطاعوا - المزالق التقليدية لعلم القيم .

المعيار الطبيعي :

ثمة محاولات لاستنتاج مفهوم السوية (بالمعنى القيمي) من حقيقة الانسان (بالمعنى الطبيعي) . والمهدف من هذه النظرة الطبيعية هو استنباط مفهوم للسوية *naturalistic derivation* من البحث عن القواعد الاخلاقية استخلاصا من البيولوجيا وعلم النفس ، وليس من نظرية القيم مباشرة . هذه النظرة تسعى بشجاعة الى البحث عن « اليقنيات » *the oughts* (وهي المهدف الذي ينبغي ان يتوجه المعلمون والمرشدون والمعالجون الى تحقيقه) من « ماهية » *the is* الطبيعة الانسانية . تتمثل هذه النظرة في تصورات عالم النفس الامريكي « شويان » وعالم الاجتماع الانجليزي « هالموس » .

يتساءل « شويان » ما هي الفروق النفسية الرئيسية بين الانسان والحيوانات الدنيا ؟^(١٣) يجدهد شويان خاصيتين إنسانيتين متميزتين . وهو وإن كان لا يزعم بأن إجابته كاملة في هذا التحديد ، إلا أنه يأتي بافتراض زائد في سيكولوجيته *extra psychological assumption* موداه أن الانسان ينبغي أن يصل بخصائصه التي يتفرد بها كإنسان الى المستوى الاقصى .

الخاصية الاولى ، هي مقدرة الانسان الفريدة على استخدام اللغة الرمزية *propositional language* (المقدرة على الترميز *symbolization*) بهذه الامكانيات التي يتفوق بها الانسان على الحيوان ، يستخلص شويان عدة مؤشرات نوعية للسوية . فبفضل اللغة الرمزية ، يستطيع الانسان ، على سبيل المثال ، أن يرجيء حاجاته وإشبعاته ، وأن يحتفظ في عقله بهدف بعيد ، وباتابة مرجأة ، ويهدف قد يحققه فقط في نهاية حياته او ربما لن يصل اليه على الاطلاق . وبفضل اللغة الرمزية ، يستطيع أن يتخيل مستقبلا لنفسه أفضل كثيرا من حياته الحاضرة . وهو يستطيع بذلك أيضا أن يكون نظاما متينا من المفاهيم الاجتماعية يساعده على اقامة كل العلاقات الممكنة مع الآخرين ،

(13) Shoben, E.J. Towards a concept of the normal personality. *Amer. Psychologist*? 1957,12,183-189.

تتفوق كلية مع الطقوس الجامدة للتعايش rigid symbiotic rituals التي تعرف بها مثلاً بعض الحشرات الاجتماعية .

إن المقدرة الرمزية للإنسان هي التي تجعله هكذا المخلوق الوحيد الذي يستطيع « النظر إلى الأشياء في حضورها وغايتها ، والتطلع إلى ما هو مستحيل » . فالكلام الرمزي يمكنه من التعلم ليس من خبرته الشخصية فحسب ، ولكن أيضاً من خبرات الآخرين في أوقات وأماكن أخرى ، ومن التنبؤ بنتائج سلوكه ، ومن أن تكون له مثله وقيمه . هذه الامكانيات الرمزية الثلاث («أ» الاستعداد للافتادة من الخبرة - بما فيها خبرة الآخرين - عبر الزمن ، «ب» المقدرة على التبصر ويعد النظر وعلى الضبط السلوكي الناتج من الداخل من خلال توقع نتائجه ، «ج» المقدرة على تخيل عوالم أخرى يقرها إلى قلبه) تؤلف المجموعة الرئيسية للامكانيات الانسانية المتميزة .

أما الخاصية الثانية التي يتميز بها الإنسان ، فهي طول فترة الطفولة عند النوع الانساني بسبب عدم اكتمال البيولوجي النسي عند الطفل ، وهي فترة قد تطول أكثر كلما أصبحت الثقافة أكبر تعقيداً . هذه الخاصية تمهد شرطين أساسيين للحياة الانسانية : الشرط الأول هو أن بقاء الفرد واشباع حاجاته وشعوره بالرضا يتطلب حماية الاعتماد على الآخرين . أما الشرط الثاني فهو مسؤولية الكبار وتعاطفهم وغيرتهم التي تعتبر شرطاً ضرورياً لبقاء الانساني . ويقوم المجتمع الانساني على علاقة تبادلية بين الاعتماد والمسؤولية ؛ هذا الاعتماد المتبادل يعطي للحياة الانسانية خاصية اجتماعية لا نجدها في المملكة الحيوانية .

من هذين النمطين للامكانيات الانسانية الفريدة (المقدرة الرمزية ، والطبيعة الاجتماعية للحياة الانسانية) ، يستخلص « شويان » تصوره للمسوية على أساس نموذج معياري - Normative model el أو نموذج مثالي Ideal model للشخص السوي أو للشخص النامي على نحو إيجابي أو للشخص المتوافق على نحو تكاملي . يطلق شويان على تصوره « نموذج التوافق التكاملي » (model of in- tegrative adjustment) : فالشخص السوي يتسم بالاحساس بالمسؤولية الشخصية لأن المسؤولية مقدرة مميزة نابعة من الاحتفاظ في عقله بصورة رمزية عن المستقبل ، ومن ارجاء اشتباهاه ومن قدرته على السعي والكفاح وفقاً لتصوراته عن أفضل مبادئ وسلوك بالنسبة لنفسه . كذلك تعتبر المسؤولية الاجتماعية من المعالم المميزة للشخص السوي ، فكل هذه المقدرات الرمزية يمكن أن : تتفاعل مع ذلك العامل الفريد وهو الثقة أو الغيرة ، ويرتبط بذلك مع الاهتمام الاجتماعي الديمقراطي . وفقاً لهذا التحليل الطبيعي أيضاً ، يعتبر اكتساب المثل

والمقدرة على ضبط الذات من معالم الشخصية السوية . ويشير شويان بحق الى أن الاحساس بالذنب هو نتيجة حتمية لاختلاق الانسان في أن يعيش وفقاً للنموذج الانساني المتميز ، ومن ثم ينبغي أن يتضمن مفهومنا للسوية كذلك معايير الاحساس بالذنب وأساليب التكفير عنه بطريقة بناءة .

ذلك هو تصور « شويان » للشخصية السوية . وهو ان كان يلقي تقديراً بالغاً من علماء النفس ، إلا أنه قد يقابل باعتراض من وجهة النظر الفلسفية : فاننا لا نستطيع أن نستخلص « ما ينبغي أن يكون عليه الانسان » من « ماهية » الطبيعة الانسانية . فما هو انساني بشكل متميز ليس بالضرورة أن يكون طيباً وخيراً .

أما المحاولة الثانية للوصول الى معيار طبيعي للسوية ، فتتمثل في كتاب بول هالموس « نحو مقياس للانسان » ، حيث يبدأ تصوره بطرح السؤال التالي « ما هو الحد الأدنى للشروط اللازمة للبقاء »^(١٤) ؟ يقرر « هالموس » ان ما يكون دون مستوى الحد الأدنى ، فإنه يقع في نطاق اللاسوية ويؤدي الى الموت والدمار . ويطلق على ذلك عكس اللاسواء أو الشلوذ *abnorm* ، ويعتقد أن بإمكاننا تحديده ، حتى وإن كنا لا نستطيع تحديد السوية ، لأن الناس بصفة عامة تتفق على ما هو سيء بالنسبة للانسان أكثر مما تتفق على ما هو حسن وخير بالنسبة له .

يحدد « هالموس » الحاجة الى البقاء بحاجتين رئيسيتين : الحاجة الى النمو *Need for growth* والحاجة الى الترابط الاجتماعي *Need for social cohesion* يعني النمو الاستقلالي وعملية التفرد ، أما الترابط فهو الحقيقة الاسامية للاعتماد الاجتماعي المتبادل الذي يتضمن ، على الأقل بالنسبة للانسان ، الثقة والتبعية والزواج وتأسيس أسرة .

ويذهب « هالموس » الى أننا ربما نستطيع تحديد « اللاسواء » أو « الشلوذ » ، وذلك عن طريق اعداد قائمة بالشروط أو الظروف المعطلة للنمو والترابط . في مقدمة هذه الشروط الاضطرابات المتعلقة بتربيت الطفل . ويقول إن « الاعاقة المستمرة » أو المتكررة للتقارب الفيزيقي بين الأم والطفل ، أو « النبل الانفعالي » للطفل بواسطة الأم تمثل شروطاً تؤدي بقاء الفرد والجماعة . هذا المحك الأولي لللاسوية يكمن وراء « الخيلولة دون تحول الترابط الى حب » . ومعظم ما هو غير سوي يتبعه ويرجع الى الاختفاق في مبدأ الترابط ، لأن الطفل يصير لوحدها وكثير الطالب وقسراً بشكل زائد . ويتفق ذلك مع دراسات وكتابات « بولي » و « ايريكسون » و « ماسلو » .

(14) Halmos, P. Towards a measure of man : The frontiers of normal adjustment. London : Routledge & Kegan Paul, 1957.

ويقبل « هالموس » تضمين قائمته الخاصة بـ « اللاسواء » زميلات الأعراض التي يقرها الأطباء النفسيون . فمن اللاسواء ، مثلا ، إذا كان السلوك يتكرر بصرف النظر عن الموقف ولا يتعدل بواسطة ما يترتب عليه من نتائج ، وإذا كانت الانجازات التي يحققها الفرد أقل باستمرار من إمكاناته ، وكذلك إذا كانت الاحباطات النفسية الجنسية تعوق كل النمو والترابط .

ومما تجدر ملاحظته ان الوظائف الرئيسية للنمو والترابط كما قررها هالموس قد أكدت عليها الكثير من الكتابات السيكولوجية .

بعد « بيرجسون » و « يونج » و « آنجوال » من بين المفكرين الذين يوافقون على أن « السوية » تتطلب توازنا بين الفردية والجماعية ، بين الاستقلالية والتبعية . وقد لقيت هذه المفاهيم تأييدا لدى كثير من العلماء . يقول « ويرنر وولف » (١٥) :

« حينما يوجد شخص نفسه بدرجة مفرط مع جماعة ، فالنتيجة أنه يفقد قيمته ، ومن الناحية الأخرى ، يترتب على العجز الكلي للفرد في التوحد أن البيئة تفقد قيمتها بالنسبة له ، في كلتا هاتين الحالتين المتطرفتين ، تختل العلاقة الدينامية بين الفرد والبيئة . فالشخص الذي يسلك على هذا النحو هو ما يسمى بـ « العصاة » . أما في الجماعة السوية فيحتفظ كل عضو بفرديته ولكنه يتقبل دوره كمشارك في الجماعة كذلك . »

والواقع ، أنه بينما يوجد اتفاق كبير على أن الشخصية السوية ينبغي ان تستقر على توازن بناء بين النمو كفرد والترابط مع المجتمع ، الا أننا لا نملك بعد معكنا واضحا ، به نحدد متى تكون هذه العوامل في توازن بناء ومعنى لا تكون كذلك ، وكيف نحدد التوازن الأمثل بين الترابط والنمو داخل الشخصية الواحدة ؟

المعيار الثقافي :

الشخصية الانسانية هي بدرجة كبيرة انعكاس للواقع الثقافي الذي يعيشه الفرد . فالمجتمع وثقافته ، بما يخلقانه من أشكال التفاعل الانساني وما يسرانه من ظروف لنمو الشخصية وتشكلها ، يمثلان محددات رئيسية لبناء الشخصية .

(15) Wolf, W. The threshold of the abnormal. New York : Hermitage House, 1950, pp.131F.

فالإنسان (الشخصية) كائن حي ، اجتماعي وتاريخي ، يشق الكثير من حياته من التركيبات الاجتماعية والتاريخية ، وهو كائن محكوم ببعدي الزمان والمكان ، يكون أسلوب حياته انعكاسا لثقافة عصره .

وعادة ما ينطوي مفهوم الشخصية السوية على بيئة صحية خالية الى حد كبير من عوامل الضغط والشدة . مثل هذه البيئة تيسر مقومات النمو السوى وتقلل من عوامل التأزم والاضطراب النفسيين . ويؤدي الجور الاجتماعي الذي تغلب عليه عوامل الضغط والتوتر الزائدين الى تثبيط واهدار جهود الافراد في التمكن من أنفسهم وفي السيطرة على بيئاتهم . فمثلا ، لاحظ علماء عديدون أن التباين بين مستوى الطموح وفرض تحقيق المطامح في بعض الجماعات يعتبر مصدرا للضغط والتوتر النفسيين (١٦) . وهم يقررون أنه اذا اتسم أسلوب حياة الجماعة (وهو الثقافة) بعوامل الصراع والتنافس والفردية وقلة الفرص المتاحة لكي يحقق الافراد ذواتهم ، انما تكثر فيه ردود الأفعال المرضية ومظاهر النشاط المضاد للمجتمع (١٧) . لذا ، فان تحديد مفهوم الشخصية السوية لا ينفصل عن الاطار الثقافي وعما يستحسنته ويثبته من أنماط السلوك وعما يقره من قواعد ومعايير للسلوك والعلاقات .

فوفقا للمعيار او المفهوم الثقافي للشخصية السوية ، حكمنا على السلوك في اطار الجماعة المرجعية للفرد . هذا المفهوم الثقافي أقرب الى المفهوم الاحصائي ، فيها عدا أن المعايير الثقافية للحكم على السوية تكون كثيرة ومتعددة وفقا لكثرة وتعدد الثقافات .

ولعل من الصواب ، لذلك ، أن نتناول الشخصية السوية كمفهوم ثقافي على أساس معايير النسبة الثقافية Cultural relativism_ فما هو سوى في جماعة قد يعتبر شاذا أو مرضيا في جماعة أخرى . ويعني ذلك أن الحكم على السوية لا يمكن التوصل اليه الا بعد دراسة ثقافة الفرد وتحليلها الى الثقافات الفرعية المختلفة .

هذا المفهوم الثقافي للسوية ينطوي على مبالغة زائدة في الاخذ بمعايير « المسيرة » : فالاشخاص المسايرون للجماعة ولأسلوب حياتها هم الاسوياء ، في حين أن غير المسايرين هم غالبا من غير

(16) Parker, S. & Kleiner, R. Mental illness in the urban negro community. New York, 1966.

(17) Horney, K. The neurotic personality of our time. New York, 1939.

الاسوية . ورغم ما للمسايرة من أهمية في عملية التوافق ، إلا أنها قد تفتح المجال أمام الانتهازية وإيثار المصالح الذاتية وعدم تبلور الهوية والتقبل غير الناقد لأوضاع غير سليمة ، وقد تغلق الباب في وجه البعض من غير المسارين الذين يجتهدون ببصيرة في سبيل بناء المجتمع وتطوره وقد يعانون في سبيل ذلك ، ناهيك عن أن المسايرة الزائدة هي بذاتها سلوك مرضي .

المعيار الذاتي (الظاهري) :

وهو السوية كما يدركها الشخص ذاته في نفسه . فيصرف النظر عن المسايرة أو التوافق اللذين قد يندبها الشخص على أساس المعايير السابقة ، فالمحك الهام هو ما يشعر به الشخص وكيف يرى في نفسه الاتزان أو السعادة . أي أن السوية هنا إحساس داخلي ، خبرة ذاتية . فإذا كان الشخص يشعر بالقلق أو التماسه ، فإنه يعد وفقا لهذا المعيار الذاتي غير سوى .

ورغم ما لهذا المعيار الظاهري (الفينو مينو لوجي) من أهمية في اختبار السوية ذاتيا *experiencing* ، إلا أن علماء النفس والطب النفسي يقررون أن بعضا من المرضى النفسيين والعقليين يعطون تقارير ذاتية وانطباعات شخصية عن هدوئهم وإحساسهم بالسعادة . بالإضافة إلى ذلك ، كثيرا ما يغير معظمنا حالات من الضيق أو القلق .

ولاشك أن مجرد الخلو من الضيق أو القلق ليس هو محك السوية . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فما هو مقدار الضيق الذي يمكن أن نسمح به لأنفسنا من منظور السوية ، ولأي فترة من الوقت ؟ وغني عن القول ، أن الحياة والوجود تتضمنان وبالضرورة بعضا من الاحباط أو الضيق أو التوتر . ومن الصعب ، بأي معدل أو معيار ، أن نتخيل مجتمعا لا يتخلق قدرا معينا من عدم السعادة ، فما بالنا بالمجتمعات المعاصرة وما تفرضه على الإنسان من مطالب وضغوط وتوترات .

المشكلة إذن ليست هي الصراعات والضغوط والتوترات من عدمها ، فهي مفروضة على الإنسان بحكم طبيعة العصر ، إنما المشكلة هي مقدرة الإنسان على «مواجهة» هذه الضغوط وتنمية هذه القدرة على المواجهة بما لا يخل بالتوازن النفسي للفرد .

المعيار الكلينيكي (١٨)

قد يتحدد مفهوم السوية أو الصحة في ضوء المعايير الكلينيكية لتشخيص الاعراض المرضية : فالسوية أو الصحة تتحددان على أساس غياب الاعراض والخلو من مظاهر المرض أما اللاسوية ،

(18) Affer, D. & Sabshin, J.J. *Norms of Theoretical and clinical concept of mental health*. New York : Basic Books, Inc., 1956.

فتتحدد بوجود اعراض المرض او الاضطراب . وإذا قبلنا هذا المعيار السليم للسوية او الصحة فإن بعض القضايا المتأنية للمقل تصير ممكنة مثل : فلان كان سليماً (خالياً من الاعراض) بالنسبة للقلب ، ولكنه توفي بالسرطان . ونفس الطريقة ليس من المنطقي ان نقول ان شخصاً قد استرد صحته النفسية (من الفصام مثلاً) ، ولكن يستمر بقلوه نزيراً في إحدى المصححات العقلية (بسبب الجنون الدوري : جنون الهوس والاكتئاب) . من الواضح بذلك اننا نستخدم مصطلح « الصحة » او « السوية » لنعني به الحلو العام من الاعراض ، اكثر مما يعني الحلو النوعي منها .

فالخلو العام من الاعراض مفهوم سليم للصحة او السوية ، كما انه مفهوم ضيق ومضلل : فمن الصعب غالباً ان تفصل هذا المفهوم عن التضمين الايجابي للسوية لأنه لا يكفي ان يخلو الشخص من الاعراض المرضية لنعتره سوية ، وانما ينبغي أيضاً ان تلقى اهدافه وطاقاته وخبراته توظيفاً فعالاً في مواقف الحياة المختلفة فيحقق ذاته على نحو بناء . لذا فإن المعيار الكلينيكي او السليم لا يجدد الصحة او السوية على نحو ايجابي وبقي معنى .

معيار النمو الامثل :

اذا تصور المعيار الكلينيكي وهو معيار طبي سليم الى تبني نظرة اكثر ايجابية في تحديد معيار الشخصية السوية . يستند هذا المعيار الى تحديد « منظمة الصحة العالمية » لمفهوم الصحة على انها « حالة من التمكن الكامل ، الجسمي والعقلي والاجتماعي وليس مجرد الخلو من المرض او العجز » .

وفقاً لهذا المعيار وهو معيار طبي ايجابي ، يتجاوز مفهوم الشخصية السوية ما هو ابعد من « المتوسط » او « العادي » . فهذا المعيار يؤكد على النمو الامثل optimal development اي على « تحقيق امكانيات الفرد » وعلى « تحقيق الذات » كمحركات للشخصية السوية .

ورغم ما ينطوي عليه مفهوم النمو الامثل من قيمة بالغة في تحديد مفهوم الشخصية السوية الا انه من الصعب ان نحدد اي نموذج من السمات او الانماط السلوكية يشكل النمو الامثل . فبايعتبره الناس مرغوباً وامثل يعكس ثقافة المجتمع كما يعكس المعتقدات والقيم الشخصية للفرد الذي يصدر احكامه بشأن المستوى الامثل من نمو الشخصية ، ومن ثم فإن مفهوم النمو الامثل مبدأ عام وليس محكيات يمكن تحديدها وقياسها بدقة .

المعيار النظري

ثمة اتجاه يعتمد الى اشتقاق معايير الشخصية السوية من اطار مرجعي نظري يستند الى تصور او -

نموذج خاص للانسان ، فنظرية التحليل النفسي على سبيل المثال تقدم اطارا مرجعيا تصوريا عاما لتقييم بناء الشخصية ونموها في عمليات متتابعة خلال مراحل نفسية جنسية (لبيدية) وعلى اساس نمو الانا والانا الاعلى ، ويذهب علماء التحليل النفسي الى ان الحل من الكبت دليل على التوافق ويستنفذ المحلل النفسي ساعات علاجية كثيرة مع مريضه لكي يجعل ما هو لا شعوري شعوريا ويدخله في بؤرة وعيه ، ولكن اذا طبقنا الاطار المرجعي للتحليل النفسي على مواقف كثيرة فقد يكون نقص التعلم وليس الكبت هو المسئول مثلا عن السلوك المضاد للمجتمع او عدم السعادة او الضيق والياس .

من ناحية اخرى قد يقوم الاطار المرجعي للشخصية السوية او التوافق السليم على نظرية التعلم الاجتماعي social learning theory (١٩) . ووفقا لذلك ، يعتبر الشخص متوافقا على نحو سليم اذا كان يعطي لاهدافه في الحياة قيمة عليا ولديه توقعات عالية بان انماط سلوكية معينة سوف تنجح في تحقيقها وسوف تلقى استحسانا وتدعيا اجتماعيين.

والواقع انه من المتعلم ان لم يكن من المستحيل ان فصل البحث في الشخصية وفي معايير سوائها وصحتها عن النظريات او النماذج او التصورات التي يتبناها علماء الشخصية ويطورونها ، ولكن المشكلة في تحديد معايير السوية والصحة النفسية تكمن في الاقتصار على اطار مرجعي نظري بعينه وفرضه بالقرص على كل جوانب الشخصية . فلا تستطيع نظرية سكيولوجية باطارها النظري وياهاها وطرقها في البحث ان تدعي لنفسها انها تمثل النموذج الوحيد الذي يحيط بكل شخصية ويكمل الشخصية

الشخصية السوية مفهوم متعدد المعايير :

« من الواضح ان موضوع الشخصية قد تناوله علماء عديدون يمثلون اكثر من اتجاه نظري واحد ، ويستخدمون أدوات مختلفة للبحث ، ولذلك فمن الصعب كثيرا ان نحدد اي نظرية في الشخصية اكثر فائدة من الاخرى ، فكل النظريات مفيدة ولكن لا توجد نظرية واحدة كافية ، ومن ثم فان افضل تناول للشخصية هو من وجهات نظر كثيرة رغم انها غالبا ما تكون متعارضة (٢٠) . ان تحديد معايير متعددة (احصائية ، قيمية ، طبيعية ، ثقافية ، فيثولوجية ، كينيكية ، نمائية ، نظرية) لمفهوم الشخصية السوية لا يعني ان كل معيار منها يناقض الآخر او يحبه ، كما لا يعني اننا نفاضل فيما بينها . يعزى هذا التعدد الى ان الشخصية ذاتها ، شأنها في ذلك شأن معظم وحدات الدراسة في علم

(19) Rotter, J.B. Social learning and clinical psychology. Englewood cliffs, N.J. : Prentice - Hall, Inc., 1954.

(20) Wiggins, J.S., et al. The psychology of personality. London : Addison-Wesley Pub. Co., 1971, p. 4.

النفس ، بنية معقدة ، وإن ما يجلد سوية الشخصية عوامل ومتغيرات عديدة متداخلة ، ولذلك فرغم تحديد هذه المعايير كمحركات منفردة إلا أن المتضمن فيها يجد أنها متداخلة فيما بينها ، بل ، ويعصب كثيرا أن تفصلها عن بعضها .

ومن هنا ، فإن تقييم الشخصية وفقا لمعيار بعينه من معايير السوية إنما هو اتجاه ينطوي على مخالفة لـ « طبيعة الأشياء » وعلى نظرة ضيقة مجتزأة لحقيقة الشخصية وللحكم على مدى سويتها . فالنظرة العلمية الى فهم الشخصية السوية تتطلب منا أن نضع في الاعتبار تكامل هذه المعايير التي يمثل كل منها منظورا نرى من خلاله الشخصية ونقيمها منه ، ومع ذلك فقد تملي طبيعة البحوث والدراسات في هذا الميدان والمنحى الذي تأخذه اهتماما بمعيار معين تبنياه أكثر من غيره من المعايير الأخرى .

عندئذ يبقى السؤال قائما : « ما هي الشخصية السوية ؟ » والواقع أن الاجابة المحددة على هذا السؤال تستلزم منا تناول الشخصية السوية في ضوء الصحة النفسية ومعاييرها ، وبالتالي يمكن التساؤل بشكل آخر : من هو الشخص ذو الصحة النفسية ؟ للاجابة على هذا السؤال الذي طرحناه بصيغتين مختلفتين نجد انه من الصعب كثيرا وضع حدود قاطعة بين الشخص السوي المتمتع بصحة نفسية سليمة والشخص غير السوي أو سيء الصحة النفسية ، فالسوية ليست مفهوما مطلقا وإنما هي بالأحرى مفهوم نسبي (٢١) .

فالشخص ذو الشخصية السوية أو ذو الصحة النفسية السليمة لا يخلو تماما من التوتر أو القلق أو مشاعر الذنب ولكنها لا تستحوذ عليه ولا تغمره ، فلا يكون مغلولاً بها ، فهو قادر على أن يكون حرا من سطوة قيودها وعلى مواجهتها بطريقة بناءة . وفي معظم الاحوال يستطيع حل مشكلاته دون ما اخلال بتركيبه الذاتي الداخلي .

أما الشخص غير السوي أو الشخص سيء الصحة النفسية ، فتملكه مشاعر الذنب في معظم الحالات ، وما يجتره من قلق ليس من النوع البناء ، وإنما هو من النوع الغامض والمعمم والمهدد لكل توازنه النفسي . وهو لا يرى طريقة واضحة لحل صراعاته ، وعادة ما يعجز عن تناول أزماته بطريقة ناجحة ، وعدم القدرة هذه تسلبه ثقته بنفسه واحترامه لذاته . وقد يتفأقم احساسه بالتهديد بحيث ينمو معه اضطراب في السلوك ، تتراوح درجته من الشكل البسيط الى الخطير والحاد . فالاختلاف بين

(21). Kloo, J.B. The absolute and the relative : Two aspects of dynamic experience. Darshana International, Moradabad (India), 1964, Vol. IV, Nos. 1 & 2.

الشخصية السوية والشخصية غير السوية ، او بين الشخص حسن الصحة النفسية والشخص سيء الصحة النفسية ، هو في حقيقته « اختلاف في الدرجة وليس في النوع »^(٢٢) .

يعني ذلك ايضا ، ان الشخصية السوية او الصحة النفسية مفهوم نسبي ، وان تقييم الشخصية يتحقق على نحو أفضل في اطار معايير نسبية السوية او نسبية الصحة النفسية . فمفاهيم الصحة والمرض ليست بمصطلحات تشير الى معايير ومعاني مطلقة ، ولكنها دلائل عميقة متفق عليها فحسب ، نستخدمها لتحديد الحالات المختلفة بطريقة نسبية . بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أنه لا توجد صورة عامة للشخصية السوية يتفق عليها علماء النفس ، وهو ما نوضحه فيما يلي .



خصائص الشخصية السوية

لقد استطاع علماء الشخصية *Personologists* ، من الدراسات الوفيرة التي أجريت على أشخاص من مستويات عمرية مختلفة ، ومن كلا الجنسين ، ومن خلفيات اجتماعية اقتصادية وثقافية متباينة ، أن يحددوا عدا من الخصائص التي وجدوها في الأشخاص الذين يتصفون بشخصيات سوية . وإذا كان لا يوجد شخص ممن يتصف بالشخصية المريضة *Sick personality* يعاني من كل أشكال مرض الشخصية ، كذلك لا يوجد شخص ممن يتصف بالشخصية السوية او الصحية والمتمتعة بالصحة النفسية *Healthy personality* يتسم بكل الخصائص المميزة للأشخاص الأصحاء نفسيا . وفيما يلي نعرض بالتحليل لابرز هذه الخصائص المميزة للشخصية السوية :

تقبل الذات :

يعني تقبل الذات *Self — acceptance* « الدرجة التي يكون عندها الفرد قادرا على ، وراغبا في ، أن يعيش مع خصائصه الشخصية التي تلقى منه تقديرا واعتبارا »^(٢٣) . وتفسر « جير سيلد »^(٢٤) ذلك « بأن الشخص المتقبل لذاته يتصف بتقدير واقعي لمصابره مقترنا بتقديره لجدارته واستحقاقه ،

(22) Carroll, H.A. *Mental Hygiene*. London, Toronto, Tokyo : Prentice-Hall, Inc., 1969, P.4.

(23) Pannes, E.D. The relationship between self-acceptance and dogmatism in junior-senior high school students. *J.educ. Social*. 1963, 36, 419-426.

(24) Jersild, A.T. *The Psychology of adolescence*. 2d ed. New York : Macmillan, 1963.

أن تكون لدينا بصرية أفضل بأفكارنا وأفعالنا ومشاعرنا ، وكذلك بأفكار وأفعال ومشاعر الآخرين .
بهذا الفهم نكون أكثر واقعية مع أنفسنا ومع الآخرين ، وأكثر إدراكا لأسباب السلوك ومحركاته
وموجهاته ، وأكثر قدرة على حل مشكلاتنا وعلى حماية أنفسنا من سوء التأويل الذي يهدد سلامة العقل
والعلاقة مع الآخرين .

وقد درس بعض الباحثين العلاقة بين فهم الفرد لنفسه ولييته ، ووجدوا أن الأشخاص الذين
يميلون إلى أن يكونوا « في موقف دفاعي » ، وهم من دلائل سوء التوافق ، يكونوا أقل دقة وأكثر خطأ في
رؤيتهم لأنفسهم وللآخرين ، وأقل توفقا مع أنفسهم ومع الآخرين ، والعكس صحيح بالنسبة
للأشخاص الأقل دفاعية ، فهم أكثر إدراكا لأنفسهم وللآخرين ، وأفضل توفقا مع أنفسهم ومع
الآخرين⁽²⁶⁾ .

التوقعات الواقعية : حينما تكون توقعات الشخص للإنجاز واقعية ، يكون أدائه متفقا مع توقعاته ،
وتكون توقعاته أكثر قابلية للتحقيق والتطبيق . وهذا بدوره يسهم في رضاه الفرد عن نفسه ، وهو شرط
ضروري لقبول الذات .

ونميل التوقعات إلى أن تكون واقعية حينما يحدد الشخص نفسه دون أن يكون خاضعا إلى حد كبير
لتأثير الآخرين ، وحينما يكون لديه فهم كاف لذاته يمكنه من التعرف على حدوده وإمكاناته . فقد تكون
أهداف الشخص واقعية ، ولكنه قد تنقصه المعرفة أو المهارات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف ، وينتج
عن هذا الموقف « إحباطات » تهدد سلامة الشخصية . وهذا يستلزم تضييق الفجوة بين ذاته الواقعية
وذاته المثالية ، ومن ثم يكون الشخص أكثر تقبلا لذاته .

عدم وجود معوقات من الخارج : قد يعزى عجز الشخص عن تحقيق أهدافه الواقعية إلى معوقات بيئية
لا يملك حيلة في التحكم فيها ، مثل التفرقة القائمة على السلالة أو الجنس أو الدين . في هذه الحالة ،
يجد الشخص الذي يعرف إمكاناته أنه من الصعب عليه أن يكون راضيا عن نفسه وواقعي ، وبالتالي
يقل تقبلا لذاته . وحينما يلقى تشجيعا وتأييدا من الآباء والمعلمين والزملاء لتحقيق النجاح الذي
تؤمله له إمكاناته ، فإنه يجد فرصا مواتية لاكتشاف ذاته ولتحققها ولتقبلها .

(26) Chodorkoff, B. Self-perception, perceptual defense, and adjustment.
Journal of Abnormal and Social Psychology, 1942, 49, 508-312.

ولما كانت اتجاهات أعضاء الجماعة نحو الفرد هي التي تشكل وتعديل من اتجاهاته نحو نفسه ، فأننا نتوقع أن الشخص الذي يغير اتجاهات اجتماعية مرغوبة يكون متقبلاً لذاته . وما يساعده على ذلك : عدم وجود معوقات بيئية ، وتمكن الفرد من المهارات الاجتماعية التي تساعد على التوصل مع الآخرين ، وتقبله لأهداف الجماعة ولمعاييرها .

ويؤدي غياب الضغط الاجتماعي الانفعالي على الفرد الى تمكينه من أن يبذل أقصى جهده ويعمل بأقصى طاقاته ، وإلى أن يكون أكثر توجهاً خارج ذاته ، وإلى أن يكون مرتاحاً بدلاً من أن يكون متوتراً ، وإلى أن يكون سعيداً بدلاً من أن يكون محبطاً ، عدوانياً ، ناقماً .

عدم وجود معوقات من الداخل : يعني ذلك تحرر الفرد من المعوقات الذاتية أو الشخصية التابعة من داخله ، والتي تحول دون تقبله لذاته على نحو صحي بناء . هذه المعوقات تثبط من الهمة وتنقص من الطاقة وتقلل من فعالية قدرات الفرد ومهاراته . ومن أخطر هذه المعوقات الداخلية مشاعر الذنب والخوف التي تستغل الحيوية النفسية عند الفرد .

فالشخص يملكه شعور مهدد بالنعاسة يعوق نجاحه نتيجة لخوفه من الأذى الذي قد يصيبه بسبب الاحساس المؤلم بالذنب عما يعتقد أنه عمل خاطيء قام به . وقد يشعر بالذنب عندما يتحقق من أن أفعاله لا تتفق مع ما يعتقد أنه من الواجب عليه عمله ، أو حينما لا تلقى استحساناً من الآخرين . والثابت أن الوالدين والمعلمين والزملاء يشاركون في معاونة الطفل بالتدرج على تكوين مقومات التحكم والتوجيه الذاتيين . ولكن ، قد يحاول بعض الكبار اخجال الطفل عندما يتصرف أو يعمل على غير مايفضلون له ان يفعل ، وقد يتجاهل الطفل مثل هذا الضغط أو يقاومه ، ولكنه قد يشعر بالقلق والاضطراب اذا لم يستطع الاستجابة الى مطالب الكبار الذين يسعى الى اكتساب حبه واحترامهم . وفي بعض الأحيان يتسبب الكبار في خلق مشاعر الخوف والذنب عند الطفل بهدف فرض حدود جامدة على سلوكه ، ويفوتهم في هذا أن فرض القيود قد يسبب من المشكلات الحادة مايفوق في نتائجه اخفاق الطفل في مراعاتها . وهكذا ، فإن مثل هذه المعوقات الداخلية الذاتية أو الشخصية هي نتائج شروط أو ظروف غير مواتية في فترة الطفولة خاصة .

ومن ناحية أخرى ، ثمة شروط تكمن وراء تحرر الشخص من المعوقات الداخلية الذاتية ، في مقدمتها : ظروف أسرية مواتية للنمو الصحي لشخصية الطفل ، التوحد مع نماذج سوية من الكبار ، خبرات النجاح لدى الطفل ، استقرار مفهومه عن ذاته .

فالشخص الذي يتوحد مع أشخاص أسوياء يكون أكثر استعدادا لأن يكون اتجاهات إيجابية نحو الحياة ، ومن ثم يسلك على نحو يساعد كثيرا على تقبله البناء لذاته . ورغم أن التوحد أو التقمص قد يتم بقوة في أي مرحلة عمرية ، إلا أن ذلك يتحقق خاصة في الطفولة ، وهي الفترة التكوينية التي ترسي فيها دعائم الشخصية . وهذا يفسر لماذا تعتبر البيئة الأسرية هي المجال الرئيسي الذي يزود الطفل بمصدر إيجابي بناء للتوحد أو التقمص يسهم في نمو الشخصية السوية . ومن ثم بقدر ما يكون النموذج الوالدي سويا ، فإنه يكون مصدرا للتوحد للطفل يؤثر بقوة في نموذج شخصية الطفل .

ومن شأن رجحان كفة خبرات النجاح عند الطفل أن يؤدي الى حسن تقبله لذاته ، في حين أن غلبة خبرات الفشل تؤدي الى رفضه لذاته . ويكون رجحان كفة خبرات النجاح كيميا أو كيميا : فقد يفوق العدد الحقيقي لخبرات النجاح على عدد خبرات الفشل ، وقد تكون خبرات النجاح أكثر أهمية ومعززة من خبرات الفشل التي قد تفوق في مقدارها خبرات النجاح .

أما مفهوم الذات المستقر أو الثابت فهو المفهوم الذي فيه يرى الشخص ذاته بنفس الطريقة معظم الوقت . وإذا كان مفهوم الذات المستقر مرغوبا ، فإن الشخص يكون أكثر استعدادا لتقبل ذاته . ومن ناحية أخرى ، لا يساعد عدم استقرار مفهوم الذات على تزويد الفرد بصورة واضحة عن حقيقته ، فيتناقض بشأن ذاته ، يتقبلها أحيانا ويرفضها أحيانا أخرى . وإذا كان للشخص أن ينمي عادة تقبله لذاته ، فينبغي أن يرى نفسه في ضوء مرغوب معظم الوقت لتدعيم مفهوم ذاته حتى يصير تقبل الذات عادة سلوكية .

تقبل الذات والتوافق الشخصي - الاجتماعي :

من الثابت في الدراسات النفسية تلك العلاقة الوثيقة بين تقبل الفرد لذاته وتوافقه مع نفسه ومع الجماعة :

التوافق الشخصي : إن الشخص المتقبل لذاته لا يعتبر نفسه على أنه مثال الكمال . فبدلا من ذلك ، يكون على بصيرة بذاته يدرك من خلالها إمكاناته واستعداداته بطريقة موضوعية ويكون أقدر على تبني مستويات موضوعية للطمح وعلى تحقيقها ، وبالتالي يكون أقدر على تجنب مواقف الاحباط بطريقة بناءة . وهو شخص يعترف بقوته وكذلك بضعفه ، وإيجابياته وكذلك بسلبياته وأخطائه . ومن

خصائص الشخص حسن التوافق أنه يعترف عادة بخصائصه الطيبة ، وبإيجابياته قبل أخطائه ويركز على جوانب القوة في نفسه بدلا من جوانب ضعفه .

ويتصف الشخص المتقبل لذاته بالثقة بالنفس واحترام الذات . فهو أكثر ميلا الى تقبل النقد من الشخص الأقل تقبلا لذاته ، الذي يتجنب مواجهة واقعه ومما قد يكون فيه من نقص أو خطأ . والشخص المتقبل لذاته ، وإن كان قد لا يجب النقد ، إلا أنه يتقبله ويفيد منه ، بل ويأتي بتقدير ذاتي ناقد يساعده على الاعتراف بضعفه وتصحيحه بهدف تحسين نفسه .

ويصاحب تقبل الذات الاحساس بالأمان . ويشجع ذلك الشخص بأن يعتمد في قدرته على تناول مشكلات الحياة ، وفي أنه يلقي قبولا واستحسانا من الآخرين في حياته ، ويشجعه ذلك أيضا على أن يرتكن الى مبادئه وقيمه في توجيه سلوكه بدلا من الاعتماد على آراء ومعايير الآخرين .

التوافق الاجتماعي : ويصاحب تقبل الذات بتقبل الآخرين ، وهذا بدوره يصاحب غالبا بالتقبل من الآخرين . فالشخص المتقبل لذاته يشعر بالأمان بل درجة من الاهتمام بالآخرين ، ومن أن يبدي استئثار Empathy بهم أي القدرة على أن يفهم أفكار ومشاعر وأفعال الشخص الآخر . ونتيجة لذلك ، يأتي بتوافق اجتماعي أفضل من الشخص الذي يكون متوجها نحو ذاته بسبب مشاعر النقص وعدم الكفاية .

والشخص المتقبل لذاته أكثر تحملا للآخرين وأكثر بصيرة بضعفهم ، بينما الشخص الراض لذاته يستجيب للآخرين بطريقة عدوانية . ويصاحب تحمّل الآخرين بالرغبة في مساعدتهم . « فالأشخاص المتقبلون لذواتهم متحررون في أن يكونوا كأنفسهم ، وفي أن يحققوا إمكاناتهم ، وفي أن يساعدوا الآخرين على تحقيق ما لديهم من إمكانات كذلك » .^(٢٧) والشخص الذي يتعلم كيف يتقبل نفسه والآخرين يستطيع أيضا تقدير نفسه والآخرين ؛ أي أن احترام الذات واحترام الآخرين يرتبط بتقبل الذات وتقبل الآخرين .^(٢٨)

(27) Brandt, R.M. The accuracy of self - estimate : A measure of self concept reality. Genet. Psychol. Monographs 1964, 29, 95-99.

(28) Stock, D. The self-concept and feelings toward others. J.Consult. Psychol. 1494, 13, 176-180.

ولا يؤدي ادراك الشخص حسن التوافق بأنه موضع تقبل وتقدير الآخرين الى تنمية مفهوم ذات مرغوبة لديه فحسب ، ولكن يؤدي أيضا الى مشاركة اجتماعية أكبر . فالشخص حسن التوافق يرى نفسه على أنه كفء يستطيع مواجهة التحديات والمطالب والتوقعات والمسؤوليات الاجتماعية ؛ ومن ثم فهو أكثر ميلا الى المشاركة في النشاط الاجتماعي وأكثر قدرة على التوحد مع الآخرين .

والشخص حسن التوافق ليس بحاجة الى التباهي او الامتنعاض او غير ذلك من اشكال السلوك المميز للأشخاص سييء التوافق الذين يحاولون بالأيامهم الدفاعية الحصول على تقبل اجتماعي . فالشخص حسن التوافق يمكن أن يكون طبيعيا ، متحررا ، صدوقا في علاقاته مع الآخرين ؛ وكل هذا يزيد من تقبله الاجتماعي .

ونجد في المبدأ الذي وضعه « إيريك بيرني » صاحب نظرية التحليل التبادلي **Transactional analysis** في علم النفس ، وهو : (٣٩)

« أنا بخير - وأنت بخير (I'm O.K. — Youare O.K.) - تأكيداً على أهمية الاعتراف المتبادل بين الأشخاص لبعضهم البعض ، والتقبل والتقدير والاحترام والحب والمعاودة لبعضهم البعض - وذلك بالنسبة لسلامتهم النفسية .

الواقعية :

من الخصائص المميزة للأشخاص الاسوياء نزعتهم الى تقبل الواقع بدلاً من الهروب منه . وهم وإن كانوا قد يبدون بعضاً من عدم الرضا ازاء الواقع ، إلا أنهم يتعلمون تقبل حدودهم ، ويسعون الى تحسين أنفسهم في اتجاه جوانب القوة فيهم . اما الأشخاص سيئو التوافق ، فهم على العكس من ذلك ينمون في أنفسهم عقدة الاستشهاد **Martyr complex** - فيعتبرون أنفسهم ضحية للواقع الخاطيء - فيحسبون بالأسى لذلك من أنفسهم أو يلومون أنفسهم والآخرين على الظروف غير المواتية .

(291) Berne, E. Games people play. New York : Grove press, 1951

Berne, E. What do you after you say hello. New York : Grove press, 1972.

والشخص السوي يتقبل الحقيقة بأن الحياة صعبة في الغالب . ويعتبر بأن نجاحاته وإرضاءاته تعرض الى حد كبير من إخفاقاته وخيبة أمله . يقرر « لاونون » : (٣٠) ان الشخص حسن التوافق لا يغير ، حتى وإن كان يستطيع ، من الحقيقة بأن الحياة كفاح لا ينتهي ، فيها ترتطم أهداف الإنسان بقوى مقاومة خارجية ، انسانية وطبيعية . والشخصية تنمو وترتقي وتبدع من خلال محاولات حل المشكلات .

والشخص الذي يتقبل الواقع يعرف ان أحدا لا يستطيع ان يدير عقارب الساعة الى الوراء أو ينصرف عن الحاضر ليستقل الى المستقبل . فهو يعرف انه ينبغي ان يعيش الحاضر ، بالرغم من شعوره بأن الماضي أو المستقبل قد يكونا أكثر إشراقا . والواقع أن الشخص السوي ينضوي بسروري الخبرات التي تنتمي الى كل مرحلة عمرية من المراحل المتتابعة التي يمر بها ، فلا تثبت على الماضي ولا يحلم بالمستقبل فحسب . فالشخص السوي « لا يعيب زمانه » ، فلا يعتبر الحاضر من « الزمان العاني » والماضي أو المستقبل من « الزمان الملوأ » ، وإنما يعيش زمانه الذي فيه استمرار ماضيه وتطلع لمستقبله .

يلاحظ ان الاطفال والمراهقين غالبا ما يعيشون في توقع للوقت الذي سوف يكبرون فيه ؛ وهم في ذلك يتخيلون كل المسرات والحريات التي يتمتع بها الكبار ويغفلون عن المسؤوليات المنوطة بعالم الكبار . وقد يتوق بعض الناس في المرحلة الوسطى من العمر الى الايام التي سوف يحالون فيها الى التقاعد كي يرتاحوا من المسؤوليات والمتاعب ، ولكن لا يدركون ما قد يكون في هذه الفترة من احساس بالوحلة والعجز .

كذلك قد يمن بعض الناس الى الماضي ؛ فيمضون وقتهم في ذكريات وأحلام ، ويجتروا لهو وانتصارات الشباب .

هذا « النكوص » الى الماضي قد يقف حجر عثرة أمام حسن توافقهم . يقول « بريين » : (٣١)

« ان الحنين الى الماضي *Nostalgia* ربما يصبح عقارا خذرا ، وشكلا من أشكال إفساد الذات أو الاستهانة الذاتي *Self — abuse* ، وهما لاستعادة الماضي كبدل للعفو عن الاخفاق في الحاضر » .

(30) Lawton, G. Aging successfully. New York : Columbia, 1977.

(31) · Brien, H. Looking back at the future. The New York times' Nov. 17, 1969.

فبصرف النظر عما قد يوجد في العالم الواقعي من أشياء غير مستحبة ، فإن الشخص السوي لا يحاول الهرب الى عالم الخيال والاهام حيث قد يجد كل شيء مستحبا وورديا . فهو ، بدلا من ذلك ، « يتقبل سلطة الواقع ، حيث يجد اشباعاته في الحياة في انجازاته وخبراته التي تحدث في العالم الحقيقي وليس في عالم الالهام وأحلام اليقظة . » (٣٢)

ولا يعني هذا بطبيعة الحال ان الشخص السوي لا يعيش أحيانا في أحلام وخیالات ، وإنما يعني أن الهروب الى أحلام اليقظة ليس أسلوبه المميز في التوافق مع المواقف الواقعية الصعبة او غير السارة في الحياة . وإذا راودته أحلام يقظة ، يكون أمد هروبه قصيرا ، أو سرعان ما يعود الى العالم الحقيقي لمواجهة مشكلاته بموضوعية ومسئولية .

التوجه في الحياة وفقا لفلسفة غنية بالمعاني :

يرتكز الشخص السوي في توجيه حياته على فلسفة تساعد على تكوين خطط بناءة وانتهاج أسلوب حياة رشيدة يتفق مع نظام أهدافه وقيمه وتحققها بطريقة تلقى استحسانا اجتماعيا . فتبنى الشخص لنظام من الاهداف والقيم يجعل الحياة بالنسبة له غنية بالمعاني **Meaningfulness** . فتبدو أكثر غنى وحيوية ، وأكثر أقبالا واكتمالا ، وأكثر استحقاقا وإشراقا . والشخص السوي تكون حياته هكذا ذات معنى (*) . أما الشخص غير السوي او غير الناضج فحياته جديده من المعاني **Meaninglessness** - فاللا معنى في الحياة هو الاحساس بالفراغ ، وباللاهدف ، وباللاقيمة (٣٣) .

هذه الفلسفة الغنية بالمعاني التي يرتكز اليها الشخص السوي في توجيهه في الحياة ، قد تركز على معتقدات دينية ، أو على معايير مثالية ، أو على خبرات شخصية .

ان الشخص سيء التوافق يفعل ما يريد دون أن يضع الآخرين في اعتباره ، أو يفعل ما يشته الآخرون عليه حتى وإن كان يعرف ان افعاله خاطئة ولا تلقى استحسانا من جماعته . وعلى العكس من

(32) Lawton, G. op. cit.

(33) Frank, V.E. *Man's search for meaning*. New York : Washington square press 1963.
Frank, V.E. *The Will to meaning : Foundations and applications of logotherapy*.
New York : World, 1969.

(*) أرجع الى كتاب : فيكتور فرانكل ، الانسان يبحث عن معنى . (ترجمة : طه حسين تحت إشراف الدكتور عبد العزيز القاسمي) ، تحت الطبع .

ذلك ، فإن الشخص حسن التوافق يتمتع بزيادة أخلاقي معنوي يوجه سلوكه في المواقف الاجتماعية المختلفة ويحدد علاقاته بالآخرين .

ولقد تبين ان الفلسفة الموجهة لحياة الاشخاص الاسوياء كثيرا ما تتأثر بالعقيدة الدينية ، ان لم تكن مستندة عليها بالفعل . وهم يعتبرون الدين خبرة شخصية تغني حياتهم وتشبع حاجتهم . اما الاشخاص غير الاسوياء أو ميثو التوافق ، فيميلون الى رفض الدين ويدعون الى الالحاد ، أو يتعلقون ببعض الدعاوي أو التيارات الدينية المتطرفة التي تركز أكثر على الشكل لا على جوهر الدين ، أو تركز على الممارسات والطقوس الدينية أكثر مما تركز على المبادئ الدينية⁽³⁴⁾ . فالدين بالنسبة لهم غالبا ما يكون نكاسة . لشاعر عدم الامان أو عدم السعادة أو ميكانزما هرويا من هذه المشاعر⁽³⁵⁾ .

ويمكن ان نميز بين التوجه الهادف **Goal orientation** عند الاسوياء وغير الاسوياء في ناحيتين : فالاسوياء يتبنون أهدافا واقعية ، في حين تغلب اللا واقعية على أهداف غير الاسوياء في الحياة . ويعني ذلك بالنسبة للاسوياء خبرات نجاح وإنجاز ، بينما يعني بالنسبة لغير الاسوياء خبرات احباط وخيبة أمل . ومن ناحية أخرى ، يتضح الفارق في أن الاسوياء يعملون مهمتهم الرئيسية اكتساب الخبرات والمعلومات والمهارات اللازمة لتحقيق أهدافهم . وهم يسعون الى تحسين خبراتهم ومعارفهم ومهاراتهم ، أو يخفضون من مستويات أهدافهم حتى تصبح أكثر واقعية وأكثر قابلية للتحقيق . بقول آخر ، تعتبر أهداف الاشخاص الاسوياء في الحياة أهدافا موجهة الى النمو والتقدم . اما الاشخاص غير الاسوياء ، فلا ينظمون جهودهم وظروفهم حتى يحققوا أفضل استخدام لامكاناتهم واستعداداتهم الطبيعية . ولكنهم ، بدلا من ذلك ، يحققون طموحاتهم اما بواسطة محاولة الحصول على مساعدة من الآخرين أو يحققونها في الخيال والوهم .

(34) Clark, W.H., & C.L. Warner. The relation of church attendance to honesty and kindness in a small community.

Relig. Educ.' 1955,50,340-342.

Keene, J.J. Religious behavior and neuroticism, spontaneity and world-mindedness. Sociometry' 1967,30,137-157.

Lowe, W.L. Religious beliefs and religious delusions. Amer. J. Psychother.' 1955,9,54-61.

(35) O'Reilly, C.T. Religious practices and personal adjustment of older people Social. Ser. Res.' 1958,42,119-121.

الشخص السوي اذن شخص جيد التنظيم - فهو يكامل بين وظائفه وأدواره المختلفة في الحياة ويوجهها وفقا لنموذج متسق وواضح ومحدد . ويمكنه ذلك من تحقيقه لذاته .

الاستقلالية والتوجيه الذاتي :

يتميز الشخص السوي باستقلالية في الفكر والعمل ، تتبدى في قدرته على التوجيه الذاتي التي تتضح في تخطيطه لمجرى حياته لكي يوفي بحاجاته ومطالبه . يقول « بارت » في دراسة له عن « الشخص الناضج » ، « أن الشخص الناضج يتق في مقدراته ويعتمد عليها في تنظيم وتفسير البيانات الخاصة بغيرته . وهو يحرك بحرية مساره في الحياة » (٣٧) .

فالشخص السوي أكثر تحمرا في تقرير مصيره اعتمادا على نفسه وثقته في مقدراته . ويقدر ما يكون الشخص أكثر توجيها لنفسه كأن يعول على مقدراته في جمع الحقائق وتقييمها ، يكون أكثر مقدرة على « التحرر من التوجيه من الخارج » ؛ أي يكون متحررا من الاعتمادية غير الناضجة على آراء وتوجيهات الآخرين . هنا يكون الشخص في موقع أفضل ، يزداد فيه فهمه لنفسه وثقته فيها واحترامه لها . وكلما يزداد ادراكه لحقائق الحياة وتعلمه كيفية معالجة مشكلاتها ، يتعاضد توجيهه لنفسه وتحمله للمسؤولية إزاء قراراته وعلاقاته :

اما الشخص غير الناضج ، فهو غير قادر على تقرير مصيره وتوجيه مساره حياته ، لأنه قد توجهه من الداخل « ختمية الحاجات البيولوجية » ، ومن الخارج « ختمية الأدوار الاجتماعية » ؛ فلا سبيل أمامه في الغالب لأن يغير تلك الموجهات الأساسية للشخصية الناضجة وفي مقدمتها « الحرية » و « الاختيار » و « المسؤولية » وغير ذلك من مقومات « التوجيه الشخصي المسؤول » . وبالتالي ، فإن الشخص غير الناضج يعيش وجودا قديريا محترما ، يلعب فيه الأدوار المعينة له ويشع حاجاته المادية والجسدية ، بلا احساس واع بمعنى الوجود وتحقيقه .

والشخص الموجه لذاته أقدر على احترامه لنفسه وللآخرين ، لأن نموذج حياته نابع من اختيار ذاتي مسئول ؛ وذلك خلافا للشخص الذي يخاف من الاستقلالية بسبب شعوره بالتهديد من النقد أو بسبب مشاعر عدم الكفاية في تحمل المسؤولية .

(36) Barrett-Lennard, G.T. The mature person. *Ment.Hyg.* 1962,46,98-102.

والشخص السوي يبدى استقلاليته بطرق شتى : ففي اتخاذ القرارات ، يكون قادرا على « ان يتخذ قرارات هامة بأقل قدر ممكن من القلق أو المصعق أو الصراع أو البحث عن النصيحة أو غير ذلك من أنماط السلوك غير الناضج . وبعد ان يصل الى اختيار ، فإنه يلتزم به ، الى ان تدخل في الصورة عوامل جديدة ذات أهمية رئيسية » . (٣٧)

وتبدو الاستقلالية في ان الشخص يكون مدفوعا من داخل ذاته **self — motivated** ، فلا يعتمد على الآخرين حينما يكون قادرا على ان يكون مستقلا . فمن الخصائص المميزة للشخص حسن التوافق « تلك الدرجة التي عندها يتوصل الى حل لاعتماديته ويكون في مقدوره ان يقوم بوظائفه مستقلا عن التأثيرات الاجتماعية » (٣٨) . وهو قادر بذلك على ان يكون اهتمامات جديدة ، وصداقات جديدة ، وخبرات جديدة ، ومهارات جديدة ؛ فثمة قوى دافعة من داخله موجهة الى المزيد من غوص شخصيته وارتقاها . (٣٩)

واذا كان « جيلفورد » قد توصل ، من تحليله لنتائج مجموعة الدراسات التجريبية ، الى تحديد بُعد من أبعاد الشخصية يطلق عليه « الاعتماد على النفس في مقابل الاعتماد على الآخرين » (٤٠)

Self - reliance ver sus dependence ، فإن الشخص السوي ، استنادا الى ثقته بنفسه ومقدرته على توجيه دفة حياته ، يعتمد أيضا على الآخرين في سياق تبادل الأدوار الاجتماعية لاشباع بعض حاجته أو لمنع الاحباط أو العقاب أو للتعاون معهم في تحقيق مهام اجتماعية . يعني ذلك أيضا أن الشخص السوي « يسير » الجماعة التي يتوحد معها ، فيكون عضوا بناءا فعالا فيها دون ان يفقد احترامه لذاته ودون ان تضيع هويته .

الارادة :

تجسد فاعلية السلوك ، التي تستدعيها الحاجات النفسية ، في اداءات متعددة تتحقق بفضلها

(37) Lawton, G. *Aging successfully*. New York : Columbia, 1951.

(38) Brower, D. *Child psychology : A look at tomorrow*.
J. Genet. Psychol., 1963, 102, 45-50.

(39) Havighurst, R.J. *Personality and patterns of aging*. *Gerontologist* 1968, 8, 20-23.
Havighurst, R.J., & Albrecht, R. *Older people*. New York : Longmans, 1963.

(40) Guilford, J.P. *Personality*. New York : Mc Graw-Hill, Inc., 1959.

عملية سيطرة الانسان على الواقع المحيط به وعلى نفسه ، وتغييره وترقيته لهدفين الواقعيين الداخلي والخارجي ، لواقعه الذاتي والموضوعي ، وما بينهما من تفاعل . هذه الفاعلية في السلوك قوامها ، بجانب عوامل أخرى ، آليات (ميكانزمات) الارادة عند الشخص السوي .

والارادة ، كظاهرة نفسية ، نعتبرها ركيزة أساسية لعمليات الضبط والتوجيه الذاتيين ، رغم ان البحث في سيكولوجية الارادة لم يلق اهتماما من علماء النفس . لذا علينا أن نتساءل : ما الارادة والسلوك الارادي ؟ وما هي آليات العملية الارادية ؟ تكشف الاجابة عن هذين السؤالين بالتالي عن مكانة الارادة في البناء النفسي للشخص السوي .

يرى بعض علماء النفس أن الخاصية الرئيسية المميزة للارادة هي ما يتصف به السلوك من وعي . لهذا تعتبر أي فاعلية يملكها الشخص - بقدر ما تفترض وعيا بالهدف - سلوكا اراديا . ولكن الوعي بهدف السلوك ويطرق تحقيقه يمثل نشاطا يرتبط باعمال الفكر والذهن أساسا . ومن ثم يمكن أن نسمى السلوك في هذه الحالة سلوكا واعيا أو عقليا ولكنه ليس بالارادة . فرغم أن الوعي مكون رئيسي للارادة ، إلا أن توحيد السلوك الارادي بالسلوك الواعي فيه مجانبه للصواب ، فقد يكون الفردي حالة من الوعي حينها يأتي بالخطأ أو حتى تأخذ الغواية والضلال ، أو يخل بخطئه ، أو تصدر عنه تصرفات عن غير ادراة ، وغير ذلك مما يجعلنا نقرر أن كل سلوك واع ليس بالضرورة أن يكون سلوكا اراديا^(٤١) .

وقد يربط البعض مفهوم الارادة بالسلوك الاندفاعي ، وهو الأداءات التي تخضع لتوجيه الانفعالات والمواقف في معظم الحالات أكثر مما تخضع للوعي . ولكن السلوك الارادي ، خلافا للسلوك الاندفاعي ، يقوم على الوعي والضبط والتوجه نحو الهدف . فتوحيد السلوك الارادي بالاندفاعي ، أي اعتبار الاندفاعية كمكون من مكونات عمليات الضبط والتوجيه الذاتيين ، يعني اغفال مقدرة الانسان على ادارة وتوجيه نشاطه بوعي^(٤٢) .

كذلك ، فإن تصور السلوك الارادي على أنه يتحقق بواسطة « قوة الارادة » يعتبر فيها خاطئا لحقيقة هذه الظاهرة النفسية . فالانسان لا يستطيع بواسطة قوة مباشرة ضبط سلوكه وتوجيهه ، شأنه في ذلك

(41) Tchikharitchivily. Sh. The problem of will in psychology.

Journal of soviet psychology' 1967. No. 4.

(42) Ibid.

شأن « الظل الذي لا يستطيع ان يحمل الحجر » . فنمو العمليات الارادية يتأتى كنتيجة لانتقان العمليات المختلفة التي تكمن وراء السلوك ، ولتعبئة الطاقات النفسية عند الفرد لتحقيق أهدافه^(٤٣) .

يحدد « لوريا » الارادة على انها القدرة على خلق مثيرات من داخل الفرد ، وعلى اتباع هذه المثيرات ومتابعتها ، أي القدرة على الاستشارة الذاتية self — stimulation الموجهة نحو تنظيم السلوك وضبطه . وتستند الأفعال السلوكية الارادية على وعي الفرد بأهدافه ، وعلى تصوره وتدبره للعمليات والاجراءات التي يمكن ان تضمن تحقيق الاهداف ، وعلى ما يباشره من سيطرة واعية على نفسه ومن ضبط لنزعاته وحفزاته ، وعلى مغالبة الصعوبات والمعوقات التي قد تقف في طريق تحقيق الاهداف ، وعلى اتخاذ القرارات البناءة الحاسمة في حياته^(٤٤) . وفي ضوء ذلك يمكن تحديد بعض آليات العملية الارادية كما يلي :

الفعالية الداخلية : وهي حالة تنشيط الجهد الذاتي ، وشحن طاقات الفرد وتميئتها في سبيل مغالبة الصعوبات والمعوقات ، وبالتالي مواجهة مايعترض تحقيق أهدافه وبرنامجه ، سواء كانت خارجية تفرضها الظروف المحيطة به ، أو معوقات أو مشبطات داخلية ذاتية كالنزعات السلبية والدفاعات والخوف والوهن والتردد والأنانية والفضحالة المعرفية وغير ذلك مما قد يهدر من طاقات الفرد ومن توظيفها .

توجيه الاوامر الى الذات : وهو من الآليات المميزة للسلوك الارادى . فاذا كان الشخص قد تعود أن يأتمر بأوامره ، فان ذلك يعني أنه قد حقق درجة عالية من الضبط والتوجيه النابعين من داخله . ومن شأن « توجيه الاوامر الى الذات » self - ordering ، أنه يسمح للفرد بأن « يحقق عن مبدأ ويقوة أهدافه وبرامجه التي يلتزم بها ، وينجز خططه ، وينظم سلوكه » .^(٤٥)

تلخز الأعمال الأدبية بمثابة عذيلة عن دور « توجيه الأمور الى الذات » في مواجهة المواقف الصعبة التي قد يمر بها الفرد . فمثلا ، يصف « ليوتولستوى » هذا الدور الذي كان يقوم به أبطاله وخاصة في المواقف الحربية :^(٤٦)

(43) Luria, A.R. The nature of human conflicts : An objective study of disorganization and control of human behavior. New York : Liveright Inc. Pub., 1932, p.p. 401-403.

(44) Ibid.

(45) Agaphonofe, IT. Psychology of self-ordering. Moscow : Krasnadar Pub.. 1959,p.65.

(46) Tolostoi, L. Selected works. Moscow : Mir Pub.. 1952, vol. 4.p. 238.

« وانهارت الفضائل من فوقه واحدة تلو الأخرى ، وتملكته رعشة عارمة حالما عاد الى قواعده ، ثم جالت بخاطره فكرة أخذت تدفعه الى الخوف والتردد ، ولكن نفس هذه الفكرة اتخذت تنقشع من ذهنه مرة أخرى ، وأغضضته لتوه ... لا ، لا يمكن أن أخاف » - وأخذ يفكر ، يمزج أمره ؛ ثم انطلق بحصانه في خضم قمقعة السلاح » .

وأمثله هذه المواقف كثيرة في الحياة اليومية ، حيث قد يراود الفرد تردد أو وهن بشأن اتخاذ قرار حاسم . ويعني ذلك أن ثمة علاقة وثيقة بين أن تأثر بانفسنا وان ننطلق في سبيل تحقيق اهداف كبار في حياتنا .

مقاومة الغواية والاعراء : يحدد « سيرز وآخرون » ثلاث معايير لقوة الضمير وللضبط والتوجيه الذاتيين^(٤٧) :

(اولا) مقاومة الغواية والاعراء *resistence of temptation* (ثانيا) التهذيب الذاتي *self-instruction* (ثالثا) الدلالة الواضحة للشعور بالذنب حينما يكسر الفرد هذه القواعد او تراوده نزعات الى ذلك . هذه المعايير السلوكية دالة للضبط الذي استدخله الطفل من نظام المبادئ والأحكام الخلقية ، المعايير الاجتماعية (*internalized control*) ، وهو ضبط قد مارسه واعتاده بواسطة ما تعرض له من قبل من اثابة وعقاب .

تعني مقاومة الغواية والاعراء القدرة الداخلية للفرد على العزوف عن الاستجابة للمؤثرات الخارجية التي قد تغويه أو تغريه لكي يأتي بسلوك لا يتفره المرغوبة الاجتماعية ولا يقره ضميره وزاده الأخلاقي المعنوي رغم عدم اقتضاح أمره او انكشاف فعله ، كما تعني مقاومة الغواية والاعراء قدرة الفرد على مغالبة المؤثرات واللاحاحات الداخلية التي قد توغز اليها نفس أماراة بالسوء ، وعلى طرد الأفكار والهواجس التي تراوده بشأن فعل أو نزعة لا تتفرها أخلاقيات الجماعة ولا ياباها ضميره الراعي .^(٤٨)

(47) Sears, R.R., et al. *Patterns of child rearing*. New York : Harper & Row Pub., 1957.

(48) Hill, W.F. *Learning theory and the acquisition of values*. *Psychol. Rev.*, 1960, 67, 317-331.
Breckenridge, M.E., & Vincent, E.L. *Child development*. Philadelphia, London : Saunders Co., 1966, P. 386.

الاقتناع الذاتي : فما يتبناه الفرد من أهداف ومن أساليب تحقيقها تتطلب تدعياً بالأدلة والبراهين والمعلومات التي من شأنها أن تجعل إرادته واعية . يرتبط ذلك بتبني الفرد لفلسفة في الحياة غنية بالمعاني ، وباستقلاليتيه وتوجيهه لذاته كما سبق أن ذكرنا .

هكذا ، يتضح أن الإرادة وما تنطوي عليه من آليات تعتبر ركيزة أساسية للشخصية السوية .

المسؤولية :

الشخص السوي أو حسن التوافق شخص مسئول ، أما الشخص غير السوي أو سيء التوافق فهو إما أن يكون كسولاً أو متردداً في تقبله للمسؤولية وتحمّلها ، أو يكون قهوراً باحساسه بعدم الكفاية في الاضطلاع بالمسؤولية .

فالشخص السوي يدرك ثقته في قدرته على مواجهة الحياة ومشكلاتها وعلى الاضطلاع بالمسؤوليات الملائمة لعمره ومستوى قدرته ولحجم معارفه وخبراته ومهاراته .

وهو واقعي للدرجة أنه يعترف بأنه لا ينبغي أن يقدم على تحمل مسؤولية بعض المهام التي لا يكون مهيباً للاضطلاع بها بنجاح . وهو يعرف أنه إذا فعل فإنه سوف لا يجني عدم امتحان الجماعة على اخفاقه فحسب ، ولكنه سوف ينتقص أيضاً من ثقته بنفسه إلى الحد الذي قد يجعله يتردد في تقبل المسؤوليات في المستقبل . ومع ذلك فهو يتقبل التحدي لقدراته ، ولكنه ليس مدفوعاً بطريقة قسرية إلى المبالغة في تقديرها .

وهو يتقبل المسؤولية إزاء نفسه وسلوكه . فإذا أخطأ ، فإنه يتقبل النقد ، ويكون راغباً في تصحيحه لذاته . وإذا واجهته مشكلة ، فإنه يضطلع بمسؤولية التصدي لها والسعي إلى حلها . فهو يواجه المشكلات التي تتطلب حلاً بدلاً من أن يحد وسائل الهروب منها ، بل أنه يستمتع بالمواجهة ويتحطم الصعوبات التي تقف في طريق نموه وسعادته ، طالما أنه قد اقتنع بأنها معوقات حقيقية وليست وهمية⁽⁴⁹⁾ . وهو يلتزم بموقع في الحياة أو بدور معين فيها ، وهو يدرك أنه مطالب بأن يملأ هذا الموقع ويشري هذا الدور بتقبله للمسؤوليات وإقباله على الخبرات التي تلائم موقعه ودوره⁽⁵⁰⁾ .

(49) Lawton, G. *Aging successfully*. New York : Columbia, 1951.

(50) Ibid

لكل هذا أيضا يعتبر الشخص المسئول شخصا يمكن الاعتماد عليه ، حيث يعرف الآخرون مدى التزامه بما يقوله وبما يوكل اليه من مهام ، وذلك خلافا للشخص سيء التوافق الذي يبدى عنذرا لكل شيء ، والذي تكون حياته متاعه من الوعود المنكوثة والاعمال غير المكتملة .

التوجه خارج الذات :

يعتبر الأسوياء أكثر توجهها خارج ذواتهم ، بينما يميل الأشخاص غير الأسوياء أو سيئو التوافق الى ان يكونوا أكثر توجهها داخل ذواتهم أو تقيدا بعلمهم الداخلي .

فالشخص السوي ، المتوجه خارج ذاته ، يبدى اهتماما بالناس وبالواقف وبالأشياء كما يبدى اقبالا على موضوعات الحياة . وهو يستخلص لذة واشباعا من اتصالاته الاجتماعية أكثر مما يستخلصها من اتصاله مع نفسه ومعايشته لعالمه الذاتي . ويختلف ذلك عن الشخص المتوجه داخل ذاته - inner oriented أو المتقيد بذاته self — bound الذي يبدى اهتماما أكبر بنفسه .

والشخص الذي يتسم بالتوجه خارج ذاته outer orientation يتسم أيضا بعدم الانانية ، فهو يرى صالح الآخرين ويسعى الى تقديم العون والسند لهم . وهو بذلك يتصف بصفتين رئيسيتين : (اولا) الاستشعار empathy (●) ، أي القدرة على أن يحس بمشاعر الآخرين وأن يفهمها (ثانيا) - المشاعر sympathy (●) أي القدرة على التعاطف مع الآخرين وعلى تبادل المشاعر معهم دون ماحشور بالحنس او الحقد ازاء نجاحاتهم او بالشماتة او بالأزدراء ازاء اخفاقاتهم .

وئمة خاصية مميزة للشخص السوي وهي مايتصف به من مقدرة متزنه وناضجة على بذل الحب وتلقي الحب ، على أن يجب وأن يكون محبوا . ولايعني ذلك أنه يفتن بالآخرين ويتم بهم بطريقة " ٢٠٠ " ، ولايعني انه يهمل بالحب والمطف أولئك الأشخاص الذين يبدون اهتماما ضئيلا به ، كما لايعني ذلك سعيه الى طلب الحب والاهتمام من أولئك الأشخاص الذين يعجب بهم بصرف النظر عن شعورهم نحوه . يعني ذلك ، بالاحرى ، عطاء وأخذنا ناضجين للحب مع الأشخاص الذين يتبادل معهم الاحساس والاحترام والتواد .

ومن شأن الاهتمام بالناس والاقبال عليهم أن يساعد الشخص السوي على أن يكتسب استبصارا كافيا بنفسه بقدراته ، مقارنة بقدرات الآخرين ، وبالتالي لاتتمو عنده أوهام الاستعلاء او

المعظمة . وهو لذلك يكون قادرا على أن يعرف على مشاعره وردود أفعاله وعلى أن يعترف بها ، وبالتالي يكون أكثر على التغير في الاتجاه الصحيح .

ولما كان الشخص السوي متحررا من داخله ، أي متحررا من الأوهام والدفاعات والمخاوف والذنب والنقص والتعصب والمداوة وغير ذلك من المعوقات الذاتية فإنه يكون بالتالي مرنا في تفكيره . فهو لا يثبت بزايه ، فلا يعتقد أنه دائما على الصواب وأن من لا يتفق معه فهو دائما على باطل . وعلى العكس من ذلك ، فهو أمين مع نفسه ، ويقدم نفسه للآخرين كما هو .

وهو لا يبدى لذلك قساوة على الآخرين وإنما تتسم ردود أفعاله حيالهم بالشفقة ، حتى ولو لم يكونوا شغوقين معه . ولا يعني ذلك إبداء الضعف إزاء ردود أفعاله أو اغفال مساوئهم ، وإنما بالاحرى النظر إليهم بعين العطف أكثر ما هو بالنقص .

والشخص المتوجه خارج ذاته بحبه واحترامه للآخرين وثيقته في نفسه وفي الآخرين ، يكون تواقا إلى أن يكشف لهم عن افكاره ومشاعره ، ومن ثم تعتبر الدرجة المعقولة من الكشف عن الذات - **self disclosure** خاصية مميزة للأشخاص الأسوياء ، ولا يعني ذلك الكشف عن النفس بطريقة غير مميزة أو غير مشروطة ، وإنما بالاحرى انكشاف الذات لأولئك الأشخاص الذين يجههم ويعتزمهم كأصدقاء ، ولقد تبين من بعض الدراسات أن الأشخاص سيئي التوافق ، الذين يتصفون بعدم الثبات الانفعالي غالبا ما يكشفون عن انفسهم بدرجة اكبر مما يفعله الأشخاص الذين يتصفون بالاتزان الانفعالي ، كذلك فإن الشخص سيء التوافق أقل تميزا في انتقاء الأشخاص الذين يكشف لهم عن نفسه ، ومن ناحية اخرى يشجع نقص الكشف عن الذات بين أولئك الأشخاص الذين يتصفون بسوء التوافق والذين يعانون من الأشكال المختلفة من اضطرابات الشخصية⁽⁵¹⁾ .

فالشخص السوي يكشف عن افكاره ومشاعره ومطامحه فقط لأولئك الأشخاص الذين يعتقد انهم سوف يبدون فيها له وتماطفا معه والذين يبادلهم ثقة بشقة⁽⁵²⁾ .

يلخص « بارت - لينارد » في دراسته عن الشخص الناضج خصائص الشخص المتوجه خارج ذاته على النحو التالي :⁽⁵³⁾ .

- (51) Jourard, S.M. A study of 'self-disclosure. Scient. American' 1958,198,no.5,77-82. Pederson, D.M., & V.J. Breglio. Personality correlates of actual self-disclosure. 'psychol. Rep.' 1968,22,495-501
- (52) Jourard, S.M. Healthy personality and self-disclosure. Ment. Hyg. N.Y., 1959,43: 499-507.
- (53) Barrett-Lennard, G.T. : The mature person Ment. Hyg. N.Y., 1962,456,98-102.

« الشخص المتوجه خارج ذاته يتزع بصلق الى تقدير وتقييم الآخرين كما يقدر ويقيم ذاته . وهو يبدي ارتياحا للآخرين وانفتاحا عليهم لأنه مرتاح ومفتوح مع نفسه وهو ليس بمحاذر او مجداف عن نفسه لأنه لا يوجد لديه ما يخفيه . وهو لا يمسخ نفسه لكي يرضي الآخرين كما لا يستخلمهم على انهم كباش فداء لعدم رضاه عن نفسه » .

النضج الانفعالي

يمثل مقوما أساسيا للشخصية السوية . فبقدر ما يكون الشخص ناضجا انفعاليا ، تكون قدرته على أن يحيا حياة سعيدة نافعة فعالة ، وأن يواجه عوامل الضغط والشدة وما يرتبط بهامن احباطات وقلق في العالم المحيط به .

والشخص الناضج انفعاليا يتسم بالضغط الانفعالي - فهو يضطلع بمسئولية اخضاع انفعالاته تحت ضبطه وسيطرته حتى لا يسبب اذىا لغيره او لنفسه ، فهو قادر على مواجهة الاحباطات دون عنف او تدمير .

والشخص الناضج انفعاليا يستطيع ان يعيش مع انفعالاته في ارتياح ، بدون أن تسيطر عليه ، وبدون أن تلون تفكيره وتوجه سلوكه ، وبدون أن يجد أنه من الضروري أن يكون في حرب معها بصفة مستمرة . وهو مقتدر في ذلك لأنه قد تمت فيه درجة من تحمل الضغط أو الشدة stress tolerance تحمل القلق ، الاكتئاب ، الاحباط ، تحمل الألم والحزمان . وإذا لم يكن كذلك ، فإنه سوف يتعرض باستمرار للاضطراب الانفعالي حتى اذا تعلم كيف يقمع انفعالاته الى درجة أن الآخرين قد يعتبرونه ناضجا انفعاليا .

يحدد « فرانز الكسنر » مضمون النضج الانفعالي بأنه قهر للاحاساس بعدم الامان ، واتزان في المشاعر والاستجابات الانفعالية . والنضج الانفعالي يتضمن بذلك اختيارا لمقدرات الفرد ازاء حقائق الحياة ومعرفة بماهية هذه المقدرات ، وبالتالي فإن الشخص الناضج انفعاليا يكون قد أثبت نفسه للآخرين ، وهو راض عن نفسه ، فلا يستحوذ عليه عله الذاتي : بل يقدر على أن يحول اهتمامه الى خارج ذاته تجاه بيئته الاجتماعية والمادية (٥٤)

(54) Alexander, F. Emotional maturity. *Mental Health Bulletin of Illinois Society for Mental Hygiene*, 1948, 26, 1-4.

والشخص الناضج انفعاليا ناضج اجتماعيا في الغالب - فهو قادر على اقامة علاقات اجتماعية سليمة تقوم على الاخذ والمطاء البينين مع الآخرين ، وهو فعال منتج في عمله ، وهو اذ يحقق ذاته في العمل يسعى الى تحسين عمله وتنمية دوره فيه .

وهو يتميز بالمرونة والمرونة ، فيستطيع مواجهة حقائق العالم الخارجي ، ويتقبل حقيقة الظروف المتغيرة ، ولا يثبت على أن « يعيش في الماضي » ولا يتمسك بنمطية جامدة من السلوك . ويعني ذلك أيضا مقدرته على مواجهة المواقف الصعبة على اساس من الوعي والسعي والتحمل وبذل الجهد (٥٥) .

اما الشخص غير الناضج انفعاليا ، فتسيطر عليه انفعالاته ، وبالتالي فهو أقل سيطرة عليها وضبطا لها . وهو يتسم بالهزل ، وحلة الاستشارة ، والتناقض الوجداني ، والتقلب المزاجي ، والنزعة الى العدوان ، ويوجه حياته الوجدانية بمبدأ السعي وراء اللذة أساسا . وهو شخص جامد ، قليل الحيلة ، يشعر بالتوتر ازاء أبسط المشكلات التي كثيرا ما يهرب منها او يعالجها بطريقة غير بناءة . ويتسم سلوكه بالحدودية التي لاتتلاءم إلا مع الأشخاص الأصغر منه سنا ، وبالتالي فهو يبدي عجزا في الحصول على الاشباع المرتبطة بسلوك الراشدين (٥٦) . ويرتبط الضبط الانفعالي بالضبط المعرفي عند الشخص السوي . فمقدرته على التحكم في انفعالاته تخضع أيضا لوعي المعرفي ولثراء خبراته ومعلوماته . ولذلك فهو أقدر على تنظيم وضبط انفعالاته ودوافعه .

يطلق « كلاين » على هذه القدرة مصطلح « الضبط المعرفي » cognitive control ، مؤكدا بصفة خاصة على أهمية الانتباه الانتقائي selective attention - أي الانتباه للجوانب ذات الأهمية الأكبر ، وليس لكل الجوانب في البيئة - في تنظيم السلوك وضبطه (٥٧) . وقد توصل « لازاروس وآخرون » الى أن الكثير من اضطرابات الشخصية يميزها الى تضلل لآليات الانتباه الانتقائي والضبط المعرفي للدوافع والانفعالات (٥٨) .

(55) Ibid.

(56) Cantril, H. The "why", if man's experience. New York : Macmillan, 1950, p.128.

(57) Klein, G.S. Need and regulation. In M.R. Jones (Ed.), Nebraska Symposium on Motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press 1954.

(58) Lazarus, R.S., et al. : Personality and psychological stress. Journal of personality' 1957, 25, 539-577.

امسا « زيمباريو » في كتابه « الضبط المعرفي للدافعية ، cognitive control of motivation ، فيؤكد على الدور الذي تباشره المعارف في تنظيم الجانب الدافعي - الانفعالي من بناء الشخصية ، وبالتالي في تعديل السلوك وضبطه وتوجيهه .^(٥٩)

تحقيق الذات :

يسيطر على معظم نظريات الدافعية مفهوم الاتزان homeostasis ويعني الاحتفاظ بحالة من الثبات ، وما يتضمنه ذلك من التغلب على القصور والمعجز ، واختزال التوتر ، واستعادة حالة التوازن . ولكن هذا المفهوم لا يفسر سلوك المكتشفين والعلماء والمبدعين والطموحين والانجازيين ، كما لا يقدم تفسيراً كافياً لاستمرار الفرد في النمو والارتقاء .

فالإنسان يسعى الى ان ينمو ، وأن يتحسن ، وأن يصير أكثر مقدرة ، وأن يعبر عن نفسه - أي أن يحقق إمكاناته وأن يثبت ذاته ككائن انساني . يوضح « هكسلي » ذلك فيما يلي :^(٦٠)

« ان الحياة الانسانية كفاح - ضد الاحباط ، والتجاهل ، والمطاعة ، والشر ، والقصور بصفة عامة ، ولكنها أيضا كفاح من أجل شيء ما ويدل أن مصطلح تحقيق ، أكثر من أي كلمة أخرى ، يصف الجانب الايجابي من النمو الانساني والارتقاء الانساني - أي تحقيق الامكانات الكامنة بواسطة الفرد والامكانات الجديدة بواسطة الجنس البشري ، واشباع الحاجات ، النفسية والمادية ، وغو خصائص جديدة للخبرة يستمتع بها الفرد ، وبناء الشخصية » . فالهدف من السعي الى تحقيق الذات actualization strivings ليس هو الاحتفاظ بحالة التوازن أو الوضع الراهن ، وإنما هو التحسن والنمو .

يضع « ماسلو » تحقيق الذات على قمة النظام الهرمي للحاجات الانسانية الرئيسية (الحاجات الجسمية ، حاجات الأمن ، حاجات الحب ، حاجات الاحترام والتقدير ، الحاجة الى تحقيق الذات) . يرتبط تحقيق الذات بما يحفز الفرد الى الانجاز والتحصيل والتعبير البناء عن الذات : ان

(59) Zimbarbo, P.G. *The cognitive control of motivation*. Illinois : Scott, Foresman and Co., 1969, P. II.

(60) Huxley, J. *Evolution in action*. New York : Harper, 1953, pp. 162-163.

يكون مبدعاً ومتجاً ، ان يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة له وللآخرين ، أن يحقق إمكاناته ويترجمها الى وقائع سلوكية حية^(٦١) .

فالحاجة الى تحقيق الذات هي « رغبة الانسان في مطابقة الذات self-fulfillment ، أي ميلاً الى أن يصبح مالمديه من إمكانات potentials محققاً ، وبالتالي صيرورة طاقاته الداخلية الكامنة حقيقة واقعة »^(٦٢) .

لذلك فإن الشخص المحقق لذاته هو الذي يتصف به الشخصية كاملة التوظيف « fully functioning personality (روجرز) أو « الذات كاملة التوظيف »^(٦٣) - ing self (كيل) . ومعنى ذلك أن الامكانيات الكامنة في الشخص المحقق لذاته تكون في حالة من التوظيف الأمثل ، وفي مستوى أمثل من الصيرورة . وبذلك يقل الفاقد في فعاليته في الوجود ، لأنه يشغل إمكاناته وينميها ، يعمل وظيفياً باقصى ما تؤهله له طاقاته .

لهذا يعتبر « ماسلو » : الأشخاص المحققين لنواتهم self - actualizing persons : متكلمي النضج ، ومتكلمي الانسانية fully - human . فهم أشخاص قد تحقق لهم بالفعل وبطريقة ملائمة أشباع في كل حاجاتهم الرئيسية (الى الانتباه ، والعطف ، والاحترام ، واحترام الذات) . ومن ثم فهم يتسمون بالشعور بالانتباه وبالتأصل rootedness ، وهم مشبعون في حاجاتهم الى الحب ، ولديهم أصدقاؤهم ، ويشعرون بالحب ، وأنهم مستحقون للحب وأهل له love - worthy ، وهم يخطون بمكانة ويوقع في الحياة باحترام الآخرين لهم ، ويتمتعون بشعور عاقل بالجدارة او الاستحقاق واحترام الذات^(٦٤) .

هكذا ، يعتبر أصحاب « الترجمة الانساني في علم النفس » الشخصية السوية او الصحية هي الشخصية المحققة لذاتها .

(61) Maslow, A.H., *Motivation and personality*. New York : Harper & Row pub., 1954, Ch. 5.

(62) Ibid, pp. 91-92.

(63) Rogers, C.R. *On becoming a person*. Boston : Houghton Mifflin, 1961.

(64) Kelly, E.C. The fully functioning self. *Interpreting 'behaving' becoming*. Yearbook of Association for Supervision and Curriculum Development, 1962.

(65) Maslow, A.H. A theory of metamotivation : The biological rooting of the value-life *Journal of Humanistic Psychology* 1967, Fall, 93-127.

الاستمرار في النمو الشخصي :

من الخصائص المميزة للإنسان بصفة عامة وللشخص السوي بصفة خاصة قابليته المستمرة للتعلم المتعاظمة على الخبرة ، وبالتالي استمراره في النمو والارتقاء .

يتضمن النمو الشخصي بالضرورة تنابعا « حلزونيا » يقوم على التضاضل والتكامل : تزايد في المعارف والمهارات والخبرات والمقدرات كما وكيفا ، واستيعابها في مستويات من تكامل الشخصية أكثر تعقيدا وارتقاء . هذا النمو الشخصي يركز إلى مقومات محددة ، تقع في وحدة أو أكثر من الفئات التالية : (٦٦)

١ - استقلال ذاتي متزايد - التغير في اتجاه المزيد من الاعتماد على النفس ، ومن اعتبار الذات ، ومن توجيه الذات . ويتضمن ذلك تحررا من المؤثرات الاجتماعية غير اللائمة ، وتزيادا في القدرة على اتخاذ القرارات وتحمل المسؤوليات بشأن نتائج هذه القرارات ومواجهة مرتباتها .

٢ - إطار مرجعي أكثر كفاية - التغير في اتجاه استيعاب المزيد من المعلومات الأكثر دقة عن ذات الفرد وعن عالمه . هذا التغير يؤدي إلى واقع أكثر قبلا وإشباعا ، وإلى فهم معنى أعظم ، وإلى مقدرة أكبر على حل المشكلات واتخاذ القرارات .

٣ - هوية ذاتية أكثر ملاءمة - النمو في اتجاه احساس متمايز لدى الفرد بذاته كشخص كفء ومقتدر ، وكشخص خالق لأفعاله ومسئول عنها . ومن الأهمية كذلك في هذا الشأن ، مايقوم به الشخص من تقييم واع لقدراته ولجوانب ضعفه ، مع تبني الشخص لمستوى واقعي من الطموح يقوم على الانسجام المعقول بين مفهوم الذات والذات المثالية .

٤ - اقتدار متزايد - التغير في اتجاه المزيد من الاقتدار العقلي والانفعالي والاجتماعي . مثل هذا التعامل يؤدي إلى مقدرة أكبر على التمكن من مواجهة مشكلات الحياة ، ومن تنفيذ خطط الفرد وبرامجه في الحياة . وينطوي على تحسن في علاقات الفرد ، عمقا وثراء ، مع بيئته الاجتماعية .

(66) Coleman, J.C. *Psychology and effective behavior*, Bombay : Taraporevala Sons & Co., 1971, pp. 446-447.

• حل الصراعات - فك الدفاعات وحل الصراعات ، بحيث يتمخض عن ذلك تحرر الفرد « من الداخلي » ، وانفتاح متزايد على الخبرة ، ومزيد من الانسجام أو الاتساق الداخلي ، ومزيد من تحمل التوتر ، ومزيد من المرونة العامة .

هذا المقومات التي يتركز عليها استمرار الشخص في نموه وبالتالي في ضرورية ارتفاعيته ، تكون هكذا في اتجاه المزيد من تحقيق الشخص لامكانياته الكامنة . وهي تغيرات تؤول بالفرد الى التعبير الخلاق عن الذات ، والى اتجاهات أكثر ايجابية نحو الذات ونحو الآخرين ، والى علاقات قائمة على الدفاء والحب ، والى احساس أكبر بالانتماء الى الانسانية جمعاء .

ومن ثم ، لا يكفي للشخص ان يحقق ذاته ، وانما استمراريته في تحقيق الذات . فالتنمو بحاجة الى المزيد من النمو ، والصحة النفسية بحاجة الى مزيد من الصحة النفسية . فليس المهم أن يصل الفرد الى القمة وانما الالام ان يحتفظ بها • . هكذا يتصاعلم ارتفاع الشخصية ، وصلا بها الى مستوى « التسامي بالذات » .



خلاصة وتعليق

عرضنا بالتحليل لأبرز الخصائص التي تتميز بها الشخصية السوية ، وهي خصائص متعددة ، ومتداخلة فيما بينها ، بل وكثيرا ما يتعذر الفصل بينها على نحو قاطع .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : « هل الشخص السوي يتصف بالضرورة بكل هذه الخصائص ؟

ان الشخصية السوية لا تتصف بالضرورة بكل الخصائص السابقة الذكر - فليس هناك من خاصية واحدة ترتبط بحسن توافق الفرد مع نفسه ، ومع الآخرين ، ومع الحياة بصفة عامة . كذلك لا يعني غياب خاصية أو أكثر من هذه الخصائص أنه دالة بالضرورة على سوء التوافق أو مرض الشخصية .

وإذا كان الباحثون في « علم الاعراض » symptomatology لا يهتمون في تشخيصهم لمرض

(٥) راجع في هذا الصدد كتاب : علم النفس المرضي : العلم الذاتي وارتفاع الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ ، ص ١٩ ، ٢١ .

معين ، جسمي او نفسي او عقلي ، على عرض بعينه ، او على بعض الاعراض غير المترابطة فيما بينها ، وانما يعتمدون على ما يعرف بـ « التشخيص الفارقي » differential diagnosis أي يعولون في تشخيصهم لمرض معين ، تمايزا عن أي مرض آخر ، على « تجمع » clustering مجموعة مترابطة من الاعراض . فالتشخيص الفارقي لا يعتمد على عرض معين او على أعراض منعزلة ، وانما على « زملة » syndrome من الاعراض - وهي مجموعة متزاملة من الاعراض تميز مرضا عن آخر .

قياسا الى ذلك ، فان خصائص الشخصية السوية عند شخص ما ليس بالضرورة أن تكون هي نفس الخصائص المميزة لشخص سوي آخر . يدعونا ذلك الى التحليل النوعي للشخصية السوية ، ليس وفقا لخصائص مطلقة ، وانما وفقا لما يمكن أن يطلق عليه « زملة الشخصية السوية » (heal thy personality syndrome) - أي على أساس تزامن مجموعة من الخصائص تتحدد « تفرد » الشخصية عند شخص سوي عن شخص سوي آخر .

ومع ذلك ، ثمة صورة عامة تتضمن عددا من الخصائص المشتركة التي تتفق عليها معظم النظريات والدراسات النفسية كخصائص مميزة للشخصية السوية بصفة عامة ، وكمحركات تستخدم غالبا في تقديرها . وفي ذلك تقدم « جاهودا » ملخصا بالخصائص الرئيسية العامة المميزة للشخصية السوية كما اتفقت عليها معظم الدراسات النفسية فيما يلي : (٦٧)

اتجاهات نحو الذات : مفهوم واقعي للذات ، الموضوعية نحو الذات ، وإحساس واضح بالهوية ، تقبل الذات .

النمو ، الارتقاء ، التحقيق : دافعية نحو النمو والارتقاء ، تحقيق الامكانات الكامنة .

التكامل : انسجام واتساق بين الجوانب المكونة للشخصية ، فلسفة متعددة للحياة ، تحمل للضغط والشدة .

(67) Buhler, C.A. Brind, and A. Horner. Old age as a phase of human life. Hum. Develop. 1968, 11, 53-63.

(68) Jahoda, M. Current concepts of positive mental health. Joint commission on Mental Illness and Health.

Monograph Series No. 1. New York : Basic Books, 1958.

الاستقلال : توجيه ذاتي ، مع إدراك للذات على أنها جزء لا يتفصل عن كل أكبر .

ادراك الواقع : ادراك موضوعي ، التحرر من الحاجة الى المسخ والتشويه ، مقرونا بحساسية اجتماعية .

التمكن من البيئة : الكفاية في الحب ، والعمل ، واللعب ، مع القدرة على حل المشكلات الجديده . ويلخص « بين » أيضا الخصائص الرئيسة للشخص السوي على النحو التالي : (٦٩) .

« الشخص السوي يفكر ، ويعمل ، ويحترق وفقا لما هو متوقع منه . ومسوح له به داخل مجتمعه »

وحياته التي يقودها هو تلقى منه رضا وتحلق فيه استشارة . وهو قد اعتاد السعادة ، وعند عاده تكوين العادات واستبعاد عادات بفاعلية . وهو ليس بخائف بشكل غير ملائم من المستقبل ، ولا بمشغول الى الماضي وهو لا يعاني من احسان بالخيطية ولكنه يفيد من الخبرة . وهو لديه احسان ثابت بالبرح يحمله يضحك مع الناس ، لا عليهم .

وهو يعرف حدوده ومقدراته ، ويسلك وفقا لذلك ، وهو لديه حكم دقيق شديد عن الآخرين وعن نظرتهم اليه وهو يحدد أهدافه ويثله على أساس اتساقها مع معرفته عما هو « ممكن » ، وهو متفتح اللهن بشأن ما هو ممكن ومحتمل . وهو يحترم نفسه لأنه يحترم الآخرين وهو يسعى الى ما يحقق إمكاناته طالما ان ذلك لا يحول دون تحقيق الآخرين للواتهم .

يقدم « إدوارد جوزيف شوبان » (٧٠) : نموذجا للصورة العامة للشخصية السوية يطلق عليه : نموذج التوافق التكامل **Integrative-adjustment** . وهو توافق ايجابي يركز على الضبط الذاتي ، والمسئولية الشخصية ، والمسئولية الاجتماعية ، والاهتمام الاجتماعي الديمقراطي ، والمثل العليا . هذا النموذج يستبعد التصور المستحيل للشخص السوي على أنه ذلك الشخص الذي يكون

(69) Baip, R. Making normal people. Marriage fam. Living' 1954, 16, 27-31.

(70) Shoben, E.J. Toward a concept of the normal personality. American Psychologist' 1957, 12, 183-189.

سعيدا دائما ، خاليا من الصراع ، وبلا مشكلات . أما الشخص الذي يتفق مع هذا النموذج ، فهو الشخص الذي يتمتع بدرجة عالية من الانساق الداخلي ، ومن احترام الذات ، والذي يستشير في الآخرين وحوود أفعال إيجابية ودافعة .

إن الخصائص الرئيسية التي يمكن أن تؤلف الصورة العامة للشخصية السوية هي تحقيق لأصالة إنسانية الانسان ولبوهر طبيعته الانسانية . والشخص السوي بذلك يتميز بحساس واضح بذاته ، بأصالته .

الاحساس الواضح بالهوية : يتسم الشخص السوي بوضوح رؤيته عن نفسه وباحساسه الواعي بهويته . يتوصل « كورت جولد شتين » ، في كتابه (الطبيعة الانسانية في ضوء علم النفس المرضي) ، الى نتيجة عامة تؤكد أن الانسان تحركه من الداخل قوى أصيلة لكي ينطلق في الحياة ، ولكي يوظف إمكاناته وطاقاته وفقا لأحسن مستوى تؤهله له ، ولكي يحقق وجوده على الرغم مما قد يواجهه من معوقات . ومن ثم فإن توجه الانسان السوي في الحياة ينطلق من سعيه الأكيد لأن يكون نفسه «^(٧٦)» .

هذا الاحساس الواضح بالهوية يحدد مبادئ هامة في فهم الشخصية السوية ، مثل « التمايز » و « التفرد » بين شخص سوي وآخر .

يقول « كارل روجرز » «^(٧٧) :

يبدولي ، من خلال تبني تجربة مرضى (عملاء) كثيرين في سياق العلاقة العلاجية التي نسعى الى خلقها معهم ، أن كل مريض (عميل) لديه نفس المشكلة . فتحت مستوى الموقف المشكل الذي يشكو منه الفرد - أي وراء الصعوبات أو المشكلات المتعلقة بدارسته أو زوجته أو عمله ، أو بسلكه الشاذ أو الذي لا يملك حياله قدرة على ضبطه ، أو بمشاعره الباعثة على الحوف - تكمن نزعة رئيسية الى البحث عن الهوية . فيبدولي أنه في القاع من البناء النفسي للمريض تبدل تساؤلات مثل : من أنا حقيقة ؟ كيف أستطيع التوصل الى هذه الذات الحقيقية ، التي تكمن وراء كل سلوكي الذي يطفو على السطح ؟ كيف أستطيع أن أصبح كنفي ؟ »

(71) Goldstein, K. Human nature in the light of psychopathology. Camb. Harvard Univ., 1940.

(72) Rogers, C.R. Becoming a person. Austin : Univ. of Texas, 1958, pp. 9-10.

يؤكد ذلك أيضا « كلارك موستاكاس » في دراسته عن « الاحساس بالذات » (٧٧) ، وهو إحساس يكشف عن عظمة الخبرة الإنسانية أو الخبرة الذروية - وهي الخبرة الكلية ، حيث يكون الإنسان إنسانا ، وحيث يتدمج كل عنصر في الآخر ، وحيث يعطي كل جانب معنى للجانب الآخر ؛ هذه الخبرة الكلية في وحدتها وتكامها تخلق كيانا أصيلا متمائزا ، يقوم على الاحساس الخلاق بالذات - إحساس الشخص السوي بالانسجام الداخلي ، وبالتكامل الشخصي ، وبالمعنى الإنساني لحياته . وهو إحساس بالذات ، كما تتموارتباطا بمصادرها الداخلية واتفاقا مع الطبيعة والذوات الأخرى . وهو إحساس يشعر فيه الشخص السوي بسلام مع نفسه ، وبتلقائيه وكيونته كتنفسه .

فالشخص السوي بإحساسه الواضح بهويته ، خلافا لتميع الهوية عند غير الأسوياء ، أعظم اقتدارا في توظيفه لإمكاناته وطاقاته وفي تحقيقه لذاته ، وأكثر توجهها نحو تكامل شخصيته ، وأكثر إبداعا في انتهاجه لأسلوب حياة رشيد قائم على التوجيه الذاتي المسئول ، وأكثر انفتاحا على الخبرة وأنصواء فيها ، وأكثر استمرارية في غوه وتقديمه .



تعتبر عملية الإدراك من العمليات العقلية
 للمعرفة التي يتحدد عل أساسها أسلوب تنظيم
 العلاقات المتضمنة في موقف من المواقف ،
 سواء كان تنظيم تلك العلاقات يتم في إطار نظرة
 كلية شاملة لعناصر الموقف ، أو في إطار فقرة
 تحليلية لعناصر هذا الموقف . ويعتبر الاتجاه
 المعرفي في تفسير السلوك بوجه عام الأسلوب
 الأكثر ملائمة لفهم الكثير من اساليب النشاط
 العقلي التي يمارسها الإنسان في كثير من مواقف
 حياته ، مما جعل لعلم النفس المعرفي في الوقت
 الحاضر أهمية قصوى بين علماء النفس
 والمشتغلين بالدراسات السلوكية . ويشير
 مصطلح معرفة **Cognition** الى جميع
 العمليات النفسية التي بواسطتها يتحول المدخل
 الحسي **Sensory input** فيطور ويختصر
 ويخزن لدى الفرد الى أن يستدعي استخدامه في
 المواقف المختلفة . ومن أهم العمليات النفسية
 التي تتعرض لها المدخلات الحسية ، عمليات
 الإدراك والتحليل ، والتذكر ، والاستدعاء ،
 والتخزين ، والتحويل ، والتفكير وغيرها من
 العمليات النفسية المختلفة ، ويتضح من ذلك
 ان المعرفة تدخل في جميع ما يمكن للإنسان ان
 يعقله او يمارسه في حياته بصفة عامة ، كما يتبين
 كذلك ان كل ظاهرة نفسية لدى الإنسان هي
 ظاهرة معرفية .

الأساليب المعرفية الإدراكية وعلاقتها بمفهوم التمايز النفسي

شاذيه محمود شريف

كلية التربية - جامعة الكويت

قسم علم النفس التربوي

ولما كان الإدراك إحدى هذه العمليات
 النفسية (العقلية المعرفية) فقد اهتم عدد كبير من

علماء النفس يدراسه ، ليس باعتباره وسيلة من وسائل تحديد الفروق بين الافراد في قدرتهم العقلية « الذكاء » فقط ، وإنما باعتباره من الوسائل الهامة لتحديد الفروق المختلفة التي تعكس أساليب معرفية Cognitive styles أوسع واشمل من مجرد الفروق في الذكاء ، وقد تخطى مفهوم الأساليب المعرفية الحدود التقليدية التي سارت في التصورات النظرية للشخصية الى آفاق أبعد وأعمق ، حيث تعتبر النظرة الى الشخصية من خلال هذا المفهوم نظرة كلية شاملة لا تتجزأ ، فلا ينظر الى الجوانب المعرفية للشخصية على حدة ، والجوانب الانفعالية على حدة ، واساليب التكيف وفهم الذات على حدة ، وإنما ينظر إليها على انها كل متكامل الأجزاء ، ومن هذا المنطلق فقد استخدمت تلك الاساليب المعرفية كأساس للتمييز بين الافراد أثناء تفاعلهم مع المواقف الحياتية المختلفة ، إلا ان هذا التمييز ليس تمييزاً كمياً يحدد مقدار ما يملكه الفرد من سمة من السمات او قدرة من القدرات ، وإنما هو تمييز كيفي يعتمد على الأسلوب (Style) الأكثر تفضيلاً لدى الفرد ، والذي يسلكه أثناء تفاعله وتعامله مع المواقف المختلفة ، والذي يميز بانه على درجة عالية من الثبات النسبي .

لذلك سوف تناول هذه الدراسة التعرف على بعض النقاط الاساسية في هذا المجال وتشمل :

١ - مفهوم الاساليب المعرفية (Cognitive styles)

٢ - التصنيفات والأبعاد المختلفة للأساليب المعرفية .

٣ - كيف درست الاساليب المعرفية في الادراك (بعد الاستقلال - الاعتماد الادراكي)

٤ - مدى الاستفادة من تحديد الأسلوب الادراكي المعرفي في دراسة الشخصية في المواقف الاجتماعية أو التعليمية .

اولا - مفهوم الاساليب المعرفية : (Cognitive Styles)

يقصد بالاساليب المعرفية الوان الاداء المفضلة لدى الفرد لتنظيم ما يراه وما يدركه حوله وفي اسلوبه في تنظيم خبراته في ذاكرته ؛ وفي اساليبه في استدعاء ما هو مخزن بالذاكرة ، بمعنى آخر فانها الاختلافات الفردية في أساليب الادراك والتذكر والتخيل والتفكير ، كما انها ترتبط بالفروق الموجودة بين الافراد في طريقتهم في الفهم والحفظ والتحويل واستخدامات للمعلومات وقهم الذات (Messick , 1976)

وقد يتبادر الى الذهن في هذا الصدد سؤال هام هو : ما الفرق بين مفهوم الذكاء الذي يشتمل على مثل تلك العمليات وبين مفهوم الأساليب المعرفية ؟

يتضح الفرق الرئيسي بين كلا المفهومين عندما نعرف أن مفهوم الذكاء او القدرات العقلية يعنى بالدرجة الاولى بمستوى المهارة (Level) او الاداء . بمعنى انه كلما زادت الدقة والمهارة في اداء عمل من الاعمال او حل موقف من المواقف عبر ذلك عن مستوى عال للذكاء او القدرة ، وكان ذلك افضل او أكثر تعبيراً عن قدرة أكبر لما يمتلكه الفرد من الصفة التي نحن بصددها . في حين أنه كلما انخفض مستوى الاداء او مستوى الدقة في موقف من المواقف كان ذلك دليلاً على ضعف القدرة العقلية او الذكاء ، أو معبراً عن قدرة اقل لما يمتلكه الفرد من صفة من الصفات (Messick, 1976)

اما الأساليب المعرفية فانها تهتم بالدرجة الأولى بحالة (manner) او شكل form النشاط المعرفي الذي يتم به اكتساب أو اداء سلوك ما . فهو مفهوم يتعلق بشكل النشاط المعرفي الممارس وليست بمحتواه . وبالتالي فهو يشير الى الفروق الفردية في الطريقة او الاسلوب الذي يتركب به الأفراد كل ما يدور حولهم ، او عندما ينكرون كل ما يواجههم من مشكلات . وقد اشرنا من قبل الى ان مفهوم الأساليب المعرفية مفهوم يستخدم في الوقت الحاضر كأساس لتحليل الفروق بين الأفراد ولكن بطريقة تختلف كثيراً عما هو شائع في مجال دراسة الفروق الفردية .

فقد ألف الناس ان يصنف الأفراد حسب ما يتصفون به او ما لا يتصفون به . من سمات فيقال إن شخصاً له موهبة موسيقية ، وآخر له موهبة للزمنم او الرياضة او غير ذلك ، ويتم هذا التصنيف او التمييز بين الأفراد بناء على اعتبارات عملية خالصة . فالشخص الذي يمتلك قدراً معيناً من القدرة الموسيقية تصبح امكانية تقبله في مهنة الموسيقى أكبر وأكثر احتمالاً . اما إذا كانت درجته دون هذا الحد الأدنى فانه لا يعتبر موسيقياً . كذلك نعودنا على ان نصف الفرد حسب خواصه وقدراته البارزة ، بينما نتجاهل ببساطة السمات التي يقترب فيها الانسان من المعيار المتوسط ، علماً بأن أي مهمة من سمات الشخصية يمكن توزيعها على طول مقياس متدرج ومستمر . لذلك كان من غير الملائم أن نصف الأفراد الى اثنائتين متمايزتين اشد التمايز كما يتضح من هذا الاسلوب الكمي ، كما انه ينبغي عدم الاعتماد على تحديد القدر او الكمية التي يملكها الفرد لسمه من السمات بحيث يتحدد مصيره سواء في حياته العملية او التعليمية على أساسها . وإذا كان استخدام مفهوم الأساليب المعرفية في الوقت الحاضر كأساس للتمييز بين الأفراد يقوم على أساس تجميع الخصائص الفردية من اثنائتين متمايزتين ، فان هذا التصنيف ليس يفرض المقاضلة بين نمط وآخر ، وإنما يفرض تحديد مجموعة الخصائص والمواصفات

الكلية الشاملة التي تميز بين ذوي الأساليب المعرفية المختلفة في تعاملهم مع الموضوعات الحياتية المختلفة ، ولذلك فإنه يعتمد على تحديد الطريقة أو الشكل الذي يمارس به الفرد أي نشاط من الأنشطة ومدى الثبات النسبي الذي يمكن ملاحظته في مختلف الأنشطة التي يقوم بها الفرد . لذلك فإنه يقال أن الأساليب المعرفية لا تهتم بمحتوى النشاط ومقداره بقدر اهتمامها بالعمليات النفسية والطريقة الخاصة التي يمارس بها الفرد ذلك النشاط . (Witkin, 1974)

كذلك يختلف مفهوم الأساليب المعرفية واستخدامه كوسيلة لتحديد الفروق بين الأفراد عما كان شائعاً في وقت من الأوقات ، والمعروف باسم نظريات الانماط التي كان كل تركيزها هو محاولة تحديد العلاقة بين السمات الجسمية والنفسية وتصنيف الأفراد تبعاً لواحد منها . فبالرغم من أن نظريات الانماط قد استقبلها الناس في وقت من الأوقات بشغف شديد وقبول كبير باعتبارها طريقة مختصرة لفهم الطبيعة الإنسانية إلا أن أهم ما يؤخذ عليها هو استخدامها للتقسيم الثاني بين نمطين تكوينيين متعارضين ، فمن الناحية الجسمية تفرق النظريات النمطية بين الجسم الطويل الذي له أطراف طويلة نسبياً ، والتكوين الخليط القصير الذي له جذع كبير وأطراف قصيرة . ومن ناحية الشخصية تجد في أحد الطرفين الشخص الاجتماعي الذي يكون مع غيره علاقات منسقة بسهولة ويسر وفي الطرف الآخر الشخص غير الاجتماعي (Anastas, 1965)

ومن النظريات التي أثرت تأثيراً كبيراً في دراسات الشخصية في مرحلة من المراحل نظرية كرتشمير للانماط حيث صنف الأفراد على أساس النواحي الجسمية إلى أربعة أنواع (المكتنز والرياضي والواهن ، والمشوه البنية ،) وحاول أن يوجد علاقة بين انماط الجسم وبين النواحي المزاجية ، فالمكتنزون يميلون إلى أن يكونوا اجتماعيين ، واقعيين ، في حين أن النحيفين يميلون لأن يكونوا هادئين متحفظين ، ويميلون إلى الوحدة .

كذلك أظهرت محاولة شلرن أنه يمكن تقسيم الناس إلى مجموعات تبعاً لثلاثة مكونات .

(١) المكون الحشوي (٢) المكون الجلدي (٣) المكون العقلي . ويقابل كل منهم خصائص مزاجية خاصة .

كذلك ظهر تقسيم آخر قدمه كارل يونج للأفراد تبعاً لخصائصهم ، وحيث صنف الأفراد على

اساس المنطوي ، والمنبسط وارتبط بكل غمط منها خصائص وسمات معينة ، فقد اشار يونج الى ان المنطوي يميل الى الانسحاب ، والاختلاء بنفسه ، ويفضل العمل الانفرادي ، في حين ان المنبسط يميل الى الاقبال والاجتماع بالآخرين ، ويفضل العمل في وسط الجماعة ، وعلى الرغم من التشابه الذي يمكن ملاحظته بين نظريات الانماط وبين الأساليب المعرفية باعتبارهما اساليب لتصنيف الناس الا ان هناك فروقا جوهرية فيما بينها تتضح فيما يلي :-

١- ان نظريات الانماط المختلفة تعتمد في تصنيفها للأفراد على التطرف والتمييز في النواحي الجسمية وعلاقة ذلك بالنواحي المزاجية للشخصية ، في حين أنه الدراسات والبحوث المختلفة اظهرت وجود ارتباط ضعيف وقليل بين التكوين الجسمي والتكوين المزاجي .

٢ - ان نظريات الانماط تنظر الى الشخصية الانسانية كنتيجة للدراسة البيولوجية وهذا ما يتضح من اعتماد تلك النظريات على الخصائص الجسمية بالذات ، وبالرغم من اهمية الجسم للشخصية الا ان الشخصية بصفة عامة تتضمن العلاقات بين الناس ، والآثار الثقافية ، واثار التنشئة الاجتماعية حيث تلعب جميعها دورا هاما في تحديد خصائص الشخصية وسماتها المختلفة .

٣ - ان التصنيف تبعا للأسلوب المعرفي يؤكد على انه ليس تصنيفا ثنائيا للأفراد في انماط متميزة ، وانما يقصد به ان الافراد يتوزعون على سلم متدرج ومتصل وأنه توزيع اعتدالي بحيث يصبح للبعد المعرفي الواحد متوالا واحدا وليس متوالين كما تعني نظرية الانماط . بمعنى اخر فان توزيع الناس الى (مستقل ادراكيا - معتمد ادراكيا) انما يمثل تدرجا متصلا وانما ليس الا طرفين لمقياس واحد . فهما يختلفان كما يختلف الطويل عن القصير ، او يبعد احدهما عن الآخر في اتجاهين مختلفين بالنسبة لنقطة متوسطة ، وانه حينما نحلل نتائج الاختبارات التي تقيس تلك الجوانب المعرفية المختلفة تحليلا عامليا فاننا يمكننا ان نتوصل الى عوامل كثيرة Messick, 1976 وبناء على ذلك فانه يمكننا ان نجعل اهم الخصائص التي تميز الأساليب المعرفية ونجعلها اسلوبا يختلف عن الأساليب الأخرى التي تعمل على تجميع الخصائص الفردية في انماط كلية فيما يلي :

١- ان الأساليب المعرفية هي ابعاد مستعرضة ، فمكننا من النظر الى الشخصية بطريقة كلية .

فالاساليب المعرفية لا تقتصر على الجانب المعرفي من الشخصية فقط ، بل هي اساس لتحديد عليه جميع جوانب الشخصية الأخرى . بالاضافة الى ذلك فان قياس تلك الأساليب المعرفية والذي يعتمد

على استخدام الاختبارات او الوسائل غير اللفظية يمكنه ايضا ان يقيس ويمجد جوانب غير معرفية للشخصية .

٢- ان مفهوم الاساليب المعرفية يتعلق بشكل النشاط الممارس وليس بمحتواه ، فهو فروق ترتبط بالطريقة التي يدرك بها الافراد ويفكرون ويحلون مشكلاتهم ، ولذلك فان الاساليب المعرفية تتحدد في عبارات العمليات النفسية (Psychological Processes)

٣- على الرغم من ان مفهوم الاساليب المعرفية قد يوحي بانه مفهوم ثنائي القطب الا ان ذلك يخالف للواقع . فبما لهذا المفهوم لا يكون لدينا نمطان متمايزان في اساليب الادراك ، بل هو توزيع متصل يبدأ من أحد الطرفين وينتهي بالآخر . واذا كانت تلك الخاصية وهي « الاستمرارية » موجودة ايضا في مفهومنا للفروق الفردية بصفة عامة إلا أنها لا تظهر بهذه الصورة في الممارسات التي تعتمد على قياس الكم الذي يملكه الفرد لسمات من السمات . فمثلا كلما زاد ذكاء الفرد او زادت قدرة معينة لديه كان ذلك افضل او معبرا عن مستوى أفضل ، اما بالنسبة للأساليب المعرفية فان كل قطب له قيمته في ظل شروط خاصة .

٤- واخيرا فان الاساليب المعرفية تعتبر اساليب ثابتة نسبيا لدى الافراد ، وان كان ذلك لا يعني انها غير قابلة للتعديل او التغيير تماما ، بل يمكن تعديلها وتوجيهها ، وانما ليس بصورة سريعة او مفاجئة في حياة الفرد العادية . ومن هنا كانت وسيلة في التنبؤ بسلوك الافراد في المواقف التالية . (Gooale-
Wilkin, 1974) , (Karp, 1967)

ثانيا - التصنيفات والأبعاد المختلفة للأساليب المعرفية :-

اشرنا من قبل الى ان مفهوم المعرفة (Cogniton) يشير الى جميع العمليات النفسية التي بواسطتها يتحول المدخل الحسي فيطور ويختصر ويخزن لدى الفرد في تنظيمه العقلي المعرفي ، وان هذه العمليات العقلية المعرفية تتضمن الادراك والتذكر ، والاستدعاء والتخزين ، والتفكير وغيرها ولقد اختلفت التسميات المستخلصة في الحديث عن الأساليب المعرفية فظهرت تسميات مثل الاساليب المعرفية (Cognitive Styles) واساليب التحكم المعرفي ، (Cognitive Control)

والاستراتيجيات المعرفية (Cognitive Strategies) والواقع ان كل هذه التسميات وما تبعها من تصورات كان راجعا الى اختلاف النظرة الفلسفية او التصور النظري وراء كل باحث اكثر من كونها اختلافات في شرح او تفسير الظاهرة نفسها .

ومهما تكن الاختلافات في التسميات إلا أنه أمكن للعلماء امثال دمكمن ، هرمان ، كوجان ، وميسك وغيرهم من تحديد مجموعة من الاساليب المعرفية التي تميز الافراد في تعاملهم مع مواقف الحياة المختلفة ، والتي تعتبر اساسا يعتمد عليه بدرجة كبيرة من الدقة في التنبؤ بالوان سلوك الافراد من مواقف الحياة المتنوعة ، وفي تفسير كثير من جوانب الشخصية ، وقد افترض المهتمون بكل اسلوب من تلك الاساليب المعرفية بان التعرف على الاسلوب المعرفي للفرد والذي يعتبر اكثر تفضيلا لدى صاحبه يساعد بطريقة أو بأخرى في فهم الوان السلوك الانساني بصفة عامة ، كما تمذنا بالمعلومات اللازمة عن خصائص الشخصية وبنائها ، وقد اشار ميسك (١٩٧٠) الى ان هناك عشرة انماط اساليب معرفية يمكن استخدامها مجتمعة ، او استخدام كل منها على حدة للتمييز بين الافراد ، إلا أن بعض هذه الانماط قد نال عناية واهتمام علماء النفس وباحثهم ، في حين أن بعضها الآخر مازال غامضا ويحتاج الى كثير من الدراسات والبحوث .

ويمكن اجمال هذه الاساليب المعرفية بابعادها المختلفة فيما يلي :-

١- بعد الاستقلال - الاعتماد الادراكي (De-Independent, Fielol — Fielol)

pendant)

ويرتبط هذا الاسلوب المعرفي بمدى الفروق الموجودة بين الافراد ومدى الثبات النسبي الذي نلاحظه في سلوك كل منهم في تفاعله مع عناصر الموقف المحيط به . حيث يظهر ان هناك افراد لديهم القدرة على عزل وانتزاع الموضوع المدرك بما يحيط به في المجال ، في حين ان هناك آخرين لا يستطيعون التعامل مع ميزات الهيئة بصورة منعزلة او غير معتمدة على المجال ، علما بان تصنيف الافراد تبعا لأسلوبهم الادراكي المعرفي (مستقل - معتمد) لا يعني الثنائية ، وانما هو توزيع متصل ، كما يرتبط بكل بعد من البعدين خصائص وسمات معينة ترتبط بالوان التفضيل المهني والاجتماعي والعلمي . ويعتبر هذا الاسلوب المعرفي في بعده (المستقل - للمعتمد) من اكثر مجالات الاساليب المعرفية دراسة ويبحث ، ومستقر دراستنا الحالية للتعرض لهذا الاسلوب المعرفي فقط . وسيجيء ذلك بعد استعراض سريع للاساليب المعرفية الاخرى (Witken Oltman, 1973)

٢ - بعد التريث - الاندفاع :- Reflection Versus Impulsivity

ويرتبط هذا البعد بالفروق الموجودة بين الأفراد في سرعة استجاباتهم للمواقف المختلفة . ويرتبط بذلك أيضا مدى كفاءة البدائل التي يقدمها الفرد كفروض أو أسس لحل المواقف أو المشاكل التي تصادفهم .

فالأفراد الذين يطلق عليهم مصطلح اندفاعي (**Impulsive**) يميلون إلى إصدار وتقديم أول استجابة تطرأ على أذهانهم والتي غالبا ما تكون غير صحيحة ، في حين أن من يطلق عليهم مصطلح **Selective** (مثير) يميل إلى معالجة مختلف البدائل وتقديم الفروض والتحقق في الاستجابة قبل إصدارها أو قبل اتخاذ قرار ما . (Kayn and Kogan, 1970 Kogan and Messen . 1975)

٣ - بعد تكوين المبركات (Conceptua Lizing Styles)

ويرتبط هذا البعد بذلك الثبات النسبي الذي يلاحظ في أداء الأفراد وتعاملهم مع الخصائص المختلفة للمثيرات المختلفة . وفي أسلوبهم في تكوين المبركات . حيث يتضح أن هناك مجموعة من الأفراد يعتمدون في تكوين مبركاتهم على العلاقة الوظيفية الموجودة بين المثيرات **Zelational Con** **Coptualizing** في حين توجد مجموعة أخرى من الأفراد يميلون إلى تكوين مبركاتهم عن طريق تحليل الخصائص الوصفية الظاهرية للمثيرات **Analytic Descriptive Conceptuali** (**zing**) والتعامل معها بناء على خصائصها الظاهرية . وأن هناك مجموعة ثالثة وهم الذين يعتمدون في تكوين مبركاتهم على قدرتهم في استبطاء واستنتاج مستويات للعلاقات **Categorical in-** (**terechal Conceptualizing**) بين المثيرات المختلفة (Kagan,noss Vsigal, 1960, Wallash Kogan 1965) (1963)

٤ - بعد ترتيب الثبات (ثابت - شاحذ الصقل) (Leveling Vevsus Sharpening)

ويقصد بها الفروق الموجودة بين الأفراد في الأساليب المعرفية المرتبطة بمدى استيعاب الذاكرة ، فهناك أفراد يتميزون بأنه يصعب عليهم استرجاع الخبرات الموجودة بالذاكرة ويصبح ما هو مخزن

بالذاكرة صعب استدعائه بصورة مطابقة لما حدث . ويقع هؤلاء الأفراد في أقصى طرفي هذا البعد ويطلق عليهم مصطلح (Leveling) حيث يجد هؤلاء الأفراد صعوبة في الاستفادة من المعلومات المشابهة المخزنة لديهم ويحيث يتعاملون مع الأشياء أو الأحداث الحاصرة دون - الرجوع أو البحث في الأحداث الماضية المخزنة في العقل . بل إن الاختلافات في الأشياء المخزنة تجعل لأن تضعيع وتمحي من أثر الذاكرة .

أما الطرف الآخر من هذا البعد فيوجد أولئك الذين يطلق عليهم مصطلح (Sharpening) وهؤلاء الأفراد يكونون عادة أقل عرضة للتشتت بالتشابه الموجود بين الأشياء المخزنة لديهم ، وأنهم قد يعظمون ويوسعون من حجم الفروق الموجودة بين آثار الذاكرة المشابهة ، وبالتالي يزيلون ويبالغون في الفروق الموجودة بين الماضي والحاضر ، مما يساعدهم بصورة أوضح على التعامل مع الموقف الجديد (Holzman Rousey, 1971)

٥ - بعد - الفحص والتدقيق

ويرتبط هذا البعد بالفروق الموجودة بين الأفراد كسعة وشدة الانتباه التي تجعل الأفراد يختلفون في مدى وضوح الخبرات التي تمر بهم وسعة هذا الإدراك ، فالأفراد الذين يمكن وصفهم بأنهم من معنى النظر Scaming يتميزون بشدة التدقيق فيما تحيط بهم ويتمون بالتفاصيل كما يتميزون بحدة الانتباه مع سعته بحيث يتسع انتباههم ليشمل قدرًا واسعًا من الميزات المحيطة بهم (Holtzman, 1966, 1971)

٦ - بعد الشمولية - القصور (Inclusivness - Versws Exclusiveness)

ويرتبط هذا الأسلوب المعرفي بذلك الثابت النسبي الذي يتضح في ميل بعض الأفراد في تصنيف مرافق الحياة والمثيرات المختلفة بصورة شاملة ، في مقابل أولئك الذين يتعاملون مع المواقف بصورة ضعيفة « أو بنظرة قاصرة » ويعكس هذا الأسلوب المعرفي مدى قدرة الفرد على تحمل التناقض الكبير المتضمن في المواقف المختلفة ، بحيث يتضح أن هناك أفرادًا يتميزون بالقدرة على تحمل التعامل مع المواقف ذات الطبيعة المتناقضة أو المتعددة المثيرات ، في حين أن هناك أفرادًا آخرين لا يمكنهم تحمل مثل تلك المتناقضات Messick and Kogan, 1963

٧ - البعد المعرفي البسيط - المعرفي المعقد : Cognitive Simplicity Versus Cognitive Complexity

ويرتبط هذا البعد المعرفي بالفروق القائمة بين الأفراد في ميلهم لتفسير العالم المحيط بهم وخاصة في جانبه الاجتماعي ، إما على أساس أبعاد متعددة أو على أساس أبعاد متميزة ومحددة ، فالفرد الذي يتميز بالأسلوب المعرفي المعقد يتميز بأنه أكثر قدرة على التعامل مع أبعاد الموقف الاجتماعي المتعددة ، وأكثر قدرة على إدراك ما حوله بصورة أكثر تحليلية ، كما أن لديه القدرة للقيام بعمليات التكامل لما يراه من حوله ، وذلك عكس الشخص الذي يتميز بالأسلوب المعرفي البسيط . ويرتبط بهذا البعد أيضا التمييز بين الأفراد من حيث امكانية تعاملهم مع الأشياء المجردة وبين أولئك الذين يحتاجون إلى التعامل المحسوس .

٨ - بعد المخاطرة في مقابل بعض الخلد Risk taking versus cautiousness

ويرتبط هذا البعد المعرفي بمدى الفروق القائمة بين الأفراد في مدى إقبالهم على المجازفة واقتناص الفرص لتحقيق هدف من الأهداف في مقابل أولئك الذين يميلون إلى الحصول على ضمانات مؤكدة قبل الدخول في أي مغامرة . فمثلا هؤلاء المخامرون نجدهم أكثر اعتمادا على التخمين في المواقف ذات البدائل المعقدة ، كما أنهم يتميزون بروح المغامرة في حين أن الأفراد الحذرين يتسم سلوكهم بعكس ذلك تماما . بمعنى آخر كان من يتميز بروح المخاطرة هم أولئك الذين يقبلون الدخول في المجالات التي تتميز بأنها ذات مردود عال وكبير ، بالرغم من أن احتمالات النجاح بسيطة وضعيفة وأنهم لا يقبلون الدخول في الموضوعات أو المجالات التي تتميز بأن مردودها ليس كبيرا مهما كانت احتمالات نجاحها أكثر تأكيداً (Kogan Morgan 1969)

٩ - بعد التحمل Tolerance for incongruous

ويرتبط هذا البعد بالتمايز الاستعدادي لتقبل ما يحيط بالفرد مهما تباينت الموضوعات المدركة مع الخبرات التقليدية ، ففي إحدى طرفي هذا البعد نلاحظ أولئك الأفراد الذين لديهم استعداد لتحمل وتقبل الأحداث والأفكار التي تختلف كثيرا عن المألوف أو الشائع ، كما يمكنهم اتخاذ خطوات إيجابية تقدمية وإبداء آراء غير واقعية أو أفكار غريبة . أما في الطرف الآخر فيوجد أولئك الذين لا يتحملون الجديد أو الغريب ، والذين يفضلون كل ما هو واقعي وكل ما هو تقليدي .

(Klein, Gavalner and Schlesinger, 1962)

١٠- بعد التزمّت - المرونة Constricted vs flexible control

ويرتبط هذا البعد بالفروق القائمة بين الأفراد في تعاملهم وتأثرهم بالمتناقضات أو التداخلات المعرفية الموجودة في الموقف . ويتضمن هذا البعد أيضا مدى قدرة الفرد على الانتباه إلى المميزات المرتبطة بالموقف مباشرة ، مع قدرة على إيصال المشتتات الأخرى الموجودة في الموقف وإبطال تأثيرها على نشاطه أو استجاباته (Jonsen and Rohwer, 1966)

وهكذا يتضح من هذا الاستعراض السريع لمفاهيم الأساليب المعرفية وتسمياتها المختلفة مدى التفاوت القائم بين كل بعد من الأبعاد ومدى التشابه الموجود بين بعضها الآخر . كما يتضح أيضا أنه من الممكن إدماج بعض هذه الأبعاد نظرا للتشابه فيما بينها . والواقع أن هذه التسميات المتعددة للأساليب المعرفية قد ترجع إلى اختلاف النظرة الفلسفية أو الأسلوب المنهجي المتبع في دراسة كل منها . بل أنه يمكن القول أن مثل هذه الأساليب المتعددة قد تستلعي في بعض الأحيان ضرورة دراسة مدى الارتباط الذي يمكن أن يوجد بين بعض هذه الأساليب وبعضها الآخر .

وكما سبق أن أشرنا فإن هذه الأبعاد المعرفية العشرة لم تنل حقها من الدراسة والبحث بدرجة واحدة من الفكرة والعمق . فبعض هذه الأبعاد نال العناية والدراسة المستفيضة وبحيث أصبح يعتمد على نتائجه في التعرف على كثير من جوانب الشخصية ، كما أصبح وسيلة للتمييز بين الأفراد وإداة من ادوات تحديد الفروق الفردية في الشخصية بجوانبها الكلية . في حين أن بعضها الآخر مازالت تجري عليه الدراسات والبحوث . فمثلا يعتبر بعد الاستقلال - الاعتماد الإدراكي من أكثر المجالات دراسة وبحثا ، كذلك الحال في بعد الترتيب - الانتفاع ، في حين أن باقي المجالات المعرفية الأخرى لم تتم عليها الدراسات بالدرجة التي يمكن الاعتماد على نتائجها في دراسة وفهم جوانب الشخصية بصفة عامة .

لذلك نسوف نتعرض في هذه الدراسة إلى بعد واحد فقط من هذه الأبعاد المعرفية وهو بعد الاستقلال - الاعتماد الإدراكي . فكيف درس هذا البعد المعرفي وما هو الأساس النظري الذي يستند عليه تصنيف الأفراد تبعا له ؟

كيف درست الأساليب المعرفية في الإدراك - بعد الاستقلال - الاعتماد الإدراكي ؟

الواقع أن الجهد الذي بذل والدراسات التي تمت في مجال الأساليب المعرفية Cognitive styles

ولا سيما بعد الإدراك يعادل خمسة وعشرين عاما تم معظمها على يد وتكن **Witken** وهرتزمان **Hertzman** وميسك **Messick** ووارنر **Warner** وذلك منذ عام ١٩٥٤ . وقد تمكن هؤلاء العلماء من تقييم العديد من المواقف الاختيارية التي استطاعت ان تقيس الخصائص المعرفية الإدراكية لدى الأفراد المختلفين ، كما استطاعوا ان يفرجوا العديد من الحقائق والمعلومات عن مدى الارتباط القائم بين الأسلوب المعرفي الإدراكي للفرد وبين جوانب الشخصية المختلفة ، سواء كانت اساليب السلوك في مواقف التعلم ، او اساليب التكيف الشخصي الذي ينميها الفرد لنفسه خلال مراحل نموه المختلفة ، أو في تفضيله لأنواع دراسية معينة أو مهنية من المهن ، لذلك فقد نشطت ايضا الدراسات والبحوث المختلفة عن كيفية الاستفادة من تلك الخصائص الإدراكية المعرفية في مجال التوجيه والإرشاد المهني واساليب التنشئة الاجتماعية ، ومشكلات التربية ومجالات التعليم واساليبه في حجرة الدراسة .

ويعتبر بعد الاستقلال - الاعتماد الإدراكي - **Field - independent, Field dependent**

(**F - I, F - D**) من اهم ابعاد الاساليب المعرفية التي نالت عناية ودراسة علماء النفس ، حيث قام وتكن وزملاؤه بتعميم مجموعة من المواقف التجريبية والاختبارية التي يمكن عن طريقها تحديد تلك الاساليب المعرفية الإدراكية وتحديد الفروق الموجودة بين الأفراد على اساسها .

وقد ركزت ابحاث وتكن وزملاؤه على تحديد ما اذا كان الفرد يستطيع ان يدرك موقفا من المواقف او موضوعا من الموضوعات متميزاً عن المجال الذي يوجد فيه .. وقد صمم ثلاثة مواقف حسية - ادراكية (**Perceptual - TASKS**) كان الموضوع في احد المواقف هو جسم الفرد حيث يعرف هذا الموقف الاختياري باسم اختبار تعديل الجسم (**Body- Adjustment Test**)

اما الموقف الآخر فيعرف باسم اختبار المؤشر والاطار **Rod and Frame Test**

وكان الموقف الثالث هو اختيار الاشكال المتضمنة .

(**Embedded figure - test**) (**Merman and Witkin, 1969**)

وقد تمكن وتكن وزملاؤه من ان يجلدوا الى اي مدى يختلف الافراد في قدرتهم على ادراك هذه المواضيع (الجسم - المؤشر - الاشكال الهندسية) منفصلة ومميزة عن المجال الذي يحيط بكل منها ، والذي يعتبر كل موضوع منها جزءا من هذا المجال ، بمعنى آخر فقد طلب من الافراد ان يتعاملوا مع اجزاء كل موقف من المواقف معاويلين فصلها عن باقي الموقف الكلي .

ويمكن توضيح كل موقف من المواقف التجريبية التي استخدما وتكن وزملاؤه فيما يلي :-

يعتبر أول هذه المواقف الاختبارية هو ما يعرفه باسم « اختبار تعديل الجسم » من هذا الاختبار يكون موضوع الإدراك هو جسم الفرد نفسه ، وليس شيئا خارجيا ، ويهدف الى تحديد كيف يحدد الفرد وضع جسمه في الفراغ . وفي هذا الموقف يجلس المفحوص على كرسي ، يمكن ان يميل في اتجاه عقارب الساعة او عكسها . ويعد ان يجلس المفحوص على الكرسي يدخل في حجرة صغيرة يمكن ان تميل أيضا في اتجاه عقارب الساعة او عكسها بصرف النظر عن وضع الحجرة الكبيرة التي يجلس فيها المجرب . وبعد ان يتم تعديل وضع الغرفة الصغيرة (ويدخلها المفحوص) بواسطة المجرب بحيث يكون مائلا بدرجة محددة مسبقا يطلب من المفحوص ان يعدل من وضع جسمه بحيث يكون معتدلا ، أي في وضع رأسي .

اما الموقف الثاني فهو ما يعرف باسم « اختبار المؤشر والاطار . حيث يقدم للمفحوص اطار مربع مضيء ، ومثبت في مركزه مؤشر مضيء أيضا . والاطار والمؤشر كلاهما يمكن ان يميل في اتجاه عقارب الساعة او عكسها مستقلا عن وضع الآخر . ويقدم الاطار (ويدخله المؤشر) الى المفحوص في حجرة مظلمة بحيث لا يرى غيرهما وفي اوضاع مائلة . ثم يطلب من المفحوص ان يعدل من وضع المؤشر بحيث يصبح وضعه رأسي ، بينما يظل الاطار حوله في وضعه المائل المحدد مسبقا .

اما الموقف الثالث فهو اختيار الاشكال المتضمنة « وفي هذا الاختبار يعرض على المفحوص شكل بسيط لفترة زمنية قصيرة ثم يقدم له بعد ذلك شكل معقد يتضمن داخله الشكل البسيط ولكن في صورة مطمورة ، ويطلب منه ان يستخرج الشكل البسيط من الشكل المعقد ، وان يُعلم على حدود هذا الشكل البسيط ، وقد خرج وتكن وزملاؤه بان هناك فروقا واضحة بين الافراد في آرائهم وتعاملهم مع المواقف المختلفة ، ووجد ان هذه الفروق تنسم بالاتساق والتشابه في المواقف الاختبارية الثلاث ، وان الافراد يختلفون في قدراتهم على ادراك اجزاء المجال كشيء منفصل او مستقل عن المجال المحيط ككل . وقد كان من نتائج هذه الدراسات ان امكن التمييز بين الافراد بحيث امكن تحديد هؤلاء الافراد الذين يتميز ادراكهم للمواقف بانه ادراك كلي $global$ يعتمد على تنظيم المجال ووضوح اجزائه ، وسمى اصحاب هذا النمط بذوي الاسلوب المعرفي المعتمد $(F.D)$. وفي مقابلهم كان هناك آخرون يتميز ادراكهم للمجال بانه ادراك تحليلي $analytic$ حيث يمكنهم ادراك عناصر الموقف منفصلة او متميزة عن بعضها البعض الاخر وسمى اصحاب هذا النمط بذوي الاسلوب المعرفي المستقل $(F.I)$.

ولابد ان نشير مرة اخرى الى ان كلا الاسلوبين في الادراك (المعتمد - المستقل) لا يمثل تصنيفاً ثنائياً للأفراد بحيث يصبح لدينا نمطين متميزين في اساليب الادراك المعرفي وانما هو توزيع متصل يبدأ من احد الطرفين وينتهي بالطرف الآخر (Messick, 1976) وقد اسفرت الدراسات في مجال الاساليب المعرفية ان الافراد بصفة عامة يميلون الى الثبات النسبي في موضعهم تبعاً للأسلوب المعرفي الذي يتمتعون اليه (تحليل كلي) وذلك بالمقارنة بزملائهم ، أي ان كل فرد يميل الى البقاء في موضعه من الاسلوب المعرفي المتبع اليه ، وذلك خلال مراحل نموه المختلفة . وبالتالي فالطفل الذي اظهر منذ طفولته المبكرة دلائل تشير الى انه من ذوي الاسلوب المعرفي المعتمد ، بمقارنته بمجموعة من اقرانه فانه سوف يظل متدرجاً تحت هذا الاسلوب المعرفي الكلي في سنوات العمر التالية ، وذلك بمقارنته بنفس افراد هذه المجموعة من الاعمار الزمنية الاكبر ، مع العلم ان هذا الطفل وبمجموعة الافراد الذين يتمتعي اليهم يتجهون جميعاً خلال مراحل النمو المختلفة نحو مزيد من الاسلوب المعرفي التحليلي بصفة عامة .

ويرتبط مفهوم الثبات النسبي للأساليب المعرفية الادراكية ارتباطاً وثيقاً بمفهوم التمايز النفسي **Psychological Dippeentiation** الذي يعتبر الاساس الذي تركز عليه كل اعمال ودراسات وتكن وزملاءه ، حيث يفترض ان الافراد يختلفون في اساليب سلوكهم وخصائصهم النفسية تبعاً للدرجة نمى عملية التمايز النفسي المعرفي لكل منهم ، فهناك افراد يتميزون بقدرة عالية على تمييز انفسهم والفصل بين خصائصهم النفسية والشخصية المختلفة ، وبالتالي يتحدد سلوكهم على هذا الاساس ايضا . ومن هنا فان القدرة على تنمية عملية التمايز النفسي المعرفي لدى الفرد منذ بدء حياته وطوال مراحل العمر المختلفة يعتبر المسئول الأول عما نلاحظه من ذلك الثبات النسبي في الوان السلوك التي يقوم بها الفرد ، والتي استخدمها وتكن وزملاؤه للتمييز بين اولئك الذين يتميزون بالاساليب المعرفية التحليلية (المستقلة) واولئك الذين يتميزون بالاساليب المعرفية الكلية (المعتمدة) .

ماذا نفصّد بعملية التمايز بصفة عامة ؟

من المعروف ان عملية الادراك لدى الاطفال في الاعمار الصغيرة تتميز بالكلية والعمومية ، وانه بازدياد التقدم في مراحل النمو يزداد التمايز وتزداد القدرة على ادراك التفاصيل وتزداد القدرة على عزل الذات عما يحيط بها من مثيرات أو امور . لذلك فانه يمكن القول ان الاطفال في مراحل العمر المبكرة يتميز ادراكهم بانه من ذلك النوع المعتمد (الكلي) وانه مع ازدياد النمو يتجه الافراد نحو مزيد من

الاستقلالية في عمليات الادراك . ولما كان وتكن وزملاؤه يستخدمون مفهوم الأساليب المعرفية في معنى غامض ، فان ذلك يقودنا الى الخروج بنتيجة أساسية وهي انه اذا حقق الفرد او تعطلت لسبب او آخر تنمية أساليبه الادراكية التي تختلف عن تلك الأساليب التي تميز مراحل الطفولة كان ذلك سببا فيها نشأته من فروق بين الافراد في جوانب شخصياتهم المختلفة .

ويمكن القول انه من خلال شرح وتوضيح الكيفية التي تنمو بها عملية التمايز في حياة الافراد ، ومن خلال التعرف على مستوى نمو تلك العملية يمكن تحديد الفروق القائمة بين الافراد في مساهمهم الشخصية المختلفة (Goadenouyh, 1967) بحيث يمكن في النهاية توزيع الناس على سلم متدرج من اقصى اليمين ، حيث نجد اولئك الذين لم يتمكنوا من تنمية اسلوب واضح ومحدد للتمايز في حياتهم وتعاملاتهم ولم يتمكنوا من فصل انفسهم عما يحيط بهم ، وبالتالي انطبع ذلك على جميع مظاهر سلوكهم ، اما في اقصى اليسار فانا نجد اولئك الذين يمكنهم ادراك التمايز الموجود بين خصائصهم الشخصية المختلفة مع نمو القدرة على تمييز انفسهم عما يحيط بهم من امور وظواهر ، وبالتالي ينطبع ذلك ايضا في جميع مظاهر حياتهم الشخصية ، واخيرا فان تصنيف الافراد الى معتدلين - مستقلين ادراكيا انما يعني مدى نمو عملية التمايز النفسي في حياة هؤلاء الافراد ، التي تظهر آثارها في ذلك الثبات والاتساق النسبي في سلوك الافراد .

ويتبادر الى الذهن في هذا الصدد سؤال هام هو . . ماهي طبيعة عملية التمايز هذه وماهي العوامل المسئولة عن تنميتها أو إعاقتها ؟

الواقع ان صفة التمايز تعد صفة اساسية من صفات اي نظام (System) سواء كان ذلك النظام نظاما سيكولوجيا او بيولوجيا او اجتماعيا . ويقصد بمفهوم التمايز في معناه العام مدى التعقد النهائي لأي نظام من الأنظمة ، فالنظام الاقل تمايزا يمكن وصفه بأن بنيتة او مكوناته تتميز بالتجانس النسبي ، في حين أن النظام الاكثر تمايزا يمكن وصفه بأن بنيتة او مكوناته تتميز بعدم التجانس النسبي ، ويمكن القول ان وصف اي نظام بأنه ذو درجة عالية من التمايز او درجة منخفضة منه يعمل في طياته معنى للأسلوب الوظيفي الذي يعمل به هذا النظام ، بل انه من خلال بعض المظاهر الوظيفية الخاصة يمكن ان يتضح مقدار هذا التمايز الموجود في نظام ما .

ويرتبط مفهوم التمايز لأي نظام مفهوم آخر وهو مفهوم التخصص ، ذلك ان كل مكون من مكونات أي نظام لابد وان تكون له وظيفة خاصة ومحددة داخل هذا التنظيم الكلي ، وتظهر صفة

التخصص بصورة أكثر وضوحاً كما كان ذلك النظام أكثر تعقيداً . في حين أن النظام الأقل تعقيداً والأقل تمايزاً يصبح من الصعب أن نجد لمكوناته مثل هذه الوظائف التخصصية حيث تعمل أجزاء النظام كلها دفعة واحدة وبطريقة بدائية وبسيطة .

وإذا أردنا أن نطبق ذلك المعنى للتمايز في وصف الجوانب النفسية للشخصية باعتبار أن الشخصية ماهي إلا نظام معقد من السمات والخصائص فإن مفهوم التخصص يعني مدى القدرة على الفعل والتخصص بين الجوانب والمجالات المختلفة ، مثل الفصل بين المشاعر والإدراك والفصل بين التفكير والسلوك ، والفصل بين الذات وعناصر البيئة والمجال المحيط بها ، بمعنى آخر فإن التمايز يعني ضرورة تحديد الحالة الوظيفية ، أو نوع السلوك الوظيفي المناسب في موقف من المواقف . فهناك ألوان سلوكية وردود أفعال معينة تصبح أكثر احتمالاً وأكثر حدوثاً كاستجابات لمثير معين في حين أنها لا تصبح كذلك إزاء مثيرات أخرى . أو أن الفرد يصبح لديه القدرة على تمييز وإدراك المثيرات المعنية الموجودة في الموقف ويتخير لها . أسلوب الاستجابة المناسب (Witkeneral . 1974)

ولما كان النظام النفسي يرتبط إلى حد كبير بالتفاعل المستمر مع عناصر أخرى موجودة في البيئة المحيطة بالفرد (Bertal 1960, Allport 1960) فإن لمفهوم التمايز يتضمن بجانبه القدرة على الفصل بين الوظائف النفسية المختلفة داخل الفرد الواحد ، ضرورة الفصل بين ما يمكن تحديده كخصائص تنتمي للذات والخصائص الأخرى التي يمكن تحديدها كخصائص خارجة عن هذه الذات . - وبالتالي فإن إدراك الفرد لنفسه كشيء منفصل عما حوله وإدراكه لذاته وكأنها ذات إطار محدود ومرسوم يعتبر أمراً في غاية الأهمية ، حيث يساعد ذلك على أن تصبح امكانية تحديد السلوك الوظيفي المناسب في كل موقف من المواقف عملية نابعة من داخل الفرد وليست معتمدة على أمور خارجية .

كذلك يجعل مفهوم التمايز في طياته عملية أخرى مكملة له تعرف باسم عملية التكامل ، ويقصد بهذه العملية الكيفية التي تندمج بها وتتكامل في إطارها مكونات أي نظام من الأنظمة . بمعنى آخر فإن عملية التكامل بين أجزاء ذلك النظام التمايز يقصد بها الصورة أو الشكل الذي يتم على أساسه تنظيم العلاقات الوظيفية المتضمنة كعناصر في النظام بحيث يصبح لكل نظام غمطه الخاص به المميز له . ففي نظام مثل نظام السيكلولوجي ، ونظراً لطبيعة الشخصية المتفتحة والمتفاعلة مع المجال الخارجي فإن عملية التكامل يقصد بها شكل العلاقات الموجودة بين المكونات المختلفة من ناحية وبين البيئة المحيطة من ناحية أخرى .

نحو مفهوم التمايز

وقد يكون من المفيد لكي تزيد من وضوح مفهوم التمايز ووضعه في إطار أكثر فاعلية لوصف الشخصية الإنسانية والسلوك الصادر عنها ، أن نقارن بين الكائن الحي (الفرد) في مراحل الطفولة وفي مراحل العمر التالية :

ففي مراحل العمر الأولى يصعب على الطفل أن يميز بين ذاته وبين البيئة المحيطة به ، وكما أن قدرة الطفل على العقل بين ذاته الجسمية وانتزاعها من المجال بها يكون في أضيق الحدود أن لم يكن معدوماً ، ولكن مع التقدم في النمو يبدأ الطفل في انتزاع هذا الإدراك للذات الجسمية من المجال أو البيئة المحيطة بحيث تعتبر تلك العملية أولى مراحل نمو التمايز النفسي التي يمكن أن يقوم بها الطفل . فالقدرة على إدراك حدود فاصلة بين الجسم والعالم الخارجي تبدأ في التكوين والنمو شيئاً فشيئاً وتستمر في نموها وتمايزها خلال مراحل النمو المتطورة . ومع تنمية تلك الحدود وتكونها فإن الطفل يمكنه أيضاً أن يدرك مختلف أجواء هذا الجسم والعلاقات الموجودة بين هذه الأجزاء المختلفة ، والواقع أن تنمية الشعور بالذات الجسمية وتمييزها كشيء منفصل عما حولها لا يتم فقط من خلال الأشباع الفسيولوجي الذي يحصل عليه الطفل من الوظائف المختلفة لأعضائه ومطالبه العضوية (الجوع - العطش - الالم) بل أيضاً من خلال الشعور بأشباع الحاجات النفسية . فهذه كلها أمور تنبع من داخل الفرد ويمكن تمييزها عن غيرها من الخبرات الأخرى المرتبطة بالبيئة الخارجية والصادرة إليه من مصادر خارجة عن الذات .

وتتضح فكرة التمايز باجلاً وأدق صورها في عملية انتقال من حالة الالتصاق مع أنه نحو الانفصال التدريجي عنها - كما يبدأ الطفل في تشرب وامتصاص قيم المجتمع وتقاليده سواء من والديه المحيطين به ، بحيث يساعده ذلك على تكوين قيمه الداخلية ومعايير سلوكه التي من شأنها أن تساعد على تكوين فكرته عن ذاته ، ففي مراحل النمو المختلفة ينمي الطفل مفهومه عن ذاته ، وكما أنه ينمي أيضاً تصوره لنفسه ، ووجه الشبه والخلاف بينه وبين الآخرين ، أي يستطيع أن يجدد هويته المنفصلة عن الآخرين (Sense of separate identity) وتستمر حالة التقدم والتطور نحو مزيد من الانتماء البنائي للشخصية مع ما يرتبط بذلك من قدرة على الفصل الكبير بين الذات وخصائصها من ناحية وبين ما يحيط بها من ناحية أخرى ، بمعنى آخر فإنه مع التقدم في النمو يزداد تمايز الذات وتصبح أكثر تحديداً ووضوحاً عما يحيط بها من مؤثرات .

وهكذا فإنه بنمو الفرد ووصوله الى مرحلة القدرة على تمييز ذاته عما حولها فإن ذلك يتضمن بالضرورة ان يصبح قادرا على فهم وادراك مدى التمايز الموجود بين الوان نشاطه وسلوكه وخصائصه الشخصية ، وتصبح لا مجال لادراك هذه الأمور بطريقة كلية كما كان الحال في المراحل السابقة . كذلك الحال فيما يتعلق بالخبرات الموجودة حول الفرد الخارجة عن ذاته حيث انه يصبح قادرا على ادراك هذه الخبرات كجوانب منفصلة وبطريقة أكثر تفصيلا ووضوحا . فبعد ان كان الطفل غير قادر على فهم خصائص الجزء الا في ضوء الكل الموجود به هذا الجزء ، يزداد وضوح الاجزاء المكونة لهذا الكل ويزداد تفصيلها وتمايزها . فمثلا في مجال الادراك البصري فإن تنظيم عملية الادراك تخضع الى حد كبير الى العلاقات والارتباطات الموجودة بين اجزاء المجال المثير أو الشكل المثير . فالمجال المثير الذي يتميز بقلة العلاقات وعدم وضوحها بين اجزائه غالبا ما يدركه الفرد وكأنه أقل تنظيما ، ولكن مع مراحل النمو المتطورة فإن هذه الاجزاء المثيرة تكتسب معنى ووظيفة محددة من خلال تكرار حلولها ومن خلال تنوع التعامل معها . ويتأثر هذا التكرار ويتأثر هذا التنوع في التعامل مع المثيرات المتفصلة يزداد وضوحها ، وتتضح وظيفته مما يسهم او يساعد على زيادة القدرة على الفصل والتمييز وتحديد الفروق بين هذه المثيرات وبعضها البعض (سواء كانت تلك المثيرات اشكالاً هندسية او رسوماً هندسية أو غير ذلك) .

ويمكن القول ان زيادة الوضوح وزيادة التمايز للمثيرات او الاجزاء الموجودة في الموقف تعد عملية اساسية من أجل القيام بعملية أخرى مكملية لعملية التمايز وهي عملية التكامل للاشكال او المظاهر غير المترابطة . بمعنى آخر فإن نمو القدرة على التمييز والفصل بين الاجزاء المختلفة في الموقف يستتبعها بالضرورة عملية أخرى مكملية لها وهي ضرورة اعادة تركيب هذه الاجزاء بصورة ذات معنى وهي ما نسميها بالتكامل . ويرى وتكن وزملاؤه (1974) اي نمو القدرة على ادراك الموقف باجزائه المنفصلة ، ثم التعامل معه بطريقة متكاملة هو دليل على نمو عملية التمايز النفسي ، سواء لجوانب الذات المختلفة ، او التمايز بين الذات وكل ما يحيط بها من أمور خارجية .

وهكذا يصل وتكن الى توضيح العلاقة بين نمو عملية التمايز النفسي لدى الفرد خلال مراحل العمر المختلفة وعلاقتها بتحديد النمط أو الأسلوب المعرفي للفرد . فالفرد الذي تمت لديه القدرة على ان يدرك ما حوله بطريقة متميزة ، أي من تمت لديه القدرة على الفصل بين المثير المعين وانتزاعه من الخلفية التي تحيط به او من غيره من المثيرات الأخرى الموجودة في الموقف ، يصبح ايضا أكثر قدرة على تنظيم المجال او الموقف ، او اعادة تنظيمه عندما يقدم له في صورة أقل تنظيما . وفي كلتا الحالتين سواء قدرته على انتزاع المثير بصرف النظر عن الخلفية والاطار الموجود به المثير عندما يكون الموقف منظماً دقيقاً ، او

قدرته على إعادة تنظيم علاقات الموقف واجزائه لادراك المثير المحدد ، كلها عمليات مرتبطة بنمو عملية التمايز النفسي للفرد .

والواقع ان النمو نحو مزيد من التمايز في جوانب الشخصية يظهر ايضا في زيادة قدرة الفرد على تنمية الجوانب الانفعالية والوان السلوك الدفاعي (**Controls and defenses beh.**) ففي مراحل العمر الاولى تتميز انفعالات الاطفال بانها استجابة كلية عامة ، على درجة كبيرة من الشد ، وهي استجابة غير محددة وغير واضحة ، وكلما زادت شدة المثير ادى ذلك الى صدور استجابات غاية في البساطة الكلية ، كوسيلة دفاعية يلجأ اليها الطفل لزاء هذا المثير . وفي خلال مراحل النمو المختلفة فان نوعا من التخصص والتمايز يأخذ في النمو ، بحيث تتحول تلك الاستجابات البدائية غير المحددة الى استجابات أكثر تنظيما ، ويصبح الفرد نفسه أكثر قدرة على التحكم وال ضبط في اصدار استجاباته ، وهذا كله يؤدي بدوره الى مزيد من التخصص في الوان السلوك المدفوع بحيث تمكن الفرد من تأجيل او تعديل استجاباته ، كما تنمو قدرته على حماية نفسه من الآثار المشتتة او المحيطة لبعض المثيرات . كما ان النظام القيمي الداخلي للفرد **Intenalized value system** يساعد الفرد ايضا في احداث مثل هذا التمايز النفسي . فلم يعد الطفل معتمدا في الضبط والتحكم في سلوكه على قيم ومعايير تأتيه من مصادر خارجة عنه كما كان الحال في مراحل العمر الاولى ، او من خلال الثواب والعقاب التي يتعرض لها . او من خلال النتائج المترتبة على مخالفة للقواعد والقوانين ، وإنما يكون قد تشرب تلك القيم والمبادئ واصبحت جزءا مكملا ومميزا لذاته ، وبالتالي تساعده في أن يصبح المنظم الاول لالوان سلوكه ودوافعه نابعا من داخله ومن قيمه ومعايره التي غناها داخليا . وكل هذا ماهو الا مؤشرات أخرى للتمايز والوضوح في هذه الذات (**Witkin 1974**) وهكذا يمكننا ان نخلص من هذا كله بان القدرة على احداث التمايز النفسي للفرد هي عملية غائية مضطردة ، فمع زيادة النمو تزداد قدرة الفرد على عزل نفسه وتغيزها عما حو لها ، كذلك الحال يزداد نمو الشعور باستقلال الهوية ، ويزداد مقدار ما يكتبه الفرد من قدرة على تنظيم انفعالاته والوان سلوكه المدفوع ، وتزداد قدرته على التنظيم والتحكم في هذه الجوانب الرئيسية للشخصية في علاقتها مع البيئة الخارجية بصفة عامة .

وبناء على حقيقة عملية التمايز النفسي هذه فانه لا بد وان نتوقع ان يختلف الناس في مدى تلك العملية ، لذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو :

هل هناك مؤشرات أساسية يمكننا ان نستدل منها على المستوى الذي وصل اليه الفرد في نمو عملية

التماييز النفسي ؟ وقد اجاب وتكن وزملاؤه على ذلك بان هناك بعض هذه المؤشرات التي يمكن اجمالها فيما يلي :-

١- مدى النمو الحادث من مفهوم الذات وتفصيلها وتمييزها عما حولها .

٢- مدى النمو الحادث من فهم الذات الجسمية والشعور بالشخصية المستقلة .

٣- مدى النمو الحادث في اساليب السلوك الدفاعي واساليب التكلم والضبط الانفعالي .

ولذلك فانه يمكن القول ان قياس تلك المؤشرات وتحديد درجة نموها لدى الافراد يعد اساسا هاما في التعرف على مدى التمايز النفسي القائم في شخصية الفرد ، بل انه على اساس تحديد ذلك يمكننا ان نميز بين الافراد وان نحدد الفروق الفردية القائمة بينهم على هذا الاساس ، وبناء على ما تقدم استعراضه عن مفهوم التمايز النفسي فانه يصبح من المتوقع ان اولئك الافراد الذي تمت لديهم عملية التمايز بدرجة عالية هم اولئك الافراد الذين اطلق عليهم وتكن وزملاؤه « ذوي الاساليب المعرفية التحليلية » في حين أن اولئك الذين لم يتم لديهم عملية التمايز بدرجة كافية هم اولئك الذين اطلق عليهم « ذوي الاساليب المعرفية الكلية » .

رابعا - الاستفادة من تحديد الاسلوب الادراكي في دراسة الشخصية :-

وفي ختام هذه الدراسة يظل هناك سؤال آخر وهو كيف يمكن الاستفادة من ذلك الاتجاه في دراسة الشخصية في مواقف الحياة المختلفة سواء في مجالات التعليم والتوجيه المهني والتربوي ، أو في حجرات الدراسة ، أو في غير ذلك من مواقف الحياة المتنوعة .

وتقدر الاباحث والدراسات التي تمت في هذه الميدان التطبيقي لهذا الاتجاه في دراسة الفروق الفردية بالآلاف ، وقد اجعت معظم هذه الدراسات الى ان ذوي الاساليب المعرفية المختلفة يتميز كل منهم بخصائص وسمات معينة في كيفية تعاملهم مع المواقف التعليمية ، او اختبار المهنة او نوع الدراسة او في طريقة تفاعله في حجرة الدراسة ، او في اساليب التفاعل الاجتماعي بصفة عامة .

فقد اشار كل من جستس وهولي وجرين (1972) **Juskice, Holley and Green** الى ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد يفضلون العمل وهم قريون ماديا وحسبيا **Physically** من الآخرين ، ففي تجربة قام بها جستس (1976) لمعرفة الى اي مدى يختلف اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد عن اصحاب الاسلوب المعرفي المستقل ، في تفضيلهم للجو الاجتماعي السائد والمكان الذي يعملون فيه ، فوجد أن اصحاب الاسلوب المعتمد عندما طلب منهم اعداد مقالة ما وقراءتها على مجموعة من المحكمين كانوا يدخلون الحجرة ويقربون كثيرا من المحكمين وذلك بمقارنتهم باصحاب الاسلوب المعرفي المستقل .

كذلك اوضح كونستاد ، وفورمان **Konstadt and Forman 1965** ان اصحاب الاسلوب المعتمد يتميزون بأنهم يهتمون بتمايز الوجه للآخرين ، بل انهم يطيلون النظر في وجوه من يتعاملون معهم ، كما انهم يتأثرون كثيرا بالجوانب والخبرات الانفعالية العاطفية السائدة في الموقف .

كذلك اكدت دراسات نوفل ، وريبل وناكامورا **(Novill, Ruble and Nakamura 1971)** الى ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد في حاجة دائمة الى تأييد الجماعة لهم ، با انهم مهتمون اشد الاهتمام بمعرفة - اي الجماعة عن سلوكهم . وقد ظهر أثر اهتمام اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد برأي الآخرين في اختيارهم لنوع المهنة التي يعملون بها ، فهم يفضلون الاعمال التي تتطلب قدرا من الانصياع والانتماع والتفاعل مع الغير ، مثل اعمال الجمعيات الخيرية او الارشاد والتوجيه ، او الاعمال المرتبطة بالامتثال والتأثير في الآخرين ، كذلك فانهم يفضلون دراسة الانسانيات بصفة عامة .

وبمقارنة هذه الجماعة بالجماعة الأخرى (ذوي الاسلوب المعرفي المستقل) نجد ان المستقلين ادراكيا لا يولون اهتماما كبيرا للعلاقات الاجتماعية ولا يهتمون كثيرا برأي الآخرين عنهم ، كما انهم لا يفضلون ولا يهتمون بالمجالات ذات العلاقات الاجتماعية التي تتطلب اندماجاً او تفاعلاً مع الآخرين ، وهم في اختيارهم المهني يفضلون المجالات المهنية التي تحتاج الى كثير من التحليل والتدقيق ، كما انهم يختارون المجالات ذات الطبيعة التكنولوجية او العلمية بصفة عامة .

اما عن العلاقة بين الاساليب المعرفية ومواقف التعليم فقد اظهرت الدراسات المختلفة ان اصحاب الاسلوب المعتمد يظهرون صعوبة بالغة في تنظيم المواقف الجديدة او الغامضة . بل انهم يفضلون

التعامل مع المادة التعليمية التي تقدم اليهم بطريقة منظمة والتي لا تحتاج منهم الى اي جهد من تنظيمها او اعادة تنظيم المعلومات الواردة بها ، وانهم يجدون صعوبات بالغة في تعاملهم مع المادة التي تفتقر الى التنظيم والبناء السليم ، بل ان المواقف الغامضة عليهم تجعلهم يواجهون حالة من القلق والاضطراب وعدم التنظيم ويكون من نتيجة ذلك تأثير مستوى ادائهم مما يجعلهم في حاجة الى افراد ذوي سلطة او مركز اكبر للحصول على اطار مرجعي يعتمدون عليه في فهم تلك المواقف (Bruce, 1970) وقد اكد بروس هذه الحقيقة في تجربته التي اجراها على مجموعة من تلاميذ الصف السادس حيث طلب منهم ان يكونوا قصصا من مجموعة من الصور المتفاوتة في التنظيم والوضوح والتنسيق . فقد كانت بعض هذه الصور واضحة ومنظمة ، في حين ان بعضها الآخر كانت تحتاج الى دمج لكثر من صورة او جزء من الصورة ليكون منها قصة ذات معنى . وقد خرج برونس بنتائج تؤكد وتوضح مدى الصعوبات التي وجدها ذوو الاسلوب المعرفي المعتمد ، وان ادائهم جاء اقل من مستواه من الافراد ذوي الاسلوب المستقل ، ولا سيما مع الصور غير الواضحة والتي تحتاج الى مجهود لتنظيم عناصرها او اعادة تنظيمها وترتيبها ، في حين انه لم توجد فروق بين المجموعتين في ادائهم عندما كانت الصور واضحة المعالم ولا تحتاج الى تحليل او دمج او تركيب . وقد اكد هذه الحقيقة ايضا لوزيتر (Lezotte, 1969) ووضح ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد في حاجة دائما الى ان تقدم لهم المواقف والمعلومات في صورة اكثر تنظيما وترتيبا من اصحاب الاسلوب المعرفي المستقل .

ومن الاحداث ذات النتائج الهامة التي ربطت بين الاساليب المعرفية الادراكية ومجالات العمل فيه ميدان التعليم تلك الدراسة التي قام بها دي ستافوانو (Distefano, 1969) للتعرف على العلاقة بين الاساليب المعرفية للمدرسين واختيارهم لمواد التخصص ، كذلك العلاقة بين التحصيل الدراسي للتلاميذ وعلاقته باساليب وطرق التعلم المستخدمة ، وقد ظهرت هذه الدراسات ان اختيار مهنة التدريس بصفة عامة يرتبط بالاسلوب المعرفي المعتمد ، والواقع ان هذه الحقيقة نجدها متمشية تماما مع الخصائص والصفات الشخصية للمعتمدين ادراكيا الذين يفضلون ان يمضوا اوقاتهم يعملون مع الآخرين ، كما اظهرت الدراسة ايضا ان اختيار المدرس لتخصص معين يرتبط باسلوبه المعرفي ، فاولئك الذين يتميزون بالاسلوب المعرفي الاستقلالي يختارون عادة المواد العلمية مثل الرياضيات او العلوم ، في حين ان المعتمدين ادراكيا يختارون مجال تدريس الاجتماعيات .

اما الدراسة الاخرى فكانت عن العلاقة بين الاساليب المعرفية واساليب تعليم التلاميذ ، وقد اظهرت دراسة جريف ، وديفيز (Grieve and Davis 1971) ان هناك اختلافا بين ذوي

الأساليب المعرفية المختلفة (مستقل - معتمد) في مقدار تحصيلهم الدراسي تبعاً لأسلوب التعلم المستخدم، فعندما استخدمت طريقة التعلم بالآلقاء (expository) وطريقة التعلم بالاستكشاف (discovery) فقد وجد أن ذوي الأساليب المعرفية المعتمدة كانوا أكثر استفادة من أسلوب التعلم بالاستكشاف، وقد أوجزت هذه النتيجة إلى أن أسلوب التعلم الاستكشافي يتطلب نوعاً من التفاعل الاجتماعي، سواء مع المعلم أو مع التلاميذ الآخرين، وهو ما يفضل أصحاب الأسلوب المعرفي المعتمد، وذلك بمقارنتهم بلوي الأسلوب المعرفي المستقل.

والواقع أن الدراسات في هذا المجال التطبيقي أي مجال الاستفادة من مفاهيم الفروق في الجوانب المعرفية وعلاقتها بمواقف التعلم واختيار المهنة أو العلاقات الاجتماعية تقدر بالآلاف، إلا أنه لا يسعنا، المقام في هذه الدراسة لأن نلقي نظرة كاملة على كل ما تم من دراسات في هذا الصدد، إلا أنه يمكننا أن نستخلص حقيقة عامة وهي أن الفروق القائمة بين الأفراد في عمليات الإدراك والعلميات العقلية المعرفية بصفة عامة يمكنها أيضاً أن تعطينا صورة عن الفروق الفردية في جوانب الشخصية الأخرى. وأنه يكفي أن نحدد الأسلوب المعرفي للفرد لنتمكن من التعرف على باقي السمات والحقائق الشخصية الأخرى، والتي تنسحب آثارها على تعامله في مواقف الحياة المختلفة، سواء في مواقف المدرسة أو المهنة أو العلاقات الاجتماعية، ولذلك فإن الأساليب المعرفية تعتبر في واقع الأمر أساساً يعتمد عليه في التنبؤ بنوع السلوك الذي يمكن أن يقوم به الأفراد المختلفون في أساليبهم المعرفية أثناء تعاملهم مع المواقف المختلفة، سواء كانت مواقف اجتماعية مع الآخرين من أجل التكيف النفسي، أو مواقف تعليمية في حجرة الدراسة، أو في تفضيل نوع الدراسة أو في اختيار المهنة، أو غير ذلك من مواقف الحياة اليومية المتعددة.



المراجع

- Anastasi, A. *Differential Psychology Individual and group Differences in behavior*, Macmillan Comp. New york, 3rd ed. 1965.
- Berry, J — W. Temne and Eskimo perceptual skills. *International Journal psychology*. 1966
- Bruce, D. K. The effect of field dependence and anxiety on the Perception of social Stimuli. Doctoral dissertation, Univ. of U T.A Ann Arbor, Mich University microfilms, 1965 No. 65 — 12.
- Dawson, J. L. M. cultural and psychological influence upon Spatial perceptual processes in West Africa — part 1. *International Journal of psychology* 1967 — 2 (2) .
- Dawson. J. L. Theory and research in cross — cultural psychology Bulletin of the British Psychological Society, 1971 24 (85) .
- Darussy, E. A., and Patch, E. Field dependence — independence as related to college curricula perceptual and motor skills, 1971, 33.
- Distefano, J. J. Interpersonal perceptions of field independent And field dependent teachers and students unpublished doctoral Dissertation, 1969.
- Dyk, R. B. A. exploratory Study of mother — child interaction in infancy as related to the development of differentiation. *Journal of the American Academy of child psychiatry* (1969) 8.
- Dyk, R., and Witkin, M. A. Family experiences related to the development of differentiation in children. *Child development* 1965 30.
- Good enough, D. R., and kaip, S. A. Field dependence and intellectual Functioning. *Journal of Abnormal and social psychology*, 1961, 63.
- Grieve, T. D. and Davis, J. K. the relationship of cognitive style and method of instruction to performance in ninth grade geography *Journal of educational research*, 1971, 65.
- Herman, A. and Witkin, A. H. some implications of research on cognitive Style for problems of education professional School psychology. Vol. 111, 1969.
- Justice, M. T. Field — dependency, insiancy of topic and interperson distance. Doctoral dissertation Univ. of Florida 1969. Am Arbor, Michigan Univ. microfilms, 1970. No. 70 — 12.

- Konstadt, N. and forman, E. Field dependence and external directedness *Journal of personality and social psychology* 1965, 1.
- Lozotte, L. W. The relationship between cognitive styles scholastic ability and learning of structured and unstructured materials, *Doctoral Dissertation* 1976.
- Messick, S. *Individuality in learning*. Jossey — Bass, Washington 1976.
- Masick, S. and Kogan N. Differentiation and compartmentalization in object — sorting measures of categorizing style perceptual and motor skills, 1963.
- Novill, Ruble, D. N, and Nakamura, C. Y Task orientation versus social orientation in young children and their attention to relevant social cues. *child development*, 1972, 43.
- Rogers, carl, Dymond, R. F. *psychotherapy and personality change*, Chicago university of chicago press, 1954.
- Rudin, S. A. and stagneer, R. Figure — ground phenomena in the perception of physical and social stimuli. *Journal of psychology* 45. 1958.
- Witkin, M. A, Moore, C. A cognitive style and the teaching Learning process. A paper presented at the annual meeting of the A. E. R. A. Chicago, 1974, 1975.
- Witkin, M, A. and Dyk, R. B. and others. psychological differentiation. N, Y wisley, 1974.
- Witkin, M. A. Field dependence — independence. A bibliography through 1972. N. J. Educational Testing Services, 1973.
- Witkin M, A and oltman, P. K. and others : field — dependence, field — independence and psychological differentiation A bibliography through 1972. princeton N, J Educational Testing Service, 1973.
- Kagan, J. and Kogan, N. Individual variation in cognitive processes in P. M. Mussen ed. *carmichael's manual of child psychology* vol. 1. New York wiley 1970.
- Kagan J. and Messer, S. A reply to some misgiving about the matching Familiar Figures test, as a Measure of self-orientation in infancy *Developmental psychology* 1975.
- Kagan. J. Moss, M and sigel, I. conceptual style and the use of affect labels. *Merrill — palmer quarterly*, 1960.
- Kagan J., Moss, M. and sigel, I. Psychological Significance of styles of Conceptualization. *Monographs of the society for research in child development*. 1963.
- Holzman P. and Rousey, C. Distillation of communicated thought. generality and role of cognitive style, *Journal of abnormal Psychology* 1971.
- Holzman, P. S. scanning : A principle of reality contact perceptual and Motor Skills 1966.

- Kagan, N. and Morgan, F. Task and motivational influences on the Assessment of creative and intellectual ability in children, Genetic Psychology Monographs, 1969.
- Klein G. Gardner, R. and Schlesinger M. Tolerance for unrealistic experiences. A Study of the generality of a Cognitive control. British Journal of psychology 1962.
- Jensen, A. R. and Rohwer, W. the stroop color — Ward Test. A review. Acta psychologica. 1966.



مقدمة

لم يقتصر اهتمام معظم نظريات علم النفس على محاولة الكشف عن طبيعة الشخصية ، وعلى سعي أصحاب كل نظرية الى بناء تصور نظري لها ، واعداد طرق ومقاييس خاصة بدراستها ، بل كان لهذا الاهتمام أيضا مضمّنات وتطبيقات بالنسبة لعلاج اضطرابات الشخصية وما يرتبط بذلك من طرق علاجية وارشادية وتأهيلية . ولم يؤد التقدم في التنظير في الشخصية الى تقدم في فلسفة العلاج النفسي وطرقه وأدواته فحسب كما طورتها كل نظرية من نظريات الشخصية ، بل أن التقدم في البحوث الاكاديمية وفي العمل العلاجي قد انعكس بدوره أيضا على تطوير التنظير في الشخصية ، وعلى الكشف عن جوانب وديناميات في الشخصية لم تكن لتتضح بغير البحث الاكاديمي في اضطرابات الشخصية .

وفي السنوات الحديثة ، منذ الخمسينات تقريبا من القرن الحالي ، كان لنظريات السلوك الاجتماعي أثر عظيم في بناء طرق كثيرة للعلاج تعرف بطرق تعديل السلوك تستند الى مبادئ التعلم . ورغم أن مبادئ التعلم كانت متاحة للاستخدام للأغراض الأكاديمية العلاجية منذ أكثر من نصف قرن ، إلا أن التوظيف الفعلي لمبادئ التعلم في العلاج النفسي لم يتحقق أساسا إلا بعد الخمسينات من القرن الحالي . هذه الأشكال من العلاج القائم على التعلم تتميز بثلاثة معالم عامة رئيسية هي : -

أولا : أن هذه الأشكال من العلاج تحاول تعديل السلوك المشكل ذاته ، ولذلك تعرف بـ « العلاج السلوكي » .

الشخصية وتعديل السلوك

فيولا المبلدوى

مدرسة علم النفس بكلية التربية بجامعة الكويت

ثانياً : تركز العلاجات السلوكية ، مثل نظريات السلوك الاجتماعي التي توجهها ، على السلوك « الحالي » للفرد أكثر مما تهتم بالاصول التاريخية لمشكلته .

ثالثاً : يفترض معظم المحالجين السلوكيين أنه يمكن فهم وتغيير السلوك المتحرف بواسطة نفس مبادئ التعليم التي تحكم السلوك العادي أو السوي .

كان الاتجاه التقليدي في دراسة الشخصية يضع حداً فاصلاً بين سيكولوجية الشخصية السوية والشخصية غير السوية ويعتبرهما موضوعين منفصلين . ولكن هذا التمييز بين دراسة الشخصية السوية والشخصية غير السوية قد صار ، حديثاً ، تمييزاً واهياً لأنه يستند الى اقامة حدود غير محددة بين هذين المجالين من الدراسة . وفي ذلك يحاول المحالجون السلوكيون أن يبينوا أنهم يستطيعون استخدام نفس المبادئ السيكلوجية في تعديل كل أنواع المشكلات الانسانية ، دون اعتبار لسمط المشكلة أو لشدها . وفي الحقيقة أنهم يفضلون علاج المشكلات الانسانية الحادة ، والتي قد تستعصي على العلاج بطرق أخرى ، وذلك لكي يبرهنوا على فعالية طرقهم وعلى صحة المبادئ التي تقوم عليها .

- والمهدف من الدراسة الحالية هو تحليل الأسس النظرية والتجريبية للعلاج السلوكي والتفسيرات التي تقدمها النظريات السلوكية للشخصية الانسانية في سوانها واضطرابها ، وأهم طرق تعديل السلوك وما تستند اليه من دراسات وتجارب ، وتقييم آثارها بالنسبة لتغير الشخصية ودورها في اثرء التنظير في دراسة الشخصية ، مع ابراز نواحي النقد الذي وجه الى النظرية السلوكية في العلاج النفسي .

طبيعة الشخصية في النظريات السلوكية المعاصرة

تطور التنظير السلوكي في الشخصية :-

يلخر التوجه السلوكي في دراسة الشخصية بمفاهيم رئيسية . ومع ذلك ، فإن التوجه السلوكي يتضمن أنماطاً متميزة عديدة من التصورات النظرية التي نمت مع ظهور علم النفس الحديث . ورغم أن النظريات السلوكية في تفسير الشخصية تحمل في الغالب سميات متشابهة ، إلا أنها في الواقع مختلفة كثيراً عن بعضها البعض .

فما يوحد بين هذه النظريات ويجعلنا نسميها بـ « النظرية السلوكية في الشخصية » ، هو أنها تنطلق في تفسيرها للظواهر النفسية من « نموذج م - س » (stimulus — response paradigm) - فالظواهر النفسية هي نظام من العلاقات بين المثيرات والاستجابات . وتتفق هذه النظريات في تأكيدها على خيرات التعلم من حيث أنها المحددات الرئيسية للشخصية ، وبالتالي القابلة للقياس والتجريب - وهي المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ، أما ما بين هاتين القشتين من عمليات غير قابلة للملاحظة - وهي المتغيرات الوسيطة - فهي تكوينات فرضية يمكن تحديدها بالاستدلال من المتغيرات المستقلة والتابعة .

وإذا كان السلوكيون قد تأثروا غالباً بفرويد واتباعه من أنصار نظرية التحليل النفسي ، إلا أنهم قد التزموا أساساً بالدراسة العلمية لعلم النفس ، وبتطوير منهج تجريبي يمكن به القيام ببحوث دقيقة وموثوق بها . لذا فقد تأثر السلوكيون الأوائل بالمنهج العلمي الذي تطور في العلوم الطبيعية ، وفي ذلك نجد تفسيراً لاهتمام السلوكيين بالدراسات التجريبية التي أجريت على الحيوانات في مواقف معملية تتوفر فيها شروط الضبط التجريبي .

وإذا كان بعض السلوكيين قد أعجبوا بما وصل إليه فرويد من تأملات جريئة ، خاصة بالجهاز العقلي والتكويني النفسي للإنسان ، إلا أن معظمهم قد أبدى تشككه أو حتى رفضه للطرق الاكلينيكية الذاتية التي اعتمدت عليها . فبدلاً من البحث في سر غور الأحلام والتداعيات الخفية لدى المرضى النفسيين ، أو بدلاً من النظر على نطاق واسع في الطبيعة الانسانية والمجتمع ، سعى السلوكيون إلى البحث عن نظام يكون قابلاً للاختبار والتجريب الموضوعيين وخاصة بواسطة الطرق المعملية .

هكذا يركز السلوكيون على العمليات الرئيسية للتعليم التي يكتسب من خلالها الكائن الحي في تفاعله مع بيئته معينا أو مستودعا من الاستجابات . لقد درسوا آليات (ميكانيزمات) التعلم التي من خلالها تصير أحداث معينة - « مشيرات » - مرتبطة بأنماط سلوكية أو باستجابات معينة . وكان هدفهم ، ككل المنظرين العلميين ، هو فهم « الأسباب » - وهي في هذه الحالة ، التعلم أو الطرق التي بها تصير مشيرات معينة مرتبطة باستجابات معينة .

ويمكن أن نحدد مرحلتين أساسيتين للتطور التاريخي للتنظير السلوكي في الشخصية : المرحلة المبكرة حتى أوائل الخمسينات من القرن الحالي ، والمرحلة المعاصرة من الخمسينات وحتى الوقت الحاضر .

أ - النظريات المبكرة للتعلم الاجتماعي :

تأثرت بالمدرسة الوظيفية في علم النفس التي تعزى إلى وليام جيمس وجون ديوي مؤسسي هذه المدرسة . وكانت هذه المدرسة انعكاساً بدرجة كبيرة للفكر الدارويني . فاهمية البيئة والتكيف معها مبدأ داروين صار أساساً لوجهة النظر التجريبية من جيمس حتى الوقت الحالي . ولكن التأكيد على أهمية البيئة يثير عدة تساؤلات : كيف تؤدي الخبرة التي تغير الفرد ؟ ما هي العملية التي بها يتوافق الفرد مع بيئته ؟ وللإجابة على هذه الأسئلة ، قدم المنظرون الأوائل مفهوم « العادة » على أنه الوسيلة التي بها تؤثر الخبرات السابقة في سلوك الفرد في المستقبل . هذا المفهوم يتفق مع نظرية داروين في ناحيتين : تأكيد داروين على العمليات الطبيعية الآلية ، وفكرة داروين عن استمرار الأنواع بقدر ما أن كلا الإنسان والحيوان يتصفان بالقدرة على تكوين العادات .

لقد بنى كلارك هـل نظريته في التعلم حول مفهوم العادة ، وكانت نظريات التعلم الاجتماعي في الثلاثينات والأربعينات تطبيقاً لنظام هـل هذا . ولم يقتصر تطبيقها للمفهوم على نمو الشخصية فحسب ، وإنما امتد كذلك إلى العلاج النفسي الذي اعتبره السلوكيون موقفاً يحدث فيه إعادة تعلم .

أما إدوارد لي ثورنديك ، الذي صار من المعالم البارزة في تاريخ علم النفس الأمريكي ، فقد كان تلميذا لوليم جيمس بجامعة هارفارد . وقد وفرت تجاربه على الحيوانات والمعروفة بتجارب « التعلم الوسيلى » وكذلك قانونه المعروف بقانون « الأثر » أساسا هاما لنظريات التعلم الاجتماعي المبكرة . اهتم ثورنديك ، مثل جيمس من قبله وهل من بعده ، بمبادئ تكوين العادة . وقد أدى تطور التنظير وتجمع البحوث في هذا الميدان ، بالإضافة الى أعمال جون واطسون في أمريكا وإيفان بافلوف في روسيا ، الى بلورة وتعميق سيكولوجية التعلم .

هكذا ، شهدت الثلاثينات من القرن الحالى نظريات عظيمة في التعلم : سكينر ، جاثري ، تولمان ، هل وغيرهم . وكان لنظرية هل خاصة أكبر تأثير على نظرية الشخصية . لجأ « معهد العلاقات الانسانية » بجامعة ييل الأمريكية في عام ١٩٣٣ الى أن يضم اليه مجموعة من العلماء المهتمين بالعلوم الاجتماعية والسلوكية ، وذلك بهدف التكامل بين نتائج علوم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والطب النفسي . وقد بدأ كلارك هل ، الذي انضم الى جامعة ييل في عام ١٩٢٩ ، في تنظيم حلقة بحث (سيمينار) في هذا المعهد في عام ١٩٣٦ بالاشتراك مع ثلاثة من الباحثين الذين صاروا من رواد المدرسة السلوكية وهم : نيل ميلر ، جون دولارد ، هوبرت ماورر . وكان للجو العلمي بجامعة ييل في هذه الفترة تأثير كبير على النظريات المبكرة في التعلم الاجتماعي كما تطورت على يد دولارد وميلر .

لقد تدرب كل من دولارد وميلر أيضا على التحليل النفسي في أوروبا : دولارد في برلين ، وميلر في فيينا . لذا جاءت أعمالهما توفيقا بين التقليد الأوربي في التحليل النفسي والتقليد الأمريكي في السلوكية ، وحاول كلاهما ترجمة ملاحظات فرويد وكذلك ملاحظات الاثنوبولوجيين (وقد أصبح دولارد مثلا أستاذا للاجتماع والانثروبولوجية وعلم النفس بجامعة ييل) وفقا للغة المثير - الاستجابة . يتضح هذا الاتجاه التوفيقى أو اتجاه المعرفة المتكاملة Interdisciplinary من إهداء كتابها الأول باسم هل وكتابها الثاني باسم فرويد وبافلوف وتلاميذهما .

ب - النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي :

وهي النظريات التي تطورت خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين . في الخمسينات ساد اتجاه تحليل التعلم كتغير في احتمالات الاستجابات response probability وفي الستينات سيطر على بحوث التعلم والتنظير السلوكي اتجاه يهتم بالتحليل الكيفي الأعمق على تكوين نماذج تركيبية للتعلم والذاكرة باستخدام نظرية العمليات الكيفية المتناهية - theory of finite stochastic proces- ses التي تعزى الى « باش وموستر » (١٩٥٥) ، و « استس » (١٩٥٠ - ١٩٥٩) ، و « لوس » (١٩٥٩) . تقدم هذه النظرية تمثيلا طبيعيا للانتقال بين الحالات المتميزة للمعرفة أو مراحل تشغيل المعلومات ، وهي الحالات أو المراحل المختلفة في خصائصها الكيفية . أما التطور الذي حدث أساسا في السبعينات فيتمثل في التحليل التفصيلي لتركيب المعرفة باستخدام نماذج شكلية formalisms

تتألف من لغات برامج الكمبيوتر . تقدم هذه النماذج فروضا عديدة عن العمليات والتركيبات المعرفية المتضمنة في حل المشكلات وفهم اللغة . ومن التطورات المرتبطة لسيكولوجية التعلم في الثمانينات ، بناء نظرية للتعلم تقدم تحليلا تفصيليا لاكتساب التراكيب المعروفة ، كما تقدم تفسيراً للتعلم كعملية تعديل وترابط للتراكيب المعرفية ، وتكون هذه النظرية قابلة للتطبيق على تحليل العمليات التي بها يكتسب الأطفال المعرفة والمهارات المعرفية .^(١)

ويلاحظ من تطور نظريات التعلم المعاصرة أن التطور الأكبر في سيكولوجية التعلم قد تحقق أكثر في التنظير في الجانب المعرفي فيما يعرف بنظريات التعلم المعرفي ، مثل نظرية جيروم برونر (١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١) ونظرية دافيد أوزابيل (١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩) وغيرها ، وما كان لها من تطبيقات عظيمة في العملية التعليمية . كذلك كان لتطور نظريات التعلم المعاصرة تطبيقات خلاقة في تفسير طبيعة الشخصية الانسانية فيما يعرف بنظريات التعلم الاجتماعي ، كما طورها « جوليان روتر » و « ألبرت بندورا » وتلميذه « ريتشارد والترز » . وبجانب ذلك فانه بالرغم من أن نظريتي « دولارد وميلر » و « سكينر » في التعلم الاجتماعي ترجعان الى المرحلة المبكرة في تطور نظريات التعلم ، الا انها قد احتفظتا بمكانة كبيرة بين النظريات المعاصرة في التعلم الاجتماعي ، كما أن هؤلاء المنظرين السلوكيين قد استمروا في تطوير تصوراتهم النظرية في الخمسينات والستينات من القرن الحالي .

لذا سوف نعرض فيما يلي لتحليل طبيعة الشخصية في ضوء النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي (دولارد وميلر ، سكينر ، باندورا والترز ، روتر) .



النظرية السلوكية - السيكوندينامية

(دولارد وميلر)

يمكن أن يطلق على نظرية دولارد وميلر ، التي طورها في الاربعينات بجامعة ييل ، « النظرية السلوكية السيكوندينامية » لأنها تقوم على التوفيق والتكامل بين بعض الأفكار الرئيسية في النظرية الفرويدية السيكوندينامية ومفاهيم ولغة وطرق البحوث العملية التجريبية في السلوك والتعلم .

(١) James, G. Greeno - Psychology of learning, 1960 — 1980, American psychologist, 1980, vol. 35, No. 8, 713 — 728.

المكونات الرئيسية لعملية التعلم :

لقد استطاع دولارد وميلر ، انطلاقاً من الافتراض الاساسي بأن السلوك نتعلم ، ان يبنيا نظرية في التعلم يمكن بها تفسير نطاق واسع من السلوك المتضمن في الشخصية السوية والمرضى النفسي والعلاج النفسي :^(٢)

في هذه النظرية يحددان أربعة مكونات أو عوامل هامة في عملية التعلم ، وهي : الحافز drive (الدافعية) - والاشارة أو العلامة cue (المثير) - والاستجابة (الفعل أو التفكير) ، والتدعيم (الاثابة) . ويعبران عن تصورهما تعبيرا بسيطا على النحو التالي :^(٣)

« لكي يتعلم الفرد ، يجب أن يريد شيئا ما ، وأن يلاحظ شيئا ما ، وأن يفعل شيئا ما ، وأن يحصل على شيء ما » .

ويكون التعلم ، وفقا لهذه النظرية ، هو العملية التي فيها تصير استجابة معينة وإشارة المشير مترابطتين . ولنتناول هذه المكونات الأربعة للتعليم فيما يلي :

١ - الحافز : يبدأ الطفل الوليد حياته بمجموعة من الحاجات البيولوجية « الفطرية » أو « الأولية » - كالحاجة الى الطعام والماء والهواء والدفء - التي يعتبر اشباعها ضروريا لبقاء الكائن الحي . ولكن بالرغم من أن هذه الحاجات فطرية ، الا أن السلوك اللازم لاشباعها يتضمن تعلما . ويتضمن معظم السلوك الانساني اهدافا وحوافز - كالمال والمركز والقوة والحب والاقتدار والتمكين والابتكار وتحقيق الذات وغيرها - قد تبدو علاقتها بالحاجات الأولية بعيدة للغاية . ولكن دولارد وميلر استطاعا تحليل عمليات التعلم التي فيها تنشأ مثل هذه الدوافع الانسانية من الحاجات الأولية .

إن اي مثير قوي (داخلي أو خارجي) ، وفقا لدولارد وميلر (١٩٥٠) ، قد يدفع الفعل أو الاداء ، ولذلك يعمل كحافز . وكلما كان المثير أقوى ، ازدادت وظيفة الحافز . فالحوافز هي مثيرات قوية تحرك السلوك . وبينما قد يصبح مثير ما قويا بدرجة تكفي لأن يعمل كحافز ، فان بعض فئات من المثيرات (كالجوع والعطش والتعب والألم والجنس) تكون هي الأساس الأولي لمعظم الدافعية ، هذه المثيرات هي حوافز أولية أو فطرية . وتختلف قوة الحوافز الأولية وفقا لشروط الحرمان : فبقدر ما يزداد الحرمان ، تزداد قوة الحافز .

J. Dollard & N. E. Miller : *Personality and Psychotherapy : An analysis in terms of learning, thinking, and culture.* (٢)
New York : Mc Graw — Hill, 1950.

N. E. Miller & J. Dollard : *Social learning and imitation.* New Haven : Yale Univ. Press, 1941, P. Z.

(٣)

ويؤدي الكف الاجتماعي - للجنس مثلا - إلى الحيلولة دون التعبير المباشر أو الكامل عن الخوافز الأولية . لذا يكون الكثير من السلوك مدفوعا بواسطة الخوافز « الثانوية » أو المتعلمة والتي قد تعرضت للتغير والتهذيب . تلك هي الدوافع المتحولة التي تبدو أكثر وضوحا في ظل شروط المجتمع الحديث ، والتي تنطوي على أهمية بالغة بالنسبة للسلوك الانساني للتمدين .

هذه الخوافز المتعلمة يكتسبها الانسان على أساس الخوافز الأولية (الفطرية ، غير المتعلمة) . والكثير من الخوافز يتم تعليمها من ارتباطها بخفض الخوافز الأولية .

والواقع أن اهتمام دولارد وميلر بالخوافز ، الأولية والثانوية ، هو إحياء لأفكار فرويد الخاصة بالدوافع والخفزمات Impulses كقوى تكمن وراء السلوك . ولكن بينما يهتم التصور الفرويدي بالترغبات الغريزية ، فإن دولارد وميلر يهتمان بالكثير من الدوافع المتعلمة التي تكمن جلورها في الخوافز الأولية .

٢ - الإشارة أو العلامة : إن الخافز يدفع الفرد إلى السلوك ، أما الاشارات أو العلامات فهي التي تحدد متى سوف يأتي الفرد بالاستجابة ، وأين سوف يأتي بها ، وما هي هذه الاستجابة .^(٤)

مثال ذلك ، جرس الغذاء يعمل كإشارة أو علامة بالنسبة للتلميذ الذي يحس بحافز الجوع ، فيدخل كتبه في حقيبتة ويخرج طعامه منها . وقد تكون الاشارات أو العلامات سمعية أو بصرية أو لسية أو غير ذلك . وقد تختلف في شدتها ، كما أن تجمع مشيرات مختلفة مع بعضها قد يعمل كعلامات أو إشارات . وقد تكون التغيرات والاختلافات ، ووجهة وحجم الاختلافات اشارات وعلامات متميزة أكثر من المثير المنعزل . والمثير الشديد قد يصبح حافزا . لذا فإن المثير قد يعمل كحافز وعلامة أو إشارة على حد سواء . فهو يدفع السلوك ويوجهه كذلك .

٣ - الاستجابة : قبل أن تلقى الاستجابة لإشارة أو علامة إثابة وتعلما ، فانها ينبغي أن تحدث بالفعل . ويفترض دولارد وميلر ترتيب استجابات الكائن الحي وفقا لاحتمال حدوث الاستجابات ، فيما يعرف بـ « المدرج الهرمي المبدئي » Initial hierarchy ويؤدي التعلم إلى تغيير نظام الاستجابات في هذا المدرج الهرمي . فالاستجابة الضعيفة مبدئيا ، اذا خضعت لاثابة بشكل ملائم ، قد تحتل موقعا رئيسيا في هذا الترتيب الهرمي . يطلق على المدرج الهرمي الذي حدث بواسطة التعلم مصطلح « المدرج الهرمي الناتج » resultant hierarchy ومع التعلم والنمو ، يصبح المدرج الهرمي للاستجابات مرتبطا باللغة ، وبالتالي يتأثر بشدة بالثقافة التي يحدث فيها التعلم الاجتماعي .

٤ - التدعيم : وهو حدث معين من شأنه أن يقوي ميل الاستجابة الى أن تتكرر . ويؤدي خفض قوة الحافز الى تدعيم الاستجابة السابقة عليه مباشرة . ويعني ذلك ، أن اختزال الحافز يعمل كتدعيم (أو إثابة) . وينطبق ذلك على كل من الحوافز الأولية والثانوية . كذلك قد يعمل اختزال أو تجنب الاستشارة المؤلفة أو المخاوف أو مشاعر القلق المتعلمة المرتبطة بالألم والعقاب - كتدعيم .

إن مفهوم دولارد ويميلر عن التدعيم كاختزال للحافز أو خفض للتوتر أقرب الى « مبدأ اللذة » عند فرويد . فهذان المفهومان يعتبران حالات الحاجة كحالات من التوتر المرتفع ، تتطلب خفضا للتوتر وتحقيقا للتوازن - أي كأهداف للكائن الحي .

ويعتبر التدعيم شرطا ضروريا لبقاء العادة وكذلك لتعلمها . أما الانطفاء extinction ، فهو الاستبعاد التدريجي للميل الى الاتيان باستجابة ؛ ويحدث الانطفاء حينما تتكرر تلك الاستجابة بدون تدعيم . أما الوقت اللازم لانطفاء عادة فيعتمد على القوة المبدئية للعادة وعلى شروط موقف الانطفاء . فمن الشروط التي تؤثر في الانطفاء - الحافز الضعيف ، الاستجابات القوية ، الوقت القصير المنصرم بين محاولات الانطفاء ، والاستجابات البديلة القوية .

وقد حاول « ميلر » حديثا أن يعدل من مفهومه عن خفض الحافز لتدعيم التعلم ، مستندا في ذلك الى آليات التنشيط activating mechanisms في الدماغ - فهذه الآليات (الميكانيزمات) تنشط بطرق مختلفة (كأن تنشط بواسطة التفكير) ، وليس فقط بواسطة خفض الحوافز أو الاستشارة المؤلفة .^(٥)

الصراع : إن أي فرد قد يجبر صراعا حينما يريد أن يحقق هدفين أو أكثر ، كل منهما يتعارض مع الآخر . فقد يرغب في الخروج في رحلة مع بعض اصدقائه ، أو أن يكرس هذا الوقت للاستذكار لأنه يقترب من الامتحان . فحينما يكون على الفرد أن يختار بين بدائل متعارضة ، قد يتعرض للصراع .

يفترض تصور ميلر ، والذي تأثر فيه بنظرية ليفين (١٩٣٥) ، أن الصراع يقوم على ميل إقدامية وإحجامية :^(٦) في ذلك يحدد ميلر أربعة أنواع للصراع :

N.E. Miller : Some reflections on the law of effect produce a new alternative to drive reduction. In M. R. Gones (٥) (Ed.), Nebraska Symposium on Motivation. Lincoln : University of Nebraska, 1963.

N. E. Miller : Experimental studies of conflict. In J. Mc V. Hunt (Ed.), Personality and behavior disorders, Vol. 1. (٦) New York : Ronald Press, 1944, PP. 431 — 465.

N. E. Miller . Liberalization of basic S—R concepts : extensions to conflict behavior, motivation, and social learning. In S. Kock (Ed.), Psychology : A study of science. Vol. 2. New York : Mc Graw—Hill, 1959. PP. 196 —292.

(أ) صراع الاقدام - الاقدام approach — approach conflict وفيه يكون الشخص مشدودا ، على الأقل وقتيا ، بين هدفين أو بديلين مرغوبين - مثال ذلك الطفل الذي عليه أن يختار بين لعبتين ، والشخص الذي يقدم على الزواج أو يتفرغ لاستكمال دراسته أو مشروعاته .

(ب) صراع الاحجام - الاحجام avoidance conflict — avoidance بين بديلين غير مرغوبين - مثال ذلك قبول الشخص لأن تجري له عملية جراحية أو يعاني من المرض .

(جـ) صراع الاقدام - الاحجام approach — avoidance conflict وينشأ نتيجة لوجود أهداف أو بواعث إيجابية وسلبية في آن واحد ، لذا يتكون لدى الشخص ازاء هذه الأهداف « مشاعر مختلفة » أو « اتجاهات متناقضة » ، مثال ذلك قد يحب الطفل في والديه جوانب معينة ويكره جوانب أخرى ، الاقبال نحو أطعمة شهية والاحجام عنها خوفا من زيادة الوزن .

(د) صراع الاقدام - الاحجام المزدوج double approach — avoidance conflict مثال ذلك الشاب الذي يقبل على الزواج وهو مشدود باتجاهين كل منهما يجعل خصائص جاذبة ومنفرة - فهل يتزوج ويحظى بحياة مستقرة (خصائص إيجابية) ولكن يتخل عن حياة الانطلاق والمرح (خصائص سلبية) ؟ أو هل يظل أعزبا محتفظا بحرية (خصائص إيجابية) ولكن يعاني من الوحدة وغيرها من الصعوبات (خصائص سلبية) ؟ ولما كانت الأهداف البديلة في هذا الشكل من أشكال الصراع ليست إيجابية أو سلبية بطريقة واضحة تماما ، فإن حلها يعتبر أمرا معقدا .

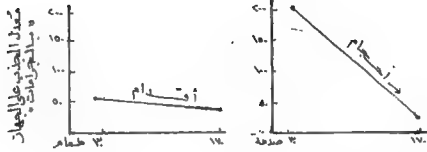
ثمة اتفاق واختلاف بين نظريتي فرويد ودولارد وميلر فيما يتعلق بالصراع : فالصراع يعتبر محورا رئيسيا لهاتين النظريتين . ولكن بينما يفترض فرويد أن الصراع ينشأ أساسا من الصدام بين قوى الجهاز النفسي (أي بين إلهي والأنا والأعل) ويستتبط هذه الحالات الصراعية من المرضى المصابين ، فإن دولارد وميلر يخصصان فروضهما للتجريب على الحيوانات .

لقد أقام ميلر نظريته أساسا على التجارب التي أجريت على الحيوانات : (٧) في بعض هذه الدراسات تعلمت الفئران الجائعة كيف تتوجه من خلال معبر لكي تحصل على الطعام عند نقطة معينة

J. S. Brown : The generalization of approach responses as a function of stimulus intensity and strength of motivation. (v) *Journal of Comparative Psychology*, 1942, 33, 209—228.

J. S. Brown : Gradients of approach and avoidance responses and their relation to level of motivation. *Journal of Comparative and Physiological Psychology*, 1948, 41, 450—465.

N.E. Miller : 1959.



للسلسلة التي تجد بها تعلق الاختيار عن الطعام (بالستمرات)

(المسافة التي تدمعها تعلق الاختيار عن الصدمة (بالستمرات)

شكل (٦) : يوضح مدوني الاكمام والاحجام .

(Brown, 1948)

في المتابعة . ولكي يخلق الباحثون حالة من « التناقض » (الاقدام - الاحجام) ، تعرضت الفيران الى صدمة كهربية حينما تقبل على الطعام . ولاختبار الصراع الناتج ، وضعوا الفيران مرة أخرى عند بداية المعبر . عندئذ بدأت الفيران الجائعة في الاقدام نحو الطعام ولكنها توقفت وترددت قبل الوصول اليه . وهذه المسافة التي يتوقف عندها الفأر تتغير بواسطة تغيير مقدار الجوع أو قوة الصدمة الكهربائية .

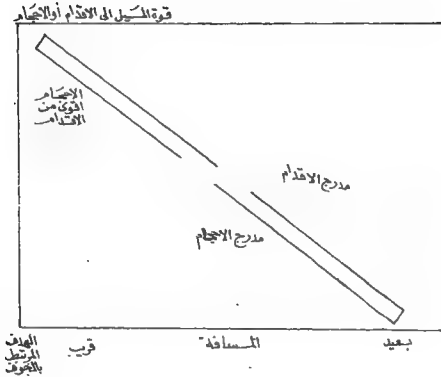
ولتحليل الصراع في هذه المواقف ، طبق دولارد وميلر مفهوم « مراتب الهدف » أو « مدرج الهدف » goal gradients . يعني هذا المفهوم تلك التغيرات في قوة الاستجابة كدالة للبعد عن موضوع الهدف . ولقياس قوة الميلول الاقدامية والاحجامية عند نقاط مختلفة من . البعد عن الهدف ، صمم جهاز يقيس قوة جذب الفأر في اتجاه الحصول على التعزيز الايجابي (الطعام) أو بعيدا عن التعزيز السلبي (الصدمة) ، وذلك عند نقاط مختلفة من البعد عن الطعام . وقد تبين أن الفيران كانت تجذب بقوة أكبر كلما اقتربت من الهدف وتعرضت لصدمة عند هذه النقطة الأقرب الى الطعام . تتضح هذه النتيجة من انحدار مدرج الاقدام (كما يتضح من الشكل رقم « ١ ») . بالإضافة الى ذلك ، استخدمت اجراءات تجريبية أخرى ، تلقت فيها الفيران صدمة كهربية عند نهاية المعبر . وحينما وضعت الفيران عند نفس النقطة بالمعبر حيث تلقت صدمة من قبل (ولكن الآن بدون صدمة) ، فانها جرت بعيدا عن هذه النقطة . وكلما اقتربت الفيران من هذه النقطة ، فانها كانت تجذب بقوة أكبر للابتعاد عنها . يبدو ذلك خاصة في ازدياد انحدار مدرج الاحجام ، مقارنة بانحدار مدرج الاقدام (انظر الشكل « ١ ») . تعني نتائج هذه التجارب أن كلا من السلوك الاقدامي والاحجامي يتزايد كلما اقترب الكائن الحي من الهدف ، وأن الاحجام يتزايد أسرع من الاقدام .

هكذا استنادا الى هذه الدراسات ، يحدد دولارد وميلر عدة مبادئ لتفسير الصراع في ضوء مفاهيم التعلم :

١ - يزداد الميل الى الاقدام نحو الهدف كلما اقترب الفرد من الهدف - يطلق على ذلك المبدأ مصطلح « مدرج الاقدام » approach gradient

٢ - يزداد الميل الى تجنب مثير سلبي كلما اقترب الفرد من المثير - يطلق على ذلك المبدأ مصطلح « مدرج الاحجام » avoidance gradient

٣ - كلما اقترب الفرد من الهدف ، تزداد قوة الميل الى الاحجام بدرجة أسرع من الميل الى الاقدام . أي أن مدرج الاحجام أكثر شدة في انحداره من مدرج الاقدام .
(تتضح هذه المبادئ الثلاث من الشكل رقم « ٢ ») .



شكل (٢) : صراع الانحياز - الاجتهاد . فالحيل الى الاقدام يكون هو الأقوى من بين الحيلين لما كان بعيدا عن الهدف ، بينما يكون الميل الى الاجتهاد هو الأقوى من بين الحيلين اذا كان قريبا من الهدف . لذا حينما يكون للفرد صراع بين الانحياز ، فله ميل الى الاقدام على المرء لسبب انه يتخلف بوسيلة يقترب من الهدف ، فله ميل الى التراجع على المرء لسبب انه يتخلف . أي أن الكائن الحي يميل الى البقاء عند المنطقة التي يتناطح فيها مدفوعا بالانحياز والاجتهاد .

(Miller, 1944)

٤ - تؤدي الزيادة في الحافز المرتبطة اما بالاقدام أو الاحجام الى رفع المستوى العام للدرج الاقدام أو المبرج الاحجام .

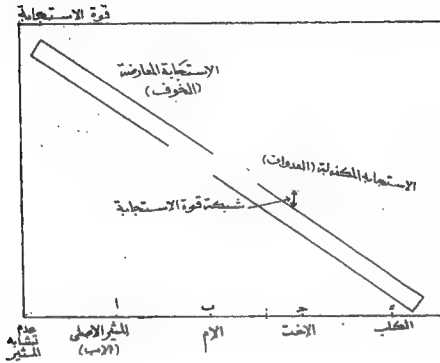
٥ - حينما يكون هناك ميلان الى السلوك في حالة من التنافس ، فان الميل الاقوى الى السلوك هو الذي يحدث .

تؤكد نظريتنا فرويد ودولارد ميلر على الصراع والقلق كمحور للسلوك العصبي . ولكن الصراع العصبي يتضمن ، وفقا لنظرية فرويد ، صداما بين حفزات الهي التي تبحث عن تعبير لها والكف الداخلي الذي يراقب ويقيد التعبير عن هذه الحفزات وفقا لمحرمت الثقافة التي يعيش فيها الفرد . أما دولارد وميلر فيقرران نفس المبادئ الرئيسية بلغة نظرية التعلم .

تقوم نظرية دولارد وميلر في تفسير العصاب على أن الخوف القوي (القلق) هو حافز متعلم يستثير صراعا يرتبط باستجابات الهدف ازاء حوافز قوية أخرى كالجنس أو العدوان . فحينما يبدأ الشخص العصبي في الاقتراب من الهدف الذي قد يؤدي الى خفض تلك الحوافز كالجنس أو العدوان ، فان خوفا قويا يستثار لديه . هذا الخوف قد يستثار بواسطة أفكار تتعلق بأهداف الحافز ، وكذلك بواسطة أية محاولات لإدماية ظاهرة . فعل سبيل المثال ، قد تكون مشاعر المداوة نحو الأب مثلا باعثة على الخوف ؛ لذا ينشأ صراع بين تلك الرغبات والخوف الذي يستثار بواسطة التعبير عنها . هذه الاستجابات المرتبطة بالخوف والباعثة على الكف تحول كذلك دون اختزال الحافز ، لكي تستمر الحوافز للمعاقة (كالجنس أو العدوان) في أن ترتقي الى مستوى أعلى . هكذا يقع الفرد في صراع لا يمتثل بين حوافزه المحبطة المثيرة والخوف المرتبط باستجابات الاقدام الذي يعمل على خفض حالة التوتر هذه .

فالشخص العصبي في هذه الورقة قد يستثار في آن واحد بواسطة الحوافز المحبطة وبواسطة الخوف الذي تستدعيه هذه الحوافز . وتؤدي الحالة المرتفعة للحافز المرتبطة بهذا الصراع الى تسمية هذا الشخص والى أن تتداخل مع فعالية تفكيره وحله للمشكلات . هذه الأغراض التي يبدئها الشخص العصبي تنشأ من تكوين الحوافز ومن الخوف الذي يكف خفض هذه الحوافز .

النقل أو الاثارة : ينظر فرويد الى الطاقة النفسية على أنها تنتقل أو تتحول من فكرة لأخرى ؛ فالحفزات الجنسية أو العدوانية التي تكون موجهة أساسا نحو موضوع غير مقبول تجبض لإعادة توجيهها نحو الموضوع الذي يقبله أكثر .



شكل (٢) : نظرية التماثل أو الأماثلة . فكلما استجابتين (التكيفية والمتعلمة) متماثلتان . حل مشكلات وتلا من الحلف الأصلي . إن كلا من الأب والأم يستدعي الاستجابة المتعلمة . بينما تستدعي الأم والاب الاستجابة المتعلمة أو المتعلمة . وتكون نسبة قوة act الاستجابة هي الفرق بين act للفردين .

(Miller, 1948)

لقد وسع ميلر نظريته عن الصراع لتتضمن المواقف التي تحدث فيها ظاهرة النقل أو الازاحة : (٨)
يوضح الشكل رقم (٣) مثالا لهذه الظاهرة . ولد يحركه حافز عدواني نحو أبيه ، ولكنه يلقى كفا
بواسطة استجابة للخوف تتعارض مع هذا الحافز . وفي هذا تطرح النظرية عدة افتراضات :

(١) ان الاستجابة التي خضعت للكف (توجيه عدوان نحو الأب) والاستجابة المعارضة (الخوف)
تعممان على مشيرات مماثلة (أشخاص آخرون) .

(٢) كلما ازداد تشابه المثيرات الأخرى مع المثير الأصلي (الأب) ، تزداد درجة التعميم .

(٣) ان مدرج أو مراتب التعميم بالنسبة للاستجابة المتعارضة يكون أشد انحدارا من مدرج أو مراتب
التعميم بالنسبة للاستجابة المكفوفة . فعلى امتداد متصل التعميم - generalization con-
tinuum تكون الاستجابة المتعارضة التي تتضاد بشكل أسرع ، أضعف من الاستجابة المكفوفة -
يتضح ذلك في أن هذا الولد يوجه عدوانه في النهاية نحو مثير بديل وهو أخته أو كلبه .

ولقد أجريت تجارب كثيرة لاختبار نظرية النقل أو الازاحة . في إحدى هذه الدراسات التجريبية ،
أبدى الأولاد في معسكر صيفي تعبيرات عن العداء المتحولة نحو أعضاء جماعات الأقلية في المعسكر
بعد أن تلقى هؤلاء الأولاد إيجابا من المجرم . (٩)

القلق والكبت : يتقبل دولارد وميلر ، مثل فرويد ، القوى اللاشعورية كمحددات هامة للسلوك ؛ كما
يعطيان ، مثل فرويد أيضا ، للقلق (وهو خوف متعلم) مكانة رئيسية في ديناميات السلوك .

يتضمن الكبت ، وفقا لدولارد وميلر ، الاستجابة المتعلمة الخاصة باللاتفكير - think - not
ing في شيء ما ، ويكون مدفوعا بواسطة الحافز الثانوي للخوف . فبسبب الخبرات السابقة ، قد
تؤدي أفكار معينة إلى استدعاء الخوف كنتيجة لارتباطها مع الألم أو العقاب . ولكن باللاتفكير في هذه
الأفكار ، يحدث اختزال في مشيرات الخوف وتلقى الاستجابة (الخاصة باللاتفكير) تدعيا . وفي النهاية
يصير « اللاتفكير » (الكف ، التوقف ، الكبت) متوقفا ، من حيث أن الفرد يتجنب أفكارا معينة قبل
أن تؤدي إلى نتائج مؤلمة . هذا التصور أشبه بفكرة فرويد بأن الكبت هو نتيجة للقلق وأنه يعمل على

N. E. Miller : Theory and experiment relating psychoanalytic displacement to stimulus response generalization. (٨)
Journal of Abnormal and Social Psychology, 1940, 43, 155-178.

N. E. Miller and R. Bugelski : Minor studies in aggression : I.I. The influence of frustrations imposed by the in- (٩)
group on attitudes expressed toward out - groups. Journal of Psychology, 1964, 25, 437-442.

خفص القلق الذي ينشأ نتيجة لأن مشاعر أو أفكار غير مقبولة تبدأ في الانتقال من اللاشعور الى الشعور .

ان نظرية دويلارد وميلر هي ترجمة واضحة للمفاهيم السيكودينامية الخاصة بالقلق والكبت والدفاعات الى لغة نظرية التدعيم في التعلم . فالدفاعات والاعراض (كالمخاوف والعمى المستيري) تتدعم بواسطة الاختزال المباشر لحافز الخوف . وبينما يكون التأثير الوقتي للعرض هو اختزال الحافز والتخفيف الوقتي من التوتر ، فان التأثيرات البعيدة المدى قد تؤدي الى المزيد من تدعيم الاعراض وتعميمها . فمثلا ، عرض الخوف المرضي قد يعوق الشخص عن العمل بفاعلية . وبالتالي يخلق قلقا وإحساسا بالذنب وصراعات أخرى وغير ذلك من المظاهر المصاحبة لصراع الحافز المرتفع .



هكذا فان نظرية دويلارد وميلر عن الدافعية المتعلمة ذات أهمية كبيرة ، لأنها تتضمن طريقة لفهم الأصول التطورية لكل الدوافع الانسانية - فهذه الدوافع تتطور من جذور بيولوجية . ولقد سعى الكثير من المنظرين في الشخصية ، انطلاقا من هذه النظرية ، الى أن يذهبوا الى ما هو أبعد من التجريب على الحيوانات ومن الحوافز الأولية ، لكي يكشفوا الدوافع الأرقى التي تكمن وراء السلوك الانساني المعقد .

السلوكية الراديكالية

(ب . ف . سكينر)

يختلف المنحنى الذي يأخذ به سكينر في نظرية التعلم اختلافا جذريا عن نظرية دويلارد وميلر . فاهتمام سكينر الأساسي هو بالسلوك أكثر مما هو بالاستعدادات والدوافع ، ويرفضه لاستنتاج أو افتراض الحوافز المتعلمة أو أية قوى وسمات دافعية داخلية أخرى .^(١٠)

B. F. Skinner : *Science and human behavior*. New York : Macmillan, 1951.

(١٠)

B. F. Skinner : *Pigeons in a pelican*. *American Psychologist*, 1960, 15, 28—37.

B. F. Skinner : *Behaviorism at fifty*. In T. W. Warr (Ed.), *Behaviorism and Phenomenology*. Chicago : University of Chicago Press, 1964. PP. 79—108.

رفض الدوافع والديناميات الافتراضية : ان الكثير من الدوافع الانسانية هي تكوينات فرضية . والمعروف أن نظريات الدافعية قد ساعدت على الكشف عن مجموعة كبيرة وعن تنظيم معقد من الدوافع الانسانية وعن الاسباب التي تكمن وراءها ، رغم أنه لا يوجد اتفاق تام بشأن معظم الدوافع الأساسية . وقد قامت معظم نظريات وبحوث الدافعية على نموذج البحث التجريبي في الحوافز البيولوجية عند الحيوانات . فافتراض وجود حاجة عند الحيوان (كالجوع مثلا) يجري ربطه بالشروط القابلة للملاحظة كما يتناولها الباحثون في المختبرات العملية . فقوة حافز الجوع ، مثلا ، يجري استنباطها من مقدار الوقت الذي حرم فيه الحيوان من الطعام .

ان تطبيق نظرية الدافعية على الشخصية ، يجعل قيمتها في تفسير السلوك موضع شك . فالنزعة الى استخدام الدوافع كتفسيرات للأسباب التي تجعل الناس تسلك على النحو الذي يسلكون به - تبدو واضحة ، لأننا بهذه الكيفية « نفسر » السلوك . فلنفسر لماذا يقضي شخص وقتا طويلا في تنظيف نفسه ، فقد نقرر بسهولة « لأنه لديه حاجات قوية الى النظافة » أو « لأن لديه رغبة قسرية في النظام » . هذه الفروض الخاصة بوجود دوافع معينة قد تعمل كتفسيرات للسلوك ، ولكنها لا تقدم لنا تفسيرا كافيا الا اذا تمهد الدافع موضوعيا واتضح أسباب الدافع ذاته . ما الذي يجعل الشخص تكون لديه حاجة الى النظافة ؟ ما الذي يحدد رغبته القسرية ؟ لماذا يرغب في أن يكون نظيفاً ؟

ان سكينر وأنصاره ينتقدون مفاهيم كثيرة تتعلق بالحاجات الانسانية ، من حيث أنها ليست أكثر من مجرد مصطلحات دافعية تلحق بالنشاط الانساني وتضاف اليه . هكذا يعزى السلوك المنظم الى الدافع للنظام ، والسلوك الخافض الى الحاجة الى التبعية ، والسلوك الاستكشافي الى الحاجة الى الاستكشاف ، الخ . ولتجنب هذه الدائرة المفرغة ، يفضل سكينر وغيره من السلوكيين تحليل السلوك في ضوء الأحداث والشروط القابلة للملاحظة . لذا يجمعون عن افتراض دافعية معينة . فبدلا من افتراض حاجات تستثير نشاطا معينا ، يحاولون اكتشاف الأحداث التي تقوي هذا النشاط في المستقبل وتحافظ عليه أو تغيره . فهم يبحثون عن الشروط التي تنظم السلوك بدلا من افتراض وجود حاجات أو حالات داخل الشخص كدوافع لسلوكه .

هكذا تقوم نظرية سكينر على أن علم النفس هو علم السلوك ، وان استنباط حالات أو حاجات داخلية غير قابلة للملاحظة لا يعتبر تفسيراً سليماً لأنه لا يضيف شيئا الى الاهتمام العلمي بالشروط التي تحكم السلوك . والدافعية ، وفقا لسكينر ، هي ببساطة نتاج حرمان أو إشباع الكائن الحي . أي أن الدافع يشير الى أحداث قابلة للملاحظة كالحرمان أو الإشباع . وعلى هذا النحو ، يرفض سكينر أي استنتاج يتعلق بصراعات داخلية ، مفضلا التحليل التجريبي للشروط الواقعية للمثير والتي تحكم السلوك .

استراتيجية البحث في السلوك :

يؤكد سكينر على أن العلم ينبغي أن يحاول أن يتنبأ وأن يحدد تجريبيًا (أي يضبط) سلوك الفرد .
وبذلك تصبح علاقات السبب - النتيجة في السلوك هي قوانين العلوم السلوكية .

لذلك يقترح سكينر ما يسميه بـ « التحليل الوظيفي » functional analysis للكائن الحي ،
الذي يتناوله كنظام في حالة من السلوك Behaving system يقوم هذا التحليل على محاولة ربط
سلوك الكائن الحي بالشروط المحدودة التي تحكم السلوك أو تحلده . ولذلك يركز اتجاه سكينر على
التلازمات covariations القابلة للملاحظة بين المتغيرات المستقلة (أحداث المثير - stimuli)
lus events و المتغيرات التابعة (نماذج الاستجابة response patterns) . يعني ذلك
أيضا أن المتغيرات المتضمنة في التحليل الوظيفي ينبغي أن تكون خارجية وقابلة للملاحظة والوصف في
مصطلحات فيزيقية وكمية .

ويذهب سكينر إلى أنه بقدر ما يمكن إخضاع المتغيرات إلى الضبط التجريبي ، فإن التجارب
المعملية تقدم أفضل الظروف للحصول على تحليل علمي للسلوك . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الدراسة
التجريبية للسلوك تفيد كثيرا من تناول سلوك الحيوانات الأدنى من المستوى الإنساني المعقد . فالعلم ،
كما يشير سكينر ، يتقدم من البسيط إلى المركب ويتم باستمرار بما إذا كانت العمليات والقوانين التي
تكتشف عند مرحلة معينة أو مستوى معين تلائم المرحلة التالية أو المستوى التالي (١١) .

الاشتراط الكلاسيكي والمدهمات الشرطية :

يعترف سكينر ، مثل معظم علماء النفس التجريبيين ، بأهمية الاشتراط و الكلاسيكي « أو
الاستجابي » كما اكتشفه بالوف في الأصل . ولكي نفهم إسهامات سكينر ، علينا أن نتناول أولا
طبيعة هذا النموذج من نماذج التعلم .

يتضح مضمون هذه الظاهرة في التجربة التي قدم فيها طبق من الطعام إلى كائن حي في حالة من
الجوع . وبعد فترة ، صار الطبق الفارغ وحده يستدعي الاستجابة الأولية أو غير الشرطية - وهي
سيلان اللعاب ، وبالتالي يصبح الطبق الفارغ « مدعما شرطيا » conditioned reinforcer إلى

حد ما بفضل ترابطه الوثيق مع المثير التدميمي غير الشرطي (الطعام) . ونرى مثالا آخر للمدمع الشرطي إذا سلط ضوء في كل مرة يقدم فيها الطعام الى الحيوان الجائع . في النهاية يصبح الضوء مدعما شرطيا يؤثر في السلوك بنفس قوة تأثير الطعام غالبا .

ثمة قواعد تحكم اكتساب المدعمات الشرطية . فبقدر ما يزداد تزاوج المثير الشرطي (الضوء في المثال الأخير) مع المثير غير الشرطي (الطعام) ، يكتب المثير الشرطي قوة تدميمية أكبر . وينبغي الا تكون هناك فترة طويلة من الوقت بين الحدثين (الضوء والطعام) . وفي النهاية قد تتلاشى القوة التدميمية للمثير الشرطي بسرعة اذا لم يترابط مرة ثانية مع المثير غير الشرطي .

لقد جرى توسيع استخدام مبادئ الاشتراط لتفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية المعقدة . فقد استخدمت في دراسات التجاذب بين الأشخاص ، حيث فسروا نحو العلاقات العاطفية في ضوء مفاهيم الاشتراط . (١٢) وفي ذلك تفترض هذه الدراسات ان تقييم الناس الاشياء قد يكون دالة لمقدار التدميمات اللاحقة المرتبطة بها . (١٣) فكل سبيل المثال ، تتوقف علاقتك القائمة على المودة مع صديق بالدرجة التي يرتبط بها هو بالاشباع بالنسبة لك .

كذلك استخدمت مبادئ الاشتراط في تفسير السلوك العصبي أو المرضي كالحوف والقلق . فالمثيرات المحايدة التي ترتبط باستمرار مع مثير غير شرطي مؤلم ، تصبح بالتالي مثيرات شرطية مؤلمة قادرة على استدعاء الحوف والاستجابات الاحجامية . ويعني ذلك أنه وفقا للاشتراط الكلاسيكي قد يكتسب الفرد ردود افعال انفعالية عميقة ازاء مثيرات محايدة في الأصل .

ومن الأمثلة الايضاحية للاشتراط الكلاسيكي - حالة الطفل « ألبرت » التي تكشف عن الاستجابات الشرطية وتعميمها (واطسون وراينور ، ١٩٢٠) : (١٤) في هذه التجربة استطاع الباحثان استدعاء حالة من الحوف المرضي الشديد من الفيران لدى هذا الطفل الذي لم يكن يخاف من

D. Byrne : Attitudes and attraction. In L. Berkowitz (Ed.) , *Advances in experimental social psychology* : . (١٢) vol.4. New York : Academic Press, 1969.

A. J. Lott & B. E. Lott : A learning theory approach to interpersonal attitudes. In A. G. Greenwald, et al. (Ed. , *Psychological Foundations of attitudes*. New York : Academic Press, 1968.

W. Griffitt & P. Guay : Object evaluation and conditioned effect. *Journal of Experimental Research in Personality*, (١٢) 1969, 4, 1-8

J. B. Watson & R. Raynor : Conditioned emotional reactions. *Journal of experimental Psychology*, 1920, 3, 1-4 (١٤)

مثل هذه الحيوانات من قبل . فقد أجلسا هذا الطفل على منضدة ووضعاً أمامه فأراً أبيض . ولم يبد الطفل أي خوف حيال هذا الحيوان وأخذ يقترب منه ويحاول الإمساك به . في تلك اللحظة أحدث الباحثان صوتاً عالياً يستثير خوف الطفل . هذا الموقف تكرر لعدة مرات ، وتكون عند الطفل بذلك حالة من الخوف تبدو في سلوكه الاحجامي عند الاقتراب من الفأر مرة أخرى . كذلك صارت حالة الخوف هذه « تعمم » على موضوعات مماثلة أخرى ، كالارنب أو الكلاب أو الماعز وغيرها .

ومن الأمثلة الايضاحية كذلك عن الاشتراط في الصدمة « traumatic conditioning تلك التجربة الدرامية التي أجريت على مفحوصين كبار متطوعين : (١٥) لقد كان المثير غير الشرطي صادماً بشكل غير عادي - فقد اعطوا المفحوصين عقار السكولين Scoline الذي سبب لهم اضطراباً مؤقتاً في التنفس ، وخلق نوعاً من الشلل الحركي المؤقت بدون إحداث اضطراب في الوعي . هكذا تسبب هذا العقار في إحداث حالة من الفزع الشديد ومن الشعور بأنهم على وشك الموت . أما المثير الشرطي فقد كان عبارة عن نغمة محايدة . ويتزوج هذين المثيرين (النغمة وتأثير العقار) تكونت استجابة خوف شرطية عند هؤلاء المفحوصين ازاء النغمة المحايدة . وقد كانت استجابة الخوف تنضح أيضاً في بعض التغيرات الدالة على الاضطراب الانفعالي كاختلال ضربات القلب والتوتر العضلي واختلال التنفس . وبالإضافة إلى ذلك ، كانت هذه الاستجابة الشرطية الانفعالية الصادمة تقاوم الانطفاء بدرجة شديدة .

يفسر السلوكيون نتائج هذه الدراسات التجريبية على أنها دليل على أن الاستجابات الانفعالية العصبية - كما في حالات الخوف المرضي - تعكس مبادئ الاشتراط أكثر مما تعكس الرغبات اللاشعورية والصراعات الداخلية ، هذه المبادئ التي يقوم عليها اكتساب الاستجابات الصادمة ، هي نفس المبادئ التي تستخدم في الأغراض العلاجية .

الاشتراط الاجرائي ونواتج الاستجابة :

لقد سعى كثير الى تضمين نظريته مفاهيم كثيرة تتعلق بالاشتراط الكلاسيكي ، ولكنه وكثر على جانب آخر من التعلم : (١٦) فمعظم السلوك الاجتماعي الانساني يتضمن أنماطاً من الاستجابات

D. Campbell, R. E. Sanderson & S. G. Lavery : characteristics of a conditioned response in human subjects during (١٥) extinction trials following a single traumatic conditioning trial. *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 1964, 68, 627-639.

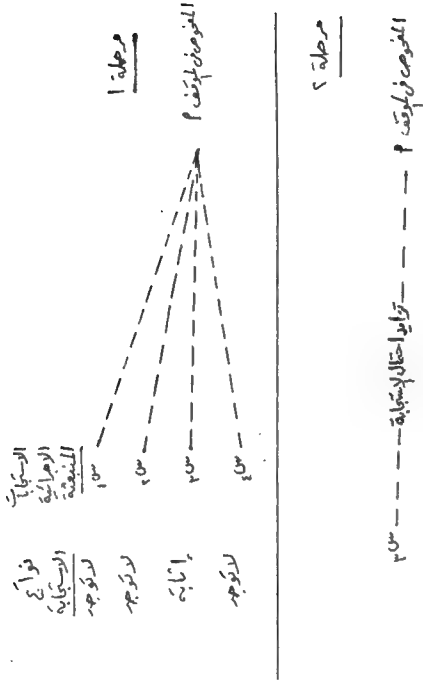
المنبئة بحرية - أو من « الأفعال الاجرائية » (operants) . يشير هذا المصطلح الى كائن حي نشط « يعمل بفعالية » على التأثير في عالمه وعلى التغيير في بيئته ، وعلى تغييره هو من خلال تغييره لبيئته ولعالمه . فنواتج هذه الانماط الاجرائية الفعالة من الاستجابات تقوي احتمال حدوث استجابات مماثلة في المستقبل . أي أن السلوك الاجرائي operant behavior يتحدد بنواتجه أو متربته . وإذا كانت نواتج أو متربثات الاستجابة response consequences مرغوبة أو مدعمة ، فإن السلوك الاجرائي يمتثل أكثر أن ينبعث مرة أخرى في مواقف مماثلة في المستقبل . هذه « المدعمات » أو النواتج المرغوبة ، خلافا لبعض التصورات الخاطئة الشائعة ، لا تكون مقيدة بتلك الاثابات البدائية كالطعام أو الاشباع الجنسي . فغالبا ما قد يعمل أي حدث كمدعمات ، بما في ذلك الاشباع المعرفي والانجاز .

ومن ناحية أخرى ، إذا لم تكن نواتج الاستجابات غير مرغوبة (غير مدعمة) ، فإن السلوك الاجرائي الفعال يكون أقل احتمالا للحدوث في المستقبل . فمثلا ، إذا كانت الأم تستجيب بانتباه واهتمام لما يريه الطفل من دلال سلوكية على الاستقلال ، فإن الاستقلالية سوف تتدعم عنده . أما إذا تجاهلت هذه الدلائل وتركتها بلون إثابة ، فسوف يتضائل احتمال نمو الاستقلالية في المستقبل .

تركزت معظم بحوث سكينر في التعلم على دور الاثابة أو التدعيم كمحددات لتغيير السلوك . وتعتمد الطرق المعتادة في هذه الدراسات على خلق شروط يعمل فيها الكائن الحي بحرية أو يأتي باستجابات فعالة (« الأفعال الاجرائية ») . في هذه البحوث كان المجرّب يختار مسبقا فئة خاصة من السلوك (مثل اساءه ضمائر خلال مقابلة ، رافعة ضاغطة في دراسة على الفيران) . وبعد ذلك يقوم المجرّب بتوزيع المدعم مرهونا باقبال المبحوص على انتقاء الاستجابة الاجرائية . فمثلا ، كان المجرّب يصدر تعليقات مدح - مثل « حسنا » - فقط حينما يستخدم المبحوص اساءه ضمائر مثل « أنا » أو « إني » . أو يقدم الطعام الى الحيوان مرهونا باستجابة الضغط على الرافعة . يطلق على هذه العملية ظاهرة « الاشتراط الاجرائي operant conditioning » كما تتضح من الشكل رقم (٤) .

وقد تبين من دراسات كثيرة أن التغيير في نواتج الاستجابة قد يؤدي الى تغيير مدى واسع من الانماط السلوكية - من الكلام الذهاني ، والجناس ، والانحرافات الجنسية العصبية ، الى التفاعل الاجتماعي في رياض الاطفال مثلا . التمييز discrimination :

يطلق على المثيرات التي تحمل اشارة أو علامة بالوقت أو المكان الذي فيه سوف يترتب عن فعل اجرائي نواتج مرغوبة ، مصطلح « المثيرات التمييزية » discriminative stimuli . ونؤدي التغييرات في المثيرات التمييزية الى تغييرات في السلوك . فبدون المثيرات التمييزية لن نعرف بالنواتج التي يمتثل أن تؤدي اليها الانماط السلوكية المختلفة . فنحن بسرعة نتعلم أن نغرق بالسيارة حينما تكون



شكل (١)

الاستعداد الاجرائي . لكي يتي موقف يتمثل للمفروض استجابات اجرائية كلية : فلذا احسب
 فعل اجرائي ايجابية (تدعيم) على القدر ، فقد يحصل أكثر أن يتم هذا الفعل مرة أخرى في
 موقف مشابه .

إشارة المرور خضراء وليست حمراء ، وأن نصبح باتفعل في مباراة لكرة القدم وليس في قاعة المحاضرة ، الخ . فالجياة بدون العلامات أو الأمارات البيئية environmental cues المتعلقة بالنواتج المحتملة للسلوك تكون حياة بلا نظم .

المدعمات المعممة الشرطية :

ان المثيرات المحايدة - كما ذكرنا من قبل - قد تكتسب قيمة وتصبح مدعمات شرطية حينما تصبح مرتبطة بمثيرات أخرى يكون لها بالفعل قوى تدعيمية وخصائص الاستشارة الانفعالية . وتصبح المدعمات الشرطية « معممة » حينما تتزاوج مع أكثر من مدعم أولي واحد . ومن الأمثلة الواضحة على المدعم المعمم الشرطي - النقود لأنها تستطيع أن توفر إشباعات أولية مختلفة كثيرة (طعام ، مسكن ، ملابس ، راحة ، علاج طبي ، الخ . .) . وبالتدرج قد تصبح المدعمات المعممة فعالة تماما حتى اذا لم تعد تصاحبها المدعمات الأولية التي قامت عليها في الأصل . مثال ذلك ، تعلم بعض الناس حب المال كغاية في حد ذاته .

واذا كانت هناك بعض المدعمات المعممة واضحة كالمال ، فان بعضها الآخر غير واضح ويتضمن علاقات اجتماعية معقدة . فالانتياء والاستحسان الاجتماعي والتقدير من الأشخاص الذين يعملون كمصدر للتدعيم - مثل الوالدين أو المعلمين أو الأشخاص المحبوبين - يمثل غالبا مدعمات معممة قوية .

لقد استتارت بحوث سكينر والسلوكيين الجلد آفاقا جديدة للبحث في السلوك ، اعانت في الكشف عن الطرق التي بها تتكون وتتغير أنماط السلوك .



نظرية التعلم الاجتماعي والسلوك الاجتماعي

(بانندورا ، والترز ، روتر)

لقد اهتمت معظم نظريات التعلم بدور التدعيم أو الاثابة في التعلم . يعزى هذا الاهتمام الى سبين غلى الأقل - الأول - لقد اتضح أن للتدعيم والحوافز مؤثرات قوية في التعلم وفي انتقاء السلوك

في مواقف مختلفة كثيرة ، وإن نواتج أنماط الاستجابة تعمل كمحددات رئيسية للسلوك . الثاني - لقد أجريت معظم بحوث التعلم ، وحتى وقت قريب ، على الحيوانات أكثر مما أجريت على الإنسان ، واعتبر أن التدعيم المباشر كما تبين من تجارب التعلم الحيواني هو الآليات الرئيسية للتعلم .

شهد الربع الثالث من القرن العشرين تطورات جذرية في نظريات التعلم - وأبرز معالمها دراسة السلوك الاجتماعي الانساني المعقد فيما يعرف بالتعلم الاجتماعي ، الذي يمكن أن يتحقق بدون أي تدعيم مباشر واضح . تبدو هذه التغيرات في تطور مفاهيم ومبادئ التعلم وتوسيعها وتطبيقها على الظواهر والعلاقات الاجتماعية ، وفي نقل دراسات وتجارب التعلم من مختبرات التعلم الحيواني الى المجالات الانسانية والاجتماعية الواسعة . تنسحب هذه التطورات على علم النفس الاكلينيكي (روتر ، ١٩٥٤ ؛ أولمان وكراسنر ، ١٩٦٩ ؛ فولبي ، ١٩٥٨) وعلى نمو الشخصية (باندورا ، ووالترز ، ١٩٦٣) وعلى بنية الشخصية وقياسها (ميتشيل ، ١٩٦٨) وعلى تغير السلوك (باندورا ، ١٩٦٩ ؛ أيزنك وإشمان ، ١٩٦٥) .

التوقعات والقيم :

تقوم نظرية روتر في التعلم الاجتماعي على تضمين عناصر معرفية أكثر في نظريات التعلم ذات التوجه نحو الشخصية *personality — oriented learning theories* : (١٧) يؤكد روتر على التوقعات الذاتية لدى الفرد بشأن النواتج المستقبلية ، وعلى القيمة الذاتية للتدعيمات في الموقف النفسي الذي يمر به الشخص . ووفقاً لنظرية روتر ، تتوقف احتمالية حدوث نمط معين من السلوك على توقعات الفرد التي تتعلق بالنواتج أو المترتبات التي سوف تتمم عن سلوكه ، وعلى القيم المدركة لتلك النواتج .

ويتطلب التنبؤ ، وفقاً لروتر ، تقييماً للتوقعات والقيم المعنية عند الفرد في المواقف الاختيارية التي تواجهه . وتعكس التوقعات الذاتية المتعلقة بالنواتج المحتملة الخبرات السابقة للتعلم التي اكتسبها الشخص في مواقف مشابهة . أي أن التوقعات دالة للتدعيم السابق المباشر عند الشخص . وعلى هذا النحو ، فإن القيم الذاتية لنواتج سلوكه هي أيضاً دالة للتعلم السابق ، ويذهب روتر الى أن التوقعات الخاصة أو النوعية تكون قابلة للتعديل بسهولة عن طريق إحداث تغييرات طفيفة في الموقف الذي يوجد فيه الفرد . أما التوقعات المعممة فهي أكثر اتساقاً وثباتاً عبر المواقف المختلفة ، ولذا فهي أقرب الى مفهوم السمات .

التعلم بالملاحظة :

وهو نموذج من التطورات المعاصرة في نظرية التعلم ، يؤكد على التعلم الاجتماعي من خلال الملاحظة . يشير نموذج التعلم بالملاحظة *observational learning model* إلى التعلم بدون أية إثابة مباشرة أو تدعيم مباشر^(١٨) . فالناس تتعلم من ملاحظة الأشخاص الآخرين والأحداث وليس فقط من مجرد النواتج المباشرة لما يفعلونه . فما تعرفه وكيف تسلك يتوقف على ما تراه وتسمعه وليس فقط على ما تحصل عليه .

قد يطلق على التعلم بدون تدعيم مباشر مصطلح « التعلم المعرفي » *cognitive* أو « التعلم الانتقالي » *vicarious* أو « التعلم بالملاحظة » *observational* أو « التعلم بالنموذج » *modeling* . تشير كل هذه المصطلحات إلى اكتساب الفرد لمعرفة جديدة ولامكانات جديدة للسلوك من خلال الملاحظة دون أن يتلقى أي تدعيم خارجي مباشر لأفعاله ، أو دون أن يأتي بالاستجابة الملاحظة . وقد يحدث التعلم بالملاحظة حينما يلاحظ الناس ما يفعله الآخرون ، أو حينما يتجهون إلى البيئة الطبيعية ، وإلى الأحداث ، وإلى الرموز كالكلمات والصور . ويعتمد الكثير من التعلم الإنساني على العمليات ادراكية - معرفية (كالانتباه الانتقالي ، التركيزي) وعلى ملاحظة البيئة الاجتماعية والطبيعية أكثر مما يعتمد على التدعيم المباشر الذي يحصل عليه الفرد من أفعاله ذاتها . بل أن بعض الحيوانات قد تتعلم سلوكا معينا بدون أن تأتي بأي استجابة ظاهرة أثناء خبرة الملاحظة التي لاحظوا فيها ذلك السلوك لأول مرة^(١٩) . فمن خلال الملاحظة يتعلم الناس من البيئة ومن سلوك الآخرين . وقد يتعلم الملاحظون أنماطا جديدة من الاستجابات لم تكن متاحة لهم من قبل وذلك عن طريق ملاحظتهم لهذه الأنماط السلوكية الجديدة التي يبدونها الآخرون^(٢٠) . يتضح اكتساب هذه الأنماط الجديدة من الاستجابات السلوكية في تعلم اللغة خاصة .

A. Bandura & Walters : *Social learning and personality development*. New York : Holt, Rinehart & Winston, (١٨) 1963

A. Bandura : *Principles of behavior modification*. New York : Holt, Rinehart, Winston, 1969.

D. T. Campbell : Conformity in Psychology's theories of acquired behavioral dispositions. In J. A. Berg & B. M. Bass (Eds.) , *Conformity and deviation*. New York : Harper, 1961. PP. 101-142.

D. O. Hall : *Psychology*. Philadelphia : W. B. Saunders, 1966.

W. Mischel : *Personality and assessment*. New York : Wiley, 1968.

J. A. Deutsch & D. Deutsch : *Physiological Psychology* : Homewood, 111. : The Dorsey Press, 1966. (١٩)

Bandura & Walters : 1963. (٢٠)

الكتساب والأداء :

لا يوجد فرد يفعل كل الأشياء التي تعلمها والتي يستطيع أن يعملها . فمن الواضح أن ثمة تبايناً بين ما يتعلمه الفرد أو يعرفه ويستطيع عمله ، وما يفعله في مواقف معينة بالفعل . لذا ، فمن المفيد أن نميز بين التعلم أو اكتساب السلوك ، وممارسته أو أدائه .

فتعلم أو اكتساب استجابات جديدة يخضع للتنظيم بواسطة عمليات حسية ومعرفية . وربما يتيسر هذا التعلم بواسطة الحوافز أو التدعيمات ، ولكنه غير مضمون بها (٢١) . وبمعنى ذلك ، أن ما يستطيع الشخص أن « يفعله » يتوقف على ما « يعرفه » وعلى المهارات والمعلومات والقواعد وأنماط الاستجابة التي اكتسبها أو تعلمها . هذه الأنماط السلوكية المتعلمة قد تكتسب من خلال الملاحظة والعمليات المعرفية وليس فقط من خلال الاشتراط والتدعيم المباشر .

ومع ذلك ، فإن الحوافز والتدعيم تمثل عدداً هامة لانتهاء الاستجابة في حالة « الأداء » . فاختيار الشخص لما يفعله في موقف ما - أي ما هي الاستجابة التي ينتقيها من بين عدد هائل من الأنماط السلوكية المحتملة التي يستطيع أن يأتي بها - يتوقف على المتغيرات الدافعية . فالسلوك الذي ينتقيه الشخص يعتمد على النواتج التي يتوقعها من بين الأفعال السلوكية المختلفة .

وقد لا يمارس شخص سلوكاً معيناً لأنه لم يتعلمه أصلاً . ومن ناحية أخرى ، قد يكون نمط الاستجابة متيسراً بالنسبة لامتكانية الفرد ، ولكنه لا يستدعي بواسطة المثير المعين وشروط الاثابة . يعني ذلك ، أن استجابته لا تخضع للكف ، ولكن شروط الحافز في الموقف قد لا تكون قوية بدرجة تكفي لاستدعاء الاستجابة . فحينما يتوفر حافز أكثر فعالية ، فإن الاستجابة قد تستدعي بالفعل .

تأثير ملاحظة نواتج سلوك الأشخاص الآخرين :

لا تعتمد توقعاتنا المتعلقة بالنواتج المحتملة لسلوك معين فحسب على النواتج التي تلقيناها عما فعلناه في مواقف مماثلة ، ولكن أيضاً على النواتج التي نلاحظ غيرنا يحصل عليها . فملاحظة النواتج أو المترتبات التي يتلقاها أشخاص آخرون قد توفر معلومات قيمة عن النواتج التي سوف يكون من المحتمل أن نحصل عليها إذا أتينا بسلوك مماثل .

فحينما يلاحظ شخص أن أشخاصا آخرين (« نماذج models ») يحصلون على نواتج تدعيمية إيجابية لنمط معين من الاستجابة ، فإنه يميل إلى أن يسلك بالفعل بطرق مماثلة . ومن ناحية أخرى ، حينما تتلقى النماذج الاجتماعية عقابا على سلوكها ، يميل الأشخاص الملاحظون أكثر إلى كف مثل هذه الأنماط السلوكية التي تلقى عقابا (٢٣) .

في دراسة عن التقليد أو المحاكاة تكشف عن تأثير ملاحظة نواتج أو مرتببات سلوك الأشخاص الآخرين ، لاحظ الأطفال فيلما لشخص كبير يأتي باستجابات عدوانية مثل ضرب أو ركل بعض الدمى : (٢٤) وكانت النواتج المترتبة على السلوك العدواني الذي يأتي به هذا الشخص الراشد متنوعة بشكل متعمد - ففي بعض المواقف كان هذا الشخص يلقي عقابا على سلوكه العدواني ، وفي موقف آخر يلقي إثابة ، وفي موقف ثالث لم تكن هناك أية نواتج أو مرتببات . وقد خضع الأطفال الملاحظون للاختبار بعد عرض الفيلم ، وتبين أن الأطفال الذين لاحظوا أن السلوك العدواني كان يلقي عقابا ، كانوا يقلدون هذه الأنماط السلوكية العدوانية بدرجة أقل من الأطفال الذين رأوا أن العدوانية تلقى إثابة أو إهمالا .

هل هذه الفروق في الأداء تعكس فروقا في التعليم ؟ تكشف الاختبارات التنبؤية أنه حينما قدموا هؤلاء الأطفال حوافز جذابة لمحاكاة استجابات النموذج ، فإن الفروق بين هذه المواقف قد تلاشت . ويبدو أن الأطفال في كل المواقف قد تعلموا بدرجة متساوية تقريبا سلوك النموذج ، وإن ملاحظة النواتج المختلفة قد أدت إلى كف أو تيسير أدائهم للسلوك فيما بعد .

وقد تؤدي الخبرات القائمة على الملاحظة Vicarious experiences أيضا إلى ردود أفعال انفعالية شرطية قوية (٢٥) .

ففي إحدى التجارب لاحظ أشخاص كبار بشكل متكرر صوت جرس مقترنا باستجابات للخوف يبدئها شخص راشد آخر . وقد نتج عن ذلك أنه قد غي بالتدريج لدى هؤلاء الملاحظين استجابات انفعالية شرطية (الخوف) لصوت الجرس وحده (٢٥) . وكثيرا ما يتعلم بعض الناس الذين لم يتعرضوا لأية خبرات مؤلمة مع حيوانات ، أن يخافوا منها بشدة بعد أن يلاحظوا ردود الأفعال الانفعالية التي يبدئها غيرهم حينما يواجهون هذه الحيوانات .

A. Bandura, D. Ross & S. A. Ross : Imitation of film — mediated aggressive models. *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 1963, 66, 3—11. (٢٣)

A. Bandura : Vicarious Processes : A case of no—trial learning. In L. Berkowitz (Ed.) , *Advances in Experimental Social Psychology*. Vol. I.I. New York : Academic Press, 1965. PP. 1—55. (٢٤)

S. M. Berger : Conditioning through vicarious instigation. *Psychological Review*, 1962, 69, 450—466. (٢٥)

A. Bandura & T. L. Rosenthal : Vicarious classical conditioning as a function of arousal level. *Journal of Personality and Social Psychology*, 1966, 3, 54—62. (٢٥)

التركيز على السلوك الاجتماعي الحالي :

تفترض نظريات التعلم الاجتماعي أن السلوك يكون متسقا عبر المواقف المختلفة — cross situational فقط الى الحد الذي فيه تؤدي ، أو من المتوقع أن تؤدي ، أنماط سلوكية مماثلة الى نواتج مماثلة عبر تلك المواقف . يختلف ذلك عن نظريات السمات التي تفترض وجود استعدادات واسعة واتساقات عبر المواقف على أنها الوحدات الرئيسية للشخصية . فوفقا لمبادئ التعلم الخاصة بتعميم المثبر والتميز ، يصير السلوك معما على نطاق واسع فقط حينما يلقي تدعيا في الكثير من المواقف التي يحدث فيها . وتؤكد معظم النظريات السلوكية ، استنادا الى فكرة أن السلوك يعتمد على نواتجه المحتملة ، بذلك على « النوعية السلوكية » behavioral specificity أكثر مما تؤكد على اتساق السمات عبر المواقف المختلفة التي تتضمن مثيرات متميزة مختلفة . لذا فان المقاييس المشتقة من نظريات السلوك الاجتماعي لا تصنف الفرد في مصطلحات خاصة بسمات معمة ، أو تصنفه في فئات من الأنماط ، أو تستنتج صراعاته ودوافعه .

فالمقاييس السلوكية ، بدلا من ذلك ، تحدد ما يفعله الفرد الآن ارتباطا بالشروط التي يأتي في ظلها بأفعاله السلوكية . ويعني ذلك ، أن القياس السلوكي يتضمن كشفا للجوانب الفريدة في شخصية الفرد عن طريق تحليل كيف يتغير الشخص استجابة للتغيرات في شروط المثير .

وتطرح نظريات التعلم الاجتماعي موقفا مغايرا للنظريات السكودينامية فيما يتعلق بديناميات السلوك : يفترض التنظير السيكودينامي وجود نظام ثابت نسبيا من الدوافع والاستعدادات الرئيسية للشخصية ، رغم تغير استجاباتها الظاهرة . أما نظريات التعلم الاجتماعي فتعتبر وجهة النظر الدينامية غير ملائمة وقد أدت الى بعض الاخطاء البالغة الخطورة في التشخيص والعلاج الاكلينيكيين لأكثر من خمسين عاما^(٣٦) . وتفترض هذه النظريات أن الأنماط السلوكية المتنوعة لا تعكس بالضرورة نظاما متمثلا يكمن وراءه نظام من الدوافع . فهذه الأنماط السلوكية متبانية نسبيا ، وتحكمها أسباب مستقلة نسبيا ، وتستدعيها ظروف وشروط منظمة قد تكون منعزلة عن بعضها .

ان النظريات السيكودينامية تميز بين الأنماط السلوكية الظاهرة أو « العرضية » symptomatic من ناحية وما يكمن وراءها من اسباب نفسية رئيسية من ناحية أخرى . وتفترض أن هذه الأسباب هي الدوافع الثابتة وتحولاتها الدفاعية المستقرة ، والتي تكونت منذ فترة مبكرة من تطور النمو النفسي - جنسي للفرد . لذلك تهتم النظريات السيكودينامية بالبحث عن الجذور الدفاعية للشخصية في مرحلة الطفولة .

أما نظريات السلوك الاجتماعي ، خلافاً لذلك ، فتركز على الأسباب الراهنة لسلوك الفرد . ولذلك فإن مدخل التعلم الاجتماعي في دراسة الشخصية وتحليل السلوك الاجتماعي يعطي اهتماماً أقل للتكوينات الدفاعية والاستعدادات الشخصية ، ويركز أكثر على سلوك الفرد ، وعلى العلاقات الوظيفية بين ما يفعله والظروف أو الشروط النفسية لحياته . فتحليل السلوك الاجتماعي يحاول أن يكتشف دور أو معنى مثيرات معينة وشروطها في حياة الفرد وذلك عن طريق ملاحظة كيف أن التغير في تلك الشروط يغير فيما يفكر فيه وفيما يفعله .

المعرفة والسلوك :

لقد أصبح علم النفس المعاصر أكثر اهتماماً بالجوانب المعرفية للظاهرة النفسية . وإذا كان مصطلح « معرفة » cognition ينطوي على معان كثيرة ، إلا أنه يعني ببساطة « تشغيل أو تعميل المعلومات » information processing كما هو في التفكير وفي التمثيل العقلي وتناول الأحداث . وتدخل المعرفة في عمليات مثل الانتباه الانتقائي وتجميع المعلومات والتفكير المدفوع أو الموجه نحو الهدف (حل المشكلات) (٢٧) .

والواقع أن النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي تولي أهمية خاصة للعمليات المعرفية في دراسة الشخصية . يؤكد هذا التوجه المعرفي لنظريات التعلم الاجتماعي على ضرورة فهم العمليات التوسيطية mediating processes التي تجري داخل الشخص بين المثيرات التي يتعرض لها والاستجابات الظاهرة التي يأتي بها . (٢٨) لذا تهتم هذه النظريات بالتمثيلات الداخلية covert representations (كما هو في التعلم بالملاحظة) وتسعى إلى دراسة تفسير الفرد للأحداث والخبرات . ويعني ذلك أن نظريات التعلم الاجتماعي تعترف بحدوث نشاط توسيطي mediation ، فهي لا تنظر إلى المثيرات كما لو أنها ترتطم بكائن حي أجوف من الداخل ليأتي آلياً بأفعال ثابتة معينة . فتأثير المثير على الفرد يعتمد على عوامل كثيرة : فإذا لم يلاحظ المثير مثلاً ، فمن الواضح أنه لن يؤثر في الفرد . هذا التأثير لا يعتمد فحسب على خصائصه الطبيعية الموضوعية ولكن أيضاً على كيفية تقديمه إلى الفرد ، بما في ذلك التعليمات والرموز التي تستخدم لتغيير معناه العادي .

يؤكد الكثير من علماء النفس بقوة على أهمية التفسير أو « التقدير المعرفي » cognitive appraisal الذي يديه الفرد للموقف - أي على « معنى » المثير . يعترف العلماء السلوكيون بهذه

W. Mischel : Continuity and change in personality. *American Psychologist*, 1969, 24, 1012-1018.

(٢٧)

U. Neisser : Cognitive psychology, New York : Appleton-Century-Crofts, 1967.

(٢٨)

النقطة ولكنهم يذهبون عادة الى ما هو أبعد من ذلك . . . متعدين أن مهمتهم ينبغي أن تتضمن عزل المتغيرات الفعلية التي تحكم ما الذي قد يعنيه المثير في نسق معين ، حتى يستطيعوا تحديد الشروط التي تحكم المعنى .

فأهمية المعرفة والمعلومات تتضمن جوانب كثيرة من السلوك الانساني المركب . فالمعلومات تؤثر بقوة في عمليات التعلم الانساني وفي الاداء . فمثلا المعلومات التي يحصل عليها السائح للوصول الى أماكن معينة في مدينة يزورها لأول مرة تكون أكثر فعالية من التجول في المدينة بطريقة المحاولة والخطأ . كذلك ، فإن معلومات التغذية المرتدة *informational feedback* التي يحصل عليها الفرد بشأن أدائه السابق والمعلومات الخاصة بالموقف الحالي والتوقعات التي سوف تنشأ في المستقبل تؤثر بقوة في سلوك الفرد . (٢٩)

وقد يتعدى السلوك الاجتماعي بواسطة العمليات الرمزية والمعرفية التي لا تعتمد على الملاحظة الفعلية لسلوك النموذج . فمثلا ، قد يعدل الفرد من اتجاهاته الاجتماعية بعد قراءته عن السلوك المتعلق بهذه الاتجاهات لدى أشخاص آخرين . (٣٠) وغالبا ما تكون هذه التأثيرات المستثارة رمزيا قوية وقد تؤدي الى تغيير الانماط السلوكية المتعلقة بالشخصية كالضبط الذاتي والعنصرية والسعي الى الانجاز ، ورغم أن الآليات التي تكمن وراءها لا زالت غير واضحة ، إلا أن المعلومات الجديدة التي تحملها اللغة والرموز تستطيع أن تغير بعمق من معنى المثيرات والدعمات .

الكائن الحي النشط :

هل التركيز على دور شروط المثير قد يعني أن النظرية السلوكية تنطوي على نظرة سلبية للإنسان ، قوامها صورة للكائن الحي على أنه أجوف من الداخل عدا عمليات الربط الآلي بين مجموعة من الاستجابات للمثيرات الخارجية ؟ والواقع أن التحليل السلوكي يتم بالتلازم الحقيقي بين الشروط المتغيرة والسلوك المتغير عند الفرد . ولكن اذا كان التغير في الشروط يؤدي الى تنظيم سلوك الفرد ، فانه الشخص - وليس المثير أو الموقف - هو الذي يكون نشطا وفعالا وهو الذي يأتي بالافعال السلوكية . فالاستجابات تسكن فقط في الكائن الحي ، وليس في المثيرات أو الشروط . والنظريات السلوكية المعاصرة تركز على المثيرات في محاولة لفهم الشخص ولتغييره الى الأحسن .

A. L. Baldwin : A. cognitive theory of socialization. In D. A. Goslin (Ed.) . *Handbook of socialization theory and research*. Chicago : Rand McNally, 1969. PP. 325-480.

A. Bandura & W. Mischel : Modification of selfimposed delay of reward through exposure to live and symbolic models. *Journal of personality and Social Psychology*, 1965, 2, 698-705.

ان نظريات التعلم الاجتماعي تعترف بأن الفرد ليس مجموعة سلبية من الاستجابات . فلكل فرد تاريخه من التعلم وخزونه من الذاكرة ، والكثير مما يحبه يستوعبه ويؤثر في كل سلوكه الحالي . والانسان يفسر نفسه وسلوكه - فهو يقيم أداءه ويحكم عليه وينظمه . وبالإضافة الى ما يتعرض له الفرد من إثابة وعقاب بواسطة البيئة الخارجية ، يتعلم الناس أن ينظموا سلوكهم وقيمونه ، وأن يثيبوا أنفسهم ويعاقبوا ، وبالتالي أن يعدلوا من سلوكهم وأن يؤثروا في بيئتهم .

هكذا تركز نظرية التعلم الاجتماعي معظم اهتمامها ومهامها على ما يفعله الشخص وفقا لقاعدة « هنا والآن » أكثر من أن تركز على اعادة بناء تاريخه النفسي . هذه النظرية تميل الى رفض افتراض الحوافز والقوى والدوافع وغيرها من الاستعدادات النفسية كتفسيرات للسلوك ، والى التركيز على امكانات الفرد على التغير . والواقع أن الكثير مما تذهب اليه النظرية السلوكية المعاصرة يتفق مع نظريات أخرى في علم النفس المعاصر ، وخاصة النظريات ذات التوجه الوجودي والظاهري .



تعديل السلوك وطرقه

العلاج السلوكي behavior therapy ، أو ما يعرف بـ « تعديل السلوك » behavior modification ، هو التطبيق المباشر لجباىء التعلم (أيزنك ، ١٩٥٩)^(٣١) ؛ فنظرية التعلم هي أساس العلاج السلوكي (أومان وكراستر ، ١٩٧٥) .^(٣٢) ويتوصل « ايزنك » ، من خلال تجاربه وممارساته الاكلينيكية الواسعة ، الى نتيجة تؤكد على مكانة العلاج السلوكي كنظام علمي (أيزنك ، ١٩٧١)^(٣٣) ، وعلى دور العلاج السلوكي كعلم تطبيقي (أيزنك ، ١٩٧٦)^(٣٤) .

وفيا يلي نتناول بعض الطرق الرئيسية لتعديل السلوك ، وأسسها ، وما ترتب عليها من نتائج .

H. J. Eysenck : Learning theory and behavior therapy. *Journal of Mental Science*, 1959, 105, 61-75. (٣١)

L. P. Ullman & L. Krasner : A psychological approach to abnormal behavior (2nd ed.) . Englewood cliffs, N. J. : (٣٢)
Prentice — Hall, 1975.

H. J. Eysenck : Behavior therapy as a scientific discipline. *Journal of Consulting and clinical psychology*, 1971, 36, (٣٣)
314-319.

H. J. Eysenck : Behavior therapy : Dogns or applied science ? (٣٤)

M. P. Feldman & A. Broadhurst (Eds.) , *Theoretical and experimental bases of the behavior therapies*. London :
Wiley, 1976.

التحصين المنظم التدريجي : (٣٥)

نقد كانت مبادئ التعلم التي يقوم عليها التغير العلاجي للسلوك في تناول علماء النفس منذ أكثر من ستين عاما ، ولكنها نادرا ما كانت تطبق لأن معظم المعالجين كانوا يبدون تخوفا من حدوث ظاهرة « إبدال الأعراض » (٣٥) . فالاعتقاد الشائع هو أن إزالة السلوك المشكل سوف يتبعه ظهور أعراض أخرى تكون أكثر شدة في مرضيتها من الأعراض الأصلية .

ولقد كان « جوزيف فولبي » J. Wolpe ، وهو طبيب نفسي صار من أكثر ناقدتي نظرية التحليل النفسي ، هو الذي خاطر بمحاولة التعديل المباشر للسلوك لدى الكثير من مرضاه . وفي عام ١٩٥٨ نشر كتابا يصف فيه « طريقة التحصين المنظم التدريجي » التي تقوم على مبدأ الاقتران الشرطي الكلاسيكي (٣٥) .

تأثر « فولبي » بالنظريات الكلاسيكية في التعلم وخاصة بنظرية بافلوف ، واعتقد أن العصاب (المرض النفسي) يتضمن عادات متعلمة سيئة التكيف ، وخاصة استجابات القلق . ويفترض أنه في السلوك العصبي ، يصبح القلق هو الاستجابة الشرطية لمثيرات لا تستدعي القلق عند الأشخاص العاديين . واستنتج أن العلاج ينبغي أن يساعد الشخص العصبي على كبح القلق بواسطة تعريضه لاشتراط مضاد counterconditioning ، وذلك لاستدعاء استجابة منافية (مضادة) - com- (response) antagonistic (peting) للمثيرات الباعثة على القلق . ويقول : « إذا كان من الممكن استدعاء استجابة مضادة للقلق لتقع في وجود مثيرات باعثة على القلق ولكي تصاحب بقمع كلي أو جزئي لاستجابات القلق ، فإن الرابطة بين هذه المثيرات واستجابة القلق سوف تضعف » . (٣٦)

يحدد فولبي ثلاث خطوات لتحقيق التحصين المنظم التدريجي ضد المثيرات الباعثة على القلق :

الخطوة الأولى : تحديد مستويات التدرج الهرمي لمثير القلق (٣٥) : ففي البداية يجري تحديد المواقف التي تستدعي استشارة وإحجاما انفعاليين باعثين على الضيق ، وذلك بواسطة إجراءات القياس المفصل الذي يتم عادة من خلال المقابلات . ففي بعض الأحيان يعاني الشخص من قلق معم على مجالات

Systematic desensitization

•

Symptom substitution.

••

J. wolpe : Psychotherapy by reciprocal inhibition. Stanford : Stanford univ. Press, 1958.

(٣٥)

Ibid , P. 71.

(٣٦)

ANXIETY STIMULUS HIERARCHY.

•

كثيرة ، مثل الخوف من الفشل ، والشكوك الذاتية ، والاحساس بالذنب المرتبط بالجنس ، وغير ذلك . ويصرف النظر عن مقدار مجالات أو موضوعات القلق ، فإن كل مجال أو موضوع منها يجري علاجه على نحو منفصل . فبالنسبة لكل موضوع من موضوعات القلق يحدد الشخص درجة أو مرتبة المثيرات المرتبطة به وفقاً لمستويات التدرج الهرمي لشدة المثيرات ، فتتراوح من أكثر الأحداث شدة إلى أقلها شدة من حيث استثارة القلق . فعلى سبيل المثال (٣٧) : الشخص الذي يمتلكه الخوف من الكلام مع مجموعة كبيرة من الأشخاص ، فإن خوفه يأخذ درجات مختلفة من الشدة وفقاً لاختلاف المواقف والأشخاص ..

الخطوة الثانية : التدريب على الاستجابة المضادة (الاسترخاء) :

بعد تحديد وترتيب مستويات المثيرات الباعثة على القلق ، من الضروري تزويد الشخص بالاستجابات التي يستطيع استخدامها فيما بعد لكي يكف قلقه . وتوجد أنماط سلوكية تتعارض مع القلق . لذلك يفضل فوليبي استخدام استجابات الاسترخاء لأنه يمكن تعلمها بسهولة ، ولأنها دائماً تكون متعارضة مع القلق : فلا يستطيع أحد أن يكون في حالة استرخاء وقلق في آن واحد . ولذلك يساعد المعالج المريض على تعلم الاسترخاء عن طريق تعليمات محددة ، بها يتعلم أولاً أن يبعث توتراً في بعض أجزاء الجسم ثم أن يسترخي لهذه الأجزاء من الجسم (كالأذنين ، الكتفين ، الرقبة ، الرأس) حتى يمكنه بالتدريج أن يصل إلى حالة من الهدوء الكلي ، والاسترخاء العضلي العميق . ويستطيع معظم الناس أن يتعلموا كيف يسترخون من خلال جلسات قليلة . والمشكلة الرئيسية هي أن يتعلم الشخص أن يسترخي بالنسبة للمثيرات التي تستدعي القلق ، وهذا ما يجري محاولته في الخطوة التالية .

الخطوة الثالثة : ربط مثيرات القلق بالاستجابات المضادة :

وهي المرحلة الخامسة - مرحلة الاشتراط المضاد - وفيها تجري مساعدة المريض على الاسترخاء بعمق بينما يقدم إليه المثير مرتبة استدعاء القلق من بين مستويات المثيرات التي جرى ترتيبها هرمياً في المرحلة الأولى . وعادة ما يتم وصف الحدث المثير بطريقة لفظية أو تقديمه في شكل رمزي (في صورة) بينما يكون المريض في حالة استرخاء وهدوء عميقين . وحيناً يذكر المعالج للمريض كلمات العبارة (البند) ، فإن المريض يحاول أن يستخلص الصورة الأكثر اشراقاً وحيوية ، والتي يستطيع أن يكونها في تخيله . وحالماً يستطيع أن يركز أفكاره على هذه العبارة وهو مستمر في حالة هدوئه واسترخائه ، تكون الخطوة التالية هي تقديم العبارة الأكثر شدة في الترتيب الهرمي إليه ، حتى يستطيع التمكن ، خطوة بخطوة ، من كل مستويات مثيرات القلق .

وإذا حدث عند أي نقطة في الاجراء ، أن تعرض المريض لخبرة يحس فيها بتناقض في حالته الاسترخائية (أي يصبه تلقاً) عندما يقدم اليه مثير باعث على القلق ، عليه أن يحيط المعالج علماً بذلك . وفي هذه الحالة يضبط المعالج منه فوراً أن لا يستمر في تكوين صورته عن المثير حتى يسترد هدوءه . وبعد أن يصبح في حالة من الاسترخاء التام مرة ثانية ، يقدم اليه بند أقل شدة في التدرج الهرمي حتى يستطيع التركيز عليه بدون قلق . وحينما يفعل ذلك بنجاح ، فإنه يكون في حالة استعداد لأن يتقدم الى البند الثاني في الترتيب الهرمي من مستويات قلقه ، وهكذا حتى يستأنف تقدمه خطوة بخطوة في القائمة المرتبة هرمياً لمثيرات القلق .

وباختصار ، تحاول اجراءات التحصين المنظم التدريجي (الاشتراط المضاد) استدعاء استجابات قوية مضادة للقلق (كالاسترخاء) مرهونة بوجود مثيرات باعثة على القلق بدرجة خفيفة ، حتى تستطيع الامتجابة المضادة - على الأقل جزئياً - أن تمنع استجابة القلق . ومن ثم يصبح الترابط بين المثير المنفر والقلق ضعيفاً ، بينما يقوى ترابط المثير مع رد فعل الاسترخاء (٣٨) .

لقد استخدمت طريقة التحصين المنظم التدريجي لتعديل أنماط متنوعة من السلوك الاحكامي ، والسلوك العصبي . وكذلك لتعديل بعض المخاوف . فعلى سبيل المثال ، يذكر فولبي حالة قام بعلاجها . ولد مراهق كان يعاني من أفعال قسرية شديدة تتعلق بالتردد الجبري لغسل الأيدي . لقد كان هذا الولد يقضي غالباً أكثر من ثلاثة أرباع ساعة في أبعاد غطية دقيقة لتنظيف أعضائه التناسلية بعد عملية التبول ثم يقضي بعد ذلك حوالي ساعتين في تنظيف يديه . وقد لاحظ فولبي أن التبول كان هو العامل المعجل دائماً بحدوث هذه الأفعال الطقوسية . لذا خضع هذا المراهق لتحصين منظم تدريجي لتقليل حساسيته . للمثيرات الباعثة على القلق والمتدرجة في درجة شدة استثارته للقلق المرتبط بالتبول والتبول . ووفقاً لهذه الطريقة حقق فولبي تقدماً رائعاً وسريعاً في علاج هذه الحالة . وعندما ما لم يعد التبول يستثير قلق هذا المراهق ، فإنه تخلّى عن أفعاله القسرية الطقوسية (٣٩) .

إن التقارير الاكلينيكية عن نجاح طريقة التحصين التدريجي مشجعة على استخدامها بفاعلية ، ومع ذلك فهي لا تقدم برهاناً قاطعاً على أن الاجراءات الاكلينيكية ، وليس أية عوامل أخرى في حياة المريض هي المسؤولة عن التحسن الملحوظ . وتأتي الأدلة الأكثر اقناعاً بفاعلية هذه الطريقة من بحوث

E.R. GUTHRIE : THE PSYCHOLOGY OF LEARNING. NEW YORK : HARPER, 1935

(٣٨)

J. WOLFE : BEHAVIOR THERAPY IN COMPLEX STATES. BRITISH JOURNAL

(٣٩)

OF PSYCHIATRY, 1963, 110, 28 - 34.

توفرت فيها شروط الضبط التجريبي^(٤٠) توضح النتائج المستمدة من هذه البحوث بصفة عامة أن طريقة التحصين التدريجي ذات قيمة كبيرة في علاج المخاوف المرضية (الخوف) وفي خفض القلق . ومن التجارب القيمة في هذا الميدان ، دراسة فعالية التحصين المنظم التدريجي في علاج القلق الشديد المرتبط بالكلام أمام مجموعة كبيرة من الأشخاص^(٤١) : في هذه الدراسة جرى تقسيم الطلبة اللذين يعانون من قلق شديد إزاء الكلام في حضرة جمهور إلى أربعة مجموعات : في المجموعة الأولى تلقى الطلبة علاجاً بالاشتراط المضاد وفقاً لطريقة فولبي ، يقوم على تعلم الاسترخاء لمواقف متخيلة أكثر تهديداً مرتبطة بالكلام في حضرة أشخاص كثيرين . وفي المجموعة الثانية تلقى الطلبة علاجاً نفسياً قائماً على التوجه بالاستبصار^(٤٢) على يد اختصاصي أكلينيكي . أما المجموعة الثالثة فقد حصلت فقط على أدوية مهدئة لمجرد إرضاء الطلبة في هذه المجموعة وعلى تدريب كاذب جرى تصميمه لإيهامهم بأنه يساعد على « مواجهة الضيق » ، وبالتالي فإن هذه المجموعة قد تلقت اهتماماً ولكن لم تلق علاجاً (اهتمام دون علاج) أو (مجرد الاهتمام) هذه المجموعات الثلاث قد تلقت علاجاً لفترة متساوية (ستة أسابيع) وفقاً لاختلاف شروط كل موقف من هذه المواقف الثلاثة . وكانت المجموعة الرابعة التي لم تلق أي علاج هي المجموعة الضابطة .

ولقياس متغيرات الدراسة ، طبقت على هذه المجموعات الأربع مجموعة من الاختبارات ومقاييس لتقدير السلوك ، كما جمعت ملاحظات عن السلوك . أما القلق المرتبط بالكلام في حضرة الآخرين فقد تم تقديره وفقاً لمقاييس تقرير الذات فيسيولوجيا وسلوكيا (بواسطة ملاحظة السلوك الفعلي للكلام في حضرة الآخرين) . يلخص الشكل رقم (٥) نتائج هذه الدراسة التجريبية الأكلينيكية : فطريقة التحصين المنظم التدريجي كانت أفضل علاج وبشكل متسق . ولم تختلف طريقة العلاج بالاستبصار عن مواقف الاهتمام دون العلاج أو الاهتمام لمجرد إرضاء الحالات attention - placebo ، رغم أن الطلبة في هاتين المجموعتين (الاستبصار ، مجرد الاهتمام) . فقد انخفض القلق عندهم (وفقاً لبعض المقاييس) أكثر من المجموعة الضابطة التي لم تلق علاجاً .

(٤٠) من هذه البحوث التبريرية التي تبنت فعالية طريقة التحصين للقلق التدريجي في علاج بعض الحالات الشاذة

G.C.DANISON : SYSTEMATIC DESENSITIZATION AS A COUNTERCONDITIONING PROCESS.

JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1968, 73, 91 — 99.

P.J. LANG, A.D.LAZOVIK, D.J.REYNOLDS : DESENSITIZATION, SUGGESTIBILITY AND PSEUDO / THERAPY. JOURNAL OF ABNORMAL PSYCHOLOGY, 1965, 70, 395.

A.A. LAZARUS : GROUP THERAPY OF PHOBIC DISORDERS BY SYSTEMATIC DESENSITIZATION. JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1961, 63, 504 - 510.

S. PACHMAN : SYSTEMATIC DESENSITIZATION.

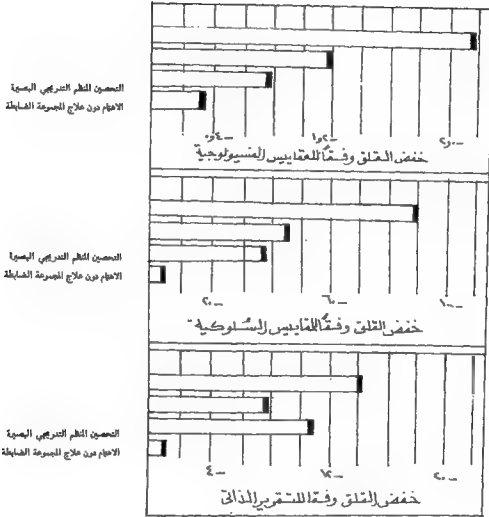
PSYCHOLOGICAL BULLETIN, 1967, 67, 93 - 103.

G.L. Paul : Insight Vs. Desensitization in Psychotherapy. Stanford : Univ : 1966.

(١١)

Insight - Oriented Psychotherapy .

•



شكل (٥) : معدل انخفاض القلق (قبل الاختبار وبعد) وفقاً للمعايير الثلاثة .
المعايير المسئولية ، والتفكيريات السلوكية ، والتفكير الذاتي .

(Paul, 1966)

وفي بعض الدراسات المتتالية لمؤلاء المفحوصين ، طبقت عليهم نفس بطارية الاختبارات والمقاييس بعد ستة أسابيع ^(٤٦) ، ثم مرة أخرى بعد عامين ^(٤٧) . ولقد أثبتت هذه الدراسات أن التحسن في السلوك قد ظل قائماً ولم يتعرض للكف أو الانطفاء .

بل أن الطلبة الذين تلقوا علاجاً للقلق المرتبط بالكلام في حضرة جمهور بطريقة التحصين المنظم التدريجي ، قد خبروا أيضاً تحسناً في درجاتهم في التحصيل الدراسي بالكلية حيناً فنقارنهم بالطلبة في المجموعات الأخرى ^(٤٨) .

التعلم بالملاحظة : ^(٤٩)

قد تخضع المخاوف وغيرها من ردود الأفعال الانفعالية القوية للتعديل من خلال التعلم بالملاحظة . ففي إحدى الدراسات ، قامت مجموعة من الأطفال في سن ما قبل المدرسة - وكانوا يخافون بشدة من الكلاب - بملاحظة طفل زميل لهم لا يخاف من الكلاب ، وهو يلعب مع واحد منها . وكان هذا النموذج الشجاع من الأطفال يعرض سلوكه الجريء في لعبه مع كلبه ، بينما يقوم الأطفال الذين يخافون من الكلاب بملاحظته من بعيد بمسافة يشعرون فيها بالأمان ^(٥٠) ، في خلال سلسلة من تسع جلسات انتقل الطفل النموذج من التربيت على الكلب من خلال القضبان الحديدية حيث يجري حبس الكلب إلى الدخول معه في القفص ومشاركته في اللعب . في هذه المرحلة الأخيرة كان الطفل النموذج يلعب بمرح وبهجة مع الكلب ، يعانقه ويطعمه . أما الأطفال الذين كانوا يلاحظون هذا الطفل الذي كان نموذجاً للشجاعة أمامهم ، فقد أبدوا تحسناً في سلوكهم الإقدامي نحو الكلب ، حيناً قورنوا بزملائهم في المجموعات الضابطة .

في العلاج السلوكي ، لقي الحرف من المتابعين اهتماماً كبيراً بسبب الدلالة الجنسية الرمزية التي تعطىها نظرية التحليل النفسي لهذه المخاوف ^(٥١) . والافتراض الآن أنه إذا كانت تلك المخاوف

Ibid . (٤٦)

G.I. PAUL : INSIGHT VERSUS DESENSITIZATION IN PSYCHOTHERAPY TWO YEARS AFTER TERMINATION, JOURNAL OF CONSULTING PSYCHOLOGY, 1967, 31, 333 - 348. (٤٧)

G.L. PAUL & D.T. SHANNON : TREATMENT OF ANXIETY THROUGH SYSTEMATIC DESENSITIZATION IN THERAPY GROUPS. JOURNAL OF ABNORMAL PSYCHOLOGY, 1966, 71, 124 - 135. (٤٨)

VICARIOUS (OBSERVATIONAL) LEARNING (٤٩)

A. BANDURA, J.E. GRUSEC & L. MENLOVE : OBSERVATIONAL LEARNING AS A FUNCTION OF SYMBOLIZATION AND INCENTIVE SET. CHILD DEVELOPMENT, 1966, 37, 499 - 506. (٥٠)

A.A. BRILL : BASIC PRINCIPLES OF PSYCHOANALYSIS. GARDEN CITY, N.Y. : DOUBLEDAY, 1949 . (٥١)

المرضية مظهرًا رمزيًا للمشكلة نفسية دينامية تكمن وراءها (كما تسلم نظرية التحليل النفسي) ، فإن العلاج الحقيقي لهذه المخاوف لا يتحقق بدون أن يجري أولاً تعديل الصراعات اللاشعورية التي يفترض أن عرض الخوف المرضي يرمز إليها . ولقد حاول معالجون سلوكيون كثيرون إزالة هذه المخاوف بطريقة مباشرة بدون استكشاف لمعانيتها اللاشعورية المحتملة ولمصادر العلة في تاريخ حياة الفرد ، وذلك لكي يروا ما إذا كانوا يحصلون على تحسن مستمر (٤٧) ، ومن شأن نجاح هذه الطرق المباشرة أنه يتعارض مع تنبؤات نظرية التحليل النفسي ، ويتضمن أهمية كبيرة ، نظرية وعملية .

قام « باندورا وبلانكارد وريت » في عام ١٩٦٩ بدراسة تجريبية شاملة عن تأثير بعض الطرق العلاجية على الخوف الشديد من الثعابين لدى أشخاص راشدين تطوعوا كمفحوصين في هذه التجارب (٤٨) . وقد قسم المفحوصون بطريقة عشوائية إلى مجموعات أربع ، تلقت كل مجموعة طريقة علاجية مختلفة : (١) - التحصين المنظم التدريجي ، (٢) - تقديم نموذج رمزي في شكل فيلم ، (٣) - يلاحظ المفحوصون نموذجًا حيا مع الاسهام الموجه ، (٤) - أما المجموعة الرابعة فهي المجموعة الضابطة . في المجموعة الأولى ، استخدمت طريقة فولبي في التحصين المنظم التدريجي . وفي المجموعة الثانية ، لاحظ المفحوصون فيلمًا عن أطفال ومراهقين وكبار ينهمكون في اللعب مع ثعبان ، وكانت المناظر باعثة على التهديد . وقد بدأ هذا الفيلم بعرض النماذج الأقل إثارة للخوف وهي نماذج من الثعابين البلاستيك ، ثم تطورت المناظر بالتدريج حيث كان هؤلاء الأشخاص يلمسون ثعبانًا ضخمًا ثم يسكنونه ثم يدعونه يلتف حولهم ، وقد تعلم المفحوصون في هذه المجموعة أيضًا أن يسترخوا أثناء فترة عرض الفيلم . وبالإضافة إلى ذلك ، كان في مقدورهم تنظيم عرض الفيلم حتى إذا شعروا بالقلق إزاء بعض المناظر فانهم يوقفون الفيلم ويميدونه إلى مناظر سابقة أقل تهديدًا ، حتى يتمكنوا من الاسترخاء ومن الانتقال بالتدريج إلى المنظر التالي . أما المجموعة الثالثة ، فكانت تلاحظ نموذجًا حيا ، حيث لاحظوا في البداية ويسلم نماذج حية من الأشخاص تتفاعل جسميًا مع ثعبان خلف نافذة للملاحظة . وبعد ذلك يقوم النموذج بمسك الثعبان بطريقة غير خفيفة أمام المفحوص ، وبالتدريج يجعله يلمس الثعبان ثم يسكه من الوسط ، أولاً وهو يلبس قفازًا ثم بيدين عاريتين ، ثم يصل مسك الثعبان بقوة من الرأس والذيل .

وقد طبقت على المفحوصين في هذه المجموعات الأربع ، قبل وبعد العلاج ، بعض الاختبارات لقياس قوة مخاوفهم وسلوكهم الاجتماعي عن الثعابين ، كما طبق عليهم مقياس للخوف . ويوضح

(٤٧) P.F. LANG A.D. LAZOVIK : EXPERIMENTAL DESENSITIZATION OF A PHOBIA.

JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1963, 66, 519-525.

(٤٨) A.BANDURA, E.B. BLANCHARD AND B. RITTER : RELATIVE EFFICACY OF DESENSITIZATION AND MODELING APPROACHES FOR INDUCING BEHAVIORAL, AFFECTIVE, AND ATTITUODINAL CHANGES. JOURNAL OF PERSONALITY AND SOCIAL PSYCHOLOGY,

1969, 13, 173-199 .

الشكلان (٦ ، ٧) نتائج هذه الدراسة التجريبية الاكلينيكية وهي تبين أن الطريقة القائمة على ملاحظة المفحوصين لنموذج حي ثم مشاركتهم فيه (المجموعة الثالثة) هي أكثر الطرق فعالية ، حيث أدت في الغالب الى عو ثام لسلوك الخوف المرضي عند كل مفحوص .

الثفور الشرطي : (٩)

لقد رأينا كيف أن المثيرات التي تستدعي استجابات انفعالية سلبية (كالقلق) يمكن أن تصير محايدة ، ولكن ، بينما يغير بعض الأشخاص معاناة بسبب تعلمهم الاستجابة بطريقة سلبية لمثيرات معينة ، فإن أشخاصا آخرين يعيشون في عذاب لأنهم قد صاروا يجبرون لذة بواسطة الاستجابة لمثيرات يجدها معظم الناس في ثقافتهم انها مثيرات محايدة أو حتى تبعث على الثفور أو التفرز . ومن الأمثلة على هذه المشكلة : الجنسية المثلية و « الفيتشية » fetishism وهي حالة تستثار فيها نزعة جنسية لدى الشخص المريض بواسطة أشياء معينة كحذاء أو جورب أو ثوب تحي أو خصلة شعر أو غير ذلك . في مثل هذه الحالات المرضية ، تكتسب الأشياء المحايدة أو حتى الأشياء الباعثة على الثفور والتفرز والأشمتزاز عند معظم الناس قوة استدعاء استثارة انفعالية باعثة على اللذة . وإذا كانت مثل هذه الاستجابات قد تزود المريض ببعض اللذة المباشرة إلا أنها تؤدي في الغالب الى نتائج بعيدة المدى ، تتمثل في تدعيم السلوك المرضي بشدة ، وفي تزايد الاحساس بالذنب ، وفي التعرض للعقاب والنبد الاجتماعي ، وغير ذلك من مظاهر السلوك المرضي .

والمثير الذي تكون له قيمة وظيفية بالنسبة للمريض قد يصير مثيرا محايدا بواسطة الاشتراط المضاد اذا ما جرى تقديمه بطريقة متجاوزة مع مثيرات تستدعي ردود أفعال غير سارة بشكل زائد . وبالتدريج ، وكتيجة للتزاوج المتكرر ، تكتسب للمثيرات الوظيفية سلفا بعض الخصائص الانفعالية المنفردة أو المنفزة التي تستدعيها أحداث بغيضة أو ضارة اقترنت بها .

فعلى سبيل المثال ، لكي تقدم مساعدة لمريض يرغب في التخلص من مشاعر الجنسية المثلية ، فإنه وفقا لطريقة العلاج بالثفور الشرطي يجري تعريفه بشكل متكرر لمثيرات تستدعي فيه لذة جنسية مع مزوجة هذه المثيرات برودود أفعال سلبية بشدة ، مثل الغثيان الشديد بتعاطي دواء لذلك أو التعرض لصدمة كهربية . وبالتدريج تصير هذه المثيرات الباعثة على الجنسية المثلية محايدة أو منفرة (٩) .

Conditioned aversion

(٩)

K. Freud : some problems in the treatment of homosexuality.

(١١)

In H.J. Eysenck (ed.) (Behavior therapy and the nervous. Elmsford, N.Y. pergamon 1960, P. 312 - 325.

R.B. Feldman J.S. Werry : An unsuccessful attempt to treat a liquorist by massed practice. Behavior Research and therapy, 1966:4m 111 - 117.

يذكر « كلارك » حالة رجل كان يعاني من الفيتشية وخاصة فيما يتعلق بارتدائه لبعض الملابس الداخلية الخاصة بالسيدات ، وكان يملكه قلق شديد اذا لم يرتدي بعضا منها طيلة اليوم . وقد أثر هذا في اضطراب حياته مع زوجته لأنه كان يرتدي هذه الملابس الشاذة ، وكذلك في عمله ، حيث كان يضطرب اذا لم يكن مرتديا بعض هذه الأشياء أثناء عمله . وقد اضطر هذا الشخص الى أن يدخل بارادته إحدى المصححات النفسية طلبا للمساعدة . وفي خلال اسبوع واحد تكرر اعطؤه دواء يجعله يشعر بالغثان الشديد فقرنا بعرض الأشياء الفيتشية التي تستثير سلوكه المرضي .

وكان يجري تشجيعه على ارتداء هذه الأشياء (ملابس داخلية) ويتأمل في صورها بينما يصل في حالة الغثان الى درجة مرضية . وفي أثناء إحساسه بالغثان الشديد كان يستمع أيضا الى تسجيل له في بداية التحاقه بالمصحة لما كان يفعله بالتفصيل وكيف كان يجد لذة في ذلك . هذه الاجراءات العلاجية كانت تتم مرتين يوميا . وتوضح الاختبارات التي استخدمت في تتبع حالة هذا المريض بعد ثلاثة أسابيع ثم بعد ثلاثة شهور من العلاج ، أن هذا المريض قد عاد الى عمله « وصار يسعد بحياة زوجية طبيعية ، كما اختفت أعراض المرض عنده » (٥٠) .

وقد استخدمت طرق مماثلة في علاج حالات فيتشية أخرى ، (٥١) ، وكذلك في علاج حالات الجنسية المثلية (٥٢) . ومن الاستخدامات الفعالة لهذه الطريقة من طرق الاشرط المضاد علاج حالات الادمان . استعرض « باندورا » نتائج ١٥ بحثا عن استخدام النفور الشرطي كطريقة لعلاج ادمان الخمر . وقد تضمنت هذه الدراسات اعدادا كبيرة من المدمنين تراوح عددهم بين ١٥ الى أكثر من ٤٠٠ شخص ، استخدمت أنماطا مختلفة من المثيرات الباعثة على النفور . وقد تبين من الدراسات التبعية لهذه الحالات - وقد تراوحت فترة التبع في هذه الدراسات بين بضعة شهور الى عشر سنوات - أن النسبة المثوية للتخلص من عادة تعاطي الخمر قد تراوحت بين ٢٣ الى ٩٦٪ (٥٣) .

وتعتبر دراسة « ليمير وفويتجلين » أكبر هذه الدراسات ، فقد تبعت ٤٠٩٦ حالة من حالات ادمان

D.F. Clark : *Fetishism treated by negative conditioning* .

(٥٠)

British Journal of psychiatry, 1963, 109, 404 - 407 .

M.S. Raymond : *Case of fetishism treated by aversion therapy* .

(٥١)

British Medical Journal , 1956, 2, 854 - 857 .

I.M. Marks M.G. Gelder : *Transvestism and fetishism : clinical and psychological changes during faradic aversion*. *British Journal of psychiatry*, 1967, 113, 711 - 729 .

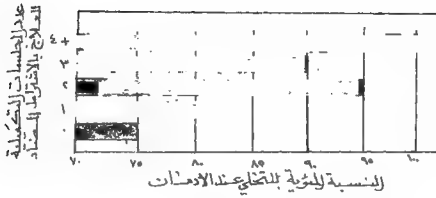
K. Freud : *op. cit* .

(٥٢)

A. Bandura : *Principles of behavior modification* .

(٥٣)

New York : Holt, Rinehart, Winston, 1969 .



شكل (A) : ملاحظة التخلص من الادوية بعد الجلسات التكميلية للعلاج بالاشتراك مع العلاج .

(Voegtlin, et al., 1942)

الخمور لفترة طويلة تراوحت بين عام إلى عشرة أعوام . وقد خرج الباحثان من هذه الدراسة إلى أن نسبة من خبروا شفاء تاما من مرض إدمان الخمر قد بلغت ٥١٪ من هؤلاء المرضى (٥٤) .

وتفترض البيانات المستمدة من هذه الدراسات أن الفاعلية بعيدة المدى للعلاج بالنفور الشرطي تتوقف على اعتبارات كثيرة ، مثل البدائل التي تتاح للمريض بعد التخلص من مرض الإدمان وكذلك مآثره على العلاج . وتوضح الدراسة « فوجيتلين » وآخرون أن ما يلقاه المريض بالإدمان من « تدعيم » لسلوكه الجديد الذي به يتخلص من عادة الإدمان ، يكمن وراء الخلاص التام من هذا المرض . يبين الشكل رقم (٨) أن المرضى الذين حصلوا على جلسات علاجية تكميلية تزيد على أربع مرات - أي بهدف تدعيم السلوك السليم قد تحلصوا تماما بنسبة ١٠٠٪ من هذا المرض . ويعني ذلك أن مشاركة المريض عن إرادة في العملية العلاجية ودافعيته القوية على التغيير تزيد من معدل نجاح العلاج بالاشتراط المضاد (٥٥) .

وبما هو جدير بالذكر أنه إذا كان علماء النفس لا يميلون في الغالب إلى استخدام علاجات تسبب ألما للشخص المضطرب نفسيا ، فإن العلاج بالاشتراط المضاد يستخدم في الغالب بعد أن يثبت فشل الطرق الأخرى ، مثل العلاج باستخدام طريقة المقابلة . كذلك ، فإن العلاج بالنفور الشرطي لا يفرض على المريض : فهو بإرادته يقبل عليه ويتقبله عن معرفة كاملة ، عدا تلك الحالات التي تقرر علاجها سلطات رسمية وفقا لهذه الطريقة . فما يديه المريض من تحمس للعلاج وتعاون في العملية العلاجية يحدد فعالية هذه الطريقة . وقد يحدث في بداية العلاج أن يتراجع المريض عن إقباله على العلاج ويرتد إلى ممارسة سلوكه المنحرف . وإذا كان أيداعه باستمرار في مصحة نفسية أو عزله عن التعرض لمثيرات مشكلته يعتبر إجراء غير عملي ، فإنه ينبغي أن يتعلم أن يعرض نفسه لمثيرات باعثة على النفور ، كأن يحمل في طيات ملابسه جهازا صغيرا يعمل ببطارية ليحمله يحدث له صدمة كهربائية ، أو كأن يستدعي في عقله أفكارا وصورا باعثة على النفور ، وذلك حينما ينجر نزعة إلى الاتيان بالسلوك المرضي . ويعني ذلك أن طريقة التشريط المضاد تزود المريض كذلك بنوع من الضبط الذاتي وممارسة المسئولية في علاجه .

تغيير نواتج السلوك :

يحاول الكثير من علماء النفس ، استرشادا بآراء سكينر في التعلم ، تعديل الأنماط السلوكية السيئة

F. Lemerle W.L. Voegtlin : An evaluation of the aversion treatment of alcoholism. *Quarterly Journal of studies on Alcohol*, 1950,11, 199 - 204 .

(٥٤)

W.L. Voegtlin, et al : Conditioned reflex therapy of chronic

(٥٥)

alcoholism. Iv. A preliminary report on the value of reinforcement. *Quarterly Journal of studies on Alcohol*, 1942,2, 505 - 511.

التكيف بواسطة تغيير النتائج التي يؤدي إليها مثل هذا السلوك . وهم في ذلك يحاولون سحب التعدييم من السلوك السيء التوافق ، وتوجيه الانتباه والاهتمام والاستحسان أو غير ذلك من أشكال التعدييم تلازما مع حدوث السلوك الأكثر توافقا وملاءمة .

وتتضمن دراسات « آلين » (١٩٦٤) ^(٥٦) ، وخاصة « هاوكنز » (١٩٦٦) ^(٥٧) تفصيلا للإجراءات التي تستخدم في تعديل السلوك على أساس العمل على تغيير نواتجه .

يصف « آلين وآخرون » في دراسة لهم ، الخطوات الأساسية التي اتبعت في مساعدة طفلة في رياض الأطفال : كانت هذه الطفلة ، وعمرها أربع سنوات ، على قدر عال من الذكاء ، ولكنها كانت تنزع بشكل متزايد إلى عزل نفسها عن الأطفال في مدرسة رياض الأطفال . وفي نفس الوقت استطاعت هذه الطفلة أن تستخدم طرقا تحصل بها على اهتمام الكبار من حولها ، كالمدرسات اللاتي وجدن فيها مهارات عقلية وجسمية تجعلهن إليها بشكل زائد . ولكن استحواذها على اهتمام الكبار أدى إلى زيادة تباعد الأطفال عنها وبالتالي زيادة انعزالها . وهكذا ، تورطت هذه الطفلة في دائرة مفرغة ، يستلزم الخروج منها تنظيم خطة علاجية لها . تقوم الخطوة على أساس ألا تعود هذه الطفلة تتلقى اهتماما من الكبار بشأن سلوكها الانسحابي عن زملائها ومحاولتها الاستحواذ وحدها على التفاعل مع الكبار . وفي نفس الوقت لا يعطيها الكبار اهتماما إلا في حالة مشاركتها زملائها اللعب والنشاط . فاهتمام الكبار أصبح مقرونا فقط بلعبها مع زملائها .

بدأ تنفيذ الخطوة العلاجية بعد فترة خمسة أيام جمع فيها الباحثون بيانات عن سلوك الطفلة كخط قاعدي ^(٥٨) لما سيطر على هذا السلوك من تغير كنتيجة للعلاج . والآن وفقا للخطوة ، حينما تبدي الطفلة تفاعلا مع الأطفال ، يعطيها الكبار انتباهها على الفور ، ويشيرون مشاركتها في نشاط اللعب مع المجموعة . بل إن ما قد تبديه الطفلة من إقدام على اللعب الاجتماعي ، كان تقف أو تلعب بالقرب من طفل آخر ، فإن المعلمة توجه انتباهها إليها لتشجيعها على المزيد من التفاعل مع الأطفال . أما حينما تبدأ الطفلة في التخلي عن الجماعة أو في محاولة الاستحواذ على انتباه الكبار ، فإن المعلمة تتوقف عن توجيه الانتباه إليها .

(٥٦) K.E. Allen, et al : Effects of social reinforcement on isolate behavior of a nursery school child. *Child Development*, 1964,35, 511- 518.

(٥٧) R.P. Hawkins, et al : Behavior therapy in the home : Amelioration of problem parent - child relations with the parent in a therapeutic role. *Journal of Experiment child Psychology*, 1966,4,99- 107.

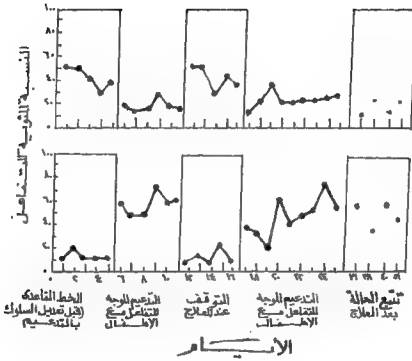
(٥٨) Base - line data .

يلخص الشكل رقم (٩) تأثير التغير في نتائج السلوك على الطفلة بالنسبة لتعديل سلوكها الانعزالي عن زملائها . ويلاحظ من هذا الشكل أنه في فترة الخط التقاعدي قبل استخدام طريقة التدعيم للسلوك المرغوب وهو السلوك الاجتماعي ، كانت الطفلة تقضي ١٠٪ فقط من وقتها في المدرسة في التفاعل مع الأطفال الآخرين ، بينما تقضي من هذا الوقت ٤٠٪ مع الكبار ، ٥٠٪ في عزلة مع نفسها . وأخذ السلوك يتغير بسرعة نتيجة للإجراءات العلاجية التي تقوم على التدعيم وفقا لقاعدة التلازم في الوقوع والتلازم في التخلص : تلازم وقوع الانتباه من جانب الكبار مع السلوك الاجتماعي المنشود تكوينه عند الطفلة ، وتلازم سحب الانتباه مع ما قد تبديه الطفلة من سلوك انعزالي عن الأطفال أو نزعة إلى الاستحواذ على انتباه الكبار . لذلك يلاحظ من الشكل أن الطفلة قد قضت ٦٠٪ من وقتها مع الأطفال في اليوم الأول للعلاج بعد فترة الحصة أيام القاعدية . ولقياس تأثير التدعيم على نحو أكثر دقة ، جرى «إبطال» هذه الإجراءات العلاجية في الفترة من اليوم الثاني عشر إلى اليوم السادس عشر ، حيث صار الكبار مرة واحدة يثيرون الطفلة باهتمامهم بتفاعلها معهم ولم يعودوا يهتمون بتفاعلها مع الأطفال .

(التوقف عن العلاج)

وتحت شروط إبطال الإجراءات العلاجية هذه ، ظهر السلوك السابق للطفلة على الفور . ولكن بعد العودة مرة أخرى إلى الإجراءات العلاجية في اليوم السابع عشر ، زاد معدل تفاعلها الاجتماعي مع الأطفال بنسبة ٦٠٪ . ويوضح تتبع سلوك الطفلة بعد انتهاء خطة العلاج أن زيادة السلوك الاجتماعي للطفلة ، كما يتضح في مشاركتها للأطفال الآخرين في نشاط اللعب ، قد ظل ثابتا .

أما دراسة « هاوكنز وآخرون » (١٩٦٦) ، فتتناول حالة طفل صغير أحضرته أمه إلى عيادة نفسية بشكوى أنه « زائد النشاط » و « غير منضبط في سلوكه » . ولما كانت المشكلة تتضمن علاقات الطفل بأمه ، فقد جرى تقييم سلوكه وعلاجه في منزله ، حيث استخدمت أمه كمعالج تحت توجيه وإشراف من المعالجين النفسيين . وكانت المهمة الأولى هي تحديد أنماط السلوك المشكل عند هذا الطفل كما تلاحظ في المنزل ، وهي : عض ذراعه وقضم قميصه ، وإخراج لسانه للآخرين ، ضرب أو ركل نفسه أو الآخرين أو الأشياء المحيطة به ، استخدام كلمات بذيئة ، اللقاء ملابسه أو التهديد بذلك . وبعد أن قامت الأم بهذه المهمة ، تعلمت أن تستجيب لهذه المظاهر السلوكية على أساس خطوات محددة . تتضمن هذه الخطوات تعريف الطفل بأن سلوكه قد أصبح سيئا ، وإذا أخفق التحذير اللفظي تعزله لفترة قصيرة في حجرة ويحرم فيها من الألعاب أو غير ذلك مما يجذب انتباهه . ويكون الإفراج عن الطفل من الحجرة (وعودته إلى الألعاب ، وكذلك الاهتمام به) متفقا مع انتهاء نوبة غضبه وإبدائه لسلوك أقل تلعبا وأكثر نضجا . وكانت هذه الإجراءات عكس ما كانت تلجأ إليه الأم عن غير وعي



(٩) : السبب لثيرة لثيرة التي استقرت في التفاعل الاجتماعي خلال جلسات

علاجية لمدة ساعتين في صباح كل يوم من التثنية العلاجية .

(Allen, et al., 1964)

من قبل ، حينما تصبح قلقلة ومهتمة بابنها بشكل متزايد كلما يصبر شرسا . ويوضح تتبع هذه الحالة أن هذه الطريقة العلاجية كانت فعالة في خفض ثورات الغضب عند هذا الطفل وفي مساعدته على تطور نموه .

وفي حالة أخرى لطفلة تبلغ من العمر ثلاث أعوام ، أبدت سلوكا « نكوصيا » وارتدت إلى الزحف بدلا من المشي . ومن الطبيعي أن يترتب على نكوصها مشكلات تقف حجرة عثرة في سبيل نموها . ويكشف تحليل سلوكها على أن أفعالها المرتدة كانت تلقى تدعيا عن غير وعي من الوالدين لأنها كانتا يعطيان للطفلة انتباهها لما تأتي به من سلوك . ولذلك قام العلاج على جعل تدعيم السلوك (توجيه انتباه الوالدين) متفقا مع الأنماط السلوكية الأكثر نضجا وملاءمة كالقفز والجري والمشي ، بينما لا تثاب الأفعال غير الناضجة كالزحف أو غيرها (٥٨) .

وقد حاول « لوفاس » هذه الطريقة تعديل السلوك الكلامي عند أطفال ذهانيين (٥٩) . كان هؤلاء الأطفال يأتون بتوليقات شاذة تضم مجموعة من الكلمات الغريبة . كما كانوا يرددون صدى الكلمات التي يسمعونها . قام « لوفاس » في الجلسات العلاجية بتدعيم السلوك اللفظي السليم الذي يسيده الأطفال (مع استخدام الاستحسان اللفظي والجلوى للكلمات الغريبة) وتجاهل التحدث بطريقة مرضية . وفي كل جلسة كان يسجل كلام الطفل ويقيم كلام « ذهاني » حينما يكون كلاما غريبا أو بلا معنى ، أو كلام « ملائم » حينما يكون منسقا ويتطوي على معاني مترابطة . ويوضح الشكل رقم (١٠) مدى تردد هذين النمطين من السلوك اللفظي (الذهاني والملائم) عند طفل فصامي وذلك في مواضيع مختارة من الجلسات العلاجية : الجلسات الست الأخيرة من سلسلة اكتساب (تعلم) السلوك الكلامي الملائم حيث كان التدعيم متطابقا مع السلوك اللفظي الذهاني قد انخفض إلى أقصى حد مع نهاية برنامج العلاج ليحل محله السلوك اللفظي الملائم فبنمو إلى أقصى حد مع نهاية العلاج .

وفي تجربة أخرى ، استخدم « لوفاس » طريقة تعتمد على الجمع بين إجراءات تعديل الكلام وفقا لنماذج صوتية سليمة ، وإجراءات التدعيم ، وذلك لتعديل اضطرابات الكلام والسلوك الاجتماعي عند أطفال يعانون من اضطرابات نفسية شديدة إلى درجة العجز عن الكلام . في البداية قام المعالج بنفسه بعمل نماذج صوتية سليمة أمام الأطفال ، وكان يثيب الطفل فقط حينما يتلفظ هذه الأصوات

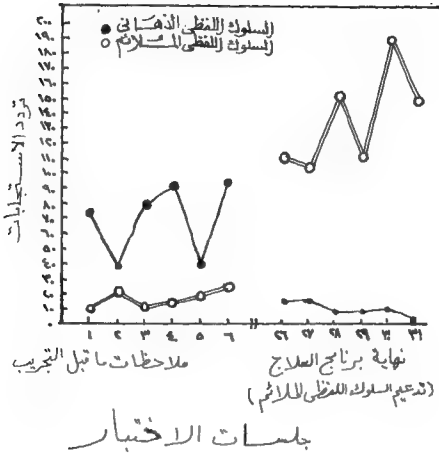
F.R. Harried, et al : Effects of positive social reinforcement on regressed crawling of a nursery school child. *Journal of Educational Psychology*, 1964,55,35- 14.

(٥٨)

O.T. Lovass, et al.: Experimental Studies in childhood

(٥٩)

schizophrenia : I. Analysis of self - destructive behavior. *Journal of Experimental child psychology*, 1965,2,67 - 84.



شكل (١٠) : تأثير تدعيم الاستجابات اللفظية للآمنة على تردد السلوك اللفظي للآمن
والذهاني لدى أحد الأطفال .
(Lovas, 1967)

خلال فترة زمنية محددة . وكلما ازدادت كفاءة الطفل انتقل به العلاج الى الخطوة التالية لكي يتلفظ وحدات لفظية أكثر تعقيدا ، وهكذا يتقدم الطفل بالتدرج من التدرب على أصوات الى كلمات وعبارات . وكانت الاثابة (التدعيم) تصدر من العلاج مقترنة فقط بالتلفظات الدقيقة التي يأتيها الطفل بمهارة أكبر . وقد ساعدت هذه الاجراءات العلاجية الأطفال على تعلم معان أكثر تعقيدا وكلام أكثر تركيبا ^(١٠) .

والواقع أن أشخاصا كثيرين يعانون من سوء التكيف أساسا لانهم لم يتعلموا كيف يأتون بالأخطأ السلوكية اللازمة لمواجهة المتطلبات الاجتماعية أو المهنية بفاعلية . فهم لا يستطيعون أن يسلكوا على نحو ملائم لأنه تنقصهم المهارات التي يستلزمها التفاعل الوظيفي الناجم مع الأدوار الاجتماعية والمهنية وغيرها . هذا النقص في الكفاءة السلوكية اذا اتسع مداه ليمتد الى مواقف كثيرة ، قد يؤدي الى مشكلات أخرى كثيرة كالاضطرابات الانفعالية ، وكأنماط السلوك الاحكامي لكي يهرب الفرد من العواقب غير السارة للفشل والعجز . ولعلاج مثل هذه الحالات أفاد علماء النفس من مبادئ التدعيم في تصميم برامج تعلم خاصة لتعليم هؤلاء الأشخاص عددا من استراتيجيات حل المشكلات والمهارات المعرفية ^(١١) . . وذلك لأغراض تحسين التعلم في مواقف الفصل المدرسي ^(١٢) . . ولأغراض المساعدة في تأهيل الأطفال الذهائين ^(١٣) .

الجمعاعات العلاجية :

من الاستخدامات الفعالة للنظريات السلوكية لأغراض العلاج تلك الجهود الرامية الى تعديل المشكلات السلوكية لمجموعات من الأشخاص ، وذلك بواسطة تغيير التدعيم الذين يحصلون عليه في

O.I. Lovass : A behavior therapy approach to the treatment of childhood schizophrenia. In J.P. Hill (ed), *Minnesota symposia on child psychology*, Vol.I, Minneapolis : University of Minnesota press, 1967, pp.108-139. ^(١٠)

C.L. Lovass, et al : Acquisition of imitative speech by schizophrenic children. *Science*, 1966, 151, 705 - 707.

S.W. Bijou R.Orlando : Rapid development of multiple Schedule performances with retarded children. *Journal of Experimental Analysis of Behavior*, 1961, 4, 7 - 16. ^(١١)

S.W.Bijou : Experimental studies of child behavior, normal and deviant. In L.Kramer L.P. Ullmann (Eds.), *Research in behavior modification*, New York : Holt, Rinehart Winston, 1965 pp.56 - 81.

J.S.Birnbrauer, et al. : Programmed instruction in the classroom. ^(١٢)

In L.Ullman and L.Kramer (Eds) *Case studies in behavior modification*. New York : Holt, Rinehart, Winston, 1965.

C.B. Fester M.K. DE.Myer : The development of performances in autistic children in an automatically controlled environment. ^(١٣)

Journal of chronic Diseases, 1961, 13, 312 - 345.

بيشهم . . وقد استخلعت هذه الطريقة في دراسات كثيرة خاصة مع مرضى كبار يعانون من فصام حاد مودعين بمصحات عقلية (١٤)

ان الكثير من المرضى الذين عولجوا في هذه الدراسات قد دخلوا المصحات العقلية طلبا للعلاج بسبب عدم كفاءتهم السلوكية في المحل الأول . وبالإضافة الى ذلك ، عادة ما أصبحت عدم كفاءتهم ومشكلات الاعتماد على الغير أسوأ كثيرا كنتيجة لنظام الرعاية النفسية التي يعيشونها بالمستشفى . فهذا النظام يميل الى إخضاع المريض الى قواعد وتعليمات المستشفى ، وإلى عدم تشجيع الفردية وتشجيع سلوك الاعتماد على الآخرين وذلك باستبعاد أية فرصة للعزلة الفردية ، وبالنظام اليومي الثابت بالنسبة للطعام والتطبيب والنظام ، وبدعم المسيرة السلبية وسهولة الانقياد والطاعة (عن طريق المدح وتقديم المزايا) . وبعد فترة الإيداع بالمستشفى لسنوات كثيرة تحت هذا النظام ، يميل المريض الى أن يصبح أكثر إعاقة في مهاراته الاجتماعية والمهنية ، وأكثر اعتمادا على المستشفى . ومع مرور الوقت يفقد المريض اتصاله مع أسرته وأقاربه وزملائه كما يفقد خبراته ومهاراته التي اكتسبها في « العالم الخارجي » ، وتصبح توقعاته وأمانيه في أن يحقق لنفسه حياة طبيعية خارج مآوى المستشفى شبه مستحيلة . يصف « أيلون وآذرين » هذه الحالة على النحو التالي (١٥) :

« ان الغالبية العظمى من المرضى لا تزال بدون علاج . وتوضح الاحصاءات الحديثة أن متوسط أعمار مرضى المستشفيات العقلية الحكومية هو ٦٥ عاما على وجه التقريب . ويعني هذا أن نصف كل المرضى في المستشفيات العقلية الحكومية هم في تلك المرحلة المتقدمة من العمر التي تتضاءل فيها فرص العمل والروابط الأسرية . وحتى اذا لم تكن هناك أخطاء تحيط بحياتهم ، إلا أنه من الصعب اطلاقهم

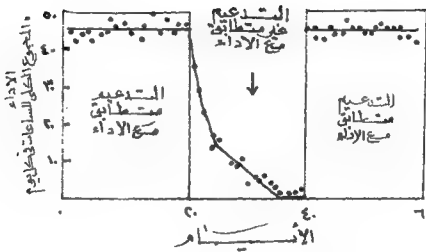
- T.Ayllon : Some behavioral problems associated with eating (١٤)
in chronic schizophrenic patients, In L.P. Ullmann L.krasner (Eds.) *Case studies in behavior modification*.
NEW York : Holt, Rinehart and Winston, 1965, pp.76 - 77,
T.Ayllon, & N.H.AZRIN : The measurement and reinforcement of behavior of psychotic. *Journal of the Experimental Analysis of Behavior*, 1965, 8, 357 - 383.
T.Ayllon & E. Haughton : Control of the behavior of schizophrenic patients by food. *Journal of the Experimental Analysis of behavior*, 1962, 5, 343 - 352.
G.W. Fairweather : *SOCIAL psychology in treating mental illness : An Experimental approach*. New York : Willy, 1964.
J.M. Atthowe & L.Krasner : A preliminary report on the application of contingent reinforcement procedures (Token economy) on a " Chronic " psychiatric Ward. *Journal of Abnormal psychology*, 1968, 73, 37 - 43.
T.Ayllon & N.H. Azrin : *The token economy*. New York : Appleton - (١٥)
Century - Roffts, 1968, P.3.

في العالم الخارجي ، طالما أنه لا يوجد لهم مكان في هذا العالم . ويقدر ما يظل هؤلاء المرضى بالمستشفى ، بقدر ما يزداد غو مشكلاتهم السلوكية . فالإيداع بالمستشفيات يصف حالة من البلاء ونقص الدافعية بكسبها المريض من بقائه بالمستشفى . فعادة ما يكون اهتمام جماعة المستشفى منصبا على توفير المتطلبات البيولوجية اللازمة للحياة ، وربما أيضا بعض فرص الترويح ، ولكن العبارة الكلية هي عبارة عن اعتماد طفيل لا يحتاج معه المريض إلى أن يكون نشطا لكي يحصل على معظم ، أن لم يكن كل ، الأنشطة أو الزايات التي ربما لا تزال ذات أهمية بالنسبة له .

ولكي تساعد المرضى على التغلب على هذا الموقف الصعب ، ثمة برامج جديدة يمكن اتباعها مع هؤلاء المرضى لزيادة سلوكهم الاستقلالي ولساعدتهم على تحقيق رعاية للنفس أكثر ملائمة وذلك عن طريق خلق بيئة أكثر استئارة لدافعيتهم بشكل ملائم . ويستخدم لذلك مبادئ التدعيم الذي يأتي متطابقا مع ما ينمو عندهم من سلوك استقلالي : في البداية يقترن التدعيم بالوظائف الأبسط كالاعتماد على أنفسهم في تناول الطعام والنظافة والنظام ، ثم تدريجيا يقترن بالوظائف الأكثر تعقيدا كالعمل والعلاقات الاجتماعية .

قام « آيلون وآذرين » (١٩٦٥) بتجربة تلقى فيها مرضى ذهانيون أقاموا لفترة طويلة باحدى أجنحة المستشفى للأمراض العقلية ، عملة رمزية مشابهة للنفود حينها يشتركون في الأنشطة العلاجية . فالمرضى يتسلمون هذه العملة الرمزية نظير اشتراكهم في مهام ووظائف كالعناية بأنفسهم والعمل الانتاجي والأعمال التأهيلية سواء داخل الجناح أو خارجه . هذه العملة يستطيعون استبدالها بما يرغبونه من مجموعة كبيرة من الأشياء المتنوعة . ولقد وجد أن المرضى قد عملوا بنجاح في أعمالهم التأهيلية عندما كان الحصول على العملة متوقف على « أداء » هذه الأعمال . وإذا جاء تلقى العملة غير متطابق وغير مقترن مع السلوك التكييفي ، فإن المرضى سرعان ما يعودوا إلى سلوكهم الذهاني الذي اعتادوا عليه أكثر في المستشفى . ويوضح الشكل رقم (١١) اعتماد السلوك التكييفي على التدعيم المطابق (*) . فحينما يأتي هذا الأداء يرتفع إلى أقصى حد ، بينما ينخفض مستوى هذا الأداء إلى الحد الأدنى حينما لا يقع التدعيم متطابقا مع الأداء .

ومن البرامج الفعالة في تعديل السلوك تلك التي تقوم على تقليل دور الاخصائي المعالج كضابط لسلوك المريض ، ومحاولة نقل المسؤولية - بدلا من ذلك - إلى المريض وإلى جماعة من المرضى بأسرع ما يمكن . ومن الأمثلة البارزة في ذلك تجارب « فيرويزر » على تصميم جماعة علاجية لتأهيل مرضى



شكل (١١) : المبرمج لكي يحدد ساعات العمل الفعلي لدى جماعة علاجية تتألف من ١١ مريضاً يلهي المصحات المنطوية .

(Ayllon and Agris, 1965)

بالذهان المزمن مكثوا بالمستشفى لمدة سنوات (٦٦) : يحاول برنامج « فيريزر » تحريك المرضى الفصامين المزمنين خارج المستشفى . فهؤلاء المرضى الذين ظلوا لأكثر من عامين بالمستشفى قد أصبحوا « أشخاصا هامشين » ، وإذا ما تم خروجهم من المستشفى فانهم سرعان ما يعودون إليها في غضون أشهر قليلة . لذا يحاول البرنامج تكوين أنظمة اجتماعية صغيرة يمكن أن تنشط وتعمل في جماعة المستشفى ويكون مكانها في جناح خاص ، مع تزويد المرضى بقدر كبير من الاستقلالية . هذه الجماعة العلاجية يعمل أعضاؤها مع بعضهم على أساس المشاركة وتبادل الوظائف والمهام ، وهي تتخذ قراراتها على نحو متدرج من الأبسط والأسهل إلى الأبعد والأصعب . وتكون الجماعة ككل مسئولة عن سلوك كل أعضائها . وتتقدم الجماعة في البرنامج من خلال سلسلة من الخطوات المتدرجة بعناية : كل خطوة جديدة تكتسب مسؤوليات جديدة ولكنها أيضا توفر للجماعة مزايا أكثر . ويأتي التدعيم (الانتقال إلى الخطوة التالية) مطابقا دائما للنجاح في الخطوة السابقة .

وتنتقل الجماعة من المستشفى إلى مكان خاص بها ، وبعد شهر تبدأ في العمل كتنظيم مستقل ومكثف ذاتيا . فعلى سبيل المثال ، تقوم الجماعة بتنظيم قسم الأعمال التجارية وقسم لخدمات العاملين به يعني بسجلاتهم وترتيب مواعيلهم ، والعناية بشؤون حياتهم وغذائهم وصحتهم وغير ذلك . ويأخذ الاختصاصيون وغيرهم من الأشخاص المعينين لرعايتهم في التخلي عن مراقبتهم ليحل محلهم بالتدريج بعض المرضى ليقوموا بأدوارهم مثل التمريض وتنظيم الأعمال التأهيلية أو الانتاجية . وفي خلال ثلاث سنوات تختفي تدريجيا كل مساعدة من الخلل ، لتصبح الجماعة بأعضائها مستقلة ومكثفة ذاتيا وتلتزم بالمسئولية الكاملة في اتخاذ القرارات والأعمال .

ولا يعني ذلك أن مثل هذه البرامج قد أدت إلى علاج تام هؤلاء المرضى المزمنين في مرضهم العقلي . ولكن ، المقارنة بين المرضى الذين خضعوا لتعديل للسلوك وفقا لهذه البرامج (المجموعات التجريبية) والمرضى الآخرين الذين لم يخضعوا لها (المجموعات الضابطة) تبين أن المرضى في هذه الجماعات العلاجية قد اكتسبوا درجة طيبة من التحسن في سلوكهم واعتمادهم على أنفسهم والقدرة على العمل والانتاج ، بالإضافة إلى ما أدت إليه هذه البرامج من توفير في التكاليف والجهد والوقت .

تحديد المشكلات العامة في عبارات ومواقف سلوكية :

إن العلاج السلوكي يتناول عادة مشكلات سلوكية محددة وواضحة كالمخاوف المرضية والمشكلات

G.W. Fairweather : 1964.

(٦٦)

G.W. Fairweather : *Methods in experimental social*

Innovation . New York : Wiley, 1967.

G.W. Fairweather, et al. : *Community life for the mentally ill : An alternative to institutional care*. Chicago : Aldine, 1969.

الكلامية والانحرافات الجنسية ونقص الدافعية . ولكن الكثير من المرضى يعاني من مشكلات مركبة معممة ليس من السهل وصفها بدقة . فقد يشكو شخص ، مثلا ، من « أزمة هوية » أو « احساس بالنعاسة » أو « حياتي مفقودة » ، أو ربما يقول « اني أكره شخصيتي » أو « أنا ضائع - لا أعرف ماذا أفعل » ، وغير ذلك من أمثلة التعبير عن مشكلات سلوكية عامة غير محددة .

والواقع أن الناس تميل الى تصور نفسها في اطار سمات عامة أكثر مما هو في اطار أوصاف سلوكية وهكذا بينما تكون اهداف العلاج في بعض الحالات واضحة (كما هو الحال في بعض المخاوف المرضية) ، الا أنه في معظم الحالات يكون من غير السهل تحديد ما الذي يتطلب علاجاً وما هي الانماط السلوكية التي ينبغي أن تكون أهدافها للعلاج .

ففي هذه الحالات يصف المريض مشكلاته وأهدافه في عبارات غامضة عامة . ولذلك ينبغي أن تكون مهمة الاخصائي الاكلينيكي هي مساعدة المريض على أن يحدد بدقة مايعنيه في عبارات سلوكية . ويمكن أن يحقق ذلك بواسطة التقارير المكتوبة كالسجلات اليومية ، أو المناقشة المباشرة ، أو تكليف الشخص في مواقف منظمة لهذا الغرض خاصته حيث يجري تنوع المثيرات بطريقة متعمدة ومنظمة كما هو الحال في البحوث التجريبية . كذلك تستخدم مواقف اللعب بالأدوار ، حيث يكشف بعمق معنى الشكوى التي يبدىها المريض .

مثال : : إذا كان شخص يصف نفسه على أنه « مكتئب » ، فإن الاخصائي الاكلينيكي يستطيع أن يستكشف معه متى يشعر بالاكئاب ومتى لا يشعر به . ولكي تتعين الأمثلة أو الأدلة أو الأصول السلوكية ، على الاخصائي الاكلينيكي أن يأخذ في البحث عما يحدث حينما يشعر المريض بأنه أكثر أو أقل اكتئاباً وعن التغييرات التي تحدث فيه وفي سلوكه حينما يجبر الاكئاب . فهو يمكن أن يسأل المريض مثلاً : « كيف تعرف حينما تكون مكتئباً ؟ فالغرض من مثل هذه الاسئلة الاستقصائية هو الحصول على أمثلة سلوكية للخبرات الذاتية ، وليس التحقق من صديق أو زيف ما يبيده المريض ظاهرياً . - الهدف هنا إذن هو اكتشاف الانماط السلوكية التي تكون مشكلة بالنسبة له وكذلك الشروط التي تحكم هذه المظاهر السلوكية .



تعديل تغير السلوك وتغير الشخصية

إذا كان لطرق تعديل السلوك التي اعتمدت على مفاهيم نظريات التعلم ، متضمنات بالنسبة للتغيير في الشخصية ، الا ان العلاج السلوكي كمدخل لتغيير الشخصية كان موضع نقد بحق وبغير حق .

فلقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن بعض الطرق العلاجية ، التي هي في أحسن الاحوال مرتبطة ارتباطا واهيا بنظرية التعلم وتأخذ بها من حيث الشكل ومع ذلك فهي تزعم بأنها مشتقة منها ، وأن الممارسة العملية للعلاج السلوكي قد تتضمن عوامل كثيرة غير مضبوطة وغير مقررّة في تقارير بحوثها ، وأن نظرية التعلم ذاتها قد تكون في الغالب غير ملائمة لتناول الظواهر المعقدة في الحياة^(٧٧) .

وقد يوجه النقد الى العلاج السلوكي من حيث أن تاريخ الجهود العلاجية الرامية الى تغيير الشخصية ملء ببدايات مزعومة وبحركات يفوق ادعائها وحاسها الرامية الى تغيير الشخصية ملء ببدايات مزعومة وبحركات يفوق ادعائها وحاسها كثيرا نتائجها النهائية . بل أن المناصرين المتحمسين للعلاج السلوكي قد بدأوا الآن يعترفون بأن تبنيهم لطرق تعديل السلوك مشوب بالخطر :

« فثمة مخاطر ينطوي عليها التطور السريع للعلاجات السلوكية : فقد ينمو في ذلك اتجاه تقليدي مبتسر ، وقد تعتذر ترجمة المزاعم بوجود أصول علمية الى تأييد وتجديد علميين ، وقد يتكون جيل جديد من الممارسين ، يؤدي نقص وعيهم بالمشكلات النظرية والتجريبية الأساسية غير المحلولة الى اطالة أمد طرق غير فعالة ؛ وقد تكون اجراءات الوقاية من جانب المجتمع في استخدام طرق الضغط السلوكي الاكاديمي غير كافية في حماية الفرد أو في التجريب الاجتماعي غير الناضج الذي قد يترتب عليه تأثيرات سلبية غير منظورة . ومع ذلك فإن المزايا الكامنة في استخدام العلاج السلوكي ، والتي تعرضت لتقييم نقدي كاف ولبحوث بناءة ، تنطوي على الأقل على اسهامات علمية عظيمة » .^(٧٨)

ولكن ، هل معنى ذلك ذلك أن التوجه السلوكي في العلاج النفسي سوف يتحول الى وعد كاذب آخر ؟ فما يحققه العلاج السلوكي من تقدم أو ما قد يتعرّض فيه من معوقات رهن بالعلم الذي يكمن وراءه - وهو علم السلوك الاجتماعي - وما يتحقق لهذا العلم من تقدم .

فالنقد الموجه للعلاج السلوكي كاستراتيجية لتغيير الشخصية يعترف بأن طرق تعديل السلوك قد تؤدي الى تغييرات في أنماط سلوكية معينة عند الفرد ، ولكنه يشكك في اصابة وعمق ذلك التعديل السلوكي . هذا النقد الموجه للعلاج السلوكي يركز تشككه على عدة نقاط نناقشها فيما يلي :

انتقال أثر تعلم السلوك المعدل : هل يكون هناك انتقال « أو تعميم » للأثار الإيجابية التي تتحقق في

Breger & J. L. McGrawh : Critique and reformulation of " Learning theory " approaches to psychotherapy and (٧٧)
neurosis. *Psychological Bulletin*, 1965, 63, 338 — 358.

J. S. Phillips & F. H. Kanfer : The validity and vicissitudes of behavior therapy. *International psychiatry clinics*, (٧٨)
1969, 6, 75 — 131.

العلاج السلوكي على مواقف الحياة التي يعيشها الفرد بالفعل ؟ هل الشخص الوجل الذي تمرس على سلوك أكثر حزمًا وثقة داخل حجرة المعالج الآمنة يصبح بالفعل أكثر ثمكتًا في عمله ؟ هل سيصبح أكثر ثقة مع رئيسه الذي يهدده ؟ هل الشخص الذي يفكر بهدوء في استجاباته للاختبارات يصبح هادئًا أيضًا حينما يجتاز اختبارات في الواقع ؟

ان طرق تعديل السلوك تعتمد الى التعميم الى درجة أن شروط المثير المتضمنة في العلاج تكون مشابهة لتلك الشروط المتضمنة في مواقف الحياة التي سوف تستخدم فيها الأنماط السلوكية الجديدة . لذلك يحاول المعالجون السلوكيون أن يدخلوا في المواقف العلاجية مواقف أقرب تماما الى مواقف الحياة التي تستلزم تغييرا في السلوك . فمثلا ، اذا كان شخص قادرا على أن يجتاز الامتحانات بفاعلية ولكنه يقلل من قدر تحصيله ، فان العلاج الملائم ينبغي أن يساعده على اعادة تقييم أدائه بدلا من أن يغير مهاراته في اجتياز امتحاناته . ويعني ذلك أن العلاج ينبغي أن يوجه بقدر الامكان الى الأنماط أو الأهداف السلوكية المنشودة .

يؤكد العلاج السلوكي ، مثل نظريات السلوك الاجتماعي التي توجّهه ، أن سلوك الشخص يحيل الى أن يكون سلوكا نوعيا عددا بشروط معينة في المثير . لذلك تحاول طرق تعديل السلوك الوصول الى تطابق تمام بين ما يمارس في العلاج والأهداف السلوكية المنشودة في حياة الشخص .

ان التأكيد على نوعية السلوك يفترض أيضا أن يتضمن العلاج مثيرات ومواقف عديدة تتعلق بهذا السلوك النوعي وتكون هي الهدف من تحسين السلوك . فمثلا ، التحصيل المنظم التدريجي الفعال ضد الخوف من الظلام ينبغي أن يتضمن تعريض الشخص لأماكن مختلفة مظلمة وفي سياقات كثيرة ؛ والتدريب على الكلام الملائم عند أطفال فصامين ينبغي أن يتضمن جوانب كثيرة للغة في سياقات كلامية كثيرة .

وليسر التعميم يعتقد كثير من المعالجين أنه من الأفضل أن يجري العلاج في مواقف الحياة الواقعية وليس في مواقف مصطنعة كالعمل أو العيادة . لذلك يسعون الى نقل خدماتهم العلاجية الى المجتمع بدلا من انتظار الناس حتى يحضرون الى العيادات أو المستشفيات أو يحضرونهم اليها . فكما أن برامج التعلم الأكاديمي للتلاميذ تجري في المدارس ، على سبيل المثال ، كذلك فان الكثير من برامج التعلم الاجتماعي للتلاميذ الذين يواجهون مشكلات في علاقاتهم مع الآخرين ينبغي أن تتم في إطار نظام المدرسة ذاته . كذلك اذا كانت المشكلة هي علاقة الطفل بالديه ، فانه من الأفضل أن يكون هناك مساعدون يقدمون العون في تعديل المشكلات في مجالها الطبيعي - وهو المنزل - بدلا من نقل الأسرة الى العيادة . وبالإضافة الى ذلك قد يجري اشراك المعلمين أو الآباء أو الأصدقاء أو غير ذلك من الاشخاص

غير المتخصصين مهنتاً - للمساعدة في العملية العلاجية كما تجري في الواقع والمجالات الواقعية الحية (٧٩) . وهناك اتجاه الآن يهدف إلى أن يشترك في العملية العلاجية أولئك الأشخاص الذين يدخل المريض معهم في علاقات يومية هامة ، بدلاً من الاعتماد على اتصالات متكررة مع العيادة أو المستشفى أو الاختصاصيين المعالجين أو المرشدين (٨٠) . كذلك تعتبر المواقف الجماعية أفضل غالباً من علاج الفرد وحده . خاصة إذا كان من أهداف العلاج تحسين علاقاته مع الأشخاص الآخرين . وفي ذلك تبين بعض الأحداث أن الجماعة توفر موقفاً فيه يتمكن الطلبة القلقون من خفض الكثير من مخاوفهم الاجتماعية بطريقة تلقائية وطبيعية من خلال التفاعل التبادلي مع الآخرين (٨١) .

وعلى هذا النحو ، تستطيع المراكز والمؤسسات الاجتماعية والتجمعات السكنية والأندية والأنظمة المدرسية وغيرها أن توفر فرصاً لتقديم برامج تغيير السلوك إلى المجتمع . أما النموذج التقليدي ، حيث يتكلم عميل واحد مع معالج واحد في حجرة خاصة لعدة مرات أسبوعياً ، فلا يكفي لتقديم المساعدات العلاجية الفعالة .

والواقع أن الاهتمام ببرامج الصحة النفسية الاجتماعية وبالصحة الوقائية لا يقتصر على أنصار تعديل السلوك فحسب . فهناك الكثير من علماء النفس ، ممن يتبنون إلى حلفيات نظرية مختلفة ، يؤكدون على أن البرامج الفعالة لعلاج المشكلات العديدة التي تعن للناس في المجتمع ينبغي أن تنحصر ما هو أبعد من مجرد « ترميم وانعاش » الأفراد المحطمين نفسياً . فكما أن الصحة البيولوجية ، أو البقاء البيولوجي ، يعتمد على الظروف المحيطة بالفرد كذلك فإن نكيهه النفسي ، أو بقاءه النفسي يتوقف على ظروف الحياة والعلاقات الاجتماعية في بيئته الشخصية .

الضبط الذاتي : =

يجري تصميم برامج العلاج السلوكي على أساس زيادة استقلالية الفرد وتمكنه من نفسه بسرعة حتى

G. R. Patterson, J. A. Colb & R. S. Ray : A social engineering technology for retraining aggressive boys. In H. A. (١١) Adams & L. Unikel (Eds.), Georgia Symposium in Experimental Clinical Psychology. Vol. 2. Elmsford, N. Y. Pergamon, 1970.

R. P. Hawkins, et al. : Behavior therapy in the home . Amelioration of problem parent — child relations with the (٧٠) parent in a therapeutic role. *Journal of Experimental child psychology*, 1966, 4, 99. — 107.

G. L. Paul & D. T. Shanon : Treatment of anxiety through systematic desensitization in therapy groups. *Journal (٧١) of Abnormal Psychology*, 1966, 71, 124 — 135.

يقط الضبط الخارجي لسلوكه بواسطة النظام العلاجي وينتقل بسرعة بقدر الامكان الى تمكنه من ضبطه لنفسه . فالضبط الخارجي (عن طريق العلاج) ينبغي أن يتحول بسرعة الى ضبط داخلي ذاتي . ويذكر العلاج السلوكي بطرق كثيرة تساعد على تحقيق ذلك الهدف (٧٦) .

فعل سبيل المثال ، رغم أن التدعيم الخارجي (كالعملة الرمزية أو المدح والامتنان) قد يكون ضروريا في البداية لمساعدة الطفل المضطرب على أن يتعلم الكلام والقراءة والكتابة ، وأنه حالما يبدأ في التمكن من الاشباع التي يحصل عليها من هذه الأنشطة الجديدة ، فإن ذلك يساعد على الاحتفاظ بها وعلى تنميتها ، حتى حينما يأخذ العلاج في سحب مساعدته للمريض بالتدريج . فالأنماط السلوكية الأكثر بناءية ، التي يتمرس عليها الشخص في البداية لكي يحصل على « تدعيم خارجي » ينبغي اختيارها على نحو بحيث يكون لها خصائص تدعيمية تجعلها باعثة على الاتباع بالتدريج . والطفل الذي يتعلم العزف على البيانو قد يعتمد كثيرا في البداية على المدح والاهتمام على المدح والاهتمام والتوجيه الوالدي لحظه على التدريب والممارسة . ولكن ، الى الحد الذي يتم فيه اعداد برنامج تعلمه بفاعلية ، فإن تدريبه على البيانو سوف يلقي تأييدا بشكل متزايد بواسطة اللغة التي يحصل عليها الطفل ذاته من النشاط (كالأصوات والنفحات التي تعلم أن يأتي بها ، والاحساس بالتمكن الذي بدأ يستخلصه من العزف على البيانو) . وإذا كانت خبرة التعلم ناجحة ، فإن الطفل يبدأ من داخله في ممارسة ما تعلمه لأنه قد صار يجد لذة في هذه الممارسة ذاتها .

فمن الناحية الذاتية ، يعني هذا التحول انتقالا من الأداء لمجرد ارضاء الآخرين الى الأداء لأرضاء ذاته - أي الانتقال من الاتيان بالسلوك من أجل « الاتباع الخارجي » الى « السلوك من أجل » « الاتباع الداخلي أو الذاتية » . يتضح ذلك أيضا في الانتقال للتدريج من « الضبط الخارجي » الى الضبط الداخلي لدى المرضى عن طريق اكتسابهم للمهارات الجديدة والصعبة خارج الموقف العلاجي في ظل شروط الحياة اليومية .

ولكي يتحقق تغير دائم نسبيا في السلوك ، فإن البرامج العلاجية ينبغي أن تضع في الاعتبار تلك الخطوات اللازمة من ضبط السلوك الجديد بواسطة عوامل خارجية الى ضبط ذاتي :

« فبعد أن يجدد المعالجون الأنماط الجديدة للسلوك على أساس قيمتها التفضيلية ، فإن المرحلة التالية في البرنامج قد تتطلب تدريبا مباشرا على التدعيم الذاتي **self — reinforcement** ويتحقق هذا بواسطة نقل الوظائف التقييمية والتدعيمية من عوامل وقوى التغيير الى الفرد ذاته . وتكون الاتباع الآن

(٧٦) A. Bandura : Principles of behavior modification. New York : Holt, Rinehart, & Winston, 1969.

مشروطة ليس بحدوث السلوك المرغوب فحسب ، بل أيضا بتقييم الفرد لذاته تقييما دقيقا . وبعد أن يتأكد عند الفرد سلوك التقييم الذاتي الدقيق ، فإن الوظيفة التعديمية تنتقل من قوى التعديم الخارجي ومصادره الى ذات الفرد الذي يكون في مقدوره الآن تقييم سلوكه وتعديم ذاته وفقا لذلك . وبجانب ذلك تأخذ الاثابات المادية المصطنعة في التضاؤل تدريجيا كلما خضع سلوك الشخص بشكل متزايد لضبط السلوك ، وهي نواتج رمزية ومضبوطة ذاتيا . فالهدف الأكبر للتدرج على التعديم الا اني هو خلق مستوى من التوظيف لامكانات الشخص يستطيع عنده المشتركون في التدريب أن يضبطوا سلوكهم بأقل قدر ممكن من الضغوط الخارجية والاغراءات أو البواعث المصطنعة (٧٣)

هذا الانتقال من الضبط الخارجي الى الضبط الداخلي . ومن التعديم الخارجي الى التعديم الذاتي ، يستلزم وقتا طويلا لتحقيقه بنجاح ، بل أنه يطل غالبا غير مكتمل ، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعي الذي يعتمد على توفر التعديم البيئي للفرد على سلوكه الجديد وما يلقاه من تغذية مرتدة وسند من الآخرين .

ابديل الأعراض ؟ قد يوجه نقد في بعض الأحيان الى العلاج السلوكي مؤداه أن طرق تعديل السلوك تغفل الأسباب الكامنة وراء السلوك المشكل عند الشخص ، ولذلك فإن هذه الطرق تترك « الجذور » بدون تغيير بينما تعدل فقط من سلوكه « السطحي » « أو من الأعراض الخارجية » . . . يعني هذا النقد أن المعالجين السلوكيين يتجاهلون أساس المشكلة والأسباب الكامنة وراءها .

يؤكد أنصار العلاج السلوكي انهم يهتمون بالأسباب ولكن يبحثون عن الأسباب « القابلة للملاحظة » التي تحكم المشكلة اخالية ، وليس عن المقدمات السابقة البعيدة في تاريخ الفرد ولا عن الآليات النفسية الدينامية التي يفترضها المعالجون والتي تكون غير قابلة للملاحظة . أما أنصار العلاج التقليدي القائم على الاستبصار فيهتمون ، بدلا من ذلك ، بالجذور التاريخية في ماضي الشخص ودينامياتها النفسية .

والواقع أن الاختلاف بين العلاج التقليدي والعلاج السلوكي لا يعني أن أحدهما يهتم بالأسباب ويبحث عنها وأن الآخر يهملها ولا يبحث فيها : فكلاهما يبحث عن الأسباب ولكنهما لا يتفقان على ماهية تلك الأسباب .

« فكل تحليلات السلوك تبحث عن الأسباب ؛ أما الاختلاف بين تحليل نظريات السلوك الاجتماعي وتحليلات النظريات السيكونديناميكية فهو فيما إذا كانت الأسباب المسيطرة اأخالية أو المقدمات السابقة الموعلة في ماضي تاريخ الفرد هي التي تسبب السلوك المشكل . فالتحليلات السلوكية تبحث عن المتغيرات والشروط اأخالية التي تحكم السلوك موضع الاهتمام . أما النظريات التقليدية (السيكوندينامية) فتهتم ، بدلا من ذلك بالآذور التاريخية ، ويتصور نمو مصدر النعمة - **development-taletiology** ^(٧٤) ، فالتنظريات التقليدية (السيكوندينامية) يتحدد اهتمامها بالسؤال اأثاني :

« لماذا صار المريض شخصا من نوع معين ؟ : أما النظريات السلوكية فتتضح السؤال اأثاني : - « ما الذي يجعله الآن يسلك على النحو الذي يفعله وما الذي ينبغي أن يتعدل لتغيير سلوكه » .

والسؤال الآن : هل ما يجري اغفاله في العلاج السلوكي من ديناميات نفسية تفترضها النظريات التقليدية يخلق أبدالا للأعراض ؟ فرغم ما تردد من تحفظات وتخوفات كثيرة بشأن احتمال حدوث ظاهرة ابدال الأعراض ، توضح الدراسات التجريبية بصفة عامة ان برامج تعديل السلوك - كما سبق ذكرها - تميل الى أن تكون هي أكثر الطرق فعالية متاحة في الوقت اأثاني ، وأن الأنماط السلوكية المتغيرة لاستبدال الآيات بأنماط مشكلة أخرى ^(٧٥) . وعلى انعكس من ذلك ، حينما يخصص الأشخاص من رددود الأفعال الانفعالية غير الناضجة ومن أنماط السلوك الاحكامي الدفاعي ، صاروا قادرين على أن يقوموا بوظائفهم بطريقة أكثر فعالية في المجالات الأخرى . يقرر « جروسيرج بعد مسح للدراسات المتعلقة بظاهرة ابدال الأعراض ، أن البيانات والدلائل الوفيرة تتفق على أن العلاج اأفوجه الى نحو السلوك اللاتوافقي يعتبر علاجا ناجحا ، وأن النتائج في ذلك ثابتة . ولكن « لسوء اأخط ، يبدو أن المعالجين

W. Mischel : *Personality and assessment*. New York , Wiley, 1968, P. 264

(٧١)

A. E. Bergin : some imlications of Psychotherapy research for Practice *Journal of Abnormal Psychology*, 1966, (٧٤) 71, 235 — 246

G. C. Davison , Systematic desensitization as a counter — conditioning process *Journal of Abnormal Psychology*, 1968, 73, 91 — 99.

H. J. Eysenck & S. Rachman : *The Causes and Cures of neurosis : An introduction to modern behavior therapy based on learning theory and the Principles of Conditioning*. San Diego . Knapp, 1965.

P. J. Lang & A. D. Lazurik : Experimental desensitization of a phobia. *Journal of abnormal and social psychology*, 1963, 66, 519 — 525.

A. A. Lazarus : Group therapy of Phobic disorders by systematic desensitization. *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 1961, 63, 504, — 510

G. L. Paul : *Insight vs. desensitization in psychotherapy*. Stanford : Stanford University, 1966.

S. Pachman : Systematic desensitization. *Psychological Bulletin*, 1967, 67, 93 — 103.

J. Wolpe : *Psychotherapy by reciprocal inhibition*. Stanford . Stanford University Press, 1958.

النفسيين قد ركزوا على المخاطر الافتراضية المتعلقة بعلاج الاعراض فقط ، بينما يتجاهلون المخاطر الحقيقية المتعلقة بالأضرار التي قد تقع من جراء عدم علاجها (٧٦) .

وبينما لم يعد التخوف من ابدال الأعراض هو النقد الموجه الى تعديل السلوك ، فإن كثيرا من القضايا النظرية والعملية لازالت قائمة . فعلى سبيل المثال ، لم يتحدد المعنى الحقيقي لمصطلح « عرض » في المناقشات النظرية الخاصة بابدال العرض ، بحيث أننا صرنا متاكدين من الاجابات التي يمكن أن نقدمها للسئلة التالية : ما الذي يؤلف العرض البديل ؟ ما مقدار الأسابيع أو الشهور أو السنوات التي قد تنقضي قبل توقع ظهور العرض البديل ؟ وإذا تخفى العرض في شكل آخر ، فكيف نميزه عن المشكلة التي تعتبر جديدة كلية ؟ وإذا كان شخص قد عولج من اخوف من الثعابين ثم ظهرت عنده بعد ثلاث سنوات ثلاث مشكلات متعلقة بالعمل أو مع زوجته ، فهل ما ظهر عنده هو ابدال للأعراض أم مشكلات جديدة ؟ ومعنى ذلك أن فكرة ابدال الأعراض ربما تكون غير قابلة للاختبار والتحقق والتجريبين ، لأننا لا نستطيع أن نعرف ما هو العرض البديل وما هي المشكلة الجديدة .

ومن ناحية أخرى ، قد ينزع بعض المتحمسين من أنصار تعديل السلوك الى اغفال ما تصف به مشكلات العميل (المريض) من تعقد والى التبسيط الزائد لصعوباته في شكل أو شكلين منفصلين من المخاوف المرضية ، وذلك عندما تكون عنده في الواقع صعوبات أخرى كثيرة . في تلك الحالة ، ليس بمستغرب أن نجد أنه حتى بعد التخلص من مشكلته الأولية لا يزال الفرد يعاني من مشكلات نفسية أخرى كالشكوك الذاتية والشعور بعدم الاستحقاق ، وغيرها . مثل هذه الحالات تعني في الواقع أن هذا الشخص قد لقي علاجاً غير مكتمل أكثر مما تعني حدوث ظاهرة ابدال الأعراض .

فالعلاج اذا تألف أساسا من مجرد محو السلوك المشكل بدون تقوية لأنماط سلوكية توافقية بدينة ، فمن المحتمل أن يترتب عليه ظهور أنماط إضافية من السلوك المضطرب . فمثلا ، الشخص المدمن الذي اعتاد تعاطي الحُمور أو المخدرات لكي يخفف من ضيقه وإحباطاته التي يواجهها باستمرار في عمله ، من المحتمل أما أن يلجأ الى الادمان مرة أخرى أو أن يمارس أنماط أخرى من السلوك اللاتوافقي ، إلا اذا تعلم أيضا كيف يواجه ضغوط عمله بطريقة أكثر فعالية .

لذا ، فإن العلاج النفسي الفعال هو الذي يحول دون ظهور أنماط إضافية وهو علاج فعال اذا قام على

— J. M. Grossberg : Behavior therapy : A review . Psychological Bulletin, 1964, 62, 73 — 88 (P. 83)

(٧٦)

— Stankov B. Mewer and Mcir Winkler : Some limits to the integration of Psychoanalytic and behavior therapy . American Psychologist, 1960, vol. 35, No. 9, 818 — 827

برنامج علاجي شامل يزود الفرد بأساليب أكثر توافقية للحصول على التعزيز ، وإذا كان البرنامج العلاجي يذهب الى ما هو أبعد من مجرد القضاء على مشكلاته الأكثر ظهوراً ووضوحاً .

والواقع أن العلاج السلوكي لا يخلق بشكل آلي تأثيرات علاجية معممة تحوكل الاضطرابات التي يعاني الشخص منها . فالنظريات السلوكية تؤكد على نوعية السلوك واعتماده على متغيرات المثير المعين في موقف ما . هذه النوعية تتضح أيضاً في التغيرات السلوكية التي يحدثها العلاج . ومع ذلك ، فهناك دلائل تؤيد التعميم الايجابي أكثر مما تؤيد ظاهرة ابدال الاعراض . مثال ذلك : أدى علاج بعض المخاوف المرضية عند الأفراد بواسطة تعديل السلوك الى خفض عدد وشدة مخاوف مرضية أخرى عندهم (٧٧) .

تغير مفهوم الذات : غالباً ما يصاحب التحسن الذي تحلته طرق تعديل السلوك في الاقتدار عند الفرد بتغيرات ملائمة في ردود أفعاله الذاتية . ويعكس مفهوم الذات بصفة عامة الاحساس الفعلي بالاقتدار عند الفرد : فادراك الذات يعكس الى حد كبير المعلومات التي نحصل عليها بشأن ملائمة سلوكنا وكفايته . ولذا فإن الفرد الذي يتعلم أن يسلك بطريقة أكثر اقتداراً وبالتالي يحصل على رضا أكثر عن سلوكه ، من المحتمل أيضاً أن ينمو عنده احترام للذات أكبر واتجاهات ايجابية أكثر نحو نفسه . ويرتّب على تمكن الفرد من التغلب على مخاوفه وقلقه ، أن يصبح كذلك أكثر ثقة بنفسه . ولكن بينما يكون يذهب ناقداً طرق تعديل السلوك ان الناس قد تعاني من اضطرابات نفسية ليس لأن سلوكهم غير ملائم ولكن لأنهم يقيمونه بطريقة غير ملائمة . فهناك اشخاص يعانون من مشكلات تتعلق باضطراب مفهوم الذات عندهم أكثر مما تتعلق بأدائهم ذاته .

يعتبر المعالجون السلوكيون أن المشكلات المتعلقة بمفهوم الذات هي مشكلات سلوكية كأي اضطرابات أخرى ؛ فالكثير من هذه المشكلات ينطوي على ادراك مضطرب للذات ، وعلى تقييم غير ملائم للذات ، وبالتالي على اتجاهات سلبية نحو الذات . في هذه الحالات يكون ممكن المشكلة أو الاضطراب هو في تقدير الشخص لآدائه وخصائصه أكثر مما هو في نوعيتها الحقيقية وفي مستوى اقتداره . هذه المشكلات المتعلقة بمفهوم الذات ينبغي أن تخضع ، من وجهة نظر العلاج السلوكي ، الى طرق التعديل السلوكي بواسطة نفس مبادئ التعلم في تغيير أي نمط سلوكي آخر .

— A. Bandura, E. B. Blanchard & B. Ritter : Relative efficacy of desensitization and modeling approaches for (٧٧) inducing behavioral, effective, and attitudinal changes. *Journal of personality and Social Psychology*, 1969, 13, 173 — 199.

— Joseph Wolpe : Behavior therapy versus Psychoanalysis : Therapeutic and social implications. *American Psychologist*, 1981, vol. 36, No. 2, 159 — 164.

تغير السلوك كشرط لتغير الشخصية :

هنا يمكننا أن نطرح سؤالاً : ما الذي يحدث حينما تتغير شروط التدعيم بشكل ثابت في حياة الفرد ؟ فالكثير من نظريات الشخصية تذهب الى أن البنية الأساسية للشخصية تظل ثابتة ، وأن ما يتغير هو مظهرها الخارجي فحسب ، ولكن ، هل هذا هو مجرد تغير في « الاعراض » لا يؤثر في الواقع على بنية الشخصية التي تولد هذا التغير ولا على المجال الخيوي النفسي الذي يحدث فيه هذا التغير ؟

يؤكد أنصار نظريات السلوك الاجتماعي أنه لكي نوفر للفرد علاجاً فعالاً ودينامياً ، علينا أن نفر بأن الفرد يتغير كلما تغير سلوكه . فالعلاج السلوكي ينظر الى تغير السلوك عند الفرد على أنه ليس مجرد غطاء واه أو طلاء سطحي .

ان النظرية السلوكية تصر على أنه لكي نكتشف « ماهية » الشخص ، فانا بحاجة الى أن نعرف « ما يفعله » ؛ وعلى أنه اذا تغيرت أفعاله ، فانه يتغير بالتالي . فالشخص هو « بما يفعله » . وفي ذلك تتفق النظرية مع النظرة الوجودية للبطيعة الانسانية .

فالتوجه السلوكي في دراسة الشخصية يؤكد أنه من بين المظاهر الأصلية للشخصية ما يعرف بمبدأ الاستمرار discontinuity ، ويعني كما يذهب السلوكيون أن التصور الملائم للشخصية ينبغي أن يسلم بأن الناس يتغيرون كلما تغيرت شروط حياتهم ، فلا يستمرون على مرضهم ولا يستمر قصورهم الذاتي ، وانما قد يتحسنوا وقد يتعلموا أنماطاً سلوكية جديدة توافقية لا تكون استمراراً للانماط السلوكية السابقة .

هذه النظرة تسمح بتناول الشخصية الانسانية كظاهرة متميزة تنفرد بخصائص معينة ، وكظاهرة معممة تتفق مع غيرها في خصائص مشتركة . وهي نظرة تسمح بتناول الشخصية كوحدة سلوكية قابلة للملاحظة ، وبالتالي قابلة للقياس والدراسة العلمية .

وأخيراً ، فان التوجه السلوكي وان كان يعطي مكانة « كبيرة لتغير الشخصية ، الا أنه يضع في الاعتبار كذلك مقومات ثباتها واستقرارها . هذا الموقف العلمي يسمح الى حد كبير باتخاذ السياسات والاستراتيجيات ، التربوية والثقافية ، الملائمة لبناء الشخصية في تفرداها وفي عموميتها وفقاً للمستوى الأمثل الذي ينشده المجتمع بفلسفته وأهدافه وممارساته .

والخلاصة ، أن العلاج السلوكي كان له فضل كبير ليس على تطوير طرق علاج اضطرابات الشخصية فحسب ، ولكن أيضا على تقدم التفكير في الطبيعة الأساسية للشخصية وفي تعديلها . ولا شك أن طرق ونتائج العلاج السلوكي قد فرصت تحديات هائلة فيها يتعمق بالمفاهيم التقليدية للشخصية والشروط اللازمة لتغير الشخصية .



شخصيات وآراء

بانوراما

« جيفرسون » عاصمة مقاطعة « يوكنا باتاوا » الواقعة في شمال غرب « مسيسي » مدينة جميلة بها محكمة مبنية بالطوب الأحمر ، تطل على ميدان مركزي وعلى عدة مساكن متراسة في شوارع عريضة ، ولو أن بعض أهل المساكن لم يعد لها وجود عندما أحرق الجنرال سميت عام ١٨٦٤ معظم أجزاء المدينة . وتبلغ مساحة المقاطعة نحو الفين وأربعمائة ميل مربع . وتضم من السكان نحو ١٥٦١١ نسمة ، وهي لا تختلف كثيرا عن معظم مدن ولاية المسيسيبي أو الولايات الأخرى في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية .

إذا تصورنا أننا نجول في تاريخ هذه البقعة من الأرض المسماة « يوكنا باتاوا » لنشاهد ما مر عليها من أحداث ، فسوف نرى قرية في جنوب المقاطعة ، ونرى في هذه القرية رجلا يدعى فليم سنويس Flem Snopes يفش ويخدع جيرانه حتى تتم له في النهاية السيطرة عليهم ، ويتزوج ابنة أهم ضحاياه ، ويوهم أحد الفلاحين بوجود كثر مدفون لا وجود له في الحقيقة ويدفعه إلى الجنون ، ويذهب إلى « جيفرسون » مصطحبا معه قبيلة من أقاربه ليعيثوا فسادا في المدينة (١)

عالم وليم فوكسر

يوسف عز الدين عيسى

الأرقام التي بين أقواس يقصد بها تسجيل أحداث معينة سوف يعود إليها الكاتب فيما بعد لتحليلها .

الأب في فمه أسنانا صناعية ، ويتزوج من امرأة كان قد اقترض منها جاروا ليا يحضر به قبر زوجته . (٣)

واذا تحركنا شمالا فوق تلال الصنوبر وحقول القطن حتى نقرب من مدينة جيفرسون فسوف نصل الى مزرعة « كوميسون » وسوف يصدمنا من آل اليه مصير المزرعة التي كانت مزدهرة والعائلة التي كانت من أرق العائلات وأكثرها احتراماً ، فلقد دمرت المزرعة وتدهورت العائلة . ونرى الأب والأم وابناءهما الأربعة ، الأب مدمن خمر ، والأم مختلة الاعصاب ، والابنة حبل من رجل غريب ، وأحد الأبناء متخلف عقليا ، والآخر أناني شرير ، والثالث متكبر رومانسي ولكنه ضعيف ، وهذا الابن المسمى كوتلين كميسون يدعي أنه هو الذي اعتلى على أخته ، وهو ادعاء كاذب ، ثم ينتحر في النهاية . والابن المتخلف عقليا خصاه أحد أخوته وأدخله إحدى المؤسسات . وتزوج الأخت تمبل ثم تطلق وتسلم نفسها لعدد من الرجال والشبان واحدا بعد الآخر . ويطرد الابن الشرير الابنة غير الشرعية التي أنجبها أخته ويبيع المنزل . (٤)

ثم نسمع صوت اطلاق رصاص في الشمال ونشاهد منظرا عجيبا . رجلا على خيول تركض ، ووزوجا ينزحون نحو نهر ، وامرأة عجوزا تدفن كنزا ، وصبيبة متجمعين بين

وفي هذه المدينة نفسها بعد عدة سنوات ، نرى فتاة جامعية تسمى « تمبل دريك » - Tem ple Drake تقع في براثن مجرم يدعى بوبي Popeye يعتدي عليها بطريقة بشعة ويلقي بها في النهاية في منزل للدعارة في مدينة ممفيس ، ويستخدم أحد أصدقائه لمواصلة الاعتداء عليها . ثم يحاكم بوبي ويماقب على جريمة أخرى لم يقترفها . وفي النهاية يأتي والد الفتاة ليسافر بها بعيدا الى مدينة باريس عاصمة فرنسا . (٥)

فاذا ابتعدنا عن هذا المكان فسوف نرى عائلة « بندرن » Bundren ووفاة أدى بندرن ، وهي امرأة تسكن فوق التل ، ونرى أحد ابنائها مشغولا بصنع كفنها ، ونرى الرحلة الطويلة الى مقابر « جيفرسون » . وعصاوية كفنها المحمول على عربة نرى زوجها وابنتها الحبل غير المتزوجة وابناءها الأربعة . ويدب العفن في جثمان الميتة ويجتذب جوارح الطيور . ويفرق الكفن في أحد الأنهار ، ولكن أفساد العائلة ينقذونه من الفرق ، ويعرض الكفن للحرق ، ولكنه ينقذ في هذه المرة أيضا . وفي النهاية يتم دفنه في مقابر عائلة الزوج تبعا لوصيتها التي يحرصون على تنفيذها . وينتقل أحد الأبناء من المقبرة الى مستشفى المجانين ، بينما يعتقد الابن الأصغر أن أمه المتوفاة عبارة عن سمكة ! ونرى الأب وقد غش أحد أبنائه واستولى على حصانه ، كما أخذ من ابنته المال الذي أعطاه لها حبيبها لكي تنفقه للتخلص من الجنين الذي في بطنها ، ويركب

الجثة متجههم الوجه ، انه ستين Sutpen ، ولكن خطه محكوم عليها بالفشل . انه يرفض الاعتراف ببنوة ابن له عندما يكشف أن نسبة من الدم الزنجي تسري في عروق والدته . ويقع هذا الابن في غرام ابنة من زوجة أخرى دون أن يعلم في بادئ الأمر أنها أخته من أبيه ، ويلقى هذا الابن مصرعه على يدي هنري أخيه من أبيه . ويشرد هنري ، وعندما يعود الى بيته يلقي حتفه في حريق يدمر المنزل . وفلس ستين يسبب الحرب الأهلية ولكنه يظل طامعا في انجاب ابن يحمل اسمه ومطامعه . ويختصب ستين ابنة رجل يستولي على جزء من أرضه فيقتله هذا الرجل انتقاما لشرف ابنته (٧) ،

وفي الشمال البعيد توجد البراري ، ويمكن رؤية الهند الحمر في قراهم ، ثم يختفي الهند الحمر ويأتي رجال وصبية من البيض يقيمون مخيمات الغرض منها ممارسة رياضة المطاردة والصيد ، وعلى الأخص مطاردة دب ضخم . ثم تختفي البراري عندما تأتي شركات الأخشاب (٨) ،

ثم تنتقل الى الجنوب مرة أخرى فنرى مدينة جيفرسون ، تلك المدينة الهادئة ، وهي في الحقيقة ليست كذلك . ويمكننا رؤية « قبل دريك » التي سبق أن شاهدناها وقد أصبحت الآن زوجة تعاني من لون آخر من ألوان الشقاء غير الذي عانت منه فيها مضى (٩) .

الأشجار يطلقون الرصاص على جنود ، وتصيب رصاصة المرأة المعجوز ، ويطارد الصبية قاتلتها حيث يقبضون عليه ويثبوتون جسده بالمسامير فوق أحد الأبواب . ونرى الكولونيل جون سارنوريس في مواقف شجاعة حين يكون فيلقا في جيفرسون وينطلق به نحو ماناساس Manassas ولكن رجاله يتكثرون له ويختارون رئيسا غيره ، ويعود جيفرسون ويكون فيلقا آخر حيث يعمل في هذه المرة مع الجنرال فوريس ، وتنتهي الحرب وينشأ طريقا حديديا للقطار بطول المقاطعة ، ولكنه في النهاية يلقي مصرعه بطلقة رصاص . (٥)

ويعيش ورثة الكولونيل في ظلال ذكراه ، ويصبح ابنه رئيسا للبنك في جيفرسون ، ويموت بهبوط في القلب بسبب حفيد ابنه ، ولهذا الحفيد توأمين ، وكلاهما يعملان طيارين في الحرب العالمية الأولى . ويقتل أحد التوأمين في فرنسا ، ويلوم الأخ نفسه على هذا الحادث ويماني من عذاب روحي ، فيقتل نفسه في النهاية حيث يلاقي حتفه في أثناء رحلة تهربية لأحدى الطائرات . (٦)

كما نرى في اتجاه الشمال الغربي للمقاطعة هياجا في الغاية : زنجوا امرأة يتصبب منهم العرق ، يقطعون الأشجار ويصرون القطع الخشبية وينشرونها ويقيمون منزلا محاطا بحديقة بديعة ، ويقفز فوق صهوة جواد رجل ضخم

عجوز تقتل زوجها خوفاً من أن يهجرها وتضع جسده فوق فراشه وتتركه في هذا الوضع حتى يتحول إلى مومياء (١٢).

إن جميع هذه الأحداث التي ذكرتها ، أحداث وهمية لا وجود لها إلا في خيال فوكنر ، لأن مقاطعة يوكنا باتاوا ، مسرح هذه الأحداث ، بعاصمتها « جيفرسون » لن نجد لها في أية خريطة للولايات المتحدة الأمريكية ، فهي ولاية وهمية من نسج خيال فوكنر . فالأحداث الموضوع عند نهايتها رقم (١) نجد لها في رواية « القرية » The Hamlet ، والأحدث رقم (٢) في رواية « الملائكة » Sanctuary ، ورقم (٣) في رواية « عندما أرقد محتضرة » As I lay dying ، ورقم (٤) في رواية الصوت والغضب The Sound and the fury ، ورقم (٥) في رواية « السق لاتقهر » The Unvanquished ، ورقم (٦) في رواية « سارتوريس » Sartoris ، ورقم (٧) في رواية أبسالوم ، Absalom Absalom ، ورقم (٨) في رواية « الدب » The Bear ، ورقم (٩) في رواية « قداس لراهبة » Requiem for a Nun ، ورقم (١٠) في رواية « ضوء في أغسطس » Light in August ، ورقم (١١) في رواية « دخيل في التراب » Intruder in the Dust ، ورقم (١٢) في أشهر قصصه القصيرة « وردة لامييل » Arose for Emily .

وهنا وهناك في الشوارع تحدث أشياء غريبة . نرى المدعو جوكر سمس الذي يبدو أبيضاً ولكن في دمائه يجري بعض الدم الزنجي ، فهو بين الزنوج يعتبر أبيضاً ، وبين البيض يعتبر زنجياً . ويوضع في طفولته في ملجأ للأيتام ، ثم يتبناه فلاح وزوجته . ويصبح جوشاباً ، وفي أحد الأيام يضرب الفلاح الذي تبناه ويسرق مدخرات زوجة الفلاح . وتحدث علاقة بينه وبين امرأة ، ويقتل هذه المرأة ويطارد في جميع أنحاء المقاطعة ، ويقبض عليه . ويحضر جده الحقيقي النوغاء على قتله بدون محاكمة قانونية ولكنه يهرب ، ويتمكن شاب يدعى بيرس من القبض عليه ويطلق عليه رصاص مسدسه فريدير قتلاً . ونجد أيضاً ضمن هذه الأحداث فتاة تدعى لينا جروف حملت سفاحاً من أحد زملاء جوكر سمس في أحد المصانع ، تسير على قدميها من ولاية « الألباما » لتعثر عليه وليعترف بابنه الذي في أحشائها ، ولكن هذا الرجل يهرب ، وتعود لينا إلى ولاية « تنيسي » ومعها الطفل الذي ولدت (١٠) .

ويمكن أن نشاهد أيضاً لوكاس يشامب ، وهو زنجي عجوز متهم بالقتل وعلى وشك أن يقتلوه بلا محاكمة ، ولكن يتم إنقاذه عن طريق طفل شجاع أبيض وطفل زنجي وامرأة عجوز (١١) .

ومن بين مشاهد الرعب والشجاعة نرى امرأة

الى حد كبير مدينته الخيالية « جيفرسون » فهي تقع في الجزء الشمالي لنهر الميسيسيبي وتضم من السكان نحو أربعة آلاف . ولقد عاش فوكر في منزل من أجل منازل مدينة اكسفورد ، من تصميم مهندس إيرلندي وقام فوكر بترميمه واصلاحه عندما اشتراه عام ١٩٣٠ ، وتحيط به الحدائق وتطل عليها شرفات ، ونصل الى المنزل من خلال اشجار باسقة تلقى ظلها على مساحة من النجيل . ولقد صنع فوكر في الممر المؤدي الى المنزل عديدا من الحفر حتى لا يشجع الناس على الحضور لرؤيته . وعاش في هذا المنزل مع زوجته ايستل Estelle وابنتها جيل Jill وفي سنوات سابقة كان يسكن معهم أيضا ابن وابنة زوجته من زوج سابق ، ولقد كبرا الآن وتزوجا ويعيشان في مكان آخر .

وتقع مدينة اكسفورد ، التي قضى فيها فوكر حياته كما ذكرنا ، على بعد ٧٥ ميلا في الجنوب الشرقي من ممفيس Memphis بولاية تينيسي ، وشرق دلتا نهر الميسيسيبي الغنية بالقطن . ومعظم سكان المقاطعة من الفقراء البيض والزنوج الفلاحين الذين يعيشون في أكواخ متواضعة في الساحة المحيطة بالمدينة ، حيث نجد أطفال الزنوج يهرعون الى منازلهم في دعر عندما تقع أبصارهم على رجل أبيض في عربة . والمدينة الهادئة لا تلذب فيها الحياة الا بعد ظهر أيام السبت حيث يند اليها الفلاحون لبيع محاصيلهم فيصبح أحد جوانب السوق أسود

ومقاطعة « يوكنا باتاوا » التي تخيلها فوكر تحمل سمات مقاطعة « لافايت » وعاصمتها « اكسفورد » بولاية ميسيسيبي ، ولقد قضى فوكر معظم حياته في مدينة اكسفورد . يمكننا أن نقول أن تخيل فوكر لهذه المقاطعة « يوكنا باتاوا » التي لا وجود لها يعتبر من أعظم ما أنتجه الخيال في الأدب الحديث ، ولقد توجت أعماله بحصوله على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ ، كما منح عديدا من التقديرات الأدبية المشرقة التي اسعدته كثيرا ، ولكن فيما يتعلق بجائزة نوبل ، فإنه لم يوافق على السفر الى السويد لاستلام تلك الجائزة الكبرى الا تحت ضغط من عائلته ومن المؤيدين . وهو من المؤلفين الذين لا يميرون قراءهم أي اهتمام ، كما ييغض الاعلان عن نفسه . وكل محاولة لاقتحام حياته الخاصة باءت بالفشل وسببت له غضبا شديدا . ولقد أصبحت كتبه جزءا هاما من التراث الأدبي للولايات المتحدة مثل مؤلفات « هرمان ملفيل Herman Melville » وادجار آلان بو .

ولهم فوكر رجل ضئيل الجسم ذو شارب كث وأنف دقيق وعينين بنيتي اللون يشع منها الحزن والفكاهة في الوقت ذاته . وهو رجل هادئ الطباع ، ولو أنه في وقت راحته واسترخائه وغليونه في فمه وساقاه القصيرتان تمتدتان قد يكون مثل قط يقفز في غمضة عين ليقفل فارا . ويتصرف كفلاح درس افلاطون .

ومدينة اكسفورد التي عاش فيها فوكر تشبه

وجيفرسون (الخيالية) على بعد واحد من مدينة ممفيس وتشابه معظم معالم المدينتين ، ولكن لا ينبغي الاعتقاد بان جيفرسون هي نفسها مدينة اكسفورد ، فمدينة جيفرسون ، لا تضم جامعة كما هي الحال في مدينة اكسفورد ، ومقاطعة يوكتا باتاوا الخيالية أكبر مساحة من مقاطعة لافايت الحقيقية ، اذ أن أحداث روايات فوكنر ، وعلى الأخص رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » تتطلب مساحة أكبر من مساحة لافايت ، فتوماس ستين Thomas Sutpen في رواية « أبسالوم ! » يمتلك وحده مساحة من المقاطعة قدرها مائة ميل مربع . كما أن سكانها أقل عددا وتشتمل على عدد من الزنوج أكثر مما في مقاطعة لافايت Lafayette فلقد أجرى فوكنر بعض التعديلات في عدد السكان وفي نسبة الزنوج الى البيض .

فعالم فوكنر في رواياته ، التي تقع معظم أحداثها في مقاطعته الخيالية « يوكتا باتاوا » ، ليس هو العالم الحقيقي في ولاية لافايت . ان « يوكتاباتاوا » مملكة أسطورية كما يسميها الناقد كاولي Cowley وفوكنر ، من الوجهة الخيالية ، هو مالكا الوحيد ، اذ لا يوجد لها في خيال انسان آخر . وفي الوقت ذاته فان شركة « متروجولد وين ماير » كانت على صواب عندما ذهبت الى اكسفورد لتصوير فيلم « دخيل في التراب » ، فان عالم فوكنر الشخصي هو بلا

اللون لاكتناظه بوجوه الزنوج . وتبدو مدينة اكسفورد في عيني الاوروبي أكثر تخلفا من أي مكان في الولايات المتحدة خارج حدود مستوطنات الهندو الحمر . وتبدأ أكواخ الزنوج وكأنها خجل من بعض القصور الرائعة التي مازالت قائمة بعد الحرب الأهلية .

ومن الأشياء التي جعلت مدينة اكسفورد شاعرة بماضيها أنها ظلت لمدة تزيد عن خمسين عاما موطننا لولهم فوكنر الذي اكتسب شهرة عالمية وهو قابع في هذه المدينة الصغيرة شبه المنعزلة . ولقد بقيت لعدة سنوات غير مدركة لمكانتها الأدبية وغير شاعرة بوجود فوكنر ، ولم تدرك مركزها الأدبي وقيمة ذلك الرجل الذي أضفى عليها هذه الأهمية الا عندما وجدت ذات يوم معدات وآلات استوديوهات هليود تهبط فيها لتصويرها سينماليا عند اخراج احدي روايات فوكنر للسنيما ، وهي رواية « دخيل في التراب Intruder in the dust » ، وشعرت بالفخر بعد ذلك عندما منح مؤلفها فوكنر جائزة نوبل في الأدب . عند ذلك بدأ فوكنر يشعر بالاهتمام والاحترام من سكان هذه المدينة الصغيرة بعد أن كانوا يتهايمسون فيها بينهم متعجبين كيف يجد ذلك الرجل قوت يومه وهو قابع طوال النهار في الظل داخل منزله يدق على آلة كاتبة ولا يعمل معهم في الحقول !

وتقع كل من مدينتي اكسفورد (الحقيقية)

فلسفى ، يجب الجنوب ويثر عليه ، ولقد نمت الشهرة ونفرت منها ، عندما أتته وهو مستقيم أثار حول نفسه أسطورة كاذبة ، والأهم من ذلك أنه كاتب عظيم وكاتب ردىء في الوقت ذاته . فلهسن مؤلفاته ترقى الى أعظم المؤلفات العالمية ، بينما نجد أن بعض مؤلفاته رديئة . ولديه إحساس عميق بالماضى ، ماضى الجنوب الأمريكى وماضى عائلته ، ولقد استخدم في رواياته عديدا من شخصيات أجداده التى يشكلها لتناسب متطلبات الرواية وتجعل بعض سمات عنفهم . قراء روايات فوكنر لن يجدوا صعوبة ليدركوا أن الكولونيل فاكتر جد والد فوكنر ، هو نفسه الكولونيل سارتوريس في رواية « سارتوريس » وفي روايات أخرى ، حيث يعرض حياته بتفاصيلها مصاغة في قالب فى يناسب تلك الروايات ، ويضفى عليها بطوالة مبالغاً فيها فيجعل أجداده ، نساء ورجالا ، أبطالا لبعض رواياته .

لم يكن يميل في خاطر ولیم فوكنر عندما كان صبيا أى طموح أو أية رغبة في أن يصبح روائيا ، ففقد بدأ كشاعر ، وكان حنجولا غير مبال لممارسة الرياضة . ولم يكن شغوفا بدراسه ، فقد كان يميل المراد التى لا تستهويه ، ولكنه كان قارئا نهما ، فكان يقرأ كل ما يقع تحت يده من

شك مقاطعة لافاين الذى يعيش فيه بعيدا عن البلاد الكبرى المنتشرة في أنحاء الولايات المتحدة وموطن تجاربه الشخصية في صباه حتى كهولته . وإذا لم يكن فوكنر من مواطني اكسفورد لتعلم عليه تصور مدينة جيفرسون ، فيئة جيفرسون ، كما تخيلها فوكنر ، هي يئة اكسفورد نفسها التى جعلته يعنى بتاريخ المنطقة وتاريخ عائلته . وهذه البيئة هي التى فرضت عليه موضوع رواياته . فمما لاشك فيه أن الكولونيل فاكتر^(١) جد والد فوكنر هو نفسه جون سارتوريس في رواية « سارتوريس » ورواية « التى لا تقهر » The Unquenished وفى بعض رواياه الأخرى . فكل من قرأ هاتين الروایتين يدرك أن أحداثا كثيرة في تلك الروايات مبنية على حقائق في تاريخ أسرة فوكنر لا بد أنه سمعها ، مثل إنشاء الخط الحديدى وإطلاق ردموند الرصاص على سارتوريس . فتاريخ عائلة فوكنر هو الذى دفعه ليصبح كاتبا ، بينما جذوره العميقة في ولاية مسيسيبي هي التى أمدته بعد ذلك بموضوعات رواياه وجعلته يواصل الكتابة .

حياة فوكنر

يتعيز فوكنر بصفات متضادة ، فهو طيب وقاس ، ألوف ونفور ، وهو فيلسوف بلا مبدأ

(١) غير فوكنر لقبه من فاكتر الى فوكنر ، لاعتقاده ان Faulkner هو المجاهد الصحيح وليس Falkner، علما

بأن حرف الـ F لا ينطق .

الأعمال التي تأثر بها فوكنر فيما بعد . وعندما قرأ فيليب رواية « يوليسيس » لجيمس جويس علق على ذلك قائلا لفوكنر : هذا الرجل يحاول كتابة شيء جديد ، وينبغي لك ان تحيط علمك به . فكان فوكنر يقرأ ثم يتناقش فيما قرأه مع صديقه ستون .

لم يكن مدار حديثها عن الأدب فقط ، فلقد مرض ستون في طفولته مرضا كان من شأنه أن يظل طريق الفراش عدة سنوات ، في خلالها تولد لديه اهتمام بتاريخ الجنوب الأمريكي والحرب الاهلية التي خاض غمارها عدد كبير من أقاربه . فكان من الطبيعي ان يقص أفراد العائلة على فيليب هذا التاريخ الحافل ببطولة افراد عائلته في ماضى الزمان . ولذا فلقد كان الحديث بين فوكنر وستون يدور في كثير من الأحيان حول هذه الاحداث . فكان ستون في هذا المجال أيضا بمثابة معلم لفوكنر . ولقد بدأت تتبلور معلومات فوكنر عن هذه الاحداث ، التي غذى بها رواياته فيما بعد ، من خلال أحاديثه الطويلة مع فيليب ستون التي امتدت الى عدة سنوات .

وفي عام ١٩١٨ عاد ستون الى جامعة ييل Yale ليحصل على الدرجة العلمية في القانون للمرة الثانية ، وبقي فوكنر في مدينة اكسفورد بالولايات المتحدة (وهي غير مدينة اكسفورد الانجليزية ذات الجامعة التي تحمل هذا الاسم)

كتب دون اختيار معين وبلاهدف جاد . ولكنه في السابعة عشرة من عمره تقابل مع الشخص الذي كان له أعظم الأثر في حياته الأدبية ، كان هذا الشخص يدعى فيليب ستون ، وكان في الحادية والعشرين عندما تقابلا (وقد يكون هو الشخصية التي أطلق عليها فوكنر اسم De Spains في بعض قصصه) . كان والد فيليب محاميا وشخصية سياسية مرموقة في الولاية ، وكان بخطط لفيليب ليعمل معه في حقل المحاماة كما فعل أخوه الأكبر . وحصل فيليب على بكالوريوس الآداب من جامعتين ، وأخذ يحضر نفسه لدراسة القانون . وعندما تقابل مع فوكنر كان حاصلا على بكالوريوس في الآداب ، وكان شغفه بالأدب أكثر من اهتمامه بالقانون . وكان مولعا بالشعر . وكانت تربط عائلته بعائلة وليم فوكنر صداقة ، فلما عرف ميل فوكنر للشعر أراد مساعدته عندما سمع من والدته انه لا يدرى ماذا يفعل بأشعاره . فلذهب الى منزل فوكنر واستمع لأشعاره فلمس فيه موهبة أدبية ، فأصبح منذ ذلك اليوم مرشدا وموجها لوليم فوكنر ، كما أصبح أعز أصدقائه . ولاشك ان فوكنر مدين لصديقه هذا كمعلم ومرشد . ويتوجه من ستون بدأ فوكنر يقرأ أشعار شكسبير وسوينبرن Swinburne وكيتس وشيلي . ثم قرأ الأعمال الكلاسيكية مثل بلزاك وذاكري وهنرى فيلنجل وديفسو (مؤلف روينهسن كروزو) ودكتور وجوزيف كونراد . ثم بدأ فيليب يقرأ أعمال جيمس جويس ، وهي

بالتدريس في الجامعة ، ان فوكتر كان صيا مهذباً خجولاً حساساً ، وكان عطوفاً على الاطفال ويعرف كيف يستولى على مشاعرهم بالقصص التي كان يرويها لهم ، ولقد مهدت له هذه الصفات ليصبح رئيساً لمجموعة من الكشافة ، ولكن قسيس التعميد اعترض على شغفه بالشراب فترك هذا العمل . ثم التحق باحدى المدارس واشترى حلة جديدة ليبدو انيقاً في حفلات الرقص بالمدرسة ، وهذا يذكرنا بما حدث فيما بعد عندما ابدى عدم تحمسه للسفر الى السويد ليتسلم جائزة نوبل قائلاً انه فلاح ولا توجد لديه حلة تصلح لمقابلة الملوك ، فاشترى له ناشرو كتبه حلة جديدة ارتداها عندما ذهب على مضض ليتسلم تلك الجائزة الثمينة !

وكان في فترة عمله بالمدرسة يقضى وقتاً طويلاً في مكتبها منغمساً في قراءة الكتب التي يختارها له صديقه فيليب ستون . ولقد نفر من نظام الدراسة المنتظمة ، وكانت أعلى درجاته في مادتى اللغة الفرنسية والاسبانية ، بينما كان يرسب في اللغة الانجليزية ! وفي السنة الثانية ترك المدرسة .

وعاد الى نشاطه السابق ، كتابة الاشعار والقصص حتى ملأت دولاباً بأكمله في مكتب ستون ، وزاول أعمالاً مختلفة في هذه الفترة . وكان في خلال قراغه من هذه الأعمال وفي عطلات نهاية الأسبوع يصحبه صديقه ستون في

وحاول الالتحاق بسلاح الطيران ولكنه لم يقبل لفقر قاصته ، وتمكن من الالتحاق بسلاح الطيران الكندي دون ان يسأله أحد عن جنسيته . وانتهت الحرب العالمية الثانية وهو مازال في مرحلة التدريب دون أن يزاول مهمته . ولما عاد الى مدينة اكسفورد استمر في نظم الشعر . وبعد فترة بدأ يكتب قصصاً قصيرة بهدف الحصول على بعض المال الذي يمكنه من الحياة في أثناء هذه الفترة ، فترة نظم الأشعار . كانت سكرتيرة صديقه ستون تكتبها على الآلة الكتابة وترسلها للنشر ، ولكنها ظلت ترفض واحدة بعد الأخرى ، فبأخذها فوكتر ويضعها في ملف ويودع الملف أحد الادراج في مكتب آل ستون . وكان يضطر الى اقتراض المال ، وعلى الأخص من صديقه ستون ، ليتمكن من الحياة الى جانب مزاوله حرفة النجارة او طلاء المنازل او غيرها من الاعمال ليسد ديونه ويبقى له ما يقيم أوده .

وسمحت الظروف لفوكتر بالتعرف على أحد أساتذة الجامعة عن طريق أحد أصدقائه ، وهو الاستاذ براون . قال فوكتر للاستاذ انه يشعر بعقبة رياضية ويرغب في دراسة الرياضيات . فالتحق بالجامعة لدراسة مقرر في الرياضيات ، ولس شغفا بهذه الدراسة في الاسابيع الاولى ، ولكنه بعد ذلك لم ينتظم في الدراسة ، وانتهى الامر بتوقفه عن تلك الدراسة . وتقول عنه زوجة الاستاذ ، وكانت هي الاخرى تقوم

اليه صديق قديم أو أحد مدرسيه السابقين في أثناء تلك اللحظات . وقال عنه أحد سكان المدينة انه غوّج حقيقي للشاعر . وكان أهل المدينة يعتقدون ان افراد عائلة فوكر يتمتعون بثقة في أنفسهم تجعلهم لا يبالون بأراء الآخرين فيهم ، فكانوا يفسرون غرابة أطوار فوكر بقولهم : « انه دم عائلة فوكر الذي يجري في عروقه » . وكان آل فوكر معروفين بكبريائهم وتعاليمهم وارسقراطيتهم .

وفيما عدا الأنسة مود ، كان ستون الشخص الوحيد الذي يمتدنا ان هذا الصبي ولیم فوكر سوف يصبح ذات يوم كاتباً شهيراً ناجحاً ، ولو أن فوكر نفسه كان يشك في ذلك . وبناء على نصيحة من ستون سافر فوكر الى نيويورك في ضيافة أحد المعارف ويدعي ينچ Youg آملا ان يجد هناك ناشراً يقبل نشر أعماله ، او ناقدًا يلفت اليه الانتظار . ومارس هناك عديداً من الاعمال ليحصل على النفقات اللازمة ، ومن هذه الاعمال غسل الاطباق في مطعم يونان هناك ، حتى تمكن من الحصول على وظيفة في إحدى المكتبات ، ولكنه ما لبث ان عاد الى مدينة اكسفورد بعد ستة شهور عندما أرسل اليه صديقه ستون يبيّره ان وظيفة مدير مكتب البريد بالجامعة قد خلت ويمكنه الحضور لشغلها ، وكان سعيداً بعودته الى مدينته ولم يتسدف من رحلته الى نيويورك سوى التعرف على الأنسة برول Prall ولم ينجح في وظيفة مدير مكتب

سيارته ويزوران مدينة ممفيس بين آن وآخر وكانت مشاهد روايته « الملاذ » Sanctuary إحدى نتائج هذه الرحلات ، كانا يجلسان حول مبنى المحكمة هناك ينصتان الى أحاديث كبار السن والفلاحين وصيادي الوحوش ، يقصون عليها قصصهم الزائرة بالهند الحمر والزئوج والشخصيات المحلية واحداث الصيد الشهيرة ، وكيف كانت الامور في الزمن الماضي ، وكان فوكر قليل الكلام كعادته ، وكانت مثل هذه الجلسات تحتاج الى الانصات اكثر منها الى الكلام ، كان يجمع معلومات يستخدمها فيما بعد في قصصه . ولم يعد لفوكر بعد ذلك مكان ثابت ، غريب الأطوار حتى ان أهل المدينة لم ينظروا اليه كمتسكح وحسب ولكن كشخص به لسة جنون . في هذه الفترة أطلق لحيته وارتدى ملابس رثة قديمة ، وكان في شهور الصيف يرى حافي القدمين . كان يجلس في الميدان عند غزن للأدوية وقلماء متسختان نتيجة لكثرة التجوال في الحقول والغابات ممسكا بيده إحدى المجلات وينغمس في قراءتها بالمجان . وكان صاحب المحل يعطف عليه فلا يطالبه بأجر القراءة ، بل كان يعطيه من آن لآخر قطعة نفود ذهبية على أن يردّها فيما بعد ، وكان فوكر يحرص على ردها عندما يستطيع ذلك . وكان يقف بالساعات عملاقاً في مبنى المحكمة ، او يجول في المدينة شارد الذهن غارقاً في تأملاته وأحلامه ، حيث لا يكاد يرى أحداً من المارة ، ويجب بالقتضاب ، وأحياناً بوقاحة اذا تحدث

برول Elizabeth Prall مقيمة بالمدينة مع شروود أندرسون الذي كانت قد تزوجته حديثا . اتصل بها فوكتر ، وبدا تمكن من لقاء اندرسون ، وأصبعا صديقين حميمين . ويقول فوكتر أنه هو وشروود اندرسون اعتادا السير معا والجلوس معا والحديث معا حتى الثالثة أو الرابعة صباحا . ويقول فوكتر عن شروود : « انه الرجل الذي في امكاني الحياة معه في جزيرة مهجورة ، وعندما رأيت كيف يعيش شروود قلت لنفسى اننى لو أصبحت كاتباً مثله فان حياتى ستكون رائعة ، هذه هي الحياة التى تصلح لى » . واختفى فوكتر ستة أسابيع ، وعندما رآته اليزابيث زوجة اندرسون ابتدرته قائلة : « أين كنت ؟ لقد أفتقدك شروود » . فقال : « كنت أكتب كتابا » . فقالت : « هل تحب أن يقرأه شروود ؟ » فقال : « ليس بالضرورة ، فأنا أعلم أنه مشغول . نقلت اليزابيث الحديث لزوجها الذي أبدى استعداداه لتزكية الكتاب لدى ناشره . لم يكن الناشر بالمدينة في ذلك الوقت ، ويمجرد قدومه أخبره شروود عن هذا الاكتشاف الجديد ، فقرأ الناشر نص الكتاب ووافق على نشره . فارتفع قدر فوكتر واستقر في الحي الفرنسى بالمدينة ، وباع بعض قصصه القصيرة لأحدى صحف نيويورك نيوز .

البريد ، فلقد تراكت الخطابات واختلت مواعيد فتح واغلاق المكتب ، وكانت التقارير تفقد ، ولم يستجب لشكاوى المتعاملين التى لم تكن تحظى باهتمامه ، اذ لم يكن يتم في تلك الفترة الا بنظم الشعر والمشى مسافات طويلة وانتهى الأمر بتركة هذا العمل . وعلق فوكتر على ذلك قائلا : « الآن لن أكون تحت رحمة أى ابن كلبه يمتلك ستين »^(٢) . وتقلب في أعمال مختلفة ، وأخيرا طبع له صديقة « ستون » عل نفقته الخاصة ديوان شعر ولكنه لم يلفت الانتظار ولم تبع منه سوى نسخ قليلة .

فوكتر وشروود أندرسون^(٣)

خضرت لفيليب ستون فكرة : أن ت. س. ال. اليوت وآزرا باوند وشعراء عديدين أمريكيين لم يحظوا بالتقدير في وطنهم إلا بعد أن حصلوا عليه خارج الوطن ، فلماذا لا يجرب فوكتر ذلك ؟ رحب فوكتر بالفكرة اذ كان يتوق لرؤية فرنسا . وبناء على ذلك ، في يناير عام ١٩٢٥ ، سافر بصحبة صديقه ستون الى نيويورك ليقضي ستون عطلة في هذه المدينة ، ويحاول فوكتر الحصول على عمل في سفينة أوربية تنقله الى فرنسا . وعاد ستون الى مدينة اكسفورد بعد انتهاء عطلة بيتا بقي فوكتر في مدينة نيويورك أوليانز . وذات يوم علم ان اليزابيث

(٢) السنت عملة أمريكية صغيرة . وكان أجر طابع البريد في ذلك الوقت اثنين من هذه الستات .

(٣) شروود اندرسون كاتب أمريكي وشاعر ولد عام ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٤١ .

أشياء يعرفها حق المعرفة ، ويجب أن يعلم كيف يبدأ الرواية ، فالحديث أو المكان الذي تبدأ منه القصة ذو أهمية كبرى . وقال له اندرسون : « أنت شاب ريفي ، وكل ما تعلمه هو تلك البقعة في ولاية ميسيسيبي حيث بدأت حياتك » . ولم يعمل فوكزر هذه النصيحة في بادئ الأمر عندما كتب روايته الأوليين اللتين كتبهما في نيواورليانز ، ولكن النصيحة ظلت كامنة في أعماقه ، ويفضلها بلغ النضج الفني وظهر تأثيرها في روايته التالية « سارتوريس » التي كتبها عن تاريخ الجنوب الأمريكي الذي يعيش فيه ويعرف عنه كل شيء .

على الرغم من تأليف روايتين في ستة أشهر ، لم يكن فوكزر مشغولاً بدرجة تمنحه من ارتياد أماكن تجمع الفنانين الموهوبين في الحى الفرنسي بمدينة أورليانز . ففي منتصف العشرينات كان ضمن المجموعة هناك « رورك براد فورد » و « أليفر لافارج » و « جورج ملبيرن » و « جورج ماريون اودونيل » و « هاملتون باسو » و « كارل ساندبرج » و « جون دويس الشبان . كانوا يعيشون على ما يدره انتاجهم ، وكان يجمع بينهم الفقر وتقديرهم لاندرسون الذي كان يستضيف في منزله لتناول العشاء ثلاثة أو أربعة منهم في ليالي السبت . وفي هذه الفترة كان يوجد بينهم بوسو Bossو وهو من سكان نيو أورليانز ، ويقول عن فوكزر انه رجل

كان ذلك الكتاب الذي قبل للنشر ، أول رواية تنشر لفوكزر وهي رواية « أجر الجنود » Soldiers Pay وندور حول جندي يعود الى وطنه ليموت متأثراً بجراحه ، ويذا فيها متأثراً بهمنجوي Hemingway . وفي أثناء اقامته في نيواورليانز كتب معظم روايته الثانية « البعوض » Mosquitoss وهي محاولة فاشلة لمحاكاة الكوميديات الاجتماعية التي كان يكتبها الدوس هكسلي ، بحذق وذكاء في ذلك الوقت (ويبدو فوكزر في رواياته على وجه العموم متأثراً بثلاثة كتاب عظام هم جيمس جويس وهمنجوي والدوس هكسلي) .

ثم أسهم فوكزر بعد ذلك مع وليم سباز تلنج في تأليف كتاب صغير بعنوان « شروود اندرسون وآخرون » وكتب فوكزر مقدمة الكتاب محاولاً تقليد أسلوب اندرسون ، واعتبر اندرسون تلك المقدمة سخيرة منه فرفض رؤية فوكزر ولم يتقابل بعد ذلك سوى مرة واحدة بعد عدة سنوات في حفل كوكتيل بنيويورك .

وعلى الرغم من هذه النهاية المؤسفة لعلاقة فوكزر باندرسون فإن فترة صحتها معا تركت أثراً لا يمحي في حياة فوكزر ومؤلفاته . ولم ينس فوكزر طوال حياته كلمات شروود عندما قال له « أكتب الشيء الذي تعتقد أنك تعرف كيف تكتبه » . كما علم منه أن طريقة كتابة القصة شيء على جانب عظيم من الأهمية . وتعلم منه انه لكي يصبح كاتباً ذا قيمة ينبغي أن يكتب عن

كانت قليلة . وعندما نشرت بعدها رواية « البعوض » كانت النسخ المباعة منها لا تزيد كثيرا عن الرواية الأولى . وكان الناشر قد تعاقد معه على نشر كتب أخرى ، ولكن الفشل الذريع الذي منيت به رواياته المنشورتان جعلته يفسخ العقد ويصدر عن نشر كتب أخرى لفوكتر . وتمكن فوكتر بعد ذلك من بيع عدد قليل من القصص القصيرة ولكن الأجر كان ضئيلا فانتابته حالة يأس وخيبة أمل واعتقد انه كاتب فاشل لا يصلح للتأليف القصصي .

ولكنه تمكن من التغلب على اليأس وواصل الكتابة ، فكتب رواية « سارتوريس » Sartoris واستمد موضوعها من البيئة التي يعيش فيها في الجنوب وتاريخ هذا الجنوب ، وعلى الاخص ولاية ميسيسيبي فاقرب بذلك من الاستجابة لنصيحة اندرسون : « اكتب عن أشياء تعرفها » . ولكن الرواية لم تكن جيدة ولم يتحمس الناشر لنشرها .

وازاء هذا الفشل المتوالي عرض ستون على صديقه فوكتر فكرة جديدة . قال له انه ما دام قد فشل كمؤلف جماهيري فلماذا لا يتقاضى عن ارضاء الجماهير ويكتب لنفسه وللخاصة من القراء ذوي التذوق الفني الرفيع الذين لا بد انهم في يوم من الأيام سوف يدركون موهبته إن عاجلا أو آجلا ؟ لماذا لا يكتب للأجيال بدلا من الكتابة للعامة ولحاجة السوق ؟ واستجابة لرأي ستون عكف فوكتر على كتابة رواية دون أن

ضئيل الحجم مهذب عذب الحديث وذو احساس عميق بالجنوب الأمريكي . ولقد عاش فوكتر بعض الوقت في غرفة بالدور الأرضي في شارع بالقرب من الكنتراثية على مقربة من الغرفة التي كان يعيش فيها سبارتلنج عند سطح المنزل . وكان أفراد المجموعة يترددون على غرفة سبارتلنج ويتقابلون مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع لتناول الغداء في بعض المطاعم الرخيصة .

وذا ليلة ، عندما ظهر فوكتر بينهم وقت الغداء باديا عليه الانسراح ، أعلن انه قضى اليوم بطوله في طائرة كان يستخدمها سيرك متنقل يقضي فترة بجوار المدينة ، وهذه الزهرة بالطائرة كانت البكرة التي أنبتت فيها بعد رواية « بيلون » Pylon .

بين اليأس والأمل

بعد ذلك سافر فوكتر الى أوروبا في يولية عام ١٩٢٥ حيث اتجه أولا الى انجلترا ، ثم مر خلال فرنسا طورا على قديميه وطورا راكبا دراجة ، وزار الأماكن التي كانت ميدانا للقتال في الحرب العالمية الأولى . وتلقى وهو في الخارج مبلغ مائتي دولار من ناشر روايته « أجر الجنود » قبل طبعها ، وكان هذا أول مبلغ يصل الى يده ثمرة كتابة استمرت نحو عشر سنوات . وعندما عاد الى وطنه كانت الرواية قد تم طبعها ونشرها ، ولكن عدد النسخ التي بيعت منها

و « البعوض » و « سارتويس » و « الصوت والغضب » ، ورواية خامسة على وشك النشر وهي رواية « عندما أرقد محضرة » ، وتزوجا ، واقترض بعض تكاليف الزواج وانتقل هو وزوجته وطفلاهما إلى شقة صغيرة . وتحمل فوكر اعباء زواجه وعباء اعادة طفلي وزوجته من زوجها السابق . ونشرت رواية « عندما أرقد محضرة » ويقول فوكر انه كتب معظم أجزائها فوق عربة يد في أثناء وديته المسائية عندما كان يعمل بمحطة توليد الكهرباء بالجامعة ، حيث كانت مهمته وضع الوقود لغلاليات المياه . ونجحت الرواية كعمل أدبي رفيع ، شأنها في ذلك شأن رواية « الصوت والغضب » ولكنها فشلت جماهيريا فلم تدر عليه ربحا ذا قيمة .

بعد ذلك كتب رواية « نلاد » Sanctu-ary التي وصفها فوكر بأنها فكرة رخيصة كتبها ليحصل على بعض المال ، ولكن فكرتها كانت تدور في راسة لعدة سنوات وأقبل على كتابة بعض أجزائها بحماس ، ولذا فلقد ظهرت الرواية وبعض أجزائها ، رائعة والبعض الآخر من الدرجة الثانية .

لقد نجحت هذه الرواية جماهيريا نجاحا عظيما ، ولم تحرك فوكر عن كتابة تفاصيل فكرتها الجنسية العنيفة التي كانت بالنسبة للجماهير مفاجأة تثير الذعر . وكان الناس يتخرجون من شراؤها علنا ولكنهم كانوا يقبلون

بأخذ في الاعتبار أي هدف تجاري . كانت هذه رواية « الصوت والغضب » The Sound and the Fury والعنوان مأخوذ من شطرة بيت من الشعر ورد على لسان زوجة مكبث في مسرحية « مكبث » لشكسبير . وتعتبر هذه الرواية من أروع ما كتب فوكر ومن أكثرها صعوبة عند قراءتها . واستخدم فيها تيار الشعور Stream of Consciousness . وتتكون الرواية من أربعة أقسام ، وتم نشرها عام ١٩٢٩ ، ولقد نجحت هذه الرواية نجاحا عظيما عن طريق صفوة القراء الذين يقدرون الفن الرفيع ولو أن الجماهير العريضة تجاهلتها . فتتحقق بذلك هدف فوكر ، وهو كتابة رواية يقدرها قلة من الصفوة بدلا من الغالبية التي لا تتلوق الأدب الرفيع ، على أمل أن القلة من ذوي المستوى الرفيع قد يؤثرون بأرائهم على الأكدياء من العامة .

ونشأ حب عنيف بين فوكر و استلا أولدهام Esetila Oldham التي كانت تكبره بعامين . وعارضت الماثلاثن هذا الزواج نظرا لكبر سن استلا وغرابة أطوار فوكر . فتزوجت استلا من عام يدعى كورنل فرانكلين الذي سافر مع عروسه إلى هونولولو ثم انتقل إلى شانهاي . وفي عام ١٩٢٧ طلقت من زوجها وعادت إلى وطنها مع طفليها ، ولد وبنت ، وظل حب فوكر لها متأججا . كان في هذا الوقت مفلسا ، وكان قد نشرت له حتى ذلك الوقت أربع روايات هي : « أبحر الجنود »

طويل . وعلى بساط الحشائش الذي تظله الاشجار الباسقة مازالت المناضد متناثرة حيث كان الشيوخ من الرجال وبعض الشباب يتعاملون ويتحدثون عن السياسة والمحاصيل الزراعية ويثرثرون في شتى الموضوعات . وسوق المدينة مازال قائما حيث نجد الطعام والمزقة والبطيخ الناضج التي يحضرها الفلاحون ، وتمر السيارات حول الميدان في دوامة مستمرة ، وتوجد منازل فاخرة كتلك التي كانت تعيش فيها عائلات سارتوريس وكيمسون في أيام مجدهم . وبعض شوارع المدينة لم يكسها الاسفلت حتى الآن بينما توجد الاشجار في كل مكان . في هذا المتحف عاش فوكنر معظم حياته وكتب رواياته . كان جزءا من هذه المدينة الصغيرة وكان من معالمها . هذه هي المدينة التي أطلق عليها فوكنر في رواياته اسم « جيفرسون » في المقاطعة التي اختار لها اسم « يونكاتاوا » ولم يمل الكتابة عنها طوال حياته .

ولقد رزق فوكنر من زوجته استلا طفلا ، أطلقا عليه اسم « الاباما » ولكنه توفي عقب ولادته مباشرة ، ثم رزقا بعد ذلك بابتة هي جيل اللل ومن أرباح رواياته اشترى ضيعة أصبحت تدر عليه الكثير من الاموال الامر الذي جعله في غير حاجة لمزاولة أية وظيفة . كان شغفيا بهذه المزرعة ومعتزا بها ، فكان يقول عن نفسه انه ليس أدبيا ولكنه مجرد فلاح يهوى حكاية القصص .

على شرائها سرا . ولقد نظرت الرواية نظر هليوود نحو فوكنر ، فشعر هو وصديقه ستون بسعادة غامرة تتسم بالدهشة ، ففتحا الدولاب المليء بقصص فوكنر التي سبق ان رفضت نشرها جميع الصحف والمجلات ودور النشر ونفضا عنها الغبار وأعادوا كتابتها على الآلة الكاتبة وحددا لكل منها سعرا مرتفعا كتياء في الركن الأيمن من الصفحة الاولى لكل قصة وأرسلوها الى المجلات نفسها التي سبق ان رفضتها فنشرتها على الفور وبدأت النقود تسدق بين يدي فوكنر .

سنوات النضج

لم تغير مدينة أكسفورد بولاية ميسيسي تغيرا كبيرا في السبعين عاما الأخيرة ، اذا استثنينا بعض التغيرات السطحية ، كالشوارع التي أصبحت مفروشة بالاسفلت ، والسيارات التي أصبحت محجوب شوارعها ، والجراجات ، واضواء النيون في واجهات المحال التجارية . ويشعر قراء روايات فوكنر عند رؤية المدينة الآن وكأنهم كانوا في حلم واستيقظوا ليجدوا المدينة الحقيقية مطابقة لما شاهدوه في أحلامهم ، اذ مازال مبنى المحاكم القديم كما وصفه فوكنر في رواياته مع بعض التعديلات القليلة ، وتفوح منه رائحة التاريخ : عقود الزواج القديمة ، سجلات الوفيات التي مضى عليها عهد

كانوا يشعلون النار للتدفئة ويسلون أنفسهم بلعب الكثينة وسطالعون الصحف التي يحضرها. اليهم أحد الناس من المدينة ، ويتجاذبون احاديث الصيد ونوادره . وكان فوكر كعاده يصفى أكثر مما يتحدث ويظل معظم الوقت مشغولا بتدخين غلبونه ، ومن آن لآخر يكتب بعض الملاحظات . من هذه الملاحظات والذكريات نسج فوكر قصصه العظيمة التي جعلته من أعظم كتاب العالم الذين كتبوا عن الطبيعة وصورها في مؤلفاتهم اروع تصوير .

كان من عادة فوكر أن يكتب دون مراعاة لأية قواعد ، أو كما قال أخوه جون « ليقص على نفسه قصصا » في موضوعات أشبه بتداعي الخواطر . لم يكن وقت الكتابة ولا المكان الذي يكتب فيه ولا مواد الكتابة ذوى أهمية لديه . وكان يكتب على أية قصاصة متاحة من الورق ، على ظهر الفواتير أو ظرف خطاب أو حتى على أوراق « التواليت » عندما لا يجد في متناول يده غيرها . وتعود ناشره الا يتعجبوا اذا وجدوا نصوصه المرسلة للنشر مكتوبة على ظهر نص قديم من نصوص رواياته ، أو نص سينمائي مشطوب ومكتوب على ظهر صفحته . وكان لا يحتاج لأكثر من خمس ساعات للنوم . وكان من عادته ان يبدأ الكتابة في الرابعة صباحا ، اذا شعر بالرغبة في الكتابة ، ويستمر حتى الثامنة صباحا مستخدما الآلة الكاتبة بدلا من القلم ،

كان فوكر يهوى الصيد ، فكان يخرج بصحبة بعض أصدقائه في موسم معين في الخريف توارثته المدينة جيلا بعد جيل وأصبح من التقاليد المرية فيها ، حيث يقيمون خيمة في بقعة معينة في الغابات القريبة من المدينة (ولقد زحفت شركات الاحشاب واحتلت هذه البقعة فيما بعد ، وأشار فوكر الى ذلك في روايته القصيرة « الدب ») وانتقل نتيجة لذلك معسكر فوكر واصدقائه من هوة الصيد مائة وتسعين ميلا جنوب اكسفورد في مكان فيه أنهار ومستنقعات وغابات كثيفة . ففى الثامن عشر من شهر نوفمبر كان يخرج فوكر مع نحو ستة من أصدقائه في سيارة ضخمة حملة بكل ما يحتاجون اليه في معسكر صيدهم ويقيمون هناك نحو اسبوعين ، لقد استفاد فوكر من بعض هؤلاء الأصدقاء في تصوير شخصياتهم في رواية « الدب » وفي قصته القصيرة « خريف الدلتا » Delta Autumn . وكان في الغابات عديد من حيوانات الصيد كالغزلان وبعض الدببة والقطط البرية . وكان فوكر صيادا ماهرا يحسن اصابة الهدف بينتقته . وكان في بعض الأحيان يظل نحو ثلاثة أيام متواصلة بلا نوم وهو منغمس في تعقب بعض الحيوانات . كانوا ينامون في خيامهم ويتناولون طعامهم على كتلة من الخشب ، وكان طعامهم يتكون من لحم الحيوانات التي يصطادونها الى جانب البامية والبطاطس ، والطماطم والبصل الذى كانوا يطهونه في وعاء كبير طوال اليوم . وفي المساء

الادبية ، كما أصبح مالكا لزراعة مترامية الأطراف وزوجا وأبا ناجحا في مهنته ، ولكن على الرغم من ذلك فإن أعماله تدل على أن نظره الشخصية للحياة لم تتغير ، نظرة يشوبها التشاؤم . ظل يصور مقاطعته الخيالية « بوكتاباتاوا » في لون دموي قائم منها حياة شخصيات رواياته نهايات مأساوية عنيفة . وأصبح ميالا إلى العزلة والبعد عن الناس . كان يتوق في بلده بدء حياته الادبية إلى الشهرة ولفت الانظار ، ولكنه عندما اطمان إلى الشهرة وانجذبت نحوه أنظار عررى الصحف والناشرين والنقاد والكتاب الآخرين والقراء والمعجبين لم يعد في حاجة إلى المزيد منها ، فصار يتجنب الأجاديث الصحفية ، وزهد في زيارة المعجبين به ، وأوصد دونه بابا الذي لم يفتحه إلا لعدد قليل من صفة أصدقائه .

وعلى الرغم من شهرة ولیم فوكتر التي ذاعت في جميع البلاد في ذلك الوقت ، فإن مدينة أكسفورد التي يعيش فيها لم تمره أى اهتمام . كان بعض أهل المدينة يعلمون أن كتبه تثير اهتمام اساتذة الجامعات والمثقفين في شمال الولايات المتحدة ، وكان عديد من الذين يزورون الجامعة في تلك المدينة يحرسون على لقاء فوكتر ولكنه لم يكن يمكنهم من هذا اللقاء . وعندما حاولت زيارته راقصة البالية الشهيرة اليسيا ماركوفا أرسل يقول لها انه مشغول اذ لديه موعد سابق لصيد قطة برية !

ويكتب بسرعة ويضع بعض التعديلات بين السطور وعلى الهوامش ، ويقضى باقي اليوم حرا ليزاول شتى أنواع الأنشطة ورعاية شؤون مزرعته وعائلته ، وقد يعود للكتابة فترة أخرى بعد الظهر قائلا ان الكتابة أصبحت هواية بالنسبة له مثل جمع طوابع البريد .

وكان يكتب بسهولة فائقة غير شاعر بأى مجهود في أثناء الكتابة . قال عنه أحد أصدقائه الذي أتبعه له فرصة مراقبته في أثناء الكتابة عدة شهور انه دهش لسرعة كتابته . وكان يكتب نحو نصف ساعة ثم يستريح لمدة نصف ساعة يقضيها في الحديث أو قراءة كتاب ، غالبا قصة بوليسية ، ثم يعود للكتابة بنفس السرعة المذهلة بلا تردد ، ويرجع ذلك إلى عدم اقدامه على الكتابة إلا أن يكون الموضوع قد نضج في ذهنه نضجا تاما فلا يحتاج لمزيد من التفكير . وشبهه في هذا المجال بريتشت Pritchett بقوله انه يشبه من يمشي التبخ ثم يصقه على الورق بدون أى مجهود . وكان يصفى نادبا منه إلى ملاحظة أحد النقاد بأن بعض الجمل من مخطوطاته ملتوية وغير واضحة المعنى ، ولكنه لم يكن يتم جهله الملاحظات فلا يغير كلمة واحدة .

وهكذا نجد فوكتر في سنوات النضج وقد أصبح شخصا جديدا شديدا الثقة بنفسه ، يختلف تمام الاختلاف عما كان في بلده حياته

أعمال ولیم فوکر

أشرت في الصفحات السابقة اشارات عابرة الى بعض أعمال فوکر ، وسوف أتناول الآن أهم انجازاته بشيء من التفصيل .

يعتبر فوکر من المؤلفين الذين لاتفهم كتاباتهم بسهولة ، بل تحتاج الى مجهود ذهني . وهو يستخدم تيار الوعي في معظم رواياته ، شأنه هذا شأن جيمس جويس ولرجينيا وولف ، ولو أنه يختلف عنها بعض الشيء في روايتين وهما : « الصوت والغضب » The Sound and the Fury و « عندما أرقد محترقة » As I Lay Dying ، وهما في رأيي أروع ما كتب . وعلى الرغم من أن روايات فوکر مستوحاة من الجنوب الأمريكي إلا أنها تحمل اللمسات الانسانية التي تجعلها مقروءة في كل مكان خارج ذلك الحيز الضيق . ولقد بدأ فوکر ، كما ذكرت ، بكتابة الشعر قبل كتابة القصة ، وظل طوال حياته معتقدا بأنه شاعر ولو أن شعره لم يكن من النوع الجيد . ويبدو أنه كان متأثرا بشكسبير وشعرت . س . البوت قبل نظم الأخير لقصيدته « الأرض الخراب » The Waste Land ، كما يبدو أن فوکر توقف عن نظم الشعر عندما بدأ كتابة الرواية في منتصف العشرينات .

ولقد كتب فوکر أولى رواياته عام ١٩٢٥ في

أثناء إقامته لمدة ستة شهور في مدينة نيو اورليانز ، وكانت تعرض الحياة في هذه المدينة ونشرها في إحدى الصحف ، ثم أعيد نشرها في كتاب عام ١٩٥٨ بعنوان « صور من نيو اورليانز » . كما نشر عددا من القصص الضعيفة في أسلوبها وتركيبها . وهذه القصص والأشعار التي نشرها في باكورة حياته الادبية لا تعتبر ذات قيمة ذاتية ، ولكنها ذات أهمية للدراسة المؤشرات والومضات الأولى التي ترهص بالأعمال العظيمة التي كتبها فيما بعد .

وأول عمل هام أنجزه فوکر هو رواية « أجر الجنود » Soldiers, Pay التي نشرت في أمريكا عام ١٩٢٦ وتحمل في ثناياها بلور الموهبة ، ولو أنه من الصعب أن نتصور أن مؤلفها هو المؤلف نفسه الذي كتب بعد ثلاث سنوات الرواية الرائعة « الصوت والغضب » . ويبدو تأثير الدوس هكسلي على فوکر واضحا في روايته الأولى « أجر الجنود » ، ولقد كان تأثير هكسلي على المؤلفين الشبان قويا في العشرينات . ويبدو في هذه الرواية بلور (التكنيك) التي نبتت في مؤلفاته فيما بعد ، مثل التركيز على الوقت والاستجابات المختلفة للشخصيات أزاء الحدث الواحد . وكان يتحتم على فوکر التخلص من تأثير هكسلي قبل أن يصبح كاتباً متميزاً ، ولو أن ذلك التأثير ظل مهيمناً على فوکر في روايته الثانية « البعوض » ، بل يبدو تأثير هكسلي في هذه

سارتوريس Bayard Sartoris الذي ينحدر من سلالة الكولونيل جونسارتوريس . ولقد استمد فوكر شخصية الكولونيل جون من شخصية جله . وتتكون قصة بايارد من معاولاته الصديدة لكي يتعرض للقتل . ومن نقساط الضعف في الرواية عدم توضيح الاهداف التي تدفعه لذلك . ثم ينجح في النهاية في ملاقة حظه عن طريق ركوبه طائرة يعرف مسبقا أن حالتها لاتدعو للاطمئنان .

وبعد نشره لرواية سارتوريس ظل فوكر يعتبر كاتباً صغيراً ، ولكن في العام نفسه ، ظهرت روايته « الصوت والغضب » وهي من أعظم الروايات التي ظهرت في القرن العشرين ، وهو مدين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر في هذه الرواية للروائي الايرلندي جيمس جويس . ومثل كثير من روايات فوكر ، كان لايد من أن يتعمد القراء على قراءة مثل هذا العمل الفني الذي لم يالفوه من قبل ، ولكن عندما يدرك الانسان كيف يقرأها فسوف يشعر بالمتعة والانبهار .

وتشبه رواية « الصوت والغضب » رواية « أبسالوم ، أبسالوم » في كونها روايتين تشيع فيها صلة الدم الوراثي والروابط العائلية . فرواية « الصوت والغضب » تحكي قصة بيت يتعفن ، انه منزل كومبسون Compson الذي نشأ فيه حاكم وجنرال وكان يتمتع

الرواية أقوى منه في الرواية الأولى . وتتضمن هذه الرواية حواراً ثقيلاً يدعو الى الملل عن الفن والحياة والجمال والجنس ، ولم تعد هذه الرواية اهمية في الوقت الحاضر سوى مجرد دراسة خطوات تطور كتابات فوكر وبعض الاشارات التي تظهر في مؤلفات فوكر الأكثر نضجاً فيما بعد .

وتعتبر الرواية الثالثة « سارتوريس » خطوة هامة على طريق تطور فوكر ، ويبدو تطور فوكر ونضجه الفني في ذروته في روايته التالية « الصوت والغضب » التي اعتقد أنها أروع ما كتب على الإطلاق .

ففي رواية « أجر الجنود » رسم فوكر صورة لمدينة صغيرة من مدن الجنوب الأمريكي ولوانه وضعها في مقاطعة جورجيا . وفي رواية « سارتوريس » بدأت في الظهور لأول مرة مدينة جيفرسون التي أصبحت في معظم رواياته عاصمة مقاطعته الخيالية ، وكان فوكر في تلك المرحلة المبكرة كانت لديه رؤية واضحة وتفصيلية لما سوف يفعله في رواياته التي كتبها بعد ذلك والتي تدور أحداثها في يونكاتاوغا ، والتي تتكرر فيها بعض شخصيات معينة . ويمكن اعتبار رواية « سارتوريس » كمخزن للشخصيات والأحداث التي تواتر في رواياته المختلفة أكثر من اعتبارها رواية في حد ذاتها . والخيال الذي يربط الرواية هو قصة بايارد

الحديث . وتحكي القصة في هذا الفصل ، كما ذكرت ، على لسان أبلة متخلف عقليا تبعا لتصوره وتلقائيتها الفريزية المجردة من الذكاء ونظام تسلسل الأفكار حيث يتساوى لديه الزمن الماضي والحاضر ، وما حدث بالنسبة اليه منذ ثلاثين عاما يبدو له حيا وكأنه يحدث الآن .

ويبدأ القسم الأول من الرواية في « الوقت الحالي » بالنسبة لأحداث الرواية وينجي بصحبة الخادم لستر Luster يسيران معا جنب سور يحيط بملعب الجولف ، ونعرف فيها بعد أن أرض ملعب الجولف هي الجزء الذي كان من المفروض أن يرثه بنجي وهو آخر ما تبقى من أملاك كوميسون (المجلد الرابع) ولكنه بيع منذ أعوام لكي يتمكن من الالتحاق بجامعة هارفارد . ويبحث لستر عن ربع دولار لكي يتمكن بنجي من رؤية أحد الملأهي المتنقلة التي تزور المدينة . ويستخدم المؤلف بحث لستر عن ربع الدولار للدلالة على أن هذا يحدث في الوقت الحاضر (ليس في الماضي ولا في المستقبل) .

ينسب معظم هذا القسم يضم أحداثا من الماضي . وتتدأ أفكار الماضي في ذهن بنجي المتخلف عقليا تبعا لتأثره بأشياء يراها في الحاضر ، كمنظر النار أو الذهاب الى الفراش . فهو مثلا عندما يرى الطفلة كوتنين على الأرجوحة بصحبة رجل يتذكر عندما رأى أمها كادي في المكان نفسه . والحوار في الرواية يكتب بحروف مائلة عندما ينحرف عن الحاضر ويوغل

بارستقراطية في جيفرسون بمقاطعة يوكاناباتاوا وحصل أحد أسلاف كوميسون على ميل مربع أخذه من الهنود الأحمر أصبح فيها بعد بشغل جزءا كبيرا من مركز مدينة جيفرسون . وآل كوميسون الذي تتحدث عنهم الرواية هم آخر سلالة كوميسون الكبير ، كبقية ضعيفة من بقايا التراث القديم ، هم كوتنين الذي يقدم على الانتحار ، وكادي الشائرة جنسيا ، وجاكسون الذي يصبح رجل أعمال لا قلب له ولا روح ، وينجي المتخلف عقليا . ونجد الأب مستركوميسون عديم التأثير وزوجته المناقة التي تندمج سريعا مع المؤثرات الروائية لتقود الأطفال عبر مساراتهم الشنيعة . وتحدث الرواية منذ طفولة كوتنين وكادي وجاسون وينجي في أواخر القرن الثامن عشر حتى أحد الفصح عام ١٩٢٨ عندما تهرب ابنة كادي (المسماة كوتنين على اسم خالها المتوفي) ، مع شخص غريب يعمل في معرض متنقل للملأهي ، والرواية مقسمة الى أربعة أقسام ، القسم الأول منها يحكي على لسان بنجي المتخلف عقليا وهو مؤرخ ٧ ابريل عام ١٩٢٨ (سبت عيد الفصح) ، والقسم الثاني شخص لكوتنين وتاريخه ٢ يونيو ١٩١٠ ، والثالث خاص بجاسوس بتاريخ ٦ ابريل ١٩٢٨ ، والرابع على لسان المؤلف ومؤرخ ٨ ابريل ١٩٢٨ . ويعتبر القسم الأول الذي يروي على لسان بنجي المتخلف عقليا أروع الأقسام الأربعة ، وهو واحد من أشهر ما ظهر في الأدب

وتسلسل عل كوتنين فكرة ربط شرف العائلة بطرية أخته كادي .

وفي القسمين الثالث والرابع من الرواية لا نجد سوى قليل من الصعوبات التي نصادفها في القسمين الأول والثاني . والقسم الرابع مكتوب بالاسلوب التقليدي ، وإذا رأينا أنه أكثر الأقسام نجاحا فربما يعزى ذلك الى الهدوء النسبي الذي يسود ذلك القسم اذا قارناه بالأقسام العاصفة التي تسبقه ، وتضفي عليه الحادمة الزنوجية « ولس » ذلك الجو الهادئ . كما قد يعزى أيضا الى وصولنا الى موضوع في الرواية تتبلور فيه الأحداث المعقدة فتبدو الرواية لنا واضحة . ولقد قال فوكز عن هذا القسم « لقد حاولت أن أجمع الأجزاء معا وأملا الثغرات عندما رويت الأحداث عل لساني في ذلك القسم » . وهنا يبدو معنى الرواية في صورته الحادة .

وتقع أحداث هذا القسم من الرواية يوم الأحد في عيد الفصح . ويتركز اهتمام فوكز في هذا الجزء في اضافة صور محددة من النظام والتعفن والأنانية والخذاع التي شاعت في الأقسام الثلاثة الأخرى . ففي الصفحة الأخيرة يغضب بنجي غضبا شديدا عندما سار لستر بالعربة عل يسار نصب الجندي بدلا من عل يمينه كالعادة . وإلى جانب ذلك فأننا نرى الشخصية الإيجابية لهلس بكفائتها الفائقة وصبرها واحتمالها وقلوبها الملء بالحب ، حيث

في الماضي ، وهذه الفقرات المكتوبة بحروف مائلة لا تشكل حديثا مترابطا ، اذ يتذكر أشياء غير مترابطة ، فهو يتذكر عندما غيروا اسمه الى بنجي لما ثبت تخلفه العقلي وذلك باصرار من والدته . كما يتذكر عندما ماتت جدته ، ويوم زواج كادي أخته عام ١٩١٠ ، وعندما أجروا له عملية الخصى لأنه شوهذ يفاضل بنات المدارس اللاتي يرون أمامه . وهو في أحاسيسه وتشبهاته يفكر بفرائض تشبه غرائز الحيوانات . فهو يتذكر أخته ، مثلا عندما يشم رائحة بعض النباتات .

وبينا يفكر بنجي بهذه التلقائية الصريحة ، نجد كوتنين في القسم الثاني يتجه دائما نحو المطلق ، فالوقت والشرف والعلمية هي المواضيع السائدة التي تدور في ذهنه . وتطابق ذكريات كوتنين في كثير من الأحيان مع ذكريات بنجي ، ولذا فإن قراءة القسم الثاني في الرواية الخاص بكونتين يلقى ضوئا عل القسم الأول الخاص ببنجي ، وتفسر كثيرا من أفكار كوتنين المعقدة . فكونتين يتميز بعقل ذكي رفيع المستوى ، ولكن اهتمامه بتصرفات أخته واهتمامه بشرف العائلة ، وعن طريق تيار الوعي ، يجعلنا ندرك ما يدور في ذهنه من الانطباعات والذكريات والصور التي تتدفق خلال اليوم الأخير من حياته . ولا يفصح المؤلف عن انتحار كوتنين بشكل مباشر ، بل يأتي ذلك عن طريق اشارات متكررة عن الماء تجعلنا ندرك تدريجيا عزمه عل الانتحار غرقا .

هذه الثورة في صورة حرية جنسية في أول الأمر ثم زواجها فيها بعد ، وتظل دائما سجيئة فكرة معينة ، وهي أن ابنتها رهينة بين يدي آل كومبسون . وترتب على ذلك أن سلكت كوتنين مسلك أمها ، ومهما كان الشخص الذي هربت معه فإنه على أية حال يعتبر بمثابة أمل في أنها لن تترك وراثة رهينة عند آل كومبسون . وكما هي الحال بالنسبة لأمها ، فإن كوتنين تبحث عن أي إنسان يمنحها الحب . ومن خلال التركيز على هذا البحث اليأس عن الحب وخلال تعاطف دلس بالمقارنة مع كراهية آل كومبسون ، يتضح لنا في النهاية أن الفضل في الحب وانتصار الغرور هي التي تسببت في تدهور وتفتت بيت كومبسون . وما زال النقاد مختلفين ، لا على معنى هذه الرواية فحسب ، بل على قيمتها أيضا .

عندما أرقد محضرة

أجمع معظم النقاد على أن رواية فوكنر عندما أرقد محضرة « As I Lay Dying » التي كتبها بعد رواية « الصوت والغضب » هي أكمل وأنجح ما أنتج . وهي أبسط رواياته إذا تمكنا من ادراك خطتها التركيبية الأساسية . وتدور حول العلاقات الضاربة بين أفراد عائلة بنلرن Bundern الذين يعيشون في ضيعة فقيرة على أحد تلال مقاطعة يوكونا

تبدو على نقيض مسز كومبسون العصبية المزاج التي يعزى تحلل وتدهور العائلة الى فشلها في منح أطفالها الحب والحنان . ونجد أن دلس وحدها هي التي تحاول منح كودي بعض العطف الذي هو في ميسس الحاجة اليه . وترجع أهمية ذلك في كونه يجعلنا ندرك بشكل قوي أن ياس كادي يشكل صميم الرواية . وإن رواية « الصوت والغضب » هي في الواقع رواية كادي ومأساتها . أو كما قال فوكنر ، مأساة امرأتين ضائعتين هما كادي وابنتها كوتنين (التي تحمل نفس اسم خالها كوتنين الذي انتحر غرقا) .

ولقد أزعج تمزق الرواية من القراء ، ولكن ينبغي أن يأخذ في الاعتبار أن فوكنر لا يهتم بالقصة بشكلها بقدر ما يهتم ارتداد التفاعلات والانطباعات المختلفة للشخصيات المتعددة لزاء الأحداث نفسها ، وهل الأخص سلوك كادي قبل وبعد زواجها . وعلى الرغم من أن فوكنر لا يجعلنا داخل عقل كادي ، إلا أنها تصبح تدريجيا محور الرواية ، فهنا نجد اخوتها الثلاثة تستبدلهم أفكار سيئة تجاه أختهم ولكنهم يختلفون في سلوكهم تجاهها ، ولو أن الجميع يبدوون أنانية والتفكير فيها ينعكس عليهم شخصيا لزاء تصرفاتها . لأحد منهم قادر على التعاطف معها ومحبته ، بل الجميع يريدون أن يفرضوا عليها غطا صارما من السلوك لمصلحتهم الخاصة ، تلك المصلحة التي تسم بالأنانية . ولكن كادي ثور ضد هذه الصرامة وتعتبر عن

النقاد عادة على اختلاف وجهات النظر تجاه الأحداث في هذه الرواية ولكنها في بعض الأحيان تبدو مبالغاً فيها ومثيرة .

ولقد وجدت أدى المتوفة عزاء وانتقاما في الوقت ذاته في علاقتها بأبنائها . فهي تحب كاش أكبر أبنائها وهو يحبها ، ولا يعبر عن حبه عن طريق الكلام ، بل بالافعال وعلى الأخص بعنايته الفائقة بصنع كنفها والمجهود المصني الذي يبذله في سبيل ذلك وقوة احتماله . ولم تكن أدى تكن حبا حقيقيا لزوجها آنس عديم الشخصية ، وعندما ولد ابنها دارل Darl تنحصر غضبها فرفضته هو أيضا كما رفضت زوجها ، ولذا يشعر دارل بأنه بلا أم ، وهو غير متأكد من تمتعه بشخصية مستقلة ولا يجب امه ويحاول حرق كنفها ليلقى الرحلة الى جيفرسون . أما جويل Jewel ، الابن الثالث لأدى ، فلقد جاء الى الوجود نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه والاسقف وايتهد Whitehead . وبين الأم وابنها جويل حب عنيف متبادل لا يستطيعان الانفصال عنه . فهي تظل ترافق جويل في غرفة نومه حتى ينام ، ولا يجد جويل منفذا للتعبير عن حبه لأمه الا عن طريق حبه لحصانه .

وعرف دارل أن أخاه جويل ليس من صلب أبيه ، وذاب على مؤاله مستوحيا منه اسم أبيه الحقيقي ، وهذا سر كراهية جويل لدارل ، تلك الكراهية التي ظلت تتضج حتى بلغت ذروتها عندما أدخلوا جويل مستشفى الأمراض العقلية في جيفرسون . ولقد هاجمت ديوى دل أخاها جويل للسبب نفسه ، وهو الوحيد الذي يعلم

باتاؤفا . والموت المذكور في عنوان الرواية يتعلق بأدى Addie Bundern الأم التي انتزعت من زوجها آنس Anse وعدا بأنها عندما تموت فسوف ينقل جثمانها الى مدينة جيفرسون لتدفن هناك مع أقاربها . وتحدثت معظم الرواية عن رحلة العائلة الى جيفرسون بمصاحبة جثمانها والمخاطر المضحكة أحيانا والمرعبة أحيانا التي يتعرضون لها خلال الطريق حيث تمتزج اللهاة بالمأساة .

وتشتمل الرواية على ستين فصلا (أوقسا) ذات أطوال غير متساوية (أحد الفصول عبارة عن جملة واحدة هي « أمي سمكة » My mother is a fish وبها خمس عشرة شخصية ، وكل فصل يروى على لسان إحدى الشخصيات ، ومن خلال هذا السرد الذي تتبادل الشخصيات تسير الأحداث الى الأمام وتتكون الرواية . وكل حديث يتناول وجهة نظر الشخصية التي ترويه ، كما يدل على ذكاء تلك الشخصية ويصيرتها ومعلوماتها ، سبعة من الخمس عشرة شخصية من آل بندرن والباقي من جيرانهم وبعض الشخصيات التي تنضم اليهم في أثناء الرحلة . ومن المحتمل ان يكون دكتور بيودي Peeabody أكثرهم أهمية ، فهو الذي يتولى في بعض الأحيان مهمة الكورس أو المعلق على الأحداث ، بينما نجد أن أقلهم أهمية الصيدليني اللذين يتصرفان بطريقة مختلفة تجاه حمل ديوى دل Dewey Dell . ويثنى

قد استخدم ليروى نكتة مثل حكايات الأمريكيين الاوائل . ولغتها أصيلة تتحدى اعظم كتابات مارك توين ، وهى فى الوقت ذاته تشبه رواية « هكلبرى فن » - The adventures of Huckleberry Finn توين ark Twain . فى كونها رواية جادة . فى رواية « هكلبرى فن » تجرى أحداث رهيبة فى أثناء رحلة هكلبرى فى نهر المسيسيبي ليحرر جيم ، كما يحدث فى أثناء رحلة آل بندرن فى طريقهم الى جيفرسون ليحرروا أنفسهم من أذى بدفنها هناك . وفى الروايتين نجد الفكاهة والرعب تبعاً لتقاليد كتابة الواقعية الفكاهية فى حكايات الأمريكيين الاوائل . فالرعب واضح ولكن يتوازن مع الضحكات وتوكيد القيم الايجابية للانسان .

وقد يبدو بعض التشابه بين أفراد عائلة بندرن ككل فى رواية « عندما أرقد ميتة » وأفراد عائلة كومبسون العنسة فى رواية « الصوت والغضب » ، حيث تحتل أذى مكاناً يشبه مكان كادى ، وبينما لا تظهر القيم الايجابية فى « الصوت والغضب » الا فى نهاية الرواية عن طريق دلس الغريبة عن العائلة ، نجد فى رواية « عندما أرقد ميتة » ان هذه القيم تبرز من بين افراد العائلة عن طريق « كاش » الابن الذى يزداد ادراكه للعلاقات الانسانية عمقاً مطرداً خلال الرحلة .

الملاذ

تعتبر رواية « الملاذ » Sanctuary أكثر

انها حامل وأنها ترغب فى الذهاب الى جيفرسون لشراء دواء للاجهاض . وكانت الأم تقول انها منحت ديوى دل لزوجها فى مقابل جويل ! وانها منحتة ايضا الطفل الأخير فارامان ليحل محل جويل . ولقد احتار النقاد فى أمر فاردامان Vardaman ، وما أنه كان طفلاً صغيراً عند وفاة أمه فان وصفه لأمه بانها سمكة من الممكن ان يؤخذ على محمل هذيان اطفال .

كل هذه العلاقات التى تركز حول الأم التى جمعت شمل العائلة طوال حياتها بفضل قوة شخصيتها ، وما زالت تجمعها حتى بعد موتها ، يحاط اللثام عنها فى الرواية خلال الرحلة الى جيفرسون ، ولذا فتركيب الرواية يعتبر مركزياً وطولياً فى الوقت ذاته ، ويمكن مقارنة تحركها بحركة عجلات العربى وهى تدور فى أثناء سيرها .

فالحركة الطويلة هى الرحلة ذاتها وتعبر عن وصية الأم ، فهى التى أرغمت زوجها على تحمل مشاق هذه الرحلة على غير رغبته ، وهى انتصار للألم ، والرحلة ذات أهداف أخرى بالنسبة لبعض أفراد العائلة . فالابنة مثلاً ، تريد الذهاب الى جيفرسون لا لكى تدفن أمها هناك كسا أوصت ، ولكن للحصول على دواء للتخلص من الحمل ، والأب ليتزوج من امرأة جديدة ! ولو ان فكرة الزواج لم تكن تدور فى ذهن الأب قبل وصوله الى جيفرسون على ما يبدو ، فكانت الرحلة هى السبب فى زواجه !

ونموذج الرواية يبدو فكاهياً بالدرجة الاولى ، كما يبدو ان ذلك التركيب الحديث للمعقد للرواية

وربما تكون رواية « الملاذ » قصة بنو-Ben bow أكثر منها قصة تمبل دريك . فبنو أكثر الشخصيات ذكاء ، وتتطور الرواية تطوراً ثورياً بفضل سلوكه وأفكاره ، وقد يكون عنوان الرواية « الملاذ » تعبيراً مجازياً عن المثالية التي لم تخضع للاختيار لدى بنو ويظل محظوظاً بها حتى تنحطم في النهاية عند اتهام جودوين البريء واعدامه ظلماً والمعاملة السيئة التي عومل بها من الجماهير . ولكن المعنى الأكثر احتمالاً الذي تفرضه الرواية قد يكون التعبير عن التقاليد العريقة النقية لنساء الجنوب الأمريكي وتمتع تمبل بالحماية التي يضيفها عليها انتماءها لعائلة ذات ثروة وقوة استطاعت ان تلوذ بها في نهاية القصة .

والفكرة المسيطرة على بنو بالنسبة لنموذج من نساء الجنوب ، وهي « بل الصغيرة » تهمله يضع كل أمله في أثناء عاصفة جودوين في نموذج آخر يتمثل في تمبل دريك ، وعدم اسرعه بمقاطعتها عند ادلائها بشهادتها في أثناء المحاكمة يعتبر دليلاً على عدم تهمسه للاعتقاد بأن نساء الجنوب من الممكن ان يتخلين عنه ويتركنه يواجه كارثة .

وعلم ادلاء تمبل بالحقيقة واليمين الكاذب الذي أقسمته في المحكمة ، والذي يسببه حكم بالاعدام على جودوين يعبر عن تجرد المجتمع الراقي من الانسانية في مدينة جيفرسون كما يبدو على الأخص في طريقة معاملتهم لروبي ، حتى رجال القانون انفسهم لم يسلموا من هذه الوصمة ، فان امتناع تمبل عن الادلاء بالحقيقة

روايات فوكر شهرة وشعبية ، وهذه الحقيقة جعلت النقاد الجاديين يغمطون قلدها ويقللون من شأنها . ولقد اعتبر بعضهم العنف في الرواية أكثر من اللازم وإن لغتها متكلفة ، وشجعهم على هذا الاتجاه في التفكير وليم فوكر نفسه الذي قال في إحدى طبعات هذه الرواية : « ان فكرة هذه الرواية رخيصة ولم يدفعني لكتابتها سوى الحصول على المال » . ولقد قال فوكر انه اعتنى بمراجعة الرواية قبل تقديمها للنشر . ويبدو ان هذه المراجعة كانت دقيقة وإن الرواية في صورتها المنشورة تعتبر ناجحة ولو انها ليست من الأعمال العظيمة لفوكر . فهي الى جانب مشاهد الرعب والعنف تحسّو على بعض الأحداث الفكاهية التي تعتبر من أجمل ما كتب فوكر . فتبادل العنف مع الفكاهة التي تضفي عليها طابع الميلودراما دفعت عديداً من النقاد الى اعتبار الرواية ذات نمط رمزي ، فلقد قال عنها الناقد أودونل O'Donnell عام ١٩٣٥ ما نصه : « ان النمط الرمزي ببساطة هو فساد نساء الجنوب الأمريكي ولكنه فساد لا يتسم بالدنس » . ويبدو هذا التفسير دقيقاً ولكنه لا يعكس مسائل العدالة والذنب التي تظهر في نهاية الرواية ولا تتفق مع شخصية هامة مثل شخصية روبي لامار المرأة الساقطة التي أصبحت زوجة جودوين ، فان روبي بصبرها وشجاعتها وحبيها العميق لجودوين تعتبر واحدة من بين الشخصيات القليلة التي تدعو الى الإعجاب في الرواية ، وينبغي ان نحكم على تمبل دريك بمقارنتها بروبي ، مع الأخذ في الاعتبار ان روبي نشأت من طبقة وضعية المستوى بينما تنتمي تمبل الى الطبقة الارستقراطية .

معروضه من وجهة نظر تميل . وعلى الرغم من جمال كل فصل من فصولها على حدة ، إلا أنها ككل لا تعتبر ذات أهمية كبرى ، وتجمع الرواية بين السرد والمشاهد المسرحية .

ضوء في أغسطس . Light in August

نشرت هذه الرواية عام ١٩٣٢ ، وهي من أعمال فوكسز العظيمة . هي قصة رجل لاجئ له في مجتمعه لأسباب فرضها عليه القدر ولا يد له فيها . يشعر بوحدة رهيبة ويبحث في يأس عنيف طوال حياته عن مكان في المجتمع وعن معنى لشخصيته . ولكي يروى فوكسز تلك التراجيديا ذات القلب الحديث فلقد استخدم خبرته التي حصل عليها من كتابة رواياته التجريبية السابقة لإنشاء عمل أدبي تقليدي سواء في تركيبه أو في عرضه للحقائق الاجتماعية . وفكرة الرواية معقدة وأحداثها غير مترابطة وليست مرتبة ترتيباً زمنياً ، وتتضمن فترات عديدة من الرجوع إلى الماضي - Flash-backs ولا توضح لنا كيف كان « كرسماس » بطل الرواية ، في لحظة وفاته ، كما يوجد شك فيها إذا كان ، بعد ارتكابه الجريمة ، قد قبض عليه يوم الجمعة أم يوم السبت .

ويمكن تلخيص الأحداث الخارجية لهذه الرواية فيما يلي : « لينا جروف » فتاة ريفية من ولاية ألاباما تأتي إلى مدينة جيفرسون لتبحث عن « لوكاس بيرتس » والد طفلها الذي ما زال في أحشائها . وتتقابل مع « بيروت بنش »

قد فرضته وارغمتها عليه عائلتها ، ويبدأ القاضى دريك نفسه مثل الآخرين غير مهتم بالعدالة .

فعلى الرغم من براعة جودوين ، فلقد صدر ضده حكم بالاعدام ، حكم ظالم من قضاة فاسدين ، ولم يجهلوه لكي يعلم بالطريقة القانونية ، بل انقض عليه الدهماء وقتلوه ، هؤلاء الدهماء الذين امتزج غضبهم بالحدس الجنسي . وفي نهاية الرواية يركز المؤلف على فساد المجتمع بأسره وعلى الفكرة الرئيسية للذنب والعدالة والثواب والعقاب . ولكن هذه الأشياء لم تستكمل تطورها في هذه الرواية كما استكملته في رواية « قداس لراهبة » - Re-
quiem for a Nun التي كتبها فوكسز فيما بعد ، عام (١٩٥٠) . تظهر تميل دريك في هذه الرواية أيضاً ، ويلاحظ في عديد من روايات فوكسز أن الشخصيات تعاود الظهور في مراحل مختلفة من أعمارهم وكأنها ملحمة واحدة متصلة تقع أحداثها في مقاطعته الخيالية يونكاتاوا ، ولو أنها تختلف اختلافاً جوهرياً عن الروايات التي تتناول تاريخ حياة الأجيال المختلفة في عائلة واحدة ، إذ لا يمكن مقارنتها ، مثلاً ، برواية « عائلة بودنبوك » - Buddenbrooks للكاتب الألماني توماس مان ، أو رباعية الاسكندرية للورانس داريل الانجليزى ، إذ أن كل رواية من روايات فوكسز تبدو كوحدة مستقلة .

ورواية « قداس لراهبة » تبدو فيها تميل دريك وقد تزوجت وأصبح لها طفلة ، ولكننا لا نعلم شيئاً عن ظروف زواجها ، والرواية

ان يقول للناس انه زنجي . وعندما يكون بين الزوج بصر على أنه أبيض ، وهو بذلك لا يعرف الراحة والاستقرار ، فهو يتذبذب بين البياض والسواد باحثاً عن ذاته عن طريق أحداث العنف التي تتميز بها حياته . ومعظم هذه الاحداث تتعلق بالتقاليد التي تسود المجتمع ، وعلى الأخص بالأذى والضرب الذي كان يعانيه من والده بالتبني « ماك إيتشن » الذي كانت تصرفاته تتسم بعدم المرونة . والعقاب الذي كان يوقعه على كرسماس يجعلنا نستنتج نوعية شخصية ذلك الاب . اما كراهية كرسماس للنساء التي تطورت الى اشتزاز منهن ف يرجع الى نظرتهم الى الثواب والعقاب نظرة عاطفية تجعلهم يشفقن على من يستحق العقاب فيتلاشى الحد الفاصل بين الثواب والعقاب ، حيث كان يكافأ على شيء يتوقع العقاب عليه . وشفقة أمه بالتبني ، مش إيتشن ، تؤكد هذا السلوك ، فهي لاتقبله كما هو ولكنها كانت تحاول ان تحمله على السلوك الذي يتفق مع التقاليد . وفي النهاية ، من خلال علاقته بمس بيردن التي كانت في بعض الاحيان علاقة جنسية ، لم تنس انه زنجي . ولذا فلقد نظرت الى هذه العلاقة على أنها جريمة لاتغتفر . وعندما توقفت هذه العلاقة الجنسية اصرت على أن يختار جوكرسماس الوضع الاجتماعي كزنجي . بالحاقه بكلية للزواج وسهم معها في خطة لرفع مستوى الزواج ، فيدفعه ذلك الى مواجهة عنيفة عندما تحاول قتله فيقتلها .

وهذه المواجهة العنيفة التي تؤدي الى تحرر كرسماس من مس بيردن هي السبب المباشر

الاعزب الخنوع عديم الهمية الذي يقع في غرامها ويرعاها حتى تضع طفلها . ويتطابق قدومها مع اكتشاف جريمة مقتل مس بيردن التي تعيش وحيدة منزلة عن العالم والتي تنتمى الى أسلاف من ولاية نيوجلانلند مؤيدين لبدأ منع الاسترقاق . واتهم بقتلها شخص يدعى جوكرسماس الذي كان الجميع يعتبرونه أبيض ، ولكن أحد معارفه السابقين ، وهو لوكاس بيرتس يعلن ان الدم الزنجي يجري في عروقه فيطاردونه على أنه زنجي ويقبض عليه بعد أسبوع من البحث عنه في مدينة « موتستاون » Mottstoun ويعودون به الى جيفرسون حيث يهرب ويهرب الى منزل قس موصوم بالعار يدعى « هايناور » حيث يقتل بطلق ناري ، ويخصى بواسطة ضابط متعصب من الحرس الوطني يدعى « بيرسي جريم » Percy Grimm . ووضعت لينا طفلها في هذه الفترة . وعندما يهجرها بيرتس ترك جيفرسون ويصبحها الشخص المخلص بيرون بنش .

وقصة جوكرسماس تشكل محور الرواية وتعرض حياته على هيئة فترات رجوع للماضي تستغرق سبعة فصول . ولقد أطلق عليه هذا الاسم في ملجأ اللأيتام بمدينة ممفيس ، وظل طوال حياته تسيطر عليه فكرة معينة ، وهي ان أباه قد يكون الدم الزنجي يجري في عروقه . ولا يستطيع هو أو نحن التأكد من ذلك الأمر ، ولا يدري هل يتصرف تجاه المجتمع كرجل أبيض ام زنجي ، فهو يبدو أبيض اللون والمجتمع على استعداد لتقبله بهذا الوضع ولكنه يضطر مرارا

ومولد طفل لينا يعتبر بؤرة العناصر الإيجابية بالرواية ، حيث تمثل لينا الحياة بينما يمثل كرسماس الموت . ويزداد تأكيد ذلك عندما تخلط جثة كرسماس بين طفل لينا وحفيدها كرسماس الذي لم تره منذ كان طفلاً . ويؤكد أنه أيضاً استقرار طفل لينا في المكان نفسه الذي ماتت فيه مس بيردن وتعليق هايتاور على ذلك بقوله : « مسكينة هذه المرأة . . لو عاشت أسبوعاً آخر حتى ترى عودة الحظ الحسن إلى هذا المكان ، حتى عودة الحظ والحياة إلى هذه البقعة الحزينة » . كما أن وجود الطفل يبقظ حساسية هايتاور لجمال الدنيا ، كما أن بيرون الذي حل محل والد الطفل تعفى ولادة الطفل بالنسبة له نهاية عزله .

وتعتبر شخصية لينا إلى حد ما شخصية كوميدية حيث تمثل الفكاهة الرقيقة . وهي تمثل بعداً من أبعاد ثراء الرواية لتظهر المعنى الشامل لها . ويقول مالكولم كاوى أن عنوان الرواية : « ضوء في أغسطس » جملة ريفية تشير إلى حمل لينا ، وتشير أيضاً إلى النور والظلام اللذين يتعاقبان طوال الرواية وإلى الأضواء الأخلاقية التي يشعر بها كل من كرسماس وهايتاور في النهاية . وترمز لينا وطفلها إلى صفات الحياة الطبيعية : الحسوبة والصبر وقوة التحمل . ولقد قصد فوكتر بعرضه شخصيات من أمثال دوك هينز Doc Hines ومالك ايتشرن Mc Eachern ومس بيردن ويسرس جريسيم وهايتاور (قبل يقظته) ، توجيه نقد مر للفكر الروحي واللا انسانية الدينية لجنوب الولايات المتحدة . وقصة هايتاور في الرواية ، الرجل

الذي جعل المجتمع يعامل كرسماس كما يعامل القنطة الزوج . ومحاولة كرسماس التحرر من قدره الذي يدور في دائرة مفرغة تصاب بالاحباط وخيبة الأمل مراراً تبدو واضحة عندما كان مسافراً في عربة للزواج متجهة إلى صوتستاون ليسلم نفسه .

لم يكن يطمح جوك كرسماس في أكثر من الاستقرار والهدوء ، ولكن السلام كان الشيء الوحيد الذي لن تسمح له به بيته . لا بد أن يظل يجري لاهثاً في دائرته ، وهو كما يؤكد فوكتر في الرواية ، ليس شريفاً ولكنه ضحية من ضحايا الوراثة التي فرضها عليه القدر ونسوع التربية التي أتيت له والمجتمع بشكل عام . والصور المسيحية التي أحاط فوكتر كرسماس بها ، وعلى الأخص في لحظة وفاته لا يقصد بها تصوير كرسماس في صورة المسيح ولكن لإبراز دوره كضحية .

ولا يمثل كرسماس الصفات الإيجابية للرواية ، ولكنه يمثل مأساة الضحية التي لا حول لها ولا قوة حيث تخضعه قوى لا سلطان له عليها . ولقد استخدم فوكتر ليناجروف كإطار يحوى قصة كرسماس ، حيث تبدأ بها الرواية ثم تنتهى بها . تبدأ الرواية بلينا جروف التي غرر بها شخص بعد أن وعدّها بالزواج ، ولكنه اختفى . ونرى لينا في بدء الرواية وهي مسافرة للبحث عن هذا الرجل الذي تعتقد أنه في مدينة جيفرسون حيث التحق بعمل هناك ، وتنتهي بلينا بعد أن عطف عليها شخص آخر وعدها بالزواج ولكنه هو أيضاً اختفى .

بيلون Pylon

الرواية التي كتبها فوكنر بعد «ضوء في أغسطس» هي «بيلون» وتعتبر بعد رواية «البعوض» Mosquitoes، أضعف رواياته . فلقد خلت من التماسك وابتدت مفككة ، ويشعر قارئها بتوتر ذهني . وتبدو الرواية مكونة من عناصر جمعت مع بعضها دون أن تندمج معا . ولقد أعيد طبع هذه الرواية عدة مرات في إنجلترا ، لاجودتها ، ولكن للمواقف الجنسية التي تتخللها مع رداءتها من الناحية الفنية . وتبدو هذه الرواية كالقزم بالنسبة للرواية التي سبقتها وهي «ضوء في أغسطس» والرواية التي كتبها فوكنر بعدها وهي «أبسالوم ، أبسالوم !» ، إنها قزم بين عملاقين .

أبسالوم ، أبسالوم !

يعتبر بعض النقاد رواية «أبسالوم ، أبسالوم !» Absalom Absalom أعمال فوكنر على الإطلاق ، ويحتل مركزاً ممتازاً لم يشهده الأدب الأمريكي منذ رواية «أجنحة الحمامة» Wings of Dove التي كتبها هنري جيمس . وتعتبر لغة الفصل الأول من الرواية أصعب ما في الكتاب ، وهو يشبه الأسلوب الاليزابيثي في تعقيد وورعته وشرائه ويسرى في جوفاته عنيف ميلودرامي . كما تبدو الأحداث فيه غامضة ، ويحمل إشارات

الذي انبثق من الجمود إلى الحياة ، قد تكون أوضح مرشد لكل ما يريد أن يقوله فوكنر في روايته .

ولقد تغيرت حياة «هايتاور» Hightow-er تغيراً جذرياً بقدم كرسامان ولينا جروف ، هذين الغربيين اللذين قدما إلى جيفرسون وأظهرا بقدمهما أسوأ وأجمل ما في سكانها . ونلاحظ أن الفصل الذي خصصه المؤلف لسرد تاريخ هايتاور موضوع قرب نهاية الرواية ، قبل انقضاء الإطار الذي يحيط بلينا وبيرون .

ولقد استخدم فوكنر هايتاور عدة مرات كملتق ذكي ، وفي هذا الفصل نجد أن فوكنر قد عرض لب موضوع الرواية ، تأثر هايتاور تأثراً عميقاً بالماضى وعمل الأخص فيما يتعلق بمصرع جده برصاصة أطلقت عليه في أثناء الاغارة على المحلات التجارية بمدينة جيفرسون ، ولقد أمده هذا الحادث بمناعة ضد المشاعر البشرية ، مثل ما حدث لزوجته التي تسبب في انتحارها ، ومع ذلك فلقد ذهب هايتاور إلى لينا جروف وحاول انقاذ حياة كرسماس عندما أقسم هايتاور كذبا ، بأن كرسماس كان موجوداً بمنزله في الوقت الذي ارتكبت فيه الجريمة ، لقد أدرك ضرورة توافر المحبة والاسهام في صنع اقدار الآخرين ورفض الجمود . وهو في الواقع رفض ماضيه وجميع الذين تسببوا في عذاب كرسماس ، هؤلاء الذين عجزوا عن الاستجابة إلى حاجته كإنسان وارادوا بدلا من ذلك توافقه مع السلوك المتلاطم مع طبقته الاجتماعية .

أبيه تشارلس بون لمنعه من أن يتزوج اختها جوديث ، وأنه في عام ١٨٦٩ قتل ستين ، والذي قتله شخص ابيض فقير يدعى واش جونز Wash Jones اغتصب ستين ابنته ميل Milly . كل هذه الحقائق لاشك فيها ، ولكن الذى يظل عرضة للشك هو المعنى العميق لهذه الاحداث وتسلسل الاسباب والتأثيرات التي تجمعها معا .

ونحن الرواية بثلاثة تفسيرات لهذه الاحداث ، تفسير على لسان روزا كولد فيلد أخت الين الصغرى التي عاد اليها ستين في شيخوخته بعد قضاء أربع سنوات في الحرب الاهلية حيث وجد مزرعته وعائلته وقد أصبحت انقاضا . ولقد عرض ستين على روزا زواجا مشروطا بضرورة ولادتها لابن الذي هو في حاجة اليه . وتفسير ثان عن طريق المستر كومبسون والد كوتنين ، وهو ابن الجنرال كومبسون الذى كان الصديق الوحيد لستين . والتفسير الثالث على لسان كوتنين نفسه الذى يقصه على صديقه الكندي شريف في غرفتها في مساكن جامعة هارفارد قبيل اقدمه على الانتحار الذى قرأته في رواية « الصوت والغضب » . ومن الظواهر المجيبة في روايات فوكز ان بعض الاشخاص تتكرر فيها وهم في أعمار مختلفة . وتفسير روزا الذى نقصه علينا في هذه الرواية ويستغرق معظم الفصل الاول والفصل الخامس بأجمعه طابعه الرعب . اما رواية كومبسون

لكوارث سوف تحدث وأشياء غامضة حدثت في الماضي ، ولكن تنضح الامور تدريجيا ، وعندما يتضح نسج الرواية فانه يظل واضحا ولا يبقى مجال للغموض ، ولو ان الاحداث تتأرجح وتبدو كل مرة في ضوء جديد وتزداد ثراء ، ويبدو ذلك في اوضح صورة عند انهيار منزل ستين Sutpen ، اذ أنه في هذا الموضع تحمل الرواية ثقل تراجيديا كوتنين كومبسون^(٤) ، وهي انتحاره الذى نقرؤه في رواية « الصوت والغضب » والبيئة الأساسية التي تحكى من خلالها قصة « ايسالوم ، ايسالوم ! »

وكوتنين في هذه الرواية هو الوسيط الذى نسمع منه أصوات أناس غائبين وموتى . ومن خلال كوتنين ونخيل شريف Shreve ، رفيق غرفته في المساكن الجامعية هارفارد يتجسد التركيب الشاعرى للرواية . والتركيب شاعرى لأن الرواية لاتمدنا بمعلومات مقطوع بصحتها عن حقيقة توماس ستين .

ونعلم من البداية ان ستين جاء الى مدينة جيفرسون من مكان غير معروف في يوم من أيام شهر يونيو ، في يوم الأحد عام ١٨٣٣ وشرع في انشاء مزرعة مساحتها مائة ميل مربع يطلق عليها اسم « مائة ستين » ، ابتاعها من الهنود المحمر . وفي عام ١٨٣٨ تزوج من الين كولدفيلد ابنة تاجر محترم من أهل المدينة ، وفي عام ١٨٦٥ قتل هنرى (ابن ستين) اخاه من

(٤) ذكرنا ان بعض شخصيات فوكز يتعدد ظهورها في رواياته المختلفة ، وفي هذه الرواية تظهر مرة أخرى شخصية كوتنين التي ظهرت في رواية « الصوت والغضب » .

أبسالوم ! » تختلف عن هاتين الروايتين اللتين سبقتهما في أشياء عديدة هامة ، وهي تقابل جميع اجزائها واتجاهها نحو رواية مركزية بدلا من عرضها على هيئة اجزاء منفصلة . فهي هنا متداخلة في نسج واحد مترابط ومتناسك . فأجزؤها الثلاثة التي يرويها ثلاثة رواة تتداخل وتتطابق جزئيا وتعارض وتتوافق ، وكل منها يضيف قيمة على الاجزاء الاخرى ، وتلدور التعليقات الثلاثة نحو الموضوع المركزي للرواية . وقد تحمل الرواية بين ثناياها معنى صعبا كتابة التاريخ ، اى تاريخ ، واستحالة معرفة الحقيقة وتطور الأسطورة ، وكيف تنمو فكرة بسيطة في ذهن الفنان لتصبح عملا جديلا رائعا . وربما تكون هذه الرواية قد نبتت من قصة بعنوان « واش » كتبها فوكزر عام ١٩٣٤ التي تنطوي على بذرة رواية « أبسالوم ، أبسالوم » ، حيث تطورت الفكرة في ذهن فوكزر تدريجيا لتصبح هذه الرواية العملاقة .

والرواية تؤخذ من وجهة نظر واش اكثر منها من وجهة نظر ستين . والخطأ الذي وقع فيه ستين يكمن في محاولته اتخاذ آدميين من لحم ودم كوسائل لتحقيق فكرته . وسقوطه كرجل يرجع الى اعتبار آدميين ، حتى افراد عائلته ، مجرد ادوات لتحقيق غرضه . وسقوطه كرجل من الجنوب يرجع الى رفضه الشطر الى الزنوج كأدميين . وخطا الرواية مندبجان معا ، ولذا فان الحادث التراجيدي في قلب الرواية هو قتل هنرى لآخيه من أبيه تشارلس يون ، ذلك الحادث الذى ادهش غيلة كونتين مرارا وتكرارا ، ما هو سوى نتيجة رفض ستين

للأحداث فتشغل عدة فصول ابتداء من الفصل الثانى حتى نهاية الفصل الرابع ، وهو اكثر موضوعية وتعقلا من حديث روزا ، ولكنه يغالى في الاتزان ويقول ان موت تشارلس يون يدلوه بلا تفسير .

أما القسم الأخير من الرواية (من الفصل الخامس حتى النهاية) فهو محاولة من كونتين وشريف لتجميع الأحداث والشخصيات غير العادية في قصة ستين واستخلاص معناها . ويبدو كونتين كبوليس سرى عبقري يعيد بناء الرواية ويستنتج دوافع الأحداث ويتوصل الى حقيقة شاعرية معينة فيها يتعلق بموت هنرى ستين وتشارلس يون ، حيث ان استنتاجاتها مبنية على معلومات أكثر اكتمالا من معلومات روزا وكبسون وأقرب الى الحقيقة ، وتلقى بذلك ضموها على شخصيتي المتحدئين السابقين . فحديث روزا مركز على علاقة ستين بالنساء . بينما يتركز حديث كومبسون على علاقة ستين بمجتمع جفرسون والجنوب بوجه عام . اما حديث كونتين وصديقه شريف فمركز على علاقة ستين وتشارلس وهنرى وجوديث ، وينبثق من ذلك الضيق والمرارة التي تشعر بها روزا . وبهذا تعتبر رواية « أبسالوم ، أبسالوم » ! دراسة للشخصيات التي ذكرتها روزا والتي ذكرها كمبسون وشريف ، حيث يتضح تفاعلهم هم الثلاثة تجاه الأحداث نفسها . والى هذا الحد فان رواية « أبسالوم ، أبسالوم » تسير على الخط التجريبي نفسه الذى تسير عليه رواية « الصوت والغضب » ورواية « عندما أرقد ميتة » . ولكن « أبسالوم ،

« الصوت والغضب » ، و « عندما أرقد ميتة » و « ضبوء في أغسطس » و « أبسالوم » ، أبسالوم ! « وثلاث روايات أقل منها أهمية » وهي : « سارتورس » و « الملائكة » و « ييلون » التي مازالت آراء النقاد متباينة تجاهها . لقد كان فوكنر في تلك الحقبة في ذروة خصوبته . وبعد روايته « أبسالوم » ، أبسالوم ! « اختلفت روايات فوكنر في قيمها الى درجة كبيرة ، ولكنها تشترك جميعا في عدم توافر الاتصال التركيبي الذي يتوقعه الانسان في أية رواية من الروايات . وإذا كان فوكنر قد فسد في روايته « أبسالوم » ، أبسالوم ! « ادعاءات النقاد من عدم قدرته على تمييز التأثيرات التركيبية فان معظم أعماله التالية أكدت ان النقاد ربما كانوا على حق ، فلا تعتبر أية رواية من هذه الروايات ناجحة ككل ، ولكنها تتضمن بعض كتابات فوكنر الجميلة في اجزاء منها ، مثل الاجزاء الخاصة بالرجل المجوز في كتابه « النخيل البري The Wild Palms » ، وقصة « الدب » و « سروال أسود » في كتاب « اهبط ياموس » - M. Go down oses حيث توجد علاقة بينها وبين القصص القصيرة لفوكنر . وروايته « التي لا تقهر » The Unvanquished و « اهبط ياموس » ذات وحدة داخلية تجعلنا نعتبرها روايات ولو أنها تتكون من قصص منفصلة .

ولقد نشر فوكنر نحو خمس وسبعين قصة قصيرة بدأت عام ١٩٣٠ بقصة « وردة لأميل » ، A rose for Emily ، وهي أشهر قصصه القصيرة ، نشرها عام ١٩٥٠ ، في مجموعة تحتوي على ٤٢ قصة من بينها العديد من القصص

الاعتراف بأبنة تشارلس بون الذي أنجبه من امرأة تحرى في عروقتها نسبة ضئيلة من الدم الزنجي ، وهجر ستين لوالدة هذا الابن . ولم يكن هذا الابن يطعم في أكثر من اعتراف أبيه بينوته ، ولكن اصرار والده ستين على الرفض يعرض صورة لاختفاق الجنوب في الاعتراف والتكيف لذلك الطلب المتواضع من الابن ، وهو الحد الأدنى لما يمكن ان يطلب به آدميون لاذنب لهم سوى وجود بعض الدم الزنجي في عروقهم في مجتمع لا يريد ان يعترف بأدميتهم .

ولقد كان ستين يزوج تحت وطأة عقدة تأسلت في أحماق نفسه عندما كان صبيا أبيض فقيرا ذهب الى منزل أحد الاغنياء ليقدّم له رسالة ، ففتح له الباب خادم زنجي رفض ان يتسلم منه الرسالة وأوصد الباب في وجهه ، ولكن ستين ، فيما بعد ، نسي أنه هو نفسه اتخذ هذا الموقف العنيف عدة مرات تجاه واث جونس وابنته التي اعتدى عليها وتجاه ابنة هنري ، وفوق هذا كله تجاه تشارلس الذي رفض بنوته .

قصص فوكنر القصيرة ورواياته

ذات الأحداث المربطة

تختتم رواية « أبسالوم » ، أبسالوم ، فترة في حياة فوكنر الأدبية ، وتبلغ ذروة انتاجه في السنوات السبع الواقعة بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٦ عندما نشر فوكنر الى جانب ديوان من الشعر ومجموعتين من القصص القصيرة ، أربع روايات تعتبر من أعظم انتاجه وهي :

وقصة « اوراق حمراء » تروى قصة رجل من الهنود الحمر كان من عبيد أحد رؤساء الهنود الحمر ، ويهرب العبد عقب موت سيده ولكنهم يطاردونه ويقبضون عليه ليموت ويدفن مع سيده في القبر نفسه . وفي قصة « عدالة » التي تروى على لسان « سام » وهو زنجى يجرى في دمه دم الهنود الحمر ، يروى قصته لكوتتين كمبيسون عنلما كان صبيبا . (وتظهر الشخصيات في أكثر من رواية في أعمار مختلفة يضى على الروايات جوا من الواقعية الشديدة) ، وتحمل القصة سمات فكاهة الجنوب الأمريكى ، ولكن فوكنر لا يحكيها بل اللهجة العامية التي استخدمها مارك توين بذلك في روايته « هكلبرى رفن » . ولوان اللهجة العامية تظهر في قصص أخرى لفوكنر مثل قصة Fool about a horse والطبعة الاولى لقصة « الخيل المنقطعة Spotted Horses » .

وتعتبر قصة « وردة لا يميل » ، كما ذكرنا ، أشهر القصص القصيرة لفوكنر ، ولكن تركيز النقاد على هذه القصة من شأنه ان يجعلهم يتجاهلون قصصا قصيرة أخرى لهذا المؤلف لاتقل عنها مستوى ، مثل قصة « سبتمبر الجاف » التي لاقت من اهتمام النقاد أقل مما تستحق . ويوجه عام ، نجد ان فوكنر يكون في أحسن حالاته وفي أروع مستوياته في القصة القصيرة لا في الرواية كما قد يتصور الكثيرون . فهي أقل غموضا وأكثر سلاسة في أسلوبها من رواياته ولا تجهد القارئ أثناء قراءتها . وعلى الرغم من بساطتها نجدها قوية التركيب خالية من التكلف في أسلوبها .

التي نشرها في مجموعات سابقة بعد اجراء بعض التعديلات عليها . كما نشر رواية القرية The Hamlet عام ١٩٤٠ ، ورواية « المدينة » عام ١٩٥٧ ، و « المنزل القديم - The Man-sion » عام ١٩٥٩ . وقصص فوكنر القصيرة رفيعة المستوى بوجه عام ، وبعد بعضها ضمن القصص العظيمة لهذا القرن . وبعض قصصه القصيرة كانت نواة لبعض رواياته ، فلقد ضمن قصة « واث » في روايته « أبسالوم » ، « أبسالوم ! » بعد أن قام بتنميتها ، وقصة « شرف » Honor في رواية « بيلون » . والاحداث والشخصيات والمشاهد التي تكون مركز أحد أعماله تعود للظهور على حافل عمل آخر فتترى معنى الرواية او القصة التي لم يكونوا فيها سوى أجزاء صغيرة ، وهو الشيء الذي يجعلنا نشعر بثرأ بقعة جغرافية صغيرة اختارها مسرحا للأحداث ، وهي مقاطعة يوكنا باتاوا الحياالية .

وتحوى قصص فوكنر من الشخصيات والاماكن أكثر مما تحوى رواياته ، وتقع معظم احداثها في مقاطعة يوكنا باتاوا . ففي مجموعته القصصية « هذه الثلاثة عشر » these 13 ، وهي من أجل مجموعات فوكنر القصصية ، نجد أن قصة « اوراق الحمراء » Red Leaves وقصة « عدالة » A Justice يحكيان قصة هنود حمر كانوا في مقاطعة يوكنا باتاوا قبل قتلوم الانسان الأبيض الى أمريكا ، بينما نجد أن قصتي « وردة لا يميل » و « سبتمبر الجاف » Dry September تقع أحداثهما فيجيفرسون عاصمة مقاطعة يوكنا باتاوا .

التي لاتنقهر The unvanquished

كتب فوكزر كتاب « التي لاتنقهر » بعد رواية « أسالوم ، أسالوم ! » . والكتاب في الواقع عبارة عن سلسلة من القصص القصيرة ، ولكننا نجد في الكتاب استمرارا للشخصيات والمواقف التي نجعلنا نعتبره رواية ، ولو أن غط القصة الأخيرة في هذا الكتاب يختلف اختلافا مغلجنا عنه في القصص التي تسبقها ، وتعتبر هذه الرواية من أكثر روايات فوكزر تفككا في تركيبها وعدم ترابطها ، ولو أنه من الأصوب ان يبدأ قارئه فوكزر بقراءة هذه الرواية ، إذ تبدو فيها لمسات وتحتوى على شخصيات تظهر في معظم روايات فوكزر ، مما يجعل القارئ مهيا لقراءة باقى رواياته التي تدور أحداثها في مقاطعة يونكاتاتاونشا . وهي في هذا تشبه رواية « سارتوريس Sartoris » ، ولو أن رواية « التي لاتنقهر » تعتبر أقل جاذبية وأقل أهمية من « سارتوريس » ، ولكن بما لاشك فيه انها أكثر الروايتين إثارة ، وتقع أحداثها في أثناء وعقب الحرب الاهلية مباشرة .

التخيل البرى The wild palms

كتب فوكزر رواية « التخيل البرى » عام ١٩٣٩ ، بعد كتابته لرواية (أو مجموعة قصصه) ، « التي لاتنقهر » ، وتقف منفردة بين جميع كتب فوكزر ، وتمثل العلاقة بين القصص القصيرة لفوكزر ورواياته .

ويمكن وصف كتاب « التخيل البرى » بأنه رواية مزدوجة ذات فكرتين منفصلتين ، قصة تحمل عنوان الكتاب وقصة أخرى بعنوان « الرجل العجوز » تتبادل فيها الفصول فصلا بعد الآخر ، أي نجد فصلا من التخيل البرى ثم يتلوّه فصل من رواية « الرجل العجوز » ، وهكذا بالتبادل حتى نهاية الكتاب .

وتدور أحداث قصة « التخيل البرى » حول هارى ولبورن ، وهو طيب شاب ، وشارلوت رتسمايير Charlotte Rittenmeyer . وشارلوت متزوجة ولها طفلان ولكنها تهجر كل شيء وتترك أولادها في سبيل الحب ، متحذية بذلك تقاليد المجتمع ومظاهر الاحترام ، ويساوجان بكارثة عندما يحكم على هارى بخمسين عاما في السجن بسبب قيامه باجهاض شارلوت التي تموت نتيجة لهذه العملية الفاشلة .

اما قصة « الرجل العجوز » فتدور حول أحد المجرمين الذي أرسل في قارب في مياه طوفان عنيف لنهر الميسيسي لانقاذ امرأة فوق شجرة وسط الطوفان ، وانقاذ رجل من فوق سقف محلج قطن . ويعثر المجرم على المرأة ، وهي حامل في ثمانية شهور ، ولكن قبل عثوره على الرجل تقذف به مياه الفيضان خلال سلسلة من المخاطر العنيفة ، مثل أمواج المد والمصارعة مع التماسيح . وتضع المرأة مولودها في بقعة مليئة بالثعابين ، ويعد عدة أسابيع يعود الرجل الى المكان الذي بدأ منه ويسلم نفسه قائلا : « ها هو زورقكم وبها هي المرأة ولكنني لم أتمكن من انقاذ ذلك الوغد الذي فوق المحلج » .

اهبط ياموسى Go down Moses

أما كتاب « اهبط ياموسى » الذى نشر عام ١٩٤٢ فلقد أصبح موضع اهتمام النقاد ، وليس هذا لقيمة الكتاب من الواجهة الفنية ولكن لأهميته بالنسبة لتطور أفكار فوكتر الاخلاقية والاجتماعية . وقصة « الدب » التى يتضمنها هذا الكتاب كانت موضع نقاش وتحليل عدد من النقاد ، وهى من أشهر أعمال فوكتر ، ولقد نشرت في بادئ الامر في صحيفة « ستردي ايكتنج بوست » ، ولكنه أدخل عليها عدة تعديلات عند نشرها في كتاب « اهبط ياموسى » . وتدور القصة حول مطاردة دب يشبه تلك المطاردة للوحوت في كتاب « سوى ديك » لهرمان ملفيل ، ومطاردة السمكة العملاقة في رواية « العجوز والبحر » لهمنجوي . فنجد أن الدب هو دابة رمزية في القصة ، فهو يرمز الى البرارى التى تدور في ذهن فوكتر ، افكار عن الحرية والشجاعة والذكاء الفطرى . وعندما يموت الدب فان سام ، الذى يطارد الدب ويقتله يموت هو أيضا .

ولكتاب « اهبط ياموسى » فكرتان أساسيتان ، فكرة العلاقة بين البيض والزنوج ، وفكرة تدمير البرارى . وقد ربط فوكتر بين الفكرتين باظهاره للعلاقة بين الانسان والأرض .

فوكتر في هليوود وفي نيويورك

بعد نجاح رواية « الملاذ » انهارت على فوكتر

ولا توجد علاقة بين القصتين ، والشئ الوحيد المشترك بينهما هو أن كلا الرجلين ذلك المجرم في قصة « الرجل العجوز » وهارى في قصة « النخيل البرى » محكوم عليهما بالسجن في السجن نفسه . ونجد أن أحداث القصتين تجري في زمنين متباعدين . قصة « الرجل العجوز » في عام ١٩٢٧ ، وقصة « النخيل البرى » يحدث معظمها في عام ١٩٣٧ . ولذا فلقد رأى معظم النقاد أن تركيب القصتين معا بهذا الوضع تركيب فاشل ولم تكن له أية ضرورة . ولقد ظهرت طبعات من الكتاب فيها القصتان منفصلتان عن بعضهما ، ولو أن البعض الآخر يرى ان تبادل فصول الروايتين يدنا بتشابه وتناقض في الأحداث يزيد القصتين ثراء ويضفي عليهما مزيدا من المعنى ، ولو أن ادراكنا لذلك لا يحدث في أثناء قراءة القصتين بل بعد الانتهاء من قراءتهما .

وقصة « الرجل العجوز » أكثر تأثيرا في النفس من قصة النخيل البرى ، ولقد نشرها الناقد مالكوم كاولي بمفردها كقصة مستقلة في كتاب The Portable Faulkner وقال عنها انها القصة الوحيدة عن الميسيسى التى يمكن وضعها في مستوى قصة « هاكلبرى فن » لمارك توين ، وتسم ببعض الصفات المشتركة التى تميز قصة « العجوز والبحر » لهمنجوي ولو انها لا تحتوى على المغزى الذى وجدته النقاد في قصة همنجوي . ولقد حظيت قصة « النخيل البرى » باهتمام النقاد والاشادة بها عند صدورها ولكنها لم تعد تحظى الآن بهذا الاهتمام .

المؤلفين في الاستديو يقول فيها : « وليم فوكر . اكسفورد . ولاية مسيسيبي . اين أنت ؟ » فرد فوكر ببرقية يقول فيها : « لم تصلني الرسالة ! فوصلته بعد ذلك برقية تقول « اذهب الى نيواورليانز واتصل بتود بروننج هناك » . فرد فوكر يقول : « لا أستطيع . حامل . » ويقصد أن زوجته تنتظر مولودا . ثم وصلت لفوكر برقية تقول انه لا بد أن يسافر الى ممفيس ويركب طائرة الى نيواورليانز . وكان من الممكن أن يركب قطارا ويصل الى نيواورليانز في اليوم التالي ، ولكنه ذهب الى ممفيس وبقي هناك يومين او ثلاثة ثم طار الى نيواورليانز وأرسل من هناك تلغرافا بقبوله للعمل . فقال له بروننج « نم نوما عميقا حتى يمكننا بدء العمل غدا » . ففعل ، ولكنه وصل عند غروب الشمس فعاد . ثم سأل بروننج عن الموعد الذي كان من المفروض ان يبدأ العمل فيه وما هي القصة . قال له بروننج : « يجب أن تذهب الى مؤلف الفيلم هناك وتسأله » . فعثر على مؤلف الفيلم وعرفه فوكر بنفسه قائلا انه كاتب الحوار وسأله عن القصة . فقال له مؤلف الفيلم : « لا تلق بالالذلك ، اذهب واكتب بعض الحوار وسوف اخبرك بعد ذلك عن القصة » !! فذهب الى بروننج واخبره ان المؤلف لم يشأ ان يجيره عن القصة . قال له براوننج : « اطلب منه ان يجيرك عن القصة على الفور » . ولكن قبل ان يتمكن من لقاء الكاتب وصل من هليوود تلغراف يقول : « فوكر مرفوت » . نفخ بروننج غيظا وقال لفوكر : « لا تشغل بالك بذلك ، سوف اصلح الامور » . ولكن وردت برقية أخرى تقول : « بروننج مرفوت » . ويعد

دعوات من هليوود ، وتحت اغراء المال وافق على الذهاب الى هليوود بعقد لمدة ثلاثة شهور . فسافر الى كاليفورنيا ، وهناك أعد للسبينا ثلاثا من رواياته وقصصه : الاولى رواية « الملاذ » ، التي تغير عنوانها في الفيلم السينمائي فأصبح « قصة غيل دريك » واضطلعت جوان كرافورد بدور غيل ، والثانية قصة بعنوان Turn ab out عن الحرب ، والثالثة رواية « دخيل في التراب » . كما كتب واشترك في اعداد افلام اخرى من تأليف مؤلفين غيره . وذهب بعد ذلك نحو اثنتي عشرة مرة حيث عمل مع شركة وورنر للقرن العشرين وفوكس ومترولوجولدين ماير وبعض المنتجين والمخرجين ، ولكنه عاد في النهاية ليستقر في بلده اكسفورد بولاية مسيسيبي .

ولكن هليوود ظلت تلاحقه بالتلفرافات ليقبل امضاء عقود أخرى ، فلقد اتصل به هوارد هوك وقال له : « لا ترغب في البقاء في هليوود فترة أخرى وتحصل على مزيد من المال ؟ » . ولكن فوكر أجاب قائلا : « لقد وفرت مبلغ خمسة آلاف دولار من التقود التي حصلت عليها من هليوود حتى الآن ، وهذا يزيد عن أكبر مبلغ لدى أي شخص في ولاية مسيسيبي ، ولا ارجب في المزيد في السوق الحاضر ولذا عدت الى بلدي » . قال له هوك : « اذا رغبت في الحصول على مال أكثر أخبرنا بذلك » . كان فوكر يتفق بينه واحتاج الى مال فابرق الى هليوود قائلا انه يرغب في امضاء عقد آخر . فالتفت عليه الشيكات دون ان يسافر الى هليوود ، ووصلته برقية من رئيس

في روايته قد حدث بالفعل منذ سنوات ، واشترك في الهجوم السينمائي بعض الاهالي الذين كانوا قد اشتركوا في الهجوم الحقيقي الذي انتهى بقتل الزنجي المعجوز فبدأ المشهد السينمائي طبيعيا وكأنه تصوير لحادث حقيقي ، وكان الاهالي يتسابقون لتظهر صورهم في هذا المشهد . كان فوكتر طوال فترة تصوير الفيلم ملازما للمخرج يرشده الى أماكن التصوير ، ولكن عندما انتهى تصوير الفيلم ودعى فوكتر لحضور حفل العرض الاول رفض الدعوة وأدهش ذلك رجال هوليوود وأغضبهم ، كما أدهش عائلة فوكتر . ورفض فوكتر مجرد التقاط صورة فوتوغرافية له لوضعها عند مدخل دار العرض السينمائي !

وأقامت شركة متوجولولدوين ماير حفلا رائعا لتكريم مؤلف الفيلم ، وهو تقليد تتبعه جميع الشركات السينمائية في أمريكا ، ولكن فوكتر لدهشتهم جميعا ، اعتذر عن عدم حضور هذا الحفل الذي أقيم من أجله قائلا انه في هذا الوقت سيكون مشغولا بإحضار ابنته وبعض صديقاتها من المدرسة كما اعتاد ان يفعل ، فاستجبت مدير دعاية الشركة بزوجة فوكتر لتلقاه بحضور حفل التكريم وحفل الانتعاش ، ولكنها لم تستطع تغيير رأية ، حتى رجاء ابنته جيل واستمطافها له لم يكن له أى تأثير !

فوكتر والنقاد

كتب النقاد عن أعمال فوكتر عددا هائلا من

وقف بروننج عن العمل توقف العمل في الفيلم . بعد ذلك نفر فوكتر من هليود وأعاد ما قاله المؤلف ايفلين وواغن Evelyn Waugh انه اكتشف ان المنزل هو الزائر المقيم لجميع سكانها .

كان فوكتر يكره ان يسأله احد عن كتيبه او العمل الأدبي الذي يقوم بكتابته الآن . وكان هادئا مهذبا . وعزلته وانطواءه يجعلان الناس يرونه بارد الاحساس ، ولكنه بين اصداقائه المقربين كان يبدو على حقيقته دافئ الماطفة . يقول أحد اصداقائه من كتاب الافلام في هليود انه كان يصحبه كل يوم وعدد من الكتاب في السيارة التي تنقلهم من الفندق الى الاستديو ، وكان فوكتر يبدو دائما هادئا ولا يمرؤون على التحدث معه . فقال أحد الكتاب لصديق فوكتر : « ان فوكتر لا يد انه يجبك فلقد قال لك اليوم « صباح الخير » .

كان قلوب مشلات هوليوود وسياراتها الضخمة والصغيرة تجوب شوارع مدينة اكسفورد استعدادا لتصوير رواية فوكتر « دخيل تحت التراب » أعظم حادث هز أرجاء المدينة في تاريخها الطويل ، حيث تجمع الناس في الشوارع ، وبذلك كلارنس براون خرج الفيلم مجهودا عنيقا هو ومعاونوه لتنظيم وترويض هذا الحشد الهائل من الاهالي . كان من مشاهد الفيلم مشهد هجوم عدد كبير من الغوغاه على سجن المدينة في محاولة لقتل الزنجي المعجوز لوكاس بدون محاكمة ، وهو المحور الرئيسي في الفيلم . وكان هذا الحادث الذي سجله فوكتر

نتيجة للآزمة الاقتصادية ، وبدأ التساؤل عما يمكن عمله لتغيير هذا الوضع . وفكر البعض في أن الخلاص قد يكون في الرجوع الى طريقة الحياة الماضية ، ولو ان الرجوع الى النوعية الماضية حيث الركود والاستقرار يعتبر في حد ذاته تغييرا ، فلم يكن هناك بد من التغيير بأى صورة من الصور .

وعلى الرغم من أن روايات « سارتوريس » و« الصوت والغضب » و« عندما أرقد ميتة » لم تنجح من الوجهة التجارية الجماهيرية ، فلقد أشاد بها عدد من النقاد من الوجهة الفنية ورأوا فيها موهبة أصيلة واعتبروها لونا جديدا من الأدب ، ولو ان الناقد كاوى Cowley كتب في صحيفة « نيوربايك » New Republic أنه يوجد نوع من الانفصال في فوكنر ويعوزه التناسب بين التنبيه والاستجابة للتنبيه . ويقول كاوى ان معظم روايات فوكنر من الممكن ان توضح في نطاق روايات الرعب Gothic novels . ولكنه يقول بعد ذلك عن كتاب « اميط ياموسى » انه لا يوجد أى كاتب أمريكى آخر لم ينصفه النقاد كما حدث لفوكنر بما فيهم أنا . ويقول بعد ذلك مدافعا عن فوكنر عقب هجوم بعض النقاد عليه ان فوكنر ، اذا استثنينا هنجوي ودوس باسوس Dos Pas-SOS يعتبر أعظم روائى في هذا الجيل .

ويتسائل كاوى قائلا : ترى الى اى حد في امكان أساتذة الادب في الجامعات ان يرفعوا من قدر المؤلفين او يدمروا سمعتهم داخل قاعات الدراسة ؟ ! اذ في أواخر الثلاثينات وأوائل

المقالات والكتب . ومن الطبعى ان نجد هؤلاء النقاد أقوالا متعارضة وآراء متباينة .

كتب عنه الناقد روبرت بن وارن Robert Penn Warren يقول فيها يتعلق بالشكل في رواياته انه اذا استثنينا انداده ، هرمان ملفيل (مؤلف رواية موبى ديك) وهنرى جيمس ، فان فوكنر يعتبر أعظم كاتب تجريبي للرواية انجته امريكا على الاطلاق . والفترة التي بدا فيها الشكل التجريبي ، هي تلك الفترة التي اخترق فيها قشرة مادته التقليدية ، عندما صور بشكل درامى مفتاح الحياة في الجنوب الأمريكى فطلب هذا المضمون نوعا معينا للشكل ، لم يكن من الممكن عرضها الا في هذا الشكل الذى اختاره فوكنر ، حيث نجد الصدمة الثقافية والتطور التكنيكي يسيران جنبا الى جنب .

ويعتبر فوكنر في رأى روبرت بن متميزا بروح الفكاهة شأنه في هذا شأن مارك توين . والفترة الرائعة في حياة فوكنر الادبية منذ كتابة رواية « الصوت والغضب » حتى رواية « القرية » تعاصر فترة الازمة الاقتصادية وظهور شيخ الحرب العالمية الثانية ، وتعاصر في الوقت ذاته الصدمة الثقافية ، حيث كانت التغيرات والتوتر شديدة وحادة في ذلك الوقت . ولا يعنى هذا ان فوكنر اتخذ من الازمة الاقتصادية موضوعات لرواياته ، ولكن الازمة الاقتصادية اظهرت مسألة الوقت والتغير اللذين وضعهما فوكنر كبذور لتطوره بعد ذلك . والشعور بالركود الذى تميزت به حياة الريف في الجنوب الأمريكى حتى بعد الحرب العالمية الاولى ، تغير فجأة

حد كبير معنية بمسائل عصرنا بالقدر الذي نجلده بلوجات متفادته في أعمال هرمان ملفيل ودينيوفسكي وكافكا وكوزنراد ويروست واليوت ويتس وكلمى .

لم يكن المضمون فيها يتعلق بالشخصيات والمواقف فحسب هى التى جذبت القراء لأعمال فوكز ، بل كانت موضوعية الأعمال بجانب ذلك . فالقارىء يشعر من خلال أعماله بأنها تكاد تكون تجارب شخصية غير بعيدة عن التجارب التى يعرفها القارىء حق المعرفة .

ولفوكز حساسية للحديث سواء أكان حوارا أو سردا طويلا على هيئة مونولوج مثل حديث جاسون أورالف في رواية « الحيل المنقطة » ، بأسلوب متميز عن شئ أنوع الأساليب الأخرى ، مما يشعر القارىء بأنه يقرأ أحداثا حقيقية وليست من صنع الخيال .

او كما ذكرت مونيك ناثان Monique Nothan في كتابها عن فوكز بأن شيئا يشبه الطقوس في أسلوبه . او بطريقة استثنائية تقول انه يجعل السرد الروائى يتدمج مع العاطفة . والعاطفة في رواياته هى الوسط الشخصى الذى يعمل بين طياته الاحساس بالمضمون اللاشخصى .

وصمت فوكز واقتصاده في الحديث في حياته الخاصة وعدم وضوح الشخصيات في رواياته اذا قارناها بشخصيات همنجوي او سكوت فيتزجيرالد تبدو متناقضة محتاج لنوع من الإلهام لدى القارىء ليتزعم المعنى من خلال الظلام

الاربعينات عندما كانوا يثيرون معارك حول شتاينيك وهوارد فارست في احترام واجلال في الوقت الذى كان مخصصا للحديث عن أعمال سوفوكليس فان فوكز لم يكن يذكر الا في لحظات خاطفة .

وبعد الحرب العالمية الاولى ، عند عودة الجنود الى جامعاتهم التى كانوا فيها وتركوها لاستدعائهم للمقاتل قال احد هؤلاء الطلبة لكاولى : أشعر كأن شيئا سرق منى . وأضاف الطالب مفسرا ذلك بقوله انه في الجامعة التى كان فيها قبل استدعائه للحرب كانوا يخصصون عنه دراسة الأدب الأمريكى ، ستة أسابيع لدراسة رواية « عنب الغضب » Grapes of Wrath لشتاينيك ، ونصف ساعة لدراسة أعمال فوكز ، وهي قصة « وردة لايميل » وهو العمل الوحيد لفوكز الذى جادوا بدراسته ، ويستنتجون من هذه القصة الوحيدة ان فوكز كان فاشيستا مستترا !

لقد انغمس هؤلاء الشبان في قراءة روايات فوكز بانهار شديد واعتبروها ذات مستوى أكاديمي رفيع على الرغم من أن أساتذتهم لم يعيروها أى اهتمام ولم يلفتوا أنظارهم اليها ، ولقد أسلمتهم فترة الحرب بفهم عميق لهذه الروايات ومكتتهم من اكتشاف أبعاد شخصياتهم كأمريكيين .

والسائلة التى يراها كاولى مقبولة لطرح المناقشة هى ما اذا كان من الممكن ان تعتبر فوكز واحدا من الكتاب المعاصرين القلائل ، وربما الأمريكى الوحيد ، الذى نجد أعماله الى

هدف واضح مترابط ، ولو أن آراء كازين أصبحت أميل الى الاعتدال الذي بدا واضحا في حفل أقامته جامعة كولومبيا بمناسبة حصول فوكنر على جائزة نوبل عندما شجب كازين الرأي القائل بأن أعمال فوكنر مظهر من مظاهر الاضطراب العصبي . ولقد وصف كازين رواية « ضوء في أغسطس » بأنها رواية عظيمة ، ولو أنه يصف الرواية في الوقت ذاته بأنها شديدة الغضب في طريقة عرضها ولكنها عديمة المعنى في محتواها . او بمعنى آخر : طبل أجوفاً .

ويقول الناقد مالكولم كاولي في مقدمة كتابه الشهير « كتيب فوكنر The Portable Faulkner » ان فوكنر كتب روايات عن مقاطعة يوكتا باتانوا وسكانها ، وظهرت في اجزاء من روايات أخرى وفي نحو ثلاثين قصة . ولقد كانت رواية « سارتورس » اول رواية تنشر لفوكنر متضمنة أحداثا تقع في مقاطعة يوكتا باتانوا ، وهي قصة رومانسية غير مقنعة . ولقد كتب فوكنر رواية « الصوت والغضب » قبل رواية « سارتورس » ، ولكنها نشرت بعدها بنحو ستة أشهر ، وهي أكثر رواية من رواياته اثارت جدلا ومناقشات . ويعتبر كاولي رواية « الملاذ » أكثر روايات فوكنر شعبية وأوسعها انتشارا ، بينما رواية « ضوء في أغسطس » في رتبة ، تعتبر أحسن رواياته .

ويقول كاولي إنه كتب قسم بلزاك سلسلة رواياته التي أطلق عليها في مجموعها « الكوميديا الانسانية » Comodic Humaine الى مشاهد من الحياة في باريس ومشاهد من الاقاليم الفرنسية ومشاهد من الحياة الخاصة ، فان فوكنر

الذي يكتبه . ويشير مارلو الى ذلك قائلا ان فوكنر لا يد أنه يتخيل مشاهد رواياته قبل أن يتخيل شخصياته ، والعمل الروائي لديه لا يحدد الموضوع ، ولكن ينبثق من خلال شخصيات مجهولة لديه . وقد تومض في ذهنه فكرة قصة اوروبية نتيجة لمشهد عابر من مشاهد الحياة ينبعث منه موضوع الرواية وشخصياتها دفعة واحدة وكأنها كانت غيبشة خلف هذا المشهد ، ويوجد في أقوال فوكنر ما يبرر هذا الرأي ، اذ يقول ان رواية « الصوت والغضب » ومضت في ذهنه نتيجة رؤيته سرورال فتاة صغيرة ملطخ بالوسحل ، وان رواية « ضوء في أغسطس » نشأت عند رؤيته امرأة شابة حبل تسير في طريق غير مطروق .

ولقد هاجم اعمال فوكنر عل مر السنين عدد كبير من النقاد ، وأهم نقد وجه اليه هوان فوكنر مشوش الأفكار واسلوبه غير واضح . فلقد انتقده كل من كلفتو نادمان في مقاله عن رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » نشر في صحيفة النيويورك عام ١٩٣٦ ، كما هاجمه الفريد كازين عام ١٩٤٢ ، ولو أن كازين اشاد بقوة الابداع عند فوكنر ، الا أنه اشتكى من عدم فهم فوكنر للجنوب الامريكي فهما حقيقيا . واعجاب فوكنر بالجنوب واشتمارته منه يمتزجان معا في ذهنه . وكشارك في الاسطورة الشاملة لتقاليد الجنوب وتدهوره فانه يبدو غبيا وسطحيا وغالبا بلا معنى ولا مبالاة . فلا تبتث أعماله من نقد شعوري للمجتمع . ويقول كازين أيضا ان أسلوب فوكنر يبدو نابعا من تصور مشوش غامض غير واضح الهدف أكثر منه انبشاقا من

وبعض القصص اللاحقة الأخرى ، وعندما نصل الى الزمن الذي تقع فيه أحداث رواية « القرية » نجد ان اسمه قد تغير . وأصبح Ratliff ولو أن شخصيته نطل كما هي ، كما يظل سنه كما هو على الرغم من مرور عشرين عاما بين أحداث الروايتين . وفي رواية « أبسالوم ، أبسالوم » نجد أن القصر المقام في مزرعة ستين ميني بالطوب في بدء الرواية ، ولكن عند نهايتها نجده مبنيا بالحشب الذي يحترق يأكله فلا يبقى سوى مداخن المدافئ . ولو أن هذه الاخطاء قليلة وغير ذات أهمية . ولقد وقع دكتور وسرفانتيس وغيرها في أخطائه من هذا القبيل قد تكون أكثر أهمية ولكنها هفوات لا تؤثر على قيمة العمل الفني ، وجل من لا يسهو .

ويقول كاولي ان فوكتر أساسا ليس روائيا ، وإن جميع رواياته تتسم بضعف في التركيب ، وبعضها يتضمن موضوعين رئيسيين أو أكثر لاتكاد توجد علاقة بينهما كما هي الحال في رواية « ضوء في أغسطس » بينما في روايات أخرى للمؤلف ، مثل « القرية » تراص أحداثها بجوار بعضها وكأنها خرز في عقد . ولا يمكننا ان نقرر ما اذا كانت الاقسام الأربعة في رواية « الصوت والغضب » مرتبة كما ينبغي ان يكون . فلا يمكننا ان نفهم القسم الأول من هذه الرواية فهما كاملا ، وقد لا يمكننا قراءته الا بعد قراءة الاقسام الثلاثة الأخرى . ويسدو فوكتر في أحسن حالاته في قصصه الطويلة كقصته « الدب » وفي اسطورة اليونكباتاونا بشكل عام . وينبغي ان نحكم عليه من خلال اجل أعماله لا من خلال أسونها كما هي الحال

بالمثل من الممكن تقسيم أعماله الى عدد من الدورات ، واحدة عن الفلاحين وذريتهم ، وواحدة عن أهل مدينة جيفرسون ، وواحدة عن فقراء البيض والمهتود الحمر وواحدة عن الزوج . وإذا كان التقسيم عن طريق العائلات فاننا نجد دورة عن الأعمال البطولية لعائلتي كمبسون وسارنوريس ، وأخرى عن بطولات عائلة سنويس Snopes وبطولات ذرية ماك كازلين المنبثقة من ذرية كاروثرز ماك كازلين Carothers Mc Coslin وفورة عن بطولات عائلتي راتليف وباندرون Ratliff — Bundern . وجميع هذه الدورات متشابكة معا . وقد نجد قصة قصيرة وكأنها استكمال لرواية تسبقها . وعلى سبيل المثال فاننا نقرأ في رواية « سارنوريس » ان بيرون سرق حزمة من الخطابات من نارسيسا بنب ، وفي قصة نشرت بعد الرواية بخمس سنوات وهي قصة « كانت هناك ملكة There Was a Queen » نجد كيف استردت نارسيسا الخطابات المسروقة . وقد يحدث العكس ، إذ نجد في إحدى روايته استمرارا لأحداث ذكرها في قصة قصيرة سابقة ، فالمرأة التي وصف المؤلف رعبها من الموت في قصة « شمس المساء » The Evening sun قد قتلها زوجها وترك جثتها في حفرة لتلتها جوارح الطيور في رواية كتبها بعد كتابة القصة القصيرة . وقد يقع فوكتر في تضارب في تفاصيل رواياته التي تتكرر فيها الأشخاص نفسها ، وعلى سبيل المثال ، وجد عاملا في مصنع آلات الحياكة يدعى ف . ك . سيورات V.K.Suratt يظهر في رواية « سارنوريس »

أبسالوم ! يرفض الاعتراف بابوته لابنه تشارلس ويطرد ابنه هنرى . وأرى أن تعاطف فوكنر مع الزنوج أكثر وضوحاً من تعاطف أفراد العائلة الواحدة من البيض .

فوكنر وجائزة نوبل

في صباح العاشر من نوفمبر عام ١٩٥٠ بينما كان فوكنر ينثر السماد على حقل مجاور لمنزله جاءت الأنباء تفيد بحصوله على جائزة نوبل ، فهورلت زوجته خارج المنزل لتزف إليه هذه البشارة . بدلت عليه الفرحة فتوقف عن العمل لحظة قصيرة ليحتفل بذلك مع زوجته وابنه وأحد الزنوج الذى كان يساعده في الحقل ، ثم عاد ليواصل العمل . في هذه الليلة فتح فوكنر منزله للأقارب والأصدقاء الذين هرعوا لتهنئته بهذا الفوز العظيم الذى يعتبر حلم كل أديب خلّاق مبدع . استقبل فوكنر زواره بحرارة وسرور ولو أنه كان يبدو ساهماً ، وما لبثوا أن عرفوا السبب . لقد قرر بينه وبين نفسه عدم الذهاب إلى ستوكهولم عاصمة السويد ليتسلم جائزته ، ولم يكن قراره هذا ناتجاً عن عزوفه عن الاحتفالات والظهور بين الجماهير فحسب ، أو لاعتقاده بأن الجائزة فقدت قيمتها عندما تجاهل المحكمون دريزر وشرود اندرس وهما من أفاضل أدباء المبدعين ومنحوها لشخص مثل سنكر لويس لايرقى إلى مستواهما ، ولكن قراره ربما كان راجعاً أيضاً إلى احتقاره للتقدير الرسمى الذى شعر بأنه تأثر كثيراً ، ولما شعر به من هجوم النقاد أو تجاهلهم له . ولم ينش عن عزمه هذا سوى ابنته جيل ، فكل فتاة تتوق

في الحكم على جميع المؤلفين . وهو في أحسن حالاته ، وربما في أسوأ حالاته في بعض الأحيان يمتلك قوة وثراء للحياة لانجدهما في أى كاتب أمريكى في عصرنا هذا . انه كما قال هنرى جيمس وهو يصف الكاتب الأمريكى هو ثورن : « يمتلك عنصر العبقرية البسيطة والقدرة على التخيل » . وعلاوة على ذلك فهو ينطوى على حب عميق للبقعة من الأرض التى ولد وترى فيها ، والتي ، عكس معظم المؤلفين الآخرين في جيله ، اختارها ليقضى فيها كل حياته تقريباً .

ويقول كاولى ان روايات فوكنر تتسم بصفات تجعلنا نعيش فيها ونمتصها ونذكرها أكثر من مجرد ملاحظاتها . وفى عكس ما نجله في معظم روايات هذا العصر ، نجد أنها زاهرة بدفء العواطف العائلية ، الأخ وأخوه وابنته ، والاب وأطفاله ، ذلك الحب الدافئ المتعالى الذى يربط أفراد العائلة لدرجة تجعلهم يبقوا فى العالم ، وهذه الروابط بوجه عام لا تظهر بين الكبار كما تبدو بين الأطفال من زنوج وبيض ، ولو أن عكس ذلك ، في رأيي ، يبدو واضحاً في رواية « الصوت والضفب » ، فالأخ في هذه الرواية يغمى إخله المسكين المتخلف عقلياً بسبب ثقافته ، والأخ يسرق أموال ابنة أخته ولا نرى في الرواية شخصاً يعطف على بنجى المتخلف عقلياً سوى الخادمة الزنوجية العجوز . كما نجد الأم في رواية « قداس لراهبة » تهجر طفلها الأثنى التى تقتلها الخادمة العجوز أشفاقاً عليها من المصير المظلم الذى ينتظرها بعد هجر أمها لها . كما نرى ستين في رواية « أبسالوم ،

القيمة المعنوية والادبية للجائزة ، فان قيمتها المادية في ذلك العام كانت ثلاثين ألف دولار . قال له أحد رفاق الصيد مازحا : « اظنك الآن يا بيل وقد حصلت على كل هذا المال فان هذا دليل على أن عقلك كبير لدرجة لن تسمح لك باصطحابي معك بعد ذلك في رحلات الصيد » . فقال فوكر : يا للجيح ، انها لا تزيد عن كونها نقودا ، اذ لا يوجد لديهم علم غزلان هناك » .

وحول النار سأله رفيقه هذا مرة أخرى ليخبره : « ماذا تفعل يا بيل لو وجدت سفير السويد يأتى لنا هنا الآن ويسلمك هذه النقود ؟ » . فاجاب فوكر الذى كان في هذه اللحظة يفضل الاطباق وقد ارتدى مرولة من الخيش حول وسطه قائلا : « سأخبره ان يضع النقود على هذه المنضدة التي هناك ويلتقط خرقة ويساعدنى » . فزالت الرعدة التي كان يشعر بها رفاقه وعادت الامور طبيعية كما كانت .

وسافر فوكر في رحلته الى السويد ليتسلم جائزته من يد ملك السويد بصحبة ابنته ، وكان صديقه ستون من بين الاصدقاء والأقارب الذين ذهبوا لوداعه عند السفر . وعند ظهور فوكر في الحفل هناك ، تركت كبريائه وتصرفاته انطباعا رائعا لدى كل من شاهده . لقد ألقى الخطاب التقليدى الذى يليه الحائز على جائزة نوبل في الأدب ، وكان من لروح ما ألقى في خلال هذا القرن .

لروية باريس التي سيمر بها في أثناء رحلته ، ولم يشأ ان يمرر ابنته من رؤيتها . ولم يشعر أهل مدينته بمعنى أو مفسى هذه الجائزة ، ولكنهم شعروا بأن مواطنهم فوكر لابد أن يكون متميزا بميزات لا يدركونها . وقال أحدهم ان فوكر جاءه التقدير من الخارج قبل أن يأتيه من أهل مدينته . ولكن رئيس تحرير الصحيفة المحلية للمدينة المسماة نسر اكسفورد Oxford Eagle نشر الخبر بالبلط الكبير في صدر الصحيفة مع نشر صورة لفوكر وجعله مساويا في الاهمية لخبر آخر نشره في الصفحة نفسها وبالبلط نفسه عن برنامج لبناء المدارس يتكلف ٦٢٥ دولارا ، كما نشر مقالا بقلم فيليب ستون صديق فوكر يخص فيه حياة فوكر واختتم مقاله بقوله « ان فوكر وأنا قد كبرنا في السن وأصبحنا الآن شيخين . . . ان فوكر قد يكون كانسان أعظم منه ككاتب . يتكلم كثيرون منا عن التواضع ، عن الشرف والولاء والعرفان بالجميل . ان بيل (كنية فوكر) لا يتحدث عن هذه الاشياء ولكنه يعيشها . قد يهجر الناس الآخرون ولكنهم ليس يبيل اذا كان صديقك . . . » .

وبعد اسبوع من وصول نيا الحصول على الجائزة ذهب فوكر كالعادة في موتب الصيد السنوى في مقاطعة شاركي الذى اعتاد الاشتراك فيه كل عام ، ولاحظ شيئا من علم الارتياح لدى بعض رفاقه الذين لم يكن يخطر ببالهم ان لفوكر هذه الاهمية ، وأصبحوا ينظرون اليه نظرة تتسم بحب الاستطلاع . وإلى جانب



أهم المراجع :

- William Faulkner : Mosquitoes
 William Faulkner : The Hamlet
 William Faulkner : Sartoris
 William Faulkner : Go Down Moses
 William Faulkner : The Sound and the Fury
 William Faulkner : Absalom Absalom
 William Faulkner : Sanctuary
 William Faulkner : Light in August
 William Faulkner : Pylon
 William Faulkner : The Unvanquished
 William Faulkner : Intruder in the dust
 William Faulkner : Requiem for a Nun
 William Faulkner : The Wild Palms
 Michael Milgate : Faulkner
 Robert Coughlan : The Private World of William Faulkner
 Robert Pann Warren : Faulker
 Malcolm Cowley : Writers at Work



مطالعات

تمهيد

يظهر بين الفينة والأخرى حوار وجدل في وسائل الاعلام والنشر العربية المكتوبة منها والمسموعة بشأن استعمال هذه اللغة أو تلك في التعليم العالي ، أو التخصص وما ينبع منه من أبحاث متخصصة . ويؤول محور النقاش الى مدى صلاحية اللغة العربية للاستعمال في هذه المجالات وإلى مشكلات تنسب الى اللغة نفسها . ونجد أن فرقاء النقاش يتخذون مواقف مختلفة ، بين قول بأنها غير صالحة وذلك لقصور المفردات والمصطلحات فيها عن استيعاب تلك المجالات ، وبين موقف يسلم بهذا القصور ويدعو الى سد هذه الفجوة بوضع مفردات ومصطلحات جديدة .

وعندما يُطرق موضوع المفردات والمصطلحات فإن أول ما يتبادر الى اذهان اطراف النقاش وغيرهم هو مجامع اللغة العربية (في بغداد ودمشق وسمان والقاهرة) ومكاتب ولجان او دوائر او مؤسسات اخرى في البلاد العربية ، مثل مكاتب ولجان التعريب والترجمة والنشر . ومن المعروف ان هذه المجامع واللجان . . الخ تقوم بنشر انتاجها في هذه المجالات ، كما تعقد الندوات والمؤتمرات الدورية المحلية والقومية لبحث مشكلات اللغة العربية والعلاجات المقترحة ، وتخرج بتوصيات ترفع الى الجهات الرسمية والهيئات المعنية .

المجامع اللغوية
ودورها في تعزيز اللغة في التخطيط اللغوي

زكريا أبوحمديه

نشوء كل منها والمنجزات التي قام بها كل منها
أطار التخطيط اللغوي بالمنظور الذي قدمته في
مستهل البحث .

إن الجهود الجماعية الطوعية والرسمية تجاه
حماية لغة ما أو اتجاه تعزيز وضعها من ناحية
توسيع مجالات استعمالها أصبح في منظور
اللغويين المحدثين ويأحيى العلوم الانسانية
ضمن حقل أكاديمي جديد يعرف بالتخطيط
اللغوي .

يُشرع في التخطيط اللغوي نتيجة تقييم وضع
وظروف معينة ، وتحديد مشكلة تقدر اللغة فيها
على أنها محور المشكلة . ومن ثم توضع خطوات
عمل محددة (تكون اللغة هدف العمل)
وأضحة لعلاج المشكلة عن طريق حلول مقترحة
(نابعة من جوانب تقييم المشكلة) وترتب في
أولوية بدائية (5 : Rubin, 1973) .
والتخطيط اللغوي في جوهره لا يختلف عن
التخطيط بمعناه العام .

وعليه فإن التخطيط اللغوي أفضل ما يُرى
ويُفهم من خلال الأطوار العام لتخطيط
اجتماعي وسياسي واقتصادي لمجتمع ما ،
وذلك لتداخل اللغة في جميع هذه المجالات ،
ولكون اللغة مصدرا اجتماعيا تتأثر به القطاعات
الاقتصادية والسياسية . ويبدو هذا التأثير جليا
حين يتطلب التخطيط الاقتصادي أو السياسي
أو التربوي الاعتماد على لغة غير اللغة الدارجة

وعليه فأنني اعتقد أن القارئ قد يكون لديه ما
يعتقد أنه يرضيه من المعرفة بهذه المجامع
واللجان والمكاتب العربية .

ومن منطلق اطلاع القارئ بالعربية من
ذوي الاختصاص باللغة ومشكلاتها وذوي
الاهتمام بشؤونها ، ومنطلق فتح المجال أمام
المقارنة والمشاركة بين عمل المجامع بشكل عام
فأنني أقدم هذا البحث عن مجامع لغوية في أقطار
أخرى من العالم حتى نتبين خطوط العمل
المجمعي في إطار عالمي .

يبدأ هذا البحث بدراسة مركزة للتخطيط
اللغوي ودوافعه وأهدافه واساسه واساليه
ومناهجه . ثم يطرُق البحث ظاهرة ظهور
الجهود الجماعية المنظمة (والتي تشكل المجامع
أفضل مثال عليها) لمعالجة المشكلات اللغوية
على مستوى الدولة أو مستوى القومية أو مستوى
المجموعة العرقية الواحدة ، الناطقة بلغة غير
لغة الدولة التي تعيش فيها . وبعد ذلك يقدم
البحث وصفا تحليليا لنشوء ونشاطات المجامع
اللغوية التالية : مجمع الايطالية ، مجمع
الفرنسية ، مجمع السويدية ، مجمع الاسبانية في
مدريد ، مجمع الاسبانية خارج اسبانيا ، مجمع
الايرلندية ، مجمع السكتلندية ، لجنة اصلاح
الصينية ، مجمع العبرية ، مجمع التركية ، لجنة
شونا ، مجمع الفريزية .

ويأخذ الحديث عن هذه المجامع وظروف

العاملين في هذا الحقل ، وكلا الاتجاهين يعتقد أن التدخل ممكن ، وأحيانا واجب .

ينظر الاتجاه الأول الى اللغة على أنها مجرد وسيلة ، مثلها مثل أية وسيلة أو أداة أخرى متوفرة لدى الفرد والجماعة . ومن خلال هذا المنظور فإن اللغة يمكن ، بل وأحيانا ، يجب أن يعمل على تغييرها أو توسيعها أو تعديلها أو تنظيمها وضبطها بحيث تؤدي الغرض الذي تحمده أو تستعمل من أجله ، وتكون أداة مطروحة للذين يستعملونها Tauli, 605 : 1964 وكتابه ، 1968) .

أما الاتجاه الثاني فيرى أن اللغة ليست مجرد أداة فحسب ، بل هي رمز لقيم المجتمع العقائدية ورمز لأسس وحدة ذلك المجتمع ، كما أنها رمز للقيم الجمالية التعبيرية فيه . ومن هذا المنظور - فإن التدخل في مجرى اللغة أمر ممكن وقد يكون واجبا ، لكن هذا التدخل - حسب هذا المنظور - ينبع من متطلبات المحافظة على تلك القيم التي ترمز إليها اللغة . كما أن أساليب ومناهج التدخل يجب أن تكون مركزة على أسس تلك القيم بحيث لا تتعارض معها ولا تناقضها (Rubin, 1973 a : v) .

يتفق كلا الاتجاهين على إمكانية وربما ضرورة العمل لوضع علاج ما وخطوات تنفيذه لتصبح حالة لغوية غير مرضية .

(أي المستعملة) في ذلك المجتمع . كما يظهر أثر التخطيط الاجتماعي في اللغة إذا أدى ذلك التخطيط الى تحد للقيم التي يحملها ذلك المجتمع تجاه لغته في حالة الشعور بأن وضعها مهتد بالاضمحلال أو الزوال . وهذا ما يحدث في المناطق التي تحتلها قوى خارجية تنطق بلغة تختلف عن تلك اللغة ، وتستمر القوة الغازية باستعمال لغتها هي في تسير أمور المجتمع ، الشعب المغلوب .

ولكي ندرس عمل الجامعات في القسم الثاني من البحث لا بد من وضع تعريف للتخطيط اللغوي يحدد مدلوله ، وينظر الى عمل الجامعات من مدلول هذا التعريف .

« التخطيط اللغوي مهمة لغوية ظاهرا تنبثق من أسس سياسية واجتماعية واقتصادية نابغة من منظور قيم معينة . وتأخذ هذه المهمة شكلا اداريا منتظما بشأن حل لوضع لغوي معضل على المستوى القومي أو مستوى الدولة الواحدة ، ويكون هدف هذا الحل تغيير أو تنظيم أو توسيع الاستعمال اللغوي » .

وعليه فإن التخطيط اللغوي هو نوع من التدخل المنظم في مجرى اللغة واستعمالها في المجتمع . والسؤال الذي يمكن طرحه هو : « هل يمكن أن نتدخل في مجرى اللغة بقصد تغييره أو تعديله أو توسيعه ؟ » هناك اتجاهان بين

لفوي معين (كانت قد اندحرت عن الاستعمال في مجال واحد أو عدة مجالات من الاستعمال اللغوي في مجتمع ما) باستثناء المؤلفات المكتوبة بهذه اللغة سابقا .

من هذه المجالات نذكر استعمالها في المدارس أو الجامعات أو البحوث المتخصصة أو مواضيع معينة مثل الطب والهندسة الخ . ونضرب مثلا على ذلك اعادة استعمال اللغة العبرية . وقد تكون هذه اللغة نفسها مستعملة في أي من هذه المجالات في مجتمع آخر أو دولة أخرى ، إلا أن التخطيط يهدف الى اعادة استعمالها حيث كانت تستعمل سابقا قبل كتبها (مثال ذلك ما حصل للغة الاسبانية في الولايات المتحدة لهذه الولايات من الاسبانين) .

ثانيا : تنقية لغة ما من عناصر (صورية أو نحوية أو صرفية) أصلها من غير تلك اللغة (أي دخلتها عن طريق الاقتراض تحت ظروف معينة) واستبدال هذه العناصر الخارجية بعناصر أخرى . من الوجهة المثالية ، تكون العناصر الجديدة مستمدة من اللغة نفسها ، ولكن الواقع قد يؤدي الى استبدال عناصر غريبة عن اللغة ذاتها بعناصر غريبة عنها كذلك . وفي هذه الحالة يكون الدافع نابعا من عداوة معن أو غير مصرح به تجاه الناطقين باللغات التي يجري التخطيط لاجراج عناصرها من اللغة موضع التخطيط .

وسواء اكان القارئ يميل الى أخذ الاتجاه الأول أو الثاني أم لم يأخذ بأي من الاتجاهين ، فان الواقع التاريخي في الماضي وفي الحاضر يقدم له أمثلة عديدة على التدخل في مجرى اللغة . كما يقدم الواقع التاريخي أدلة شتى على أن اللغة كانت وما تزال هدفا للتدخل بشكل فردي غير مخطط ولا منظم ، وبشكل جماعي مخطط ومنظم . فالأمثلة في الواقع التاريخية كثيرة عن أفراد سياسيين وكتاب وشعراء ولغويين نصيبوا أنفسهم حكاما وقضاة للاستعمال اللغوي . ونقرأ كذلك في تاريخ الأمم عن ردود الفعل المختلفة لمواقف أولئك الأفراد من قبل عامة الناس والمختصين الناطقين بتلك اللغات (Fishman, 1972) .

أما أمثلة العمل الجماعي ، فان هذا البحث هو محاولة لاستعراض نوع واحد منها - عمل المجامع اللغوية .

ما المشكلات اللغوية التي تسوغ أو تتطلب التخطيط اللغوي ؟ سنجيب عن هذا السؤال بطريقة غير مباشرة ، وذلك من خلال النظر الى أنواع الأهداف التي تضعها هيئات أو مؤسسات التخطيط اللغوي (بأي اسم تحمله كل منها) والنشاطات التي تقوم بها هذه الهيئات أو المؤسسات ، سواء تحققت تلك الأهداف كليا أم جزئيا أم لم تتحقق .

أولا : اعادة استعمال لغة (أو لهجة أو مخط

من المحتمل أن تظهر مشكلات داخل المنطقة التي يجري فيها نوع الانفصاح الأول المذكور أعلاه . فتفضيل لهجة ما على غيرها من اللهجات قد يواجه بالرفض من قبل الناطقين باللهجات الأخرى خصوصا إذا كان الناطقون باللهجة المفضلة قليلي العدد نسبيا ، أو أن وضعهم الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أدنى من وضع الناطقين باللهجات الأخرى . وقد حصل مثل هذا الصراع في كل من بلجيكا والنرويج والهند (Hawgen, 1969) . وفي هذه الحالة يتوجب إعادة النظر في رشاد الأهداف المرسومة ووسائل تحقيقها والبدائل الممكنة لذلك .

رابعاً : الاتفاق على إقرار لغة رسمية من غير اللغات الأصلية في ذلك المجتمع أو البلد .
ويجدر أن نميز هنا بين دلالة الاصطلاحية في « اللغة الرسمية » و « اللغة القومية » . فالاصطلاح الثاني يستعمل للدلالة على اللغة الأصلية أو إحدى اللغات الدارجة في ذلك المجتمع أو البلد التي يُتفق على اعتبارها لغة التعامل الرسمي لذلك النظام ، أما منفردة أو مع لغة أو لغات أخرى . وينظر في العمل على اختيار لغة رسمية (غير لغة قومية) عندما يتعامل الاتفاق على لغة قومية ، أو تفصيح إحدى اللهجات بإحدى السبل المذكورة سافلا . ويجري هذا العمل في المجتمعات أو الدول متعدة اللغات كما حصل في الهند ونيجيريا

وجرى مثل هذا التخطيط في اللغة التركية في عهد مصطفى كمال أتاتورك وفي اللغة الفارسية في العهد السابق .

ثالثاً : انفصاح لغة أو لهجة ما بقصد توحيد الاستعمال اللغوي في مجالات معينة (إذ لا يمكن القضاء على الفروق اللغوية بشئ أنواعها أو في شئ المجالات) . هذا النوع من التخطيط اللغوي يمكن أن يأخذ إحدى الصور أو السبل التالية :

أ - تفضيل لهجة معينة على غيرها من اللهجات الدارجة للغة معينة ، وجعل تلك اللهجة هي الفصحى أو الفصيحة . مثال ذلك ما حصل في انفصاح السواحلية .

ب - دمج عدد من اللهجات المختلفة التي تشترك في عناصر لغوية ما وجعل ناتج عملية الاستعفاء اللغوية هو اللغة الفصيحة واعتمادها في الاستعمال الرسمي والتعليمي والثقافي . فنزب مثلا على ذلك ما حصل في عدد من اللهجات في روديسيا .

ج - تفصيح لغة مشتركة (lingua franca) شائعة في منطقة متعددة اللغات ، بحيث تصبح اللغة الرسمية المعتمدة في المجالات الرسمية وبعض المراحل التعليمية بدل لغة أخرى غريبة عن المنطقة ، وبذل اللغات المحلية المتعددة . جرى مثل هذا التخطيط في ماليزيا واندونيسيا .

تتطلب العمل ، وعن كثافة العاملين في مجال تنفيذ العمل اللغوي فان القرار يبدء التخطيط واتجاه العمل في التنفيذ يخضع في معظم الاحوال لنتيجة الصراع الذي يجري بين المصالح المتضاربة للجماعات التي تؤيد التخطيط في اتجاه ما ، والمعارضين للتخطيط في ذلك الاتجاه . وفي غالب الاحيان يكون القرار النهائي في يد اصحاب السلطة السياسية . وعليه فان اهم صفة للمخطط اللغوي هي أن يكون على دراية بالوضع العقائدي والسياسي والاجتماعي لذلك البلد قبل أن يقيم وضعاً لغوياً ما بناء على المتغيرات فقط . والا فان عمل المخططين اللغويين لن يكون أكثر من مجرد تمرين لغوي يبعث بتهتي أمره في إحدى ادراج المكاتب الرسمية أو على رفوف المكاتب المتخصصة .

مجامع اللغة

إذا أخذنا بعين الاعتبار الصلة الوثيقة بين اللغة وأهلها فانتنا سنجد ظاهرة الجهود الجماعية (والفردية كذلك) للحرص على اللغة أمراً طبيعياً . ومن هذا المنطلق بدأ ظهور الحركات اللغوية في معظم مناطق العالم . ونستعرض فيما يلي بعضاً من أشهر هذه الحركات وسنعتيها اسم « مجامع » في هذا السياق بالرغم من أن بعضها لم يعمل مرادفة هذه الكلمة بالذات .

كان من مظاهر الحياة الفكرية في أوروبا في

والجنيسة والفلبين وباكستان حيث اللغة الانجليزية هي إحدى لغات التعامل الرسمي .
خامساً : اصلاح أو تغيير بعض وجوه لغة ما ، خصوصاً نظام الكتابة ، بحيث تأخذ شكلاً غير الذي كان دارجاً قبل أنبله في التخطيط . ويستهدف هذا التخطيط الاصلاحي في العادة زيادة فعالية اللغة وسهولة تعلمها أو ذلك الوجه منها . الا أن الدوافع الكامنة خلف الدعوة لذلك الاصلاح قد تكون غير لغوية أصلاً . بل كثيراً ما تكون هذه الدوافع الكامنة في مزاجية أو عقائدية ذات تبعية خارجة عن ذلك المجتمع أو البلد ، كما حصل بالنسبة لتغيير نظام الكتابة في التركية . ومن أشهر أمثلة هذا الضرب « الاصلاح » (أو بالاحرى التغيير) المثال التركي الآف ذكره ، وما يجري في الصين بالنسبة لنظام الكتابة .

سادساً : تحديث أو تطوير لغة ما . ويقصد بهذا بشكل خاص توسيع مجالات استعمال اللغة إلى مجالات علمية أو فنية أو غير ذلك ، لم تكن تطرق بتلك اللغة . وفي هذا المجال يكون التخطيط متركزاً على زيادة المفردات والمصطلحات المتخصصة نتيجة لزيادة حاجات ذلك المجتمع ، وفي نفس الوقت زيادة حرص ذلك المجتمع على عدم تبني لغة غير لغته في تلك المجالات . (Ferguson : 1968)

ويعض النظر عن طبيعة المشكلة اللغوية التي

وطلب الى المجمع أن يقوم بترجمة كل ما كان مدونا آنذاك من الفكر والمعارف الى لهجتهم . ولكي يقوم المجمع بعمله في سبيل النهوض بتلك المهمة كان عليه أن يبدأ بدراسة الاستعمال اللغوي الذي كان دارجا في تلك المنطقة ، ومن ثم تصنيفه حسب انتمائه اللغوي ، وذلك من أجل حصر المادة التي كان يستعملها في عملية الترجمة ، ومن ثم جمعها في مؤلف واحد (بشكل معجم) يسهل الرجوع اليه اثناء عملية الترجمة . وبذا أصبح عمل المجمع متركزا على غربة أو تنخيل المفردات الدارجة في الاستعمال آنئذ .

وقد صيغت عملية التنخيل اللغوية هذه عمل المجمع ، ونجحت تلك الصيغة في تغيير اسم المجمع عام ١٥٨٣ من « مجمع التذكائية » الى « مجمع النخالة » Academia della " Crusca " قياسا على عملية تنخيل الطحين وفصل النخالة عنه . وكان نتاج عملية التنخيل تلك وضع معجم ظهر في مجلد واحد عام ١٦١٢ ، وازدادت مواده الى ثلاث مجلدات في طبعة عام ١٦١٩ والتي أهديت الى الملكة ISABELLA . اما طبعة عام ١٧٣٩ فقد كانت في ستة مجلدات . (وقد أصبح هذا الاسلوب من عمل المجمع مثالا احتذته مجامع عديدة ظهرت فيها بعد - ابتداء بمجمع الفرنسية) .

في القرن الثامن عشر ضعف عمل المجمع في

عصر النهضة ظهور وانتشار « مجالس الفكر » ، وقد أطلق على بعضها اسم « Academy » على غرار الاكاديمية التي كانت مجلس فكر في اليونان القديمة . (وفي اللغة الانجليزية اشتقت كلمة " academic " بمبدلول البحث التجريدي أو النظري ، كما تستعمل الكلمة كذلك بمبدلول غير المتعلق بالواقع من البحث فيقال " an academic question " انظر تعريف الكلمة في معجم Webster) . وكان من بين هذه المجالس من تتناول شؤون اللغة في مناقشات في البيوت الخاصة . فمثلا تشكل في مدينة فلورنس في ايطاليا مجلس في القرن السادس عشر اجتمع فيه بعض ذوي الاهتمام باللغة وعقدوا اجتماعاتهم في بيت عائلة " Rucellai " والذي كان يعرف باسم " Orti " (Devoto, 1978) . " Oricellari " وفي باريس تشكل مجلس ذو اهتمامات لغوية في بداية القرن السابع عشر في بيت " Valentin Conrart " (Hall, 1967) . ولما انتشر أمر هذه المجالس اللغوية وراقت اهدافها لبعض الحكام منحت صيغة رسمية ، وخصصت لها أماكن رسمية لاجتماعاتها .

المجمع الايطالية

تبنى الحاكيم " Cosimo I " مجلس فلورنس اللغوي واسمه « مجمع التذكائية ،

فينسق نشره مع مكتب لغوي ضمن مكتب
رئاسة الوزراء : (Deveto 1978)
322 — 252)

مجمع الفرنسية .

كان التسعة الذين اعتادوا الاجتماع في
مجلسهم في بيت (Cenrart) يركزون
مناقشتهم على تقييم الجديد من المؤلفات .
وكانت تصل آراؤهم حول تلك المؤلفات الى
عديد من الأشخاص من قطاعات الفكر
والسياسة ، ومن بين هؤلاء الكاردينال
ريشليو . ولما أصبح هذا الأخير الوزير الأول
للملك لويس الثالث عشر ، حاول تركيز سلطة
الدولة عبر تشكيل مجالس قضائية وتشريعية
اقتصادية . . . الخ . وامتدت فكرة ريشليو
في التنظيم السياسي الإداري الى اللغة فرأى أن
يشكل مجلس تشريعي للغة الفرنسية . وفعلا
أعطى ريشليو مجلس (Conrart) الصيغة
الرسمية عام ١٦٣٥ ، ووضع له قانونا داخليا
عرض على البرلمان وسجل المجلس كمجمع في
البرلمان عام ١٦٣٧ . اما مهمة المجمع كما
حددها القانون فكانت واضحة في المادة ٢٦ ،
وهي وضع معجم ومرجع في النحو ومرجع في
البلاغة ومرجع في النظرية الشعرية .

(..... il sena compose un Dic-
tionnaire, une Grammaire, une

هذا المجال واقتصر معظم نشاطه على نقاط في
التهجئة وصيغ بعض الأفعال ، مما أدى الى حله
عام ١٧٨٣ من قبل دوق تسكانيا . الا أن
المجمع أعيد تشكيله عام ١٨٠٨ عندما احتل
نابليون إيطاليا ووكّل نابليون اليه مهمة
الإشراف على صفاء الاستعمال اللغوي في
الأدب .

اما في الوقت الحاضر فقد أصبح المجمع
مؤسسة يقتصر عملها على عدد محدود في الثقافة
واللغة ، ولم يعد صاحب السلطة التي كان غولا
بها في الماضي . وفي عام ١٩٧٠ تأسس في
إيطاليا مركز قواعد اللغة الإيطالية ، وذلك
لتنسيق أعمال الهيئات والمؤسسات التي ظهرت
خلال العقود الماضية . وقد كان عمل هذه
المؤسسات مقبولا أكثر من عمل المجمع مما أدى
الى اندحار سلطته ، خاصة أن عمل المجمع لم
يتعد مرحلة وضع المعاجم .

اما مركز قواعد الإيطالية فينسق العمل مع
اتحادات المعلمين بحيث يستعمل المعلمون
الفصحى في التدريس ولا يقبلون غير الفصحى
من المتعلمين . ومع مؤسسات الاذاعة
والتلفزيون والصحافة والطباعة بحيث يتركز
عمل هذه المؤسسات على نشر الانتاج اللغوي
الفصحى بمختلف أنواعه ، وتقريبه الى متناول
المستمعين والمشاهدين والقراء .

اما المستجد من المصطلحات المتخصصة

للاستعمال الثقافي والرمزي دون الفرنسية متمثلة في لهجات الشمال ، فقد كانوا يعتبرونها غير صالحة لذلك ابتداء . (ولعل امتياز الإيطالية والاسبانية عند الفرنسيين من هذه الجهة مرده الى انها كانتا تمتازان بسبب وثيق الى الحضارة الاسلامية العربية) .

ولهذه الاعتبارات جميعا فقد كان نشوء المجمع موضع سخرية من كثير من الفرنسيين (Robertson : 1910) بدأ العمل على وضع المعجم فريق من المجمعين برئاسة بارون Fawne de vaugelas claude عام ١٦٣٨ .

وقد كان وضع هذا المعجم هو حجر الأساس في حركة توحيد وافصاح الفرنسية (Richand , 1974 : 106) وقد كان ترتيب المفردات في طبعة ١٦٩٤ حسب الجذور اللاتينية ، وفي مجموعات المشتقات الفرنسية من هذه الجذور . وقد كان لقرار المجمع هذا صدى سلمي ، مما حدا بهم الى العدول عن هذا النظام في الطبعة الثانية عام ١٧٤٠ . وقد اعتمد القرار الأول للمجمع على تقديرهم للقراري الذي وضعوا المعجم له . فقد رأى أعضاء المجمع أن الذين سيحتاجون الى المعجم هم ذور الثقافة الكلاسيكية - أي المستمدة من التراث اليوناني الروماني ، وليس غيرهم من (les igno- (Rickand , 1974:111)ans et les simple femmes) وبطبيعة الحال فإن وضع المعجم (أي معجم) يصلر

Rhetherique et une Poetique sur les observations de L'A cade-mie .)

(Robertson , 1910 : 13)
(Rickand , 1974 : 106) كما نص القاتنون على أن يكون عدد الأعضاء أربعين ، ولم يتغير هذا العدد منذ ذلك الوقت لدرجة أنه أصبح يطلق على أعضاء المجمع الكنية « الأربعمون الخالدون » .

يمكننا القول بأن تأسيس المجمع كان له واقع خارجي وهو وجود مجمع في ايطاليا الذي ذكر سابقا ، مع أنه كان هناك مجامع محلية أخرى في ايطاليا (Academia di Livorna) وغيره .

اما الدافع الآخر والأقوى فكان داخليا ، ويبدو أن الوزير الأول ريشيليو كان واعيا عمله . اذ على العكس من الاعتقاد السائد أن فرنسا كانت وحلة لغوية واحدة في القرن السابع عشر ، فقد كان الوضع اللغوي لفرنسا آنذاك متفككا . فقد كانت مجموعة لهجات الشمال (langue d'eil) تختلف كثيرا عن مجموعة الجنوب (langue d'oc) اضافة لذلك ، كانت الأمية طافية ، فقد بلغ عدد الاميين حوالي ثمانية عشر مليونا من مجموع السكان (٢٠ مليوناً) . وكان الفرنسيون يستظهرون تصنيفا لغويا متفاوتا ، اذ كانوا يرون الإيطالية والاسبانية هما المرشحتين

كذلك بدأ المجمع بوضع معجم تاريخي شامل ، الا ان العمل فيه سار ببطء شديد ، وظهرت الطبعة الاولى منه عام ١٩٣٢ . وفي هذه الاونة - اى بعد ظهور المعجم التاريخي الشامل - بدأ المجمع بوضع معجم شامل على غرار المعاجم الانكليزية الامريكية ، ولكن العمل فيه يسير ببطء شديد كذلك ، اذ لم يتم انجاز خمس العمل بعد .

أما في مجال النحو ، فقد ظهر مرجع المجمع في النحومتأخرا . الا ان بعض أعضاء المجمع قاموا بوضع مؤلفات في النحو . ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب رئيس المجمع الأول Claude Favre الذي ظهر عام ١٦٤٧ بعنوان (Re-marque sur la langue Francaise) وقد استمد المؤلف القواعد من الفصحى من كلام الطبقة العليا والباطل (انظر مثيله King's English . ومؤلفات الكتاب المشهورين المعاصرين " la plus saine de la cour " " la plus saine partie des Autheurs de ce temps " حتى لا يمكن للعلماء الاحتجاج ضده Holmes and Schutz) . (8 - 87 : 1938 وفي حالات معدودة اعتمد كذلك على المجلس اللغوي) لا الاستعمال اللغوي (للعلماء من حيث تقييمهم له وسوغ قبول آرائهم بان بعضهم (أي الذين استشارهم) لديه احساس لغوي سليم غير

عن موقف يتبناه ازاء نظام التهجئة واشكال الحروف الذي سيتبعه المعجم . وقد كان قرار المجمع في هذا الشأن هو اتباع النظام الذي كان متبعاً قبل القرن السابع عشر ، ولم يعد يستعمل في المطابع في القرن السابع عشر . ولهذا احتاجت طباعة المعجم الى أن تغير شركة الطباعة التي تولت طباعة المعجم نظامها خصيصاً لطباعته . وكان موقف المجمع هذا مدعاة أخرى لنقد عمل المجمع . الا أن المجمع غير موقفه هذا في اعداد الطبعة الثانية التي ظهرت عام ١٧٤٠ . وفي اخراج هذه الطبعة وجه المجمع اهتمامه الى تعديل نظام التهجئة . فمثلا في المفردات مثل best, escole أسقط المجمع الحرف (S) لأنه لم يرمز الى صوت وأضاف اشارة أو فوق حرف العلة السابق للحرف المسقط فاصبحت الكلمات تكتب be-tem ecole كما أسقط الحروف غير الراضة لاصوات في بعض المجموعات الساكنة مثل obmet (Consonant clustere) te, aggraffer, advocat . مثال ثالث أخير على الاصلاحات التي نتجت عن عمل المجمع ، هو استبدال (i) ب (y) في نهايات الكلمات ، فمثلا الكلمات amy, cecy, moy أصبحت ami, ceci, moi وظهرت جميع قراراتهم في اصلاح نظام التهجئة في شكل المفردات كما وردت في طبعة المعجم عام ١٨٣٥ (Rickard 1974 : 137 - 8)

القرن عن متابعة الاتجاهات الجديدة في التحليل اللغوي . ولم يعمل على اجراء أية مقارنة بين منهجه وهذه المناهج المستحدثة ، بل لم يتعرض لها المجمع من قريب ولا من بعيد بالنقد أو غير ذلك . ولهذا فقد أصبح مجمع الفرنسية كسابقه مجمع النخالة في إيطاليا ، محدود العمل والسلطة ، وانتقلت هذه السلطة الى هيئات ومؤسسات تربوية وإعلامية وأدبية . فمثلا المعجم السائد الاستعمال الآن ليس Dic-tionnaire de L'Academie Fran- caise بل (Rickard, 1974 : 152) Petit lareusse I llustre للمؤسسات والهيئات التي انتقلت اليها السلطة اللغوية :

Office de Vocabulaire Fran- çais

واسمه يدل على مسماه . وقد أسس عام ١٩٥٧ لضبط وغرلة المصطلحات المشتقة من الجذور الفرنسية ، ولوقف استعمال المصطلحات الشائعة خطأ . ويتعاون المكتب مع بعض الصحف في القيام باستفتاءات عامة حول الأمور اللغوية ، ويتصل بذوي الاهتمام اللغوي لابتداء الرأي في المصطلحات التي يضعها ولاقتراح بدائل للتي لا يستيفونها . فمثلا يسأل هؤلاء المستشارون هل تستيفون اقتراض لفظة pipeline ام تؤثرن اقتراح مشتقة من الفرنسية مثل Olé أو Antére ؟ وفي حالة قبول المصطلح الانكليزي فما هو اللفظ الفرنسي المقترح ؟

مشوش بمعرفته اللاتينية أو اليونانية . واستشهد على تأثير اللاتينية واليونانية على بعض المؤلفين بأمثلة عديدة تذكر منها اعتبار بعض المثقفين كلمة erneur مذكرا ، بينما اعتبرها هو مؤنثة ، واذضاف بأنه لا داعي لأن يكون المنطق أساسا لتقييم الصيغة أو التركيب اللغوي ، لأن في هذا الاستعمال بعض التواحي التي تنفق والمنطق وأخرى تضاده ، وثالثة لا يمكن ادخال المنطق في تحديدها . (l'usage fait) beaucoup de choses par raison, beaucoup sans raison, et beaucoup contre raison ” (Rickard, 1974 : 107) وقد راجعت هذا المؤلف لجنة من المجمع وأقرته عام ١٧٠٥ .

وقد حافظ المجمع على مكانته كسلطة تشريعية للغة الفرنسية حتى مطلع القرن العشرين مما جعل جهوده - وإن لم تكن مقبولة في جميع الأحوال - ثمر في توحيد اللغة الفرنسية ووضع أسس استمر تطبيق معظمها حتى وقتنا الحاضر . ولقد لجأ المجمع أحيانا الى فرض نوع من العقوبات على بعض من خرجوا عن خط تعليماته . فمثلا قام أحد أعضاء المجمع بوضع مؤلف في النحو نشره عام ١٦٩٠ ولم يتبع فيه خط سير المجمع ، لكن عمله هذا كلفه خسارة عضويته في المجمع .

ووقف المجمع خلال النصف الأول من هذا

(٤) حلف الفرنسية - Alliance Fran-
çaise ١٨٨٣

ولهذه المؤسسة الخاصة أكثر من مائتي فرع
حول العالم وتصدر مجلة شهرية . (Rick-
and, 1974 : 152 — 156)

محاولة فاشلة لانشاء مجمع في بريطانيا .

وفي بريطانيا بذلت محاولات لتأسيس مجمع
لغة على غرار مجمع الايطالية ومجمع الفرنسية .
ففي نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٨) كتب
Daniel Defor داعياً الى تأسيس مجمع
لتشجيع تعلم الاستعمال اللغوي المهذب
ولصقل اللغة الانكليزية وتهذيبها (أو لنقل
تحليلها) بإخراج التراكم والاساليب الشائبة
وتطهيرها (اللغة الانكليزية) من الاضافات
والاختراعات اللفظية غير المنتظمة كتلك التي
ظهرت في كتابات من وصفهم بالجهلة
المتعجرفين . وسانده في هذا الموقف وهذه
الدعوى John Dryden . ويعلق اللغوي
المعاصر Francis Dinnean على تلك
الدعوة بانها كانت نابذة من خوف هذين
الكاتبين انه ان لم تثبت الفصحى منها لاغراض
استمرارية تعلمها وفهمها على مر العصور فانها
ستتغير من عصر الى عصر ومع مرور الزمن
تصبح الانكليزية في عصر ما غريبة وغير مفهومة
في عصر لاحق ، وقد كان لدى الكاتبين
المذكورين أصلاء دليل واضح . فقد كانت
انكليزية سلفها Chaucer غير مفهومة

ب . Comité d'étude des termes
technique Français وقد شكلت هذه
اللجنة عام ١٩٥٤ لتحديد شكل ولفظ
المصطلحات المتخصصة الجديدة
والتكنولوجيا ، واما المؤسسات التالية فهي
معنية بشؤون نشر الفرنسية في العالم وتنسيق
النشاطات اللغوية والثقافية الفرنسية في العالم ،
وكذلك المحافظة على المستوى المقبول في
الاستعمال اللغوي .

(١) الاتحاد الدولي لحماية الفرنسية العالمية
١٩٦٣ .

Fédération internationale pour
la sauvegarde du Français Uni-
versel .

(٢) اللجنة العليا لحماية اللغة الفرنسية
ونشرها ١٩٦٦ .

Haut comité pour la défense at
l'expansion de la langue fran-
çaise

(٣) ومنها دائرة / قسم اللغة الجيدة /
الفصحى يرأسها السكرتير الدائم (Com-
mission du bon Langue)

(٣) انشاء الاستعمال الفصحى للفرنسية في
المناطق الناطقة بالفرنسية خارج فرنسا ١٩٦٧ .
Association pour le bon usage
du français dans L'administra-
tion

القديمة والحديثة ولا يلجأون الى الاقتراض من لغات أخرى الا في حالات قليلة جدا ، اذ ان بعض المفردات الجديدة المدرجة في المعجم تعود في استعمالها الى القرن السادس عشر . ويتوقع أن ينتهي العمل في هذا المعجم مع نهاية هذا القرن . ومن ناحية الاحتياجات العلمية بدأ المجمع منذ سنة ١٨٧٤ بوضع ونشر قوائم المفردات التي اقترحها المجمعون للاستعمال المثقف . ولكون اقتراحات المجمع هذه تلمي الحاجة اللغوية فانها تجد قبولا لدى الكثير من السويديين وهم يعتقدون ان استعمال مفردات غير هذه يدل على نقص الثقافة والذوق اللغوي ، حتى ان البعض حظر استعمال كل كلمة لم يضعها المجمع . وقد ظهرت آخر طبعة لمجموعة القوائم في مجلد واحد عام ١٩٧٣ ، وهي تحوي مئة وخمسين ألف كلمة .

أما جهود المجمع بالنسبة لاصلاح نظام التهجئة فانها تعلن بشكل اقتراحات فقط ، اذ ان أي إصلاح يجب أن يناقش في البرلمان ويصبح رسميا بعد ان يوافق عليه البرلمان فقط . وكان المجمع قد وقف معارضا لبعض جوانب اصلاح التهجئة الجندري الذي تقدمت به الحكومة للبرلمان ووافق عليه عام ١٩٠٦ . ومع هذا التقييد البرلماني فإن المجمع لا يزال يتمتع باحترام اقتراحاته وآرائه لدى المواطنين . فمثلا تقدم اتحاد المعلمين عام ١٩٣٤ بمشروع اصلاح للتهجئة ، وكان المجمع هو المكان الأول لبحث

لديها . أي ان اللغة تفقد استمراريها في الاتصال المفهوم لاصحابها من عصر الى عصر ، مما يدعو الى ترجمة مؤلفات عصور معينة للقراء في عصور أخرى لاحقة (Dinnean) (8 — 157 : 1967) الا ان المطالبة بتأسيس مجمع في بريطانيا هذأت بعد ظهور المعجم الذي وضعه Johnson عام ١٧٧٥ وظهر مرجع النحو الذي وضعه الراهب Lowth عام ١٧٦٢ م .

مجمع السويدية Svenska Akademien

'امتد الشعور بالحاجة الى تأسيس سلطة لغوية باسم مجمع الى السويد في القرن الثامن عشر ، ولاهداف شبيهة باهداف المجمع التي سبق ذكرها . ففي عام ١٧٨٦ أسس الملك Gus-tavus III مجمع السويدية وعهد اليه تعزيز قوة اللغة السويدية والمحافظة على صفاتها ، وذلك عن طريق وضع معجم ومرجع في النحو ومراجع أخرى يمكن أن تساهم في دعم وتعزيز السلوك اللغوي السليم (Mo lde) . (1 : 1975) غير أن معظم عمل المجمع تركز حتى الآن على وضع المفردات (في معجم) وأمور اصلاح التهجئة . فقد ظهر من للمعجم الشامل الذي بدأ العمل عليه عام ١٨٩٢ حتى الآن ستة وعشرون مجلدا من الحجم الكبير ووصل الباحثون حتى الحرف (S) . ويعتمد المجمعون في وضع المفردات على السويدية

المشروع ، وقد رفضه المجمع ، ورفض المجمع كذلك مشروعا آخر قدم عام ١٩٤٣ .

بجانب جهود المجمع في البحث والتخطيط اللغوي هناك مؤسسات أخرى يمكن أن تذكر في هذا السياق من حيث كونها تعمل بالتنسيق مع المجمع . ومن هذه المؤسسات : مركز المصطلحات التخصصية . Tekniska Nomenklaturen (T N S)

وقد أسس هذا المركز عام ١٩٤١ بهدف وضع مفردات ومصطلحات بالسويدية مقابلة للمفردات والمصطلحات في المواضيع المتخصصة . وتتألف ادارة هذا المركز من ستة من المختصين ثلاثة في الهندسة والعلوم الطبيعية وثلاثة في العلوم اللغوية والاجتماعية . ويساعد هذه المجموعة مستشار يختاره المجمع . وقد صدر هذا المصطلح إلى خمسة

أربعين .

ومن منطلق التعاون بين دول المنطقة الاسكندنافية (السويد والنرويج والدنمارك) تشكلت في كل من هذه الاقطار لجنة لغوية . تشكلت لجنة اللغة السويدية عام ١٩٤٤ . وتدعمها الحكومة والمجمع ماليا بشكل جزئي ، ويتركز عمل هذه اللجنة على الاستعمالات اللغوية في المجالات الرسمية / الحكومية المتخصصة بحيث تكون مفهومة لدى المواطن الذي يتعامل مع هذه الدائرة الحكومية أو تلك .

كما تعمل هذه اللجنة بالتعاون مع مختلف اتحادات ونقابات القطاعات المهنية والاجتماعية وفلسك من أجل تنسيق وحدة الاستعمال اللغوي . وتقوم اللجنة كذلك بطبع كتيبات كل في ناحية معينة من الاستعمال اللغوي ، مثل التهجئة ، اللفظ ، التنقيط ، قواعد الانشاء . . . الخ . وقد بلغ عدد هذه الكتيبات خمسة وخمسين كتيبا يقبل المواطنون على اقتياعها ، مما يعطي المركز بعض المردود المالي . كما تصدر اللجنة مجلة شهرية باسم (الاغناء اللغوي) (Sprakvard) . كما أن اللجنة تعمل كمستشار للاستعمال اللغوي عن طريق الهاتف ، اذ يستطيع أي مواطن الاتصال بالمركز للسؤال عن أي استعمال لغوي مفضل . ويتلقى مكتب اللجنة المختص بهذا الشأن أكثر من سبعة آلاف استفسار سنويا ، (Molde 4 — 3 : 1975)

مجمع اللغة الاسبانية الملكي :

Real Academia Espanola

ظهرت في اسبانيا ابان القرن السادس عشر بعض المجالس الأدبية وانبثق منها اهتمام لغوي . ولعل ظهور هذه المجالس في اسبانيا كما في إيطاليا أن يكون مظهرا من مظاهر استمرار التأثير الحضاري والفكري للمسلمين في الأندلس .

وكان أندلسي مجلس عرف عنه أنه أصبح

Autoridades وفي عام ١٩٦٠ بدأ المجمع بوضع المعجم التاريخي للغة الاسبانية في جميع الاقطار الناطقة بالاسبانية ، وفي خلال عشر سنوات وصل العمل الى كلمة (Ajarafe) ، وهذا يعني أن العمل على المعجم التاريخي سيستغرق وقتا طويلا (كما هو الحال بالنسبة للمعاجم التاريخية التي يضعها المجمعون في الاقطار الأخرى) .

أما مرجع التهجة (**Ortografia**) **espanola** فقد أخذ المجمعون مؤلفا كان قد نشر عام ١٧٢٨ في مدريد كجزء من مسودة المعجم الأولى ، قام بتحضيره المعجمي **Adrian Cohnink** . وقد أدخل المجمع تعديلات عديدة على ندام التهجة عدة مرات خلال القرنين الماضيين . وكان هناك شد وجذب بين الذين دعوا الى أن تدل التهجة على الأصل التاريخي للكلمة وبين الذين دعوا الى أن تمثل التهجة نطق الكلمة . وكان الموقف الأخير هو الممثل في الطبعة الأخيرة لكتيب التهجة (**Nuevas normas de prosodiay**) **ortografia** , 1970 هو أن يعطى نطق الكلمة الأولوية في وضع صيغة تهجتها ، وأن يؤخذ بالأصل التاريخي للكلمة إن كان هذا لا يغير تهجتها جذريا . وما يؤخذ على المجمعين في وضع كتيب التهجة في طبعاته السابقة أنهم لم يطبقوا جميع قراراتهم في التهجة في طبعات معجمهم ، مثل اعجام التبرة (**Stress**) والنغمة (**Prosody**) .

مجمعا ، هو الذي ظهر في مدريد في الفترة ما بين ١٥٤٤ و ١٥٤٧ . ومن غريب أمر هذا المجمع أن الذي دعا الى تأسيسه كان أحد الاسبانين السنين عادوا من العالم الجديد (**Indiano**) .

أما المجمع الملكي فقد انشئ لكي يكون نقطة لتجميع وتنسيق جهود المجالس المحلية في اسبانيا . أسس هذا المجمع عام ١٧١٣ . وقد لخصت أهدافه في العبارات التالية : تطهير ، وتثبيت ، واضفاء الروعة على اللغة الاسبانية (**Guillermo,etal., 1974 ; 317 ff**) . وقد اتخذ هذا المجمع مجمع الفرنسية (**ff**) . مثالا يحتذي به في تشكيله وعمله . فقد عهد اليه وضع معجم ومرجع في التهجة ، ومرجع في النحو : **Diccionario** ، **Ontografia** , **Gramatica** . وكان طموح المجمع في عمل المعجم أن يضع مفردة أو مصطلحا لكل ما يمكن استعماله في اللغة . وكانت نقطة الانطلاق هي مراجعة وجرد المفردات والمصطلحات التي وردت في المدن من الأدب والفكر الاسباني . وقد حاول المجمعون جدهم أن يتخلصوا من الغريب ولا يدخلوه في المعجم . وظهرت الطبعة الأولى للمعجم في مجلد واحد عام ١٧٨٠ م . وكانت كل مفردة موثقة باقتباس من مؤلف مشهور يؤيد اختيار تلك المفردة في المعجم ، ولهذا عرف فيما بعد باسم المعجم الموثق . **Diccionario de**

جزيرة ايبيريا سيكون مجمع الاسبانية موضوع الحديث كذلك من حيث كونه المجمع الأم لها وكذلك من حيث كونه أحد اعضاء اتحاد مجامع الاسبانية .

مجامع الاسبانية في نصف الكرة الغربي .

أسست المجامع اللغوية في أمريكا اللاتينية (وهذا الاصطلاح يتضمن اعتبار المكسيك - في أمريكا الشمالية - إحدى الدول المعنية) على قرار مجمع الاسبانية الملكي ، وتبنت نفس الاهداف واساليب منهاج العمل . وهذا واضح من بنود قوانينها الداخلية .

ولم يكن تأسيس هذه المجامع مجرد فكرة وليدة الاستقلال ، بل سبق ذلك بوادر من مجمع الاسبانية الملكي نفسه ، إذ انه في العام ١٨٦٠ اتخذ المجمع قرارا بالاعتراف بأي مجمع للاسبانية - خارج اسبانيا - يؤسسه ثلاثة على الأقل من الاعضاء المشاركين (في المجمع الملكي في مدريد) في أي قطر في أمريكا اللاتينية اذا تقدم هؤلاء الثلاثة بطلب بهذا الغرض الى المجمع الملكي . ويبدو ان هذا القرار كان قد سبقه بحث الاعضاء المشاركين بمبادرة من العضو المشارك من كولومبيا .

وإذا قمنا بفحص بعض العبارات التي وردت في القوانين الداخلية لهذه المجامع وجدنا أنها

أما في النحو فكان هدف المجمع أن يثبت استعمال التراكيب اللغوية التي تمثل الكتابة الأدبية المصقولة والسليمة بحيث تصبح دارجة في المنطوق من اللغة كذلك . كما ان المجمع وضع ضمن هذا المخطط ان ينظر في ادخال تراكيب جديدة اذا اتفقت ونظام اللغة الاسبانية وظهرت في استعمال الادباء المشهورين المتبحرين في نقد الاستعمال اللغوي . وهدد الى اثنين من المجمعين بوضع هذا المجمع ، وقد تبنى المؤلفان نظام ما نحو اللاتينية في مرجع النحو هذا . وظهرت الطبعة الأولى هذه عام ١٧٧١ . وقد ادخلت على المرجع تعديلات عديدة في طبعاته التي تلت . وقد روعي في طبعة ١٩٧٢ المنقحة والتي حفرها ثلاثة من المجمعين ، ان يستأنس بالنظريات اللغوية المعاصرة من وصفية وتحولية . وكان من بين النشاطات لمجمع الاسبانية التي ساعدت بشكل فعال على زيادة كفاية انتاج المجمع اجراء المسابقات في الابحاث اللغوية والكتابة الأدبية ، وتقييمها ، ومن ثم منح الجوائز للمؤلفات التي تنال تقدير المجمع . وكانت هذه المؤلفات تنشر فيما بعد (اما معدلة جزئيا أو كلياً) باسم المجمع وهذا ما جعل الانتاج المجمعى غير مقتصر على المجمعين انفسهم . وبالتالي فان النقد أو المعارضة التي كانت تواجه المجامع الأخرى لم تحصل بالنسبة لمجمع الاسبانية .

وفي استعراض مجامع الاسبانية خارج شبه

أنهم رأوا في التخلي عن الأسبانية زيادة عوامل
التفرقة بين الأقطار ذاتها .

وكانت عصلة الصراع بين الفريقين أن
تغلب انصار الأسبانية . وتجل ذلك في تأسيس
المجامع اللغوية فيها - كولومبيا ١٨٧١ ،
المكسيك ١٨٧٥ ، الأكواوير ١٨٧٥ ،
سلفادور ١٨٨٠ ، فنزويلا ١٨٨١ ، تشيلي
١٨٨٦ ، غواتيمالا ١٨٨٨ . وتشابه شروط
العضوية في جميع هذه المجامع شروط العضوية
في المجمع الملكي ، وإمها الكفاية اللغوية
والشهرة في الانتاج في المجال الأدبي أو
الفراسات اللغوية . ودمجت حكومات تلك
الأقطار مجامعها وساعدت على نشر انتاجها . كما
بلد الأعضاء المؤسسون جهودا كبيرة في سبيل
انجاح نشاط المجامع . الا أن هذا النشاط
تناقص بشكل كبير بعد وفاة المؤسسين مما أدى
الى حل العديد منها ذاتيا . غير أنه أعيد تشكيلها
خلال العقود الأولى من هذا القرن : تشيلي
١٩١٤ ، بيرو ١٩١٨ ، الأكواوير ١٩٢٣ ،
سلفادور ١٩٢٣ ، غواتيمالا ١٩٣٠ .

كما تشكلت مجامع مشاركة في أقطار أخرى :
الأرجنتين ١٩١٠ (واعيد تشكيله وغير اسمه
عام ١٩٣٠) ، بوليفيا ١٩٢٠ ، كورستاريا
١٩٢٣ ، كوبا ١٩٢٦ ، بنما ١٩٢٦ ،
السدومينيكان ١٩٢٧ ، سراغواي ١٩٢٧ ،
هتلوراس ١٩٤٨ ، بورتوريكو ١٩٥٢ . وقد

هدفت الى جعل اللغة عنصرا من عناصر الوحدة
مع الوطن الأم ، فقد قال Miguel Anto-
nic Caro عند تأسيس المجمع الكولومبي :
« اللغة هي الوطن الأم » (Guillermo ,
321 ff : 1974 , etal. . وقال أحد
المؤلفين اللين منحوا جائزة المجمع الملكي :
« لا شيء يمثل الوطن الأم في رأيي مثل اللغة »
(نفس المصدر والصفحة) .

كان هذا هو الشعور العام . ولكن كانت
هناك اتجاهات معاكسة دعت الى نبذ الأسبانية
وايجاد لغة قومية في كل قطر تختلف عن لغة
المستعمر السابق ولا تذكرهم به . واعتبر
أصحاب هذا الاتجاه أن الإبقاء على الأسبانية هو
مثابة مدعي لاسبانيا للتدخل في شؤونهم
الداخلية . فمثلا رفض الكاتب البيرووي
Manuel Gonzalez Prada عرض
المجمع الملكي ليصبح عضوا مشاركا فيه (نفس
المصدر ص ٣٢٢) . وفي تشيلي والأرجنتين كان
لدى بعض الكتاب هناك شعور مشابه كذلك .
أما بالنسبة لمؤيدي الإبقاء على الأسبانية في تلك
الأقطار فقد رأوا في اللغة الأسبانية تعبيراً عن
الذاتية الثقافية لجميع الاقطار الناطقة
بالاسبانية ، كما تبوا الحجة بأن ترك الأسبانية
لكي تنسخ وتتعفن في أقطارهم ما هو الأذليل
على رفض أصلهم العرقي ، وذليل على رفضهم
المشاركة في التقدم الحضاري بإعلان عجزهم
عن إبقاء لغة الثقافة حية في مجتمعاتهم . كما

حافظت جميع هذه الجامعات - باستثناء مجمع الارجلتين - على ارتباطها مع المجمع الملكي في مدريد .

وبالنسبة لانتاج هذه الجامعات - في كلا الفترتين ما قبل القرن العشرين وخلال - فقد كانت في المعاجم والنحو ، والتهجئة ، والأعمال الأدبية والبحث اللغوي والنظري . كانت مؤلفات المجمع في النحو تظهر متأخرة ولا يدخل فيها الاستعمال المتلف البدارج في المؤلفات الأدبية الجديدة . أما وضع المعاجم فقد كان نقطة الارتكاز بالنسبة لمعظم المعاجم ؛ كما أن هذه المعاجم كانت تختلف بعضها عن البعض حسب القطر الذي ظهرت فيه ، وقد وضع كل مجمع معجما . وقد واجهت جميع الجامعات مشكلة المفردات الدخيلة ، وترك لكل مجمع أمر حل هذه المشكلة حسب العوامل المؤثرة في ذلك القطر . فمثلا حصل المجمع الكولومبي عام ١٩٦٠ على موافقة مجلس الدولة التشريعي بمنع استعمال المفردات والمصطلحات من اللغات الأجنبية في وثائق العمل التجاري الرسمي ، وإسهام المؤسسات التعليمية والمراكز الثقافية والاجتماعية وفي إسهام المطاعم والمقاهي والفنادق والمراقب العامة الأخرى (نفس المصدر ص ٣٤٥) .

اتحاد الجامعات الاسبانية .

امتدادا لفكرة ونشوء التجمعات السياسية بين مجموعات من الدول في مناطق مختلفة من

العالم خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، اقترح رئيس جمهورية المكسيك - Miguel Ale man عام ١٩٥١ أن يجري تنسيق منتظم بين جميع جامعات الاسبانية ، وإن تشرف مظلة ادارية على هذا التنسيق . واستضاف الرئيس المكسيكي في ذلك العام مؤتمرا عاما ضم ممثلين عن جميع جامعات الاسبانية . ولم تظهر معارضة جذرية لفكرة الرئيس المكسيكي ، وعليه تقرر أن تشكل الاتحاد لهذه الجامعات وأن تنتخب مفوضية دائمة للاتحاد ؛ كما تقرر أن يعقد الاتحاد اجتماعا كل أربع سنوات ابتداء من ١٩٥٦ تتناوب للجامعات دوريا استضافة هذا الاجتماع . وقد وضع هدف الاتحاد ليكون العمل بانتظام ومواظبة للدفاع عن الاسبانية والمحافظة على وحدتها وتكاملها كلفة مشتركة بين جميع هذه الأقطار ، وللتأكد من أن نموها يتبع مسارا اسبانيا أصيلا (ص ٣٢٦) . وأما المفوضية فهي مسؤولة عن الاشراف على تنفيذ قرارات الاتحاد . وقد وقعت دول الجامعات على اتفاقية اعتراف مشتركة بالاتحاد .

- وفي عام ١٩٦٠ تقدمت كوبا في الاجتماع الثالث للاتحاد الذي عقد في بوزوينا عاصمة كولومبيا بمشروع لاصلاح نظام التهجئة بحيث تصبح عملية تعلم التهجئة أسهل ، إلا أن الاتحاد قرر أن يحيل على المجمع الملكي مهمة تنقيح كتيبه في التهجئة ، (Nuevas Nor- mas المذكور سابقا ، أخذنا بعين الاعتبار

عام ١٩٦٠ . وملخص القرار هو عدم معارضة ادخال هذه المفردات والمصطلحات في المعاجم ، وذلك لأن معظم المفردات والمصطلحات المتخصصة المستخدمة هي لاتينية الجذور ، ولكون الاسبانية إحدى اللغات الناجمة عن اللاتينية فإن الاشتقاق لا يتج مصلحات أو مفردات غريبة الجذور عن الاسبانية (كما هو الحال بالنسبة للغات غير اللاتينية مثل العربية واليابانية مثلا) .

جمع الغالية / الايرلندية . **Comhairle Na Gaeilge**

إثر الاحتلال البريطاني لجزيرة أيرلندا في القرن الثامن عشر بدأ الاقبال بين الايرلنديين أنفسهم على تعلم اللغة الانكليزية وترك اللغة الايرلندية ، خاصة في الفترة بين ١٧٥٠ - ١٨٥٠ م . فقد تبين من احصاء أجري عام ١٨٥١ أن ٥ ٪ فقط من الايرلنديين يستعملون الايرلندية دون غيرها و ٢٣ ٪ ثنائيو اللغة (أي يستعملون الايرلندية والانكليزية) ، أما الباقون فيبدوا انهم كانوا قد أصبحوا ناطقين بالانكليزية وحدها .

ومن مراجعة تاريخ العلاقات الايرلندية البريطانية يمكن القول أن تخلي الايرلنديين عن لغتهم كان نتيجة دوافع اقتصادية ، حيث أصبحت الوظائف والاعمال الرسمية والتجارية

اقتراحات الوفد الكويتي . وفي مؤتمر ١٩٦٤ - الذي عقد في الأرجنتين - تقدم مجمع الاسبانية في الفلبين بمشروع يستخدم الأبجدية الصوتية (Phonetic alphabet) لأغراض تعليم المبتدئين . إلا أن الاتحاد رفض هذا الاقتراح ، ووافق فقط على جواز استعماله في الفلبين فقط إذا أدى استعماله الى المحافظة على الاسبانية من الزوال في ذلك القطر . وحذر الاتحاد مجمع الفلبين بأن استخدام تهجئة تختلف عن النظام المعمول به في باقي أقطار الاتحاد سيؤدي الى عزل ذلك القطر ثقافيا عن باقي الأقطار (المصدر ص ٣٥١) .

ومع أن الاتحاد يرى أن نظام التهجئة الحالي غير مرض تماما إلا أنه لا بد من القول أن نظام تهجئة الاسبانية أكثر انتظاما واضطرابا من معظم نظم تهجئة اللغات التي تستعمل الأبجدية اللاتينية . وأن الاعجام الذي يشكل مشكلة في الطباعة والكتابة اليدوية والذي يوجد له مثل في عديد من اللغات الأخرى التي تستخدم نفس الأبجدية (مثل الفرنسية والالمانية وغيرهما) هو نتاج طبيعي لاستخدام أبجدية وضعت أصلا للغة ما ثم امتد استعمالها الى لغات أخرى تختلف عنها .

أما بالنسبة للمفردات والمصطلحات المتخصصة والمعاجم فقد توصل الاتحاد الى وضع نظام مضطرب لجميع المعاجم في اجتماعه

في نفس الوقت . وقد بدأت نتائج قوة هذا التجمع تظهر في التشريعات البريطانية في أيرلندا . فمثلا اضطرت الادارة البريطانية في أيرلندا قبول المراسلات (المواد البريدية) المعنونة بالغالية . كما صدر تشريع في وزارة التربية يميز تدريس الغالية كاحد المواضيع المدرسية ، كما أصبحت الغالية في الوقت الحاضر إحدى متطلبات القبول في الجامعة الوطنية الأيرلندية . أما في مجال البحث اللغوي فقد بدأ التجمع إصدار مجلته الأسبوعية *An Claidheamh Soluis* عام ١٩٠٥ وهي تحوي قرارات واخبار نشاطات وابحاث التجمع . وتعتبر حركة احادة الغالية إحدى العوامل التي أدت الى استقلال الأيرلنديين الكاثوليكين عن بريطانيا وتأسيس دولة أيرلندا الحرة عام ١٩٢٢ (المصدر ص ٦٨) .

ومع قيام الدولة بدأ نشاط التجمع يخف نتيجة تقاضى اعضاءه الذين اعتبروا أن المهمة التي بدأوا بها قبل تأسيس الدولة يجب أن تقع على كاهل الحكومة الجديدة . يضاف الى ذلك أن عددا من اعضاء التجمع الفعاليين قتلوا في حرب الاستقلال ضد بريطانيا ، وان عددا آخر منهم تسلم مناصب سياسية في الحكومة وكرسوا نشاطهم في هذا المجال .

- (١) استعمال الغالية في جميع المجالات
يقدر الامكان .
(٢) تأسيس كليات معلمين لتزويد المدارس

تعتمد على الانكليزية وحلها . ولا يزال هذا الدافع حافظا لمعظم الأيرلنديين أنفسهم ، وتبين من اجابيات طلاب المدارس أن ٣ ٪ منهم يستعملون الأيرلندية بالرغم من جهود التجمع ، وأن هذا الاستعمال محصور في محيط البيت والعائلة . كما تبين أن غالبية هذه المجموعة (٣ ٪) تعيش في منطقة الشاطئ الغربي للجزيرة (أي غير المحاذي لجزيرة بريطانيا) ويعيدا من المدن الكبيرة (Macnamara, 1971 : 65 — 94) .

أما ظهور مجمع الأيرلندية فقد اقترن بظهور الحركة القومية الأيرلندية في نهاية القرن التاسع عشر . فقد تشكلت مجموعة ضمن هذه الحركة وشكلت (عصابة الغالية / الأيرلندية) عام ١٨٩٣ (نفس المرجع ص ٦٧) ، وقد تأسست فروع لها في مختلف المناطق التي كانت الحركة القومية فيها نشطة . أما اهداف التجمع فكانت مركزة على احادة استعمال / احياء اللغة الغالية . أما النشاط الرئيسي للمجمع وفروعه فكان يتمثل في فتح مراكز تدريس الغالية للكتاب . وقد وجد العديد من الأيرلنديين في هذه المراكز التعليمية بؤرة تجمع قومية ، ولكون الأيرلنديين متعدين للكاثوليكية (والتي تختلف عن الكنيسة البريطانية / الانكليزية) فقد جمعت هذه المراكز انصار الغالية من مختلف الطبقات . وبهذا أصبحت الدعوة الى احادة الغالية جزءا من حكومة قومية ودينية واجتماعية

حول وسائل تحقيق تلك الأهداف . كما يرجع الفضل النسبي لحركة إعادة اللغة الى درجة ثقة الأيرلنديين بإمكانية إعادة لغتهم . فقد أجري استفتاء عام ١٩٦٤ حول شعور الأيرلنديين تجاه جدوى إعادة اللغة ، وكانت نتيجة الاستفتاء أن ٨٣٪ من السكان لا يعتقدون أنه بالإمكان جعل الغالية اللغة القومية والرسمية للدولة ، بينما يعتقد ٧٦٪ أنه بالإمكان الإبقاء على الغالية كلغة ثانية في أيرلندا بعد الانكليزية . ويزيد في هذا الاندحار للغة القومية الى المرتبة الثانية في الاستعمال الدارج أن الدولة نفسها تعتمد على الانكليزية في معظم معاملاتها وشؤونها . (هذا بالرغم من أن البند الثاني من المادة الثامنة في قانون الدولة ينص على أن لغة التداول في البرلمان هي الانكليزية وأن سجلاته باللغتين . كما أن لغة الأجهزة الاعلامية وخاصة الاذاعة منها تستعمل الغالية بشكل أقل من الانكليزية ، فبرامج الاذاعة بالغالية لا يزيد على ١٠٪ من مجموع ساعات البث (تقرير المجمع عام ١٩٧٧ في — 527 : Fishman, 1974) . 552)

باحتياجاتها من المدرسين في المرحلة الابتدائية (إلا أن هذه المعاهد اغلقت عام ١٩٦٠) .

(٣) تأسيس مركز للترجمة تابع للبرلمان (أسس عام ١٩٤٥ ، وأصدر مرجعا في النحو عام ١٩٥٣) .

(٤) اعطاء مكافآت ومساعدات مالية للعاملين في تدريس الغالية والمدارس التي تدرسها . وبالرغم من التسهيلات والمكافآت والمساعدات المالية إلا أن الاقبال على تعلم وتدريس الغالية لم يرتفع بل بدأ ينخفض كما تدل على ذلك الاحصائية التالية عن المدارس الثانوية التي تدرس الغالية :

ولم يكن القصور في الاقبال على الغالية مقصورا على المتعلمين ، فالكثيرة التي كانت إحدى مراكز التجمع للغالية لم تبين استعمالها في صلواتها إلا عام ١٩٥٦ . ومن مجريات الأحداث المتعلقة بإعادة إحياء الغالية يظهر أن المهمة قد أثبتت أنها أصعب مما كان متوقعا قبل أكثر من ثلاثة أرباع القرن ، وكان الخلاف حول جدوى أهداف إعادة إحياء اللغة وحتى

السنة	عدد المدارس التي تدرسها	عدد المدارس في أيرلندا
١٩٤٤	٩٨	٣٧٧
١٩٥٦	٨٧	٤٧٤
١٩٦٦	٧٢	٥٨٥
١٩٦٨	٥١	٥٩٦

(Macnamara, 1971 : 75)

مجلس السكتلندية .

Comhairle nan Lallans

تستعمل في منطقة سكتلندا لغتان عدا الانكليزية :

الأولى هي الغالية والتي ينطق بها المنحدرون من اصل ايرلندي ، والثانية هي السكتلندية وهي قرية من الغالية لكونها لغتين قلطيتين (Celtic) وفي السكتلندية لهجتان رئيسيتان لهجة المناطق المرتفعة ولهجة المناطق المنخفضة .

وكانت السكتلندية هي لغة مملكة اسكتلندا قبل القرن السابع عشر ، حين توحدت المملكةان (البريطانية والسكتلندية عام ١٦٠٣) . وكانت غير محدودة في استعمالها آنذاك كما أنها كانت تعتبر أكثر « تطوراً » من اللغة الانكليزية — Aitken, 1976 : 48 (55 في Wood, 1977) . وفي أعقاب انضمام المملكة السكتلندية للمملكة الانكليزية وتشكيل المملكة المتحدة ، بدأت السكتلندية بالاندثار تدريجياً . ومنذ توحيد البرلمانين عام ١٧٠٧ - وحتى عهد قريب - لم يعد للسكتلندية أي وجود فعلي على نطاق واسع ، خلوها المدون منها وخاصة القانون السكتلندي .

إلا أن الشعور بالحاجة الى المحافظة على السكتلندية لم يتلاش عند أهلها ، فقد تأسست

جمعية لغوية في لندن عام ١٧٧٧ وفي Inven- ness في سكتلندا عام ١٨٧١ . وكانت الجمعية في سكتلندا تشرف على تدريس السكتلندية ، وكانت هذه الجمعية تعقد اجتماعات منتظمة لبحث شؤون ووسائل المحافظة على اللغة وتنتشر ذلك في مجلتها ، وفي عام ١٨٨٢ تأسس في جامعة ادنبرا كرسي لتدريس السكتلندية وانتقلت الى هذه الدائرة عملية الاشراف على تدريس السكتلندية ، لكن التنظيم الشعبي الطوعي عاد الى الظهور عام ١٨٩١ بإنشاء اتحاد منطقة المرتفعات الجبلية وهو حزب سياسي جعل المحافظة على اللغة أحد نشاطاته الأساسية ، وكان هذا الحزب فعالاً في تأييد مناصري السكتلندية في البرلمان .

وبعد الحرب العالمية الأولى انتشرت حركة الولاء اللغوي الى المناطق المنخفضة ، وعقدت عدة مؤتمرات لبحث وضع اللغة في التعليم واتخذت قرارات تطالب بتحسين الكتب المستعملة في تدريس اللغة وزيادة عدد الساعات المقررة لها كموضوع مدرسي . وبعد تأسيس الحزب الوطني السكتلندي ازداد الدعم السياسي لانتشار استعمال اللغة ، فبدأت البرامج المحلية لهيئة الاذاعة البريطانية بث برامج بالسكتلندية لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة أسبوعياً في الخمسينات من هذا القرن . الا أن السكتلندية لم يكن لها أي مركز رسمي بالنسبة للاستعمال في ادارة المقاطعة . وفي عام

وكتيجة لفعالية الحزب الوطني السكتلندي بدأ العمل على إعادة ظهور سكتلندا كشخصية سياسية في بريطانيا في الربع الثالث من هذا القرن . وكان من مظاهر النشاط هذا تأسيس مجلس السكتلندية عام ١٩٧٠ . وقد ارتكز مؤسسو المجلس على تحارب السكتلنديين مع حركة إعادة السكتلندية التي كان بدأ بها أربعة من الشعراء السكتلنديين المشهورين وعمل رأسهم Hugh Mc David وهو الآن الرئيس الفخري للمجلس .

وزاد من فعالية المجلس اعادة تقسيم المقاطعات الادارية في بريطانيا عام ١٩٧٥ ، اذ أصبحت هذه المنطقة وحدة ادارية وشكل لها برلمان افتتح عام ١٩٧٧ . ويطالب هذا البرلمان الآن باستقلال سكتلندا عن بريطانيا ، وبذلك أصبح العمل على إعادة السكتلندية مظهرا أساسيا من مظاهر الاستقلال الذي يطالبون به ، فأصبحت السكتلندية تدرس بجانب الانكليزية في جميع المراحل الدراسية ، ابتدائية وثانوية وجامعية . . ويقوم المجلس بالتعاون مع وحدة التعليم اللغوي الثنائي (التابع لمجلس الجزر الغربية وسكتلندا) بتحضير ونشر المواد التعليمية لهذا الغرض . كما بدأ المجلس باصدار مجلة دورية Lians . وقد تأسست جامعة في جزيرة سكاى باسم Sabhal Mo Oistag بهدف جعل السكتلندية لغة التعليم الوحيدة . كما يطالب المجلس الآن - على لسان سكرتيره David Hughes بأن يصبح

١٩٥٢ ظهرت المجلة الفصلية Gairm والتي تعنى بشؤون السكتلندية ، وفي عام ١٩٦١ أشرف مجلس السكتلندية على دراسة علمية لاستقصاء المهارة اللغوية بالسكتلندية لدى طلاب المدارس الابتدائية ، ووضعت امتحانات مقننة لقياس تلك المهارة . وفي المؤتمر الذي عقده المجلس مع الحزب الوطني عام ١٩٦٨ صدر قرار بتعيين عضو ناطق بالسكتلندية في مجلس التنمية السكتلندية ، وبدا أصبح المجلس ذا نفوذ سياسي (Pressure Group) . وتبع ذلك تعيين موظف واحد على الأقل ينطق بالسكتلندية في كل مكتب من المكاتب الادارية للمقاطعة ، كما خصصت منح خاصة ورسمية بهدف زيادة انتشار السكتلندية . وعلى سبيل المثال أعطيت جامعة كلاسكو منحة لوضع معجم تاريخي للسكتلندية ، كما تأسس مجلس لوضع كتب مدرسية بالسكتلندية ممولا بمنحة حكومية . وقد ظهر انتاج هذا المجلس في السبعينات ، وبدأت بعض الجامعات باجراء دراسات لغوية علمية في الصرف المقارن واللهجات وتاريخ اللغة ، والنقد الأدبي والفن الشعبي السكتلندي . وفي نشاط الحزب الوطني السكتلندي ازداد التركيز على اللغة ، فالتحق الحزب في مؤتمر عام ١٩٦٨ قرارا بإنشاء مكتب سكرتيرية السكتلندية للإشراف على وضع مخطط مفصل لسياسة الحزب اللغوية (Mackinnon) (3 — 1 : 1977)

رسم أجهزة التلفزيون ما لم تخصص الحكومة إحدى قنوات البث للويزية (الإذاعة البريطانية العالمية باللغة الانكليزية ١٩٧٩/١٠/٢٠ ، الساعة ٤٥ و ١٣) .

الصين

لا يوجد في الصين مجمع لغوي بالمعنى الذي نتحدث في هذا البحث . إلا أن محاولات للإصلاح اللغوي جرت وما تزال تجري في تلك المنطقة من العالم . وعليه فانه وأن تعلم المتحدث عن « مجمع اللغة الصينية » كما تحدثنا عن مجامع في دول أو مناطق أخرى من العالم فإن هذا البحث يعتبر ناقصا من ناحية تغطية مناطق العالم المختلفة في هذا المجال ، ومن الناحية المنهجية كذلك بدون التحدث عن مشكلات الصينية ومحاولات التخطيط لعلاجها . فإن التخطيط اللغوي في الصين لا يختلف جوهرًا عن التخطيط اللغوي في الدول شائعة المساحة متصلة اللغات .

ولكن قبل الخوض في العلاجات اللغوية التي وضعها المسئولون المعنويون بشؤون اللغة في الصين يحسن بنا أن نلخص الوضع بشكل مقتضب جدا .

يتلخص الوضع اللغوي في الصين في نقطتين أساسيتين :

للسكتلندية أقسام في جميع الجامعات على غرار أقسام اللغة الانكليزية (Wood ، 6 — 1 : 1977 . هذا من ناحية طموح المجلس كما يظهر في مطالبه ، إلا أن انتشار استعمال السكتلندية كلفة للتدريس لا يزال محدودا نسبيا .

وما زلنا في معرض الحديث عن مجامع اللغات غير الانكليزية في بريطانيا فيحسن بنا أن ننوه الى وجود حركة مماثلة في مقاطعة ويلز تدعو الى اعادة إحياء لغة ويلز . ففي عام ١٩٦٢ وجه أحد الوطنيين الويلزيين Saunders Lewis خطابا بعنوان « مصير لغة ويلز ، Tynged yr Iaith »؛ وقد استقطب مشاعر الناطقين بها والبالغ عددهم خمس المليون ونصف المليون من سكان المقاطعة ، خاصة الشباب منهم وحفزهم على مزيد من الاقبال على استعمال الويلزية (Mackinnon ، 2 : 1977) . ومن مظاهر تثبيت الويلزيين بلغتهم أن الحزب الوطني الويلزي (الذي يبلغ عدد أعضائه حوالي ٣٠ ألفا) تبني قضية إعادة إحياء اللغة ، وقد حصلت حوادث عديدة تبين مدى تعلقهم بلغتهم . ومن هذه الحوادث رفض الويلزيين استلام اشعارات الحضور للمحاكم الموجهة اليهم بالانكليزية ، وإزالة إشارات المرور المكتوبة بالانكليزية فقط .

وفي شهر تشرين الأول عام ١٩٧٩ دعا سكرتير الحزب الوطني الويلزي الى عدم دفع

وكما يظهر من هذا الوصف الموجز لهذا النظام فإن الأشكال الرمزية للأفكار كبير جدا . ويضاف الى ذلك أن نطق هذه الأشكال يختلف من لغة صينية الى أخرى مما يجعل التفاهم بين

ثانياً : نظام كتابة الصينية هو نظام الرسم الصوري ، أي الرمز يرسم الى الفكرة (لا الى الصوت كما هو الحال في معظم لغات العالم الأخرى) . وهذا النظام هو تطوير لنظام الرمز الى الشيء بصورته والذي كان استعماله دراجا لمدة عشرين قرنا (بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد) في الرقعة الممتدة من مصر الى الصين .

يرمز في النظام الصيني الحالي الى الفكرة بشكل معين ويجمع أكثر من شكل للدلالة على فكرة كذلك . وهذا يجعل عدد الاشكال أقل نسبيا من عدد مدلولاتها الفكرية . فمثلا

اللهجات واللغات ، أو نشر لهجة أولغة واحدة في الصين .

ففي مجال الكتابة قام في سب عام ٢١٣ قبل الميلاد بوضع قائمة من الرموز يبلغ عددها حوالي ثلاثة آلاف رمز اختارها من بين آلاف عديدة كانت تستعمل . وقد قام بهذا العمل بناء على تكليف من هوانك دي الذي وحد الصين تحت حكمه واراد أن يستعمل جميع رعاياه نفس الرمز لنفس الفكرة بدلا من الرموز المتعددة لنفس الفكرة لدى الانظمة السياسية التي كانت سائدة قبل توليه الحكم . ونعبد الى ذهن القاريء ما ذكر أعلاه من أن الهدف الأول لكل من المجامع المذكورة أعلاه كان وضع تنظيم مركزي للاستعمال اللغوي في سبيل اتحاد نوع من الوحدة اللغوية التي تركز السلطة المركزية أو تجمع الأمة .

وعندما تأسست الأكاديمية الصينية للعلوم في القرن الماضي كان من بين لجانها لجنة متخصصة في مجالات اللغة . كما قامت لجنة أخرى بعد قيام الجمهورية عام ١٩١١ ، بتبعها لجان عديدة بشكل غير رسمي . وقد ركزت جميع هذه اللجان اهتمامها على ناحية واحدة من التخطيط اللغوي وهي اصلاح نظام الكتابة .

وكانت في صفوف هذه اللجان أو الهيئات (كما كان يدعي بعضها) دعوتان : دعوة الى تبسيط النظام نفسه ودعوة الى استعمال أبجدية

الناطقين بهذه اللغات شبه معلوم على مستوى المحادثة . أما على مستوى الكتابة فإن التضاهم غالبا ما يكون شبه تام . وربما تكون هذه هي الميزة الإيجابية الوحيدة لهذا النظام على أنظمة الكتابة الأبجدية . وكدلالة على هذه الميزة نورد المثال التالي : إذا وجد القاريء ذو اللام بالأبجدية اللاتينية العبارات التالية :

Drei und funf ist acht. (German)

Tres y cinco son ocho. (Spanish)

Trois et cinq sonne huit. (French)

Uc arti bes sekizdir. (Turkish)

فانه لن يستطيع فهم المقصود بها الا اذا كان ذو الملم باللغات نفسها . أما اذا عرضت فكرة هذه العبارات بنظام الرمز الى الفكرة بشكل ، وكان القاريء ملما بهذا النظام (ولا شك في ذلك كما اعتقد) فلن يجد القاريء صعوبة في فهمها ، فهي مجرد 8=5+3 حيث يدل كل رمز الى فكرة وليس الى نطق ، بل أن نطق العبارة يختلف من لغة الى أخرى . وبهذا فان نظام الرمز الى الأفكار باشكال يقطع حواجز اللغات المختلفة .

كما سبق يتبين بوضوح أن هناك مجالين أمام المعلمين بشؤون اللغة في الصين بمجال تبسيط نظام الكتابة أو استبداله ، وبمجال توحيد

وفي عام ١٩٥٤ تقدمت لجنة البحوث بمشروع لتبسيط الكتابة قلصت فيه عدد الرموز الاساسية الى ٥٤٤ شكلا . كما اشتمل المشروع على اقتراح بتقليص عدد الحظوظ في كل شكل من معدل ستة عشر خطأ الى معدل ثمانية خطوط . وقد مر للمشروع في المراحل الادارية السياسية ووافقت عليه اللجنة المركزية السياسية للدولة عام ١٩٥٦ . وفي نفس السنة قدم مشروع آخر باستعمال الأبجدية اللاتينية بشكل معدل على أساس استعمالها بشكل تجريبي ووافق مجلس الشعب القومي الصيني عام ١٩٥٦ . وهذا النظام المعدل هو المعروف الآن باسم (Lehman, 1975 : 46 — 49) pin yin . وقد طبق النظام هذا في المدارس بشكل تجريبي الا أنه لم يتخذ قرار برفضه أو تبنيه عقب انتهاء الفترة التجريبية . ولا يزال كلا النظامين دارجين في المراحل التعليمية الأولى في عدد من المناطق . أما على المستويين الرسمي والشعبي فإن النظام الصيني المبسط هو الدارج ، وعلى الصعيد الثاني من التخطيط اللغوي في الصين - مجال تعدد اللهجات واللغات واللغة القصوى والمصطلحات المتخصصة - بدأ توجيه الاهتمام اليه في القرن التاسع عشر ايان حكم عائلة تشنك . ففي عام ١٨٨٢ أسست كلية الترجمة وبدأت انتاجها بوضع معجم في المصطلحات الكيميائية . وفي عام ١٨٩٨ أسس مكتب حكومي للترجمة وذلك استجابة للحالة الملحة الى تنمية المعارف في

مستعملة من الأبجدية اللاتينية - ولكن الحوار لم يصل الى موقف موحد أبدا - كما أن الحرب اليابانية الصينية والحرب الأهلية في الصين نفسها أدت الى تلاشي معظم هذه الهيئات .

وبعد عام ١٩٤٩ عادت بعض هذه الهيئات الى العمل . وكان من أشهرها « اتحاد اصلاح الكتابة الصينية » برئاسة يوتشانك أحد أعمدة الدعوة الى الأبجدية المستعملة من الأبجدية اللاتينية قبل الحرب الأهلية . الا أن حكومة ثورة ١٩٤٩ حددت هذه اللجان اطار وخطوط العمل اللغوي التي يمكنها أن تعمل ضمنها . ففي مجال الكتابة كانت السياسة العامة - كما نشرتها وزارة التربية عام ١٩٥١ - وهي تبسيط نفس النظام دون اللجوء الى أية أبجدية لاتينية أو غيرها . وفي نفس الوقت شكلت وزارة التربية لجنة داخلية باسم « لجنة البحوث لاصلاح نظام الكتابة » .

وازاء هذا القرار السياسي بالنسبة للتخطيط اللغوي جاء المدح والدهم والتأييد بالاثبات التربوي واللغوي ليس فقط من دعاة الإبقاء على نفس النظام بل كذلك من معظم الدعاة الى الميزات الايجابية لاستعمال الأبجدية اللاتينية المعدلة . وبهذا تركز العمل في هذا المجال على تبسيط نظام الكتابة الصيني (وأن ظهر اتجاه في « الاتحاد » دعا الى استعمال الأبجدية السريالية المستعملة في كتابة اللغة الروسية - وإهمل هذا الاتجاه فيما بعد) .

لغوية بشأن الفصحى اعتمدت فيها لهجة ييكن كاساس لفصحى موحدة مشتركة بين جميع سكان البلاد عارض الحزب الشيوعي هذه السياسة بشدة ، واعتبرها في بياناته مثالا على السياسة التصفية للحكومة آنتل . كما وصفها بأنها نوع من الاستعمار الثقافي الشمالي على جنوب الصين ، وانا ستؤدي الى تكريس الطبقة في البلاد . وكما حصل بالنسبة لمشاريع اصلاح الكتابة قبل عام ١٩٤٩ جرى بالنسبة للاتفاق على موضوع الفصحى .

غير أنه بعد أن تسلم الحزب الشيوعي الحكم في الصين تغير موقفه بالنسبة للاتفاق على موضوع للفصحى المقترحة المستمدة من لهجة ييكن ، ودعا الى تبنيها . واستشهد مفكروا الحزب تأييدا لموقفهم الجديد بأقوال ستالين في كتابه « الماركسية ومشكلات اللغويات » . وهكذا قلب الحزب الشيوعي معاييرهِ وقال ان فرض الفصحى لا يعني تكريس الطبقة بل يعمل على إلغاءها . وعليه فقد أصبحت السياسة اللغوية الجديدة تقضي بتطوير لهجة ييكن لتصبح الفصحى المشتركة بين جميع سكان الصين . وشكل الحزب المركزي لجنة لغوية ضمن الاكاديمية الصينية للعلوم لتعمل على تحقيق هذا الهدف : (Barnes, 1974 : 477 — 457)

عقدت اللجنة مؤتمرا عام ١٩٥٥ دعت اليه مائة وعشرين لغويا من مختلف قطاعات الدولة

العلوم الدقيقة (الطبيعية) والاقتصاد السياسي . غير أن أكثر هيئة وفرة في الانتاج في هذا المجال كان « معهد التجميع والترجمة » الذي شكل ضمن وزارة التربية في الثلاثينات من القرن الحالي . فقد وضع هذا المعهد خمسة وعشرين معجما للمصطلحات المتخصصة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبية والهندسية ، وخمسة مجلدات من المعاجم في الاقتصاد والاحصاء وعلم النفس والتربية .

وفي الوقت الذي لم ينشأ خلاف حول وضع المصطلحات المتخصصة ، فان الآراء حول اللهجات واللغات والفصحى كانت غير متقاربة . فقد ظهر اتجاهان موازيان للاتجاهين بالنسبة لاصلاح نظام الكتابة . فانصار تبسيط نظام الكتابة الصيني دعوا الى الاتفاق على ايجاد فصحي موحدة والغاء استعمال اللهجات المحلية واللغات الأخرى في التعليم والانتاج المكتوب . أما انصار تعديل الأبجدية اللاتينية للصينية فقد ايدوا فكرة تطوير فصحي لكل لهجة ولغة ، واضافة لذلك ايدوا تطور فصحي مشتركة بين جميع اللهجات واللغات (نفس المصدر) .

ويبدو واضحا أن الاختلاف في وجهات النظر هذا كان يسير معظم الاحيان مع الاختلافات الحزبية السياسية الداخلية . اذ عندما وضعت وزارة التربية عام ١٩٣٢ سياسة

يتسنى لهم التمكن منها . وبالتالي يقترب الاستعمال الدارج بين الناس من الفصحى تدريجياً . وأضاف بأن الهدف من نشر الفصحى في جميع مناطق الصين ليس الغناء أو منع استعمال اللهجات ، بل العمل على رفع الحواجز اللغوية التي تميزها بعضها عن البعض الآخر . (Barnes, 1974 : 463) .

أما في الستينات فقد تحول الاهتمام بعيداً عن المشكلات اللغوية إلى حركة الثورة الثقافية . ولم يعد الاهتمام بها من جديد إلا في السنوات القليلة الماضية . ومن نتائج التحليلات الحديثة لسياسة نشر الفصحى يبدو أنها نجحت في المدن الكبيرة وفي مناطق اللهجات واللغات الصينية . أما في مناطق اللغات غير الصينية وخاصة البعيدة منها فقد أعيد استعمال تلك اللغات كنقطة البداية في المرحلة التعليمية الأولى ، ومن ثم الانتقال تدريجياً إلى استعمال الفصحى المشتركة كأحدى مواضيع الدراسة وليس كلفة التحصيل الأولى . (Lehman , Op. cit.)

مجمع العبرية

بدأت نواة حركة إعادة العبرية للاستعمال الواسع بين اليهود مع ظهور الحركة الصهيونية . ويقرن عادة اسم الزاردين يسودا (١٨٥٨ - ١٩٢٢) بهذه الحركة اللغوية . ويجدر القول من البداية أن الحركة اللغوية هذه - مثلها في ذلك

والاحزاب الشيوعية الأخرى . وانتخبت من بين الحاضرين لجنة أسميت « لجنة اصلاح اللغة » . وبدأت اللجنة عملها بوضع اسم للفصحى المقترحة وهو $p'u - t'ung$ - hua والذي يعني « اللغة المشتركة » .

وعقب انتهاء المؤتمر اتخذت توصية رفعت إلى مجلس الدولة تطلب الموافقة على استعمال الفصحى في جميع المدارس بدلاً من اللهجات واللغات الأخرى . وإضافة لهذا فقد هاجم المجتمعون في بيانهم النهائي دعاة تعدد اللهجات واللغات ووصفهم بالعمالة لافكار اللغويين ومن حمل أفكارهم ودعا بدعوتهم ، وإن أفكارهم ما هي إلا مجرد تعوية أو قناع للدعوة إلى تقسيم الشعب الصيني إلى دول متعددة . وقد جاء أشد هجوم من مندوب الحزب الشيوعي الروماني Graur .

وفي المؤتمر الثاني للجنة عام ١٩٥٨ حضر الجلسات رئيس الوزراء تشوان لاي . وفي خطاب الانتاح أفصح تشوان لاي عن رأيه بالتسليم بالصعوبة التي يواجهها الصينيون في التمكن من الفصحى التي فرضت . واقترح بأن توضع في المراحل الأولى للتعليم (للصغار والكبار) عدة معايير تتدرج في مستويات قبولها . فالمستوى المطلوب من المدرسين والمذيعين والمتقنين يجب أن يكون عالياً بينما ، يقل مستوى أقل فصاحة من بقية المواطنين حتى

مثل بعض الأمثلة المذكورة آنفاً - كانت إحدى مكونات ومصادر استقطاب الحركة السياسية . ولا يمكن النظر في منجزات هذه الحركة في معزل عن الحركة السياسية (كما يزعم العديد من الكتاب في هذا الموضوع) ..

وضع بن يهودا خطة من سبع مراحل أو خطوات لإعادة استعمال العبرية كلغة قومية لمجموعة معينة في كيان سياسي يحمل طابع تلك المجموعة . وكانت المراحل / الخطوات هي : نشر نمط البيت الناطق بالعبرية وربط هذه الفكرة بنمط البيت اليهودي القديم ، وتشكيل النوادي والاتحادات الناطقة بالعبرية ، وإصدار صحيفة بالعبرية في فلسطين (إذ كان هناك العشرات من مثيلاتها في مناطق أخرى من العالم - انظر دائرة المعارف العبرية بالانكليزية) ، واستخدام العبرية في المدارس اليهودية في فلسطين ، ووضع معجم عبري ، وتشكيل لجنة دائمة متخصصة في تطوير وتعزيز العبرية (Kelman, 1973) .

ويقسم موشي ناهر (١٩٧٣) تاريخ مجمع العبرية الى ثلاث فترات : الأولى من تاريخ تأسيس لجنة اللغة العبرية (١٨٩٠) الى عام ١٩٢٠ عقب الاحتلال البريطاني لفلسطين والثانية من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٨ وتأسيس الدولة اليهودية في فلسطين ، والثالثة من ذلك التاريخ حتى الوقت الحاضر .

يسلو واضحاً من الاهداف التي وضعتها اللجنة لدى تأسيسها أن الحركة الصهيونية كانت ترى أنه لا يمكن الفصل بين الدين واللغة من جهة ، ولا بين الدين والسياسة من جهة ثانية ، ولا بين اللغة والاهداف السياسية من جهة ثالثة . ومن العبث الأكاديمي محاولة الفصل بين العناصر الثلاثة هذه في هذه الحالة على الأقل (Deutsch, 1968) . هذا مع العلم أن معظم الكتاب عن العبرية يعتمدون أقوال اليهود في هذا الموضوع أمثال Kellman, Fishman, Nahir, Heyd, Blanc,) (Hoffman, Landau, Morag, Rabin, Hazai والذي ملخصه أن اختيار العبرية كان بناء على افضليتها للغوية فقط (Nahir, 1973 : 106) وان المهاجرين اليهود الى فلسطين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانوا بحاجة الى لغة تجمعهم كمجموعة أقلية في فلسطين لا كدولة . فلو لم يكن في خططهم إقامة دولة لفعلوا مثلاً فعلت وتفضل أية أقلية تهجر الى بلد آخر ، وهو اتخاذ لغة البلد المهاجر آليه كلغة أساسية (وربما الإبقاء على لغة المهاجر في مجالات محدودة) . وكان هذا ما حصل على سبيل المثال ، بالنسبة للمهاجرين الناطقين بلغات مختلفة الى الولايات المتحدة الأمريكية منذ بدء الهجرة الى الآن (Abuhamdia, 1978) . وحيث أن المهاجرين اليهود الى فلسطين لم يكونوا من خلفية لغوية واحدة ، بل من خلفيات لغوية عديدة ،

مع أن بعض اليهود المتدينين الغربيين عارضوا استعمال العبرية لقدسيتها في الأمور الدنيوية (المصدر نفسه) .

تركز عمل اللجنة في هذه المرحلة على اشتقاق ونحت مفردات جديدة من جذور عبرية قديمة وأرامية وكنعانية وعبرية ، وكذلك على وضع أسس صوتية للفظ هذه المفردات . ومما يجدر ذكره أن اللجنة قررت بالاجماع عدم اقتراض أية كلمة من أية لغة أوروبية حتى ولو كانت دارجة في الاستعمال (المصدر نفسه ص ١١٥) . ومن القوائم التي وضعت في هذه الفترة قائمتان في مواضيع متخصصة وهي : الألعاب الرياضية وعلم النبات والتفذية والأثاث والكهرباء والتجارة والجغرافيا والكيمياء (المصدر نفسه ص ١١٨) .

وبالرغم من انتاج وانجازات اللجنة في هذا المجال إلا أن استعمال العبرية في التدريس واجه رفضاً من قبل بعض منظمات التعليم اليهودية وعلى رأسها منظمة اينترا الألمانية ، والتي كان لها عدة مدارس في فلسطين وأهم هذه المدارس المعهد الذي أصبح فيما بعد معهد التخنيون في حيفا . وكان خلاف هذه المنظمة قوياً مع انتصار العبرية للدرجة أن هذا الخلاف أطلق عليه اسم « حرب اللغات » . وقد كان رد الفعل اليهودي شديداً اثر هزيمة منظمة اينترا في هذه الحرب ، اذ انتشر استعمال العبرية في المدارس اليهودية

فمن الواضح أن العبرية لم تكن لغة أية مجموعة منهم ، بل أن اللغة المشتركة بين معظم المهاجرين من أوروبا كانت (Yiddish) . والسؤال الذي لا نجد له اجابة في أبحاث اولئك الكتاب هو : لأي سبب تركت اللغة المشتركة بين مهاجري أوروبا ، ولأي سبب تركت العربية وهي لغة البلد المهاجر اليه (كما حصل في أمريكا مثلاً) ؟ ويمكن طرح السؤال التالي كذلك (وان كنا لا نجد له اجابة من اولئك الكتاب) : لأي سبب لم يقع الاختيار على لغة أكبر أو أقوى مجموعة من بين المهاجرين ؟ ان الدافع الحقيقي لاختيار العبرية هو ما ذكر اعلاه ، وهو أن العبرية لها قيمتها الدينية والتي اعتمدت عليها الحركة السبامية الدينية اليهودية . وهذا واضح في أقوال بن يهودا - مؤسس اللجنة - والتي ترك عادة دون النظر في مدلولها البين أو يعمل ذكرها كلية . قال بن يهودا « ان العودة الى العبرية هو منطلق العودة الى أرض اسرائيل - على حد قوله - وانه بهذا السبيل فقط يمكن تحقيق الخلاص لليهود . فكما أن اليهود لا يمكن أن يصبحوا أمة في دولة الا اذا عادوا الى أرض أجدادهم ، كذلك لا يمكن لهم أن يكونوا أمة في دولة دون العودة الى لغة أجدادهم ، لا ليستعملوها في الصلوات فحسب بل في حديث الشيوخ والشباب والنساء والأطفال وفي كل شؤون الحياة وفي جميع ساعات النهار والليل مثلما تفعل جميع الأمم في دولها . » (107 : Nahir , 1973) هذا

بشكل سريع وبذا أصبح ينظر الى اللجنة على أنها حامي المجتمع اليهودي .

هذا عن اختيار اللغة أما عن اختيار نظام الكتابة فلم يكن موضع خلاف على الإطلاق بين أعضاء المجلس . إذ كان أمر استعمال الأبجدية العبرية إما بديها أو أمراً لا يحتاج إلى البحث في أفضليته . غير أن الخلاف الوحيد الذي حصل كان حول الاختيار بين نظام الأبجدية في العهد القديم أو نظام الكتابة الذي درج استعماله بعد العهد القديم . ولأن لم يجد هذا الخلاف حلاً حاسماً (Rabin, 1971) .

ومن معالم الفترة لاعادة استعمال العبرية تأسيس الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ . ولم يحصل خلاف جنري حول استعمال لغة التدريس فيها سواء في المواضيع الأدبية أم الانسانية أو العلمية ، هذا مع العلم أن بعض اليهود كانوا ولا يزالون يعتقدون أن الألمانية أكثر كفاية من العبرية .

أما من ناحية عمل اللجنة فقد تميزت الفترة الثانية بظهور جهود فردية من خارج اللجنة دعمت عمل أعضاء اللجنة . وقد تمثلت هذه الجهود في قيام بعض الكتاب والصحفيين والمترجمين باشتقاق أو نحت مفردات جديدة في أعمالهم ، أما لعدم توفر مفردات من وضع اللجنة أو لعدم استساغة مفردات اللجنة (Blanc, 1954 : 388, in Nahir, 1973 : 127) . وكانت هذه الجهود نقطة

البعد في دخول مفردات مقترضة بكاملها أو معدلة جزئياً من اللغات غير السامية . غير أن دخول مثل هذه المفردات حفز اللجنة على أن تكثف جهودها من جهة وأن تأخذ بأراء من خارج اللجنة حول المفردات التي تضعها . ومن المواضيع المتخصصة التي وضعت لها مفردات خلال هذه الفترة المواضيع التالية : النسيج وعلم النبات والبناء والمصرفية وعبارة المجاملة والجغرافيا وتربية الأغنام والرسم والنحو والصوتيات والملابس وعلم الحيوان والتربية التمهيدية والكهرباء والهاتف والملاحة والدفاع المدني والكيمياء والحياطة وكيمياء الاحياء الدقيقة والتبريد والتدفئة والاشغال اليدوية والاعمال الخشبية اليدوية والفيزياء ومسك الدفاتر وعلم النفس والصبغة والدهان والاذاعة والعلوم الطبية والشعر والمسرح والرياضة . وكانت هذه القوائم تنشر وتجد طريقها الى الاستعمال الدارج خاصة في التعليم ووسائل الاعلام المختلفة . وحسب احصائيات اليهود فقد كانت نسبة الناطقين بالعبرية عام ١٩٤٨ ٧٢٪ من مجموع السكان اليهود (المصدر نفسه ص ١٣١) . وفي هذه الفترة بدأت مجلة اللجنة / المجمع الحالية بالظهور - ١٩٣٥ .

تبدأ الفترة الثالثة بالنسبة للجنة باعلان العبرية لغة دولة اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ . ونوقش وضع اللجنة الاداري والرسمي في الكنيست عام ١٩٥٣ ورأى

تأويحي للعبرية يغطي فترة الفين وخمسة عام . ويتوقع أن يتم انجازه خلال هذا العقد (الثمانينات) . وإذا قارنا هذه الفترة المقدرة تقريبا بفترات انجاز المعاجم التاريخية فاننا سنجد أن الفرق شاسع جدا . وهذا يعود الى أن العمل على هذا المعجم قد وزع على عدد من فرق العمل التي يختص كل منها بمجال معين . ويضاف الى هذا التوزيع الدعم السياسي والمالي من الدولة ، ومثل هذا غير موجود بالنسبة لمعظم المعاجم في العالم .

ومن المعاجم التي وضعت في هذه الفترة ما يلي : الاسمنت والعلوم والآلات المائية وهندسة المواد والعمل والعمال والهاتف والعلوم البحرية والموسيقى والارصاد وميكانيكيات المحركات والادارة العامة والفلاحة والتجارة والسدود والتصوير والفخاريات والاتصالات والاذاعة والتشريع الطبي واللحام والمجاري وهندسة المعادن وهندسة التربة .

أما منشورات المجمع التي لا تزال تصدر منها :

- (١) محاضر الجلسات والتي تصدر خمس مرات في السنة .
- (٢) قوائم المقررات والمصطلحات الجديدة .
- (٣) مجلة لساننا .
- (٤) مسلسل « لغتنا للعامة » .
- (٥) النشرة الشهرية « تعلم لغتك » .

البعض أن تحمل اللجنة ويترك أمر اللغة للمناطق بها بشكل عام وللمهتمين بها بشكل خاص . غير أن الغالبية رأوا أن استمرار اللجنة ضروري خاصة وأن ترك اللغة دون هيئة من المتخصصين لن يؤدي الا الى حالة من عدم الاستقرار والتوازن اللغوي ، اضافة الى أن دوائر الحكومة تحتاج الى هيئة لغوية مركزية . وأخذ الكنيست قرارا بتحويل اللجنة الى مجمع لغوي على غرار المجامع الأخرى في العالم وسجل المجمع بقانون في الدستور . واعطى القانون في نص إحدى مواده السلطة للمجمع في أمور النحو والتهجئة والمصطلحات . وبهذا أصبح لزاما على جميع المؤسسات والهيئات التعليمية والدوائر الحكومية والبلدية التقيد بقرارات المجمع وإنتاجه .

وقد نص المجمع لعام ١٩٥٤ على مهماته كما يلي :

- (١) جمع مواد لغوية عبرية وإجراء أبحاث تاريخية عن العبرية في جميع العصور .
- (٢) القيام بأبحاث في النحو العبري .
- (٣) ترشيد وتطوير وتعزيز إمكانات العبرية من الناحيتين النظرية والعملية في النحو والمقررات والمصطلحات المتخصصة والأبجدية والتهجئة وكتابة المواد اللغوية من غير العبرية بهذا النظام (المصدر نفسه ص ١٣٦ - ١٣٧) .

وفي الستينات بدأ العمل في وضع معجم

غير تركي الأصل فيها واستبداله بما هو تركي في أي عصر من تاريخ تلك اللغة (Heyd) (20 : 1954).

٦) النشرة الدورية غير المنتظمة الصادر
و الاستعمال الصحيح » (Rabin) (6 : 1976).

مجمع التركية Turk Dil Kurumu

شكل آتاتورك عام ١٩٢٨ الجمعية اللغوية التركية، وحدد مهماتها في إلغاء استعمال الأبجدية العربية (ويجدر التنويه بأن الكتاب الغربيين يسمونها الأبجدية الفارسية) واستبدالها بالأبجدية اللاتينية والعمل على «تنقية» المفردات التركية الدارجة. ويرور آتاتورك الشطر الثاني من مهمتها بالاعتماد على نظرية لغوية جديدة تنسب إليه. ومؤدى هذه النظرية أن اللغة التركية هي من الناحية التاريخية أم جميع اللغات، وأن اللغات الأخرى قد نشأت وتطورت منها، وأن تطور تلك اللغات طوال العصور التاريخية ما كان ليحصل لو لم تلق اللغة التركية ضوءها لتتبع الطريق أمام تلك اللغات. وقد شبه هذا الوضع اللغوي بوضع الشمس والكواكب السيارة التي تستمد نورها من الشمس، وعليه فقد أطلق على هذه النظرية اسم «نظرية الشمس اللغوية» (Gal- (163 : 1971, lagher. وبهذا أصبح وضع التركية المقترح أو المفروض يقع خلف نظرية يمكن أن تشد إليها الناطقين بالتركية، إذ أنه من المتعارف عليه بين السياسيين واللغويين كذلك أن الخطأ - أية خطأ - نجد رواجاً وربما قبولاً أكثر إذا استندت إلى منطلقات عقائدية معينة تلقى إعجاب المستهدفين بالخطيط.

كان استيلاء مصطفى كمال آتاتورك على السلطة في تركيا يهدف من بين ما يهدف إليه بتر تركيا عن العالم الإسلامي (Tietze) (264 : 1975). وقد كان من الوسائل الرئيسية لتحقيق هذا البتر تنفيذ الإجراءات اللغوية التي فرضها آتاتورك. فالتركية كلغة تنتمي إلى العائلة اللاتينية. وكانت تتضمن عدداً كبيراً من المفردات والمصطلحات المقترضة من الفارسية والعربية، لكون اللغتين لغتي الثقافة والدين، كما كانت التركية تكتب بالأبجدية العربية، وذلك لنفس السبب المذكور ونتيجة للتمازج الوثيق بين الأتراك والشعوب الناطقة باللغتين الآخرين لكونهم جميعاً مسلمون. ولم يكن بإمكان آتاتورك إجراء التغييرات اللغوية بجرة قلم فقط، فقد كان عليه أن يجد مبررات تسهل عليه فرض تلك الإجراءات. فادعى آتاتورك أن التركية أنتد كانت معقدة وغير متجانسة التركيب من الناحية الصرفية والمجمعية، وأنها بذلك لم تكن في متناول عامة الناس. ومن هذا المطلق دعا إلى التفسير تحت ستار «التبسيط» بإسـم «التركـي». ويقصد بالتركـي نبذ كل ما هو

يكن باستطاعتهم اعلان معارضتهم خشية البطش بهم) كانوا يذكرون في جلساتهم الخاصة أن الاقتراض من اللغات الأوروبية سيؤدي الى فوضى لغوية (Gallagher : 165 : 1971 . وقد وصلت نسبة الاقتراض من هذه اللغات الثلاث ٢٨ ٪ من المفردات الجديدة . وقد برر المجمع ادخالها بالاعتماد على نظرية أتاتورك الشمسية ، وهوان هذه المفردات هي غريبة عن التركية سطحية فقط وإن أصلها تركي على أي الأحوال (المصدر نفسه ص ١٧١) .

وقد كانت نتيجة ذلك أن القاريء كان يحتاج الى ترجمة المكتوب أولا الى التركية المحكية . وبالتالي فقد بدأ المحررون اجراء وضع المرادفات بالتركية الدارجة ، اما في الهوامش أوبين أقواس بعد الكلمات الجديدة . وبهذا أصبحت عملية القراءة تؤدي الى انفصام فكري في القاريء ، وهو ما يصرف بين اللغويين المختصين بلفظ (Schizoglossia) وذلك لأن القاريء يكون أمام الاستعداد النفسي بأنه سطحية . يتعامل مع نفس اللغة بينا الحقيقة تختلف عليه في الواقع (Tietze , 1975 : 275) . حتى أن بعض المتقنين في الوقت الحاضر يجدون قراءة قصيدة كتبت في القرن الثالث عشر أسهل في الاستيعاب من قراءة ما كتب أبان هذه الفترة (Cornyn , 1962,75 : 273) إذ أنه بالرغم من أن الهدف المصرح به كان احراز

وطلب أتاتورك من الجمعية أن تنسق عملها مع وزارة التربية والجيش وحزبه السياسي (الوحيد في تركيا آنئذ) . وبدأت الجمعية بوضع قوائم من المفردات الجديدة جمعتها في معجم ، كما وضعت معجم مترادفات ومعجم مشتقات . وقد فرض على محرري الصحف وأصحاب المطابع استعمال هذه المفردات بدل المفردات المستأصلة . كما وضعت الجمعية نظام كتابة مستمد من الأبجدية اللاتينية استخدم فيه التنقيط كنوع من الترقيم لسد الفجوة بين الاصوات التركية ورموزها بالأبجدية اللاتينية (كما هو ظاهر في اسم المجمع أعلاه) . وفي أقل من سنة كانت جميع المطبوعات الجديدة بالأبجدية الجديدة (Heyd : 35 — 50 : 1954) .

وفي عام ١٩٣٢ صدر مرسوم أتاتوركي يحل الجمعية وتشكيل مجمع التركية . وقد وضع أتاتورك له المهمات التالية : جمع المفردات التركية الأصل من اللغة المحكية والنصوص التركية القديمة ، وتحديد أسس اشتقاق ونحت المفردات (ولم يكن هناك خلاف بين أعضاء المجمع على هاتين المهمتين) ، واقتراض مفردات من الفرنسية والالمانية والانكليزية (في حال غياب الجذور التركية) بدل المفردات العربية والفارسية . لكن هذه السياسة كانت موضع خلاف بين المجمعين . إذ أن معارضي الاقتراض من اللغات الأوروبية (والذين لم

اللاتينية ثم الغت ذلك القرار فيما بعد وفرضت عليهم استعمال الأبجدية السيريلية ، بحجة أنها أكثر ملائمة للتركية من الأبجدية اللاتينية . فكيف إذن يمكن أن تكون السيريلية هي المثل للتركية في المنطقة السوفيتية وتكون اللاتينية هي المثل لنفس اللغة عند أتاتورك ؟ (ص ١٦٤) . من هذا التسؤل يتبين لنا أن القرارات في التخطيط اللغوي تتبع في أكثر الأحيان من منطلقات غير لغوية صرفة ، وأن التسوية اللغوي أو التعليمي غالبا ما يكون مجرد قناع لدوافع سياسية أو عقائدية أو غير ذلك .

وبعد مدة من وفاة أتاتورك (عام ١٩٣٨) فقد المجمع سلطته اللغوية وأوقفت الدولة تمويله ولم يعد من المؤسسات الرسمية باعتبار أن عمله (ليس في مصلحة الشعب ، Fishman) (١١ : ١٩٧١) .

لجنة شونا The Shona Committee

تردد اسم هذه اللغة في أجهزة الاعلام حديثا فيما يتعلق بمفاوضات الاستقلال ونقل السلطة الى السود في زيمبابيا . فمما ورد في الأنباء عن روديسيا أن زعماء الجبهات يناطبون الجماهير بالانكليزية الا أن هؤلاء الزعماء يستمعون بمترجين لينقلوا تلك الخطابات قرويا من الانكليزية الى لغة الجماهير وهي لغة شونا .

اشتق اللفظ « شونا » من « تشيشونا » وهو

صفاء لغوي الا أن التغيير ادى الى تذبذبات في الاستعمال اللغوي ، وإلى نقصان الصفاء اللغوي عما كان عليه قبل هذه الاجراءات . فقد كان الافتراض قبل التغيير من لغتين ، بينما أصبح بعد التغيير من ثلاث لغات . وإذا أضفنا الى وضع القوضى اللغوية هذا الفجوة التي ظهرت بين الدارسين حسب النظام القديم والدارسين حسب النظام الاتاتوركى فإن النتيجة كانت « مستوى ملحوظا من الفقر اللغوي » (ترجمة الكاتب ، Tietze) (٢٧٥ : ١٩٧٥) . ويعلق Gallagher (١٩٧١) على حصيلة سياسة أتاتورك فيقول :

« ان الأتراك المعاصرين هم الشعب الوحيد في العالم المعاصر الذي يحتاج الى ترجمة ما كتب من تراثه أقل من خمسين سنة . فان القاريء التركي العادي لا يستطيع قراءة خطاب أتاتورك الذي القاه عام ١٩٢٧ واستغرق ستا وثلاثين ساعة في مؤتمر الحزب الجمهوري والمعروف باسم (Nutuk) « نطق » . كما أن دستور الجمهورية الأول الذي كان ساري المفعول من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٦٠ والذي أعيدت صياغته عام ١٩٤٥ تصعب قراءته على الانسان التركي العادي . ثم أن تغيير نظام الكتابة (من العربية الى اللاتينية) اتخذ بنزعة الادعاء بان الأبجدية العربية غير ملائمة للتركية . لكنه من المعروف أن التركية هي كذلك لغة التركمان القاطنين في أواسط آسيا وإن السلطة السوفيتية كانت قد فرضت عليهم استعمال الأبجدية

البانتو المشهور كليمنت دوڭ ليقوم بنفس مهمة اللجئة ، وليقدم تقريراً بذلك الى الجمعية التشريعية (Ansre, 1974 : 378) .
(ff.)

ويعد عامين قدم دوڭ تقريراً ذكر فيه ان اللهجات تشترك في مفردات كثيرة وسمات صوتية أساسية وسمات نحوية كذلك ، وان كانت بعض تلك اللهجات أقرب الى بعض اللهجات من غيرها . وبذلك سوغ تصنيفها في المجموعات الستة المذكورة أعلاه . كما بين قناعته بأن تلك اللهجات سواء منفردة أم في مجموعات متقاربة ما هي الا فصائل لغة واحدة . وعليه فقد أوصى بأن يستصفي من تلك اللهجات لغة واحدة (وهذا لا يختلف في جوهره عن توصيات اللجنة التي اعملت) . كما أخذ دوڭ برأي اللجنة بالنسبة للاسم المقترح . أما اقتراحاته فتلخص في التالي :

- أ - أن يكون في روديسيا لغتان رسميتان : الأولى في منطقة مجموعات اللهجات الستة والثانية في منطقة ندييلا .
- ب - أن تكون شونا هي اللغة الرئيسية .
- ج - أن يستمد نحو شونا من مجموعتي اللهجات كرانكا وزيزورو .
- د - أن تستمد المفردات بشكل رئيسي من مجموعات اللهجات زيزورو وكرانكا ونداو وبشكل بسيط جداً من مجموعة كوريكوري ، وإن لا يشجع استعمال المفردات من اللهجات الأخرى .

اسم إحدى اللهجات المحكية في روديسيا . وبالنسبة للمهتمين بالسياسات اللغوية والتخطيط اللغوي فإن شونا تترن بظاهرة فريدة من نوعها في التخطيط اللغوي ، ذلك أن شونا هي نتاج عملية استصفاء لغوي لست مجموعات من اللهجات المنتشرة هناك وهي : كوريكوري ، زيزورو ، كرنكا ، نداو ، كالانكا ، منيكا . وشونا هي اللغة الوطنية ولم تصبح اللغة .

أما تاريخ هذه اللغة فيمكن تتبعه من ١٩٢٩ . ففي ذلك العام شكلت حكومة روديسيا لجنة للنظر في امكانية ايجاد لغة واحدة للاستعمال في المجالات الرسمية والتعليمية . وكان أمام تلك اللجنة عدة سبل للعمل : أما استخدام لغة الاقلية الحاكمة ، أو استخدام إحدى اللهجات (كما ورد عن الصينية أعلاه) ، أو الاتفاق على نظام جديد . وقبل اتخاذ قرار معين قامت اللجنة بدراسة تحليلية ومقارنة لمجموعات اللهجات . وقد وجدت اللجنة أن هناك عناصر مشتركة بين تلك اللهجات ويمكن استصفاء لغة فصحي منها . واقرحت اللجنة أن يطلق على هذه اللغة اسم « شونا » . ورأت اللجنة أن تجري عملية الاستصفاء بأخذ عناصر معينة من كل من مجموعات اللهجات . ولسب غير معروف لدى الكاتب لم يؤخذ وقتها باقتراحات اللجنة .

غير أن الحكومة دعت فيها بعد باحث لغات

المفردات من مجموعات اللهجات زيزورو
وكرانكا ومنيكا وكوريكوري .

أما في مجال الصرف فقد تبنت اللجنة مؤلف
الاستاذ فورتشن الذي ظهر عام ١٩٥٥ والذي
اعتمد على اللهجات كرانكا ومنيكا (نفس
المصدر ص ٣٨٢) .

ومن أجل اعداد الكتب التعليمية والترجمة
والتأليف شكلت الحكومة دائرة جديدة باسم
« مكتب المطبوعات » . وقد اشرف هذا المركز
على اعداد الكتب التعليمية المستعملة الآن بلغة
شونا وعلى كتابة ونشر مجموعات من القصص
والمطبوعات الأخرى التي عززت انتشار
واستعمال شونا في المجالات الرسمية والتعليمية
في مختلف مناطق شونا . كما كانت اللجنة تقوم
بتحرير الكتب التي تؤلف بشكل فردي بحيث
تتفق والنظام المعتمد لشونا .

ومع أن مخطط لجنة شونا مثله في ذلك مثل
اقتراحات دوك ، لم يضع خطوات محددة
للمرحلة الانتقالية بالنسبة للمنطوق ، الا أن
أجهزة التربية والتعليم والاعلام بمختلف
أشكاله وتعيين الموظفين والمدرسين في غير مناطق
لهجاتهم بقدر الامكان قد عزز انتشار شونا
وانتشار استخدامها ، كما تدرس في المدارس
ومراكز تعليم الكبار بشكل لم يكن في مقدور
اللجنة أن تحققه لوحدها . وما ترجمة خطابات
السياسيين في تجمعات الجماهير الى شونا الا

هـ - أن يكون امتحان الخدمة المدنية
(وامتحان الشرطة كذلك) ذا شقين : شفوي
بلهجة المنطقة التي يعين للعمل فيها وكتابي
يعتمد على شونا فقط .
و- أن توضع أبجدية لكتابة اللغة .

هذا ولم يرد في توصيات دوك أي شيء من
كيفية الانتقال من مرحلة تعدد اللهجات الى
مرحلة اللغة الموحدة . وهذا مما حدا بكثير من
الرسميين وبعض المثقفين أن يتقبلوا النظام
اللغوي الجديد بأنه نظام سيكون محصوراً في
المكتوب فقط . ولهذا وصفت شونا آنشد بأنها
اللغة المعاصرة الوحيدة التي لا ينطق بها (نفس
المصدر ص ٣٨١) . كما أن الأبجدية التي
وضعها دوك كانت أكثر دقة مما هو ضروري
للكتابية (more phonetic than phonemic) .

وفي عام ١٩٥٥ شكلت لجنة أخرى سميت
لجنة لغة شونا . وكانت مهمة اللجنة إيجاد مزيد
من الانتظام والاضطرادية في الاستعمال اللغوي
الذي بدأ تنفيذه حسب الخطة المقررة . فوضعت
اللجنة أبجدية مختصرة أكثر من أبجدية دوك ،
واستمدت اللجنة هذه الأبجدية من الأبجدية
اللاتينية كما فعل دوك . كما طالبت اللجنة
بالاسراع في انجاز المعجم الذي كان دوك قد
اقترح وضعه . وقد قام بوضع معجم شونا
القس هنان وظهر عام ١٩٦٣ . واستمد هنان

الفريزية للشهيرة Gysbert Japiks بوجوب اعادة لغتهم الى مجالات استعمالها السابقة قبل الاحتلال . وكان هذا تمثلا في البداية في جهود افراد فقط . وفي منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤٤) تجمعت بعض الشخصيات المعنية بشؤون الفريزية ودعت الى تشكيل تنظيم يكون هدفه اعادة احياء اللغة ، وأطلق على هذا التنظيم اسم « حركة الفريزية » . وحيث أن اللغة لم تكن قد اندحرت نهائيا فإن العمل على اعادة استعمالها تمثل بشكل رئيسي في الدعوة الى المزيد من استعمالها خارج نطاق العائلة والبيت وتقوية الدوافع الفردية تجاه استعمالها في الكتابة كذلك .

ومع مطلع هذا القرن أعيد استعمال الفريزية في الكنيسة بلل الهولندية ، كما ترجم الانجيل الى الفريزية عام ١٩٤٣ ، وظهرت آخر طبعة من الناحية النغمية عام ١٩٧٦ (المصدر نفسه) . كما انه نتيجة للتأثير الذي مارسه حركة الفريزية مدعومة بتأييد الناطقين بها استجابت سلطات التربية والتعليم الهولندية لرغبة الفريزيين وسمحت باستعمال الفريزية كموضوع دراسي فقط على أن يكون تدريسها بشكل طوعي وخارج ساعات الدراسة والمتهاج: الدراسي في منطقة فريزلاند .

وفي عام ١٩٣٨ استجابت الدولة لمطالب حركة الفريزية بتأسيس « مجمع الفريزية » على أن يكون هدفه القيام بابحاث لغوية بالفريزية . وكان للمجمع نشاط ملحوظ في مجال العمل

دليل واضح على نجاح انتقال شونا من لغة مكتوبة فقط الى لغة حكية كذلك . كما يمكن أن يشار هنا الى أن الفروق بين مجموعات اللهجات قد تقلصت ، مع أن هذا كان على حساب تقلص بعض اللهجات في مناطقها .

مجمع الفريزية

اللغة الفريزية هي أقرب اللغات الجرمانية الى اللغة الانكليزية . ويقطن معظم الناطقين بها في مقاطعة فريزلاند . وفريزلاند هي إحدى المقاطعات الاحدى عشرة التي تشكل هولندا ، وتقع في الشمال الشرقي هولندا . ويسكن هذه المقاطعة في الوقت الحاضر أكثر من نصف مليون نسمة ، يشكلون ٤٪ من مجموع سكان هولندا . وقد أصبحت هذه المقاطعة جزءا من هولندا في القرن السادس عشر اثر الاحتلال الهولندي لها .

وكنتيجة للاحتلال الهولندي أصبحت الهولندية اللغة الرسمية ولغة الكنيسة والتعليم في تلك المقاطعة ، مثلها في ذلك مثل بقية المقاطعات القديمة . ومع مرور الزمن انحصر استعمال الفريزية تدريجيا الى أن أصبحت تستعمل في مجال البيت والعائلة . وبذا أصبح الفريزيون ثنائيي اللغة في هذا المجال اللغوي وأحاديي اللغة في بقية المجالات (Pietersen., 1978 : 353) .

غير أنه ظهر شعور لدى الفريزيين مثل شاعر

الفريزيين اعتبار الفريزية لغة مقبولة في المرافعات (الشفوية) في محاكم المقاطعة .
ومع انتشار المدارس ثنائية اللغة وافقت الدولة على تأسيس « مكتب الارشاد التربوي » لرسم خطوط ومعالم منهاج تلك المدارس ، وشارك المجمع في وضع هذه الخطوط . ويتوقع أن يصدر هذا العام (١٩٨٠) قانون يجعل استعمال الفريزية اجباريا في جميع المراحل التعليمية (للمصدر نفسه ص ٣٩٥) . أما الآن فلا تزال الفريزية إحدى المواضيع الاختيارية في امتحانات شهادة الدراسة الثانوية في هولندا بالنسبة لسكان المقاطعة H. A. VO. (. A. V. O. , V.W. O.) (نفس المصدر ص ٣٩٠) .

أما في المرحلة الجامعية فتدرس الفريزية في عدة جامعات . كما توجد في بعض الجامعات مناصب « كرسي » مثل الجامعة الحرة في امستردام والجامعة الحكومية في كروننكن ، وجامعة بلدية امستردام والجامعتين الحكومتين في ليدن واترخت . أما في الدشمارك (حيث تقطن أقلية فريزية) فتدرس الفريزية في جامعتي كيل وكوينهاكن .

وما يجدر ذكره عن نشاط المجمع القيام باستفتاء واحصائيات لغوية . فمثلا قام المجمع عام ١٩٦٧ بدراسة أنماط القراءة والمحادثة بين الناطقين بالفريزية ، ونشر التقرير عام ١٩٦٩ ، وهذا ملخصه :
٧١ ٪ يستعملون الفريزية كلغة البيت الوحيدة .

اللغوي ومجال تجميع الفريزيين حول استقلال لغوي في معظم شؤون المقاطعة . ومن أهم نتائج هذا العمل ادخال بند في قانون التعليم الابتدائي في جميع هولندا يميز استعمال « لغة اقليمية بجانب الهولندية » (دون تحديد أية لغة بالذات) اذا كانت تلك اللغة منطوقة في تلك المقاطعة « (المصدر نفسه ص ٣٥٩) وكان هذا البند هو المدخل القانوني لاعتبار الفريزية إحدى المواضيع الدراسية في المقاطعة بشكل رسمي . وبذا تدرج الوضع من مرحلة إهمال الفريزية الى اعتبارها موضوعا اختياريا لا منهجيا الى موضوع اساسي على مستوى المقاطعة ، وهي المنطقة المعنية باهتمام المجمع .

وفي عام ١٩٥٠ كان المجمع أحد الأطراف التي قامت باجراء التجارب التعليمية لدراسة امكانية استخدام الفريزية كلغة للتدريس لتحل محل الهولندية وتصبح الهولندية مجرد موضوع دراسي فقط ، أي لغة ثانية أو أجنبية . وما حل عام ١٩٥٥ حتى أصبحت الفريزية على قدم المساواة مع الهولندية في بعض المدارس . ومن هذا التاريخ أصبحت المدارس ثنائية اللغة (أي التي تستعمل لغتين في التدريس) مقبولة ومتشيرة في فريزلاند . كل هذا والأمرازال في اطار النص القانوني « يجوز استعمال لغة اقليمية » في التدريس . أما في المجالات الأخرى فقد بدأ استعمال الفريزية في المجالس التشريعية في المقاطعة والمجالس البلدية كذلك . كما استجاب البرلمان الهولندي عام ١٩٥٥ لطلب

أسس لوضع نظام لغوي جديد ، وثالث قام لاعادة احياء لغته في مجالات معينة . وإذا اردنا أن نضع تصنيفا ثالثا لهذه المجمع فيمكن النظر الى كل منها من ناحية أسس تشكيكه . فبعض هذه المجمع تأسس بناء على رغبة وجهود أفراد فقط ، وبعضها ظهر نتيجة لحركة سياسية أو عرقية أو دينية ، ونوع ثالث قامت السلطة الحاكمة بتشكيكه ، وذلك كأحد العوامل التي ارتكزت السلطة عليها لتثبيت سلطتها ، ونوع رابع تأسس على المستوى الفردي ثم تبنته السلطة الحاكمة حيث أنها وجدت فيه دعما اضافيا لسلطتها .

وقد أخذ تسلسل الحديث عن هذه المجمع تصنيفا غير التصنيفات المذكورة اعلاه ، بل كان حسب الترتيب الزمني الذي ظهرت فيه المجمع في كل قارة (باستثناء مجمع الفريزية) . فبدأ الحديث أولا عن مجامع أوروبا ثم أمريكا اللاتينية ثم آسيا وأخيرا أفريقيا .

ولا بد من اعادة القول هنا بأن هذا البحث لم يتعرض للمجمع اللغة العربية ، وذلك لاسباب أهمها أن المعلومات عنها متوفرة لدى القارئ بالعربية أو يمكن للقارئ أن يحصل عليها مباشرة . كما أنه يفضل أن ينظر الى عمل مجامع العربية ليس فقط من ناحية ما تقوم به من أعمال ، بل خلال الاطار العام لوجود وعمل المجمع في بقية مناطق العالم كهيئات تخطيط لغوي .

أما عن مدى نجاح مجامع اللغة بشكل عام في تحقيق أهدافها فيكون هذا هو محور البحث القادم ان شاء الله .

٦٩٪ يقرأون الفريزية بدون صعوبة .

٦٢٪ يستعملون الفريزية في التعامل التجاري العادي .

٤٣٪ يشتررون مطبوعات كتبت بالفريزية .

٤٢٪ يستعملون الفريزية في المجالات الرسمية .

٤١٪ يقرأون بانتظام مطبوعات كتبت بالفريزية .

٣١٪ يكتبون الفريزية بدون صعوبة .

(المصدر نفسه ص ٣٦٤ - ٣٧١)

ويودادع الارتباط باللغة واضحا في الفرق بين اقتناء وقرائة المطبوعات المكتوبة بالفريزية .

خاتمة

عرض هذا البحث تصورا معينا لمفهوم التخطيط اللغوي بابعاده المختلفة ، وقدم وصفا تحليليا لاثني عشر مجمعا ولجنة لغوية في العالم . وقد كان اختيار هذه المجمع بناء على الصيغة الغالبة لعمل كل منها من ابعاد التخطيط اللغوي باستثناء مجمعي الاندونيسية والماليزية (وذلك لعدم توفر معلومات بالانكليزية بعد ١٩٦٧ عنها) . فبعضها يركز اهتمامه على وضع المفردات والمصطلحات أكثر من الاعمال الأخرى . والبعض الآخر معني بشكل خاص بنظام الكتابة واساليب تبسيطها ، ومثال ثالث يعمل في التصحيح وتوحيد اللهجات ، ومثال رابع عمل على تغيير مصادر المفردات غريبة الأصل عن اللغة نفسها .

كما يمكن تصنيف هذه المجمع حسب الدوافع التي أدت الى تأسيسها . فبعضها أسس للمحافظة على استمرار استعمال لغته ، وآخر

المصادر

Abuhamdia, Z. 1978. *Facilitating and Constraining Factors in the Implementation of Language Planning Policies ... in the U. S.* Unpublished Ph. D Dissertation. University of Pittsburgh.

Aitken, A. 1976. "The Scots language and the teacher of English," in *Scottish Literature in the Secondary School*. Edinburgh : Scottish Education Department.

Anre, G. 1974. "Language standardization in Sub-Saharan Africa," in Fishman (ed.), pp. 369 — 390.

Barnes, D. 1974. "Language planning in Mainland China : standardization," in Fishman (ed.), pp. 457 — 480.

Bornstein, D. (Ed.) . 1976. *Readings in the Theory of Grammar*. Cambridge, Mass. : Winthrop.

Chang, Kun. 1967. "National languages in China," in Sebeok (ed.), pp. 151 — 176.

Comhairle Na Gaeilge. 1974. "Towards a language policy ; implementing a language policy," in Fishman (ed.), pp. 519 — 526.

Cornyn, W. 1962/75. "Comments," in Householder and Saporta (eds.), pp. 273 — 278.

De Francis, J. 1967. "Language and script reform in China," in Sebeok (ed.) pp. 131 — 150.

———. 1975. "Language planning in China," *Language Planning Newsletter* Vol. 1 (2) pp. 1 & 5.

Deutah, K. 1968. "The trend of European nationalism : the language aspect," in Fishman (ed.), pp. 598 — 606.

Devoto, G. 1978. *The Languages of Italy*. Chicago : The University of Chicago Press.

Dinneen, F. 1967. *An Introduction to General Linguistics*. N. Y. : Holt.

Falk, J. 1978. *Linguistics and Language*, 2nd ed. N. Y. : Wiley.

Fellman, J. 1974. "The role of Eliezer Ben Yehuda in the revival of the Hebrew language : an assessment" in Fishman (ed.), pp. 427 — 456.

———. 1976. "Language planning in Israel : The Academy of the Hebrew Language," *Language Planning Newsletter*, Vol 2 (2), pp. 1 & 6.

Ferguson, S. 1968. "Language development," in Fishman, et al. pp. 27 — 36.

Fishman, J. (Ed.) . 1968. *Readings in the Sociology of Language*. The Hague : Mouton.

———. 1971. "The uses of sociolinguistics," in Porren and Trim (eds.), pp. 19 — 40.

- . 1972. *Introduction to the Sociology of Language*. Rowley, Mass. : Newbury.
- (Ed.) . 1974. *Advances in Language Planning*. The Hague : Mouton.
- (Ed.) . 1978. *Advances in the Study of Societal Multilingualism*. The Hague : Mouton.
- , et al. (Eds.) . 1968. *Language Problems of Developing Nations*. N. Y. : Wiley.
- Gallagher, C. 1971. " Language reform and social modernization in Turkey, " in Rubin and Jerrold (eds.) , pp. 159 — 178.
- Guillermo, et al. 1974. " Linguistic correctness and the role of the academies in Latin America, " in Fishman (ed.) , pp. 315 — 368.
- Hall, R. Jr. 1971. *Introductory Linguistics*. N. Y. : Chilton.
- Haugen, E. 1966. *Language Conflict and Language Planning, The Case of Modern Norwegian*. Cambridge, Mass. : Harvard University Press.
- Haugen, E. 1969. " Language planning : theory and practice, " in *Actes du Xe Congrès international des Linguistes, Bucarest, 1967*, A. Graur (Ed.) (Bucarest : Editions de L'Académie de la République Socialiste de Roumanie) , pp. 701 — 711.
- Haral, G. 1974. " Linguistics and language issues in Turkey, " in Fishman (ed.) , pp. 127 — 162.
- Heyd, U. 1954. *Language Reform in Modern Turkey*. Jerusalem : Israel Oriental Society.
- Holmes, U. and A. Schutz. 1938. *A History of the French Language*. N. Y. : Farrar and Rinehart.
- Hoscholder, F. and S. Saporta. 1975. *Problems in Lexicography*. Bloomington : Indiana University Press.
- Kelman, H. 1971. " Language as an aid and barrier to involvement in the national system, " in Rubin and Jerrold (eds.) , pp. 21 — 52.
- . 1973. *The Revival of a Classical Language*. The Hague : Mouton.
- Lehman, W. (Ed.) 1975. *Language and Linguistics in the People's Republic of China*. Austin : University of Texas Press.
- Lunt, H. (Ed.) 1964. *Proceedings of the Xth Congress of Linguists*. The Hague : Mouton.
- MacKinnon, K. 1977. *Language Education and Social Processes in a Gaelic Community*. London : Routledge.
- MacSweeney, J. 1971. " Successes and failures in the Movement for the Restoration of Irish, " in Rubin and Jerrold (eds.) , pp. 65 — 94.
- Mold, B. 1975. " Language planning in Sweden, " *Language Planning Newsletter Vol. 1 (3)* , pp. 1, 3 — 4.

- Nahir, M. 1973. *The Hebrew Language Academy*. Unpublished Ph. D. Dissertation, University of Pittsburgh.
- Neustupny, J. 1974. "Basic types of language problems," in Fishman (ed.), pp. 37 — 48.
- Perreu, G. and J. Trim. (Eds.). *Applications of Linguistics*. Cambridge University Press.
- Pietersen, L. 1978. "Issues and trends in Frisian bilingualism," in Fishman (ed.), pp. 353 — 399.
- Rabin, C. 1971. "Spelling reform — Israel 1968," in Rubin and Jernudd (eds.), pp. 95 — 122.
- . 1976. "Language treatment in Israel: especially the development and spread of Hebrew," *Language Planning Newsletter*, Vol. 2 (4), pp. 1, 3, 4, 6.
- Rickard, P. 1974. *A History of the French Language*. London: Hutchinson.
- Robertson, D. 1910. *The French Academy*. N. Y.
- Rubin, J. 1973. "Language planning: discussion of some current issues," in Rubin and Shuy (Eds.), pp. 1 — 11.
- . 1973. "Introduction," in Rubin and Shuy (eds.), pp. V—X.
- , and B. Jernudd (Eds.). 1971. *Can Language Be Planned?* Honolulu: The University Press of Hawaii.
- , and R. Shuy (Eds.). 1973. *Language Planning: Current Issues and Research*. Washington, D. C.: Georgetown University Press.
- Sebeck, T. (Ed.). 1967. *Current Trends in Linguistics*, Vol. 2. The Hague: Mouton.
- Taulli, V. 1964. "Practical linguistics: the theory of language planning," in Lunt (ed.), pp. 605 — 607.
- . 1968. *Introduction to a Theory of Language Planning*. Uppsala: Almqvist & Wikells.
- Tietze, A. 1975. "Problems of Turkish lexicography," in Householder and Saporta (eds.), pp. 263 — 272.
- Wood, R. 1977. "Potential issues for language planning in Scotland," *Language Planning Newsletter*, Vol. 3 (1), pp. 1 — 6.

من الشرق والغرب

يشير موضوع التأثيرات التي أورثها المشرق العربي الاسلامي في مجمل حركة الفكر الأندلسي ، وبصورة خاصة في مجالات العلم والأدب والفن والفلسفة ، مناقشات مستفيضة بين المتخصصين وذوى الاهتمام خلال الفترة الواقعة منذ بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وحتى نهاية الحكم العربي لبلاد الأندلس العربية الاسلامية .

ويمكن أن نشير الى ما يعيننا على إظهار بعض التأثيرات من خلال هذه المناقشات ، وما أتت بها من نتائج على تطور الفكر الأندلسي في المجالات المشار إليها . فمن جهة ، يعتقد بعضهم أن هذا الموضوع من السعة والشمول بحيث يمكن أن تتاح للباحث فيه ، معلومات كثيرة وغنية ربما تصل - حسب زعمهم - الى الحكم بأن كل ما أنتجته بلاد الأندلس خلال الحكم العربي من حضارة فكرية ومادية هو من صنع المشرق بأفكاره وثقافته وسياساته . (١) ويذهب بعضهم الآخر الى القول بأنه لا يمكن إنكار ما للمشرق من تأثيرات في الأندلس ، ولكن في مجالات العلم والأدب والفن والفلسفة ، تبقو قليلة ومحدودة ولا بد أن تقتصر على المراحل الأولى .

ومهما يكن من أمر ، فلا بد من لقاء بعض الضوء على الحركة العلمية في أهم مراكزها في

تأثير الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرق الاسلامي

سوادى عبيد محمد

كلية التربية - جامعة البصرة

(١) انظر أحمد بن عبد ربه الأندلسي كتاب العقد الفريد (تحقيق أحمد ابن وايزن وابن وايزم الأندلسي ط ٢ ، القاهرة - ١٩٦٥) ، ص ١ ، المقدمة .

المشرق أولا ، ومن ثم استقراء نتائجها وتبعب آثارها ومؤثراتها في الاندلس ، بما يتوفر لدينامن معلومات وحقائق . فالراكر العلمية المشرقية ، كانت تتركز في بغداد والبصرة وخراسان وبلاد الشام والحجاز ومصر (٢) .

وقد اشتهرت هذه المراكز منذ تأسيسها أو تمصيرها ، بكثرة معاهد العلم ودور الكتب وحلقات الدرس ، مما جعلها تلعب دورا كبيرا في ظهور جبهة من المشتغلين في العلم والأدب والفن والطب والفقه والفلسفة . وبسهولة يمكن الاستدلال على ذلك باستعراض مئات التراويل والتصانيف في تاريخ العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة والمهندسين والحفاظ والنحاة واللغويين والحساب والمعلمين والفصاص والادباء والشعراء والقراء ، وقراء الانعام

والمكلمين والصيدا والكيميائيين والكتاب والمجتهدين والطبيين والمساحين وعلماء الفلك . (٣) كما ان في كتب التراجم والسير والمعاجم والرجال والطبقات مشات الاشخاص ، ترد اسماءهم على انهم من هؤلاء الاعلام (٤) .

نبشوا في هذه المراكز ، وأوجدوا قاصدة . عريضة للاهتمام بالمعرفة الانسانية من جوانبها كافة ، وقد أسهم عدد غير قليل من الاعلام في الدراسات الدينية وكانوا يشتغلون بالتدريس في المدرستين النظامية والمستنصرية ببغداد ويدرسون علوم القرآن وفنائه والتفسير والحلاف والاصول والفقه (٥) وفي دراسات علوم الحديث (٦) والدراسات اللغوية والأدبية في النحو والصرف والعروض والبلاغة والنثر الادبي والشعر (٧) وفي الدراسات التاريخية

(٢) ياتي بيت المحكمة بالجمع للتصديق ببغداد وسكنية ابن سوار في البصرة ودار العلم بالقرنيل وسكنية ابن الشاطر والجمع الاندلسي في دمشق والجمع الاخير ودار المحكمة بالقاهرة ومطبعها في خراسان مركز علمية ، وكذلك كانت مطبعة معاهد العلم في ارض صوريا في هذه الفترة .

(٣) فرانز دوكال ، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة د . صالح طلي ، بغداد ١٩٧٣) ص ٥١٨ - ٥١٩ .

(٤) انظر ابن حنكلا ، وفيات الايام وياك ليوذ الزمان (تحقيق محمد علي الدين عبد الحسيه ط ١ - القاهرة ١٣٣٧ هـ) وابن الفيني قبل التاريخ ببغداد (التاريخ المجلد له على التاريخ ابن الحسني) وابن الفري ، تفهيم جميع الآداب في مصوم الاكلاف (تحقيق د . مصطفى جواد ١٩٦٥ - ١٩٦٥)

(٥) ابن الساعي ، الجمع للتصديق في حيران التاريخ وحيون السير ح ٩ (تصحيح وتعليق د . مصطفى جواد - الطبعة العربية الكافورية ببغداد ١٩٣٤) ص ٢٩٢ - ٢٩٨ السبكي طبقات الدفعية الكبرى (تحقيق محمد عبد الفتاحي ومحمد فتاح عبد الجبار) القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٧٠ ح ٨ ص ٣٨٨ ، اقبال ، المسجد النبوي والجدير للمسكون في طبقات الخلفاء والفقهاء (تحقيق فخر محمد عبد الفتاح - رسالة ماجستير في طبع بعد ١٩٧٠) طرقة ٥٥٤ .

(٦) ابن الفري ، تفهيم جميع الآداب ح ٤ ، وابصار محمد عبد الفتاحي ، طبع المجلد ١٩٤٠ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٨٩ ابن حنكلا ، وفيات الايام (مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٤٩) ح ٤ ص ٣١ ، انوارات ايلامية الصياير القائمة في تلك السابعة (لتدوين لاين الفري - طبع بعد ١٩٧٠ - مصطفى جواد) ص ٣٧ .

(٧) الفسلي المسجد النبوي طرقة ٢٩٠ ، ابن الاثير - الكامل في التاريخ (طر صابر دار بيروت ١٩٦٧) ح ١٢ ص ٣١٢ الفلك الدفاتر على اقل السائر لعلمه الدين لمر بن الاثير ، ابن الفري ، تفهيم جميع الآداب ح ٤ قسم ١ ص ١١١ .

- (٢٢) محمد بن موسى، ولد بخراسان والتم في بغداد، عثر على نسخة في بيت الحكمة، روز في الرياضيات والفلك، وهو أول ما كتب الجبر والمقابلة، وله أفكار فلسفية اعتمد عليها علماء العرب في دراساتهم وبحوثهم الرياضية.

قرة (٢٣) وغيرهم من العلماء والفقهاء ورواد الفكر .

إن هؤلاء وغيرهم كثيرين ، أسهموا في خلق حركة علمية وفكرية مشرقة متميزة أضحت تنتقل تأثيراتها تدريجيا إلى بلاد الأندلس ، وذلك منذ قيام الحكم العربي فيها ، وبدأنا نلمس بوادر للاهتمام بعلوم المشرق والفكر هناك . وفي بداية العصور الوسطى وخلالها كانت الثقافة المشرقية قد تركت ظلها في الثقافة والفكر الاندلسيين ، ووفق الاندلسيون بين ثقافة المشرق وبين البيئة الطبيعية والأخلاقية والاجتماعية ، في الوقت الذي أضحت تنمو فيه حضارية متميزة للاندلسيين لها شخصيتها وطابعها ، غير أنها قامت على الاهتمام في أن تصون اللغة العربية ، وأن تحفظ التقليد الكلاسيكي الذي جرى عليه المشرق ، وخاصة التقاليد في المجالات الفقهية والدينية والعلمية والأدبية والفنية والفلسفية ، وحرص حكام الأندلس في أن يضمروا دولتهم على عنوالم الشام والعراق وبلاد فارس فيما هي عليه من وجود المدارس ومعاهد العلم ودور الخلفاء والمساجد التي تدور فيها حلقات الدرس ، والمتكفلات التي تدرس فيها العلوم الدينية وعلوم العربية والحانفقات والربط والبيمارستانات . ويبدو

واضحاً أن هذا التقليد أخذ يتعمق منذ ارتقاء عبد الرحمن بن معاوية (الأول) الحكم بسبب تمسكه بالمتنصر العربي ، وأطفائه لجلوة النزاع العربي المسلم المحتدم بين القيسيين واليمانيين . على أن فترات الاستقرار السياسي والاجتماعي كانت دائما أكثر الفترات ملائمة لازدهار الفكر وتطوره في هذه البلاد ، وكان نصيب الأمير القرطبي الرابع عبد الرحمن الثاني كبيرا في اتجاه هذا الازدهار ، ففي عهده استطاع المشرق أن يترك بصورة حاسمة بصماته الثقافية الاندلسية ، وبرز هذا الأمير كأكبر حماة للعلماء وصديقا خلصا للادب والفنون ، كما كان شغوفاً بكل ما يتصل بعلمه الفلك والرياضيات ، ويعد متعة في دراسة الكتب القديمة في الفلسفة والطب ، فأحاط نفسه بتجمهرة من علماء الفلك ، ولم يكن غير المشرق بعلمائه ورجالته ومؤسسته ومراكزه العلمية ليرضى بلموحاته وتطلعاته ، لذلك يمكن الاقتناع بما ذهب إليه أحد الباحثين ، بأن المعطيات القليلة التي كانت تصل إلى حد يشير العجب من دور المشرق في تكوين الثقافة الاندلسية كانت مؤكدة من وجهة النظر التاريخية ، ولا تحتاج أن نحمل النصوص الدقيقة التي جاء بها المؤرخون أكثر مما تحتمل ، أو نضطر إلى التفتيش ما بين سطورها . (٢٤)

(٢٣) ومن بلاد ما بين نهرين ، اعظم عيسى السويح على الإطلاق ، وقد ترجم الكتاب السبعة من اجزاء المعروضات في كتب لبلية لبلية العربية كما تبع في لبلية السابعة .

(٢٤) لبلية بولسان (Prevalent) لبلية العرب في الاندلس (ترجمة لبلية لبلية بولسان ص ٩٧ .

(٢٨) . ولعل ما أشار إليه الاستاذ لبني برونسال صحيح من أن المشرق قد غاى بنصيب كبير في تكوين الثقافة الأندلسية فكل ما كان يفد من بغداد أو من المدن الكبرى الأخرى في العالم الإسلامي ، كان يستقبل باعجاب أو بامثال في الأقل في ربوع بلاد الأندلس . (٢٩)

لعل دراسة بعض صنوف العلوم المختلفة في الأندلس من خلال المصادر وفيه يمينتنا على تلمس الطابع المشرقي فيها ، وأول هذه العلوم التي في الإشارة إليها هي ، العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ، حيث برز عدد من العلماء في الفقه والمذاهب والحديث وعلم الكلام والشرائع والمنطق والتفسير والنحو والعروض ، كما ظهر في الفلسفة والموسيقى علم الفلك والطب والكيمياء والرياضيات وعلوم الحياة والتاريخ

لقد كانت مدينة قرطبة المركز العلمي (٢٥) ميداناً لهذه التأثيرات . فقد انتقلت إليها المظاهر الفكرية بما وفد إليها من العلماء والفقهاء المشاركة . ويمكن بهذا الصدد أن نستفيد من الفصل المهم الذي عقده المؤرخ التلمساني المعروف بالمقري في كتابه (نفع الطبيب من حصن الأندلس الرطب) فهو غير ما يصور لنا هذا الاهتمام بإيراده لجمهرة من هؤلاء العلماء والفقهاء والأدباء المشاركة ، الذين استقروا في بلاد الأندلس فتركوا تأثيراتهم الفكرية والعلمية (٢٦) كما يمكن أن نجد معلومات مفيدة عن هؤلاء العلماء في كتاب (بغية المتلمس في تاريخ رجال أهل الأندلس) لأحمد بن يحيى الضبي ٥٩٩ هـ (٢٧) . وفي كتاب (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) للمحافظ عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بإبن الفرضي ٥٠٣ هـ

(٢٥) مدينة علمية على بحر الغراني الفكرية بالأندلس ، وهي قائمة الدولة الأيوبية وخطوطها ومركز علمي وحضاري عظيم ، اكتسبت شهرة علمية واسعة أسسها بقرطبة بالعلم والعلماء وقد أكد أحمد القحطاني بحجتها بقوة :

بقرطبة	فلسفة	الانسان	الاسماء	الطبيبات	سيرة	تاريخها	الحواشي	وغيرها	وغيرها
مكتبات	تعليمات	والفكر	والفكر	والفكر	والفكر	والفكر	والفكر	والفكر	والفكر

(القاري ، نفع الطبيب من حصن الأندلس الرطب (طبعة المطبعة مصر ١٩٤٩ ط ١) ج ٤ ص ٢٥٠ - ٢٥٣ .

(٢٦) م . ص ٧ - ١٢٠

(٢٧) الضبي ، بغية المتلمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (طبعة الدار المصرية ١٩٨٤)

(٢٨) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس (القاهرة - ١٩٥٤)

(٢٩) حضارة العرب في الأندلس ص ٤٧ ، ويبدأ ذلك بالانتماءات والاختراعات العلمية التي كانت تخرج في عهده بأن سهلت انتقال الكثير من المعرفة إلى جلد الأندلس وغيرها من الغرب المعتمد عليها .

أكبر العاملين على تحويل اهل الاندلس الى
المالكية . (٣٢)

وشجعهم على أن يفلدوا الى المشرق للدراسة
على علماء المشاركة والأخذ عنهم (٣٣) لأهم
أحاطوا بأحاديث الرسول وما روى عنه .

ويبدو أن الاندلس قد حققت وحدتها الدينية
باتباعها المذهب المالكي ، حيث لم ترد عنه بعد
ذلك ، وقد حل هذا المذهب رسمياً محل مذهب
الأوزاعي ١٥٧ هـ . ويجمع مذهب مالك بن
أنس ١٧٨ هـ عند انتشاره في هذه البلاد بين
سلفيه الأوزاعي (الأخذ بالحديث والتعبد
بأصوله) وبين حرية المذهب الخنفي في (الأخذ
بالبقياس) (٣٤) . ويروى القري أن عدداً من
فقهاء المالكية المشاركة من اهل بغداد ومشرق
ونيسابور دخلوا الاندلس وحشوا طلبتهم ، ومن
حضر مجالسهم ودرسهم على المواظبة
والدرس ، ومن هؤلاء الفقهاء عبد اللطيف بن

والجغرافية ، وأصبح للاندلسيين في جميع هذه
العلوم أبحاث مستفيضة وقواعد مستقرة . ومن
الجدير بالإشارة الى أن ظهور يحيى بن يحيى
الليثي (٣٠) يمثل بداية الاهتمام بالعلوم
الدينية في الاندلس ، فقد رحل الى المشرق
وتوجه الى الحجاز فسمع من مالك بن أنس ،
وسفيان بن عيينة ، وتفق على حيد الله بن
وهب ، ولما عاد الى قرطبة روى كتاب « الموطأ »
لمالك بن أنس لتلاميذه ، وانتهت اليه الرئاسة
في الفقه والقضاء في هذه المدينة . (٣١)

ويبدو أن يحيى بن يحيى الليثي قد خلق
الاتجاه لدى اهل الاندلس في دراسة الفقه
والحديث على مذهب مالك بن أنس ، مما سهل
على عبد الملك بن حبيب ١٧٩ هـ / ٨٥٣ م
الذي كان هو الآخر قد درس الفقه على مذهب
مالك بن أنس في المدينة المنورة ورحل الى المشرق
وتردد على حلقات الدرس هناك ، وأصبح من

(٣٠) أحمد بن محمد بن محمد ، ولد سنة ١١٥ هـ في قرطبة (معلق الاندلس) القري : القري ، تبع للطلب من ضمن الاندلس القرطبي - ص ٢١٧

(٣١) وكان مصنفه في شروط العلم طحا في الألب دورية الأحرار مشتركاً في الفقه والرواية (ابن القري تاريخ علماء والرواية بالاندلس - ص ١٨٥ ، ابن
حيان القرطبي ، لكتيب من قبل اهل الاندلس (تحقيق د . حمود علي مكي - طر الكتيب القرطبي - بيروت) ص ٨٨ - ٨٥

(٣٢) وبه أيضاً أن د بطون بن عبد الله القرطبي بن أبي ، اهل « الموطأ » فكان بين أنس في الاندلس في عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الفاضل) وأصبح المذهب
مالك الأثر لاسم على طر الفقه في الاندلس بسبب اتباعه مذهب الشافعي (أعمال جليلتها ، تاريخ الفكر الاندلسي (ترجمة د . حسين مؤنس ط ١) القاهرة -
١٩٥٥ ص ٣

(٣٣) كان اهل الاندلس يأخذون بالرواية لأعلام المشاركة ويؤمنون بما يسمون من اهل بلادهم للعلم - لأن ايرافك المذهب - كما يظهرون أن اهل بلد الاندلس
أحاطوا بهم يرون أهم جهلاء أجلاء (يافا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٩٦)

(٣٤) بأمر يروى في أن أن حله الفقهية الجديدة التي احتلها اهل الاندلس حرمهم من هؤلاء القديس للمهاجرين (حطرا القري في الاندلس ص ٤٣ - ٤٤)

ومن الجهة الأخرى ، فقد رحل عدد من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، ومنهم حسين بن محمد بن خيون الصديقي المعروف بابن سكرة ، وهو إمام محدث زاهد كثير الرواية ، دخل العراق وروى عن جماعة من فقهاءها وعلمائها (٤٥) ويوسف بن محمد بن سليمان الهمداني ، وهو من أهل شلونه ، رحل إلى المشرق وأقام في رحلته عشرة أعوام ، وقد اهتم بكتب محمد بن جرير الطبري في تفسير القرآن فنقل إلى أهل الأندلس ما تعلمه (٤٦) .

أما فيما يتعلق بعلوم اللغة العربية وآدابها ، فلدينا من الحقائق التاريخية ما يجعلنا نعتقد بأن تأثيرات المشرق كانت واضحة وجلية في بلاد الأندلس ، فقد رحل كثيرون من هله البلاد إلى المشرق لطلب العلم في العربية (٤٧) كما أن

أبي الطاهر أحمد بن محمد الهاشمي الصديقي ، وهو من أهل بغداد ، سمع عن أبي الوقت السجزي وأبي الفرج ابن الجوزي ، وقد وفد إلى غرناطة وأقام فيها (٤٥) وعل بن بندار البغدادي (٣٦) وأبو نصر سهل بن علي النيسابوري (٣٧) وأبو المكارم هبة الله بن الحسين ، الذي وصف بأنه من أهل العلم عارفا بالأصول حافظا للحديث ، دخل الأندلس وولي قضاء أشبيلية (٣٨) وأبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن العنسي الدمشقي ، وكان فقهياً على مذهب الشافعي ، عارفاً بالأصول والتصوف وله كتاب (الروضة الأنيقة) وإن أصله من دمشق ثم رحل إلى المغرب ولقي عدداً من الفقهاء وتلقى عن أيديهم الوعظ والتذكير ، ثم دخل الأندلس ونحوها ببلاطها واستوطن غرناطة واتصل بمرجائها وطلبها (٣٩) .

(٣٥) فتح القليب - ص ٦٥

(٣٦) م . د . ص ٦٦

(٣٧) م . د . ص ٦٧

(٣٨) م . د . ص ٦٨

(٣٩) القري ، فتح القليب - ص ٦٨

(٤٠) ابن القزويني تاريخ العلماء والرواة للعلم ٢٥ ص ٢٥٢ - ٢٥٤

(٤١) م . د . ص ٦٦

(٤٢) انظر إلى الباحثين عدد الأبحاث التي خصها القزويني في كتابه فتح القليب للعلماء الذين رحلوا إلى المشرق والاندلس في اللغة العربية والعلوم الشرعية (١٥) ترجمة : القزويني : رجا عبد الجليل الطيار للدراسات المغربية في الأندلس المرقية - ١٩٨٠ ص ٤٤

التقليد الأندلسي القديم في جلب الكتب
للمشرفة الحديثة الصلور الى الأندلس بقي
مستمر (٤٣) وخاصة الكتب اللغوية ، مثل
الكشاف للزحشرى (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ)
ومقامات الزحشرى الخمسون ، وكتاب تاج
اللغة وصحاح العربية للجوهري ٣٩٣ هـ
واكمال ابن القطاع ٥١٥ هـ لكتاب الأفعال
لابن القوطية ٣٦٧ هـ (٤٤) .

هل أن التأثير الذي تركه العالم اللغوي أبو
علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ،
صاحب كتاب الامالي ، كان واضحا في بلاد
الأندلس ، فقد امتاز هذا العالم بسمة الاطلاع
في العلم وطول الباع في اللغة وفنونها ، وأقبل
عليه علماء الأندلس وأدبواها للاستفادة من
محاضراته في اللغة والأدب ، التي كان يعلّمها في
أهم الأماكن بقرطبة ، وفي المسجد الجامع

بالزهراء (٤٥) كما حدث بهذا القالي عن
نفسه ، فردحوا ذكره ، وشهدوا له بالتقدم
والاجادة ، (٤٦) وأشار ابن خلدون الى أن
القالي قدم من المشرق فأورث أهل الأندلس
علمه (٤٧) وذكر ابن القرضى ، انه عندما
وفد أبو علي القالي الى الأندلس (سمع الناس
منه وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والامالي
وعظمت استفادتهم منهم) (٤٨) وقد اتقن
القالي علوم اللغة والشعر والنحو على طريقة
البصريين (٤٩) ويحث على (ابن درستوى)
عبد الله بن جعفر الفارسي النحوي (٥٠)
كتاب «سيويه» وحق النظر فيه وأمل شيئا من
حفظه مثل كتاب (النوادر) و (الامالي)
وكتاب (الممدود والمقصود) الذي رتب عليه
التفصيل ومخارج الحروف وكتاب (البارع في
اللغة) مرتب على حروف المعجم وكتاب
(الآيل وتلجها) وكتاب (حل الانسان والحيل

(٤٣) م . د . ٥ ص ٤٥

(٤٤) م . د . ٥ ص ٤٥

(٤٥) مدينة بغداد الخليفة عبد الرحمن الناصر يوسف باسم جاريه الزهره (مكرر تلح الطيب ص ١ ص ٣٩٦)

(٤٦) مكرر ، تلح الطيب ص ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٨

(٤٧) القس وديوان الجاهل والمحر (مطبوعات مؤسسة الاماني للطبعات - بيروت ١٩٧١) ص ٤ ص ١٤٩

(٤٨) طريق العلماء والرواة الكلام ص ٦٥

(٤٩) مكرر ، تلح الطيب ص ٤ ص ٧٢ (كما وصف بأنه اعظم أهل زمانه باللغة والقلم وغير البصريين) م . د . ٥ ص ٧٣

(٥٠) يفرح احمد التتمة للكهوين ، وكان شديد الإعجاب بالبصريين في النحو واللغة وطريق العربية

أهل زمانه باللغة العربية ، راويا للشاعر ،
صحيح اللفاظ ، واضح المعاني . حسن
المطالع والمقاطع (٥٤) وأبو عمر يوسف بن
هارون الكتني الرماذي الشاعر الذي امتدح
القالي (٥٥) .

ومن الجدير بالذكر أن أبا علي القالي ، أوجد
اعتمادا خاصا لدى الأندلسيين في فن تصنيف
معالم اللغة ، حيث تطور جنبيا إلى جنب مع
الدراسات النحوية ، وأصبحت طلائع مؤلفات
الأندلسيين في هذا الباب مختصرات لمعالم
مشرقية مثال ذلك (كتاب نواذر اللغة) الذي
وضعه القالي ، فهو أشبه لما ورد في (الكامل)
لأبي العباس المبرد من الغريب . وكذلك وضع
أبو بكر محمد بن الزبيدي مختصرا لكتاب
(العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وكان

وشيعيا (وكتب (فعلت وأفعلت) وكتاب
(مقاتل الفرنس) وكتاب شرح فيه المعلقات
(٥١) وكان قد كتب مؤلفه الشهير (الأمالي)
في مدينة قرطبة التي استوطنها ، وأصبح هذا
الكتاب مرجعا مهما من مراجع علم اللغة
هناك .

ويشير ابن خلكان إلى اجتماع اللغويين
والتحويين بأبي علي القالي عند دخوله
الأندلس ، فتلقاه عنه علومهم وآدابهم وتأثروا
به (٥٢) حتى اتخذوه حجة وإماما في لغة اللغة
وعلوم العربية . ومن الذين تأثروا به أبو بكر
محمد بن الحسن بن بشر الزبيدي الأندلسي
الاشبيلي (٥٣) وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد
الحزيب بن إبراهيم بن القوطية الأشبيلي الأصل
القرطبي المولد والدار ، والذي كان من أعلم

(٥١) ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٢ ابن خلكان ، وفيات الأعيان والتهذيب الزمان (طر ١٣٩٩ بيروت) ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٨

(٥٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٦٩

(٥٣) ج ٥ . ص ٢٦٦ - ٢٦٨ ، ج ٤ ص ٣٧٣ وكان إماما في الأدب والفقه والحديث والفقه فذهب لأحمد ثم إلى الأندلس ، تصنف في اللغة والفقه وله الأديب والفقه
على أبي علي القالي لا مثل الأندلس (القرطبي ، فتح القلوب ج ٤ ص ٧٤ - ٧٥ ، ج ٤ ص ٣٧٣)

(٥٤) ج ٥ . ص ٣٦٩

(٥٥) ج ٥ . ص ٧٠٠ - ٧٢٥ - ٧٢٦

مساعد من عبد الله
أول من الأعراب بالفتيل
مجموعته من الكتب كل قيسيل
لذلك الأعراب يرميه للمعجزة
تفتيت من شرفهم بالقرن

دروس تصنف صاحب كتاب
يشتهر في الأعراب بعلمه
حالات البصير لكتاب قدرته
تفسر في كتابه فكتبا
وكيفه من يفتي في قرينة

وقصة عن الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر ٣٦٦ هـ أو ما أدخله من تعديل على بعض الآلات الموسيقية ، وقصة عن امرأة أندلسية مسلحة كانت تمثل بالقتل المسيحيين انتقاما لوأحد من أهل قرابتها وقع في القتال الناشب بين الجنين في بعض الثغور الأندلسية (٦٠) وقد اتخذت جميع هذه القصص المنحى الشرقي في المعالجة والموضوع .

ومن الجدير بالذكر الى ان هناك كتباً مشرقية أدخلت في باب التأليف القصصي قد عرفت في الأندلس ، وكان لها صدى ونفوذ كبيرين في هذه البلاد ، ومن أهمها كتاب ألف في عصر هارون الرشيد لأبي سري سول بن أبي غالب الخزرجي سمه كتاب (ربيعة وعقيل) (٦١) وهذا حل

مبوياً بحسب مخارج الحروف ، وقد ذاع هذا المختصر بين أهل العلم في الأندلس وأصبح معتمداً في الدراسة . (٥٦)

وهناك عدد من الشعراء الأندلسيين الذين أفصحوا بالعربية متأثرين بزملاهم المشارقة ، منهم مغني بن الحارث بن الأيم الغساني ، الذي تأدب بلحمق مع بني عبد الملك بن مروان ، وصار يقول من الشعر والنثر ما يصح اعتباره فريداً (٥٧) وعبد الخالق بن إبراهيم الخطيب الذي وصف بأنه أديب قوي المعارضة مطيع الشعر (٥٨) .

أما في مجال الفن القصصي الشرقي الذي انتقل الى الأندلس ، فأمها قصة للمعتمد بن عباد الأشبلي وخطته الجميلة الرمكية (٥٩)

(٥٦) بلغها ، تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٨٩

(٥٧) القرطبي ، تلخيص القليب ج ١ ص ١١

(٥٨) د . م . ص ١٥٠ ومن قصيدة قصيدة في وقت وصلته الى الأندلس قوله :

عزل الملك	أبو إسحاق	عزل الملك	أبو إسحاق	عزل الملك	أبو إسحاق
لما حصة	بسمد	لما حصة	بسمد	لما حصة	بسمد
لما حصة	بسمد	لما حصة	بسمد	لما حصة	بسمد

(٥٩) وقد طُوت اليه ان قيل لما يركب من له الأمر يطعن على من سلك وغيره فذكروا انه يوم وأما القرطبي في القرن على خلاف الرأي فذكره بالجملة (كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية / الجزء للمرة الثانية للكاتب والناشر ١٩٧٠ ص ٨٨ - ٩٢)

(٦٠) أثر العرب في النهضة الأوربية ص ٩٢

(٦١) ابن القرطبي ، تاريخ الدولة والرواة للسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٥٦

أدبائهم حيث نشرها في بلادهم وقرأها طائفة من الاندلسيين على الحريري نفسه . ومضى نفر منهم ينسجون على منوالها مثل جعفر بن عبد الرحمن بن أحد الأزدى ٥٧٥ هـ الذي أنشأ مقامات على غرارها (٦٦) وكذلك ألف أبو طاهر محمد بن يوسف السرقطي الاشترقوني مجموعة مقامات يقول أحد الباحثين إنها لا زالت مخطوطة في مكتبة برلين (٦٧) ووضع أبو طالب عقيل بن عطية القضاخي المراكشي ٦٠٨ هـ سرحا على مقامات الحريري . (٦٨)

غير أن أكبر شراح المقامات في العالم الاسلامي آنذاك هو أندلسي من مدينة شريش اسمه أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى الشريشي ٦١٨ هـ ، وكان يارعا في علوم اللغة والعروض ، وقد وضع ثلاثة شروح لمقامات الحريري تففى عن كل شرح تقدمها (٦٩)

كثيرين من الأدباء الاندلسيين على تقليده أو معارضته (٦٧) .

اما أبرز من تضلع في الشعر الغنائي فهو أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البقداي ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م الذي كان أصله من الموصل واستوطن قرطبة (٦٣) وكان تأثيره واضحا في ظهور عدد من تلاميذه ممن أخذ عنه أصول هذا الفن وفيما خلفه من تأليف ورسائل (٦٤) .

وفي هذا الصدد لا بد من التطرق الى الأثر الذي تركته مقامات (٦٥) أبي علي محمد بن قاسم الحريري في الأدب الاندلسي . درس الحريري في البصرة وكتب مقاماته هناك ، وموضوعاته تدور حول الأدب ، وقد سمعها كثير من الاندلسيين ، وكان لها صدى بين

(٦٢) قر العرب والاسلام في الهمزة الأروية من ٨٧-٨٨ ، كان الأثر المصورين في حشر القلي اسعدى من خلفه السلكة خلال الفرج الأخير من القرن الرابع الهجري كثير الشطب جدا لكاتبه .

(٦٣) وكان قد وفد على المصورين في حشر وباد من أن يأتي به أنقاري على القائل (القري ، نصح القريب - ص ٢٠٥ ، ٦٦)

(٦٤) ومن كعب كعب ، المصنوع من القليل بالرفق من قبل (يمتنع لهذا القارئ من الشعر ، قد ضمه ورفقه بإيداع في الفرج ، القري نصح القريب - ص ٧٦-٧٦)

(٦٥) لكاتبه ، فؤاد كعب ما يكون بين القصيدة المصورة ، وقد نشر هذا المصنف من تأليف ابن بطر في العالم الاسلامي (قر العرب والاسلام في الهمزة الأروية من ٨٨)

(٦٦) بكاتبه ، طريق الفكر الاندلسي من ١٨١

(٦٧) د . م . ١٨١-١٨٢

(٦٨) د . م . ١٨٢

(٦٩) وكان الشريشي لا يكتب ما يقع على المقامات من المذبح الأصلية بل يضيف من عليه كثيرا من الملاحظات كانت الاسمية الفارقة . وبما يدل على أهمية هذه الملاحظات ان النسخين المطبوعين يسلطها على حواشي طبعهم الملاحظات (د . م . ١٨٧)

ويصبح ان نقول بان فن المقامة الاندلسية الذي هو نتاج المقامة المشرقية قد تطور وابتعد عن الجمود المشرقي وتحرر من فيقه اللغويين المتكلفة ، واصبحت المقامة قصصية الطابع واكثر شعبية بتقديدها الصور البديعة للمجتمع الاندلسي ، كما تميزت بالواقعية .

ومن الجدير بالذكر ، ان يعود الاندلس قد تأثروا بمقامات الحريري ، فنسج أحد ادباء اليهود الاندلسيين مقامات باللغة العبرية على النهج نفسه الذي اتبعه المؤلف البصري الكبير ، كما انتهج سليمان بن صقيل القرطبي ، مقامات بالعبرية ، وتبعه مقلد يهودي آخر للحريري وهو يهوذا بن سليمان الحريري ، حيث ترجم مقامات الحريري الى العبرية ، والى كتاب بعنوان (تحكموني) (اي الرجل الحكيم) بدأ فيه وهو يعارض مقامات الحريري ويرد عليها بمقامات انشأها (٧٠) .

أما في الشعر ، فقد اتخذ الشعراء في الاندلس ، قصائد العرب الجاهليين نماذج ينظمون على منوالها وخصوصا (المعلقات السبع)

(٧١) بالدراسة والافتقار ، ولكنهم تحولوا عنها الى قول الشعر الذي يجلد الاغراض العسكرية والاجتماعية ، لشد عزائم الجند في ميادين القتال ، وبث الحمية في قلوب الناس للذكر الوقائع الحربية لغرض ترديدها في الطرقات والميادين والشوارع ، ثم انصرفوا الى الموضوعات التي كان يطرقها شعراء بغداد والبصرة ودمشق ، وهي تتعلق بالغزل والوصف وذكر محاسن الجمال والرياض الخضر (٧٢) وعلى العموم فالشعر الاندلسي نبع من بحر الشعر المشرقي ، فقد تأثر الاندلسيون من ناحية البراعة الشعرية وليس من ناحية التفكير وتسلسل الخاطات الافكار ، فلم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التغيير الا ما لمس المعنى ، كما كان يفعل المشارقة ، وقد طرق الشعر الاندلسي فنون الشعر كافة من الزهد الى الهجاء وقصائد الحماسة والنسيب والمديح والثناء والوصف ، وهو ما كان عليه الشعر في المشرق . وكانت الخمرية اكثر فنون الشعر ذيوها بين شعراء الاندلس ، كما أولعوا بالوصف للطبيعة والجمال ، غير أنهم لم يظهروا براعة في الشعر السياسي أو الحماسي (٧٣) ولعل من المثيد

(٧٠) كتاب الف العرب والاسلام في العبة الأوربية من ٩٢

(٧١) لأدريه القيس وذايد بن أبي سلس واثية للذليل وذايد بن أبي ربيعة وعمر بن كليم وطرفة بن العبد

(٧٢) بلخيا ، طريق الفكر الاندلسي ص ٣٧

(٧٣) ٥ . ٢٠ ص ٥٩

والى جانب ترحيب الاندلسيين ، وخاصة
الأمراء منهم ، باهل العلم من المشاورة ، فقد
نشط هؤلاء باقتناء الكتب النادرة والحصول
عليها من مصادرها ، كما اجتهدوا ، على حد
قول أحد الباحثين ، في ان يكون لقصورهم مجد
اصي يحاكي ما كان لقصور خلفاء المشرق ،
واهتموا برعاية الأدب والعلوم والفنون ، لكي
تصل قرطبة الى مستوى يضاها ما وصلت اليه
دمشق وبغداد (٧٦) ويشير ابن سميح المغربي
إلى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كان يبعث
رسلا للبحث عن الكتب والمؤلفات في المشرق
(٧٧) كما ان ابنه الحكم المستنصر كان معناها هو
الأخر بالعلم ومكرما لأهله وجماعا للكتب
بانواعها ، وبما لم يجمعه أحد غيره من الأمراء
والملوك ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم
والنواحي ، ويبعث باستقدام العلماء والفقهائ
من المشرق (٧٨) وأوجد في قرطبة عددا كبيرا
من الكتبة والمجلدين والمزخرفين والناسخين ،
استقدم بعضهم من صقلية ومن بغداد ، وكانوا
يعملون تحت إشراف المشاركة من حاشية الخليفة
لاخوان مكتبته التي كانت تحتوي على النقائص ،

القول بأن الشعر الاندلسي لم يصل الى أوجه إلا
بعد قيام الدولة الأموية عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ،
حيث عرفت الاندلس دواوين المتنبي وغيره من
الشعراء في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر
٣٥٠ هـ / ٩٦١ م وفي عهد خليفته ابنه الحكم
المستنصر ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وذلك عندما وفد
سفراء الثقافة المشرقية ومنهم أبو علي الغالي
البغدادي الذي وفد عام ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م
وصاحد بن الحسين البغدادي الذي دخل
الاندلس عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، وقد ادخل
الى هذه البلاد طريقة جديدة في دراسة الشعر
الجاهلي (٧٤) كما بذل عناولته في تأليف كتاب
(الفصوص) بصورة يفوق فيها كتاب
(الأملاني) لأبي علي الغالي ، ولكن معروضه
قلوبه في النهر فقال أحد الشعراء :

قد خاص في الماء كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقبيل بفصوص
فأجابه صاهد :

عاد الى معدنه ، الخا
توجد في قمر البحار الفصوص (٧٥)

(٧٤) بلخيا ، طريق الفكر الاندلسي ص ٦٠

(٧٥) لغري ، الفج الطيب ص ٤٠ - ٧٠

(٧٦) بلخيا ، المصدر نفسه ص ٤١

(٧٧) المغرب في حلل المغرب ص ١٠

(٧٨) م . د ص ٤٥

بالضبط وحسن الخط ، وعباس بن عمر الصقلي ، ويوسف البلوطي ومن في طبقتها ، وكذلك أبو اليسر ابراهيم بن احمد الذي اشتهر ببراعة خطه وحسن وراقته ، فكتب بيده أكثر كتبه ، وكان قد تلقى معارفه في بغداد (٨٤) .

والى جانب هذه المكتبة ، فهناك سبعون مكتبة عامة في الاندلس ، حتى غدت العناية بالمكتبات ظاهرة عامة لدى الناس ، حيث كانوا يتبارون في جمع الكتب والمؤلفات والمصنفات ، وأصبح الحصول على الكتب المشرقية خاصة يشغل اهتمام الاندلسيين (٨٥) .

ومن المفيد ان نشير الى ما يذكره المقيري هذا الصدد نقلا عن ابن حزم الاندلسي قائلا « انخبرني - تليد الحصى » الذي كان على خزانة الكتب والعلوم بدار بني مروان (ان صدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسا ، وفي كل فهرس عشرون ورقة ، واقام بنو مروان للعلم والعلماء سوقا نافذة جلبت اليها بفوائدها من كل قطر » (٨٦) ويذكر هذا

حيث ضمت حوالي اربعمائة الف مجلد ، اغلبها كتب المشاركة (٧٩) وترد تفاصيل مفيدة عن الدور الذي قام به الحكم المستنصر في انشاء المكتبة الاموية الكبرى (٨٠) بالقصر الاميري ، وهي أعظم مكتبات قرطبة (٨١) حتى ان ابن حبان ذكر بانته لم يسمع في الاسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين واينارها والتهم بها ، كما افاد على العلم ونموه باهله ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطايه وصلاته الى فقهاء الامصار الثانية (٨٢) وقد جمع في داره ، الخدائق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، حتى اجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم يكن لاحد من قبله ولا من بعده (٨٣) ويسود ان اغلب الكتب المنسوخة والمضبوطة التي تضمها هذه الخزائن هي التي أسهم في صناعتها الفنيون المشاركة ، حيث كان في مقدمة الوراقين الوافدين من المشرق وظهر البغدادي « وهو من رؤساء الوراقين المعروفين

(٧٩) المقيري ، تلخيص الخطب ، ج ١ ص ٣٧١

(٨٠) لا تولى عبد الرحمن التمامر حتى يجمع مكتبات القصر ويقلعها فليكون بداية للمكتبة الأموية التي انفق عليه عمره في جمعها وتبويبها .

J. Ribera : *Discontinuity Opusculum* Madrid — 1928 P. 291 M 192

(٨١) عهد الحكم باقرا للمكتبة الى عهد كاندز وساعده على تطويرها الفهرس الذي اشتهر بالحكم فليكون مصداقا له . وكان من عهده عصره

المحدث (عهد الحكم باقرا للمكتبة الى عهد كاندز وساعده على تطويرها الفهرس الذي اشتهر بالحكم فليكون مصداقا له . وكان من عهده عصره

المحدث (عهد الحكم باقرا للمكتبة الى عهد كاندز وساعده على تطويرها الفهرس الذي اشتهر بالحكم فليكون مصداقا له . وكان من عهده عصره

(٨٢) عهد عبد الله بن خالد ، الدولة العباسية وسيرة الخليفة ج ٣ من كتاب عهد الاسلام في الاندلس - مصر - ١٩٥٨ ص ٢٢ ، ٢١

(٨٣) المقيري ، تلخيص الخطب ، ج ١ ص ٣٧٢

(٨٤) ج ٤ ص ١٠٨

(٨٥) الذهبي ، حوزة الاسلام (طبعة جمعية دار المعارف الثقافية - حوزة آية الله الشيرازي - ج ٢ ص ٥٠٤)

(٨٦) تلخيص الخطب ، ج ١ ص ٣٧٢

ومن الجليلي بالذكر ان الحكم المستنصر قد فعل ذلك مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي الذي استقدمه من المشرق واقام في دانية ثم قصد سرقسطة ، واستقر به المقام آخر الامر في غرناطة (٩١) حيث قدم له شرح كتاب (المختصر لابن عبد الحكم) الذي قراه اهل الاندلس وتداولوا نسخه التي كتبت هناك (٩٢) .

أما إرسال الأمير عبد الرحمن الأوسط للعالم الاندلسي المشهور عباس بن ناصح الحريري (٩٣) الى المشرق الاسلامي للحصول على الكتب ، فقد ترك تأثيره في حركة العلوم العقلية في الاندلس ، حيث ان له بكتاب (السند هند) (٩٤) وهو يختص على مباحث في علم الفلك والفلسفة والمنطق . ويؤكد ابن سعيد المغربي بأن عباس بن ناصح الحريري ٣٦٠ هـ هو الذي ادخلها الاندلس وعرف أهلها بها

المؤرخ نقلا عن ابن خلدون (انه لما وفد ابو عبد الله القاضي صاحب كتب الامالي) من بغداد أكرم الأمير عبد الرحمن الأوسط مثواه وحسنت منزلته عنده واختص بابنه الحكم المستنصر واستفاد من علمه (٨٧) وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع المعطاء ، وشرح صدره بالافراط في الاكرام (٨٨) .

ان الكتب التي حرص الحكم المستنصر على الحصول عليها من المشرق كثيرة ومنها كتب الاخواني لابي الفرج الاصفهاني ، فقد ارسل اليه ألف دينار من الذهب العين لكي يزوجه بنسخة مكتوبة قبل ان تصدر في بغداد (٨٩) وغني عن البيان ما لهذا الكتاب من قيمة ادبية ولغوية ، حيث تبنت أهميته في سعي الاندلسيين الى استنساخه ونشره في بلاد الاندلس ، كما ألف ابو الفرج الاصفهاني كتابا آخر لاتساب بني امية وارسله الى الحكم المستنصر ، ونشر في الاندلس (٩٠) .

(٨٧) عمر له ابن عمر مع أبي عبد الله القاضي الذي وفد اليه من بغداد وحضر به عيشهم من يافس أهل الفكر : ذكره آبي علي ، القليل وسار بعد عصر قرطبة في حركة

أهل الفكر : يذكرون الأدب في طريقهم ويذكرون الآثار : د . م . ج . د . ص ٣٣٣ هـ . ص ٧٠

(٨٨) ابن خلدون ، الأمير وديوان الخلافة والحكم : ص ١٤٦ ، تلخ القليب : ص ١٠٣٢ . وذكر ابن خلدون أن ابن الفريفة القرطبي كان يبالغ في تعظيم أبي عبد الله

وكثيرا ما يهدي من علمه وفاءه . (ديوان الامير : ص ٣٧٩) .

(٨٩) لغري ، تلخ القليب : ص ٣٦٢

(٩٠) لغري ، تلخ القليب : ص ٣٦٢

(٩١) ياقوتا ، تاريخ الفكر الاندلسي : ص ١٠٧ - ١٠٨

(٩٢) لغري ، المصدر نفسه : ص ٣٦٢

(٩٣) وهو ابو ابي الحسن الاندلسي ، وكان من أهل العلم بأخرية وثقافة وأخضر للجريين وله حظ في الفقه والفراية ، وكان قد رحل مع أبيه الى مصر وقرده الى الجليل طلبا للفقه العرب والقي الاسمي وأجره بأمره أن ياجتمع بأبي تراسي وأمنه له بالفضل على علمه وانصرف الى الاندلس : جلال الدين السيوطي : باب الفريفة في طبقات الفاضلين

والطبعة الأولى : جيس القلي الجليلي : وذكره : ص ٢٨

(٩٤) وقد جاء أن علمه الكفاية من فريفة عن مسكوبية : لفافة للفريفة وأصلها ، المستحلت ، ودمت : ذلك الألفاظ ، وبذلكها العلم الفكري المحدث : برحمكت

تأليف الأزياج وفقا للمبادئ والأفكار التي جاءت في هذا الكتاب المشرقي (٩٩) ، كما كتب العالم أبو القاسم أصبغ بن محمد بن عبد الله (١٠٠) الذي كان قد رحل الى المشرق فسمع بمكة والكوفة (١٠١) الأزياج والأطوارح (١٠٢) والرماسيل (١٠٣) متائسرا بهذا الكتاب ، وكذلك أبو ابراهيم بن يحيى النفاش بن زرقالي العالم الفلكي المشهور (١٠٤) الذي وضع الجداول الفلكية واسطرلابا واجهزة دقيقة مثل (الزرقالية) و (الصفحة) التي كانت

وتنظر موفيا (٩٥) وأطلع عليه الاندلس على هذا الكتاب ونظروا فيه وتعلموه واعتصموا في مؤلفاتهم وخاصة في علم الفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق ، وبذلك تتجلى التأثيرات التي يتركها كتاب (السند الهند) الذي كان مقسما على جزأين ، أحدهما في بحث الأزياج (٩٦) (الجداول) والآخر في رسائل هذه الجداول فيما أقدم عليه أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي ٣٩٤ هـ / ١٠٠٤ م العالم الفلكي الاندلسي (٩٧) وتلامذته (٩٨) ،

(٩٥) القريب في حل القريب ، حد ١ من ٤٥

(٩٦) الزيج ، كتاب يعرف منه سر الكواكب وقد يستخرج القويم في حساب الكواكب لثمة وأخرى (ابراهيم مصطفي ، احمد حسن الزيات ، محمد عبد القادر - النسيم السعيد . لفظة العلمية - طهران) حد ١ من ٤١٠ .

(٩٧) ومن كتابه رسالة الأسطرلاب ، و وصف علم الهند ، ويخلص لزيج البرهان سنده ، وسجل الكواكب ، كما ان له تجربة لكتاب لثمة الفلك المصنوع في الجليلوس (بغداد) ، طريق الفكر الاندلسي ص ٤٤٨ . كما اصبح الزيج الذي وضعه عبد بن احمد الحارثي ويتر من أهل المشرق اسطوانة الاندلس .

(٩٨) ومن هؤلاء المتأثرين أبو القاسم أصبغ بن محمد المجريطي ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م من أهل قرطبة الذي كان حاكما في حكم حركة الأندلس وحركات النجوم (ابن حيان القرطبي الكوفي من أبناء أهل الاندلس (بغداد) ، ص ١٩٣ . برنوت ١٩٣٣ ص ٢١٣ . وابن الصغار أبو القاسم احمد بن محمد له بن عمر الذي عمل زجرا مختصرا على مذهب السند منه) . (بغداد) ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٤٩ .

(٩٩) صاعد الاندلس ، طرقات الأمم (طبعة السليمانية - القاهرة) ص ١٠٧ .

(١٠٠) ابن حنبل ، جامع للكوفيين في فكر رجال الاندلس (تحقيق عبد القوي الطنجي - القاهرة ١٩٥١) ص ٣١٢ ، السبيعي ، بداية الرحلة ص ٤٥٩ .

(١٠١) ابن الجارود ، تاريخ الفلكية والارصاد للعلم في الاندلس حد ١ من ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(١٠٢) الأروادة ، ما يشرح لثمة انحرافها لتأثير والحد ، الجيع افشار (ابراهيم مصطفي وزملائه للنسيم السعيد حد ٢ من ٥٥٩) .

(١٠٣) الرسالة ، ما حله الرسول ، والجامع رسائل ، ورسائل الرجال التي كتب في انحاء أرضهم (ابن حريد ، كتاب جوهرة الفلك - طر صاهر ، مؤسسه العلمي وفكره - القاهرة الطبعة الاولى) حد ٢٢ من ٣٣٥ .

(١٠٤) كما ان له وضع مع ابن صاعد الاندلسي ما يعرف بجداول، طبعة العربية بالزيج الفلكي والاعراض اسطرلابا سمي باسمه *الصفحة* ويتر من أعظم أهل الفلك من العرب وإفلاخا .

كما افاد بعضهم ، قد تسربت اليها في ثانيا
الاعتزال وبعض المذاهب الدينية (١٠٨) .

وأشار أحد الباحثين الى ان تاريخ الفكر
الفلسفي الاندلسي هو اقتباس أمين عن الثقافة
الاسلامية المشرقية وبدون اية روابط إنجابية
تذكر . وقد برهن على ذلك من خلال التقاليد
المحلية التي كانت تفصح عنها هذه البلاد
(١٠٩) .

ولكن بحلول القرن الرابع الهجري نبغ محمد
ابن عبد الله بن مسهر القرطبي (١١٠)
فيلسوف قرطبة الأول ، الذي اتقن دراسته على
يد المشاركة ، حيث رحل الى المشرق فكان
مذهبه يجمع بين التصوف والاعتزال ، ففي
الاعتزال كان يقول بالاستطاعة والوعد والوعد
ونفي رؤية الله وهي آراء تشق مع آراء
المشاركة . وقد تأثر بآراء مسرة كل من ابن حزم
الاندلسي (١١١) وصاحبه بن احمد صيد

تسمى في اوربا ، وابتكر في علم الفلك نظريات
جديدة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية
للتجوم (١٠٥) اعتمادا على كتاب (السند
وهند) (١٠٦) .

اما فيما يتعلق بالفلسفة ، فلدينا ما يشير الى
ان تاريخ الفكر الفلسفي في بلاد الاندلس هو
صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الاسلامية
المشرقية دون ان تكون له بالثراث المحلي صلة
حقيقية يقوم عليها الدليل (١٠٧) وانه خلال
العصور الاسلامية الاولى في هذه البلاد لم تكن
سوى آراء غامضة في البحث عن الطبيعة وبها
وراء الطبيعة ، وفي اصول التفكير الفلسفي ،
ولا بد من القول ، ان الفلسفة لم تدخل هذه
البلاد كعلم قائم بذاته وانما وصلت اليها من
المشرق في صحبة العلوم النظرية والتطبيقية ،
مثل علم الفلك والرياضيات والطب ، أو أنها ،

(١٠٥) بلخيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٥١

(١٠٦) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حل المغرب ص ٤٥ - ٤٦

(١٠٧) بلخيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٣٣٢ .

(١٠٨) ٥ - ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(١٠٩) ليني بروتسال ، حضارة العرب في الاندلس (ترجمة لوران فرط - بيروت) ص ٦٢

(١١٠) خرج من الاندلس قرا بعد أن اتمم بالرافقة وحمل الشرق والتدخل بالرافقة لاجل ايجاد صاحب الكلام والمعرفة ، ثم انتشر الى الاندلس وأظهر لشكا ووردا
واكاد الناس بالعلماء للاندلسية اليه ويسمونه (ابن القرشي ، تاريخ العلماء والرافقة للعلم بالاندلس ص ٢ من ١١) .

(١١١) وهو ابن محمد بن علي بن محمد بن حزم ، وله في طبع سنة ٣٨٤ هـ وكان مساهلا لعلوم الحديث ووافقه مستطاعا للاسكان وعرف بالجلد والمثاقرة (انظر ترجمته :
المهدي جريدة المناس ص ٩٠ - ٩٣٣ وقرئت مجموع الانبياء ص ٢ ، ص ٣٣٥ ابن حنبلان في تاريخ الانبياء ص ١ - ٣٨٠ - ٣٨٢)

الرحمن بن صاعد الطليطل ٤٦٧ هـ (١١٢) هـ وعصد كبير من الاندلسيين عن ائملوا عنه وتعلموا عليه ، ويورد بالثيا قائمة باسمائهم (١١٣) .

والى جانب ذلك فقد ظهر فلاسفة آخرون اخملوا عن المشاركة ، منهم ابن بلجه ٥٢٣ هـ وهو من مدينة سرقسطه ومن شراح فلسفة ارسطو ، وابن طفيل ٥٨١ هـ وكتابه (حي بن يقظان) من احسن ما تفخسر به الفلسفة العربية ، وكان قد تأثر بفلاسة المشرق الذين تناولوا هذا الموضوع ، وابن رشد ٥٩٥ هـ الذي يعتبر من اعظم شراح كتب ارسطو ، وقد عرف بالشراح ، ويميز بين آراء ارسطو والفلاطون ، ونبل كثير! من آرائها التي لا تتفق مع الدين ، وفي علم الكلام ظهر كتاب (الدليل في الطريق من أوقاويل اهل التحقيق) (١١٤) لعبد

اللطيف بن ابي الطاهر بن هبة الله الهاشمي (١١٥) وهو من أهل بخداد دخل الاندلس ونشر علومه فيها . وقد أثار هذا الكتاب اهتماما واسع النطاق في الاندلس ، وعاصمة في مدينة غرناطة ، كما كان ابو البركات عمر بن مودود الفارسي النجاري من أهل التصوف والتحقق يعلم الكلام في مدينة قرطبة في نهاية القرن الخامس الهجري (١١٦) ويبدو تأثير ابي المكارم هبة الله بن الحسين في أوساط المهتمين في الاندلس واضحا في أصول علم المنطق ، حيث تتلمذ على يديه بعض من أهل اثبيليه سنة ٥٧٩ هـ (١١٧) كما الف ابو محمد بن احمد بن حزم الاندلسي كتابا في المنطق اسماء (التقريب لحد المنطق والمداخل اليه) وجعله بالفاظ أهل العلم لا بالفاظ أهل الفلسفة ، متخذاً امثلته فيه من الامثلة الفقهية (١١٨) وهو المنحى الذي كان يتجه اليه المشاركة وبفضلونه .

(١١٢) ابر القاسم الطليطل سكن قرطبة وكان تلميذا لابن حزم ، له كتاب «طبقات الاسماء» وهو موجد لتاريخ البشري . وله على آراء الاندلسية على آراء فلانوك السكندري والمغربيين لا ياد وليس ومن تلاميذ الياس بن يوسف الطليطل .

(١١٣) ومن بين تلاميذ الاندلسيين حي بن حديد الذي قرطبي وعصد بن سليمان النكس واحد بن فرج بن حيدل بن ليس وغيرهم كايرون (وتاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٢٨)

(١١٤) ابن حزم الاندلسي ، جهرة كتاب العرب (تحقيق عبد السلام عبد طويرون - مصر ١٩٦٢) ص ٦

(١١٥) لغري ، فتح الطب - د ٤ ص ٦٥

(١١٦) د . ج . ص ١٤٠ - ١٤١

(١١٧) لغري - فتح الطب - د ٤ ص ١٤١

(١١٨) ابن حزم - جهرة كتاب العرب ص ٦

مؤلف المؤرخ اندلسي عن تاريخ هذه البلاد . وقد نقل عن شيوخه المصريين ، كما اعتمد كذلك على ما كان يتناقله الاندلسيون في أيامه من روايات في شأن افتتاح الاندلس (١٧١) وفي أوائل القرن الثالث الهجري ، ظهر المؤرخ محمد بن موسى الرازي ، وهو مشرقي الأصل من مدينة الري ، وقد وفد الى الاندلس سنة ٢٤١ هـ واستوطن قرطبة ، وأهم مؤلفاته كتاب «الرايات» الذي نحا فيه منحى المشاركة ، وقد خلفه ابنه احمد بن محمد الذي لقب «بالتاريخي» لكثرة اشتغاله بالتاريخ (١٧٢) .

ولكن تجلّت التأثيرات التي تركها المشرق الاسلامي في هذا الجانب بظهور أعظم مؤرخ انجبته الاندلس ، وهو حيّان بن خلف بن

أما نشوء المدرسة التاريخية العربية الاندلسية وتطورها ، فيمكن القول باطمئنان انها تمت على يد المؤرخين المشاركة ، فاول مؤرخ لهذه البلاد هو عبد الملك بن حبيب ١٧٩ - ٢٣٨ هـ ، الذي رحل الى المشرق وتردد على مجالس العلم في ملته المختلفة ، وأصاب في الانفس بعد عودته شهرة واسعة ، حتى لقبه الناس بـ (عالم الاندلس) واستقر في مدينة قرطبة ، وفي مسجدنا الجامع كان يعقد حلقات دروسه (١٧٩) وانتهج في كتابه تاريخ الاندلس منهجا مشرقيا ، وكان كتابه في التاريخ المرسوم (كتاب في ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق فيها من ابتداء خلق السموات وخلق البحار والجبال . . الخ) (١٨٠) يمثل خطوة رائدة في علم التاريخ حيث جعل فيها تاريخ العالم مقدمة لتاريخ الاندلس ، وهو اقدم

(١٧٩) وكان في جانب ذلك لعمرو بن وهب واهل حلقته للأخبار مصدرا في القرن العاشر . وله مؤلفات كثيرة في علوم الطب والفلك والاسباب والوقائع . (كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية) الفصل السابع ، الدكتور جمال الدين الشيال من ٣٧٠ ، ٣٧١)

(١٨٠) توجد منه نسخة المطبوعة في المكتبة الوطنية بباريس

(١٧١) التاريخ ، تلخيص الطب ، ج ١ ص ٣٧

(١٧٢) دون مؤلفاته : -

١ - اخبار ملوك الاندلس وعندهم ووزرائهم وكتباهم

٢ - كتاب في اسباب سلب اهل الاندلس في خمسة مقالات

٣ - كتاب في سعة قرطبة وخطتها وبقاها الامران فيها .

٤ - كتاب عن كبار الرجال الاندلسيين

جرير الطبري ، فكتب تفسيراً للقرآن وتاريخ الملوك ، والدليل وهو كتاب العلماء ، وكتاب (بعض تهذيب الآثار) وكتاب (اختلاف العلماء) (١٢٨) .

وفي حقل الجغرافية يمكن الإشارة إلى جهود الرحالة أبي محمد تاج الدين عبدالله بن حمويه السرخسي ٥٩٣ هـ الذي استقر في الأندلس بعد رحلة زار خلالها المشرق واطلع على أحواله ، وكتب في رحلته قائلا (فحدث باحث يدعو إلى الحركات والاستفسار ومشاهدة الغرائب في النواحي والقطار) (١٢٩) ومن مصنفاته كتاب « المسالك والممالك » وهو كتاب جغرافي ترك صدى واسع النطاق في الأوساط العلمية في الأندلس . كما لا بد لنا أن نشير إلى ظهور الجغرافي الأندلسي الكبير أبي عبيدة بن أبي مصعب البكري ٤٨٧ هـ والذي أفاد من الجغرافيين المشاركة مثل اليعقوبي ٢٨٤ هـ

حسين بن وهب القرطبي ، السني وصف بصاحب لواء التاريخ بالأندلس ، فكان أنصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له (١٢٣) ومن كتبه (المقتبس من أبناء أهل الأندلس) وقد وصفه ابن حزم الأندلسي وأثنى عليه (١٢٤) وكذلك ابن سعيد المغربي (١٢٥) والكتاب الآخر « المتين » الذي ذكره ابن خلكان ، وهو يقع في ستين مجلداً (١٢٦) . وهناك طائفة من مؤرخي الأندلس ، كتبوا مختصرات لتاريخ محمد بن جرير الطبري ٣٩٠ هـ ، فذكروا أخبار المشرق عنه وأضافوا إليه أخبار المغرب والأندلس ، مثل هريب بن سعد ٣٩٩ هـ الذي كان من أصل نصراني ثم استعرب ، وأحمد بن محمد بن سعيد بن الجصور ٣٩٩ هـ (١٢٧) وكان تلميذاً لقاسم بن أصبغ السني برع في الوثائق والاحكام ، ويوسف بن محمد بن سليمان الحمداني الذي هو الآخر يكتب محمد بن

(١٢٣) ابن خلكان ، ذوات الأعيان - ج ٢ ص ٢١٨

(١٢٤) يقول عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان : « كان من أعلام أهل الأندلس ، وهو من طائفة من أهل ما كان في هذا المسمى (القري) ، تلحق الطيب - ج ٤ ص ١٦٧ »

(١٢٥) وكان يلقب على الناس قاضي أوردته ابن حزم فيكون : « وأما ذكر ابن حزم كتاب المقتبس وهو في طائفة من جملته (د - ج - ٤ - ص ١٧٢)

(١٢٦) ذوات الأعيان - ج ٢ ص ٢١٨ . ويقول عنه ابن سيد القتيبي : « وكتاب ابن حبان الكثير للفرق والمثلين في نسخ سبعين مجلداً يذكر فيها أخبار مصر ورومن ما شاعله

(القري ، تلحق الطيب - ج ٤ ص ١٧٢)

(١٢٧) القتيبي ، بداية القسوس في رجال أهل الأندلس (طبع في مطبعة جريدة ١٨٨٢) ص ١٦٦

(١٢٨) ابن خزيمة ، تاريخ الطيلة وقرابة للنظم والأندلس ص ٢٠٦

(١٢٩) القري ، تلحق الطيب - ج ٤ ص ٩٩

الرحلات في بلاد الاندلس ، ثم ظهر بعد ذلك الجغرافي الاندلسي علي بن سعيد المغربي ٦٨٥ هـ ونور الدين الغرناطي متأثرا بأساتذته المشاورة ، بعد أن جال في الديار المصرية والعراق والشام فجمع وصنف كتابه (المغرب في حلي المغرب) (١٣٠) وكتابه الآخر (بسط الأرض في الطول والعرض) كما وضع مختصرا لجغرافية بطليموس (١٣١) ونقل ابن سعيد عن الادريسي ، واعتمد على مؤلفاته البلدانية (١٣٢) .

أما حل نطاق العلوم العقلية او العقلية ، وهي العلوم التطبيقية او التجريبية ، فقد أسهم بعض علماء المشاورة بنقل تراث الشرق الى الاندلس ، فللمشاهدة كما هو معروف هم أصحاب الفضل الاول في وضع الطريقة العلمية والمنهج التجريبي في العلوم العقلية ، ويشهد على ذلك رسوخ قسّمهم في العلوم والمعارف بصورة عامة . وفي علم الحساب ينبغي أن نشير الى علي بن محمد الانطاكي التميمي نزيلي الاندلس الذي كان بصيرا بعلم الحساب حيث (ادخل للاندلس علما جما فيه)

احمد بن جعفر بن واضح في كتابه (البلدان) وابن خرداذبة (٣٠٠ هـ) حيدالله بن احمد في كتابه (المسالك والممالك) وابن رسته ٣٢٢ هـ واحمد بن عمر في كتابه (الاعلاق النخسية) والاصطخري ٣٤١ هـ ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي في كتابه (صورة الاقاليم) و (مسالك الممالك) وابن حوقل ٣٦٧ هـ ابي القاسم النصيبي في كتابه (صورة الأرض) فقد تأثر بهم عندما وضع كتابه (المسالك والممالك) الذي تناول فيه جغرافية العالم واتبع المنهج التاريخي الجغرافي المشرقي ، كما وضع (معجم ما استعجم) وهو قاموس جغرافي للبلاد التي جاء ذكرها في اشعار العرب . أما الرحالة ابن جبير ٤١٦ هـ محمد بن احمد الكتاني في الاندلس البليسي فانه اكثر الجغرافيين الاندلسيين تأثرا بالشرق وياقوتكاره ، فقد قام بثلاث رحلات أهمها الرحلة الى المشرق حيث زار بغداد والكوفة والموصل ونحراسان ودمشق ، واطلع على معالمها الثقافية والعلمية ، واكتسب خلال رحلاته هذه كثيرا من المعارف ، وسجل انطباعاته وما شاهده ، فكان لذلك اثره في ظهور أدب

(١٣٠) ويصل الى جغرافية الاندلس ، وصاحبها ولها على ربح في حصة جابر جندا ، وكان لا يزال من تكرار من القائل " ، تاريخ الفكر الاندلسي من ٢٤٤ .

(١٣١) وعلى على هذا الجغرافي كل من لي القاسم والفارسي وابن خلدون وابن حلكان والفري (٥٠٠ ص ٢٤٨)

(١٣٢) ومن الجهة الأخرى فقد أثرت المدرسة الجغرافية الاندلسية ايضا لدى المشاهدة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، فقد مرر بالبرتغال شباب الذين الرومي الجلفاني في اخرج كتابه للتأليف هـ مسجع البلدان ، وابير جد الله عبد الكافي القمطي القروي بلخ لفترة في صيف كتاب (نهاية الشعر في صلب البر والبحر) على هذا المدرسة وما جمعت بها من الفكر وصورته في مجال جغرافية البلدان (يفتيا ، تاريخ الفكر الاندلسي من ٢٤٥)

واستقراره في مدينة غرناطة ، الى تقديم المزيد من المؤلفات والآثار في علم الحساب ومنها كتاب (كشف الجلباب في الحساب) وكتاب (القانون في الحساب) وكتاب (التبصرة في علم الحساب) وكتاب (كشف الاسرار في علم الغبار) (١٣٦) حيث اقبل الناس عليها وتوسعوا فيها .

ونتيجة لتأثيرات المشرق ، ظهرت الى الوجود المدرسة العلمية في الرياضيات والفلك ، التي كان يقودها ابو القاسم مسلمة بن احمد المعروف بالمجريطي ٣٩٤ هـ / ١١٠٤ م الرياضي الفلكي المشهور ، التي نشطت في نقل (رسائل اخوان الصفا) الى الاندلس (١٣٧) وعلمه الرسائل هي للجمعية العلمية العربية التي نشأت في البصرة في القرن الرابع الهجري ، ولها فرع في بغداد ، وعملت بصورة سرية واشتهرت بالأوامر العلمية الحرة (١٣٨) وقد قام الطبيب

(١٣٣) ومن المرجح جدا انه تأثر بالعالم المشرقي الكبير محمد بن موسى الخوارزمي الذي يرجع اليه الفضل في وضع علم الحساب عند المسلمين عموما ، اذ كان كتابه في هذا العلم ، الاول من نوعه ، من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد اصبح مرجعا اعتمدته العلماء الحاسبون (١٣٤) كما ان كتابه (الجبر والمقابلة) هو الآخر يعتبر مصدرا استقى منه العلماء في الشرق والغرب على السواء . ويذكر ابن الفريسي ، ان مسلم بن احمد بن ابي حنيفة الليثي المعروف بصاحب القبلة ، وهو من اهل قرطبة ، كان قد رحل الى المشرق (وكان علما بالحساب والنجوم) (١٣٥) واتخذ عنه بعض اهل الاندلس وترددوا عليه وتوفروا على حل ما اشكل في هذا المضمار . اما علي بن محمد بن علي القرشي القلصايي ، الذي كان عالما بالحساب فقد انصرف بعد عودته من المشرق

(١٣٣) القرشي ، فتح الطب - ص ٤٠ ص ١٤٠

(١٣٤) علي علم الحساب قرطبة مدونة باسم القويضي () ابي القاسم مسلمة بن احمد بن موسى الخوارزمي

(١٣٥) تاريخ الدولة والارادة للعلم بالانكليز - ص ٢٠٥ - ١٣٦

(١٣٦) السخاوي ، الفهرست للكتاب لآل القرن التاسع - ص ٦٠ (المجلد ١٣٥٤ هـ) - ص ١٥٠ ، لسليمان بن يحيى ، حلية المتاملين (طبعة الاوقاف المكتبة الاسلامية في طرابلس - ١٩٦٧) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، وانظر تاريخ الفكر الانكليزي ص ٤٥٧ - ٤٥٨

(١٣٧) بلخا ، تصغير نقد - ص ٣٣٣

(١٣٨) وقد جمعت بين حرية المعرفة واتجاه النجدة بالوقوف بين يدي الآراء والمقالب وبلات وسلامهم للدين وحسن رسالة مقدسة على اربعة اقسام . رياضية تعليمية وجمعية طبيعة ونفسية عقلية ونفسية آنية ، لم تلبها الرسالة الجامعة ، وقد توارثوا فيها جميع مدافع صرحهم ومن بينها الفلسفة وعلم الفلك والرياضيات ، وكانت مدافعهم للعلوم والادب التي توارثوها بطريقة علمية من حيث جمع الحقائق وتكوينها واستدراكها والتفكير والتفحص وبحثها للنقد والتفكير لا خلك فيها وتلك على سبيل في التقييم وذلك في الفرض (د . عبد الحليم مختار ، تاريخ العلم وصوره في العهد العثماني ص ٦٩ - ٧٤)

علماء الطب وكتبته ومشتغليه في الاندلس أولوا الجراحة الطبية عنايتهم الخاصة من دون فروع الطب الأخرى ، وقد غلّى المشرق الاسلامي هذه بأفكاره ، فازدهر هذا العلم بين مسلمي الاندلس على يد الطبيب المشرقي يونس بن احمد الحراني (١٤١) الذي وفد من المشرق سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥٢ م وأخذ عنه كثيرون وتأثروا به ، ومنهم ابنه احمد وعمر ، حيث امتاز الاول بالحيرة في تفسير الادوية واشتهر الثاني بالكحالة . ويغلب على الظن بان عمر بن يونس ابن احمد الحراني علم أباً القاسم خلف الزهراوي طريقة استخراج ماء العين (الكتراكتا) بواسطة الابرة (١٤٢) .

وأشار أبو القاسم ساعد بن احمد الاندلسي الى أن أحمد وعمر رحلا الى المشرق واقاما هناك عشرة أعوام ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصليبي ٢٨٦ هـ (١٤٣)

الفيلسوف ابو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن احمد بن علي الكرماني ٤٨٥ هـ بنشر هذه الرسائل في مدينة سرقسطة ، ويذكر ساعد بن احمد الاندلسي بهذا الخصوص قائلا : إن الكرماني من أهل قرطبة واحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، رحل الى ديار المشرق وانتهى منها الى حران من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب واثقنه ، ثم رجع الى بلاد الاندلس واستوطن مدينة سرقسطة وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، لتعلم احدا ادخلها الاندلس قبله (١٣٩) ويلهب بالتيا الى القول انه « يدخلو رسائل اخوان الصفا الى الاندلس ، تكون قد دخلت فلسفة افلاطونية حديثة بالإضافة الى ما جاء به الفلاسفة الاندلسيون الآخرون » (١٤٠) .

وقامت في الاندلس الى جانب تلك نهضة طبية تطورت على غرار طب المشرق ، غير ان

(١٣٩) طبقات الأمم (مطبعة السلسلة - مصر) ص ١٠٩

(١٤٠) ياقوت ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٣٣

(١٤١) ابن أبي اسيد ، حيرة الأندلس في طبقات الانبياء (طبعة القاهرة ١٨٨٢) ص ٢٠٤

(١٤٢) حرف الزهراوي بين اصل الفكرة والتأثير على السواء بالمرادة في الجراحة الطبية ، فقد حصل طبيا في بلاد الأندلس بعد القرن الثالث وأجرى العمليات الجراحية ويساعد بالآلات وكان كاليه والتأثير أن حيز من التأليف ، اثر صغيد ونظيرها (ابن أبي اسيد) لمصدر كنه (بيروت ١٩٦٥ ص ٥٠١) وهو موسوعة طبية تتبع في اللان جزاء ، نشر الجزء الاول من كتابه باللاتينية باسم « الجراحة » طبعة ١٨٨٢ وهو ادم كتاب في تاريخ الطب على الافلاخ ، حيث جعل الجراحة طبيا تقيا بذلك مستقلا عن الطب (ياقوت ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤١٦) وانظر له في امية لكي واستعمال السرطان ووصف الكسور والمخاع واستخراج حصى المثانة بالحقن والتفريغ .

(١٤٣) تبع في الطب والعمليات والفلسفة وكان من اعظم تارحين في العالم الاسلامي آنذاك حيث ترجم كتابا كثيرة من علوم الاقدمين في الرياضيات والمخاط (د . عبد الحليم منصور ، تاريخ العلوم وهو الطب العرب في القرون ١٦٤)

كتب جالينوس ، ثم انصرفا الى الاندلس سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م فاستخلصها الامير الحكم المستنصر لخدمته في الطب . وقد خلف احمد في قرطبة اثارا نفيسة (١٤٤) واضاف ابن أبي أصيبعة ان احمد بن يونس الجفاري كان (عاقلا عالما بما شاهد علاجه رآه عيانا بالمشرق) (١٤٥) .

وأورث الطبيب محمد بن عبدون الجبلي علومه الطبية بلد الاندلس ، وكان قد رحل الى المشرق سنة ٣٤٧ هـ ودخل البصرة ومصر ودبر بيمارستانيهما وعجز في الطب واحكم كثيرا من أصوله ، وكان شيخه فيه ابو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام الجستاتي البغدادى ، ثم عاد الى الاندلس سنة ٣٦٠ هـ فخدم الامير الحكم المستنصر في الطب (١٤٦) اما ابو العباس احمد ابن محمد الملقب بابن الرومية من اهل اشبيلية فقد طاف بنواحى المشرق وسجل ملاحظاته ومشاهداته في رحلته ، وكان اول من درس

النبات بطريقة مباشرة ، واستخلص انه ليس مجرد عشب يتداوى به بل موضوعا للدراسة والمعاينة ، وتأثر بدراساته ابن البيطار ٦٤٦ هـ ابو محمد عبد الله بن احمد الذي يعد اكبر علماء النبات في المشرق آنذاك (١٤٧) .

ويبدو ان جهود ابن البيطار مهلت لظهور أشهر الاطباء في هذه البلاد ومنهم ابو الوليد محمد بن رشد ٥٩٥ هـ بلغ الطب أوجحه في هذه ، فقد جمع المشتغلون فيه بين الفلسفة والطب (١٤٨) .

وفي باب الموسيقى والغناء ، يجدر بنا ان نعالج التأثيرات التي أوروها الموسيقى المشرقي ابو الحسن علي بن نافع الملقب « زريب » ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م (١٤٩) في نقل التراث الموسيقى والغنائي وما يرافقها من التقاليد الحضارية المشرقية الى بلاد الاندلس . وكان زريب قد وفد الى هذه البلاد سنة ٢٠٦ هـ

(١٤٤) طبقات الامم ص ١٢٤

(١٤٥) حيون الايام في طبقات الاطباء ص ٢ من ٤٦

(١٤٦) ساجد الانكليسي ، طبقات الامم ص ١٢٤ - ١٢٥ ثم انظر بختيا ، تاريخ الفكر الانكليسي ص ٤٦١

(١٤٧) استمر ابن البيطار اشبيلية ثم طلب المشرق ووصل الى مصر وكلم فيها ، ومن ثم عثقه كتاب « الجامع في الادوية المفردة » و « الجامع لفرحات الادوية والاطباء » وكتاب « لائق في الادوية المفردة » ابن أبي أصيبعة ، حيون الايام في طبقات الاطباء ص ٦٠١ - ٦٠٢

(١٤٨) من كتب ابن رشد في الطب « التلخيصات في الطب » ، غير انه انصرف الى ترجمة كتب ارسطو وشروحها ، حتى سعى « الشارح » : كتاب اقر العرب والاسلام في العجلة الاوروبية ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(١٤٩) ابن حيان القرطبي ، للمفاتيح من اهل الانكليسي ص ٢٢١

صاحب فوق وفتح ، ومن تجديداته التي اسندها المؤرخون اليه ، أنه علّم اهالي قرطبة آداب المائدة وفتح معهدا حقيقيا للجمال (١٥٢) .

ونج من اهل الاندلس موسيقيون صنعوا الحاناً مبتكرة على الطريقة الشرقية ، ومن هؤلاء عبد الوهاب بن عبد الحسين بن جعفر الحاجب الذي كان يقيم مع اهله في بيته حفلات موسيقية ، وابو جعفر الوشحي الوزير الطليطل الذي يدّعي أنه اخترع حردا يختلف عن اعود المشرق في الشكل (١٥٣) .

ومصاييح جارية الكاتب ابي حفص عمر بن قهليل ، اخلت الغناء عن زرياب (١٥٤) بالإضافة الى بنه وبناته الذين مارسوا صناعة الغناء في طول بلاد الأندلس وعرضه (١٥٥) .

فقره الأمير عبد الرحمن بن الحكم وارتفعت مكانته لديه ، وأشار ابن خلدون الى « قديم زرياب على الحكم بن هشام فركب لتلقيه ويبلغ في اكرامه واورث صناعة الغناء بالاندلس (١٥٠) .

وكان زرياب الى جانب ذلك ، عالما بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة ، واختلاف طبائعها واهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها ، كما انه استطاع ان يحل الرموز الموسيقية في كتاب « المجسطي » لبطليموس . وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها وهي المقطوعات التي ذكرها بطليموس (١٥١) واوجد زرياب مدرسة فنية استطاعت فيها الموسيقى الاندلسية ، التي كانت في البداية وثيقة الصلة بالمدرسة الشرقية ، ان تكتسب سمات الاصالة . كذلك يمكن ان يقال عن زرياب فيها هذا ذلك بأنه مجدد اجتماعي

(١٥٠) الفهرست لابن النديم والمحرر (مطبوعات مؤسسة الاعلمي بالمطبعة بيروت - ١٩٧١) ص ١٢٧ . وقال الفهرست : « زرياب بالاندلس في اواخر عهد ويرا عيسى الخراساني ، واخترع مطريات النغم من ارقام النغم التي خلقها من ضمن الاندلس الغربي » ص ١٢٧ .

(١٥١) الفهرست ، الفهرست ص ١٢٧ .

(١٥٢) ويضيف الفهرست : « ان زرياب قد جمع في عهده شروبي الفارسي والفارسي والآب والحلف للملكة وكتاب للملكة وكتاب للملكة » المصدر نفسه ص ١٢٧ .

١٢٣

(١٥٣) بالغا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٥٥ .

(١٥٤) الفهرست ، المصدر نفسه ص ١٢٧ .

(١٥٥) D . P . ص ١٢٥ .

الطب ، وهو مصور الحشائش بالتصوير المعجيب قد دخلت الاندلس ، وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقي الذي هو اليوناني (١٥٨) واهم هذه الترجمات ترجمة حنين بن اسحق المبادي (١٥٩) الى العربية ويبدو انها ترجمة مستقلة عن السريانية التي كان قد ترجمها اسطفانوس بن باسيلوس تلميذ حنين بن اسحق عن الاغريقية (١٦٠) .

وظهر عدد من المترجمين الاندلسيين وهم متأثرون بهله الترجمات ، وفههم ابو يوسف حسداى بن اسحق بن عزرا بن شيروط ٣٥٩ هـ وزير عبد الرحمن الناصر ، الذي كانت له اهتمامات كبيرة في الطب والشعر والموسيقى ، وابو عثمان الخزاز الملقب بالبابسة ، ومحمد بن سعيد وعبد الرحمن بن اسحق بم الهيثم الصقلي ، وكان الأخير متضلعا باللغة اليونانية (١٦١) لقد احدث هؤلاء

وانتقلت تأثيرات المدونة المشرقية في الترجمة والنقل ، الى الاندلس من بداية القرن الثالث الهجري ، وكان لمدرسة طليطلة ، دور مهم في نشر وإذاعة العلم العربي في أوروبا ، حيث اهتمت بنقل وترجمة العلوم الطبية والفلسفية والرياضية والجغرافية ، وذلك على غرار مدرسة بغداد التي عرفت ببيت الحكمة (١٥٦) فقد حدث حلوها قضمت مجموعة كبيرة من النسخ والمترجمين الذين اتقنوا عدة لغات ، وترجمت فيها كتب اليونان الكبرى مثل كتب افلاطون وارسطو في الفلسفة ، وابطراط وجالينوس في الطب ، والقليدس واريخيدس ويظليموس في الرياضيات (١٥٧) كما انها كانت تقوم بعملها المنظم في نقل ثمار العلوم الاسلامية الى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في سائر انحاء أوروبا .

وكانت ترجمات كتاب « ديو سقوريدس » في

(١٥٦) ابن النديم : الفهرست (القاهرة) ص ١٥٩ - ١٦٠

(١٥٧) ابن أبي أصيبعة ، حيون الاكلية ص ٢٠٤

(١٥٨) د . م . م . ٤٦ (وهو ضمن نقاشا التي كان قد ارساها الاثيرامور البيزنطي لمصنفين الساج يسلفه الى الابرار عبد الرحمن الناصر)

(١٥٩) وهو من اهل الحيرة اهل الحيرة وسبع عائلات ابن ماسويه في جده وسليور لم تسم الاغريقية وهدا الى الحيرة وانما لعلها ، ودرس الترجمة لم اقل الى بغداد وكان الترجمة ، وهدا اليه الخليفة المأمون باذنه طر الحكمة والفرج على يد مخرجون عظام (راجع كذا حنين وعورهم في الترجمة) سمكت تريب عبد الرحمن ، وراسه في تاريخ العلوم عند العرب (جامعة الموصل - ١٩٧٧) ص ٣٣ - ٣٦

(١٦٠) د . م . لاسي انابري ، الخليل طوم الاغريق الى العرب (ترجمة دى يفران وبلى الصقلي ١ ، ١) ، بغداد - ١٩٥٨ (ص ٣٢٤ - ٣٢٥)

(١٦١) يبدو ان اهل الاندلس في تلك الحقبة لم يكتفوا بترجمة الترجمة العربية للكتاب « ديو سقوريدس » التي صنفها اسحق بن باسيل في عهد الخليفة البيسلي لمركال ، او الترجمة الأخرى التي اوردتها حسنة التتالي اسناد ابن سينا سنة ٣٧٤ هـ (نقاشا ، تاريخ الفكر الانكليسي ص ٤٢٣)

لظهور عدد كبير من العلماء الفقهاء والمعلمين والأطباء والفلاسفة العظام .

لقد تجلّت لنا نتائج هذه التأثيرات بوضوح ، وأصبحتنا ننظمها بسهولة ويدون عنها . فلولاها لم يكن لنا ما نقوله عن عوامل نفوج الفكر الاندلسي واستكمالها بالصورة التي كان لها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، بالطريقة التي دخل فيها هذا الفكر . الذي تأصل في نهاية هذه الفترة الى أوروبا وتأثيراته هناك وحديث عصر النهضة الأوروبية ، حيث كان عاملاً مؤثراً من عواملها .

واخيراً يصح في القول ، عند ما اشتتم هذا البحث ، وأنا اردد لنفسي على الأقل بأنه يمثل إضافة ذات قيمة لدراسات الاتصال الحضاري ، ومعالجة موضوعية لنتائج هذا الاتصال على النطاق الثقافي والفكري ، وذلك بهدف الوصول الى الحقيقة ، بوضع الحضارة العربية والاسلامية في المشرق العربي والاسلامي في اطارها الصحيح والمؤثر في أسس ومفاهيم الفكر الاندلسي ، إضافة الى ان هذا البحث ، يلقي بعض الضوء على حركة التاريخ الحضاري ، ويعين على التقييم السليم لأثر حضارة المشرق ومحاولة رسم أحدث صورة عن هذا التأثير من النواحي الفكرية .

نهضة في نقل كتب اليونان الى العربية ، أو اسهموا في ترجمة التراث العربي الاسلامي في العلم والادب والفن والفلسفة السياسية والاجتماع الى الاغريقية أو اليونانية .

ومن الجدير بالإشارة الى أنه امكن في هذه الفترة استنساخ في بعض مؤلفات الفكر اليوناني في العصور الكلاسيكية والمنتسبة لحساب المراكز الثقافية ، وخاصة قرطبة وطليطلة ، عن طريق المشرق الاسلامي ، حيث ارسل الامير الحكيم المستنصر رسله للتحري والحصول على نسخ عن ترجمات الآثار العلمية لبلاد فارس القديمة وبلاد اليونان ، وعمل على جلب اهم المؤلفات النادرة والمتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة ، وخاصة العلوم الرياضية والطبية من بغداد ومصر وأماكن أخرى في المشرق ، وأوجد صلداً كبيراً من الباحثين والنساخين ، وأدخلوا يتابعون تحرياتهم عن التآليف بمختلف اللغات في طول العالم الاسلامي وعرضه لنقلها الى العربية (١٦٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن استقصاء التأثيرات التي أورثها المشرق الاسلامي في بلاد الاندلس كانت مفيدة وحاسمة لأنها أوضحت عن مدى صياغتها لنهضة حضارية واسعة ومتميزة لها خصائصها ومعاييرها وأسسها في جميع الميادين العلمية والثقافية والفكرية ، كما انها مهلت

صَدْرُ حَدِيثًا

يترى تشارلز ديكنز ، ويحق ، على عرش الرواية الانجليزية ، وليس أدل على عظمته من شهرته على المستويين المحلي والعالمي ، وتمكنه في حياته من أن يجلب بفته الروائي اهتمام الشعب البريطاني بمختلف طوائفه بدءاً بالملكة لكتوريا ، التي كانت شغوفة بقراءة رواياته ، وحتى العوام . بيد ان ديكنز لم ينعم بهذه الخطوة من قبل جمهور القراء طويلاً . فبعد وفاته عام ١٨٧٠ بدأ يفقد مكانته بالتدريج ، ومن بين الأسباب التي أدت الى ذلك ما قاله هنري جورج لويس (عشيق الرواية الشهيرة جورج اليوت وأحد جهابذة النقد الأدبي في العصر الفكتوري) من أنه كان قد زار ديكنز ولم يجد على أرفف مكتبته كتباً لكبار الفلاسفة^(١) ، وربما كان هدفه إعلاء شأن عشيقته على حساب ديكنز . وقد تضمن هذا التحول في النظرة لديكنز الادعاء انه كاتب ميلودرامي كاريكاتوري تنسم رواياته بالطرافة والاضحاك والتعريض ، وأن قيمتها الترفيهية تملو على أية قيمة أخرى ، وأنه تنقصه النظرة الجادة والعمق الفلسفي والالتقان الفني . وظل هذا المفهوم عن ديكنز سائداً حتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين ، وكان لهذا آثاره على استهانة كبار الروائيين في هذه الفترة من امثال فرجينيا وولف

ديكنز والعالم الخفي حكايات الجان ، الفنتازيا وصناعة الرواية

تأليف: هاري ستون

سمير البربري

(١) هـ ١٥٤-١٤١، *Fortnightly Review*, xlvii (Feb. 1872), 141-154. G. H. Lewis, "Dickens in Relation to Criticism".

Harry Stone, *Dickens and the Invisible World Fairy Tales, Fantasy, * and Novel — Making*; PP: xii — 370. London, Macmillan, 1979 £12. 00.

Virginia Woolf و. إي. م. فورستر E.M. Forster يدركون وحال ذلك بينهم وبين فهم طبيعة فنه فيها صحيحة. ولم يكن ينظر في رواياته الى المعاني المسترة والرموز واللبس وازدواج الدلالة واللعب بالالفاظ والتكرار في المفردات وتيار الوعي ونهاية العقل الكامن والمجانسة بين المناقضات التي غالبا ما يبحث عنها القارئ في روايات جيمز جويس^(١) James Joyce مثلا. وفي الحقيقة تتوفر كل هذه العناصر في روايات ديكنز وفهمه يجب استيعابها كاملا. وتعد الفصول الافتتاحية في ديفيد كويرفيلد وما بعدها من روايات لديكنز أقرب من التكنيك لقصيدة « الأرض الخراب » The Waste Land لايوت ولرواية عولس Ulysses لجويس عن رواية إيمما Emma لجين أوستن مثلا.

ولم يستعد ديكنز مكانته ولم تتغير هذه الصورة بأحكامها النقدية الجائرة إلا بالجهد النقدي لناقدين شهيرين : إدmond Wilson وEdmund Wilson في أمريكا وجورج

اورويل George Orwell (الروائي المعروف) في إنجلترا^(٢) عندما أعاد تقييم فنه الروائي ، وأكدوا جليته والجانب المأساوي في رواياته ، وكشفا عن حسه الاجتماعي والنفسي الصادق . ثم توالى الدراسات التي اخذت تكشف ثباها عن مدى ثراء فنه^(٣) ، ولست هنا بسبيل الخوض في هذا الموضوع وربما فعلت ذلك مستقبلا . والحقيقة ان هناك جانبين لديكنز : الهزلي والجاد ، شطحان الخيال والواقعي ، وتكمن قدرته الفنية في توظيف الفتازيا لتعميق الواقعية ، وكيف ان ذلك يؤدي الى فهم اعمق وأوسع للحياة من مجرد الواقعية البسيطة ، فلم تكن الفتازيا مجرد زينة قيمة بلا معنى ولكن شكلت رؤيته للمجتمع التي أراد ان ينقلها للقارئ .

وفي الكتاب الذي نعرض له يتناول المؤلف هذا الجانب من ديكنز ويبحث كيف وجدت حكايات الجان والفولكلور والأحلام والخرافات والخرافات وغيرها من عناصر العالم الخفي طريقها الى خيال ديكنز ، وكيف أنها شكلت فنه

(١) في بحث نشر حديثا لـ Mark Spilka من أوجه التشابه بين شخصية Leopold Bloom في رواية جويس Ulysses وشخصية Pickwick في رواية ديكنز The Pickwick Papers (146-121, 1 (Fall, 1979), Novel, xii, 1 (Fall, 1979), ورد المؤلف ملاحظة عندما أن جويس قد اعترف في إحدى مقالاته بأن لديكنز أثر كبير في كتابة الأجناس لا يصدق في ذلك سوى شكسبير .

(٢) انظر : Edmund Wilson, "Dickens: the two Scroogers", (1939), collected in The Wound and the bow (Mifflin and Allen, 1941); George Orwell, "Charles Dickens" (1939), available in Critical Essays (Soccker and Warburg, 1954) and elsewhere.

(٣) من اعلام الرواية الإنجليزية الذين لاأمر نفس الحظ قريبا جورج إليوت George Eliot (١٨١٩ - ١٨٨٠) ، فهي الفترة ما بين بداية القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت قد وجدت لشكلا في أمثلتها في حينها وقد أعاد لها مكانتها لـ J. R. F. في كتابه التراث العظيم The Great Tradition (١٩٤٥ - ١٩٤٦) حيث وجدنا واحدة من بين أفضل الذين صعدوا تراث الرواية الإنجليزية .

ويرى المؤلف ان ديكتر لم يبلغ درجة عالية من الاتقان الفني في استخدامه لعنصر الحكايات الا في دومي وولده Dombey and Son وبلغ القمة الفنية في ديفيد كوبرفيلد David Copperfield . وقد خص لكل رواية منها فصلا قائما بذاته ، كما أورد الفصلين الآخرين لرواية آمال كبار Great Expectations مركزا على مهارة ديكتر في مزج الحقيقة بالخيال ، وكيف انه يضيف على الاحداث والوقائع اليومية الصبغة الخرافية لحكايات الجان ، وبذلك نجح ديكتر في ان يعطي الرواية الواقعية بعدا روحيا جديدا ، وان يعطي القارئ احساسا بفعل القوى اللامعقولة في مجريات الحياة اليومية . .

في الفصل الاول يجهذ المؤلف لموضوعه بعرضه للاهمية البالغة التي كان ديكتر يعلقها على حكايات الجان في تربية النشء وذلك بسرد كيفية تحول الصداقة التي ربطته بجورج كروكشانك George Cruikshank الكاتب والرسام التوضيحي ، الى عداوة بعد ان اعتدى كروكشانك على ما اعتبره ديكتر حرمة حكايات الجان . ويخلص الامر في ان جورج كروكشانك كان ملعنا للخمر في مقتبل عمره ثم تحول عنها حيث انها كانت السبب في موت والده وخشي ان يلقي هو نفس المصير . وبعد تحوله عنها اصبح داعية متعصبا لامتناع عن

الروائي ، ومدى ارتباطها الوثيق بمحانيه الاساسية وواقعيته ، فديكتر كالمساحر يخفي ليكشف . ويعد هذا اول كتاب يصدر عن الموضوع ، فرغم انه لم يغب عن أنظار النقاد السابقين من أمثال فورستر ، اول مؤرخ لحياة ديكتر ، عنصر الفنتازيا في الروايات الا انه لم يعط الدراسة الوافية ، وبقيت المعالجات السابقة لهذا الجانب بلا عمق أو شمول^(٥) .

وفي سبيل معالجته للموضوع يغطي المؤلف الخلفية التاريخية والمضامين الثقافية ومؤثرات الصبا وكيف تطور استخدام ديكتر للفنتازيا . وكان من الطبيعي ان يرجع على بعض النقاط ذات الصلة بالموضوع ومنها القصص القوطي وأدب الاطفال ومسرح المرائس وغيرها من الفنون الشعبية . وقد تطرق المؤلف الى جميع روايات ديكتر ، وأخذ تسعا منها وحلل عنصر الفنتازيا منها بشيء من التفصيل : مذكرات بيكويك The Pickwick Papers ، اوليفر تويست Oliver Twist ، نيكلاس نيكلبلي Nicholas Nickleby محل المصاحبات الاثرية The Old Curiosity Shop بارنابي روج Barnaby Rudge مارتن تشزلويت Martin Chuzzlewit وكتب عيد الميلاد Christmas Books .

(٥) تقول سيجان بيريكوت روايات عبد اللطيف الديكتر في أحد إصدارات كلية الدراسات الفكرية التي نشرها Stephen Prickett, Victorian Fantasy, PP. xviii 257. Bloomington, Indiana U. P. 1979.

أشهر قلائل من كتابته المقال . وفي الرواية قرأت سيسي جوب Sissy Jupe الكثير من تلك الحكايات : عن القزم والاحدب والجنينات ، مما أصاب غضب السيد جرارد جرايند Grad-grind المواقفي .

وظل ديكنز طوال حياته يؤكد على الفائدة الجمّة التي تعود على الطفل من قراءة تلك الحكايات وذلك في رسائله ومقالاته وأحاديثه ، وكان لها فضل كبير في إخصاب خياله وهو في مرحلة الطفولة . وكان يتذكر بمراة كتب الحساب والمجاء وقواعد اللغة التي كانت تبعث في نفسه الملل وهو طفل ، وقد ضمن روايته آمال كبار (الفصل ٢٢) عن مكتون الاسم فيليب (جزء ٢ فصل ١) Our Mutual Friend عن بغضه للصغيرة مارجري ، هذه المعاني .

ويتناول الفصل الثاني الذي وضع له المؤلف عنوان « إرث حكايات الجنان » الانجهاات السائدة نحو تلك الحكايات في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، وما اعتري ادب الاطفال من تطوّر في بيئة الحقبة . يستهل المؤلف الفصل بالقول أنه في سنة ١٨١٢ عام ميلاد ديكنز كان ادب الاطفال في حالة يرثى لها ، اذ كان يتكون اساسا من الحكايات التي ترمي الى ابراز المغازي الخلقية وكذلك الاناشيد التعليمية . أما الحكايات الحقيقية فقد ضرب بها عرض الحائط . ويعزى هذا للعداء الذي نصبه المتطهرون للأدب الماجن ، مما يفسر ندرة

المسكرات وهاجم الخمر وشروورها في كل متنى . . وفي إحدى زياراته لديكنز جذب الكأس من يد أحد الفتيوف وحاول الاطاحة بها مما أثار المضيف عليه . ولم تكن الخمر من وجهة نظر ديكنز من اعداء البشرية الحقيقيين وتلك في نظره هي الجهل والفقر والامهال والقسوة واليأس . وقد فكر كروكشانك في اعادة كتابة بعض تلك الحكايات وتزويدها برسوم توضيحية بقصد التهذيب والارشاد ، وبالفعل نشر إحداها متخذاً منها وسيلة للبحث عن الامتاع عن المسكرات ببيان ما لها من أثر كبير في احباط الآمال . . وقد أثار هذا غضب ديكنز الجهم لما فيه من تلفيق وتناف مع الخيال الابداعي وهو روح تلك الحكايات . وقد رد ديكنز على كروكشانك بمقال تحت عنوان « الاحتيال على حكايات الجان » (١٨٥٣) . . وما جاء فيه « انه في عصر النفعية يصير الاهتمام بحكايات الجان أمراً ذا أهمية بالغة . . . فأى أمة بدون خيال ، بدون رومانسية لا تستطيع ان تحتفظ بمكان سام تحت الشمس » وتند ديكنز بكل من تسول له نفسه ان يثير هذه الحكايات بقصد طرح أفكار معينة ، فمن رايه أن هذه الحكايات يجب ان تتناقلها الأجيال بأمانة ودون عبث . وكان لهذا المقال اثر في ازدياد شعور ديكنز بأهميتها ، ومن المعروف انه كان يناهز دائماً بنصيب أكبر من الخيال لا الخلق للاطفال . ويصلح هذا النداء ان يكون عبارة استهلاكية لرواية لوفات عصبية Hard Times التي بدأ ديكنز كتابتها بعد

لبث الوعظ والارشاد . وفي سلسلة تلك الكتب القصصية المواقفية يذكر المؤلف طريق الحاج The Pilgrim's Progress by (١٦٧٨) Bunyan وهو اساسا لغير الاطفال ، وكتاب A Book For (١٦٨٦) البنات وللولااد والبنات Boys and Girls لنفس المؤلف . وآخر لجيمس جينسوي James Janeway عن مصير الاطفال الاشقياء . وتوات الكتب من هذا النوع في الصدور في القرنين التاليين ومنها كتب مسز تريمر Mrs. Trimmer الشهيرة (في القرن الثامن عشر) التي ناصبت فيها العداء للفتازيا ورافعة مسز شروود Mrs. Sherwood (في القرن التاسع عشر) تاريخ عائلة فير تشايلد The History Of the Fairchild Family, being a Collection of Stories Calculated to Show the Importance and Effects of a Religious Education والتي لاقت رواجاً على امتداد القرن لما فيها من تربية وتحذير للصغار . ولكل من بيب Pip في آمال كبار (الفصل ١٣) وأرثر كلينام Arthur Clennam في الصغيرة دوريت Little Dorrit (الفصل ٣) تجارب مع مثل هذه الكتب في طفولتهما . ولم تكن كل الكتب بهذه النوعية ، فكان قد صدر لاسحق واطس Isaac Watts في اوائل القرن الثامن عشر مجموعة من الاشعار تعليمية في جوهرها ولكن بأسلوب ملطف ، وكان هذا بمثابة بداية لسلسلة

الحكايات في القرن السابع عشر . وبحلول القرن الثامن عشر خف تأثير الحركة التطهيرية ولكن حل محلها اتجاه يجعل نفس العداء لتلك الحكايات ألا وهو الحركة العقلانية التي حكمت على تلك القصص العجيبة بانها ضرب من النفايات . ويقال ان اللورد تشستر فيلد Chesterfield حذر ابنه بالتبني وابنه بالمعمودية ان يتجنب حكايات الجان والرومانسيات وقصص المعالقة والسحرة وكل ما هو خرافي . ويمثل تحذير اللورد الاتجاه السائد في القرن الثامن عشر تجاه الحكايات ، وربما كان هذا هو السبب في هجوم ديكنز على اللورد مثلاً في شخصية سيرجون تشستر Sir John Chester الشرير في روايته بارنابي روج Barnaby Rudge الذي ربه طفله بالتبني هو Hugh كما لو كان حيواناً . ويكاد ديكنز يقول من رسته لتلك الشخصية ان هذا هو حال من لا خيال له . واعتبر العقلانيون ان الادب المناسب للاطفال هو ذلك الذي يعلمهم التصرف بأسلوب سليم ، وكيفية ضبط المواقف وتجنب الاندفاع والتهور . وعليه رفضوا كل ما هو غير عقلائي وخيالي متجاهلين بذلك قدرات الاطفال وحياتهم العاطفية . ومن أشهر المؤلفات في هذا الصدد كتاب سافورد ومرتون Sandford and Merton by Thomas Day (١٧٨٣) لثوماس داي والذي اعتبره ديكنز رائداً للخيال ، حيث ان كل حادثة من حياة الشخصيات استغلها المؤلف

الحكايات كل على حدة في طباعت رخيصة ووجدت طريقها لكل قرية ولكنها كانت مازال بعيدة عن ادب الاطفال المحترم . وفي صبا ديكنز كانت الحكايات الثلاث : الجمال الناحس وستدريلا وذو اللحية الزرقاء وقد اصبحت انجليزية تماما مثل جاك قاتل العملاق Jack and the Giant Killer وتوم ثم (عقلة الاصبع) Tom Thumb وجاك وسناق الفاصوليا Jack and the Beanstalk .

ومن التطورات المرتبطة بأدب الاطفال أيضا صدور رواية روبنسون كروسو (١٧١٩) Robinson Crusoe بمغامراتها وعنصر التشويق فيها ، وسرعان ما ظهرت في شكل متقضب بثمان زهيد مما ساعد على انتشارها . وتلتها رحلات جلفر Gulliver's Travels وهي وثيقة الصلة بحكايات الجان بما فيها من اقزام وعماقة وحيوانات ناطقة وبلاد عجائب . وقد لاقت نفس الرواج . وكان لترجمة ألف ليلة وليلة The Arabian Nights للفرنسية (١٧٠٤ - ١٧١٧) وهي أول ترجمة للحكايات بلغة غربية ، وتبعها في نفس الوقت تقريبا ترجمة بالانجليزية عن النص الفرنسي كان لها أكبر الأثر في هذا التطور . وقد ظهرت بعض حكايات الليالي منفردة في طباعات شعبية كحكاية « علي بابا والأربعون حرامي » و « ستليد البحار » و « علاء الدين والمصباح السحري » وسرعان ما أصبحت أكثر الحكايات

من كتب الاطفال قام بنشرها جون نيوبيري John Newbery وآخرون ، جمعت بين الاسلوب التعليمي من ناحية والتسلية والمتعة من ناحية أخرى . ولم تحمل هذه المجموعة حمل الكتب التحذيرية السابقة التي بقيت الدعامة الرئيسية لأدب الاطفال ، ولكن وجدت طريقها لمكتبات بعض الأسر . وبجانب تلك ، كان الباعة الجائلون يوزعون الكتيبات الشعبية والنشرات بأسعار زهيدة ، وكانت تخاطب اطفال الريف الذين لم يكن لهم حظ التعليم على ايدي معلمين خصوصيين . وكان من بين ما تضمنته قصص الانجيل والمغامرات والجرعة وكتب التنكيت والقصص العاطفية وبعضها من حكايات الجان والرومانسيات والأناشيد وغيرها .

وكانت فرنسا قد سبقت انجلترا في العودة للاهتمام بحكايات الجان واتخذ هذا الاهتمام شكل تجميعها وإعادة قصها . ومن الرواد في هذا المجال شارل بيرو Charles Perrault ومن بين ما جمعه حكاية الجمال الناحس Sleeping Beauty وستدريلا Cin-derella وذو اللحية الزرقاء (قاتل زوجته) Bluebeard ولم ينس بيرو انه يعطي عنوان المختارات والتي صدرت في سنة ١٦٩٧ صيغة اخلاقية . وترجمت تلك المجموعة للانجليزية عام ١٧٢٩ ، وكانت قد سبقتها ترجمة لمجموعة اخرى لمدام دولوني Madame d'Aulony عام ١٦٩٩ . وسرعان ما ظهرت تلك

Fairy Tales أو المكتبة الليلوپوتية -Liliputian Library كما قام توماس كروكر Thomas Croker بجمع مجموعة أخرى . وترجمت مجموعة من الحكايات عن الألمانية لاقت نجاحا ووجدت طريقها لمكتبات الاطفال ، ومن بينها قصة سنو وايت Snow White وهانزل وجريتل Hansel and Gretel كما قام فيلكس سمرلي Felix Summerly بنشر مجموعة أخرى ، وكان من اهداف هذه المجموعة تنمية خيال وعواطف وتذوق الاطفال . والمهم هو انه في اربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر كانت الحكايات قد رسخت نفسها في وجه التيار المعارض ، وبذلك بدأت تتحول النظرة اليها وتوالى في الاربعينات والخمسينات ظهور قصص الاطفال ومن بينها كتب عيد الميلاد الخمسة لديكتر وترجمة لمجموعة Hans Christian Andersen وملك النهر الذهبي -The King of the Golden River لرسكن Ruskin والوردة والحلقات -The Rose and the Ring لثاكري Thackeray ويظهر مغامرات أليس في بلاد العجائب Alice's Adventures in Wonderland للويس كارول Lewis Carroll (١٨٦٥) كانت فكرة ربط ادب الاطفال بالناحية التعليمية قد اندثرت تماما . وكان مقياس انتصار الخيال اخيرا هو شعبية قصص اندرسون وكارول . وترتبط رباح التغيير ايضا بالحركة الرومانتيكية التي صاحبها

التداول شعبية . وعن طريق ترجمة الليالي وذيوعها دخلت ادب الاطفال عناصر جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كالفوانيس السحرية والجنيات ذات القوى الخارقة ، وقصور الجان ، والكنوز المهولة وفتيات الرقص و« الحرامية » والبنات المبرقعات والخطط المحكمة والتحول السحري ... الخ . وربما يكون عالم الليالي قاسيا وحقي وحشيا بعض الشيء ، ولكن فيه تفرد الطيور وعشق الأوبة ويقع السحر . وكان الفارق واضحا بينها وبين الحكايات التعليمية . وقد افرزت « الف ليلة وليلة » سحرها على ديكتر كما أفرزته على كثيرين من قبله ومن معاصريه . وعدد المؤلف بعضا من هؤلاء الكتاب : بيرون Byron وساوثي Southey ومور Moore وجونسون Johnson ويكفورد Beckford كما ين ان قرابة الليالي لحكايات الجان الغريبة ليست بالامر الغريب فتلك الحكايات اصلها شرقي عتيق ، ويعزي انتشار الليالي في الغرب الى تلك الغرابة . بيد انه على الرغم من شعبية الليالي لم تجد حكايات الجان طريقها لمعظم مكتبات الاطفال . كما كانت هناك محاولات لنشر مختارات من الحكايات ففي سنة ١٨٠٤ نشرت مجموعة بعنوان قصص تابارت الشعبية Tabart's Popular Stories ضمت بعضها من الليالي . كما اصدر سير ريتشارد فيليبس Richard Philips مجموعة أخرى تحت عنوان حكايات الجان الشعبية Popular

عمرها عندما بدأت العمل الا انه عهد لها بملاحظة الاطفال ، ويبدو انها كانت ناجحة في عملها ، فكان غرامها بالحكايات المروعة لا حد له ، وكان ديكنز لها صاغيا طبعيا يرتعد من هول الحكايات ولكن يحرقه الشوق لسماع المزيد . . ومن بين القصص التي كانت تحكيها له « الكابتن القاتل » Captain Murderer و « تشيس والشيطان » Chips and the Devil وهي تعج بالرعب والخوارق والآثاره ويوضح لنا ديكنز انه سمع كل هذه القصص قبل ان يبلغ السادسة من العمر وقد هزت أوتار طبيعته فزادت من حساسيته . وشكل عالم الحكايات الغريب الذي انبهر به جزءا هاما من نظره في الحياة . ومن الملاحظ انه في الروايات وخاصة قصص عيد الميلاد اشارات واشارات لعديد من الحكايات ، كما ان الكثير من الاحداث في الروايات تعد امتدادا لمحتوى تلك الحكايات ، ومنها يورد المؤلف : نيل مستر دوريت ثروته في الصغيرة دوريت ، ودوريس بتسي كعراة في ديفيد كوبرفيلد ، وتعاويد نيكلاس السحرة في نيكلاس نيكلي ، وتقول سكروج الغريب في اتشود عيد الميلاد ، ودور الصغيرة نيل المهدي في محل العاديات الاثرية ، وملجأ فلورنس المسحور في دومي وولده وتكر مسر بوفين الحميد في صديقنا المشترك وشيطانية كويلب في محل العاديات الاثرية ومهمة القتل الهلوسية لجوناس تشزلويت في مارتن تشزلويت وتجولات ديفيد التمسمة بالرعب في ديفيد

اهتمام بالفولكلور والخرافة وموضوعات ما وراء الطبيعة وشعبية الليالي العربية والحكاية الشرقية عموما وظهور الادب القوطي ، بما فيه من اشباح وعمالقة وزنانات وبنات مقهورات واوغاد وسحر . . الخ . وأكدت الحركة الرومانتيكية على ان الطفل ليس رجلا مصغرا مشحونا بالخطايا والشرو بل سمته البراءة الطاهرة كما تشكل خبراته الاولى ، وهو ليس فاسدا بل ان المجتمع هو الذي يفسده . وهذه الفكرة عبر عنها الشاعر بليك Blake بعبارة « الحمل الصغير » وايضا وذرورث Word-sworth « بأفضل الفلاسفة » . ويمثل اوليفر تويست اليتم مبدأ « الخير الذي يصمد في وجه الظروف القاسية » وأن ما يجتازه الطفل هو الخيال والحرية والمتعة وليس الخوف والحقائق والقيود . . بيد ان الافكار الجديدة هذه كانت في نظر البعض تقدمة الى حد كبير .

وفي الفصل الثالث يتطرق المؤلف لموضوع ما للخرافة من اثر في ادكاء خيال ديكنز في صغره ، وبين لنا ان ديكنز تعرف على عالم الحكايات حتى قيل ان يتعلم القراءة بواسطة مربيته ماري ويلر Mary Weller وجدته لاييه وكانتا مشهورتين بقصصهن الحكايات الممتعة . وتكرر سماع ديكنز لهذه الحكايات مرات ومرات فكانت جزءا اساسيا من حياته الباكرة . . وقد جاءت ماري لتعمل مع الاسرة عندما كان في الخامسة ، وبقيت معها حتى بلغ الحادية عشرة . ورمز انها كانت في الثانية عشرة من

ففي السابعة من عمره كان يقوم بتمثيل أدوار من مسرحيات قرأها من مخزانات جديتها السيدة انتشبولد Inchbald وزار في هذه السن المبكرة المسرح في لندن وشاهد المهرج جريمولدي Gri-maldi وهو يمثل إيماليا ، كما شاهد على مسرح مدينة روشستر كل شيء من شكسبير إلى تمثيليات إيمالية ومسرحيات هزلية . فكان ما شاهده ترجمة حية لما قرأه وحفظه وتخلله . وكانت التمثيليات الإيمالية اقرب ما تكون لحكايات الجان فمعظمها مأخوذ عنها وبخصوصا تلك التي كانت تقام في اعياد الميلاد . كما انها كانت تجمع كثيرا من عناصر الحكايات للاحداث السحرية ومناظر التحول وتحقيق الأماني . ولم يقتصر الامر على هذه وتلك فقط بل كان للمسرح اللعبة ، وهو مسرح عرائس مصغر من ورق بكامل الشخصيات والمناظر والذي ازدهر لفترة أيام صباه ، اثره البالغ على انخصاب خياله وقد اعطى هذه الفرصة لديكنز ان يمارس التمثيل والاخراج بنفسه وهو في سن العاشرة تقريبا ، وتحول مسرح العرائس هذا فيما بعد الى مسرحه القصصي الريح .

وفي القسم الثاني من الفصل يواصل المؤلف سرد المؤثرات على حياة ديكنز الباكورة فيوضح أن ديكنز كان في صفه ضعيف البنية ، رقيق الصحة وحال هذا بينه وبين الاشتراك في أنشطة الصبا مما دفعه أكثر للمطالعة فملا رأسه بالأحلام والرومانسيات . ويحكى انه كان يراقب الاطفال من نافذته وهم يلعبون في فناء

كوبرفيلد ، وسحر ريتشارد كارستون المؤذي في بليك هاوس ، وظهور ماجويتش من بين القبور في أمال كجار ومنزل مسز كلينام المسكون بالاشباح في الصغيرة دوريت ، وطريقة اكل مسز فولز القنولية في بليك هاوس . لقد استحضرت ديكنز رؤى الطفولة في كتابة رواياته ومزجها بواقع الحياة اليومية . كما تمزجت الصور التي كونها في مخيلته عن العراة والحیوانات الناطقة والغول والتحول السحري تلك التي قابلها في حكايات ماري ويلر وجدته بقراءاته الاولى التي منها دخل عالم الحكايات الشعبية الفسيح . وكان من بين ما قرأه حكايات بيرو ومدام دولوي الفرنسية ومخزانات من الف ليلة وليلة والحكايات الانجليزية ، وقد شجعه أبواه على قراءة تلك الحكايات ، كما شجعا المربية وجدته على المضي في حكاياتها . وربما كان انشغال أبويه عنه بأمور المعيشة مدعاة ايضا للاستغراق في القراءة التي غدت وثقت ذوقه وخياله . ولم يقتصر الامر على السماع والقراءة فقط بل امتد الى تلاوة اقوال حفظها أمام الاسرة . وقد انعكس ذلك بالطبع في رواياته فنجد مثلا ويلكنز ميكوسر Wilkins Micawber (وهو قريب الشبه بشخصية والد ديكنز) دائم التعليق على الاحداث باستشهادات حفظها . كما امتدت هوايات ديكنز لتشمل التمثيل والغناء الهزلي خاصة . كما يعود حبه للفكاهة والاثارة والمبالغة التي تظهر بجلاء في رواياته لتلك الايام الاولى من حياته .

كويرفيلد بهذه المجموعة من الكتب وعن مدى شغفه بقراءتها (الفصل ٤) وكان من بينها رحلات جليفر وطريق الحاج وفيليب كوارل Philip Quarll ومقالات اديسون Addi-son وستيل Steele وجونسون Johnson وجولد سميث Goldsmith . وقد ساهمت تلك المطالعات إسهاما بالغا في تشكيل خيال ديكنز وقدرته على الكتابة . فمذكرات بيكويك على سبيل المثال مبنية على مطالعته في سرفانتس Cervantes وجولد سميث وفيلدننج Fielding وسمولت Smollett ففيها المجموعة المتجولة ونساء باحثات عن الرجال وصورة سجن الدائنين وآثار دونكشوتية وسانكوپانزا Sancho Panza الوفي .

ويبقى للمؤلف ان يذكر الف ليلة وليلة وهي تعد بمثابة اهم كتاب قرأه ديكنز قبل بلوغه الثانية عشرة . وهناك اشارات واشارات للحكايات الشرقية أكثر من أي عمل خيالي آخر في رواياته ، وكما هو الحال عن كتبه المفضلة ظل ديكنز يعاود قراءة الليالي العربية طوال حياته . وقد اعترف في رسالة بأنه كان من بين أكثر قرائها شغفا بها ورجوعا إليها باستمرار . ومن الملاحظ ان الليالي قد شكلت جزءا من مطالعات حتى الاطفال المحرومين في رواياته من أمثال سكروج ، كما خصص ديكنز اربع فقرات مطولة في « شجرة عيد الميلاد » للحكايات ذاتها (قصص عيد الميلاد ، الجزء الاول) كما ان ستير فورث جعل ديفيد يتبع غط شهرزاد في قص

الكنيسة بينما هو يقرأ في سريره فكان بمثابة المشترك معهم والمراقب في نفس الوقت ، المتحمي واللامتحمي ، القريب والبعيد ، وازدواجية الرؤية هذه اساسية لكل فنان وبالتأكيد لديكنز . وتمتد تلك الازدواجية لتجمع المشرق والمظلم جنبا الى جنب فيه ، كما اوضح ذلك كارلايل في رسالة لفورستر في فبراير ١٨٧٤ . وتظهر هذه الازدواجية بجلال في الروايات ، فاوليفر تويست بطل من اسرة طيبة ولص في نفس الوقت ، كما ان نيل الصغيرة ملاك وطريدة ، وفلورنس دومبي وريثة غنية وابنة غير محبوبة ، وديفيد كويرفيلد ابن مدلل وطفل متشرد انهكه التجوال ، ومستر دوريت سيد مجتمعات ومن ارباب السجون ، كما ان ييب مهلب مهتم وصبي حداد ، ويرايلي هيدستون معلم محترم وقتل مكر ، ومستر جاسبر عضو في جوق الكنيسة وعدواني يتعاطى الاقيون . والمتبع لطقولة ديكنز لا يجد غريبا ان يظل طوال حياته مهتما بموضوع العزلة والحرمان ، فلتحول امه عنه لرعاية جيش من الاخوة والاخوات ولصحته السقيمة وعزله سبب رئيسي لانكيا به على القراءة . واهتم ديكنز حتى في صغره بقراءة رواائع النثر القصصي التي كان الآباء يمتثلون بعدم صلاحيتها كمادة قراءة للأطفال . ولكن لم يكن الحال كذلك مع ديكنز ، فكان والده يهتم باقتناء تلك الروايات وكان يحفظها في غرفة مجاورة لغرفة ديكنز ، ويعرفنا ديكنز على لسان ديفيد

يتخيل نفسه في الشخصيات والمواقف وان يسيطر على جمهور النظارة وان يحس بمحنة الخلق ، وتولد لدى ديكتز دافع الكتابة اثر تركه مستودع دهان الاحلية وخضع كل ما كتب لتأثير خياله . وتحمل كل رواية من رواياته دلائل تؤكد مدى شغفه بحكايات الجان .

وفي الفصل الرابع يبدأ ستون في تحليل الروايات من زاوية موضوعه ويرى ان مذكرات بكيوك هي أقل الروايات تأثرا بحكايات الجان ، فالتيار العام في الرواية ، بالرغم من اللمسات الكاريكاتورية هو واقعي غير مثير : تفحص الرواية بالمناظر الريفية والحافلات بطيئة الحركة ومن الشخصيات بالخدم ورجال القانون والصحفيين والمحتالين . ويتركز هدف ديكتز في الرواية في امتاع وتنوير القارئ، وذلك من خلال سلسلة سريعة من المفامرات تعكس الحياة اليومية بتنوعها ومرحها وحوادثها المؤسفة . ولم يتجنب ديكتز طابع الحكايات في روايته صدا ولكن غمره الواقعي فاكفى بتصوره . بيد ان عنصر الحكايات لم يغب تماما عن الرواية فيقدم الاحداث يأخذ مستر بيكيوك دور العراب بطيئة وقوته السحرية اكثر فأكثر . فبفضله سافر جنجل Jingle وتروتر Trotter الى جزر الهند الغربية حيث ابتمت لها الحياة ، وبفضله ايضا تزوجت إميلي وردل Emily Wardle سنود جراس Snodgrass كما تزوجت ماري Mary سام ويلر Sam Wel- ler . ومن عناصر الحكايات ايضا التي تلمحها

حكاياتها بأن يروي جزءا منها كل صباح وآخر كل ليلة (ديفيد كويرفيلد ، الفصل ٧) . وعندما بدأ ديكتز يعمل في مستودع دهان تلميع الاحذية بعيدا عن كتبه ومسرح عرائسه تحول الى قصص القصص لزملائه في العمل . كما انه كان قد تعود ان يشتري بعض المجلات الاسبوعية مثل « البورتفوليو » و « سجل الرعب » Terrific Register بعد ان يتقاضى أجره كل سبت . وكانت من بين ما تحتويه موضوعات مثيرة على القتل والاعدام والكوارث والمروب والاحلام والخزعبلات والاشباح التي كان يجد في قراءتها متعة ما بعدها متعة . وفي ختام الفصل يوجز المؤلف ما جاء به بقوله ان ديكتز ولد في عصر يعاني الخيال في ادب الاطفال فزاده دافع المعارضة اهتزازا بقيمة الخيال ، في عصر كان ينظر فيه الى حكايات الجان على انها ضرب من النفاية ، الا انه كانت له جلة ومربية لها باع طويل في سرد تلك الحكايات . كما ان صحته السقيمة تسببت في عزله ولكنها في نفس الوقت عوضت بحياة الخيال ، كما ان اهمال والديه في رعايته سبب له ايلاما شديدا ، بيد أن ذلك اعطاه حرية أن يملأ خياله بحكايات « الكابتن القتال » و « جاك قاتل العملاق » و « الحالم الذهبي » و « سجل الرعب » كما ان سرده القصص وغناؤه الهزلي وترديده ما حفظه من نصوص وشغفه بمسرح عرائسه كلها جعلته ينشد الاستجابة والقبول من المتفرجين ولكن نفس هذه الخبرات علمته ان

في الرواية القصص العديدة الممتعة في نسجها . وقد ذهب بعض النقاد الى ان هذه الاقاصيص مأساوية قوطية بينما القصة الرئيسية هزلية ، الا ان هذا الرأي نعوزه الدقة ، فبعض تلك الاقاصيص لا هو بالمأساوي ولا بالقوطي ولكن في نظر المؤلف هناك شيء واحد يجمع الاقاصيص التسع ، وهو انها مرتبطة ارتباطا وثيقا بحكايات الجان ، فيسودها عنصر الخوارق والارواح الشريرة والاشباح والخرابة والتحويلات . كما يتبع ديكنز في هذه الاقاصيص اسلوب الحكايات فقصته « كاتب الابراشية » *The Parish Clerk* مثلا تبدأ بـ « كان ياما كان » وتنتهي بنهاية سعيدة للجميع . ويرى المؤلف ان من اهم تلك القصص قصة الغيلان *Goblins* والتي كانت بمثابة النموذج لرواية انشودة عيد الميلاد *A Christmas Carol* التي كتبها ديكنز بعد ذلك بسبع سنوات ، وغيرها من كتب عيد الميلاد ووجه الشبه كبيرين وسكروج في الرواية وجابرييل *Gabriel* في القصة ، فكل منها عكر الزاج يقوم بمغامرة في ليلة عيد الميلاد بدلا من الاشتراك في الاحتفالات الخاصة بتلك المناسبة ومكان المغامرة هو المقابر . وكان من جراء حشر ديكنز لتلك القصص في مذكرات ييكويك تبين النعمة والموضوع . ومهما يكون الامر فالواقعي والسيرياي اقل امتزاجا في تلك الرواية عنه في اي رواية اخرى وليس أدل على ذلك من ان ديكنز قد تخطى عن حشر قصص في رواياته بعد

بيكويك وان القصص في حد ذاتها داخل ييكويك أكثر من النصف الاول عنها في النصف الثاني . وفي الحقيقة لا نرى مزجا للواقع بالخيال بصورة مرضية حتى رواية دومي وولده . وبين دومي وبيكويك كتب ديكنز خمس روايات : اوليفر تويست (١٨٣٧ - ٣٨) ، نيكلاس نيكلبي (٣٨ - ٣٩) عمل العاديات الاثرية (٤٠ - ٤١) بارنابي ريج (٤١) . ومارتن تشزلويت (٤٣ - ٤٤) . وتعد كل من نيكلاس نيكلبي وبارنابي ريج ومارتن تشزلويت نمط الحكايات المستعمل في ييكويك مع اختلاف في التركيز كما يقحم حكايتين في نيكلبي مما يقطع سلسلة الاحداث الرئيسية ولكن يقع ذلك في بداية الرواية . ويعد هذا آخر استخدام له هذا الأسلوب . وتظهر نكهة حكايات الجان حتى في أسلوب الفصل الأول الذي يبدأ بالعبارة المشهورة « كان ياما كان » كما تتسم القصة الرئيسية في الرواية بطابع الخطابات ، والقصة عتيقة وهي عن كيف أن السيدة نيكلبي الارملة الساذجة تأتي الى مدينة كبيرة تطلب العون من عم أولادها الثرى ولكنها تكتشف بالتدريج أنه شخص في منتهى البشاعة والوحشية دأب على نصب شرك لهم . وفي الرواية أيضا صورة دوثوبوز هول *Dotheboys Hall* وهي بمثابة زنزانة يقطنها أولاد صفار أشرار يأكلون الكبريت تحت امرة سكويرز *Squeers* وحش أعور . وزد على ذلك عصر السحر والميلودراما واستدراار عواطف القراء . كما أن شخصية

فيحيط بكل منها مجموعة من الاقارب ينتظرون موتها بفارغ الصبر ، بيد أن عناصر الواقع والخيال تمتزج امتزاجا كاملا في آمال كيار . ومن الواضح أن بعض الشخصيات الأخرى في تشرلويت مستمدة من حكايات الجان مثل بيكسنيف Pecksniff ونادجت Nadgett تلك الشخصية الشبيهة والتي لها أكثر من وجه ، يستطيع أن يغير نفسه في غمضة عين ، كما أن بيلي Bailey كالغريت يفقر من بين الأموات . أما جوناس Jonas فهو كالغول ويذكرنا بجرايد Gride ووالف نيكلي Ralph Nicklepy ولسيري جسامب Sairey Gamp صفات خارقة عديدة فهي شخصية بشعة تشرف على المواليد والوفيات ولديها مقدرة على الخلق ، فقد ابتدعت شخصية مسز هاريس من بنات خيالها الذي يخدم أهواءها وموتيجوتج Montague Tigg شخصية حكاوية أيضا ، هو المخادع الذي يستطيع أن يتنكر وأن يغير شكله الى مالا نهاية وهو قريب الشبه بالشیطان . ولا يتصر طابع الحكايات على الشخصيات فقط فالرحلة الى أمريكا تأخذ شكل الحكايات فهي رحلة البحث عن جنة عدن حيث أن مارتن جاء اليها أساسا للبحث عن الثروة والعودة بها الى إنجلترا ، ولكن عندما يصلها يكتشف أنها جهنم لافردوس . كما أن الريح التي تبدأ بها الرواية لها طابع السحر في الحكايات ولكنها في نفس الوقت ربح حقيقية . ثم يتطرق ستون الى البناء الخرافي في الرواية

مادلين براي Madeline Bray هي بمثابة الأميرة في الحكايات ، فرغم فقرها فهي في حقيقة الأمر وريثة لممتلكات هائلة حببها عنها آرثر جرايد Arthur Gride البخيل البشع . وكما هو الحال في حكايات عديدة توافق مادلين على الزواج من هذا المخلوق الكريه اذا ماسلد ديون أبيها ثم تنكشف الأمور على حقيقتها ويتم انقاذ مادلين بطرق أشبه ما تكون بالسحر وتعود لها ملكتها وتزوج نيكلاس وتعيش في « الثبات والنبات » . ومن الواضح أن الصراع بين قوى الخير والشر في الرواية يتسم بطابع الصراع في الحكايات فينال اشرار الظلام الهزيمة على يد خصومهم الخيبرين ، وهذا مايعود له ديكنز دوما في رواياته . كما أن انتصار قوى الخير على قوى الشر له طابعه السحري أيضا . وعن بارنابي روج يذكر ستون أنها تقوم على مفاهيم الحكايات فهي تدور حول جريمة القتل الأزلية ويستخدم ديكنز فيها عنصر الخوارق والأشباح . كما أن شخصية بارنابي في حد ذاتها قائمة على الفتازيا وينطبق نفس الشيء على والده القاتل ، فهو تائه جوال كابنه يسطهد ويطارده أسرته . كما تقاسي الرواية من نقطة ضعف الروايات السابقة ألا وهي عدم امتزاج الخيال بالواقع . ونفس الشيء يصلق على مارتن تشرلويت والتي تتمركز قصتها حول شخصية العراب كما في بيكويك ونيكلي وهو وراء النهاية السعيدة للقصة . وهناك وجه شبه بين مارتن المعجوز ومس هافيشام في آمال كيار

مزج الواقع والرمزي والنفسى والحارق في تلك الواقعة ، ويساعد العنصر الخرفاني في تفهم بشاعة الجريمة ومغزاها الغيبي . ويرى المؤلف أنه برغم كل هذا فنمصر الحكايات ليس سائدا في مارتن تشزلويت .

وتبقى من مجموعة الروايات التي كتبها ديكنز قبل دومي وولده روايتان الثانية : أوليفر تويست والرابعة محل العاديات الأثرية . ويسود في كليهما عنصر السحر ويمتزج أكثر بالواقع . وترتبط قوى الظلام التي تسيطر على الجزء الأكبر من أوليفر تويست بحكايات الجان واليقع في وسط هذه القوى شخصية فيجن Fagin وهو مستحق كلية من الخرافات والحكايات الشعبية ، فهو صديق الشيطان ويعمل معه جو الشر الذي يسود أساطير العصور الوسطى ومسرحيات عصر النهضة وقصص الأطفال المرحية . هو الشخص المخيف البخل قاتل الأبرياء ومفسد الأطفال وبنى مظهره وبيته وعتاده عن شيطانية . وفوق كل هذا يضيف عليه ديكنز من فكاهة وحيوية وخصوصيات ما يجعله شخصية ديكنزية خالصة . ولتينج أعوان يتسمون بصفات خارقة فشريكة منكس Monks هو شرير الخرافات بعينه بما له من صفات قوطية وميلودرامية ويقع منكس في محيط أوليفر كجان شرس وكسوة مؤذنة . والأسلحة التي يستعملها هي تماما ما نعهده في الحكايات : شخصيات تنكزية ، نسب مجهول ، وصايا اتلفت ، شهود عيان مخادعون ، خواتم

وكيف أنه يشكل جزءاً من عالمها حيث يأخذ الجماد صفات الاحياء فللمداخن تكلم بعضها بعضها كما تحس الاشجار أنها حيصة وتلكأ عربات النقل في الحارات الضيقة . . الى غير ذلك . ويعد قتل جوناس لمستجيو من اللمسات الجليدة ، ولطالما كان ديكنز مولعا بتصوير القتل وتبعاته في رواياته . جوناس شخصية معقدة منقسمة على نفسها تتناهى أفكار مزعجة وقد وفق ديكنز حقا في خلقه لتلك الشخصية بإبعادها السحرية ، فحجرتة مثلا قبل أن يرتكب جريمته تعكس كمرأة سحرية ما يدور في رأسه (الفصل ٤٦) . وفي طريقه لارتكاب جريمته يبلو الموقف كما لو أن الطبيعة تراقبه ، فالتاس يصيهم الجفول ويرى الأطفال خيالات داكنة في نومهم والكلاب تتبح والفئران تتبعه ، كما أن وقع أقدامه يترك أثرا أحمر اللون مثل قاييل . ويعد وصف الغابة التي ترتكب فيها الجريمة رائعا حقا فهي غابة حقيقية وفي الوقت نفسه تعج برموز الحياة والموت . ويعد القتل تناب جوناس المواجه لآعن الغابة ولكن عن حجرتة الخالية التي من المفروض أن يكون نصفه العادي فيها . وبينما نصفه القاتل في طريقه للحجرة يزيد شعوره بالانفصام . وعند سماعه قرعا على باب الحانة التي توقف عندها للشراب يهتأ له أنه قرع على باب حجرتة هو ويرتعد لذلك . وكالطرق على البوابة في مكث ، فالطرق هنا لنير شؤم ويتناوب جوناس الملع من مجرد التفكير في غرفته الخالية (الفصل ٤٧) . حقا لقد برع ديكنز في

أمر أوليفر ويتزعم عناصر الخبير الأخرى : آل مايلاي Maylies ومسز بدوين Bedwin ولوسبرن Losberne وجرمويج Grim-wig وغيرهم ، كما يساعدهم على قهر الشر ! وهو كمستر ييكويك دافعه الاحسان ، وعصاه السحرية هي النقود كالعادة . ومن الواضح أن قوى الخير في الرواية مبالغ فيها وخرافية كقوى الشر تماماً . ويبقى أن نتساءل ما السر في أن أوليفر تويست وهي الرواية الثانية لديكنز بسودها جو الحكايات وأن عناصرها الخيالية والواقعية أكثر التحاماً عما عليه الحال في الرواية الأولى أو الثالثة أو السادسة ؟ وتكمن الإجابة كما يرى المؤلف في طبيعة النوافع التي كانت تغذي الرواية فقد ارتبطت بمخاوف وآمال ديكنز الذاتية وكانت تلك المخاوف شديدة وما كان بالامكان تصويرها بغير مبالغة أدخلت غلط الحكايات ، ونفس الأمر فيما يتعلق بآماله فقد استندعت حدتها النمط الخرافي للتعبير عنها ولم تقتصر هذه المخاوف والآمال على بعض المشاهد المتفرقة ولكنها ارتبطت بالحركات الرئيسية في الرواية .

ويشارك عمل العاديات الأثرية مع أوليفر تويست في غلبة عنصر الخرافة وامتزاجها بالواقع . وكانت فكرة الرواية في البدء في تصور ديكنز بمثابة قصة تقارن بين الاضداد : الشباب والشيوخوخة ، الجمال والقبح ، الريف والحضر ، الحياة والموت . وقد أعطى الرواية صبغة المجلة التي كانت ستشر فيها Master

مسروقة ، تعاويذ سحرية ، والمقلدة على الاختفاء دون ترك أي أثر . (ويتبين لنا في النهاية أنه أخ غير شقيق لأوليفر) ويضطهد أوليفر مستعينا بفيجن ، لأن ميراث أوليفر متوقف على شرط أن لا يكون قد أساء لاسمه بعمل غير شريف ، وهذا الشرط في حد ذاته من الصعب تصديقه فهو أقرب للحكايات منه لواقع الروايات في القرن التاسع عشر . وفيجن ومنكس شر خالص بينما أوليفر حسن خالص . ومن طبيعة الشر ملاحقة الخير والنيل منه ومن طبيعة الخير المقاومة والانتصار على الشر ، وكل ذلك هو عالم الحكايات بمعنى . ومن قوى الشر في الرواية أيضاً سايكس Sikes وهو أقرب للواقع من غيره ، ولكن بعد قتل نانسي Nan-cy نلاحظ أنه قد أحاطه ظلال من السحر . كما أنه تحركه دوافع إجرامية ويصده الخوف تماماً كما هو الحال مع جوناكس تشزلويت ورج المعجوز . ويصاحب هذا الوحش الجهنمي كلب شيطاني أيضاً ، ويجمع الاثنين شكلهما الشرير . وثلاثتهم فيجن ومنكس وسايكس هم من قاطني عالم ما تحت الأرض الحالك في الرواية . ومن الملاحظ أن التعامل بين الأفراد عادة ما يتم بالليل أو في غرف ظلمة لا تراها شمس النهار ، ويرغم ما للشر من قوة إلا أنه يستسلم أمام قوى الخير ، وتسود تلك المأساة من قوة سحرية تفوق قوة البشر .

ومن قوى الخير مستر براون لو Brown-low الثري المحسن وهو عراب الحكاية وولي

Humphrey's Clock وهي الصبغة الخرافية . وعندما زينت لحجمها الحالي لم يغير هذا من روحها فبقيت على ما كانت عليه . وفي قلب الرواية توجد عناصر خرافية علة : أولها الوحيد الباقس الذي يتجول في غابات هذا العالم المخيفة بياحه وحوش وعفاريت ونفاس نيل Nell الطفلة الضائعة من هجمات هذه المخلوقات الشرسة . ورغم أنها كاوليفر سلمت من هذا الهجوم إلا أنها كسمايك **Smike** ماتت في النهاية من جراء الصراع . وتشكل المدينة بؤرة الشر في الرواية وذلك من الناحية المعنية ، أما على مستوى الأفراد فمنبع الشر كله هو القزم القبيح الشكل كويلب **Quilp** وصفاته الجنية ظاهرة للعيان فرغم أنه قزم إلا أن رأسه ووجهه يصلحان لجسم عملاق وله أنياب بدل الأسنان ، وكله مكر وخديعة ، يأكل البيض بقشره ويتلع القرديس الضخم برأسه وذيله ، ويخرج الشاي المغلي دفعة واحدة وبعض الشوكة والمعلقة حتى تنحنيان ، وتصرفاته شاذة لدرجة أن النساء يرتعدن منه ويساورهن الشك في أنه آدمي (الفصل ٥) وقد دأب كويلب على تعذيب زوجته الجميلة وحماة التي أطلق عليها اسم التنين . ولهذا الشيطان السادي قوى خارقة أخرى فهو يأتي من لا مكان ويختفي في لمح البصر وينام وعيناه مفتوحتان ويستطيع أن يتعلق في السقف بإرجله ، وذاتما تحيط به سحب من الدخان الكثيف ، كما أنه يمارس السحر والتعاويذ ويسحر نيل Nell بقوته الجنسية ،

ويعد موت زوجته يخيبرها أنها ستكون زوجته الثانية . ويرافق كويلب طفل برمائي يقف دائما على رأسه ويحشم على النار كما لو كان علجوما (الفصل ٤ ، ٦٧) ولكويلب طاقة تسود الرواية وتعطيها الحياة . وبحيويته الشيطانية يقهر ويستعيد كل من يقترب منه ولا يشفي غليله غير الموت ، وكحياته فموته له طابع السحر ويسبقه طرق على الباب ، وتدفن جثته كما لو كان وحشا أو مصاص دماء . وعلى النقيض من كويلب هناك نل أميرة حكايات الجان . في الفصل الأول من الرواية نكتشف أنها تنام في سرير صغير يمكن أن تنام فيه جنية . وفي الفصل نفسه يعرفنا ديكنز بأنها صغيرة وروحانية وضعيفة البنية تشبه الجنية . وحتى بدون هذه النعوت ندرك على الفور أنها من عالم الجان فجماها تام وحسنها كامل وحكمتها بالغة وهي تسحر الجميع إلا الأشرار منهم ، وتقود جدها العجوز بيدها فهي مرشدته ومستشارته . أنها تعطينا صورة الشاب الحكيم يوجه الشيخوخة الحماقة . ولا يقتصر عنصر الحكايات في الرواية على الشخصيات والأفعال فقط بل يتعداها إلى الأماكن ، فبعضها لها صفات أماكن الحكايات وينطبق هذا على كوخ آل جار لانز **Gar-lands** وبيت دك **Dick** والمركبة **The Marchioness** تربط دك بالمركبة علاقة أشبه بتلك التي في سنديلا والجميلة والوحش . وتزخر قصتها بإشارات عديدة لحكايات الجان ، فمثلا عندما يفيق دك من الهذيان يقول « أنها ليلة

Gabriel Grub في مذكرات بيكويك . وهذا النموذج يتلخص في ان شخصية رئيسية تكون على خطأ يضر نتيجة لاحداث غير عادية ان يعيد تقييم نفسه بعد ان يكتشف اخطائه . وتتمتع هذه الروايات بالاحداث السحرية كما ان شخصياتها خارقة . ولقد بدأ ديكنز يرى من خلال هذه الروايات وما تحتويه من عناصر خرافية بجلاء اكثر كيف يستخدم الفنتازيا في خدمة بناء الشخصيات والمناظر والاجواء والاحداث ، وساعدته في ان يمزج الواقع بالخيال بطريقة لم يعدها من قبل . وعن طريق هذا الالتحام يعكس ديكنز مدى تعقد الحياة واعاجيبها . تبدأ انشودة عيد الميلاد بالبداية التقليدية « كان يا ما كان » ويبنى ديكنز في هذه الرواية حوارا يعج بالتجسيد والتشخيص وعزو الصفات البشرية الى غير العاقل . فتتحول المباني والبوابات واعمد السرائر ومقارع الابواب الى اشياء ذات احساس ، ويربط السحر الاشياء بعضها ببعض ، فشقة سكروج Scrooge مثلا في مبنى منزل يجيرنا الراوى انه لا يُدَّ وان يكون قد لعب الغمضة مع بيوت اخرى في شبابه وخرج عن الطريق وتاه وبقي هناك منذ ذلك الحين (الفصل الاول) . وهذا المكان يناسب رجلا ضائعا مقطوعا عن العالم ، كما ان له جوه الخاص وروحته الحارسة . ويقيم الضباب والصقيع على بوابة المبنى السوداء كما لو كان الطقس في حالة مواساة . انه عالم ملء بالسحر والاشباح . وتعد انشودة عيد الميلاد

من ليالي الف ليلة وليلة ... انني في دمشق أو القاهرة الكبرى ... المركيزة هي جنبية (الفصل ٤٦) .

ويتلخص الفصل في أن ديكنز في رواياته الست الأولى يستعمل كل وسيلة من وسائل حكايات الجان التي استعملها في رواياته الأخيرة ولكن ما ينقص الروايات الأولى هو امتزاج الخيال بالواقع . وقد شهد ديكنز بذلك عندما تمنى لو كانت مذكرات بيكويك أشد تماسكا . وصحيح القول أنه حتى دومي وولده لم يكتب ديكنز رواية مترابطة تماما .

وفي الفصل الخامس يتناول المؤلف روايات عيد الميلاد وهي الروايات الخمس التي كتبها ديكنز في الفترة بين مارتن تشزل لويت ودومي وولده وهي : انشودة عيد الميلاد (١٨٤٣) A Christmas Carol وموسيقى الاجراس (١٨٤٤) The Chimes ، والجُذُّجُ على المدفأة (١٨٤٥) The Cricket on the Hearth ومعركة الحياة (١٨٤٦) The Battle of life ، والرجل المسموس (١٨٤٨) The Haunted man ، وتستمد هذه الروايات مادتها من حكايات الجان بموضوعاتها واحداثها وطرائقها . وقد شهد ديكنز بذلك حينما قال انه في كتابتها كان يأخذ حكايات الاطفال المعهودة ويعطيها شكلا ارقى . وقد اتبع ديكنز في هذه الروايات كلها عدا معركة الحياة نموذج حكاية جابرييل جراب

اميرة الجان ، كلها حسن في حسن ، وتكون وسيلة النجاة السحرية لرذلو .

وخلاصة القول ان ديكنز حاول بعد انشودة عيد الميلاد أن يجمع بين عناصر الحكايات ومظاهر واحداث الحياة العادية من اجراس وصراخ ليل وغلايات شاي . كما انه خفف بعض الشيء من استعماله لتلك العناصر . ففى موسيقى الاجراس يخلخل هذا العنصر الروائي في وسطها فقط وفي الجُذُجُ في البداية والوسط فقط ، كما أنه زاد من العنصر الواقعي ففى معركة الحياة استغنى كلية عن الخوارق مما كان له اثره في تضيق المجال امامه وعدم تمكنه من بسط بعض النقاط . أما في الرجل المسوس فقد عاد ثانية لصيغة انشودة عيد الميلاد ولكنه وجه اهتمامه نحو وسائل أكثر تهاديا من الاشباح والعماريات وأكثر توافقا مع المضمون الواقعي . وبما اضافته كتب عيد الميلاد لفن ديكنز الفتاوى انه تعلم كيف يجعل حالة نفسية معينة اوجوا ما ينفذ في القصة كلها ، كما انه ربط استعماله للرموز ببنية الرواية ، كما عمقت تحليلاته النفسية وشجعته ان يعكس الحالات الذهنية في الجو المحيط وان يوضع الانقسامات الداخلية من خلال الانا او النفس الثانية ، وان يصور الصراعات النفسية عن طريق الرمز . وقد عززت بعض هذه الاساليب ما كان يتبعه من قبل ، كما دفعه البعض الاخر نحو اتجاهات جديدة . ويستطيع القارئ ان يرى انعكاسات

افضل رواية في المجموعة ولكن ليس في كل الامور . فشالي الروايات مثلا ، موسيقى الاجراس ، اكثر واقعية واكثر خيالاً في نفس الوقت . وكما هو الحال في مارتن تشزولويت تبدأ القصة بتشخيص للريح : ربيع شتوية تولول وتوتوح وهي تمر ليلا عبر الكنيسة في لندن وتنتهد الريح في الماشي وعند المذبح وفي الفضاء وفي برج الكنيسة . ويعتبر تشخيص الريح هذا لمسة فنية رائعة . وتعد معركة الحياة اقل روايات المجموعة نجاحا ربما لان ديكنز طرح فيها جانباً عنصر الخرافة . اما في الرجل المسوس فيسود عنصر الحكايات ، وظهرت الصورة التوضيحية التي اقترحها ووافق عليها ديكنز في مواجهة صفحة العنوان على شكل شعب الانا الثانية للشخصية الرئيسية رذلو Redlaw يمس في اذنه بينسا الشياطين والغيلان تتبارى مع الملائكة . وعلى صفحة العنوان ظهرت صورة تجمع ملاكا مشوقا وشيحا اسودا ذا غياه يقود طفلا في اتجاهات متعددة . وقد استعان ديكنز في كتابة الرواية بحكايات الطفولة المفضلة لديه : الف ليلة وليلة ، حكايات الجمان Tales of the Genni ، جاك قاتل العملاق Jack the Giant Killer ، الاطفال في الغاية The Chidren in the Wood وكلاهما وجدت طريقها الى الرواية . وردلو نفسه له شكل الساحر او العراف كما ان ميللي Milly مثل نل Nell في عمل العاديات الاثيرة هي

ايضا بلوحة اكبر في نسج القصة صفحة بصفحة ، ولأول مرة في رواية ديكترية تصبح حكايات الجان قوة سائلة ومنظمة ، اذ غدا السحر وسيلة رئيسية لديكتر لتكامل وتعميق المعنى . ويتركز القصة حول العلاقة التي تربط مستر دومى بيته فلورانس التي لا يميل اليها ، ويتصف دومى رجل الاعمال بالبرود والكبرياء والانانية الا انه ليس سيئا بالدرجة الاولى ، ولكن الثروة والسلطة تكمنان وراء عجرته . وكل هم ان يرى شركة الشحن والتجارة في يد وريث ذكر ، وباعتقاده انه ماله يمكنه شراء اى شىء ورعا حتى وريث . وحدث بعد ستة اعوام من ميلاد فلورانس ان توفت زوجته وهى تضع مولودا ذكرا ولسرعان ما تركزت كل افكاره حول الوريث . وتبدأ الرواية بمولد بول Paul و وفاة امه وكل احداثها تدور حول خطية دومى في رفضه لحب ابنته التي وهبت اياه مختارة ثم هزيمته وتطعيم فلسفته المادية . كان عليه ان يدرك ان ما حاولت فلورانس اعطائه لانقاس قيمته باية اموال ، وكان عليه ايضا ان يعرف ان الحب لا يشتري وانه لكي يبيك الاخرون عليك ان تحبهم وعليك ان تكون في وضع يؤهلهم لحبك . وقد عاجلت نفس الموضوع بعدئذ الروائية جورج اليوت في روايتها سيلاس مارنر Silas Marner ود . هـ . لورانس في قصته « فائز الحصان الهزاز » — The Rocking Horse Winner ويلاحظ القارىء في بداية السرواية ان دومى يميل ابنته فقط ولكن

تجارب روايات عيد الميلاد في الروايات التي تلته : فالاجراس التي تلاحق ترولى Trolly فاقد الامل في الاجراس تماثل الاجراس والمجلات واقدام الخيل التي تلاحق كاركرك Carker المحارب في دومى وولده ، وايضا الطفس الموضوعى الذى يضبط ويربط انشودة عيد الميلاد بمائل الطفس الموضوعى الذى يشكل ويوحد بليك هاوس ، كما ان تحليل طفولة سكروج وانرها في رجولته في انشودة عيد الميلاد يتحول الى تحليل ادق لطفولة كلنام -Clen nam واثارها في الصغيرة دوريت ، كما ان اللوازم الدالة Leitmotifs والتكرار والرقيات في الرجل المسوس تستيق تلك في قصة مدينتين A Tale of Two Cities ووحدة الجو والروح والموضوع في انشودة عيد الميلاد ، تؤذن بوحدة اقوى في آمال كبار ، كما ان الثنائى الذى يوضع الانفصام في ردلو في الرجل المسوس يتطور الى النفسين المستقلتين اللتين تمكسان انفصام شخصيات اخرى مثل ونيك -Wem mick في آمال كبار وجاسبر Jasper في ادوين درود Edwin Drood .

ويفرّد المؤلف الفصل السادس لرواية دومى وولده فيبين أنها كتبت عيد الميلاد تمزج الحقائق الاجتماعية والنفسية والرمزية والخرافية ، وان هذه العناصر يلعب كل منها على حدة دورا اكثر بروزا ، وفي نفس الوقت يلتحم اكثر مع الاطار العام . ويستمر العنصر السحري كما في الروايات السابقة في ضبط بنية الرواية كما يساهم

المدعي الفقير . ويجدر الإشارة الى ان دومي اول رواية تحول السكة الحديدية الى موضوع فني ، فلها وظيفة رمزية اذ تمثل التصنيع كما انها ذات قوة سحرية خارقة غيرت وجه الارض . كما وانها تحمل معاني متناقضة ، فبينما تلمد ستاجز جاردنز بالدمار الا ان تولد يعيش هو واسرته منها فهو يعمل وقادا بها (يترقى الى مهنتهم) . والقطار نفسه خادم مطيع يحمل دومي اينما اراد ولكنه في نفس الوقت يقضي عليه حيث يأخذه صوب إيدلث Edith ليتزوجها زوجا مايدا بحثا بهدف انجاب طفل له بعد وفاة بول . وينتهي هذا الزواج بالفضيحة والافلاس اثر هروب ايدلث مع كاركر الذي يلقي حظه تحت عجلات القطار آخر الرواية .

والشكل العفري الذي يأخذه القطار طوال الرواية يثيرها ويؤلف بين اجزائها . فالقطار الذي يأخذ دومي لايدلث اكثر من مجرد وسيلة انتقال انه « وحش متصهر ، الموت بعينه » وهو يجر وراءه المخلوقات الحية بمختلف اعمارها ودرجاتها . (الفصل ٢٠) . انه مخلوق خارق للطبيعة يثير الرعب والخوف كالتنين ، ينث هبات من هواء ويخار ثم يسرع على سكة لا نهاية لها محدثا جلبة وهديرا وصراخا (الفصل ٢٠) . وتكرر تلك الصورة في الرواية مرات ومرات . وتخرج سحرية القطار بواقعية القصة وتولد واقعية اكثر شمولا وعمقا ، واقعية تتجاوز الواقعي الصرف . لقد تحطم كاركر

بالتدريج يأخذ في حبلها والحقد عليها بسبب الحب الذي تبعته في الآخرين ، ومن ثم يفضيها كشاهد على فشله في ان يدفع الآخرين لحبه . ويعتبر الأب ضحية النفس البازدة والمادية المطلقة التي تتجسد ايضا في كاركر مدير اعماله ولذا فهو يستحق منا الشفقة لا الكراهية .

ويتمتج موضوع العمل التجاري بعنصر السحر والجبان فللدومي تأثير سحري معد اينما ذهب على غيره من الشخصيات وفي بداية الرواية يستأجر بولي تولد Polly Toodle لارضاع بول (ولديكتز هنا هدف في جعل امرأة من اسرة متواضعة ترضع الوريث المرتقب الا وهو اذابة الفروق بين آل دومي وآل تولد) ولكن يؤكد لما ان لبنها ما هو الا سلعة تشتري ويحضرها من ان تكون اى علاقة مع مولوده ، كما يعطيها اسما جديدا يقرب من الاسماء التجارية « ريتشارد » بدلا من تولد « ويرغم ذلك فدومي عاجز عن ان يخلص نفسه من الوسواس انطلاقا من تكفيره الطبقي ودافع التملك ، فباعثقه ان لبن بولي سيفسد وليده وانها ربما استبدلته بابنها ، وهذا ما سيحدث ولو بصفة مؤقتة . تأخذ بولي الوليد من حضناته الفخمة الى حيث يسكن آل تولد في ستاجز جاردنز Stagg's Gardens وهو حي شعبي (مهدد بمجىء الخط الحديدي اليه ذلك الذي سيحمله الى جسيم) ويأخذ اينما الحقيقي مكان بول على صدرها ، واستبدال الاطفال في حد ذاته عنصر من عناصر الحكايات ، فالأمير الوريث حل محله

لحوم البشر ، يسحرها سلبت بانصبي ارادته وتزوجته . كما يحيط بالطفل بول جومن السحر والغرابية ، لقد ولد وعلى مسحته علامات الزمان ، فوجهه مغطى باللف تجميدة (الفصل الاول) ، ثم نذكر انه روح عابرة ، عمره قصير على الارض ، مصيره الفشل . وهو غريب الشكل كالقزم الخرافي ، نسخة مصغرة من ابي الزمان نذير الموت ، إنه النموذج الاصلي للذرية اديبه نذكر منها على سبيل المثال « فاذر تايم » Father Time.

في رواية توماس هاردي Thomas Hardy في جود المغمور Jude The Obscure . ورغم شبابه يبدو عجوزا . ويؤكد لنا هذا التصوير ان بول تجميد خرافي للزمان والموت ومع هذا يبقى طفلا حقيقيا فيه صراحة الاطفال وسداجتهم بل ولغتهم ايضا (على غير لغة اوليفر العصية) كما ان سيكولوجية اكثر واقعية فهو يشعر بالغيرة والعداء والعرافان بالجميل ايضا (على غير اوليفر بحسنة الخالص) .

وفي الرواية امثلة كثيرة على نسبة صفات البشر للجماد . فالساعة التي نراها في مدرسة دكتور بليمبر Blimber هي ساعة حقيقية يلوى صوتها في كل ارجاء المدرسة ، ومن الملاحظ انه عندما جاء بول الى المدرسة سأل الدكتور « وكيف حال صديقي الصغير ؟ » ولالم يجبه على الفور اخذت الساعة تردد نفس السؤال صرات عذيلة (الفصل ١١) . والمدرسة

باصنامها الجلدية التي عشقها ، بتلك الآلة الحديدية فاقدة الاحساس .

كما ان العديد من الشخصيات في تصويرها لمسات من حكايات الجان فكاركز Carker هو الشيطان الفولكوري بعينه الذي يظهر غالبا متخفيا كحيوان ، كقط ، كذئب ، وكثبان . ترتعد فلورانس كلما اقترب منها ، ويكاد يغمر عليها عندما يثب عينيه الثعبانين عليها . وينبح ديوجيس Diogenes بشراسة عندما يظهر امامه ، وله تأثير السحر على روب Rob فيتجمعه هائلا على وجهه في الشارع . وميجور باجستوك Major Bagstock شيطان مصغر ، وكما ذكر ديكزن في احادي رسائله فهو مفستوفيلي Mephistophelean يراى ويغوى ويسد النظرات الغرامية كما انه نذير شؤم يسره البلاد الذي يجلبه . وباستطاعته ان ينتفخ بطريقة بشعة ، وعيناه مثل عيني الكركند تنبجان من رأس كراس الغول وتسميه مسز سكيوتن Skewton الغول الغادر ، ويصير لونه ازرقا ارجوانيا من اقل استفزاز ، ويتوقع المرء ان يرى اللهب يخرج من فمه (الفصل ٢٠) . وتتم تعبيراته المفضلة - « اللعنة » « ماكر شيطاني » - عن دوره الجهنمي . اما كابتين جاك بانصبي Jack Bunsby فهو وسيط الوحي يثنى بالغيب له شكل الاشباح ، له عين ثابتة والاخرى متحركة طبعا لبدأ بعض المنارات (الفصل ٢٣) . اما مسز ماك ستنجر Mrs Mcstinger فهي امرأة مشاكسة ، غوله آكلة

بكمالها لها حياتها الخاصة بها فعندما اعتري بول القلق ومرض اعتري المدرسة جو من الغرابة وتأثرت الساعة بمرضه فمرضت معه ، كما ان الساعة بتكاتها تعد الايام الباقية من حياة بول . وعند وفاته تتكثك ساعات الاطباء الانيقة . كما ان الدرج في قصر دومي هو مثال آخر لشيء عادي يكتسب معنى رمزيا خاصا وذلك من خلال توظيف وسائل حكايات الجان ، فيقترن هذا الدرج بالموسيقى والغناء ، وبالتكرار يصبح اللازمة دالة في نفس الوقت الذي هو فيه درج حقيقة . ويكتسب معنى سلم الحياة الذي تمخض عليه الشخصيات اما ظافرة او ملحورة ، احدى نهايتيه تهيئ للجهنم والاخرى تصعد للسما . وهذه اللازمة تنذر بموت مسز دومي ، وموت بول وكذلك تعاضده مع اخته في وجه الاب الكاره ، وصعود او هلاك الشخصيات الرئيسية . يبدأ بول رحلة الموت بهبوط درج مؤسفة د . بليمير وعيبت معه فلورانس بعد ان غنت لسوها احدى الاغاني ، ويذكره غناها بهمة البحر . وعندما يصل قصر دومي يحمل على درجة . وبعد موته يتحسن مسز دومي طريقه ليلا على الدرج صوب غرفة ابنه الخالية لينعجه ووحده حتى بزوغ النهار ، ويرتبط نواح فلورانس بالغناء ، وعندما تهبط الدرج في الليل لتجثم امام باب غرفة ابنيها تلتصق حبه تجدد الباب مغلقا في وجهها . ونلاحظ ايضا ان كاركس يهبط الدرج ليلقي حقه وذلك بعد ترتيب امر هرويه مع ايدت كما تهبط هي الدرج في عجلة

من امرها للملاقاته ومواجهة الادانه . وتتكرر تلك اللازمة الدرج/الموسيقى - في الرواية حتى نهايتها وبذلك تربط اجزاء الرواية بعضها ببعض . وهناك ايضا لازمة البحر الذي ينحسر ويمتد طوال الرواية ليربط مسز دومي وبول وفلورانس ومستردومي حول مكونات الحياة والموت . وتؤكد اللوازم الدالة الروابط الخفية والتطابق السحري بين الجماد والانسان : قطار شيطاني ، ساعة ناطقة ، وبحر يهيم (مهمة الموت والخلود - يقترن موت بول بالبحر وتقترن حياة بول اخر ابن فلورانس بالبحر فهو قد ولد على ظهر سفينة) ، ففي عالم ديكنز ترتبط الاشياء ارتباطا وثيقا بنظائرها الاليمية وهذا يثبت طبيعة الكون الواحدة . وتلك اللوازم السحرية اسلوب جديد في ديكنز يفصل ما بين الروايات قبل وبعد دومي وولده ، ويرجع الفضل في ابتداعها لروايات الميلاد وبها يلحم ديكنز الاساليب القديمة بمفاهيم حديثة في وحدة اصمق واكثر تعبيراً ، وواقعية اكثر فنا .

ويرتبط الاطار الداخلي للرواية وخاصة فيما يتعلق بفلورانس وولتر بحكاية سندريلا . وتلخص افتتاحية تلك الحكاية الموقف الاساسي في الرواية : « يحكي انه كان هناك سيد فقد زوجته فقرر الزواج مرة ثانية . غير ان السيدة التي وقع عليها الاختيار كانت اكثر عجرفة وكبرياء . وكان للسيد طفلة تشبه والدتها المتوفاة في حلاوة طبيعتها وشكلها ، وقد حزنّت لفقد والدتها كثيرا » ومافلورانس الا الاميرة المتخفية

وبالطبع لم يحل أسلوب ديكنز الجديد من العشرات الفنية ، فبينما نجح في استخدامه اللازمة الدالة الخاصة بالموسيقى الا انه لم يوفق في تلك عن البحر كنلير شوم ، وإذا كان قد وفق في تصويره لشخصية مسز براون في المواقف الأولى التي تظهر فيها فتبدو وكأنها خليط من قمامة فكتورية وحيزيون فولكورية ، الا انها في المواقف اللاحقة عندما بدأ دورها يعظم في الحبكة تحولت الى النمط السحري الميكانيكي القديم . كما ان كاوركر ايضا يبيط في بعض الاحيان الى كونه مجرّد شريد قوطى شبه « بالكابتين القاتل » حتى اسنائه المتلاثة . ورغم ان رسم شخصية لايدان رسم شخصية ستر فورث في ديفيد كويرفيلد الا انه ينطوى على فن ارفع من ذلك الذى ينطوى عليه تصوير شخصية منكس المتعذر تصوره .

وفي الفصل السابع افاض الباحث في تحليل رواية ديفيد كويرفيلد التي تمثل فعلا مرحلة التضجج في فن ديكنز الروائي . ويرى ان عناصر حكايات الجان في الروايات متجذدة في واقع الحياة وان الامتزاج بينها يبلغ درجة الانصهار مما يعطي الرواية عمقا واستطادا . وتعتبر الفقرات الخمس الأولى في الرواية من ابرع واغرب الافتتاحيات في ادب ديكتز ، ففيها استطاد وتوان وغرابة وخلو من المعنى ، ويمكن تفسير ذلك في ضوء الجو الخرافي العام للرواية فهذا الجو إذن موجود من البداية . ويبدو كما لو كان ديكتز يلعب بالقارئ وهذا بمثابة تنبيه له

التي فقدت ميراثها ، الا انها في نفس الوقت الكثر الذى على دومي ان يعتز به ويقدره . كما ان دومي يجمع ادوار زوجة الاب الشريرة والشقيقات من زوجة الاب المتكبرات والامير الباحث . انه يضطهد ويعمل على اذلال ابنته الاميرة . ورغم ان ديكنز يعطى موضوع سندريلا (لير/ كورديليا Lear/Cordelia) طابعا خفيا الا انه في نفس الوقت يحافظ على واقعية القصة ويضيف اليها من ذكرياته هو عن اعمال والده له . وولتر هو امير الحكاية الذى تتزوجه فلورانس - الاميرة في النهاية . ويختلط حبه لفلورانس بحب اخيها بول لها ، كما يأخذ دور الاخ البديل بعد فقدتها لاختها . ونلاحظ في الرواية ان قصر دومي هو قصر حقيقة يحيط به في نفس الوقت جو خرافي ، فدرجه سحري ومناوره سماوية وثرياه تيكى كما ان ستائرة تتلئ ومراياه تفقد بريقها وتحشه بهر ومفاتيحه تصدأ وتتكاثر فيه الفئران والعناكب والخناس والفراشات باعداد ضخمة ، وكل هذه من مظاهر خراب القصر مما يعكس مرور الزمن واهمال دومي لفلورانس السندريلا والجمال الناص . وفي نهاية الفصل يلخص المؤلف آراءه بقوله ان دومي وولده . تشكل حقا تقدما فنيا ظاهرا : من طريقة الحكايات المشوائية الى الصيغة الجديدة في جعل الفتازيا تفسر الاحداث والشخصيات في طول الرواية بالمعان والمغازى وتزيد من ربطها ببعضها ، وفي التحام الفتازيا بالواقع الذى يكاد يكون كاملا .

تصديقاً بمن سبقتها من العرايات . ويبدو ان الوظيفة الفنية لها هي تأكيد المآسي التي قابلها ديفيد في طفولته وكذلك صراعه في عالم اختلط فيه الصالح بالطالح ، ورغم انها شخصية جنبة الا انها لا تدفع بديفيد ان يهرب من الحياة بل على النقيض من ذلك تدفعه نحوها وتساعد ان يكشف نفسه ، ولكن تبقى في الوقت نفسه عراية خرافية . وتكمن براعة ديكنز هنا في مزجه السحري بالعادي . وعموما فالعمة بتسوليست شريرة كما تبدو فهي على العكس تماما من مس هافيشام في آمال كيار التي تبدو عراية خيرة ولكنها في حقيقة الامر حيزيون . ويرعايتها يدا ديفيد حياة جديدة تماما . ومن الشخصيات التي لها اصول سحرية ايضا يوريا هيب **Uria Heep** ، له وجه شبيه بالجيفة ، يراه ديفيد ذات مرة يتنفس في منخر فرس كما لو كان ينفث سحره فيه ، يدا نحيلتان ، شعره احمر ، عيناه بلا جفون ولا اهداب ، كما انها لا تنامان ودائما تلمعان كشمسين حراوين . وهذا الشخص المنفرد لا يستطيع ان يتنفس ، وكل ما يستطيعه هو ان يوسع فاه محدثا جملتين في اسفل خديه ، كما ان حركات جسده ثباتية . ويتم هذه الصفات الجسدية المعرفية عن حقيقته الداخلية الشيطانية . ويتصف افراد عائلته بنفس الصفات السحرية البشعة فلامه عين شريرة وكمدام ديفارج (قصة ملويتين) تبدو وكأنها القدر بعينه ينسج مصير من تود اصطيادهم . ويتوالى أحداث الرواية تزداد الصور المجازية

من ان عناصر العالم الغير مرئي سائدة في الرواية . ومن الملاحظ ان كل شخصية رئيسية فيها قد صورت كما لو كانت شخصية من حكايات الجان . تبدو بتسيتروتود **Betsey Trotwood** في الظاهر ساحرة اكثر من عراية فاسلونها جاف مستبد وتدخل الرواية من اولها ومنذ دخولها والسحر يحيط بها من كل جانب . انها عراية ديفيد الجنبة وتظهرها يتم فجأة وبلا مقدمات فقبل ميلاد ديفيد بساعات قلائل تسير متوهجة كما لو كانت قد خرجت من الشمس الغاربة مباشرة الى حياة ديفيد التي لم تبدأ بعد . وطوال المساء تلتاب بيت آل كوبر فيلد باسطة نفوذها على شيء . كانت تتوقع ان يكون المولود انثى ولكن عندما جاءها الخبر بانه ذكر شعرت بالاهانة واختفت من القصة فجأة تماما كما ظهرت ، وفي ذلك يقول ديكنز « اندلعت خارجة ولم تعد واختفت تماما كجنبة ساخنة » (الفصل الاول) . بيد انه على الرغم من اختفائها الجني الا ان وجودها يظل يحيم على الرواية . فلنلما يهرب ديفيد من يؤس العمل في شركة ميردستون وجرينبي **Murdstone And Grinby** بعد وفاة امه كان يحده الامل ان تؤويه عرايته القوية . فكثيرا ما سمع من امه وعندما يصل الى بيتها تقابله ممسكة بسكين وهي تصبح « اغرب عني . . لا اولاد هنا » . ولكن بالرغم من قناعاتها تأخذه وتؤويه . ورغم انها شاذة في تصرفاتها وغريبة الاطوار الا انها تخرج من الرواية حقيقة من لحم ودم ، فواقيتها اكثر

الذات الشريرة لديفيد . كما ان اثم ديفيد في الانجيل مكشوف اما في الرواية فهو مستتر وموضعه يوريا . حقا لقد وفق ديكتر في تصوير الجانب النفسي لشخصية يوريا وذلك باستعماله الرمز والمسرح والقياس وحركة الحدث بدلا من التقرير والعرض .

ومحيط جوحكايات الجان بشخصيات أخرى في الرواية مثل ستريفورث Steerforth وروزا دارتل Rosa Dartle الثنائي ومن يدور في فلكها : الصغيرة أميلي Emily ، مسز ستريفورث ، وإيجنس . ويعد ستريفورس من الشخصيات الجذابة ولكنه زبقي المزاج وتندمج هذه الصفات البشرية بأخرى خارقة ، فله سحر على الآخرين من الصعب مقاومته ، ويفترون بهذا السحر قدرة على التكيف بسهولة مع أي شخص وأي موقف ، وليس هذا الشيء العادي . ويعتبر حب ديفيد الصبياني لاميلي غرام فيه نكهة حكايات الجان . فقد اعترف لها بأنه لا يستطيع أن يحب أحدا غيرها وأنه مستعد لسفك دم أي شخص يتجرأ على التقرب منها (الفصل ١٠) . ولكن يتبين أنه خطيء فسوف يحب غيرها كما أنه سوف لا يمحز فقط عن سفك دم غريمه بل سوف يسهل مهمته أيضا . كما كان يعلم بسعادة خرافية بعد أن يتزوج منها ، بالعيش بين الأشجار والحقول بوقتان الزمن عند الصبا يهرحان معا والشمس مشرقة في المروج المزهرة في برامة وسلام ، ويدفئان مع الطيور بعد موتها (الفصل ١٠) والأشجار واضحة هنا

التي تربط يوريا بالشيطان . فبعد ان إستولف ميكوير Micawber لديه ظل بعيد القول بأنه قد باع نفسه للشيطان (الفصل ٤٩) ، وكثيرا ما اطلق عليه لفظ شيطاني ، وجهني ، وثعباني وعفريت . وما يدل على مدى تعقيد مزج المتناقضات - الواقعي والسحري - في يوريا هو ان ديكتر جعله شيطانا وفي نفس الوقت قرين ديفيد . وهذا الخلط يستمد اصوله من حكايات الجان . ففيها نجد ان الحسن لا يتناقض فقط مع ضده بل يصبح التقيض بذاته . جلة الصغيرة رايد نهجود Little Red Ridin hood المحبة تتحول فجأة الى ذبة شرسة ، كما تتحول والدة ستريلا التي تحبها الى زوجة اب شريرة وهذا في حد ذاته يبين مدى كون الانسان مركبا ومتقلبا . ويعترف ديفيد في البدء انه منجذب نحو يوريا ويادله يوريا هذا الشعور ، ويلتقي الاثنان ايضا في حبسها لا يجنس Agnes ، كما ان مغزى الاسمين يبين ان العلاقة بين الشخصين علاقة معقدة ، ففي الانجيل اشتهى ديفيد زوجة يوريا باثشيبا Bathsheba وتسبب في موت يسوريا ليتزوجها . وحتى بعد زواج ديفيد من دورا في الرواية تجده يشتهي ايجنس اكثر عندما يدرك ان يوريا يود الزواج منها ، كما يتسبب في موت يوريا موتا مجازيا ويتزوجها . بيد ان هناك بعض التباين بين الانجيل والرواية ، ففي الانجيل نرى ديفيد ملذبا ويوريا بريئا والعكس تماما في الرواية . وهذا الاختلاف اشارة الى ان يوريا هو

لحكاية « أطفال الغابة » . ويتلخص هذا الحلم في تصويره للثبات وعدم التبدل مع التغير والاضطراب الذي سيحدث . وتعتبر روزا دارتل من الشخصيات الخرافية أيضا ومن أهم العلامات تلك الندوة التي تغلي فيها وذقتها وقد تسببت من جراء قلب ستيفورث المطرقة في وجهها وهو في نوبة عصبية . وتشير الندبة الى جروح روزا الظاهرية ، وسيبها جميعا اطلاق ستيفورث العنان لرغباته وشهوته : الظاهرية بقذفها بالمطرقة والغير ظاهرة بجهها ثم هجرها . فالندبة اذن ماهي الاسمة ستيفورث التي تركها عليها وتعود للحياة كلما أثار غضبها أو غيرتها . ولكن لا تعود شيطانية روزا لهذه السمة الشيطانية وحدها فهي شيطانية في حد ذاتها سوداء الشعر والعينين لا يتحمل ديفيد نظرات عينيه الغريبتين ويريقها الجائع الذي اذا ما استثير يتوهج كالنار (الفصل ٢٩ ، ٥٦) وفي بعض الأحيان يرتعد ستيفورث حتى من مجرد التفكير فيها ويعترف لديفيد بأنها تبدو كغول أمامه (الفصل ٢١) . ولا يقف الأمر عند حدودية روزنهي جذابة الى جد بعيد ، فحتى وهي في أعنف مواقفها لا تنفد انوثتها الفتانة التي تغوي وتوقع في الشرك . ويقع ديفيد تحت تأثير سحرها لبعض الوقت . وليس أدل على سحرها من تأثيرها عليه بعد لقاءها الاول : فعندما يذهب للنوم في بيت ستيفورث يتهيأ له أن الصورة المعلقة في الغرفة هي صورتها ويضيف لها الندبة ، وحتى يهرب من التفكير

المستمر فيها يخلع ثيابه ويأوي الى فراشه ويخط في النوم ، بيد أن أحلامه كانت عنها (الفصل ٢٠) . كما تشبه في الرواية « بأمية الأساطير القاسية » (الفصل ٤٦) ، ويشيطانها نجد متعة في ايلاء من ينافسها أو يثقلها . ورغم هذا الجلو الفتاوي الذي يحيط بروزا ، الا أنها شخصية واقعية في نفس الوقت . فتاريخ حياتها الباكرا مشوق الى حد كبير . بعد فلندا أبويها جاءت لتعيش مع أقاربها آل ستيفورث ، واستغل ستيفورث عاطفتها المشوبة وأجبرها على حبه ولكن سرعان ما شتم منها . أما أميلي بأسلوبها الجذاب ومنهيا الزرقاوين وسحرها هي سيراته جنبة سحرها هيام ديفيد . انها سنديلا تواقة تصاب بخيبة أمل : فتاة فقيرة تتوق أن تكون سيدة تهرب مع أميرها ، ولكن بدلا من أن تصبح أميرة تصير منبوذة . وبعد خلاصها من ستيفورث وإيتمير Littimer هرويا جنيا بحتا . ومن الشخصيات الحميدة أيضا دورا فرغم أنها تسبب الضرر لديفيد الا أنها ليست شيطانة متآمرة . البيت الذي تعيش فيه فخم وخرافي كقصور الحكايات وعندما تعرف عليها ديفيد افتن بها تماما وبدت له جنبة هيفاء رشيقة (الفصل ٢٦) . ويمتزج الخيال بالواقع في وصف ديكنز لمغازلة ديفيد لها . وعند زواجه منها يشير ديفيد الى زواجه على أنه « زواج جي » (الفصل ٤٣) ، كما ظهر « ملاح هرم » خلقه في هذه المناسبة ، اشارة الى قصيدة كولريدج بهذا العنوان . واثناء الاحتفال تمسك

الحكايات هنا ، كما هو في رسم شخصيات أخرى ، يعطي طابع العمومية للقضايا التي يطرحها بطريقة غير مباشرة .

كما توج الرواية بالملوثات مثل الأحلام التحذيرية والقصور السحرية (منزل ويكفيلد) والخرافات الفعالة (لاميوت باروكيس إلا في انحسار الجزر) وبها صيغيات مثل جريزندا Griselda (الجحشي) وزيجات يناير - مايو (د . واني سترونج) وزوج الأم الشرير (ميردستون) . حقيقي أن الرواية بشخصياتها ومضمونها قائمة على حكايات الجان . وقد مكنت اللغات والموتيفات الحكاوية هذه ديكتاتور من أن يبين ويؤكد ويربط ، كما أن السحر الحكاوي ساعده في نقل رؤياه للقارئ .

ثم حلل المؤلف أحد فصول الرواية (الفصل ٥٥ : العاصفة) فصل اللزوة الذي يعتبر عملاً فنياً رائعاً ، حيث نقل فيه ديكتاتور المعنى النفسي عن طريق الحدث والصورة والتماثل والرمز لا عن طريق التفسير . ثم انتقل بعد ذلك إلى تعليقات على الصفات الخارقة في الجحشي وكيف أن دورها كملك صالح يبدأ مع ظهورها في الرواية ، وإذا كانت هي للملاك الصالح فستيرفورت هو الملك الطالح . ويتعرف ديكتاتور بأنه وهو معها يشعر بأنه إنسان آخر وأنه قد تنير إلى الأفضل . ويشعر أن لها وجهاً سماوياً مبهماً وإن مسكنها مكان مقدس (الفصل ٤٩) وكالجنية الخيرة التي تعود لتنفذ

دورا بيد الجحشي وفي هذا إشارة لزيجي ديكتاتور : زواج محكوم لزوجة من الجان ، وزواج مستقبلي لزوجة ملائكية . ومعنى رمزي فهو يتزوج الاثنين معاً وفي وقت واحد ، فالزوجتان سواا تمثلان المرأة التي يتوق إليها . في إشارة بيني أن ديكتاتور ودورا هما من أطفال الغابة ربط لمصير هذا الزواج بالحكاية الشعبية المعروفة ، فسوف ينتهي نهاية غير سعيدة كما أن ديكتاتور يعتمد في تصوير هذا الزواج على خبرات ذاتية - علاقة الغرامية ماريا بيدنيل Maria Beadniell وخيبة أمله في زواجه الحقيقي . ومن الشخصيات الشبيهة بشخصيات الحكايات الأنسة ميردستون Miss Murdstone فيعتقد أنها تمام وحادي عينيها مفتوحة وتغمغم في الكنيسة كالرعد الخفيض . كما أن لها ولاختها تأثيراً على ديكتاتور كآثار ثعبانين على طائر صغير تبس (الفصل ٤) . وعندما يدخل آل ميردستون منزلاً ، يجلبون معهم دفعة باردة من الهواء . أنهم في الحقيقة شياطين وأبسايبهم شيطانية كما يوضح لنا ديكتاتور (الفصل ٤) . ٩) . ويلوستر ميردستون لديكتاتور كعلاق ومستحضر أرواح شرير . ويبين ديكتاتور أمام هجره ، ولا تقتصر فعالية سحره على ديكتاتور وحده فيمتد ذلك إلى أمه (التي تزوجته) أنه يجعلها على طاعته هو لابنتها . وفي تصوير آل ميردستون بهذه البشاعة السرمالية يؤكد ديكتاتور شرهم فائق في تلقيب الطفولة وهذا بالنسبة له خطيئة لا تغتفر . واستعمال عنصر

الاصول التي شكلت خيال ديكنز في رسمه لتلك الشخصية ، ففي ١٨٥٣ كتب في مجلة Household Words مقالا بعنوان « حيث توقف نمونا » "Where We Stop" ped Growing وفيه يصف سيدة غريبة الأطوار عرفها في شبابه تقارب تماما من هافيشام : عروس في ملابس بيضاء هجرها عريسها وتوقف الزمن بالنسبة لها . وربما كان ديكنز قد شاهد مسرحية ابريل ١٨٣١ على مسرح ادلفي حول حول الموضوع ذاته . اضيف الى ذلك ولع ديكنز الدائم بكل ما هو غريب وبالأدب القوطي وحكايات الجان . وتزخر هذه بقصص ذات الرداء الأبيض . كما أن هناك بعض القصص عنها في آخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر مثل الراهبة ذات الرداء الأبيض لمونك لويس Monk Lewis وغير أيموجين Fair Imogine ذات رداء أبيض أخرى لنفس المؤلف . كما أن مس هافيشام هي واحدة من بين شخصيات ديكنز به أخرى خاب أملهن ووقف الزمن بالنسبة لهن : بتسي تروتوود التي سبق الإشارة إليها ومس فلايت Miss Flite في بليسك هاوس Blak House ويرى المؤلف انه رغم ما يقال عن مس هافيشام من انها شخصية خيالية تماما من الصعب تصديقها فهي متجلدة في واقع الاحداث اليومية .

ثم يتقل ستون في الفصل التالي الى ما هو أهم وهو تحليل عنصر الفتازيا في الرواية ،

عميها ، وتعود ايجنسي باعجوبة عندما يحتاج لها ديفيد في اعقاب انباء اعيار عمته . يرى وجهها « ويفكر في شباك الكنيسة ذي الزجاج الملون » ويقول لها لو كان لديه قبة سحر لتمنى رؤيتها (الفصل ٣٥) . وفي موقف آخر كان يشتره القلق فتظهر امامه وتلمسه بينا الساعة تلتق الثانية عشرة . وعندما يحتاج ديفيد لعمل ، تساعده في الحصول عليه ويقول لها « ماذا كنت اصنع بدونك . أنت ملاكي الطاهر » (الفصل ٣٥) . تؤكد كل هذه الصور دورها الملائكي ويتبين لديفيد أن حبه لها قوي ومتين لأكبره لدورا . وتعترف له هي الأخرى بأنها قد أحبت طوال حياتها (الفصل ٦٢) . ورغم أنه كان قد أفتن بجمال دورا الا أنها ليست رفيقة بمعنى الكلمة ، وتعجز عن أن تلي أمانيه . وتعتبر ايجنسي النصف المكمل لمهرم ديكنز عن المرارة : ملاك برىء معين ومتفاهم . وكأم أو أخت تسهر على راحة ديفيد وتحمل له هلدو البال والراحة بيد أنها ليست جذابة جنسيا ، هي روح بلا جسد وعاش معها « في الثبات والثبات » كما هو الحال تماما في الحكايات . وفي الفصلين الثامن والتاسع يتناول المؤلف بالتحليل رواية آمال كبلر (١٨٦١) . وقد بدأ الفصل الثامن بلفت الانتباه الى حقيقة أن مس هافيشام في الرواية هي ذات الرداء الأبيض التي كتب عنها ويلكي كوليتز Wilkie Collins روايته المشهورة والتي كانت قد صدرت قبل شهر من بدء صدور آمال كبلر . ثم تتبع

وتشترك آمال كبار مع ديفيد كويرفيلد في انها تتعلقان بأسطورة الرغبة والجزاء وانها على لسان البطلين وان كلا من البطلين طفل يتيم يتم انقاذه بعد بؤس طفولته وتكفله سيدة غريبة الاطوار ويلقى ثروة ليست في الحسبان ، بيد انه لا يبلغ آماله في النهاية . ثم يعرض المؤلف العنصر الذاتي في الرواية ويوضح وجه الشبه بين بيب (وأيضاً ديفيد) ود يكتز فكلاهما نشأ فقيراً ، متبوذاً كان يطعم في التهوض بنفسه وحقق ثروة واختلط بعالية القوم بيد انه لم يجد السعادة التي كان يشدها ، وكان دائماً يحاول التستر على بؤرة خجله وهي طفولته . وبعد ماجوريتش الذي يظهر من بين القبور تشخيصاً لهذه الوصمة ، كما ان محاولة بيب الهروب منه بعد عودته من منفاه يطابق محاولة ديكتر الهروب من ماضيه . كما ان احداث الرواية تقع في تشانام ولندن وكلا المكانين أسهما في تشكيل حياة ديكتر نفسه ، كما ان غرام بيب يعكس حياة ديكتر الغرامية والمعقدة ، ففي حب بيب لامتيل ، ذلك الحب العقيم ، انعكاس لحب ديكتر الصبياني للمريا بيدنل Maria Beadnell او حبه فيها بعد لالين تيرنان Ellen Ternan التي كانت تصغره بعلة اعمام . كما ان شعور الكراهية الذي يكنه بيب لاخته الشرسة السليطة مسز جارجري Mrs. Gargery والتي قامت على تربيته يعكس احساس ديكتر السلبية تجاه امه . ويلاحظ المؤلف انه بينما نجد ان العنصر الذاتي في الروايات الاولى كما في مارتن تشزلويت مثلاً

ويبدأ بتحليل المشهد الاول الذي يقع في فناء الكنيسة حيث توجد المدافن ، عشية عيد الميلاد . ويذكرنا هذا المنظر وما ينلوه به من شر بقصص الاشباح وحكايات الاطفال . يقف بيب في المشهد بجوار مدافن والديه واخوته الخمسة ولأول مرة في حياته يحس بنفسه وبالحياة من حوله ، وبينما هو منغمس في التفكير يظهر من بين القبور مجرم فار من العدالة وعلى رجله القيد ويمسك بيب ويقلبه رأساً على عقب ، ويرى بيب خلال ساقيه المعكوستين برج الكنيسة ثم تبدله الكنيسة كلها وكأنها تلف وتلور ، وتتكرر هذه الحركة . ثم يدخل بيب وهو يرتعد خوفاً في نفق سرى مع المجرم الهارب ثم يجري عبر السبخة صوب منزله . تماماً كما في « جابريل جراب » Gabriel Grub وانشودة عن الميلاد والرجل المسوس يظهر شبح من الماضي عشية عيد الميلاد ليهذب البطل الاثم . وعندما يظهر ماجوريتش Magwitch الخارج على القانون من بين القبور ويقلب وهي بيب النامي رأساً على عقب فان هذا يمثل حكاية الجان المقلوبة (مندريل) التي سوف يحكيها ديكتر (حيث الاخوات القبيحات يتحولن الى جو Joe وما جويتش الخبيرين والعراة من هافيشام ليست الا ساحرة والاميرة إستيل Estella زيف براق) . ويرى المؤلف ان طابع الحكايات يضمن اتساقاً وتكثيفاً على المضمون الذاتي والاجتماعي والاخلاقي للرواية ، كما يعطيها طابع عمومية الاساطير .

mile ذلك النموذج السمي له ، واورليك Orlick الذي يعد امتدادا شريفا له . ويعقد ديكنز الموقف أكثر فيجعل من جو أيضا نقيضا لاورليك ، كما ان إستيلا تناقض ييلدى وساجوتيش يغاير مس هافيتشام ، وفي نفس الوقت يتشابه ماجويتش مع كومبيسون Com-peyson وكمبيسون مع مس هافيتشام وهكذا دواليك . وبعد ويميك Wemmick منقسما على نفسه فهو يحمي حياتين مختلفتين ، ويبب نفسه بتأرجح بين دافع الرغبة ودافع الواجب . وبهذه التناقضات يعطى ديكنز بنية ومعنى للرواية . ويعتبر تصويره لشخصية اورليك مثالا على كيف ان هذا الأسلوب أصبح اساما في فنه وصفات اورليك الجنية ، وعلاقته الشديدة تزيد من واقعيته ولا تنقصها . هو الشيطان بعينه داكن البشرة مؤذ ورغم انه في الخامسة والعشرين الا انه يطلق على نفسه اورليك العجوز . انه عتيق لازمني كالشر نفسه ، ولا يقضي ايام الاحاد في الكنيسة بل منطرحا على البوابة وهو يقترن دائما بالبوابات ، انه حارس بوابة جهنم وعمله كحداد لا يخلو من الرمزية فالشر يتطامن من سندانه صوب ييب وهو على النقيض من جو الحداد الودود الذي يقوم بدور العراب لييب ، بيد انه بشره لا يستطيع ان ينال من جو عندما يعاركه ، ولكنه ينال من زوجة جو الحزبون اذ يصرعها ، وعلى الرغم من البغضاء التي بين ييب واورليك الا ان هناك انجذاب بينهما ويعتبر ييب شريكا في جريمة قتل اخته ، اذ انه زود ما

دخيل على العناصر المكونة الأخرى ، التحم هذا العنصر بغيره في روايات عيد الميلاد الخامس ، وفي الروايات التي تلت تلك بعمق ، ويقوي هذا العنصر الجانب السيكولوجي فيها . وعن استخدام ديكنز لأسلوب الفتازيا يرى المؤلف انه في الروايات الأخيرة بعد تفرسه في هذا المضمار غالبا ما يخلق جوا يأخذ الخرائفي فيه طابع الواقعي ، وبالعكس يضيء على احداث الحياة اليومية جوا من السحر والغرابة ، ويتم كل ذلك بحداقة وبراعة . ومن نقاط القوة في الروايات الأخيرة أيضا تطور أسلوب ديكنز في تصوير الجوانب المتعددة للشخص الواحد او ما يطلق عليه مضاعفة الذات Doubling of the Ego ، فردلو Redlaw في الرجل الممسوس منقسم الذات وايضا جوناس تشز لويت ولكليهما صورة مضادة . اما في ييب فالانقسام ليس ذاتيا تماما ، فالشخصيات الأخرى المرتبطة به تعد امتدادا له وتلقى الضوء على شخصيته هو . هناك ييب البريء للمهذب وهناك ظله ماجويتش المجرم الطريد ، كما انه يقترن بكل من إشتيلا التي عصرها قوى ماثلة ، وييدي Biddy التي قاومت هذه القوى ، وجو Joe الذي يسلم من الفساد ، وهريت Herbet الذي يعد نموذجا افضل له ، ومس هافيتشام الذي يرتبط ذنبها وجزؤها بلذنه وجزائه ، ودرامل Drummle بعد نموذجا افضل له ، ومس هافيتشام الذي يرتبط ذنبها وجزؤها بلذنه وجزائه ، ودرامل Drum-

ماجوتيش (ويب في نفس الوقت) الى جال
والى وسيلة للخلاص .

وتتضح ادوار الشخصيات الرئيسية في
الرواية اذا ما وضعت في اطوارها الجني ، مما يربط
الرواية ويدعم عنصر السخرية فيها ، كما يمتد
تأثير حكايات الخان الى الاسماء والصور المجازية
والاحداث والاطر المكانية والزمانية . كما ان
الامور كما هو الحال في الحكايات نادرا ما تكون
كما تبدو . ويتضح دور ماجوتيش كمعد ومقعد
في نفس الوقت اذا ما وضع في اطار الحكايات .
لعبه جزء من سخرية ديكرز ، فلفظ الساحر في
اللقب Witch يتناسب مع دوره في اول الرواية
فقط اذ يتحول في النهاية الى عراب جني
غخلص . وربما يشير اسمه الاول « هاييل »
Apel الى دوره الحقيقي ، فرغم أنه مجرم
وطريد الا انه يتعرض لآثام الآخرين أكثر من
تعرض الآخرين لايدائه . ويقوم دوره كمراب
على السخرية ، فبعد ان مد يده ليد المساعدة
رد هذا الجميل له كما يحدث في الحكايات وجزاه
خير جزاء . ولكن التعقيد واللبس يكمنان في ان
فعل الخير الذي أتاه ييب يعد ذنبا في نفس
الوقت ، فهو قد سرق وكذب وعقد اتفاقا مع
مجرم فار . كما ان جزاء احسان ييب الذي قلعه
له ماجوتيش من تعليم ومركز اجتماعي وثروة ،
وكلها آمال جنية كان يصبو اليها ، يتحول الى
لعنات . وكما في حكاية « الجميلة والوحش »
يعد قبول ييب للوحش وتقديره الاحسان
والمشاركة الانسانية هي التي حولت وحشية

ماجوتيش (ويب في نفس الوقت) الى جال
والى وسيلة للخلاص .

وتتشارك مس هافيشام مع ماجوتيش في ان
مظهرها غير خيبرها ولفظة sham (شيء
زائف) التي تشكل جزءا من اسمها مغزى في
هذا الصدد . تبدو في البداية عرابية في رداء
ساحرة كمارتن تشز لويت المعجوز ويتسي
تروتود وهذا ما يظنه ييب الا ان مس هافيشام ،
ذات الرداء الابيض ، ليست عرابية على
الاطلاق . انها حزينون ولا جدال ، وعرايتها
ليست الا زيفا ، وقد ساعدت ييب ان يحدد
نفسه ، فباعته انه هي التي منحت الهبات
وانما تريه له اعظمها وهي الاميرة السندريلا وما
هذه الهبات الا لعنات ساحرة - لعنة البرودة
والمعنات التي صبتها على استيلا ولعنة الامل
والمذاب على ييب . انها ساحرة في مظهرها ،
في عزلتها ، في مسكنها ، في انتقامها ، في
هلاكها . وتعتبر السندريلا التي ترعاها جزءا من
زيفها وجزءا من حكاية ديكرز المقلوبة .
فاستلاني الحقيقة ليست هي الاميرة ، النجمة
الساطعة كما تبدو وكما يشير اسمها . فهي من
نسل مجرم وامها قاتلة وان كان ييب سيد زائف
فهي سيده زائفة ايضا . كلاهما اداة للانتقام
والاثنان يرتبطان بـ ماجوتيش . (بللويد . وهو -
بالتيني) ولس هافيشام تأثير ضار على كليهما .
ويشقى الاثنان بسبب انخراطهما في الرذيلة
وعمران بمرحلة اتبعات جديد . والاميرة الحقيقية
في الرواية هي بيدي Biddy المتواضعة ،

ولكن على عكس ما يحدث في الحكايات لا يوفق بيب في كسبها . كما ان الامير الحقيقي ليس بيب او درامل او جاجرز ، بل جو البسيط المهلب حقا الذي يتمكن من ان يكسب الاميرة .

وقد خص المؤلف مس هافيشام بالنصيب الأوفر من التحليل حيث امتزج في تصوير شخصيتها الواقع مع الخيال امتزاجا كاملا . تقابلنا للمرة الأولى وهي جالسة أمام « الترسية » تنظر في المرأة التي تكشف ظاهرها لا باطنها . وكالرجل المسوس تنتابها الهواجس وقامت بتجميد نفسها الى الأبد . ومثله أيضا ارتكبت اثما كبيرا ولكن اثمها عكس اثمه : أراد هو أن يمحو الماضي ، أن ينمته من أن يتعبه ، بينما هي تحاول أن تصير عليه وتؤكد أنه سيلاحقها دوما . لقد أوقفت الزمن عند الساعة التاسعة الا الثلث في صباح يوم زفافها اذ كانت تتأهب للذهاب الى الكنيسة فيصليها خطاب فسخ الخطورة من عريسها . توقفت كل ساعاتها عن الحركة وتجمد كل شيء في غرفتها ، ونجد مبعثرا على المزينة حليها وقفازا ، ساعتها ، سلسلتها ، منديلها ، كتاب الصلوات ، وفردة حذاء زفافها الأبيض . وبالعزفة فساتينها المبعثرة وحفائنها التي كانت تعدها . وعبر الصلاة توجد غرفة الطعام بها منضدة طويلة عليها مفرش

بال ، وفي وسط المنضدة كمكة العرس وقد أصابها العفن .

انها تلبس بعضا من حليها اشارة لحزنها الدائم والذكرى الاليمة ، وقد وضعت حجابا

أيضا على رأسها . ويفعل الزمن فقدت فردة حذائها كذلك ، وملابسها لونها الأبيض . انها « القبح الناعس » لا « الجمال الناعس » تنتظر أميرها الموعود في سكون الموت ، أمير سوف لا يأتي ، سوف لا يقبلها أو يوقظها ، كما أنها بفردة حذاء واحدة تشبه سنديلا التعيسة . ولا تتوقف عناصر الحكايات في تصويرها عند هذا الحد فيراها بيب أعجب سيدة وقعت عيناه عليها أو سيرها في حياته (الفصل ٨) كما أن جسدها أصبح « جلدا على عظم » ولم يبق من بريقتها سوى بريق عينيها الخائرتين . وعندما ينظر إليها بيب يتذكر التماثيل الشمعية الشبيهة أو الهيكل العظمي ، وتبدو ملابسها له كما لو كانت ملابس القبور ، والحجاب الطويل كما لو كان كفنا . لم تر مس هافيشام الشمس منذ يوم كارتتها ، ولكن الزمن قد انتقم منها لمحاولتها ايقافه طبعيا وكل ما لها بالفساد والعفن . تبدو لبيب وهي تدخل غرفة الطعام كما لو كانت حيزبون المكان (الفصل ١١) . لم يرها تآكل أو تشرب على الاطلاق فهي كالغول أو مصاص الدماء تآكل سرا في الظلام (الفصل ٢٩) وتجبره أن يلف حول غرفتها وحول غرفة الوليمة وتكرر هذا الدوران اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر وعندما يصيبها الاعياء تجلس على كرسي يظل يدفعه حول هذه الغرفة وتلك . انه أمير سحرها ، لقد نسجت دائرة من السحر حوله سيقى يدور فيها حتى ينكس سحرها . ياله من مسكين انه لا يعرف كم هو في قبضتها .

وفي رؤياه المقلوبة رأسا على عقب يبدو القصر كما لو كان قصر « الجمال الناصع » واستيلا هي الأميرة ومس هافيشام العراة الجنية وقد اختارته ليؤدي دور الفارس الشاب في الرومنسيات ويتزوج الأميرة (الفصل ٢٩) . وهذا بالطبع لا يتم وتتزوج استيلا من غيره وتحطم الآمال في البيت الحروب وكما في حكايات الجان يخفي كل شيء مع اختفاء حلم ييب .

ثم ينتقل المؤلف الى العلاقة التي تربط ماجويتش وييب والتي تدلن بالكثير من مغزاها الى عناصر الحكايات . فعندما يتقابلان يقع ييب تحت تأثير ماجويتش السحري ويفرس الأخير نظراته المغناطيسية في عيني الطفل البريثين ويستسلم ييب للشرب . ويستمد ديكترو الصور المجازية عن الشر من حكايات الجان وتلك تتضمن أشباح المقابر ، النظرات المهلكة ، الاتفاقات ، المنازل المسكونة ، الدوائر السحرية ، الساحرات ، الغيلان ... الخ وتبقى القصة رغم ذلك واقعية سيكولوجيا . تتركز العلاقة حول بالغ شرس وطفل أشبه بالمشرد . يهدد ماجويتش ييب بكل حدوده الممتلئة ويأخذ ييب هذا التهديد بكل جدية وبعد ذلك يقسم أنه سوف ينزع قلبه وكبدته ويشويها ليأكلها . وهذا التهديد غريب حقا . يدخل ييب تحت هذا الضغط عالم الآثم والجريمة . يدخل في اتفاق مع صاحبه الشرس بعدما يتوجه الى محل الخدادة ويرى ماجويتش وهو ينفع نحو النهر ، ذلك النهر الذي يجري في

ويتزايد هيمنتها عليه تأمره أن يحقق القدر الذي أعدته له : أن يحب استيلا .

وتنتاب مس هافيشام ساتيس هاوس Satis House ولكنها في الوقت ذاته تطاردها خطيبتها التي لا تغفر . انها لصة القلوب البريئة « سرقت قلب استيلا ووضعت ثلجا مكانه » (الفصل ٤٩) . وهذه الخطيئة لا بد أن تعطي النار وهذا هو مصيرها . ويغيط قصرها جو جني ، أنه سجن وقوة عدائية وجنيم في نفس الوقت ، ويسوم ييب ويظلل حياته . القصر كتيب مغلق الأبواب سدت السطرق إليه ، صعدت الغضبان الحديدية على أسوارها وشباييكه ، عمراته حالكة وفي غرفه الباردة الكثيرة التي لا يدخلها الهواء ولا الشمس دائما تحترق الشموع الشتوية . وليل القصر الدائم له تأثيره على كل من يتجول فيه ، فالليل يدخل قلوبهم ، يعمي بصائرهم . وتشير مظاهر الخراب والأهمال والخللاء الى فراغ داخلي . الحداثق مهجورة والصدأ والأعشاب والفطر في كل مكان . في حداثقه الحربية يرى ييب استيلا تجره وراءها وتخفي عن الأنظار وتلويب عنه في الأركان وتلتاشي في السماء . انها سيرانه مغوية تجره الى الخراب ، تخفي دائما ولا تمكنه من نفسها ، انها تنصرف طبقا لاسمها فهي النجم الدليل ولكنها توجه ييب مقلوب الرأس الى الجحيم لالجنة . نراها في المشاهد الأولى تحمل المفاتيح وترعى البوابات ولكن ييب لا يدرك أنه واقع تحت وهم وتحت قوة تجلبه الى القصر .

يحيطون به ، فكل من يتفنون معه يعرفون الأحلام الضائعة والأمال المحطمة . حقا لقد برع ديكنز في تصوير علاقة النفس الثانية الخفية التي تربط بين ماجويتش ، كما أن ماجويتش هو الشبح الذي يطارد بين وهو شخص حقيقي في نفس الوقت ، عنيف وفظ .

ويخلص المؤلف الى أن آمال كبار هي أكثر من حكاية جان استطلت ، أنها رواية تشترك مع حكايات الجان في التخولات ، رواية تلحم العناصر الذاتية والسوسولوجية والسيكولوجية والميثولوجية في وحدة واحدة واقعية في نفس الوقت . لقد أخذ ديكنز دقائق الحياة العادية وترجمها الى عالم الرومنسيات . وكيمياء الفن هذه جزء من مسوبة ديكنز في المسائلة والتحويل . وفي الرواية حوّل ديكنز خبراته الأولى وأخيلته ونهايات حكايات الجان وشخصيات العرايبات وأحياطاته الى حكاية متشعبة تكثف الواقع وتعمق فهمنا للحياة . وقد زودته حكايات الجان بمجموعة من الموتيات : الهبة التي تتحول الى لعنة ، العرافة المرائية ، العراب المتخفي ، الأميرة الخطرة ، المشاهدة المميّنة ، البيت المسكون والرحلة الى عالم الاجرام ، وكلها ساعدته في نقل رؤياه الشعرية في الحياة . ومن الموتيات الرئيسية في الرواية موتيف الضوء والنار الذي يتضمن الشموع ، النار التحذيرية ، كبر الحداد ، المدفأة ، الشرور ، ضوء الغاز . . . الخ وعن طريق اعتماد على حكايات الجان اكتسب مجموعة من

طول الرواية متخذاً معنى رمزياً ، النهر الذي سيحمل ماجويتش ويب للموت والخلاص . وهذا المشهد الافتتاحي التحذيري يذكرنا بمشاهد أخرى في روايات سالفه في دومي وولده ودفيدي كوبر فيلد . ولكن يستخدم ديكنز هنا عناصر حكايات الجان لتخدم غرضه بطريقة أكثر فناً . فماجويتش أكثر من عفريت أطفال (مسز بيشن Mrs Pipchin مربية بول في دومي) أو ساحر (مسز براون) انه جزء من بين ، جزء من الحسن والسيء فيه . ويفترق بين ماجويتش من البداية . فمثلاً وهو عائد له بالطعام والمبرد يحس كما لو كان هو مقيدا مثله ، ورغم أن ماجويتش مؤذ إلا أنه ضحية ومتشرد مثل بين . انهما تشائي رغم فارق السن والظروف ، جرمتهما واحدة ومعاناتهما واحدة ، ومصيرهما واحد ورغم الخلافات الظاهرية بينهما الا انهما في الباطن متشابهان تماما . السرقة هي أول عمل يقوم به بين كفرد واع . انه يبدأ حياته الارادية بالخطيئة ولكن خطيئته هي بدافع العطف والشفقة ، فهو يسرق ليمش انسان غيره طريد بلا اصدقاء . ويتذكر ماجويتش أول عمل قام به عندما بدأ يبيع وهو سرقة الفلت من احد الحقول ليقفل جوعه ، وقد نتج عن خطيئة بين شعوره بالذنب والعزلة وتعد بداية لمحنة ، كما أنها تؤدي الى خلاصه في النهاية . وقدر ماجويتش أن يدخل السجن وعالم الاجرام ، ففي مجتمع كمجتمعه ليس أمامه غير السرقة أو الموت جوعاً ، كوحش خرافي يؤثر على كل من

بالحكايات والمضمون الخرافي والاسطوري لكتابه يربطه بكتاب كبار برعوا مثله في هذا المضمون من أمثال سوفوكليس وشكسبير ودوستوفسكي .

ولعله قد تبين لنا من هذا العرض قيمة هذا المؤلف بحيث استحق أن يكون أفضل كتاب عن فن ديكتر الروائي لعام ١٩٧٩ ، ولعل أهم ما يتميز به أنه بحث علمي منظم قام به ناقد متخصص يتمتع بثقافة نقدية راقية ، وبالإضافة إلى كونه استاذ الأدب الانجليزي بجامعة كاليفورنيا فهو قد شغل منصب رئيس جمعية ديكتر الدولية ، وله أكثر من خمسين دراسة نقدية عن أعماله . لقد رصد المؤلف ظاهرة استخدام ديكتر لعنصر الفنتازيا في روايته وحاول تفسيرها وتبني المراحل المختلفة لتطور استخدامه هذا العنصر وكان في تناوله التفصيل لكل من دومي وولده ، وديفيد كويرفيلد ، وآمال كبار يعرض كل جوانب موضوعه في استيعاب وافاضة وإن كان في بعض التعليقات على الكتاب فتلك هي :

إن المؤلف لم يعط ألف ليلة وليلة حقها الكامل في كونها أحد العوامل الرئيسية في إخصاب خيال ديكتر ، وكان من الواجب عليه أن يتناول تأثيرها بأسهاب . لقد عكف ديكتر على قرائتها مرات ومرات في صغره وكبره . وتأتي الليالي بعد كل من العهد الجديد وأعمال شكسبير في الاستشهاد منها في الروايات^(١) .

الطوائف المرتبطة بها : التكرار ، الطقسية ، الرمزية ، السحرية ، نسبة صفات البشر إلى الجماد ، اللازمة الدالة ، ازدواجية النفس الثانية . وهذه الميقات وهذه الطوائف أضفى على أبسط الأشياء والشخصيات في الحياة اليومية - أشياء مثل البوابات والنيرون والأبدي ، وشخصيات مثل المعتكف والمحكوم عليه ومحدث النعمة - مخاوف وأحلام حكايات الجان .

وترتبط عمومية ديكتر كما ترتبط موسيقاه وأساليبه بارتباطه بحكايات الجان . وقد مكنته هذا الالتزام من أن يطرق نفس الأماني والنوازع التي تطرقها الحكايات وتلك الأماني وليدة استجابات الإنسان الأزلية للحياة . وقد تمكنت حكايات الجان كثيرها من الخرافات ، والأساطير والحكايات الرمزية والفنتازية وغيرها من مظاهر العالم الخفي من أن تبقى على مر الزمان لكونها تتضمن آمال الإنسان وآلامه . وفي نفس الوقت تحمل حكايات الجان شعورا بغموض الحياة وعجيبها وبالقوى المبهمة التي تكمن في طبيعة الأشياء . وقد تمكن ديكتر من أن يضمن أعماله هذه الأسرار بفضل حصيلة من الحكايات ومكونات العالم الخفي بغن فح في البداية ، مصقول فيما بعد . ورغم أن هذا الجانب في رواياته يعكس خصوصيات زمانه وطابعه الشخصي إلا أن خياله المشبع

(١) انظر لنسب المؤلف Harry Stone, ed., Charles Dickens' Uncollected Writings from Household Words (Indiana U. P., 1968), Vol. 2, P. 674. من أسطوانات ديكتر من الثلاث لي بعض أمثلة التي ظهرت في عمله الأسبوعية "Household Words" والتي لم تكن قد نُجست بعد .

صافية خالصة ، فكان من الضروري حتى لاتنفقد هذه المسارح تراخيصها أن يتخلل المسرحيات المساوية شيء من الموسيقى والأغاني الراقصة ، والنسك الخارج على النص . فكانت لليدي ماكث مثلا تؤدي بالإضافة الى دورها المفعج بعض الرقصات ، وكان بولونيوس يقوم بعزف المزمار وهكذا اختلط المبكى والمضحك أمام سمع وبصر ديكنز .

يشكل عنصر الفنتازيا في الروايات ما يمكن أن يطلق عليه البعد البشري فيها (يدخل في هذا الاستخدام الشعري أو التعبيري للخلفيات التي غالبا ما يعطيها ديكنز الحياة وكيف أن العالم الخارجي يعكس العالم الداخلي للشخصيات) . وديكنز بهذا يعتبر رائدا من رواد الحركة الرمزية والتعبيرية ، وكان أحرى بالمؤلف أن يبرز هذا المعنى بوضوح أكثر . ويشترك ديكنز مع الأخوات بروني The Brontes وتوماس هاردي Thomas Hardy في هذا المجال ، فقد استمدوا جميعا الاستخدام الدلائلي للخلفيات من القصص القوطي . كما لم يبرز المؤلف وجه الشبه بين رمزية ديكنز ونهج الرمزيين المحدثين . ويشكل النهر على سبيل المثال أحد الرموز الغالبة في ديكنز كما أوضحت الناقدة Dorothy Van Ghent في كتابها عن الرواية الانجليزية ، فله كما هو الحال في آمال كبار قوة سحرية : يفرق الأفراد ويبرز الادلّة التي ليست في الحسابان ويحول كيميائيا كل ما يلمسه ، كما أنه العنصر

(ومن الجدير بالذكر أن روائع الروايات لا بد وأن تقوم على أحد الفنون الشعبية : الأساطير ، حكايات الجان ، المسرح الشعبي . . الخ) ويشير ديكنز لليالي بصفة دائمة في رسائله ، كما كان دائم الرجوع اليها في أحاديثه العامة ومنها أحاديثه في بوسطن وفرجينيا في زيارته للولايات المتحدة عام ١٨٤٢ . ويرى أنجس ويلسون Angus Wilson ، الروائي المعاصر ومن أشد المعجبين بفرن ديكنز في كتابه عالم ديكنز The World of Dickens أن ألف ليلة وليلة تعد بمثابة شخصية مسز هاريس العلمية بأمر شق التي ابتدعتها مسز جانجيب في مارتن تشزلويت للاستعانة بها عندما يكون خيالها في حاجة لمون . وقد اعتمد ديكنز غط شهرزاد المباشر في سرد حكاياتها (بتركها شهريار كل صباح منتظرا في شوق مواصلة سردها) وذلك في علاقته بقرائه . كما أن قراءاته لتنف من رواياته أمام الجماهير في أواخر أيامه تعد إعادة لنمط السرد المباشر في الليالي .

من الأسباب التي ربما أثرت في تشكيل رؤية ديكنز المزدوجة للحياة ومظاهرها والتي لم يوضحها الكتاب بما فيه الكفاية أن تمثيل مسرحيات شكسبير كان مقصورا على بعض المسارح في العاصمة وبالطبع لم يكن هذا كافيا لجمهور النظارة .

وكانت للمسارح على مشارف لندن والتي كان يرتادها ديكنز في صباه بسد هذه الثغرة ، ولكن ما كان بالامكان أن تعرض مسرحيات شكسبير

يمكن الفرد من أن يقوم بأعمال لصالح نفسه كما لو كانت لصالح الغير . وخير مثال على ذلك بكسنيف Pecksniff الذي نشاهده « يتزع قفازيه ليديء يديه أمام المدفأة بكل سخاء كما لو كانت يدي شخص آخر وليست يديه هو (الفصل ٣) . كما أن بعض الشخصيات يبالغ في وصف أحد أعضاء الجسد فيها حتى أنها تبدو كما لو كانت مقتصرة على هذا العضو فقط ، فأصبح Jagers جاجرز ، الضخم يبدو منفصلا عنه وهذا بمثابة انعكاس لموضوعية القانون الذي يمثله جاجرز ، وأحيال ماجوتيش الصوتية شبيهة بآلية الساعة نتيجة الخوف والظلم ، وفم ويميك Wemmick وعليه الابتسامة العريضة الزائفة يشبه صنوق البريد (آمال كبار) . وشكل آخر للانقسام يكمن في وجوه نفسين للشخصية الواحدة : نفس عامة زائفة تظهر للآخرين ونفس خاصة تبقى مستترة . ويرتبط هذا بموتيف-Doppelger (الشبح) ، وخير مثال على ذلك جوناس تشز لويث Jonas Chuzzlewit الذي يتنكر ويغادر غرفة نومه من باب خلفي ليقتل تيج Tigg وياعتقد كل من في البيت انه ما زال في غرفته . لقد ترك نفسه العامة في الغرفة ولكن هذه النفس تستغل بذاتها وتطارد القاتل وتقرأ في الفصل ٤٧ أنه « كان مرتاعا للدرجة رهيبه من هذه الغرفة اللعينة مما جعله يخاف بطريقة جنونية ليس فقط على نفسه من نفسه . لقد أصبح شبح نفسه وغدا الروح المطاردة والرجل المطاردة في

الداق الذي يربط الأفراد بمختلف طوائفهم وكذلك بمواقفها وربما يقلد بالضحية في حزن القاتل .

ويرتبط بنقطة احياء الخلفيات هذه موضوع احياء الجماد علمة (واعطاء الأشياء كما هو في الحكايات قوة وتأثيرا تفوق قوة البشر) وعكسه تمهيد الاحياء . ومن طريق هذه التبادلية والسيولة بين الناس والأشياء يلين ديكتر المجتمع غير الأدمي ، ويسين أن الانسان مسجون في مجتمع يفقده الصفات البشرية ويؤكد الصراع بين الأدمي وغير الأدمي ، بين القوى الإيجابية قوى الحب والأخاء والقوى السلبية قوى الاستغلال وانكار الحياة . فكل من دومي Dombey والسير ليستر ديد لوك Sir Leicester Dedlock وجراد جراتيه Gradgrind وميردل Merdle وكثير غيرهم ظلمة فقلدوا أحميتهم ، هم أكثر من أشرار ميلودراميين ، انهم يمثلون المجتمع المادي بعقمة الروحي وفقدانه القيم الإنسانية . كما أن مس هافيشام تحيل كلا من بيب واستيلا الى مجرد أشياء بالتخاذلما إياهما وسيلة للانتقام لقلبها الكليم . وتكمن الجريمة في نظر ديكتر في تلك النظرة للأشخاص على أنهم مجرد أشياء ووسائل لغايات .

ومن مظاهر الانقسام انقسام النفس الواحدة الى نفس تُحْتَم ونفس تُحْتَم ، فمارتن تشزلويت مثلا « معطف وعباءة نفسه وداثما يلف نفسه بنفسه » (الفصل ٣٣) . ومثل هذا الانقسام

كصورة البحر في دومي وولده مثلا أو ربطه مجرد حل يولي تولد Polly Toodle ابنها على صدرها بدلا من بول دومي عند زيارتها لمتزلها في ستاجر جاردنز Stagg's Gardens بفكرة تبديل الأمير في الحكايات (ص ١٥١) ولكن تلك المسألة تؤكد فقط ولا تؤثر على سلامة معالجة ستون لموضوعه . وتعد فكرة اللوازم الدالة التي أسهب في تحليلها في كل من دومي وولده وديفيد كوبرفيلد من نقاط القوة في الكتاب . وكلما تركز النقاش في الكتاب حول استخدام ديكنز للحكايات كجزء من طريقته في إعادة تشكيل الحياة في رواياته لاحول مجرد أوجه التطابق بين الأحداث والشخصيات وتلك الحكايات كلها كان النقاش مفيدا ومثيرا . لقد اختار المؤلف عبارة ديفيد « الحياة كانت ... حكاية جان عظيمة كنت على وشك البدء في قرائتها كاتقباس استهلاكي epigraph للكتاب . ويشترك ديكنز مع ديفيد في أن القراءة والسرد وإعادة التشكيل هي سبيلهما إلى فهم وتغيير عالميها .

وربما يلاحظ القارئ بعض حالات التكرار ولكنها قليلة جدا ، فمثلا واقعة قذف ستيرفورث Steerforth لروزا Rosa بالطريقة قد تكررت ثلاث مرات في صفحتين متتاليتين (٢٣٨ ، ٢٣٩)

ولا أنسى أخيرا أن أثنى على الجهد الضخم الذي بذله المؤلف في بحثه الذي بلغ ٣٧٠ صفحة من القطع الكبير والذي طالما انتظرناه ، ولست أشك في أن الكثيرين من المهتمين بفن الرواية عامة وادب ديكنز على وجه الخصوص يشتركون معي في هذا الشعور .

نفس الوقت . وتربط فكرة النفس الثانية هذه المستمدة من الحكايات بفكرة المونتاج أو الوصل أو تركيب شخصية على أخرى أو صورة على أخرى ، وهذا ينطبق بالإضافة إلى الثنائي ماجويتش Magwitch وبيب Pip على استيلا Estella ومس هافيشام Miss Havisham وجو Joe لورلوريك Orlick في آمال كيار . وبذلك يطل اهتمام ديكنز بأنه لا يستطيع أن يجمع الخير والشر في شخصية واحدة . ففي عالمه الشيطاني الذي لا تحكمه القوانين الطبيعية يكمل كل قرين صنوه . ويمكن تفسير عنصر المصادفة في الروايات ، والذي كان موضع نقد شديد من النقاد ، لذا ما ربطناه بالعالم « العفاري » الذي يصوره ديكنز والذي يمكن أن يرتبط فيه بالارتباط عادة . ولواقعة قلب ماجويتش بيب رأسا على عقب في بداية آمال كيار ارتباط بالفضية الأساسية في الرواية ، بالدروس الذي على بيب أن يعمه وهو أن يتجنب خلط عالم الأوهام بعالم الحقيقة والواقع . والسليم هو الصورة الافتتاحية لهذا الومع في الرواية عندما يكبر بيب ينظر بعين الاحتجاز لعالمه المتواضع ويرفض هويته الحقيقية من أجل اللئل الخداعة لمجتمع المظاهر الزائفة . لقد سيطرت عليه فكرة أن يكون سيذا محترما . وفي هذا الاطار تأخذ واقعية قلبه ديبلا رمزيا هاما . لقد نسي بيب أنه هو المقلب وليس الكتيبة ، لقد اختلط عليه المظاهر بالواقع .

وربما يجد بعض القراء أن المؤلف ينسب إلى حكايات الجان أكثر مما يجب وأن اصداه تلك الحكايات ونظائرها التي أوردتها غير مؤكدة تماما

لاشك أن فكرة الأصول الفردية للإنسان ليست عفاة ، بل تمتد جلوسها الى أكثر من مائة عام عند ظهور نظرية داروين عن التطور بالانتخاب الطبيعي ، حين قرر أن الإنسان ما هو الا نتاج للتطور ، مثله في ذلك مثل كل أشكال العضويات التي بدأت وحدات بسيطة ثم تعقد تركيبها ووصلت الى الشكل الذي نراها عليه الآن بالانتخاب الطبيعي ، خلال الزمن وحتى قبل عصر داروين ، فقد درج علماء التقسيم على وضع الإنسان من الناحية البيولوجية ضمن شعبة الثدييات التي تشمل العديد من أنواع الحيوانات الأخرى الأقل رقىا ، ولكنهم ميزوا مع ذلك بين الثدييات الأخرى بوضعه في رتبة أعلى وهي الرئيسات التي تتضمن الرئيسات الدنيا ، وهي الليمورات والصعابير واللوريسات وفناب الشجر ، والرئيسات العليا وهي نسانيس العالم القديم ، ونسانيس العالم الجديد ، والقردة العليا (الغوريلا والشمبانزي ، والأورانج أوتان) وأخيرا الإنسان على قمة تلك الشجرة العائلية .

ولكن بعد ظهور نظرية داروين وصدر كتابه أصل الأنواع ، وأصل الإنسان بدأ العلماء بتتبع الأصل التطوري للإنسان سواء بالبحث عن الحفريات لمعرفة الحلقة المفقودة بين القردة والبشر ، التي تحدث عنها داروين وقرر وجوب وجودها ، أو بدراسة سلوك أقرب أقارب الإنسان وهي القردة العليا ، للتدليل على صحة نظريته وصدقها لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف

القرود الذي فينا

مصطفى عوض إبراهيم

ولغته ، فالقرد داخلنا ونحن مغلقون بملايس ، ولذلك فهو يذكر انه لكي نفهم انفسنا يجب أن نفهم تلك القردة من حيث البيئات التي يقطنونها والغذاء الذي يتناولونه ، والحيوانات الاخرى التي تشاركهم البيئة وامزجتهم ، وطباعهم ، وتكيفاتهم التشريعية والحركية وشكل تنظيمهم الاجتماعي ، ومقدار ذكائهم ، وطرق الاتصال بينهم والصفات التي يشتركون فيها مع الانسان وغيرها من التي يختلفون عنه فيها . فالواجب علينا دراسة القرد في حالة رغبتنا في اقامة نظريات عن اصل وبدايات الانسان .

ويتناول المؤلف في الفصل الاول أول نوع من أنواع القردة التي يعرض لها وهو الجييون Gibbons ويصف البيئة الغابية لذلك النوع الذي قام بدراسته في الملايا Malay عام ١٩٧٣ بأسلوب شاعري يكاد يشعر القارئ بأنه داخلها .

ويصف الحيوانات التي تشارك هذا النوع في البيئة ، ويستعرض تحركات الجييون وتغلاته على الاشجار ، حيث يتنقل لمسافة كيلو مترين فقط في اليوم الواحد للبحث عن مصادر الغذاء التي تتألف معظمها من أشجار الفواكه وخاصة اشجار التين . وعلى الرغم من ان الجييون هو اقل القردة قرابة وشبها للانسان كما يذكر المؤلف الا ان هناك بعض الجوانب التي يشترك معه فيها مثل افتقاره للذليل ، وقدرته على الوقوف

بينها وبين البشر في عديد من النواحي ، مثل طريقة الحصول على الغذاء ، والسلوك الجنسي ، وطرق التكثير ، وأساليب التصرف في مختلف المواقف ، ونوعية الحياة التي يحيونها والبيئات التي يحتلونها ، والأنشطة التي يمارسونها وطرق العناية بالصغار - ٠٠٠ وغيرها . وفي السنوات الأخيرة قام العديد من علماء الانثروبولوجيا والحيوان والرئيسات بدراسات حقيلة رائدة لتلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية لمعرفة العديد من تلك النواحي . والكتاب الذي نعرض له هنا هو أحد هذه الكتب التي تتناول سلوك القردة العليا بالدراسة ، في محاولة لفهم سلوك الانسان والطرق التي يختلف فيها عن تلك الحيوانات ، في ضوء الدراسات الحقلية التي قام بها المؤلف على الجييون ، والسيمانج ، والغوريلا ، والشيمبانزي ، والشيمبانزي القزم او البونوبو ، وأخيرا الأورانج أوتان . وذلك من خلال أصطحاب القارئ في رحلة قصيرة داخل أدغال افريقيا ، وغابات جنوب شرق آسيا ، لتتبع تلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية ، ثم الغوص به (اي القارئ) في اعماق التاريخ البعيد لتتبع أسلافه واصولهم ، وأخيرا الصعود به مرة أخرى الى مجتمعه الانساني ، للتعرف على سلوكه وميزاته الاجتماعية ومنجزاته ، وفشله وانخفاضه ، وآلامه وأحلامه وتطلعاته ، من خلال مقارنته بأبناء عصومته القردة العليا .

إذا تخلى عن ملايسه واساليه الفكرية

ويتصالح المؤلف عن الاسباب التي لم تجعل
السيامنج والجبيون يعيشان في تجمعات اكبر ،
ومؤلف الكتاب هو جون ماكينون John
Mackinon ولد في ليدز Leeds
عام ١٩٤٧ . بدأ اهتمامه بحياة الأدغال
والتوحش منذ نعومة اظفاره الى ان اصقلها بكلية
ونشستر Winchester Colledge
وأقصى عاما كاملا في دراسة سلوك الحشرات
والشعبانزي في تنزانيا مع جان جودال قبل ان
يلتحق الى اكسفورد Oxford للحصول على
درجته العلمية في علم الحيوان . وقد حصل على
درجة الدكتوراه نتيجة ابحاثه التي اجراها على
الاورانج أوتان ، حيث وطلت من مكانته كعالم
حيوان . وقد ألف مكينون العديد من الكتب ،
نذكر منها بحث عن الفرد الاخر ، وحيوانات
آسيا ، وقام كذلك بتصوير العديد من الافلام
التليفزيونية عن حيوانات الغابة . ويعيش دكتور
مكينون حاليا مع زوجته وطفليه بنسابات
اندونيسيا في مشروع بحث هناك .

ويتألف الكتاب من ثلاثة اجزاء تتضمن أحد
عشر فصلا بالاضافة الى المقدمة . ويتقسم الجزء
الاول الى ستة فصول ، يعالج المؤلف حياة
الفردة الخاصة ويفرد لكل نوع فصلا كاملا ،
بعث يتناول ستة أنواع وهي الجبيون ،
والسيامنج ، والغوريلا ، والشعبانزي ،
والشعبانزي القزم أو البوريو ، وأخيرا
الاورانج - أوتان . وهذا الجزء تأسس على

متصبا ، والحياة العائلية المونوجامية التي تميز
تلك العائلة ، وكذلك الاقليمية التي يتصف
بها ، فهو يجتلي اقلها يدافع عنه ، وهو (اي
الجبيون) يختلف تماما عن الحياة الاموية
البوليغامية التي تميز مجتمعات النسائس ،
ويتنقل المؤلف في فصله الثاني الى نوع آخر من
انواع عائلة الجبيون وهو السيامنج
Siamangs الذي يجتلي نفس البيئة مع
الجبيون حيث قام بدراستهما معا . وهو يذكر ان
السيامنج اسهل في تربيته من الجبيون وهذا راجع
الى عدم قدرته على التنقل بسرعة الجبيون ، لانه
اكبر حجما وهو يستعمل عضدا محلدا من
الاشجار التي يتغذى أو ينام عليها . وهو غالبا
يتغذى على نفس الشجرة التي ينام عليها ،
واشجار التين تمثل مصدرا غذائيا هاما له حيث
تعتبر ثمارها وجبة اساسية في حياته . ولكنه
كثيرا ما يوازن بين وجباته بالحصول على بعض
نسب من البروتين ، حيث يقوم بزيارة بعض
أشجار الحشرات ، ويقتات كذلك على بعض
اوراق الاشجار . والسيامنج يمضي معظم
أوقاته في الغذاء وليس في التنقل والتحرك بين
الاشجار ، ويصف الكاتب السيامنج بأنه
حيوان مونوجامي مثل الجبيون ، ويتميز
بالاقليمية كذلك ، ولكنه يتميز بأنه يحمل
صغيره أثناء تحركه ولجواله ، وكثيرا ما يحمل
الذكر الاب صغيره ويلبك يعطي المفردة
للاتنى لبناء قوتها من جديد للبدء في حمل آخر ،
ولكن الصغير يجب أن ينم مع أمه أثناء الليل ،

مذكرات المؤلف الميدانية عن تلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية ، وهو يصف لنا في هذا الجزء حياة القردة الخاصة واسلوب التغذية لديها ، ومخط دفاعها عن اقاليمها أو بيئاتها ، والسلوك الجنسي والتزاوج عندها وطرق تربيتها للصغار والتفاعل أو العلاقات بين افراد النوع ، وبين النوع ككل وبين الانواع الأخرى .

ويتألف الجزء الثاني من فصل واحد وهو يدور حول الحفريات المبهمة والحلقات المفقودة التي تعتبر المؤشرات والدلائل الملموسة عن انحدار الانسان من انواع أخرى ، ويتبع المؤلف في هذا الفصل الحفريات التي اكتشفت ، محاولا العثور على الاصل المشترك بين الانسان والقردة العليا . والجزء الاخير من الكتاب ينقسم الى اربعة فصول يتناول فيها المؤلف اثر التكنولوجيا على البشرية ، وكيف انها كانت السبب في كوننا بشرا ، وسلوك الانسان داخل العائلة مقارنة بسلوك عائلات القردة ، والانسان ومجتمعهم المحلي والاختلافات بينه وبين مجتمعات القردة ، واخيرا الانسان ومستقبله والطريق الذي يسير فيه من خلال الاجابة على سؤال وهو الى اين اميا البشر ؟ .

وفي المقدمة يذكر المؤلف أنه سوف يحاول حل تلك المشكلة التي تربطنا بابناء عمومتنا القردة العليا من خلال القيام برحلة الى الغابات الاستوائية في افريقيا وجنوب شرق اسيا ، وكان

هدفه المباشر هو الحصول على فهم أفضل لتلك الحيوانات . ولكن القوة الكامنة وراء ذلك الهدف هي الحصول على أفضل فهم لنفسه . ويقرر المؤلف ان الانسان ما هو الا قرد ، وذلك مثل النسانيس ، ويجب على ذلك بانه راجع بلاشك الى تخصصهم الغذائي كأكلي فواكه ، فالقواكه من الأشياء النادرة في الغابة بمقارنتها باوراق النباتات والاشجار الغزيرة ، التي تمثل الوجبة الرئيسية للنسانيس التي تتغذى على الفواكه بطريقة عرضية عندما تجدها أمامها ، ولكنها لا تبذل اي جهد في البحث عنها كالسيامنج ، ويقرر الكاتب ان السيامنج والجيون لو انهما التجأ الى اوراق الاشجار سينجدان منافسة شديدة مع النسانيس الوليفة العدد . ويتبع الكاتب في الفصل الثالث نوعا آخر من القردة العليا وهي الغوريلا Gorillas حيث قام بزيارتها في جبال زائير عام ١٩٧٥ ، وينفس الاسلوب الذي اتبعه في الفصول السابقة بدأ في وصف البيئة التي تعيش فيها الغوريلا والمسالك والدروب التي ارتادها ، للكشف عن مسار جماعات الغوريلا باقتفاء أثرها ، ويذكر أن الغوريلا حيوان اقتصادي . فهي تستغل مصادرها الغذائية بطريقة اقتصادية ولا تدمر المصدر غاما ، فهي سرعان ما تنتقل الى مصدر آخر حيث تكون الاششاب والحشائش نمت مرة أخرى في المصدر الاول لتعود اليه مرة اخرى ، وهي تعيش وتنتقل في جماعات من مكان لآخر حيث يتولى الذكور حماية الجماعة من

بالجنس ، وتقع ساعات الاسترخاء في منتصف اليوم حيث ترتفع درجة الحرارة ويقل النشاط .

وينظر المؤلف الى اللعب عند الشمبانزي على انه طريقة لتعلم المهارات ، فهو يتعلم المهارات الخاصة بسرعة الحركة . وقنوث الحرب والتزال ، وطريقة صنع الأدوات والأشياء .

فالشمبانزي حيوان اجتماعي ، متعاون ، يعيش داخل انساق اجتماعية وله ثقافة متطورة ، ويستخدم الأدوات ، ويصيد الحيوانات ليأكل ، حيوان له لغته الخاصة في التحدث والاتصال ، كل ذلك يجعل الشمبانزي مشابه الى حد كبير للظروف البشرية اكثر من أي نوع ذكرته من قبل كالقرود الدنيا والغوريلا .

اما الفصل الخامس فهو عن البونوبو Bonobos او الشمبانزي القزم ، ويذكر المؤلف انه تم التعرف عليه كنوع يختلف عن الشمبانزي عام ١٩٢٩ ونظرا لندرته فقد نظر اليه العلماء على أنه اذكى أنواع القرود واقربا الى الانسان . وقام الكاتب بزيارة هذا النوع في زائير عام ١٩٧٥ ، ويختلف البونوبو عن الشمبانزي في الحجم ، وهو أكثر تخصصا وتكيفاً للعيش في الغابات الاستوائية ، بعكس الشمبانزي الذي يحل بيئة أوسع ، حيث يعيش في مناطق السفانا والمناطق الغابية الاستوائية ايضا ، وهو يذكر ان مجتمعات البونوبو تختلف

أي خطر يتهددها . وهذا الذكر يلعب دورا رئيسيا في تحديد أماكن الترحال والنوم . ويقوم كذلك بتحديد أوقات أنشطة الجماعة . هي تتغذى على كميات هائلة من الأعشاب والنباتات ، وهذا راجع بالطبع الى كبر أحجامها . ويخصص الكاتب الفصل الرابع للشمبانزي Champanzees والنقطة

الجوهرية التي يماجها هي المتصلة بالسلوك الجنسي حيث تمر الاناث عن حاجتهن للجنس بتغيرات فسيولوجية تصيب عجزهن حيث يتسبب ويتغير لونه الى الاحمر . ويلقي الذكر بالاناث أثناء احمرار عجزهن ، ويذكر المؤلف ان ذكر الشمبانزي يتمتع بالقدرات الجنسية الهائلة ، فداخل خصيتيه اعداد لاحصر لها من الحيوانات المنوية ، وهو ينظر الى العملية الجنسية على انها شيء تافه او قليل الاهمية ، فهي لا تمتدنى كونها طريقة من طرق تحية الذكر للأنثى ، فمن الممكن ان يستمر الذكر في تناول غذائه أثناء الممارسة ، فالجنس يحقق وظيفة اجتماعية في نظر المؤلف أكثر منها جنسية . ويرتبط افراد تلك المجتمعات سوية تبعاً لحاجتهم المتبادلة للحماية والدفاع . وظاهرة تقسيم العمل تظهر في ذلك المجتمع ، فيقوم الذكور بصيد بعض الحيوانات ، أما الاناث فتصيد الحشرات . والشمبانزي من الحيوانات الكسولة في رأي المؤلف ، فهي تشبع احتياجاتها الغذائية اليومية في ساعات قليلة ، أما بقية اليوم فهي تقضي في الاسترخاء والمرح والاستمتاع

عن مجتمعات الشمبانزي من حيث العدد ايضاً ، فأكبر جماعة شاهدها العلماء كانت تتكون من عدد من الذكور وثلاث اناث فقط ، واغلب الظن انها تجمعت لممارسة الجنس فقط وجماعات البونوبو تتميز بالاستقرار والثبات ، فهي لا تقبل اعضاء جدد في الجماعة مثل الشمبانزي .

وفي رأي المؤلف ان البونوبو فرع حديث نسبياً من الشمبانزي ساعد الانتخاب الطبيعي على ظهوره ، والعديد من النواحي السلوكية لديه تشير الى انه عاش في فترة من الفترات على الارض ، ولكن لم تعد تلائمه تلك الوسيلة حيث اصبح من السهل اقتراسه من حيوانات الغابة المفترسة . ويختلف البونوبو كذلك عن الشمبانزي في النظام الابوي والعائلي الذي يتكون غالباً من الذكر والانثى ، ويقع الجهاز التناسلي لاثني البونوبو اسفل البطن مباشرة وذلك يساعد على سهولة التكاثر على الاشجار ، والبونوبو اكثر قدرة كذلك على الحركة والفرار من الاشجار . ويؤكد المؤلف ان اكبر دليل على ان البونوبو وادد الى الغابة هو افتقاره الى ظاهرة الصياح او الصرخ ، وكذلك افتقاره الى الاقليمية (الحماية والدفاع عن البيئة) وسبب عدم وجود الاقليمية لديه هو انه كان يوماً ما شمبانزي متعاوناً يعيش داخل مجتمع اكبر في رأي المؤلف . وتطرق المؤلف في الفصل السادس الى الحديث عن الاورانج

اوتان Utans — Orang الذي زاره في بورنيو Borneo وسومطرة Sumatra عام ١٩٦٨ و ١٩٧١ ويطلق عليه اسم انسان الغابة وهو حيوان بطيء يتحرك حوالى ٥٠٠ ياردة في اليوم بأكمله ، ويتحدث المؤلف كذلك عن الحياة الجنسية للاورانج اوتان ويذكر انها مشابهة الى حد كبير للسلوك الجنسي عند الانسان ، والممارسة الجنسية تستغرق وقتاً اطول من مثيلتها لدى الشمبانزي ، فهي عمل خرامي وغزلي ، ويمارس الاورانج الجنس على الاشجار بطريقة اكروبياتية حيث يلفز الذكر على الانثى ويعانقها من الامام والحلف ومن اعلى واسفل . وبعد ان ينتهي المؤلف من عرض الجزء الاول من كتابه ينتقل الى الجزء الثاني الذي يتألف من فصل واحد فقط بعنوان الحلقات المفقودة Missing links ويعالج في هذا الفصل (وهو الفصل السابع) مشكلة التطور وأصل الانسان في ضوء ما تجمع لدينا من ادلة ملحية ملموسة وهي الحفريات Fossils ، ويتعرض بصورة سريعة لنظريات التطور كنظرية الخلق الخاص ، ونظرية الكوارث ، ونظرية التطور بالانتخاب الطبيعي لداروين واللاس ويلخصها فيما يلي : -

١ - تميل العضويات الى الاختلاف والتنوع داخل النوع .

٢ - تميل العضويات الى التزايد في العدد بزيادة ذريتها .

التي أثبت التشابه بين الغوريلا والشمبانزي والإنسان ، وأثبتت اختلافاً بينه وبين الأورانج أوتان والجيسون ، وهذا على النقيض من التصنيف الأول الذي يضع الغوريلا والشمبانزي والأورانج - أوتان في خط واحد . وبعد ذلك ينتقل المؤلف إلى سرد رحلة تطور الإنسان والقرود بدلاً بالقرود المصرية *Aegiptopithecus* وقرود الشجر *Dryopithecinae* والقرود المسماة *Dendropithecinae* وقرود البروقنصل *Proconsul* وقرود رامسا *Ramapithecus* والقرود القديمة *Para-nthropus* وإنسان جنوب إفريقيا *Australopithecus* والنقطة الجوهرية التي يركز عليها المؤلف هي المتصلة بتحول القرود إلى بشر ، وذلك راجع إلى تغير الظروف المناخية في مختلف العصور ، والتي أدت إلى تدمير البيئة الشجرية لبعض تلك الأنواع مما أدى بها إلى النزول من الشجر والسير على الأرض ، وتحولهم إلى الصيد بدلاً من التقاط الفواكه كطريقة في الحياة ، وهذا أدى إلى تغيرات تشريعية في شكل اليد وقدرتها على قبض واستعمال الأدوات ، وكذلك في شكل العمود الفقري والسير على قلمين بدلاً من أربع . وكذلك تطور جهاز الكلام والذكاء كوسيلة من وسائل الاتصال بين الجماعة التي تعيش على الصيد ، وكذلك التغيرات التي طرأت على شعر الجسم .

ويستعرض المؤلف في الجزء الثالث من

٣ - تمثيل العضويات كذلك إلى الاحتفاظ بأعدادها حيث تموت أعداد كبيرة من صغارها .

٤ - تميل الصغار إلى مشاكل الآباء لأنهم يحملون المادة الوراثية الموجودة في بويضة الأم ومني الأب .

٥ - تنتخب الطبيعة الصفات الأكثر تكيفاً مع البيئة وتلك الصفات تنتقل عبر الأجيال .

٦ - يتغير شكل النوع ليلائم الظروف البيئية . ويمكن ظهور نوع جديد في حالة حدوث تزاوج بين الأنواع المنعزلة وراثياً .

ويذكر المؤلف أن داروين لم يكن على علم بالطريقة التي تنتقل بها الواحدات الوراثية ، أما اليوم فنحن على علم بقوانين الوراثة وبالتكوين البيوكيميائي لحمض الـ D.N.A ، وكذلك أصبحنا نملك حفريات عن إنسان وقرود ما قبل التاريخ تساعدنا على اقتفاء أثر الإنسان في عصور ما قبل التاريخ ، بالإضافة إلى المناهج البيوكيميائية التي ظهرت أخيراً وساعدتنا على قياس التشابهات بين القرود الحالية والإنسان ، وزادت من قدرتنا على تفسير السجل الحفري كقياس درجة التشابه في مجموعات الدم ومعدلات الترسب في الدم ، وبناء جزيئات ميمولوجيين ، وكذلك للمقارنة بين نواة الكروموسوم في كل من القرود والإنسان . تلك

الباحثين وآراءهم بالنسبة للطريقة التي يعمل بها العقل ، حيث يذكرون انه توجد ثلاث خرائط عصبية خلوية داخل المخ عن البيئة المكانية والزمانية التي نعيش فيها ، وعن الاماكن التي نمرقها ، والناس الذين نقابلهم ، فهناك تطورات اولية توجد في عقل الفرد تثار بمجرد سماعه اى لفظ أو عبارة يستطيع بها ادراك وفهم المعاني ، ويناقش المؤلف كذلك الكتابة واثراها على تطور اللغة وروقي الثقافة وانتقال المعلومات عبر المكان والزمان ، فثقافتنا البشرية تتميز بالتراكم والاكستساب من الاجيال السابقة . ويذكر ان الممارسات الثقافية الفريدة في سلوك الانسان هي السحر والدين الذي يلجأ اليه الانسان عندما تعترضه مشاكل يصعب عليه حلها ، فعندما عجز عن تفسير الظواهر البركانية افترض انها مساكن للالهة . ويتناول ايضا الظواهر الثقافية الأخرى كالفن والموسيقى ، وهو يعتبر الفن نوعا من تأكيد الذات أو الأنا EGO ، والتعبير عن الذات ايضا ، حيث ان الانسان يعيش داخل مجتمع لا يعترف بالفردية ، وهنا جاءت قيمة الفن للتعبير عن تلك الفردية .

ويؤكد المؤلف على ان اللغة والتكنولوجيا والمنتجات الفنية كان لها ابعاد الاثر في تباعد الانسان عن القرد والحيوانات الأخرى من الناحية الثقافية .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى الفصل التاسع من كتابه بعنوان الانسان والعائلة . وهو يذكر ان

الكتاب الظروف التي ادت بنا الى ان نصبح بشرا ، والمميزات الاجتماعية والفكرية للانسان ومنجزاته ومخاوفه وآلامه وإحلامه وتطلعاته ، وذلك في اربعة فصول هي الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر . ويبدأ المؤلف الفصل الثامن قائلا ان الانسان عاش كصائد - جامع ما يزيد عن ٩٠٪ من تاريخه ، وإن استعمال الادوات هي الخطوة الأولى في تاريخ البشرية حيث يختلف عن القردة في طريقة استعمالها ، فالقردة تستخدم الادوات لقضاء حاجة معينة وتلقفها بعد ذلك ، اما الادوات البشرية فتتميز بالاستمرارية حيث يحتفظ بها الانسان لاستخدامها في ظروف أخرى مشابهة . وينتقل المؤلف الى تطور اساليب الاتصال واللغة عند الانسان ، ويستعرض بعض الدراسات اللغوية التي اجريت على الشمبانزي لتعليمه اللغة ، وهو يذكر ان اللغة يجب ان تكون واحدة داخل افراد الجماعة كوسيلة للاتصال والتضام ، وكلما زادت المسافة بين افراد الجماعة قلت أهمية الاشارات ، واصبح للاصوات معنى ومغزى ، واللغة تساعد الانسان على حل بعض مشاكله بالطرق السليمة مع غيره دون الخوض في صراع ، مثلما يحدث بين الحيوانات الأخرى ، ويتساءل المؤلف عن ماهية الكلام ودلالاته بالنسبة للبشر واختلافه عن اساليب الاتصال المألوفة عند القردة ، ويخبر على ذلك بقوله ان معرفتنا بالطريقة التي يتخزن بها المخ المعلومات مازالت غامضة ، ويستعرض آراء مختلف

يتعاونون ايضا مع الدوائر الاجتماعية الأوسع ،
وتربطهم علاقات بالمجتمعات المحلية
المجاورة ، بكل القرى التي تنتمي الى نفس
القبيلة ، وبكل القبائل التي تشترك معهم في
اللغة . وبكل القوميات الأخرى من نفس
الجنس ، واخيرا يتفاعلون مع النوع ككل .
ويذكر المؤلف ان النوع الوحيد الذي يشبه
الانسان من حيث تنظيمه الاجتماعي هو
الشمبانزي .

واخيرا يستعرض المؤلف في الفصل الحادي
عشر والاخير ماسبق ان تناولوه في الفصول
السابقة بصورة سريعة محاولة لقاء نظرة على
المستقبل من خلال معرفة الطريق الذي سرنا فيه
في الماضي . هو يتساءل عن ذلك قائلا هل يمكن
ان تساعدنا معرفتنا بالماضي في تخطيط رسم
مستقبلنا لعبور طريق اللاجهول ؟

وهو يؤكد على أننا نواجه الآن مشاكل لم
نواجهها من قبل ، واصبح الانتخاب الطبيعي
محدود الفائلة ومن هنا يجب ان نعلم على ذكائنا
الاجمعي ويتساءل عن نوع المستقبل الذي ينتظر
الجنس البشري ، وهل سيتطور هذا الجنس ام
سيقضى . وهو يؤكد على انه ليس هناك تهديد
لنوع ككل بسبب الكوارث المنتظرة نتيجة قلة
الاكسجين في الغلاف الجوي ، او نتيجة
الحركات البركانية والزلازل التي تهدد البشر ،
فكلها في اعتقاد الكاتب كوارث عملية لا تمثل

السلوك الاجتماعي هو السلوك التعاوني الذي
نراه بين فردين او اكثر .

وهو يعتبر الرئسيات كلها اجتماعية في
سلوكها ، لأنها تعني بالصغار وتتفاعل مع
بعضها في شكل السلوك الجنسي بين الذكور
والاناث . ويناقش الاختلافات بين الانسان
والقردة من حيث شكل العائلة وتنظيمها
والعلاقات بين مختلف افرادها ، كما يتناول
بعض المشاكل الاجتماعية مثل الاختصاب
والدهارة ، ويصف الاختصاب بانه سلوك
ذاتي ، عدواني غير اجتماعي وشكل مرضي من
اشكال الحصول على الجنس واشباع
الرغبات ، وفي بعض الاحيان يؤدي الاختصاب
وظيفة اجتماعية أكثر منها جنسية ، فهو نوع من
تأكيد الذات والشعور بالقدرة على السيطرة على
المرأة . وينظر المؤلف كذلك الى الدهارة
Prostitution على انها من الحرف القديمة
التي احترفها الانسان ووظيفتها تقديم الجنس .

وفي الفصل الماشر بعنوان « الانسان
ومجمعه المحلي » يتناول المؤلف الى صورة اكبر
من صور العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين
عدة عائلات تشترك في تنظيم اجتماعي معقد
يطلق عليه المجتمع المحلي . وهو يقول في ذلك
ان العائلات الانسانية غير مكتفية ذاتيا ولذلك
يجب ان تتعاون العائلة مع بقية افراد القرية
الذين تربطهم بهم علاقات يومية . وهم

الاضطراب في شكل اشباح وشياطين وارواح شريرة ، ومن المنطقي ان تنصور وجود أناس لهم قوى خارقة في العوالم الاخرى ، وعلينا أن نعد انفسنا لمواجهة هذا الخطر المشترك بأقصى ما يمكن .

ويذكر المؤلف ان هناك تهديدات اخرى اكثر واقعية في حاجة الى ايجادنا ونماسكتنا ، فيجب علينا توحيد جهودنا في البحث عن مصادر الطاقة والبتترول والمعادن والفحم والاسماك البحرية وغيرها ، كل تلك مشاكل يجب ان نواجهها على الصعيد العالمي اذا كنا نبحث عن حل لها . فيجب علينا جميعا ازالة الحدود القومية بيننا ، ونشارك في لغة واحدة تساعدنا على التبادل الثقافي الحر ، وانتقال المعارف العلمية والتكنولوجية . ويهاجم المؤلف الاساليب التي تتبعها الدول الكبرى في حفظ التوازن وتزويد الدول الاخرى بالاسلحة لحفظ الصراع ، ويؤكد ان الطريقة المؤثرة لحفظ ومنع الصراع هي التهديد بالحرمان والقطع ، ويستشهد على ذلك بالتأثير السياسي لقرار حظر البترول العربي .

ويتناول المؤلف بعد ذلك اثر التصنيع والحضارة على البشرية ، فالشعور بالضيق والاعترا ب وعدم القدرة على تحقيق الذات والامراض العصبية والنفسية ، والنوازع التدميرية وجرائم القتل والطلاق وهجر الاطفال

تهديدا للنوع ككل . فليس هناك خوف من الطبيعة ، وانما الخوف يكمن في الانسان نفسه بسبب تزايد الكثافة السكانية وقلة المصادر البيئية التي لا يحسن الانسان استغلالها ، والانسان في رأي المؤلف يلوث بيئته وانهاره وعجالة الجوري المحيط به ، فأكبر عدو للانسان هو الانسان نفسه . ويتساءل المؤلف قائلا ان العالم ينقسم الى معسكرين يتنافسان في سباق التسلح ، فهل تكفي تلك الاسلحة لتدمير الحضارة ان لم تكن البشرية جمعاء في حالة نشوب حرب نووية بين الكتلتين ؟ ويجب المؤلف على ذلك بان هناك بعض الامان حيث لن تستطيع اي كتلة تحقيق النصر النووي الكامل ذون ان تعاني هي نفسها من الدمار ، ولكن هل سستمر الحالة كذلك ام ستنجح احدى الكتلتين في ابتكار درع نووي كامل لحماية نفسها ؟

وهنا يذكر الكاتب ان التاريخ لا يقدم لنا عزاء ، حيث لم تحدث حروب نووية خلاله من قبل . ويقول انه يجب على النوع البشري ككل ان يتحد داخل عسكر واحد . ولكن ضد من ؟ هنا يقرر الكاتب اننا يجب ان نتوقع ونتخيل وجود حياة على الكواكب الاخرى ، فنحن معرضون لاضطراب خارجية من مخلوقات على مستوى عال من الذكاء خارج كوكبنا ، ونحن في حاجة الى تهديدات خارجية لتماسك وتتحد كنوع ، ويقول انه في حالة غياب تلك الاخطار فنحن في حاجة الى اختلاق نوع آخر من

احتمال حدوثها ، فحقيقة علم اليوم هي خيال الأمل ، والعلم يتقدم باستمرار ، فربما يستطيع الإنسان بناء المدن تحت الأنهار والمحيطات ، وزرع الصحراء وإذا به الجليد القطبي ، وربما يستطيع اللعب بالمادة الوراثية ، فيشكل حيوانات جديدة ونباتات جديدة وعقاقير جديدة وأمراض جديدة ، كلها تحديات ولكنها يمكنه الحدوث . . ويتضح من خلال هذا المرض ان الموضوع الذي يتناوله الكاتب ليس بجديد في مجال الدراسات الانثروبولوجية والبيولوجية (وخصوصا البيولوجيا الاجتماعية) فمعظم تلك الموضوعات التي تطرق اليها بالبحث سبقه اليها العديد من العلماء ، وتناولوها بطريقة أكثر تعمقا ، ومن وجهة نظري تعارض ، هناك بعض السليبات اود ان اشير اليها سواء من ناحية التحليل او العرض .

اولا : طالما ان اغلب الادلة والحقائق التي يتضمنها الكتاب قامت على الدراسات الحقلية التي قلم بها المؤلف بنفسه على تلك الانواع مستمينا في ذلك بالمنهج المقرر بـ ٥٠٠ لاجل صغف غفر وقضحي كان من واجبه عقد بعض المقارنات بين الانسان وبين الجماعات الحيوانية التي تعيش على الصيد والقتل كالذئاب والكلاب البرية والاسود ، فاللحم يعتبر عنصرا هاما في الغذاء الانساني ، وقد اثبت السجل الحفري ان اكل اللحوم واستخدام الادوات تم حدوثها في أولى مراحل

والمشاكل الجنسية ، كلها ظواهر منتشرة في المجتمعات الغربية على الرغم من التقدم الاقتصادي والعلمي في تلك المجتمعات ، ويناقش بعد ذلك موضوع الزيادة السكانية الرهيبة التي تحتاج العالم واصفا لها بعض الحلول مثل التحكم في الجنس ووضع قيود اقتصادية وضغوط اجتماعية على العائلات التي يزيد حجمها عن عدد معين من الافراد .

ويتساءل اخيرا عن فائدة الابحاث التي نجريها على القرود (كالابحاث الطبية والسيكولوجية) وتعليمها اللغة وغيرها ، ويجيب على ذلك بقوله ان الشمبانزي حيوانات زكية يمكن ان تتجز أعمالا معقدة بمهارة فائقة ، فالانتخاب الصناعي الذي يمكن ان تقوم به على مخ الشمبانزي لمدة الف جيل مثلا لاشك انه يمكن ان يفيد كثيرا ويؤدي الى تطور ذكاء تلك الحيوانات بشكل غير عادي ، وبذلك يمكن الانتفاع منها والحصول على خدماتها للانسان ، كما انتفعنا من قبل بالدرليل بتوظيفه في اعمال الجاسوسية تحت الماء ، وبالأفغال كآلات حرية في الحروب القديمة ، وكذلك الحصان والكلب فلتتصور الشمبانزي يوما ما يسيطر على العالم ويطلب حقوقا متساوية كما في كوكب القردة لبيريول Pierre boule .

وأخيرا يهتم المؤلف الفصل الأخير من كتابه قائلا إنها كلها تحديات واحلام غير مشروك في

انفصال الإنسان عن القرود العليا ، طالما انه وصف الانسان بأنه صائد جامع .

ثانيا : نظرا لقصر المدة التي امضاها المؤلف في دراسة سلوك تلك الحيوانات فإنه لم يستطع ان يمدنا بصورة متكاملة عن حياتها ، بالإضافة الى الأسلوب الوصفي الشاعري الذي اتبعه في وصفها فجاءت الفصول الستة الأولى من الكتاب اقرب الى ادب الرحلات منها الى الدراسات العلمية المتعمقة ، بالإضافة الى انه لم يقدم العديد من النواحي التشريرية التي يتشابه فيها الانسان مع تلك الحيوانات ، وإنما تناولها بصورة سطحية عرضية في ثنايا الكتاب .

ثالثا : لم يستطع المؤلف ان يقدم لنا تحليلا قويا لشبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة داخل العائلة البشرية ، وإنما اقتصر على وصف

العلاقات السطحية التي تنشأ بين افراد العائلة كعلاقة الأم بالطفل ، والأب بالأم ، فلم يتناول علاقة الطفل بأقاربه وبأصدقائه ، وكذلك علاقة الأب أو الأم بالجيران الاقارب والاصدقاء ، ولعلاقتهم كذلك بالوحدات الاجتماعية الأكبر كالعشيرة والقرية والقبيلة والمجتمع ككل ، وربما يمكن ان نعزو هذا الى انه عالم حيوان وليس متخصصا في الاثنروبولوجيا ولا غيرها من العلوم التي تهتم بالانسان والمجتمع .

ومع ذلك فقد استطاع المؤلف ان يتناول العديد من المشاكل الاجتماعية والسيكولوجية والسياسية التي يعاني منها الجنس البشري ككل واضعا لها بعض الحلول التي تدل على سعة اطلاعه والملمه بالعديد من افرع العلم الاخرى التي تبعد عن مجال تخصصه واهتمامه .



العدد التالي من المجلة

العدد الثالث - المجلد الثالث عشر

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن

الفكاهة والضحك

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

